الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية

الجزء الأول

فرنان برودل

ترجمة: د. مصطفى ماهر

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع

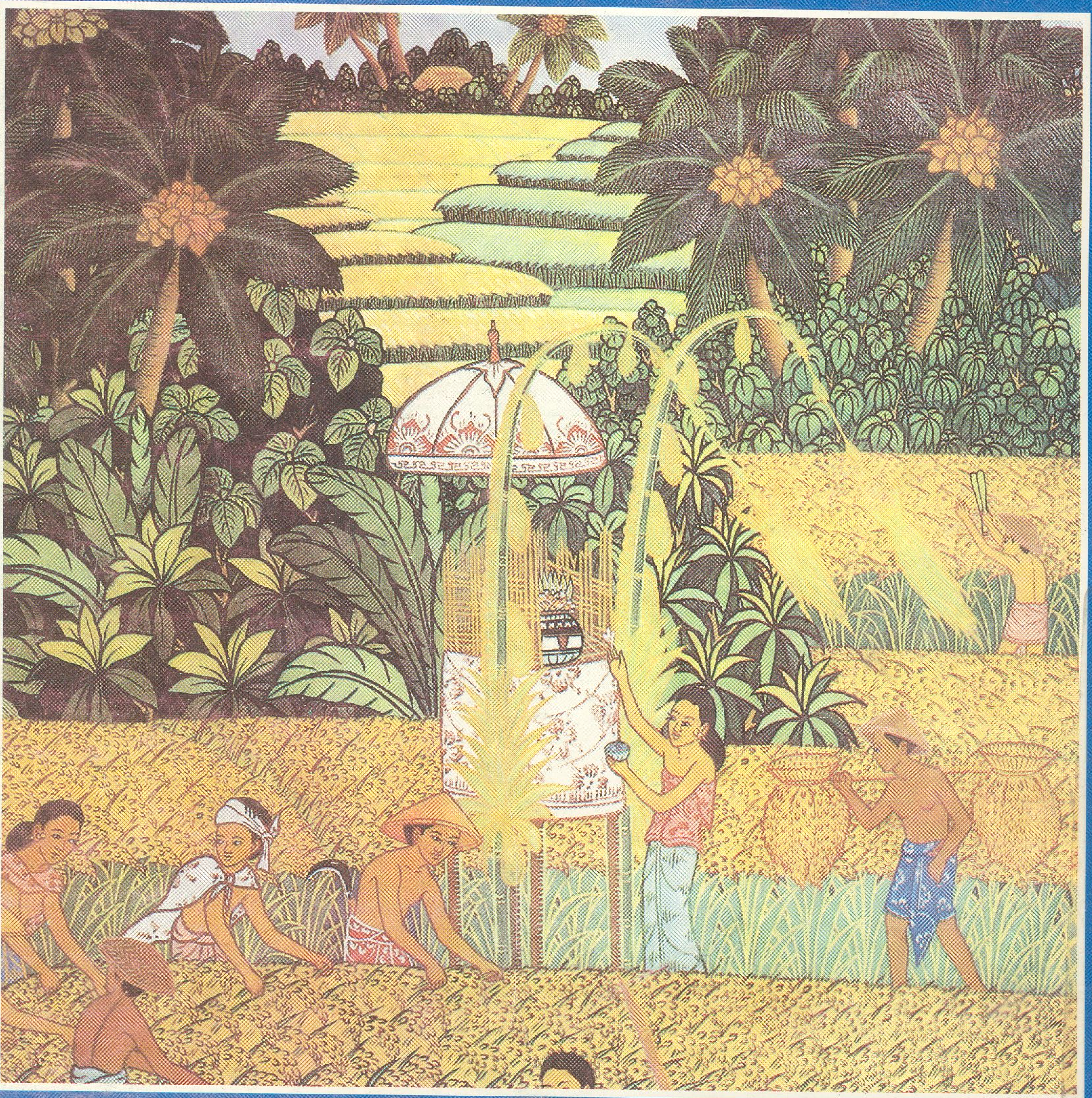

الحضارة المادية
والاقتصاد والرأسمالية

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

اهرة: ش هشام لبيب - رقم ٢٥/ ١٢
دينة نصر - المنطقة الثامنة

. تليفون: ٢٧٣٥٠٧٤

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة

الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية

من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر

الجزء الأول

الحياة اليومية وبنياتها
الممكن والمستحيل

فرنان برودل   ترجمة: د. مصطفى ماهر

ترجمة كتاب

Fernand Braudel
de l'Académie française

Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siè

tome 1

LES STRUCTURES DU QUOTIDIEN : LE POSSIBLE ET L'IMPOSSIBLE

Armand Colin
ISBN 2-200-37100-4

مقدمة المترجم

ليس من شك في أن هذا الكتاب الموسوعي بمجلداته الثلاثة من أهم الكتب التي ظهرت في فرنسا في القرن العشرين ، وليس غريبا أن يترجم الى كثير من اللغات (وجدير بالذكر أن مؤلفات برودل كلها ترجمت الى الألمانية ، ونشرت في طبعات مختلفة) ، وليس غريبا أن يقبل عليه المفكرون في ربوع العالم المختلفة ، موافقين على أفكاره كلها أو جلها ، أو رافضين لطائفة منها ، قلت أو كثرت ، خارجين على أية حال بأفكار ومناهج ودراسات متجددة . وقد سعدت بترجمة هذا المجلد ، التي أرجو أن أتبعها بترجمة للمجلد الثاني والثالث انشاء الله ، بل انني سعدت بالصعاب التي لقيتها . وما كانت الا كثيرة عسيرة . لأنها أتاحت لي متعة ذهنية متجددة ، وكان حماسي له كفيلا بمنحي القوة والصبر والمثابرة . وانما تحمست لهذا الكتاب حماسا فائقا للمألوف لأنني شغلت، منذ سنوات طوال ، بموضوعات شبيهة بموضوعاته . ولقد عشت مع فرنان برودل في عالمه الفكري ، واندمجت فيه كل الاندماج ، وسعيت أخلص السعي الى تتبع أفكاره وترابطاتها ، حتى ظننت أنني فهمته وأحببته ، فحاورته محاورة خلاقة ، كانت هذه الترجمة ثمرتها . وبرودل يدعم كتابه بكم ضخم من البيانات الموثقة لا مجال للجدال فيها ، ويعرض توجهات وتفسيرات يعرف المؤلف مسبقا أن الجدال حولها سيقوم وسيستمر، وسيكون فيه خير العلم، فما تنشأ الأفكار الجديدة الا من الأخذ والرد . ثم هو يسلك في اختيار موضوعاته وشواهده وتفضيلاته وأولياته مسلكا يتفق مع فلسفته ومناهجه وأهدافه .

ولد فرنان برودل في عام ١٩٠٢ في منطقة الميز la Meuse شمال شرق فرنسا ، قرب الحدود البلجيكية ، وتوفي في عام ١٩٨٥. نعرف عن حياته أنه وقع في الأسر إبان الحرب العالمية الثانية ، وأنه أتم في معسكر الأسر في لوبيك شمال ألمانيا رسالة الدكتوراه التي درس فيها البحر المتوسط وعالمه ، وهي رسالة ضخمة وضع فيها أساس فلسفته ومناهجه ، وتخطيط مدرسته في التاريخ . فلما وضعت الحرب أوزارها تقدم بها الى الجامعة ، ونال درجة الدكتوراه في عام ١٩٤٧. وكان قد شارك مارك بلوك Marc Bloch ولوسيان

فيفر Lucien Febvre منذ عام ١٩٤٦ (وحتى وفاته) في تحرير مجلة " الحوليات " Annales ، وعمل أستاذا في الكوليج دي فرانس College de France من عام ١٩٤٩ الى عام ١٩٥٦ ، ثم تولى عمادة القسم السادس من مدرسة الدراسات العليا École Pratique des Hautes E'tudes، وفي عام ١٩٦٢ شغل منصب مدير دار علوم الانسان Maison des Sciences de l`Homme . واختير قبيل وفاته في عام ١٩٨٥ عضوا في الأكاديمية الفرنسية قديراً لريادته في مجال البحوث التاريخية الحديثة . ويعتبر فرنان برودل من أبرز المؤرخين الفرنسيين المعاصرين ، وصاحب مدرسة في التاريخ ، اتسم منهاجه بسمة واضحة ، أصفُها بالتكاملية ، تسعى إلى النظر الى التاريخ نظرة تجمع شتات الحياة في العصور التي يَتناولها ، فلا هي تقتصر على الملوك والممالك ، والقادة والحروب، وأصحاب القوة والهيمنة ، ولا هي تكتفي بالإحاطة بأحوال الفقراء والكادحين ، بل هي تحيط بطوائف المجتمع المختلفة ، وحياتهم اليومية ، وهمومهم الكبيرة الصغيرة . وكأنما أراد للتاريخ أن يبدأ من البداية الحقيقية ، فيكون تاريخ بشر بقدر ما يكون تاريخ دول . وهو يعتمد على العلوم التي يمكن أن ينتفع منها هذا الفهم الواسع للتاريخ ، فيعتمد على الجغرافيا وعلى الاقتصاد خاصة ، ويضم اليه التاريخ المتخصص ، وبخاصة تاريخ الفنون وتاريخ التقنية وتاريخ الطب ..

وقد بدأ برودل حياته العلمية مؤمنا بضرورة الأخذ بالموضوعية في التاريخ ، وسعى إلى تحقيق هذه الموضوعية ، ولكنه ما لبث أن أدرك أن الموضوعية تنتهي في علم التاريخ عند حد بعينه ، تبدأ عنده الذاتية . فالمؤرخ لا يجمع معلومات وبيانات ، يعرضها كما يعرض علماء الرياضة أرقامهم ، بل هو يفسر ويشرح ويحكم ويقيم . وهكذا يجد المؤرخ نفسه بين مجالين ، مجال الموضوعية أولا، ومجال الذاتية بعد ذلك ، وعليه ألا يخلط بينهما ، وأن يوفي كلا منهما حقه.

كذلك حاول برودل أن يحقق الموضوعية ، بأن يطرح موضوحه للدرس خالصا ، دون أن يلتزم منذ البداية بنظرية يكون عليه التقيد بها ، وكان الرأي عنده أن مثل هذا السعي كفيل بتحقيق قدر أوفى من الموضعية ، جدير بأن يُمكِّن من الحكم الصائب . ولكنه ما لبث أن أدرك أن البيانات التي يجمعها الباحث سرعان ما تنطق بما بينها من روابط ، ثم تفرض عليه خطاً بعينه ، يلوح له واضحا ، ثم ملزما ، فلا يستطيع الفكاك منه . وبدلا من أن تأتي النتيجة في نهاية البحث والدرس ، تبدأ علاماتها في الظهور شيئا فشيئا ، وكأنها تلعب ، وقد تبدت من قبل ، دور الموجِّه لتخطيط البحث . وقد بدأ برودل مؤرخا مختصا بتاريخ الغرب خاصة ، ونشر في عام ١٩٤٩ كتابه عن البحر المتوسط وعالمه في عصر الملك فيليب الثاني (القرن السادس عشر) وهو كتاب ظهر فيه اهتمامه بالاقتصاد من حيث هو أساس أولي تقوم عليه الحياة الانسانية في تطورها ، وتقوم عليه العلاقات

بين المجتمعات والممالك . كذلك اهتم فرنان برودل بالهوية الفرنسية أو الشخصية الفرنسية أو الطابع الفرنسي في كتابه " هوية فرنسا .. الناس والأشياء " الذي يتحمس فيه لفرنسا حماسا مشروعا ، وإن اعتذر عنه اعتذارا بلاغيا ، فهو شديد الحرص على تأكيد دور فرنسا الحضاري ، وهو يبحث في غير كلل أو ملل عن العلاقة بين هذا الدور والمؤثرات المختلفة وبخاصة الموقع الجغرافي . ومن الممكن أن نقارن بين هذا الكتاب ـ وهو موسوعي أيضا في ثلاثة مجلدات ـ وكتابنا الذي يتناول فيه في المقام الأول حضارة الغرب ، وحضارة العالم بعد ذلك ، من حيث هي الإطار العام .

جدد فرنان برودل في البحث التاريخي في مجالات أخرى ، فجعله تكامليا ، واهتم بتحديد مدقق للبدايات الأولى ، مثل المكان ، والعدد ، وأعاد الحسابات ، وفسرها من منطلق النسبية : فليس القليل والكثير في عرفنا الآن هما القليل والكثير في كل عصر من العصور الماضية . وهكذا تحدث عن لقمة العيش والسكن والملبس والنقل في البر وفي البحر . وكان هذا التاريخ الذي دعا اليه هو ما يسمى بالتاريخ الصغير . ولقد حاول برودل في هذا كله أن يتيح للماضي أن يمثُل حياً أمام عيوننا ، فلجأ الى قصص الرحالة ، وتقارير البحارة ، وتعليقات التجار والصحفيين والأدباء وكثير من الأوراق التي كانت تستخدم في الشهر العقاري والأسواق ، وتفحص اللوحات والرسوم . وقد برع في ذلك براعة كبيرة ما في ذلك شك .

ويتميز أسلوب فرنان برودل بسمات خاصة ، فهو يجمع بين الدقة الموضوعية ، والتنميق الفني، وهو يلقاك بعبارة موجزة حينا ، غامضة أحيانا ، شديدة الغموض في أحيان ليست بالقليلة ، ويحلو له أن يستخدم كلمات وعبارات لها مدلولات رمزية ، أو تنضوي على استعارة أو كناية ، ويأتيك بنصوص من عصور مختلفة ، بأقلام مختلفة ، ويرجع إلى مراجع بلغات كثيرة أبرزها الألمانية والإيطالية والإنجليزية . وربما كان ذلك التنوع ، بالإضافة الى موضوع الكتاب ، سببا في الوضع الخاص لمشكلة الأسماء الأعلام التي تفرنسها اللغة الفرنسية ، وقد حرصت في الترجمة على رد أسماء الأعلام ، أشخاصا وأماكن إلى لغاتها الأصلية ، قدر الإمكان ، وأن أجعلها وسطا بين أصلها ومتطلبات النطق العربي الحديث ، إلا أن تكون لها مقابلات متفق عليها.

وإذا كان فرنان برودل قد برع في صنع عالمه الفكري ، بمناهجه ، ونظرياته ، فإنه برع على نحو أعظم في طرح موضوعات كثيرة هامة على مائدة البحث ، وحفز القاريء المتأني على تتبعها ونقدها ، وتعميقها ، وتدعيمها ، وتنويعها ، واستكمال ما يتطلب الاستكمال، ومعارضة ما يستحق المعارضة . وقد سجلت في أثناء الترجمة تعليقات كثيرة على نقاط عديدة أختلف فيها في الرأي مع برودل ، وخطر لي في البداية أن أضمها إلى الترجمة ، ثم فضلت في النهاية أن أقدم الكتاب إلى القاريء بغير شروح وتعليقات

اضافية ، إلا ما أدخلته في النص من توضيح واجب . ولو أني أطلقت لقلمي العنان، لاجتمع لي من تعليقاتي وشروحي كتاب آخر ، مواز للكتاب المترجم . وقد يتاح لى أن أنشر شيئا من هذا يوما ما . قد لا أرتاح الى بعض التعميمات التي يلجأ اليها برودل . ولكن العمل الموسوعي شاق ، ولا يقوم به عادة إلا جمع من الباحثين . وقبل برودل التحدي، كما ذكر في مقدمته ، و بذل جهدا كبيرا ليجمع مادة الكتاب ، بالقراءة ، والاتصال الشخصي ، واعتمد على مساعدين من المتخصصين ومن الفنيين ، حتى تمكن بمعرفته الواسعة ، ومناهجه الرصينة من القيام برحلاته البعيدة الكثيرة في المكان والزمان ، يجول في ربوع العالم القديم ، وتاريخه الطويل باقتدار لا ريب فيه . والحق أن تلك الفترة التي يدور حولها الكتاب ، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، فترة صعبة في التاريخ العربي والإسلامي ، وهي في الوقت نفسه فترة الانطلاق في العالم الغربي خاصة .

وسيلاحظ القاريء أن كتاب فرنان برودل ليس كتابا سهلا يطالعه الإنسان بغير إعداد ، بل يحتاج على الأقل إلى الإحاطة بتاريخ العالم وجغرافيته ، ثم هو يوشك أن يكون كتابا للمتخصصين ، وللقراء المحبين للتعمق . وأرجو أن يأتي اليوم الذي نقرأ فيه عن تاريخنا، ومن منطلقاتنا ، دراسات من هذا النوع ، تنطبع بطابعنا وفكرنا ومناهجنا ، فليست الترجمة وسيلة للنقل عن الآخرين فحسب ، بل هي في المقام الأول وسيلة الالتقاء الثقافي. وانما يكون الالتقاء الثقافي محققا للهدف ، عندما يحدث تفاعلا مثمرا ، يحفز على الجديد والتجديد .

دكتور مصطفى ماهر
القاهرة في فبراير ١٩٩٢

تمهيد

عندما عهد الى لوسيان فيفر Lucien Febvre في عام ١٩٥٢ بتأليف هذا الكتاب ضمن سلسلة كتب " أقدار العالم " Destins du Monde التي كان قد أنشأها لتوه لم أكن يقينا أتخيل أبعاد المغامرة اللانهائية التي أخذت على عاتقي القيام بها . كان الهدف الذي تصورته في البداية يتلخص أساسا في عرض الأعمال التي تناولت بالدراسة تاريخ أوروبا الاقتصادي في الفترة التي سبقت دخولها عصر الصناعة . وبدأت العمل على هذا الأساس . ولكنني كثيرا ما أحسست، أثناء قيامي بالبحث والتمحيص ، بالحاجة إلى الرجوع إلى المصادر ، وأعترف ، أنني ظللت رغما عن ذلك أشعر بالحيرة وأنا أنظر عن كثب إلى تلك الوقائع التي توصف بأنها اقتصادية في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. وإنما كنت أشعر بهذه الحيرة لأنني وجدت أن هذه الوقائع لم تكن تتفق اطلاقا ، أو لم تكن تتفق إلا على نحو سيء مع النظريات الكلاسيكية التقليدية المتداولة بين الاقتصاديين ، سواء منها نظرية ڤرنر زومبارت Werner Sombart (١٩٠٢) المدعمة بكم هائل من الأدلة والبراهين أو نظرية يوزف كوليشر Joseph Ku-lischer (١٩٢٨) أو نظريات أولئك الاقتصاديين الذين يعتبرون الاقتصاد واقعا متجانسا قائما بذاته ، ويرون أنه من المشروع أن ينتزع هذا الواقع من الإطارات التي تحيط به انتزاعا ، وأنه من الممكن قياسه كما هو في حد ذاته ، وترجمته إلى أرقام ، فليس هناك شيء يمكن إدراكه الا في صورة أرقام . ولا بد أن نلاحظ كذلك أن طرح موضوع نمو أوروبا قبل دخولها عصر الصناعة على مائدة البحث ليس شيئا بديهيا إذا أخذناه هكذا وحده ، وسلخناه عن العالم كما لوكان العالم غير موجود . إن طرح الموضوع على هذا النحو يثير الكثير من التساؤلات . والحق أن نمو أوروبا قبل عصرالصناعة يعني دخولها المتدرج في الأنماط العقلانية للسوق والمشروع والاستثمار الرأسمالي إلى أن يهل هلال الثورة الصناعية التي شطرت تاريخ البشر إلى شطرين .

وليس من شك في أن الواقع القابل للملاحظة كان قبل القرن التاسع عشر أكثر تعقيدا وتشعبا بكثير منه بعد ذلك . الا انه من البديهي أن الإنسان يستطيع ، على الرغم من

هذا التعقيد والتشعب ، أن يتتبع في تلك الفترة مسار تطور بعينه أو مسارات لعدة تطورات قد تتعارض فيما بينها ، وقد تتضافر، وقد يناقض بعضها بعضا. والانسان وهو يقوم بهذا النوع من الدراسة والملاحظة يتبين أن الاقتصاد ليس على شكل واحد ، وانما يتخذ الاقتصاد أشكالا متعددة . ولكن الشكل الذي آثره الباحثون بالوصف هو اقتصاد السوق ، فقد وصفوا آليات الإنتاج والتبادل مرتبطة بالأنشطة التي تتصل في الريف وفي دكاكين الحرفيين والورش والمحلات والبورصات والبنوك والأسواق الموسمية والأسواق العامة . واستنادا إلى هذه الوقائع الواضحة ، الجلية ، بل " الشفافة " ، والى العمليات التي تحرك هذه الوقائع ، والتي من السهل الاحاطة بها ، تكونت نواة علم الاقتصاد أو كما يقال في مجال اللغة واللغويات : بدأ الخطاب البناء لعلم الاقتصاد . ومعنى هذا أن علم الاقتصاد حصر نفسه منذ البداية في مجال بعينه ، ميزه وآثره على ماعداه من المجالات الأخرى .

إلا أن هناك منطقة تمتد من تحت السوق ، تكتنفها الظلمة الصفيقة، كثيرا ما صعب على الباحثين ملاحظتها لعدم وجود وثائق تاريخية كافية يستندون إليها ، هذه المنطقة تشمل النشاط الأولي الأساسي الذي نلتقي به في كل مكان ، والذي يبلغ كَمُّهُ حجما لا يوصف بأقل من أنه كم هائل . هذه المنطقة الكثيفة التي تحتل من البناء ـ اذا جاز لنا هذا التشبيه ـ الدور الأرضي أسميتها " الحياة المادية " أو " الحضارة المادية " ، لأنني لم أجد تسمية أفضل . وهذا التعبير الذي استخدمته تعبير غامض غموضا لا مراء فيه . واذا حظيت آرائي التي ذهبت إليها هنا في معرض دراستي للماضي برضاء عدد من الاقتصاديين مثلما حظيت به آرائي التي أبديتها في معرض دراستي للحاضر ـ على ما يبدو ـ فإنني أتصور أنهم سيجدون ذات يوم تسمية أنسب وأوفق لوصف هذا الاقتصاد التحتي ، أو الاقتصاد الأساسي infra - économie ، أو هذا الشطر الآخر غير التقليدي من النشاط الاقتصادي الذي يضم مجالات الاكتفاء الذاتي ومقايضة المنتجات والخدمات في دائرة صغيرة جدا .

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن هناك بعض الشرائح الاجتماعية النشيطة (لا تعمل في الطابق السفلي للبناء) وانما تبرز وترتفع من فوق سطح الأسواق الواسع الفسيح : حيث تقوم بتزييف التبادل لصالحها ، وتحدث زعزعة في النظام القائم ، وتخلق ـ عن عمد تارة ، وربما عن غير عمد وتقدير واضح تارة أخرى ـ أوضاعا شاذة ، وحالات من الاضطراب والفوران ، وتتبع في إنجاز صفقاتها سبلا خاصة بالغة الخصوصية. لنتصور هذه المنطقة كدور علوي في البناء الذي تخيلناه منذ حين . في هذا الدور كان بعض التجار الكبار في أمستردام في القرن الثامن عشر، أو في جنوة في القرن السادس عشر ، يستطيعون من بعيد أن يحدثوا زعزعة في قطاعات كاملة من الاقتصاد الأوروبي ، بل من الاقتصاد

العالمي . فقد عرفت جماعات من الشطار المحظوظين سبيلها إلى ممارسة نشاطها في دوائر وحسابات يجهلها عامة الناس . فعملية التحويل change مثلا عندما تكون مرتبطة بضروب التجارة البعيدة وعمليات الائتمان المعقدة تصبح فنا معقدا لا يعرف أسراره إلا بعض المحظوظين على أكثر تقدير . هذا الدور العلوي أو هذه المنطقة التي تحتلها تلك الشرائح الاجتماعية هي منطقة غموض صفيقة ثانية تتخذ مكانها فوق منطقة المقومات الواضحة لاقتصاد السوق ، وهي تمثل على نحو ما الحد الأعلى لاقتصاد السوق، وتمثل من وجهة نظري ـ على نحو ما سنرى ـ مجال الرأسمالية الأثير . فالرأسمالية لا يمكن أن نتصورها بغير هذه المنطقة التي تقيم فيها وتنمو وتترعرع .

هذا الهيكل الثلاثي ، أو التقسيم إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث مناطق، ارتسم شيئاً فشيئاً أمام ناظري عندما أخذت العناصر ، التي تفتقت عنها الدراسة والملاحظة ، تترتب فوق مائدة البحث على نحو يوشك أن يكون تلقائيا ، وأغلب الظن أن هذا التقسيم سيكون أكثر شيء في كتابنا يجادل فيه القراء . وكيف لا يجادلون فيه وهو ينتهي إلى التمييز الواضح المفرط الوضوح بين اقتصاد السوق والرأسمالية ، بل إلى وضعهما على طرفي نقيض ؟ وأنا نفسي لم أقبل هذه الرؤية لا متسرعا ولا بغير تردد . ولكنني انتهيت إلى القبول بأن اقتصاد السوق كان من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، بل قبل ذلك بكثير ، نظاما قهريا مثله كمثل كل نظام قهري (اجتماعيا كان او سياسيا أو ثقافيا) قد خلق ونمى اتجاهات معارضة وقوى مضادة ، منها ما يتجه الى أعلى ومنها ما يتجه لأسفل.

وانما ثبّتني على رأيي أنني أدركت بشيء من السرعة والوضوح أن هذا التقسيم نفسه يتيح لي فهم هياكل المجتمعات الحالية وما يتصل فيها من آليات . فاقتصاد السوق يحرك فيها دائما كتلة التبادلات التي تضبطها احصائياتنا . ولكن المنافسة ، التي هي السمة المميزة لاقتصاد السوق ، بعيدة عن السيطرة على الاقتصاد الحالي كله ، وهل هناك من ينكر هذا ؟ فهناك اليوم ، كما كان هناك في الماضي عالم متفرد ، تقيم فيه رأسمالية استثنائية ، هي في نظري الرأسمالية " الحقيقية " ، رأسمالية تتسم دائما بأنها متعددة الجنسيات ، قريبة من شركات الهند والاحتكارات المختلفة الأحجام والمقاسات ، سواء منها ما هو احتكار حقا وقانونا أو ما هو احتكار بالفعل ، تلك الاحتكارات التي كانت موجودة فيما مضى، والتي تناظر من ناحية المبدأ احتكارات أيامنا هذه . أليس للإنسان الحق في أن يقول إن شركات آل فوجار Fugger وآل ڤيلزر Welser كانت تتجاوز حدود الجنسية الواحدة transnational كما يقولون في هذه الأيام لأنها ـ وهي ألمانية ومتمركزة في ألمانيا ـ كانت مهتمة بأوروبا كلها ، وكان لها ممثلون في الهند وفي أمريكا الأسبانية في آن واحد؟ ثم ألم تكن أعمال چاك كور Jacques Coeur (١٣٩٥ـ ١٤٥٦) في القرن

السابق ـ أعني في القرن الخامس عشر ـ تتخذ أبعادا مناظرة ، حيث كانت تمتد من الأراضي الواطئة أو هولنده إلى بلاد المشرق ؟

ولكن ضروب التناظر تمتد إلى آفاق أبعد من ذلك ، فقد حدث في أعقاب الكساد الاقتصادي الذي تلا أزمة ١٩٧٣ـ ١٩٧٤أن تزايد نمط اقتصادي ـ قيل عنه إنه حديث ـ هو الاقتصاد خارج نطاق السوق : وهو نظام مقايضة ، لا يكاد يكون من الممكن تسميته بغير ذلك ، ونظام تبادل للخدمات تبادلا مباشرا بدون عملة، أطلق عليه اسم " العمل على طريقة السوق السوداء " ، تدخل فيه أيضا أشكال كثيرة من الأعمال التي تنتج في البيوت ، وأعمال الهواة غير المحترفين . هذه الطائفة الكبيرة من الأنشطة التي تتم من تحت السوق ، أو بعيدا عن السوق ، زادت زيادةً جعلتها جديرة بأن تشد انتباه بعض الاقتصاديين : ألا تمثل على الأقل ما بين ٣٠ و ٤٠ ٪ من الناتج القومي ؟ وألا تفلت هذه النسبة من الاحصائيات حتى في البلاد الصناعية ؟

وهكذا " أصبح " التقسيم الثلاثي بمثابة تخطيط لهذا الكتاب الذي كنت منذ البداية قد صممت على أن أنشئه على هامش النظرية أي على هامش كل النظريات ، وأن أسير فيه على هدي الملاحظة الملموسة وحدها والتاريخ المقارن وحده . وإنما يكون التاريخ مقارنا من خلال الزمن ، وبحسب اللغة التي لم تخذلني قط ، وأعني بها لغة أو مفهوم المدة الطويلة والجدلية التي تجمع الحاضر والمستقبل ؛ ويكون مقارنا من خلال المكان ، الذي وسَّعته ما استطعت الى ذلك سبيلا ، نظرا لأن الدراسة التي عكفت عليها امتدت ، بقدر ما أتيح لي ، الى العالم كله ، أو قامت على مستوى العالم . أيا كان الأمر فان الملاحظة الملموسة ظلت تحتل المقام الأول . وكان شغلي الشاغل من البداية إلى النهاية هو أن أري وأشاهد ، وأن أجعل الآخرين يرون ويشاهدون ، وأن أحتفظ للمشاهد بكثافتها وتعقيدها وتباينها ، فتلك سمات الحياة نفسها. ولو استطاع الإنسان أن يدس المشرط في الجسم الحي، وأن يفصل الأقسام أو الأدوار الثلاثة بعضها عن البعض الأخر (والرأي عندي أن هذا التقسيم الثلاثي تقسيم وتصنيف مفيد حقا) فإن التاريخ سيصبح على هذا الأساس علما موضوعيا ، وليس هناك دليل واضح كل الوضوح يشهد على أن التاريخ الآن ، كما نعرفه ، علم موضوعي .

والمجلدات الثلاثة التي يتكون منها الكتاب تحمل العناوين التالية :

١) مقومات الحياة اليومية وبنياتها : الممكن والمستحيل

٢) التبادل و عملياته

٣) العالم والزمان

والمجلد الثالث هو دراسة متتابعة زمنيا لأنماط الاقتصاد العالمي وأولوياته المتعاقبة. إنه باختصار تاريخ . أما المجلدان الأول والثاني فليسا في سهولة المجلد الثالث لأنهما

ضحيا بالبساطة والسهولة إلى حد كبير من أجل البحث الساعي إلي التنميط أو إلى تحديد الأنماط . والمجلد الأول (الذي ظهر في عام ١٩٦٧) يمثل ما يمكن أن نصفه " بوضع العالم في الميزان " على حد تعبير بيير شونو Pierre Chaunu من أجل التعرف على حدود الممكن في عالم ما قبل عصر الصناعة . من بين هذه الحدود نذكر المكان ، المكان الهائل الذي تحتله " الحياة المادية ". أما المجلد الثاني وهو : " التبادل وعملياته " فيقيم مواجهة بين الاقتصاد من حيث هو اقتصاد السوق والنشاط الذي تمارسه الرأسمالية من موقعها العالي ، وكان من الضروري تمييز هاتين المنطقتين اللتين تعتبران علويتين بالقياس إلى منطقة الحياة المادية دونهما ، منطقة الاقتصاد ، اقتصاد السوق ، والمنطقة العلوية التي تمارس فيها الرأسمالية نشاطها ، لكي نشرحهما الواحدة بالأخرى قياسا على ما كان يحدث بينهما من امتزاج ومن تعارض .

هل استطعت أن أقنع الجميع بوجهة نظري؟ يقيناً ، لا . ولكنني على الأقل وجدت أن هذه اللعبة الجدلية بأقسامها الثلاثة تمتاز بميزة لا تعادلها ميزة أخرى : إنها تفسح طريقا جديدا ينعم نوعا ما بالهدوء يمكّن من تجاوز وتحاشي المشاحنات البالغة الحدة التي تثيرها كلمة الرأسمالية التي تتسم دائما بأنها متفجرة . يضاف إلى هذا أن المجلد الثالث أفاد من الشروح والمناقشات التي سبقته في المجلدين الأول والثاني : فليس فيه ما يصدم أحداً .

والخلاصة انني بدلا من أؤلف كتابا واحدا ، ألفت بالفعل ثلاثة كتب . وقد دفعني تصميمي على أن أضفي على الكتاب صبغة عالمية الى التصدي لمهام لم أكن ، باعتباري مؤرخا للغرب ، مهيئا لها أو على الأقل لم أكن مهيئا لها إلا على نحو سيء . ولكنني انتفعت انتفاعا كبيرا من الإقامة وطلب العلم لفترات طويلة في بعض بلاد الإسلام (١٠ سنوات في الجزائر) وأمريكا (٤ سنوات في البرازيل) . أما اليابان فلم أره إلا من خلال سيرج إليسيف Serge Elisseeff وشروحه ودروسه الخاصة ؛ وأما الصين فالفضل فيما أعرفه عنها يرجع إلى إتيين بالاس Étienne Balasz وجاك جيرنيه Jacques Gernet ودينى لومبار Denys Lombard متعاونين . وأخذ دانييل تورن Daniel Thorner بيدي في كرم بالغ وحماس لا يلين ، وهو رجل له القدرة على أن يجعل من كل إنسان تتوفر لديه النية الطيبة عالما مبتدئا في الهنديات . وكان يوافيني في الصباح الباكر حاملا معه الخبز الفينو الطويل «الباجيت» وشطائر " الكرواسان " لطعام الإفطار وحاملا معه في الوقت نفسه الكتب التي ينبغي علي مطالعتها . وإنني لأضع اسمه على رأس القائمة الطويلة التي تضم أسماء أولئك الذين أدين لهم بالفضل ، وإنها لقائمة لا تنتهي إذا أردنا لها أن تكون كاملة . لقد ساعدني الجميع ، المستمعون والطلاب والزملاء والأصدقاء. ولا أستطيع أن أنسي العون الذي قدمه إلي ألبرتو Alberto وبرانسيلاڤا

تيننتي Branislava Tenenti وكأني بالأبناء يعينون أباهم ، ولا أنسي تعاون ميشيل كويل Michael Keul وچان چاك هيماردينكيه Jean-Jacques Hemardinquer. أما ماري تيريز لابينييت Marie-Therese Labignette فقد ساعدتني في البحوث الأرشيفية وفي الوصول إلى المراجع بالمكتبات . وأما آني دوشين Annie Duchesne فقد ساعدتني في الملحوظات ، وكان جهدها بغير حدود . وقامت چوزيان أوشوا Josiane Ochoa في صبر بكتابة الصياغات المتتالية التي بلغت نحو عشر صياغات، فقد كنتُ لا أكف عن التعديل . وتولت روزلين دي أيالا Roseline de Ayala ، الملحقة بدار أرمان كولان للنشر Armand Colin، في براعة ومثابرة ودقة أمور الطبع والتوضيب . أرجو أن تقبل هذه الجماعة التي عاونتني معاونة مباشرة خالص تعبيري عن الصداقة والامتنان . وختاما ، أذكر پوله برودل Paule Braudel التي شاركتني البحث يوما بعد يوم ، والتي لولاها لما وجدت الشجاعة التي كنت بحاجة اليها لأعيد صياغة المجلد الأول، ولأتم المجلدين التاليين ، وكان العمل فيهما عملا لا ينتهي إلى نهاية، ولأتحقق من استمرار الخط المنطقي اللازم ، وأطمئن إلى الوضوح الضروري ، ولأنجز الصياغة النهائية. لقد كان تأليف هذا الكتاب مهمة من المهام عملنا طويلا على إنجازها جنبا إلى جنب مرة أخرى.

١٦ مارس ١٩٧٩

استهلال

هأنذا أقف على عتبة الكتاب الأول أو المجلد الأول ، وهو أكثر المجلدات الثلاثة تعقيدا ، ولا يرجع هذا التعقيد إلى أن كل باب من أبواب الكتاب لا يمكن أن يبدو في حد ذاته سهلا يسيرا على القاريء ، وإنما يرجع بالضرورة إلى تعدد الأهداف ، وصعوبة استجلاء الموضوعات غير المألوفة ، التي ينبغي ضمها جميعا في نطاق تاريخ مترابط متماسك ، والتجميع الصعب لمواد تتجاوز حدود علم التاريخ ـ فهي مواد تتصل بالسكان، وبالغذاء ، والملبس ، والمسكن ، والتقنيات، والنقود، والمدن ـ وهي بطبيعتها مواد متفرقة لا تتصل بعضها بالبعض الآخر ، ولاترد في ضروب السرد التاريخي التقليدي الا على الهامش . ولكن ما هو الهدف من ضمها بعضها إلى البعض الآخر؟

إننا نسعى إلى ضمها معا لكي نحدد مجال عمل الاقتصاد بصوره المختلفة في الحقبة السابقة على عصر الثورة الصناعية ، ولكي نفهم هذا الاقتصاد بصوره المختلفة وبكل أبعاده . ولكن أليس هناك حد ، حد أعلى تقف عنده حياة الإنسان كلها ، ويحيط بها، شبيها بخط الحدود الإقليمي العريض ، زاد عرضه أو قل، حدٌ أعلى يصعب دائما الوصول إليه ، ناهيك عن عبوره وجاوزه؟ إنه الحد الذي يمتد في كل عصر من العصور، حتي في عصرنا الحالي نفسه ، بين الممكن والمستحيل ، بين ما يمكن بلوغه ـ ولا نقول بلوغه بغير جهد ـ وبين ما استحال على البشر بلوغه لأن طعامهم لم يكن كافيا ، ولأن عددهم كان ، اما أقل أو أكثر مما ينبغي (بالقياس إلى مواردهم) ، ولأن عملهم لم يكن منتجا بدرجة كافية ، ولأن ترويض الطبيعة لم يكن قد بدأ إلا لتوه. والملاحظ أن هذه الحدود لم تتغير مطلقا في الفترة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر، وأن البشر لم يفيدوا كل الإفادة من إمكاناتهم التي أتيحت لهم ، بل ساروا بخطى بطيئة وبليدة .

ولنركز اهتمامنا على هذا البطء وهذه البلادة . كانت وسائل المواصلات البرية ، على سبيل المثال ، تضم منذ وقت مبكر العناصر التي كان يمكن أن تؤدي إلى تحسينها وتطويرها والسير بها قدما على طريق الكمال . وقد حدثت بالفعل هنا وهناك زيادة في سرعات وسائل المواصلات ترجع إلى إنشاء الشوارع الحديثة ، وإلى تحسين العربات الناقلة

للبضائع والمسافرين ، وإلى ترتيب مراحل النقل بعربات الخيول التي سميت عربات البريد ، وإنشاء المحطات التي تقف فيها العربات للراحة وتغيير الخيول . ولكن هذا التطور بأوجهه المختلفة لم ينتشر ويصل إلى درجة التعميم الا حول عام ١٨٣٠ أي عشية ثورة السكك الحديدية . في ذلك الوقت ، وفي ذلك الوقت فقط ، بدأت وسائل النقل البري تتضاعف وتنتظم وتزداد سرعة وتصطبغ أيضا بصبغة ديموقراطية : كان ذلك الوقت هو الوقت الذي وصل فيه البشر إلى حدود الممكن . وليس هذا هو المجال الوحيد الذي شهد هذا التأخر، التأخر عن بلوغ الممكن. والحق أن خط الممكن والمستحيل الطويل لن يشهد منعطفا وتجديدا وثورة إلا مع مطلع القرن التاسع عشر، وحدوث الانقلاب الشامل الذي حل بالعالم كله.

ونستخلص من ذلك وحدةً معينة تنتظم كتابنا ، أو خطاً هو بمثابة رحلة طويلة في مدارج التيسيرات وسبل الراحة والعادات السهلة التي تغدقها علينا الحياة المعاصرة ، فكأننا نقوم في كتابنا برحلة تقودنا إلى كوكب آخر ، إلى دنيا أخرى. ومن المؤكد أننا نستطيع ، ونحن نقوم بهذه الرحلة ، أن نذهب إلى قرية فيرنيه Ferney التي عاش فيها ڤولتير في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وأن نزور ڤولتير Voltaire (١٦٩٤ـ ١٧٧٨) نفسه هناك ، ولا بأس بأن نسترسل في رحلة خيالية لن تكلفنا شيئا، فنتحدث معه حديثا طويلا دون أن نجد في الحديث أشياء غير مألوفة لنا تثير دهشتنا . فأهل القرن الثامن عشر على مستوى الأفكار معاصرون لنا ، ما تزال روحهم ، ومشاعرهم قريبة منا ، فلا نجد أنفسنا ، من هذه النواحي غرباء في القرن الثامن عشر . أما ، اذا خطر ببال ڤولتير أن يستضيفنا عنده بضعة أيام ، فسنجد غرابة أي غرابة في كل تفصيلات الحياة اليومية ، حتى في طريقة ڤولتير في العناية ببدنه ، سنجد مسافات هائلة تباعد بيننا : الإنارة بالليل ، التدفئة ، وسائل المواصلات ، أصناف الطعام ، الأمراض ، طرق العلاج ... ينبغي علينا أن نفصل أنفسنا فصلا نهائيا عن واقعنا هذا المحيط بنا ، لكي نقوم ـ كما ينبغي – بهذه الرحلة سابحين ضد تيار الزمن ، على عكس مسار القرون، ولكي نتبين مرة أخرى النظم والقواعد التي ظلت وقتا طويلا بالغ الطول تمسك العالم في نطاق استقرار ليس من اليسير تفسيره إذا تصورنا الطفرة الخارقة التي حدثت بعد ذلك .

ونحن عندما عكفنا على إعداد سجل للممكن ، صادفنا مرارا وتكرارا ما أسميته في المقدمة " الحياة المادية " . ذلك أن الممكن لا يتحدد فقط من أعلى ، وانما يتحدد أيضا من أسفل عن طريق " النصف الآخر" للإنتاج الذي يرفض الدخول دخولا كاملا في حركة التبادل . وهذه الحياة المادية التي تتصل في كل مكان ، والتي تغزو كل ركن ، والتي تتسم بالتكرار ، هذه الحياة المادية تَمْثُلُ أمامنا في قبضة الروتين : فقد ظل الناس

يبذرون القمح كما كانوا دائما يفعلون ، ويزرعون الذرة كما كانوا يزرعونها من قبل، ويسوون حقل الأرز كما كانوا يسوونه ، وظلوا يركبون البحر الأحمر كما كانوا دائما يركبونه ... كان الماضي حاضرا دائما ، حضورا عنيدا ، شرها ، يبتلع بطريقة رتيبة متواترة زمن البشر الهش . وهذه هي دائرة التاريخ الساكنة البليدة ترتسم هائلة : تضم في محيطها الحياة الريفية ، أي ما بين ٨٠ و ٩٠ ٪ من سكان الكرة لأرضية ، الغالبية العظمى لسكان الدنيا . ومن البديهي أن هناك صعوبة بالغة تكتنف التحديد الدقيق لاقتصاد السوق ، أين ينتهي بالضبط ، وأين يبدأ ، اقتصاد السوق الذي يتميز بالدهاء وسرعة الحركة . والشيء اليقيني هو أن اقتصاد السوق لا ينفصل عن الاقتصاد في مجموعه انفصال الزيت عن الماء . وليس من الممكن دائما أن نحدد على نحو حاسم قاطع ، ونحن نتابع ملاحظاتنا، اذا كان هذا الذي يقوم بدور رئيسي أو ذلك الذي يقوم بدور مساعد، أو إذا كان هذا العمل أو ذاك ، يقع في هذه الناحية أو في الناحية الأخرى من الحد الفاصل ، هل هو داخل اقتصاد السوق أو خارجه . والرأي عندي أن الحضارة المادية ينبغي عرضها ـ كما سأفعل في كتابي هذا ـ متزامنة مع " الحضارة الاقتصادية " ، إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير ، الحضارة الاقتصادية التي تواكبها، وتزعجها وتناقضها وتشرحها . أما أن هذا الحد الفاصل موجود فهو ما لا شك فيه .

ومن هنا فإننا نعرض سجلا مزدوجا يشمل ناحيتين ، الناحية الاقتصادية والناحية المادية ، سجلا يرسم صورة تطور استمر عددا من القرون ، ولقد كانت الحياة المادية بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر امتدادا لمجتمع قديم واقتصاد قديم ، تحولا ببطء شديد لايكاد يمكن الإحساس به ، وأنشأ شيئا فشيئا من فوقهما ـ بجهود نالت من النجاح ومن الفشل ما يمكننا أن نخمنه ـ مجتمعا عاليا تحملا بالضرورة أعباءه. ولقد كان هناك دائما تعايش بين العالي والمنخفض ، وكانت هناك تنويعات بلا نهاية بين حجم كل من العالي والمنخفض، أحدهما بالقياس إلى الآخر . والأدلة متوفرة بين أيدينا. ألم تكسب الحياة المادية في القرن السابع عشر في اوروبا نتيجة انكسار الاقتصاد ؟ والحياة المادية قد كسبت يقينا تحت سمعنا وبصرنا نتيجة الانحسار الاقتصادي الذي بدأ في عامي ١٩٧٣-١٩٧٤ . وهكذا فإن الدور الأرضي والدور الأول للمبنى يتعايشان من ناحيتي حد فاصل هو بطبيعته حد غير حازم جازم، فقد يتقدم الدور الأول، ويتأخر الدور الأرضي. واليك قريتي ، خذها مثلاً، هذه القرية التي عرفتها حق المعرفة ، كانت في عام ١٩٢٩ أو حوله تعيش في القرن السابع عشر أو الثامن عشر . فلم يكن لاقتصاد السوق قبل القرن الثامن عشر القوة التي تمكنه من أن يقبض في يمينه، ويعجن على هواه كتلة الاقتصاد التحتي infra - économie الذي كان يحتمي في كثير من الأحيان وراء البعد والعزلة . أما اليوم ، فإذا ألفينا قطاعا كبيرا واسعا خارج السوق ، خارج

" الاقتصاد "، فاثما اتخذ هذا القطاع مكانه ، على الأرجح ، نتيجة لإقصائه عمدا إلى هذا الموضع المنخفض ، لا نتيجة للإهمال أو لخلل في حركة التبادل التي تنظمها الدولة أو المجتمع . وأيا كان الأمر فما يمكن أن تكون النتيجة في الحالتين ، من أكثر من ناحية ، إلا متشابهة .

والتعايش بين العالي والمنخفض يفرض على المؤرخ جدلية تفسيرية توضيحية . كيف تفهم المدن بدون الأرياف ، النقود بدون المقايضة ، البؤس المدقع بدون الترف المفرط ، خبز الأغنياء الأبيض بدون خبز الفقراء المخلوط ...؟

بقي أن نبرر اختياراً عمدنا إليه : وليس هذا الاختيار الذي نعنيه أقل أو أكثر من اختيارنا إدخال الحياة اليومية في مجال التاريخ . هل كان هذا الاختيار مفيدا ؟ ضروريا ؟ إن مادة الحياة اليومية تتكون من وقائع صغيرة لا يكاد الإنسان يلحظها في الزمان والمكان . وأنت كلما ضيقت مكان الملاحظة ، زادت أمامك فرص النزول إلى صميم بيئة الحياة المادية : فالمألوف أن الدوائر الكبيرة تقابل التاريخ الكبير ، والتجارة البعيدة ، وشبكات الاقتصاد القومي أو الاقتصاد الحضري أي الاقتصاد على مستوى المدن. وإذا أنت ضيقت الزمان الذي تشمله الملاحظة إلى فترات صغيرة وجدت نفسك أمام شيء من اثنين: إما الحادثة الكبيرة وإما الواقعة المنوعة ؛ أما الحادثة الكبيرة فهي تريد أن تكون فريدة ، وتظن أنها كذلك ؛ وأما الواقعة من نوع الوقائع المنوعة فإنها اذ تتكرر تصبح في أثناء تكررها شيئا عاما أو تصبح : بِنْية . وهاهي ذي تغزو المجتمع على كل مستويات أدوار مبناه ، وتميز أساليب الحياة والتصرف والسلوك التي تستمر وتستمر دون حدود. وربما كفت بعض الحكايات الطريفة لكي يرى الإنسان مالم يره من قبل ، أو لكي يضيء نور الإنذار على لوحة التشغيل ، كما يقولون ، فيتنبه الإنسان إلى واقعة كادت تغيب عن انتباهه ، أو ليتبين نمطا من أنماط الحياة . فهناك رسم يظهر فيه الامبراطور النمساوي ماكسيميليان Maximilian يجلس إلى المائدة في عام لعله عام ١٥١٣ ، ونرى في الرسم يد الامبراطور منغمسة في داخل طبق بلا شوكة أو سكينة او ملعقة . وبعد قرنين من الزمان حكت الأميرة الألمانية شارلوته اليزابت المعروفة بكنية la Palatine أي ابنة منطقة البفالس - أن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (حكم فرنسا من ١٦٤٣ الى ١٧١٥) عندما سمح لأولاده بأن يجلسوا معه إلى المائدة لأول مرة ، منعهم من أن يأكلوا بطريقة أخرى غير طريقته ، ومن أن يستخدموا الشوكة التي كان معلمهم المتحمس حماسا مفرطا قد علمهم أن يستخدموها . فمتى إذن ابتدعت أوروبا آداب المائدة ؟ وأنا عندما أنظر إلى ثوب ياباني من القرن الخامس عشر أراه شبيها بثوب من القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فأحد الأسبان يحكي عن حديث جرى بينه وبين وجيه من وجهاء اليابان عبر له عن دهشته ، بل واستهجانه ، لما لاحظه من أن الأوروبيين الذي التقي بهم ، كانوا

في كل مرة يلبسون ملابس مختلفة ، وما كان يفصل اللقاء عن اللقاء سوى بضعة أعوام. إن جنون الموضة شيء أوروبي محض . فهل الشغف بالموضة شيء تافه لا نفع فيه؟ أجيب على هذ السؤال بالنفى . ثم إننا عندما نتابع الوقائع الصغيرة ، ومذكرات الرحالة ، يتكون أمامنا منها مجتمع له سماته ، ونتبين أن الطريقة التي كان الناس يتبعونها في مختلف أدوار بناء هذا المجتمع ، عندما يأكلون ويلبسون ويسكنون ، لم تكن قط بغير معنى أو بغير جدوى . أضف إلى هذا أن هذه الوقائع المنوعة ، هذه اللقطات الخاطفة ، تشهد كذلك ، عندما ننتقل بها من مجتمع إلى مجتمع آخر ، ونضعها موضع المقارنة ، على وجود ملامح مميزة ، ملامح تناقض وتباين ليست كلها سطحية. إن عملية تجميع العناصر والتفصيلات وإعادة تكوين الصور مرة أخرى : لعبة مسلية، لا أرى أنها بغير معنى وجدوى .

وهكذا سرت في عدة اتجاهات : الممكن والمستحيل ؛ الدور الأرضي والدور الأول ؛ صور الحياة اليومية . وكان هذا هو ما جعل هدف هذا الكتاب يتشعب ويتعقد منذ التخطيط له، وقبل أن يبدأ العمل فيه . والحق أن لدي في هذا المقام كلاما كثيرا لابد أن يقال. فكيف يقال ؟(١)

الباب الأول

أهميــــة العـــــدد

الحياة المادية عبارة نعني بها طائفة من الناس وطائفة من الأشياء ، أو طائفة من الأشياء وطائفة من الناس . ودراسة الأشياء تعني دراسة : الأطعمة والمساكن والملابس والترف والمعدات والأدوات والوسائل النقدية وأشكال القرى وأشكال المدن ، باختصار دراسة كل ما يستخدمه الإنسان. ولكن هذه الدراسة ليست هي الطريقة الوحيدة للإحاطة بأبعاد حياته اليومية أو وجوده اليومي . فمعرفة عدد الذين يقتسمون الثروات والأرض لها أيضا مغزاها . والعدد هو العلامة الظاهرية التي تميز، من الوهلة الأولى، عالم اليوم عن عوالم ما قبل عام ١٨٠٠ ، وما العدد هنا إلا ذلك العدد الكبير الذي بلغه البشر حيث زادوا زيادة خارقة للمألوف في الفترة الأخيرة ، وتشير أرقام عام ١٩٧٩ إلى أن التزايد اتخذ صورة هائلة . وإذا نحن نظرنا إلى الفترة الزمنية التي يعالجها كتابنا هذا وهي القرون الأربعة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وجدنا أن عدد سكان الكرة الأرضية قد زاد في أثنائها إلى الضعف ؛ أما في زماننا الحاضر فإن عدد سكان الكرة الأرضية يتضاعف مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة . والسبب واضح وهو : التقدم المادي. ولكن التقدم المادي الذي سبب زيادة أعداد البشر هو في الوقت نفسه نتيجة لهذه الزيادة.

أيا كان الأمر فإن العدد يمثل أمامنا كـ " مؤشر " ممتاز : فهو يبين بالأرقام ميزانية النجاح والفشل ؛ وهو يرسم بمفرده خطوط جغرافيا تمييزية للكرة الأرضية ، تبين على أساس الأرقام العلاقات ذات الأهمية الحاسمة بين الكتل البشرية : هنا القارات القليلة السكان ، هناك المناطق ذات الكثافة السكانية المفرطة ، هنا الحضارات ، هناك الثقافات التي ما زالت بدائية ؛ وهكذا فإن العدد يعتبر مؤشرا يبين العلاقات ذات الأهمية الحاسمة بين الكتل البشرية . والغريب أن هذه الجغرافيا التمييزية هي فرع الجغرافيا الذى يبدو أنه لم يتغير إلا قليلا على مر الزمن ، من الأمس إلى اليوم .

أما الذي تغير تغيرا كاملا فهو إيقاع زيادة الحياة ، زيادة أعداد البشر. يشهد هذا المجال في وقتنا الحاضر صعودا مستمرا ، قد يختلف في الشدة ، بحسب المجتمعات وأشكال الاقتصاد ، ولكنه مستمر . أما بالأمس ، في الماضي ، فكانت أعداد السكان تشهد أحيانا ألوانا من التزايد ، وتشهد في أحيان أخرى ألوانا من التناقص ، وكأنما كانت الحركة حركة مد وجذر ، وكانت هذه الحركة المتقلبة ، بمدها وجذرها هي رمز الحياة في الماضي ، التناقص والتزايد يعقب أحدهما الآخر ، على نحو تبادلي ، وكانت موجات التناقص تصر اصرارا عنيدا على القضاء المبرم على موجات التزايد ، وان لم تقض عليها نهائيا . وقياسا على هذا نرى أن هذه الحقائق الواقعة المتصلة بالبشر أنفسهم هي الحقائق الواقعة الأساسية ، وأن كل ما عداها يبدو ثانويا أو ما يوشك أن يكون ثانويا . ومن هنا فانه ينبغي علينا يقينا أن نبدأ بالبشر ، ثم يحين بعد ذلك حين الحديث عن الأشياء .

وارسو في عام ١٧٩٥ . توزيع الحساء على الفقراء بالقرب من عمود الملك زيجيسموند الثالث .

٢٢

سكـان العالـم :
أرقـام من الخيال

مازلنا الى اليوم نواجه مشكلة تتمثل في أننا لا نعرف عدد سكان الكرة الأرضية إلا على وجه التقريب ، حيث تصل نسبة التقريب الى ١٠ ٪ . أما معلوماتنا عن عدد سكان العالم في الماضي، فهي معلومات يعتورها قصور شديد . وتتضح أبعاد هذه المشكلة إذا ذكرنا أن كل شيء يتصل بالحقائق الواقعة على المستوى المحلي أو على المستوى العالمي ، وبالتغيرات في أعداد البشر ، يرتبط بالعدد سواء على المدى القصير أو المدى البعيد .

المد والانحسار :
نظام الموجات الصاعدة الهابطة

كان عدد السكان تارة يزيد وتارة ينقص في الحقبة الممتدة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر : وكان كل شيء يتغير نتيجة للزيادة والنقصان . فإذا زاد عدد البشر، زاد الإنتاج ، وزادت المبادلات ؛ وتقدمت الزراعة في الأرض البور والغابات والمستنقعات والأرض الجبلية الوعرة ؛ وحدث تقدم في الصناعات اليدوية ؛ وكبرت القرى، أكثر من المدن نفسها في كثير من الأحيان ؛ وزادت أعداد البشر الذين يتنقلون من مكان إلى مكان؛ وزادت ردود الفعل الإيجابية حيال الضغط الناجم عن زيادة السكان ، ذلك الضغط الذي يمكن تشبيهه بإنذار وحض على مواجهة المشكلة . ومن المؤكد أن زيادة السكان كان يواكبها أيضا فيض من الحروب والصراعات والقرصنة والسلب والنهب وقطع الطرق ؛ فتكبر الجيوش أو العصابات المسلحة ؛ وتصنع المجتمعات على نحو يفوق المألوف مزيدا من الأغنياء الجدد و أصحاب الامتيازات ؛ وتزدهر الدول ازدهارا يحمل البلاء كما يحمل الشفاء ؛ ويسهل الوصول إلى حد الممكن أوإلى منتهى ما يستطيع الإنسان تحقيقه، سهولة تفوق المألوف في الأوقات العادية . هذه هي العلامات المألوفة التي تعقب زيادة السكان . إلا أننا لا ينبغي لنا أن نمتدح الزيادات السكانية امتداحا غير مشروط . فلقد كانت أحيانا مجلبة للخير ، وكانت في أحيان أخرى مجلبة للشر. فالشعب الذي تتزايد أعداده يرى علاقاته بالمكان الذي يشغله تتبدل وتتعدل تعدلا يرتهن بالثروات المتاحة له ؛ وهو في هذا يسلك طريقا يعبر في أثنائه " نقطا حرجة " (١) ، تهز كل واحدة منها بنيته كلها هزا. والخلاصة أن اللعبة لم تكن في يوم من الأيام سهلة بسيطة ، ولم تسر في خط واحد واضح : ولكن الزيادة المفرطة والمتزايدة في أعداد البشر تنتهي ، في كثير من الأحيان ، أو لنقل إنها كانت فيما مضي تنتهي دائما بتجاوز ما أتيح للمجتمعات من إمكانات غذائية ؛ وهذه الحقيقة ، التي كانت عادية قبل القرن الثامن

عشر ، لا تزال معروفة اليوم في بعض البلدان المتخلفة . هناك حد معين للحياة الأفضل يتأكد لنا أنه حد لا يجوز تجاوزه والنزول عن مستواه . فالزيادات السكانية عندما تشتد حدتها تؤدي إلى تدهور مستويات المعيشة ، وإلى زيادة مؤثرة في أعداد الذين يعانون من سوء التغذية والبؤساء والمشردين من ديارهم . وتأتي الأوبئة والمجاعات ـ المجاعات أولا ثم الأوبئة معها وفي أعقابها ـ فتقيم التوازن بين الأفواه المطلوب إطعامها ومواد التموين الصعبة ، بين الأيدي العاملة والعمل ؛ هكذا يتم تصحيح الأوضاع على نحو فظيع بالغ الفظاعة ، وكان هذا التصحيح سمة واضحة مميزة للقرون في العهد القديم الذي انتهى بقيام الثورة الفرنسية .

واذا طلب الينا أن نقدم بعض البيانات المتصلة بتاريخ الغرب ، فإنني أشير الى انه حدث تزايد سكاني استمر فترة طويلة من عام ١١٠٠ إلى عام ١٣٥٠ ، وتزايد ثان من عام ١٤٥٠ إلى عام ١٦٥٠ ، وتزايد جديد منذ عام ١٧٥٠ استمر حتى اليوم بغير انتكاسات. ومعنى هذا أن لدينا ثلاث فترات كبيرة من الزيادة السكانية ، أو ما يمكن أن نسمية التوسع البيولوجي ، وهي فترات يمكننا أن نعقد بينها المقارنة ، أما الزيادتان الأوليان فحدثتا في قلب الحقبة التي ندرسها في كتابنا هذا ، وقد تبعهما انحساران سكانيان شبيهان بالجذر الذي يلي المد ، كان أولهما بالغ الفظاعة من عام ١٣٥٠ الى عام ١٤٥٠ ، وكان ثانيهما أقل حدة من عام ١٦٥٠ الى عام ١٧٥٠ (وكان أقرب إلى الانخفاض منه الى النقصان أو الجذر) . أما اليوم فان كل زيادة في عدد السكان في البلدان المتخلفة تؤدي إلي حالات من تدهور مستوى المعيشة ، ولم تعد ـ لحسن الحظ ـ تؤدي إلى ابادات بشرية فظيعة (على الأقل منذ عام ١٩٤٥) .

وكل انحسار سكاني ، أو ما شبهناه بالجذر ، يحل طائفة من المشكلات ، ويقضي على مجموعة من التوترات، ويمنح الذين يبقون على قيد الحياة ميزات ؛ إنه دواء قاس، ولكنه دواء على أية حال . ففي أعقاب وباء الطاعون الأسود الذى فتك بالناس في منتصف القرن الخامس عشر، وبعد الأوبئة الأخرى التي تبعته وزادت من آثاره الفتاكة، تركزت الأراضي في أيدي عدد قليل من البشر، كانوا هم الذين بقوا على قيد الحياة ، انتقلت اليهم بطريق التوريث ، وكانت النتيجة أن الناس لم يزرعوا إلا الأراضي الجيدة التي كانت تتطلب جهدا أقل ، وتعطي عائدا أفضل ، فارتفع مستوى المعيشة ، وارتفعت الأجور " الحقيقية "التي كان من بقوا على قيد الحياة يحصلون عليها . وهكذا بدأ في منطقة لانجدوك Languedoc الفرنسية ، في عام ١٣٥٠ قرن استمر حتى عام ١٤٥٠ ، كان فيه الفلاح ، وأسرته المنضوية تحت جناحه انضواء القبيلة تحت جناح شيخها ، هو السيد في بلاد خلت من الناس أو كادت . وغزت الأشجار والحيوانات البرية المناطق الريفية الخاوية التي كانت تزدهر بالزراعة اليانعة فيمامضى (٢). ولكن البشر سرعان ما تكاثروا

مرة أخرى ، واستعادوا ما كانت الحيوانات البرية والنباتات البرية قد انتزعته منهم، وأقبلوا على الحقول ينقونها من الحجر ، ويقتلعون جذور الشجر والشجيرات المجتثة ، وحققوا من التقدم ما أثقل كواهلهم ، وردهم إلى ما كانوا يعانونه من بؤس . ثم بدأت فترة منذ عام ١٥٦٠ أو ١٥٨٠ في فرنسا وفي أسبانيا وايطاليا أيضا ، وربما في أوروبا قاطبة ، زادت فيها أعداد البشر زيادة مفرطة (٣) فعاد التاريخ الرتيب يكرر ايقاعه القديم ، ويقلب ساعته الرملية كما يقولون ليدور الزمان دورته القديمة . وهكذا فإن الإنسان لا ينعم بالسعادة إلا لفترات قصار، ولا يدرك ذلك الا بعد فوات الأوان .

واذا نحن نظرنا إلى خارج أوروبا وجدنا هذه التقلبات التي كانت تستمر أزمانا طويلة تحدث تقريبا في نفس أوقات حدوثها في أوروبا . ويبدو أن الصين والهند شهدتا زيادة سكانية وانحسارا سكانيا بنفس إيقاع أوروبا ، كما لو كانت الانسانية كلها قد خضعت لقدر مهيمن عل مستوى الكون ، لا يكون لبقية تاريخها بالقياس إليه الا ما يكون للحقيقة الثانوية من أهمية . لقد كان هذا هو الرأي الذي ذهب اليه ، وتمسك به عالم الاقتصاد والسكان إرنست ڤاجيمان Ernst Wagemann . والحق ان التزامن على مستوى العالم واضح جلي في القرن الثامن عشر، وهو أكثر من محتمل في القرن السادس عشر ، ومن الممكن افتراض انه كان قائما في القرن الثالث عشر، وانه كان يمتد من فرنسا أيام جلس الملك القديس لويس على عرشها ، ويصل إلى الصين البعيدة أيام سيطرة المغول على مقدراتها. ويؤدي مفهوم التزامن إلي وضع المشكلات على مستوى آخر، وإلى تبسيطها أيضا. والرأي عند ڤاجيمان أن النمو السكاني يرجع إلى أسباب تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يمثلها التقدم الاقتصادي والتقني والطبي(٤).

وأيا كان الأمر فان هذه التقلبات السكانية ، التي حدثت في ربوع العالم المعروف متزامنة ، زاد هذا التزامن أو قل ، تعيننا على تصور وفهم أن الكتل البشرية كانت تقوم بينها عبر القرون علاقات عددية ثابتة نسبيا : علاقات عددية تبين أن هذه الكتلة البشرية كانت مساوية لتلك الكتلة البشرية أو كانت ضعف كتلة أخرى. فاذا عرف الإنسان الرقم الدال على كتلة ما، استطاع أن يستنتج الأخرى، وأن يتنقل من رقم الى رقم ، الى أن يتوصل الى الرقم الكلي الدال على الكتلة البشرية كلها أو سكان العالم في مجموعهم ، مع الأخذ في الاعتبار ما ينضوي عليه هذا النوع من الحساب من أخطاء . وفائدة الوصول الى هذا الرقم الاجمالي واضحة جلية : فمهما كان هذ الرقم من البعد عن الدقة ـ وهو يقينا بعيد عن الدقة ـ فانه يعيننا على تتبع النمو البيولوجي للانسانية في مجموعها من حيث هي كتلة بشرية واحدة، ونحن نفكر عند حديثنا عن الكتلة masse في لفظة stock التي يستخدمها علماء الإحصاء.

قليل من الأرقام

ليس هناك من يعرف مجموع سكان العالم في الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. ولم يكن في مقدور علماء الاحصاء أن يتفقوا على رقم انطلاقا من الأرقام المتباينة ، القليلة ، الهشة، التي يقدمها المؤرخون . وإذا كانت نقط الارتكاز موضع شك ، فربما اعتقدنا من الوهلة الأولى أنه من غير الممكن أن نبني عليها شيئا . ولكننا نرى أن الأمر جدير بأن نحاول ما وسعنا الجهد .

الأرقام المتاحة لنا قليلة وتفتقر إلى اليقين : وهي أرقام عن أوروبا وحدها ، ثم ظهرت دراسات جيدة قدمت أرقاما عن الصين . هذه الأرقام عبارة عن تعدادات وتقديرات تكاد تكون مقبولة ، واذا كانت هذه الأرقام تمثل أرضا لا تتسم بصلابة تصمد لكل اختبار ، فليس هناك خطر حقيقي في المغامرة والسير في دروبها.

ولكن ماذا نعمل لنحصل على أرقام عن بقية العالم ؟ ليس لدينا أرقام ، أو يكاد ألا يكون لدينا شيء عن الهند ، التي كانت بصفة عامة قليلة الاهتمام بتاريخها ، وكانت كذلك قليلة الاهتمام بالأرقام التي كان يمكن أن تلقي الضوء على هذا التاريخ . ليس لدينا شيء من أرقام عن آسيا اذا استثنينا الصين واستبعدنا اليابان . ليس لدينا بيانات عن الجزر المحيطية التي لم تمر بها الرحلات الأوروبية إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان مرورا عابرا: فقد مر تاسمان Tasman بنيوزيلنده في مايو من عام ١٦٤٢ ؛ وبجزيرة تاسمانيا - التي سماها باسمه - في ديسمبر من العام نفسه ؛ ومر كوك Cook باستراليا بعد قرن من الزمان في عام ١٧٦٩ ثم في عام ١٧٨٣ ؛ ومر بوجنفيل Bougainville بجزيرة تاهيتي ، جزيرة الأحلام ، في ابريل من عام ١٧٦٨ دون أن يكتشفها . وهنا نتساءل ، هل هناك حاجة للشك في وجود هذه التجمعات البشرية المبعثرة ؟ وعلماء الإحصاء يسجلون على لوحاتهم مليونين من البشر في كل الجزر المحيطية ، لا أكثر ، بغض النظر عن الفترة الزمنية المقصودة . كذلك بالنسبة لأفريقيا السوداء إلى الجنوب من الصحراء ليس لدينا أرقام مؤكدة ، باستثناء بعض الأرقام المتباينة عن تجارة العبيد السود ابتداء من القرن السادس عشر ، وهي أرقام حتى إذا كانت سليمة ، فلن نستطيع أن نستنتج منها كل ما ينبغي استنتاجه . وأخيرا ليس لدينا أرقام يقينية عن أمريكا ، أو لدينا رقمان حسبا بطريقتين متناقضتين .

ليس هناك من سبيل لمعرفة أعداد السكان في رأي أنچيل روزينبلات Angel Rosenblat الا باتباع المنهج النكوصي : أي الانطلاق من الأرقام الحالية والرجوع منها حسابيا إلى الوراء . ويصل بنا هذا المنهج بالنسبة لأمريكا في مجموعها غداة غزوها إلى رقم شديد الانخفاض هو : ١٠ الى ١٥ مليون نسمة ، وينخفض هذا الرقم الهزيل نفسه

طاعون فلسطين ، بريشة نيقولا پوسان Nicolas Poussin من كبار رسامي القرن السادس عشر . كانت الأوبئة والمجاعات تحدث حتى وقت قريب خسائر فادحة وكانت تتسبب في تعطيل النمو السكاني واصابته بنكسات وتحويل المد السكاني الى انحسار.

حتى يصل الى ٨ ملايين في القرن السابع عشر ، ولن يبدأ عدد السكان في التزايد مرة أخرى ، وببطء ، إلا مع إشراقة القرن الثامن عشر . الا أن جماعة من علماء التاريخ الأمريكيين (٦) من جامعة باركلي (Barkley هم بورا Borah وسيمپسون Simpson

وكوك Cook) ـ يسمونهم على سبيل الاختصار " مدرسة باركلي " ـ قاموا بسلسلة من العمليات الحسابية وما يسمي بالتوليد في الرياضيات انطلاقا من أرقام جزئية من ذلك العصر عرفت عن بعض مناطق المكسيك غداة الغزو الأوروبي . وجاءت نتائج هذه العمليات الحسابية والرياضية بالغة الضخامة : ١١ مليون نسمة في عام ١٥١٩ (وهو التقدير الذي اقترحه هؤلاء المؤرخون في عام ١٩٤٨) ثم أضافوا بعض الاضافات فيما بعد إلى الملف، وتناولوا بعض أرقامه القديمة بالتنقيح، فوصل تقديرهم في عام ١٩٦٠ والى رقم خرافى هو ٢٥ مليون نسمة للمكسيك وحدها وتشير تقديراتهم إلى أن عدد السكان أخذ في التناقص المستمر فكان ١٦٨٠٠٠٠٠ في عام ١٥٣٢ ؛ و ٦٣٠٠٠٠٠ قي عام ١٥٤٨؛ و ٢٦٥٠٠٠٠ في عام ١٥٦٨ ؛ و ١٩٠٠٠٠٠ في عام ١٥٨٠ ؛ و ١٣٧٥٠٠٠ في عام ١٥٩٥ ؛ و ١٠٠٠٠٠٠ في عام ١٦٠٥؛ ثم بدأت زيادة بطيئة منذ عام ١٦٥٠، وكانت الزيادة السكانية واضحة ابتداء من عام ١٧٠٠.

هذه الأرقام الخرافية تحملنا على استنتاج أن عدد السكان الكلي لأمريكا في عام ١٥٠٠ كان بين ٨٠ و ١٠٠ مليون نسمة . وهذا رقم ليس من الممكن أن يصدقه الإنسان وهو مغمض العينين ، على الرغم من شهادة طائفة من علماء الآثار ومن كاتبى أخبار الغزو ، ومن بينهم الأب بارتولومي دي لاس كازاس P. Bartholomé de Las Casas . أما الشيء اليقيني الذي لا يداخله الشك فهو أن أمريكا أصيبت بانهيار بيولوجي هائل، أي بانهيار هائل في عدد السكان، ربما لم يصل إلى حد الهبوط من ١٠ إلى ١، ولكنه كان بكل تأكيد انهيارا هائلا ، لا يقاس ولا يقارن بما أحدثه الطاعون الأسود وما صاحبه من كوارث في أوروبا في القرن الرابع عشر المنكود . وتقع مسئولية هذا الانهيار السكاني البليغ على فظائع الحرب التي لم تعرف الرحمة ، وعلى تحميل المستعمرين اهل البلاد بأعمال فوق طاقة البشر ، هلكوا تحت وطأتها الرهيبة . ونحن نرى الهنود الحمر في أواخر القرن الخامس عشر في حالة سكانية هشة ، لا يجدون السبيل إلى النمو السكاني، لأسباب منها بصفة خاصة أنهم لم يكونوا يعرفون لبنا حيوانيا بديلا يستخدمونه بدلا من لبن الأم ، فكانت الأم تضطر إلى ارضاع طفلها حتى ثلاث وأربع سنوات ، مما كان يؤدي إلى وقف خصوبتها الأنثوية وقدرتها على الحمل والإنجاب في أثناء فترة الرضاعة الطويلة هذه، وكان يؤدي بالتالي إلى ضعف كل فرصة تعويض سكاني فعال (٧). ثم هذه هي الكتلة البشرية من الهنود الحمر، التي كانت أصلا غير مستقرة من ناحية التوازن السكاني، تفاجأ بسلسلة من الهجمات الميكروبية الرهيبة، شبيهة بالهجمات الفتاكة المروعة التي نجمت عن وجود البيض في منطقة المحيط الهادي ، في القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر أيضا وبصفة خاصة .

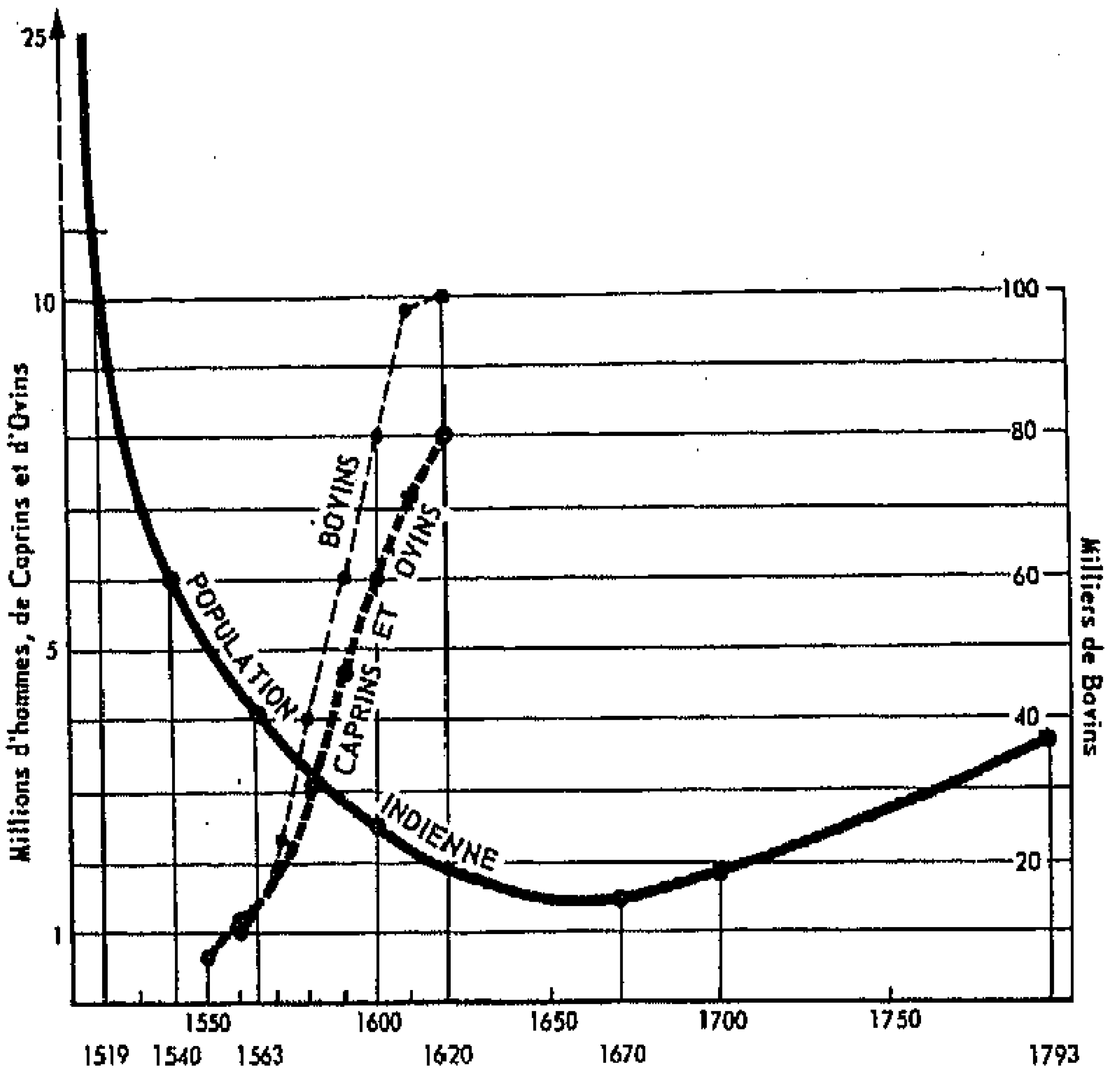

١. في المكسيك : الانسان يترك مكانه لقطعان الماشية .

(نقلا عن ب . شونو

P. Chaunu, L'Amerique latine in :

Histoire univeselle, 3, Encyclopédie de la Pléiade .

كانت الأمراض ـ ونعني الفيروسات والبكتريات والطفيليات المستوردة من أوروبا أو أفريقيا ـ أكثر سرعة في الانتشار من الحيوانات والنباتات التي جاءت من الساحل المقابل للمحيط الأطلسي والبشر الذين قدموا من هناك أيضا . ولم يكن الهنود الحمر قد تكيفوا إلا مع مسببات الأمراض الخاصة بهم، فلم يستطيعوا مجابهة الأخطار الجديدة ، ووقفوا بغير سلاح في مواجهتها. فما لمس الأوروبيون أرض العالم الجديد حتى بدأ الجدري ينتشر في سان دومينجو منذ عام ١٤٩٣ ثم منذ عام ١٥١٩ في المكسيك المحاصرة حتى قبل أن يدخلها كورتيس Cortés ، وفي بيرو حول عام ١٥٣٠، حيث سبق الجدري الجنود الأسبان في غزو هذه المنطقة .ثم وصل الجدري إلى البرازيل في عام ١٥٦٠، وإلى كندا في عام ١٦٣٥ (٨). كان الأوروبيون قد نالوا نصف مناعة حيال هذا المرض، أما السكان الأصليون في أمريكا فقد تعرضوا لخسائر فادحة . كذلك فعلت الحصبة ، والانفلونزا ،والديزنتاريا ، والجذام ، والطاعون (وصلت أول جرذان الى أمريكا بين عام ١٥٤٤ وعام ١٥٤٦) والأمراض التناسلية (وتلك مسألة كبيرة سنعود الى الحديث

صورة مثالية لغزو امريكا : اهالي فلوريدا يستقبلون في عام ١٥٦٤ المكتشف الفرنسي دي لوندونيير R. de Londonnière. رسم بالحفر للرسام تيودور دي بري Théodore de Bry عن لوحة بريشة لوموان دي مورج J. Lemoyne de Morgues .

عنها) والتيفود ، وداء الفيل ، هذه الأمراض التي حملها الى هناك البيض أو السود ، اكتسبت هناك كلها عنفا جديدا . وقد يكون هناك بين الباحثين شيء من التردد والحيرة حول تحديد كنه بعض الأمراض ، ولكن ليس بينهم من يشك أدنى شك في عنف الغزو الميكروبي الذي تعرض له الأهالي في أمريكا : فقد انهار عدد السكان الأمريكيين تحت وطأة الأوبئة الرهيبة الضخمة ـ وهي الجدري في عام ١٥٢١ و" طاعون " غير محدد الصفات (لعله تيفوس أو انفلونزا) ظهر في عام ١٥٤٦ ثم ظهر مرة ثانية ورهيبة من عام ١٥٧٦ الى عام ١٥٧٧ ، ويقال إنه أهلك نحو مليونين (٩). وتسببت الأوبئة في إبادة كل سكان بعض جزر الأنتيل . وليس من السهل على الباحث المدقق أن يتخلى عن النظر

إلى الحمى الصفراء كمرض متوطن في أمريكا الاستوائية، فمن المحتمل أن تكون من أصل أفريقي . أيا كان الأمر فإن الحمى الصفراء ظهرت متأخرة في كوبا حول عام ١٦٤٨، وفي البرازيل في عام ١٦٨٥ ؛ وانتشرت من هناك في المنطقة الاستوائية من العالم الجديد ؛ وانتشرت في القرن التاسع عشر من بوينوس أيريس حتى ساحل أمريكا الشمالية بل وصلت إلى موانى أوروبا المطلة على البحر المتوسط (١٠). وليس من الممكن أن يتحدث الإنسان عن ريو دي چانيرو في القرن التاسع عشر دون أن يذكر هذه الحملة الفتاكة التي زحفت بها الحمى الصفراء على المدينة . ويصح أن نضيف معلومة جزئية : وهي أن الأوبئة الهائلة كانت حتى ذلك الحين تفتك فتكا ذريعا بالسكان الأصليين، أما في هذه المرة فقد كان البيض ، الوافدون الجدد ، هم الضحايا المفضلون لمرض اتخذ صفة وبائية. وحدث في ميناء پورتو بيلو حول عام ١٧٨٠ أن وقعت أطقم السفن ضحية للمرض فاضطرت السفن إلى قضاء الشتاء في الميناء (١١). هكذا عانى العالم الجديد من الأوبئة الفظيعة . وسنرى أن هذه الأوبئة ستعود الى الظهور عندما يضع الانسان الأوروبي قدميه على جزر المحيط الهادي ، وهي عالم مختلف من الناحية البيولوجية ، عالم يتسم بأنه كان منعزلا. فهذه هي الملاريا مثلا تصل متأخرة إلى اندونسيا وإلى الجزر المحيطية ، وتنقض على باتافيا فتفتك بأهلها في عام ١٧٣٢(١٢).

وهكذا فمن الممكن التوفيق بين حسابات أنجل روزنبلات وحسابات مؤرخي باركلي، بين حذر الأول ورومانتيكية الآخرين: من الممكن أن تكون الأرقام التي يذكرها كل طرف من الطرفين حقيقية أو معقولة ، اذا ما انطلقنا في الحساب من فترة ما قبل الغزو أو من فترة ما بعد الغزو . ولنغض النظر عن آراء فويتنسكي Woytinski وإمبري Embree ، وكان إمبري في وقت مضى يؤكد " أنه لم يكن هناك في يوم من الأيام أكثر من ١٠ مليون نسمة في المنطقة بين ألاسكا وكاب هورن في أى عصر من العصور السابقة على كريستوف كولومبوس " (١٣).

وهذا رأي من حقنااليوم أن نشك فيه .

كيف نحسب؟

يبين مثال أمريكا كيف نستطيع باتباع مناهج بسيطة (بل بسيطة بساطة مفرطة) أن ننطلق من بعض الأرقام الصلبة " نسبيا " لنستشف ونتخيل الأرقام الأخرى. وإن كانت هذه الدروب الضعيفة التي نسلكها في هذه الحسابات تسبب بحق القلق للمؤرخ الذي اعتاد ألا يرضى إلا بما يقوم عليه «البرهان» بوثيقة لا يرقى اليها الشك ، على عكس عالم الإحصاء الذي لا يعرف هذا القلق والخوف والريبة . فهذا هو پول لادام Paul A. Ladame عالم الإحصاء والاجتماع يكتب بكلمات يخالطها المزاح : " من الممكن أن يلومنا

الناس لأننا لا نشغل أنفسنا بالأرقام الصغيرة ولا نعمل في محل بقالة يبيع بالقطاعي؛ ونرد عليهم قائلين إننا لا نعلق أهمية على التفصيلات : ولا نهتم الا بالخطوط العريضة "(١٤). الخطوط العريضة، الحد الأقصى، الحد الأدنى المحتمل، النهاية الكبرى أو الصغرى .

في وسط هذا الجدل الذي يتُهم كل طرف فيه بأنه على باطل، ويؤكد كل طرف أنه على حق ، هيا بنا نقف الى جانب أولئك الذين يؤمنون بالحساب ، والذين هم في مسعاهم هذا يفترضون دائما أن هناك بين شعوب الأرض المختلفة علاقات نسب وتناسب تتسم إما بالثبات أو بأنها لا تتغير الا ببطء شديد . كان هذا هو الرأي الذي ذهب اليه موريس هالبڤاكس Maurice Halbwachs (١٥) . ويعني هذا بعبارة أخرى أن مجموع سكان الأرض تنتظمهم " بنيات " لا تتغير في أكثرالأحيان إلا قليلا : وأن العلاقات أوالتناسبات العددية بين المجموعات البشرية ثابتة على نحو عام . ومدرسة باركلي تستنتج ، بناء على هذا ، رقماً كلياً للسكان على مستوى أمريكا كلها انطلاقا من رقم جزئي هو رقم السكان في المكسيك . واتباعا للمنهاج نفسه قام كارل لامپريشت Karl Lamprecht ، ومن بعده كارل يوليوس بيلوخ Karl Julius Beloch باستنتاج عدد سكان ألمانيا القديمة كلها انطلاقا من رقم تقريبي معروف عن سكان مدينة ترير Trier الألمانية (اسمها بالفرنسية Trèves) يرجع إلى عام ٨٠٠ تقريبا (١٦). ولكن المشكلة تبقي دائما هي هي : الاعتماد على تناسبات محتملة ، والانطلاق من أرقام معروفة للوصول إلى أرقام على مستوى أعلى ، معقولة ، يمكنها أن ترسم خطوطا عريضة . وهذه الخطوط العريضة ليست بغير قيمة ، بشرط أن نتعامل بها على أساس أنها خطوط عريضة لا أكثر ولا أقل. والأفضل بطبيعة الحال أن تكون لدينا أرقام حقيقية ، ولكننا لا نحتكم عليها.

الصين تساوي أوروبا

أحاطت الشكوك - فيما يتعلق بأوروبا - بمناهج وحسابات وأرقام كارل يوليوس بيلوخ (١٨٥٤-١٩٢٩) ، الرائد العظيم لعلم السكان التاريخي ، وپاول مومبرت Paul Mombert وروسل J. C. Russel والطبعة الأخيرة من كتاب مارسل راينهارت Marcel Reinhardt (١٧). فالأرقام التي يوردونها قد تتفق فيما بينها ، لأن كل واحد يستعير أرقامه بأمانة من الآخر. أما أنا فقد اخترت ، أو على الأصح " تخيلت " ، الحدود العليا ، حتى يكون لي أن أمد أوروبا في كل مرة حتى أصل بها إلى الأورال ، مُدخلاً فيها هكذا " أوروبا الشرقية البربرية " . أما الأرقام التي يقترحها الباحثون لشبه جزيرة البلقان ، وبولندة ، وموسكوفيا ، والبلاد الاسكندنافية ، فأرقام شديدة الجرأة ، لا تكاد تبدو أكثر معقولية من الأرقام التي يقترحها علماء الإحصاء للجزر المحيطية أو أفريقيا .

ولقد رأيت مد حدود أوروبا إلى الأورال ضروريا : لأنه يعطي أوروبا ـ التي اخترناها كوحدة للقياس ـ نفس الأبعاد المكانية بغض النظر عن العصر الذي نتناوله ؛ ثم ان هذا المد الى الأورال يقيم توازنا أفضل بين أوروبا والصين في كفتي الميزان، فتتسع أوروبا التي نضعها في كفة ، لتقابل الصين التي نضعها في الكفة الأخرى ، اعتمادا على أرقام تبين التساوي أتيحت لنا منذ القرن التاسع عشر، فقد أصبحت لدينا منذ أهلّ نجم هذا القرن أرقام تتسم إما باليقين أو على الأقل بالمعقولية .

أما الأرقام الخاصة بالصين فهي أرقام حسبت على أساس تعدادات حكومية ، ولكن هذا الأساس لا يضفي عليها قيمة لا يرقى إليها الشك ، بل على العكس ، فهي أرقام مستقاة من قطاع الضرائب ، وهي لهذا السبب مشكوك في صحتها ، لأننا عندما نقول الضرائب نفكر في بيانات قائمة على الغش أو على الوهم أو عليهما معا . وهكذا فان يوشر A. P. Usher (١٨) على حق عندما يحكم عليه بأنها في مجموعها أرقام أقل من الحقيقة بكثير ، ولهذا فهو يعمد إلى رفعها ، وتنضوي عمليات رفع الأرقام بهذه الصورة ، على ما يثير الشك وما يجعلنا لا تنطمئن تماما إليها. ولكن آخر مؤرخ(١٩) غامر بالنزول إلى هذا الميدان المليء بالأرقام غير الوافية بالغرض ، سلك نفس السبيل ورفع الأرقام التي وجد أنها دون الحقيقة ... ثم اننا إذا وضعنا هذه الأرقام الأصلية غير المعدلة بعضها بجانب البعض الآخر، ونظرنا إليها بعين المقارنة ، تبينّا أنها تؤدي بنا إلى استنتاجات مستحيلة استحالة صارخة ، وتوحي الينا بأن موجات الزيادة السكانية وموجات الانحسار السكاني كانت هائلة خارقة عن المألوف ، حتي بالنسبة إلى الكتلة البشرية الصينية نفسها . وربما كانت هذه الأرقام بما تضمنته من مبالغة تعبر في كثير من الأحيان عن " النظام والسلطة في الامبراطورية لا عن مجرد عدد السكان ." فالرقم الدال على العدد الكلي لسكان الصين في عام ١٦٧٠ يقل عن رقم العام السابق بمقدار سبعة ملايين نسمة ، ويرجع السبب في ذلك الى تمرد واسع قام به الإقطاعيون ، هو تمرد فو ـ سان ـ كوي Wou San-Kouei ، ولا يشير رقم السبعة ملايين الناقصين إلى أنهم ماتوا ، ولكنه يشير الى أنهم شقوا عصا الطاعة على السلطة المركزية . وإذا حدث أن خضعوا مرة أخرى للسلطة المركزية ، فسيدخلون في التعداد ، وسيقفز العدد الكلي للسكان قفزات هائلة بالملايين إلى أعلى ، بقدر عودة المتمردين إلى حظيرة السلطة ، وهي قفزات لا تتفق بطبيعة الحال مع الزيادة السكانية الطبيعية حتى إذا حققت أقصى أبعادها .

أضف إلى ذلك أن هذه التعدادات التي بين أيدينا لا تقوم دائما على نفس الأساس، فلم يكونوا في الصين قبل عام ١٧٣٥ يعدون سوى من يشملهم الالتزام بالضرائب ، وكانوا يسمونهم چين تينج jin-ting، وهم الرجال من سن ١٦ الى ٦٠ سنة ؛ فاذا أردنا أن نستخرج الرقم الكلي للسكان كان علينا أن نضاعف العدد الذي بين أيدينا ، وأن نقبل

بأن نسبة العدد الذي شمله التعداد إلى المجموع الكلي هي ٢٨ ٪ . أما في عام ١٧٤١ وما بعده فقد كان القائمون بالتعداد يحصرون العدد الفعلي للسكان وكان الرقم الذ أثبتوه هو : ١٤٣ مليون نسمة . أما الحساب القائم على عدد " الچين تينج " أو الملتزمين بالضرائب فكان يصل بعدد السكان إلى ٩٧ مليون في عام ١٧٣٤ . ومن الممكن ترقيع هذه الأرقام لأن طريقة الحساب كانت كما عرفنا تسمح بالمناورة - ولكن من الذي سيرضي بهذا الحساب ؟ (٢٠) ومع ذلك فإن هذه الأرقام إذا أخذناها على المدى الطويل، وجدنا أنها تحتفظ بقيمتها ، والمتخصصون متفقون على ذلك ، وأقدم الأرقام ، أرقام الصين أيام آل مينج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، ليست هي أشد الأرقام مدعاة للحذر، بل على العكس.

هذه هي باختصار المادة التي علينا أن نشتغل بها. فإذا نقلنا هذه الأرقام إلى لوحة الرسم البياني، تبينا أن التساوي من حيث عدد السكان لا يقوم إلا على نحو تقريبي بين أوروبا التي نمدها حتى الأورال والصين التي نحصرها في اطارالأراضي الأساسية لأقاليمها. وجدير بالذكر أن الميزان يميل اليوم على نحو متزايد لصالح الصين نتيجة لارتفاع معدلات المواليد، ولكن التساوي العمومي بين أوروبا والصين ، سواء كان تساويا تقريبيا أم لا ، يوشك أن يكون بنية من البنيات البالغة الوضوح في تاريخ الدنيا ، في القرون الخمسة أو الستة الأخيرة ، ويمكننا أن ننطلق منها لنحسب على وجه التقريب عدد سكان العالم .

العدد الاجمالي لسكان العالم

منذ أن أتيحت لنا احصائيات مقبولة مع بداية القرن التاسع عشر (يرجع تاريخ أول تعداد حقيقي إلى عام ١٨٠١ وكان قاصرا على انجلترة) ، كانت كل من الصين وأوروبا تمثل على نحو عام ربع البشرية كلها . ومن الواضح أنه ليس من الممكن أن نؤكد سلفا أن هذا التناسب كان قائما على هذا النحو نفسه في الماضي . كانت أوروبا والصين، بين الأمس واليوم ، تمثلان أكبر مركزين يتجمع فيها السكان في العالم. وإذا كانت أوروبا والصين قد جريا بخطوات أسرع من المناطق الأخرى في العالم، فربما كان من المناسب أن نحتاط ، فلا نأخذ نسبة ١ إلى ٤ نسبة لعدد سكان أوروبا أو الصين إلى العالم ، بل نأخذ بنسبة ١ إلى٥ ، وليس هذا الاحتياط إلا شاهداً على عدم اطمئناننا إلى الأرقام المتاحة .

سنرسم إذن انطلاقا من المعامل ٤ أو المعامل ٥ المنحنيين الممثلين للصين ولأوروبا ، فنحصل هكذا على أربعة منحنيات محتملة تمثل سكان العالم محسوبين على أساس أنهم ٤ أو ٥ أضعاف الصين أو أوروبا . وسنرى في الرسم البياني الإجمالي منحنى مركبا يحدد - بناء على الأرقام العليا والأرقام الدنيا - منطقة عريضة من الاحتمالات (والأخطاء)، يمكننا أن نتخيل في داخلها أو بجوارها الخط الذي يعبر عن تطور إجمالي عدد السكان في العالم من القرن الرابع عشرإلى القرن الثامن عشر .

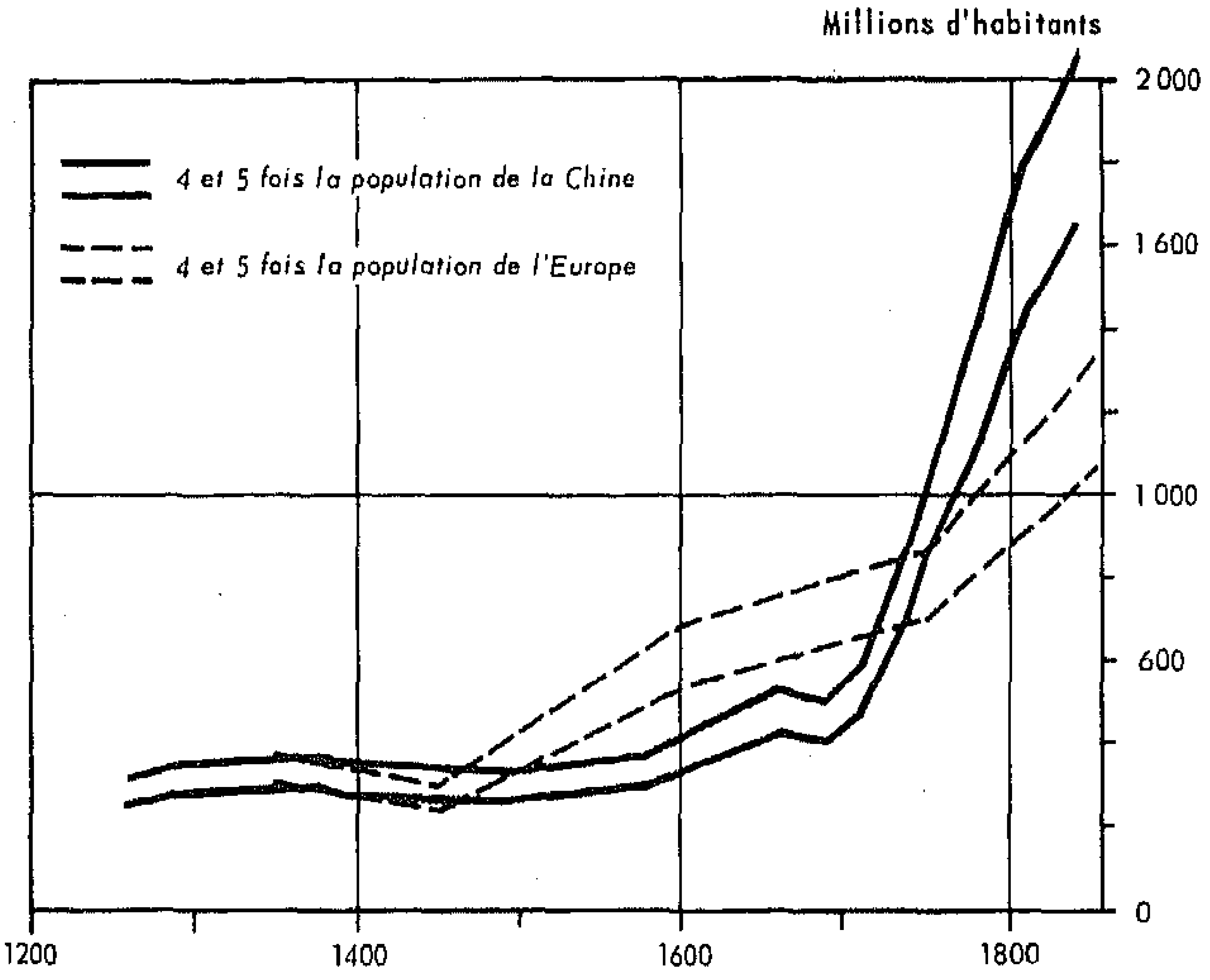

٢ ـ عدد سكان العالم من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين.

ويمكن إن نقول بصفة عامة أن سكان العالم من عام ١٣٠٠ الى عام ١٨٠٠، بناء على هذا الحساب، خضعوا على المدى الطويل لاتجاه الزيادة السكانية ، ولا نأخذ هنا في اعتبارنا بطبيعة الحال موجات الانحسار السكاني العنيفة والمؤقتة التي تحدثنا عنها من قبل. واذا اخترنا لنقطة الابتداء، وهي الفترة من عام ١٣٠٠ الى عام ١٣٥٠ ، أكثر التقديرات انخفاضا وهو ٢٥٠ مليون نسمة ، واخترنا لنقطة الانتهاء وليكن عام ١٧٨٠ أكثر التقديرات ارتفاعا وهو ١٣٨٠ مليون نسمة ، فمعنى ذلك أن سكان العالم زادوا بنسبة ٤٠٠ ٪ . وليس هناك انسان مضطرإلى تصديق هذه الأرقام . واذا نحن اخترنا لنقطة الابتداء أكثرالتقديرات ارتفاعا وهو ٣٥٠ مليون نسمة ، واخترنا لنقطة الانتهاء أكثر التقديرات انخفاض وهو ٨٣٦ مليون نسمة، وهو تقدير ويلكوكس Wilcox(٢١)، فان اتجاه الزيادة يظل قائماً ولكن بنسبة ١٣٨ ٪. حدثت هذه الزيادة في فترة ٥٠٠ سنة ، بمعني أن معدل الزيادة المنتظم (والانتظام المقصود هو بطبيعة الحال انتظام افتراضي بحت) يظل في حدود ١ر٧٣٪ ، وهي زيادة لا تكاد حركتها تُلحظ إذا كانت سائرة على وتيرة واحدة وإيقاع ثابت. ولكن هذا لا يمنع أن تكون البشرية قد تضاعف عددها يقينا في هذه الحقبة الطويلة بقرونها الأربعة. هذه الحركة السكانية المتجهة نحو الزيادة لم تعرقلها العثرات الاقتصادية ولا الكوارث ولا الوفيات الجماعية. وليس هناك شك في أن هذه هي الواقعة الأساسية الجوهرية في تاريخ الدنيا في الفترة من القرن الخامس عشر الى الثامن عشر ، ولا يقتصر أثرها على مستوى المعيشة فقط ، وإنما يتجاوزه إلى أن كل شيء كان عليه أن يتكيف مع ضغط البشرية التي زاد عددها في مجموعها .

وتلك معلومة لن تفاجيء مؤرخي الغرب قط : فهم يعرفون كل العلامات العديدة غير المباشرة (احتلال الأراضي الجديدة ، الهجرات ، عمليات ضم مناطق الغابات والمروج إلى الرقعة المنزرعة ، عمليات استصلاح الأراضي ، عمليات التعمير الحضري ...) التي تدعم معطياتنا المترجمة إلى أرقام. أما الاستنتاجات والتفسيرات التي ذهبوا اليها فستكون موضع جدل ، لأنهم بنوها على تصورهم لظاهرة التزايد السكاني قاصرة على أوروبا ، بينما الحقيقة الواقعة التي أبرزناها - وهي أهم حقيقة ضمها كتابنا هذا بين دفتيه وأكثر ما جاء به من حقائق إثارة لأسباب الاضطراب والحيرة - تتمثل في أن الانسان انتصر على العقبات العديدة التي اعترضت تقدمه العددي في " كل المناطق التي كان يشغلها " . لم تكن الزيادة السكانية إذن قاصرة على أوروبا وحدها ، بل كانت شاملة للعالم كله ، وتلك حقيقة تجعل من الضروري مراجعة الكثير من التوجهات والشروح .

ولكن علينا أن نعود مرة أخرى الى بعض الحسابات قبل أن نتناول هذه الاستنتاجات بالحديث .

أرقـــام
تثير الجدل

استعرنا من علماء الاحصاء منهجهم ، إذ استخدمنا أفضل أرقام معروفة عن أوروبا والصين لنستخرج منها تقديرا لعدد سكان الكرة الأرضية . ولن يكون لعلماء الإحصاء أن يعترضوا بشيء على هذا السبيل الذي سلكناه ...أما هم ، فعندما تصدوا للمشكلة نفسها سلكوا سبيلا مختلفة كل الاختلاف ، إذ فتتوا العملية إلى أجزاء ، وحسبوا على التتابع سكان كل جزء من " أجزاء " العالم المختلفة. يا له من التزام عجيب بطرق التفتيت والتقسيم التي يأخذ بها التلاميذ في المدارس ! ولكن ماذا كانت النتائج التي وصلوا اليها ؟

لنذكر مرة أخرى وأخيرة أنهم جعلوا للجزر المحيطية من السكان مليونين ، وهذا شيء قليل الأهمية في حد ذاته ، لأن هذا الوزن الهين يتبدد في هامش أخطائنا ؛ أما أفريقيا فجعلوا لها ، من أولها الى آخرها ١٠٠ مليون نسمة ، وهذا رقم جدير بأن نناقشه ، ونحن نلاحظ أنهم أضفوا على سكان أفريقيا وحدها سمة من الثبات المستمر ، تلوح لنا بعيدة الاحتمال ، ثم إن تقدير عدد السكان الذي عمدوا اليه ستكون له انعكاساته على التقدير الإجمالي لسكان العالم كله ...

ولقد جمعنا في جدول ملخصا لتقديرات المتخصصين في هذا المجال . ونحن عندما نتفحصها نلاحظ أن كل حساباتهم تبدأ متأخرة - في عام ١٦٥٠ - وأنهم متفائلون بصفة منتظمة ، حتى في البحث الحديث الذي قامت به مكاتب الأمم المتحدة . والرأى عندي أن تقديراتهم مرتفعة ارتفاعا مفرطا ، أولا فيما يتعلق بأفريقيا ، ثم آسيا .

ومن الجرأة بمكان أن يرصد الانسان في عام ١٦٥٠ ، وهو يقدر أعداد السكان في العالم ، نفس الرقم (١٠٠ مليون) لأوروبا الآخذة بحركة ديناميكة ، وأفريقيا التي كانت ساكنةً متأخرة (باستثناء الشريط المطل على البحر المتوسط ، مع التحفظ) . كذلك لا يتفق مع العقل أن نرصد لآسيا في عام ١٦٥٠ ، سواء أدنى أرقام هذه الجداول (٢٥٠ أو ٢٥٧ مليون) أو الرقم الأعلى ، وهو ٣٣٠ مليون ، الذى تعجل كار سوندرز Carr Saunders فقبله .

عدد سكان العالم مقدرا بالملايين

(١٦٥٠ ـ ١٩٥٠)

	١٦٥٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠	١٩٥٠
الجزر المحيطة	٢	٢	٢	٢	٢	٢
افريقيا	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
آسيا	٢٥٧*	٤٣٧*		٦٥٦*	٨٥٧*	١٢٧٣*
	٣٣٠*	٤٧٩**	٦٠٢**	٧٤٩**	٩٣٧*	
	٢٥٠***	٤٠٦***	٥٢٢***	٦٧١**	٨٥٩***	
أمريكا	٨*	١١*	·	٥٩	١٤٤	٣٣٨*
	١٣**	١٢ر٤**	٢٤ر٦**	٥٩	١٤٤	
أوروبا (بما	١٠٣*	١٤٤*		٢٧٤*	٤٢٣*	٥٩٤*
فيهاروسيا	١٠٠**	١٤٠**	١٨٧**	١٦٦**	٤٠١**	
الأوروبية)	١٠٠***	١٤٠***	١٨٧***	٢٦٦***	٤٠١***	
١)	٤٧٠	٦٩٠		١٠٩١	١٥٥٠	٢٤١٦
٢) المجموع	٥٤٥	٧٣٣ر٤	٩١٥ر٦	١١٧٦	١٦٠٨	
٣)	٤٦٥	٦٦٠ر٤	٨٣٥ر٦	١٠٩٨	١٥٣٠	

ـ المصادر :

Bulletin des Nations Unies, décembre 1951 =*

Carr Saunders= **

Kuczynski= ***

الأرقام التي بغير نجوم وردت في المصادر الثلاثة جميعا .

الأرقام التى ذكرها سوندرز خاصة بأفريقيا قربناها إلى ١٠٠ .

وليس من شك في أن السكان في أفريقيا كانوا في منتصف القرن السابع عشر الذى يبدأ به الجدول يتسمون بالحيوية الشديدة ، فقد تحملوا منذ منتصف القرن السادس عشر النزيف البشري المتزايد نتيجة تجارة العبيد الزنوج المتجهة إلى أمريكا ، والذي أضيف إلى النزيف القديم المتجه إلى بلدان العالم الإسلامي ، والذى استمر حتى القرن العشرين . وما يمكن أن يكون ذلك إلا دليلا على ما يمكن أن نسميه الصحة البيولوجية . وهناك دليل آخر على هذه الصحة البيولوجية يتمثل في مقاومة هؤلاء السكان للتغلغل الأوروبي : ففي القرن السادس عشر لم تنفتح القارة السوداء أمام البرتغاليين ، على الرغم من المحاولات التي قاموا بها ، كما انفتحت أمامهم البرازيل ، لأن السكان الأفارقة قاوموا ببسالة . كذلك لدينا دلائل تشير إلى وجود حياة ريفية كثيفة إلى حد ما ، لها قراها الجميلة المتسقة المنسجمة التي سيمتد إليها المد الأوروبي في القرن التاسع عشر فيفسد عليها أمرها (٢٢).

ولكن الأوروبيين لم يصروا آنذاك على الاستمرار في التقدم للاستيلاء على بلدان أفريقيا السوداء ، لأنهم أصيبوا منذ أن نزلوا على الساحل بما سمي بالأمراض " الخبيثة " وهي : أنواع من الحمى المتقطعة والدائمة ، و" الديزنتاريا والسل والاستسقاء " ، ولا ينبغي أن ننسى أنواع الطفيليات المختلفة ، وكلها أمراض كلفت الأوروبيين ثمنا باهظا(٢٣) . كانت هذه الأمراض ، هي والقبائل الباسلة ، المتمرسة على القتال، عائقا في وجه الأوروبيين. كذلك كانت الأنهار بمياهها السريعة الجارفة تقطع الطريق : فمن هذا الذي يمكن أن يجازف بالملاحة ضد تيار نهر الكونغو بمياهه العارمة ؟ يضاف إلى هذا أن مغامرة الأوروبيين في أمريكا وفي تجارة الشرق الأقصى اجتذبت كل طاقات أوروبا التي كانت اهتماماتها متجهة إلى اتجاهات مختلفة . وكانت القارة السوداء تقدم من تلقاء نفسها ، وبسعر طيب ، بودرة الذهب ، وسن الفيل ، والرجال . فمن الذي يطالبها بالمزيد ؟ أما فيما يتعلق بتجارة العبيد الزنوج فهي لم تبلغ هذه الأرقام البشرية الضخمة التي يحلو للناس تصديقها. كانت الأعداد محدودة حتى في اتجاه أمريكا ، على الأقل قياسا على طاقة النقل . ويمكننا ، على سبيل المقارنة، أن نذكر أن حركة الهجرة الايرلندية الى أمريكا من عام ١٧٦٩ الى عام ١٧٧٤ لم تمثل أكثر من ٤٤٠٠٠ نقلة بحرية ، أي أقل من ٨٠٠٠ نقلة بحرية سنويا (٢٤) . كذلك كان عدد الأسبان الذين رحلوا في القرن السادس عشر من اشبيلية الى أمريكا في المتوسط ما بين ألف وألفين سنويا (٢٥). حتى إذا قبلنا تقدير عدد العبيد برقم لا يمكن تبريره عقلا، وهو ٥٠٠٠٠ من الزنوج سنويا (وهو رقم لم يمكن بلوغه إلا في القرن التاسع عشر وفي السنوات الأخيرة للنخاسة) فإن ذلك الرقم لا يمكن أن يتناسب ، على أقصى حد، إلا مع عدد سكان كلي قدره ٢٥ مليون نسمة . وخلاصة القول إن تقدير عدد سكان أفريقيا بمائة مليون تقدير لا يعتمد على أى معطيات

يقينية . وهو تقدير يتلفف على الأرجح التقدير الإجمالى الأول ، الجزافي ، الذي أورده في عام ١٦٩٦ جريجوري كينج Gregory King (٩٥ مليون) . واكتفى الناس بعد ذلك بتكرار الرقم القديم . ولكن أين وجد جريجوري كينج نفسه هذا الرقم ؟

لدينا بعض التقديرات : مثلا تقدير روسل J. C. Russel (٢٦) الذي حسب عدد سكان شمال أفريقيا في القرن السادس عشر ، فوجدهم ثلاثة ملايين ونصف (وأنا نفسي قدرت سكان شمال أفريقيا بمليونين ولكنني لم أعتمد على مبررات رصينة) . أما فيما يختص بمصر في القرن السادس عشر فلازلنا نفتقر إلى البيانات . هل يحق لنا أن نفترض أن عدد سكانها كان يمثله رقم ٢ إلى ٣ مليون اعتمادا على أن أول التقديرات الرصينة التي ترجع الى عام ١٧٩٨ وتنسب الى مصر ٢٤٠٠٠٠٠ من السكان ، وعلى أن التناسبات الحالية تساوي في السكان بين مصر وشمال أفريقيا ؟ وسكان مصر يمثلون اليوم عشر سكان أفريقيا ، وكذلك سكان شمال أفريقيا اليوم عشر سكان أفريقيا. فإذا قبلنا هذا التناسب بالنسبة للقرن السادس عشر فسيكون سكان أفريقيا بين ٢٤ و ٣٥ مليون نسمة، إذا ما أخذنا بواحد من الأرقام الثلاثة التي أشرنا اليها من قبل ، وآخرها هو تقدير عدد سكان مصر في نهاية القرن الثامن عشر ، والتقديران الآخران ينصبان على القرن السادس عشر . وهكذا نرى أن رقم الـ ١٠٠ مليون بعيد جدا عن هذه التقديرات التقريبية . وليس لدينا بطبيعة الحال ركيزة نستعين بها لبلوغ مزيد من الوضوح. وسنظل مترددين ، لا ننتهي إلى تحديد رقم ، ولكننا سنظل رافضين رفضا قطعيا لرقم الـ ١٠٠ مليون.

كذلك الأرقام المقترحة بالنسبة لآسيا أرقام مبالغ فيها ، ولكن الجدل فيها لايتسم بنفس الحدة . والرأي عند كار سوندرز (٢٧) أن ويلكوكس أخطأ في تقدير عدد سكان الصين حول ١٦٥٠ ، قبل أن يستولي المنشوريون على بكين بست سنوات، بسبعين مليون نسمة؛ ثم هو ينتقل بجرأة من هذا الرقم إلى الضعف (١٥٠ مليون). في هذا الفترة الرهيبة من التاريخ الصيني يمكن الجدل في كل شيء، والشك في كل شيء (والسؤال المطروح هنا هو هل يمكن أن يكون المطالبون بالضرائب ، الجين تينج ، بالنسبة إلينا مجرد علامات ضوئية نستعين بها على تحديد الطرق ، مجرد وحدات ضرائبية ؟). ويلكوكس مثلا اعتمد على تونج هوا لوه Toung Hwa Louh (ترجمة شينج هين شين). ولنا أن نفترض أن هذا الرقم منخفض؛ وعلينا ، على أية حال ، أن نأخذ في اعتبارنا عمليات القتل وسفك الدماء الرهيبة التي صاحبت الغزو المنشوري . واستنتج يوشر A. P. Usher (٢٨) تقديرا لعدد سكان الصين في عام ١٥٧٥ هو ٧٥ مليون ، وفي عام ١٦٦١ رقم ١٠١؛ وفي عام ١٦٨٠ لدينا رقم رسمي هو ٦١ مليون ، وقد عدله أحد المؤلفين إلى ٩٨ مليون وعدله مؤلف آخر إلى ١٢٠ مليون، وهذه أرقام عن سنة ١٦٨٠ عندما كان النظام المنشوري قد

فرض نفسه ؛ أما في عام ١٦٣٩ فيحدثنا أحد الرحالة أن سكان الصين كانوا حوالي ٦٠ مليون نسمة ، وكان تقديره هذا قائما على أساس معامل قدره ١٠ أشخاص لكل " نار" أي لكل فرن أو بيت ، على اعتبار أن الفرن هو صلب حياة البيت ، وهو معامل مرتفع حتى بالنسبة إلى الصين .

ولن يحدث قبل عام ١٦٨٠ ، أو على الأحرى قبل احتلال فورموزا مرة أخرى ، في عام ١٦٨٣ ، أن يبدأ تزايد السكان المذهل في الصين ، شبيها بالموجة العارمة الطويلة المدى . كانت الصين في مأمن ، تحتمي وراء حركة التوسع القارية في آسيا التي وصل بها الصينيون إلى سيبيريا والى منغوليا وتركستان والتبت . وكانت الصين ، في نطاق حدودها ، تنهض بعملية تعمير هائلة ، فقد استغلت كل الأراضي المنخفضة ، وكل التلال القابلة للري ، ثم المناطق الجبلية التي انتشر فيها الرواد ، يحرقون الغابات ، ويحولون أرضها إلى حقول .وكان البرتغاليون قد أدخلوا هناك محاصيل جديدة ، منذ القرن السادس عشر ، فبدأت تشهد في هذ الوقت انتشارا واضحا ، مثل الفول السوداني والبطاطا ، وبصفة خاصة الذرة ، إلى أن جاءت البطاطس من أوروبا بعد حين ، وإن لم تصبح ذات أهمية إلا في القرن التاسع عشر. واستمرت حركة التعمير دون عقبات ضخمة حتى عام ١٧٤٠ تقريبا ، عندئذ أخذت شريحة الأرض المقدرة لكل فرد تصغر تدريجيا ، فقد كان السكان يتزايدون أسرع من تزايد المكان الصالح للزراعة ، ما في ذلك شك(٢٩).

هذه التحولات العميقة تعيننا على التعرف على معالم " ثورة زراعية " صينية واكبتها ثورة سكانية قوية طغت عليها . والأرقام المحتملة هي التالية : ١٣٠ مليون في عام ١٧٠٠ ؛ ١٤٤ في عام ١٧٢٠ ؛ ١٦٥ في عام ١٧٤٠ ؛ ١٨٦ في عام ١٧٥٠ ؛ ٢١٤ في عام ١٧٦٠ ؛٢٤٦ في عام ١٧٧٠ ؛ ٣٠٠ في عام ١٧٩٠ ؛ ٤٣٠ في عام ١٨٥٠(٣٠)... ونحن نقرأ عن جورج ستونتون George Staunton ، الذي كان سكرتيرالسفيرالانجليزي في عام ١٧٩٣ ، أنه سأل الصينيين كم عدد سكان الامبراطورية الصينية ، فأجابوا عليه إما بزهو وإما ربما بصراحة : ٣٥٣ مليون (٣١)...

ولكن لنعد إلى سكان آسيا في مجموعها . كان المألوف اعتبار عدد سكان آسيا ضعف أوثلاثة أمثال عدد سكان الصين . والأقرب إلى الصواب أن يكون ضعف العدد لا ثلاثة أمثاله ، لأن الهند لا يبدو أنها كانت تتساوى مع الصين في عدد السكان . وهناك تقدير لعدد سكان الدكن في عام ١٥٢٢ (٣٠ مليون) اعتمادا على وثائق مشكوك فيها ، يبدو أنها تجعل للهند كلها من السكان ١٠٠ مليون نسمة (٣٢) ، وهذا تقدير أعلى من تقدير الرقم الصيني "الرسمي" المعاصر ، وليس هناك إنسان عليه بالضرورة أن

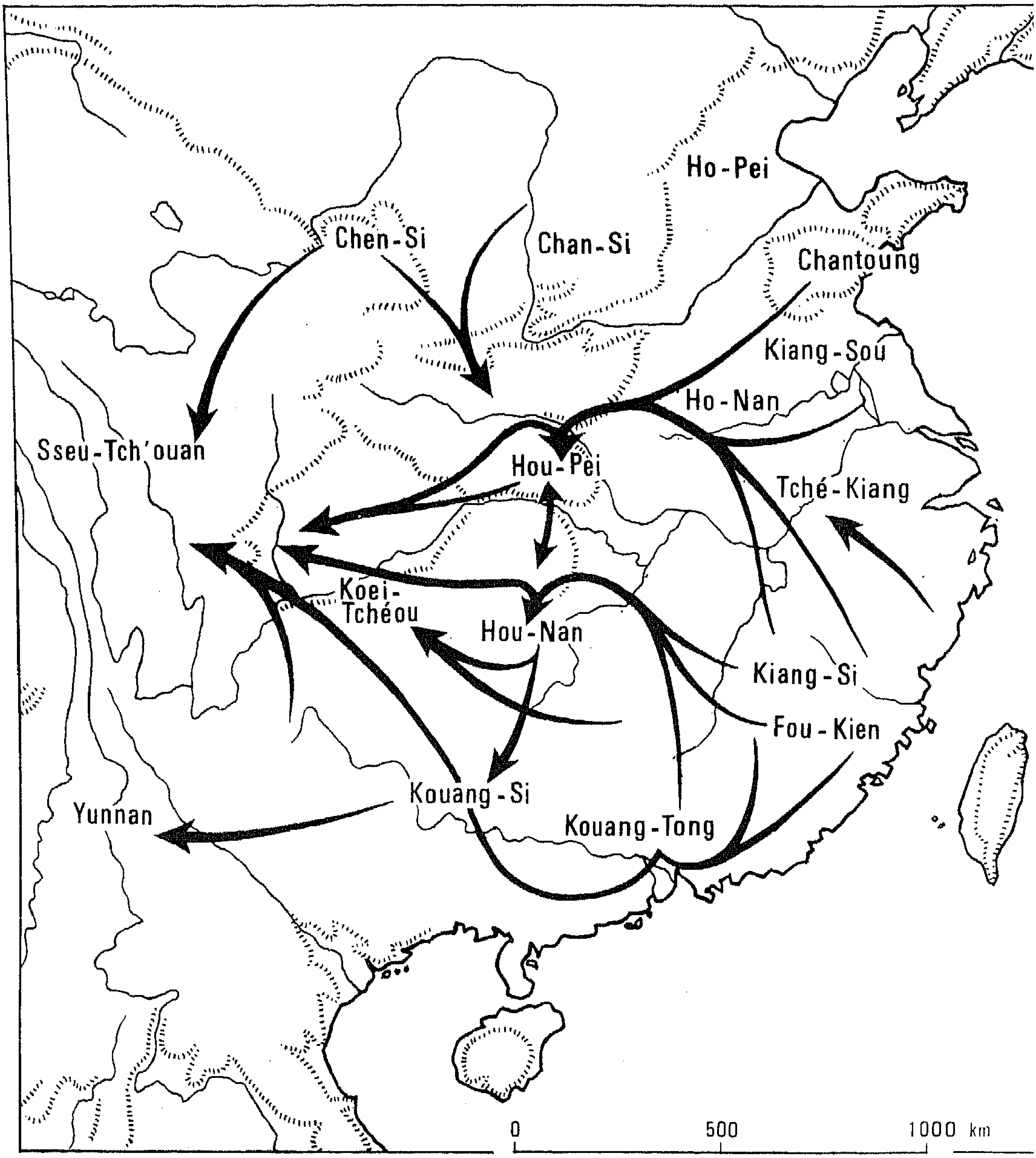

٣ ـ الهجرات الداخلية في الصين في القرن الثامن عشر

أدت الزيادة السكانية الكثيفة في القرن الثامن عشر الى تعدد الهجرات داخل الصين من اقليم إلى اقليم ، ونرى في هذه الخريطة تخطيطا اجماليا عاما لهذه الهجرات . (عن كتاب :

.(L. Dermigny ، au XVIIIe siec à Canton au XVIIIe siècle.

يصدق هذا التقدير. ثم إن الهند عانت في أثناء هذا القرن - السادس عشر - من مجاعات رهيبة اجتاحت أقاليم الشمال (٣٣). ولكن الدراسات الحديثة التي قام بها المؤرخون الهنود تبرز الثراء والزيادة السكانية القوية في الهند في القرن السابع عشر (٣٤). كذلك هناك تقدير فرنسي غير منشور يرجع إلى عام ١٧٩٧ (٣٥) ينسب إلى الهند من السكان ١٥٥ نسمة ، بينما كانت الصين " الرسمية " تذكر منذ عام ١٧٨٠ رقم ٢٧٥ مليون . إلا أن المغامرة الاحصائية لكينجسلي ديفيس (٣٦) Kingsley Davis لا تعطينا المبرر الذي يمكننا أن نبني عليه قبولنا لعدد منخفض من السكان في الهند . ولهذا لا نستطيع تصديقه تصديق الأعمى .

على أية حال يمكن تقدير عدد سكان آسيا المفترض فيه أن يكون ضعف أو ثلاثة أمثال عدد سكان الصين بأنه كان ٢٤٠ أو ٣٦٠ مليون نسمة في عام ١٦٨٠ ؛ وكان ٦٠٠ أو ٩٠٠ مليون في عام ١٧٩٠ . ونعيد التأكيد مرة أخرى أننا نرجح ، وبخاصة حول منتصف القرن السابع عشر ، الأرقام الدنيا . والنتيجة أن المجموع الكلي لسكان العالم حول عام ١٦٨٠ يكون حاصل جمع الأرقام التالية :

أفريقيا	٣٥ أو ٥٠ مليون نسمة ،
آسيا	٢٤٠ أو ٣٦٠ مليون ،
أوروبا	١٠٠ مليون ،
أمريكا	١٠ مليون ،
الجزر المحيطية	مليون .

هكذا نصل إلى نفس الخطوط العريضة التي تضمنها حسابنا الأول مع نفس هوامش الشك .

القـــرون
بعضها بالقياس الى البعض

كانت عمليات التحقق من أرقام السكان التي أجريناها تقوم على أساس المكان، إذ تتبعناها من قارة إلى قارة، وهي لا تستبعد أن نقوم بعمليات تحقق أكثر صعوبة نجريها على أساس الزمن، قرنا بعد قرن . وقد قدم پاول موميرت (٣٧) نموذجا أوليا لهذا الحساب بالنسبة لأوروبا في الفترة من عام ١٦٥٠ إلى عام ١٨٥٠ ، استرشد فيه بملحوظتين، الأولى: أن الأرقام النهائية هي أقل الأرقام تعرضا للجدل ؛ والثانية : أننا عندما نرجع القهقرى من التقديرات الحديثة الى التقديرات القديمة، فانه ينبغي علينا أن نفترض أن تكون هناك انحدارات "بديهية " في النمو السكاني. والنتيجةأننا نصل بالنسبة

لأوروبا في عام ١٨٥٠ إلى رقم ٢٦٦ مليون نسمة وأن نستنتج . نظرا لأن الانحدارات كانت قليلة العنف حتى أن ويلكوكس مثلا لم يقبلها . رقم ٢١١ مليون لعام ١٨٠٠ ؛ ورقم ١٧٣ لعام ١٧٥٠ ؛ و١٣٦ لعام ١٦٥٠ ؛ و١٠٠ لعام ١٦٠٠ . وهذا يشير إلى أن هذه الطريقة من الحساب على أساس خط انحدار الزمن تعطينا تقديرا أعلى لعدد السكان في القرن الثامن عشر بالقياس إلى التقديرات الجارية ؛ ومعنى هذا أن الزيادة السكانية التي تنسب عادة إلى القرن التاسع عشر، ينتسب جزء منها الى القرن الذي سبقه، وهو القرن الثامن عشر. (والأرقام المذكورة نوردها بطبيعة الحال مع التحفظ).

وهانحن أولاء نرى أمامنا معدلات نمو سكاني " معقولة "، تؤكدها في خطوطها العريضة بعض البحوث، وهذه المعدلات هي :

٦ر٢ ٪ من عام ١٦٠٠ الى عام ١٦٥٠ ؛ ٤ر٢ ٪ من ١٦٥٠ الى ١٧٥٠ ؛ و٤ ٪ من ١٧٥٠ الى ١٨٠٠ ، ٦ر٤ ٪ من ١٨٠٠ الى ١٨٥٠ . ونقع مرة أخرى ، فيما يختص بعام ١٦٠٠ ، على رقم ك . يوليوس بيلوخ ، وهو ١٠٠ مليون نسمة على وجه التقريب لأوروبا كلها . ولكننا لا نحتكم على دلائل جادة نعتمد عليها في هذه الحركة النكوصية ضد اتجاه التيار، من ١٦٠٠ إلى عام ١٣٠٠ . في هذه الفترة المضطربة التي نعرف عنها أن انحسارا سكانيا شديدا ألم بها من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٤٥٠ ، ثم تبعه مد صاعد قوي من عام ١٤٥٠ إلى عام ١٦٥٠.

وليس من شك في أننا نستطيع ، على مسئوليتنا ، أن نتلقف المنهاج السهل الذي اتبعه پاول موبرت ، والرقم الذي يتسم بأنه أقل مجازفة بالنسبة لعام ١٦٠٠ ، وهو رقم ١٠٠ مليون نسمة لأوروبا ، هو عبارة عن قمة حركة مد سكاني طويلة ، يمكننا أن نتردد في الاختيار بين ثلاثة انحدارات ، أحدها بمعدل ٦ر٢ ٪ عن التزايد السكاني من عام ١٦٠٠ إلى عام ١٦٥٠ ، والثاني بمعدل ٤ر٢ ٪ عن الفترة من عام ١٦٥٠ إلى عام ١٧٥٠، والأخير بمعدل ٤ ٪ عن الفترة من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٨٠٠. ومن المنطقي أن نأخذ بالمعدل الأخير، وهو ٤ ٪، لكي نستنتج الزيادة السكانية بين عام ١٤٥٠ وعام ١٦٠٠. والنتيجة هي: أن من المحتمل أن يكون عدد السكان في عام ١٤٥٠ في أوروبا حوالي ٥٥ مليون نسمة . وإذا قبلنا ما ذهب اليه كل المؤرخين من أن سكان أوروبا فقدوا خمس عددهم نتيجة للطاعون الأسود ومستتبعاته، فإننا يمكن أن نستنتج أن عدد السكان كان في الفترة من ١٣٠٠ الى ١٣٥٠ نحو ٦٩ مليون نسمة. ولست أرى أن هذا الرقم يتعارض مع البداهة والمعقولية. وإذا أخذنا في اعتبارنا ألوان التخريب والبؤس المبكرة التي حاقت بشرق أوروبا ، والعدد المذهل من القرى التي تلاشت في ربوع أوروبا قاطبة إبان محنة السنوات من ١٣٥٠ الى ١٤٥٠، وجدنا أن هناك ما يدعم تصديق رقم الـ ٦٩

مليون المرتفع، وهو رقم قريب من التقدير المعقول الذي قدره يوليوس بيلوخ (٦٦ مليون).

ويرى بعض المؤرخين في الانتفاضة السكانية القوية على مدى القرن السادس عشر الطويل بجذوره في القرن السابق وامتداداته في القرن اللاحق (١٤٥١ـ ١٦٥٠) " تعويضا " بعد الانحسارات السكانية السابقة (٣٨). وتبين أرقامنا أن عدد السكان سجل تعويضاً للفاقد ، ثم سجل زيادة تجاوزت الحد القديم . وأياً كان الأمر فإن هذه موضوعات يمكن الجدل فيها .

قصور التفسيرات القديمة

بقي أن نرى رأينا في المشكلة التي أشرنا اليها في البداية : مشكلة التزايد " العام " لسكان العالم . وتدفعنا الزيادة السكانية في الصين على أية حال ، وهي زيادة واضحة ولا جدال فيها، شأنها شأن الزيادة السكانية في أوروبا ، إلى مراجعة التفسيرات القديمة ، والرأي عندنا أن على المؤرخين أن يلبسوا ثياب الحداد ويترحموا على تفسيراتهم القديمة التي ماتت وانتهت ، أولئك المؤرخين الذين كانوا يصرون على تفسيرالزيادة السكانية في الغرب بأنها جاءت نتيجة انخفاض معدلات الوفيات في المدن {وهي وأن انخفضت كانت ماتزال عالية جدا (٣٩)} ، ونتيجة لتقدم الصحة والطب، وتراجع الجدري ، وانشاء شبكات المياه الصالحة للشرب ، والانخفاض الحاسم في وفيات الأطفال، بالإضافة الى الانخفاض العام في معدل الوفيات ، وزيادة متوسط سن الزواج، وهذه كلها أسباب لها وزنها .

وينبغي علينا أن نلتمس ، بوسيلة أو بأخرى ، في مكان آخر غير الغرب ، تفسيرات مناظرة أو لها نفس الوزن ؛ في الصين مثلا كانت الزيجات دائما " مبكرة وخصيبة "، فلا يمكن أن نذكر هنا كسبب لزيادة السكان انخفاض متوسط سن الزواج أو حدوث قفزة في معدل المواليد؛ أما الصحة في المدن فيدلنا على سوء حالها ما كان يحدث في الصين، فهذه مدينة بكين الهائلة التي بلغ عدد سكانها، على ما قال سائح انجليزي في عام ١٧٩٣، ثلاثة ملايين نسمة (٤٠) ، على مساحة كانت يقينا أقل من مساحة لندن، التي لم يصل عدد سكانها آنذاك إلى مثل هذا الرقم الخرافي، بل كان بعيدا أشد البعد عنه ؛ كانت الأسر في بكين تتكدس في بيوت منخفضة تكدسا لا يكاد الإنسان يصدقه. فما يمكن أن يكون للصحة في تلك الظروف شأن.

كذلك، حتى إذا لم نخرج عن حدود أوروبا ، كيف نفسر الزيادة السكانية السريعة التي حدثت في روسيا (فقد تضاعف عدد السكان من عام ١٧٢٢ إلى عام ١٧٩٥ من

١٤ مليون الى ٢٩ مليون) في وقت كانت فيه تفتقر إلى الأطباء والجراحين (٤١) ولم تكن المدن تراعي من أمور الصحة شيئاً؟

فإذا خرجنا من القارة الأوروبية مرة أخرى ، فكيف نفسر ما حدث في القرن الثامن عشر من زيادة في أعداد الانجلوسكسونيين ، والأسبان ، والبرتغاليين في أمريكا التي لم يكن بها آنذاك أطباء ، ولم تكن رعاية الصحة فيها شيئاً مذكوراً ، وبخاصة في مدينة ريو دي جانيرو ، التي أصبحت منذ عام ١٧٦٣ عاصمة البرازيل ، تلك المدينة التي كانت الحمى الصفراء تزورها بانتظام ، والتي كان الجدري فيها ، كما كان في كل أمريكا الأسبانية ، يصول ويجول على شكل وباء يصيب المرضى بتعفن ينفذ في أبدانهم و" ينخر عظامهم " (٤٢) ؟ أيا كان الأمر، فأقرب الظن أن كل أمة كانت تعرف سبيلها الذي تمضي فيه ليزداد عددها. ولكن سؤالا يبقى بغيرإجابة : لماذا كانت موجات الزيادة السكانية تحدث في أركان العالم كله في وقت واحد ، أو في وقت واحد تقريباً؟

وليس من شك في أن الدنيا كلها شهدت في كل ربوعها ، وبخاصة مع النمو الاقتصادي العام الذي حدث في القرن الثامن عشر - بل قبله بكثير - مضاعفة الأماكن المتاحة للبشر . فقد جرى استعمار لكل بلاد الدنيا ، وسكن الناس في أراضيها التي كانت خالية أو شبه خالية . ونعمت أوروبا بمزيد من الأماكن الحيوية ، ومن الطعام ، تلقته من وراء البحار ، ومن الجزء الشرقي من أوروبا أيضاً بعد أن خرج من " همجيته " على حد قول القس دي مابلي de Mably ؛ كان هذا الجزء الشرقي من أوروبا أو ما سمي بالشرق الأوروبي يعني جنوب روسيا ، كما يعني الربوع المجرية ، ذات الغابات والمستنقعات والظروف اللاإنسانية ، التي استمرت فيها ردحا طويلا من الزمن حدود الدولة العثمانية بما اشتعل فيها من معارك ، ثم آن يومئذ أوان زحزحتها الى الجنوب زحزحة كبيرة. وتلك حقيقة تصدق على أمريكا كذلك ، وليست بنا حاجة الى الدخول في تفصيلاتها واللج فيها . كذلك تصدق على الهند حيث بدأ استعمار أرض الريجور regur السوداء القريبة من بمباي(٤٣). وتصدق أيضا ، وعلى نحو أكثر ، على الصين التي شغلت في القرن السابع عشر بملء فراغات كثيرة وإعمار البوادي ، تارة في أراضيها وتارة في المناطق المجاورة لها . ويصح أن نذكر في هذا المقام رينيه جروسيه René Grousset الذي قال: " إذا كان علينا أن نقارن تاريخ الصين بتاريخ جماعة بشرية كبيرة أخرى ، فعلينا - على الرغم من أن هذا الأمر يلوح منطويا على التناقض والمفارقة - أن نفكر في مقارنته بتاريخ كندا أو الولايات المتحدة الأمريكية. ويدور الأمر في الحالتين أساسا - بغض النظر عن صروف السياسة - حول غزو مساحات شاسعة من الأراضي يقوم به شعب من المزارعين لا يجد في مواجهته إلا شعوبا فقيرة توشك أن تكون من البدو الرحل ." (٤٤) ثم استمر هذا التوسع في القرن الثامن عشر أو عاد آنذاك من جديد .

أيا كان الأمر، فإذا كان هناك توسع جديد وعام ، انتشر في ربوع العالم، فإنما يرجع السبب في ذلك الى زيادة أعداد البشر، كان غزو الأرض - على الأحرى - نتيجة لزيادة أعداد البشر ، أكثر من كونه سببا أدى اليها. هناك حقيقة واقعة تتمثل في أن البشر كان لديهم دائما مكان ، في متناول اليد ، يمكنهم أن يضموه إليهم كلما أرادوا أو كلما احتاجوا. حتى في أيامنا هذه ، وفي عالمنا هذا الذي أصبح عالما " منتهيا " ، كما يقول پول ڤاليرى Paul Valéry ، مستخدما لغة استعارها من علماء الرياضة ، يلاحظ عالم اقتصاد أريب أن " الانسانية لم يعد تحت تصرفها لا وادي ميسيسيپي ثان ، ولا أرض أرجنتين ثانية " (٤٥) ولكنها ما تزال تمتلك أماكن خالية ؛ فما تزال هناك الغابات الاستوائية ، ومناطق الاستپس ، بل والمنطقة القطبية الشمالية ، حيث يمكن أن تقدم الينا التقنيات الحديثة الكثير من المفاجئات (٤٦).

والحق أن هذا ليس هو جوهر السؤال. السؤال الحقيقي كان ولايزال هو: لماذا لعب " التوافق الجغرافي " في مناطق متعددة ، في الهند والصين وروسيا والمجر وأمريكا وغير هذه وتلك ، لعبته في وقت بعينه ، فتحرك الناس في وقت واحد تقريبا الى غزو المكان ، بينما كان المكان متاحا دائما ؟ التزامن هو جوهرالمشكلة . لايمكن أن نعتبر الاقتصاد العالمي - الذي كان فعالا وإن ظل واهيا هشا - مسئولا وحده عن حركة عامة وعارمة الى هذا الحد. إنه أيضا نتيجة بقدر ما هو سبب .

ايقاعات المناخ

لا يمكن أن يتصور الإنسان حيال هذا التناغم التي يتسم بالكمال - قلَّ هذا الكمال أو كثر - إلا اجابة واحدة على السؤال المطروح ، إجابة لم تعد اليوم تثير ابتسام العلماء المتبحرين : ألا وهي تأثير التغيرات المناخية . كانت هناك تغيرات مستمرة في الحرارة ، وفي نظم الضغط الجوي أو المطر، كشفت عنها البحوث المكثفة التي قام بها المؤرخون وعلماء الأرصاد الجوية مؤخرا . وكانت هذه التغيرات المناخية تؤثر على الأشجار ، ومجاري المياه ، والمناطق المتجمدة ، ومستويات البحار ، ونمو الأرز، ونمو القمح ، وأشجار الزيتون ، والكروم ، والحيوانات ، وكذلك البشر .

لم تكن الدنيا ، بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر ، الا مجتمعا ريفيا ضخما ، حيث كان ما بين ٨٠ ٪ و ٩٠ ٪ من البشر يعيشون على ما تنبته الأرض ، ولا شيء غيره. وكان إيقاع المحاصيل ونوعيتها ، وقصورها عن الوفاء بالحاجة، أمورا تحكم الحياة المادية كلها ، وكان هذا يعني حدوث ضربات مفاجئة تنفذ كالأنياب في لب الشجر، وفي لحم الإنسان . وكانت طائفة من هذه التغيرات تظهر في أركان المعمورة في وقت واحد ، وسعى الناس إلى تفسير ظاهرة تزامنها هذا بافتراضات مختلفة ، ينتقلون من افتراض الى

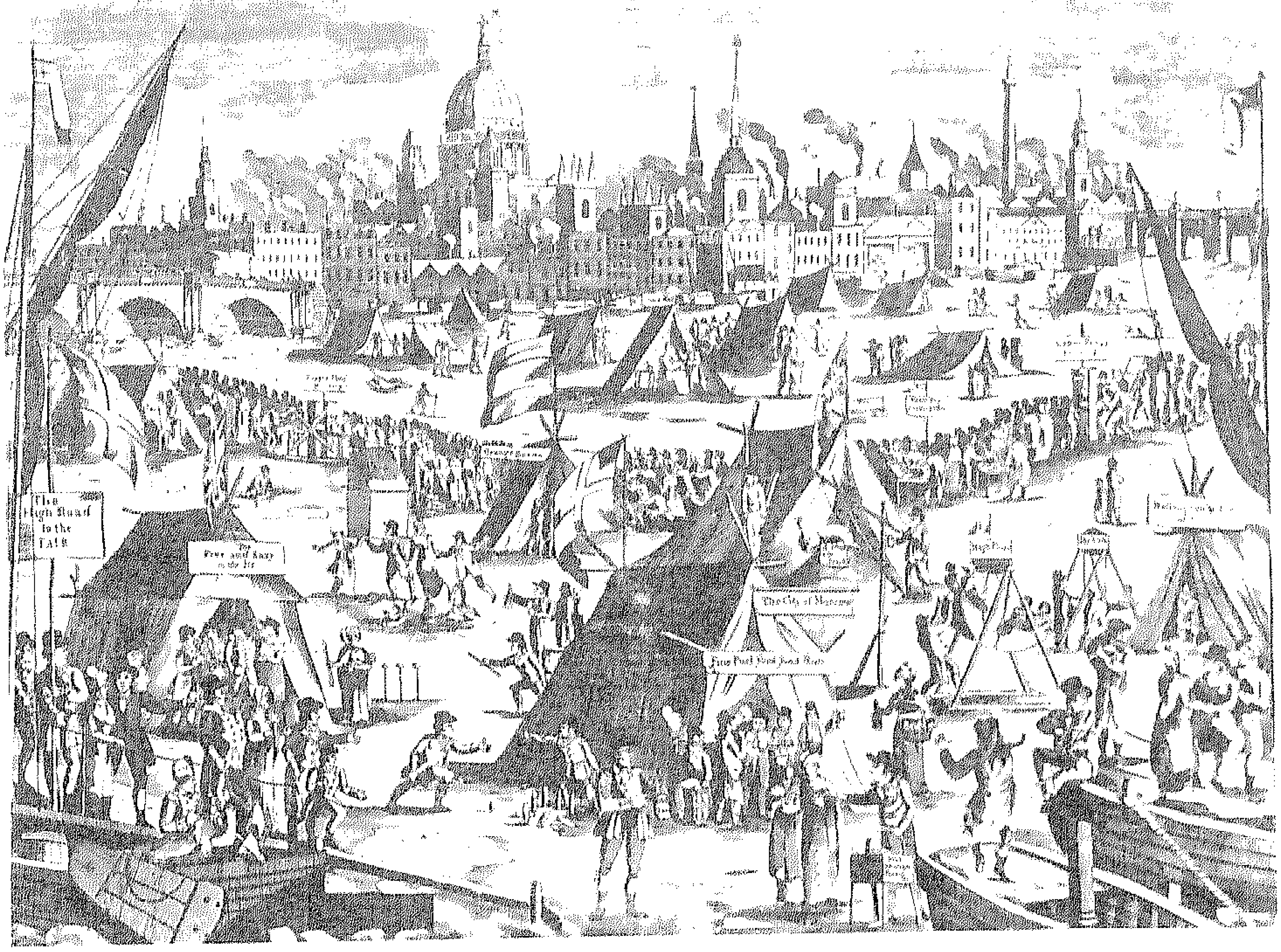

يعتبر تجمد مياه الأنهار والنهيرات والبحيرات مؤشرا قيما يبين التغيرات المناخية . في عام ١٨١٤ (ومن قبله في عام ١٦٨٣ انظر المجلد الثاني من كتابنا هذا ص ١٩) تجمد نهر التيمز " من كوبري لندن بريدج الى كوبري بلاك فراير بريدج. From londorn Bridge to Black Friar Bridge " وتحول سطحه المتجمد الى ساحة سوق فسيحة.

افتراض آخر ، وكان منها ذلك الافتراض الذي تعلقوا به بالأمس والذي ذهب الى وجود تغيرات في سرعة ما أسموه التيار الدافق jet stream . فقالوا إن انخفاضا عاما في الحرارة أصاب نصف الكرة الشمالي في القرن الرابع عشر ، وإ الكتل الثلجية في الأرصفة المتجمدة زادت، وإن برد الشتاء تصاعدت حدته . وأدى هذا التغير في المناخ الى انقطاع طريق الڤايكينج إلى أمريكا لما اعترضه من ثلوج خطيرة : " لقد أتى الثلج الآن [...] ولم يعد في مقدو إنسان أن يسلك الطريق القديمة دون أن يعرض حياته للخطر ".. هذا ما كتبه قسيس نرويجي في منتصف القرن الرابع عشر . ويقولون إن هذه المحنة المناخية فصلت المستعمرات النورماندية عن جرونلاند؛ وانظر إلى جثث أولئك الذين ناضلوا الموت، وتشبثوا بالحياة دون جدوى، ووجدوهم مدفونين في التربة الجليدية ، فهي الشاهد المؤثر على هذه الأحداث (٤٧).

كذلك يصفون عصر لويس الرابع عشر بأنه " العصر الجليدي الصغير" على حد تعبير شوف.Schove J. D (٤٨) ، ويصورون البرودة التي طرأت على المناخ آنذاك وما أحدثته بقائد أوركسترا يفرض إرادته على العازفين، فقد استبدت البرودة بالناس استبدادا أشد نكاية من استبداد الملك لويس الرابع عشر الذي كان يلقب بالملك الشمس ، ولقد كانت البرودة تحدث آثارها في أوروبا ، حيث الحبوب ، وفي آسيا ، حيث الأرز ومراعي الاستبس ، وفي منطقة البروڤانس ، حيث الزيتون ، وفي البلاد الاسكندنافية، حيث يستمر تراكم الثلج المتساقط والجليد الصلد وقتا طويلا ، ولاينتهي بنهاية الشتاء ، فإذا أسرع الخريف بالقدوم قبل موعده، وبرد الجو ، لم يجد القمح فرصة للنضج : هذا ما حدث في السنوات حول عام ١٦٩٠ ، التي كانت أشد السنوات برودة منذ سبعة قرون (٤٩) . كذلك في الصين حول منتصف القرن السابع عشر تعددت عوادي الطبيعة ، من كوارث جفاف إلى أمطار جراد ، وتتابعت ثورات الفلاحين في أقاليم الصين الداخلية ، شبيهة بثورات الفلاحين في فرنسا إبان حكم الملك لويس الثالث عشر. كل هذا يعطي تقلبات الحياة المادية معنى إضافيا ، وربما شرح تزامنها. هناك إذن إمكانية وجود ترابط فيزيقي على مستوى الكرة الأرضية، وإمكانية وجود عمومية يحيط بها نوع بعينه من التاريخ البيولوجي الشامل لأبعاد الانسانية كلها ، وربما مثلت هذه الإمكانية بالنسبة للكرة الأرضية وحدتها الأولى ، تلك الوحدة التي سبقت الاكتشافات الكبرى بوقت كبير، وسبقت الثورة الصناعية وتفسيرالنظم الاقتصادية .

وإذا كان هذا التفسير المناخي يتضمن شيئا من الحقيقة ، وهو ما أؤمن به ، فينبغي علينا أن نحذر من المبالغة في تبسيطه ، فكل مناخ عبارة عن نظام معقد شديد التعقيد، ولا يمكن أن تحدث آثاره على حياة النبات والحيوان والبشر إلا سالكة سبلا كثيرة الانحناءات والالتواءات ، تتنوع بحسب الأماكن والزراعات والفصول . فهناك في أوروبا الغربية المعتدلة مناخيا " علاقة تناسب سلبية بين كمية المطر الذي يسقط في الفترة من ١٠ يونية الى ٢٠ يولية " وهناك " علاقة تناسب إيجابية بين النسبة المئوية [للأيام المشمسة] في الفترة من ٢٠ مارس الى ١٠ مايو وعدد حبوب [سنابل] القمح " (٥٠). وإذا نحن أردنا أن نثبت أن هناك نتائج هامة تنجم عن اختلال المناخ ، فلا بد أن نبرهن على هذا الاختلال بالدليل المأخوذ من بلاد المنطقة المعتدلة التي كانت أكثر المناطق سكانا، وكانت فيما مضى "أكثر البلاد أهمية بالنسبة لطعام أوروبا الغربية " (٥٠). هنا يكون البرهان ساطعا. إلا أن الأمثلة التى أوردها المؤرخون على الآثار المباشرة للمناخ على المحاصيل كثيرا ما تدور حول مناطق وزراعات هامشية، مثل القمح في السويد . والوضع الحالي للبحث، الذي ما يزال قائما على نقطة واحدة من بين نقاط عديدة ، وضع لا يسمح بالتعميم . كذلك لا ينبغي علينا أن نبالغ ، ونتعجل بأحكام مسبقة على أجوبة

لم تأت بعد ، وانما ستأتي في المستقبل . وعلينا ألا نغفل عن ضعف البشر الفطري في مواجهة قوي الطبيعة العارمة . وسواء كان التقويم السنوي بفصوله حسن النية أو لم يكن،(بما يأتي به من مطر وحرارة ورياح) ، فإنه السيد الذي يسيطر على البشر . ومن البديهي أن مؤرخي الاقتصاد في العهد القديم ، الذي انتهى بنهاية القرن الثامن عشر ، كانوا يرون أن الاقتصاد يسير على إيقاع منظم ، يقوم على تتابع يبدأ بالمحاصيل الجيدة ، تليها المحاصيل الأقل جودة ، ومن بعدها المحاصيل الرديئة. ولكن توالي النكبات بضرباتها المتكررة هو الذي يحرك ذبذبات هائلة في الأسعار ، تحرك بدورها مئات الأشياء التي ترتبط بها . وهل منا من لم يفكر في أن هذه الضربات المتتالية ، التي تكوِّن ما يشبه الموسيقى المصاحبة المُلحّة من بعيد ، لا ترتبط جزئيا بتاريخ المناخ المتقلب؟ ونحن نعرف حتى اليوم الأهمية الجَوهرية لرياح الموزون الموسمية : التي اذا تأخرت عن موعدها أحدثت بالهند خسائر لا سبيل الى تعويضها . فإذا تكررت الظاهرة ، ظاهرة تأخر الرياح الموسمية، سنتين أو ثلاث سنوات متتالية ، حدثت مجاعة . لم يتحرر الإنسان في تلك البقاع من ربقة الضغوط المناخية الرهيبة التي يتعرض لها . وما ينبغي كذلك أن ننسى كوارث الجفاف التي شهدتها فرنسا وأوروبا الغربية في عام ١٩٧٦ ، أو ما جرى على نظام الرياح في عامي ١٩٦٤ و١٩٦٥ من تقلب شاذ أدى الى حدوث جفاف رهيب في الولايات المتحدة شرقي جبال الروكي ماونتينز Rocky Mountains(٥٢).

وللإنسان إذا شاء أن يبتسم عندما يتصور أن هذا التفسير المعتمد على المناخ ، وعلى السماء وأفلاكها قد ذهب بالناس في الأزمان الماضية كل مذهب ، فقد كانوا يميلون ميلا مفرطا الى تفسير كل أمور الدنيا ومصائر الأفراد والجماعات والأمراض بالنجوم ... وهذا هو عالم من علماء الرياضة ، كان مغرما بالعلوم الغيبية ، هو أورونس فينيه Oronce Finé يلجأ الى التنجيم في عام ١٥٥١ ليخرج بهذا التشخيص : " إذا اجتمعت الشمس والزهرة والقمر في برج الجوزاء ، قل ربح الكتّاب في ذلك العام ، وتمرد الخدم على سادتهم وأشرافهم . ولكن القمح يكون وفيرا في الدنيا كلها ، وتفقد الطرق أمنها لكثرة اللصوص " (٥٣).

على سبيل المقارنة

يبلغ عدد سكان الكرة الأرضية حاليا فيما نعلم في عام ١٩٧٩ حوالي أربعة مليارات وهو رقم تقريبي (نسبة التقريب ١٠ ٪) ، وإذا نحن رجعنا على سبيل المقارنة الى الأرقام التقريبية جدا التي أوردناها من قبل ، فإن عدد السكان الحالي يعتبر بالقياس الى عدد السكان في عام ١٣٠٠ ١٢ ضعفاً ، وبالنسبة الى عددهم في عام ١٨٠٠ نحو خمسة أضعاف (٥٤) . عندنا اذن معامل زيادة من ١ الى ١٢ ، ومن ١ الى ٥ ، وعندنا مقادير نحسبها عن طريقها ، ولكنها جميعا ليست أرقاما ذهبية يمكنها أن تشرح كل شيء ، فهي تشير الى وقائع ليست لها طبيعة واحدة : فليست البشرية اليوم في الحقيقة ١٢ ضعف البشرية في عام ١٣٠٠ أو في عام ١٣٥٠ ، ولا حتى من الناحية البيولوجية البحتة ، لأن التدرجات الهرمية للأعمار ليست متطابقة ، بل هي بعيدة بعدا كبيرا عن التطابق . وعلى الرغم من ذلك فان مجرد مقارنة الأرقام الخام يفتح أمامنا بعض الآفاق .

مدن ـ جيوش ـ أساطيل

فنحن معشر المؤرخين عندما نقوم برحلاتنا التي نرجع بها الى الوراء الى ما قبل القرن التاسع عشر لا نلتقي ، قياسا على معاييرنا الحالية ، إلا بمدن صغيرة وجيوش صغيرة : نكاد أن نحيط بهذه وتلك في راحة اليد .

كانت مدينة كولونيا في القرن الخامس عشر كبرى المدن الألمانية (٥٥) ، وكانت تقع عند ملتقى أسطولين ملاحيين على صفحة نهر الراين ، أسطول يتجه نحو المنبع ، وأسطول يتجه نحو المصب ، وعند ملتقى طرقات برية كبيرة ، ولكن عدد سكانها لم يكن إلا ٢٠٠٠٠ نسمة في وقت كانت فيه نسبة سكان الريف الى سكان المدن ١٠ الى ١ ، وكان تمدد المدن واضحا جليا في ذلك العصر حتى وان بدا لنا منخفضا . علينا أن نقبل بأن جماعة من البشر قوامها ٢٠٠٠٠ نسمة تعتبر تجمعا هاما من البشر والمقومات والمواهب والأفواه التي تطلب الطعام ، تزيد كثيرا ـ مع الحفاظ على كل التناسبات ـ على تجمع بشري قوامه ١٠٠٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠٠ نسمة حاليا . وعلينا أن نفكر فيما كان يمكن أن تعنيه ثقافة كولونيا الأصيلة والنشيطة الحية في القرن الخامس عشر . كذلك الحال عندما نتكلم عن استانبول في القرن السادس عشر ، والتي ينبغي أن نتخيل سكانها بمعاييرنا بحيث لا يقلون عن ٤٠٠٠٠٠ ، وقد يصلون الى ٧٠٠٠٠٠ (٥٦) ، ومن حقنا أن نقول إنها كانت غولا أو مدينة مغيالة يمكن مقارنتها ـ عند تساوي العناصر كلها ـ بالتجمعات البشرية الكبرى في أيامنا هذه . كانت استانبول تحتاج في حياتها الى كل قطعان الغنم الموجودة في البلقان ، وكل ما كانت مصر تنتجه من أرز وفول وقمح ؛ وقمح وخشب البحر الأسود ؛ وأبقار وجمال وخيول آسيا الصغرى ؛ وتحتاج لتجديد سكانها الى كل البشر

المتاحين في الامبراطورية ، بالاضافة الى العبيد الذين كانت الغارات التتارية تجلبهم من روسيا ، والأساطيل التركية تجلبهم من شواطيء البحر المتوسط ، وكانوا جميعا يباعون في بيسيستان ، تلك السوق الهائلة القائمة في قلب العاصمة الضخمة .

ولنا أن نقول على سبيل اليقين إن جيوش المرتزقة التي كانت تتنازع ايطاليا في مطلع القرن السادس عشر كانت جيوشا صغيرة الحجم تعد عشرة آلاف أو عشرين ألف رجل وتتسلح بعشرة أو عشرين مدفعا .هؤلاء الجنود البواسل وقوادهم الأفذاذ ـ من قبيل بيسكير Pescaire ودي بوربون de Bourbon ودي لانوا de Lannoy وفيليبير دي شالون Philibert de Chalon ـ الذين تتحدث عنهم كتبنا المدرسية ، وكيف كان يحلو لهم أن يضربوا جيوش المرتزقة الأخرى التي كان يقودها الملك فرانسوا الأول Framçois Ier أو بونيڤيه Bonnivet أو لوتريك Lautrec ـ ـ كانت كلها جيوشا يأتلف الواحد منها بصفة أساسية من عشرة آلاف من جنود الفرق القديمة، فيهم ألمان مشاة وأسبان يحملون بنادق البارود ، عشرة آلاف رجل من صفوة الأجناد ، كانت تستهلك بنفس السرعة التي استهلكت بها جنود نابليون فيما بعد ، بين معسكر بولونيا وحرب أسبانيا (١٨٠٣- ١٨٠٨). جنود يحتلون مسرح الأحداث من معركة بيكوكا Bicocca التي يسميها الفرنسيون لا بيكوك La Bicoque (١٥٢٢) الى هزيمة القائد لوتريك في نابلي (١٥٢٨). وكانت معركة باڤيا Pavia (١٥٢٥) هي قمة معاركهم (٥٧). كان هؤلاء الرجال الذين يعدون آنذاك بعشرة آلاف امتازوا بسرعة الحركة والبأس الشديد والقوة والقسوة التي لاتعرف الرحمة (وهم الأبطال المناكيد الذين نهبوا روما) يزيدون كثيرا ـ بمقاييس الحاضر ـ على خمسين ألف أو مائة ألف من رجال اليوم ، اذا ضربنا في ٥ أو ١٠ . ولو كانت الجيوش في تلك الأزمان الماضية أكثر عددا لما استطاع القادة أن يحركوها ولا أن يدبروا مؤونتها ، اللهم إلا إذا كان البلد بطبيعته بلدا خصبا غنيا بالطعام . ومن هنا نقول ان انتصار باڤيا كان في جانب منه نجاحا للجنود المسلحين ببنادق البارودة ، وفي الجانب الآخر الأكبر انتصار البطون الخاوية ، فقد كان جيش الملك فرانسوا الأول ينال من الطعام فوق حاجته ، وكان يحتمي بمخابيء تحميه من مدافع العدو ، بين أسوار مدينة باڤيا التي يقوم بمهاجمتها ، وبين بستان الدوق ـ وكان مرتعا للصيد محاطا بالأسوار (أي كان مكانا محدود المساحة) وهو البستان الذي دارت فيه رحى المعركة الضروس في ٢٤ فبراير من عام ١٥٢٥.

كذلك معركة لونج مارستون مور Long Marston Moor (في ٢ يولية ١٦٤٤) الحاسمة الفظيعة ، التي مني فيها الجيش الملكي الإنجليزي بأول هزيمة في مأساة الحرب الأهلية الإنجليزية ، معركة لم تتواجه فيها سوى قوات محدودة العدد : ١٥٠٠٠ من الملكيين و ٢٧٠٠٠ من البرلمانيين ؛ وقد ذكر بيتر لاسليت Peter Laslett أن جيش

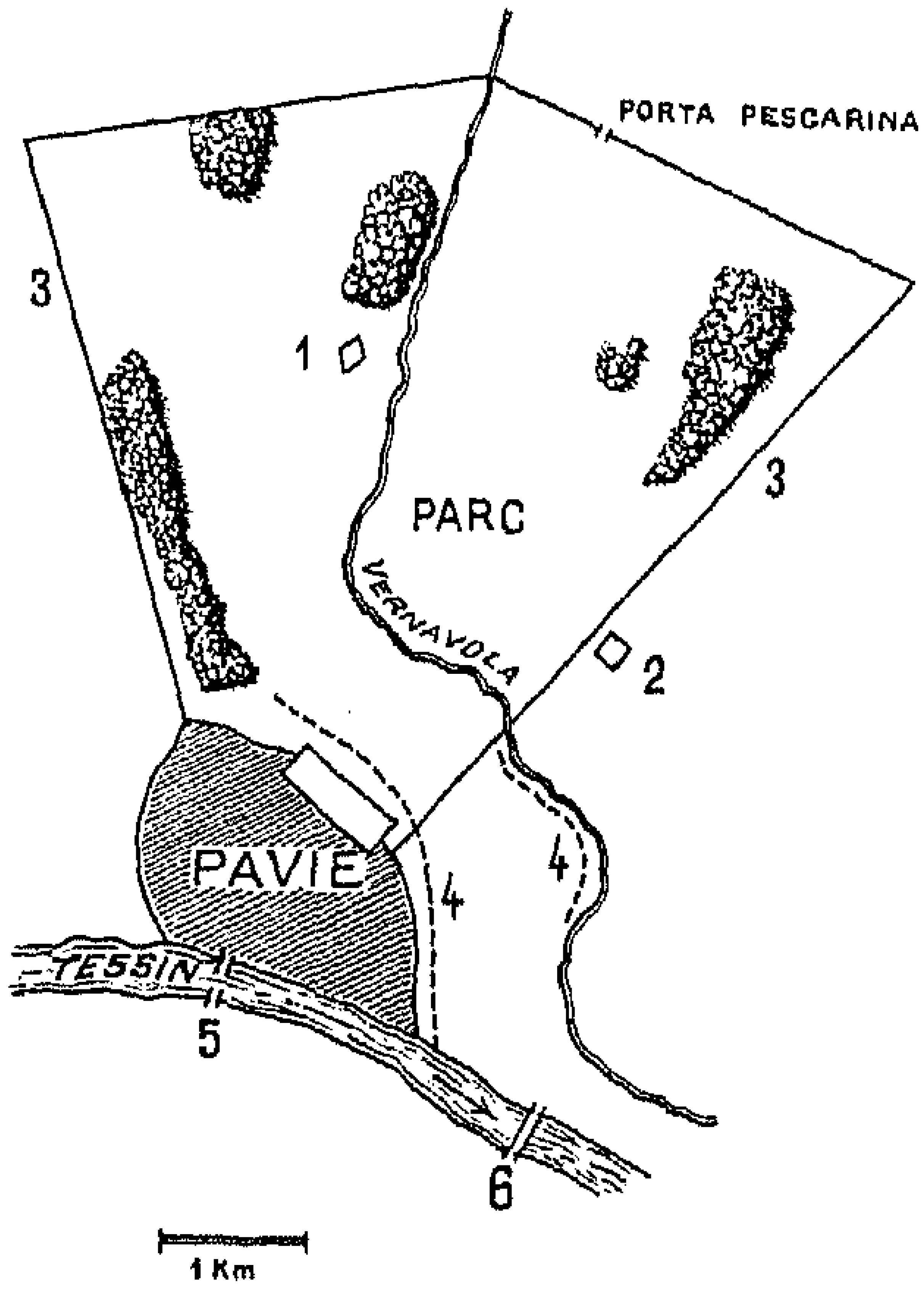

٤ ـ معركة بافيا

١) ميرابللو ٢) مبنى كلاب الصيد ٣) أسوار من القرميد حول البستان ٤) خنادق الفرنسيين ٥) جسر سان أنطونيو الذي قطع في بداية الحصار ٦) جسر خشبي قطعه الدوق دالينسون d'Alençon .

البرلمانيين كله كـان مـن الممكن أن تقله سفينتان هما كوين ماريQueen Mary وكوين اليزابث Elisabeth Queen ، وخلص من ذلك الى أن " الحجم الصغير للتجمعات البشرية سمة مميزة [...] لذلك العالم الذي فقدناه " (٥٨).

وتأسيسا على هذا الأسلوب ـ الضرب في معامل زيادة السكان ـ تتخذ بعض المعارك قيمتها الحقيقية في نظرنا أبناء الزمان الحاضر ، وكنا عندما نأخذ بالأرقام وحدها كما هي نقلل من شأنها . من هذه المعارك نذكر : تلك المعارك المتكررة التي كانت القيادة الأسبانية، انطلاقاً من " قواعدها " الكبيرة ـ وهي اشبيلية ، وقادس (فيما بعد لشبونة) ، وملقة ، وبرشلونة ، تخوضها ؛ دافعةً سفنها الجاليرية التي تحركها المجاديف الكثيرة، وأساطيلها ، وفرقها المسماة ترثيوس tercios ، في بحار أوروبا وأراضيها. وهناك معركة ليبانت Lepante (٧ أكتوبر ١٥٧١) باليونان التي شهدت مواجهة بين عالم الإسلام (الدولة العثمانية) وعالم المسيحية ، كان عدد القوات الإسلامية (العثمانية)

لا يقل عن مائة ألف رجل فوق الأسطولين المعاديين ، سواء فوق السفن الجاليرية الخفيفة ذات المجاديف أو السفن الدائرية الكبيرة التي كانت تصاحبها (٥٩).مائة ألف رجل ولنضرب الرقم في المعامل ٥ الى ١ أو ١٠ الى١، ولنتصور أسطولا اليوم يحمل خمسمائة ألف أو ألف ألف رجل . ونعود مع مسار الزمن خمسين سنة الى عام ١٦٣٠ وما حول، حيث استطاع القائد الألماني ڤالنشتاين Wallenstein أن يجمع تحت إمرته مائة ألف رجل (٦٠) وهذا إنجاز أضخم من الإنجاز السابق يفترض تنظيما خارقا للمألوف لعمليات التموين يمثل رقما قياسيا . أما جيش القائد الفرنسي ڤيار Villars الذي انتصر في دينان Denain (في عام ١٧١٢ على جيش النمسا) فكان يعد سبعين ألف رجل (٦١) ولكنه كان جيش اليأس والفرصة الأخيرة. وفيما بعد، في عام ١٧٤٤، أصبح رقم ١٠٠٠٠٠ كعدد لأفراد الجيش عددا عاديا على الأقل من الناحية النظرية، على حد قول دوپريه دوني Dupré d'Aulnay ناظر الحربية. ومن الضروري - بناء على كلامه - القيام كل أربعة أيام بتدبير ميرة لكل هذا العدد من الرجال، تخرج من ساحة التموين ، وهي عبارة عن ١٢٠٠٠٠ جراية يوميا (فهناك جرايات مزدوجة) ، أي أن المطلوب تنظيم عملية توزيع ضخمة قوامها ٤٨٠٠٠٠ جراية ؛ فإذا انطلقنا في حساباتنا من أن العربة الواحدة تنقل ٨٠٠ جراية كان " المطلوب منا إعداد ٦٠٠ عربة تجرها ٢٤٠٠ من الخيول لكل عربة أربعة أحصنة مكدّنة معا " (٦٢). وقد أصبحت عمليات التموين سهلة ، بل لقد صنعت أفران حديدية تتحرك على عجل لخبز عيش الجراية. أما في بداية القرن السابع عشر فكان الجيش أقل عددا ، ونجد كتابا عن المدفعية يتحدث عن الاحتياجات المختلفة لجيش مسلح بالمدفعية ، وقد اختار في حساب هذه الاحتياجات جيشا عدده ٢٠٠٠٠ رجل (٦٣).

هذه الأمثلة توضح منهاجا للتفسير من السهل تكراره وتطبيقه على حالات لا حصر لها . مثلا في تصور مدى الخسائر التي منيت بها أسبانيا نتيجة لطرد المواركة ، أي المسلمين الذين أكرهوا على اعتناق المسيحية (١٦٠٩-١٦١٤) ، وكان عددهم ٣٠٠٠٠٠ نسمة على أقل تقدير اعتمادا على حسابات موثوق بها الى حد كبير (٦٤) . علينا أن نضرب الرقم في معامل زيادة السكان منذ ذلك التاريخ الى الوقت الحاضر لنتخيل ضخامة الرقم بمقاييسنا الحالية ؛ نفس الشيء لكي نتصور الخسائر التي منيت بها فرنسا نتيجة إلغاء مرسوم نانت الذي أدى الى هجرة الفرنسيين البروتستانت (٦٥) ؛ والخسائرالتي منيت بها أفريقيا نتيجة لسحب الزنوج الى العالم الجديد (٦٦) ؛ والخسائر التي منيت به اسبانيا نتيجة إلغاء مد العالم الجديد بسكان بيض (ربما بلغ العدد في القرن السادس عشر ألفا من النازحين في العام ، ويقدر العدد الكلي بمائة ألف) . هذه الأرقام المنخفضة نسبيا تطرح مشكلة عامة . فقد أتى على أوروبا حين لم تعد فيه قادرة على

التخلي عن أعداد أخرى من سكانها ، ويرجع ذلك الى انقسامها سياسيا الى أجزاء منفصلة والى افتقاراقتصادها الى المرونة ؛ وما كانت أوروبا لتستطيع ، بدون أفريقيا ، استصلاح العالم الجديد ، ويرجع ذلك الى أسباب كثيرة جدا ، منها المناخ ، ومنها أنها لم تكن تستطيع أن تسحب من عمالتها عناصر أكثر مما سحبت . وليس من شك في أن المعاصرين كانوا يقعون بسهولة في مهاوي المبالغة ، ولكن حياة الناس في اشبيلية لابد أنها تأثرت بالهجرة الى الخارج مما حدا بأندريا ناباجيرو Andrea Navagero الى أن يقول في عام ١٥٢٦ : " لقد هاجر أناس كثيرون الى الهند حتى أن المدينة [اشبيلية] قل سكانها ، وانتقلت السلطة فيها الى النساء"(٦٧).

وقد ذهب بلوخ K. J. Bloch الى أفكار مشابهة وهو يحاول أن يزن أوروبا القرن السابع عشر بميزانها الحقيقي ، وقد كانت أوروبا مقسمة بين ثلاث دول عظمى تتنازعها: الامبراطورية العثمانية ، والامبراطورية الأسبانية ، وفرنسا أيام الملك لويس الثالث عشر والوزير ريشيليو .-وحسب بلوخ أعداد البشر التي أتيحت لكل دولة من هذه الدول الثلاث في العالم القديم ـ ١٧ مليون نسمة لكل دولة ـ وانتهى الى أن هذا الرقم يمثل المستوى الذي إذا تجاوزته الدولة أصبح لها أن تطالب لنفسها بدور الدولة العظمى (٦٨). وهذه أرقام نحن بعيدون عنها اليوم ...

في فرنسا :

تضخم سكاني مبكر قبل الأوان

هناك مقارنات كثيرة أخرى يمكننا أن نقوم بها ونحن نسير في طريقنا ، فنصل الى تفسيرات لها أهميتها . لنفترض أن عدد سكان العالم كان حول عام ١٦٠٠ ثُمن عدد السكان الحالي ، وأن عدد سكان فرنسا (قياسا على حدودها السياسية الحالية) كان ٢٠ مليون نسمة ، وهو رقم محتمل بل مؤكد . أما انجلترا فكان عدد سكانها آنذاك ٥ ملايين على أكثر تقدير (٦٩). فإذا كان البلدان قد سارا في طريق الزيادة السكانية بحسب الإيقاع العالمي المتوسط، كان المفروض أن يبلغ عدد سكان انجلترا اليوم ٤٠ مليون ، وعدد سكان فرنسا ١٦٠ مليون ؛ وقد نستنتج سريعا بالنسبة لفرنسا (أو ايطاليا أو حتى ألمانيا في القرن السادس عشر) أنها بلاد كانت على الأرجح تكتظ فوق طاقتها بالسكان ، وأن فرنسا كانت - بالقياس الى إمكاناتها آنذاك - مزدحمة بالبشر والشحاذين والأفواه التى لا فائدة منها ولا حاجة اليها . ولقد قال برانتوم Brantôme آنذاك عن فرنسا " إنها مليئة عن آخرها كالبيضة " (٧٠). ولقد خرجت الهجرات من فرنسا ، تنظم نفسها ما استطاعت ، ولا تسترشد بأي اعتبار ، لعدم وجود سياسة عالية تنظم الهجرات، واتجهت بشيء من الكثافة الى أسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفيما بعد

الى " جزر " أمريكا، أو الى بلاد المنفى التي نفي إليها من نفوا لأسباب دينية، على أثر " ذلك النزيف الطويل الذي تعرضت له فرنسا ، والذي بدأ في عام ١٥٤٠ مع عمليات الاضطهاد الأولى المنظمة [ضد البروتستنت]، ولم ينته إلا في عام ١٧٥٢-١٧٥٣، مع آخر حركة هجرة كبيرة جرت في أعقاب عمليات القمع الدموي بمنطقة اللانجدوك "(٧١).

وتبين البحوث التاريخية الحديثة المدى الذى بلغته الهجرة الفرنسية الى بلاد شبه جزيرة ايبريا ، وهي أمور لم تكن معروفة حتى الأمس القريب (٧٢). وقد أمكن إقامة الدليل عليها اعتمادا على الإحصائيات وعلى الملحوظات المتكررة المؤكدة للرحالة (٧٣). ففي عام ١٦٥٤ عبر الكادينال دي ريتس de Retz عن دهشته الهائلة عندما سمع الناس جميعا يتكلمون الفرنسية في سرقسطة بأسبانيا حيث يقيم الكثير من الحرفيين الفرنسيين(٧٤). وما يمر عشر سنوات حتى يعبر أنطوان دي برونل Antoine de Brunel عن دهشته لوجود ذلك العدد الهائل من الجاباتشوس gavachos أي القذرين (وكانت هذه الكلمة تطلق كتسمية تحقيرية على الفرنسيين) في مدريد، وقدره بأربعين ألف " يتخفون في ثياب أسبانية ويدعون أنهم من أبناء فالونياWallons أو اللورين Lorrains أو الفرانشكونتيه Comtois ، ليخفوا عن أهل البلد أنهم فرنسيون حتى لا يضربوهم اذا عرفوا أنهم فرنسيون " (٧٥).

كان هؤلاء الفرنسيون هم الذين أمدوا العاصمة الأسبانية بما تحتاج اليه من حرفيين ، وعمال كادحين ، وباعة ، اجتذبتهم الأجور المرتفعة والأرباح المأمولة . ذهب الى أسبانيا خاصة بناءون ،وفَعَلة ومناولون ، كذلك شهدت الأرياف الأسبانية غزوا من الفلاحين الفرنسيين : ولولاهم لبقيت أراض أسبانية كثيرة بغير زرع . وتشير هذه التفصيلات الى هجرة فرنسية واسعة مستمرة تأتلف من عناصر اجتماعية مختلفة. وتلك علامة واضحة تدل على وجود تضخم سكاني في فرنسا آنذاك ، وهذا هو چان إيرو Jean Herauld يكتب في مذكراته Mémoires (٧٦)أن هناك في أسبانيا (في عام ١٦٦٩) مائتي ألف فرنسي . وفي فرنسا التي تعرضت لعوادي العدد وغوائله - متمثلة في زيادة عدد السكان - ظهر أو على الأحري تأكد في القرن الثامن عشر أسلوب التحديد الاختياري للنسل ، فقد كتب سيباستيان مرسييه Sebastien Mercier في عام ١٧٧١ " أن الأزواج أنفسهم يحرصون في علاقاتهم مع نسائهم على أن يستبعدوا دخول طفل جديد إلى بيتهم "(٧٧) . ونلاحظ في السنوات بعد ١٧٨٩ ، وهي السنوات الأساسية للثورة ، هبوط معدل المواليد هبوطا شديدا ، مما يدل على التوسع في استخدام وسائل منع الحمل(٧٨). ألا يدل هذا التوسع في تحديد النسل - والذي كان مبكرا في فرنسا سبق البلاد الأخرى - على أنه كان رد فعل تجاه تضخم سكاني سبقه في الماضي ؟

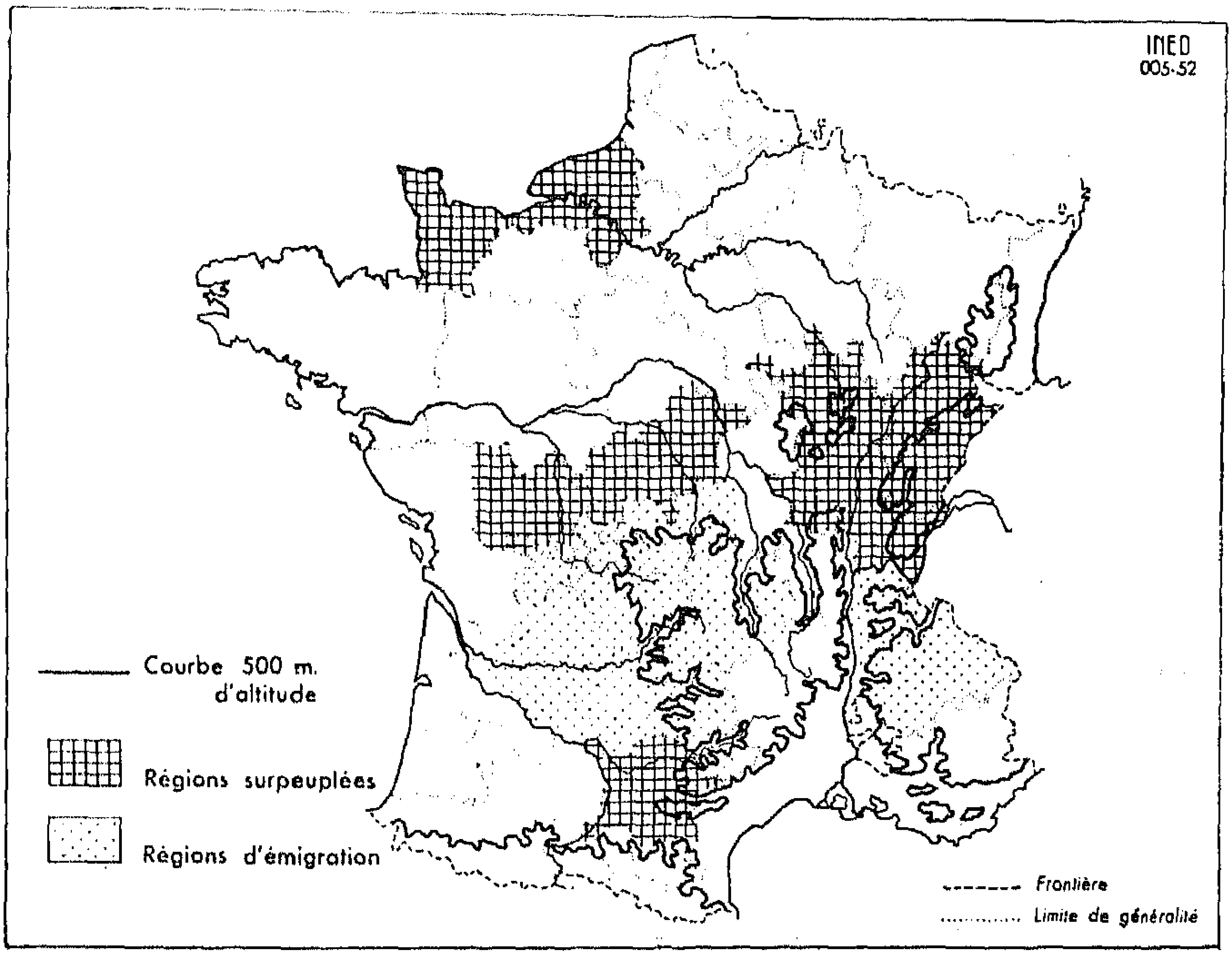

٥ ـ مناطق تضخم سكاني ، ومناطق تخلخل سكاني نتيجة للهجرات ، في فرنسا في عام ١٧٤٥.

الكثافة السكانية ومستويات الحضارة

إذا أخذنا في اعتبارنا أن مساحة اليابسة هي ١٥٠ مليون كيلومتر مربع ، وأن عدد سكان العالم يقدر حاليا بأربعة مليارات نسمة ، فان متوسط الكثافة السكانية الحالية ٢٦٫٧ نسمة في الكيلومتر المربع . فإذا أجرينا الحساب نفسه على الفترة من ١٣٠٠ الى ١٨٠٠ ، فإننا نصل على الأقل الى رقم ٢٫٣ نسمة على الكيلومتر المربع، وعلى الأكثر الى رقم ٦٫٦ نسمة على الكيلومتر المربع . ولنفترض أننا حسبنا المساحة الحالية ـ في عام ١٩٧٩ ـ للمناطق الأكثر اكتظاظا بالسكان (٢٠٠ نسمة وأكثر على الكيلومتر المربع) ، فإننا نصل الى المساحة الأساسية للحضارات ذات الكثافة السكانية العالية اليوم ، وهي مساحة تقدر، بناء على حساب أعيد مراراً ، بـ ١١ مليون من الكيلومترات المربعة . على هذا الشريط الضيق يتركز ٧٠ ٪ من الكائنات الآدمية الحية (نحو ٣ مليارات من البشر) . ولقد عبر الأديب الطيار أنطوان دي سانت إجزوبيري Saint - Exupéry عن هذا

الوضع على طريقته قائلا إن عالم النافورات والبيوت لا يشغل إلا شريطا ضيقا على سطح الأرض؛ فلما أخطأ الأول ، تاهت طائرته في وسط أدغال باراجواي ؛ ثم كان خطؤه الثاني ، فهبطت طائرته في رمال الصحراء... (٧٩) . ولنركز اهتمامنا على هذه الصور، على سمات انعدام التناسق ، واللامعقولية التى يتسم بها العالم المأهول، العالم المسكون أو العالم المسكوني oekoumène . الإنسان يترك الكرة الأرضية خالية الى تسعة أعشارها ، نتيجة للقوة في كثير من الأحيان ، ونتيجة للإهمال أيضا ، ولأن التاريخ ، الذي هو سلسلة من الجهود اللانهائية ، قد قرر قرارا مختلفا . ويرى ڤيدال دي لا بلاش Vidal de La Blache أن " البشر لم ينتشروا على وجه الأرض على هيئة بقعة الزيت ، بل تجمعوا بدائيا على هيئة الشعب المرجانية الملتفة" أي تراكموا " على هيئة طبقات متتالية " على " بعض نقاط التجمعات البشرية "(٨٠) . وربما وجد الإنسان ما يغريه للوهلة الأولى بأن يستنتج من الكثافات السكانية القديمة الضعيفة أنه لم يكن هناك على وجه البسيطة ، بين عام ١٤٠٠ وعام ١٨٠٠ ، تجمعات بشرية كثيفة تصنع الحضارات . والحقيقة أن العالم فيما مضى كان يعرف نفس التقسيم غير المتناسق ، فكان ينقسم إلى مناطق ضيقة ومثقلة بالسكان ، ومناطق فسيحة وخالية خفيفة من الناحية السكانية. وهذا مجال من الضروري أن نضع الأرقام فيه في إطارها وتناسبها .

ويمكننا أن نقول إننا ـ حول عام ١٥٠٠ ، عشية اتجاه الغزو الأوروبي إلى إحكام قبضته على أمريكا ـ كنا نعرف على نحو دقيق إلى حد كبير مواقع الحضارات ، والثقافات المتطورة ، والثقافات البدائية في جنبات العالم كله . وتقدم الينا وثائق العصر ، والأخبار التي وردت إلينا من أزمان تالية ، والبيانات التي جاءتنا من بحوث علم الإتنوجرافيا ، بالأمس واليوم ، خريطة لها قيمتها حتى الآن ، لأن الحدود الثقافية ، كما نعرف ، لا تتغير إلا قليلا على مر القرون . فالإنسان يفضل أن يعيش في اطار خبراته الخاصة، وهو إطار يتشبث به على مر الأجيال ، وكأنه يظل حبيس فخ نجاحاته القديمة . الإنسان هو الجماعة التي ينتمي اليها : جماعة يخرج منها بعض الأفراد ، ويندمج فيها أفراد آخرون ، ولكن الجماعة تظل مرتبطة بمكان بعينه ، وبخبرات محفوظة في أدراج مألوفة . من هذه الجماعة استمد الانسان جذوره .

رسم عالم متخصص في الإتنوجرافيا ، أي وصف الأجناس البشرية ، هو جوردون هوز Gordon W. Hewes (٨١) ، خريطة العالم كما كان حول عام ١٥٠٠ ، وننقلها هنا ، ونرى أنها معبرة بذاتها . وهي تميز ٧٦ ثقافة وحضارة ، أو لنقل أنها ترسم ٧٦ خانة مختلفة الأشكال والمساحات ، تتوزع على مساحة ١٥٠ مليون كيلومتر مربع ، هي مساحة اليابسة . ولما كانت هذه الخريطة عظيمة الأهمية ، ولما كنا سنشيرإليها مرارا ، فلندقق النظر فيها منذ البداية . هذه القطع الـ ٧٦ من الخريطة التي تشبه رقعة الألغاز

تمثل تصنيفا متدرجا ، يبدأ من الخانة رقم ١ وهي تسمانيا وينتهي بالخانة رقم ٧٦ الأخيرة وهي اليابان . ومن الممكن قراءة التصنيف المتدرج دون ما صعوبة من أسفل الى أعلى :

أولا) من رقم ١ الى رقم ٢٧ الشعوب البدائية التي تقوم بالجمع وصيد السمك

ثانيا) من رقم ٢٨ الى رقم ٤٤ البدو الرحل ومربو الحيوانات

ثالثا) من رقم ٤٥ الى رقم ٦٣ الشعوب التي تمارس الزراعة التي لم تتطور بعد ، وهي شعوب تتكون بخاصة من الفلاحين الذين يستخدمون عصا العزق ، وهي تتوزع بصورة عجيبة على هيئة حزام يوشك ان يكون متصلا حول العالم

رابعا) من رقم ٦٤ الى رقم ٧٦ شعوب الحضارات ، هذه الشعوب ذات الكثافة العالية نسبيا ، والتي تمتلك وسائل وميزات عديدة : الحيوانات الداجنة ، المحاريث البسيطة، المحاريث المركبة ، العربات ، ولديها ، بصفة خاصة ، المدن ...

ومن نافلة القول أن نشدد على أن الخانات الـ ١٣ الأخيرة من خريطة الألغاز المحلولة هي البلاد " المتقدمة "، هي عالم البشر الذي له وزنه الثقيل.

إلا أن تصنيف أماكن القمة يشير الجدل في نقطة أو نقطتين .هل كان من الصواب وضع رقم ٦١ ورقم ٦٢ ، أي حضارة الأزتيك أو حضارة المكسيك وحضارة الإنكا أو حضارة بيرو، على هذا المستوى الرفيع ؟ صحيح أنهما حضارتان تتسمان بالأصالة في النوعية والرونق والفنون والابتكارات ؛ صحيح أن المايا القدامى حققوا معجزات في الحساب ؛ صحيح أنهما نعما بطول البقاء : فقد بقيا على الحياة بعد الصدمة الرهيبة المتمثلة في غزو البيض . ولكننا نلاحظ من الناحية الأخرى أن أهل هاتين الحضارتين لم يستخدموا سوى المعزقة ، عصا العزق ، وانهم لم يعرفوا حيوانا داجنا كبيرا باستثناء اللاما والألپاجا والڤيجونيا ، وانهم لم يعرفوا العجلة ، والقبة ، والعربة ، وتعدين الحديد ، ذلك التعدين الذي عرفته الثقافات التي تعتبر متواضعة في أفريقيا السوداء منذ مئات بل آلاف السنين . اننا ـ انطلاقا من معاييرنا الخاصة بالحياة المادية ـ نرفض وضع هاتين الحضارتين على هذا المستوى . ونحن نتردد التردد نفسه ، ونأخذ بنفس التحفظ ، ازاء الخانة رقم ٦٣ ، وهي تمثل المجموعة الفنلندية التي ما كانت آنذاك (حول عام ١٥٠٠) قد بدأت إلا لتوها تتلمس إشعاع الحضارات المجاورة .

ولكننا عندما نتجاوز هذه المناقشة نرى أن الحضارات الـ ١٣ المتبقية تكوِّن على مستوى العالم شريطا ضيقا طويلا ، عرضه عرض العالم القديم كله ، كأنما هو مملكة ضيقة فيها - على حد قول سانت اجزوپري - النافورات ، وفيها الزراعة ، وفيها الشعوب ذات الكثافة السكانية العالية ، وفيها الأماكن قد تشبث بها الإنسان بأقصى ما يستطيع

من قوة. ولما كنا قد استبعدنا أمريكا ، باعتبارها حالة خارجة عن المألوف ، فلنقل إن الإنسان المتحضر كان موجودا في أمريكا في عام ١٥٠٠ بل في عام ١٤٠٠ وسيكون هناك في عام ١٨٠٠ وهواليوم هناك أيضا . يمكننا الآن أن نحسب الحساب الختامي بسرعة : لدينا في مجموعة البلدان المتقدمة : اليابان ، وكوريا ، والصين ، والهند الصينية ، والجزر المحيطية ، والهند ، وديارالإسلام ، وأوروبا بأنماطها الأربعة المختلفة (أوروبا اللاتينية المطلة على البحر المتوسط ، وهي الأكثر غنى ؛ أوروبا الأغريقية وهي الأكثر تعاسة بعد أن أخضعها الغزو التركي ؛ أوروبا الشمالية وهي الأكثر حيوية ؛ وأوروبا الروسية اللاپونية ، وهي الأكثرغلظة وخشونة). ونضيف شيئين يثيران الدهشة : تحت رقم ٦٤ نجد الحضارات القوقازية المتينة ؛ وتحت رقم ٦٥ حضارة " المزارعين " الأحباش ذات الجذور العميقة التي لا سبيل إلى اقتلاعها .

قد تصل المساحة الكلية لهذه المناطق إلى ١٠ ملايين من الكيلومترات المربعة ، نحو ٢٠ ضعف مساحة فرنسا الحالية ، وهي مساحة بسيطة ، والبشر فيها عبارة عن حزمة من مجموعات بشرية عالية الكثافة ، تتفرد على نحو واضح بالغ الوضوح ، ومن الممكن التعرف عليهم ـ مع تغيير ما تدعو الضرورة إلى تغييره ـ في الجغرافيا الحالية للعالم (هذه الجغرافيا التي تنبئنا بأن هناك مساحة ١١ مليون كيلومتر مربع يعيش فيها ٧٠ ٪ من السكان كما ذكرنا من قبل). وإذا نحن قبلنا التناسب الحالي بين الكتلة البشرية صاحبة الحضارات ومجموع سكان المعمورة (٧٠ ٪ من المجموع الكلي) فإن الكثافة البشرية في الكيلومتر المربع في هذه المناطق المتميزة في الفترة من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٨٠٠، قياسا على مقاييسنا القصوى ، تتحول من ٢٤٫٥ (حد أدنى) إلى ٦٣٫٦ (حد أقصى) ...(٨٢). ولنتوقف عند عام ١٦٠٠ ـ وهو العام الذي توقف عنده بيلوخ K.J.Beloch وركز عليه ملحوظاته ـ هنا يتراوح متوسطنا بين ٢٨ و ٣٥ . وهو متوسط يمثل عتبة جيدة من ناحية الكثافة السكانية : فإذا كانت القوة بالنسبة الى أوروبا تتطلب أن يكون عدد السكان على الأقل ١٧ مليون نسمة، فإننا نرى على مستوى العالم أن الرقم الذي يتأكد عنده الاكتظاظ ، التزاحم البشري الذي يلتصق فيه الكوع بالكوع ، والذي لابد أن تتجاوزه الحضارة لتعيش وتزدهر هو ٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

وإذا نحن بقينا في فترتنا الزمنية حول عام ١٦٠٠ ، ونظرنا إلى ايطاليا المكتظة بالسكان لوجدناها تعد ٤٤ نسمة في الكيلومتر المربع ؛ أما هولندة فكان معدل الكثافة السكانية فيها ٤٠ في الكيلومتر المربع ؛ وفرنسا ٣٤ ؛ وألمانيا ٢٨ ؛ وشبه جزيرة إيبريا ١٧ ؛ وپولندة وپروسيا ١٤ ؛ والسويد والنرويج وفنلندة حول ١٫٥ (وقد ظلت هذه البلاد الثلاثة حبيسة عصر وسيط بدائي طال فيها عن المألوف ، فظلت على هامش أوروبا ، ولم تشارك في حياتها إلا عن طريق بعض المناطق الضيقة من أراضيها (٨٣)) . أما الصين

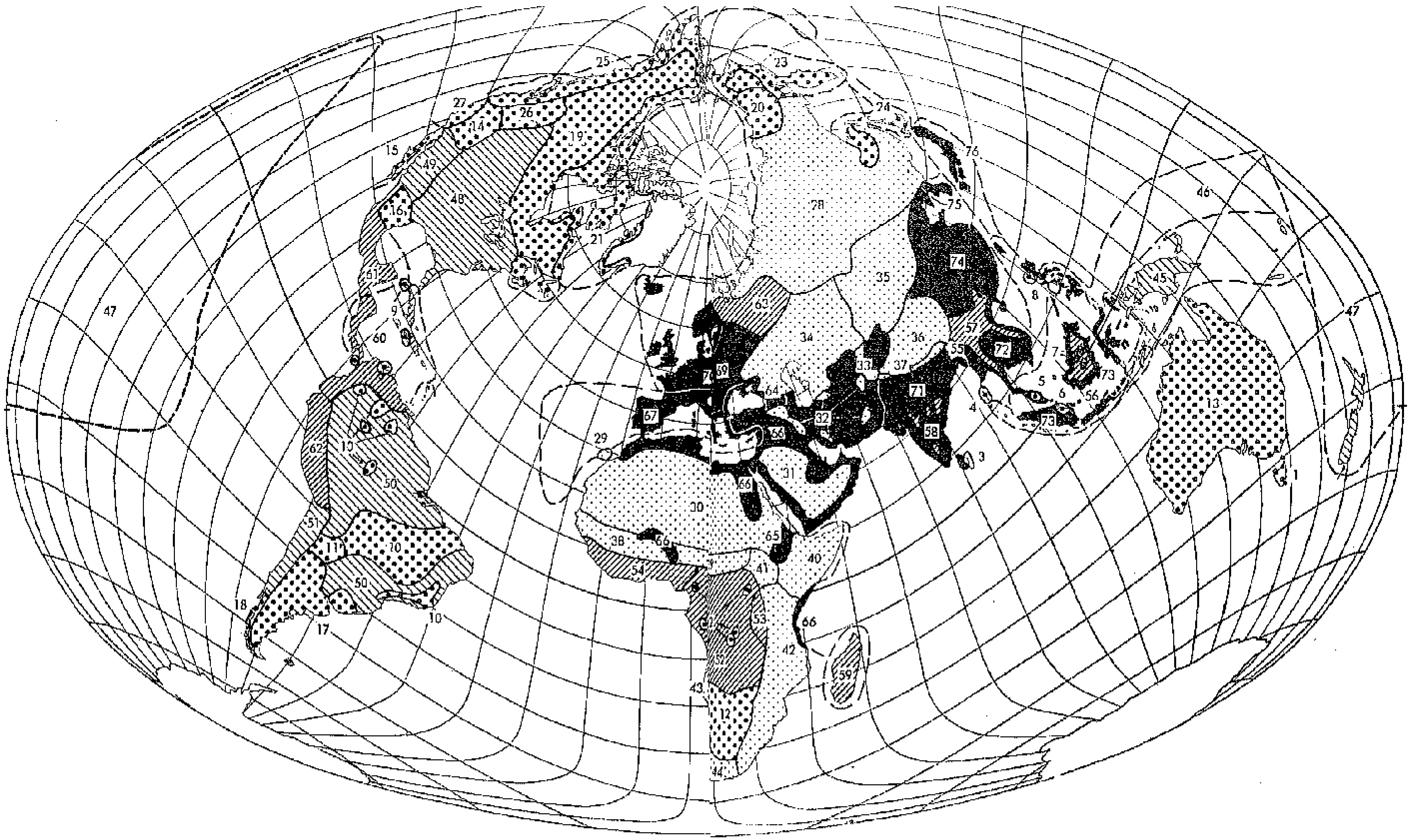

٦ ـ حضارات وثقافات وشعوب بدائية حول عام ١٥٠٠

- صيد الحيوان والسمك وجمع الثمار
- بدو رحل ومشتغلون بتربية الماشية
- ثقافات قليلة التطور ، فلاحون يستخدمون عصا العزق
- ثقافات متقدمة
- حضارات كثيفة استخدمت المحراث

١) التسمانيون Tasmaniens ٢) أقزام البيجمي Pygmées du Congo ٣) الفيديون (سيلان) Vedas (Ceylan) ، الأندمانيون Andamans ٤) السكائيون Sakaïs والسيمانجيون Sémangs ٦) الكوبو Koubous ٧) البونانيون Bunans بورنيو Bornéo) ٨) نيجريتو Negritos الفيليبين ٩) سيبونية Ciboney جزر الأنتيل ١٠) جي بوتوكودو Ge-Butocudos ١١) هنود وادي شاكو الكبير ١٢) البوشيمانيون Boschimans ١٣) الأستراليون ١٤) الحوض الكبير (الولايات المتحدة الأمريكية) ١٥) كاليفورنيا السفلى ١٦) شمال شرق تكساس والمكسيك ١٧) باتاجونيا ١٨) هنود السواحل الجنوبية تشيلي ١٩) الأثاباسك Athabasques, الألجونكين Al-gonquins (شمال كندا) ٢٠) اليوكاغير Youkaghirs ٢١) اسكيمو الوسط والشرق ٢٢) اسكيمو الغرب ٢٣) الكامتشادال Kamtchadales والكورياك Koriaks والتشكركتش Tchouktches ٢٤) الأينو Aïnos والغلياك Ghiliaks الجولد Goldes ٢٥) هنود الساحل الشمالي الغربي (الولايات المتحدة و كندا) ٢٦) هضبة كولومبيا ٢٧) كاليفورنيا الوسطى ٢٨) شعوب تربي حيوانات الرنة ٢٩) جزر الكناريا ٣٠) بدو الصحراء ٣١) بدو الجزيرة العربية ٣٢) رعاة جبال الشرق الأدنى ٣٣) رعاة الپاميرPamir والهندوكوش Hindou-Kouch ٣٤) كازاك كيرجيز Kazak-Kirghiz ٣٥) المغول ٣٦) رعاة التبت ٣٧) التبتيون المستقرون ٣٨) سودان لغرب ٣٩) سودان الشرق ٤٠) الصوماليون وجالا Galla أفريقيا الشمالية الشرقية ٤١) شعوب نيلية ٤٢) مربو الماشية في شرق أفريقيا ٤٣) بانتو Bantous لغرب ٤٤) الهوتنتوت Hottentots ٤٥) پاپو Papous ميلانيزيا ٤٦) الميكرونيزيون Microneslens ٤٧) البولينزيون Polynesiens ٤٨) هنود أمريكا (شرق الولايات المتحدة الأمريكية) ٤٩) هنود أمريكا (غرب الولايات المتحدة الأمريكية) ٥٠) هنود البرازيل ٥١) هنود شيبي ٥٢) شعوب الكونغو ٥٣) شعوب بحيرات شرق أفريقيا ٥٤) سواحل غينيا ٥٥) قبائل مرتفعات اسام Assam بورما Birmanie ٥٦) قبائل مرتفعات اندونيسيا ٥٧) شعوب مرتفعات الهند الصينية وجنوب غرب الصين ٥٨) قبائل جبال وغابات الهند الوسطى ٥٩) الملجاش Malgaches ٦٠) لكاريبيون ٦١) المكسيكيون ، المايا Mayas ٦٢) البيرويون والأنديزيون ٦٣) الفنلنديون ٦٤) القوقازيون ٦٥) الأحباش ٦٦) المسلمون المستقرون ٦٧) جنوب غرب أوروبا ٦٨) شرق البحر المتوسط ٦٩) شرق أوروبا ٧٠) شمال غرب أوروبا ٧١) الهند (الخريطة لا تميز المسلمين والهندوس) ٧٢) منخفضات جنوب شرق آسيا ٧٣) منخفضات أندونيسيا ٧٤) الصينيون ٧٥) الكوريون ٧٦) اليابانيون . (نقلا عن : ج. و. هوز G. W. Hewes)

بمقاطعاتها الـ ١٧ (كانت المقاطعة الـ ١٨ وهي كان سو Kan-Sou تتبع آنذاك التركستان الصينية) فلم تزد كثافتها السكانية على ٢٠ في الكيلومتر المربع في عام ١٥٧٨ (٨٤).

ولكن هذه المستويات التي تبدو لنا منخفضة تشير إلى حالات تضخم سكاني لا مراء فيها . كانت منطقة ڤرتمبرج ، أكثر المناطق سكانا في ألمانيا في بداية القرن السادس عشر ، حيث كان معدل الكثافة فيها ٤٤ نسمة للكيلومتر المربع (٨٥) ، وكانت هي المنطقة المفضلة لجمع الجنود المرتزقة للخدمة في فرنسا . وكانت فرنسا ، بمعدل كثافتها السكانية البالغ ٣٤، منطقة هجرة واسعة ، وكان معدل أسبانيا ١٧ . أما ايطاليا وهولندة فكانتا غنيتين قد سارتا على درب الصناعة ، وكانتا تحملان عبئا من البشر أثقل من البلاد الأخرى، كانت تحتفظ بهم في أراضيها إلى حد كبير . ذلك أن التضخم السكاني هو في الوقت نفسه علامة دالة على عدد الرجال المرتفع ، وكمية الموارد الكبيرة المتاحة لهم.

ويميز أ.ب . يوشر A. P. Usher في مجال علم السكان التاريخي ثلاثة مستويات من السكان : المستوى الأدنى من ناحية الكثافة السكانية هو مستوى سكان المنطقة الريادية (وهو يسميها منطقة " الحدود " مسترشدا في فكره بالولايات المتحدة الأمريكية) ويقصد سكانا في بداية توطنهم ، في مكان لم يعمل به البشر من قبل أو لم يعملوا إلا قليلا. أما المستوى الثاني (الصين ، والهند قبل القرن الثامن عشر ، وأوروبا قبل القرن الثاني عشر أو الثالث عشر) فهو مستوى بين ١٥ و٢٠ نسمة في الكيلومتر المربع . والمستوى الثالث هو مستوى الكثافة السكانية العالية ، أي أكثر من ٢٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وربما كان هذا الرقم الأخير متواضعا أكثر مما ينبغي ، ولكن الشيء الواضح هو أن الأرقام التي ذكرناها بالنسبة للمعدلات السكانية في ايطاليا وهولندة وفرنسا منذ عام ١٦٠٠ (وهي : ٤٤ و٤٠ و٣٤ نسمة للكيلو متر المربع) أرقام تعبر ، قياسا على المعايير التقليدية ، عن تضخم سكاني . ولنذكر أن حسابات چان فوراستييه Jean Fourastié التي تناول بها فرنسا إبان العهد القديم حتى نهاية القرن الثامن عشر، تدل على أنه كان من الضروري - مع أخذ نظام الدورة الزراعية وما كانت تفرضه من إراحة الأرض في الاعتبار - تدبير ١ر٥ هكتار من الأرض الصالحة للزراعة لإعاشة الفرد الواحد (٨٦) . وهذه النسبة هي على وجه التقريب النسبة التي يؤكدها دانيل ديفو Daniel Defoe في عام ١٧٠٩ حيث يذكر : ٣ أكرات من الأرض الجيدة أو ٤ أكرات من الأرض المتوسطة (والأكر = ٠ر٤ من الهكتار) أي مابين ١ر٢ و ١ر٦ هكتار (٨٧). وينضوي كل تمدد سكاني - كما سنرى - إما على اختيار منصب على الغذاء (بصفة خاصة الاختيار بين اللحم والخبز) وإما على تغيير في الزراعة ، وإما على اعتماد واسع على الهجرة .

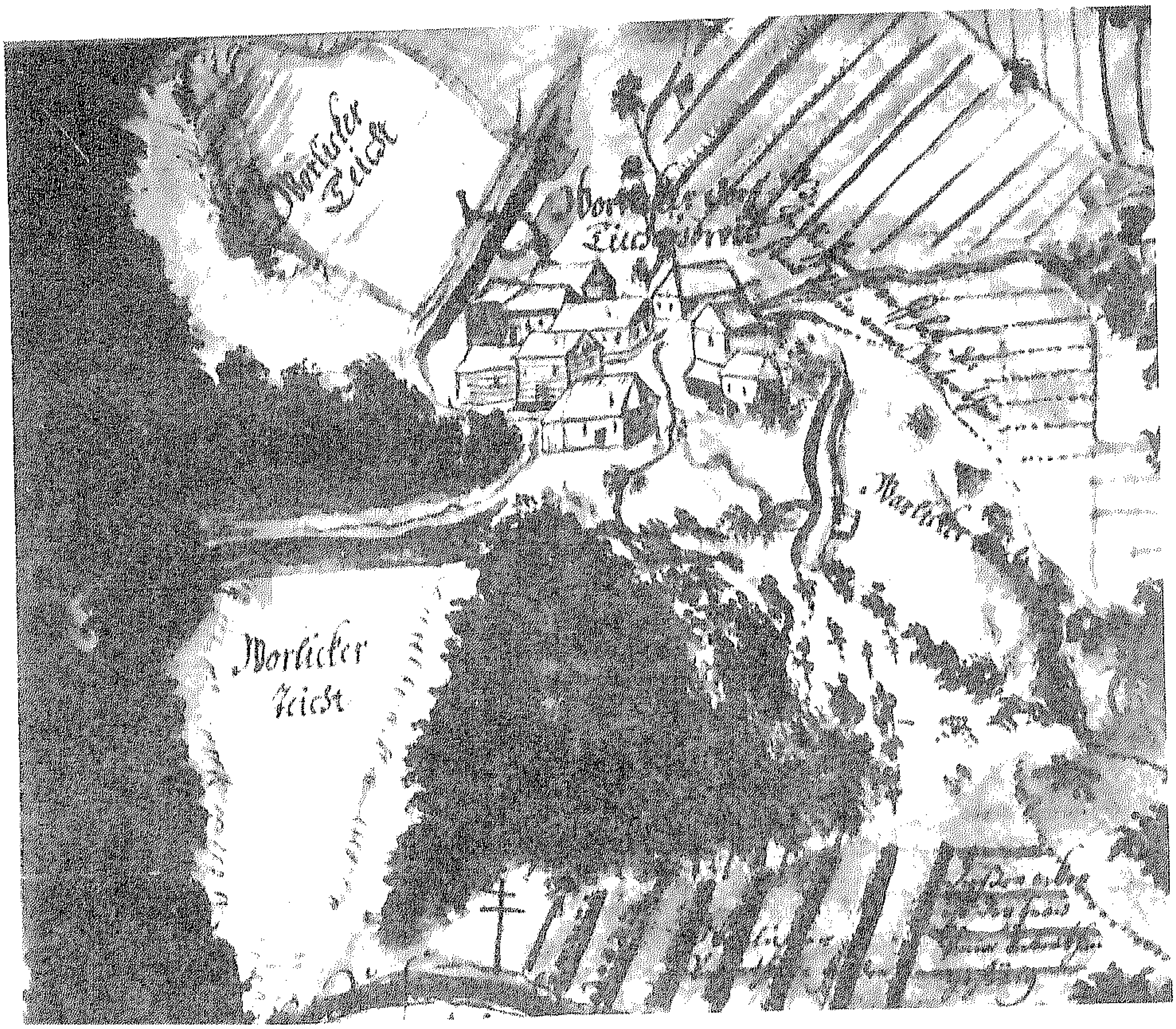

قرية في منطقة بوهيميا على الطريق الى براغ : بيوت قليلة لاتزيد على العشرة بين حقول وغابة وثلاث برك سمكية ، حول عام ١٦٧٥ . هذا هو على وجه التقريب حجم قرى أخرى مرسومة في نفس السلسلة .(أرشيف الخرائط المركزى في أورليك)

هذه الملحوظات لا تؤدي بنا إلا إلى عتبة المشكلات الأساسية لتاريخ السكان . فينبغي علينا أن نعرف أيضا أموراً من بينها العلاقة بين السكان الحضريين والسكان الريفيين (فالعلاقة بينهما تعتبر مؤشراً أساسيًا لتاريخ قديم للنمو) ، وينبغي علينا أن نعرف على نحو أوضح ، طبقًا لمعايير الجغرافيا البشرية ، شكل التجمعات الريفية . كانت مزارع الفلاحين الفنلنديين البائسة في المناطق القريبة من مدينة سانت بطرسبرج ، في نهاية القرن الثامن عشر ، مزارع متناثرة ، شديدة البعد بعضها عن البعض الآخر ، بينما كانت بيوت المستعمرين الألمان هناك مجمعة . كذلك كانت القرى الروسية ، بالمقارنة ، تجمعات هامة(٨٨) . وكانت أوروبا الوسطى ، شمالي جبال الألب ، تضم قرى هزيلة إلى حد كبير. ولقد أتيحت لي الفرصة للاطلاع على خرائط كثيرة في بوهيميا في محفوظات دوائر آل روزنبرج ، وآل شفارتسنبرج ، وهي محفوظات قيمة ، قرب الحدود النمساوية ، في

منطقة البرك الصناعية التي تربى فيها أسماك الشبوط carpes والزنجور brochets والفرخ perches ، وكذلك في دار محفوظات وارسو المركزية . وذهلت عندما تبينت كم كانت هذه القرى (وكانت أوروبا الوسطى تعج بالكثير منها) ضنيلة ضآلة مفرطة: فقد كانت في كثير من الأحيان تتكون من عشرة بيوت أو نحوها ... ما أبعدنا عن القرى الشبيهة بالمدن في ايطاليا ، والقرى الشبيهة بالبنادر الكبيرة في المنطقة بين نهر الراين ونهر الموزل والحوض الباريسي . أليست ضآلة القرى ، في كثير من بلدان أوروبا الوسطى، سببا من الأسباب الأساسية لمحنة الفلاحين؟ كان الفلاحون يجدون أنفسهم ، حيال السادة أصحاب الأرض ، ضعافاً ، يزيد من ضعفهم افتقارهم إلى التعاضد الذي يتاح للناس في التجمعات الكبيرة(٨٩).

وخريطة جوردون هوز
توحي بأمور أخرى

توحي خريطة جوردون هوز بثلاثة أمور أخرى على الأقل :

١) الثبات الكبير لمواقع " الثقافات " (صور أولى من النجاح) ،ومواقع " الحضارات (صور ثانية من نجاح الانسان) . وقد تأكدنا من هذا الثبات ، حيث أننا استطعنا أن نتوصل إلى هذه المواقع نفسها ، عندما رجعنا من الحاضر إلى الماضي متبعين منهجا نكوصيا بسيطا méthode régressive . كذلك تبينا أن حدود هذه المواقع تتسم أيضا بالثبات . ومن هنا فإن توزيع هذه الثقافات والحضارات يعتبر سمة جغرافية راسخة رسوخ جبال الألب وتيار الخليج ومجرى نهر الراين.

٢) تبين الخريطة كذلك أن العالم كله ، قبل انتصار أوروبا ، كان معروفا للبشر ، ملكوا زمامه منذ قرون أو ألفيات. والإنسان لم تمنعه العوائق الضخمة : المساحات البحرية الهائلة ، والجبال التى يوشك اجتيازها أن يكون ضربا من المحال ، وكتل الغابات (غابات الأمازون وشمال أمريكا وسيبريا) والصحارى الضخمة . وإذا نظرنا إلى الخريطة عن كثب، وجدنا أنه لايوجد مسطح مائي لم يغر الإنسان منذ وقت مبكر بالمغامرة وكشف الأسرار (كانت الرياح الموسمية في المحيط الهندي معروفة منذ العصور الأغريقية القديمة)؛ لا جبل ، مهما عظم ، لم يكشف للإنسان عن مداخله وممراته ؛ ولا غابة لم ينفذ الإنسان خلالها ، ولا صحراء لم يجتزها . أما المكان " القابل للسكنى والملاحة " (٩٠) في العالم ، فليس هناك شك في أن أصغر بقعة منه ، منذ ما قبل عام ١٥٠٠ (ومنذ ما قبل عام ١٤٠٠ أو ١٣٠٠) كان لها مالكها ومستغلوها . حتى الصحاري الوعرة في العالم القديم كانت تضم . تحت الأرقام من ٣٠ إلى ٣٦ في الخريطة . مجموعات بشرية

محاربة من البدو الكبار الذين سنعود الى الحديث عنهم في هذا الفصل . والخلاصة أن العالم ، " بيتنا القديم " (٩١) ، قد تم اكتشافه منذ وقت طويل ، قبل الكشوف الكبرى. وقائمة الثروات النباتية قد اكتملت " منذ بدايات التاريخ المكتوب ، بحيث لم يُضَفْ نبات واحد يصلح للغذاء على نطاق عام إلى النباتات التى عرفت من قبل ، فقد أخضعت الشعوب البدائية عالم النبات لفحص كشفي واع وكامل " (٩٢).

ليست أوروبا هي التي اكتشفت أمريكا أو أفريقيا ، وليست هي التي فضت أختام القارات الغامضة . لقد كان مكتشفو أفريقيا الوسطى في القرن التاسع عشر ، الذين كيل لهم المديح بالأمس ، يقومون برحلاتهم الاستكشافية محمولين على ظهور الحمالين السود (الذين كانوا يعرفون تلك الربوع) ، ولقد كان خطؤهم الكبير ، بل خطأ أوروبا كلها هو أنهم اعتقدوا أنهم يكتشفون نوعا من العالم الجديد ... كذلك أولئك الذين اكتشفوا القارة الأمريكية الجنوبية ، حتى البانديراس bandeiras paulistas (الذين انطلقوا من مدينة ساو پاولو التي تأسست في عام ١٥٥٤) والذين نسجوا خيوط ملحمة رائعة في القرون الثلاثة من القرن السادس عشر الى الثامن عشر ، لم يزد ما فعلوه عن إعادة اكتشاف الدروب والأنهار ذات القوارب البيروجية التي استخدمها الهنود الحمر، وكان المولدون (من أبناء البرتغاليين والهنود الحمر) الذين يسمون بالماميلوكوس Mamelucos هم الذين أخذوا بيدهم وأرشدوهم إلى الطريق (٩٣) . وتكررت المغامرة نفسها مرة أخرى مع الفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث أعانهم المولدون في " الغابات المحروقة "، من البحيرات الكبيرة إلى الميسيسيبي . لقد أعادت أوروبا اكتشاف العالم مستعينة في أحيان كثيرة جدا بعلوم وأرجل وذكاء الآخرين .

الاكتشاف الذي قامت أوروبا به وحدها هو اكتشاف الأطلنطي ، والسيطرة على أماكنه الصعبة وتياراته ورياحه . وكان هذا الاكتشاف ، أو هذا النصر المتأخر ، هو الذي فتح أمامها أبواب بحار العالم السبعة . عند ذلك وضعت أوروبا في خدمة الرجل الأبيض شبكة البحار على مستوى العالم أوالوحدة البحرية للعالم . كانت أوروبا المظفرة تتمثل في الأساطيل ، في السفن ، ثم السفن ، ثم السفن تمخر عباب البحار ، كانت أوروبا تتكون من البحارة والموانيء والترسانات البحرية. وعندما قام بطرس الأكبر برحلته الأولى إلى الغرب في عام ١٦٩٧ ، لم يخطيء الفهم والتقدير: فذهب إلى هولندا ، إلى الترسانات البحرية في ساردام Saardam قرب أمستردام .

٣) ملحوظة أخيرة : لاتمثل المناطق الضيقة ذات المستوى السكاني الكثيف مناطق متجانسة كلها . فهناك المناطق المتماسكة تماسكا صلبا (أوروبا الغربية ، اليابان، كوريا، الصين)، وهناك من ناحية أخرى الجزر المحيطية، وجزر الهند الصينية ، التي لا تعتبر في

ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

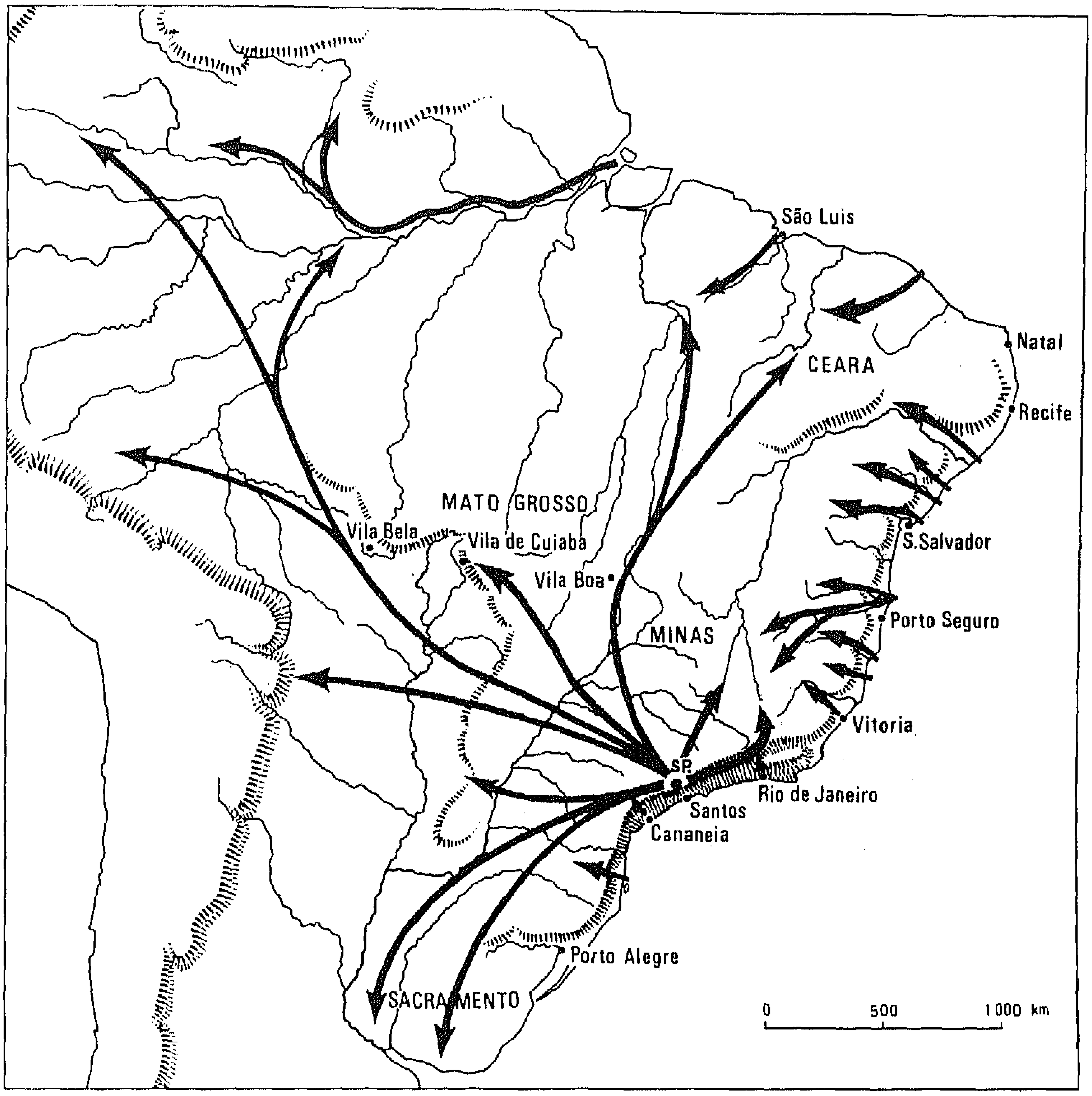

٧ ـ الرواد البرازيليون الباندايراس Bandeiras (من القرن السادس عشر الى الى القرن الثامن عشر) خرج الباندايراس خاصة من مدينة ساوباولو ، وانطلقوا في كل جنبات قلب البرازيل .

الحقيقة الا طائفة مبعثرة من المناطق الآهلة بالسكان ؛ بل إن الهند نفسها لم تكن متماسكة كل التماسك نظرا لحضاراتها المختلطة ؛ ولم تكن الدول الإسلامية إلا سلسلة من السواحل sahels على هوامش مساحات خالية من الداخل ، على حافة الصحارى، على ضفاف الأنهار، على شواطيء البحار، تكتنف جوانب أفريقيا السوداء ، على ساحل العبيد (زنزبار) وعلى منحنى نهر النيجر حيث أنشئت - أو أعيد انشاء - امبراطوريات تخوض المعارك . حتى أوروبا في شطرها الشرقي، وفيما وراء المدارج البربرية كانت تطل على فراغ.

كتاب البشر
والحيوانات الوحشية

كان الإغراء وما يزال كبيرا في ألا يرى الإنسان شيئا آخر سوى الحضارات، على اعتبار أنها هي الشيء الأساسي الجوهري . ولقد بذلت الحضارات ما يساوي كنوزا كاملة من المهارة لتكشف عن أشكالها القديمة ، وأدواتها ، وثيابها ، وبيوتها ، ووسائلها ، بل وأناشيدها التقليدية . وامتلأت متاحف الحضارة بالآثار المكتشفة ، وهاهي ذي تفتح أبوابها مرحبة بمن يزورها ليرى بعينه ما تضمه في مجموعاتها. وكأن كل حضارة خانة في رقعة لها لونها الذي أصبح مألوفا لنا . وأغلب ما في متاحف الحضارة يتسم بالأصالة : طاحونة الصين الهوائية التي كانت تدور أفقيا ؛ في استانبول نرى مقصا حُفر في سلاحيه تجاويف طولية من الداخل ، ونرى الملاعق المترفة مصنوعة من خشب شجرة الفلفل ؛ ونرى في بعض المتاحف السندال الياباني والصيني لا يشبه أحدهما السندال عندنا ؛ سفن البحر الأحمر والخليج الفارسي التي لم يستخدم فيها مسمار واحد ... ولكل خانة، لكل حضارة ، نباتاتها وحيواناتها المستأنسة ، أو طريقتها في التعامل معها ، وبيوتها المفضلة، وأطعمتها الخاصة بها التي لا تستخدمها غيرها ... إن مجرد رائحة المطبخ قد تستحضر في الذهن حضارة كاملة.

ومع ذلك فالحضارات ليست هي كل الجمال ، وليست كل ملح أرض البشر . فهناك الحياة البدائية، خارج نطاق الحضارات، تتغلغل فيها تغلغلا ، بل ربما تخترق كتلتها ذاتها، أو تكتنف حدودها، بينما تظل مساحات فسيحة على ظهر البسيطة تحدث رنينا يدل على الفراغ، فقد خلت من الحضارة. هذه المساحات هي الموضع الذي ينبغي أن نتصور فيه ما يمكن أن نسميه كتاب البشر والحيوانات الوحشية أو الكتاب الذهبي للزراعات القديمة كما مارسها فلاحون استخدموا عصا العزق، الموضع الذي يخاله المتحضرون فردوساً، لأنهم قد ينتهزون الفرصة ليتحرروا فيه بإرادتهم من الضغوط الواقعة عليهم .

والشرق الأقصى هو المكان الذى نلتقي فيه بأكبر طائفة من الصور عن الجماعات البشرية البربرية ، نلقاهم في الجزرالمحيطية ، وجبال الصين ، وشمال جزيرة يزو Yeso اليابانية ، وفي فورموزا ، وفي قلب الهند المليء بالمتناقضات . لم تعرف أوروبا هؤلاء " البرابرة " موطنين لديها، وكانوا أمما عنيفة تكاد تتأجج ناراً ، " تلتهم " الغابات من فوق المرتفعات ، لكي تزرع الأرز في الأرض الجافة التي تتاح لها بعد اقتلاع الأشجار (٩٤). فقد بكرت أوروبا إلى توطين هؤلاء الجباليين ، واستأنستهم ، ولم تعاملهم معاملة المنبوذين. أما في الشرق الأقصى فلم تكن هناك مثل هذه العلاقات من الألفة والإيلاف والتضافر، بل حدثت مصادمات عديدة عارمة شرسة لا تعرف الشفقة ، وظل الصينيون

يصارعون أهل الجبال البرابرة ، مربي الماشية ، الذين كانت بيوتهم نتنة عفنة. وحدثت المصادمات نفسها في الهند. في عام ١٥٦٥ قام فرسان سلاطين الشمال المسلمين ومدفعيتهم بتوجيه ضربات قاتلة الى مملكة ڤيجياناجار Vijyanagar الهندوسية في شبه جزيرة الدكن Dekkan في معركة تاليكوتا Talikota. ولم تقم القوات المنتصرة باحتلال العاصمة الهائلة على التو ، ولكنها تركتها بغير دفاع ، وكانت قد خلت من العربات وحيوان الجر التي ذهبت كلها مع الجيش . هنالك انقضت عليها شعوب الأكام والأدغال المحيطة ، وكانت شعوبا بربرية ، فنهبتها عن آخرها ، وهي شعوب البربنچاريس Brinjaris واللامباديس Lambadis والكوروباس Kurubas (٩٥).

ولكن هؤلاء البرابرة كانوا كالأسرى، كالمحاصرين ، فقد كانت الحضارات السحرية تطوقهم من كل جانب . ثم إنهم لم يكونوا برابرة بمعنى الكلمة ، إنما كان البرابرة في أماكن أخرى ، يعيشون في حرية كاملة ، في أراض وعرة رهيبة ، وعلى حدود البلاد الآهلة بالسكان . كان البرابرة يسكنون المناطق الهامشية ، Randvölker راندفولكر أي شعوبا هامشية كما يسميهم فريدريش راتسل Frederich Ratzel ، شعوبا بلا تاريخ geschichtslos (هل صحيح أنهم بلا تاريخ ؟) كما يقول الجغرافيون والمؤرخون الألمان .بالأمس كان " ١٢٠٠٠ من التشوكتيين Tchouktes يعيشون في منطقة مساحتها ٨٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع ؛ وكان ألف من الساموييديين Samoyedes يعيشون في منطقة مساحتها ١٥٠٠٠٠ كيلومتر مربع بشبه جزيرة يامال Yamal الجليدية "(٩٦). ذلك " أن المجموعات البشرية الأكثر فقرا تلتمس عادة المكان الأكثر اتساعا " (٩٧) : والأقرب إلى الصواب أن نقلب هذا العبارة التقريرية لتصبح: الحياة البدائية هي وحدها التي تستطيع الاستمرار في مناطق شاسعة ، مترامية الأطراف ، تتسم بالوعورة والعدوانية ، بأنها تستخرج الجذور والدرنات من بطن الأرض ، وبأنها تصيد الحيوانات البرية بالفخاخ.

أيا كان الأمر ، فما إن يندر البشر حتى تتزايد الحيوانات الوحشية، حتى إذا كان المكان هين الشأن ، لاسبيل إلى الانتفاع به . كلما ابتعدت عن البشر ، اقتربت من الحيوانات البرية . واذا أنت قرأت قصص الرحلات، وجدت فيها كل حيوانات البسيطة. اليك نمور آسيا ، تحدثك قصة من قصص الرحلات في القرن السابع عشر ، بأنها تحوم حول القرى والمدن ، وتسبح في الماء ، وتفاجيء في دلتا نهر الكنج بالهند الصيادين النائمين في القوارب؛ وما زال الناس إلى اليوم يخلون المناطق المحيطة بالقرى الجبلية في الشرق الأقصى من الشجر والخمائل حتى يبعدوا عنهم كل حيوان آكل للبشر (٩٨). فاذا أسدل الليل أستاره لم يشعر إنسان بالأمن والاطمئنان ، حتى إذا قبع في عقر داره . ونقرأ عن الأب اليسوعي دي لاس كورتيس de Las Cortes ورفاقه في البؤس (في عام ١٦٢٦)

أنهم أسروا في مدينة صغيرة قرب كانتون ، وخرج رجل منهم من البيت الذي ألزموه فأكله النمر (٩٩). وهذه صورة صينية من القرن السادس عشر، تمثل نمرا هائلا ، ترقش فراؤه ببطع من الورد ، وقد اتخذ مكانه بين الغصون المزهرة في شجرة من أشجار الفاكهة، وكأنه غول دخل بين الناس (١٠٠). وهذا شيء يحدث في الحقيقة كثيراً ، أكثر مما ينبغي، في الشرق الأقصى.

ومملكة سيام Siam هي ، في حقيقتها ، واد هو وادي نهر مينام Menam ، تصطف فوق مياهه صفوف من البيوت ، مقامة على خوازيق ، وأسواق حافلة ، وعائلات مكدسة على قوارب ؛ وهناك على المشارف مدينتان أو ثلاث مدن ، منها العاصمة ، وهناك حقول الأرز ؛ وغابات مترامية الأطراف ، ينفذ إليها الماء، فينصب على مساحات فسيحة شاسعة . وهناك مناطق قليلة جدا ، بل نادرة ، من الأرض تكسوها الغابات ، تبرز من بين المياه الغامرة ، وتضم نمورا وفيلة وحشية بل ووعولاً من نوع الشاموا إذا صدق كلام كيمفر E. Kämpfer (١٠١) . وهناك في أماكن أخرى من العالم وحوش أخرى ، هناك أسود تتربع على العرش في اثيوبيا، وشمال أفريقيا ، وفارس قرب البصرة ، أو على الطريق من شمال غرب الهند إلى أفغانستان . والتماسيح كثيرة في أنهار الفيليبين(١٠٢)، والخنازير البرية تسيطر على السهول الساحلية لسومطرة والهند وهضاب فارس ؛ وهناك خيول برية في شمال الصين يصيدونها بانتظام مستخدمين الحبل ذا العقدة المسمى اللاسو(١٠٣). وهناك كلاب متوحشة تعوي في جبال طرابزون، سمعها جيميللي كاريري Gemelli Careri وأقضت مضجعه(١٠٤). وفي غينيا بقر وحشي صغير الحجم يطارده الصيادون ، أما قطعان الفيلة ، وأفراس النهر - يسميها أحد الرحالة " الأفراس البحرية " وهو خطأ - فهي في هذه المناطق نفسها تهلك الحرث ، " وتنزل الخراب بحقول " الأرز والدخن والخضروات المختلفة ..." ؛ " ولقد رأينا أحيانا قطعانا تبلغ الثلاثمائة أو الأربعمائة دفعة واحدة " (١٠٥). وفي ربوع أفريقيا الجنوبية ، تجاه القطب الجنوبي، وهي ربوع واسعة شاسعة ، خالية ، عسيرة على البشر، بعيدة عن رأس الرجال الصالح، لا يلقى الإنسان فيها بشرا الا فيما عز وندر ، " هم الى حياة الحيوان أقرب منهم إلى حياة البشر " ، ويلقى الإنسان حيوانات " وحشية " ، أعدادا من الأسود ومن الفيلة التي اشتهرت بأنها أضخم فيلة في العالم (١٠٦). هذه فرصة تتاح لنا لكي نهيم على جناح الأحلام خلال القرون، فنندفع إلى الطرف الآخر ، الشمالي، من القارة ، حيث فيلة شمال أفريقيا التي كان لها شأن أيام قرطاجة وهانيبال (٢٤٧ - ١٨٣ قبل الميلاد) . ونسترسل في رحلة الأحلام من الجنوب الى الشمال ، فندور الى قلب أفريقيا السوداء ، إلى عمليات الصيد الحقيقية التي استهدفت الفيلة وأمدت الأوروبيين ، منذ القرن السادس عشر، بكميات هائلة من العاج(١٠٧).

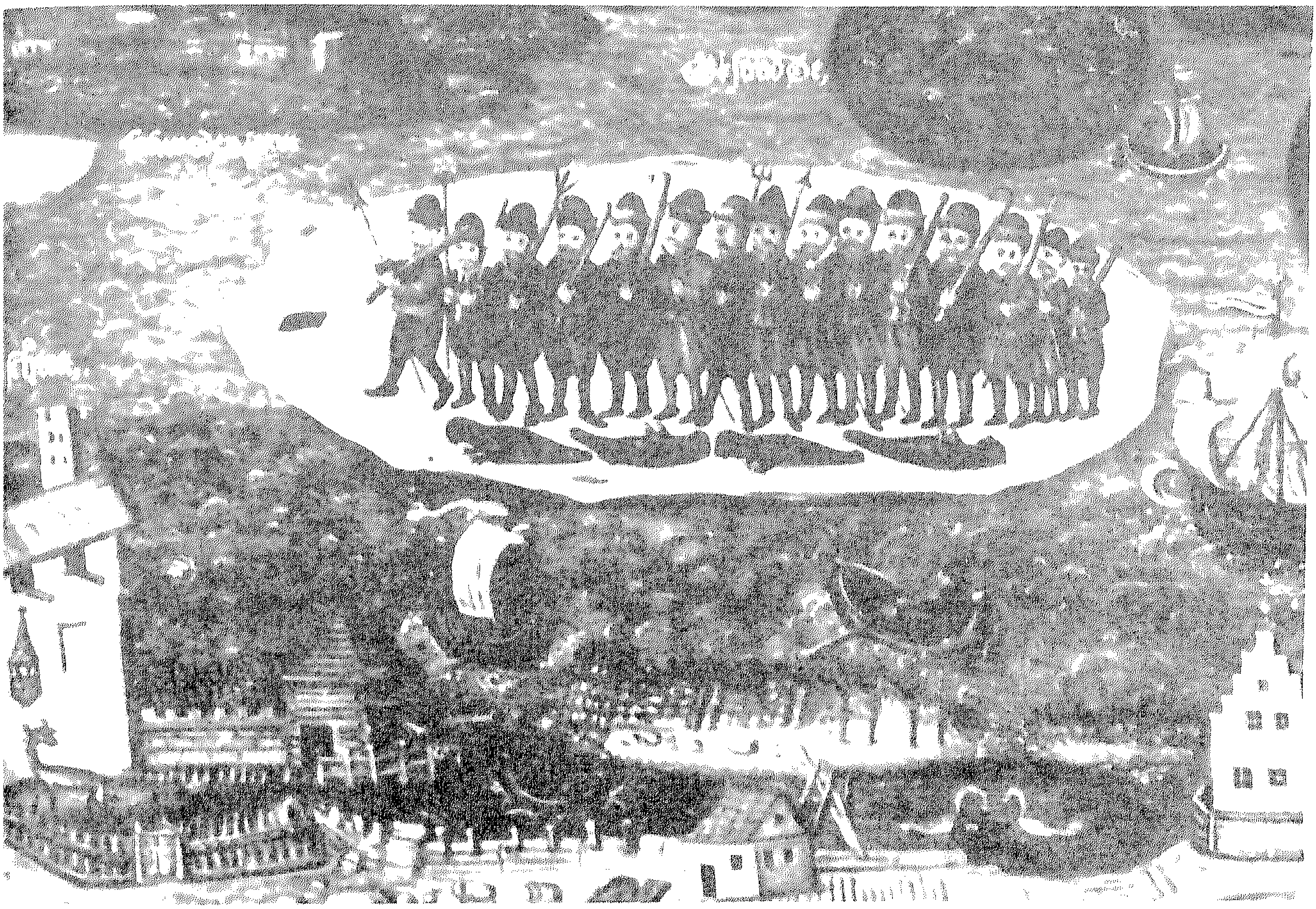

صيد عجل البحر : هذه الصورة التي علقت في الكنيسة وفاء لنذر ترجع الى عام ١٦١٨ وتحكي مغامرة الصيادين السويديين ، تحملهم - ومعهم عجول البحر التي صادوها - قطعةٌ من الجليد العائم..خرجوا الى البحر وعادوا غانمين موفورين الى البر بعد اسبوعين فقط . (المتحف القومي، استوكهولم)

أما فيما يتعلق بالذئاب ، فقد كانت أوروبا كلها ، من الأورال إلى مضيق جبل طارق ، مرتعا لها ، كما كانت كل الجبال مرتعا للدببة . إن انتشار الذئاب ، واليقظة التي تحفز الناس عليها ، أمران يجعلان من صيد الذئاب مؤشرا يشهد على سلامة الأوضاع فى الأرياف، وسلامة الأوضاع فى المدن أيضا ، ويشهد على سمات السنوات التي تعيشها . فلو مرت بالناس لحظة من التراخي والغفلة ، أو لو حدث كساد اقتصادي ، أو حل شتاء قارص، وجدنا الذئاب تتكاثر وتتزايد . في عام ١٤٢٠ نفذت أسراب من الذئاب إلى داخل باريس من فروج المتاريس ، أو من الأبواب التي ضعفت حراستها ؛ كذلك عادت الذئاب إلى النيل من باريس في سبتمبر من عام ١٤٣٨ ، وهاجمت البشر خارج المدينة في

هذه المرة، في المنطقة بين مونمارتر Montmartre وباب سانت أنطوان Saint-Antoine(١٠٨). وفي عام ١٦٤٠ دخلت الذئاب مدينة بيزانسون Besançon عابرة نهر الدوب Doubs على مقربة من طواحين المدينة " وافترست الأطفال في الشوارع "(١٠٩). وحول عام ١٥٢٠ أنشأ الملك فرانسوا الأول فرقة كبار الدبابية التي قامت بحملات لمطاردة الذئاب شارك فيها السادة والفلاحون ؛ كذلك في عام ١٧٦٥ شهدت المنطقة الفرنسية التي كانت تسمى آنذاك جيفودان GEevaudan هجمات من الذئاب " وكانت آثار التلف كبيرة حتى ظن الناس ان حيوانا متوحشًا هائلا هو الذي أحدثها " (١١٠). وكتب أحد الفرنسيين في عام ١٧٧٩ " يبدو أنهم يسعون الآن إلى القضاء على جنس الذئاب كله في فرنسا، كما فعل الانجليز في انجلترا منذ أكثر من ستة قرون، ولكن ليس من السهل محاصرة الذئاب في بلد كبلدنا ، مترامي الأطراف ، ومفتوح من كل ناحية ، على الرغم من أن الإبادة كانت قابلة للتنفيذ في بلد عبارة عن جزيرة مثل بريطانيا العظمى " (١١١). ثم ألم يقم نواب التجارة في فرنسا في عام ١٧٨٣ ، وقد استبد بهم الغيظ ، بمناقشة اقتراح كان البعض قد تقدموا به قبل سنوات ألا وهو " إدخال أعداد من الذئاب الى انجلترا تكفي لإبادة أكبر جزء من السكان " (١١٢) ولما كانت فرنسا ، بحكم موقعها الجغرافي، ملتحمة بأراضي القارة الأوروبية من اتجاهاتها المختلفة ، لصيقة بغابات ألمانيا وبولندة البعيدة، فلم تكن تستطيع الفرار مما يجري على بلد في ملتقى الطرق . وهاهي ذي منطقة الفيركور Vercors الفرنسية تتعرض في عام ١٨٥١ لكارثة الذئاب(١١٣).

ولكن هناك من الحيوانات البرية ما تأتلف منه مشاهد أكثر متعة وإمتاعا وطرافة، هناك الطيور البرية من نوع gélinotes وهو دجاج يسمونه الأحراج، ومن نوع faisans وهي طيور يسمونها التدرج ، والأرانب البرية البيضاء ، وطيور الحجل perdrix البيضاء، وطيور الحجل الحمراء التي أثارتها قرب ملقا Malaga بأسبانيا خيول توماس مونتسر Thomas Münzer (١١٤) وهو طبيب ألماني من أبناء مدينة نورنبرج قام مع أصحابه برحلة في الجزء الخلفي الجبلي من بلنسية بأسبانيا في عام ١٤٩١ . ونقرأ عن أسراب من الحيوانات المتوحشة زحفت كأمواج المد على منطقة راوه ألب Rauhe Alb الجبلية في مقاطعه فرتمبرج الألمانية في مطلع القرن السادس عشر؛ كما نقرأ أن الفلاحين كان محظورا عليهم استخدام الكلاب الكبيرة في مطاردتها ؛ وأن أمناء الغابة هم وحدهم الذين كان لهم هذا الحق (١١٥). أما بلاد فارس فقد كثرت فيها حيوانات منها الخنازير البرية والوعول وبنات آوى والغزلان والأسود والنمور والدببة والأرانب البرية ، وأسراب هائلة من الحمام والأوز البري والبط البري ويمام الترغل والغربان والبلشون ونوعان من طيور الحجل(١١٦)...

صيد الخنزير البري في بافاريا في ألمانيا : وكان الصيادون يستخدمون الرماح والأسلحة النارية (١٥٣١) . (المتحف القومي البافاري في ميونيخ)

ومن الطبيعي أنه كلما ازداد الخلاء امتدادا نمت حياة الحيوان على راحتها وزادت وربت. ولقد شهد الأب ڤيربيست Verbiest (في عام ١٦٨٢) شيئا من هذا في منشوريا، عندما قام برحلة في ربوعها ، في حاشية الامبراطور الهائلة ، التي كانت تمتطى صهوة مائة ألف من الخيول ، كان التعب قد بلغ به كل مبلغ ، وكان يتبرم بما أصابه من تعب، ولكنه رأى من مشاهد الصيد ما راعه : ففي يوم واحد صادوا ألفا من الوعول وستين من النمور(١١٧). وفي جزيرة موريشيوس التي كانت خالية من البشر شهد شاهدٌ في عام ١٦٣٩ أسرابا من يمام الترغل ومن الأرانب البرية ، لم تكن تهاب البشر، وكان من الممكن الإمساك بها باليد (١١٨) . ونقرأ في تقرير عن فلوريدا يرجع إلى عام ١٦٩٠ عما غصت به من الحمام البري والببغاوات وطيور أخرى كثيرة " حتى إن الناس كثيرا ما يشحنون المراكب الكاملة ببيض هذه الطيور "(١١٩).

أما في العالم الجديد فكان كل شيء بكل تأكيد مهولا ؛ كانت هناك وفرة زائدة في

مناطق خالية من البشر (despoblados) ، بينها على مسافات بعيدة هائلة بعض المدن الضئيلة . في المنطقة التي ستصبح الأرجنتين في أمريكا الجنوبية ، بين قرطبة ومندوزا ، كان الإنسان يحتاج إلى نحو عشرين يوما ، إذا سار بسرعة قافلة قوامها ٢١ عربة خشبية مقفلة ، يجرها ٦٠ من الثيران ، مكدنة زوجان زوجان ، كما سارت القافلة التي كانت ترافق ، في عام ١٦٠٠ ، ليثاراجا Lizarraga مطران سانتياجو بشيلي(١٢٠). لم تكن هناك سوى قلة من الحيوانات الأصلية الموطن ، باستثناء النعام واللاما ، وعجول البحر في المناطق الجنوبية(١٢١).أما المناطق الخالية من البشر فقد احتلتها الحيوانات القادمة من أوروبا (الخيول ، والأبقار بأنواعها) ، وتكاثرت فيها أي تكاثر . ورسمت قطعان من البقر البري هائلة ، طرقا منتظمة للرحلة الموسمية من خلال السهل ، وظلت تنعم بالحرية حتى القرن التاسع عشر . أما قطعان الخيول البرية فكانت ، عندما تنضم بعضها إلى البعض ، ترسم في الأفق أحيانا ما يشبه التلال الصغيرة الغامضة . ونقرأ عن قصة طريفة سمعها المطران ليثاراجا ، تدفعنا إلى التساؤل هل كانت مجرد نكتة ، أم كانت قصة جميلة عميقة المغزى ، حملها ليثاراجا على محمل الجد ، وكانت نكتة يتهكم بها المستوطنون القدامى على حمق وسذاجة القادمين الجدد من أوروبا ، الذين كانوا يسمونهم تشابيتونس chapitones ، وكان المستوطن القديم ذو الخبرة ، أو الباكيانو baquiano ، كثير التهكم عليهم ، وكان على حق في تهكمه ؟ تقول القصة أو النكتة : في هذه المنطقة ذات الحشائش ، التي لم يكن بها قطعة من الخشب ، حتى ولا " في سمك الإصبع الصغير" ، أشار واحد من التشابيتونس ، القادمين الجدد ، إلى موضع يرتفع قليلا ، ويبدو كأنه تل ضئيل ، وقال ، وقد بلغ به الفرح كل مبلغ : " هيا بنا بسرعة إلى هناك نقطع خشباً"...(١٢٢)

ويمكننا أن نتوقف عند هذه النكتة ، ونتأمل في المعاني التي تنضوي عليها.ولكننا إذا سعينا إلى الصور الطريفة ، وجدنا قصصا أكثر طرافة : من سيبريا التي انفتحت أمام الروس في نفس الوقت الذي انفتحت فيه أمريكا أمام أوروبا الغربية . وفي ربيع عام ١٧٧٦ ترك بعض الضباط الروس أومسك Omsk قبل الوقت المناسب مناخيا ، ويمموا شطر تومسك Tomsk ، وكانت الأنهار قد بدأت تذوب بعد تجمد ، وتحدث انجرافات جليدية ، واضطروا إلى ركوب نهر الأوب Ob ، وصنعوا سفينة بدائية من جذوع الشجر المفرغة المربوطة بعضها إلى البعض الآخر ، وكانت الرحلة النهرية على متن هذه السفينة المرتجلة ، في تلك الظروف، رحلة خطيرة ، وإن لم تخل من الطرافة ، على نحو ما كتب أحدهم ، وكان طبيبا عسكريا من أصل سويسري ...: " عددت في أثناء هذه الرحلة على الأقل خمسين جزيرة ، كانت تغص بالثعالب ، والأرانب البرية ، والجاندبادستر castor ، كانت أعدادها غفيرة ، حتى إننا كنا نراها تقترب من الماء ، و [...] لقد سعدنا برؤية دبة تمرح

مع صغارها الأربعة على شاطيء النهر..." ورأينا " عددا رهيبا من البجع ، والكراكي، وطيور السقا، والأوز البري [...] وأنواع مختلفة من البط البري (وبخاصة الأحمر)[...]، وكانت المستنقعات مليئة بطيور الواق ، ودجاج الأرض، وكانت الغابات تعج بدجاج، وديوك برية، وطيور من مختلف الأنواع [...] ، وكانت هذه الجيوش الجرارة من الكائنات المجنحة ، عندما تغيب الشمس ، تحدث بصراخها صخبا هائلا ، حتى إننا لم نكن نستطيع أن يسمع بعضنا بعضا "(١٢٣). وعند أطراف سيبريا، تقع كامتشاتكا Kamtchatka (١٢٤) ، وهي شبه جزيرة مترامية الأطراف ، أوشكت فيما مضى أن تكون خالية من البشر ، وبدأت تمتليء بالحياة تدريجيا مع مطلع القرن الثامن عشر . وكانت الحيوانات ذات الفراء تجذب الصيادين والتجار ، الذين كانوا يحملون الفراء حتى مدينة أركوتسك Irkoutsk ، ومنها إما إلى الصين عن طريق سوق كياختا Kiakhta المجاورة ، وإما إلى موسكو ، ومنها إلى الغرب . وترجع موضة فراء اللوتر أو كلب الماء إلى ذلك العصر . ولم يكن هذا النوع من الفراء يستخدم قبل ذلك الا كساء للصيادين وأهل المنطقة . وبدأت الأسعار ترتفع فجأة ، واتسع نطاق الصيد اتساعا هائلا. وما جاء عام ١٧٧٠ حتى أصبح صيد اللوتر ، أو كلب الماء ، عملا تقوم به منظمة هائلة. وكانت سفن الصيد ، التي كانت تبُنى ، وتُسلح في أوخوتسك Okhotsk تُزود بأطقم متعددة من الرجال ، لأن أهل المنطقة ، الذين كانوا يلقون معاملة سيئة في كثير من الأحيان ، كانوا يقفون من الصيادين ومن معهم موقفا عدائيا ، وربما هجموا على السفينة فقتلوا من فيها أو أحرقوها . ولقد كانت التجريدة تحتاج إلى تدبير مؤن تكفيها لأربع سنوات ، وكان عليها أن تجلب من بعيد الخبز المقدد والخبز المصنوع من دقيق الشوفان . وأدت تكاليف التموين الباهظة إلى وضع صيد اللوتر في أيدي تجار إركوتسك Irkoutsk النائية : وكان هؤلاء التجار يتقاسمون التكاليف والأرباح على نظام الأسهم. وكانت الرحلة تطول حتى تبلغ جزر ألوتيان على أقصى الشمال الشرقي لأمريكا الشمالية ، وربما استمرت أربع أو خمس سنوات . وكانت عمليات الصيد تجري عند مصبات الأنهار حيث كانت حيوانات اللوتر تكث . كان الصياد بالفخ - البروميشلينيك promyschlennik - يركب قاربا ، ويتعقب الحيوانات ، التي كانت تضطر إلى البروز فوق سطح الماء لتتنفس ، أو ينتظر إلى أن يشتد برد الشتاء وتتكون أول جزيرة جليدية ؛ كانت مثل هذه الجزيرة تتيح وصول الصيادين ، وكلاب الصيد بسهولة إلى حيوانات اللوتر التي كانت تضطرب، اذا خرجت من الماء ، فينهال الصيادون والكلاب على حيوانات اللوتر، ثم يجهزون عليها بعد ذلك. كان يحدث أحيانا أن تتحلل الجزيرة الجليدية إلى أجزاء ، تتفرق وتندفع مع المياه المائجة إلى بعيد ، وعليها الصيادون والكلاب وحيوانات اللوتر المقتولة . وربما حاصر الجليد السفينة في بحار الشمال، بلا خشب أو تموين. وكان على طاقم السفينة أن يقتات

الصيد في فارس في القرن السابع عشر : صيد بالصقر ، والرمح ، والسيف ، والسلاح الناري. والغنيمة وفيرة . جزء من منمنمة (متحف جيميه Guimet)

على السمك النيء. ولكن هذه الصعاب لم تمنع الصيادين من التوافد مكثرين(١٢٥). ونقرأ أن عام ١٧٨٦ شهد سفنا إنجليزية وأمريكية ولجت البحار الى الشمال من المحيط الهادي . وقد أدت هذه اللعبة إلى انقراض هذه الحيوانات الجميلة من شبه جزيرة كامتشاتكا بسرعة ، وبات على الصيادين أن يسعوا إلى مواضع من ورائها ، وما زالوا يوغلون حتى وصلوا إلى ساحل أمريكا ، وربما بلغوا سان فرانسيسكو ؛ بل لقد حدث أن

تصادم الروس والأسبان في مطلع القرن التاسع عشر دون أن يهتم التاريخ الكبير اهتماما زائدا بما جرى بينهم.

كان وجه المعمورة يحفل بمساحات هائلة ، اتصلت فيها حياة الحيوانات البدائية ، وبقيت على فطرتها حتى آذن القرن السابع عشر بالمغيب : فلما عرف الإنسان طريقه اليها ، كان ظهوره في جنباتها هو الحدث الجديد ، المأسوي ، الذي ألم بهذه الجنات . لقد جن البشر بالفراء ، ويكفي جنون الناس بالفراء شرحا لما حدث في أول فبراير ١٧٩٣ عندما اتجهت السفينة الشراعية " لي ليون " الأسد Le Lion ، تحمل إلى الصين السفير ماكارتني Macartney فاكتشف بحارتها في المحيط الهندي ، على مقربة من خط العرض ٤٠ جنوبا ، خمسة أشخاص (ثلاثة فرنسيين واثنين من الإجليز) ، في جزيرة أمستردام، وقد اتسخوا اتساخا بالغا رهيبا. كانت سفن قادمة من بوسطن إلى كانتون لتبيع فراء كلاب البحر الأمريكية ، أو فراء عجول البحر المجلوبة من جزيرة أمستردام نفسها ، قد أنزلت الرجال الخمسة في رحلة سابقة . فنظموا عمليات قتل هائلة (قتلوا ٢٥٠٠٠ حيوان في موسم صيف واحد). ولم يكن كلب البحر هو الحيوان الوحيد في الجزيرة ، فقد كانت تغص بالبنجوين ، والحوت ، والقرش ، وكلاب البحر ، وكميات لا تحصى من السمك." كانت بعض الخيوط المنتهية بالصنارات ، عندما تلقى في الماء هناك، تجلب من السمك ما يكفي لإطعام طاقم سفينة "لي ليون " أسبوعا كاملا." كانت مصبات المياه العذبة تمتلىء بأسماك الفرخ perches وأسماك الطنش tanches علاوة على الكابوريا " كان البحارة ينزلون السلال إلى الماء وقد وضعوا فيها طعما من لحم القرش ، وما تمر دقائق حتى يخرجوا السلال وقد امتلأت إلى نصفها بالسرطانات البحرية écrevisses ." وهناك عجائب كثيرة أخرى ، منها الطيور، البطروس albatros ذو المنقار الأصفر ، والنورس الأسود الكبير وهو طائر يقولون إنه من الفضة ، والنورس الأزرق وهو طائر ليلي تتعقبه الطيورالجارحة وصيادو كلاب البحرالذين يجتذبونه بإشعال المشاعل ، فيقتلون منه أعدادا كبيرة [..]: بل إن لحم هذا الطير هو طعام الصيادين الأول ، وهم يقولون إنه لحم ممتاز . والنورس الأزرق في حجم الحمام تقريبا ..." (١٢٦).

والحق أن كتاب الغابة كان يمكن أن نفتحه قبل القرن الثامن عشر في أي مكان. ومن الكياسة أن نقفله قبل أن نتوه فيه . ولكن يا لها من شهادة على ضعف اهتمامات الإنسان!

عهد بيولوجي قديم
ينتهي إبان القرن الثامن عشر

إن الذي تحطم إبان القرن الثامن عشر ، سواء في الصين أو أوروبا ، هو عهد بيولوجي قديم (قياسا على العهد القديم في تاريخ فرنسا الذي انتهى في أواخرالقرن الثامن عشر) ونعني بعبارة عهد بيولوجي قديم مجموعة من الضغوط والعوائق والبنيات والعلاقات والعمليات الرقمية كانت تعتبر حتى ذلك الحين بمثابة المعيار الذي يقاس عليه.

التـــوازن
يُمَكِّن دائما لنفسه

هناك لعبة مستمرة لا تنتهي، تجري بين حركتين: حركة الميلاد وحركة الوفاة. ونحن إذا نظرنا إلى الأحوال إبان العهد القديم، وجدنا كل شيء ينتهي إلى توازن. فهذان هما المعاملان ـ الميلاد والوفاة ـ متقاربان، كل منهما يقدر : بنسبة ٤٠ في الألف. فما تأتي به الحياة يأخذه الموت . ولنقلب في سجلات عام ١٦٠٩ ، في كنيسة مركز لاشابيل فوجيريه الصغير La Chapelle - Fougerets (١٢٧) ، وهو الذي ضم اليوم إلى ضاحية مدينة رين Rennes ، إنها تثبت ٥٠ حالة تعميد ، فإذا انطلقنا من أن نسبة المواليد هي ٤٠ حالة ميلاد لكل ألف من السكان ، كان لنا أن نضرب عدد المواليد المسجلين في ٢٥ (١٠٠٠ ÷ ٤٠ = ٢٥) لنحصل على رقم السكان في القرية الكبيرة : حوالي ١٢٥٠ نسمة. وقد حسب الاقتصادي الانجليزي وليم بيتي William Petty في كتابه" علم الحساب السياسي" Arithmetique politique (سنة١٦٩٠) عدد السكان تقديريا، انطلاقا من أرقام الوفيات ، التي كان يضربها في ٣٠ [وهو ما يعني تقليلا طفيفا في نسبة الوفيات التي كانت ٤٠ لا ٣٠ (١٢٨)].

ونلاحظ أن الناحية الإيجابية والناحية السلبية تواكب الواحدة منهما الأخرى على المدى الصغير . فإذا طغت إحداهما ، أحدثت الأخرى رد الفعل المناسب . فقد حدث في عام ١٤٥١ أن فتك الطاعون في مدينة كولونيا الألمانية بـ ٢١٠٠٠ نسمة ، على نحو ما نقرأ، فإذا الأعوام التالية تشهد عقد ٤٠٠٠ زيجة (١٢٩) ؛ حتى إذا كانت هذه الأرقام التي وصلت إلينا أرقاما مبالغا فيها، وهو ما تشير إليه كل الدلائل، فإن تعويض الفاقد البشري أمر واضح لا ريب فيه . وعندنا أرقام أخري.

ففي محلة زالتسفيدل Salzewedel ، وهي محلة صغيرة في منطقة المارك براندنبورج الألمانية القديمة ، مات في عام ١٥٨١ ما يقدر بـ ٧٩٠ نسمة، وهو رقم يساوي عشرة أمثال الرقم العادي للوفيات . وإذا كان عدد الزيجات قد انخفض في العام نفسه من ٣٠ إلى ١٠ زيجات ، فإن عدد الزيجات بلغ في العام التالي ـ على الرغم من

انخفاض عدد السكان من أثر الكارثة ـ ٣٠ زيجة ، تبعتها أعداد من المواليد وفيرة، عوضت الفاقد. ومن أخبا وقيرونا في عام ١٦٣٧، أن طاعونا ألم بها وفتك بنصف الأهلين (وكتاب الأخبار يحبون المبالغة) وكان بالمدينة حامية كل جنودها تقريبا فرنسيون، نجوا من الوباء، وتزوجوا الأرامل ، فعادت الحياة إلى مسارها ، واستردت حقوقها كاملة (١٣١). وكانت كوارث حرب الثلاثين سنة ، التي بدأت في عام ١٦١٨ ، قد نالت من ألمانيا كلها على نحو بالغ الشدة ، فلما خرجت في عام ١٦٤٨ من المحنة ، شهدت زيادة سكانية ، وكانت هذه الزيادة السكانية هي ظاهرة التعويض التي تحققت في ألمانيا بعد أن أتت فظاعات الحرب على ربع أو نصف أهلها. وقد لاحظ رحالة إيطالي زار ألمانيا بعد عام ١٦٤٨ بقليل، أنه بينما كان عدد سكان أوروبا ثابتا أو متجها إلى الانخفاض ، " كان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح في ألمانيا قليلا، ولكن عدد الأطفال كان يفوق المألوف"(١٣٢).

وكانت السلطات تتدخل وتتخذ اجراءاتها ، إذا لم يحدث التوازن بالسرعة الكافية، ففي البندقية ، التي كانت موصدة في وجه الأجانب بشكل رهيب، صدر مرسوم متحرر في ٣٠ اكتوبر ١٣٤٨، غداة الطاعون الرهيب ، يعطي حق المواطنة الكاملة (de intus et de extra) لكل شخص يأتي ومعه أهله وأمواله في غضون عام ويقيم فيها . والقاعدة العامة على أية حال هي أن المدن لا تعيش إلا على ما يرد إليها من الخارج من بشر ، ولكن انتقال البشر إلى المدن يتم عادة تلقائيا.

والخلاصة أن تزايد السكان وتناقصهم يتواليان ، ويعوض أحدهما الآخر ، بانتظام كما

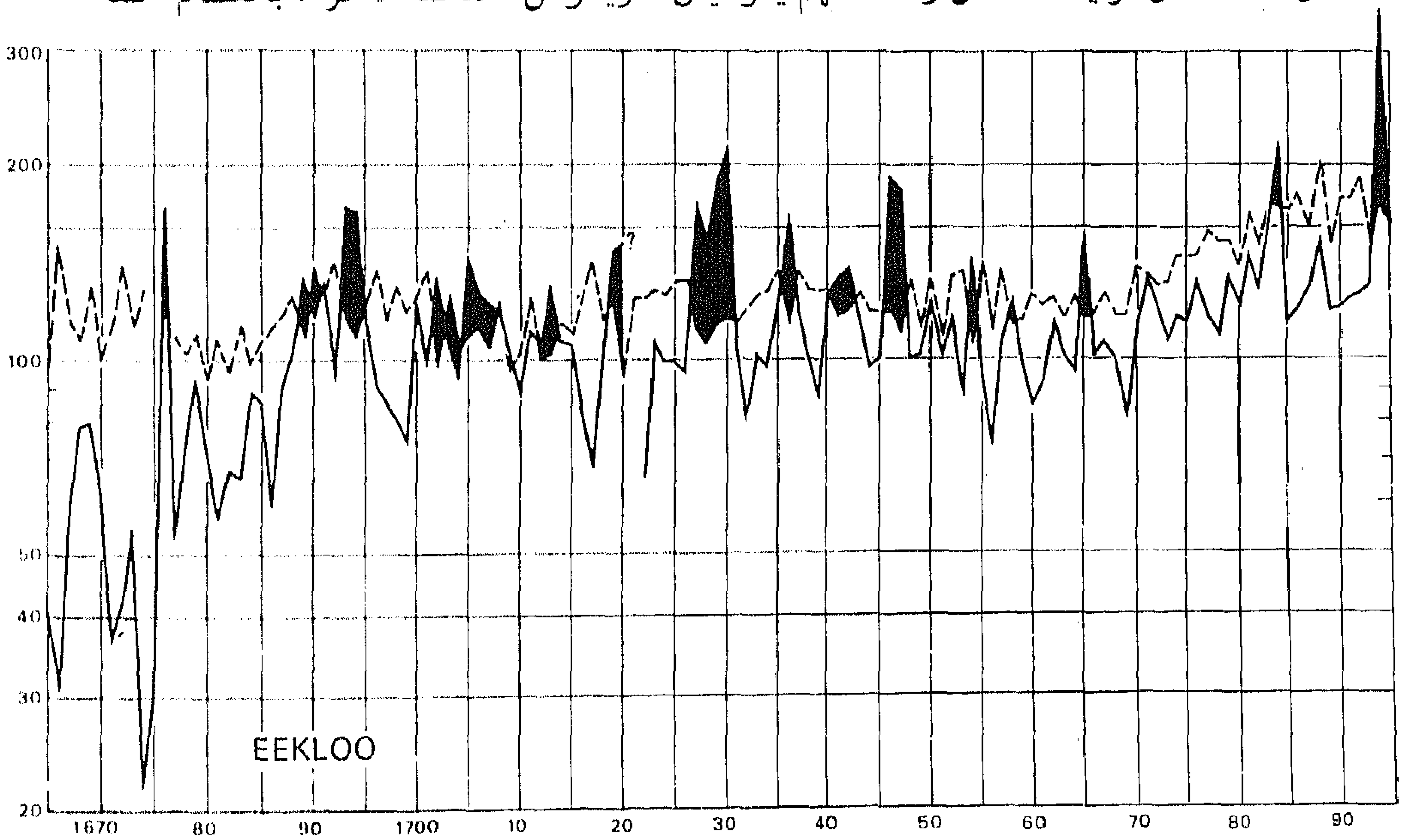

A

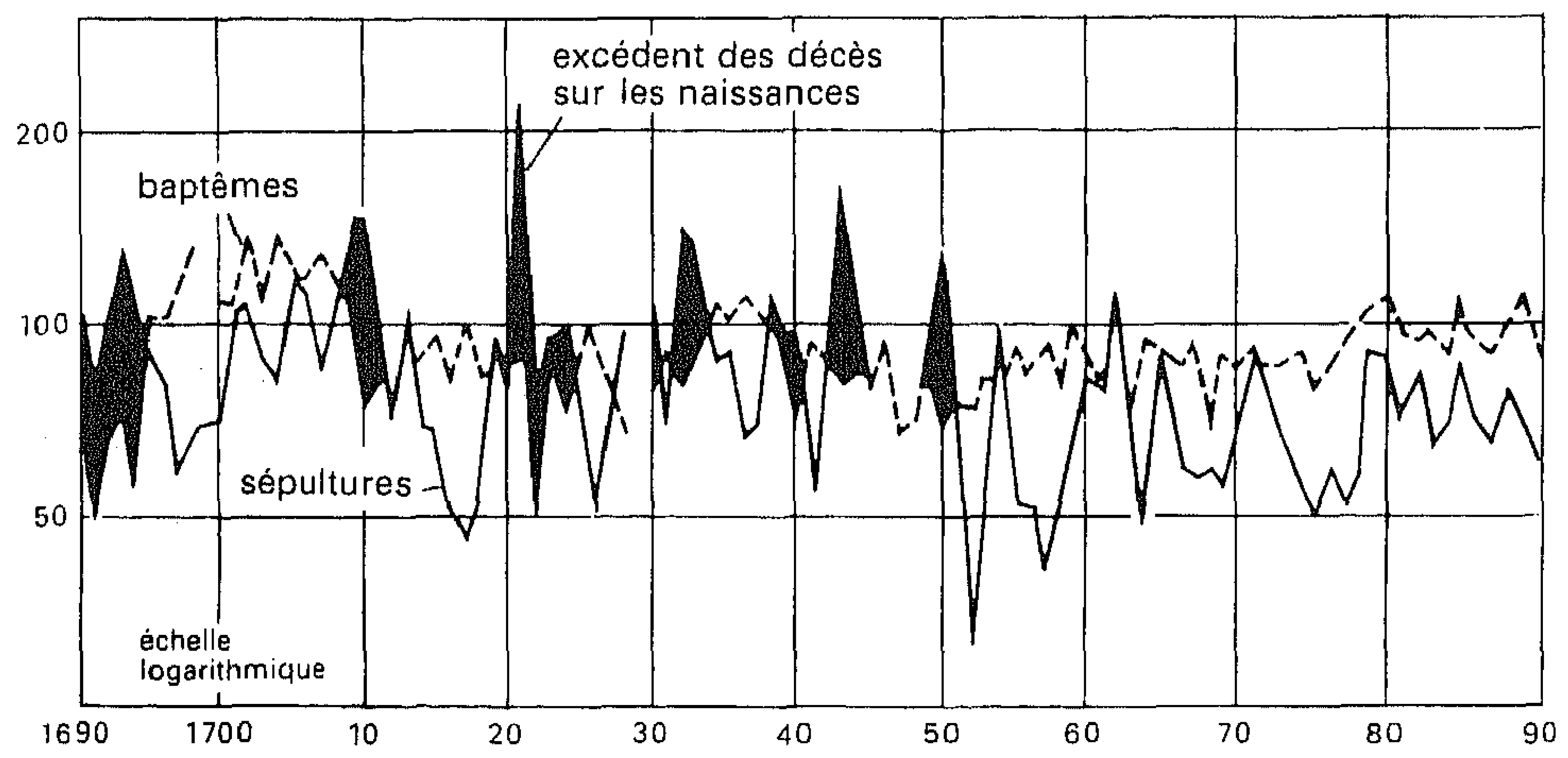

B

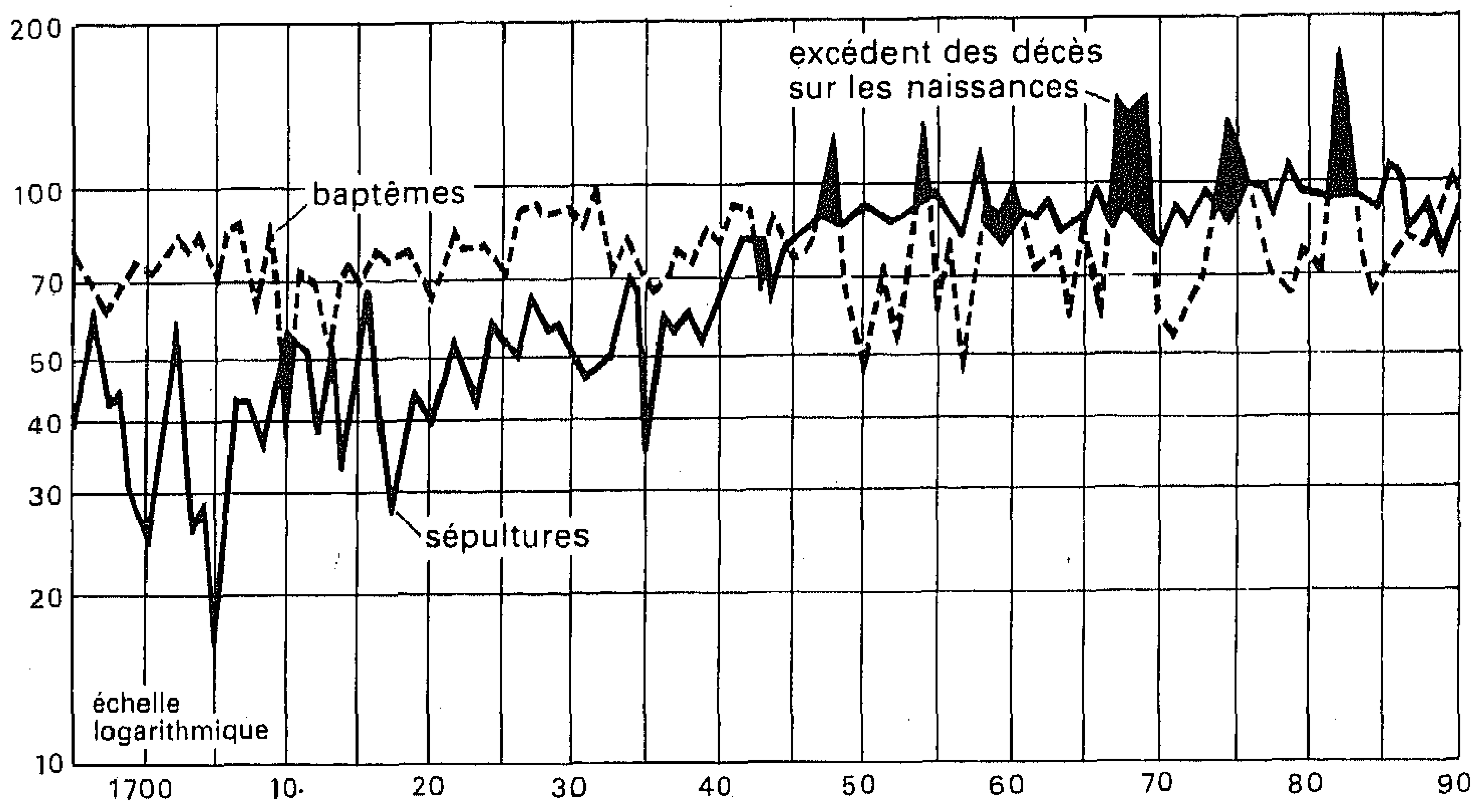

C

٨ ـ الأحوال السكانية قديما : المواليد والوفيات .

ثلاثة أمثلة : أ مدينة فلمنكية

ب مدينة في جنوب البروڤانس

ج مدينة في منطقة بوڤيزي

وتبين هذه الأمثلة ـ وهي ثلاثة من مئات الأمثلة ـ العلاقات بين الميلاد والوفاة. وتشير الأسنة المدببة السوداء في الخط البياني الى الفترات التي زاد فيها الموت على الميلاد. وهي تقل إبان القرن الثامن عشر ، الا من بعض الاستثناءات ، منها أوراج Eyragues (خط بياني ب). انظر أيضا (الرسم البياني رقم ٩ في الصفحة التالية) زيادة الوفيات في فرنسا في عام ١٧٧٩ وفي عام ١٧٨٣.

[هذه الرسوم البيانية مأخوذة عن M.Morineau و A . de Vos وبالنسبة للرسم رقم أ وعن R. Baehrel بالنسبة للرسم ب و عن P.Goubert بالنسبة للرسم ج .]

يبين المنحنى البياني المزدوج المسنن كأسنان المنشار (حتى القرن الثامن عشر) المواليد والوفيات، سواء كان المنحنى يمثل الأحوال في الغرب في البندقية أو في منطقة البوفيه الفرنسية . كان الأطفال في الأعمار المنخفضة معرضين للهلاك دائما ، وكان الوباء يعجل بالقضاء على كل الأطفال الذين كانت ضآلة الموارد تتهددهم وتوشك أن تحيق بهم. والفقراء هم دائما أول من تحل بهم الكوارث. ولقد كانت القرون التي نتحدث عنها- من الرابع عشر إلى الثامن عشر- تندرج تحت إشارة " المذابح الاجتماعية " العديدة التي لاتحصى. ونقرأ في خبر من كريبي Crépy قرب سانليس Senlis في فرنسا في عام ١٤٨٣ أن " ثلث أهل المدينة شحاذون يجوسون خلال الديار مادين أيديهم ، وكبار السن يخرون صرعى الوهن كل يوم فوق أكوام السباخ "(١٣٣).

ولم تظهر الحياة على الموت إلا في القرن الثامن عشر ، فقد أخذت أعداد المواليد تزيد على أعداد الوفيات زيادة منتظمة إلى حد كبير . ولكن الانتكاسات ظلت ممكنة ، منها ما حدث في فرنسا نفسها في عام ١٧٧٢- ١٧٧٣ أو في الأزمة التي انبثقت من أعماق الأحداث من عام ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ (الرسم البياني رقم ٤) . كانت هذه الكبوات العنيفة تشهد على ضعف التحسن الذي بدأ متأخرا ، وظل هشا ، تحت رحمة توازن، تحفه الأخطار، بين الحاجة إلى الغذاء وامكانات الانتاج .

المجاعــات

ظلت المجاعات تتكرر بإلحاح شديد ، حتى أصبحت جزءا من النظام البيولوجي للبشر، وبنية من بنيات حياتهم اليومية . وكانت ألوان الغلاء ، وصنوف القحط مستمرة ومألوفة حتى في أوروبا ، التي كانت تعتبر متميزة محظوظة . وربما وجدنا بعض الأغنياء المتخمين، ولكنهم كانوا استثناء ، والاستثناء لا يغير القاعدة . وهل كان من الممكن أن تسير الأمور على نحو آخر ؟ فقد كانت محاصيل الحبوب ضعيفة. فإذا توالى محصولان رديئان مرتين متتاليتين حدثت الكوارث . وربما كان المناخ الذي نعم به العالم الغربي هو السبب في أن هذه الكوارث كان من الممكن التغلب عليها في كثير من الأحيان، كذلك كانت الحال في الصين نتيجة للأساليب الزراعية التي تطورت منذ وقت مبكر ، وبناء السدود ، وشبكة قنوات استخدمت في الري والنقل ، ثم التنظيم الدقيق لمزارع الأرز في جنوب الصين، وما كانت تعطيه من محاصيل مزدوجة ، كل هذا أتاح نوعاً من التوازن حينًا طويلاً، حتى بعد الزيادة السكانية الكبيرة في القرن الثامن عشر. ولكن الأمر يختلف في مسكوفيا، حيث المناخ قارص ، لا يستقر على حال ، ويختلف أيضا في الهند، حيث تحدث فيضانات عارمة وحالات جفاف نكراء، تذكرٍ بنهاية العالم.

لم تكن الزراعات المعجزة (الذرة والبطاطس، وسنعود إلى الحديث عنهما) قد استقرت

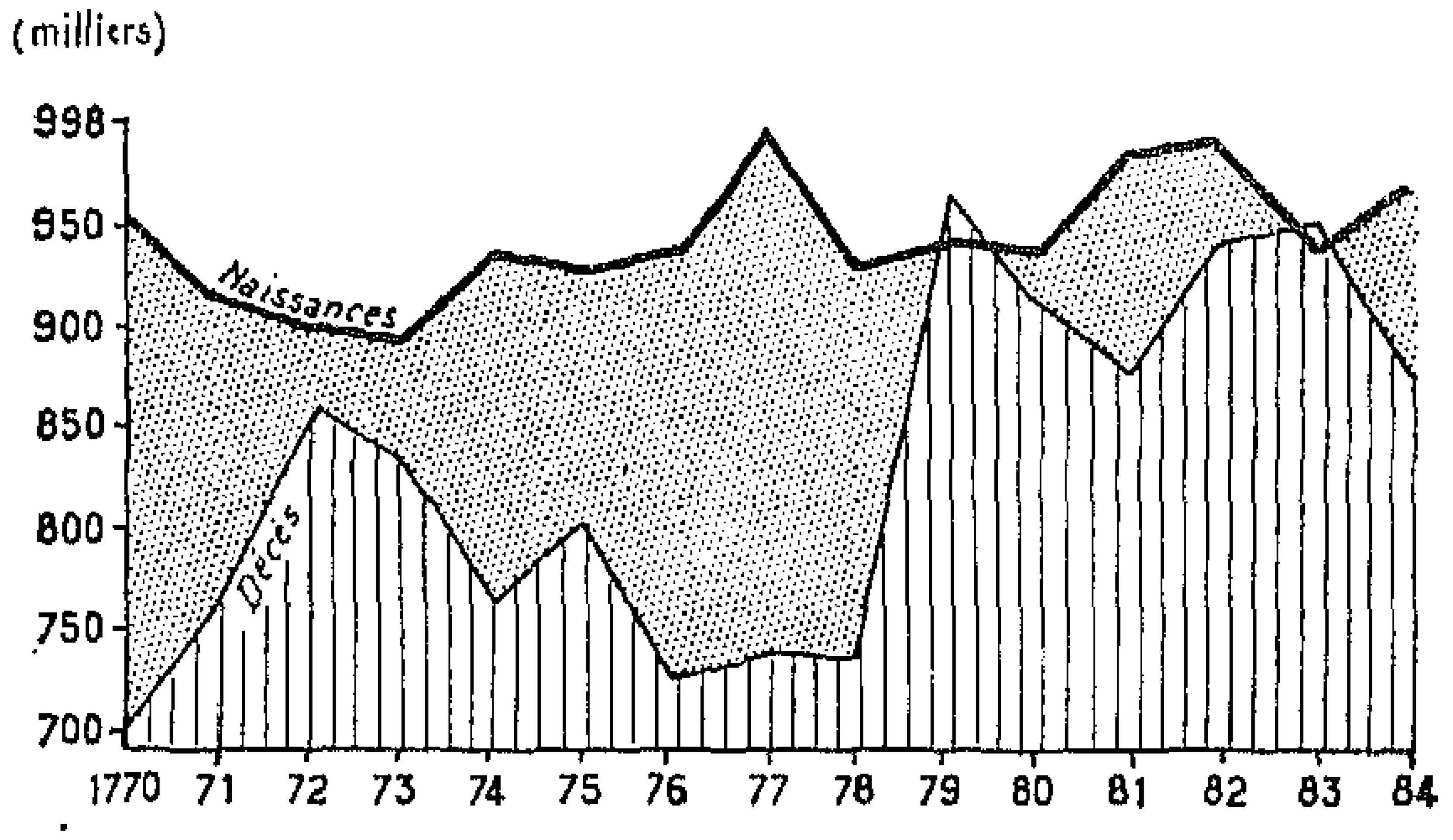

حركة سكان فرنسا قبل الثورة

في أوروبا بعد، كذلك كانت أساليب الزراعة المكثفة بطيئة الدخول إليها. لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، لم تكف المجاعات عن اجتياح القارة، وإحداث فراغات في ربوعها. ولم يكن هناك مشهد يحزن القلب، وينبيء بالكوارث في وسط القرن (من قبيل الطاعون الأسود) أنكى من مشهد بلايا المجاعات الرهيبة التي تلاحقت من عام ١٣٠٩ إلى عام ١٣١٨، مبتدئة من شمال ألمانيا ووسطها وشرقها، ومنتشرة في ربوع أوروبا قاطبة ـ وبخاصة انجلترا، هولنده، فرنسا، جنوب ألمانيا، منطقة الراينلاند ـ وتصل إلى سواحل ليفونيا أو ليفلاند على بحر البلطيق(١٣٤).

ومن الأمور التي تثقل على النفس غاية الثقل أن يكون على الإنسان أن يعرض صورة سيئة عن أمر من الأمور القومية، ولقد شهدت فرنسا ـ التي تعتبر على أية حال متميزة محظوظة ـ عشر مجاعات عامة في القرن العاشر، و ٢٦ مجاعة في القرن الحادي عشر، ومجاعتين عامتين في القرن الثاني عشر، وأربع مجاعات في القرن الرابع عشر، و ٧ في القرن الخامس عشر، و ١٣ في القرن السادس عشر، و ١١ في القرن السابع عشر، و ١٦ في القرن الثامن عشر (١٣٥). ونحن نورد هذه الأرقام، التي حسبت في القرن الثامن عشر، بكل التحفظات التي تدعونا البداهة إلى الأخذ بها: وإنما يعيبها أنها تبدو متفائلة لأنها تتجاهل مئات ومئات المجاعات " المحلية "، التي لم تكن تواكب دائما المجاعات العامة؛ فقد حدثت مجاعات محلية في منطقة المين Le Maine الفرنسية في عام ١٧٣٩ و١٧٥٢ و ١٧٧٠ و ١٧٨٥ (١٣٦)؛ وكذلك في جنوب غرب فرنسا: ١٦٢٨، ١٦٣١، ١٦٤٣، ١٦٦٢، ١٦٩٤، ١٦٩٨، ١٧٠٩، ١٧١٣ (١٣٧).

ومن الممكن أن نقول نفس الشيء عن أي بلد من بلدان أوروبا، كانت المجاعة زائراً ثقيلا عنيدا، يتردد على المدن والريف، حتى عندما أهل القرن الثامن عشر وما جاء به من خيرات وتسهيلات وتيسيرات، بل والقرن التاسع عشر، تلاحقت الكوارث، واجتاحت المجاعات منطقة سيليزيا في عام ١٧٣٠، ومنطقة سكسونيا من عام ١٧٧١ إلى عام

١٧٧٢ ، وجنوب ألمانيا (١٣٨) ، وفي منطقة باڤاريا بين عام ١٨١٦ وعام ١٨١٧ ، وخارج حدودها الضيقة : وفي ٥ أغسطس ١٨١٧ احتفلت مدينة أولم بانتهاء المجاعة ، وأقامت شعائر عيد الشكر لعودة الحياة الطبيعية مع المحصول الجديد .

ولدينا إحصائية أخرى ، من فلورنسا ، تدل على أن تلك المنطقة التي لم تكن تعاني فقرا ملحوظا ، قد شهدت في الفترة من عام ١٣٧١ الى عام ١٧٩١ سنوات من القحط تقدر في مجموعها بـ ١١١ سنة ، بينما كانت السنوات التي حظيت بمحاصيل جيدة جدا ١٦ سنة فقط (١٣٩). والحق أن منطقة توسكانا منطقة وعرة ، لم يكن من سبيل أمامها إلا إلى زراعة الكروم والزيتون ، ولكنها كانت تعتمد بفضل صلات تجارها - حتى قبل القرن الثالث عشر - على غلال صقلية ، وما كان يمكنها أن تعيش بدون هذه الغلال .

ولا ينبغي لنا أن نتعجل فنصدق أن المدن ، التي ألفت الشكوى ، كانت هي الوحيدة التي كانت تتعرض للمسغبة ، فقد كان للمدن صوامع ، ومخازن واحتياطيات ومكاتب القمح ، ومشترواتها من الخارج ، وكانت تتبع سياسة من نوع سياسة النمل الحويط الذي يدبر أموره ويعمل حساب المستقبل . أما الأرياف - وهذا شيء يوشك أن يبدو مناقضاً للبداهة - فكانت تعاني أكثر من المدن أحيانا . كان الفلاحون يعيشون حياة تبعية تنضوي تحت جناح التجار والمدن والسادة ، فلم يكونوا يحتكمون قط على احتياطيات . حتى إذا حدث قحط لم يجدوا لهم من سبيل إلا أن يهرعوا إلى المدينة ، يتكدسون فيها ، مهما كانت النتيجة ، ويجوسون خلال الطرقات مادين أيديهم بالسؤال ، أو يخرون صرعى ، وما أكثر الذين لفظوا أنفاسهم على قارعة الطريق، حدثت هذه الرزايا في البندقية وفي أميان(١٤٠) في القرن السادس عشر، حيث كان المعدمون يخرون صرعى في الساحات العامة.

وكان على المدن أن ترد عن نفسها غائلة الغزوات المنتظمة ،التي لم يكن المعوزون في المناطق القريبة هم وحدهم الذين يقومون بها ، بل كانت هناك جيوش جرارة من الفقراء تأتي في بعض الأحيان من بعيد . ففي عام ١٥٧٣ شهدت مدينة طروا Troyes، في أريافها ، وفي شوارعها زرافات من شحاذين " غرباء " ، جوعى، عرايا ، لاتستر أبدانهم إلا أسمال بالية ، ويكاد القمل والهوام أن يغطي أجسامهم كلها . ولم يسمح أهل الحل والعقد في طروا لهم بالبقاء في مدينتهم إلا لأربع وعشرين ساعة. فقد أحسوا بالقلق ، وخشوا من خطر اندلاع " ثورة " يقوم بها بؤساء المدينة نفسها والريف القريب ، وكان " أن بيتوا النية لإخراجهم ، وعقد مجلس المدينة المذكورة اجتماعا ضم الأغنياء وأرباب الحكم للبحث عن حيلة لمعالجة الأمر ، وإخراج هؤلاء البؤساء. وقر قرار المجلس على العمل على إخراجهم من المدينة.

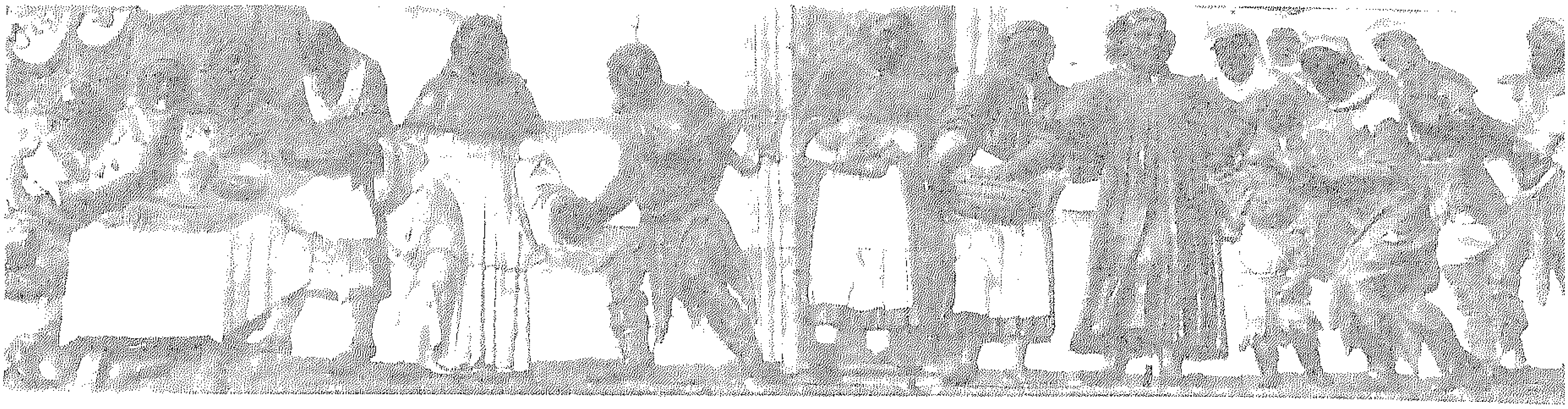

" إطعام الجوعي " :بانسو من باتوهات إفريز من الفخار المطلي بالميناء، للفنان چوفاني ديللا روبيا Giovanni della Robbia يمثل طائفة من أعمال البر بالمحتاجين (القرن ١٦). من مستشفى تشيبو في مدينة بيستويا الايطالية.

[...] ومن أجل بلوغ هذا الهدف ، أمروا بخبز خبز وفير لتوزيعه على هؤلاء الفقراء، وجمعوهم عند باب من أبواب المدينة ، دون أن يكشفوا لهم عن نيتهم ، وأعطوا كل واحد رغيفا وقطعة نقود ، وأخرجوهم واحداً واحداً من الباب المذكور الذي أوصدوه بعد أن خرج آخر رجل، ونادوا عليهم من فوق الأسوار أن يذهبوا إلى حال سبيلهم ، وأن يجعلوا الله وجهتهم، ويلتمسوا ما يقيمون به أودهم في مكان آخر ، وألا يعودوا الى مدينة طروا مرة أخرى ، قبل أن تنضج الحبوب الجديدة في المحاصيل التالية. وقضي الأمر. واستبد الفزع بالفقراء بعد الصدقة التي نالوها ، وقد طردوا من مدينة طروا..." (١٤١)

وتصاعدت هذه الوحشية البورجوازية حتى تجاوزت كل حد في القرن السادس عشر الغارب، ثم في القرن السابع عشر . كانت المشكلة تتلخص في : العمل على جعل الفقراء عاجزين عن الإزعاج . وكان العرف قد استقر في باريس منذ ماض بعيد على الزج بالمرضى والعجزة من الفقراء إلى المستشفيات ، أما الأصحاء منهم فكانوا يكلفونهم بعمل شاق مقزز ، لا أول له ولا آخر، هو تنظيف قنوات مجاري المدينة وكانت آنذاك مصارف مكشوفة، وكانوا يربطون العمال المسخرين لهذا العمل بالسلاسل اثنين اثنين. أما انجلترا فقد شهدت منذ أواخر عصر الملكة اليزابث (التي حكمت من عام ١٥٥٨ الى عام ١٦٠٣) بداية ظهور قوانين الفقراء poor laws ، وكانت في الحقيقة قوانين " ضد " الفقراء. كذلك ظهرت منشآت أو دور الفقراء وغير المرغوب فيهم ، وأخذت تنتشر شيئاً فشيئاً في ربوع الغرب كله ، وكان نزلاؤها يعاملون معاملة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، كانت هذه هي الحال فيما سمي workhouses (دور العمل) في انجلترا أو Zuchthäuser (دور التهذيب) في ألمانيا أو maisons de force (دور الحجز الإجباري) في فرنسا، ومن قبيل دور الحجز الإجباري هذه تلك المجموعة من المنشآت الشبيهة بالسجون ، التي كانت

موضوعة تحت ادارة المستشفى الكبير في باريس - جران أوبيتال دي باري Grand Hopital de Paris- الذي أنشيء في عام ١٦٥٦. هكذا نشأ هذا " المعتقل الكبير " ، الذي ضم الفقراء ،والمجانين ، والمذنبين ، وأبناء الأسر التي كانت لسبب أو آخر تضع أولادها على هذا النحو تحت الرقابة ، وكان هذا " المعتقل الكبير" سمة من السمات السيكولوجية لمجتمع القرن السابع عشر العقلاني ، الذي لم يكن يعرف في اتباع العقل رأفة أو رحمة. وربما كان هذا المجتمع العقلاني الصارم قد تكون على هذا الشكل كرد فعل يوشك أن يكون حتميا حيال تزايد البؤس في ذلك القرن الصعب. وهناك واقعة لها دلالتها نوردها في هذا المقام : فقد وصل الأمر بالسلطات في مدينة ديجون الفرنسية Dijon في عام ١٦٥٦ إلى حد منع المواطنين من الإحسان على المستوي الخاص إلى الفقراء ، ومنعوهم من إيوائهم في بيوتهم . " كان العرف قد جرى بين الناس في القرن السادس عشر على أن يقدموا العون والطعام إلى ابن السبيل قبل أن يقفلوا دونه أبوابهم، أما في بداية القرن السابع عشر فكان العرف يقضي بأن يدفعوا به إلى من يحلق له شعره فضحا له بين الناس ، ثم جاء بعد ذلك وقت كانوا فيه يضربونه بالسوط؛ حتى إذا أوشك القرن السابع عشر على نهايته كانت كلمة القمع الأخيرة قد ثبتت على أن تجعل منه نزيلا يسخر للأعمال الشاقة "(١٤٢).

هذه هي المشاهد التي تقع عليها عيوننا في أوروبا . وكان هناك مشاهد أنكى منها في آسيا ، في الصين والهند . كان كل شيء في الصين رهنا بأرز الأقاليم الجنوبية ، وكان كل شيء في الهند رهنًا بما يجود به القدر من أرز البنغال ، وقمح ودخن الأقاليم الشمالية، ولكن المسافات التي باعدت بين الأفواه ومصادرالأقوات كانت هائلة . وكانت كل نازلة تجر وراءها نتائج بعيدة المدى . فقد أدى القحط الذي ألم في عام ١٤٧٢ بمنطقة الدكن Dekkan إلى هجرة واسعة النطاق إلى منطقة جودجيرات Goudjerate ومنطقة ملوه Malwa، فقد هاجرالذين نجوا من المجاعة (١٤٣). وفي عام ١٥٥٥، ثم في عام ١٥٩٦ ، حدثت مجاعة هائلة حاقت بكل ربوع شمال غرب الهند ، ودفعت الناس الى أكل لحوم البشر على نحو ما ذكر كُتّاب الأخبار المعاصرون(١٤٤).

من هذا القبيل القحط الهائل الذي أوشك أن يكون قحطا عاما وطأ بكلكله الهند من ١٦٣٠ إلى ١٦٣١ ، وشهده تاجر هولندي خلف لنا وصفا له تقشر له الأبدان: " ترى الناس يهيمون على وجوههم هنا وهناك، بغير سند، أو وسيلة ، وقد هجروا مدينتهم أو قريتهم.وإنك لتتعرف في وجوههم حقيقة حالهم : عيون غائرة الى أعمق أعماق المحاجر، شفاه شاحبة علتها رغاو ، جلود تيبست وبرزت من تحتها العظام، بطون تتدلى كأكياس خاوية. منهم من يبكون ويصرخون من شدة الجوع. ومنهم من تمدد على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة ."

وتضاف الى هذه المصائب مستتبعاتها من مآس تتكرر وتتكرر حتى تصبح من البلايا التى يعيشها الناس في حياتهم المألوفة : أزواج يهجرون الزوجات، آباء يتخلون عن الأبناء، آباء يبيعون أبناءهم ، أولاد يبيعون أنفسهم حتي يبقوا على قيد الحياة، عمليات الانتحار الجماعية ...بل لقد بلغ الأمر بالجوعى أنهم كانوا يبقرون بطون الموتى والمحتضرين " ويأكلون أحشاءهم ". " كان مئات الآلاف يخرون صرعى - كما يقول تاجرنا- حتى لقد افترشت أرض البلاد كلها بالجثث التي لم يكن أحد يدفنها ، وكانت رائحة العفن تفوح منها ، وتملأ الجو كله نتانة وخبثا . [...] بل لقد بيع لحم البشر في السوق في إحدى القرى "(١٤٥).

حتى إذا لم تكن الوثائق تقدم إلينا دائما مثل هذه البيانات الدقيقة فربما كفت لمحة واحدة ، نستشفها من وثيقة، للإحاطة بما وراءها من بشاعة . في عام ١٦٧٠ ذهب سفير فارسي لتحية الخان الأعظم أورينج زيب Aureng Zeb فلما خرج عائدا إلى بلاده رافقته "أعداد لا تحصي من العبيد " أخذوها منه عند الحدود و " كان قد اكتراها بما لا يكاد يذكر من المال نظرا للمجاعة "(١٤٦).

فى أثناء حصار ايرسيرلاليس Aire - Sur-la-Lys شمالى فرنسا، يبدو الجنود الأسبان عراة، جوعى. وتظهر فى خلفية الصورة تحصينات المدينة. جزء من لوحة بريشة پيير سنايرس Pierre Snayers من عام ١٦٤١.

فإذا عدنا إلى أوروبا المحظوظة ، وجدنا نفوسنا قد عمرت بمشاعر الصبر أو السلوان أو اليأس، وكأننا عدنا من رحلة وصلت بنا الى أطراف ليل بهيم . فلم تحدث مثل هذه البشاعات في أوروبا حقيقة إلا إبان العصور الوسطى الأولى المظلمة ، أو ربما حدثت بعد ذلك على الحدود الأوروبية ناحية الشرق ، التي كانت أوجه التأخر فيها واضحة لامراء فيها. وقد كتب أحد المؤرخين يقول اذا أردنا أن نحكم " على كوارث التاريخ قياسا على الضحايا الذين هلكوا فيها ، فإن مجاعة ١٦٩٦ - ١٦٩٧ في فنلنده لابد أن تعتبر أفظع حادثة في التاريخ الأوروبي كله " : فقد هلك نصف أو ثلث السكان(١٤٧). وشرق أوروبا هو الجزء الرديء من القارة ، وقد ظل الجوع يلم به أزمانا حتى بعد القرن الثامن عشر على الرغم من الاستعانة اليائسة " بأطعمة القحط "، وهي الأعشاب والثمار البرية ، والنباتات القديمة التي اكتشفت بين حشائش الحقول والحدائق والمراعي أو على أطراف الغابات.

وأيا كان الأمر، فقد كانت حالة المجاعة تعود إلى الظهور أحيانا في أوروبا الغربية، فظهرت في القرن السابع عشر، خاصة إبان ما سمي " بالعصر الجليدي الصغير". ويقول شاهد عيان من منطقة البليزوا Blésois - من تقسيمات فرنسا القديمة - إن المنطقة لم تشهد مخمصة كالتي شهدتها في عام ١٦٦٢ . فقد أكل الفقراء نفايات الكرنب ممزوجة بالردة وغمسوها بالماء المتخلف عن نقع سمك البكلاه المقدد"(١٤٨). وسنة ١٦٦٢ هي السنة التي رفع فيها النواب المنتخبون في بورجونديا Bourgogne الفرنسية إلى الملك عرائض قالوا له فيها : " إن قحط هذا العام قد أهلك أو أمات أكثر من عشرة آلاف أسرة في منطقة تحت حكمكم ، ولقد اضطر ثلث السكان ، حتى من أهالي المدن الطيبة ، إلى أكل الأعشاب " (١٤٩). ويضيف كاتب سجل أخبار زمانه : " لقد أكل بعض الناس هناك لحم البشر "(١٥٠). وقبل ذلك بعشر سنوات، في عام ١٦٥٢، سجل كاتب أخبار آخر هو القس ماشيريه Macheret " هذه الكلمات «إن أهل منطقة اللورين، ومناطق محيطة أخرى ، اضطروا إلى أبعد ما يضطر إليه الإنسان، حتى إنهم كانوا يذهبون إلى المراعي ليأكلوا الحشائش كالبهائم ، وفعل هذا خاصة أهل قريتي پويي Pouilly وبارنو Parnot في ناحية باسينيي Bassigny ، وقد اسودت بشرتهم، وعجفت أبدانهم حتى استحالوا إلى ما يشبه الهياكل العظمية" (١٥١). وفي عام ١٦٩٣ كتب واحد من أهل بورجونديا " لقد ارتفع سعر الحبوب في المملكة كلها حتى مات الناس جوعا " ؛ وفي عام ١٦٩٤ جنى الناس محصول القمح قرب ميلان Meulan في فرنسا قبل أن ينضج، "وكانت أعداد غفيرة من الناس تعيش على الحشائش مثل البهائم "؛ وفي عام ١٧٠٩ تسبب الشتاء القارس البشع في خروج أعداد غفيرة ، لا تحصى من الناس يهيمون على وجوههم في شوارع فرنسا وطرقاتها (١٥٢).

هذه الصور السوداء النكراء ، لا ينبغي بطبيعة الحال وضعها الواحدة لصيقة بالأخرى، فيشتد بنا التشاؤم ، وكذلك لا ينبغي أن نسرف في التفاؤل وإنما علينا أن نبتغي بينهما سبيلا. ولنذكر أنواع النقص الغذائي والأمراض التي تؤدي إليها : مرض الاسقربوط (الذي ذاعت شهرته ، كما نعرف ، منذ الرحلات البحرية الكبيرة التي كان البحارة فيهايصابون به) ؛ ومرض البللاجرا - وبخاصة في القرن الثامن عشر - وهو الذي نتج عن أكل الأذرة وحدها ؛ ومرض البري بري في آسيا . كل هذه علامات مجاعة لا شك في مدلولها. كذلك لا شك في مدلول استمرار العصائد وأنواع الحساء في التغذية الشعبية، أو الخبز المخلوط بأنواع من الدقيق الثانوية ، والذي لا يخبز ليؤكل طازجا، بل يخبز ليحفظ لفترات طويلة قد تطول إلى شهر أو شهرين ، وقد تيبس وتعفن . وربما صلب الخبز المخلوط الذي كان الناس يعدونه في بعض المناطق ، صلابة يستحيل معه أن يقطعوا منه شيئا إلا بالبلطة.

وقد عرفت منطقة التيرول نوعا من الخبز ، كانوا يصنعونه من حبوب القمح المجروشة لا المطحونة - كان يبقى فترة طويلة ، وكانوا يخبزونه مرتين أو ثلاث مرات في العام تكفي العام كله. (١٥٣). وهذا هو قاموس تريفو (في طبعة عام ١٧٧١) Dictionnaire de Trevoux يقول في غير مواربة : " إن الفلاحين يتسمون عادة بالغباء لأنهم لا يتغذون إلا على الأطعمة الخشنة ."

إذا حدث مرة أن أخرجت الأرض محصولا رديئا ، فقد يستطيع الناس احتمال الوضع على نحو ما. أما اذا ساء المحصول مرتين متتاليتين ، فإن الأسعار تلتهب، ويحل القحط، والقحط لا يأتي أبدا وحده : فما يأتي ، حتى يعمد - في وقت ، قد يبكر قليلا مرة، وقد يتأخر قليلا مرة أخرى - إلى فتح الباب على مصراعيه أمام الأوبئة (١٥٤) التي تسير يقينا طبقاً لإيقاعاتها الخاصة .وأول هذه الأوبئة الطاعون . والطاعون يشبهونه بـ " أفعى لها رأسان "و" حرباء عجيبة " تتبدى على أشكال وألوان تعددت وتداخلت على نحو جعل المعاصرين يخلطون أشكال الطاعون المختلفة بأمراض أخرى . كان الطاعون هو الشخصية الطاغية الرهيبة ، قرين رقصات الموت ، الحاضر الدائم . الطاعون بنية لها مكانها في حياة البشر.

والحق أن الطاعون ليس إلا مرضا ، من بين أمراض أخرى كثيرة، يختلط برحلاتها، وتيارات عدواها المتتالية ، تعينه على ذلك التداخلات الاجتماعية ، والخزانات البشرية الضخمة التي يمكث فيها كالاحتياطي المتحفز ، فيغفو، ثم ينطلق كالانفجار ذات يوم من جديد. ومن الممكن أن يكتب الباحثون كتابا كاملا عن " الحضارات الكثيفة السكان

القديس دييجو - سان ديبجو - يطعم ثلة من الأطفال والمسنين ، ويظهر في اللوحة شحاذ يمد اليه قصعته . . لوحة للرسام موريلليو Murillo (١٦٤٥).

والأوبئة والأمراض المتوطنة " ، وعن " الإيقاعات التي تتبعها هذه الأمراض في رحلاتها، فهي تختفي حينا ثم تعود في رحلة جديدة ، شأنها شأن الرحالة الذين ملكت عليهم الأسفار كيانهم ، فهم لا يصبرون عنها إلا ليعودوا إليها. وإذا اكتفينا بالجدري مثلا، وجدنا كتاب طب ظهر في عام ١٧٧٥ ، في الوقت الذي كان الناس قد بدأوا فيه يتحدثون عن التطعيم ، يقدر أن الجدري هو " أكثر الأمراض انتشارا " : يصيب من كل ١٠٠ شخص ٩٥ ؛ ويفتك بواحد من كل سبعة مصابين(١٥٥).

والطبيب من أبناء العصر الحاضر لن يعرف طريقه على الفور إلى تشخيص هذه الأمراض ، عندما يقرأ كتابات الأقدمين عنها ، فقد تقنعت في هذه الكتابات القديمة بأقنعة من أسماء عتيقة ، وبوصفٍ لأعراضها كثيرا ما يكون مضللا محيرا. ثم إننا لا نملك ما يؤكد لنا أن هذه الأمراض القديمة يمكن أن تقارن بالأمراض التي نعرفها اليوم، لأن الأمراض تتحور ، ولها تاريخها الخاص بها ، الذي يعتمد على ما يحتمل أن يكون قد حدث من تطور للميكروبات والفيروسات والتربة البشرية التي تعيش فيها(١٥٦). ولقد كانت المصادفة البحتة هي التي أرشدت بالأمس (أعني في عام ١٩٢٢)جاستون روپنل Gaston Roupnel ـ وقد ساعده واحد من أصدقائه متخصص في الطفيلات ـ إلى اكتشاف أن الوباء الذي أصاب الناس في مدينة ديجون وغيرها في القرن السابع عشر(١٥٧) وأسموه " الحمى القرمزية " هو في الحقيقة مرض التيفوس النفاطي (الذي ينقله القمل)(١٥٧). وكانت هذه " الحمى القرمزية " نفسها ـ في عام ١٧٨٠ ـ هي التي " حصدت أرواح فقراء باريس بالمئات في ضاحية سان مارسل Saint-Marcel . [...] حتى خارت قوى الدفانين، ولم تقو سواعدهم على دفن الموتى لكثرتهم " (١٥٨). ولكن مسألة " القرمزية " لم تحسم الحسم النهائي .

وماذا يقول الطبيب الممارس اليوم عما سمي بـ "الطاعون" في عام ١٣٤٨والذي وصفه جي دي شولياك Guy de Chauliac صاحب" كتاب الجراحة الكبير Grande Chirurgie ـ الذي طبع بين عام ١٤٧٨ وعام ١٨٩٥ تسعا وستين طبعة ـ وبين أنه يمر بمرحلتين مميزتين: المرحلة الأولى وهي مرحلة طويلة نسبيا (شهرين) يعاني فيها المصاب من الحمى وبصق الدم ؛ ومرحلة تالية يصاب فيها بخراريج ونزلات رئوية ؟ أو ماذا يقول عن وباء عام ١٤٢٧ الذي أطلقوا عليه اسما عجيبا لا يدل على شيء هو " لاديندو ladendo "، ووصفوه بأنه مرض جديد لم يعرفه أحد من قبل، وقالوا " إنه يبدأ بالكليتين، فيحس المصاب بتقلصات عنيفة كتقلصات المصاب بالحصوة ، ثم تعتري المصاب رعشات بعد ذلك، ويظل ثمانية أو عشرة أيام لا يستطيع الأكل والشرب والنوم بسهولة". وبعد ذلك "يعتريه سعال عنيف، حتى إن الانسان عندما يكون في الكنيسة لا يستطيع أن يسمع العظة التي يلقيها القسيس لشدة سعال المصابين بهذا المرض " (١٥٩). وأقرب الظن أن

مرض اللاديندو هذا أنفلونزا ذات ڤيروس خاص ، شبيهة بالانفلونزا التي سميت بـ " الأسبانية " في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أو " الإنفلونزا الأسيوية " التي اجتاحت أوروبا حول السنوات من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ ... أو كتلك الإنفلونزا التي يصفها بيير دي لتوال Pierre de l`Estoile وهو كاتب يوميات من القرن السادس عشر وصل إلى عام ١٦١١ ، يقول : " في بداية أبريل [من عام ١٥٩٥] كان الملك [هنري الرابع] في حالة صحية سيئة نتيجة نزلة catarrhe شوهت وجهه كله . كانت مثل هذه النزلات منتشرة في باريس نتيجة للبرد القارس السائد على غير المألوف في هذا الوقت من العام: ونجم عنها عدة وفيات غريبة ، ومباغتة ، نتيجة لذلك ' الطاعون ` الذي انتشر في مواضع مختلفة من المدينة : ولقد كانت تلك أوبئة من عند الله ، لم نر أنها زجرت الكبار والصغار إلا قليلا "(١٦٠). أما المرض الذي سمي بـ " العَرَق الانجليزي " la suette anglaise الذي اجتاح انجلترا من عام ١٤٨٦ الى عام ١٥٥١ فقد اختفى، ولم يعد له وجود الآن . كان يصيب المريض بنزلة قلبية رئوية روماتزمية ، وكان المرضى يرتعشون، ويتصببون عرقا ويموتون بعد ساعات من الإصابة . وقد حدث هذا الوباء خمس مرات على نطاق واسع في الأعوام ١٤٨٦ و١٥٠٧ و١٥١٨ و١٥٢٩ و١٥٥١ ، ومات به الكثيرون ، والغريب أن هذا الوباء كان يبدأ دائما في لندن ، ولم يكن يصيب ، في الجزرالبريطانية ، لا منطقة ويلز ، ولا منطقة اسكتلندا ، إلا وباء عام ١٥٢٩ ، الذي فاق ما قبله عنفا وشراسة ، فقد تجاوز انجلترا إلى القارة الأوروبية ، واجتاح البلاد الواطئة وهولنده وألمانيا ، ووصل حتى الى الأقاليم السويسرية ، ولكنه لم يصب فرنسا(١٦١).

وماهو هذا المرض الذي اجتاح مدريد في أغسطس من عام ١٥٩٧ وكان وباء قالوا عنه انه " غير معد " ، وانه كان يصيب العانة والإبطين والرقبة بأورام ؟ فإذا مرت خمسة أو ستة أيام على بدء ظهور أعراض المرض ، شفي المرضى ، واستردوا صحتهم ببطء، أو ماتوا على التو . وكان هؤلاء الذين يموتون ، فقراء يسكنون في بيوت رطبة ، وينامون على الأرض(١٦٢).

وهناك مشكلة أخرى: تتمثل في أن الأمراض تأتلف في مجموعات كأنها طوابير ، "وليس بينها من عامل مشترك إلا العدوى ، من هذه الأمراض الدفتريا ، الكوليرا الصغيرة cholérine ، الحمى التيفودية ، والحكة picotte ، والجدري، والحمى القرمزية، والحدبة bosse و الديندو dendo و جرب التاك tac أو الهاريون harion ، وشوطة الشباب أو الداء الساخن trousse galant ou mal chaud أو السعال الديكي ، والحمى القرمزية scarlatine ، ونزلات البرد grippe والإنفلونزا..."(١٦٣). هذه القائمة التي أعدَّت بالنسبة لفرنسا يمكن أن تنطبق على بلاد أخرى مع بعض التغييرات . ففي انجلترا كَانت الأمراض الجارية هي الحمي المتقطعة ، والعرق الانجليزي لكلوروز la chlorose أو

" الداء الأخضر " verte maladie ، والصفراء، والسل la consomption، والصرع épi-lepsie، والرهقان le vertige ، والحمي الشوكية، والروماتزم وحصوة الكلى، وحصوة المثانة(١٦٤).

في مواجهة هذه الهجمات العارمة كانت شرائح السكان التي تعاني من سوء التغذية وسوء الوقاية عاجزة عن المقاومة. وأعترف بأن الحكمة التوسكانية القائلة " إن أفضل علاج للملاريا هو تناول أكلة متينة " ، تلك التي كثيراً ما رددتُها ، كانت دائما تقنعني إلى حد ما . وقد حدث إبان القحط الذي ألم بروسيا من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٢٣(١٦٥)ـ اعتمادا على شهادة شاهدَ، لا سبيل إلى رده أو الشك فيه ـ أن اجتاحت الملاريا البلاد قاطبة ، الى أن وصلت إلى الربوع القطبية ، حيث ظهرت بنفس الأعراض التي تظهر بها في المناطق الاستوائية . وكان سوء التغذية، دون شك ، عامل مضاعفة للأمراض .

وهناك قاعدة أخرى ، لا استثناء منها : وهي أن الأوبئة تقفز من الجماعة البشرية إلى الجماعة الأخرى قفزا. ونقرأ فيما كتبه ألونزو مونتيكوكولي Alonso Montecuccoli في ٢ سبتمبر من عام ١٦٠٣ ، وكان غرندوق توسكانا قد أرسله إلى انجلترا ، أنه عاد عن طريق ميناء بولونيا Boulogne المطل على بحر المانش ، ولم يعد عن طريق ميناء كاليه المطل على بحر المانش أيضا ، لأن الطاعون الإنجليزي كان قد " تسلل " إلى كاليه مع الحركة التجارية(١٦٦). وهذا مثل صغير على انتقال الوباء من انجلترا عبر المانش إلى ميناء على الشاطيء الفرنسي المقابل . وهناك التحركات العنيفة للأوبئة ، التي كانت تخرج من الصين والهند ، مارة بمحطات نشيطة ، دائمة النشاط، في القسطنطينية ومصر ، ناقلة " الطاعون " إلى الغرب . كذلك كان السل مرضا مألوفا في أوروبا من قديم الزمان : كان الملك فرانسوا الأول مصابا بالسل السحائي (عام ١٥٦٠)، وكان الملك شارل التاسع مصابا بالسل الرئوي (عام ١٥٧٤) ، والملك لويس الثالث عشر بالسل المعوي (عام ١٦٤٣)... وهذه أمثلة تحمل الدليل على ذلك . ومع إهلالة القرن الثامن عشر قدم نوع من السل ـ ربما من الهند ـ واستقر في أوروبا ، وكان أشد ضراوة من الأنواع التي عرفت حتى ذلك الحين ، وأصبح هذا النوع من السل على أية حال مرض أوروبا في عصرالرومانتيكية وفي القرن التاسع عشر كله . ومن الهند كذلك أتت الكوليرا ، التي كانت هناك مرضا متوطنا (والكوليرا مرض تسببه جرثومة عصوية bacille virgule) ثم انتشرت الكوليرا في شبه القارة الهندية في عام ١٨١٧ ، وعبرت الحدود إلى الخارج ، ووصلت إلى مستوي الوباء الفتاك المخيف ، وانتشرت حتى بلغت أوروبا .

وثمة وافد آخر وفد في أثناء القرون التي تتركز عليها ملاحظتنا ـ أي من الرابع عشر إلى الثامن عشر ـ ألا وهو : الزهري syphilis . والحقيقة أن هذا المرض كان موجودا في

عصور ما قبل التاريخ ، وهناك هياكل عظمية بدائية تحمل علامات تدل على الإصابة به . وقد وصف الأطباء حالات قبل عام ١٤٩٢. ولكن الزهري انتفض انتفاضة شديدة منذ اكتشاف أمريكا: وقال البعض أنه كان الهدية التي تلقاها المكتشفون ، ورب قائل انه كان الانتقام الذي انتقم به المقهورون لأنفسهم. وهناك أربع أو خمس نظريات يذهب إليها الأطباء اليوم في تفسير ما حدث للزهري، ربما كانت أقربها إلى الترجيح هي النظرية التي تقول إن ذلك الزهري نشأ ، أو على الأصح نشأ نشأة جديدة نتيجة لقيام العلاقات الجنسية بين عنصرين بشريين [تأثير جرثومة الطربينوم العنيد pertenue treponema على جرثومة الطربينوم الشاحب treponema pallidum (١٦٧)]. أيا كان الأمر فقد أحدث الداء آثارا رهيبة في برشلونة منذ احتفالات عودة كولومبوس (عام ١٤٩٣) ثم انتشر انتشارا سريعا ؛ وكان انتشاره وبائيا سريعا، قاتلا .وما مرت أربع أو خمس سنوات حتى كان قد دار في جنبات أوروبا كلها ، منتقلا من بلد الى آخر متسميا بأسماء مضللة : الداء النابوليتاني، الداء الفرنسي the french disease بالإنجليزية وبالايطالية lo mal francioso ؛ وما كان لفرنسا شأن به، إلا أن فرنسا في موقع خرافي يجعلها دائما تكسب حرب الأسماء ، فإذا الأشياء تنسب في تسمياتها إلى فرنسا. وفي عام ١٥٠٣ أكد الحلاقون الجراحون في مستشفى دار الرب Hôtel - Dieu في باريس، وقد أخذهم الزهو، أنهم يعالجون هذا الداء بالكي بالحديد المستعر إلى درجة الاحمرار. ووصل الزهري في صورته العنيفة هذه الى الصين في عام ١٥٠٦ أو ١٥٠٧ (١٦٨). ثم جاء استخدام الزئبق، فتحول الزهري في أوروبا إلى شكله الكلاسيكي المخفف ، البطيء التطور، وكانت له دويته ومستشفياته المتخصصة [منها مستشفي سبيتل Spittle في لندن(١٦٩)] وأغلب الظن أن الزهري هاجم منذ نهاية القرن السادس عشر الكيان السكاني كله ، من الشحاذين والشحاذات إلى السادة والأمراء . وكان الشاعر ماليرب Malherbe ـ الذي أطلقوا عليه لقب الأب مجون ـ يتفاخر بأنه " أخرج من جسمه الزهرى ثلاث مرات بالعرق"(١٧٠). وقد تناول المؤرخ والطبيب الشهير جريجوريو مارانيون Gregorio Maranon (١٧١) التشخيص المألوف ، الذي وصف به أطباء الأمس الحالة الصحية للملك فيليب الثاني، وأضاف الى الصورة عنصرا قام فيها مقام الخلفية هو الزهري الوراثي. ومن الممكن دون أن نخطيء أن نضيف إلى صور كل أمراء الماضي هذه الخلفية ، الزهري. ولقد أفصحت هذه الشخصية من شخصيات مسرح توماس ديكار Thomas Dekker (١٥٧٢-١٦٣٢) عما كان يجول في خاطر كل فرد في انجلترا في زمانه : " كما أن الحشد من الناس يوقن من أن بينه نشالين ، أو العاهرة من أنها ستجد الزبائن .... ثم تصاب بالزهري " (١٧٢).

وصفة لعلاج الداء النابوليتاني أى الزهري دون عرق. العلاج بالزئبق في عام ١٦٧٦.

المقاقير

خـذ:

عسل أبيض ، أو عسل ناربون،

مقدار ٢ أوقية

ورد أحمر جاف مصحون مقدار ٢ أوقية

راسب أحمر ، نصف أوقية

التحضير :

اخلط كل المقادير معا حتى تمتزج امتزاجا جيدا، ثم شكلها على هيئة حبوب في حجم البسلة العادية؛ لتستخدم على النحو التالي:

اعط المريض ٤ أو ٥ حبات صباحا، على الأقل لمدة ثلاثة أيام متتالية، فاذا لم يعرق المريض بما فيه الكفاية، زد الجرعة، ولاينبغي أن يبرح المريض الفراش الا اذا توقف السيلان .)

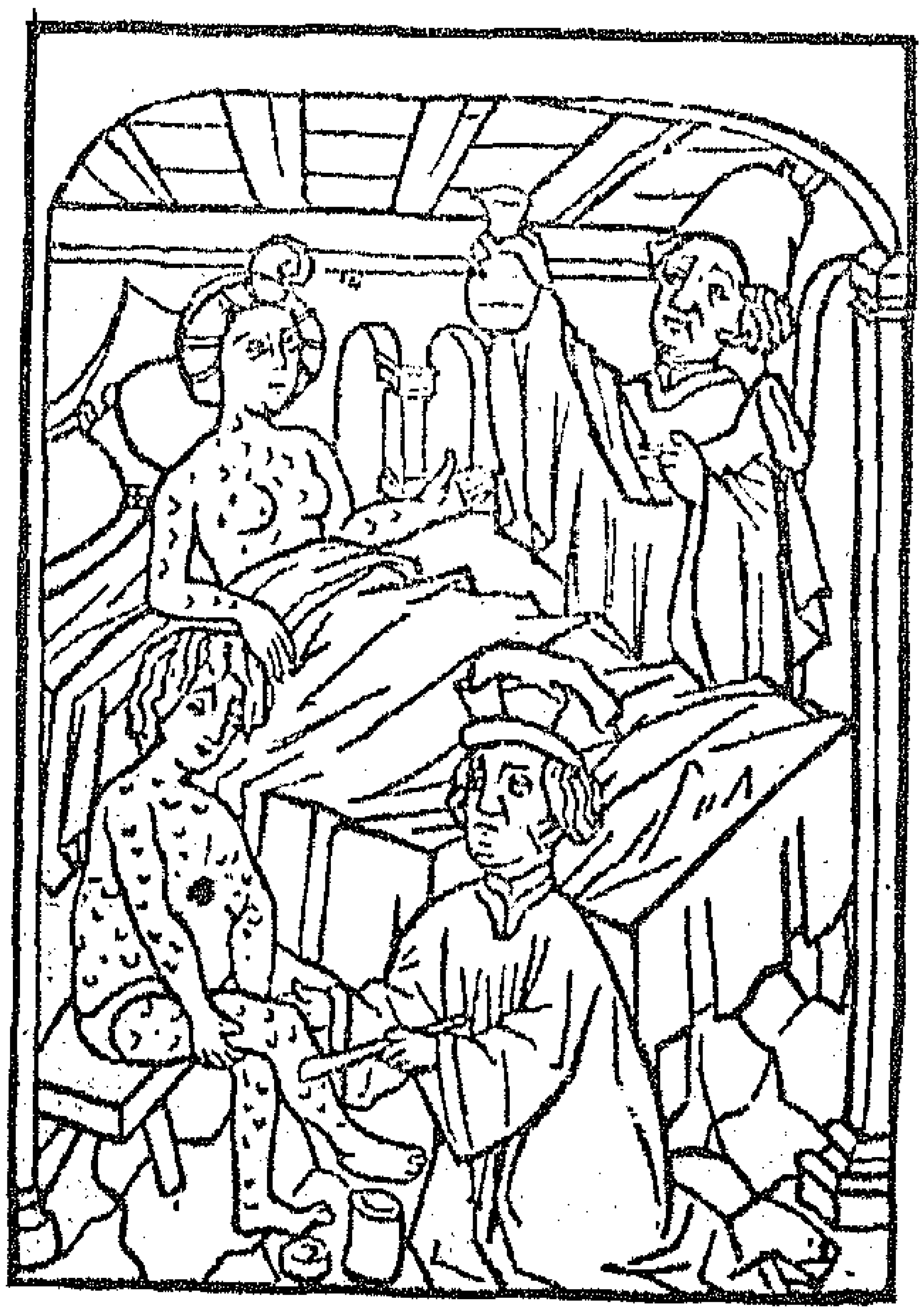

علاج الزهري بالكي . نقلا عن رسم بالحفر على الخشب يرجع الى أواخر القرن الخامس عشر.

الطاعـــــون

ملف الطاعون ملف لا يكف عن التضخم ، فقد توالت التفسيرات ، وتراكمت بعضها فوق بعض. وأول معلومة نثبتها هي أن الطاعون مرضان على الأقل ، أولهما: الطاعون الرئوي ، وهو صورة جديدة من الداء تفجرت في يوم مشهود من التاريخ، عندما حل وباء عام ١٣٤٨ في أوروبا؛ ثانيهما : طاعون الخراريج ، وهو شكل أقدم من الطاعون الرئوي (والخراريج تتكون تحت الابط وتتسمم). إنها ـ كما قيل ـ علامات الرب God's tokens أو باختصارtokens ، وهي بالفرنسية tacs ، ومعناها الأصلى المركات المعدنية أو الجلدية التي يستخدمها بعض التجار في التعامل . " وربما كان الخراج الواحد كافيا للفتك بالإنسان..."،والطاعون الأسود (الرئوي) مسببه ڤيروس تنقله براغيث فأر من نوع الموس راتوس Mus Rattus . وكانوا بالأمس يقولون إن هذا الفأر اجتاح أوروبا وصوامع غلالها غداة الحروب الصليبية مباشرة ، وإنه انتقم للشرق كما حدث في عام ١٤٩٢ عندما انتقمت جرثومة الطريبونيم الشاحبة المسببة للزهري لأمريكا عقب اكتشافها.

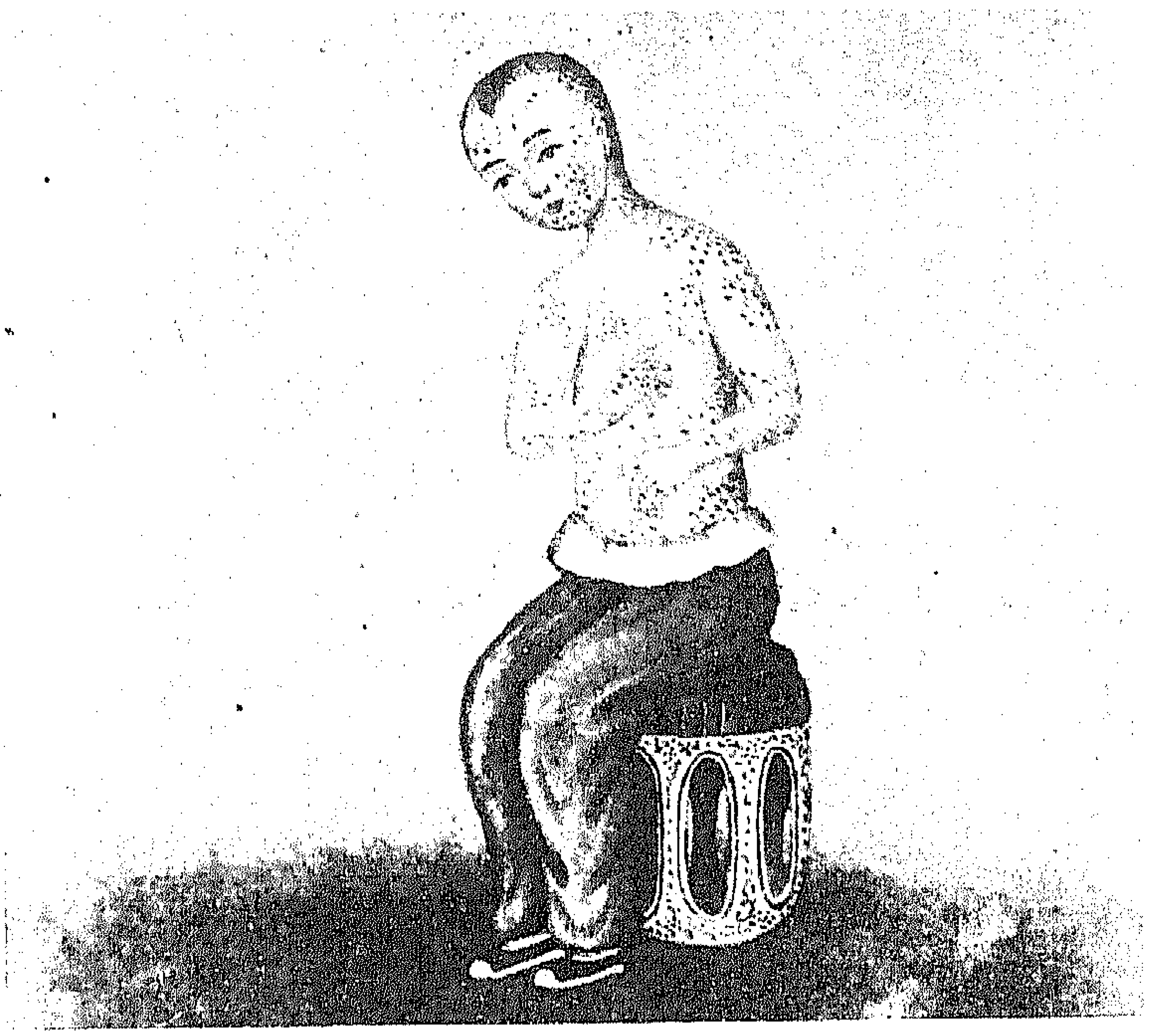

صيني مصاب بالزهري . رسم مأخوذ من " أشكال تمثل أنواع الجدري المختلفة " . رسم على الحرير، يرجع إلى القرن الثامن عشر.(متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس).

وليس من شك في أنه ينبغي الانصراف عن هذا التفسير المفرط في السذاجة والوعظ. والفأر الأسود ـ الموس راتوس Mus Rattus ـ كان موجودا في أوروبا منذ القرن الثامن ، أي في عصر الكارولينجيين ؛ كذلك الفأر الرمادي ـ الموس ديكومانوس Mus Decumanus ـ الذي طرد الفأرالأسود ، ولما لم يكن الفأر الرمادي حاملا لجراثيم الطاعون ، فإن طرده الفأر الأسود يعتبر بمثابة طرد للمسئول عن الوباء . والطاعون الأسود لم يلم بوسط أوروبا في القرن الثالث عشر لأول مرة كما قالوا ، بل في القرن الحادي عشر، إن لم يكن قبله . والفأر الرمادي يسكن تحت البيوت ، والفأر البيتي يفضل السكن في الحواصل على مقربة من المخزون الذي يقتات عليه. ومن هنا فإن غزواتهما تتطابق قبل أن يقوم بعضها بطرد البعض.

ولا يعني هذا الكلام كله أن الفئران وبراغيث الفئران لم يكن لها دورها ، وهو ما تؤكده دراسة مركزة (تعتمد على ٣٠٠٠٠ وثيقة) لانتفاضات الطاعون في مدينة أولتسن Uelzen (١٥٦٠ ـ ١٦١٠) بساكسونيا السفلى بألمانيا (١٧٣). وإذا كان المفروض أن نفسر اعتمادا على ظروف خارجية (exogénes كما يقول الاقتصاديون)

تراجع الداء في القرن الثامن عشر، فإننا نذكر: بناء البيوت بالحجر بدلاً من الخشب بعد حرائق المدن الرهيبة التي حدثت في القرون الثلاثة: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، نظافة البيوت والنظافة الشخصية، وإبعاد الحيوانات الداجنة الصغيرة عن أماكن السكن، وكانت ظروفا ساعدت على تكاثر البراغيث. ولكننا بصدد مجال ما زالت البحوث الطبية مستمرة فيه ـ بعد أن تمكن يرسان Yersin من اكتشاف الجرثومة المسببة للطاعون ـ وربما حدثت مفاجآت، قد تغير نظام تفسيراتنا. وتدل الأبحاث على أن الجرثومة الخاصة بالطاعون تكمن في تربة مناطق معينة في إيران، حيث تتكاثر القوارض. فهل الذي حدث إبان الأوبئة يتمثل في أن هذه المناطق الخطيرة امتدت حول مطلع القرن الثامن عشر خارج الدوائر المؤدية إلى أوروبا؟ لست أجرؤ على صياغة هذا السؤال على هذه الصورة، كذلك لا أجرؤ على أن أؤكد أن الهند والصين ـ وقد أكثر المؤرخون في الشك فيهما ـ لهما الحق في المطالبة بظروف مخففة للحكم، والخروج من دائرة المسئولية عن الطاعون.

أيا كان سبب أو أسباب المرض فقد خبا الوباء في الغرب في القرن الثامن عشر. وكانت المرة الأخيرة التي ظهر فيها ظهورا عنيفا مثيرا هو طاعون مارسيليا المشهور في عام ١٧٢٠. ولكن الطاعون ظل شبحا مخيفا تخشاه أوروبا الشرقية: فقد شهدت موسكو في عام ١٧٧٠ وباء فتاكا.

كتب القس مابلي Mably حول عام ١٧٧٥ يقول: " لقد فتكت الحرب والطاعون أو البوجاتشيف Pugatchev بأعداد من البشر تفوق تلك التي ضاعت نتيجة تقسيم بولندة"(١٧٤). واجتاح الطاعون خرسون في القرم في عام ١٧٨٣ وأوديسا في عام ١٨١٤. ولم تقع الهجمات الأخيرة للطاعون في المجال الأوروبي بعد ذلك، على قدر ما نعلم، في روسيا، بل في البلقان في عام ١٨٢٨ـ ١٨٢٩ وعام ١٨٤١. وكان طاعونا أسود ساعدت على انتشاره البيوت الخشبية.

ولقد ظل طاعون الخراريج متوطنا في المناطق الحارة الرطبة، في جنوب الصين، والهند، وعلى أبواب أوروبا في شمال أفريقيا. ولقد حدث طاعون وهران بالجزائر (الذي يصفه ألبير كامو Camus Albert في رواية الطاعون La Peste) في عام ١٩٤٢.

هذا التلخيص الذي قدمناه ناقص نقصا فظيعا. ولكن كَمّ الوثائق الهائل يتحدى النية الطيبة لمؤرخ يعمل منفردا. ومن الضروري أن يسبق عمل المؤرخ عمل علمي تمهيدي يعد خرائط سنوية لموضع الداء، يظهر فيها عمقه، ومدى انتشاره، وعنفه المتواتر: بين عام ١٤٣٩ وعام ١٦٤٠ شهدت منطقة بيزانسون الفرنسية الطاعون أربعين مرة؛ أما دول Dole فتعرضت للطاعون في عام ١٥٦٥ ثم ١٥٨٦ و١٦٢٩ و١٦٣٢ و١٦٣٩؛ ومنطقة ساقوى في عام ١٥٣٠ و١٥٤٥ و١٥٥١ و١٥٦٤ـ١٥٦٥ و ١٥٧٠ و ١٥٨٠ و١٥٨٧؛

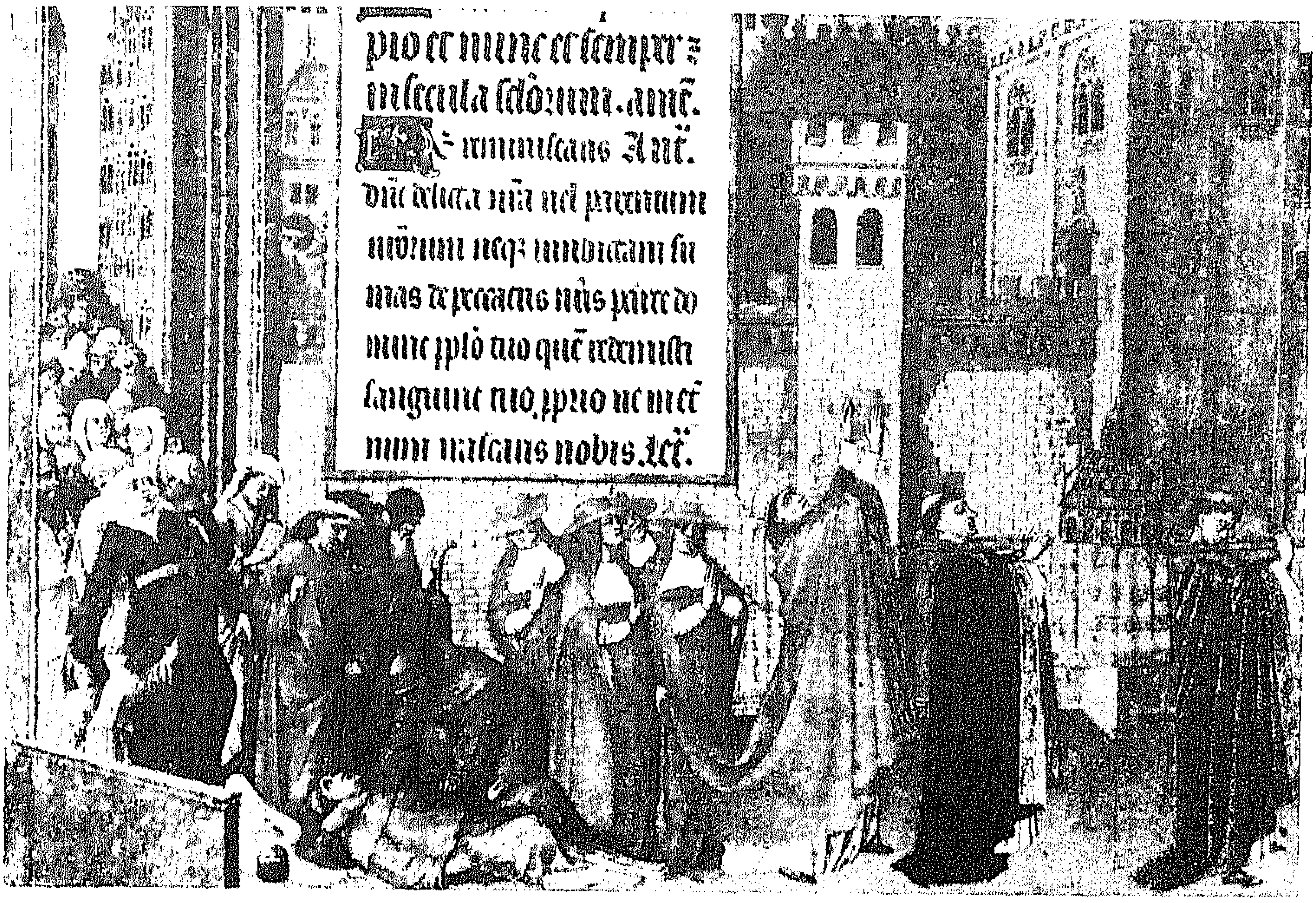

موكب صلاة ضد الطاعون بقيادة البابا . في أثناء الموكب وقع راهب خائر القوى . من مخطوط بعنوان Trés Riches Heures du duc de Berry . متحف كونديه في شانتيي á Musée Condé Chantilly .

وفي القرن السادس عشر شهدت منطقة الليموزان Limousin في كل ربوعها الطاعون عشر مرات ؛ واجتاح الطاعون أورليان اثنتين وعشرين مرة ؛ وارتاعت القلوب في مدينة اشبيلية حيث ضرب الوباء ضربات مضاعفة في الأعوام ١٥٠٧ ـ ١٥٠٨، ١٥٧١، ١٥٨٢، ١٥٩٥ ـ ١٥٩٩، ١٦١٦ـ١٦٤٨ـ١٦٤٩ ...(١٧٥). وكانت النتائج في كل مرة نتائج ثقيلة، حتى اذا أخذنا في حسابنا أن الأرقام التي يذكرها كتاب الأخبار المعاصرون أرقام خرافية، وأن بعض حالات الطاعون كانت " صغيرة " وأن من النذرما كان زائفاً.

ولدينا حسابات دقيقة عن الفترة من ١٦٢١ إلى ١٦٣٥ في باڤاريا بألمانيا تعطينا متوسطات مثيرة: كان متوسط عدد الوفيات السنوي في ميونيخ يرتفع من ١٠٠ في السنة العادية إلى ١٥٠ في السنة غيرالعادية أي التي يكون فيها طاعون، ويرتفع في مدينة أوجسبورج Augsburg إلى ١٩٥ ؛ وفي مدينة بايرويت Bayreuth إلى ٤٦٧؛ وفي لاندسبرج Landsberg إلى ٥٥٦ ؛ وفي شتراولينج Straubling الى٧٠٢. وكان الأطفال الذين يقل عمرهم عن سنة هم أكثر الضحايا ، وكان الضحايا من النساء أكثر من الرجال ، وأوشكت تلك أن تكون القاعدة .

من الضروري العودة إلى تناول هذه الأرقام مرة أخرى، ووضعها بعضها بجانب البعض الآخر، كذلك من المهم أن نضع صور النصوص المكتوبة بجانب الصور المرسومة، لأنها في أحيان كثيرة تعرض نفس المشاهد ، وتكرر الحديث عن نفس الإجراءات ، زادت فعاليتها أم قلت (الحجر الصحي، الحراسة، الرقابة، الأبخرة العطرية، المطهرات، قفل الشوارع، العزل ، الشهادات الصحية ، النشرات الصحية، جوازات المرور الصحية التي عرفت في ألمانيا باسم Gesundheitspässe ، وفي أسبانيا باسم cartas de salud) وعن نفس المخاوف الجنونية ، ونفس الهيكل " الاجتماعي ".

فإذا نادى المنادي بأن الوباء تفشى ، توجه الأغنياء ، إذا استطاعوا إلى بيوتهم الريفية، فارين إليها فرارا لا يعرف الريث ؛ لا يفكر الواحد إلا في نفسه : " ألا إن هذا الداء يجعلنا نقسوا بعضنا على البعض كما لو كنا كلابا " ، هذه العبارة كتبها صامويل بيبيس Samuel Pepys في سبتمبر ١٦٦٥(١٧٦). ويحكي مونتيني Montaigne أن أراضيه ألم بها الطاعون، فعمل " طوال ستة أشهر على نحو كله بؤس دليلا " لأسرته التي جاست خلال الديار تبحث عن سقف تحتمي به ، " أسرة تائهة هائمة على وجهها ، يخافها الأصدقاء، وهي على نفسها أخوف ، ما تسعى إلى مكان تأوي اليه حتى تبث فيه الرعب"(١٧٧). أما الفقراء فيظلون في مكانهم وحدهم ، يلزمون البلدة الموبوءة ، وتقوم الدولة بإطعامهم ، وتعزلهم، وتحاصرهم ، وتراقبهم . تنبئك عن هذه الحال قصص " الديكاميرون Decamerone " لجوفاني بوكاتشو، وإنها لسلسلة من المحادثات والقصص تناجى بها أصحابها في قصر صغير قرب فلورنسا في وقت الطاعون الأسود. ونقرأ عن السيد نيكولا ڤيرسوري Nicola Versoris ، المحامي في باريس، أنه في أغسطس من عام ١٥٢٣ ترك مسكنه في العاصمة الفرنسية، ولجأ إلى الجرانج باتيلير Grange Batelière التي كانت آنذاك خارج باريس، ونزل في البيت الريفي لربيباته ، إلا أن الطاعون لم يمهل زوجته إلا ثلاثة أيام ، ولكن موت هذه الهاربة استثناء لا يلغي القاعدة، ولا يضعف قيمة الاحتياط المألوف وهو الهرب . في صيف عام ١٥٢٣، الذي حدثت فيه هذه الحادثة ، أصاب الطاعون الفقراء مرة أخرى . وننقل عن السيد ڤيرسوري نفسه ما أثبته في كتابه المسمى كتاب العقل Livre de Raison ، " لقد انصب الموت بصفة أساسية على الفقراء ، حتى إن الصعاليك والمساكين الذين كانوا من قبل كثرة في باريس لم يبق منهم إلا القلة ...ولو نظر الإنسان إلى حي بيتي شام Petit Champs لوجده قد نظف من الفقراء الذين كانوا يقيمون فيه بأعداد كبيرة "(١٧٨). وهذا هو بورجوازي من تولوز يكتب هادىء النفس مطمئن الضمير في عام ١٥٦١ : " لم يصب هذا الداء المعدي سوى الفقراء [...] فقد شاء الرب برحمته الواسعة أن يكتفي بالفقراء .[...]

أما الأغنياء فيحتاطون لأنفسهم " (١٧٩) .وچان پول سارتر J.-P.Sartre على حق اذ يكتب : " إن الطاعون لا يتصرف إلا كتصعيد للعلاقات هائل الطبقية : إنه يصيب البؤساء ويترك الأغنياء." وكان الأغنياء في منطقة ساڤوى عندما ينتهي الطاعون يأمرون ببيوتهم أن تنظف بالمطهرات تنظيفا شديدا، ويجعلون جماعة من الفقراء ـ " جماعة التجربة " ـ تقيم فيها بضعة أسابيع على سبيل التجربة، ليتأكدوا بحياتهم ، أن الخطر قد زال(١٨٠).

وكان الطاعون يضاعف ما نسميه بعمليات هجر الوظائف : فقد كان القضاة والضباط ورجال الكنيسة ينسون واجباتهم : وقد حدث في فرنسا أن هاجرت محاكم بكاملها (جرينوبل ، ١٤٦٧، ١٥٨٩ ، ١٥٩٦؛ بوردو، ١٤٧١ ، ١٥٨٥؛ بيزانسون ، ١٥١٩؛ رين Rennes ١٥٦٣، ١٥٦٤) وكان شيئا طبيعيا تماما أن يهجر الكاردينال دارمينياك d'Armagnac مدينته أفينيون Avignon في عام ١٥٨٠ بعد أن حل الطاعون بها، ويتجه إلى بيداريد Bedarrides ثم إلى سورج Sorgues؛ ولم يعد إلا بعد ستة أشهر من الغياب ، بعد أن انقشعت الغمة وزال الخطر، وكتب واحد من أهل مدينة أڤنيون في يومياته : " في مقدور الكاردينال أن يقول عكس ما يقول الإنجيل : إنني الراعي ولست مسئولاً عن خرافي (١٨١) وقياسا على هذا لا ينبغي أن نلوم مونتني Montaigne، عمدة بوردو، الذي لم يعد إبان طاعون عام ١٥٨٥ أعمال منصبه، ولا ينبغي أن نلوم هذا الثري من أهل مدينة أڤينيون فرانسوا دراجونيه دي فوجاس François Dragonet de Fogasses ـ وكان رجلا من أصل إيطالي الذي نص في عقد إيجار أطيانه على الحالة التي يضطر فيها إلى مغادرة المدينة (وهو ما حدث فعلا في عام ١٥٨٨ نتيجة لطاعون جديد) والإقامة لدى المزارعين الذين استأجروا أطيانه : " إذا حل الوباء المعدي، لاقدر الله، يلتزم المزارعون باعطائي حجرة في البيت ... وبوضع خيولي في الحظائر، ذهابا وإيابا، وبإعطائي سريرا لي "(١٨٢) . ولما حل الطاعون بلندن في عام ١٦٦٤، غادر البلاط المدينة وانتقل إلى أكسفورد، وأسرع أصحاب الثراء الواسع بتقليد البلاط في مسلكه هذا، فخرجوا بأسرهم ، وخدمهم ، ومتاعهم الذي حزموه على عجل . ولم يعد في العاصمة إجراءات قضائية " لأن رجال القانون فروا الى الريف " وبلغ عدد البيوت المهجورة ١٠٠٠٠ بيت ، وكان بعضها موصدا بألواح من خشب الشربين ، ثبتت بالمسامير في الأبواب والنوافذ ، أما البيوت المنكوبة بالداء فكانت معلمة بصليب بالطباشير الأحمر.(١٨٣) ولن يستطيع الإنسان أن يوفي دانييل ديفو Daniel Defoe حقه ، ويجزيه الجزاء الأوفى على ما دبج في عام ١٧٢٠ من وصف محكم لطاعون عام ١٦٦٤، مسترجعا الماضي بكل سماته ، فجاء وصفه مطابقا لتتابع الأحداث المألوف ، الذي تكرر آلاف المرات ، بنفس المشاهد هي هي : بالموتى تلقى جثثهم " في أغلب الأحيان على عربات كعربات روث

طاعون بقري في عام ١٧٤٥ . رسم هولندي للرسام إرسن J.Erssen.

البهائم " (١٨٤) والأحياء يتخذون نفس الاحتياطات ، ويحسون بنفس مشاعراليأس ، ونفس ألوان التفرقة الاجتماعية (١٨٥) .

وليس هناك مرض في أيامنا هذه ، مهما كانت الخسائر الفعلية التي يسببها ، يثير ما يثيره الطاعون من أعمال جنونية جماعية ، ومآس جماعية أيضا.

ولنذهب إلى فلورنسا برفقة كاتب مذكرات مدقق ، نجا من طاعون عام ١٦٣٧ ، فكانت تلك أعظم مغامرة في حياته . إن الإنسان عندما يقرأ ما كتبه هذا الرجل من وصف لما شهده بنفسه، يرى البيوت الموصدة ، والحارة المحظور دخولها إلا على من يتولون أمرالتموين دون سواهم، والتي ربما مر بها قسيس لشأنه ، فقد كانت المراقبة في أغلب الأحيان صارمة لا تعرف الرحمة ، أو ربما سلكتها، على سبيل الاستثناء ، عربة واحد من أصحاب الامتيازات، سمحوا له بأن يكسر لحظة ذلك الحصار المفروض على بيته . كانت فلورنسا إبان الطاعون مدينة ميتة: لا تجارة، ولا صلوات في الكنيسة، إلا أن يقيم القس مصادفة صلاة على ناصية الشارع يتابعها المحصورون المعزولون خلسة من خلال نوافذهم (١٨٦).

ونحن عندما نقرأ كتاب Le Capucin charitable أو " الراهب الكبوشي البار " الذي ألفه الأب موريس دي تولون Maurice de Tolon (١٨٧) عن الطاعون الذي وقع في جنوة في عام ١٦٥٦ ، نجده يعدد الاحتياطات الواجب اتخاذها : امتنع عن الحديث في المدينة إلى أي شخص مشتبه فيه تهب الريح من ناحيته إليك ؛ واحرق العقاقير العطرية بغية التطهير ؛ واعمل على غسل أو حرق ملابس وبياضات المشتبه فيهم ؛ واحرص خاصة على الصلاة ودعم عمل الشرطة. وعلينا أن نتصور الخلفية التي ترتسم وراء هذه الكلمات، ألا وهي مدينة جنوة ، المدينة ذات الثراء الواسع ، وقد تعرضت لنهب خفي تحت جنح البلاء، بعد أن هجر الأغنياء قصورهم . أما الموتى فقد تكدسوا في الشوارع، ولم يعد من سبيل إلى التخلص من الرمم إلا بحملها في قوارب ، والقائها في اليم أو حرقها في عرض البحر. هل يجوز لي، وأنا امرؤ متخصص في القرن السادس عشر أن أنقل إلى القاريء مشاعري ، إذ كنت ـ ولا زلت ـ أقف مدهوشا ، عندما أتمثل مشاهد المدن التي أصيبت بالطاعون في القرن التالي ، القرن السابع عشر، والنتائج التي أسفر عنها الطاعون؟ وليس هناك أدنى شك في أن النتائج زادت حدة من قرن إلى القرن الذي يليه . كان الطاعون يجتاح أمستردام عاما بعد عام من ١٦٢٢ إلى ١٦٢٨ (النتيجة: ٣٥٠٠٠ من الموتى)، واجتاح الطاعون باريس في عام ١٦١٢ و ١٦١٩ و ١٦٣١ و١٦٣٨ و١٦٦٢ و ١٦٦٨ (وكان وباء ١٦٦٨ هو آخر طاعون ألم بباريس)(١٨٨)؛ وينبغي أن نلاحظ أنهم كانوا في باريس منذ عام ١٦١٢ " ينتزعون المرضى بالقوة من بيوتهم ، وينقلونهم إلى مستشفى سان لوي ، أو الى دار الشفاء في ضاحية سان مارسيل"(١٨٩). ورزئت لندن بالطاعون خمس مرات من عام ١٥٩٣ إلى ١٦٦٤ـ١٦٦٥، ويقولون إن عدد الضحايا بلغ في مجموعه ١٥٦٤٦٣ شخصاً.

وتحسن الوضع في مجموعه في القرن الثامن عشر . ومع ذلك فقد كان طاعون عام ١٧٢٠ الذي اجتاح طولون ومارسيليا بالغ العنف . ويذكر أحد المؤرخين أن نحو نصف سكان مارسيليا ماتوا بالطاعون (١٩٠). وكانت الشوارع تغص " بجثث أصابها التعفن إلى نصفها ونهشتها الكلاب "(١٩١).

تاريخ دوري للأمراض

هي الأمراض، تظهر ، وتمكن لنفسها تارة، وتخبو تارة أخرى ، وتتلاشى أحيانا. هذا هو ما جرى على الجذام الذي ربما أدت إجراءات العزل الصارمة إلى التغلب عليه منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر في أوروبا (والغريب أن المجذومين الذين يعيشون أحرار طلقاء لا ينقلون العدوى)؛ وهذا هو ما حدث مع الكوليرا التي اختفت من أوروبا

في القرن التاسع عشر ؛ ومع الجدري الذي يبدو أنه تلاشى نهائيا على مستوى العالم منذ سنوات؛ ومع السل أو الزهري اللذين حوصرا تحت أعيننا بفضل معجزة المضادات الحيوية، دون أن نستطيع أن نتنبأ بما سيكون عليه أمرهما في المستقبل ، فقد قيل إن الزهري عاد اليوم إلى الظهور ، وبصورة تتسم بقدر من العنف ؛ وهذا هو ما حدث بالنسبة للطاعون الذي كان قد تقهقر حينا طويلا من القرن الثامن الى القرن الرابع عشر ، ثم عاد عنيفا فظيعا في صورة الطاعون الأسود la Peste noire ، مستهلا دورة طاعونية جديدة لم تتلاش إلا في القرن الثامن عشر (١٩٢).

والحقيقة أن العنف والهدوء اللذين تعاقبا على الأمراض ربما نجما عن أن الانسانية عاشت ردحا من الزمان على هيئة مجموعات بشرية منفصلة بعضها عن البعض، مجموعات متناثرة ، كأنما قامت بينها حواجز متناثرة ، أو كما لوكانت مبعثرة على كواكب متعددة ، مما أدى الى أن انتقال الجراثيم المعدية من مجموعة بشرية إلى المجموعة الأخرى كان يحدث كوارث مفاجئة، لأن كل مجموعة بشرية لها ، في التعامل مع العوامل المسببة للأمراض، عاداتها الخاصة ، وضروب من المقاومة أوالضعف . وهذا هو ما بينه بوضوح مدهش الكتاب الحديث الذي نشره وليم هـ.ماك نيل William H. Mac Neil(١٩٣). فمنذ أن تحرر الانسان من حيوانيته الأولى، ومنذ أن سيطر على الكائنات الحية الأخرى، أخذ يمارس حيالها تطفلية الكبار macroparasitisme يقوم فيها بدور الفتوة. ولكنه في الوقت نفسه يتعرض لهجوم ومطاردة من جانب الكائنات الحية البالغة الصغر من ميكروبات وباسيلات وفيروسات، فهو فريسة تطفلية الصغار microparasitisme .هل هذا الصراع الهائل هو - إذا تعمقناه - التاريخ الحقيقي الجوهري للإنسان ؟ إنه صراع مستمر يعتمد على ما يسمى بالسلاسل الحية : فالعنصرالمسبب للمرض الذي يستطيع تحت ظروف معينة أن يبقى بذاته ينتقل بصفة عامة من كيان عضوي حي إلى كيان عضوي حي آخر . والإنسان ، من حيث هو هدف - وإن لم يكن الهدف الوحيد - لهذا القصف المستمر يتكيف ويفرز أجساماً مضادة ، ويصل إلى توازن محتمل مع الكائنات الغريبة التي تعسكر لديه. ولكن هذا التكيف ، الذي يبشر بالنجاة ، يحتاج الى وقت طويل. والجرثومة المسببة للمرض عندما تخرج من " خُصِّها البيولوجي " وتصل إلى جماعة من السكان ، لم تمسسهم من قبل ، جماعة عزل بغير مقاومة ، تحدث انفجارا وتسبب كارثة الأوبئة الكبيرة . والرأي عن ماك نيل - وما أظنه إلا على صواب - أن الوباء الكبير الذي حدث في عام ١٣٤٦ ، الطاعون الأسود ، الذي محق أوروبا كلها أو جلها ، كان نتيجة للتوسع المغولي الذي بث الحياة من جديد في طرق الحرير ، وسهل حركة العناصر المسببة للأمراض من خلال ربوع القارة الآسيوية . كذلك عندما قام الأوروبيون ، في نهاية القرن الخامس عشر ، بإنشاء وحدة اتصالات تجارية امتدت خلال العالم ، تعرضت أمريكا القديمة

(القديمة أي: قبل أن يكتشفها كولمبس) بدورها إلى ما فتك بها من أمراض، لم تعرفها من قبل، جاءت إليها من أوروبا ؛ وفي المقابل انصب زهري، لم يتحور، على أوروبا، ووصل حتى إلى الصين في وقت قياسي، منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر، بينما لم تصل " الذرة " و " البطاطا " ـ وهما أمريكيتان أيضا ـ الى هناك إلا في السنوات الأخيرة من القرن المذكور(١٩٤). وهناك مثل قريب منا نسبيا، هو ما حدث في عام ١٨٣٢، عندما تكررت المأساة البيولوجية، وجاءت الكوليرا إلى أوروبا، ربما منطلقة من الهند.

ولكن في هذه التمددات والانكماشات التي شهدتها الأمراض لا يقف الإنسان وانجراحيته ـ زادت أو نقصت ـ أو مناعته المكتسبة ـ زادت أو نقصت ـ العناصر الوحيدة في المشكلة. وهناك أطباء مؤرخون لا يترددون في القول ـ وأظن أنهم على حق تماما ـ بأن كل عامل مسبب للمرض له تاريخه الخاص به، الذي يسير موازيا للتاريخ الذي يتناول ما يجري على ضحاياه، وأن تطورالأمراض يعتمد إلى حد كبير على تغيرات، بل طفرات، تطرأ على هذه العوامل المسببة للأمراض. وينجم عن ذلك تراوحات، وذهابات وإيابات معقدة، ومفاجئات، وأحياناً أوبئة انفجارية، وربما اعترى هذه العوامل المسببة للأمراض سبات طويل الأمد أو نوم نهائي. ويمكننا أن نذكر هنا من بين حالات الطفرات الميكروبية أو الڤيروسية مثلا يعرفه الناس اليوم معرفة جيدة هو مثل الإنفلونزا.

وكلمة جريپ grippe التي تستخدم في الفرنسية للدلالة على الإنفلونزا تعني المرض الذي يمسك أو يقفش أو يقبض، لم تستخدم لأول مرة على الأرجح إلا في ربيع عام ١٧٤٣(١٩٥). ولكن الباحثين تبينوا، أو يظنون أنهم تبينوا، وجود الانفلونزا في أوروبا منذ القرن الثاني عشر. والإنفلونزا مرض من الأمراض التي لم تكن معروفة للهنود الحمر في أمريكا ففتكت بهم. وعندما حلت الإنفلونزا في عام ١٥٨٨ في البندقية لم تحصد أرواح الأهالي كما فعلت في أمريكا، بل ألزمتهم الفراش جميعا، حتى لقد خلا المجلس الكبير من الأعضاء تماما ـ وهو ما لم يكن يحدث إلا في حالة الطاعون ـ ولم تقف الموجة في البندقية، بل تجاوزتها إلى ميلانو وفرنسا وقطلونيا ثم أمريكا بعد ذلك(١٩٦). كانت الانفلونزا آنذاك هي هذا الوباء الطائر الذي ينتشر في العالم كله على نحو ما نعرفه اليوم. في ١٠ يناير من عام ١٧٦٨ كتب ڤولتير Voltaire : " جالت الانفلونزا جولتها في العالم ومرت بسيبيريتنا [يقصد منطقة فيرنيه Ferney القريبة من چنيف التي كان يقيم بها] وتشبثت ببدني النحيل العجوز." ولكن ما أكثر الأعراض المختلفة التي أطلق عليها القدماء اسم الانفلونزا وإذا قصرنا حديثنا على الحالات الوبائية الكبيرة، نذكر الانفلونزا الإسبانية التي حدثت في عام ١٩١٨، والتي فتكت بأعداد من البشر أكثر من الذين فتكت بهم الحرب العالمية الأولى، والتي لا تشبه الإنفلونزا التي سميت بالآسيوية والتي حدثت في عام ١٩٥٧. والحق أن هناك فصائل متمايزة متعددة من

الفيروس، وإذا كانت صنوف التطعيم حاليا غير مؤكدة المفعول ، فإنما يرجع السبب في ذلك الى أن الفيروس المتغير للإنفلونزا يتحور باستمرار تحورات طفرية . وكل تطعيم ضد الإنفلونزا متخلف عن ڤيروس العدوى ، في كل الحالات تقريبا . وقد أدى هذا ببعض معامل الأدوية الى محاولة استباق الأحداث ، وافتعال طفرات في أنابيب الاختبار من فيروس الانفلونزا الجاري، وتجميع طفرات متعددة في طعم واحد ، تكون له فرصة مطابقة أنواع الإنفلونزا التي ستأتي في المستقبل. وليس من شك في أن ڤيروس الإنفلونزا يتميز بأنه متغير على نحو خاص ، ولكن أليس لنا أن نفكر في أن هناك أعدادا أخرى من العوامل المسببة للمرض تتحور هي الأخرى على مر الزمن ؟ وربما أمكن على هذا النحو تفسير أنواع السل، التي كانت تارة كامنة ، وتارة عنيفة ؛ أو غفوة الكوليرا المنطلقة من البنغال، وما يبدو من أن الكوليرا المنطلقة من جزر السيليب Célèbes المحيطية تحاول أن تحل محلها .أو ظهور أمراض جديدة ، عابرة نسبيا ، مثل مرض العرق الانجليزي الذي عرف في القرن السادس عشر.

من عام ١٤٠٠ إلى عام ١٨٠٠

عهد بيولوجي قديم طويل الأمد

تابع الإنسان على هاتين الجبهتين على الأقل - الجوع والمرض - صراعه الذي لا ينتهي، جبهة الصراع ضد عجز الطعام المتاح عن الوفاء بالحاجة - تتمثل فيه تطفلية الكبار - وجبهة الصراع ضد الأمراض العديدة الخداعة التي تطارده وتسعى إلى اصطياده. ولقد كان الانسان على هاتين الجبهتين إبان العهد القديم - وهو العهد الذي امتد إلى نهاية القرن الثامن عشر - في موقف هش دائما . كان الإنسان قبل القرن التاسع عشر ، أيا كان المكان الذي يقيم فيه ، لا يستطيع أن يتوقع إلا أن تكون حياته حياة قصيرة ، تطول إذا كان غنيا بضع سنوات عما اذا كان فقيراً. " كان الأغنياء ، على الرغم من الأمراض التي تسببها لهم الموائد البالغة السخاء ، وقلة النشاط ، والرذيلة ، يعيشون كما لاحظ رحالة انجليزي متحدثا عن أوروبا - عشر سنوات أكثر من أهل الطبقة الدنيا لأن هؤلاء يستهلكهم العمل والكد والنصب ، ولأن فقرهم لا يتيح لهم أن يدبروا ما يحتاجون اليه في حياتهم "(١٩٧).

هؤلاء البشر - باستثناء الأغنياء الذين يحققون في طول العمر رقما قياسيا هزيلا- يهبطون إلى الحضيض إذا قيسوا بمتوسطاتنا الحالية . في منطقة البوڤيزي Beauvaisis الفرنسية القديمة في القرن السادس عشر كان ٢٥ إلى ٣٣ ٪ من المواليد يموتون في غضون ١٢ شهرا ؛ وكان ٥٠ ٪ فقط يصلون الى سن العشرين (١٩٨) . كانت الأعمار واهنة قصيرة : ولدينا مئات البيانات تشهد على ذلك على مر السنوات في هذا الزمن

البعيد. " فلا يدهشن أحد عندما يعلم أن ولي العهد الصغير شارل (الذي أصبح الملك شارل الخامس) قد حكم فرنسا وهو في السابعة عشرة من عمره في عام ١٣٥٦، ثم مات في عام ١٣٨٠ وقد بلغ الثانية والأربعين ، وكان قد اشتهر بأنه شيخ حكيم "(١٩٩). أما آن دي مونمورنسي Anne de Monmorency ، القائد الذي مات وهو يمتطي صهوة جواده في معركة باب سان ديني la Porte de Saint-Denis ، وقد بلغ الرابعة والسبعين من عمره ، فكان حالة استثنائية . وكان الملك شارلكان Charles Quint عندما تنازل في مدينة جنت عن العرش في عام ١٥٥٥ يعتبر شيخا مسنا وهو ابن الخامسة والخمسين .أما ابنه فيليب الثاني ، الذي مات في سن الواحدة والسبعين في عام ١٥٩٨، فقد ظل عشرين عاما بطولها متوعك الصحة ، وكان كلما ألمت به أزمة طوال هذه السنوات العشرين يحرك قلوب المعاصرين ، إما بالآمال العظام ، أو بالمخاوف الشداد . والخلاصة أنه لم تكن هناك أسرة واحدة من بين الأسر الملكية نجت من بشاعة الموت المبكر في ذلك الزمان. وهناك دليل لباريس صدر في عام ١٧٢٢ (٢٠٠) يعدد أسماء الأمراء والأميرات الذين دفنوا منذ عام ١٦٦٢ في دير ڤال دي جراس Val -de - Grâce الذي أسسته آن دوتريش Anne d'Autriche : وغالبيتهم أطفال لم يعيشوا إلا أياماً أو شهوراً أو سنوات معدودات .

أما الفقراء فلنا أن نتصور أن مصائرهم كانت أشد قسوة. في عام ١٧٥٤ كتب مؤلف "إنجليزى ": " إن الفلاحين في فرنسا أبعد ما يكونون عن السعة ، إنهم لا يجدون القوت الضروري الذي يقيم أودهم ؛ إنهم صنف من البشر يبدأون في الذبول قبل سن الأربعين لأنهم لايستطيعون توزيع جهودهم توزيعا متوازنا: والإنسانية تنتهي إلى نتيجة كلها معاناه ، اذا هي قارنت هؤلاء الناس بالبشرالآخرين ، وخاصة إذا قارنت الفلاحين الفرنسيين بالفلاحين الإنجليز .إن الإنسان عندما يتطلع إلى الفلاحين الفرنسيين يجد بمجرد النظر أن مظهرهم الخارجي ينم عن الضعف والوهن(٢٠١) ".

وماذا نقول عن الأوروبيين الذين كانوا يعيشون خارج حدود قارتهم، والذين ينفرون من الخضوع لعادات البلاد التي حلوا بها كمواطنين جدد ، ويصممون في عناد على اتباع خيالاتهم وأهوائهم وما تهفو إليه نفوسهم [...] فينتهون في كثير من الأحوال إلى القبر"(٢٠٢). هذه الفكرة التي عبر عنها الأسباني كوريال Coreal ، في معرض الحديث عن پورتو بيلو Porto Belo ، تدخل ضمن سلسلة الأفكار التي فكر فيها الفرنسي شاردان Chardin، أو الألماني نيبور Niebuhr الذي أشار الى ارتفاع وفيات الانجليز في الهند، وعزا ذلك خاصة إلى الأخطاء التي يرتكبونها، وإلى إفراطهم في أكل اللحوم، وإلى شربهم الخمور البرتغالية القوية التي يعبونها في أشد ساعات النهار قيظاً، وإلى ملابسهم الضيقة ضيقا مسرفا ، المصنوعة لتناسب ظروف أوروبا ، وقارنها بملابس أهل البلاد

"الواسعة الفضفاضة ". (٢٠٣). وإذا كانت بومباي قد أصبحت " مقبرة الإنجليز "، فإن المناخ هناك له دخل في ذلك : إنه مناخ قاتل حتى ان المثل السائر يقول " عاصفتان موسميتان تساويان عمر انسان " (٢٠٤). أما جوا Goa، مدينة الملذات التي عاش فيها البرتغاليون عيشة لينة مترفة ، وفي مدينة باتاڤيا Batavia، وهي مدينة ملذات أخرى، نعم فيها الأوروبيون بكل ما لذ وطاب، كان الوجه الآخر لهذه الحياة الناعمة المترفة الماجنة يتمثل في ارتفاع رهيب في عدد الوفيات(٢٠٥). كذلك أمريكا الصعبة، إبان الاستعمار، لم تكن أكثر رأفة بالوافدين عليها . وهذا هو والد چورج واشنطن يموت في سن التاسعة والأربعين، فيعلق مؤرخ على ذلك بقوله : "لقد مات مبكرا أكثر مما ينبغي. فلقد كان النجاح في ڤرچينيا يتطلب أن يطول عمر الإنسان فيبقى بعد موت منافسيه وجيرانه ونسائه "(٢٠٦).

كان قصر العمر قاعدة تنطبق على الأوروبيين كما تنطبق على غير الأوروبيين. فهذا رحالة يقول عن السياميين : " على الرغم من التقشف الذي يأخذ به السياميون أنفسهم... فلسنا نرى أنهم أطول عمراً " من أهل أوروبا (٢٠٧). ويكتب أحد الفرنسيين، في عام ١٧٦٦، متحدثا عن الأتراك : " وعلى الرغم من أن الأطباء والجراحين الأتراك لا يحيطون بالعلم الذي تدعي كليات الطب والجراحة عندنا أنها بلغته منذ قرن من الزمان، فإن الأتراك يعمرون مثلنا، اذا أتيح لهم أن ينجوا من الطاعون الرهيب الذي يجتاح الإمبراطورية كل عام ..." (٢٠٨). ولنذكر عثمان أغا ، ذلك المترجم التركي (الذي تعلّم الألمانية في أثناء فترة أسر طويلة استمرت من عام ١٦٨٨ إلى ١٦٩٩) الذي حكى لنا قصة حياته في الديار المسيحية في صورة تنبض بالحياة، وإن ضمت بعض المغامرات العنترية ، تزوج مرتين: ولد له من الزواج الأول ثلاث بنات وخمسة أبناء ، بقي منهم على قيد الحياة اثنان فقط ؛ ومن زواجه الثاني ثلاثة أولاد بقي منهم اثنان"(٢٠٩).

هذا هو الهيكل العام الذي ينتظم الوقائع : كان بصفة عامة هناك تساوٍ بين الموت والحياة، وارتفاع كبير جدا في وفيات الأطفال ، ومجاعات ، وسوء تغذية مزمن، وأوبئة عارمة ، وهو هيكل يمثل هذا العهد القديم البيولوجي التي تكلمنا عنه . ولم يخفف من غلوائه مع حلول القرن الثامن عشر إلا أقل القليل ، بل ظل على عنفه مع تنويعات مختلفة بحسب الأماكن بطبيعة الحال . وكانت أوروبا هي التي بدأت في الخلاص منه ، ولا نقول أوروبا قاطبة ، ولا حتى أوروبا الغربية بكاملها، وإنما أوروبا في صورة محدودة.

واتخذ هذا الخلاص صورة تطور سار بطيئا. ونحن معشر المؤرخين، نوشك أن نقع في محظور التعجل على نحو يعيبه السرف ، عندما نتحدث عن هذا التطور الذي قلنا إنه كان في حقيقته بطيئا . كانت أرقام ارتفاع الوفيات لا تزال تسم القرن الثامن عشر كله؛

حتى في فرنسا نفسها، كما قلنا من قبل ؛ وتظهر في المتوسطات العشرية في مدينة بريمن الألمانية (الموت يفوق الحياة أو قل: الوفيات تزيد على المواليد دائما من عام ١٧٠٩ الى عام ١٧٥٩ في خط مستمر لا ينقطع) ؛ في مدينة كونيجسبرج بمنطقة بروسيا الألمانية كانت الوفيات من عام ١٧٨٢ الى عام ١٨٠٢ في المتوسط ٣٢٫٨ ٪ ، ولكنها كانت ٤٦٫٥٪ في عام ١٧٧٢ وكانت ٤٥ ٪ في عام ١٧٧٥ و ٤٦ ٪ في عام ١٧٧٦ (٢١٠). ويمكننا أن نستعيد في مخيلتنا المآتم المتكررة التي توالت على أسرة الموسيقار يوهان زباستيان باخ Bach . وهذا هو العالم زوسميلش J.P.Suessmilch مؤسس علم الاحصاء الاجتماعي يكرر هذه الحقيقة في عام ١٧٦٥ : " في ألمانيا[...] يموت الفلاح، ويموت الرجل الفقير دون أن يكون قد استخدم أقل نوع من الدواء . فهم لا يفكرون في الطبيب ، من ناحية لأنه بعيد بعدا مفرطا ، ومن ناحية ثانية [...] لأنه غال غلوا مفرطا..."(٢١١). هذه النغمة نفسها يدقها جرس آخر في منطقة بورجونديا Bourgogne في العصر نفسه : " الجراحون يقيمون في المدينة ، ولا يذهبون إلى المرضى مجانا" ؛ في كاسيليفقتو Cassey-les-Vitteaux كانت زيارة الطبيب والأدوية تتكلف نحو أربعين جنيها (livres) " والأهالي البائسون اليوم يفضلون أن يهلكوا على أن يطلبوا الجراحين لنجدتهم "(٢١٢).

يضاف إلى هذا أن النساء كن معرضات لخطر الموت على نحو رهيب نتيجة للحمل المتكرر . وعلى الرغم من ذلك . وعلى الرغم من أن الذكور كانوا أكثر عددا من الإناث بين المواليد (اليوم أيضا نسبة الذكور إلى الإناث بين المواليد ١٠٢ الى ١٠٠). فإن كل الأرقام التي بين أيدينا تبين، منذ القرن السادس عشر، أن عدد النساء كان أكثر من عدد الرجال في المدن وفي الأرياف (مع بعض الاستثناءات ، من بينها البندقية حينا، وسانت بطرسبرج). وقد دلت الإحصاءات التي أجريت في عامي ١٥٧٥ و ١٥٧٦ على أن عدد النساء كان يزيد على عدد الرجال زيادة كبيرة (٢١٣).

وإذا كان علينا أن نلخص السمات العريضة لهذا " العهد القديم "، فإن أهم شيء يجب أن نفعله هو أن نستخلص وقائعه التي كان من الممكن أن تتكرر على المدى القصير ، إما في عنف ، وإما في سرعة مثل سرعة النوازل المفاجئة التي يرزأ بها الأحياء . أما على المدى الطويل فقد كانت عمليات التعويض تتم على نحو غير محسوس ، ولكنها كانت تفرض نفسها بما هي صاحبة الكلمة النهائية الحاسمة على أية حال . وما كانت موجة الجذر تمحو كل ما أحدثته موجة المد السابقة . كان هناك صعود في عدد السكان ، صعود تحقق على المدى الطويل ، صعبا وعجيبا ، وكان يتمثل في انتصار العدد ، وكانت هناك أشياء كثيرة ارتبطت بهذا الانتصار.

مشاهدمن شوارع مدينة جوا في نهاية القرن السادس عشر.(متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس)

الكثرة

ضد الضعاف

العدد يقسم العالم وينظمه، ويعطي كل كتلة سكانية حية وزنها الخاص، ويحدد بضربة واحدة ، أو بما يوشك أن يكون ضربة واحدة ، مستوى ثقافتها وفعاليتها ، وإيقاعاتها البيولوجية (بل والاقتصادية) الخاصة بالنمو ، بل وقدرها الباثولوجي، أي الأمراض التي قدر عليها أن تعاني منها : فما كانت الكتل السكانية الكثيفة - ذات العدد الكبير - في الصين، والهند، وأوروبا إلا مستودعات هائلة للأمراض ، الأمراض اليقظة النشيطة، أو النائمة المتحفزة على الانتشار .

وللعدد وزنه المؤثر على العلاقات بين الكتل الحية ، بين المجموعات البشرية، سواء تلك العلاقات التي يأتلف منها التاريخ السلمي للبشر - بما فيه من تبادل ومقايضة وتجارة-، أو تلك التي يأتلف منها تاريخ معاركهم التي لا ينتهي . فهل يجوز لكتاب ككتابنا هذا يعالج الحياة المادية للبشر أن يغلق أبوابه دون مشاهد المعارك والحروب؟ والحرب نشاط متعدد الأشكال، نجده في كل زمان، وفي كل مكان ، حتى في إطلالة البداية الأولى

للتاريخ . الرقم يرسم لنا مقدما الخطوط الأساسية، خطوط القوة، ويبين لنا الأشياء التي تتكرر، والأشياء التي تتخذ صورا نمطية واضحة. وهو يشهدنا على أن الفرص ليست متساوية أمام الجميع، لا فيما يتصل بالصراعات والحروب، ولا فيما يتصل بالحياة اليومية. العدد يصنف المجموعات، فلا يكاد يخطيء، فيجعل من هذه - حيال الإمكانات والفرص العادية المتاحة في اللحظة - السادة، ومن تلك المسودين، يجعل من هذه البروليتاريين، ومن تلك أصحاب الامتيازات، حيال الإمكانات والفرص العادية المتاحة في اللحظة .

وما من شك في أن العدد ، شأنه في هذا المجال كشأنه في المجالات الآخرى، ليس وحده في اللعبة . هناك أيضا التقنية التي لها وزنها الكبير في السلام وفي الحرب. ولكن إذا لم تكن التقنية تميز على قدم المساواة " كل " التجمعات البشرية الكثيفة، فإنها تظل بنت العدد ...بنت الأعداد الكبيرة . هذه الكلمات تبدو لإنسان القرن العشرين واضحة بديهية. فالعدد الكبير بالنسبة إليه هو الحضارة، القوة، المستقبل. ولكن هل كان من الممكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لما كان يجري بالأمس ؟ هناك أمثلة كثيرة تخطر ببال الإنسان توحي مباشرة بالنقيض، حيث كانت الفئة القليلة تغلب الجماعة الكبيرة أحيانا. تبين فوستيل دي كولانج Fustel de Coulanges (٢١٤) هذاالتناقض وهو يفحص ما جرى على روما ، وما جرى على جرمانيا ، عشية الغزوات البربرية ، فربما تغلبت الفئة الأكثر بدائية وخشونة والأقل عددا على الجماعة الكبيرة ، أو لقد " بدا الأمر كأنما كانوا هم الذين انتصروا "، وهو ما بينه هانس ديلبروك Hans Delbrück (٢١٥) عندما حسب عدد البرابرة القليل، بل المضحك في حد ذاته ، أولئك الذين انتصروا على روما.

ضد
البرابرة

عندما تخسر الحضارات أو عندما يبدو عليها أنها تخسر ، فإن الغالب يكون دائما "بربريا". وكلمة بربري من الكلمات المطاطة المرسلة على عواهنها . فالإغريقي يعتبر بمثابة "بربري" كل من لم يكن إغريقيا ، والبربري في نظرالصيني هو من لم يكن صينيا . وكانت تلك هي الحجة الكبيرة التي تحجج بها الاستعمار الأوروبي بالأمس عندما قال إنه يحمل الحضارة إلى " البرابرة " والبدائيين . وما من شك في أن "المتحضرين" هم الذين جعلوا للبربري السمعة التي لا يستحقها ، أو لنقل التي لا يستحقها إلا نصفا. وليس هناك على أية حال من يحق له أن يضطرنا إلى قلب الصورة والإيمان الكامل الحرفي بالدفاع الذي دافع به المؤرخ رشيد سفت أتابينن Rechid Saffet Atabinen (٢١٦) عن أتيلا Attila عظيم البرابرة الهون الذين اجتاحوا روما. ولكن الشيء الذي يجب علينا يقينا أن نراجعه

هو موضوع أسطورة القوة البربرية أو قوة البرابرة. ففي كل مرة ينتصر فيها بربري يكون آنذاك قد تحضر تحضرا يزيد على النصف ، ويكون قد أمضى وقتا طويلا على مقربة من باب حجرة المتحضر، ويكون قد دق الباب عشر مرات ، لا مرة واحدة، قبل أن ينفذ إلى داخل البيت. وهو إما أن يكون آنذاك قد بلغ درجة الإتقان، أو على الأقل احتك احتكاكا جادا بحضارة جاره.

وهذا هو ما تثبته الحالة الكلاسيكية للجرمان حيال الإمبراطورية الرومانية ، في القرن الخامس، وكذلك تاريخ العرب والترك والمغول والمنشوريين، والتتار ، كلها تكرارات ، من نفس القبيل، سارت على وتيرة واحدة . كان الترك والتركمان بالدرجة الأولى أرباب النقل ،والقائمين على أمر القوافل في الطرق المؤدية من آسيا الوسطى إلى بحر قزوين وايران . فهم قد خالطوا الحضارات المجاورة ، وكثيرا ما ذابوا فيها جسدا ومالا. وكان مغول جنكيزخان وقُبلاى ـ الذين كانوا قد خرجوا لتوهم من ديانتهم الشامانية chamanisme ، خروجا لم يبلغ غايته، لا يحدثون انطباعا بأنهم برابرة أجلاف، وما لبثت الحضارة الصينية عندما اتجهوا شرقا ـ أن أحاطت بهم ، فلما اتجهوا غربا أحاطت بهم ، بعد أن تفرقوا واقتلعوا من جذور مسارهم بلدان عالم الإسلام ، كما يحيط السراب بالسائر في الصحراء . أما المنشوريون الذين غزوا بكين في عام ١٦٤٤ ثم غزوا بقية الصين بعد ذلك ، فكانوا شعبا مختلطا . كانت العناصر المغولية كثيرة فيه ، بل لقد كان فلاحون من الصين قد تقدموا نحو منشوريا فيما وراء سورالصين . فليقل من يشاء أن المنشوريين كانوا برابرة ، ولكنهم كانوا قد " تصينوا " من قبل ، ودفعتهم إلى غزوتهم ما حدث في الصين الشاسعة من اضطرابات اقتصادية واجتماعية ، وكأنما كانت هذه الاضطرابات قد قادتهم عن بعد. والبربري لا ينتصر إلا انتصارا قصير المدى، إذ سرعان ما تمتصه الحضارة التي أخضعها . فالبرابرة الجرمان بربروا الإمبراطورية الرومانية ، ولكنهم سرعان ما غرقوا في البلدان الرومانية ، بلدان النبيذ، وكانوا هم من بلدان البيرة(٢١٧) ؛ كذلك الأتراك أصبحوا منذ القرن الثاني عشر حملة راية الإسلام ؛ وكذلك المغول والمنشوريون تاهوا في وسط الجموع الصينية . ما يكاد البربري يستولي على البيت حتى ينقفل عليه الباب.

تلاشي كبار البدو الرحل

وينبغي أن نلاحظ أن " البرابرة " الذين كانوا خطرا حقيقيا على الحضارات كانوا ينتمون جميعا تقريبا إلى نوع واحد من البشر: البدو الرحل الذين كانوا يتنقلون في جنبات الصحاري ومناطق الاستبس في قلب العالم القديم، والعالم القديم هو " وحده " الذي عرف هذا النوع غير المألوف من البشر. وكانت سلسلة البلاد القاحلة المحرومة ، الممتدة من المحيط الأطلسي إلى البحار الحدودية المطلة على المحيط الهادي ، تشكل حزام بارود

فرسان مغول في أثناء الصيد . القرن الخامس عشر . متحف توبكابي ، استانبول .

لا يفرغ ما فيه من خطر ، فما تكاد تحدث أقل شرارة حتى يشتعل، وتنشب الحرائق بطوله كله. كانت هذه الشرارة تتمثل بالنسبة للخيالة والجمالة ، راكبي الخيل وراكبي الجمال، الذين كانوا يقسون على أنفسهم وعلى الآخرين ، في مناوشة أو جفاف أو زيادة سكانية، تؤدي إلى طردهم من مراعيهم، فإذا هم يغيرون على جيرانهم . وتحدث الغارة مع تتابع السنين ، الأثر تلو الأثر، ورد الفعل تلو رد الفعل ، على شريط طوله آلاف الكيلومترات.

وكان هؤلاء البشر يمثلون السرعة والمباغتة في أجل صورهما، في عصر كان كله بطء. وكان الإنذار إذا انطلق على الحدود البولندية ، وهو أمر ظل يتكرر حتى القرن السابع، منبئا بأن خيالة التتار أقبلوا مهددين، يحدث على الفور ، أو ما يوشك أن يكون كذلك، حركة تعبئة عامة واسعة النطاق . كان من الضروري تسليح الأماكن الحصينة، وملء المخازن، وترتيب الذخيرة اللازمة لقطع المدفعية ، إذا سمح الوقت بترتيبها، واستنفار الفرسان، ومد الحواجز من مكان لآخر . فإذا نجحت الغارة ـ وهو ما كان يحدث كثيراً ـ ونفذ

قافلة في الطريق الى الصحراء . صورة من مخطوط مقامات الحريري المصورة (المكتبة القومية باريس)

الغزاة من خلال الجبال والفيافي المنتشرة في منطقة ترانسيلڤانيا Transylvanie (حاليا في رومانيا). فقد كان الغزاة ينقضون على الأرياف والمدن كالوباء، ولم يكن ما يفعلونه يقارن بما كان الترك يفعلونه فيما بعد . فقد كان الترك معتادين على أن يعودوا بقواتهم قبيل الشتاء بعد يوم القديس جورج .أما التتار فكانوا يبقون في مكانهم ويظلون طوال الشتاء، ومعهم أهلهم ، فيأكلون الأخضر واليابس ، ويجردون الأرض من كل شيء حتى يصلوا إلى الجذور(٢١٨).

ولم تكن هذه المشاهد التي عرفنا ما أحدثته من فزع فيما نقلته إلينا مدونات الغرب المعاصرة شيئا ذا بال إذا قيست بما أحدثته الغزوات البدوية الكبيرة التي انحصرت في الصين أو في الهند. كان من حسن حظ أوروبا أنها أفلتت منها ، إذا استثنينا الهجمات التي بقيت فصولها عالقة في الذاكرة (هجمات الهون les Huns والأقاريين les Avars والهنغاريين les Hongrois والمغول les Mongols)، ولقد أفلتت أوروبا لأن شعوب شرق أوروبا قامت منها مقام السد الذي حماها: وكانت معاناة هذه الشعوب هي الثمن الذي دفعته للحفاظ على سكينة أوروبا .

وما قيل عن قوة البدو، لم يكن قوة كله، بل كان في جانب منه غفلة الرجال الذين أنيط بهم حماية أبواب الحضارات ، وما ران عليهم من ضعف نسبي. كانت صين الشمال، قبل القرن الثامن عشر ، قليلة السكان ، أي أنها كانت فراغا نفذ منه إلى البلاد كل من أراد. أما في الهند ، فكانت منطقة البنجاب قد آلت إلى المسلمين في وقت مبكر، منذ القرن العاشر، وظل الباب مفتوحا تجاه ايران وممر خيبر (في جبال سليمان بين أفغانستان وباكستان حاليا). أما في شرق ، وجنوب شرق أوروبا، فقد تغيرت صلابة السدود التي أشرنا إليها من قبل على مر القرون . كان عالم البدو يجيش بالحركة على مشارف هذه المناطق التي كان القائمون عليها يتأرجحون بين ضروب من الغفلة ، والضعف، وألوان من الحذر العقيم أحيانا : كان قانون من قوانين الطبيعة يحركهم تارة إلى الغرب، وتارة الى الشرق ، بحسب ما إذا كانت حياتهم المتفجرة تنفجر بسهولة أكثر نحو أوروبا أو نحو ديار الاسلام أو نحو الهند أو نحو الصين. ويذكر الكتاب الكلاسيكي لادوارد فوتر Eduard Fueter (٢١٩) انه كانت هناك منطقة عاصفة سيكلونية في عام ١٤٩٤، تحدث جذبا عارما للهواء نحو ايطاليا المفككة بين الأمراء وجمهوريات المدن : وكانت أوروبا كلها منجذبة نحو منطقة الضغط المنخفض هذه ، صانعة العواصف ؛ على النحو نفسه كانت شعوب مناطق الاستيبس تجذبها رياح عاصفة ، جذبا عنيفا ، نحو الشرق أوالغرب ، بحسب الخطوط الأقل مقاومة .

وهكذا طردت الصين إبان حكم آل مينج المغول في عام ١٣٦٨، وحرقت مركزهم الكبير في كاراكوروم Karakorum بصحراء جوبي Gobi (٢٢٠) . ولكن هذا الانتصار تبعه خمود طويل، نجم عنه تحول عنيف للبدو نحو الشرق ، إلى ذلك الفراغ الذي أنشأته هناك طلائع الموجات الأولى التي أخذت تشد موجات جديدة، في حركة كان لها صداها الذي وصل إلى مناطق في الغرب ، متزايدة البعد، تفصل بينها سنة أو سنتان أو عشر أو عشرون سنة. واجتاز النوجائيين Nogaïs نهر الفولجا، من الغرب إلى الشرق، حول عام ١٤٠٠، وشهدت أوروبا ما نشبهه بانقلاب بطيء للساعة الرملية. شهدت تحولا من الضد إلى الضد، فإذا الشعوب التي ظلت تنساب طوال قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان نحو الغرب وأوروبا الواهنة ، تتحول فتتجه نحو الشرق يجذبها ضعف الصين النائية. وخريطتنا تلخص هذا التحول الذي تمثلت فصوله الحاسمة في الغزو المذهل الذي قام به ظهير الدين محمد بن بابر (في عام ١٥٢٦) واستيلاء المنشوريين على بكين في عام ١٦٤٤. وهكذا اجتاح إعصار البرابرة الهند والصين مرة أخرى. وكانت النتيجة أن أوروبا في الغرب تنفست بمزيد من الارتياح . واذا كان الروس قد استولوا على كازان في عام ١٥٥١، واستراخان في عام ١٥٥٦، فلم يكن السبب في ذلك ينحصر في استخدامهم البارود والبندقية فقط ، بل كان هناك سبب آخر هو أن ضغط البدو في جنوب روسيا كان

قد خف، مما مكن الروس من الزحف إلى الأراضي السوداء في منطقة الڤولجا والدون والدنييستر Dniestr .وقد أدت هذه اللعبة إلى فقدان موسكوفيا القديمة لجزء من فلاحيها الذين هربوا فرارا من تسلط سادتهم ، وجاء الى هذه الأراضي التي تركها الفلاحون الهاربون فلاحون نزحوا من البلاد البلطيقية وپولندة. أما المناطق التي خلت نتيجة لنزوح الفلاحين البلطيقيين والپولنديين فقد شغلها ، عندما سنحت الفرصة، فلاحون نزحوا من منطقة براندنبورج ومن اسكتلندة. كانت حركة النزوح والتوطن شبيهة بسباق الجري على مراحل: وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه الكسندر وأويجين كوليشر Kulischer، وهما مؤرخان رائعان - في تفسيرهما لهذه الحركة ، إذ رأيا أن هذه الزحزحة التي امتدت بتياراتها الخفية من ألمانيا إلى الصين، كانت بمثابة تاريخ صامت ، أو جزء توارى تحت جلد التاريخ .

ولقد أدى غزو المنشوريين للصين إلى نشوء نظام جديد حول عام ١٦٨٠. فقد عادت الصين الشمالية تمتليء بالسكان ، بعد أن استتبت أركان الحكم فيها ، ونعمت بالطمأنينة؛ وقد تحققت لها الطمأنينية نتيجة لحملات وقائية قامت بها في منشوريا التي أتى المنتصرون منها، ثم في منغوليا وتركستان والتبت. أما الروس، الذين احتلوا سيبيريا بغير منازع ، فسيصطدمون بالمقاومة الصينية على طول وادي نهر آمور، وسيضطرون إلى توقيع معاهدة نيرتشينك Nertchinsk في ٧ سبتمبر ١٦٨٩. وتقدم الصينيون من السور العظيم وما زالوا يتقدمون حتى أصبحوا على مقربة من بحر قزوين. وكان عالم الرعاة المتنوع، من قبل هذه الانتصارات، قد شق لنفسه طريقه نحو الغرب ، مخترقا في الاتجاه العكسي باب زنجاريا Dzoungarie الضيق، الذي كان عنق الزجاجة الكلاسيكي الذي مرت منه الهجرات بين منغوليا وتركستان. ولكن هذه الأمم البدوية النازحة لم تجد في هذه المرة بابا مفتوحا، بل اصطدمت ناحية الغرب بروسيا جديدة، روسيا بطرس الأكبر بما أقام فيها من حصون وقلاع ومدن عمرت بها سيبريا ومنطقة الڤولجا السفلى . والمدونات الروسية التي دبجت صحائفها في القرن التالي مليئة بأخبار هذه المعارك المتكررة .

والحق أن المسيرة العظيمة التي أتاحها القدر للبدو الرحل قد انتهت آنذاك. فقد تفوق بارود المدافع على سرعتهم، وانتصرت الحضارات ، حتى من قبل أن ينتهي القرن الثامن عشر، حدث هذا في بكين وموسكو ، كما حدث في دلهي وطهران (بعد الحركة الأفغانية العنيفة). فلما حكم على البدو الرحل بالبقاء في موطنهم ظهروا على حقيقتهم، مجموعات بشرية فقيرة ردت إلى أماكنها . ولقد كانت تحركاتهم شرقا أو غربا حالة استثنائية ، حالة تطفلية طويلة ، طالت ولكنها انتهت نهاية مبرمة دون ما عودة . ولكنها كانت حالة حادت عن كل طريق ، وشذت عن كل سبيل سوي، على الرغم من صداها الهائل.

والقاعدة العامة هي أن الحضارات تلعب وتكسب . إنها تكسب وتغلب "الثقافات"؛ تغلب الشعوب البدائية؛ وتكسب المكان الخالي. فاذا كسبت الحضارات مكانا خاليا، كان ذلك أفضل وضع بالنسبة إليها، حيث يكون عليها أن تبني كل شيء، ولقد كانت تلك هي الفرصة العظيمة التي أتيحت للأوروبيين في ثلاثة أرباع البقاع الأمريكية، وللروس في سيبريا، وللإنجليز في استراليا ونيوزيلندة . وأي حظ كان سيتاح للبيض في جنوب أفريقيا إذا لم تحدث انتفاضة السود في وجه البوير والانجليز ، في البرازيل ظهرالرجل البرتغالي فتوارى الهندي البدائي: ونزل عن مكانه . وأخذ البانديراس bandeiras الساوپاوليون يندفعون زرافات نحو فيافي تشبه الخلاء. واستطاع هؤلاء المغامرون القادمون من ساوباولو ، الباحثون عن العبيد ، وعن الأحجار الثمينة والذهب ، أن يجوبوا في أقل من قرن الزمان نصف قارة أمريكا الجنوبية ، من ريو دي لاپلاتا Rio de la Plata إلى الأمازون والأنديز ، دون أن يستولوا عليها. ولم تقابلهم مقاومة قبل أن ينشيء اليسوعيون محمياتهم أومستوطناتهم الهندية réserves indiennes التي نهبها الپاوليستاس paulistas دون خجل.

ومارس الفرنسيون والانجليز في أمريكا الشمالية ، والأسبان في الربوع الصحراوية الشمالية بالمكسيك العملية نفسها في مواجهة الهنود الشيشيميك Chichimèques الذين كانوا يتسمون بالخشونة ، وكانوا قليلين الى حد الندرة . كانت العملية التي جرت عملية صيد منظمة استهدفت الإنسان، استمرت حتى القرن السابع عشر ، وتركزت حول هؤلاء الهنود الحمر. كانوا يخرجون إليهم في شهر نوفمبر من كل عام ويطاردونهم كما يطارد الصياد " الحيوانات المتوحشة " . وواجه المستعمرون في الأرجنتين وخاصة في شيلي موقفا أكثر صعوبة لأن الهنود الحمر اخذوا عن المنتصر أشياء، من بينها على الأقل استخدام الخيل، وأصبح الأروكان Araucans حتى مطلع القرن العشرين عدوا شديد المراس(٢٢١). والحق أن عملية الغزو لم تكن تستهدف البشر(فقد أبيدوا) ولكنها كانت تستهدف المكان . كان المطلوب آنذاك هو الانتصار على المسافات، وقهر البعد. فما حل القرن السادس عشر حتى انتشرت العربات الخشبية البطيئة في مناطق الپامپا Pampa الأرجنتينية، بثيرانها المكدنة زوجان زوجان، وقوافل البغال في المناطق الأمريكية التي سكنها وافدون من شبه الجزيرة الايبرية، أو اتجهت العربات الى الغرب في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، تلك العربات التي كانت سببا في شهرة أفلام الغرب أو أفلام الوسترن westerns ، وكانت تلك العربات وتلك القوافل هي معدات هذا الغزو الصامت الذي استهدف المكان ، والذي كان ينتهي عادة إلى جبهة من جبهات الاستعمار، إلى منطقة من مناطق رواد الاستعمار، ينطلق منها كل شيء . كانت حياة المستعمرين في

تلك المناطق الطرفية النائية تبدأ من الصفر؛ كان الرجال قليلين قلة مسرفة لا تفرض عليهم حياة اجتماعية ؛ فقد كان كل واحد منهم سيد نفسه . واستمرت هذه الفوضى المغرية حينا من الزمن، ثم حل النظام محلها . وتزحزحت الحدود من هذه المناطق الطرفية بعيدا نحو الداخل ناقلة نفس السمات الفوضوية والمؤقتة. وكانت تلك الحدود هي التي سميت بالحدود المتحركة moving frontier الذي رأت فيه رومانتيكية ف . ج . تورنر F.J. Turner بالأمس صميم النشأة الأمريكية وأقوى سمات أصالتها (٢٢٢).

غزو المكان الخالي أو شبه الخالي .. الذي حدث في أمريكا تكرر في التوسع الروسى إبان القرن السادس عشر عندما نجح تجار الملح وصيادو الفراء والكوزاك فى الاستيلاء على سيبريا. وكان الكوزاك بارعين في ركوب الخيل والجري بها. ولقد نشبت ألوان من المقاومة العارمة تصدت لعمليات التوسع ، ولكنها ما لبثت أن تحطمت. وظهرت مدن، وقلاع ، ومحطات على الطرق ، وأنشئت الكباري، وبنيت منازل عند نقاط تغيير العربات والخيول والزحافات، أو نقاط نهايات المراحل (توبولسك Tobolsk في عام ١٥٨٧، أوكوتسك Okotsk في عام ١٦٤٨ ، وإركوتسك Irkoutsk قرب بحيرة بايكال Baikal في عام ١٦٥٢). وهذا هو طبيب من أطباء الجيوش الروسية(٢٢٣) سويسري الأصل، يرى أن سيبريا كانت حتى عام ١٧٧٦ ، عبارة عن طرق مقسمة إلى مراحل، عبارة عن مسافات بعيدة يقدرونها بالأيام الطويلة المنهكة المرهقة على ظهور الخيل، يهفو الإنسان في نهايتها إلى بلوغ القلعة أو المدينة ، أو الملجأ الضروري؛ فإذا كان الشتاء ولم يستطع التاجر المتنقل على الزحافة الجليدية أن يصل في الموعد المناسب فإنه يتعرض لخطر الدفن تحت الثلوج إلى الأبد ومعه صحبته وحيواناته وبضاعته. وتكونت ببطء شيئا فشيئا منظومة من الطرق والمدن. وقد بلغ الفاتحون حوض نهر آمور منذ عام ١٦٤٣، وعرفوا شبه جزيرة كامتشاتكا الضخمة الهائلة في عام ١٦٩٦ ، ووصلت الكشوف الروسية ألاسكا واستقر المستعمرون هناك في عام ١٧٩٩. كانت تلك عمليات استيلاء سريعة، ولكنها كانت هشة ، ومن هنا كان ما اتسمت به من أمور تثير العجب والدهشة. في عام ١٧٢٦، بينما كان بيرنج Behring يقوم برحلات كشفية ، أقام في أوكوتسك، فلم يجد في قلعة المدينة إلا بضعة عائلات روسية. وفي عام ١٧١٩ قام چون بل John Bell برحلة في سيبريا وسلك طريقا رئيسية " فلم ير طوال ستة أيام بيوتا أو بشرا "(٢٢٤).

عندما تقاوم الثقافات

كل شيء يتعقد، والأغنية تتغير إذا لم يكن الغزو غزوا لمنطقة خالية . وليس من الممكن الخلط بين أمرين، على الرغم من حماس أرباب الدراسات المقارنة، " الاستعمار الجرماني " الشهير في بلدان شرق أوروبا Ostsiedlung من ناحية ، وملاحم الاستيلاء

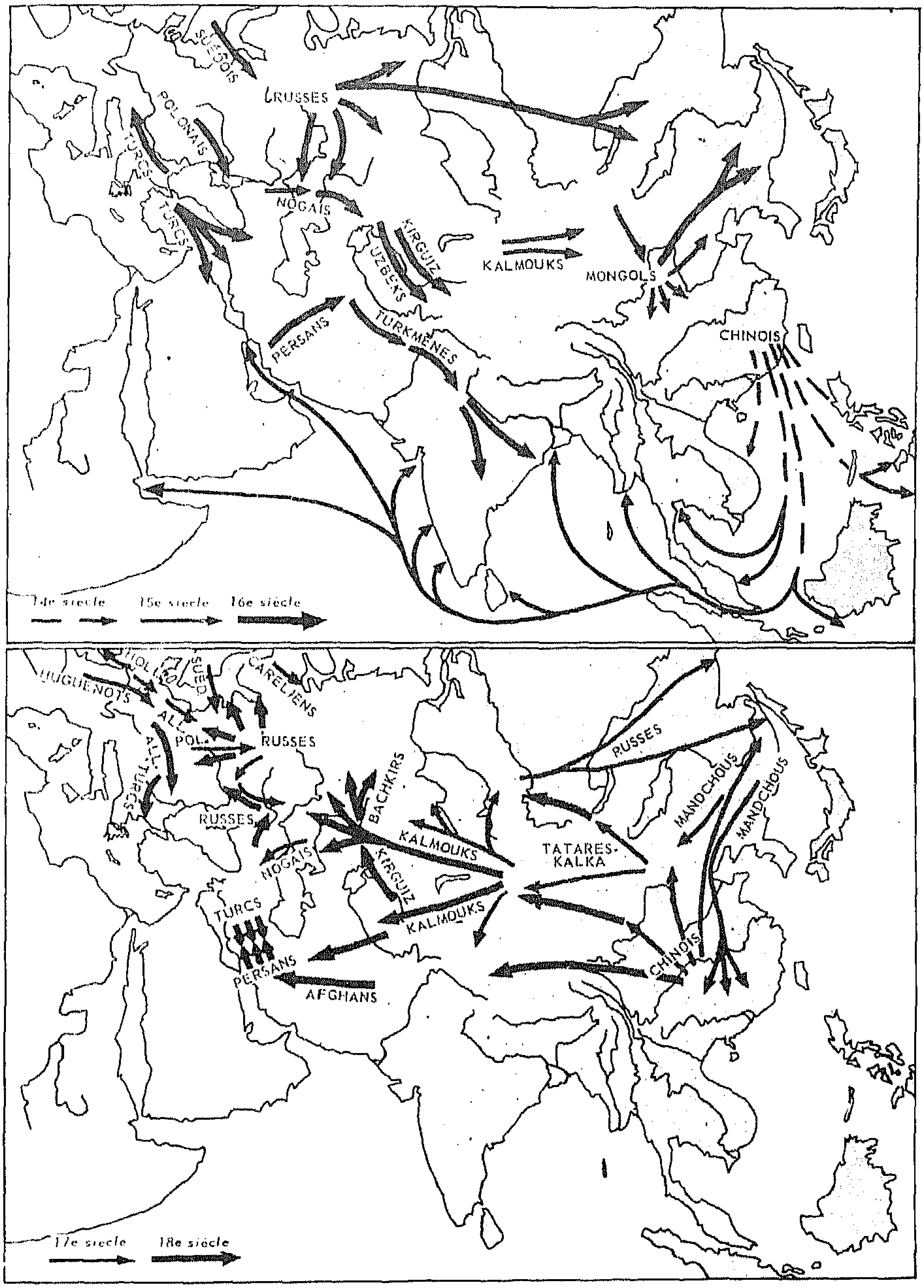

١٠ ـ الهجرات الأوروبية الأسيوية (من القرن ١٤ الى القرن ١٨)

على الأرض على الحدود الأمريكية من ناحية ثانية . ففي الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر ـ بل القرن الرابع عشر ـ استقر المستعمرون الجرمانيون ، بالمعنى الواسع لكلمة جرماني (فقد كان من بينهم من قدموا من منطقة اللورين ومن الأراضي الواطئة) في المناطق شرق نهر الإلبه Elbe ، وأعانتهم على ذلك المجاملات السياسية أوالاجتماعية كما أعانتهم أساليب العنف أيضا . كان الوافدون الجدد يقيمون قراهم وسط مناطق تكسوها غابات واسعة، يعمدون إلى اجتثاثها، وينشئون بيوتهم في صفوف تطل على حواف الطرق، ويدخلون المحاريث الثقيلة المزودة بسن فولاذي ، ويبنون المدن، فارضين عليها ، وعلى المدن السلافية كذلك القانون الألماني، قانون مدينة ماجدبورج Magdeburg غير البحرية أو قانون مدينة لوبيك Lübeck البحرية .كانت تلك الحركة التى قام بها الجرمان حركة ضخمة . ولكنها كانت حركة استعمار يتم بين ظهراني شعب سلافي قد استقر هناك من قبل، وكانت له شبكة محكمة ـ قل احكامها أو زاد ـ أنيط بها مقاومة الوافدين أو الإحاطة بهم عند الضرورة. كان من سوء حظ جرمانيا أنها تكونت متأخرة ، وأنها لم تبدأ مسيرتها إلى الشرق الأوروبي إلا بعد أن كانت شعوب سلافية قد استقرت هناك، مرتبطة بالأرض، معتمدة على مدنها (وهناك حفريات تثبت ذلك) اعتماداً أكثر صلابة مما كان الناس يؤكدون بالأمس(٢٢٥).

وهذا الكلام نفسه نكرره بحذافيره عندما نتناول بالحديث التوسع الروسي، لا في اتجاه سيبريا التي كانت شبه خالية ، ولكن ـ التوسع الذي جرى في القرن السادس عشر نفسه في اتجاه الأنهار الجنوبية(٢٢٦) ، الڤولجا والدون والدنيستر، وكان هذا التوسع الأخير مطبوعا هو الآخر بطابع استعمار حر الحركة ، يقوم على أكتاف الفلاحين. لم تكن منطقة الاستبس بين نهر الڤولجا والبحر الأسود آهلة بالسكان على نحو كثيف، ولكنها كانت تستخدم كمعبر تسلكه شعوب بدوية من قبيل النوجائيين Nogaïs والتتار القادمين من القرم. كان هؤلاء فرسانا ، شكيمتهم قوية ، وجانبهم مهاب ، وكانوا هم طليعة الإسلام والامبراطورية التركية التي دعمتهم ، وربما دفعت بهم أحيانا إلى الأمام، بل لقد أنقذتهم من الروس بأن زودتهم بالأسلحة النارية التي كانت تعوز المدافعين عن خانية كازان وخانية اسطرخان .(٢٢٧). لا يجوز إذن التهوين من شأن هذا العدو أو احتقاره. فقد اندفع التتار بغزواتهم تجاه البلدان المجاورة لترانسلڤانيا، والمجر، وپولندة وموسكوفيا فخربوها تخريبا وحشيا، بل إن إحدى غزواتهم استولت على موسكو في عام ١٥٧٢. وباع التتار أعدادا لا نهاية لها من الأسرى السلافيين في سوق استانبول . ونحن نعرف أيضا أن بطرس الأكبر فشل في عام ١٦٩٦ في محاولته فتح " نافذة " على البحر الأسود، ولم ينقلب هذا الفشل إلى نجاح إلا بعد مائة عام ، وكان الفضل لكاترين الثانية، وإنْ لم تتمكن من التخلص من التتار، الذين ظلوا في مكانهم حتى الحرب العالمية الثانية.

وليس من الممكن تصور الاستعمار الذي قام به الفلاحون الروس بغير أماكن حصينة و"تخوم" عسكرية ، أوبغير مساعدة من الكوزاك ، هؤلاء الخارجين على القانون . كان الكوزاك خيالة قادرين على التصدي لعدو يتميز بحركة فائقة ، وكانوا نوتية يتنقلون بالقوارب على صفحات الأنهار ذهابا وإيابا ، ويحملون قواربهم من شاطيء نهري إلى شاطيء آخر ؛ هاهم أولاء قد انضموا في عصبة من ٨٠٠ رجل، جاءوا من تانايس Tanaïs (حول عام ١٦٩٠) وألقوا قواربهم في الفولجا لمطاردة " التتار الكالموك ... " Tartares Calmuques ، وكانوا بحارة ركبوا سفنا مثقلة بالأشرعة، واسترسلوا في عمليات قرصنة في البحر الأسود منذ القرن السادس عشر الغارب (٢٢٨). لم تنبن روسيا الحديثة من هذه الناحية فوق أرضية خالية سهلة ، ولم تزحف بغير جهد أو مباغتة في القوقاز أو التركستان في القرن التاسع عشر ، في مواجهة الإسلام مرة أخرى .

وهناك أمثلة أخرى يمكن أن تدعم تفسيرنا ، منها على الأقل الاستعمار المتأخر والعابر لأفريقيا السوداء ، والذي قامت به الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر ، أو غزو المكسيك وبيرو على يد الأسبان : فقد انهارت تلك الحضارات الهشة، التي كانت في حقيقة أمرها مجرد ثقافات، أمام عدد قليل من الرجال فقط . ولكن هذه البلاد تعود اليوم سيرتها الأولى فتصبح هندية أو أفريقية مرة أخرى.

والثقافة هي حضارة لم تبلغ بعد نضجها ، لم تبلغ ذروتها ، ولم تؤكد نموها. وبينما هي تنتظر هذا النضج والنمو- وربما طال بها الانتظار - تأتي الحضارات المجاورة فتستغلها ، بألف وسيلة، وهذا شيء طبيعي ، وربما كان من العدل . وليرجع القاريء إلى تجارة سواحل خليج غينيا ، التي كانت مألوفة لدينا ابتداء من القرن السادس عشر . إنها المثل النمطي لهذه الألوان من الاستغلال الاقتصادي الذي يمتليء به التاريخ. هناك على سواحل المحيط الهندي يقول كفار Cafres موزمبيق، مشيرين إلى الاستغلال، إن " القرود لا تتكلم لأنها تخشى من أن تكلف بعمل " (٢٢٩). أما هم فإنهم أرتكبو خطأ أي خطأ لأنهم كانوا يتكلمون ويشترون الأقمشة القطنية ويبيعون بودرة الذهب ... فتعرضوا للعبة الأقوياء، ولعبة الأقوياء هي هي دائما ، وهي بسيطة شديدة البساطة . ولم يكن الفينيقيون والإغريق يسلكون مسلكا آخر في وكالاتهم التجارية أو مستعمراتهم : والتجار العرب على ساحل زنزبار Zanzibar منذ القرن الحادي عشر؛ وتجار البندقية وجنوة في كافا Caffa أو تانا Tana في القرن الثالث عشر؛ أوالصينيون في الجزر المحيطية التي كانت بالنسبة اليهم، منذ ما قبل القرن الثالث عشر ، سوق بودرة الذهب والتوابل والفلفل والعبيد والأخشاب الثمينة وأعشاش السنونو (تلك الأعشاش التي تصنعها طيورالسنون من الطحالب، وهي صالحة للغذاء، وتعتبر طعاما متميزا في الشرق الأقصى). في الفترة الزمنية التي يشملها كتابنا هذا - من القرن ١٤ الى القرن ١٨- كانت

أعداد غفيرة من مقاولي النقل وتجار الجملة والمرابين والباعة الجائلين وتجار القطاعي الصينيين يستغلون هذه الأسواق " الاستعمارية "، وفي رأيي أن اتساع نطاق هذا الاستغلال وسهولته أدى إلى أن الصين بقيت رغم ذكائها واكتشافاتها (العملة الورقية مثلا) قليلة الحظ من الابتكار، قليلة الحظ من الحداثة على المستوى الرأسمالي . كانت تجد الطريق سهلا سهولة مفرطة..

لم يكن بين السوق والمستعمرة سوى خطوة ، وكان يكفي أن يلجأ الانسان المستغل إلى المكر أو الاحتجاج، فإذا الغزو لا يتأخر ، وتتحول السوق إلى مستعمرة. والأدلة قائمة على أن الثقافات والنصف حضارات (وكلمة النصف حضارات كلمة مناسبة، تنطبق حتى على تتار القرم) ليست أعداء ليني العريكة ، يستهان بهم . فهم إذا أبعدهم الغزاة، ظهروا من جديد، وصمموا بعناد على البقاء . وليس من الممكن خطف المستقبل منهم إلى الأبد.

حضارات

ضد حضارات

عندما تتصادم الحضارات فيما بينها تحدث محن ، لم يخرج منها العالم الحالى بعد . فهذه حضارة تغلب حضارة أخرى: هذه هي مأساة الهند بعد الانتصار الانجليزي في پاسي Plassey (١٧٥٧) حيث بدأ عصر جديد بالنسبة لانجلترا والعالم أجمع. ولم يكن السبب في ذلك أن الانتصار في موقعة پلاسي أو على الأصح پلاسي Palassy ـ القريبة من مدينة كلكتا الحالية كان انتصارا خارقا للمألوف .ففي استطاعتنا، دون تفاخر قومي كاذب، أن نقول إن القائد الفرنسي دوپليكس Dupleix ، أو القائد الفرنسي بوسي Bussy، قد أبليا بلاء حسنا من النوع نفسه. ولكن انتصار پلاسي كانت له نتائجه الهائلة، وهذه هي خاصية الأحداث العظام ، الأحداث العظام أحداث تمتاز بأنها لها ما بعدها . كذلك حرب الأفيون الحمقاء (١٨٤٠ـ١٨٤٢) تقوم علامة على بداية قرن من " التفاوت" في الصين التي استعمرت دون أن تُستعمر، ولكنها كانت مستعمرة تماما. أما الدول الإسلامية فقد غرقت بكاملها في القرن التاسع عشر، إذا استثنينا تركيا ، مع التحفظ. ولكن الصين والهند والدول الإسلامية (بمختلف أجزائها) استردت استقلالها مع عمليات التحرر من الاستعمار التي توالت كحلقات السلسلة منذ عام ١٩٤٥.

هذه الأحداث الاستعمارية العاصفة، إذا نظر اليها الإنسان المعاصر راجعا ببصرة إلى الوراء ، تمثلها على هيئة الفصول الطارئة، أيا كان طولها ، فصول خرجت الى الوجود بسرعة، ربما كانت كبيرة وربما كانت صغيرة، ولكنها لم تدم، بل سرعان ما انهارت كأنها لم تكون سوى ديكورات المسرح .

كل هذا القدر الذي بسطناه تبسيطا، لا يمكن أن يظل في مجموعه، على هذا المستوي من الارتفاع، تحت لافتة العدد وحده، من حيث تعبيره عن لعبة القوى، وفروق الجهد، أو الأوزان الخام. ولكن العدد كانت له كلمته التي قالها على مر القرون. هذا ما لا ينبغي أن ننساه. هنا- في العدد - تجد الحياة المادية تفسيرا من تفسيراتها المنتظمة، أو بعبارة أكثر دقة، ضابطا من ضوابطها أو ثابتة من ثوابتها. ولكن هناك الحرب أيضا. فإذا نحن أغفلنا دور الحرب، تلاشى من أمامنا على التو مشهد اجتماعي سياسي ثقافي (ديني) بكامله. كذلك عمليات التبادل نفسها تفقد معناها، فقد كانت في كثير من الأحيان عمليات تبادل، فيها السيد وفيها المسود. لا يمكن أن نفهم أوروبا بغير عبيدها، ونظمها الاقتصادية القائمة على التبعية. ولا يمكن أن نفهم الصين، إذا لم نذكر ما كان فيها من ثقافات خشنة وحشية تقف منها موقف النقيض، واذا لم نذكر البلاد البعيدة التيكانت خاضعة لها، دائرة فى فلكها، كل هذه أمور لها وزنها فى ميزان الحياة المادية.

وختاما نقول اننا استخدمنا العدد لكي نقدم تصويرا مبدئيا لقدر العالم المختلف بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. البشر فيه ينقسمون الى كتل كبيرة، تتسلح بأسلحة متفاوتة، في مواجهة الحياة اليومية، تفاوتا يشبه حال الجماعات المختلفة داخل المجتمع الواحد. وهكذا تتضمن الصورة التي رسمناها على مستوي الكرة الأرضية العناصر الجماعية، أو لنقل مجازاً: الشخصيات الجماعية، التي سنلتقي بها في الصفحات التالية، والتي سنلتقي بها لقاء أوسع في المجلد الثاني المخصص للسمات البارزة للحياة الاقتصادية والرأسمالية، هاتين الظاهرتين اللتين تقسمان العالم، على نحو أعنف مما تفعل الحياة المادية، إلى مناطق متطورة ومناطق متخلفة، تقسيما ألفناه تحت تأثير واقع عالمنا الحالي الذي يزخر بالمحن المثيرة.

الباب الثاني

لقمة العيش

يتكون غذاء الإنسان في الفترة الممتدة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر بصفة أساسية من الأطعمة النباتية . تلك حقيقة نراها واضحة جلية في أمريكا في عصر ما قبل كريستوف كولومبوس ، وفي أفريقيا السوداء ، ونراها أكثر وضوحا وجلاء في ماضي وحاضرالحضارات الأسيوية التي تعتمد على الأرز: كان الانصراف عن الأطعمة القائمة على اللحوم هو وحده السبب في ظهورالجموع الغفيرة على نحو جد مبكر في الشرق الأقصى، ثم في تزايدها الهائل . ويرجع ذلك إلى أسباب بسيطة كل البساطة : فنحن إذا أجرينا حسابا اقتصاديا مقيما بالسعرات الحرارية لما تنتجه مساحة من الأرض تستغل في الزراعة، ومساحة مساوية تستغل في تربية الحيوان ، وجدنا أن عائد الزراعة مقيّما بالسعرات الحرارية أكثر بكثير من عائد تربية الحيوان . نفس المساحة من الأرض تطعم من البشر، إذا استغلت في الزراعة، عشرة أضعاف أو عشرين ضعف من تطعمهم لو استغلت في تربية الحيوان ، بغض النظر عن نوعية الطعام وجودته. ولقد أدرك مونتسكيو Montesquieu هذه الحقيقة منذ وقت طويل ، فقال في معرض الحديث عن بلاد الأرز : " إن التربة التي تستخدم في بلاد أخرى لإطعام الحيوان تستخدم هنا استخداما مباشرا لإطعام البشر ..."(١)

وتلك ملحوظة عامة ، لا تقتصر على الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، إن كل زيادة سكانية ترتبط - بغض النظر عن مستوى المعيشة - ارتباطا أساسيا بالاعتماد على الأطعمة النباتية. إن الاختيار بين الحبوب و بين اللحم رهن بعدد الناس. وهناك مقياس من أهم مقاييس المقومات المادية لحياة البشر يتمثل في عبارة: " قل لي ماذا تأكل أقل لك من أنت." وهناك مثل سائر باللغة الألمانية

يلعب بالألفاظ ويعبر عن المدلول نفسه، يقول : Der Mensch ist was er isst الانسان ما يأكل(٢).إن طعام الإنسان يشهد على مستواه الاجتماعي، وعلى حضره، ويشهد على الثقافة التي تحيط به.

ولقد تنبه الرحالة الذين جابوا الأقطار ، إلى أن الانتقال من مجرد الثقافة إلى الحضارة ، أو من منطقة ذات كثافة سكانية منخفضة إلى منطقة ذات كثافة سكانية عالية نسبيا (أو العكس) تواكبه تغيرات محسوسة في الغذاء . فهذا هو جينكينسون Jenkinson أول تاجر من " الشركة المسكوفية " Moscovie Companie نزل موسكو في عام ١٥٥٨ قادما من ميناء أرخانجيلسك Arkhangelsk البعيد ، يسلك نهر الڤولجا متجها الى ميناء استراخان ، ويرى قبل أن يصل إليه ، فيما وراء شواطىء النهر " مضربا هائلا لخيام التتار النوجائيين " يتجمع فيه رعاة رحل ، ليس لهم " مدن أو بيوت " يلمون بها ، يمارسون السرقة ، والنهب ، والقتل ، ولا يعرفون لهم عملا آخر سوى الحرب ، ولا دراية لهم بأعمال الحرث ، والبذر ، وهم يهاجمون الروس، ويضربونهم حيث يثقفونهم ، ويسخرون منهم أشد السخرية. إنهم لا يتصورون أن يكون هؤلاء الروس المسيحيون بشرا حقا وصدقا ، وكيف يكونون بشرا بمعنى الكلمة وهم لا يأكلون إلا القمح، ولا يشربون إلا أشربة مصنوعة منه (فالبيرة، والڤودكا تصنعان من الحبوب)؟ أما هؤلاء التتار النوجائيون فكانوا يشربون اللبن، ويأكلون اللحم، ولهذا فهم بشر من نوع مختلف كل الاختلاف. واستمر جينكينسون في رحلته، فاجتاز صحارى تركستان ، وأشرف على الموت عطشا وجوعا ، ووصل إلى وادى آموداريا، ووجد هناك ماء عذبا ، ولبن الخيل ، ولحم الحصان الوحشي ، ولكنه لم يجد خبزا(٣). وليس هذا التباين بين الرعاة ، والفلاحين ، وما يلقيه بعضهم على البعض الآخر من تهكم واستهزاء وتنابذ ، قاصرا على تلك المناطق النائية ، بل إننا نجده في قلب أوروبا أيضا، في فرنسا القديمة ، بين رعاة منطقة برى Bray، والفلاحين زراع الحبوب من أهل منطقة بوڤيزي Beauvaisis(٤) ، بين المزارعين من أهل قشتالة الأسبانية Castillans، والرعاة من أهل بيارن الفرنسية Béarn ، حيث يحلو للمزارعين من أبناء الجنوب الفرنسي أن يتهكموا على البقر و " أهل البقر "، وربما حدث العكس فتهكم هؤلاء على أولئك أيضا . وتبدو هذه الظاهرة على نحو أكثر جلاء، ووضوحا في بكين حيث تتباين العادات الغذائية تباينا صارخا بين المغول - الذين سيتسمون فيما بعد باسم المنشوريين - وبين الصينيين: أما المغول فأكلة لحوم، يقطعونها قطعا كبيرة على الطريقة الأوروبية ، وأما الصينيون ، الذين يعتبر الطهى لديهم فنا يوشك أن يدخل في زمرة الشعائر، فإن العنصر الأساسي في طعامهم هو الحبوب، ويسمونه " فإن" fan، ويقوم فن الطهي على كيفية إضافة عنصرٍ مصاحبٍ إليه، ويسمون هذا العنصر

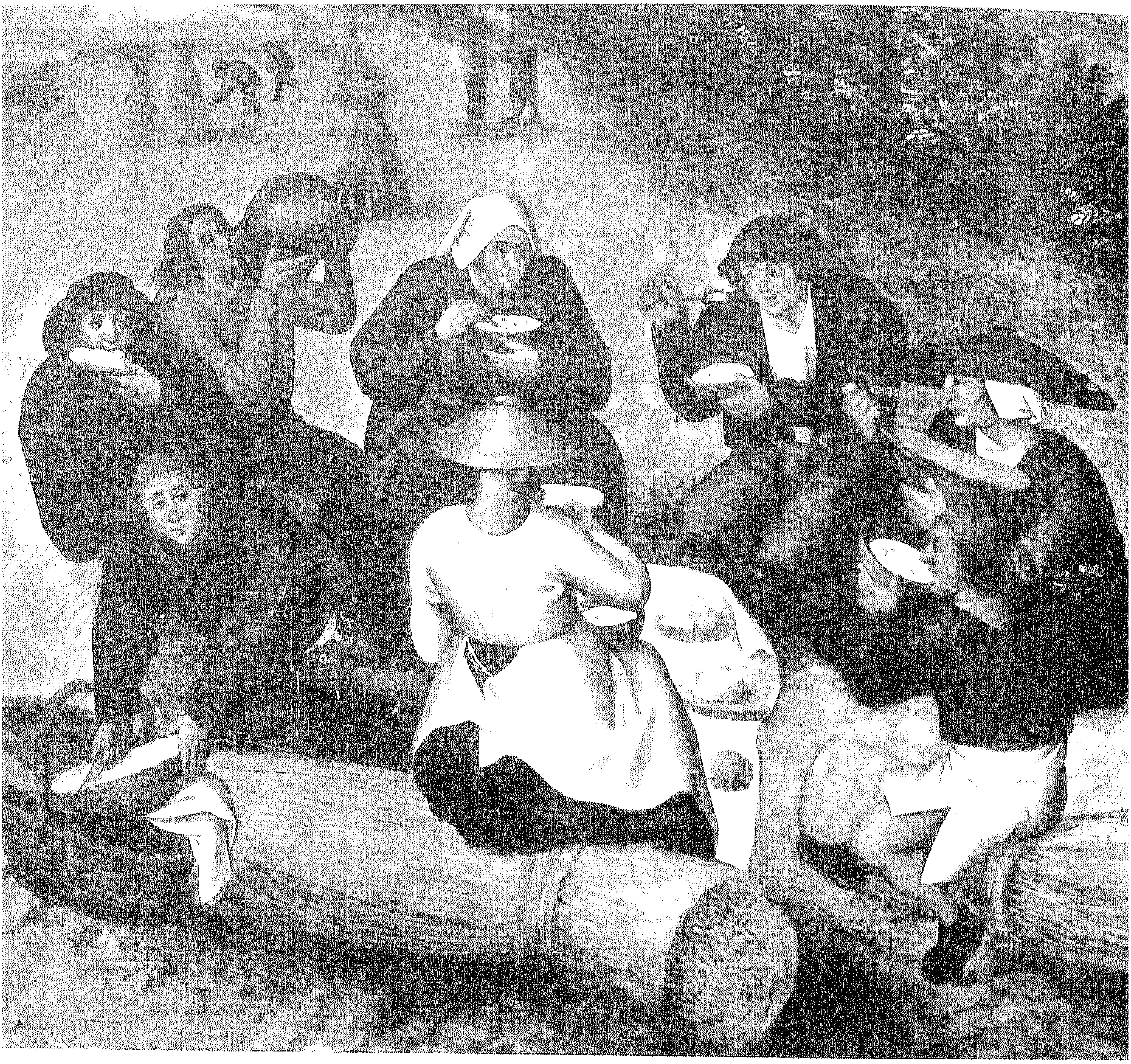

وجبة عمال الحصاد. لوحة من رسم بروجل الصغير .

المصاحب" تساى " tsai وخلاصة القول فيه إنه مزج متقن للخضروات، والصلصات، والتوابل ، وقليل من اللحم أوالسمك يقطعونه بالضرورة إلى قطع صغيرة جدا.(٥)

أما أوروبا فهي في مجموعها آكلة لحوم : منذ أكثر من ألف سنة كانت " مذابح الحيوان تحيط ببطن أوروبا "(٦) . ولقد عرفت أوروبا لقرون طويلة في العصر الوسيط الموائد المثقلة فوق طاقتها باللحوم ، وبما لذ وطاب من الأطعمة ، والأشربة ، التي أكثروا منها ما استطاعوا إلى الاكثار من سبيل ، وكانت موائد اللحم الأوروبية آنذاك جديرة بأن تقارن بموائد الأرجنتين في القرن التاسع عشر. ويرجع السبب في ذلك إلى أن أوروبا ظلت زمنا طويلا، بمناطقها الممتدة فيما وراء سواحل البحر المتوسط، أرضا توشك أن تكون خالية، فيهامساحات شاسعة يرعى فيها الحيوان على راحته، حيث تركت الزراعة إمكانات واسعة للرعى.إلا أن هذه الميزة تقلصت بعد القرن السابع عشر، كما لو كانت القاعدة العامة المتمثلة في ضرورة الاعتماد على الأغذية النباتية قد تحينت الفرصة ، ففرضت نفسها ، أو ثأرت لما حاق بها من تجاهل وإغفال، قد ثأرت لنفسها عندما تزايدت أعداد السكان في أوروبا ، على الأقل حتى منتصف القرن التاسع عشر(٧)، ولم ينقذ أوروبا من الصوم عن اللحم إلا ما حدث في ذلك الحين، وفي ذلك الحين بالذات ، من تربية الحيوان بأساليب علمية ، وورود اللحوم بكميات ضخمة من أمريكا، مملحة في البداية ثم مجمدة بعد ذلك .

وظل الأوروبى مخلصا لهذه الميزة القديمة التى كان محبا لها ، راغباً فيها، فتمسك بها ، وألح عليها في المناطق وراء البحار، منذ قيام الاتصالات الأولى لأوروبا بها: فكان السادة يتغذون على اللحم ، بل لقد أتخموا أنفسهم بها دون ما ضابط في العالم الجديد الذى غزته قطعان العالم القديم . أما في بلدان الشرق الأقصى فقد أثارت شهية الأوروبيين إلى التهام اللحوم استهجان الأهلين ودهشتهم: " وهذا رجل من القرن السابع عشر يقول ، لابد أن تكون واحدا من كبار السادة في سومطرة لتحصل على دجاجة مسلوقة ، أو مشوية، وعليك إذا أتيحت لك أن تكتفي بها طوال اليوم . و هم يقولون إن ألفين من المسيحيين (يقصدون الأوروبيين) إذا حلوا بجزيرتهم حقيقون بتجريدها في وقت قصير من البقر والطيور" (٨).

إن هذه الاختيارات الغذائية ، وما تنطوي عليه من تعبير عن تباين بين الناس، جاءت نتيجة عملية طويلة بدأت منذ زمن سحيق . بل إن ماوريتسيو Maurizio يذهب في حساباته إلى حد بعيد عندما يكتب : " في تاريخ الطعام لاتكاد ألف سنة من الزمان تحدث شيئاً من التغيير "(٩). و الحق أن ثورتين قديمتين حددتا منذ

الحصاد في الهند في القرن السادس عشر على ساحل مالابار.

زمان بعيد مصير البشر فيما يتصل بموضوع الغذاء في خطوطه العريضة. ففي أواخر العصر الحجرى القديم تحول البشر ، الذين كانوا " أكلة كل شيء"، إلى ممارسة صيد الحيوانات الكبيرة ، ونشأت لديهم تلك " النزعة الكبيرة إلى أكل اللحوم " التي سيظل مذاقها باقيا لا يتلاشى. نشأت لديهم " الحاجة إلى اللحم وإلى الدم"، أو بعبارة أخرى: نشأ ذلك" الجوع إلى الأزوت" أو إلى السماد الحيواني ، أو إذا شئنا تعبيرا أفضل " الجوع إلى البروتينيات الحيوانية"(١٠).

أما الثورة الثانية التي حدثت في الألف السابعة أو السادسة قبل التقويم الميلادى فتتمثل في الزراعة بأسلوب العصر الحجرى الحديث، أو الزراعة النيوليتية، وفي صعود أنجم الحبوب المنزرعة. و قد ترتب على ذلك اتساع رقعة الحقول الزراعية على حساب أراضى الصيد ، والأراضي التي كان يجري فيها تربية الحيوان بطريقة رخيصة التكاليف تعتمد على الأعداد الكبيرة دون ما تركيز . وتمر القرون، وتتزايد أعداد البشر الذين يضطرون إلى تناول الأطعمة النباتية ، النيئة أو المطبوخة، والتي كانت تافهة ، بلا مذاق أو نكهة في أكثر الأحوال، ومتشابهة رتيبة في كل الأحوال،

سواء منها ما استخدمت في إعداده الخميرة ، وما لم يخمر. وكانت الأطعمة النباتية تتمثل في: أصناف من الحساء، والعصيدة، والخبز .وانشطرت الإنسانية الى إنسانيتين، وقفتا على مر التاريخ ، منذ ذلك الحين، إحداهما من الأخرى موقف المعارضة: إنسانية تأتلف من القلة النادرة آكلي اللحوم، وإنسانية تأتلف من أعداد غفيرة لا حصر لها من آكلي الخبز، والعصيدة، والجذور، والدرنات المطبوخة. و كان " حكام الأقاليم الكبيرة " في الصين في الألف الثانية " يوصفون بأنهم ... من أكلة اللحم "(١١). أما في بلاد اليونان القديمة فكانوا يقولون " إن من يأكلون عصيدة الشعير لاتكون لديهم أى همة أو شجاعة في الحرب"(١٢). وهذا هو واحد من الإنجليز يؤكد بعد قرون وقرون الرأى نفسه : " إننا نجد لدى الرجال الذين يأكلون اللحم من الشجاعة أكثر مما نجد لدى أولئك الذين يقنعون بالأطعمة الخفيفة"(١٣) .

هكذا كانت الحال في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، ولهذا فإن اهتمامنا سيتركز بالدرجة الأولى على أطعمة الغالبية ، أى على الأطعمة التي تنتجها الزراعة ، والزراعة هى أقدم الصناعات كلها . وكانت الزراعة منذ البداية تركز في كل عصر من عصور التاريخ ، أو تضطر في كل عصر من عصور التاريخ إلى التركيز على نبات بعينه، يكون هو النبات السائد ، ثم تقيم كيانها كله انطلاقاً من هذا الاختيار التفضيلي الأولي الذي يحدد كل شيء، أو كل شيء تقريباً فيما بعد. وقد أوتى ثلاثة من هذه النباتات حظا باهراً، وهي : القمح ، والأرز ، والذرة ، وما زالت هذه النباتات الثلاثة تتنازع على الأرض الصالحة للزراعة في عالم اليوم، إنها " نباتات الحضارة "(١٤) التي قامت على نحو شديد العمق بصياغة نظم الحياة المادية، بل والحياة النفسية للبشر أحيانا ، بحيث أصبحت بنْيات متماسكة، توشك أن تكون راسخة لا تهتز أركانها. ويدور هذا الفصل من الكتاب أساسا حول تاريخها ، حول " حتمية الحضارة "(١٥) التى ناءت بكلكلها على الفلاحين، وعلى الحياة العامة للبشر. ان تتبع هذه الأصناف من الحبوب، صنفا بعد صنف ، يعنى الدوران حول العالم .

القمـــح

القمح blé هو بالدرجة الأولى الغرب، ولكن القمح ليس الغرب وحده دون ما سواه. وكان القمح في القرن الخامس عشر يجاور ، في سهول الصين الشمالية ، نباتين آخرين هما الدخن millet ، والذرة السكرية sorgho ، وكانوا " يزرعونه هناك في حفر " ، ولم يكونوا يحصدونه بطريقة الحش ، بل " كانوا يقتلعونه بساقه " مستخدمين المعزقة، وكانوا يصدرونه الى بكين عبر نهر " يون ليانج هو " ، ومعنى هذا الإسم النهر حامل

الحبوب ". كذلك كان القمح ينمو في أماكن متفرقة في اليابان، وجنوب الصين ، حيث كان الفلاحون ـ استنادا إلى ما ذكره الأب دى لاس كورتيس في عام ١٦٢٦ ـ ينجحون أحيانا في إنتاج محصول من القمح بين محصولين من الأرز(١٦). وكان القمح شيئا ثانويا لأن الصينيين " كانوا يجهلون طريقة إعداد عجين الخبز جهلهم بطريقة شي اللحم "، وكان " القمح في الصين دائما رخيص الثمن لأنه كان محصولا من المحاصيل الثانوية " . وكانوا يصنعون منه أحيانا شيئا شبيها بالخبز ، يطهونه على البخار المتصاعد من إناء به ماء يغلي ، ويضيفون إليه " البصل المفرى "، وكانت الفطيرة الناتجة عن هذه العملية ـ حسب أقوال رحالة قادم من الغرب ـ عبارة عن " عجينة ثقيلة جدا تكبس على المعدة كالحجر "(١٧) . ونجدهم في كانتون في القرن السادس عشر يصنعون القراقيش ، ولكنهم لا يأكلونها ، بل يصدرونها إلى ماكاو، والفيليبين . كذلك كان القمح يمد الصينيين بالدقيق ليصنعوا منه الشعرية ، وألوانا من العصائد ، والفطائر التي يستخدمون فيها شحم الخنزير ، ولكنهم لم يصنعوا منه خبزا قط(١٨).

أما الهند ، فنجد فيها قمحا ممتازا ينمو في الوديان اليابسة في حوض نهرالسند ، وحوض نهر الكنج الأعلى، ونجد عمليات مقايضة تتم في ربوع الهند كلها، حيث يبادلون الأرز بالقمح، تروح وتغدو بهما قوافل هائلة من الثيران، ونجد في إيران نوعا من الخبز البسيط عبارة عن رقاق بدون خميرة ، كانوا يبيعونه على نطاق واسع ، وبسعر منخفض ، وكان إنتاج القمح الذي يصنع منه هذا الرقاق يتطلب من الفلاحين في أكثر الأحيان جهودا هائلة مضنية . ففي المنطقة المتاخمة لأصفهان ، على سبيل المثال ، كانت " الأرض التي تزرع بالقمح صلبة التربة ، يحتاج الفلاحون إلى أربعة ثيران ، بل ربما الى ستة ثيران مكدنة ، لجر المحراث فيها، وكان الفلاحون يجلسون صبيا على النير المثبت فوق الثورين الأماميين ليحثهما بالعصا على السير "(١٩). ولنضف هنا معلومة يعرفها الجميع ، وهي أن القمح كان دائماً موجوداً في كل المناطق المحيطة بالبحرالمتوسط ، حتى في الواحات الصحراوية ، وبخاصة في مصر حيث كانت عمليات الزراعة ، نتيجة لفيضان النيل في الصيف ، تتم في الشتاء ، بعد انحسار مياه الفيضان عن التربة ، وفي مناخ لا يكاد يناسب النباتات الاستوائية، ولكنه يناسب القمح. كذلك نجد القمح في إثيوبيا .

وانطلق القمح من أوروبا ، فغزا العديد من المناطق البعيدة.فقد حمله الاستعمار الروسي نحو الشرق إلى سيبريا، إلى ما وراء مدينتي . تومسك وإركوتسك، وربط الفلاح الروسي منذ القرن السادس عشر مصيره بأراضي أوكراينا السوداء التي انتهت فيها الفتوحات المتأخرة للأمبراطورة كاترين الثانية في عام ١٧٩٣ . ولكن القمح كان قد حقق انتصاره في هذه الربوع قبل ذلك التاريخ، ولكن انتصاره كان آنذاك في وقت

غير ملائم ، فقد تعفن المحصول دون أن يجد من ينقله ، ويحدثنا تقرير يرجع إلى عام ١٧٧١ عن هذا الوضع قائلا: " تكدس القمح الآن في منطقتي پودوليا وڤولهينيا على هيئة أكوام ضخمة من القمح تحاكي البيوت في ضخامتها تكفي لإطعام أوروبا كلها، وتعرض للتلف "(٢٠) . وتكرر الوضع نفسه في عام ١٧٨٤ ، كان المحصول بالغ الوفرة ، ولكنه تعرض لكارثة التعفن في مكانه لتعذر نقله . لقد انخفض سعر القمح في اوكرانيا حتى انصرف كثير من ملاك الأرض عن زراعته ـ هذا ما يكتبه وكيل تجارى فرنسي آنذاك(٢١) ـ ولكن وفرة المحصول كانت ضخمة على الرغم من ذلك ، بحيث أطعمت جزءاً كبيراً من تركيا ، وحققت كميات من التصدير إلى أسبانيا ، وإلى البرتغال بل وإلى فرنسا أيضا عن طريق ميناء مارسيليا الذى كانت سفنه تشحن قمح البحر الأسود ، أو عن طريق جزر بحر إيجه، أو عن طريق شبه جزيرة القرم، على سبيل المثال من ميناء جوزليف الذي أصبح اليوم يتسمى باسم أوپاتوريا ، نظرا لأن المرورمن خلال المضايق التركية كانت تكتنفه الصعاب التي يمكننا أن نتخيلها .

والحقيقة أن القمح الروسي ستدق أجراس عظمته فيما بعد ، ففي عام ١٨٠٣ ثارت ثائرة ملاك الأرض الإيطاليين عندما وصلت إلى إيطاليا السفن المحملة بالقمح الأوكرايني ، واعتبروا استيراده كارثة تتهدهم . ولم ينس الفرنسيون هذه الواقعة ، فنراهم في عام ١٨١٨ يستنكرونها في مجلس النواب الفرنسي، بعد أن انقضت عليها سنوات عديدة(٢٢) .

ومن أوروبا اجتاز القمح المحيط الأطلسي قبل هذه الأحداث بوقت طويل، ولكنه ظل في ربوع أمريكا، التى استعمرتها الشعوب القادمة من شبه جزيرة ايبريا، يواجه ضروبا من الصعاب الشبيهة بتلك التي كان الفاتحون أنفسهم يعانون منها، متمثلة في ظروف مناخية قائظة ، وحشرات فتاكة ، ومزروعات منافسة (الذرة والمنيوق) .وكان على القمح أن ينتظر حينا حتى يحقق ألوانا من النجاح في شيلي فيما بعد على شطآن نهر سانلوران ، وفي المكسيك ، ومزيداً من النجاح في المستعمرات الإنجليزية بأمريكا في القرن السابع عشر ،وبخاصة في القرن الثامن عشر. فلما تم له ذلك أخذت السفن الشراعية المنطلقة من ميناء بوسطن تحمل صنوفا من الدقيق ، والقمح إلى جزر الأنتيل السكرية ، ثم تتجاوزها بعد ذلك إلى أوروبا، والبحر المتوسط. وكانت السفن الأمريكية منذ عام ١٧٣٩ تنزل شحنات القمح، والدقيق في مرسيليا(٢٣). وانتصر القمح في الأرچنتين في القرن التاسع عشر ، وفي مناطق من أفريقيا ، وفي استراليا، وفي مروج كندا، والميدل ويست، وكان انتصاره هذا شاهداً على توسع أوروبا .

القمح والحبوب الثانوية

ونعود مرة أخرى إلى أوروبا . وننظر إلى القمح نظرة فاحصة مدققة فإذا هو يتجلى أمام عيوننا على حقيقته : إنه نبات معقد. فليس القمح صنفاً واحداً ، بل هناك أصناف مختلفة من القمح ، وهناك بعد ذلك نوعيات مختلفة . وأفضل أصناف القمح يسمى في فرنسا "رأس القمح " la téte، يليه القمح المتوسط ، والقمح الصغير، وهو خليط من القمح، وحبوب أخرى ، غالبا ما تكون الجاودار . والقمح لا يزرع وحده. إنه نبات قديم ، ولكنهم كانوا يزرعونه جنبا إلى جنب نبات أقدم منه هو: العلس épeautre، والعلس قمح حبته مكسوة بقشرة ، نجده في إيطاليا في القرن الرابع عشر، ونجده حول عام ١٧٠٠ في منطقة الألزاس ، وفي منطقة اليڤالتس في ألمانيا ، وفي منطقة شفابيا في المانيا أيضا، وفي الهضبة السويسرية ، وكانوا يستخدمونه هناك في صناعة الخبز، كذلك نجده في منطقة الجلدرلاند Gelderland الهولندية ، وفي إمارة نامور Namur الفلمنكية (وكانوا يستخدمونه هناك خاصة مثل الشعير علفا للخنازير، ولصناعة البيرة) ، كذلك نجده حتى مطلع القرن التاسع عشر في وادي نهر الرون(٢٤) .

ويحتل الدخن millet مكانا أكبر من المكان الذى يحتله العلس(٢٥). وإذا كانت مدينة البندقية قد نجت في عام ١٣٧٢ من الحصار الذى فرضته عليها چنوة فالفضل في ذلك يرجع إلى الدخن الذى كانت تخزنه في صوامعها. وكانت إمارة البندقية تفضل تخزين الدخن الذى يتميز بطول تحمله للتخزين (لفترة قد تمتد إلى عشرين عاما) في مدنها العسكرية الحصينة ، في الأراضي الخاضعة لها في عمق القارة. وكان الدخن هو الغلة التي يمونون بها الحصون القائمة في دالماسيا، وفي جزر شرق البحر المتوسط إذا عز القوت(٢٦). وظل الدخن يزرع في القرن الثامن عشر في إقليم جاسكونيا ، وفي ايطاليا، وفي وسط أوروبا. والدخن غذاء خشن كل الخشونة. نستنتج ذلك من التعليق الذى كتبه واحد من اليسوعيين في أواخر القرن الثامن عشر معبرا عن إعجابه باستغلال الصينيين الجيد للأنواع المختلفة من الدخن، يقول مندهشا : "مع كل ضروب التقدم التي أحرزناها في علوم السلوك الرقيق، والعجرفة ، والتفاهة، فإن فلاحينا في إقليم جاسكونيا، والمنطقة المحيطة بمدينة بوردو لم يحرزوا على مدى ثلاثة قرون إلا القليل من التقدم في استغلال ما لديهم من دخن في صناعة غذاء أقل خشونة، وأقل ضررا بالصحة "(٢٧) .

وللقمح في الحقل رفاق آخرون أكثر أهمية .هناك الشعير orge الذى يستخدم في البلاد الواقعة إلى الجنوب من فرنسا علفا للخيول. فإذا ساء محصول الشعير،

استحالت الحرب، تلك عبارة كان من الممكن قولها إبان القرن السادس عشر وبعده على طول حدود المجر، حيث كانت المعارك بين الأتراك والمسيحيين تعتمد على الفرسان، ولا يتصور لها أن تجرى دونهم ، وكيف يخوض الفارس غمار المعركة وحصانه لا يجد ما يكفيه من شعير (٢٨). فإذا اتجهنا نحو الشمال وجدنا أن القمح الغليظ يترك مكانه لأصناف القمح الرقيقة ، ووجدنا الشعير يترك مكانه للشوفان avoine، وأكثر منه للجاودار seigle الذى أتى إلى البلاد الشمالية متأخرا، وليست هناك دلائل على أنه كان موجودا هناك قبل الغزوات الكبرى التي شهدها القرن الخامس: ومن المحتمل أن يكون الجاودار قد دخل هناك ، وتطور تطورا موازيا للأخذ بالدورة الثلاث سنوية، تلك الدورة التي كانت تستهدف تحقيق أفضل المحاصيل ، وأقل إجهاد للأرض(٢٩). وكانت السفن تشحن في موانيء بحر البلطيق بالجاودار بالقدر الذى كانت تشحن فيه بالقمح ، وكانت السفن تذهب إلى هناك منذ وقت مبكر، وتزايدت أعدادها ورحلاتها نتيجة لما كانت أوروبا تعانيه من جوع، وكانت تتجه بعد شحنها إلى بحر الشمال، وبحر المانش ، وإلى المحيط بعد ذلك، وإلى الموانيء الإيبيرية، ثم أخذت تتجه على نحو مكثف الى البحر المتوسط بعد الأزمة الكبرى في عام ١٥٩٠(٣٠) . كانت حبوب الجاودار تستخدم في صناعة الخبز ، وظلت تستخدم في صناعته حتى القرن الثامن عشر، وبخاصة في البلاد التي يعز فيها القمح . وهذا هو الطبيب لوى ليميرى Louis Lemery يعبر في عام ١٧٠٢ عن رأيه في أن " خبز الجاودار لا يغذى قدر خبز القمح ، كذلك فهو يتعب البطن الى حد ما "، ويضيف قوله " أما خبز الشعير فهو منعش، ولكنه يغذى أقل من خبز القمح، ومن خبز الجاودار. وكان أهل الشمال هم وحدهم الذين يصنعون خبز الشوفان، و يقول عنهم إنهم " ألفوه على نحو جيد "(٣١).

وشهد القرن الثامن عشر حدثا فظيعا تمثل في تقسيم الأرض الصالحة لزراعة الحبوب في فرنسا طوال القرن إلى نصفين متساويين تقريبا، نصف لحبوب الخبز (أى الحبوب التي تصلح للخبز وهي القمح والجاودار) ونصف للحبوب الرفيعة (وهي الشعير والشوفان والبرة السوداء sarrasin والدخن)، كما تمثل في أن الجاودار أصبح مساويا في القيمة للقمح في عام ١٧١٥ وأنه تفوق عليه بعد ذلك فأصبح يساوى ضعف قيمته في عام ١٧٩٢(٣٢).

أما الأرز فقد جلبه الغرب منذ العصور الأغريقية القديمة من مناطق المحيط الهندى، واستورده التجار في العصور الوسطى من موانيء البحر المتوسط، و من أسبانيا التي كان العرب قد أدخلوا إليها زراعته منذ وقت مبكر: وفي القرن الرابع عشر كان أرز ميورقة يباع في أسواق منطقة شمبانيا في فرنسا،

وكان أرز بلنسية يصدر حتى إلى الديار الهولندية(٣٣). و دخلت زراعة الأرز في إيطاليا منذ القرن الخامس عشر وكان يباع رخيصا في أسواق فيراری، وكان الإيطاليون يشبهون من يضحك كثيراً بمن تناول حساء الأرز يدفعهم الى هذا التشبيه أن كلمة ريزو تعنى في وقت واحد الضحك والأرز فيقولون :

Che aveva mangiato la minestra di riso

وانتشر الأرز بعد ذلك في ربوع شبه الجزيرة الإيطالية، وبث الحياة في أطيان فسيحة بأقاليم ايطاليا القديمة: لومبارديا ، وبييمونتي، بل والبندقية، وروماني، وتوسكانيا ، ونابلي، وصقلية. فلما نجحت زراعة الأرز في هذه المناطق، في ظل الرأسمالية، طبعت اليد العاملة الزراعية الكادحة بالطابع البروليتارى، وأصبح الأرز أرزاً مراً il riso amaro نظراً للمرارة التي كان العمال الزراعيون يذوقونها في زراعته الشاقة. كذلك احتل الأرز فيما بعد مكانا هاما في ربوع البلقان التركية(٣٤). وكسب أرضاً في أمريكا ، حتى أصبحت كارولينا في أواخر القرن السابع عشر مركز تصدير هام للأرز ، وكانت انجلترا تقوم مقام المحطة الوسيطة(٣٥).

وأيا كان الأمر فقد ظل الأرز طعاما ثانويا لا يغرى الأغنياء ،الذين ربما أكلوه بشيء من الرضا إذا قدم إليهم في صورة طبق الأرز باللبن. أما السفن التي كانت تشحن بالأرز في الاسكندرية ، في عام ١٦٩٤ ، وفي عام ١٧٠٩، وتفرغ شحناتها في فرنسا، فكانت تحمل " غذاء الفقراء"(٣٦). وكانوا في البندقية، في زمن القحط، يخلطون دقيق الأرز بأنواع الدقيق الأخرى لصناعة الخبز الشعبي(٣٧).أما في فرنسا فكان الأرز يستخدم غذاء في المستشفيات، وفي القشلاقات ، وعلى ظهور السفن. ونجده في باريس في الجرايات الشعبية التي كانت الكنائس توزعها مخلوطا بهموك اللفت أو القرع أو الجذر ، " أرزا اقتصاديا" مسلوقا، يطهونه في أوان لم يكونوا يغسلونها على الإطلاق ، حتى لا يضيعوا البقايا اللصيقة و" قعر الحلة "(٣٨). وكان الحكماء يوصون بخلط الأرز بالدخن لصناعة خبز رخيص الثمن يخصص للفقراء " حتى يشبعوا، ويصمدوا من وجبة إلى وجبة ." والشيء بالشيء يذكر : لقد كان الأرز فى أوروبا مناظرا لما كانوا يقدمونه في الصين للفقراء " الذين لا يستطيعون شراء الشاى" ، كانوا يقدمون إليهم: الماء المغلى، وقد ألقوا فيه حبات من الفول ، وفتاتا من الخضروات، ثم يقدمون إليهم بعد ذلك كبيبة مصنوعة من " الفول المهموك المعجون " ... فول هنا ، وفول هناك ... ثم فول مرة أخرى " يصنعون منه ما يشبه الصلصة التي تغمس فيها الأطعمة " ... ولنا أن نتساءل عن هذا الفول، هل هو فول الصويا؟ أيا كانت الإجابة ، فقد كان الطعام الذي يصنعونه منه طعاما وضيعا خصص لسد جوع الفقراء مثله مثل الأرز والدخن في الغرب(٣٩).

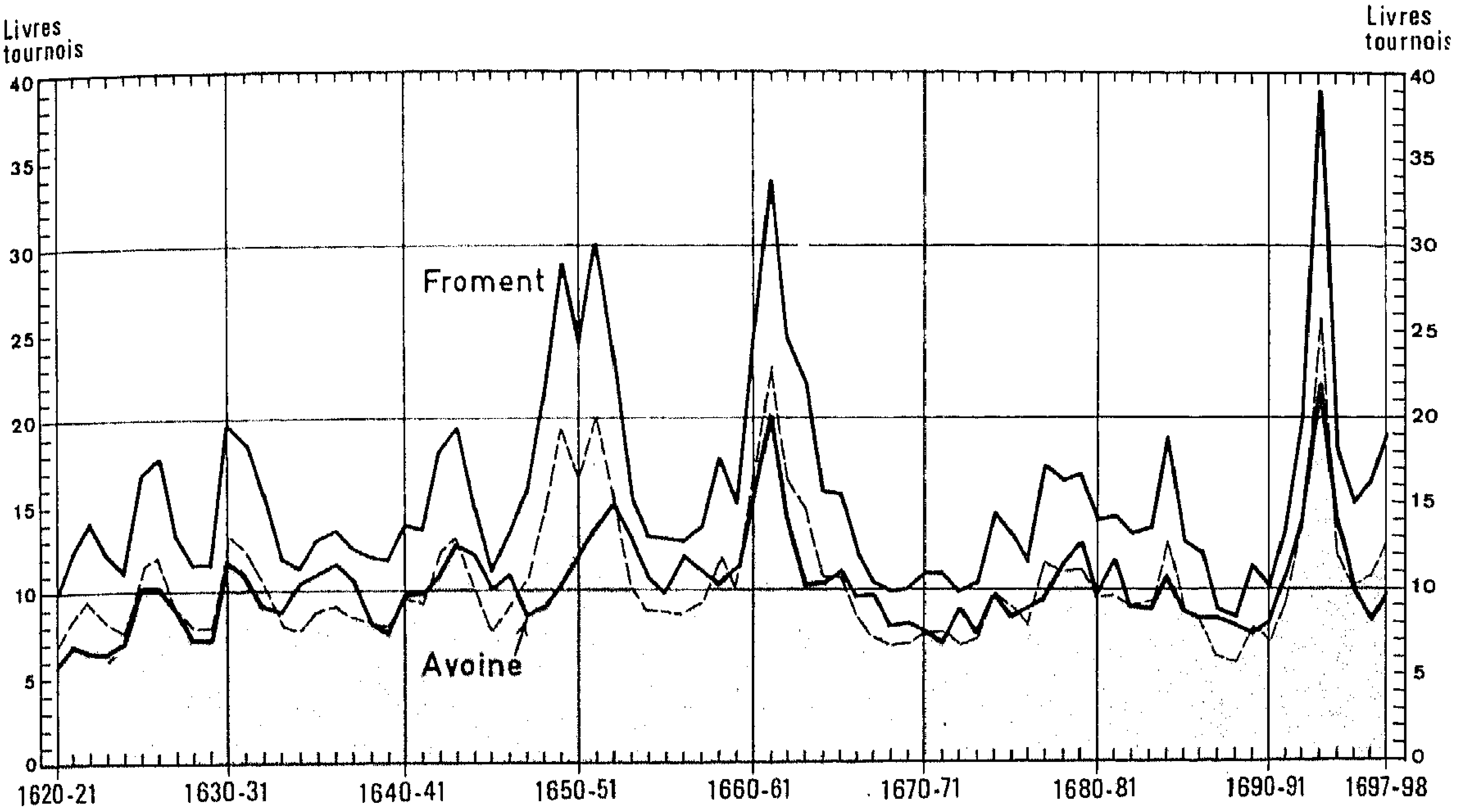

١١. ثمن القمح والشوفان طبقا لقائمة البضائع والأسعار الباريسية .
الخط المنقط يمثل المنحنى الذى يدل على ثمن الشوفان مستنتجا من التناسب الذي أخذ به دوبريه دي سانمور Dupré de Saint-maur والذي رأي أنه تناسب " طبيعي ".(سعر الشوفان ثلثا سعر القمح)

وأيا كان الأمر فإننا نجد على الدوام " علاقة " تناسب لا ريب فيها تقوم واضحة بين القمح ، والحبوب التكميلية . والمنحنيات البيانية التي يمكننا رسمها اعتمادا على الإسعار الإنجليزية(٤٠) منذ القرن الثامن عشر تؤكد هذه العلاقة: فهذه الأسعار ترتبط بعضها بالبعض بعلاقة من نوع التضامن في حالة الانخفاض .أما في حالة الارتفاع فإن سمة التضامن أو الإجماع تتلاشى إلى حد ما لأن الجاودار، وهو غذاء الفقراء ، يرتفع سعره في أوقات القحط ارتفاعاً حاداً ، وقد يتجاوز سعره سعر القمح الجيد نفسه، أما الشوفان فيتأخر عن الركب ، ويظل في وضع التأخر. " فأنت ترى ثمن القمح يرتفع دائمًا ارتفاعاً كبيراً يفوق ثمن الشوفان، هذا ما تبينه دوبريه دى سانمور في عام ١٧٤٦ ورأى فيه {نتيجة} {للعادة التي اعتدناها ، فنحن نعيش على خبز القمح} {على الأقل بالنسبة للأغنياء: وهذه العبارة التصحيحية الاضافية من عندنا } وكان الأحرى بنا أن ندفع بالخيول لترعى في مراعي الريف عندما يرتفع سعر الشوفان."(٤١) ونحن عندما نقرأ هنا كلمتي: القمح والشوفان ندرك أن المقصود هو: البشر والخيول. ودوبريه دي سانمور Dupré de Saint-Maur يتحدث عن التناسب السوي (وهو يقول التناسب "الطبيعي" مثل الاقتصاديين القدامي الذين كانوا يحرصون مهما كان الثمن على أن يكون هناك تناسب طبيعي هو ١ إلى ١٢ بين

الذهب والفضة) والرأي عنده أن التناسب السوي بين ثمن القمح، وثمن الشوفان هو٣ إلى ٢. " في كل الحالات التي نجد فيها أن المكيال من الشوفان [...] يباع في وقت بعينه، بسعر يقل قليلا عن ثلث ثمن المكيال من القمح فإن الأمور تكون في تناسبها الطبيعي." فإذا اختل هذا التناسب كانت تلك علامة على المجاعة، وكلما كان الفارق كبيراً ، كانت المجاعة شديدة . " في عام ١٣٥١ كان ثمن المكيال من الشوفان يساوى ثمن ربع مكيال من القمح، و في عام ١٧٠٩ كان يساوي: الخمس، وفي عام ١٧٤٠: الثلث. وهكذا فإن الغلاء كان في عام ١٧٠٩ أشد منه في عام ١٣٥١، وكان في عام ١٣٥١ أشد منه في عام ١٧٤٠..."

وربما كان هذا التفكير مطابقاً للواقع الذى كان ماثلا أمام عينيه آنذاك . أما أن نعطيه قوة القانون بالنسبة للفترة من عام ١٤٠٠ إلى عام ١٨٠٠ كلها فشيء آخر . والأرجح أن ثمن الشوفان كان في فرنسا بصفة عامة بين عام ١٥٩٦ وعام ١٦٣٥، وربما في أكبر جزء من القرن السادس عشر ، نصف ثمن القمح(٤٢). ولم يحدث إلا في عام ١٦٣٥ أن كان التناسب" طبيعياً " أى ٣ إلى ٢. ولو اتبعنا دوپريه دى سانمور، لسهل علينا كل السهولة أن نكتشف الغلاء الخفي الذى ساد القرن السادس عشر، وأن نربط بينه وبين الاضطرابات التي تكررت آنذاك ، إلى أن عادت الأوضاع السوية نحو عام ١٦٣٥ عندما تحقق سلام " داخلي " نسبي . كذلك يمكننا أن نتصور أن فرنسا في عصر ريشيليو ، عندما دخلت الحرب التي تسميها كتبنا المدرسية حرب الثلاثين سنة ، ارتفع سعر الشوفان بطبيعة الحال، فليس من الممكن بدون الشوفان أن تكون هناك خيول ، وفرسان ، ومدافع تجرها الخيول .

ولم تكن الحبوب الصالحة لصناعة الخبز ، إذا ضمت بعضها إلى البعض الآخر ، قادرة على تحقيق الوفرة. ولهذا كان على الإنسان الغربي أن يعمل حساب الاختناقات المزمنة ويتكيف معها ، وأن يلتمس ما يعوض به النقص في القمح . فلجأ أول ما لجأ إلى تعويض القمح بأنواع من البقول ، أو بما يسمى بأشباه الدقيق ، من قبيل ثمار أبي فروة cha^taignes، أو البرة السوداء sarrasin التي كانوا يزرعونها في منطقة نورماندیا، وفي بريتانيا منذ القرن السادس عشر ، بعد الانتهاء من حصاد القمح، والتي كانت تنضج قبل الشتاء(٤٣). ويصح أن نشير في هذا المقام بإيجاز إلى أن البرة السوداء ليست من النجيليات بل من البطاطيات . و لكن هذا التفريق ليس مهما. المهم أن الناس عرفوا النبات باسم البرة السوداء أو القمح الأسود. أما أبو فروة فيعطي دقيقا كانوا يصنعون من ه رقاقا يطلقون عليها في جبال السيڤين Cévennes وفي جزيرة كورسيكا اسما جميلا هو " خبز الشجر ". وكانت ثمار أبي فروة تلعب في منطقة أكيتانيا (حيث كان الناس يسمونها كبيبة)

وفي غيرها من المناطق ، وفي أحيان كثيرة ، الدور الذى ستلعبه البطاطس في القرن التاسع عشر(٤٤). ولقد كان لاستخدام أبي فروة على هذه الصورة في بلاد جنوب أوروبا أهمية كبيرة تفوق ما نعرفه عنها بصفة عامة . كانت هذه هي الحال في چاراندیلیا Jarandilla قرب دير يوسته Yuste في منطقة الاستريمادورا Estrema-dure الأسبانية، حيث أمضى الملك كارل الخامس - شارلكان - السنوات الأخيرة من حياته ، ورئيس خدمه يؤكد هذه الحقيقة حيث قال في عام ١٥٥٦ : " الشيء الطيب هنا هوأبو فروة لا القمح ، والقمح الذى يوجد هنا سعره مرتفع ارتفاعا فاحشا "(٤٥).

أما استخدام ابي فروة غذاء في منطقة الدوفينيه Dauphiné الفرنسية فلم يلق قبولا من أهلها ، الذين نقموا منه ، واعتبروه شيئا نابيا ، فقد اضطر الناس في شتاء عام ١٦٧٤ - ١٦٧٥ الى أكل " ثمار أبي فروة وجذورها " وكانت تلك علامة على مجاعة بشعة . واقرأ ما كتبه ليميرى Lemery في عام ١٧٠٢ معبرا عن استنكاره ودهشته من استخدام أبي فروة بديلا للقمح : " ومازالت هناك مناطق يستخدم فيها الأهلين هذه الثمار على هذا النحو "(٤٦).

وهناك بقول تعتبر حبوبا تكميلية حقيقية وهي : الخضروات المجففة ، والعدس ، والفول ، والفاصوليا الناشفة ، واللوبيا الناشفة والحمص ، وهي مصادر رخيصة الثمن للبروتين .إنها المواد الغذائية الصغيرة menudi أو minuti كما تسميها وثائق البندقية. فإذا تعرضت قرية نائية من القرى التابعة للبندقية لعاصفة هوجاء فأتت على المخزون من المواد الغذائية الصغيرة فيها، وهو ما كان يحدث من حين لآخر في الصيف، كانت تلك كارثة تستدعي فور العلم بها تدخل السلطات الڤينيسية. فقد كانت هذه المواد الغذائية الصغيرة تعتبر بمثابة " حبوب "، وهناك مئات ومئات من الوثائق تشهد على ذلك و تضع هذه المواد الغذائية الصغيرة على قدم المساواة مع القمح نفسه. فنقرأ مثلا أن هذه السفينة أو تلك ذهبت الى ميناء الإسكندرية المصرى قادمة من البندقية، أو من راجوزة لتحمل شحنة من القمح أو من الفول. وهذا هو قبطان "جرانادا" يكتب(٤٧) ما معناه أنه لم يجد ، بعد لأي ، ما يسد حاجة الأسطول من الحمص والفول ، وأنه دفع فيهما " نفس سعر القمح " (٢ ديسمبر ١٥٣٩) .وهناك رسالة بالأسبانية ، أرسلها كاتبها من حصن قائم في أفريقيا ، يرجع تاريخها إلى عام ١٥٧٠ تقريبا ، يفهم منها أن الجنود يفضلون الحمص على القمح والقراقيش(٤٨). وكان مكتب القمح بالبندقية Biave يأخذ في اعتباره دائماً ، وهو يتنبأ بالمحاصيل ويقيمها ، المجموع الكلي للغلال والبقول الناشفة جميعا . فهو يذكر في عام ١٧٣٩ ، على سبيل المثال ، أن محصول القمح جيد ، ولكن المواد الغذائية الصغيرة ، أو الحبوب الصغيرة ، محاصيلها ضعيفة . وكانت المواد الغذائية الصغيرة ، أو الحبوب

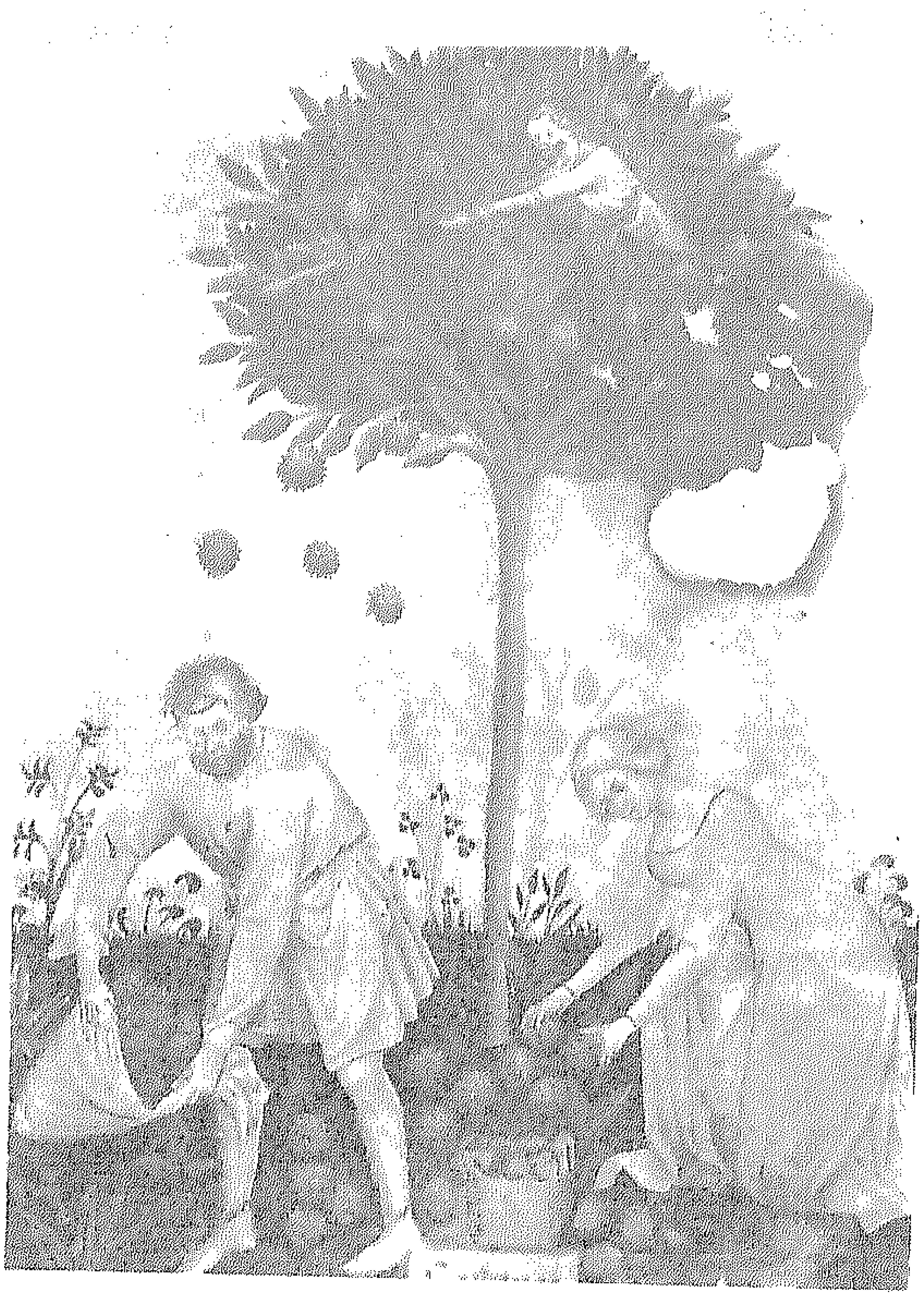

محصول أبي فروة في القرن الرابع عشر . رسم مأخوذ عن كتاب " تقويم الصحة " (وهو كتاب مصور نقل عن العربية الى اللاتينية وعرف باسم Tacuinum sanitatis in medicina)

الصغيرة تشمل في ذلك العصر اللوبيا والدخن. وقد كشفت الحفائر التي أجريت في قرى منطقة بوهيميا على آثار العصر الوسيط المبكر عن غذاء يعتمد على البقول أكثر من اعتماده على القمح. ونشرة الأسعار التي كانت تصدر في ميناء بريمن الألماني في عام ١٧٥٨ كانت تورد على التوالي أسعار الحبوب والبقول. كذلك كانت نشرات الأسعار في نامور، ولوكسمبورج، في القرنين السابع عشر، والثامن عشر ،تذكر حالة السوق، وتبين أن هناك، بجانب القمح، حبوب الجاودار، والبرة السوداء، والشعير، والشوفان، والعلس ، والبقول(٥٠).

القمح والدورات الزراعية

لم يكن من الممكن أن يزرع القمح في أرض واحدة أكثر من سنتين متواليتين دون أن تصاب بضرر كبير . لذلك فقد تصور الرجل الغربي عندما نزل الصين أنه يرى معجزة كبيرة عندما رأى أن الأرز يزرع مرات متوالية بلا نهاية " في نفس

عمليات الحرث . رسم منمنم مأخوذ من " تقويم العذراء مريم " ، يرجع الى القرن الرابع عشر.

الأرض ـ هذا ما كتبه الأب دى لاس كورتيس de Las Cortes في عام ١٦٢٦ ـ مضيفا أنهم لا يتركون الأرض ترتاح عاما كما نفعل نحن في أسبانيا "(٥١) هل هذا ممكن ؟ هل هذا شيء يمكن تصديقه ؟ إن القمح في أوروبا ، وفي كل مكان يزرع فيه ، ينبغي نقل زراعته عاما بعد عام من مكان إلى مكان ، و لابد لهذا من أن تخصص له مساحة كلية تساوى مثلي أو ثلاثة أمثال المساحة التي يشغلها بالفعل ، بحيث تدور الزراعة دورة ، ويعود القمح إلى " نفس الأرض" التي تركت لترتاح أو لتستجم عامين أو ثلاثة أعوام ، ومن هنا فإن القمح يوضع في نظام زراعي ذى فترتين أو ثلاث فترات .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة أن أوروبا يتقاسمها نظامان زراعيان. باستثناء بعض المناطق الضيقة التي تزرع زراعة متقدمة جدا ، ولا تترك الأرض فيها لترتاح أو تستجم. ففي جنوب أوروبا يخصص للقمح ، أو للحبوب المستخدمة في صناعة الخبز، نصف الأرض الصالحة للزراعة ، ويترك النصف الأخر ليرتاح ، ويستخدمون في أسبانيا كلمة barbechos للأرض التى تترك لترتاح. أما في شمال أوروبا فيقسمون الأرض الصالحة للزراعة إلى ثلاثة أقسام : أولا : أرض عروة الشتاء، ثانيا: أرض عروة الربيع ، حيث يتم البذر في الربيع (ويطلقون عليها أسماء مختلفة مشتقة من "شهر مارس" أو من" الشهر الثالث " أومن " صيام ما قبل عيد الفصح ") وثالثا: الأرض التي تترك لترتاح . إلى وقت قريب كان الزمام في منطقة اللورين، حول القرية التي تحيط بها أراضى الزراعة، يمتد على هيئة الدائرة إلى حدود الغابات القريبة ، وينقسم إلى ثلاثة قطاعات متقاربة : قطاع للقمح ، وقطاع للشوفان، وقطاع للراحة يطلقون عليه اسما نعربه إلى أرض الاستجمام versaines. وتجرى عملية الزراعة في تسلسل وتتابع ،حيث يأخذ القمح مكان أرض الاستجمام، وينزرع الشوفان في الأرض التي كان فيها القمح ، وتتحول أرض الشوفان إلى أرض استجمام . وهكذا تنصلح الأرض في دورة ثلاث سنوية: وفي السنة الثالثة نعود إلى الوضع الذى كان قائما في السنة الأولى .

هناك إذن نظامان، أحدهما ، وهو نظام الثلاث سنوات ، يتيح للأرض المنزرعة بالقمح مزيدا من الراحة. أما النظام الثاني ، وهو نظام السنتين ، فهو يهدف إلى زيادة مساحة الأرض المنزرعة بالقمح ، على فرض أنها تزرع كلها بالقمح دون ما سواه ، وهو ما لا يحدث. ويختلف قمح جنوب أوروبا عن قمح شمالها ، أما فى الجنوب فتمتاز حبة القمح بأنها أغنى بالجلوتين ، وأما في الشمال فالغلة أوفر ، تزيد من وفرتها نوعية الأرض ، والظروف المناخية .

ولكن هذا التقسيم الى نظامين ، وإلى شمال وجنوب ، ليس إلا تقسيما عاما، لا ينطبق واقعيا كل الانطباق وأكمله ، فهناك في الجنوب مناطق تقسم إلى ثلاثة قطاعات (ترتاح فيها الأرض أكثر من سنتين)، كذلك نجد في الشمال مناطق يلح زراعها على الأخذ بنظام الدورة الثنائية (وهذه هي الحال في شمال الألزاس، من ستراسبورج إلى ڤايسنبورج (٥٢) . ونجد دورة ثلاثية تطورت متأخرة ، وحلت محل الدورة الثنائية في أماكن شاسعة ، بطريقة شبيهة بما كان الكتبة يصنعونه فيما مضى من الزمان ، عندما كانوا يمسحون الرق المكتوب ، ويكتبون عليه مرة ثانية .

ومن الطبيعي أن يكون هناك خلط بين النظامين في المناطق التي ينتهي عندها حدود النظام الأول وتبدأ حدود النظام الثاني، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الخلط هناك

هو القاعدة . وقد بين بحث أجرى على سهول ليمانيا Limagnes في القرن السادس عشر(٥٣) ان هناك تداخلا بين الدورة الثنائية والدورة الثلاثية يرجع إلي نوعية التربة ، والعمال، ومستوى الأهالي الفلاحين . وكانت هناك في أقصى جنوب منطقة الدورة الثنائية ، حول اشبيلية ، في عام ١٧٥٥ ، منطقة صغيرة تتبع دورة ثلاثية تبدو شبيهة بالدورات في الربوع الشمالية .

ولكن لنترك هذه الاختلافات والتنويعات جانبا . فسواء كانت الدورة ثنائية أو ثلاثية فهناك دائما من الناحية المبدئية فترة ميتة، فترة تستريح فيها الأرض من زراعة الحبوب. هذه الفترة الميتة تتيح للأرض المستجمة أن تعيد تكوين ثروتها من الأملاح المغذية عندما تتسمد الأرض ، ثم تحرث ، ومعروف أن الحرث المتكرر يهوي التربة ، ويخلصها من الحشائش الضارة ، ويهيئها لانتاج محاصيل وفيرة . وهذا هو چيـــــثرو تال Jethro Tull (١٦٧٤ ـ ١٧٤١) أحد دعاة الثورة الزراعية الإنجليزية يوصي بالحرث المتكرر ، و يوصي في الوقت نفسه ، بالتسميد، وبالدورة الزراعية (٥٤). وهناك وثائق تتحدث عن حرث الأرض سبعة مرات من بينها عمليات الحرث السابقة على البذر. وكان عدد مرات الحرث في القرن الرابع عشر في انجلترا، وفي نورمانديا ثلاث مرات (في الربيع، والخريف ، والشتاء). و كانت الأرض المخصصة للقمح في منطقة أرتوا Artois شمالي فرنسا في عام ١٣٢٨ " تحرث بجهد جهيد أربع مرات في العام ، واحدة في الشتاء ، وثلاثا في الصيف "(٥٣) وكان المألوف في بوهيميا أن تحرث أطيان كبار الملاك ـ في عام ١٦٤٨ - أربع أو ثلاث مرات ، حسبما إذا كانت الأرض مخصصة لزراعة القمح أو الشوفان. ولنحفظ هذه الكلمة التي قالها واحد من الملاك في منطقة الساڤوى الفرنسية في عام ١٧٧١، قال : " إننا نبذل جهدا مضنيا في بعض الأماكن حيث نحرث الأرض مرارا وتكرارا، حتى إننا قد نحرث الأرض أربع أو خمس مرات لكي نحصل على محصول واحد من القمح ، قد يكون هزيلا جدا ."(٥٦)

وتحتاج زراعة القمح من ناحية أخرى إلى تسميد جيد ، ولم يكن هذا التسميد الجيد يتاح لزراعة الشوفان في إطار الدورة الزراعية الثلاثية ، وهو ما كان يؤدى إلى انخفاض محصول الشوفان ، خاصة وأن الشوفان كان يزرع على نحو أكثر تزنيقا من القمح. وربما جاء محصول الشوفان نصف محصول القمح (على عكس ما يحدث في أيامنا هذه). ونظراً للأهمية الكبيرة التي يتخذها التسميد بالنسبة للقمح فإن مالك الأرض كان يراقب هذه العملية مراقبة دقيقة. وهناك عقد بشأن أعمال التسميد يرجع إلى عام ١٣٢٥ أبرمه الرهبان في منطقة پيكارديا مع أحد المقاولين ينص على الالتجاء إلى التحكيم في حالة حدوث خلافات . كذلك نجد في بوهيميا، حيث تمتد الإقطاعيات امتدادا كبيرا (أو

البذر. عن مخطوط يرجع الى القرن الثالث عشر محفوظ في المتحف البريطاني.

هائلا في بعض الأحيان) سجلا مخصصا لعملية التسميد. ولدينا من الشواهد ما يدلنا على أنهم في المناطق المحيطة بسان بطرسبرج كانوا " يسمدون الأرض بسماد مخلوط بالقش ، وأنهم كانوا يحرثون الأرض بالنسبة لكل الحبوب مرتين، وبالنسبة للجاودار الشتوى ثلاث مرات ، والكلام لشاهد ألماني "(٥٧). وكان الناس في القرن السابع عشر، والقرن الثامن عشر في منطقة البروڤانس السفلى يعدون شحنات السماد، ويدققون في عدها ، دون كلل أوملل ، ويسجلون الشحنات التي تم نشرها، والشحنات التي لم يوردها المتعهد ، وربما وجدنا عقد توريد سماد ينص على أن يقوم أصحاب الحق بالتأكد من نوعية السماد قبل نشره، وعلى أن يراقبوا عملية تجهيزه(٥٨).

وعلى الرغم من وجود أنواع من السماد البديل ـ من سماد أخضر، ورماد ، وورق شجر تعفن، وتحلل فوق حقل الفلاح ، أو في طرقات القرية ـ فإن المصدر الرئيسى للسماد كان هو الحيوان ، وليس البشر من أهل الأرياف ، والمدن ، كما هي الحال في بلدان الشرق الأقصى (وإن استخدمت قمامة المدن في الغرب كسماد في المناطق المحيطة ببعض المدن، كما كان يحدث في فلاندريا (ببلچيكا)، وحول مدينة بلنسية في إسبانيا، بل وحول باريس(٥٩).

والخلاصة أن القمح ، وتربية الحيوان يعتمد أحدهما على الآخر، فهما شريكان فرض استخدام المحراث عليهما هذا التعاون : ومن المستحيل أن نتصور إنسانا تقدر قدرته في عزق الأرض بعزق هكتار واحد في العام(٦٠) (والإنسان يأتي في ترتيب وسائل العمل بعد الحصان والثور بمسافة كبيرة) يمكنه أن يتولى وحده إعداد الأرض الفسيحة المخصصة لزراعة القمح . إنه يحتاج بالضرورة إلى الحيوانات التي تجر المحاريث، وهي الخيول في بلاد الشمال ، والثيران ، والبغال في الجنوب (وكان استخدام البغال هناك يتزايد) .

وهكذا نشأت في أوروبا ، مع الأخذ في الاعتبار الاختلافات الإقليمية التي يمكننا أن نتخيلها ، انطلاقا من القمح ، وحبوب أخرى " منظومة متشابكة من العلاقات، والعادات ، محكمة البناء ، كأنما بنيت بالأسمنت ، لا تظهر فيها شقوق، أو تصدعات، منظمة توشك أن تكون ضربا من المحال كما قال فردينان لو Ferdinand Lot (٦١). كل شيء في هذه المنظومة يستقر في مكانه الصحيح تمام الاستقرار ، الحيوانات ، والنباتات ، والبشر . ولا يمكن أن يتصور الإنسان هذه المنظومة بغيرالفلاحين ، والحيوان الذي يجر المحاريث ، والعمالة الموسمية التي تنهض بالحصاد ، والدرس ، لأن الحصد ، والدرس أعمال كان يقوم بها العمال اليدويون . وكان العمال اليدويون يسعون إلى العمل حيث يجدونه . وكانت الأراضي الخصبة في السهول المنخفضة تجتذب العمالة اليدوية من المناطق الفقيرة ، وكانت هذه المناطق الفقيرة في كثير من الأحيان مناطق جبلية ، مرتفعة ، وعرة ، قاسية التربة . كانت هناك علاقة ارتباط بين المرتفعات الوعرة من حيث هي مصدرة للعمالة ، والسهول الخصيبة من حيث هي مستوردة لها ، ولدينا أمثلة لا حصر لها ، تشهد على أن علاقة الارتباط هذه قاعدة هامة من قواعد الحياة (من هذه الأمثلة مرتفعات چورا Jura، ودومب Dombes، وسلسلة الجبال الوسطى ، ومنطقة اللانجدوك في فرنسا). لدينا مئات ومئات من الأمثلة واضحة أمام أعيننا، نرى فيها حركة العمال اليدويين تندفع من أعليإلى أسفل ، من المناطق الجبلية العالية إلى المناطق المنخفضة ، حركة تشبه التيار المنهمر. وكانت منطقة لماريما Maremma التوسكانية في إيطاليا ، وهى منطقة كثيرة المستنقعات تنتشر فيها الحميات الفتاكة تشد إليها في كل صيف الحشود الهائلة من عمال الحصاد يأتون سعيا وراء الأجور المرتفعة التي كانت تصل إلى خمس قطع نقدية من نوع الپاولات paoli يوميا في عام (١٧٩٦) وكانت ظروف العمل قاسية ، وكانت أعداد ضحايا حمى الملاريا لا تحصى، فقد كان المصابون يتركون بلا رعاية في أكواخ بجانب البهائم ، يفترشون القليل من القش، ويشربون الماء الآسن ، ويأكلون الخبز الرمادى مع فحل بصل أو رأس ثوم . و " مات الكثيرون دون أن يراهم طبيب أو قسيس "(٦٢).

أيا كان الأمر ، فمن الواضح أن أرض القمح ـ على الرغم من أنها كانت تتبع ترتيبا صحيحا ، و تنظيما سليما ، وعلى الرغم من أنها تتخذ هيئة الحقول المفتوحة المسماة openfield ، وكانت بصفة عامة تتبع دوراتها المنظمة ، وعلى الرغم من أن الفلاحين كانوا يتصدون لمحاولات اقتطاع مساحات كبيرة من المكان المخصص للحبوب ـ فإنها كانت تدور في حلقة مفرغة : فلابد لزيادة إنتاجيتها من زيادة السماد ، وبالتالي من زيادة الاهتمام بالحيوان المنتج للسماد ، وبخاصة الخيول والثيران وما إليها، ويعني هذا زيادة مساحة المراعي التي ترعى فيها هذه الحيوانات الكبيرة ، وإما تكون زيادة مساحة المراعي بالضرورة على حساب المساحة المخصصة للقمح . والمبدأ الرابع عشر من المبادىء التي صاغها عالم الاقتصاد الفرنسي كينى Quesnay يوصي " بتشجيع تزايد البهائم لأن البهائم هي التي تزود الأرض بالسماد الذى يؤدى إلى محاصيل وفيرة." والدورة الزراعية الثلاثية التي ترمي مبدئيا إلى إراحة الأرض التي تخصص لزراعة القمح لمدة عام كامل ، دون السماح بزراعات متسللة تتسلل إلى الأرض الخالية المستجمة ، هذه الدورة الزراعية التي تعطي الأفضلية الأولى لزراعة الحبوب ، لا تحقق وحدها ، دون تسميد ورعاية للأرض. إلا محاصيل ضعيفة نسبياً. والأراضي التي تخصص لزراعة القمح ليست مغلقة إغلاقا محكما مثل مزارع الأرز في البلاد المقفلة على نفسها. ولا ننسى أن هناك مصادر مختلفة لطعام الحيوان ، هناك الغابات، والمراعي البرية ، والمراعي التي يحش فيها طعام الحيوان ، والحشائش التي تنمو على جوانب الطرقات . ولكن هذه المصادر الغذائية ليست كافية ، ولا بد من تدبير مراع مستزرعة للوفاء بحاجة الحيوان من الطعام . وقد توصلت بعض المناطق الى حل لهذه المشكلة منذ وقت طويل، وطبقته ، ولكنه ظل قاصرا على قطاعات ضيقة من الأرض: في منطقة أرتوا بفرنسا ، وفي شمال إيطاليا ، وفي فلاندريا، منذ القرن الرابع عشر، وفي بعض الأراضي الألمانية ، وفي هولندة ، وفي انجلترا بعد ذلك . ويقوم هذا الحل على المراوحة بين زراعة الحبوب ، وزراعة طعام الحيوان ، في دورات زراعية طويلة تلغي أو تحد من ترك الأرض خالية للاستجمام ، وقد أدى هذا الحل إلى نتيجة مزدوجة تتمثل في إنتاج الطعام للحيوانات الكبيرة من ناحية ، وزيادة محاصيل الحبوب نتيجة لزيادة الأملاح التي تغني التربة من ناحية ثانية(٦٣) . ولكن على الرغم من التوصيات المتكررة التي خرج بها علماء الزراعة على الناس آنذاك، فإن " الثورة الزراعية " التي بدأت تشق طريقها بعد عام ١٧٥٠، ستحتاج إلى أكثر من قرن من الزمان لتتحقق في بلد كفرنسا، تكثر فيه ، كما نعرف ، الأرض الصالحة للاستثمار شمالي نهر اللوار . وإما يرجع السبب في ذلك التعثر في تحقيق الثورة الزراعية إلى أن الزراعة ، التي تميز الحبوب، وتعطيها الأسبقية على ما عداها ، تمثل

طوقا من الحديد يحيط برقبة الزراع ، وبنية لا يمكن الوفاء بمتطلباتها إلا على نحو شاق تحيط به المخاوف . ونحن نلاحظ في منطقة البوس la Beauce الفرنسية، التي بلغ نجاح زراعة الحبوب فيها مستوى نموذجيا ، أن العقود التي كانت تبرم بين ملاك الأرض والمستأجرين كانت تشدد على ضرورة احترام الدورة الثلاثية ، أو التقسيم الثلاثي إلى أرض للقمح ، وأرض للشوفان ، وأرض تترك خالية للاستجمام . وكان هذا النص دليلا على أن أسلوب الزراعة " الحديثة " لم يلق قبولا ، ولم ينتشر بعد .

ومن هنا نفهم الأحكام المتشائمة التي انتهى اليها علماء الزراعة في القرن الثامن عشر، الذين طالبوا بإلغاء أرض الاستجمام الخالية من الزراعة، والأخذ بأسلوب المراعي. المستزرعة، واعتبروا ذلك بمثابة الشرط الأول ، إن لم يكن الشرط الوحيد لتقدم الزراعة وكان هذا هو على وجه التحديد المحك الذى حكموا بناء عليه على كل عمل في مجال تحديث الزراعة أو التحديث الريفى . ففي عام ١٧٧٧ كتب مؤلف " القاموس الطبوغرافي لمنطقة المين الفرنسية " "Dictionnaire topographique du Maine" يقول: "هناك ناحية نهر الماين Mayenne أراض سوداء صلبة صعبة الحرث ، وتزداد صلابة الأراضي كلما اتجهنا ناحية نهر اللاڤال Laval [....] حيث لا يستطيع خيرة الزراع أن يحرثوا الا ما بين ١٥ و ١٦ قيراطا فرنسيا (نحو سبعة فدادين) في السنة مستخدمين ستة ثيران ، وأربعة خيول . وهذا هو السبب الذى يجعلهم يتركون الأرض لترتاح ٨ و ١٠ و ١٢ سنة على التوالى " (٦٤). ونجد الكارثة نفسها ،ترك الأرض سنوات خالية دون استغلال ، في منطقة الفينيستير **Finistére** البريتانية حيث "يتركون أرض الاستجمام الخالية أحيانا ٢٥ سنة إذا كانت من الأراضي الرديئة ، وما بين ٣ و ٦ سنوات إذا كانت من الأراضي الجيدة ." و لقد ظن آرثر يانج Arthur Young نفسه في أرض أحراش بين قبائل الهورون Hurons القدامي في أمريكا الشمالية عندما تجول في ربوع بريتانيا (٦٥).

ولكن هذا الحكم يشوبه خطأ هائل ، خطأ يرجع الى المنطلق الذي انطلق منه أرثر يانج ، وهذا ما توضحه مقالة نشرها جاك موليز Jacques Mulliez اعتمد فيها على كم ضخم من الأدلة والشواهد . فقد كانت هناك في الحقيقة مساحات كبيرة في فرنسا ، وفي غير فرنسا ، امتلأت بحشائش الرعي ، الذي غلب على القمح ، وكان الحيوان يعتبر فيها الثروة الغالبة ، ويعطي " الفائض " التجارى الذى يتيح لكل إنسان أن يعيش عليه عيشة طيبة . من هذه المناطق نذكر : الجبال العالية الصلبة ، والجبال المتوسطة الارتفاع ، والمناطق الرطبة أو المستنقعات ، ومناطق الخمائل ، ومناطق الشريط الساحلي (في فرنسا الشريط الساحلي الطويل الممتد من دنكرك إلى بايون Bayonne) كانت هذه المناطق تمثل دنيا غنية بالحشائش ، في ربوع مختلفة ، تعتبر

وجها آخر للغرب الريفى ، دنيا أنكرها علماء الزراعة من أهل القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر وقد غيمت على عيونهم غمامة التصميم بأى ثمن على العمل على زيادة محاصيل الحبوب ، والوفاء بمتطلبات الأعداد المتزايدة من السكان. ومن البديهي أن المؤرخين تبعوا خطاهم. ومع ذلك فمن الواضح أن أرض الاستجمام إذا كانت هناك أرض استجمام. كانت تمثل عنصرا محركا ، ولم تكن زمنا عقيما أو وزنا ميتا(٦٦). فقد كانت الحشائش التى تنمو فيها تطعم قطعان الحيوانات، سواء كانت تربية الحيوان تستهدف إنتاج اللحوم ، أو منتجات الألبان ، أو التسمين ، أو حيوانات الشغل من مهار ، وخيول ، وعجول ، وأبقار، وثيران ، وحمير، وبغال . ولو لم تكن هناك هذه المناطق التي يرتع فيها الحيوان ، لما كانت فرنسا على الصورة التي كانت عليها ، ولما حصلت باريس على قوتها ، ولما حصلت أسواق البهائم الضخمة في سو Sceaux، بواسي Poissy على حيواناتها ، ولما وجد الناس الأعداد التي لاحصر لها من حيوانات الشغل التي يطلبها الجيش وقطاع النقل.

والخطأ هنا برجع إلى الخلط بين أرض الاستجمام في المناطق المنتجة للقمح، وأرض الاستجمام في مناطق تربية الماشية . فمصطلح أرض الاستجمام الخالية من الزراعة مصطلح خاص بأراضي زراعة القمح طبقا لدورات زراعية منتظمة، وهو لا ينطبق على غير هذه من الأراضي. فنحن نجد في المناطق القريبة من نهر المايين ومن نهر اللاڤال، وفي مناطق أخرى (حتى حول روما) أراض للرعي، يعتبرون حرثها من حين إلى حين، وبذر تقاوى الحبوب فيها لعام أو عامين، طريقة لاستصلاح تربتها. وهذه طريقة لا تزال متبعة إلى يومنا هذا. فأرض الاستجمام في هذه الحالة ليست أرضا ميتة غير مزروعة ، وإنما هي أرض مثل أرض الاستجمام في الدورة الزراعية الثلاثية التي تهدف إلى المحافظة على قوة الأرض . فهذه أرض تشغلها المراعي التي يصلحها الحرث من حين لآخر، أرض تشغلها المراعي المزروعة . ولقد اعتاد الناس في منطقة الفينيستير، على سبيل المثال، أن يبذروا خليطا من حشائش الرتم يسمونه " جان" jan يعتبر على الرغم من مظهره البرى علفا جيدا . وكان أرثر يانج يجهل هذه الطريقة، فظن أن هذه الأراضي التي تنمو فيها هذه الحشائش أحراش ، بينما هي مراع مزروعة. وفي منطقة ڤاندى Vendée ومنطقة جاتين Gâtine بإقليم بواتو كانوا يستخدمون للغرض نفسه حشائش من نوع اللزان genêt(٦٧) يزرعونها في المراعي التي يربونها. وهذه الطريقة التى يتبعها الأهالي طريقة قديمة تقوم على أساس استخدام النباتات المحلية في استزراع المراعي. ولا ينبغي أن ندهش عندما نجد الناس ، في هذه المناطق التي يقولون عنها إنها مناطق "متأخرة " ، يستخدمون الذرة على نطاق واسع علفا للحيوان، وطعاما للإنسان في وقت واحد، وأن نجد إبان النصف الثاني من القرن الثامن

عشر نباتات تنتشر في وقت مبكر نسبي هي السلجم raves اللفت المدور navets ronds ، والكرنب choux، ولفت التورنيب turneps، باختصار كل نباتات العلف الحديث التي تدعو لها " الثورة الزراعية "(٦٨).

هكذا نجد في فرنسا - وربما في أوروبا - المناطق الغنية بالحيوان ، الفقيرة في القمح، من ناحية ، تقابلها المناطق الغنية بالقمح ، الفقيرة في الحيوان من ناحية ثانية. هناك تضاد وتكامل ، فزراعات الحبوب تحتاج إلى الحيوانات التي تجر المحراث، وتحتاج إلى روث البهائم سمادا ، والسماد تنتجه لها الأرض التي تستخدم في تربية الحيوان ، والتي لا تزرع فيها الحبوب. ومن هنا نستنتج أن " الحتمية " التي حكمت الزراعة في الحضارة الغربية ، لم تقم على أساس القمح وحده، وإنما قامت على القمح وكلأ المراعي معاً، وهكذا تغلغل الحيوان في حياة الإنسان. وهكذا اعتبر الحيوان، من حيث هو مستودع احتياطي للحم ، وللطاقة ، عنصرا من عناصر ما يمكن أن نسميه الأصالة الحية للغرب. ولقد استطاعت الصين ، صين الأرز، أن تتجاهل الحيوان، فلم تحفل بالماشية، ولم تعتبرها شيئا ضروريا ، ولم تستقبلها بالتقدير الذي يتيح لها النجاح والتغلغل، بل رفضتها ، وكانت النتيجة أنها عندما تخلت عن الدواب، تخلت كذلك عن استغلال الجبال ، وعن تحويلها إلى مناطق آهلة بالسكان. ولنعد إلى أوروبا ، ولنصحح منهجنا ، فننصرف عن الطريقة التقليدية في رؤية الأشياء ، لنتبين أن المناطق، التي كان علماء الزراعة القدامى يعتبرونها بالأمس مناطق زراعية متأخرة ، محكوما عليها بأن تظل " أراض رديئة " ، تَمْثُلُ أمامنا ، في ضوء المقالة التي كتبها ج . موليبيز، أراض أكثر جودة من " الأراض الجيدة " المنزرعة بالحبوب وأكثر قدرة على إعاشة فلاحيها حياة جيدة(٦٩)، وكانوا بطبيعة الحال أقل عددا بكثير من فلاحي الأراضي الزراعية الأخرى .ولو أتيح لنا أن نعيد الزمن إلى الوراء ، ونختار المكان الذى نرتاح إلى الحياة فيه، لفضلنا منطقة بريه Bray على منطقة بوڤيزي Beauvaisis، ومنطقة شمال الأردين Ardennes ذات الغابات ، والمراعي ، والكلأ ، والأعشاب على سهول الجنوب الجميلة ، بل ربما فضلنا - على الرغم من برودة الجو في الشتاء - المناطق المجاورة لريجا Riga أو لريڤال Reval على المناطق الريفية العارية من الغابات، الخالية من الكلأ والعشب في حوض باريس.

ضعف المحاصيل
وإمكانات التعويض والكوارث

يتمثل الخطأ الذي لا يغتفر للقمح ، إن صح هذا التعبير، في محاصيله الضعيفة، فهو لا يطعم أهله إلا على نحو سيء. وكل الدراسات الحديثة تؤكد هذه الحقيقة ، وتقيم

الصورة العليا : حاصد القمح ، لفان جوخ .

الصورة السفلى : من تقويم نوتردام ، ويرجع إلى القرن السادس عشر. ونلاحظ أن حركة الحاصد واحدة ، وأن الأدوات التي يستخدمها هي ، هي ، على الرغم من مرور قرنين من الزمان .

الدليل عليها بكم وفير فياض من البيانات التفصيلية ، والأرقام . وهذه هي البحوث التي تناولت القرنين الخامس عشر ، والسادس عشر تنتهي إلى نتائج ترسم صورة للقمح كفيلة بأن تثير فينا مشاعر اليأس . فهي تبين لنا أن كل حبة قمح تبذر كانت تعطي في أغلب الأحيان عائدا من المحصول قدره خمس حبات ، وربما أقل من ذلك بكثير . فإذا أخذنا في اعتبارنا أن علينا أن نجنب من كل خمس حبات تجنى حبة تستخدم تقاوي في الموسم التالي ، فإن المحصول الحقيقي يعتبر : أربع حبات مقابل حبة التقاوى التي نبذرها . ماذا يمثل هذا الناتج في جدول حسابات النسب ، الذي يتضمن نسب المحاصيل مقدرة بالقناطير إلى الأرض مقدرة بالهكتارات ؟ وقبل أن نستعرض هذه الحسابات البسيطة نوصي القارىء بأن يحترس من بساطتها . فلا يجوز لنا أن نقنع في هذه الأموربأحكام مبنية على الاحتمالات ، وينبغي أن نأخذ في الاعتبار التغيرات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بنوعية الأراضي ، وطرق الزراعة ، والمناخ الذى يتغير من عام إلى عام . والحق أن الإنتاجية - وهي العلاقة بين ما يتم إنتاجه ، وبين حاصل جمع الجهود المبذولة لتحقيق الإنتاج (فالعمل ليس هو وحده العامل الذي يؤدى إلى الإنتاج). قيمة من الصعب تقديرها، وهي على وجه اليقين قيمة متغيرة .

ولو افترضنا أننا نبذر بين ١ و ٢ هكتولتر من القمح على الهكتار ، كما هي الحال اليوم (فإذا نحن أخذنا في اعتبارنا صغر حجم الحبة في الماضي نجم عن ذلك زيادة عدد الحبوب في الهكتولتر) فمعنى ذلك أننا نبذر في المتوسط هكتولتراً ونصف. فإذا كانت النسبة بين المحصول والتقاوى هي : ٥ إلى ١ فمعنى ذلك أن المحصول سيكون ٧,٥ هكتولترات ، أى حوالي ٦ قناطير فرنسية. وهذه أرقام ضعيفة ، ولكنها تتفق مع ما يقوله أوليڤييه ديسير Olivier de Serres: " وللزارع أن يرضى ، ويطيب نفسا إذا أعطته أرضه من ٥ إلى ٦ أمثال الحب المبذور ، مع الأخذ في الاعتبار أن بعض المناطق تعطي إنتاجا قويا ، وأن بعض المناطق الأخرى إنتاجها ضعيف ..."(٧٠) وهذا أيضا هو ما قاله كيني في عام ١٧٥٧ ، في معرض الحديث عن " الزراعة الصغيرة " في زمانه ، وكانت الزراعة الصغيرة أو المحدودة هي النظام الغالب (بل النظام الذي كانت له الأغلبية الفائقة) في فرنسا : " كل حقل يعطي ، مع الأخذ في الاعتبار أن هناك حقولا قوية التربة وحقولا ضعيفة التربة ، محصولا نسبته إلى التقاوى ٤ حبات إلى ١ [...] بعد حذف كمية الحبوب التي تجنب لتكون تقاوى المستقبل. ودون حساب الضريبة ..."(٧١). في القرن الثامن عشر كان المحصول في بورجونديا Bourgogne ، على ما يقول مؤرخ من أيامنا هذه ، على النحو التالي: " كان المحصول العادى الذي تغله أرض متوسطة يقدر بصفة عامة ، بعد استبعاد التقاوى، بخمسة إلى ستة قناطير فرنسية للهكتار "(٧٢). وهذه التقديرات تبدو لنا محتملة جدا. وكان عدد

سكان فرنسا حول عام ١٧٧٥ نحو ٢٥ مليون نسمة، كانوا يعيشون على قمحهم ، وكان ما يصدرونه يساوي ما يستوردونه ، مع الأخذ في الاعتبار ما كانوا يمرون به من سنوات سمان وسنوات عجاف .وإذا رضينا بمعدل استهلاك للحبوب الصالحة لصناعة الخبز قدره ٤ هكتولترات في العام لكل نسمة، فمعنى ذلك إن المطلوب تدبيره كان ١٠٠ مليون هكتولتر أو ٨٠ مليون قنطار فرنسي. والواقع أن الإنتاج الذى يفي ، علاوة على صناعة الخبز ، بالمطلوب من التقاوى، ومن الغلال اللازمة لعلف الحيوان ، يتجاوز هذا الرقم بكثير ، ويقدره توتان C. Toutain بحوالي ١٠٠ مليون قنطار(٧٣). وإذا رضينا بأن المساحة المخصصة للقمح كانت ١٥مليون هكتار ، فاننا نصل الى متوسط ٦ قناطير فرنسية للهكتار، وهكذا نبقى في حدود تقديرنا الأول حول ٥ إلى ٦ قناطير فرنسية (وهي أرقام متشائمة لا يمكننا أن نشك فيها).

ولكننا لازلنا بحاجة إلى ما يؤكد أن هذه الإجابة ـ التي تبدو مقبولة ـ تحيط بكل جوانب المشكلة في حقيقتها . ونحن نلتقي فيما أتيح لنا من حسابات تحرت الدقة بأرقام أعلى بكثير من المتوسط التقديري الذي ذكرناه ، كما نجد أرقاما أدنى بكثير من هذا المتوسط التقريبي الذى حددناه بـ ٥ إلى ٦ قناطير فرنسية للهكتار .

إن الحسابات العظيمة التي توصل إليها هانس هلموت ڤفيشتر في دراسته لإنتاج الأبعديات المسماة Vorwek Domänen، وهي أبعديات كانت تمتلكها الطائفة التوتونية ، ثم آلت بعد ذلك إلى دوق بروسيا ، حسابات تضم نحو ٣٠٠٠ رقم (من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٦٩٥) يمكن تلخيصها في المتوسطات التالية للحبوب مقدرة بالقنطار الفرنسي إلى الهكتار : القمح ٨,٧ (مع العلم بأن زراعة القمح المشار إليها كانت من نوع الزراعة الصغيرة) ؛ الجاودار ٦,٧ (نظرا لأن خط العرض الذى كانت هذه الأبعديات تقع في حدوده كان مناسبا لزراعة الجاودار فإن هذه الزراعة اتسع نطاقها حتى أصبحت هي الزراعة المفضلة) ؛ الشعير ٧ ؛ الشوفان ٣,٧ فقط .

وهناك أرقام أفضل ـ وإن ظلت في حدود الإنتاج الضعيف ـ نستنتجها من حسابات تناولت منطقة براونشڤايج Braunschweig في القرنين السابع عشر والثامن عشر: القمح ٨,٥ ؛ الجاودار ٨,٢ ؛ الشعير ٧,٥ ؛ والشوفان ٥(٧٤). وقد نظن أن تلك الأرقام كانت أرقاما قياسية جاءت متأخرة ، ولكن علينا أن نذكر أن تييرى ديريسون Thierry d'Hireçon من كبار ملاك الأرض في منطقة أرتوا كان ، منذ مطلع القرن الرابع عشر، مهتما بأمور ضياعه ، وكان يحقق محاصيل مرتفعة في ضيعة من ضياعه في روكيستور Roquestor (لمدة ٧ سنوات معلومة لدينا من عام ١٣١٩ إلى ١٣٢٧) تقدر نسبها على النحو التالي : ٧,٥ ؛ ٩,٧ ؛١١,٦ ؛ ٨؛ ٨,٧ ؛ ٧ ؛ ٨,١ ، وهو

ما يعني على وجه التقريب ما بين ١٢ و ١٧ قنطار للهكتار . كذلك يذكر كيني في معرض حديثه عن " الزراعة الكبيرة " ، التي كان شديد الحماس لها ، غلات تقدر بـ١٦ قنطار للهكتار، وقد تزيد ، وهو رقم قياسي يحسب للزراعة الرأسمالية الحديثة التي سنعود إلى الحديث عنها(٧٦).

ولكننا نجد في مقابل هذه الأرقام القياسية، التي لايمكن اعتبارها بمثابة متوسطات، العديد من الأرقام المحزنة. فهناك دراسة أجراها ليونيد تسيتكوفيتش Léonid Zytkowiéz (بين بها الأرقام الدنيا للغلات في پولندة نستنتج منها أن المحاصيل ، في الفترة من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٦٥٠ كانت على النحو التالي : ٦٠ ٪ من زراعات الجاودار كانت تعطي في المتوسط من ٢ إلى ٤ حبات مقابل حبة التقاوى (١٠ ٪ من الزراعات كانت تعطي أقل من ٢) ؛ وفي غضون القرن التالي هبطت النسب عن هذه المعدلات ، ولم يحدث تحسن حقيقي الا في نهاية القرن الثامن عشر ، حيث نجد أن الغلات التي تقدر بما بين ٤ إلى ٧ مقابل حبة التقاوى الواحدة تمثل ٥٠ ٪ من المجموع الكلي . أما بالنسبة للقمح والشعير فكانت الغلات أعلى قليلا ولكنها كانت أيضا دون المعدلات ، وكانت في انخفاض مستمر. أما في منطقة بوهيميا فنجد ، على العكس ، زيادة واضحة في الغلات ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر ، بينما المعدلات في المجر، وسلوفاكيا في مثل سوء المعدلات في پولندة (٧٨) . والحق أن المجر لن تصبح بلداً من بلدان الإنتاج الكبير للقمح إلا في القرن التاسع عشر. ولا ينبغي أن نتصور أن الغلة في الاراضي القديمة بالغرب الأوروبي كانت دائما أفضل . ففي منطقة اللانجدوك بفرنسا(٧٩) كانوا يقولون إن الباذر ذا اليد الثقيلة الذي يكثر من رمي التقاوي لايحقق من الغلة في كثير من الأحيان إلا هكتولترين أو ٣ هكتولترات من المحصول للهكتار . وكانت زراعة الشوفان والشعير والجاودار والقمح تنمو مزنوقة على نحو مفرط ، وكانت تختنق نتيجة لهذا ، على نحو ما تبين ألكسندر فون هومبولت(٨٠) ، ولم يكن هذا الوضع قاصراً على هذه المنطقة فحسب ، بل كان يشمل أنحاء أوروبا المختلفة. وهكذا لم تكن كميات التقاوى الكبيرة تنتج في منطقة اللانجدوك في القرن السادس عشر إلا غلات بائسة : أقل من ٣ مقابل ١ في الفترة حول أعوام ١٥٨٠-١٥٨٥ ؛ و ٤ إلى ٥ مقابل ١ في المتوسط في ذروة القرن السابع عشر حول أعوام ١٦٦٠ - ١٦٧٠؛ ثم يأتي بعد ذلك هبوط ثم صعود بطيء اعتباراً من عام ١٧٣٠، إلى أن نصل إلى متوسط ٦ مقابل ١ بعد عام ١٧٥٠ فقط(٨١).

زيادة العائد

وزيادة أراضي القمح

ولكن هذه المتوسطات الضعيفة لا تستبعد أن تقدما كان يسير بخطى بطيئة مستمرة، كما أثبت البحث الطويل(٨٢) الذي قام به ب . هـ . سليشر فان بات (١٩٦٣) B.H.Slicher Van Bath. وهنا نطرح السؤال التالي : ما هي قيمة هذا البحث؟ والرأي عندنا أن قيمته تتركز في أنه جمع كل الأرقام المعروفة عن عائد زراعة الحبوب، وهي أرقام لم يكن لها معنى وهي متفرقة مبعثرة. فلما وضعت هذه الأرقام بعضها بجانب البعض الآخر تبين أنها ترسم صورة تقدم على مدى طويل يتبع مسارا بطيئا. ويمكننا أن نرى في داخل هذا المسارالأوروبي العام البطيء مجموعات لكل منها إيقاعه. في المقدمة (١.) نرى انجلترة ، وإيرلندة، وهولندة. في المركز الثاني(٢.) فرنسا، وإسبانيا، وايطاليا. وفي المركز الثالث (٣.) ألمانيا، والمقاطعات السويسرية، والدنمرك، والنرويج، والسويد. وفي المركز الرابع (٤.) بوهيميا بالمعنى الواسع للتسمية ،وپولندة، وبلاد البلطيق، وروسيا.

وإذا نحن حسبنا عائداً واحداً للمحاصيل الأربعة الرئيسية (وهي القمح، والجاودار، والشعير، والشوفان) على أساس كذا حبة حققها المحصول في مقابل حبة من التقاوى، كان في مقدورنا أن نتبين حسب المجموعات، والعائد المتحقق أربع مراحل هي:أ.ب.ج.د.

عائد الحبوب في أوروبا (١٢٠٠ ـ ١٨٢٠)

أ. قبل ١٢٠٠ ـ ١٢٤٩ عائد من ٣ إلى٣,٧ مقابل	حبة تقاوى
ـ ١ ـ انجلترة ١٢٠٠ـ ١٢٤٩	٣,٧
ـ ٢ ـ فرنسا قبل ١٢٠٠	٣
ب . ١٢٥٠ـ ١٨٢٠ عائد من ٤,١ إلى ٤,٧	
ـ ١ ـ انجلترة ١٢٥٠ ـ ١٨٢٠	٤,٧
ـ ٢ ـ فرنسا ١٣٠٠ـ ١٤٩٩	٤,٣
ـ ٣ ـ ألمانيا و البلاد الاسكندنافية ١٥٠٠ـ ١٦٩٩	٤,٢
ـ ٤ ـ أوروبا الشرقية ١٥٥٠ـ ١٨٢٠	٤,١
ج . ١٥٠٠ـ ١٨٢٠ عائد من ٦,٣ إلى ٧	
١ـ انجلترة و هولندة ١٥٠٠ـ ١٧٠٠	٧
٢ـ فرنسا و أسبانيا و ايطاليا ١٥٠٠ـ ١٨٢٠	٦,٣
٣ـ ألمانيا و البلاد الاسكندنافية ١٧٠٠ـ ١٨٢٠	٦,٤
د . ١٧٥٠ـ ١٨٢٠ عائد أعلى من ١٠	
١ـ انجلترة و ايرلندة و هولندة ١٧٥٠ ـ ١٨٢٠	١٠,٦

المصدر : ب .هـ . سليشر فان بات

هناك ضروب من التقدم البطيء المتواضع من (أ)إلى (ب)، ومن (ب) إلى (ج) ومن (ج) إلى (د). ولكن هذا التقدم لا يستبعد حدوث ضروب من التراجع الواسع المدى، مثل الذي حدث من ١٣٠٠ إلى ١٣٥٠، ومن ١٤٠٠ إلى ١٥٠٠ ومن ١٦٠٠ إلى ١٧٠٠ كتواريخ تقريبية. وهو كذلك لا يستبعد ظهور اختلافات ، بعضها قوى، من عام إلى عام آخر . ولكن المهم هو أننا نتبين حدوث تقدم على المدى الطويل مقداره من ٦٠ ٪ إلى ٦٥ ٪ . كذلك تتبين أن درجات التقدم التي تحققت في المرحلة الأخيرة من ١٧٥٠إلى ١٨٢٠ شهدت صعود بلاد غنية بالسكان هي انجلترا، وإيرلندة، وهولندة. ومن الواضح أن هناك علاقة تناسب بين ارتفاع العائد ، وزيادة أعداد السكان . وثمة ملحوظة أخرى أخيرة : وهي أن درجات التقدم الأولى كانت نسبيا أشد درجات التقدم قوة ، وأن التقدم من (أ) إلى (ب) كان من الناحية التناسبية أكبر من التقدم من (ب) إلى (ج) . أما الانتقال من ٣ حبات مقابل حبة تقاوى ، إلى ٤ حبات مقابل حبة تقاوى ، فيعتبر خطوة حاسمة في سبيل التقدم ، لا تقل أهمية عن انطلاق المدن الأولى في أوروبا على نطاق واسع ، أو انتعاش المدن التي لم تكن قد اختفت في المرحلة المتأخرة من العصر الوسيط ، إنما يرجع السبب في هذا الانطلاق أو هذا الانتعاش الى أن المدن كانت تعتمد على الوفرة في إنتاج الحبوب .

تراجع انتاج الحبوب (١٢٥٠ ـ ١٧٥٠)

		عائد كذا حبة مقابل حبة تقاوى	تراجع ٪
انجلترة	١٢٥٠ ـ ١٢٩٩	٤,٧	
--	١٣٠٠ ـ ١٣٤٩	٤,١	١٦
	١٣٥٠ ـ ١٣٩٩	٥,٢	
	١٤٠٠ ـ ١٤٤٩	٤,٦	١٤
انجلترة	١٥٥٠ ـ ١٥٩٩	٧,٣	
هولندة	١٦٠٠ ـ ١٦٤٩	٦,٥	٦٣
ألمانيا	١٥٥٠ ـ ١٥٩٩	٤,٤	
اسكندنافيا	١٧٠٠ ـ ١٧٤٩	٣,٨	١٨
أوروبا الشرقية	١٥٥٠ ـ ١٥٩٩	٤,٥	
---	١٦٥٠ ـ ١٦٩٩	٣,٩	١٧

المصدر: ب . هـ . سليشر فان بات

فلا غرابة فى أن نجد الرقعة المنزرعة بالقمح تتسع ، وأن يكون هذا الاتساع مواكبا لحدوث زيادة سكانية . ففي إيطاليا نرى العمل يجرى على قدم وساق في القرن السادس عشر في مشروعات ضخمة لاستصلاح الأراضي من أجل القمح، يستثمر فيها الرأسماليون من أبناء جنوة، وأبناء البندقية، وأبناء فلورنسا مبالغ هائلة . كانت هذه المشروعات تهدف إلى كسب مزيد من الأرض عند مجارى الأنهار ومن المستنقعات، والغراقات، والغابات، والبرارى ، وكان تنفيذها يسير بطيئاً، ولكنه كان مستمراً، لم يتوقف قط، وظل يشغل بال أوروبا ، بل يؤرقها في عنف ، ويدفعها إلى بذل جهود كانت تتجاوز الحدود الإنسانية ، وكانت في الغالبية الغالبة من الأحوال تجرى في غير صالح حياة الفلاحين . وهكذا استعبد القمح الفلاحين، بعد أن استعبد السادة أصحاب الأرض من قبل ، واستبد بهؤلاء وأولئك ، فخضعوا له خضوع العبيد .

كثيرا ما قيل إن الزراعة كانت أعظم صناعة عرفتها أوروبا في عصر ما قبل الصناعة ، و لكنها كانت صناعة لها مشاكلها الكثيرة التي لا تنتهي إلى نهاية. حتى في البلاد الكبيرة المنتجة للغذاء في شمال أوروبا ، تعرضت الأراضي التي ضمت حديثا إلى الرقعة الزراعية للتدهور، وتبين أن " الانتفاضة الاقتصادية " التي أحدثتها، لم تلكن لها فعالية على المدى الطويل. وتبين أن التوسع الزراعي الذي استهدف زراعة القمح خاصة يؤدي بالضرورة إلى عائد منخفض . ولقد لاحظنا هذه الظاهرة في بولندة، وأشرنا اليها اشارة عابرة ؛ وهناك علاوة على ذلك رسم بياني رسمه هـ. ڤيشتر Wächter يؤكد هذه الملحوظة تأكيدا واضحا بالنسبة لپروسيا(٨٣) ، وهي تصدق أيضا على صقلية. أما انجلترا فلم ترفع عائدها من محاصيل الحبوب رفعاً ثورياً إلا عندما قامت ـ على العكس ـ بالتركيز على زراعات العلف، وعلى تربية الحيوان .

التجارة المحلية
والتجارة الدولية للقمح

الأرياف تعيش على محاصيلها ، والمدن تعيش على فوائض هذه المحاصيل، ولهذا فإن الكياسة تفرض على المدينة أن تدبر تموينها من منطقة تكون في متناول يدها ، " من ممتلكاتها الخاصة " ، كانت تلك هي الحكمة(٨٤) التي انتهى إليها النقاش في مدينة بولونيا الإيطالية في عام ١٣٠٥ . كان المطلوب يتمثل في تأمين تموين يأتي من دائرة قريبة ، دائرة ضيقة لا تبعد أكثر من ٢٠ أو ٣٠ كيلومتراً ، ويتحاشى عمليات النقل الغالية ، كما يتحاشي الاعتماد على الخارج ، فقد كان الاعتماد على الخارج أمراً تحف به المخاطر . وكان تدبير التموين يتحقق على خير وجه إذا كانت المدن تمسك في يديها بزمام الأرياف المجاورة. وهكذا فرضت المدينة على الفلاح في فرنسا أن يبيع قمحه في سوق المدينة المجاورة ، وظل الوضع على هذا النحو إلى أن ظهر الاقتصادى تورجو

Turgot، وإلى أن نشبت " ثورة الدقيق "، بل إلى أن قامت الثورة الفرنسية. فلما حدثت الاضطرابات المصاحبة لمجاعة صيف ١٧٨٩ قبض الثوار على تجار الغلال من أهل المدن، أولئك الذين كانوا يستولون على إنتاج الفلاحين من الحبوب : وكانوا تجارا مشاهير، وكان كل واحد من الثوار يعرفهم من قبل . كان هذا الوضع شائعا في أوروبا كلها . ففي ألمانيا في القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، اتخذت إجراءات ضد "المرابين" الذين كانوا يستولون على الحبوب عنوة ليبيعوها بأسعار فاحشة، وكانوا يسمونهم المرابين بالغلال Getreidewucher. استقينا هذا المثل من ألمانيا، ولكننا نستطيع أن نورد أمثلة من البلاد الأخرى، فلم تكن هناك بلاد بريئة من هذه الممارسات.

أيا كان الأمر فقداتصلت أسباب نوع من التبادل المحلى ، حيث كانت المدينة تعيش على فائض محاصيل الريف ، ولكن هذه الحياة لم تكن تسير بغير مشكلات ، فإذا ساء المحصول ، اضطرت المدن إلى الالتجاء إلى مصادر أخرى ، إلى البلاد المحظوظة التي امتلأت صوامعها بالغلال . وكان قمح ، وجاودار بلاد شمال أوروبا قد شق طريقه إلى البحر المتوسط منذ القرن الرابع عشر على الأرجح(٨٥). ومن قبل هذا التاريخ كانت ايطاليا تجلب القمح من بيزنطة ،ثم من تركيا بعد ذلك. وكانت صقلية تعتبر منذ زمن بعيد مورداً كبيراً للقمح، كانت مثل كندا ، والارجنتين ، وأوكرانيا قبل أن تظهر هذه الدول موردة للقمح .

وكان المفروض في صوامع الغلال التي تورد القمح للمدن الكبيرة أن تكون قريبة المنال ، يسهل الوصول اليها ، فتكون على ساحل البحر ، أو على ضفاف أنهار صالحة للملاحة ، لأن النقل البحري والنهري كان مفضلا بالنسبة لهذه الشحنات الثقيلة .وإذا نحن نظرنا إلى مناطق پيكارديا Picardie ، وڤيرماندوا Vermandois الفرنسية وجدناها حتى أواخر القرن الخامس، في السنوات التي كانت تحقق فيها محاصيل وفيرة، تصدر الغلال الى فلاندريا (حاليا شمالي بلچيكا) عن طريق نهر الايسكو E'scaut وإلى باريس عن طريق نهر الواز Oise، وكانت أقاليم شامپانيا، وباروا Barrois قون باريس في القرن السادس عشر انطلاقا من ڤيترى لوفرانسوا Vitry-le- Françios عن طريق نهر المارن Marne(٨٦) الذى كانت الملاحة فيه تتسم بالخطورة أحيانا. وفي العصر نفسه كان القمح يرد من إقليم بورجونديا في براميل، وكانت الشحنات تنقل بالملاحة في نهرى الساؤون Saône والرون Rhône، وكانت منطقة آرل الشرقي Arles est تتلقى هذه الشحنات النهرية ، وتعتبر محطة للقمح. وكانت مارسيليا إذا خشيت مجاعة، تتجه الى أصدقائها الأوفياء ، قناصل آرل(٨٧). ولكنها أصبحت فيما بعد، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، ميناء بحريا هاما للقمح . وكان إقليم البروڤانس يلجأ اليها في الساعات الصعبة. ولكن مارسيليا كانت تفضل في طعامها القمح المحلي الطيب على القمح المستورد الذى كان يتعرض لكثير أو قليل من

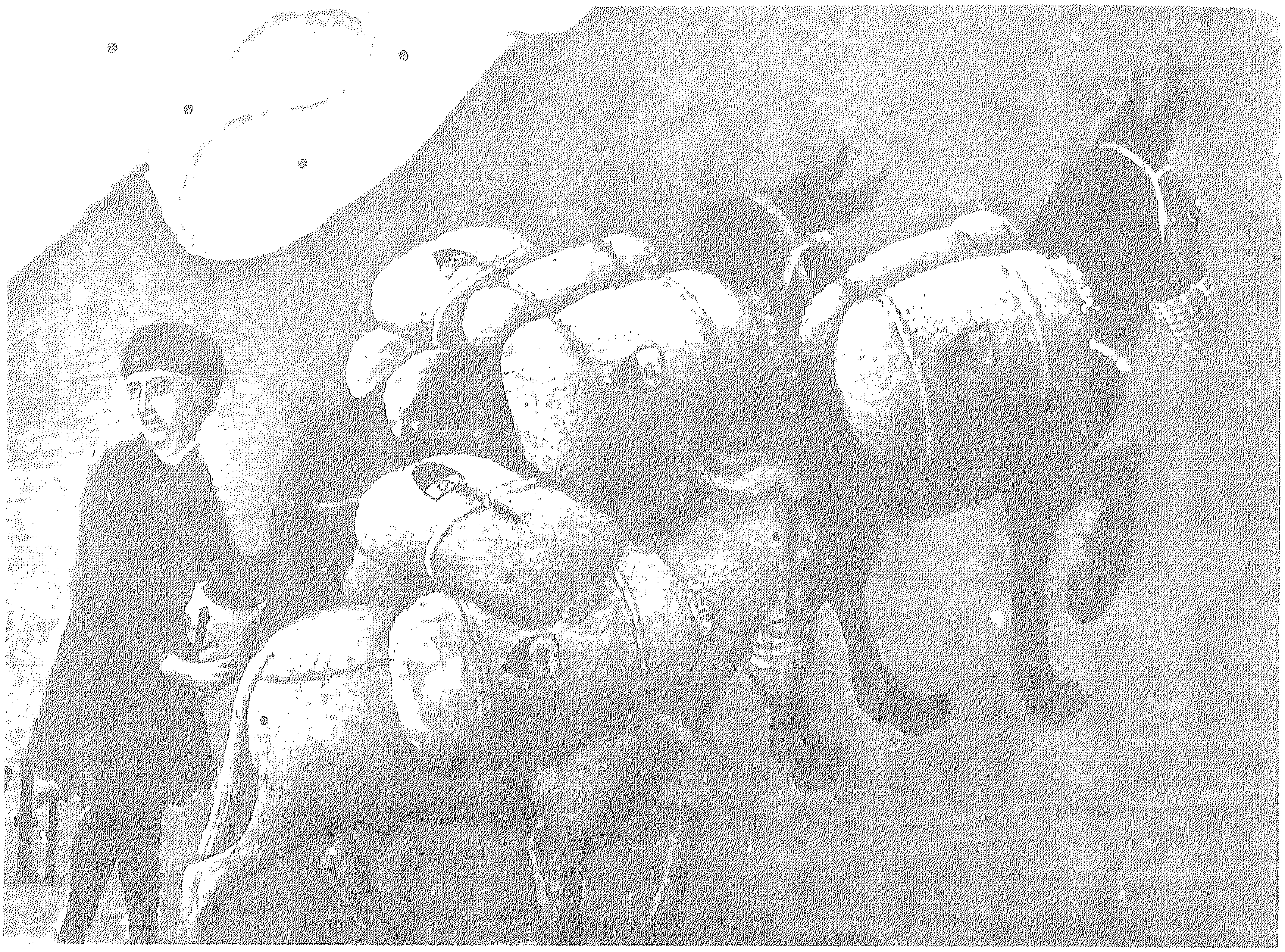

في إيطاليا نقل القمح على ظهور البغال . (متحف سيينا)

التَّسَنهُّ نتيجة للنقل البحرى(٨٨). وكذلك كانت الحال بالنسبة لمدينة جنوة التي كانت تفضل أن تأكل القمح الغالي الذى تجلبه من إقليم روماني الإيطالي، وتبيع القمح الرخيص الذى تستورده من الشرق(٨٩).

وكانت أصناف القمح الشمالية قد أخذت تحتل ، منذ القرن السادس عشر، مكانا متزايد الأهمية في التجارة الدولية للحبوب، وكثيراً ما كان هذا يتم على نحو يضر بالبلاد المصدرة نفسها . ونحن نقرأ في قاموس تجارى ايطالي يرجع إلى عام ١٧٩٧ أن الناس إذا تصوروا كمية الحبوب الكبيرة التي تصدرها پولندة(٩٠) ظنوا أن پولندة بلد من أخصب بلاد أوروبا ، ولكن الذى يعرفها، ويعرف أهلها يحكم عليها حكما آخر، فحتى إذا كانت فيها مواضع خصيبة حسنة الزرع ، فإنها لا تقارن ببلاد أخرى تنعم بأكثر مما تنعم به پولندة من أرض خصبة ، وتزرع أفضل مما تزرع پولندة ، ولكنها لا تصدر الحبوب . " والحقيقة أن الأشراف في بولندة كانوا هم ملاك الأرض وأن الفلاحين كانوا هم العبيد، وكان النبلاء يصادرون جهد الفلاحين ، وإنتاجهم ، ويستأثرون به ، ويمكنون به

لأنفسهم ؛ وعلى الرغم من أن الفلاحين كانوا يكونون سبعة أثمان الشعب ، فقد قضي عليهم أن يأكلوا خبز الشعير والشوفان . وبينما كانت شعوب أوروبا الأخرى تأكل القسط الأكبر من أفضل غلالها ، فلم يكن البولنديون يبقون لأنفسهم إلا قدراً ضئيلاً من قمحهم ، وجاودارهم حتى ان الإنسان ليظن أنهم لا يجنونه الا ليصدروه إلى الخارج، ولم يكن النبلاء، والبورجوازيون أنفسهم يأكلون إلا خبز الجاودار ، أما خبز القمح فقد ظل خالصا لموائد السادة العظام دون غيرهم. ولسنا نبالغ إذا قلنا ان مدينة واحدة في قطر من أقطار أوروبا الأخرى كانت تستهلك من القمح أكثر مما تستهلكه مملكة بولندة كلها ."

كانت أوروبا دائما ، أو تقريبا دائما ، تجد على هوامشها الشمالي أو الشرقي (الإمبراطورية العثمانية) أو الجنوبي (أقاليم البربر على الساحل الأفريقي، وسردينيا ، وصقلية) البلاد القليلة السكان أو القليلة الحظ من التطور ، القادرة على تموينها بالقمح الذى تحتاج اليه . ولكن ظاهرة الهامشية هذه خضعت لتغييرات ، وتحولات متعددة .منها مثلا ما نلاحظه من أنه إذا حدث أن انقفلت صومعة غلال في بلد من هذه البلاد الهامشية ، انفتحت صومعة أخرى بدلا منها : ينطبق هذا الكلام في النصف الأول من القرن السابع عشر (٩١) على السويد كمصدرة للقمح (ليفونيا ، إستونيا ، أسكانيا) ؛ ثم على انجلترا بعد عام ١٦٩٧ ، وحتى عام ١٧٦٠ تقريبا وكانت تشجع تصدير القمح بمكافآت مالية ؛ وفي القرن الثامن عشر : لعبت المستعمرات الإنجليزية في أمريكا دورها في تصدير القمح (٩٢).

ويلفت نظرنا ، بصفة عامة ، أن الشيء الذي كان يجتذب مصدري القمح ، ويلعب دور الطعم الذي يغريهم أشد الإغراء ، كان هو المال الحاضر. فقد كانت تجارة القمح تجارة يدفع فيها المشتري الغني دائما نقدا ، ويتعرض فيها الفقير للإغراء ، ويقع في حبائل الوسطاء الذين كانوا يحققون لأنفسهم الربح الأوفي . وهكذا فإن التجار المرابين كانوا هم الذين يشترون القمح ، ويدفعون الثمن مقدما في مملكة نابلي، و غيرها. ولقد دفعت البندقية في عام ١٢٢٧ ثمن القمح الذي اشترته من أبيليا Puglia بإيطاليا بسبائك ذهبية (٩٣). وكانت السفن البريتانية الصغيرة تقوم برحلات دائمة في القرنين السادس عشر، السابع عشر، تنقل القمح إلى إشبيلية ولشبونة خاصة، و تعود محملة بما يقابله من الفضة أو من " الذهب الأحمر" البرتغالي ، وكان دفع ثمن البضائع المستوردة، أيا كانت، بالفضة أو الذهب محظوراً ، لم يستثن من هذا الحظر إلا القمح(٩٤). كذلك كانت كل عمليات تصدير القمح إلى فرنسا ، وأسبانيا في القرن السابع عشر القادمة من امستردام ، يدفع ثمنها بـ " قطع العملة ". وهذا رجل ، يدعي أنه انجليزى، كتب في عام ١٧٥٤ يقول : " في السنوات الماضية كان إنتاج القمح الوفير ، وتصديره هما الركن الركين الذي تقوم عليه تعاملاتنا "(٩٥) . وفي عام ١٧٩٥ كانت فرنسا على وشك

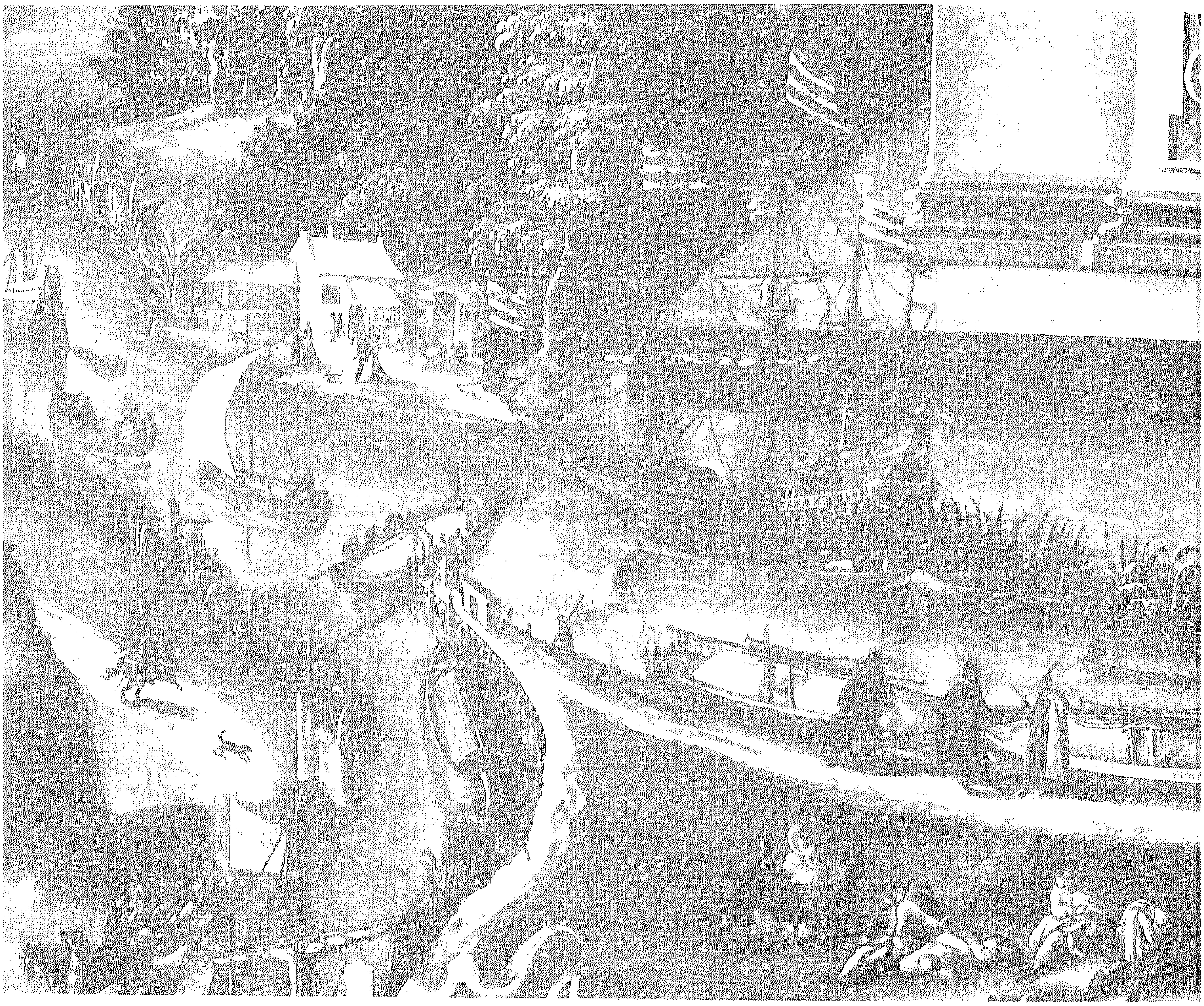

التجارة الدولية للقمح . كانت السفن المحملة بقمح بولندة تتجه الى ميناء دانتسيج (جدانسك) عن طريق نهر الفايكسل .(جزء من لوحة ، انظر المجلد الثالث من كتابنا هذا ، الباب الأول ، اللوحة السادسة)

المجاعة ، فأرسلت مبعوثيها إلى إيطاليا لشراء القمح ، ولم يجد هؤلاء وسيلة أخرى لتسديد ثمن القمح إلا بإرسال صناديق مليئة بالمشغولات الفضية من مارسيليا إلى ليفورنو " باعوها على أساس وزن الفضة التي صنعت منها ، دون نظر إلى أن الشغل فيها كان يساوى أكثر من المادة الخام "(٩٦).

ومع هذا كله فلم تكن هذه التجارة ذات الأهمية الجوهرية تتعامل قط في كميات كبيرة بالقدر الذى قد يتصوره الإنســان. فمنطقة البحر المتوسط على سبيل المثال، كان يعيش فيها في القرن السادس عشر نحو ٦٠ مليون نسمة ، فإذا قدرنا استهلاكهم من

القمح بـ ٣ هكتولترات للفرد ، فإن الاستهلاك الإجمالي يكون ١٨٠ مليون هكتولتر، أي ١٤٥ قنطارا فرنسيا ، لم تكن التجارة البحرية تتعامل إلا في مليون أو مليونين من القناطير فقط، وهو ما يساوى على وجه التقريب ١ ٪ من مجمل الاستهلاك. فإذا قدرنا استهلاك الفرد بـ ٤ هيكتولترات ، فان النسبة المئوية تنخفض عن ١ ٪ .

والأرجح أن الوضع ظل على هذه الصورة في القرن السابع عشر. فميناء دانتسيج، وهو ميناء الغلال الأساسي، صدر في عام ١٦١٨ كمية ١٣٨٢٠٠٠ قنطارا من القمح، وفي عام ١٦٤٩ بلغت الكمية ١٢٠٠٠٠٠ قنطاراً - وهذه أرقام تقريبية (٩٧). فاذا افترضنا أن الشمال كان فيه من الموانيء ما يساوى ثلاثة أو أربعة موانيء من حجم دانتسيج فيكون المجموع الكلي لشحنات القمح ما بين ٣ و ٥ ملايين قنطار. واذا أضفنا مليون قنطار يمكن أن تشملها تجارة البحر المتوسط ، فإننا نصل إلى ٦ ملايين قنطار على أقصى تقدير لتجارة القمح الأوروبية في مجموعها. وقد يبدو الرقم هائلا، ولكنه مضلل، وما علينا إلا أن نقارنه برقم ٢٤٠ مليون قنطار هو استهلاك الأوروبيين (نحو ١٠٠ مليون نسمة، على أساس ٣ هيكتولترات للفرد). يضاف الى هذا أن هذه الأرقام القياسية للتصدير لن تستمر على حالها: ففي عام ١٧٥٣-١٧٥٤ لم تصدردانتسيج سوى ٥٢٠٠٠ حمل من نوع اللاست last، وهو ما يساوى ٦٢٤٠٠٠ قنطار(٩٨). ولقد قدر الاقتصادي تورجو التجارة الدولية للحبوب في ذلك العصر بما بين ٤ أو ٥ ملايين قنطار ، وهو رقم يعتبره زومبارت Sombart مبالغا فيه(٩٩). ولا ينبغي أن ننسى في نهاية هذه المناقشة ان هذه الكميات الإضافية من الحبوب كانت تنقل فقط، أو تقريبا فقط ، بطريق البحر، بمعنى أن الدول البحرية كانت هي الوحيدة القادرة على مواجهة المجاعات التي كانت تتعرض لها من حين لآخر(١٠٠) .

والحق أننا ندهش أشد الدهشة لهذه التجارة التي كانت تنقل القمح إلى بعيد، على الرغم من أن وسائل النقل في تلك الأزمنة القديمة كانت محدودة . وقد ندهش عندما نعلم أن آل باردى Bardi، العاملين في خدمة البابا بوا الثاني عشر Benoît XII، نجحوا في عام ١٣٣٦ في تصدير قمح من أبوليا إلى أرمينيا (١٠١)، كذلك تمكن تجار فلورنسا منذ القرن الرابع عشر من أن يصدروا كل عام ما بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ طن من قمح صقلية (١٠٢) وأن غرندوق توسكانا، وأصحاب الأمر في البندقية وجنوة نجحوا ، عن طريق تجار مشتغلين بالتجارة الدولية، ومستخدمين الحوالات المالية والكمبيالات، عبر مدينة نورنبرج الألمانية ، وميناء أنتفرين (البلجيكي) من تصدير عشرات الآلاف من أطنان الحبوب ، انطلاقا من بحر البلطيق ، ومن بحر الشمال ، لتغطية الطلبات في سنوات المجاعة التى بدأت من عام ١٥٩٠ في منطقة البحر المتوسط (١٠٣)، وأن منطقة مولداڤيا الغنية ، التي لم تكن قد تطورت بعد ، كانت تصدر إلي استانبول ، على نحو أو آخر، ما مقداره ٣٥٠٠٠٠ هكتولتر من القمح في

القرن السادس عشر ، أو أن سفينة قادمة من بوسطن في القرن الثامن عشر وصلت إلى استانبول محملة بالدقيق والقمح الأمريكيين ...(١٠٤).

وعلى النحو نفسه ندهش غاية الدهشة ، عندما نقرأ عن الأحواض، والمخازن التي أقيمت في موانيء التصدير على أرصفة الشحن(١٠٥) في صقلية ، ودانتسيج، وأنتفرين (التي بدأت أهميتها تتجلى في عام ١٥٤٤) ، ولوبيك ، وأمستردام؛ وموانيء الوصول في جنوة، والبندقية (٤٤ مخزنا في البندقية في عام ١٦٠٢). كذلك ندهش لترتيبات تجارة القمح، ومنها الصكوك ، والإيصالات الخاصة بالحبوب، وكلها أمور سهلت التعامل في القمح ، وتصديره من أرصفة الشحن الصقلية(١٠٦).

ونحن إذا أنعمنا النظر إلى هذه التجارة من كل نواحيها، ألفيناها تجارة هامشية متقطعة " خضعت لرقابة صارمة كما خضعت أمور الدين لرقابة محاكم التفتيش ". وعلينا أن ننتظر قدوم القرن الثامن عشر على الأقل لنرى الترتيبات الكبيرة للشراء ، والتخزين ، والتوزيع ، التي لا يمكن بدونها التعامل مع هذه البضاعة الثقيلة المعرضة للتلف ، ونقلها إلى مسافات بعيدة بصفة منتظمة . فلم يكن هناك ، لا في البندقية، ولا في جنوة ، ولا في فلورنسا (ربما باستثناء آل باردى كورسي Bardi Corsi) ، في القرن السادس عشر،تجار كبار مستقلون ، ناهيك عن أن يكونوا متخصصين في تجارة الحبوب . كان التجار يتجهون الى تجارة الحبوب عندما تحدث أزمات طاحنة. وكانت البيوت التجارية البرتغالية الكبيرة ـ ومن بينها آل خيمينيس Ximénés ـ التي مولت في أثناء الأزمنة العنيفة تجارة القمح الذي نقل من شمال أوروبا إلى البحر المتوسط ، قد ربحت من هذه العمليات، طبقا لتقديرات خبير متخصص ، ٣٠٠ ٪ أو ٤٠٠ ٪ (١٠٧)... ولكن هذه العمليات كانت حالة فريدة ، وما يحدث مرة لا يقوم مقام القاعدة. والحق أن التجار الكبار لم يكونوا ، في المعتاد ، يهتمون إلا قليلا بهذه التجارة المثيرة للقلق، المعرضة للمخاطر. ولن يتحقق التركيز على تجارة القمح إلا في القرن الثامن عشر. يشهد على ذلك أن تجارة القمح في أثناء قحط عام ١٧٧٣ كانت شبه محتكرة. استأثر بها عدد من التجار كانوا يتصرفون فيها بأمرهم ، ويسنون قوانينها(١٠٨).

ونذكر من بين العمليات الكبيرة في تجارة الحبوب عمليات شراء القمح الكبيرة التي قام بها الملك جوستاف أدولف السويدى في روسيا ، وعمليات الشراء التي قام بها لويس الرابع عشر الفرنسي في أمستردام عشية غزوه لهولندة في عام ١٦٧٢؛ كذلك نذكر الأمر الذى أصدره الملك فريدريش الثاني في ٢٧ أكتوبر ١٧٤٠، غداة علمه بموت الإمبراطور شارل السادس ، لشراء ما بين ١٥٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ ويبة افرنجية boisseau من الجاودار من بولندة ، وميكلنبورج، وسليزيا ، ودانتسيج، وغيرها من البلاد

الأجنبية (مما تسبب له في مشكلات مع روسيا فيما بعد). ولقد كان عدد كبير من عمليات شراء الحبوب الكبيرة وثيق الصلة بالحرب أو باللعبة العسكرية . ويتضح لنا ذلك مما جرى على فريدريش الثاني: فقد كان عليه أن يلجأ إلى مخازن في البلاد المختلفة في وقت واحد ، لأن الأسواق كانت قليلة الإمكانات، ولم تكن هناك أسواق تستطيع تدبير كميات كبيرة دفعة واحدة . ويبدو أن العوائق التي كانت تقوم في طريق التجارة الحرة ، كانت تزداد إذا استسلم البعض لرغباتهم ، فإذا النشاط التجارى يزداد صعوبة على ما فيه من صعوبة. يشهد على ذلك ما جرى على فرنسا في السنوات الأخيرة للعهد القديم ، وهو العهد الملكي الذى انتهي بالثورة الفرنسية. فقد حلا للإدارة الملكية أن تستزيد من الخير ، فاستبعدت المبادرات الخاصة التي كانت حرة مفرطة في الحرية، وأنشأت احتكارا للقمح لصالحها ، أو على الأحرى لصالح التجار الذين كانوا يعملون في خدمتها، ووكلائهم، وتحملت هي بالأعباء والتبعات مما أضر بها ضرراً بليغاً. ولكن هذا النظام المهلهل عجز عن الوفاء بتموين المدن المتزايدة في الضخامة ، وشابته ألوان من الانحرافات، والاختلاسات والقصور البشعة المتكررة مما دعا البعض إلى اختلاق أسطورة التآمر من أجل إحداث المجاعة أوما سمي بحلف المجاعة(١٠٩). ويحق لنا في هذا المقام أن نقول باختصار: إنه ليس هناك دخان بغير نار .

كل هذا يشهد بما انطوى عليه أمر القمح من خطورة بالغة . فالقمح هو كل حياة فرنسا ، و هو كل حياة الغرب. ونحن نعرف " حرب الدقيق "(١١٠) التي نجمت عن الإجراءات المتسرعة التي اتخذها تورجو فيما يختص بحرية مرور الحبوب. " ويقول أحد المعاصرين الذين شهدوا حرب الدقيق إن الناس نهبوا الأسواق ، والمخابز، وانهم قد ينهبون بيوتنا، ويذبحوننا نحن يوما ما " ويضيف " لقد شرعوا ينهبون المزارع، فلماذا لا يتحولون الى نهب القصور"(١١١).

القمح
والسعرات الحرارية

يحتاج الإنسان في زماننا الحاضر إلى ما بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ من السعرات الحرارية يومياً ، إذا كان ينتمي إلى بلد غني ، وطبقة متميزة. وهذه الكمية من السعرات تمثل مستويات لم تكن مجهولة قبل القرن الثامن عشر، ولكنها لم تكن تمثل المعدل المعياري. وأيا كان الأمر ، فما دمنا بحاجة إلى رقم نسترشد به في حساباتنا ، فلنأخذ رقم ٣٥٠٠ سعر حرارى. وهذا الرقم الذي يدل على مستوى مرتفع من السعرات هو ما تصل اليه حسابات ايرل هاميلتون Earl J. Hamiton (١١٢) التي قيم بها القيمة الغذائية للميرة التي كانت في عام ١٥٦٠ مخصصة لأطقم الأسطول الأسباني المتجه إلى الهند ، وهو رقم قياسي إذا نحن أغمضنا عيوننا طواعية ، وصدقنا - بعيداً عن

اعتبارات هيمنة البلاط أو ما كان يأخذ نفسه به من حكمة وكياسة أرقام قيادة البحرية التي كان القائمون عليها يبالغون في رفع قيمة ما يقدمونه إلى البحارة من طعام، ويصفون أى حساء يقدمونه اليهم بأنه حساء طيب، دسم ، قوي ..

ولنذكر أننا نعرف موائد كانت تحفل بأطعمة أكثر دسما ، هناك موائد الأمراء، وموائد أولياء النعمة (ونذكر منهم أمراء مدينة بافيا Pavia الايطالية في مطلع القرن السابع عشر، أو المحظوظين الذين كانوا ينعمون بتناول الطعام على مائدة القسم الداخلي بالكلية البرومية الدينية بايطاليا Collegio Borromeo. والحق ان هذه الأرقام القياسية المتفرقة لا يجب أن تضللنا . ونحن اذا التمسنا المتوسطات بالنسبة للأعداد الكبيرة من سكان المدن ، وجدنا أنفسنا حول مستوى يقدر بـ ٢٠٠٠ سعر حرارى في أغلب الأحوال . وهذا الرقم ينطبق على باريس عشية الثورة . والمؤكد أن الأرقام التي بين أيدينا ، وهي أرقام ما تزال قليلة ، لا تحل بدقة المشكلات التي تشغل بالنا ، فهي لا تتيح لنا مثلا استنتاج معيار نوعي مقيم بالسعرات ، نحكم به على التغذية من الناحية الصحية ، أي من حيث التوازن بين النشويات ، والبروتينيات، والدهنيات . ثم هل ندخل في حساب حصة السعرات الحرارية النبيذ، والكحوليات؟ وكيف؟ قد جرت العادة على ألا يحسب للنبيذ ، والكحوليات أكثر من ١٠ ٪ من حصة السعرات للفرد؛ ومعنى هذا أن ما كان الناس يشربونه فوق نسبة الـ ١٠٪ لا يدخل في الحساب، ويصبح معدل السعرات المحسوب بعيدا عن الواقع ، فقد كانت هناك زيادة قائمة، وكانت تؤثر على صحة الشاربين ، وعلى ما ينفقون من أموال .

ومع ذلك فمن الممكن اذا أنعمنا النظر فيما لدينا من بيانات، أن نتبين بعض القواعد، معتمدين في ذلك على التخمين والبداهة . فتوزيع النسب بين الأنماط الغذائية المختلفة يتسم بداهة بسمة من اثنتين : إما التنوع ، وإما الرتابة. ويمكننا أن نقول ان الرتابة تكون هي السمة الغالبة على الغذاء ، عندما يتجاوز نصيب النشويات بشكل حاد نسبة ٦٠٪ من حصة السعرات الحرارية الكلية (كذلك يمكننا أن نستخدم على سبيل التبسيط، بدلا من كلمة النشويات ، كلمة الكربوهيدرات أو كلمة الحبوب، على الرغم من أن هذا التبسيط ينطوي على شيء من مجافاة الدقة). في هذه الحالة يكون نصيب اللحم ، والسمك، ومنتجات الألبان في الغذاء محدودا، ويتسم الغذاء بالرتابة، ويصبح تناول الطعام مساويا لتناول الخبز ثم الخبز أو العصائد ثم العصائد على مدى الحياة .

وإذا أخذنا بهذه المعايير، وطبقناها اكتشفنا أن المناطق الشمالية من أوروبا كان طعامها يتميزباستهلاك أعلى من اللحم ، بينما كانت المناطق الجنوبية تفسح في طعامها مكانا أكبر للكربوهيدرات، إلا إذا كان الأمر يتعلق بتموين الأساطيل العسكرية، فكانوا يحسنون التغذية العادية بما يضيفونه اليها من براميل، اللحم المملح أو التونة.

ولا غرابة، والأمر كذلك، في أن تكون مائدة الأغنياء أكثر تنوعا من مائدة الفقراء،

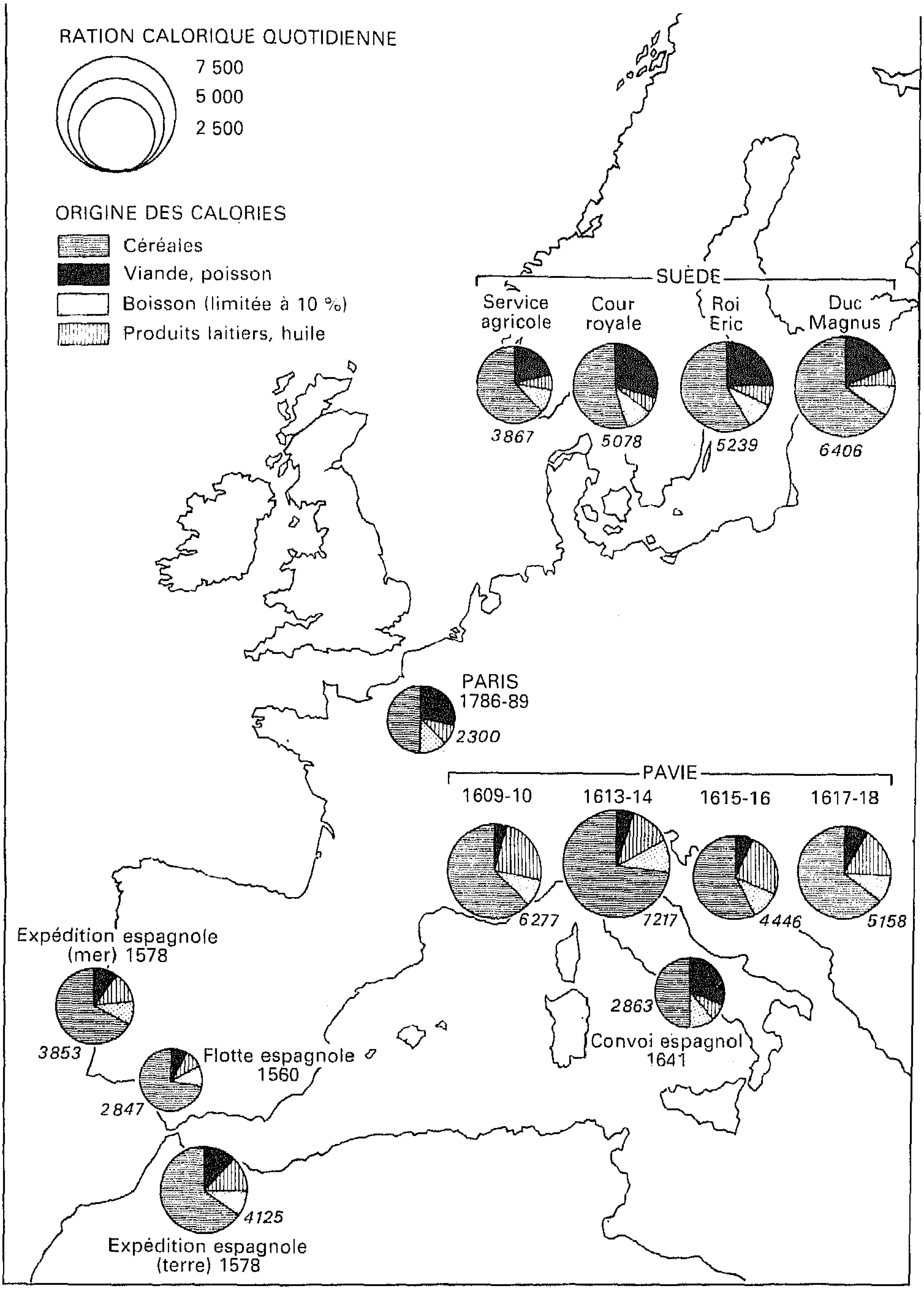

١٢ ـ أنماط التغذية في الماضى (مقدرة بالسعرات الحرارية)

هذه الخريطة أعدت بناء على بحوث عديدة، اعتمدت على وجبات متميزة نسبيا. ومن الضرورى أن نجمع الآلاف من الأمثلة من كل الطبقات الاجتماعية ، ومن العصورالمختلفة لكي نرسم خريطة تعكس الوضع في أوروبا .(عن كتاب ف . سپونر " أنماط التغذية في الماضي "

F. Spooner, Régimes alimentaires d'autrefois.

والنوعية أكثر من الكمية ـ هي علامة التمييز(١١٣). في مدينة جنوا في السنوات، حول ١٦١٤ ـ ١٦١٥ ، كانت المائدة الفاخرة لدى آل سبينولا Spinola لا تمثل فيها الحبوب إلا ٥٣ ٪، بينما كانت الحبوب في الوقت نفسه تمثل ٨١٪ من غذاء الفقراء، مثلا في مستشفي الأمراض المستعصية (ولنذكر أن الكيلوجرام من القمح يساوى ٣٠٠٠ من السعرات الحرارية ، وأن الكيلوجرام من الخبز يساوى ٢٥٠٠ من السعرات الحرارية). فإذا نظرنا بعين المقارنة إلى المكونات الأخرى ، وجدنا أن آل سبينولا لم يكونوا يستهلكون كمية أكبر من اللحم أو السمك، بل كانوا يستهلكون كمية مضاعفة من منتجات الألبان، والمواد الدهنية بالقياس إلى نزلاء المستشفى، وكانت أطعمتهم أكثر تنوعا، بل ربما تنوعت إلى ما لا نهاية ، فقد كانت تتضمن الكثير من الفاكهة، والخضروات، والسكر (٣ ٪ من المصروف). صحيح أن طلاب الداخلية في الكلية البرومية في ايطاليا، في الفترة بين ١٦٠٩ و ١٦١٨، كانوا يحصلون على حصص غذائية قوية (تكاد تتجاوز حدود التصديق : بين ٥١٠٠ و ٧٠٠٠ من السعرات الحرارية يوميا) ـ إلا أنهم لم يكونوا متخمين من ناحية التنوع: فقد كانت الحبوب تمثل نسبة عالية تصل الى ٧٣ ٪ من حصتهم الغذائية. فلم يكن طعامهم، وما كان يمكن أن يكون طعاما ممتازا .

وفي هذا الوقت ، أو قبله أو بعده بقليل ، عرف الناس تغذية حضرية أكثر تنوعا، أو على الأقل أكثر تنوعا من التغذية في الأرياف ، أخذت تفرض نفسها في كل الأماكن التي أمكن أن يشملها البحث، والتقصي، ففي باريس ، حيث استقر الاستهلاك نحو عام ١٧٨٠ عند معدل ٢٠٠٠ سعر حرارى تقريبا ، كما قلنا، لم تكن الحبوب تمثل إلا ٥٨٪ من المجموع الكلي، أو ما يساوي نصف كيلوجرام من الخبزيوميا(١١٤). وهذا الرقم يتوافق مع أرقام (سابقة وتالية) تحدد الحصة المتوسطة للباريسى من الخبز على النحو التالي: في عام ١٦٣٧\= ٥٤٠جم ؛ ١٧٢٨ـ١٧٣٠ = ٥٥٦ ؛ ١٧٧٠ = ٤٦٢؛ ١٧٨٨ = ٥٨٧ ؛ ١٨١٠ = ٤٦٣ ؛ ١٨٢٠ = ٥٠٠ ؛ ١٨٥٤ = ٤٩٣(١١٥). وهذه الأرقام ليست بطبيعة الحال مؤكدة ، مثلها في ذلك مثل الرقم الذي حددت به بعض الحسابات استهلاك الفرد من الخبز سنويا في البندقية بـ ١٨٠ كجم ، وهو رقم يبدو أن رقم الاستهلاك الحقيقي هناك كان يتجاوزه في مطلع القرن السادس عشر (١١٦) وهو في الحقيقة رقم انتهت إليه حسابات مشكوك فيها، ولكن هناك مؤشرات توحي بأن البندقية كانت فيها طبقة عاملة أجورها جيدة ، ومتطلباتها عالية، وكانت عادات التبذير المأخوذة عن أهل المدينة في الماضي قد تغلغلت الى أوساط من أتيح لهم شيء من السعة والبحبوحة.

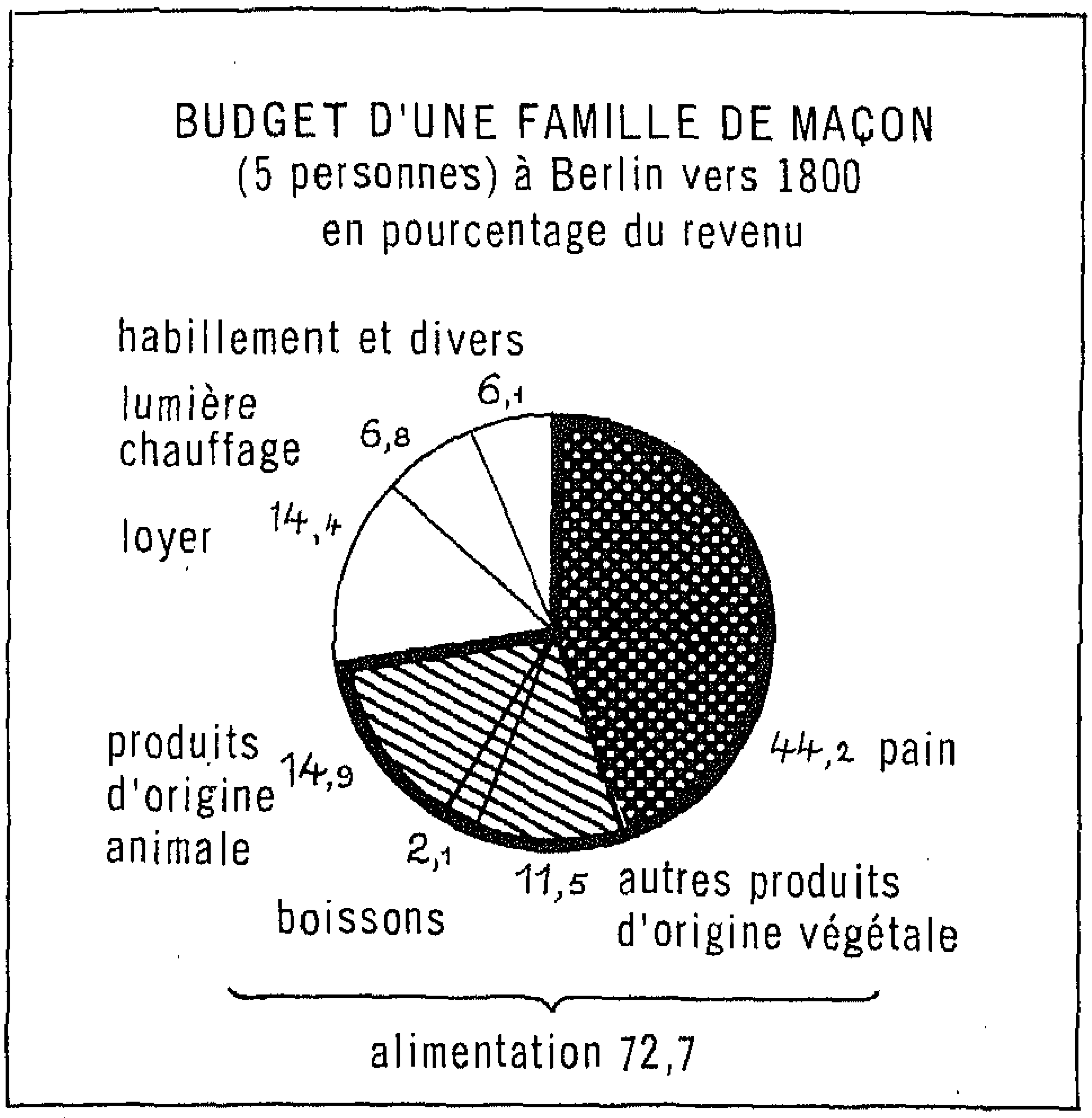

١٣ - ميزانية عائلة عامل بناء في برلين حول عام ١٨٠٠ .

ومن المفيد أن نقارن هذه الأرقام بالأرقام التي تبين متوسط انفاق الباريسي على طعامه في عام ١٧٨٨ وفي عام ١٨٥٤ . ويمثل الخبز هنا أكثر من ٥٠ ٪ من انفاق الأسرة على الطعام ، وهذه نسبة ضخمة اذا أخذنا في اعتبارنا ارتفاع سعر الحبوب نسبيا . ويعتبر هذا المثل مثلا دقيقا لما يمكن أن يكون عليه النمط الغذائي الرتيب الصعب .
(عن ف . آبل W.Abel)

وليس هناك شك في أن الخبز بصفة عامة كان يستهلك في الريف أكثر بكثير من المدينة ، وهذه هي الحال كذلك بالنسبة للمستويات الدنيا من العمال. وكان لجران دوسي Le Grand d`Aussy يقدر في عام ١٧٨٢ أن العامل، والفلاح يستهلكان في فرنسا كيلوجراما أو كيلوجراما ونصف من الخبز في اليوم ، ويرى " أن أى إنسان لديه شيء آخر يأكله غير الخبز لا يستهلك هذه الكمية ". ومع ذلك فإننا لازلنا حتى اليوم نرى في جنوب إيطاليا في أماكن العمل عمالا يتناولون غذاءهم ، يأكل الواحد منهم رغيفا هائلا، لا يأكل معه إلا بعض حبات البصل ، والطماطم كغموس ، أو كما يقولون كومباناتيكوcompanatico أى ما يمشي مع الخبز .

هذا الانتصار الذي انتصره الخبز يرجع بطبيعة الحال إلى أن القمح - ومعه الكحول المستخرج من الحبوب - كما يضيف مؤرخ بولندى(١١٧) يمجد نزوع الفلاحين في وطنه إلى استهلاك الحبوب شرابا وطعاما لا طعاما فقط - كان أرخص ثمنا من الأطعمة الأخرى التي تساويه في السعرات الحرارية : في عام ١٧٨٠ كان ثمن الخبز أقل من ثمن اللحم أحد عشر مرة ، وأقل من ثمن السمك البحرى الطازج خمسا وستين مرة، وأقل من ثمن السمك النهرى تسع مرات ، وأقل من ثمن السمك المملح ثلاث مرات، وأقل من ثمن البيض ست مرات، وأقل من ثمن الزبد والزيت ثلاث مرات ...

وفي الميزانيات التي قدر بها الباحثون متوسط إنفاق الباريسي المتوسط في عام ١٧٨٨، وعام ١٨٥٤ لم يكن القمح، وهو المورد الأول للطاقة، يمثل العبء الأكبر، بل نجده يحتل المركز الثالث في المصروفات، بعد اللحم، والنبيذ (كانت نسبة الإنفاق عليه ١٧٪ فقط في عام ١٧٨٨ وعام ١٨٥٤ من مجموع المصروفات)(١١٨).

وهكذا يسترد القمح كرامته ، القمح الذى قلنا عنه ، رضينا أو لم نرض ، الكثير من الشر. القمح هو المن والسلوى على مائدة الفقراء ، ولقد كان " غلاء ثمنه [...]هو الترمومتر الذى تتحدد بالقياس إليه أثمان الأطعمة الأخرى ." وهذا هو سيباستيان مرسيبه Sebastien Mercier يكتب في عام ١٧٧٠ قائلا : " إن هذا هو الشتاء الثالث على التوالي الذي يرتفع فيه ثمن الخبز. لقد أصبح نصف الفلاحين منذ العام الماضي في حاجة الى معونة خيرية عامة، وما أظن إلا هذا الشتاء سيزيد الطين بلة، لأن أولئك الذين عاشوا حتى اليوم على ما باعوه من متاعهم لم يعد لديهم ما يبيعونه"(١١٩). إذا عز القمح ، عز كل شيء بالنسبة للفقراء. ولا ينبغي أن ننسى ما يرتبط بالقمح من مؤثرات نفسية تزيد من حدة المشكلة ، فالقمح يستعبد منتجيه ، وتجاره ، والوسطاء في تجارته ، والمشتغلين بنقله، ومستهلكيه. كان القمح هو الذي يعلن التعبئة، ويوجه الإنذار تلو الإنذار. " القمح طعام الانسان وجلاده "، كلمة قالها ، بل رددها سيباستيان مرسييه.

ثمن القمح
ومستوى المعيشة

هذه الكلمة التي قالها سيباستيان ميرسييه لا يكاد يكون فيها مبالغة. فقد كان القمح في أوروبا نصف الحياة اليومية للناس . وكان ثمن القمح يتغير، ولا يكف عن التغير، متأثراً بظروف المخزون ، والنقل ، وبالأحداث السيئة التى تلقي بظلالها على مستقبل المحاصيل ، وتحدد مصيرها، بل متأثرا بالمحاصيل نفسها، ومتأثرا أخيرا باللحظة من العام ، ويظهر لنا ثمن القمح في رسوماتنا البيانية كأنه زلازل أو اهتزازات أرضية سجلها السيسموجراف، جهاز رسم الهزات الأرضية . وكانت التغيرات التى تطرأ على ثمن القمح تمس حياة الفقراء الذين لا حيلة لهم ، ولا قدرة لهم على النجاة بأنفسهم من ارتفاعات الأسعار الموسمية بتخزين كميات كبيرة في الوقت المناسب. فهل من الممكن أن نستخدم سعرالقمح كمقياس - مثل البارومتر - نقيس به مستوى حياة الجماهير، على المدى القصير، والمدى الطويل ؟

المشكلة إذن هي مشكلة قياس مستوى حياة الجماهير اعتمادا على سعر القمح، ويتطلب الخروج بهذه المشكلة من الظلمات إلى النور أن نلتمس الحلول المناسبة، وهناك حلول فكر فيها البعض، ولكنها حلول قليلة العدد، تتسم بالقصور، تذهب هذه الحلول إلى: مقارنة أسعار القمح بالأجور التي كان الناس يحصلون عليها ، ولكن عيب هذا

الحل أن الأجور لم تكن كلها تدفع نقداً، بل من الأجور ما كان يتكون كله من عينيات، ومنها ما كان يتكون في جزء منه من عينيات ، وفي جزء آخر من نقود ؛ وفكر البعض في حساب الأجور محولة إلى قمح أو جاودار (وهذه هي الطريقة التي اتبعها ف. أبل في الرسم البياني الذى استعرناه منه)؛ وفكر البعض الآخر في أن نحدد سعرا متوسطا" لسلة أقوات " نموذجية (من هذا القبيل: الحلول التى قال بها فيلبس براون Phelps Brown وشيلا هوبكينس Sheila Hopkins) (١٢٠)؛ ومن الحلول المقترحة : أن نقيم بناء على وحدة نحتسبها، هي الأجر في الساعة ، بالنسبة لأسوأ العمال حالا ، وهم في المعتاد " الفعلة "، العمال الذين يعاونون البنائين، والعمال الذين يجهزون الجير لأعمال البياض ، وهذا المنهج ـ وهو منهج چان فوراستييه Jean Fourastié وتلاميذه ، وبخاصة ر. جراندامي R.Grandamy له ميزاته . والسؤال هو في نهاية المطاف : ماذا تقول هذه الأسعار " الفعلية " ؟ ومن المؤكد أن القنطار الفرنسي القديم quintal كان ثمنه حتى عام ١٥٤٣ فوق مستوى ١٠٠ ساعة عمل، ثم هبط ، وأصبح تحت مستوى هذا الرقم أو تحت هذا الخط الحساس حتى عام ١٨٨٣ تقريبا (وقد اعتقد الباحثون أنهم يحسنون صنعًا عندما يعودون إلى استخدام الموازين القديمة) . كانت هذه طريقة لتصوير الموقف في فرنسا على وجه التقريب، وهذا الموقف هو على وجه التقريب أيضا الموقف في بلاد الغرب الأخرى المشابهة . تشير البيانات إلى أن العامل كان يقوم على وجه التقريب بـ ٣٠٠٠ ساعة عمل في العام، وأن أسرته (أربعة أفراد) كانت تستهلك على وجه التقريب ١٢ قنطاراً من القمح في السنة ... وكان ثمن القنطار يناظر ١٠٠ ساعة ، فإذا تجاوز ثمن القنطار خط الـ ١٠٠ ساعة، كانت تلك إشارة إلى ظروف حياة سيئة ، إماإذا وصل ثمن القنطار إلى خط الـ ٢٠٠ ساعة فكانت تلك اشارة إنذار خطيرة ، أما خط الـ ٣٠٠ ساعة فكان يعني المجاعة . ويلاحظ رينيه جراندامي أن التغيرات التي كانت تطرأ على خط الـ ١٠٠ ساعة كانت تتخذ في الرسم البياني صورة اندفاع رأسي إلى أعلى أو الى أسفل ، فإما أن يندفع الخط صاعدا على هيئة السهم ، وهذا ما حدث نحو منتصف القرن السادس عشر، وإما أن يندفع هابطا هبوطا فظيعا ـ كما حدث في عام ١٨٨٣ ، وهكذا فإن تحركات الأسعار صعودا أو هبوطا ، كانت تتسم دائما بالعنف في هذا الاتجاه أو ذاك. ومعنى هذا أن الأسعار الفعلية في القرون التى يعالجها كتابنا هذا شهدت اندفاعا هابطا شديدا في الاتجاه السيء. أما الفترة الإيجابية الوحيدة التي نلاحظها فهي تلك التي تلت وباء الطاعون الأسود، وهذا ما يدفعنا إلى ضرورة إجراء مراجعة منهجية لوجهات النظر القديمة .

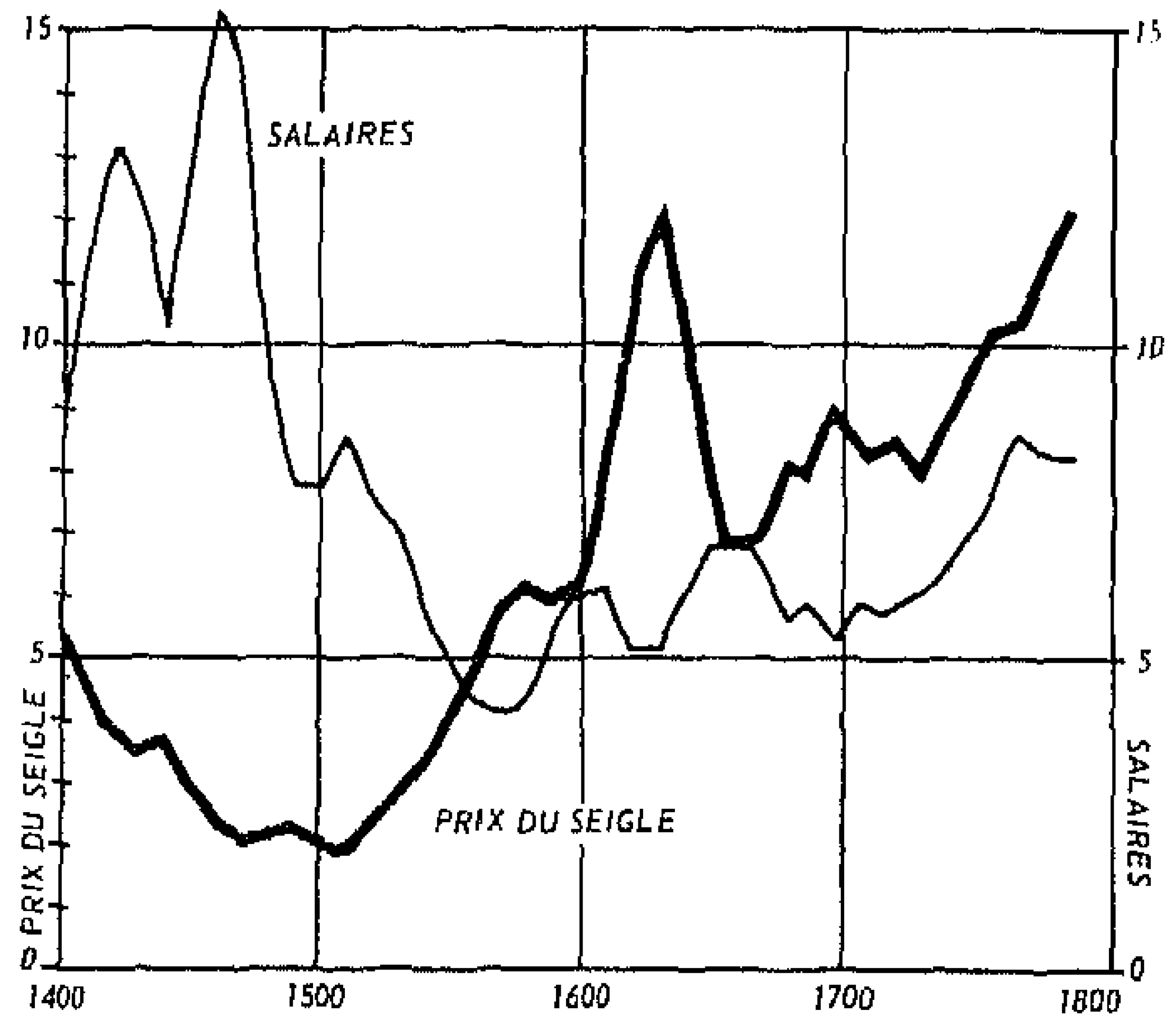

١٤ ـ الأجور وأسعار الجاودار في مدينة جوتينجن الألمانية (بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر) .

وقد قدر ثمن الجاودار هنا بمارك الرايخ الفضي أما الأجور (وتمثل الأجور التي كان يحصل عليها الحطاب ، ولا يدخل فيها تدبير مواد خام) فمقيّمة بما يقابلها من كيلوجرامات الجاودار. والتناسب واضح بين صعود أسعار الجاودار وانخفاض الأجر الصافي، والعكس صحيح . (عن ف . آبل)

والخلاصة : بؤس يعانيه الأجَراء في المدينة ؛ وبؤس يعانيه أيضا أهل الريف الين كانوا يحصلون على أجور عينية ، وكانت هذه الأجور العينية تسير على نفس الإيقاع تقريباً. والقاعدة في هذه الحالة قاعدة واضحة جلية : وهي أن الفقراء يضطرون إلى الالتجاء إلى الحبوب الثانوية ، " إلى المنتجات الأرخص ثمنا ، والتي تمدهم رغم رخصها بقدر كاف من السعرات ، إلى ترك الأطعمة الغنية بالبروتين ، وتناول الأطعمة القائمة على النشويات." وعشية الثورة الفرنسية كانت الصورة في منطقة بورجونديا الفرنسية على النحو التالي: " لم يكن العامل الزراعي العادى يقرب القمح ، أما الفلاح فكان يأكل القليل من القمح . فقد كان الفلاح يخصص هذه الغلة الترفية للبيع أو لأبنائه الصغار أو لبعض المتع النادرة. كان القمح يذهب إلى حافظة النقود أكثر مما كان يذهب إلى المائدة... وظلت الحبوب الثانوية تمثل جوهر غذاء الفلاحين : كان الغذاء في البيوت الغنية نسبياً يتكون من خليط من القمح والجاودار، أو من جاودار خالص؛ وشعير ، وشوفان في البيوت الأكثر فقرا؛ وذرة في منطقة بريس Bresse ، وفي وادي الساؤون ؛ وجاودار، وبرة سوداء في منطقة مورڤان Morvan الجبلية "(١٢١). وكان الاستهلاك في المتوسط في منطقة پييمونتي Piemonte حول عام ١٧٥٠ على النحو التالي مقدرا

بالهكتولتر قمح ٩٤,٠ ؛ جاودار ٩١,٠ ؛ حبوب أخرى ٤١,٠ ؛ أبو فروة ٤٥,٠ (١٢٢)؛ فيكون المجموع ٢,٧١ هكتولتر في السنة. ونتبين في هذه الحصة، التي تعتبر على الأحرى غير كافية ، أن نسبة القمح متواضعة .

خبز الأغنياء

.. خبز وعصائد الفقراء

هناك قمح وقمح ، وهناك خبز وخبز . ففي پوواتييه Poitiers في ديسمبر من عام ١٣٦٢ " عندما كان ثمن الويبة الفرنسية setier من القمح يصل إلى ٢٤ سولا sous كانت هناك أربع نوعيات من الخبز : خبز شوان choyne بدون ملح ، وخبز شوان بالملح، وخبز سافلير safleur ، وخبز ريبوليه reboulet." أما خبز الشوان choyne، سواء منه ما كان بالملح أو بدون ملح ، فخبز أبيض ، عالي الجودة، كان يصنع من دقيق منخول. وأما خبز السافلير safleur (ولاتزال كلمة سافلير مستخدمة إلى اليوم) فكان يصنع من الدقيق بكل مافيه من مكونات بدون نخل . وأما خبز الريبوليه reboulet فكان يصنع من دقيق منخول بنسبة ٩٠٪، وكان يحتوى على السن الناعم الذى " لا يزال يعرف في لهجة پواتييه باسم ريبوليه riboulet. وتقابل هذه النوعيات الأربع الفترات الهادئة التي يكون فيها سعر القمح حول متوسطه . أما إذا كانت الأسعار منخفضة ، أو كانت في حدود المعقول، فكانوا يصرحون بثلاث نوعيات فقط ؛ وأما إذا ارتفعت الأسعار ، فقد كان من الممكن صناعة سبعة أنواع مختلفة أشد الاختلاف : ولكنها كانت في الحقيقة بمثابة تنويع كبير لأصناف الخبز الردىء، أو ما يمكن تشبيهه بفتح مروحة الخبز الردىء على سعتها(١٢٣). وليس هناك مثل آخر أفضل من هذا المثل، يبين لنا كيف كان التفاوت في أنواع الخبز هو القاعدة (وما خبز بواتييه هذا الذى أوردناه إلا واحد من مائة مثل كان يمكننا أن نستشهد بها). ومن الخبز ما لم يكن له من الخبز إلا الاسم. وكثيراً ما كان الناس، على الرغم من هذا، يبحثون عن الخبز أياً كان ، فلا يجدونه .

وكانت أوروبا قد ظلت حتى القرن الثامن عشر مخلصة لتقاليدها الغذائية القديمة، تتغذى على ألوان من الحساء الرديء أو العصائد، وكانت هذه العصائد أقدم من أوروبا نفسها. كان الإتروسكيون ، والرومان القدامي يأكلون عصيدة البولس puls التي استخدموا الدخن في صناعتها ، وكانت لديهم عصيدة الأليكا alica التي كانوا يستخدمون النشويات في صناعتها ، وربما كانت الأليكا أيضاً نوعاً من الخبز. ويتحدثون عن الأليكا القرطاجية ، وكانت من الأطعمة المترفة التي كانوا يدخلون فيها الجبن، والعسل، والبيض(١٢٤). أما عصيدة الپولينتا polenta (قبل أن يتحولوا إلى

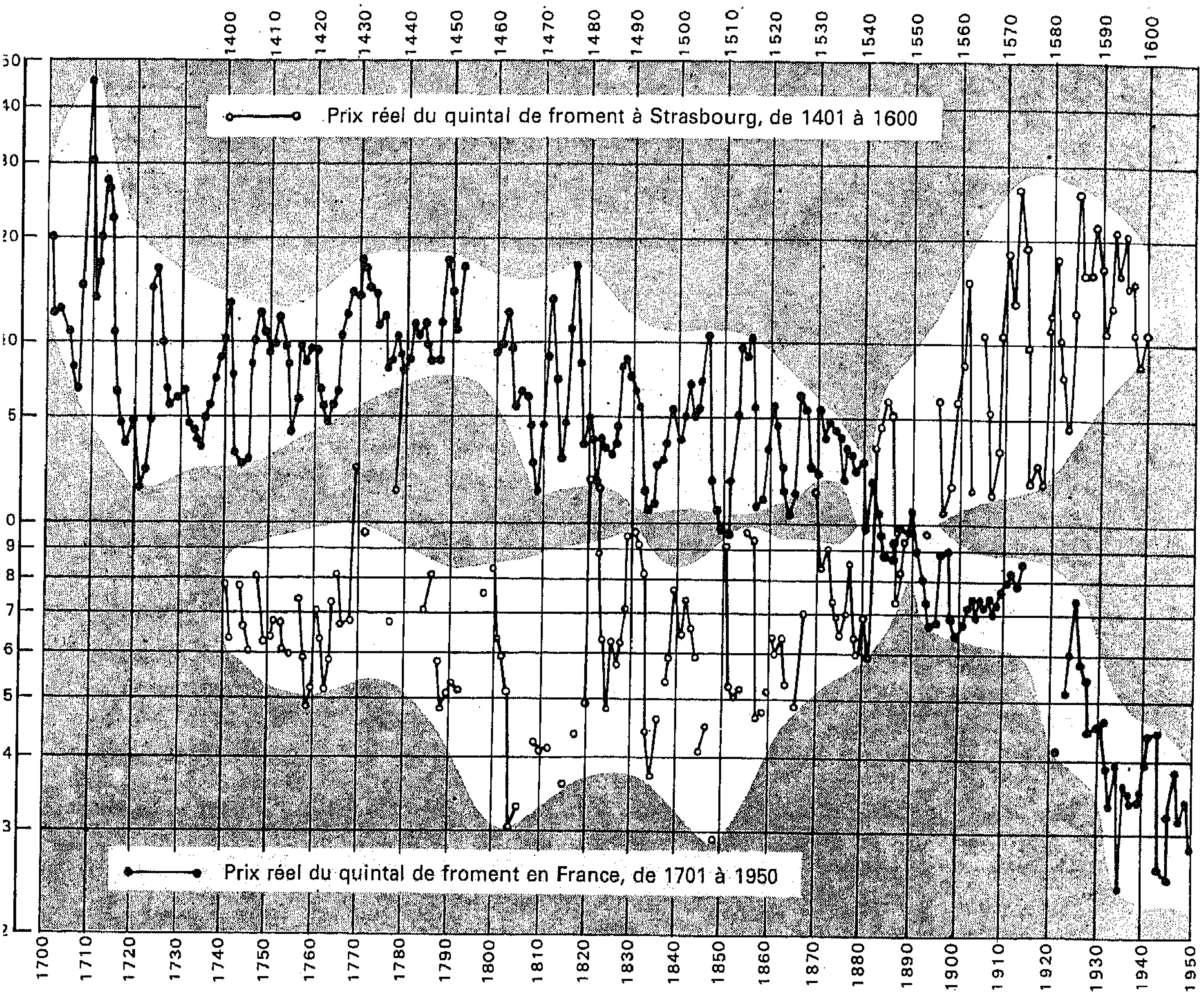

١٥. مثلان للسعر الحقيقي للقمح .

يحاول هذا الرسم البياني أن يبين ما تعنيه حركة الأجور الحقيقية (مترجمة الى قمح) وقد حولت الموازين القديمة إلى قناطير فرنسية حديثة ، وحسبت أسعار القمح مترجمة إلى عشرات الساعات من العمل اليدوى . والخط ١٠ (وهو يعني ١٠٠ ساعة من العمل) يمثل الحد الأعلى الذى يبدأ من بعده الغلاء ، وحياة المعاناة بالنسبة للعاملين . ويصبح الحد معبرا عن الكارثة عندما يصل الى ٢٠٠ ساعة . أما القحط فيحدث بعد ٣٠٠ ساعة من العمل (وقد بلغ الحد رقما قياسيا في عام ١٧٠٩ ، اذ ارتفع إلى ٥٠٠ ساعة).

وتتجلى أهمية هذا الرسم البيانى في تقاطع المنحنيين : في الفترة من ١٥٤٠ الى ١٥٥٠ ، تجاوز الحد خط الـ ١٠٠ ساعة ، ولن يحدث رجوع الى المستوى المنخفض إلا في الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٩٠ بعد فترة غلاء طويلة جدا . ونلاحظ أن تجاوز خط الـ ١٠٠ ساعة يتم دائما باندفاع سريع ، سواء في ذلك إلى اتجاه الصعود أو إلى اتجاه الهبوط ، وأن هذا الاندفاع تصاحبه في كل حالة هزة تشمل الاقتصاد بأكمله .

و يعتبر هذا الرسم البياني دليلا جديدا على حالة يسر عام نسبي في القرن الخامس عشر على الرغم من بعض حالات العسر التي كانت بطبيعة الحال تواكب المحاصيل الرديئة .

(مأخوذ عن ر. جراندامي R.Grandamy، من دراسة له ظهرت في :

. J. Fourasté فوراستيپه. ج نشره prix de vente et prix de revient, 14e série.

صنعها من الذرة) فكانت عصيدة من حبوب الشعيرالمحمصة التي كانوا يطحنونها، ويخلطونها بالدخن. وكانوا في منطقة الأرتوا Artois في القرن السادس عشر، وقبل القرن السادس عشر على الأرجح ، وبعده يقينا ، يستخدمون الشوفان في إعداد "الجروميل grumel، وهي عصيدة كان أهل المناطق الريفية يقبلون عليها(١٢٥)." وكانوا في القرن السادس عشر، وحتى القرن الثامن عشر يأكلون عصيدة الدخن كطعام شائع في قرى فرنسا في سولونيا Sologne، و شامپانيا Champagne، وجاسكونيا Gasconie . أما في بريتانيا Bretagne فكثيرا ما كانوا يضمون إليها عصيدة غليظة يصنعونها من البرة السوداء ، والماء أو اللبن ، ويسمونها جرو grou(١٢٦) ، وكان الأطباء في فرنسا ، في مستهل القرن الثامن عشر ، يوصون بأكل عصيدة الجرو شريطة أن تصنع " من الشوفان المكثف ."

ولم تتلاش هذه العادات الغذائية حتى الآن . فالعصيدة الاسكتلندية ، والانجليزية - البوريدج porridge عبارة عن عصيدة من الشوفان . وفي پولندة ، وروسيا يصنعون عصيدة الكاشا kacha من الجاودار المجروش المحمص الذى يطهى على طريقة طهي الأرز. وهذا ضابط من ضباط المدفعية الإنجليزية يقول كلاماً، لا نشك كثيرا في صحته، يصف به تصرفه إبان معركة أسبانيا في عام ١٨٠٩ ، عندما رجع في إعداد الطعام الى التقاليد الغذائية القديمة، يقول: " كنا نعد هذا القمح بغليه في الماء مثل الأرز، أو كنا، إذا لم نستثقل العمل ، نجرش الحب بين حجرين مسطحين ، ثم نضيف إلى الحب المجروش الماء، ونغليه إلى أن نحصل على عصيدة غليظة القوام(١٢٧) ". ونقرأ قصة السباهي التركي الشاب الذي أسره الألمان قرب تيمسفار Temesvar في عام ١٦٨٨، واسمه عثمان أغا، وتمكن من حل مشكلة الطعام على نحو أدهش حراسه. كان خبز الجراية الذي يوزع على الجنود والأسرى، الكوميسبروت Kommissbrot قد فرغ، وصدر أمر القيادة بتوزيع جرايات من الدقيق على الجنود (بعد أن ظلوا يومين كاملين بغير ميرة). كان عثمان أغا هو وحده الذى عرف كيف يعجن هذا الدقيق بقليل من الماء، ويسويه تحت رماد النار الساخن، وقال إنه كان قد مر من قبل بظروف مشابهة تعلم منها كيف يتصرف(١٢٨). وكان الناتج أقرب شيء إلى الخبز، أو كان نوعا من الخبز بدون خميرة، كانواً في تركيا، وفي بلاد فارس يعجنونه، ويسوونه تحت الرماد، ويأكلونه .

كان الخبز الأبيض طعاماً نادراً ، من قبيل الترف . وهذا هو دوپريه ديسامور يكتب في هذا المعنى: " ان مجموع كل من يأكلون خبز القمح في كل البيوت الفرنسية، والإسبانية ، والإنجليزية لا يزيد على مليوني نسمة (١٢٩)." وإذا أخذنا هذه العبارة الساخرة على حرفها، فمعنى ذلك أن من كانوا يأكلون القمح لم يزد عددهم عن ٤٪ من

وجبة العصيدة تتناولها عائلة من الفلاحين في هولندة (١٦٥٣) ، وتظهر القصعة الوحيدة موضوعة فوق كرسي لا ظهر له . إلى اليمين نرى الفرن ، إلى اليسار نرى سلما .

مجموع سكان أوروبا. ففي بداية القرن الثامن عشر كان أكثر من نصف سكان الريف يأكلون الحبوب التي لا تستخدم في صناعة الخبز ، ويأكلون الجاودار ، وكان دقيق الفقراء يحتوى على كثير من النخالة. ولقد ظل خبز القمح ، والخبز الأبيض، وخبز الشوفان (والأرجح أنه كان خبز القساوسة ، خبز قراء الكتاب المقدس) ردحا طويلا من الزمن من الكماليات، والأطعمة الترفية. وهناك مثل فرنسي سائر قديم يقول : " لا تأكل خبزك الأبيض في البداية(١٣٠) " كأنما يقصد المثل أن يدع الإنسان الطعام الحلو إلى النهاية ليكون مسك الختام. وأيا كان اسم الخبز الأبيض فقد كان موجودا منذ وقت

مبكر، ولكنه كان قاصرا تماما على الأغنياء. ونقرأ عن شباب من أهل البندقية كانوا في عام ١٥٨١ في الطريق إلى كومبوست Compostelle، وتوقفوا قرب دويرو Duero في أسبانيا ، ودخلوا بيتا منعزلا ، طلبا لطعام يسدون به رمقهم ، فلم يجدوا فيه" خبزا حقيقيا، ولا نبيذا ، لم يجدوا إلا خمس بيضات ، ورغيفا كبيرا من خبز الجاودار، وأخلاطا أخرى لم يكن في مقدورهم أن ينظروا إليها مجرد النظر ، إلا قلة منهم قضموا من الخبز قضمة أو قضمتين(١٣١).

وما لبثت باريس أن شهدت خبزا أفضل من الخبز الأ بيض ، بدأ يشق طريقه إلى النجاح، هو " الخبز الطرى " pain mollet، وكانوا يصنعونه من الدقيق الزيرو، ويخمرون عجينته بخميرة البيرة (بدلا من الخميرة الفرنسية العادية التي كانوا يسمونها الخميرة الافرنجية). فلما أضافوا إليه اللبن خرج إلى الوجود خبز الملكة bain a' la Reine الذى عشقته مارى دى ميديسيس ، ملكة فرنسا في القرن السابع عشر(١٣٢)... وفي عام ١٦٦٨ حظرت كلية الطب استخدام " خميرة البيرة "، ولكن دون جدوى ، فقد ظل الناس يستخدمونها في صناعة الأرغفة الفينو الطرية الصغيرة " الخبز الصغير " ، البِتى پان petit pain، وكان النساء يحملن كل يوم الى المخابز المشنات المليئة بالخبز الصغير المقرص ليتم خبزها ، كن " يحملنها على رؤوسهن كما كن يحملن جرار اللبن ." ومن المؤكد أن الخبز الطرى ظل من الكماليات : كما قال أحد الباريسيين (١٧٨٨) " إنه بوجهه المقرمش الذهبي يلوح كأنه يحتقر الخبز الليموچي الكبير ...إنه يبدو كإنسان نبيل بين الصعاليك(١٣٣)." وكانت هذه الكماليات رهنا بالثراء . فاذا اشتد " الغلاء " كما حدث في باريس في سبتمبر من عام ١٧٤٠ ، تحتم على البرلمان أن يصدر مرسومين يحظران " صناعة أنواع أخرى من الخبز سوى الخبز الأبيض المخلوط "، ويمنع صناعة الخبز الطرى، والخبز الصغير أو البِتي پان ، كما يمنع استخدام " بودرة" الزينة المتخذة من الدقيق، والتي كانت شائعة في ذلك العصر ، يرشها الناس على باروكات الشعر المستعار لتزداد جمالا(١٣٤) .

ولم ينتشر الخبز الأبيض ، ويظهر على العصائد ، أو لنقل بعبارة أخرى ، إن ثورة الخبز الأبيض الحقيقية لم تنطلق إلا بين عامى ١٧٥٠ و١٨٥٠ ، عندما حل القمح محل الحبوب الأخرى (كما حدث في انجلترا) ، وتبع ذلك إنتاج الخبز على نحو متزايد من أنواع من الدقيق نزعت منها نسبة كبيرة من النخالة . وانتشر في الوقت نفسه رأىٌ ميَّز الخبز على العصيدة ، مفاده أن الخبز ـ المصنوع من العجين المخمر ـ هو الوحيد الذى يلائم صحة الناس ، ويوضح ديديرو Diderot هذا الرأى قائلا إن العصيدة ، أيا كان نوعها، عسرة الهضم ، ويرجع السبب في ذلك " إلى إنها لم تتخمر (١٣٥)". وشهدت فرنسا ـ التي كانت ثورة الخبز الأبيض توشك أن تنطلق فيها ـ إنشاء المدرسة القومية للخبازة في عام ١٧٨٠ (١٣٦) ، وبدأ الخبز الأبيض ينتشر، ولن تمر سنوات

حتى يصبح جنود نابليون بونابرت في ربوع أوروبا مروجين " لهذه النعمة الكريمة ، إلا وهي الخبز الأبيض ". وعلى الرغم من حديثنا عن رواج الخبز الأبيض ، فإننا ننبه مرة أخرى الى أن ثورة الخبز الأبيض ظلت تسير ببطء مذهل على مستوى أوروبا ، ولن تبلغ غايتها قبل عام ١٨٥٠. وإذا نحن دققنا النظر إلى الفترة التي سبقت نجاح ثورة الخبز الأبيض نجاحها الكامل، وجدنا أن المتطلبات القديمة للأغنياء ، والمتطلبات الجديدة للفقراء ظلت تحدث ضغوطا مؤثرة على توزيع المزروعات. كان القمح قد أصبح منذ بداية القرن السابع عشر هو الزراعة السائدة في المنطقة المحيطة بباريس ، وفي منطقة مولسيان Multien، والڤيكسان Vexin، ولكن سيكون على القمح أن ينتظر حتى نهاية القرن ليسود في مناطق ڤالوا Valois، وبرى Brie ، وبوڤيزي Beauvaisis، وستظل ربوع فرنسا الغربية خالصة للجاودار دون ما سواه .

والخلاصة التي لا ينبغي أن نغفل عنها تتمثل في تقدم فرنسا في مجال الخبز الأبيض. وهذا هو سيباستيان ميرسييه يعلن: " إن لم يأكل الإنسان الخبز الأبيض العظيم في باريس، فأين يأكله ؟ " إنني احب الخبز الأبيض كل الحب، وأعرفه حق المعرفة، وأتبين صنفه بمجرد أن أراه (١٣٧) .

هل يشترى الانسان خبزه أم يصنعه ؟

لم يكن الخبز الذى يباع يتغير ثمنه، بل كان وزنه هو الذى يتغير. ويمكننا أن نقول بصفة عامة إن قاعدة الوزن المتغير هي القاعدة التي تنطبق على العالم الغربي في مجموعه . نلاحظ أن وزن الخبز الذي كان يباع في البندقية ، في مخابز ميدان سان ماركو أو ريالتو ، كان يتغير بتناسب عكسي مع تغير سعر القمح ، على نحو ما يظهره الرسم البياني التالى الذى يمثل الربع الأخير من القرن السادس عشر . وتشهد اللوائح الرسمية المنشورة في كراكاو Krakau في أعوام ١٥٦١ و ١٥٨٩ و١٥٩٢ على نفس الممارسات: الثمن لا يتغير، والوزن هو الذى يتغير. وقد حددت هذه اللوائح ـ مع الأخذ في الاعتبار تغير الجودة والوزن ـ وزن الخبز المقابل لقطعة من العملة من فئة الجروس grosz ، فحددت الوزن على النحو التالي في عام ١٥٩٢: ثلاثة كيلوجرامات من خبز الجاودار ، أو كيلوجراما واحدا من خبز القمح(١٣٨).

وكانت هناك استثناءات ، على أية حال كان هناك استثناء شهدته باريس . كانت لائحة يولية من عام ١٣٧٢ تميز بين ثلاثة أصناف من الخبز : خبز شايى Chailli- خبز مبروم أو حلزوني coquille أو بورجوازى ـ وخبز برودي brode (والخبز البرودي خبز أسمر مخلوط). كان المستهلك يحصل في مقابل السعر نفسه على الأوزان المختلفة التالية مقدرة بالأوقيات onces من الأصناف الثلاثة على الترتيب : ١ و٢ و٤. ومعنى

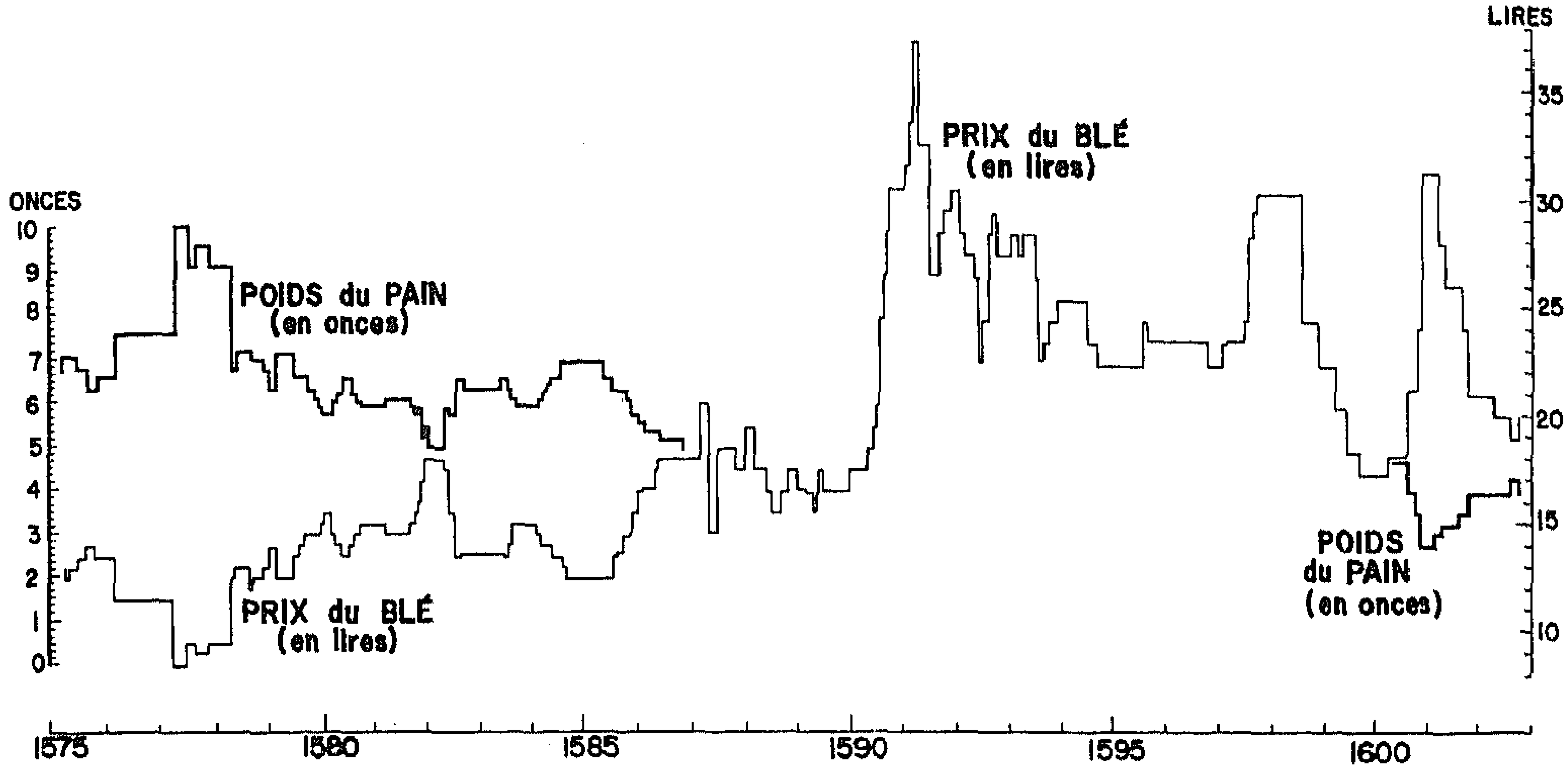

١٦ـ وزن الخبز وثمن القمح في البندقية في نهايةالقرن السادس عشر.

= F. Braudel, La Vita economica di venezia nel secolo xvi, in: lu cirrita' veneziana del Rinascimento

ف . برودل ، الحياة الاقتصادية في البندقية في القرن السادس عشر ، منشور في : حضارة البندقية في عصر النهضة)

هذا أن النظام الذى كان قائما في ذلك الوقت هو النظام العادى ، حسب القاعدة وهي: الثمن الثابت والوزن المتغير . ولكن ابتداء من عام ١٤٣٩(١٣٩) تم تحديد أوزان ثلاثة أحجام من خبز واحدتحديدا نهائيا: ربع كيلو نصف كيلو- كيلو." ومنذ ذلك الحين أصبح سعر الخبز هو الذى يتغير بتغير ثمن القمح ." ولقد حدث هذا كله نتيجة للتصريح الذى أعطي منذ وقت مبكر للخبازين من خارج العاصمة : خبازي جونيس Gonesse، بونتواز Pontoise ، وچرجنتوى Argenteuil، وشارنتون Charenton، وكوربي Corbeil الخ. بالحضور إلى العاصمة باريس، وبيع " الخبز الجاهز" بحسب الوزن. كان الناس في باريس شأنهم في ذلك شأن أهل لندن ، يشترون الخبز من سوق من الأسواق العشر، أو الخمس عشرة ، بالمدينة أكثر مما يشترونه من محلات الخبازين(١٤٠).

وعلى الرغم من أن الخبازين كانوا في ذلك الوقت يُعتبرون من الشخصيات البارزة، الشخصيات التي تفوق أهميتها أهمية الطحانين أنفسهم ، لأنهم كانوا يشترون القمح مباشرة ، ويحتلون نتيجة لهذا مركزا مرموقا في عالم التجارة ، فإن إنتاجهم لم يكن يتجه إلا إلى شريحة واحدة من المستهلكين ، كانوا هم الذين يشترون خبزهم ، بينما آثرت شريحة أخرى من المستهلكين العيش البيتي . لابد إذن أن نأخذ في اعتبارنا الأفران المنزلية في البيوت الريفية ، وبيوت المدن أيضا، وأن نأخذ في اعتبارنا كذلك

صناعة الخبز البيتي ، وبيعه للجمهور. كان الفلاحون يأتون في القرن الخامس عشر إلى مدينة كولونيا Köln الألمانية ، وإلى إقليم قشتالة الأسباني في القرن السادس عشر - بل حتى اليوم - يأتون من الريف المجاور ليبيعوا الخبز في المدن التي كانوا يقبلون عليها مبكرين قبل مطلع النهار . وكان الخبز الفلاحي بضاعة متميزة ، يشهد على ذلك أن السفراء في مدينة البندقية كانوا يتمتعون بامتياز الحصول على الخبز الفلاحي من المناطق المحيطة بالمدينة : فقد كان الخبز الفلاحي مشهورا بأنه أفضل من خبز المخابز - أو عيش الطابونة - في البندقية . وما أكثرالبيوتات الثرية - في البندقية ، وجنوة، وغيرهما - التي كانت لها صومعتها الخاصة التي تخزن فيها قمحها، وفرنها الخاص . كذلك كان عامة الناس يصنعون خبزهم بأيديهم ، نتبين ذلك إذا نحن تفحصنا منظر السوق الحضرية بمدينة أوجسبورج Augsburg الألمانية الذي حفظته لنا لوحة ترجع إلى القرن السادس عشر : كانت الحبوب ، على نحو ما نتبين فيها ، تباع بمكاييل صغيرة لزبائن القطاعي (ولا تزال هذه المكاييل محفوظة هي أيضا في متحف المدينة).

وبين أيدينا تقديرات رسمية ، نراها قابلة للتصديق ، كل التصديق ، تشير إلى أن الخبازين في البندقية ، في عام ١٦٠٦ ، كانوا يستهلكون كمية من القمح لا تجاوز ١٨٢٠٠٠ وبية إيطالية stara من مجمل الاستهلاك العام المقدر بـ ٤٨٣٦٠٠ ؛ أما الأسواق ، فكان نصيبها سنه هو ١٠٩٥٠٠ وبية ؛ وكانت البيوت تستهلك لأفرانها البيتية (١٤١) ١٤٤٠٠٠ وبية ؛ أما البقية فكانت تستخدم لصناعة القراقيش اللازمة للأساطيل . والخلاصة أن الخبز الذى كانت تنتجه المخابز لم تزد كميته بصفة عامة على كمية الخبز الذى يخبز في الأفران البيتية إلا زيادة لا تكاد تذكر (١٤٢)، وهذا في البندقية.

أما في جنوة فقد حدث هياج شديد بين الناس في أغسطس من عام ١٦٧٣ عندما دار الحديث حول إلغاء أفران الخبز البيتية ، وهذا هو القنصل الفرنسي يقول في شرحه للموقف: " إن الشعب هنا يتهامس ... قائلا إن سادة المدينة يريدون ، على ما يبدو، أن يجبروا جميع الناس على شراء الخبز الذي يباع في الميادين ، ويقولون إن هناك وجهاء [المقصود عدد من كبار رجال الأعمال في المنطقة]عرضوا مائة وثمانين ألف جنيه في السنة ليحصلوا على امتياز صناعة الخبز ، لأن [...] العرف جرى على أن يقوم كل واحد بصناعة خبزه في بيته، وإذا حصل هؤلاءالوجهاء على الامتياز، فسيحظر على الأفراد أن يصنعوا خبزهم بأيديهم ، وسيتحملون بأعباء باهظة، لأن الخبز السوقي الذي يباع في الميادين يباع بأربعين ليرة ، لا يساوى في الحقيقة إلا ثماني عشرة ليرة ، يضاف إلى هذا أن الخبز السوقي المذكور لا يكون له طعم إلا في يوم شرائه، ولابد من تلدينه في اليوم التالي، فيستحيل إلى شيء لا يمكن أكله. هذه المسألة تحدث ضجة كبيرة بين

سوق بيرلاخپاتس Perlachplatz في مدينة أوجسبورج الألمانية في القرن السادس عشر. ونرى في الصورة مشاهد متمايزة ، موسمية ، بحسب شهور السنة : إلى اليسار مشهد مميز لشهر أكتوبر، يبيعون فيه حيوانات اقتنصها الصيادون ؛ وفي شهر نوفمبر يبيعون الحطب ، والتبن ، والخنزير الذي يذبحونه عندما يشتريه الزبون ؛ وفي شهر ديسمبر يبيعون القمح بالقطاعي . وإلى اليمين نرى صفا طويلا من وجهاء المدينة يخرجون من دار البلدية يلبسون الفراء . ويظهر الريف في خلفية الصورة .

الناس، وقد وجدوا صباح أمس منشورا معلقا في ميدان سانسير Saint-Sire. – وهو الميدان الذى تجتمع فيه طبقة النبلاء القديمة - ويتحدث هذا المنشور بكلام عنيف ضد الحكومة ، ويهددها بالتخلص من استبدادها (١٤٣). " وإذا نحن صدقنا پارمنتييه Parmentier فإن عادة إنتاج الخبز بيتيا لم تختف إلا حول الأعوام ١٧٧٠ - ١٧٨٠ "من غالبية المدن الكبيرة " في فرنسا (١٤٤). ويشير چان ماير Jean Meyer إلى أن الانصراف الكامل عن العيش البيتي، أو ما يسميه الخبز الفردى، من مدينة نانت Nantes يرجع إلى عام ١٧٧١، وهو يربط انصراف الناس عن العيش البيتي هناك بظاهرة الإقبال على الخبز الأبيض المصنوع من القمح (١٤٥).

ومن الممكن أن نتساءل عن الطواحين التي كانت الحبوب تطحن فيها للحصول على الدقيق اللازم للخبز في الأفران البيتية . والواقع أن المدن كلها كانت بها في ذلك الوقت طواحين في متناول الناس، لأن القمح كان من الممكن تخزينه على نحو جيد نسبيا (وكانوا في أغلب الأحوال يخزنونه كسنابل يدرسونها في الصوامع عدة مرات في العام) أما الدقيق فلم يكن من الممكن تخزينه على الإطلاق . وهكذا كان المطلوب طحن الحب، يوماً بيوم، على مدار العام ، في الطواحين التي كانت تقام على مشارف كل القرى، وكل المدن ، ومن الطواحين ما كان يقام في وسط القرى والمدن، على فرع من فروع النهر، حيث أنها كانت تدار بقوة اندفاع الماء . وكانت أية أعطال تتعرض لها الطواحين - كما كان يحدث في باريس عندما يتجمد نهرالسين في الشتاء القارص، أو عندما كان يعلو ماؤه ويفيض - تؤدي إلى مشكلات تموينية مباشرة. فهل ندهش عندما نعلم أن تحصينات باريس كانت تقام فوقها طواحين هوائية ، وأن بعض هذه الطواحين من ذوات الأجنحة لا تزال موجودة ، وأن هناك من يدافعون عنها ؟

لأن

القمح هو الملك

هناك ثالوث يملأ سجلات تاريخ أوروبا ، هو : ثالوث القمح ، والدقيق، والخبز. كان هو الشغل الشاغل للمدن ، والدول ، والتجار ، والناس الذين كانت الحياة بالنسبة لهم تعني " قضمة خبز أو لقمة عيش ". كان الخبز يشبه الشخصية الطاغية التي فرضت نفسها على مراسلات العصر ، ومازالت تحت الأضواء لا ينازعها منازع . فإذا زاد سعر الخبز، هاجت الدنيا وماجت ، كأن الماء طغى في النهر فانهمر في فيضان عارم، يصيب كل شيء بالاضطراب ، وينذر بالخطر. كانت هذه هي الحال في كل مكان، في لندن، في باريس، في ناپلي . ونيكر Necker على حق إذ يقول: " الشعب لا يستمع إلى صوت العقل أبدا إذا كان الموضوع هو غلاء الخبز "(١٤٦).

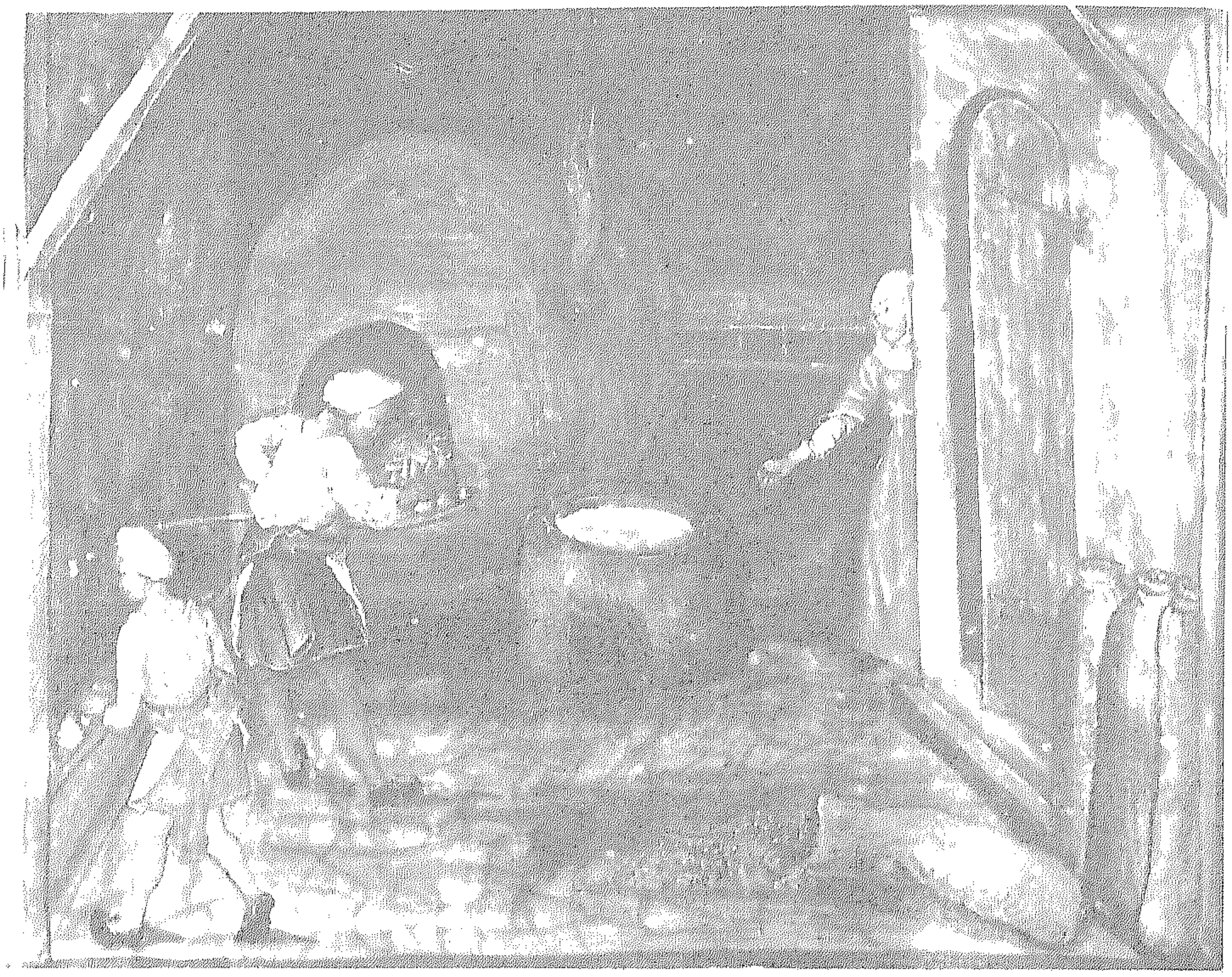

فرن الخبز في كراكاو Krakau ببولندة في القرن الخامس عشر .

فإذا ما لاح في الأفق نذير من هذه النذر، لم تتورع عامة الشعب من صغار المستهلكين المثقلين بالأعباء ، عن اللجوء إلى العنف. وقد حدث في ناپلي، في عام ١٥٨٥ ، أن تسببت عمليات تصدير كبيرة للحبوب إلى أسبانيا في إحداث مجاعة. واضطر الناس إلى أكل خبز مصنوع من أبي فروة ، والبقول المجففة . وثار الناس على التاجر المحتكر ڤيتشينزو ستوراتشي Gio.Vicenzo Storaci صارخين فيه أنهم لا يريدون أن يأكلوا هذا النوع من الخبز ، فرد عليهم بوقاحة قائلا : " فكلوا الحجر Mangiate pietre " فما كان من الشعب النابوليتاني إلا أن انقض عليه ، وقتله ، وجر خلال دروب المدينة جثته ، فمثل بها ، ثم قطعها إربا إربا . وكان على الوالى أن يعدم ٣٧ رجلاً أمر بهم أن يعلقوا على المشانق أو أن يفسخوا ، وأن يحكم على مائة آخرين بالأشغال الشاقة كمجدفين على سفن العذاب (١٤٧). أما في باريس فقد تعرضت مخابز ميدان موبير Maubert في عام ١٦٩٢ للنهب ، وتدخلت السلطات ، وقامت بعمليات قمع فورية وحشية ، فعلقت اثنين من المتمردين على المشانق ، وحكمت على

الآخرين بالأشغال الشاقة كمجدفين على سفن العذاب ، أو بأن تضرب الأغلال في أعناقهم ، وبأن يعرضوا في ثوب العذاب على الناس ، أو بأن يضربوا بالهراوات والنبابيت (١٤٨) حتى هدأ كل شيء ، أو بدا كل شيء كأنه قد هدأ . ولكننا نلاحظ

توزيع الطواحين .هذه الخريطة التي ترجع إلى عام ١٧٨٢ (وهي معكوسة الاتجاهات، فالشمال إلى أسفل ، والجنوب الى أعلى ، والبحر الأدرياتيكي إلى اليسار، ومنطقة الأبينين إلى اليمين) تبين خمس قرى كبيرة (من بينها قرية مزدوجة هي مونتالبود، Montalboddo وڤاكاريلي Vaccarile) بين أربعة أنهار ، في منطقة المارقة Le Marche، فيما وراء أنكونا Ancona. وكان السكان (البالغ عددهم ١٥٩٧١ نسمة) موزعين على أرض مساحتها ٤٥٠ كيلومتر مربع تقريبا ، بمعنى ان الطاحونة الواحدة تخدم ٨٨٠ نسمة ، بينما كانت الطاحونة تخدم في فرنسا في المتوسط ٤٠٠ نسمة . و لكن هذه النسبة تعتمد على قوة الطاحونة ، وعلى عدد تروسها ، ونوعية حجارتها ، وهي أشياء ليست لدينا بيانات عنها .

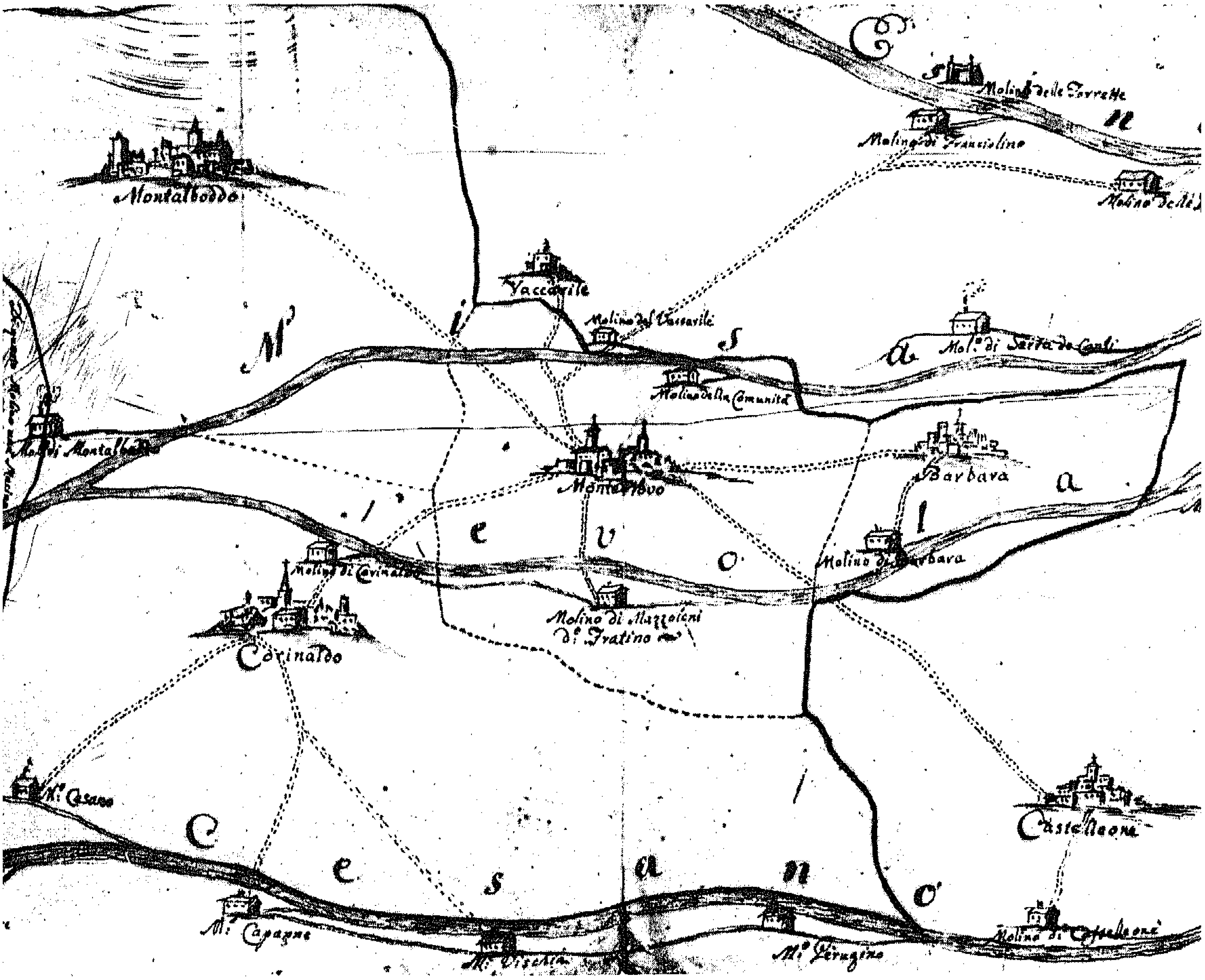

حدوث ثورات مشابهة تعد بالآلاف ، جرت بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. والثورة الفرنسية نفسها بدأت على هذا النحو.

والعكس صحيح ، فالمحصول العظيم يستقبله الناس استقبالهم لنعمة مباركة تتنزل من السماء . فقد أقيمت في روما في ١١ أغسطس من عام ١٦٤٩ صلاة جامعة مهيبة لشكر الله على المحصول الجيد بعد أن استقر في الصوامع ، واتخذ مديرالتموين پالاڤيتشيني Pallavicini بضربة واحدة صورة البطل : " فقد زاد حجم الرغيف بمقدار النصف " (١٤٩) والقارىء حقيق بأن يفهم هذه الجملة التى لا تحتاج إلى موهبة من مواهب العرافين : فهذا هو ثمن الخبز لا يتغير في روما ، كان الذى يتغير هو الوزن، وكانت هذه هي القاعدة في كل مكان تقريبا. كان ما فعله پالاڤيتشيني يتلخص في أنه رفع بخبطة واحدة القدرة الشرائية للفقراء الذين لا يأكلون سوى الخبز بنسبة ٥٠٪، وإنْ ظل ما فعله شيئاً مؤقتاً عابراً في حقيقة أمره .

الأرز ...

يعتبر الأرز مثل القمح ، بل أكثر من القمح ، نباتا مهيمنا ، نباتا طاغية . ولقد ابتسم كثير من القراء الذين طالعوا كتابا عن تاريخ الصين ، كتبه في الماضي واحد من كبار المؤرخين الفرنسيين(١٥٠) ظل فيه يقارن ، ويقارن الصينيين بغيرهم من الغربيين، فيقول عن إمبراطور صيني إنه هوج كاپيه Hugues Capet الصين ، وعن امبراطور صيني آخر إنه لويس الحادى عشر الصين ، وعن ثالث إنه لويس الرابع عشر الصين، وعن رابع إنه نابليون الصين . وكل إنسان غربي ، عندما ينزل عوالم الشرق الأقصى، يجد لزاما عليه أن يرجع إلى قيَمه الخاصة ليضيء لنفسه بنورها الطريق . وهكذا فنحن نفكر في القمح عندما يكون موضوع الحديث هو الأرز. والنباتان على أية حال من فصيلة النجيليات، وأصلهما من البلاد الجافة . ثم تحول الأرز بمرور الوقت إلى ذلك النبات المائى الذى حقق عائدا مرتفعا ، وصنع لنفسه مستقبلا باهرا. ولكن هناك سمة أخرى تتصل بأصله: فجذوره ، مثل جذور القمح ، كثيفة ، وهي تحتاج إلى كمية كبيرة من الأكسجين تحرمها منها المياه الراكدة ، ولهذا فليس هناك مزرعة أرز لا يتم فيها تحريك المياه التي تبدو في الظاهر ساكنة تحريكا يتكرر من حين إلى حين ، يمكّن من تزويد الجذور بالأوكسجين ، ويقوم نظام الرى على المراوحة بين إحداث الحركة في الماء ، وإيقافها .

والأرز، إذا قورن بالقمح يعتبر نباتا أكثر هيمنة ، وفي الوقت نفسه أقل هيمنة. أما أن الأرز أكثر هيمنة فلأنه لا يطعم أشياعه بنسبة ٥٠٪ أو ٧٠٪ ، كما يفعل القمح بل يطعمهم بنسبة ٨٠٪ أو ٩٠٪ أو أكثر من ذلك . والأرز غير المضروب يمكن حفظه ، وتخزينه أفضل من القمح . ولكن القمح ، من الناحية الأخرى أكثر أهمية من الأرز على النطاق العالمي . فقد احتل القمح في عام ١٨٧٧ مساحة ٢٣٢ مليون هكتار، بينما احتل الأرز مساحة ١٤٢ مليون هكتار ؛ والقمح عائده بالنسبة إلى الهكتار أقل من الأرز (١٦,٦ قنطارا مقابل ٢٦ قنطارا في المتوسط) ؛ أما من ناحية الإنتاج الكلي فالمحصولان يتساويان تقريبا : ٣٦٦ مليون طن من الأرز مقابل ٣٨٦ مليون طن من القمح (و ٣٤٩ مليون طن من الذرة)(١٥١). ولكن الأرقام الخاصة بالأرز تحتاج إلى مناقشة ، فهي أرقام محصول الأرز غير المضروب ، فإذا ضرب الأرز فقد ما بين ٢٠ و ٢٥ ٪ من وزنه، ومن هنا فإن الرقم الدال على الإنتاج الكلي من الأرز المضروب يهبط إلى أقل من ٢٩٠ مليون طن ، وبهذا يتأخر عن القمح تأخرا كبيرا ، بل وعن الذرة التى لا تضرب ولا تقشر. وهناك عيب آخر للأرز فهو يتطلب في زراعته عملا يدويا هائلا ، بل إنه صاحب الرقم القياسي فيما يتطلبه من تدخل يدوى من بنى البشر.

وجدير بالذكر أن الأرز ظل ـ على الرغم من توسعاته في أوروبا وأفريقيا وأمريكا ـ متمركزا على نحو جوهرى في الشرق الأقصى ، حيث يصل المنتج منه هناك حاليا إلى ٩٥٪ من إجمالى الإنتاج. يضاف إلى ذلك أن الأرز يستهلك غالبا في مكان زراعته، ومعنى هذ أنه ليست هناك تجارة أرز يمكن مقارنتها بتجارة القمح . ولم تكن هناك قبل القرن الثامن عشر حركة نقل تجارى مهم للأرز إلا من جنوب الصين إلى شماله، عبر القنال الإمبراطورى ، كان يفيد منها البلاط الامبراطورى في بكين، وربما نقل الأرز من تونكين ـ حاليا شمال فيتنام ـ ومن سيام ، وكان يتجه حينذاك اتجاها مفضلا ، هو الهند التي كانت دائما تعاني من قلة المواد الغذائية . وكانت هناك في الهند سوق واحدة هامة تتلقى الواردات هي البنغال .

أرز الحقول الجافة
وأرز المزارع

الأرز والقمح نباتان يرجع أصلهما إلى الوديان الجافة في آسيا الوسطى، شأنهما في ذلك شأن نباتات كثيرة مستزرعة. ولكن القمح شق طرقه إلى النجاح قبل الأرز بكثير، فإذا كان الأرز قد بدأ مسيرته حول عام ٢٠٠٠ ق م، فإن القمح بدأها حول عام ٥٠٠٠ ق م ، وهكذا فإن القمح سبق الأرز بعشرات القرون. وظل الأرز يبدو في هيئة مسكينة بين طائفة النباتات الجافة، حتى إن الحضارة الصينية الأولى تجاهلته، وتكونت في شمال الصين، في تلك البقاع الريفية الشاسعة العارية، على أساس ثلاثة نباتات نجيلية كانت تقليدية آنذاك ، وظلت تقليدية إلى يومنا هذا ، هي: الذرة السكرية sorgho بعيدانها العالية التي تصل الى ٤ أو ٥ أمتار ـ القمح ـ الدخن millet. ولقد تحدث أحد الرحالة الإنجليز في عام ١٧٩٣ عن الدخن فقال " إنه دخن جزيرة الباريادوس ، ويسميه الصينيون كو ليانج Kow leang أى القمح الطويل. وهذا الصنف من الحبوب يباع في كل أقاليم شمال الصين ، وهو أرخص من الأرز . وربما كان الدخن هو أول نوع حبوب زرعوه هناك ؛ لأننا نرى في الكتب الصينية القديمة أن سعة المكاييل تقدر بعدد الحبات التي تتسع لها من الدخن ، فنقرأ أن مائة حبة من حبات الدخن تملأ مكيالا من نوع الشو choo...(١٥٢) ". ونقرأ عن سائحين أوروبيين نزلوا شمال الصين في عام ١٧٩٤ ، ووصلوا إلى مكان قريب من بكين ، وقد بلغ منهم الجوع كل مبلغ ، فلم يجدوا في النزل الذى ألموا به إلا " بعض السكر الردىء، وصحنا من الدخن لم ينل حظا كافيا من الطهي(١٥٣) ". ومازالت الأطعمة الشائعة هناك هي عصيدة القمح ، وعصيدة الدخن ، وعصيدة الذرة السكرية ، إلى جانب فول الصويا والبطاطا(١٥٤).

في مواجهة هذا السبق الذى تحقق في الشمال قُدر على الصين الجنوبية الاستوائية، ذات الغابات والمستنقعات، أن تظل ردحا طويلا منطقة متدنية، لأن الناس الذين كانوا يقطنونها - مثل الناس الذين يقطنون حتى اليوم جزر الباسيفيك - يعيشون على" الإجنام" ignames - وهو نبت من نوع العليق له درنات يتخذ منها نشا مغذ ـ أو يأكلون القلقاس ، وهو نبات يشبه البنجر الأبيض ، مازالت أوراقه سمة مميزة لخطوط التربة المألوفة إلى يومنا هذا في الصين ، ويدل هذا الاستمرار من الماضي إلى الحاضر على أن القلقاس كان يلعب في الصين في الماضي دورا كبيرا. ولم يلحق بالإجنام ، والقلقاس لا البطاطا ، ولا المنيوق ، ولا البطاطس ، ولا الذرة ، فكلها نباتات أمريكية لم تنتقل إلى الصين عبر البحار ، إلا بعد اكتشاف أوروبا للعالم الجديد . فلما قدمت هذه النباتات قاومتها حضارة الأرز التي كانت قد مكنت لنفسها آنذاك : ولم يستطع المنيوق أن يثبت أقدامه إلا في منطقة ترافانكور، في الدكن بالهند في القرن الثامن عشر، ولم تستقر البطاطا في الصين ، وفي سيلان ، وجزر السندويتش البعيدة الضائعة في المحيط الهادى إلا في ذلك القرن أيضاً . ومازالت هذه الدرنات، وأشباهها ضئيلة الأهمية حتى يومنا هذا في الشرق الأقصى الذى ظلت الأسبقية فيه للحبوب، وعلى رأسها الأرز : ٢٢٠ مليون طن (في عام ١٩٦٦) بالنسبة لمجموع مناطق آسيا التي تقع في نطاق الرياح الموسمية ، أي رياح الموزون ، مقابل ١٤٠مليون طن من الحبوب المختلفة : القمح ، والدخن ، والذرة ، والشعير (١٥٥).

والأرجح أن الأرز المائي دخل الهند أولا ، ثم انتقل منها بطريق البر أو البحر إلى الصين الجنوبية ، ربما حول عام ٢٠٠٠ أو ٢١٥٠ ق م ، واستقر فيها ببطء على الصورة التقليدية التي نعرفها عنه. فلما أخذ الأرز يشق طريقه إلى الازدهار هناك ، تغيرت الأحوال في الصين تغيرا جوهريا كأنما انقلبت الساعة الرملية الهائلة التي سارت عليها الحياة الصينية حتى ذلك الحين رأسا على عقب : فقد حل الجنوب الجديد محل الشمال القديم ، وساعد على هذا التحول أن شمال الصين كان ، لسوء حظه يتاخم الصحارى، والطرق المؤدية إلى آسيا الوسطى، وأنه تعرض للغزو، والتخريب. ومن الصين (والهند) انتشرت زراعة الأرز انتشارا واسعا في اتجاه التبت، والهند الصينية، واليابان . وكان استقبال الأرز في البلاد التي تلقته " أشبه شيء بحصولها على شهادة التحضر (١٥٦) ". ولم تكن عملية استقرار الأرز في اليابان حول القرن الأول الميلادى إلا عملية بطيئة بطئاً عجيبًا ، نتبين ذلك عندما نعلم أن المملكة اليابانية لن تقبل الأرز بين الطعام الياباني قبل حلول القرن السابع عشر(١٥٧).

ولا تشغل مزارع الأرز في الشرق الأقصى ، حتى في زماننا الحاضر، إلا مساحات قليلة جدا نسبيا (صحيح أن النسبة هي ٩٥ ٪ من المساحة الكلية المخصصة للأرز

المائي في العالم ، ولكن المساحة الكلية كانت ، في عام ١٩٦٦ ، ١٠٠ مليون هكتار فقط(١٥٨)) . أما في خارج حدود هذه المناطق المتميزة فقد انتشر الأرز في بقاع واسعة انتشارا متباينا ، منه الجيد ومنه السيء ، على هيئة زراعة جافة ، أى زراعة لا تتخذ فيها المزارع صورة المستنقعات . وهذا الأرز الفقير هو العنصر الأساسي الذي تقوم عليه حياة الشعوب القليلة الحظ من التطور . وإذا أردنا أن نفهم كيف كانوا يزرعونه، فلنتصور أولا ركنا في غابة ، يقطعون حسكه ويحرقونه ، في سومطرة ، أو سيلان، أو مرتفعات ڤيتنام ، على هذه الأرض التي يقتطعونها من الغابة ، ولا يعدون تربتها على الإطلاق (كانوا يتركون الجذور في مكانها ، ولا يقتلعونها ، ولا يقلبون الأرض بأى نوع من الحرث ، ولا يسمدونها إلا برماد الحسك المحروق) كانوا يبذرون التقاوى بطريقة النثر باليد. وكان الأرز ينضج بعد خمسة أشهر ونصف . فإذا فرغوا من حصاده، أقبلوا على الأرض مجازفين ، فزرعوا فيها بعض المحاصيل مثل الدرنات، والباذنجان، والخضروات المختلفة . وكانت هذه الطريقة تؤدى إلى إجهاد التربة إجهادا تاما ، وما كانت في الأصل إلا تربة قليلة الثراء . فإذا استهلكت التربة ، لم يجد الناس أمامهم من سبيل إلا اقتطاع شريحة أخرى من الغابة ، أو كما يقولون " أكل " أو التهام قطعة أخرى من أطراف الغابة . وكانوا يتبعون نظاما لترك الأرض المجهدة ترتاح ، وتستعيد قوتها . وربما اتبعوا دورة عشر سنوية. فإذا أخذت هذه المناطق بنظام الدورة العشر سنوية لتحسين التربة ، وتركت الأرض المجهدة خالية لتستجم ، فمعنى هذا أن الزراعة في تلك البقاع كانت تتطلب نظريا كيلومترا مربعا لكل ٥٠ نسمة ، أو - إذا شئنا الحقيقة - لكل ٢٥ نسمة ، نظرا لأن أكثر من نصف الأراضي الجبلية لم يكن يصلح للاستغلال . فإذا طالت الدورة القادرة على إصلاح تربة الغابة ، وزادت على عشر سنوات ، وربما وصلت إلى خمس وعشرين سنة (وكان هذا هو الوضع الأكثر شيوعا) فإن الكيلومتر المربع لم يكن يكفي إلا لعشرة أفراد .

كانت أرض الغابة المستجمة ، أى التى تترك بعد الإجهاد خالية لترتاح ، تقدم للناس تربة رقيقة ، سهلة الحرث ، يمكن إعدادها باستخدام الأدوات البدائية . وكان التوازن يتحقق ، بشرط ألا يزيد عدد السكان زيادة مفرطة بطبيعة الحال ، وبشرط أن يتوالى إصلاح أرض الغابة من جديد ، بعد إجهاد تربتها ، لكي تستعيد قوتها تلقائيا بعد عمليات الحرق المتتالية . وتحمل هذه الأنظمة الزراعية المحلية أسماء محلية ، ففي ماليزيا وأندونيسا يسمون طريقتهم الزراعية لادانج ladang، وفى جبال ڤيتنام راى ray أو rai، وفى الهند دچونج djoung، واسمها تاڤي tavy في مدغشقر التي حملت الملاحة العربية الأرز اليها حول القرن العاشر ، وكلها أماكن كان الناس يعيشون فيها حياة بسيطة على الأرز، وربما أضافوا إليه" نخاع نخيل الساجو sago يطحنونه

كالدقيق " ، أو شيئا من ثمار شجر الخبز . ولكننا نلاحظ أن هذه الأماكن كانت بعيدة عن الإنتاج " المنهجي " المنظم لمزارع الأرز ، وبعيدة جدا عن نوعية العمل الشاق الذى تتطلبه .

معجزة

مزارع الأرز

لدينا من الصور ، والشواهد ، والشروح التي تتناول مزارع الأرز ما يتيح لنا أن نفهمها فهما كاملا ، إلا إذا كنا قد عقدنا النية على ألا نفهم. وهناك كتاب صيني، يرجع إلى عام ١٢١٠، اسمه كينج تشي تو Keng Tche Tou يبين، بما يحويه من صور، مزارع الأرز التي تبدو على هيئة رقعة الشطرنج، المكونة من مربعات، مساحة الواحد منها بضعة مئات من الأمتار، وفيها طلمبات الرى التي تعمل بالبدال، ونظام الشتل ، ونظام الحصاد ، بل نرى المحراث الذى لا زلنا نراه اليوم يجره ثور واحد(١٥٩). ومهما يكن تاريخ الصور، فهي، القديم منها وغير القديم ، تعرض مناظر لا زلنا نراها إلى اليوم ، وكأن كل شيء بقى على حاله لم يتغير .

وأول شيء يلفت النظر هو أن مزارع الأرز تشغل هذه التربة المتميزة على نحو يفوق المألوف . وقد كتب الأب اليسوعي ديهالد du Halde في عام ١٧٣٥، يقول(١٦٠): «كل السهول مزروعة لا نرى فيها سياجا أو حفرة ، بل لا نكاد نرى فيها شجرة، لأنهم يخافون أن يضيعوا موضع أصبع واحد من الأرض ». وهذا هو ما قاله قبله بقرن من الزمان - في عام ١٦٢٦ - بنفس الكلمات يسوعي مدهش آخر هو الأب دى لاس كورتيس :" لم يكن هناك موضع أصبع واحد من الأرض ... ولا ركن مهما صغر لم يزرعوه(١٦١) ." وكل مربع من مربعات مزرعة الأرز يصل طول ضلعه إلى نحو خمسين مترا ، ويتخذ شكل خط يرتفع ارتفاعا قليلا عن باقي الأرض . والماء يدخل ويخرج ، ماء غريني عكر تعتبر عكارته نعمة لأنها تجدد خصوبة التربة ، ولأنها لا تلائم بعوض الأنوفيليس الذى يحمل مسبب الملاريا ، فبعوض الأنوفيليس يفضل المياه النقية ، والجبال ، والتلال ، أى المناطق التي تتبع نظام الزراعة المسمى " لادانج " أو "راى " الذى أشرنا إليه من قبل، وهي مناطق الملاريا المتوطنة المرتبطة بالزيادة السكانية. وكانت مدينة أنجكورفات Angkor Vat في كمبوديا عاصمة زاهرة، بما أوتيت من مزارع أرز تنعم بالمياه الغرينية الموحلة ، ثم جاءت الهجمات السيامية، فلم تخرب مزارع الأرز وحدها ، بل قلبت الحياة ، والأعمال الزراعية رأسا على عقب. فلما نقيت مياه القنوات من وحلها، انتصرت الملاريا ، وانتصرت الغابات الزاحفة معها(١٦٢). وهناك مآس مشابهة، يمكن أن نتصور أنها حدثت في البنغال في القرن السابع عشر . عندما ضاقت مزرعة الأرز، وغمرتها المياه النقية المجاورة توالت الهجمات

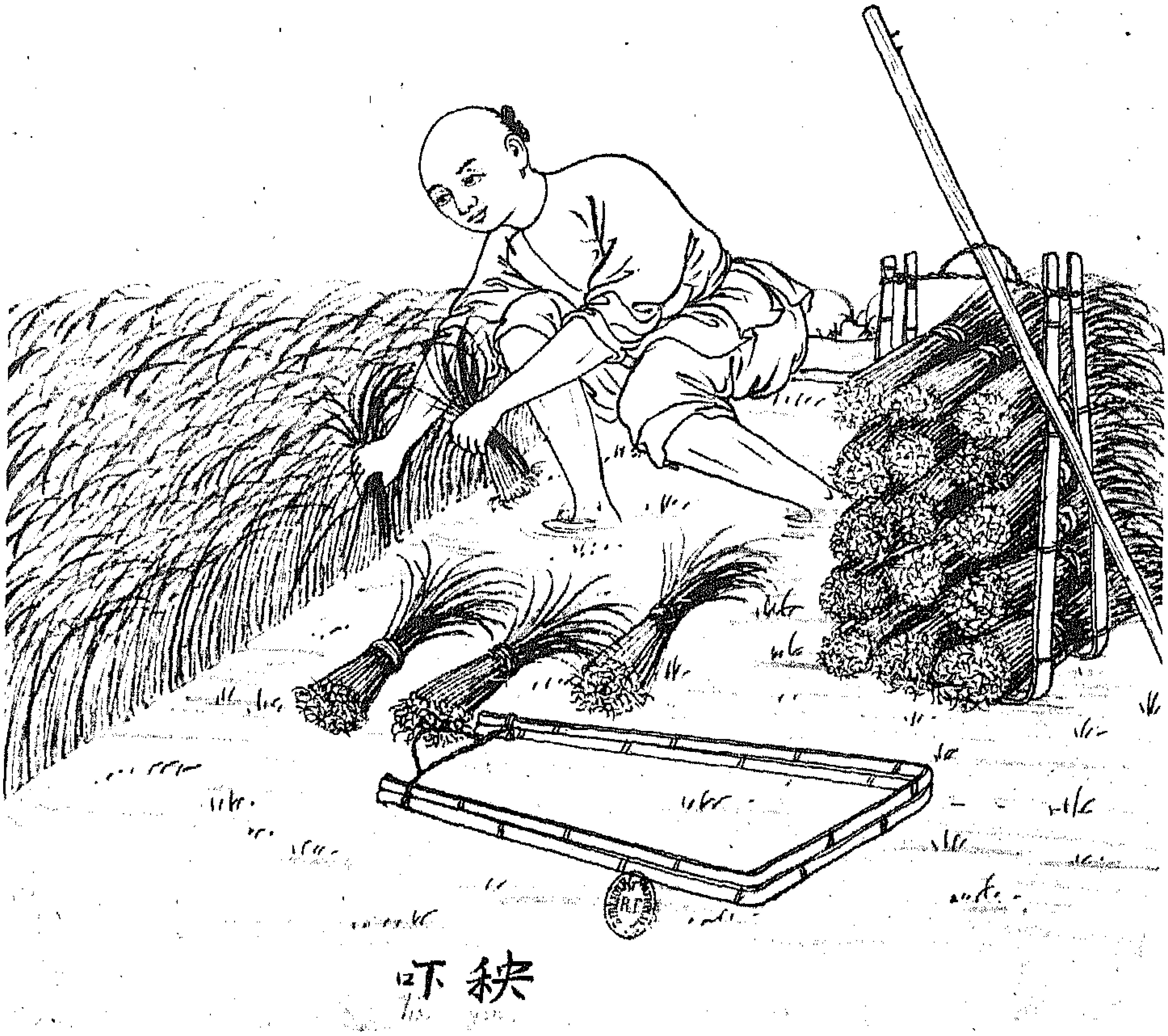

مشتل الأرز في الصين في القرن التاسع عشر .

الفتاكة للملاريا. بل لقد أصبحت الملاريا هي صاحبة الهيمنة الكاملة في المنطقة ما بين جبال الهيمالايا، وتلال السيڤاليك Sivalik بنيپال ، في ذلك المنخفض الذى تتفجر فيه ينابيع المياه الصافية(١٦٣).

والماء هو مشكلة الأرز الكبيرة ما في ذلك شك . فمن الممكن أن يغمر الماء ، إذا زاد ، النبات ، ويغرقه: ولهذا كان من الضرورى أن يلجأ الناس في كمبوديا ، وسيام إلى الاستفادة من المرونة الخرافية للأرز الطافي ، الذى تعلو سيقانه إلى ارتفاع ٩ أو ١٠ أمتار في مواجهة الاختلافات الهائلة في مستويات المياه ، واستخدموا القوارب في جني محصول الأرز ، فكانوا يقطعون السنابل، ويتركون السيقان التي قد تصل إلى أطوال لا يتصورها العقل(١٦٤). وهناك مشكلة أخرى هي مشكلة جلب الماء ثم صرفه

وكانوا يجلبون الماء بالاستعانة بقنوات من البامبو يمدونها إلى أن تصل إلى مصادر المياه العالية ؛ أو يرفعون الماء من الآبار ، كما هي الحال في سهل الكنج، وفي كثير من المناطق الصينية ؛ أو يجمعون الماء في خزانات كما هي الحال في سيلان - حيث يسمون الخزانات تانكات - و كثيرا ما تكون خزانات تجميع الماء منخفضة المستوى، حيث يحفرونها عميقة في الأرض . ومعنى هذا أنهم كانوا يضطرون إلى نقل الماء ورفعه إلى مزرعة الأرز باستخدام السواقي البدائية ، أو الطلمبات ذات البدال التي لا زلنا نراها الى اليوم . ولو أحلوا محلها طلمبات تعمل بالبخار أو بالكهرباء لكان معنى ذلك أنهم يحرمون أنفسهم من عمالة بشرية رخيصة . ولقد شاهد الأب دى لاس كورتيس العمال وهم يشغلون هذه الطلمبات، ووصفهم : " أنهم أحيانا يرفعون الماء بآلة صغيرة مريحة من نوع الساقية لا تحتاج إلى خيول لتحريكها ، بل يتم تحريكها على أيسر نحو معروف في الدنيا [ولا يزال الكلام له]، فالرجل الصيني الواحد يستطيع أن يحرك هذه الآلة نهاراً كاملاً بقدميه(١٦٥)." كذلك كانوا يستخدمون البرابخ لينقلوا الماء من مربع إلى مربع آخر. ومن البديهي أن نظام الري الذي يقع عليه الاختيار يرتبط بالظروف المحلية . فإذا لم تكن هناك إمكانية للأخذ بأى طريقة من طرق الرى ، فربما اعتمدوا على المطر ، واستخدموا الخط الذى يحدد ضلع مربع المزرعة لحجز مياه المطر التي تكفي جانبا كبيرا من زراعات السهل في المناطق الأسيوية التي تهب عليها الرياح الموسمية المعروفة باسم الموزون .

وزراعة الأرز على هذا النحو تتطلب تركيزا هائلا ، يشمل العمل، والعمالة التي هي الرأسمال البشرى ، وتحتاج إلى تنسيق واع . ولن تقوم لهذه الزراعة قائمة إذا لم تكن الخطوط العريضة لنظام الرى المنوط بها مترابطة بعضها بالبعض على نحو وثيق، وخاضعة لإشراف من أعلى . وهذا يفترض وجود مجتمع مستقر متين ، وسلطة دولة، وعمل واسع النطاق لا ينتهي إلى نهاية. وهكذا نفهم أن القنال الإمبراطورى المتصل بالنهر الأرزق في بكين كان يمثل نظام رى محكم ، واسع النطاق ، في نفس الوقت الذي كان يخدم فيه النقل(١٦٦). والنظام المحكم ، الذى تقوم عليه مزارع الأرز ، يتطلب وجود نظام محكم للدولة ، وهو يتطلب ضم القرى بعضها إلى البعض على نحو وثيق منظم ، ويتطلب بالضرورة ترتيبات جبرية جماعية للرى ، كما أنه يتيح الفرصة لاختلال الأمن على النحو الذى نلحظه كثيرا في الربوع الريفية الصينية .

أدت مزارع الأرز إلى زيادة سكان المناطق التي ترعرعت فيها ، وأدت كذلك إلى نظم اجتماعية متينة . وإذا كانت الصين قد شهدت في عام ١١٠٠ تحولاً كبيراً ، انتقل فيه مركز الثقل إلى الجنوب ، فقد كان الأرز هو المسئول ، وكانت نسبة عدد السكان في جنوب الصين حول عام ١٣٨٠ إلى عدد السكان في شمال الصين هي ٢,٥ إلى ١، أو

٣٨ مليون نسمة إلى ١٥ مليون بحسب الأرقام الرسمية . ولا يقتصر النجاح الحقيقي الذي حققته مزارع الأرز على الاستغلال غيرالمحدود لنفس المساحة المحدودة القابلة للزراعة ، والحفاظ على العائد ، نتيجة لاتباع نظام رى حريص ، ولكنه يتعدى هذا وذاك إلى تحقيق محصولين أو ثلاثة محاصيل أحيانا.

ولنا أن نتصور النظام الذي كان قائما فيما مضي ، استنتاجا من التقويم الزراعي الحالي في منطقة تونكين السفلى: فالسنة الزراعية تبدأ هناك بعمليات الشتل في يناير، ويجرى الحصاد بعد ذلك بخمسة أشهر في شهر يونية ، ويسمون محصول الأرز عندذاك " محصول الشهر الخامس ". ويتطلب تحقيق محصول آخر بعد خمسة أشهر أخرى، محصول الشهر العاشر، العمل السريع . فلابد من نقل المحصول إلى الصوامع بسرعة، وحرث مزارع الأرز من جديد ، وتسوية الأرض، وتسميدها وغمرها. وليس من المجدي بذر التقاوى بنثرها باليد ، لأن تنبيتها سيحتاج إلى وقت طويل، ولهذا تعد شتلات الأرز في مشتل تستنبت فيه مزنقة إلى أقصى حد ، في تربة لا يقتصدون في تسميدها ، ويأخذون هذه الشتلات فيزرعونها ، بحيث تبعد الشتلة عن الأخرى من ١٠ إلى ١٢ سنتيمترا ، والمشتل الذى يتم تسميده بسخاء فائق ، باستخدام براز البشر، وزبالة المدن يلعب دورا حاسما ، يوفر الوقت ، ويعطي الشتلات الفتية مزيدا من القوة. ويعتبر محصول الشهر العاشر المحصول الأكثر أهمية ، وهو يبلغ ذروته في شهر نوفمبر . وما يكادون يفرغون من الحصاد حتى يسرعون بحرث الأرض، وإعداد الشتلات للنقل في شهر يناير(١٦٨).

وهناك تقويم زراعي محكم يحدد تتابع هذه الأعمال السريعة ، ففي كمبوديا(١٦٩) يبدأ الحرث الأول بعد أن تكون الأمطار قد خلفت بركا من المياه، وهذا الحرث الأول "يصحصح مزرعة الأرز "، أو يوقظها من سباتها، ويجرى هذا الحرث مرة متجها من المحيط الخارجي إلى المركز، ومرة ثانية من المركز إلى المحيط الخارجي، ويمشي الفلاح بجانب الثور، حتى لا يخلف وراءه حفرا يمكن أن تمتليء بالماء ، وهو يرسم في الثلمات التي يخلفها المحراث حفيرة أو حفيرات عرضية لصرف الماء الزائد ... وعليه أن يقتلع الأعشاب من جذورها، وأن يتركها تتحلل، وأن يتخلص من السرطانات التي تغزو المياه غير العميقة. وعليه أن يحرص على اقتلاع النباتات غير المرغوب فيها، فيسحبها بيده اليمنى ويخبطها على قدمه اليسرى ،"حتى يجرد الجذور من الطين ثم يغمسها بعد ذلك في الماء ، ويقلبها حتى يستكمل تجريدها من الطين ..."

وهناك أمثال سائرة ، وعبارات غنية بالصور تصف هذه الأعمال المتتابعة . ففي كمبوديا يعبرون عن إدخال المياه إلى الحقول التي بها الأرز النابت بعبارة " إغراق

العصافير واليمام " ، ويقولون عند ظهور بشائر السنابل إن " النباتات حبلت "، وعندما تصطبغ مزرعة الأرز باللون الذهبي يقولون إنها تلونت " بلون ثوم الببغاء " ، وبعد مرور عدة أسابيع ، عندما يحل موعد الحصاد ، عندما " يعقد اللبن ويثقل " ، يحل موعد اللعب أو ما يشبه اللعب فيقومون بتكويم المحصول على هيئة " مراتب " أو " عتب" أو على شكل " طائر السقا الذي يتأهب للطير " ، أو على صورة " ذيل الكلب " أو "رجل الفيل" ... وعندما يتم ضرب الأرز تجرى عملية غربلة الحب لتخليصه من " الكلام الفارغ " أو " لتطيير الفقاعات الفارغة في الهواء " .

كان الشيء البارز الذى لفت نظر الإنسان الغربي الفارس شاردان Chardin هو سرعة نمو الأرز ، فقد قال ، بعد أن شاهد زراعة الأرز في بلاد فارس : " هذا النوع من الحبوب ينضج في مدة ثلاثة أشهر، على الرغم من أنهم ينقلونه بعد أن يكون قد نما وصار شتلات ... وهم ينقلونه نبتا نبتا الى تربة غرينية قوية ومسمدة ... وما تمر ثمانية أيام حتى يجف الأرز ، وينضج(١٧٠) " . والسرعة هي سر تحقيق محصولين من الأرز، أو إذا كنا في منطقة بعيدة إلى الشمال، فمحصول من الأرز، ومحصول من القمح أو الجاودار أو الدخن . بل لقد كان من الممكن تحقيق ثلاثة محاصيل، محصولين من الأرز، ومحصول وسطي بينهما من القمح أو الشعير أو البرة السوداء، أو من الخضروات (لفت ، جذر ، فول ، كرنب نانكين ويسمى أيضا بالكرنب الصيني). ومزرعة الأرز أشبه شيء بالمصنع . وكان هكتارالأرض المزروع بالقمح يعطي في أيام لافوازييه Lavoisier خمسة قناطير في المتوسط ، أما الهكتار من مزارع الأرز فكان يعطي في أغلب الأحوال ٣٠ قنطارا من الأرز غير المضروب ، الذى يسمونه" البادى" paddy . وبعد أن يتم ضربه يصبح المحصول ٢١ قنطارا من الأرز الصالح للغذاء، بالكيلوجرام الواحد ٣٥٠٠ سعر حرارى ، وهو ما يعني أن الهكتار ينتج كمية هائلة من السعرات الحرارية تقدر بـ ٧٣٥٠٠٠٠ مقابل ١٥٠٠٠٠٠ اذا كان الهكتار مزروعا بالقمح ، و ٣٤٠٠٠٠ من السعرات الحرارية فقط ، إذا خصص هذا الهكتار لتربية الحيوان فأنتج ١٥٠ كجم من اللحم(١٧١). هذه الأرقام تعبر عن تفوق مزارع الأرز، والتغذية النباتية تفوقا هائلا . ومن المؤكد أن حضارات الشرق الأقصى لم تسلك سبيل المثالية البحتة عندما فضلت الأرز على ما عداه .

والأرز إذا ما طهي بالماء فقط يصبح طعاما يوميا مثل الخبز على مائدة الأوروبي. ولا يمكن أن يمنع الإنسان نفسه ، وهو يقارن بين الأرز والخبز من التفكير في طريقة الأكل التي يسمونها " الخبز والغموس "، أو pane e companatico، كما يقول الإيطاليون معبرين عن الطعام المكون من الخبز البسيط ، ومعه غموس بسيط مثل فحل بصل أو رأس ثوم ، عندما نتصور ما يأكله في أيامنا هذه ـ عام ١٩٣٨ ـ فلاح من

منطقة دلتا تونكين بفيتنام مع الأرز، فلاح يأكل جيدا : " ٥ جرام من شحم الخنزير، و٢٠ جرام من صلصة السمك المسماة " نوك مام " nuoc mam ، و٢٠ جرام من الملح، وبعض الألياف الخضراء التي لا تعطي أية سعرات حرارية " يضيفها إلى الكيلوجرام من الأرز الأبيض (ويمثل هذا الأرز الأبيض ٣٥٠٠ سعر حراري من مجمل السعرات الحرارية للوجبة وهو ٣٥٦٥) (١٧٢). أما الوجبة اليومية المتوسطة لهندى من أكلة الأرز في عام ١٩٤٠ فكانت أكثر تنوعاً، ولكنها لا تقل نباتية عن وجبة الفيتنامي:" ٥٦٠ جرام من الأرز، ٣٠ جرام من البسلة واللوبيا الناشفة ، ١٢٥ جرام من الخضروات الطازجة، ٩ جرامات من الزيت أو الشحوم النباتية ، ١٤ جرام من السمك، واللحم والبيض، وكمية لاتذكر من اللبن (١٧٣) ." والنظام الغذائي، الذى كان يعيش عليه عمال بكين في عام ١٩٢٨ ، نظام فقير في اللحم بلا شك ، فهؤلاء العمال يتوزع ما ينفقونه على الغذاء على النحو التالي: ٨٠٪ للحبوب، ١٥٫٨ ٪ للخضروات، والبهارات، و٣٫٢٪ للحم (١٧٤).

وواقع اليوم لا يختلف عن واقع الأمس . فقد دهش سائح نزل سيلان في القرن السابع عشر عندما رأى " أن الأرز المسلوق ، المطبوخ بالماء والملح ، ومعه بعض الأوراق الخضراء ، وعصير ليمونة يعتبر عندهم وجبة جيدة." ولاحظ أن " الكبراء" أنفسهم يأكلون القليل جدا من اللحم والسمك (١٧٥) ، ولقد سجل الأب ديهالد في عام ١٧٣٥ أن الرجل الصيني الذي قضى يومه في عمل دائب ، ملوطا في الماء حتى ركبتيه، "يعتبر نفسه سعيدا ، عندما يجد شيئا من الأرز ، والأعشاب المطبوخة، وقليلا من الشاى . ويلاحظ أن الأرز في الصين يطبخ دائما بالماء ، وهذا الأرز المسلوق بالنسبة للصيني مثل الخبز بالنسبة للأوروبي ، والصينيون لا يملون من أكله أبدا(١٧٦) ". والكمية التي يتناولها الصيني في اليوم هي ، فيما ذكره الأب دي لاس كورتيس: "قصعة صغيرة من الأرز المسلوق بالماء ، بغير ملح ، وهذا الأرز هو نظير الخبز العادى في هذه المناطق "، ويتناول الواحد منهم، في الحقيقة ، أربع أو خمس سلطانيات أرز" يرفعها إلى شفتيه بيده اليسرى ، ويستعين بعصيتين يمسكهما بيده اليمنى ليدفع الأرز الى جوفه بسرعة ، بعد أن ينفخ فيه، وكأنه يلقي بالأرز في جوال ." ولا جدوى من التحدث مع الصينيين عن الخبز أو القراقيش . وهم إذا وجدوا قمحا صنعوا منه رقائق بدون خميرة ، يعجنون دقيقه بشحم الخنزير السايح ، وينضجونه على البخار "(١٧٧).

وقد أذهلت هذه الرقائق ، أو هذه " الأرغفة الصينية الصغيرة " في عام ١٧٩٤ جيني Guignes ورفاق رحلته ، الذين تناولوها، وأدخلوا عليها تحسينات ، بإضافة "القليل من الزبد " إليها ، وكان " أن تأقلمنا على نحو جيد مع أكلات الصيام الإجبارية التي فرضها علينا وجهاء الصين الذين يسمون بالماندارين(١٧٨) ". ألا يحق لنا أن

نتحدث هنا عن عملية اختيار حضاري، عن ذوق غالب، بل عن شغف غذائي يأتي نتيجة تفضيل واع هو أشبه ما يكون بالشعور بالامتياز؟ إن الخروج من حضارة الأرز يعني في نظر أهل هذه الحضارة السقوط . يقول بيير جورو Pierre Gourou:،" إن الناس في مناطق آسيا التي تهب عليها الرياح الموسمية التي يسمونها رياح الموزون يفضلون الأرز على ما عداه من الدرنات ، والحبوب التي تستخدم في صناعة العصائد"، ويفضلونه أيضاً على القمح . والمزارعون اليابانيون اليوم يزرعون الشعير ، والقمح، والشوفان ، والدخن ، ولكنهم لا يزرعونها إلا بين محصولي الأرز، أو عندما يضطرون إلى الزراعة الجافة . الضرورة وحدها هي التي تجبرهم على أكل الحبوب التي يعتبرون أكلها شيئا " محزنا ". وهذا ما يفسر لنا أن الأرز وصل إلى أبعد نقطة ممكنة في الشمال الأسيوى، حتى خط العرض ٤٩ شمالا ، في مناطق كان الأنسب لها زراعة محصولات أخرى(١٧٩).

كان الشرق الأقصى كله في قبضة الأرز، ومنتجاته ، ومشتقاته . حتى الأوروبيون الذين استقروا في جوا Goa يفضلون الأرز. وقد لاحظ ماندلسلو Mandelslo في عام ١٦٣٩ أن النساء البرتغاليات في تلك المدينة يفضلن الأرز على القمح " منذ أن تعودن على الأرز"(١٨٠). ويستخرجون من الأرز في الصين خمرا " يسكر مثل أفضل أنبذة أسبانيا " وهي " خمر يحاكي لونها لون العنبر ". ولقد حلا لبعض الناس في بعض البلاد الأوروبية في القرن الثامن عشر ، أن يقلدوا هذه الخمر ، شجعهم على ذلك رخص ثمن الأرز في أوروبا ، " فاستخرجوا من الأرز مشروبا كحوليا قويا شديدا ، ما لبث أن حظر تداوله في فرنسا شأنه شأن المشروبات الروحية الأخرى التي كانوا يستخرجونها من الحبوب ومن المولاس " (١٨١).

والخلاصة هي: كثير من الأرز ، وقليل من اللحم ، أو لا لحم على الإطلاق ، ويمكننا، والحال هذه، أن نتصور الطغيان الفائق للمألوف الذى كان الأرز يختص به نفسه، لقد كانت التغيرات التي تطرأ على أسعاره في الصين تؤثر على كل شيء ، بما في ذلك الأجور اليومية التى يحصل عليها الجنود، وكانت تلك الأجور تتغير صعودا و هبوطا بتغير أسعار الأرز. كأنما كان هناك تناسب متحرك بينهما(١٨٢). ولقد كان الوضع في اليابان أكثر وضوحا : حيث كان الأرز هو النقود ، سواء بسواء ، قبل أن تبدأ الإصلاحات والطفرات التي شهدها القرن السابع عشر . وقد شهد سعر الأرز في السوق اليابانية بين عام ١٦٤٢ وعام ١٦٤٣ ، ثم بين عام ١٧١٣ وعام ١٧١٥ ارتفاعا بلغ عشرة أضعاف ، وكانت النتيجة أنه ساعد على الانخفاض المتكرر لقيمة العملة(١٨٣).

ضرب الأرز باليد . رسم بريشة هانابوزا ايتشو Itcho Itchô (١٦٥٢ـ١٧٢٤). جاليري جانيت أوستييه Galerie Janette Ostier في باريس .

هذا المجد الذى انعقد لواؤه للأرز لم يحققه له إلا النجاح في زراعة محصولين أرز في العام . فمنذ متى حدث هذا؟ إذا رجعنا إلى الوراء عدة قرون ، وجدنا الأب دي لاس كورتيس في عام ١٦٢٦ يدهش للمحصولات المتعددة التي يجنيها الزراع في العام الواحد في منطقة كانتون . فقد كتب ما يلي : " إنهم يحصلون من الأرض الواحدة في العام الواحد على ثلاثة محصولات متتالية ، محصولين من الأرز، ومحصول من القمح، ويحققون نسبة من ٤٠ الى ٥٠ حبة في مقابل حبة التقاوى الواحدة ، ويرجع السبب في ذلك إلى اعتدال الحرارة ، والظروف المناخية ، والتربة الممتازة غاية الامتياز التي تفوق التربة في أسبانيا ، والمكسيك ، وتتجاوزها في الخصوبة "(١٨٤). ولنأخذ أنفسنا بالشك حيال نسبة الإنتاجية ، وأنها كانت تقدر بما بين ٤٠ و ٥٠ حبة في مقابل حبة التقاوى الواحدة ، وربما أيضا حيال أن يكون المحصول الثالث هو القمح ، ولكننا لانشك في انطباع الوفرة الفائقة. أما التاريخ الدقيق الذى حدثت فيه هذه الثورة الحاسمة، التي أتاحت جنى محصول أرز ثان في العام ، فهو مستهل القرن الحادى

عشر، عندما استوردت أنواع مختلفة من الأرز المبكر (الذى ينضج في الشتاء فيتحقق بذلك محصولان في العام) استوردت هذه الأنواع من شامبا Champa (أواسط وجنوب أنام Annam). وتقدم هذا النهج الجديد فشمل الأقاليم الدافئة شيئا فشيئا، إقليما بعد إقليم(١٨٥). فلما جاء القرن الثالث عشركان النظام الذى يتيح محصولا ثانيا قد مكن لنفسه ، وبدأت الزيادة السكانية الكبيرة في جنوب الصين .

ومسئوليات

الأرز

إن نجاح الأرز ، والاختيارالتفضيلي له ، يطرح سلسلة من المشكلات مثله في ذلك مثل القمح الذى أصبح هو النبات المهيمن في أوروبا. فالأرز المسلوق يناظر الخبز الذى يخرج من الأفران في أوروبا ، إنه طعام من " الأطعمة الأولية " ، بمعنى أن غذاء الأمة بأعدادها الكبيرة يعتمد على الاستخدام الدائم لهذا الطعام الذى يتناوله الناس يوما بعد يوم . أما استكمال هذا الطعام الأولي ، وإضفاء الجاذبية عليه ، فمهمة تقع

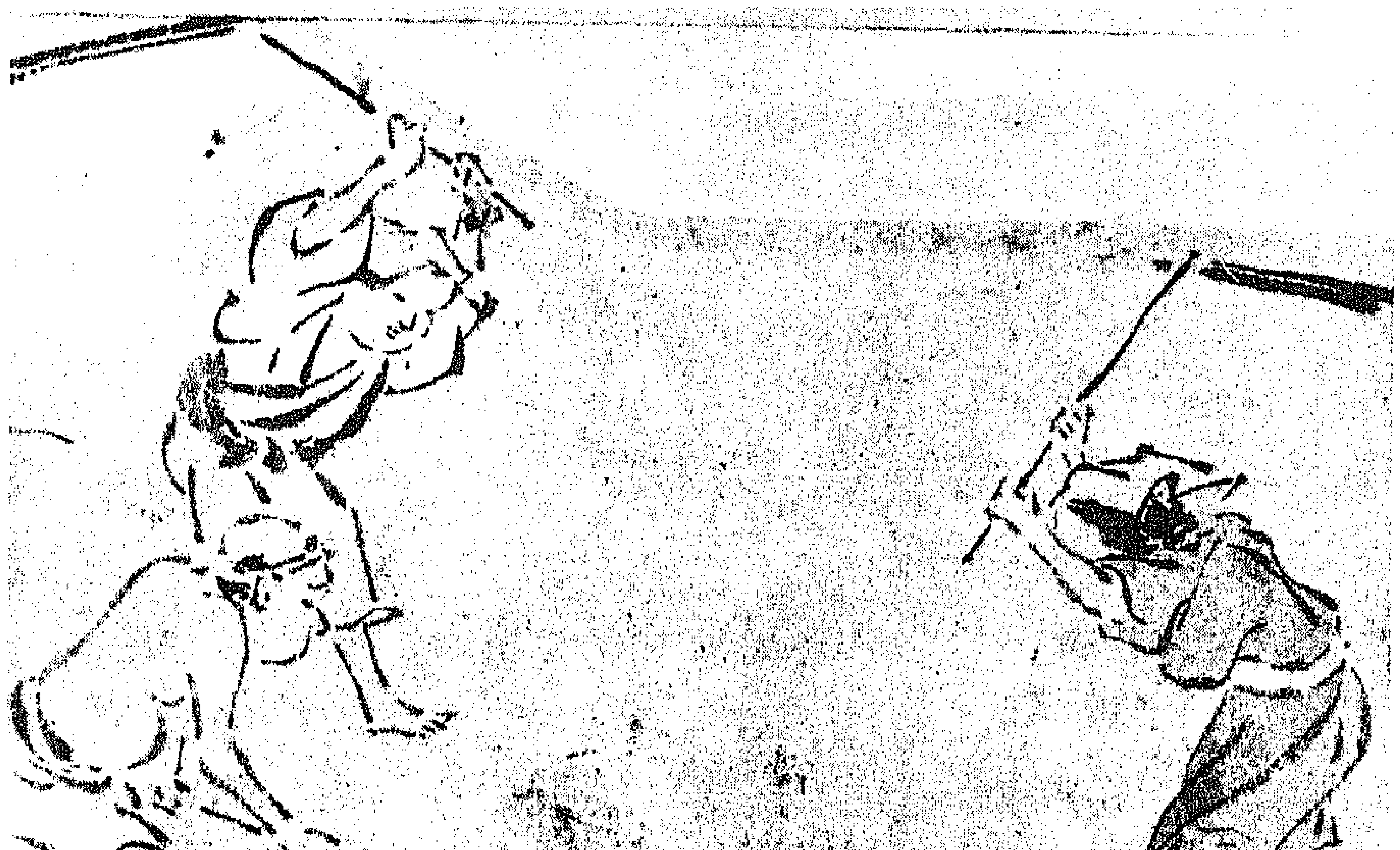

ضرب الأرز بالمدق في اليابان . (چاليري جانيت أوستييه).

على فن الطهي. وإذا كنا نجد من البيانات ما يتيح لنا توضيح دور القمح في أوروبا، فإننا لا نجد في كثير من الأحوال البيانات الكافية التي تمكننا من أن نتابع من الناحية التاريخية ما جرى على الأرز في آسيا . وهذه ناحية يبرز فيها الفرق بين القمح والأرز.

ونجاح الأرز نجاح له مسئولياته الواسعة ، العديدة ، الواضحة. وأول نقطة هامة تشد انتباهنا هي أن مزارع الأرز تحتل مساحات صغيرة جدا . والنقطة الثانية هي أن الإنتاجية العالية للأرز تتيح له أن يطعم أعدادا كبيرة من السكان ، وفي مناطق ذات كثافة سكانية عالية . وإذا صدقنا مؤرخا ـ يبدو أنه كان يفرط في التفاؤل ـ فإن كل صيني كان ينال ، منذ ستة أو سبعة قرون ، ٣٠٠ كيلوجرام من الأرز ، والحبوب الأخرى في العام ، و ٢٠٠٠ من السعرات الحرارية يوميا (١٨٦). وإذا كانت هذه الأرقام عالية على نحو مفرط ، تبالغ في الدلالة على الرفاهية ، فهناك شواهد تدحض استمرار هذه الرفاهية، وهي شواهد لا شك في مدلولها ، تنطق بما كان الناس يعانونه من بؤس، وبالثورات التي قام بها الفلاحون (١٨٧) ، ولكن نوعا من الأمن الغذائي كان متحققا لهؤلاء الناس الذين كان الأرز طعامهم الأساسي. وإلا فهل كان من الممكن أن يعبروا مدارج الزمان بهذه الأعداد الكبيرة ؟

وجدير بالذكر أن تركيز مزارع الأرز ، والعمالة في المناطق المنخفضة، دون المرتفعة، كانت له نتائجه، أو " مستتبعاته "، على حد تعبير بيير جورو . وهكذا فإن الصين، على عكس جاوة والفيليبين ـ لم تهتم بالمناطق الجبلية، ولم تزرع الأرز الجبلي إلا استثناء، على الأقل حتى القرن الثامن عشر ، وهذا رجل نزل الصين في عام ١٧٣٤ واجتاز المنطقة الجبلية من نينجبو Ning Po إلى بكين فوجدها شبه جرداء(١٨٨) .إن ما وجدته أوروبا في جبالها من رأسمال قوامه البشر النشيط ، وقطعان الماشية ، والقوة والحيوية، وما أتيح لها من إمكانات لاستغلاله ، كل هذا احتقره الشرق الأقصى، ونبذه . يا لها من خسارة فادحة ولكن كيف كان يمكن للصينيين أن يستغلوا الجبال ، وليس لديهم أى وعي باستغلال الغابات ، وتربية الماشية ، فهم لا يشربون اللبن ، ولا يطعمون الجبن، ولا يأكلون إلا أقل القليل من اللحم ، ولم يسعوا إلى الائتلاف مع الشعوب الجبلية عندما وجدت بين ظهرانيهم ؟ لا؛ لقد فعلوا العكس من ذلك تماما . ويمكننا أن نستعيد بعبارات من عندنا ما قاله بيير جورو، فنتصور منطقة چورا Jura الجبلية في فرنسا، ومنطقة السڤوفى Savoie الجبلية ، وقد تجردت من قطعان الماشية ، وفقدت غاباتها واجتثت أشجارها ، وتركز السكان النشيطون في السهول، وعلى شطآن الأنهار والبحيرات .إن هذا الذى جرى في المناطق الجبلية بالصين تقع المسئولية عنه جزئيا على عاتق زراعة الأرز ، ومحصولاته الوفيرة ، والعادات الغذائية للأمة الصينية .

وعلى من يلتمس تفسير ذلك أن يتتبع تاريخ الصين الطويل الذى لم يلق عليه ضوء كاف إلى اليوم . وإذا لم تكن الصين قد عرفت الري منذ ذلك الوقت البالغ القدم الذي يتحدث عنه التراث الصيني ، فإنها قد عرفته بالفعل على نطاق واسع في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، في نفس الوقت الذى نشهد تنفيذ سياسة حكومية استهدفت استصلاح أراض شاسعة ، وتطوير فن للزراعة يقوم على أساس متين من العلم (١٨٩). في ذلك الوقت الذي اتجهت فيه الصين إلى الرى ، وإلى الإنتاج المكثف للحبوب ، في عصر آل هان Han ، تلك الأسرة الحاكمة الصينية التي حكمت في القرنين السابقين على الميلاد ، رسمت الصين ملامح الأرضية الكلاسيكية لتاريخها. ولكن هذه الأرضية - التى ارتسمت ملامحها على أبعد تقدير في وقت يناظر عصر بركليس الباهر في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، إذا عدنا إلى ترتيب العصور الغربية - لم تستقر في مكانها استقرارا كاملا، إلا عندما نجحت زراعة أصناف الأرز السريعة في الربوع الجنوبية، ولهذا فإننا نضعها بصورتها المستقرة في الفترة ما بين القرنين الحادى عشر والثاني عشر، التي تقابل في تاريخنا عصر الحروب الصليبية. والخلاصة أن الصين الكلاسيكية بدأت تحقق وجودها المادي أمس - أمس بحساب إيقاع الحضارات البطيء ، وهو إيقاع بطيء بطئا رهيبا - حينما خرجت من ثناياه ثورة زراعية طويلة حطمت من بنياتها ما حطمت ، وجددت ما جددت ، وهي ثورة تمثل بلا شك الحدث الرئيسي في تاريخ البشر ، في الشرق الأقصى .

لا سبيل إلى المقارنة بأوروبا ، حيث كانت الحضارة الزراعية ، قبل ملاحم هومير بوقت طويل ، قد اتصلت حلقاتها في بلاد البحر المتوسط التي زرعت القمح، والزيتون، والكروم ، ومارست تربية الماشية، فقد غزت الحياة الرعوية الأوروبية الجبال ، طابقا طابقا ، وسكنت المرتفعات، كما سكنت القيعان والسهول. وتليماك، ابن أوليس، بطل ملاحم هومير يذكر في هذه الملاحم أنه عاش قرب سكان الجبال الشعث، الغبر، من أهل شبه جزيرة البيلوبونيز أكلة أبي فروة(١٩٠). كانت الحياة الريفية في أوروبا تعتمد على الزراعة ، وعلى تربية الماشية معا ، تعتمد على " حرث الأرض والرعي" ، وكان رعي الماشية ينتج السماد الذى لا تستغني عنه زراعة القمح، والذي ينتج في الوقت نفسه اللحوم ، والشحوم ، والألبان ، وما إليها من مصادر الطاقة الحيوانية ، التي كان الناس يقبلون عليها على نطاق واسع ، والتي كانت تعتبر جزءا هاما من الغذاء . وكان الهكتار من الأرض القابلة للحرث في أوروبا - مع الأخذ في اعتبار نظام الدورات الزراعية - يطعم من البشر أقل بكثير من الهكتار في الصين .

والصيني لم يفشل في غزو الجبال في منطقة الجنوب التي زرع فيها الأرز ، إنه لم يشرع فيها قط . لقد نبذ الحيوانات الداجنة إلا القليل منها ، وأغلق أبوابه أمام أهل

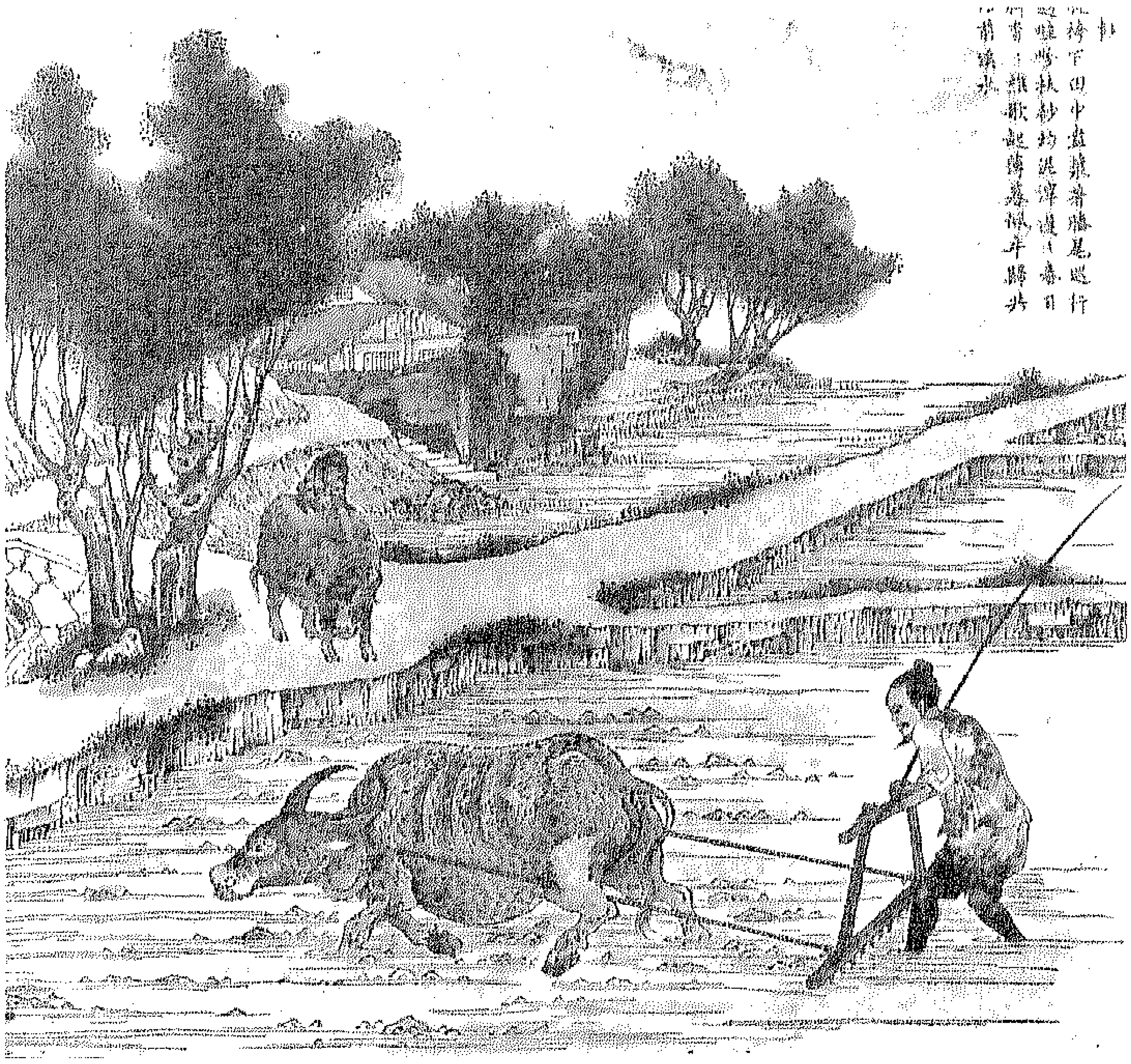

منظران يصوران زراعة الأرز. الصورة التي فوق هذا الكلام تبين الحرث محراث يجره فحل جاموس واحد وبطريقة تلويط " تؤدى إلى تغلغل الماء في التربة ."

الجبال البؤساء ، أكلة الأرز الجاف ، وحقق ثراء ، وازدهارا ، ولكنه حكم على نفسه بأن يقوم هو بكل الأعمال ، والحرف ، فيشد المحراث أحيانا ، ويسحب السفينة أو يحملها لينقلها من ترعة إلى أخرى ، ويحمل الأشجار ، ويجرى على رجليه في كل طريق لينقل الأخبار ، والرسائل . أما جاموس مزارع الأرز فقد أنقص عدده إلى حد الكفاف، فلم يكد ما اتخذه منها يكفي لأداء ما يناط به من عمل، ولم يتخذ خيولا ، ولا بغالا ، ولا جمالا كما فعل أهل الشمال ، وكانت صين الشمال شيئا ، وكانت صين الأرز شيئا آخر. كانت صين الأرز تجسم انتصار الفلاحين المنغلقين على أنفسهم . فلم تكن زراعة الأرز تتجه إلى الخارج، إلى الأرض الجديدة ، بل تتجه في المقام الأول إلى المدن التي نشأت منذ وقت مبكر . وإنما اتجهت إلى المدن بحثا عن الزبالة ، وغائط البشر، وأوحال الطرقات لكي تسمد بها مزارع الأرز. وهكذا كان الفلاحون يروحون الى المدن، ويجيئون منها دائبين، يجمعون الأسمدة النفيسة، و " يدفعون ثمنها أعشابا أو خلا أو فضة"(١٩١) . وهذا هو السبب في تلك الروائح الكريهة البشعة التي كانت تملأ الأجواء، وتظل هائمة حائمة ، فوق المدن، وفوق الحقول في الريف . لقد تحقق الامتزاج

منظر ري مزرعة الأرز . هذه الصورة ، والصورة السابقة منقولتان بالحفر عن لوحات من رسم كينغ تشي تو . (متحف الرسومات بالمكتبة القومية الفرنسية في باريس)

بين الريف والمدينة هنا على نحو أقوى مما تحقق في أوروبا، وما كان هذا بالشيء الهين. وليس الأرز في حد ذاته هو المسئول عن ذلك ، ولكن نجاح الأرز كان هو المسئول.

فلما تفجر الفيضان السكاني العارم في القرن الثامن عشر ، كان هوالذي دفع بأهل الصين الى استزراع التلال ، وبعض السفوح الجبلية ، وكان القرن الثامن قد شهد كذلك الانتشار الثورى للذرة ، والبطاطا اللتين استوردتا من أمريكا قبل قرنين من الزمان. فالأرز مهما كانت أهميته لا يستبعد زراعات أخرى . نلاحظ هذا في الصين ، وفي اليابان ، وفي الهند.

كانت اليابان ، إبان حكم أسرة توكوجاوا Tokugawa (١٦٠٠ـ ١٨٦٨) قد أغلقت أبوابها، منذ القرن السابع عشر، في وجه التجارة الخارجية ، بصورة كاملة، أو توشك أن تكون كاملة (منذ عام ١٦٣٨) ، ونما اقتصادها نموا هائلا، وزاد عدد سكانها زيادة هائلة أيضا، فقد بلغ عدد السكان الكلي ٣٠ مليون نسمة، وبلغ عدد سكان العاصمة أيدو Edo (طوكيو) وحدها مليون نسمة حول عام ١٧٠٠. ولم يكن مثل هذا التقدم ممكنا إلا بفضل تزايد مستمر شمل إنتاجا زراعيا ، سد حاجات هؤلاء الثلاثين مليون،

الذين كانوا يسكنون شريحة من الأرض ضيقة لا تكفي " في أوروبا لإعاشة أكثر من خمسة أو عشرة ملايين نسمة " (١٩٢). وكان التقدم قد بدأ بطيئا في مجال إنتاج الأرز، واستهدف تحسين التقاوى ، وشبكات الرى ، والصرف، والمعدات اليدوية التي يستخدمها الفلاحون (وبخاصة اختراع مشط السينباكوكي senbakoki، وهو مشط هائل من الخشب يستعمل في فصل حب الأرز) (١٩٣) ، وحرص على تطوير تجارى لأسمدة أكثر فاعلية ووفرة من غائط الانسان ، وروث الحيوان : منها أسماك السردين المجففة ، وكسب السلجم colza، وكسب الصويا ، وكسب القطن . وكانت هذه الأسمدة تمثل في كثير من الأحيان من ٣٠ الى ٥٠ ٪ من نفقات الزراعة . كذلك تطورت تجارة المنتجات الزراعية ـ أو ما سمي بتتجير المنتجات الزراعية ـ أى تحويلها إلى مجال التجارة فنشأت تجارة أرز واسعة ، بتجارها الاحتكاريين ، كذلك ازدهرت بعض الزراعات الإضافية ، مثل زراعة القطن ، والسلجم ، والقنب ، والتبغ ، والخضروات، وأشجارالتوت ، وقصب السكر ، والسمسم ، والقمح ...وأهم هذه الزراعات القطن والسلجم : أما السلجم فألحقوه بزراعة الأرز ، وأما القطن فربطوه بزراعة القمح. وكانت هذه الزراعات الإضافية ترفع الدخل العام للزراعة، ولكنها كانت تحتاج إلى مثليْ أو ثلاثة أمثال الأسمدة التي تحتاجها مزارع الأرز، كما كانت تحتاج إلى أكثر من ضعف العمالة . وكانوا في خارج مزارع الأرز، أى في الحقول ، يتبعون نظام المحاصيل الثلاثة الذى يجمع في أغلب الأحوال الشعير ، والبرة السوداء sarrasin، واللفت navets. وبينما ظل الأرز خاضعا لضرائب عينية باهظة (بلغت ٥٠ إلى ٦٠٪ من المحصول كانت تسلم إلى السيد) فإن المحصولات الجديدة أفسحت المجال لضرائب من نوع جديد، كانت تدفع بالفضة، وهكذا ربطت هذه المحصولات العالم الريفي باقتصاد حديث، وأدت إلى ظهور أعداد من الفلاحين الميسورين، بل من الأغنياء، كانت لهم أملاكهم الخاصة، وإن ظلت ـ وستظل ـ ضئيلة المساحة(١٩٥) . كل هذه نواح يمكن أن نستنتج منها أن الأرز كان هو أيضا شخصية معقدة ، مازلنا ، نحن مؤرخي الغرب ، في بدايات الطريق إلى التعرف على سماته .

وإذا كانت هناك صين ، وصين ، فهناك أيضا هند ، وهند . كان الأرز يهيمن على سواحل شبه القارة الهندية، والجزء السفلي من نهر السند، ويغطي دلتا الكنج الواسعة، ووادي الكنج السفلى ، ولكنه كان يترك أرضا شاسعة لزراعة القمح، وأرضا شاسعة أوسع منها لزراعة الدخن الذى حبته الطبيعة بالقدرة على الرضا بتربة أقل خصوبة . وتبين الدراسات الحديثة التي قام بها مؤرخو الهند أن نهضة زراعية ضخمة بدأت منذ عصر إمبراطورية دلهي ، زادت من أعمال استصلاح الأرض ، والرى ، ونوعت المحاصيل، وشجعت الزراعات التى ترتبط بالانتاج الصناعي، مثل زراعة النيلة، وقصب

السكر، والقطن، وأشجارالتوت لتربية دودة القز(١٩٦). وشهدت المدن تزايدا سكانيا كبيرا في القرن السابع عشر . وحدث في الهند مثل الذي حدث في اليابان، فقد زاد الإنتاج ، ونظمت عمليات تبادل تجاري كانت تقطع المسافات الهائلة ، وكانت تختص بالأرز والقمح خاصة ، تحملهما عن طريق البر، وعن طريق الأنهار. ولكننا نلاحظ فرقا بين الهند واليابان ، فلم تشهد الهند على ما يبدو تقدما في التقنيات الزراعية . كذلك نلاحظ أن الهند استخدمت الحيوانات ، وبخاصة الثيران، والجاموس ، بل لقد كانت هذه الحيوانات تلعب دورا كبيرا كحيوانات للجر والحمل ، وكان روثها المجفف، الجلة ، يستخدم وقودا ، لا سمادا . وهم لم يُستخدموا في الهند غائط البشر في التسميد، منعتهم من ذلك أسباب دينية ، على عكس ما كان يحدث في الصين ، كذلك فإن القطعان الكبيرة من الماشية لم تستخدم طعاما لأسباب دينية معروفة أيضا ، باستثناء اللبن، والزبد الذى كانوا يقدحونه ويحولونه إلى سمن ، وهي منتجات كانت قليلة الكمية على أية حال نظرا لسوء أحوال الماشية التي لم تكن توضع في أماكن تسترها ، ولم يكونوا يدبرون لها طعاما بمعنى الكلمة .

والخلاصة أن شبه القارة الهندية كان فيها الأرز ، وبعض الحبوب الأخرى التي لم تكن تقيم الأود ، وتؤمن الحياة إلا على نحو معيب . ولسوف تشهد الهند مثل اليابان(١٩٧) مجاعات فظيعة ، كانت ترجمة للزيادة السكانية المفرطة . ولم يكن الأرز هو المسئول الوحيد بطبيعة الحال عن الزيادة السكانية ، لأنه لم يكن يعتبر في الهند ، وفي غير الهند العامل الوحيد المتسبب في الزيادة السكانية بالأمس ، وهذه هي الحال اليوم أيضا . كل ما في الأمر أن الأرز سمح بهذه الزيادة السكانية المفرطة .

الــــذرة ....

ونختم دراسة النباتات المهيمنة بشخصية مثيرة : الذرة . ولقد أطلنا التفكير قبل أن نقرر ألا نضم إلى هذه النباتات المهيمنة نبات المنيوق manioc الذى لم يلعب دور النبات الأساسي إلا في أمريكا ، في الثقافات البدائية ، وهي ثقافات هينة القدر بصفة عامة . أما الذرة فقد ساندت ـ على عكس المنيوق ـ ازدهار حضارات أو نصف حضارات : الإنكا ، والمايا ، والأزتيك ، ساندتها دون أن تكل أو تتضعضع ، وكانت هي التي أخرجتها إلى الوجود ، وأضفت عليها سماتها المميزة. ثم نجحت الذرة بعد ذلك نجاحا فريدا على مستوى العالم .

مصـــــادر واضحــــة

كل شيء يتصل بالذرة سهل ، حتى مسألة تحديد المصادر التي خرج منها . كان العلماء في القرن الثامن عشر قد ظنوا ، اعتمادا على قراءات ، وشروح ، وتأويلات نراها عرضة للجدل والشك ، أن الذرة أتت في وقت واحد من الشرق الأقصى ـ والشرق الأقصى بالذات ـ ومن أمريكا ، التي كان الأوروبيون قد اكتشفوها منذ الرحلة الأولى لكريستوف كولومبس (١٩٨). والمؤكد أن الاحتمال الأول خاطيء ، فالذرة قد أتت من أمريكا وحدها ، ومنها انتقلت إلى آسيا ، وأفريقيا ، حيث تركت بعض الآثار الدالة عليها ، ومنها بعض التماثيل المسماة يوروبا yoruba التي ربما ضللت البعض، ودفعته إلى هذه أو تلك الظنون. والقول الفصل في هذا الموضوع من شأن علم الآثار، ولقد قال علم الآثار كلمته النهائية، ولم يعد هناك مجال لتخريجات. وإذا لم يكن كوز الذرة قد بقى كاملا في الطبقات الجيولوجية القديمة ، فإن حبوب التقاوي تختلف عنه ، فمن الممكن أن تبقى في الأحافير . وقد عثر العلماء على تقاوي الذرة في صورة أحفورية في المنطقة المحيطة بمدينة المكسيك ، وكان العلماء قد أجروا هناك حفائر كشفية عميقة بينت أن المدينة كانت في الماضي على حافة مستنقع جف فيما بعد، وتبع ذلك تكون طبقات هامة من التربة بالتراكم والهبوط . ثم تكررت البحوث الحفرية في التربة المستنقعية القديمة للمدينة ، وكشفت عن بذور الذرة على عمق ٥٠ و ٦٠ مترا ، وهو ما يشير إلى ماض مقداره آلاف من السنين. ومن البذور التي وجدوها بذور الذرة التي تذرع اليوم ، ومنها بذور الذرة البرية ، ومنها بذور الصنفين معا .

وقد ألقي الباحثون مزيدا من الضوء على المشكلة بناء على حفريات حديثة أجريت في وادى تيهواكان Tehuacan على مسافة ٢٠٠ كيلومتر إلى الجنوب من مدينة المكسيك ، ففي هذه المنطقة الجافة التي تتحول في كل شتاء إلى صحراء كبيرة، حفظ

الجفاف أشياء من أزمان قديمة ، من بينها بعض حبوب الذرة القديمة ، وبعض كيزان الذرة وقد تجردت من الحب ، وبقيت على هيئة القوالح ، وكذلك بعض أوراق الذرة الممضوغة . ويميط الكشف اللثام عن نباتات ، وأقوام ، وآثار بشرية على مقربة من ينابيع مياه ، كانت قد تفجرت في الماضي . ووجد الباحثون في ملاجيء ظهرت تحت الكهوف مادة علمية قيمة ، وأصبح من الممكن بناء عليها إعادة تتبع تاريخ الذرة ، والرجوع الى الوراء ، حقبة حقبة.

" إننا نرى في الطبقات القديمة ، عندما نتتبعها ، واحدة واحدة ، كيف تتلاشى أصناف الذرة الحديثة صنفا بعد صنف [...]. في الطبقة الأقدم التي ترجع إلى سبعة أو ثمانية آلاف سنة نرى أذرة بدائية ، هي الوحيدة التي بين أيدينا ، وكل الشواهد تدل على أنها لم تكن قد استزرعت بعد . وهذه الذرة البدائية عبارة عن نبات صغير [...] يزيد كوزه الناضج عن ٢ إلى ٣ سنتيمترات ، ولا يزيد عدد ما فيه من حب عن خمسين فقط تنمو في التجويف تحت الأوراق السفلى اللينة للثمرة . وللكوز لب هش واهٍ، والأوراق التي تحيط به لا تتخذ شكل الكيس المتين ، مما كان يؤدى إلى سهولة انتشار الحبوب " (١٩٩). وهكذا استطاعت الذرة أن تضمن لنفسها البقاء على مر الزمن، خلافا للذرة المستزرعة التي تظل حبوبها حبيسة الأوراق المحيطة بالكوز، والتي لا تنفتح عند النضج من تلقاء ذاتها، بل لابد أن يتدخل الانسان لفتحها .

ولكن اللغز لم تتكشف حلقاته كلها بكل تأكيد . لماذا تلاشت هذه الذرة البرية ؟ من الممكن أن نلقي بالتهمة على القطعان التي أحضرها الأوروبيون معهم عندما استعمروا هذه البقاع ، وبخاصة قطعان الماعز . ثم هذه الذرة البرية ، ما هو موطنها الأصلي ؟ هل موطنها أمريكي، هذا احتمال مقبول ، ولكن أين في أمريكا ؟ من الضرورى إجراء مزيد من البحوث لنحدد بالضبط في العالم الجديد الوطن الحقيقي لهذا النبات الذى غيره الإنسان، فبلغ الإعجاز في تغييره . وبالأمس رشح البعض باراجواى وطنا للذرة، ثم رشحوا بعد ذلك بيرو ، وجواتيمالا ، وها هي ذى المكسيك تتقدم الجميع . ولكن علم الآثار نفسه له مفاجآته ، وله وقفاته . وكأنما شاء القدر أن تظل هذه المشكلات المثيرة بلا حل نهائي ، فما زال المتخصصون يتكلمون ، ويحلمون على الأقل بأن يجدوا مركزا إضافيًا للانتشار البدائي للذرة ، انطلاقا من آسيا العليا ، مهد كل حبوب العالم تقريبا ، أو انطلاقا من بورما .

الــــذرة
والحضارات الأمريكية

وأيا كان الأمر فمنذ القرن الخامس عشر ، عندما مكنت حضارات الأزتيك، والإنكا

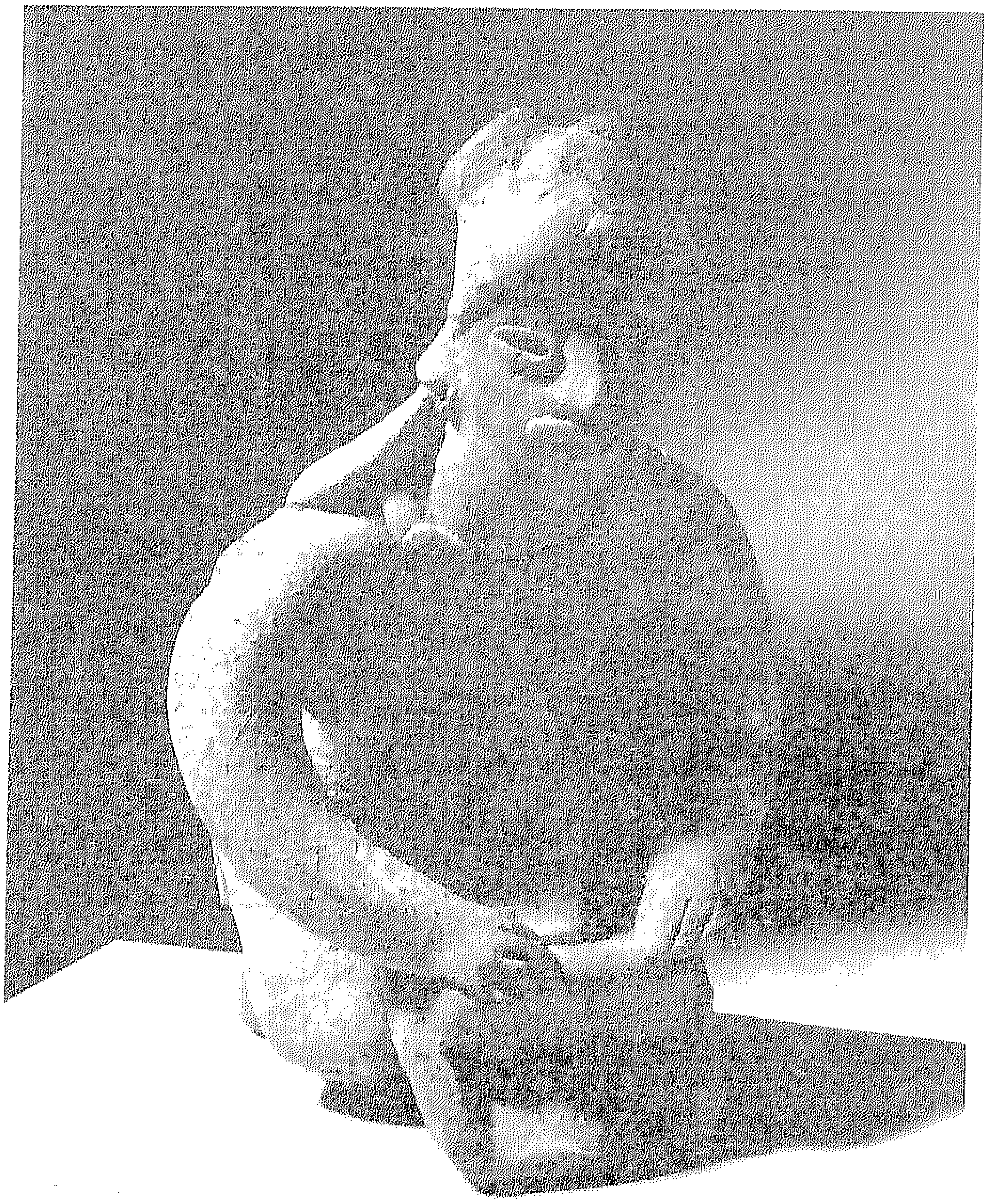

امرأة تطحن الذرة يدوياً . تمثال مكسيكي ، متحف علم الإنسان في جواد الچارا بالمكسيك .

لنفسها ، كانت الذرة موجودة منذ وقت طويل في الساحة الأمريكية ، مشاركة للمنيوق، هكذا كانت الحال مثلا في شرق أمريكا الجنوبية ؛ كانت الذرة توجد تارة وحدها، خاضعة لنظام الزراعة الجافة ، وتوجد تارة أخرى وحدها فوق المدرجات المروية في پيرو، وعلى ضفاف البحيرات المكسيكية . أما فيما يتعلق بالزراعة الجافة ، فإن ما سبق أن قلناه في معرض حديثنا عن الأرز ، وعن الأرض التي تترك خالية لتستجم أو ترتاح، والتي يسمونها اللادانج أو الراى يسمح لنا بأن نوجز . ويكفي ، عندما نتمثل بهضبة أنهواك Anahuac بالمكسيك ، أن نكون قد رأينا النيران الهائلة التي يشعلونها في الأعشاب، وكتل الدخان الهائلة المتصاعدة ، التي تتسبب في كوارث الطائرات، إذ تسقط فيها الطائرات (التي تضطر إلى الطيران على ارتفاع منخفض من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ متر فقط فوق هذه الأراضي المرتفعة) سقوطا رأسيا مشيرا ، متأثرة بالثقوب

الهوائية الساخنة ، لكي نتخيل الدورات الزراعية للذرة في تربة جافة ، تربة تمتد كالشريط على حافة الغابة، أو حافة منطقة تكسوها الأعشاب . هذه الطريقة هي طريقة الميلبپ milpa التي شهدها جيميللي كاريري Gemelli Careri في عام ١٦٩٧ في الجبال قرب كويرناباكا Cuernavaca على قيد خطوات من مدينة المكسيك، فكتب يقول : " لم يكن هناك سوى العشب الجاف الذى يحرقه الفلاحون ليسمدوا الأرض ..."(٢٠٠).

ونلتقي بالزراعة المركزة للذرة على ضفاف البحيرات المكسيكية، ونلتقي بها في صورة أكثر روعة فوق الزراعات على المدرجات في بيرو . كان الإنكا قد أتوا من مرتفعات منطقة بحيرة تيتيكاكا Titicaca، وجاسوا خلال وديان الأنديز ، باحثين عن أراض جديدة للأهالي الذين تزايدت أعدادهم ، فمهدوا في الجبل مدرجات ، ربطوها بعضها بالبعض الآخر عن طريق سلالم ، وزودوها بسلسلة من قنوات الري . ولدينا شواهد عبارة عن رسوم بدائية قديمة ، تكاد تنطق بغير كلام : فيها نرى الفلاحين يمسكون بعصي ينبشون بها التربة ، ونرى نساءهم يبذرن البذور، ثم نرى الحب ينضج بسرعة ، فيبذلون الجهد ليحموه من الطيور . والله يعلم كم كانت كثيرة – ومن الحيوان الذى نراه يأكل كوزالذرة ، والأرجح أن الحيوان المرسوم هو اللاما . ولو كانت هناك رسوم أخرى تالية ، لكانت رسوما تصور الحصاد...وكانوا في عملية الحصاد يقتلعون الكوز وعنقه (فالعنق الغني بالسكر غذاء قيم). وما أعظم النتيجة التي نصل إليها عندما نقارن هذه الرسوم البدائية . وهي: رسوم پوما دى أيالا Poma de Ayala بالصور الفوتوغرافية التي التقطت في پيرو العليا في عام ١٩٥٩، إننا نرى فى هذه الصور الفوتوغرافية نفس الفلاح يدس بيد قوية عصا النبش في الأرض ، و يرفع بها كتلا كبيرة من الطين ، بينما تقوم الفلاحة ببذر البذور كما كانت تفعل في الماضي البعيد . وقد شاهد كوريال Coreal في فلوريدا ، في القرن السابع عشر، السكان الأصليين يمارسون حرق الأعشاب ، ويستخدمون مرتين في العام ، في شهر مارس، وشهر يولية ، " عصيا من الخشب المدببة " ، يدسون بها التقاوى في التربة(٢٠١).

والذرة نبات عجيب ، ما في ذلك شك ، فهو ينمو بسرعة ، وحبوبه، حتى قبل أن تنضج ، تصلح للأكل (٢٠٢). وكانت حبة التقاوى الواحدة تحقق في المنطقة الجافة بالمكسيك ، حيث المستعمرات ، ما بين ٧٠ و٨٠ حبة ؛ وكانوا في منطقة ميتشواكان Michoacan يعتبرون نسبة المحصول المقدرة بـ ١٥٠ حبة لقاء حبة تقاوى واحدة نسبة ضعيفة ؛ أما في المنطقة القريبة من كويريتارو Queretaro فنقرأ عن محاصيل قياسية في الأراضي الخصيبة جدا تصل إلى ٨٠٠ حبة الى حبة التقاوى الواحدة ، وهذه أرقام قياسية لا يجروء الإنسان على تصديقها . كذلك نقرأ أنهم كانوا يحققون في المكسيك،

في أراضي المنطقة الحارة ، والمعتدلة، محصولين : محصولا بالرى riego، ومحصولا آخر تحكمه ظروف الوقت temporal يرتهن بمدى سرعة الفلاحين في العمل(٢٠٣). ويمكننا أن نتصور في زمن الاستعمار أرقام إنتاج مساوية للأرقام الحالية في الملكيات الخاصة الصغيرة ، وهي بين ٥ و ٦ قناطير للهكتار. وكانت هذه المحاصيل تتحقق بسهولة لأن زراعة الذرة لم تتطلب قط في أي وقت مجهودات كبيرة. ولقد تنبه عالم آثار هو فرناندو ماركويس ميراندا Fernando Marquez Miranda إلى هذه الحقيقة بالأمس ، فعبر بعبارات رائعة ، عن الميزات التي ينعم بها زراع الذرة فقال : إن الذرة لا تتطلب من المزارعين سوى خمسين يومية عمل في العام ، وهذا يعنى أنهم يعملون يوما واحدا في الأسبوع ، وربما يوما واحدا كل ثمانية أيام ، بحسب المواسم ، ثم يبقون بلا عمل، في حالة من العطلة المسرفة . وقد أدت زراعة الذرة إلى قيام حكومات هناك تعتمد على السلطة الدينية ، وتمارس الطغيان بغير حدود ، وتستغل أوقات الفراغ الطويلة لدى الفلاحين في تنفيذ أعمال هائلة من نوع الأعمال التي كان المصريون يقومون بها في عصر بناة الأهرام ؛ كانت هذه هي النتيجة التي أدت إليها زراعة الذرة على مدرجات جبال الانديز المروية ، أو على ضفاف البحيرات في الهضاب المكسيكية. فهل كان الذنب هو ذنب زراعة الذرة؟ أم هل كان نظم الرى ؟ أم ذنب المجتمعات الكثيفة المقهورة ، التي اضطرتها الأعداد الكبيرة إلى الخضوع للاستبداد ؟ أياً كان الأمر ، فلو لم تكن هناك ذرة، لما كان من الممكن بناء أهرام المايا أو الأزتيك الضخمة، ولما أمكن تشييد الأسوار الهائلة في كوزكو Cuzco ـ عاصمة الإنكا القديمة ـ أو إجاز معجزات ماتشو پيتشو Machu Pichu التي تأخذ بمجامع القلوب . لقد تطلب تشييد هذه الآثار الضخمة أن تكون هناك الذرة التي تنمو وحدها ، أو وحدها تقريبا، دون جهد بشرى كبير حتى يتفرغ البشر لتشييدها .

وتبقى المشكلة على حالها، إعجاز من ناحية ، ويؤس من ناحية أخرى: فزراعة الذرة تعتبر من ناحية معجزة، ولكنها من الناحية الثانية تؤدى من الناحية الإنسانية إلى نتائج وخيمة، ونحن بين هذا وذاك نتساءل كما تساءلنا دائما: على من يقع الذنب؟ على البشر بكل تأكيد، ولكن على الذرة أيضا .

وما هي المكافأة التي ينالها من يزرعون الذرة ؟ هل هي: الرقاق المصنوع من الذرة؟ أم رغيف الذرة اليومي الرديء ؟ أم فطائر الذرة التي تخبز على نار هادئة في أوان فخارية؟ أم الفشار الذى هو عبارة عن حبوب الذرة التى تنفجر بفعل الحرارة؟ لا هذا، ولا ذاك يصلح وحده أن يكون طعاما كافيا . ولابد من أن يضاف إليه شيء من منتجات اللحم ، وهي أشياء شحيحة ، مصابة بنقص مستعصى .وما يزال فلاح الذرة في مناطق الهنود الحمر إلى اليوم إنسانا بائسا في أكثر الأحوال ، وبخاصة في جبال

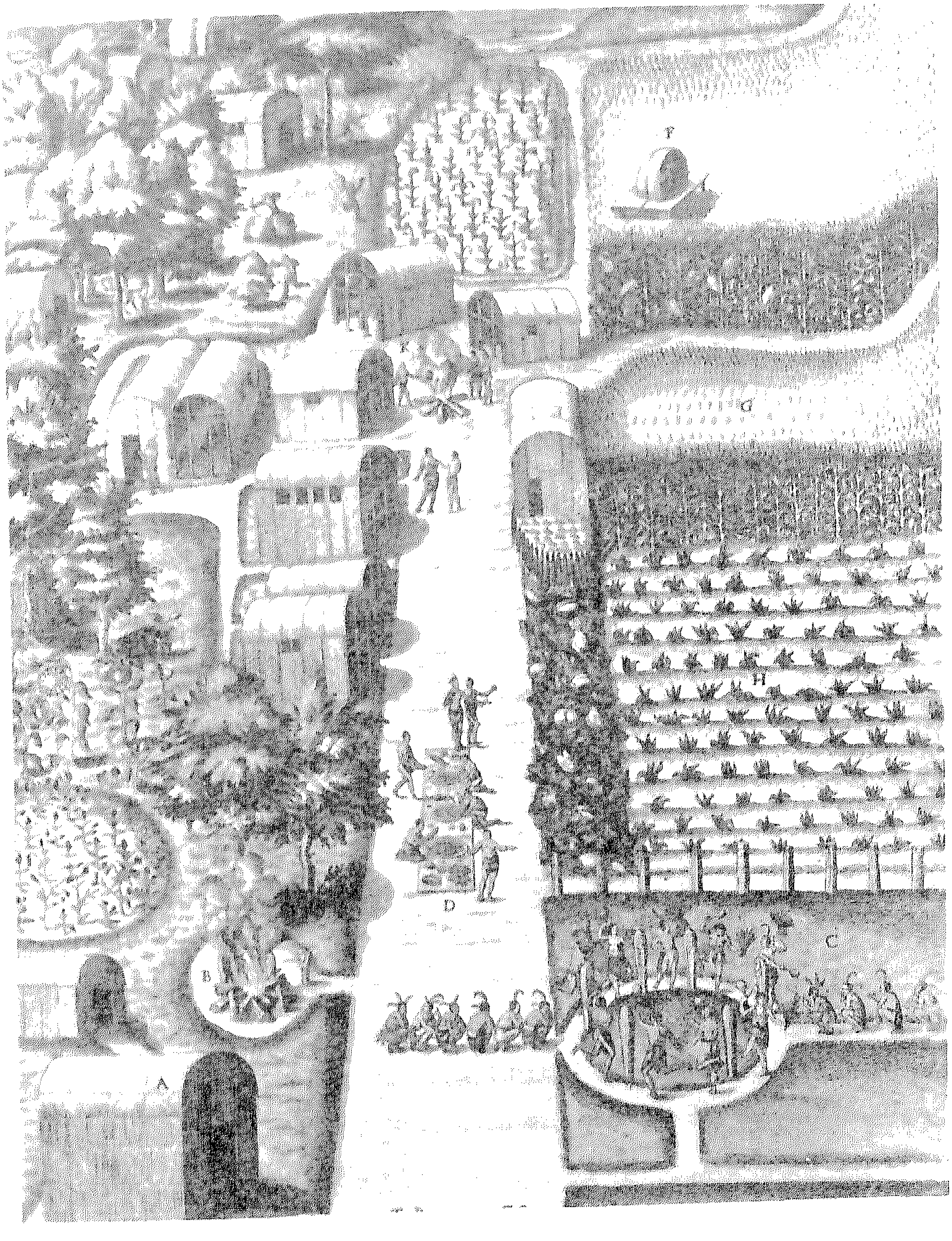

زراعة الذرة كما مارسها الهنود الحمر: معسكر سيكوتا Secota الهندى في فرچينيا. على مشارف الغابة، بأكواخه، وصياديه ، وحفلاته، وحقول تبغه (E) وزراعات ذرة (H،G) في خطوط متباعدة ، ويشرح تيودور دى برى théodore de Bry السبب في تباعد الخطوط قائلا إنهم يباعدون بين الخطوط نظرا لأهمية هذا النبات ذى " الورق العريض الذى يشبه ورق الغاب الكبير ".

الأنديز. ماذا يأكل ؟ إنه يأكل الذرة ، ثم الذرة، ثم البطاطس المجففة (ونحن نعرف أن البطاطس التي انتشرت في ربوعنا أصلها من بيرو بأمريكا الجنوبية). ومطبخ هذا الفلاح عبارة عن كانون من الحجر ، منصوب في الخلاء، ومسكنه كوخ منخفض ، يتكون من مطرح واحد ، يتقاسمه مع الماشية ، وملابسه التي لا تتغير اتخذها من نسيج صنعه من صوف اللاما على أنوال بدائية . والشيء الوحيد الذى يستعين به على الحياة الصعبه هو مضغ ورق الكوكا الذى يقضى على الجوع ، والعطش ، والتعب ، والبرد . فإذا أراد الهروب من البؤس فليس لديه من وسيلة سوى تجرع البيرة المصنوعة من الذرة النابتة (أو المجروشة) التي تسمي تشيتشا chicha، والتي وجدها الأسبان في جزر الأنتيل ، ونشروها، أو نشروا على الأقل اسمها في ربوع أمريكا الهندية ، وربما تجرع بيرة بيرو القوية التي يسمونها سورا sora ، وكلها مشروبات خطيرة كانت السلطات العاقلة تمنعها ، ولكن منعها لم يكن يجدي نفعا . إنها مشروبات تخرج هذه الأمم الحزينة الهشة عن وعيها ، وتجعلها تترنح في مناظر سكر بين من النوع الذى رسمه جويا Goya في لوحاته(٢٠٦).

والذرة كان يعيبها عيب خطير ، وهي أنها لم تكن دائما في متناول اليد . فلم يكن من الممكن زراعتها في كل مكان قريب . ففي جبال الأنديز توقفت زراعة الذرة عند منتصف سفح الجبل ، ولم تتمكن من أن تمتد إلى أعلى بسبب البرودة. ثم إن زراعة الذرة كانت تحتل مناطق ضيقة. ولهذا كان من الضرورى ، أيا كان الثمن ، أن تدور الذرة دورة تبدأ من المنتج ، وتنتهي عند المستهلك ، وتدبر الوسائل لنقلها. ومازلنا إلى اليوم نشهد جماعات من البشر تضطر إلى الانتقال الشاق العسير وراء الذرة ، من البرد إلى الدف ، ومن الدفء إلى البرد من أمثلة هؤلاء هنود اليورا في جنوب پوتوسى Potosi، الذين كانوا يتدافعون إلى مناطق الذرة ، هابطين من مرتفعاتهم العالية التي كانت الحياة فيها قاسية على البشر أشد القسوة. وكانت لديهم ملاحات طبيعية ربانية، يستغلونها كما تستغل المحاجر ، فيقطعون منها الملح ، ويستخدمونه بديلا عن النقود. وكانوا في كل عام ، يبدأون في شهر مارس رحلة الذهاب والإياب التي كانت تستمر ثلاثة أشهر وقد تزيد ، كانوا يخرجون التماسا للذرة ، والكوكا ، والكحول، رجالا، ونساء، وأطفالا، يسيرون على الأقدام ، ويضربون خيامهم ، واضعين بجوارها أكياس ملحهم على هيئة المتاريس . وما هذا إلا مثل صغير، هين ، على دورة انتقال الذرة، أو دقيق الذرة ، في صورة استقرت منذ الأزل (٢٠٦).

وفي القرن التاسع عشر سجل الألماني ألكسندر فون هومبولت Alexander von Humboldt في أسبانيا الجديدة أي المكسيك (٢٠٧)، وأوجست دى سانهيلير Auguste de Saint-Hilaire في البرازيل (٢٠٨) مشاهداتهم عن حركة نقل

الذرة بالبغال ، التى كانت لها مواقفها ، يسمونها رانتشوس ranchos، ومحطاتها، ومساراتها الإجبارية . وكانت هذه الحركة ذات أهمية قصوى ، فكان كل شيء يعتمد عليها، حتى المناجم منذ أن نزلت ضربات المعاول الأولي فيها ، كانت تعتمد على حركة نقل الذرة . ومن الذى كان يحقق أكبر الأرباح؟ عمال المناجم الباحثون عن الفضة؟ أم الباحثون عن تراب الذهب ؟ أم المتاجرون في المواد الغذائية ؟ فإذا طرأ ما يهدّد حركة النقل ، أصابت نتائجها التاريخ الكبير الذي كان في مرحلة التكوين . يشهد على ذلك رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero القبطان العام لميناء پنما، في القرن السابع عشر، ذلك الميناء الذى كانت تصل إليه فضة مناجم پوتوسي قادمة من أريك Arica ثم عن طريق محطة المرور في كالاؤن Callao. ومن هناك كانت الشحنات الثمينة تجتاز البرزخ، وتصل إلى ميناء بورتو بيلو Porto Belo على بحر الأنتيل محمولة على ظهور البغال التي كانت تسير في قوافل ، ثم تنقل منها الى سفن نهر تشاجريس Chagres . ولكن البغالة والبحارة كانوا يحتاجون أولا وقبل كل شيء آخر إلى الطعام، وإلا ما كان هناك نقل للفضة . وبنما هذه لم تكن تعيش إلا على الذرة التي تستوردها من نيكاراجوا ، أو كالديرا Caldera (شيللي). وفي عام ١٦٢٦ عزّت الذرة نتيجة للجفاف ، فتوقف كل شيء ، وبقيت الفضة في مكانها ، ولم ينقذ الموقف إلا سفينة خرجت من پيرو تحمل ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ كيلة هندية من الذرة من نوع الفانيجاس fanegas (كانت الشحنة تساوى ١٠٠ الى ١٥٠ طن) وأمدت البغالة و البحارة بلقمة العيش فتحرك المعدن الأبيض الثمين ، واجتاز مرتفعات البرزخ(٢٠٩).

الثورات الغذائية
في القرن الثامن عشر

النباتات المستزرعة لا تكف عن الترحال ، وتغيير حياة الناس. ولكن حركاتها ، التي تبدو وكأنها تتم من تلقاء ذاتها ، تمتد أزمانا تقاس بالقرون ، بل قد تطول إلى آلاف السنين . ولكن منذ أن اكتشفت أمريكا أخذت هذه التحركات تزداد تنوعا وسرعة، فانتقلت نباتات العالم القديم إلى العالم الجديد ، وكذلك حدث العكس ، فقد انتقلت، نباتات العالم الجديد إلى العالم القديم ، من ناحية : الأرز ، والقمح ، وقصب السكر، والبن ... ومن الناحية المقابلة : الذرة ، والبطاطس ، والطماطم (٢١٠) ، والمنيوق، والتبغ ...

واصطدمت النباتات الدخيلة في كل مكان تنزل إليه بصنوف من العداء من قَبل الزراعات المحلية ، وأنماط التغذية التقليدية : فقد حكموا على البطاطس في أوروبا عندما جاءت بأنها كالغراء ، بأنها وعسرة الهضم ؛ وما زال الناس في جنوب شرق الصين يحتقرون الذرة ، ويصدرون في هذا الاحتقار عن إخلاصهم للأرز. ولكن نفورالناس من الأغذية الواردة ، وبطء تكوينهم للخبرات الجديدة بشأنها ، لم يمنعا النباتات الجديدة من الانتشار ، فتزايدت ، وخطت بخطى سريعة ، ومكنت لنفسها. فقد بدأ الفقراء في أوروبا ، وفي غير أوروبا ، بفتح أبوابهم أمامها ، ثم جاء التزايد السكاني بعد ذلك، وما تبعه من احتياجات عارمة فسهل انتشار هذه النباتات الجديدة . ولكننا نلاحظ ما يلي: إذا كان سكان العالم قد تزايدوا ، وما زالوا يتزايدون، فإن ذلك يرجع إلى أسباب منها زيادة إنتاج المواد الغذائية ، وإنما زادت المواد الغذائية نتيجة لدخول المحاصيل الجديدة .

الـــذرة
خارج أمريكـا

أيا كانت الحجج التي قدمها من ذهبوا إلى أن الذرة خرجت من أمريكا قبل رحلة كولومبوس ، فإن الاحتمال ضعيف أن يكون هذا النبات الجديد قد هرب من سجنه في أمريكا قبل هذه الرحلة ، فقد كان كريستوف كولومبوس هوالذى أحضر معه عند عودته بعض حبوب الذرة في عام ١٤٩٣. كذلك فالاحتمال ضعيف في أن تكون الذرة من أصل أفريقي . والرأي عندنا أن الاعتماد في المناقشة الدائرة حول أصل الذرة على الأسماء المختلفة التي أطلقت على الذرة في جنبات العالم المختلفة أمر لا يكاد يقنع أحدا ، فقد كست هذه الدعوة نفسها بثياب مزركشة مضحكة ، عندما جمعت بالمصادفة كل الأسماء الممكنة ، والمتصورة ، مأخوذة من كل المناطق، ومن كل العصور. ففي منطقة اللورين يسمون الذرة قمح رودس ، وفي جبال البرانس يسمونها قمح إسبانيا ، وفي

البايين Bayenne: قمح الهند، وفي توسكانا : ذرة سوريا doura de Syrie، وفي مناطق إيطالية أخرى: الحبوب التركية ، في ألمانيا وهولندة : القمح التركي ، وفي روسيا يسمونه كوكورو ، وهذه هي التسمية التركية ، وفي تركيا نفسها يسمونه أيضا القمح الرومي (أى القادم من البلاد المسيحية)، وفي اقليم فرانشكونتيه Franche-Comté القديم في فرنسا كانوا يسمونه التركي . وفي وادى الجارون ، وفي اللوراجيه Lauraguais غيرت الذرة اسمها فجأة ، وعلى نحو غير متوقع ، فظهرت في أسواق كاستيلنودارى Castelnaudary في عام ١٦٣٧ ، وفي أسواق تولوز في عام ١٦٣٩ باسم دخن أسبانيا ، فقد كان الدخن واسع الانتشار في تلك المنطقة ، واتخذ عندذاك في قوائم البضائع ، والأسعار اسم دخن فرنسا؛ ثم أصبح الصنفان من الحبوب يعرفان باسمي الدخن الغليظ ، والدخن الرفيع ، حتى جاء الوقت الذى قضت فيه الذرة على الدخن، واستولت الذرة على اسم الدخن فأصبحت الذرة تتسمى منذ عام ١٦٥٥ تقريبا باسم" الدخن " millet باختصار . وظل الوضع على هذا النحو أكثر من قرن من الزمان حتى قامت الثورة الفرنسية ، عندذاك دخلت كلمة mais أي ذرة في مصطلحات قوائم البضائع ، والأسعار (٢١١).

ويمكننا أن نتتبع الخطوط العريضة لرحلة الذرة ، بعد اكتشاف أمريكا ، وتقدمها في أوروبا ، وفي خارج أوروبا أيضا . كانت مسيرة الذرة مسيرة بطيئة جداً ، ولم تتحقق ألوان النجاح الضخمة إلا مع القرن الثامن عشر .

في عام ١٥٣٦ وصف سجل النباتات الذي أصدره چان رويل Jean Ruel نبات الذرة: هكذا بدأت سجلات النباتات التي أعدها كبارعلماء النبات تصف نبات الذرة، كذلك نذكر سجل ليونهارت فوكس Leonhart Fuchs الذي ظهر في عام ١٥٤٢، فهو يعطي صورة دقيقة للذرة ، ويضيف أنها موجودة في كل الحدائق (٢١٢) . ولكن الشيء الذي يهمنا هو معرفة اللحظة التي خرجت فيها الذرة من الحدائق التجريبية، واحتلت مكانها في الحقول ، والأسواق . ولقد كان من الضرورى أن يتعود الفلاحون على النبات الجديد ، وأن يتعلموا كيف يزرعونه، ويتعلموا شيئا أهم وهو كيف يأكلونه. وكثيراً ما كانت الذرة تشترك في مسيرتها هذه مع الفاصوليا التي جاءت هي الأخرى من أمريكا ، والتي كانوا يزرعونها لتصلح التربة ، وهكذا غزت الفاصوليا ، والذرة أو الحبوب التركية كما كانوايسمونها grano turco و fagioli في إيطاليا . وهذا هو أوليفييه دى سير Olivier de Serres يقرر أنه شهد نحو عام ١٥٩٠ وصول الصنفن ، الذرة والفاصوليا ، إلى موطنه ڤيڤاريه Vivarais (٢١٣). ولكن انتشار الذرة تطلب وقتا، بل وقتا طويلا . ففي عام ١٧٠٠ عبر عالم من علماء الاقتصاد الزراعي عن دهشته من أن زراعة الذرة قليلة الانتشار في فرنسا (٢١٤) . كذلك في البلقان دخلت الذرة بأسماء لا تقل عن ١٢ اسماً ، وكانت الذرة ـ هربا من الضرائب ومن عشور

صاحب الأرض ـ قد استقرت في الحدائق ، وفي الأراضي البعيدة عن طرق المواصلات الكبيرة. ولن تحتل الذرة مساحات كبيرة إلا في القرن الثامن عشر، أي بعد اكتشاف أمريكا بقرنين من الزمان (٢١٥). ويمكننا أن نقول بصفة عامة، إن الذرة لم تشق طريقها إلى النجاح في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر .

تأخرت الذرة في مسيرتها هذا التأخير الذي يثير دهشتنا ، وبخاصة عندما نقارنه بمسيرة نباتات أخرى ، كانت بالقياس حالات استثنائية ، فمنها ما بكر تبكيرا ظاهرا، ومنها ما كانت له نتائج مذهلة . أيا كان الأمر فقد انطلقت الذرة من الأندلس التي دخلتها منذ عام ١٥٠٠ ، ومن قطالونيا ، ومن البرتغال التي دخلتها في عام ١٥٢٠ تقريبا ، ومن جليقية التي دخلتها في هذا الوقت نفسه ، ويممت شطر إيطاليا من ناحية، وجنوب غرب فرنسا من ناحية ثانية .

أما نجاح الذرة في منطقة البندقية فكان نجاحا مذهلا . والأرجح أن الذرة أدخلت هناك حول عام ١٥٣٩ ، وأن زراعتها عممت بين نهاية القرن ، وبداية القرن التالي في كل ربوع الأراضى القارية التابعة للبندقية . بل لقد نمت قبل ذلك في منطقة البوليزينا Polesina، وهي منطقة ضيقة قريبة من ميناء البندقية استثمرت فيها في القرن السادس عشر رؤوس أموال كبيرة ، وكانوا يجربون فيها أصناف الحبوب الجديدة في حقول كاملة. ومن الطبيعي أن الذرة ، التي أسموها الحبوب التركية ، انتشرت فيها بسرعة منذ عام ١٥٥٤ (٢١٦).

فإذا انتقلنا إلى فرنسا ، وجدنا أن الربوع الجنوبية الغربية ، ومنطقة بيارن Béarn على وجه التحديد قد سبقت إلى تلقي هذه الحبوب الجديدة . وكانت الذرة منذ عام ١٥٢٣ معروفة في منطقة البايون ، وحول عام ١٥٦٣ في ريف نافارينكس Navarrenx(٢١٧) حيث استخدمت علفا أخضر ، وكان عليها أن تنتظر بعض الوقت لتدخل في زمرة الأطعمة الشعبية . ووجدت الذرة ظروفا مواتية لانتشارها في منطقة تولوز، لأنها أتت بعد فشل زراعة نبات لعلف الحيوان يسمونه العظلم pastel(٢١٨).

وكان الفقراء ، من فلاحين وحضريين ، في وادى الجارون ، وفي أراضي البندقية، وفي كل الأقاليم التي استقرت فيها الذرة ، أناسا يضطرون ، بصفة عامة ، إلى هجرة الخبز صاغرين ، ويأكلون رقاق الذرة. ونحن نقرأ في عام ١٦٩٨ ، في معرض الحديث عن منطقة بيارن ، " أن الذرة milloc نوع من القمح جاء من الهند ، ويأكله العامة." ويذكر القنصل الروسي في لشبونة (٢٢٠) أن الذرة " هي الغذاء الرئيسي للطبقة الدنيا من الشعب في البرتغال ". ونقرأ " أن دقيق الذرة في بورجونديا، وكانوا يسمونه gaudes، عندما يخبز في الفرن، يستخدم طعاما للفلاحين ، ويصدر إلى

١٧ ـ الأسماء التي تطلق على الذرة في بلاد البلقان .

ديچون"(٢٢١). ولكن الذرة لم تدخل في أى مكان في زمرة طعام الطبقات الميسورة، التي كانت تقف منه موقف هذا السائح الذى شهد في مونتينيجرو Montenegro في القرن العشرين خبز الذرة فقال : " هذه الكتل الثقيلة المكورة المصنوعة من الذرة التي يراها الإنسان هنا في كل مكان [...]، تغري عينيه لبابتها الجميلة الصفراء الذهبية، ولكن معدته تنفر منها " (٢٢٢).

والذرة ، إذ تدافع عن قضيتها ، تحتكم على حجة مفحمة تدعم موقفها أى تعديم ، ألا وهي : الإنتاجية . وعلى الرغم من الخطر الذى يكتنف التقوت على الذرة (فالغذاء الذى يعتمد على الذرة اعتمادا مفرطا يؤدى إلى الإصابة بالبلاجرا) فإنها قد وضعت نهاية للمجاعات التى كانت تتوالى في إقليم البندقية . ولنذكر فطيرة

المياس millasse التي كانوا يعدونها من الذرة في جنوب فرنسا ، والبولينتا polenta التى كانوا يصنعونها في إيطاليا ، والماماليجا mamaliga التي كانوا يصنعونها في رومانيا ، فقد دخلت ضمن طعام العامة الذين كانوا ، في أزمان المجاعات يضطرون إى تناول أطعمة بشعة منفرة ، لا مجال لمقارنتها بالذرة ، وما صنع منها من أطعمة. وليس هناك محظور غذائي يقف في وجه الجوع : فالجوع كافر. وكان للذرة ميزة أخرى، فقد زرعوه طعاما للإنسان ، وعلفا للحيوان أيضا في أرض الدورة الزراعية التي كانوا يتركونها خالية لتستجم من القمح، وقد أحدثت الذرة في أرض الاستجمام هذه "ثورة" شبيهة بالنجاح الذى حققته نباتات العلف التي جربت في هذه الأرض نفسها . يضاف إألى هذا أن تزايد نصيب الذرة في محاصيل الغذاء السخية أدى إلى زيادة كميات القمح الداخلة في النشاط التجارى ، فقد ألف الفلاح أن يأكل هوالذرة، ويبيع القمح الذى كان سعره ضعف سعرالذرة . والحقيقة أن إقليم البندقية في القرن الثامن عشر استطاع أن يرفع نسبة التصدير إلى ١٥ أو ٢٠٪ من محاصيل الحبوب بفضل الذرة ، وتلك كمية تناظر صادرات انجلترا في السنوات من ١٧٤٥ إلى ١٧٥٥ (٢٢٣). وكانت فرنسا في ذلك العصر تستهلك ، على وجه التقريب، كل انتاجها من الحبوب باستثناء ١ أو ٢٪. أما في منطقة اللوراجيه Lauraguais " في القرن السابع عشر، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، فقد أدت الذرة ، إذ شكلت غالبية طعام الفلاحين ، إلى أن أصبح القمح متاحا للتجارة الواسعة " (٢٢٤).

كذلك كان شأن الذرة في الكونغو ، جلبها البرتغاليون من أمريكا ، وأدخلوها هناك في مطلع القرن السادس عشر ، وعُرِفت باسم كيزان البرتغال Masa ma Mputa، ولم يتقبلها الأهالى بصدر رحب . ويذكر بيجافيتا Pigafetta في عام ١٥٩٧ أن الناس يضعون الذرة دون مستوى الحبوب الأخرى بكثير ، وأنهم لا يستخدمونها طعاما للبشر بل للخنازير (٢٢٥) . هكذا كانت ردود الفعل الأولى. ولكن الذرة أخذت تتقدم شيئا فشيئا حتى أصبحت في شمال الكونغو في منطقة بينين Benin بإقليم يوروبا yoruba ت حتل المركز الأول بين النباتات النافعة. كان هذا نصرا لا جدال فيه ، وكيف لا ؟ ألا نراها اليوم قد ذخلت دائرة الأساطير؟ وما دخول الذرة دائرة الأساطير إلا دليل على أن الأكل ليس فقط حقيقة من حقائق الحياة المادية(٢٢٦).

على أن غزو الذرة لأوروبا ، وغزوها لأفريقيا كان أمرا سهلا نسبيا. أما تغلغل الذرة في الهند ، وبورما ، واليابان ، والصين فكان أمرا مختلفا ، كان يمثل نجاح مغامرة اختلف مداها عما سبق اختلافا بينا . فإذا نظرنا إلى الصين ، وجدنا أن الذرة قد وصلت إليها مبكرة منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ، ونفذت إليها عن طريق البر من داخل القارة ، وعن طريق الحدود مع بورما أيضا - واستقرت آنذاك في منطقة يونن

Yunnan، ونفذت إليها عن طريق البحر فبلغت فوكيين Foukien التي كانت موانيها تقيم علاقات مستمرة مع الجزر المحيطية ، ولقد كانت هذه الموانيء (وربما لعب البرتغاليون دور الوسطاء هناك ، أو ربما قام التجار الصينيون بهذا الدور ، وكانوا يتاجرون مع اندونيسيا) هي التي وصل عن طريقها الفول السوداني منذ بداية القرن السادس عشر ، والبطاطا بعد ذلك . وأيا كان الأمر فقد ظلت زراعة الذرة حتى عام ١٧٦٢ قليلة الأهمية محصورة في منطقة يونن ، وبعض بقاع سيتشوان ، وفوكيين. ولن تفرض زراعة الذرة نفسها في الواقع إلا في اللحظة التي زاد فيها السكان زيادة سريعة في القرن الثامن عشر ، جعلت من الضروري العمل على استصلاح أراضي التلال، والجبال خارج حدود السهول التي كانت مخصصة لمزارع الأرز. وهنا أيضا ستكون الضرورة ، لا المذاق ، هي السبب في أن جانبا من الشعب الصيني سينزل عن طعامه المفضل ، ويرضى بالذرة . وكسبت الذرة الشمال على نطاق كبير ، بل تجاوزته إلى كوريا ، وانضمت إلى الدخن ، والذرة السكرية sorgho، وكانا هما الزراعتين التقليديتين في الشمال ، وأدى هذا الانتشار إلى إعادة التوازن السكاني في شمال الصين بالقياس إلى الصين الجنوبية التي كانت أكثر سكانا منها (٢٢٧). وستستقبل اليابان هي أيضا الذرة ، ثم تستقبل سلسلة كبيرة من النباتات الجديدة الواردة، التى جاءت أكثرها عن طريق الصين التي لعبت دور محطة المرور .

البطاطس
أكثر أهمية

كانت البطاطس موجودة في مرتفعات الأنديز الأمريكية منذ الألف الثانية قبل الميلاد، على ارتفاعات لم تكن الذرة تترعرع فيها. وكانت البطاطس سبيل الناس إلى النجاة من الموت جوعا ، فقد عرفوا كيف يجففونها ، وعرفوا أنها إذا جففت، أمكن حفظها مدة طويلة(٢٢٨).

ولكن انتشار البطاطس في العالم القديم لن يشبه انتشار الذرة من كل الوجوه : كان انتشارها بطيئا مثلها ، أو ربما أكثر بطئا منها ، ثم إنها لم تنتشر انتشارا عالميا: فالصين ، والهند ، والبلاد الإسلامية لم تستقبل البطاطس . وانتشرت البطاطس في العالم الجديد فأصبح نجاحها نجاحا أمريكيا ، ولكن نجاحها في أوروبا كان أكبر من نجاحها في أمريكا . استعمرت البطاطس أمريكا جزءاً جزءاً ، واتخذت هذه الزراعة الجديدة هناك أبعاد الثورة . أما أوروبا ، فقد تسرع أحد رجال الاقتصاد ، هو فيلهلم روشر Wilhelm Roscher (١٨١٧ - ١٨٩٤)، فذهب إلى أن البطاطس (٢٢٩) كانت هي السبب في زيادة عدد السكان في أوروبا . ولنقل نحن إن البطاطس كانت، على أكثر تقدير ، واحدا من أسباب زيادة سكان أوروبا ، فهذا في رأينا أقرب إلى الدقة.

فالزيادة السكانية في أوروبا كانت قد بدأت بالفعل قبل أن تتمكن الزراعة الجديدة من أن تحدث آثارها . أضف إلى ذلك أن هناك بلاداً أوروبية لم تعرف البطاطس إلا متأخراً. يدلنا على ذلك أن أحد مستشارى ملك پولنده قال في عام ١٧٦٤: " إنني أود أن ندخل [في بلادنا] زراعة البطاطس التي توشك ألا تكون معروفة " (٢٣٠) . وفي عام ١٧٩٠ كان المستعمرون الألمان هم وحدهم الذين يزرعون البطاطس حول مدينة بطرسبرج(٢٣١) . وكان السكان في پولندة ، وفي روسيا يتزايدون ، شأنهم شأن السكان في البلاد الأخرى قبل هذين التاريخين المتأخرين .

كان انتشار الزراعة الجديدة بطيئا جدا : وهذه هي القاعدة التي توشك أن تكون قاعدة عامة . عرف الأسبان البطاطس في پيرو منذ عام ١٥٣٩ ، ونقرأ إن بعض التجار الأسبان أمدوا الهنود الحمر العاملين في مناجم بوتوسي بالبطاطس المجففة ، ولكن النبات الجديد اجتاز شبه الجزيرة الإيبرية دون أن يحدث نتائج مباشرة .وربما تنبهت اليه ايطاليا أكثر من أسبانيا لأنها كانت أكثر سكانا ، فأجرت عليه تجاربها، وأسمته تارتوفولي tartffoli، وكان هذا الاسم واحداً من الأسماء الأولى الكثيرة التي أطلقت على البطاطس في البلاد المختلفة نذكر منها: بابا، وبطاطا في أسبانيا، وبطاطا، وبطاطيرا في البرتغال، وبطاطا، وتارتوفو، وتارتوفولى في إيطاليا، وكارتوفل، وتروف، وبطاطا ، وتفاح الأرض في فرنسا، وبطاطة أميركا في انجلترة، وبطاطة إيرلندة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكارتوفل في ألمانيا ، وتفاح الأرض في النمسا قرب ڤيينا .. وأمر مرالكرام على التسميات السلافية ، والمجرية ، والصينية، واليابانية...(٢٣٢)، وفي عام ١٦٠٠ ذكرها أوليڤييه دي سير Olivier de Serres ووصف بدقة كيفية زراعتها ، وفي عام ١٦٠١ قدم كارولوس كلوزيوس Carolus Clusius أول وصف علمي لها في الوقت الذى غزت فيه على حد قوله غالبية حدائق ألمانيا. وتحكي الروايات المتواترة أن البطاطس وصلت انجلترا قبل هذا التاريخ بقليل ، أي حول عام ١٥٨٨ ، ويرجع الفضل إلى ولتر رالى Walter Raleigh في إدخالها هناك ، وسنة ١٥٨٨ هي السنة التي شهدت تحرك الأرمادا " الأسطول الأسباني المنيع " إلى انجلترا لمعاقبتها ، فهبت عليه عاصفة أغرقته. ولقد كان غرق هذا الأسطول ، حدثا لا شاعرية فيه ، وأسفر عن نتائج أعنف من تلك التى كانت تسفر عنها معارك الأساطيل المتعادية المتناحرة في مياه بحر المانش وبحر الشمال .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة أن البطاطس لم تكسب الجولة في أوروبا كسبا كاملا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، بل في القرن التاسع عشر. ولكنها، شأنها شأن الذرة، عرفت في بعض المناطق المتفرقة ألوانا من النجاح المبكر. ففي فرنسا، التي كانت متأخرة في هذه المضمار على نحو خاص، لا نشهد نجاحا مبكرا للبطاطس إلا في منطقة دوفينيه Dauphiné ومنطقة الألزاس حيث كسبت البطاطس أرضاً منذ عام ١٦٦٠(٢٣٣)،

الإنكا يزرعون ويجنون البطاطس . الأدوات التي يستخدمونها هي

واللورين حيث استقرت البطاطس حول عام ١٦٨٠ ولكنها ظلت حتى عام ١٧٦٠ تتعرض للنقد والشكوك ، ولكنها أصبحت في عام ١٧٨٧ " الغذاء الرئيسي والصحي " لأهل الريف (٢٣٤). وقبل هذا التاريخ ، ومنذ النصف الأول من القرن السابع عشر ، كانت البطاطس معروفة في ايرلندة ، وكانت تعتبر ، ومعها شيء من منتجات الألبان القوت الوحيد تقريبا للفلاحين ، وقد كان ذلك يعني نجاحا ويعنى أيضا فيما بعد كارثة على نحو ما نعرف (٢٣٥). وأحرزت البطاطس درجات من التقدم أيضا في انجلترا ، ولكنها ظلت حينا تزرع للتصدير (٢٣٦) أكثر مما كانت تزرع للاستهلاك المحلي. وكان آدم سميث يشكو من احتقارا لانجليز لبضاعة أثبتت في إيرلندة بما لا يدع مجالا للشك أنها غذاء له قيمته (٢٣٧).

وكان نجاح زراعة البطاطس أكثر وضوحا في سويسرا ، والسويد ، وألمانيا . ويقال إن پارمنتييه Parmentier (١٧٣٧ـ١٨١٣) " اكتشف " البطاطس في بروسيا عندما

عصا النبش والمعزقة .(عن مدونة پيرو من القرن السادس عشر .)

وقع هناك أسيرا في وقت حرب السنوات السبع (٢٣٨)، ومع ذلك فلم يكن هناك شمشرجي أو خادم في عام ١٧٨١ في المناطق الألمانية الواقعة على ضفاف نهر الإلبه Elbe يرضي بأن تكون البطاطس طعاما له ، إنه يفضل أن يترك الخدمة ، ويبحث له عن سيد آخر لا يطعمه البطاطس " Lieber gehn sie auber Dienst" ...(٢٣٩)

والحق أن هذه الزراعة وهي تتسع ، وتقدم البطاطس منافسة للخبز ، كانت تستثير في كل مكان ألوانا من المقاومة. فمن قائل إن أكل البطاطس يسبب مرض البرص ، ومن قائل إنه يسبب الانتفاخ والأرياح ، وهذا ما ارتضته دائرة المعارف الانسيكلوپيديا الفرنسية Encyclopédie في عام ١٧٦٥ ، التي تضيف " ولكنها أرياح تناسب الأحشاء القوية في أجسام الفلاحين ، والعمال " فلا ينبغي أن ندهش عندما نتبين أن البلاد التي نجحت البطاطس في غزوها على نحو سريع وواسع النطاق ، بلاد كانت تعاني من

مشكلات تموينية وغير تموينية قاسية ، وكان نجاح البطاطس يفرض نفسه، مستظلا بظل مشكلات كانت تتسم بكثير أو قليل من القسوة. من هذه المشكلات : القحط الذى كان يتهددالناس ، وهكذا كانت الحال في ايرلنده ، فقد كانت نفس القطعة من الأرض التي تنتج من القمح ما يكفي لإطعام فرد واحد قادرة على إنتاج كمية من البطاطس تكفي لإطعام اثنين على الأقل (٢٤٠). ومن هذه المشكلات أيضا ، ومن أشدها، الحروب التي كانت تتهدد الناس، والتي كانت تفتك بحقول الحبوب . وكان الفلاحون يحبون البطاطس في أوقات الحروب على نحو ما تقول وثيقة تدور حول الألزاس: " فالبطاطس لا تتعرض أبدا [...] لتخريب الحرب " فمن الممكن أن يعسكر جيش طوال الصيف في حقل البطاطس دون أن يفسد محصول الخريف (٢٤١) ، والحق أننا نلاحظ أن الحرب لاحت كأنها كانت تحفز زراعة البطاطس وتشجعها : وهذا هو ما حدث في الألزاس في النصف الثاني من القرن السابع عشر ؛ وما حدث في فلاندريا إبان حرب حلف أوجسبورج (١٦٨٨ ـ ١٦٩٧) ، وحرب الخلافة على الملك في إسبانيا ، وحرب الخلافة على الملك في النمسا وهي الحرب التى زامنت أزمة الحبوب في عام ١٧٤٠ ، وفي ألمانيا في أثناء حرب السنين السبع ، وبخاصة في أثناء حرب الخلافة على العرش في باڤاريا (١٧٧٨ ـ ١٧٧٩) ، وهي الحرب التى أطلق عليها اسم " حرب البطاطس " (٢٤٢). وميزة أخيرة للبطاطس : كانت محاصيل البطاطس من حيث هي محاصيل جديدة تفلت من ضريبة العشور ، ولقد أمكننا ، بدراسة القضايا التي رفعها الملاك على المزارعين ، أن نتتبع بدقة كبيرة الانتشار المبكر للبطاطس في جنوب هولندة ابتداء من عام ١٦٨٠، وفي الأقاليم الهولندية المتحدة أبتداء من عام ١٧٣٠ على وجه التقريب ، والأقاليم الهولندية المتحدة هي الأقاليم الهولندية السبعة التى تحالفت ضد فيليب الثاني فيما مضي من الزمان .

هذا هو الباحث ك. فاندنبروك ـ C. Vandenbroeke يجرى حسابات غير مباشرة يستنتج منها الزيادة الثورية في استهلاك البطاطس في الربوع الفلمنكية معتمداً على تقدير النقص في استهلاك الحبوب الذى ترتب على هذه الزيادة .فقد نقص استهلاك الحبوب من ٠,٨١٦ كجم للفرد في اليوم في عام ١٦٩٣ إلى ٠,٧٥٨ في عام ١٧١٠ ؛ وإلى ٠,٦٨٠ في عام ١٧٤٠ ؛ وإلى ٠,٤٧٦ في عام ١٧٨١ ؛ وإلى ٠,٤٧٥ في عام ١٧٩١. هذا الانخفاض في استهلاك الحبوب يعني أن البطاطس حلت بنسبة ٤٠ ٪ محل استهلاك الحبوب في فلاندريا . وهذا يؤكد الحقيقة المتمثلة في أن استهلاك الحبوب في فرنسا ، التي كانت في مجموعها معادية للبطاطس ، زاد ولم ينقص في القرن الثامن عشر (٢٤٣). ولم تبدأ ثورة البطاطس في فرنسا ، شأنها شأن بلاد أوروبية أخرى، إلا في القرن التاسع عشر .

والحق أن ثورة البطاطس كانت جزءاً من ثورة أكثر اتساعاً ، أطلقت من الحدائق إلى الحقول مجموعة من الخضروات والبقول ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة الواسعة كانت في بداياتها المبكرة في انجلترة ، فإنها شدت انتباه آدم سميث الذى كتب في عام ١٧٧٦ يقول : " البطاطس [...]، واللفت ، والجذر ، والكرنب خضروات كانوا يزرعونها فيما مضي على نطاق ضيق باستخدام المنقارة ، وأصبحوا الآن يزرعونها على نطاق واسع باستخدام المحراث. وأصبحت مختلف أنواع الخضروات التي كانت تنتجها الحدائق تباع بأسعار أكثر رخصاً "(٢٤٤). وهذا هو واحد من الفرنسيين يسجل في لندن، بعد مرور ثلاثين سنة ، الوفرة الوفيرة من الخضروات الطازجة الخضراء " التي يقدمونها إليك بكل البساطة الطبيعية الجميلة كما يقدمون العلف إلى الخيول ..."(٢٤٥).

البطاطس غذاء الطبقة الدنيا. كانت المعونة التي تقدم إلى فقراء اشبيلية تتمثل في إناء به بطاطس . (جزء تفصيلي من لوحة سبقت) .

صعوبة

إساغة خبز الآخرين

أما أن أوروبا نجحت في إحداث ثورة غذائية حقيقية في القرن الثامن عشر (حتى ولو كانت قد احتاجت إلى قرنين من الزمان لإنجازها) فحقيقة يكفي لكي نقتنع بها أن نتصور نوعية الصراعات الحادة التي يمكن أن تنشب عندما يتصادم غذاءان مختلفان متعارضان ، في الوقت الذي يجد الإنسان فيه نفسه في الغربة ، خارج موطنه ، وخارج نطاق عاداته ، وأطعمته اليومية ، ويكون عرضة لطعام الآخرين وعاداتهم . والأوروبيون يقدمون لنا في هذا المقام أفضل الأمثلة ، وهي أمثلة متكررة ، وملحة ، ولكنها على كل حال تكشف الغطاء عن الحدود الغذائية التي يصعب على الإنسان تجاوزها . ويمكننا أن نتصور أن الأوروبيين عندما ذهبوا إلى البلاد التي انفتحت أمام فضولهم ، أو أمام استغلالهم لم يتخلوا قط عن عاداتهم ، ومنها : النبيذ ، والكحول ، واللحم ، وفخذ الخنزير المدخن المملح المسمى چامبون ، الذى كان يستورد من أوروبا فيصل بعد أن يكون الدود قد نخره ، ويباع على الرغم من ذلك في الهند بسعر الذهب. أما الخبز فقد اعتادوا أن يكون على مائدتهم . فإذا اغتربوا ، ظلوا مخلصين لأطعمتهم. عندما نزل چيميللي كاريرى الصين ، كان يأتي بالقمح ، ويستصنع لنفسه منه القراقيش ، والفطائر " لأن الأرز المفلفل الذى يقدمونه في هذا البلد دون أية توابل لم يكن يناسب معدتي على الإطلاق "(٢٤٦). أما في منطقة پنما ، التي لم يكن القمح ينمو فيها ، فكان الأوروبيون يستوردون دقيق القمح من أوروبا " ، وما كان يمكن أن يكون سعره منخفضا " ، ولهذا كان الخبز ترفا . " ولم يكن هذا الخبز يوجد إلا لدى الأوروبيين الذين يقيمون في المدن ، ولدى البيض الأغنياء من المولودين هناك ، ثم إنهم لم يكونوا يأكلونه إلا عندما يشربون الكاكاو معه ، أو كانوا يتناولون معه المربى بالكراميللا ". أما الوجبات الأخرى ، فكانوا يتناولون فيها فطائر الذرة ، وهي من نوع البولينتا ، أو من البسيسة المصنوعة من دقيق المانيوق ، والمحلاة " بعسل النحل"(٢٤٧).

ومن الطبيعي أن الرحالة ، الذى لم يكن يكل أو يمل ، چيميللي كاريري ، عندما وصل الى ميناء أكاپولكو Acapulco المكسيكى ، قادما من الفيليبين في فبراير من عام ١٦٩٧ ، لم يجد خبزاً مصنوعاً من دقيق القمح . ولم يسعد بهذا الخبز ، سعادة الإنسان بالمفاجأة السارة إلا فيما بعد ، عندما كان في الطريق إلى مدينة المكسيك ، قدموه إليه في مصنع ماساتلان Massatlan لصناعة السكر ، يقول : " وجدنا هناك [...] خبزا طيبا ، وليس هذا بالشيء الهين في هذه الجبال التي لا يأكل الأهالي جميعا فيها سوى فطير الذرة.." (٢٤٨) ، وهذه فرصة لنتذكر أن إسبانيا الجديدة

(المكسك) كانت تنتج القمح الكثير، تزرعه بطريقة الري، أو بالطريقة الجافة، وتصدره إلى المدن . وهانحن أولاء معشر المؤرخين نجد ما يشد انتباهنا : ففي يوم الثلاثاء ١٢ مارس من عام ١٦٩٧ شاهد كاريري في مدينة المكســيك هوجة شعبية، يقول : " حدث نوع من الهوجة في ذلك اليوم ، وذهب الحرافيش يطالبون بالخبز تحت نوافذ نائب الملك .." واتخذت على الفور إجراءات لمنع الشعب من حرق القصر، وتكرار" ما فعله من قبل في زمن الكونت دى جالوى de Galoe في عام ١٦٩٢.."(٢٤٩). هل كان هؤلاء الحرافيش من البيض ؟ هل يمكن أن نتصور هذا؟ على أساس افتراض أن : الخبز الأبيض يعني الرجل الأبيض . لا ينبغي أن ننسى أننا نتحدث عن أمريكا. لا ، لم يكن الثوار من البيض ، بل كانوا من السمر المولدين، والهنود الحمر ، والعبيد ، ومن هنا يمكننا أن نراهن على أن هذا الذى كانوا يطالبون به، ويطلقون عليه اسما مبهماً هو الـ " خبز " ، لا يمكن إلا أن يكون الذرة ...

ومـــاذا

عن بقية العالم ؟

ونحن عندما ننظر إلى الصورة في مجموعها نتبين أن النباتات السائدة ، على الرغم من أهميتها ، لم تكن تحتل إلا شريحة ضيقة في العالم ، تلك الشريحة التي سكنتها الشعوب ذات الكثافة السكانية العالية ، والحضارات التي حققت ذاتها ، أو التي كانت في طريقها إلى تحقيق ذاتها . ثم إن عبارة النباتات السائدة لا ينبغي أن تضللنا، وتخرج بنا عن طريق الوضوح : فإذا اختارت جماعات كبيرة من البشر هذه النباتات واصطنعتها لنفسها ، فإن هذه النباتات تتغلغل في أسلوب حياتها إلى درجة أنها تشكلها، وتحبسها في اختيار لا رجوع فيه ، والعكس صحيح بالقدر نفسه ، فكما أن النباتات السائدة تؤثر على الحضارات ، كذلك : الحضارات هي التي تحدد حظ هذه النباتات السائدة وتتيح لها النجاح . وزراعات القمح ، والأرز ، والذرة ، والبطاطس تتغير بحسب من يستخدمونها . فأمريكا في عصر ما قبل كريستوف كولومبوس كانت تعرف خمس أو ست نوعيات من البطاطس ، وجاءت الزراعات العلمية فجعلت منها ألف نوعية . كذلك ليس هناك شيء مشترك بين الذرة التى كانت تنتجها زراعات الذرة البدائية ، والذرة التي نجدها في حزام الذرة اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية .

ونقول باختصار إن ما نعتبره بمثابة ثروة نباتية هو أيضاً ، وبقدر أكبر ثروة ثقافية. ففي كل مرة يتأكد فيه نجاح نبات من هذا النوع ، يكون على " آليات التطويق " في المجتمع الحامل للنجاح أن تتدخل . وإذا كنا نستطيع أن ننكر على نبات المنيوق لقب النبات السائد ، فليس السبب في ذلك أن دقيق المنيوق (وهو الدقيق الذى يحصلون عليه من جذر المنيوق إذ يقطعونه ، ويغسلونه ، ويجففونه ، ويبشرونه) غذاء منحط. على العكس، فدقيق المنيوق هو اليوم في كثير من البلاد الافريقية الحصن القائم ضد

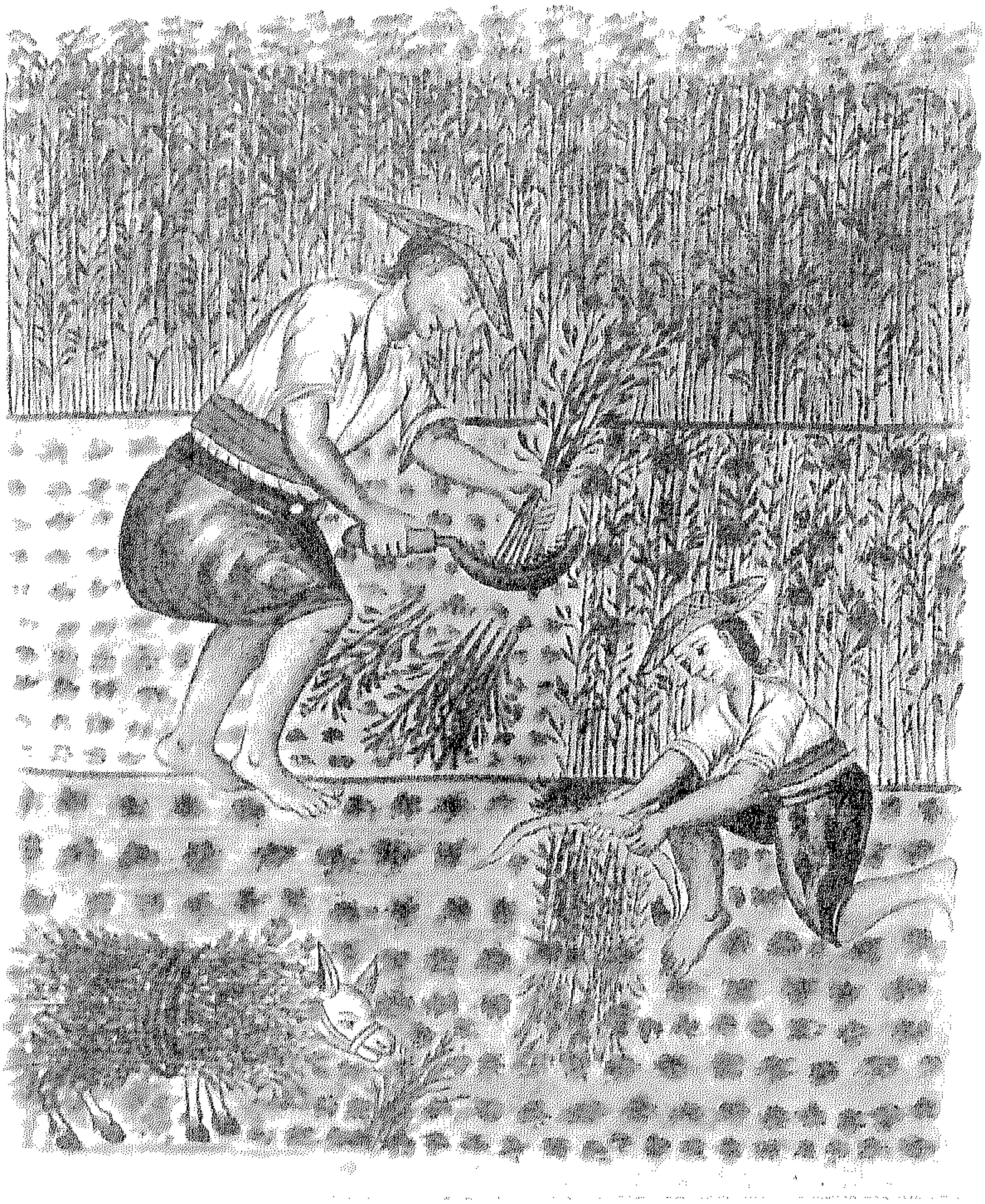

نقل الإسبان القمح إلى أمريكا . وكان الهنود الحمر يزرعونه لهم مستخدمين الآلات الزراعية التي يستخدمها الفلاح الأوروبي .

المجاعة. ولكن نظرا لأن دقيق المنيوق حملته حضارات بدائية فإنه ظل محبوسا فيها، لم يفلت من قبضتها . وهكذا ظل دقيق المنيوق في أمريكا ، وفي أفريقيا غذاء المواطنين الأصليين ، ولم يعرف طريقه إلى الصعود الاجتماعي الذى عرفته الذرة والبطاطس. حتى في بلاده الأصلية تعرض دقيق المنيوق لمنافسة الحبوب المستوردة من أوروبا . والنباتات مثلها مثل البشر لا تنجح إلا عندما تتواطأ مع الظروف. والتاريخ في هذه الحالة الخاصة ، حالة المنيوق ، هو الذى ارتكب الخيانة . فقد كان المنيوق، ودرنات البلاد الاستوائية ، والذرة ـ زراعة معينة من الذرة ـ والأشجار المثمرة الربانية:

أشجار الموز ، وأشجار الخبز أو أبي فروة ، وأشجار جوز الهند، ونخيل الزيت مصدر غذاء المجموعات البشرية التي لم تؤت من الامتيازات إلا أقل مما أتيح للذين يأكلون الأرز والقمح، تلك المجموعات البشرية التي كانت تشغل بإصرار مساحات شاسعة من الأرض . و يمكننا على سبيل الاختصار أن نستخدم للإشارة إليها عبارة الرجال الذين يعزقون الأرض بالمعزقة ، أو العزاقين .

الفلاحة بالمعزقة

إن أول ما يشد الانتباه من الوهلة الأولي ، هو اتساع المساحات التي يغلب عليها الفلاحة باستخدام عصا النبش bâton fouisseur اتساعا هائلا (وهذه العصا هي نوع من المعزقة البدائية) أو باستخدام المعزقة houe ، وهي نوع من الفأس. كانت هذه هي الحال فيما مضى ، وما زالت قائمة إلى اليوم . وهذه الأراضي الشاسعة تشكل ما يشبه الدائرة ، أو الحلقة ، أو الحزام - كما يقول الجغرافيون الألمان - الذي يضم الجزر المحيطية ، وأمريكا في عصر ما قبل كريستوف كولومبوس ، وأفريقيا السوداء ، وجزءاً كبيرا من جنوب شرق آسيا (حيث نلاحظ أن مساكن الفلاحين الذين يقلبون الأرض بالمعزقة تلامس مساكن الفلاحين الذين يحرثون الأرض بالمحراث ، أو قد تتداخل فيها أحيانا). نلاحظ هذا التداخل بخاصة في جنوب شرق آسيا (الهند الصينية بالمعنى الواسع) حيث تختلط طريقتا الزراعة معا : طريقة العزق بالعصا أو المعزقة ، وطريقة الحرث بالمحراث . وهنا يطيب لنا أن ندون بعض الملحوظات . أولاً : إن هذه السمة الحالية للحزام الممتد حول الكرة الأرضية سمة قديمة ، بالغة القدم ، وقد ظلت قائمة خلال كل المراحل الزمنية الكثيرة التي يتناولها هذا الكتاب . ثانياً: إن التجمع البشري في هذه المنطقة يطالعنا كتجمع متجانس تجانسًا ملحوظاً ، على الرغم من التنوعات المحلية التي ينكرها منكر . ثالثا : كان هذا التجمع البشري يتسم فيما مضى من زمان بعيد بسمة الابتعاد عن المؤثرات الخارجية أو السعي إلى الاحتماء بما يشبه الملجأ لدرء الإصابة بالعدوى الواردة من الخارج ، ولكن هذه السمة أخذت تقل بمرور القرون، وهذا شيء طبيعي ..

أولا: السمة القديمة

إذا صدقنا المؤرخين المختصين في عصر ما قبل التاريخ ، وعلماء الأجناس - الذين لا يزالون يتنازعون في هذا الموضوع - فإن الزراعة باستخدام المعزقة انبثقت من ثورة زراعية قديمة جدا سابقة على تلك الثورة الزراعية التى حدثت حول الألف الرابعة قبل الميلاد ، والتي تفتقت عنها الزراعة باستخدام المحاريث. وربما رجعت الفلاحة بالمعزقة إلى الألف الخامسة قبل الميلاد حيث ضاعت في غيابات ما قبل التاريخ، وهي، مثل الثورة الأخرى، قد خرجت على الأرجح من بلاد ما بين النهرين العتيقة. وأيا كان الأمر، فهي قد انبثقت عن خبرة قادم من أعمق أعماق العصور، حفظها تكرار الدروس المستفادة .

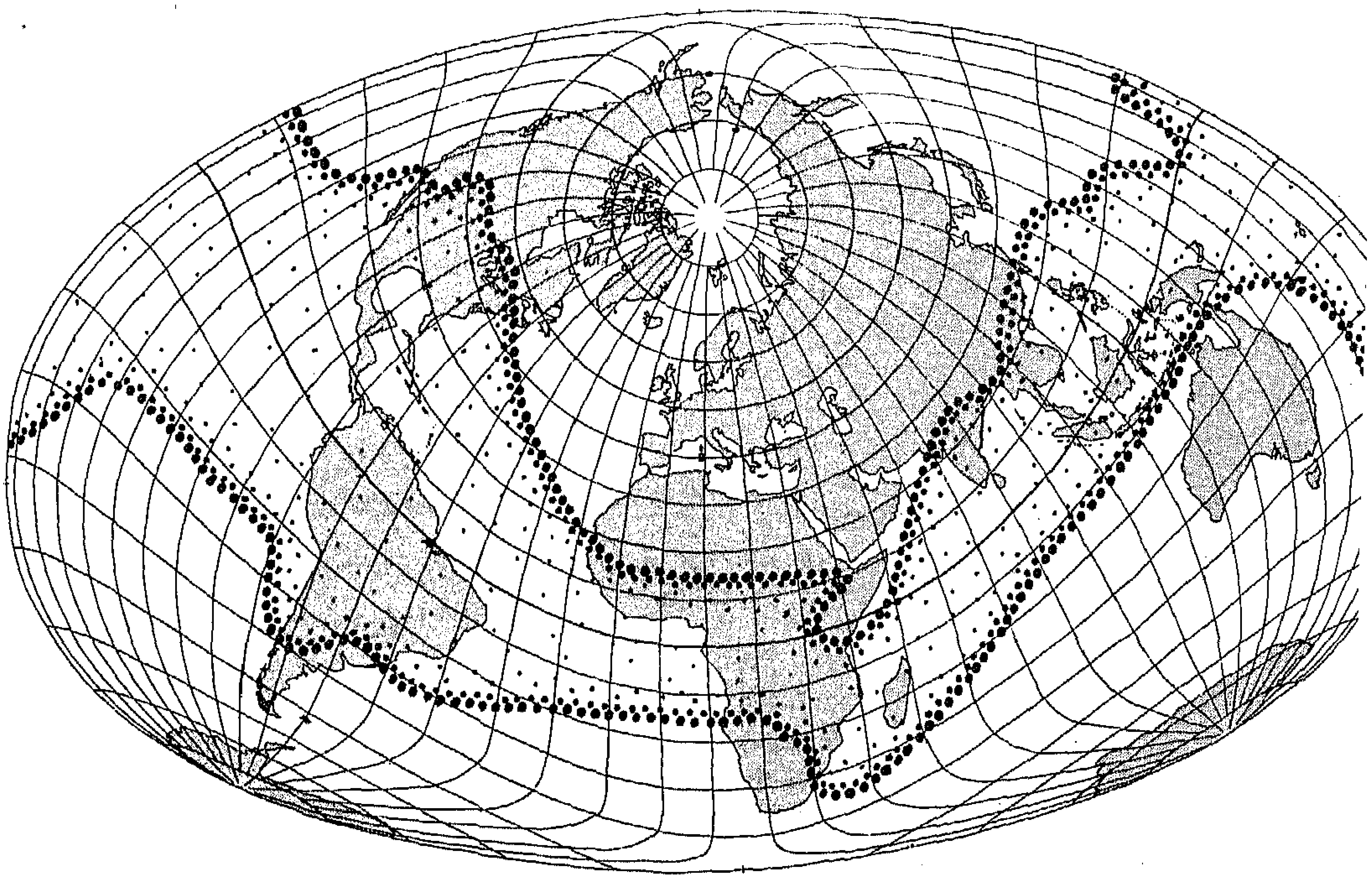

١٨ ـ حزام الزراعة التي تستخدم المعزقة .

ونلاحظ السمك الفريد الذى تتميز به هذه المنطقة التي تتخلل القارة الأمريكية ، والجزرالمحيطية في المحيط الهادى. (قلا عن ا.فقرت E. Werth) ويرى هوبير ديشامب Hubert Deschamps (في رسالة بتاريخ ٧ يناير ١٩٧٠) ان فيرت يخطيء اذ يدخل مدغشقر في منطقة المعزقة ، والحقيقة إن الفلاحين يستخدمون هناك جاروفا طويلا جدا، ربما كان من أصل اندونيسي يعرف هناك باسم أنجادى angady.

وليست هناك أهمية ـ بالنسبة لموضوعنا ـ للمجادلة في التفريق بين الزراعة بالمحراث، والزراعة بدون محراث ، لأن هذا التفريق قد يدفعنا الى الحديث عن حتمية تقوم على لآلات، أو إلى إضفاء سمات تمييز فارق على حتمية تقوم على الآلات . وهناك كتاب مبتكر (١٩٦٦) تدرس فيه(٢٥٠) إستر بوزيروب Ester Boserup الطريقة الزراعية من نوع اللادانج ، التى شرحناها من قبل ، وتحللها ، وترى أن كل زيادة تطرأ على عدد لأفواه المطلوب إطعامها، عندما تصطدم بأرض شديدة الضيق ، تؤدى إلى تقليل وقت راحة الأرض ، وتؤدي بالتالى إلى بوارها ثم ارتدادها إلى الغابة . وترى أن تغير لإيقاع الزمنى هو الذى سيؤدى فيما بعد إلى الانتقال من استخدام آلة إلى استخدام لة أخرى. ومعنى هذا بناء على هذا التفسير أن الآلة نتيجة ، وليست سببا. إن عصا لنبش تكفي لأداء العمل ، بل إن عصا النبش لا تكون لها ضرورة ، إذا كانت طريقة لزراعة تقوم على نثر التقاوى باليد بين الرماد ، والأشجار المتكلسة (ونكرر هنا أنهم

كانوا يتركون الجذور، ولا يقتلعونها) أو على دفن التقاوى أو زراعة العُقَل . فإذا لم تؤت أرض الغابة ، بعد أن تجهد بالزراعة ، الفرصة لتستجم وترتاح ، وتستعيد قوتها ومكوناتها ، نتيجة للتعجيل بالدورة الزراعية ، فإن الحشائش تغزو التربة ، و لايفيد في مكافحتها حرقها ، لأن الحرق لا يصل إلى الجذور ، وهنا يصبح من الضرورى أن تتدخل المعزقة لاقتلاع الحشائش ، وهذا ما نراه في أفريقيا السوداء حيث تتم الزراعة فوق محروق الغابة و محروق حشائش السافانا . وأخيراً يتدخل الجاروف، أو سلاح المحراث، إذا أقبل الناس على الأراضى الشاسعة بعد تعريتها ، وتجريدها من الشجيرات، وما إليها من تكوينات ، فزرعوا المحاصيل بعضها وراء البعض دون انتظار كاف، أو بعبارة أخرى اتبعوا في الدورة الزراعية إيقاعا سريعا متزايد السرعة، على حساب التربة .

ويؤدى بنا هذا إلى القول بأن الفلاحين الذين استخدموا المعزقة كانوا متخلفين ، فلم يصل الضغط السكاني بعد إلى حد دفعهم إلى مزيد من الهمة، وإلى القيام بأعمال الحرث الصعبة، وهي أعمال يضطر إليها الفلاحون الذين يستخدمون المحاريث اضطرارا. ولم يخطيء الأب چان فرانسوا ديروم Jean Feançois de Rome عندما رأى، في عام ١٦٤٨، الأعمال الزراعية التي يمارسها الفلاحون في الكونغو في وقت هطول الأمطار: "ان طريقتهم في زراعة الأرض تتطلب القليل من الجهد نظراً لخصوبة الأرض خصوبة شديدة [لا مجال هنا لأن نقبل هذا السبب بطبيعة الحال] فهم لا يحرثون ، ولا يقلبون الأرض بالجاروف ، ولكنهم يستخدمون معزقة ينبشون بها الأرض نبشا رفيقا ليغطوا التقاوى المبذورة. وهم بهذا الجهد الهين يحققون محاصيل وفيرة ، بشرط ألا يتخلى عنهم المطر " (٢٥١) . ولنا أن نقول ، ختاما ، ان عمل الفلاحين باستخدام المعزقة عمل أكثر إنتاجية (عندما نحسب الوقت والجهد الضائعين) من عمل المزارعين الذين يستخدمون المحراث في أوروبا أو من عمل مزارعي الأرز في آسيا ، و لكنه يحول دون تكون المجتمعات الكثيفة السكان .إن الذى يضفي هذا الامتياز ، امتياز الإنتاجية، على هذا العمل البدائي ليس التربة أو المناخ ،وإنما الاتساع الهائل لأرض الاستجمام المتاحة (بسبب قلة لسكان) ، والأنماط الاجتماعية التي تكون شبكة من العادات يصعب فضها . وهذا ما يسميه پيير جورو " آليات التطويق ".

ثانياً: كل متجانس

من أبرز سمات ذلك التجمع البشري المؤتلف ممن يستخدمون المعزقة ، وأكثرها إثارة، أنها تمثل كلاً متجانساً إلى حد كبير يضم بين جناحيه الأراضي، والنباتات، والحيوانات، والأدوات ، والعادات. وهو متجانس إلى حد أننا نستطيع أن نقول سلفا ، دون أن نخشى

الوقوع في الخطأ تقريباً ،أن بيت الفلاح الذى يستخدم المعزقة ، أياً كان المكان الذى يقع فيه هذا البيت، بيت مستطيل يتكون من طابق واحد ، وأن هذا الفلاح يعرف كيف يصنع فخاراً غليظاً ؛ وأنه يستخدم منوالاً بدائيا للنسيج اليدوى؛ وإنه يُعد، ويشرب مشروبات مخمرة (لا الكحول)؛ وإنه يربي حيوانات داجنة صغيرة كالماعز، والغنم، والخنازير ، والكلاب ، والدجاج ، والنحل أحياناً ، ولكنه لا يربي الماشية الكبيرة . وهو يتخذ طعامه من العالم النباتي المألوف المحيط به : أشجار الموز ، أشجار الخبز (أبو فروة) ، نخيل الزيت ، القرع ، القلقاس ، درنة الإجنام . وفي تاهيتي في عام ١٨٢٤ اكتشف بحار ، كان يعمل في خدمة إمبراطور روسيا شيئا هاما. ماذا اكتشف ؟ اكتشف أشجار الخبز أو أبي فروة ، وأشجار جوز الهند ، ومزارع موز " وحقولا صغيرة مسورة بها درنات الإجنام ، والبطاطا " (٢٥٢) .

وهناك بطبيعة الحال اختلافات بين البقاع الزراعية الفسيحة في هذه المنطقة التي تزرع باستخدام المعزقة . فهناك مثلا ماشية كبيرة من نوع الجاموس، والثيران في مناطق الاستيبس ، والسافانا الأفريقية ، انتشرت هناك انتشارا داخليا ، مارة بمحطة مرور يمثلها المزارعون الأحباش الذين يستخدمون المحاريث . كذلك شجرة الموز المنزرعة منذ الأزل (وهي شجرة لا تتكاثر عن طريق الحبوب بل عن طريق الخلف ، مما يدل على قدمها) من السمات المميزة لمناطق الزراعة بالمعزقة ، ولكن هذه السمة لا تظهر في المناطق الهامشية ، وهذه هي الحال في الربوع السودانية شمالي النيجر ، وهذه هي الحال أيضا في نيوزيلانده ذات المناخ القاسي الذى فوجيء به البولينيزيون (الماورى les Maoris) الذين ألقت بهم إلى هذه السواحل عواصف المغامرة العجيبة، عندما ركبوا القوارب السريعة المتوازنة ، بين القرنين الحادى عشر ، والرابع عشر بعد الميلاد.

ولكن الاستثناء الجوهرى يتمثل فيما تمخضت عنه الحفائر التي استهدفت استجلاء تاريخ أمريكا في الأزمنة التي سبقت كريستوف كولومبوس . فهناك دلائل تشير إلى أن الفلاحين الذين استخدموا المعزقة ، وصنعوا الحضارات المتأخرة القصيرة في مناطق جبال الأنديز ، والهضاب المكسيكية ، جماعات تنحدر من سلالات أسيوية الأصل، وصلت مبكرة الى أمريكا عن طريق مضيق بيرنج Behring في الشمال على شكل موجات متوالية . وترجع أقدم الآثار البشرية التي أمكن العثور عليها هناك حتى الآن إلى ٤٨٠٠٠ أو ٤٦٠٠٠ سنة قبل المسيح . ومازالت الحفائر الأثرية مستمرة ، وهناك احتمال أن يثور الجدل حول هذا الكلام ، وأن يشك فيه العلماء . أما الشيء الذى لا سبيل إلى الشك فيه ، على ما يبدو ، فهو ما كشف عنه البحث من أن الإنسان، الإنسان الأمريكي ، بسماته المنغولية الطابع ، وبماضيه الكثيف البعيد، قد عاش هناك، في وقت سبق الأمريكوهنديين ـ الأمريكان الأصليين أو الهنود الحمر ـ وما حققوه من

نجاح سبقاً بعيداً. كان صيد الحيوان والسمك هو العامل الفعال الذى وجه التحركات البشرية - التي نراها غامضة مذهلة - عندما تنقلت هذه الجماعات الصغيرة من مكان إلى مكان في عصر ما قبل التاريخ : فقد اجتازت القارة من شمالها إلى جنوبها، ووصلت إلى أرض النار ، وهي جزر في أقصى جنوب القارة الأمريكية حول الألف السادسة قبل الميلاد . أليس من المثير أن نعثر هنا على آثار خيول باقية في تلك المنطقة ، التى توشك أن تكون آخر الدنيا ، توحي بأن الخيول كانت حيوانات صيد، اختفت منذ قرون من ربوع أخرى في العالم الجديد؟ (٢٥٣) .

وفي جنبات القارة الأمريكية ، المتسعة اتساعا يفوق المألوف ، جاس الرجال القادمون من الشمال (وربما لحق بهم رجال كانوا قد وفدوا على متن مراكب تنتمي الى السواحل الصينية أو اليابانية أو البولينيزية دفعت بها عواصف المحيط الهادى)، وتبعثروا على هيئة جماعات متفرقة ، اتخذت كل منها في عزلتها طابعها الخاص، فشكلت زراعاتها الخاصة بها ، لغاتها الخاصة بها ، دون أن يقوم بين الجماعة، والجماعة الأخرى اتصال . والشيء الذى يثير دهشتنا هو أن بعض هذه اللغات تناثرت جغرافيا على هيئة جزر صغيرة بين جنبات مجالات لغوية أخرى (٢٥٤). ولقد كانت قلة أعداد هؤلاء القادمين من آسيا هي السبب في أن مقومات حياتهم كلها نشأت هنا في الموقع (إذا استثنينا بعض السمات الثقافية التي توحي بضروب من القرابة بآسيا البعيدة). فقد قام القادمون الجدد باستخدام ، وتطوير المقومات المتاحة، واتصلت حلقات جهودهم في إطار عمليات طويلة . ولم تظهر الزراعة إلا في وقت متأخر، حيث زرعوا المانيوق ، والبطاطا ، والبطاطس ، والذرة - والذرة خاصة التي هي أصلا من المكسيك - فأدت الى انتشار المعزقة انتشاراً خارقاً للمألوف في اتجاه المناطق المعتدلة شمال وجنوب القارة ، حيث تجاوزت الأراضي الاستوائية أو الحارة التي زرع فيها المنيوق تجاوزا بعيدا .

ثالثاً : تمازج حديث

وأيا كان الأمر فإننا نلاحظ - حتى في العالم البدائي الذى يستخدم المعزقة، ونتيجة لحركة التقارب الحثيثة التي ستؤدى عما قريب إلى الوحدة البحرية للعالم - ظهور ألوان جديدة من التمازج ، تبين أن حالات التأثر بعوامل من الخارج أو ما يمكن أن نسميه حالات العدوى سيتزايد عددها شيئًا فشيئاً . كانت هذه هي الحال في الكونغو الذى لاحظت فيه بنفسي وصول المنيوق ، والبطاطا ، والفول السوداني، والذرة، وهي من النعم التي جادت بها ملاحة البرتغال ، وتجارته . وأخذت النباتات الجديدة الواردة تنمو كما يحلو لها ، بين النباتات القديمة ، فنجد الذرة ، والمنيوق بين صنوف منوعة من

الدخن مختلف ألوانها ، البيضاء والحمراء، التي تستخدم - عندما تخلط بالماء - في صناعة نوع من عصيدة البولينتا . كانت هذه العصيدة ، اذا جففت تبقى يومين أو ثلاثة أيام ، وكانت " تستعمل خبزاً ولا تضر بالصحة "(٢٥٥). أما الخضروات التي جلبها البرتغاليون - الكرنب ، والقرع courge ، والخس ، والبقدونس، والهندباء chicoree، والثوم - فلم تنجح عادة إلا نجاحا قليلا بجانب النباتات المحلية الأصلية، البسلة و الفول - و لكنها لم تختف .

أما مقومات الأصالة الأفريقية في أوضح صورها فتأتلف من الأشجار الأفريقية المنتجة للطعام ، وهي أشجار الكولا ، والموز ، وأكثر من هذه وتلك : النخيل ، وأنواع النخيل كثيرة جدا ، تنتج الزيت ، والنبيذ ، والخل ، وألياف النسيج ، والورق ..." ونفحات النخيل تصادفنا في كل مكان ، فهى تدخل في بناء الأسيجة ، والسقوف، والفخاخ التي يصاد بها الحيوان ، والمشنات التي يصاد بها السمك، ونجدها في الخزينة العامة [حيث تستخدم مقاطع القماش في الكونغو مثل النقود] وفي الملابس، وأدوات التجميل ، والدواء ، والغذاء" " وإذا انتقلنا إلى المستوى الرمزى ، وجدنا أن النخيل أشجار " مذكرة " ، وأنها على نحو ما أشجار جليلة " (٢٥٦) .

والخلاصة أنه لا ينبغي لنا أن نقلل من قيمة هذه الشعوب ، وهذه المجتمعات المعتمدة على زراعة كانت بدائية ، ولكنها كانت زراعة نشيطة مليئة بالحيوية . ولنذكر انتشار البولينيزيين الذين احتلوا منذ القرن الثالث عشر مثلثا بحريا هائلا من هاواى إلى جزيرة ديباسكو ونيوزيلنده : فما كان نشاط هؤلاء نشاطا هينا . ولكن إنسان الحضارات ألقي بهؤلاء البولينيزيين وراء ظهره، وهبط بهم إلى درجة أدنى، تأتي تحت درجته بكثير، ومحا آثار نجاحهم ، وقلل من قيمته .

والبدائيون ؟

لا يقف الرجال الذى يستخدمون المعزقة على الدرجة الدنيا من مقاييسنا، فنباتاتهم، وأدواتهم ، وزراعاتهم ، وبيوتهم ، ورحلاتهم الملاحية ، وطرقهم في تربية الماشية، وألوان النجاح التي حققوها تدل على مستوى حضارى لا يستهان به على الإطلاق . إنما تقف على هذه الدرجة الدنيا أخلاط من البشر عاشوا بغير زراعة، واقتاتوا من الجمع وصيد السمك وصيد الحيوان . كان هؤلاء الذين جاؤا قبل الموعد التاريخي يحتلون مربعات واسعة جدا على خريطة جوردون هوز W.Gordon Hewes من رقم ١ الى رقم ٢٧ . كانت لديهم مساحات هائلة من الأرض، ولكنها لم تكن تخضع لهم ، بل كانت تنازعهم فيها الغابات، والمستنقعات، والأنهار ذات الفيضانات ، والحيوانات المتوحشة ، وآلاف مؤلفة من الطيور، وكانت

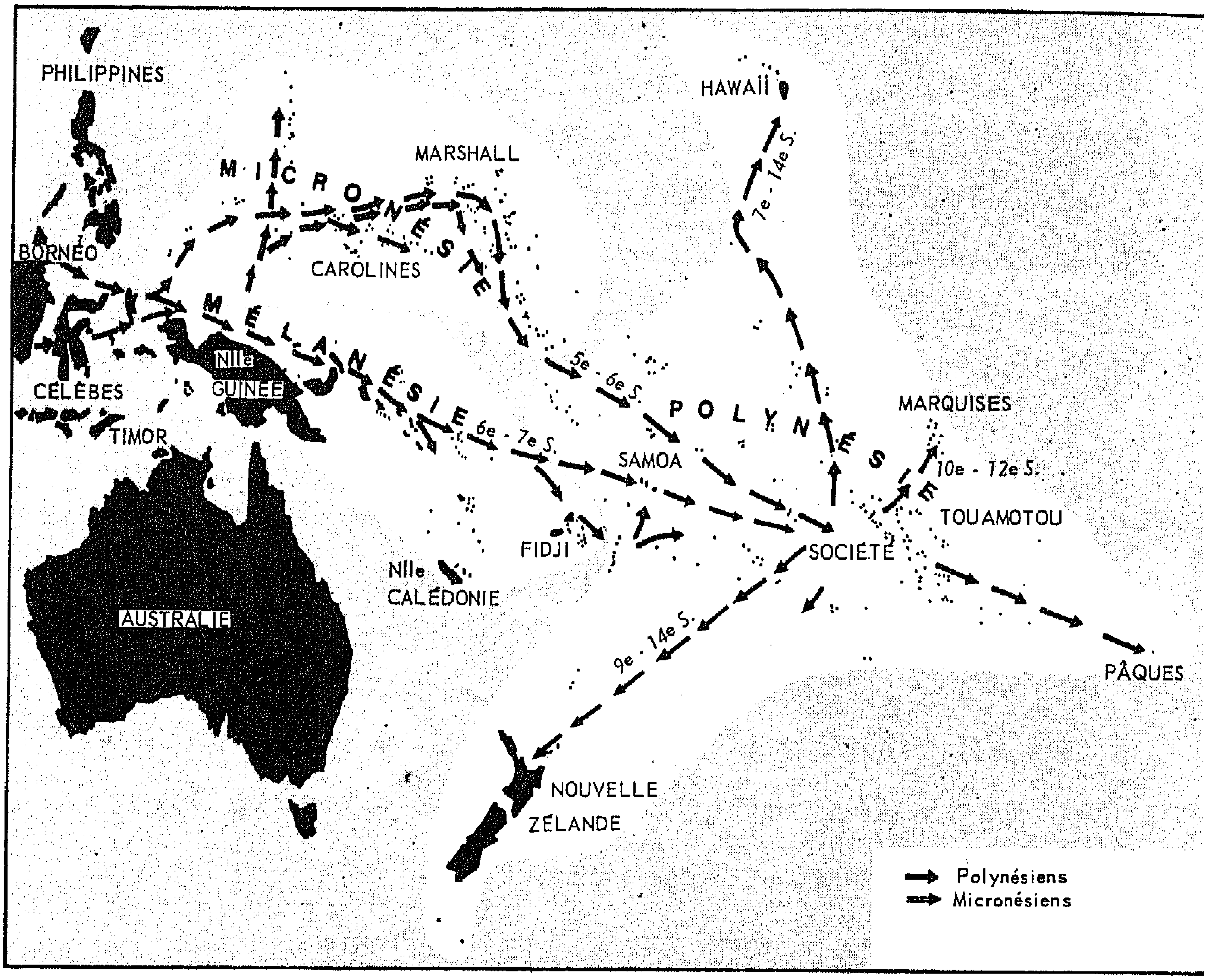

١٩. الهجرات الميلانيزية ، والپولينيزية قبل القرن الرابع عشر .
ونلاحظ الضخامة الهائلة لمثلث الرحلات الملاحية الپولينيزية ، من جزر هاواى إلى جزيرة ديباسكو ، ونيوزيلنده .

تتعرض للثلوج المنهمرة ، وتقلبات الجو . وهم لم يسيطروا على الطبيعة المحيطة بهم ، بل كانوا على أحسن تقدير يدبرون أمور حياتهم بين الطبيعة وضغوطها . هؤلاء الرجال يقفون على درجة صفر من التاريخ ، بل لقد قال البعض عنهم أنهم بلا تاريخ ، وهو قول غير صحيح .

فمن المناسب أن نمنحهم مكانا في إطار نظرة " تزامنية " لعالم ما بين القرنين الخامس عشر ، والثامن عشر ، ولو لم نفعل هذا لما انفتحت مروحتنا التقييمية والتفسيرية انفتاحاً كاملاً ، ولفقدت معناها ، فنحن نتصور المحكات التي نبني تقييمنا على أساسها ، والمقومات التى نفسر اعتمادا عليها ، كالمروحة المطوية التي تنفتح شيئا فشيئا ، إلى أن تنفتح بالكامل عندما تشمل الموضوعات كلها. والحق أننا ،

كمؤرخين، نجد صعوبة بالغة في النظر إلى هؤلاء الرجال نظرتنا مثلا إلى الفلاحين الفرنسيين ، أو إلى المستعمرين الروس في سيبريا! فليست لدينا أية بيانات باستثناء تلك التي يمكن أن يقدمها إلينا علماء الأجناس القدامي ، الذين جمعوا الملحوظات، عندما نظروا إلى هؤلاء الناس وإلى حياتهم ، فحاولوا أن يفهموا آليات وجودهم. ولكن هؤلاء المكتشفين ، والرحالة القدامى ، وكلهم من أبناء أوروبا ، كانوا يتصيدون الصور الفريدة أو المثيرة. أليس من المرجح أن يكونوا قد أسقطوا على الآخرين في كثير من الأحيان خبراتهم الخاصة، وأساليبهم في رؤية الأشياء ؟ لقد كانوا يحكمون على أساس المقارنة، والمقابلة . يضاف إلى هذا أن هذه الصور التي رسموها ، والتي تثيرالجدل ، ليست كاملة ، وليست كافية ، فهي قليلة إلى حد الندرة. وليس من السهل دائما عندما نتابع ما كتبوه أن نتبين ، هل هم يصفون بدائيين حقيقيين يعيشون فيما يمكن أن يكون العصر الحجرى ، أم يصفون هؤلاء المستخدمين للمعزقة الذين تحدثنا عنهم لتونا، والذين هم بعيدون عن مستوى " المتوحشين " بعدهم عن " متحضري " المجتمعات الكثيفة السكان . هؤلاء الهنود الحمر ، أصحاب الشعور المضفورة في شمال المكسيك، الذين دوخوا الأسبان ، كانوا قبل قدوم كورتيس ، أعداء الأزتيك المستقرين في موطنهم (٢٥٧).

إن قراءة يوميات الرحلات المشهورة التي طاف بها أصحابها حول العالم، من ماجيللان Magellan، إلى تاسمان Tasman، وبوجانڤيل Bougainville ، وكوك Cook تجعل الانسان يتوه فيما يشبه الصحارى المتشابهة، اللانهائية التي يتكون منها عالم البحر ، وبخاصة بحر الجنوب ، الذى يمثل وحده نصف مساحة كوكبنا. إن اليوميات التي سجلها هؤلاء الرحالة لا تحفل بالكثيراً من البيانات ، بل تعج في المقام الأول بأحاديث عن المخاوف ، والهموم ، عن خطوط العرض ، وتدبير الطعام ، والماء فوق السفينة ، وعن حالة الأشرعة ، والدفة ، وأمراض الطاقم ، وتقلبات أهوائهم، وأمزجتهم ... أما الأرض التي كانوا يصادفونها في طريقهم ، أو يلمحونها مصادفة عند التوقف على هذا الساحل أو ذاك، فكثيرا ما كانت تتلاشى من الخريطة بعد اكتشافها أو التعرف عليها، أويظل وصفهم لها مضطربا لا يُطمأن إليه .

ولكن هذا الكلام لاينطبق على جزيرة تاهيتي ، فردوس المحيط الهادى، التى اكتشفها البرتغاليون في عام ١٦٠٥ ، وأعاد أحد الإنجليز هو صامويل والسيس Samuel Wallis اكتشافها في عام ١٧٦٧ ؛ وهذا هو بوجانڤيل Bougainville يصل إلى سواحلها في العام التالي في السادس من ابريل من عام ١٧٦٨ على وجه التحديد: وبعد عام كامل باليوم تقريباً في ١٣ أبريل من عام ١٧٦٩ جاء چيمس كوك James Cook الذى أسس شهرة الجزيرة ، وأرسى قواعد "أسطورة الباسيفيك" . ولكن هل كان

هؤلاء المتوحشون الذين يصفهم بدائيين؟ لا. بل كانوا أبعد ما يكونون عن البدائيين. " لقد أقبلت ـ على حد وصفه ـ مائة سفينة من نوع البيروجات من مختلف الأحجام، كلها مزودة بصابورة التوازن ، فأحاطت بالسفينتين [اللتين جاء فيهما بوجانفيل قبل أن تلقيا مراسيهما في الجزيرة بيوم واحد]. وكانت البيروجات محملة كلها بجوز الهند، والموز وغير هذا وذاك من فاكهة الجزيرة. وجرى تبادل هذه الثمار اللذيذة مقابل بعض التوافه المختلفة في جو من الود." (٢٥٨) وتكررت نفس المشاهد تقريبا عندما وصل كوك على متن سفينة "الإنديفور" Endeavour؛ نقرأ في سجل يوميات الرحلة: "ما كدنا نلقى المرساة حتى أقبل أهل البلد الأصليون زرافات نحو سفينتنا بقوارب محملة بجوز الهند ، وغيره من الثمار " (٢٥٩). وتسلقوا السفينة كالقرود، ونشلوا ما وصلت إليه أيديهم ، ولكنهم ما لبثوا أن رضوا بالتبادل والمقايضة السلمية . لقد كان سلوكهم ـ من استقبال ودي ، ومقايضة متمكنة ، ومساومة مطمئنة ـ شاهداً على حضارة قائمة ، وعلى نظام اجتماعي . والحق أن التاهيتيين لم يكونوا " بدائيين ": فعلى الرغم من الثمار البرية ، والنباتات البرية التي أتيحت لهم بوفرة نسبية ، كانوا يزرعون القرع، والبطاطا (على الأرجح جلبها البرتغاليون) ودرنات الإجنام ، وقصب السكر الذى كانوا يستهلكونه على حاله ، وكانوا يربون الخنازير والطيور بوفرة (٢٦٠).

أما البدائيون الحقيقيون فقد لقيتهم سفينة الإنديڤور فيما بعد عندما بلغت جنوب أمريكا الجنوبية ، ووقفت على امتداد مضيق ماجيللان ، أو على الطريق المؤدى إلى كاب هورن ، وربما عند ما تمهلت عند سواحل الجزيرة الجنوبية من نيوزيلنده ، وبكل تأكيد عندما ألقت المرساة بمحازاة الساحل الاسترالي بهدف تجديد مؤنة الماء والخشب أو إصلاح هيكل السفينة . أى أنها التقت بهم في كل مرة كانت تخرج فيها عن الحزام الذى رسمته الحضارات التي تستخدم المعزقة على خريطة الدنيا.

وهكذا رأى كوك ورجاله في مضيق لومير Le Maire على الطرف الجنوبي من أمريكا حفنة من المتوحشين البائسين ، المعوزين ، المجردين من كل شيء ، الذين لم يستطع أن يدخل معهم في علاقة ما . كانوا يلبسون جلود كلب البحر ، ولا يستخدمون من الآلات إلا الخطاطيف ، والأقواس ، والسهام ، ويقنعون بأكواخ لا تقي الإنسان غائلة البرد ، كانوا باختصار " أشد المخلوقات بؤسا على ظهر الأرض في أيامنا هذه"(٢٦١). وكان صامويل واليس Samuel Wallis قد لقي هؤلاء المتوحشين المعوزين قبل ذلك بعامين ، وحكى مايلي : " وأعطى واحد من ملاحينا ، كان يصطاد بالشص، واحداً من هؤلاء الأمريكيين سمكة حية كان قد صادها لتوه ، وكانت أكبر حجما قليلا من الرنجة ، فتلقاها الأمريكي بشراهة دونها شراهة الكلب الذي نلقي إليه عظمة؛ وعضها بأسنانه عند خياشيمها عضة فقتلها ، ثم شرع يأكلها مبتدئا بالرأس،

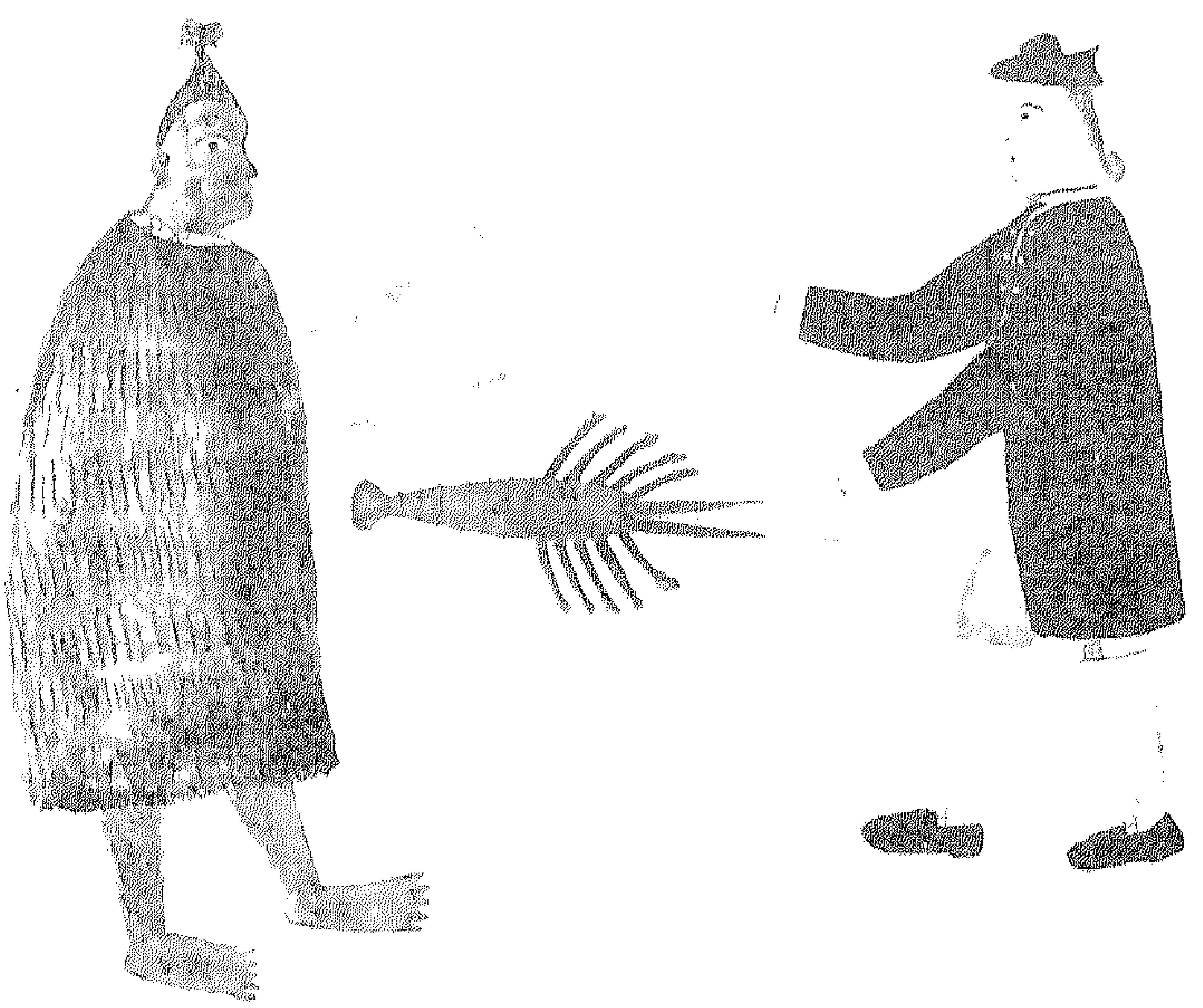

فى نيوزيلنده: بحار انجليزى يبادل منديلا بسمكة لا نجوست - رسم من يوميات بحار فى طاقم توماس كوك ١٧٦٩ (المكتبة البريطانية).

ومنتهياً بالذيل، دون أن يلقي شيئاً من الشوك أو الزعانف أو الفلوس أو الأحشاء"(٢٦٢).

ويدخل في زمرة البدائيين المتوحشون الأستراليون الذين تأملهم كوك ورفاقه على مهل .رأوهم معوزين ، رحل ، يعيشون على شيء من صيد الحيوان ، وشيء أكثر من صيد السمك يتلقفونه على القاع الموحل الذى تنفرج عنه المستنقعات الضحلة. " ولم نر بوصة واحدة من الأرض المزروعة في بلدهم ."

ومن الواضح أنه يمكننا أن نكتشف في نصف الكرة الشمالي، في قلب القارة، في أوروبا ، بدائيين أكثر عدداً ، لا يقلون عمن ذكرناهم من قبل تجسيماً للبدائية . فقد ظلت سيبريا ـ التي سنعودإليها فيما بعد ـ متحفاً لا يضارعه متحف آخر ، إلى يومنا هذا، في احتفاظه بشواهد الأجناس ، ومنها ما كانت تحيا حياة بدائية.

ولكننا لا زلنا نعتقد أن المجال المتميز لملاحظة هذه الأمور هو أمريكا الشمالية، ذات الكثافة الكبيرة ، والتي سعى إليها الاستعمار الأوروبي يهدم في همة ، وينير في حماس . وفي هذا المقام لا أعرف كتابا يعطي الإنسان انطباعا أقوى أثراً عن الصورة الشاملة الأولي التي كونها من شاهدوا أمريكا لأول مرة من " ملحوظات عامة عن

أمريكا " تأليف الأب پريڤو Prévost (٢٦٣). ففي الوقت الذي يقوم فيه پريڤو بتلخيص مختلط لكتاب الأ ب شارلڤوا Charlevoix، وملحوظات شامپلان Champlain ، وليسكاربو Lescarbot، ولاهونتان La Hontan ، وپوتيرى Potherie فإنه يرسم لوحة واسعة ، مفرطة السعة ، تضم بقاعاً لا حدود لها تمتد من لويزيانه إلى خليج هدسون ، يظهر فيها الهنود في مجموعات متباينة ، متمايزة تمايزا لا مراء فيه. فهناك " اختلافات مطلقة " تترجمها احتفالات ، ومعتقدات، وعادات "هذه الأمم المتوحشة " التي تتباين فيما بينها تباينا لانهاية له . والذى يهمنا هنا هو أن الاختلاف الأساسى المبدئي لا يتمثل فيما إذا كانوا من أكلة لحوم البشر أم لا ، ولكنه يتمثل في السؤال : هل كانوا يزرعون الأرض أم لا ؟ في كل مكان يظهر لنا فيه الهنود الحمر ، وهم يزرعون الذرة أو غيرها من النباتات ، تاركين أعمال الزراعة لنسائهم ، في كل مرة نرى فيها المعزقة أو أية عصا بسيطة أو أى جاروف طويل - لا يمكن أن نعتبره من الأدوات المحلية الأصلية - ، في كل مرة يصف لنا بعضهم الطرق المحلية الأصلية لتطويع أو لتبني زراعة البطاطس في لويزيانا، أو حتى في اتجاه الغرب، وفي كل مكان يظهر فيه هؤلاء الهنود الحمر الذى يزرعون " الشوفان المجنون " ، فإننا نجد أنفسنا في مواجهة فلاحين مستقرين أو شبه مستقرين ، مهما بدا عليهم من خشونة وجلافة . وهؤلاء الفلاحون لا شأن لهم - من وجهة نظرنا - بالهنود الحمر الذين كانوا يعيشون على القنص أو صيد السمك . ولقد تناقص عدد الهنود الحمر الممارسين لصيد السمك نتيجة التدخل الأوروبي الذى طردهم - دون أن يسعي إلى ذلك سعيا ملحًا - ولكنه طردهم على أية حال بطريقة منظمة ، متصلة الحلقات ، من الشواطيء الغنية بالسمك المطلة على المحيط الأطلسي ، ومن أنهار الشرق ، ثم نغص عليهم حياتهم فوق أراضي صيدهم فيما بعد . ألم يحدث للباسك أن هجروا حرفتهم الأولي، وهي صيد الحيتان بالخطاطيف ، وتحولوا بسرعة إلى تجارة الفراء التى " كانت تدر عليهم ربحا أكثر دون أن ترهقهم بتكاليف أو تعب ؟ "(٢٦٤). حدث ذلك في العصر الذى كانت الحيتان فيه تسبح في مجرى نهر سانلوران Saint-Laurent" وبأعداد كبيرة أحيانا " وهاهم أولاء الصيادون الهنود يطاردهم باعة الفراء، الذين ينطلقون من حصون على خليج هدسون أو من ساحات على نهر سانلوران، فيضطر الهنود الحمر إلى نقل قراهم الفقيرة التي تجمعوا فيها تجمع الرُّحَل ، ليباغتوا الحيوانات " يقتنصونها على الجليد " بفخاخ ، وأطواق : وهي حيوانات الماعز ، والوعل ، والدلق، والسنجاب، والقاقم ، والقضاعة ، والجارود ، والأرنب البرى ، والأرنب الداجن . وبهذه الطريقة استولت الرأسمالية الأوروبية على الكم الهائل من جلود أمريكا ، وفرائها، وأصبحت في وضع يمكنها من منافسة الصيادين في الغابة السيبيرية النائية .

ويمكننا أن نضاعف عدد الصور ما شئنا ، ليتكرر اقتناعنا بأن المغامرة الإنسانية، كانت في بداياتها على مدى آلاف السنين ، وفى أثناء حركاتها البطيئة ، مغامرة " واحدة " ، يؤكد وحدتها التزامن في المشاهد ، والتوالى في العصور . وهكذا فإن " الثورة الزراعية " لم تتحقق فقط في بعض البؤر المتميزة ، مثل الشرق الأدنى في الألفية السابعة أو الثامنة قبل الميلاد ، بل انتشرت في أماكن متعددة ، ولم تتخذ مسيرتها هيئة القفزات المفاجئة ، بل كانت تجمع الخبرات المتكررة المتشابهة ببطء شديد، وكان أن ترتبت الخبرات على المسار اللانهائي الذي سلكته ، على مسافات متباعدة تقدر بقرون . ولم ينبذ عالم اليوم الرجال الذين يفلحون الأرض بالمعزقة. ومازال بعض البدائيين يعيشون إلى اليوم ، مبعثرين هنا وهناك ، يحتمون بأراضٍ لا كرم فيها يلوذون بها ، تتيح لهم الملجأ والمأوى .

الباب الثالث

الأشياء الكمالية والأشياء العادية
الطعام والشراب

ليست المشكلات التي ترتبط بالقمح والذرة والأرز، وهي الأطعمة الأساسية بالنسبة لغالبية البشر، إلا مشكلات بسيطة نسبياً. وإنما تنخرط المشكلات في مدارج التعقيد إذا ماخرجنا عن نطاق الأطعمة العادية ، وتطرقنا إلى الأطعمة التي تتجاوز المستوى العادي، وتبدأ باللحم، ثم عرجنا على حاجات البشر التي تنوعت أيما تنوع، وهي التي تتصل بالملبس ، والمسكن.هنا نجد أنفسنا في مجالات تسير فيها الأشياء الضرورية والأشياء الكمالية جنباً إلى جنب أحياناً، وتقف بعضها من البعض الآخر على طرفي نقيض في أحيان أخرى.

وربما اتضحت المشكلة إذا تحددت منذ البداية طائفتان من الحلول، الواحدة في مواجهة الأخرى: طائفة الحلول الشاملة للغالبية ـ ونعني بها طعام الكافة، وبيت السواد ، وملبس كل الناس وطائفة الحلول الخاصة بالأقلية التي ينعم بها المحظوظون وأصحاب الامتيازات، وتتسم بسمة الترف. إن إعطاء المتوسط حقه متمثلا في الأشياء العادية، والاستثناء حقه متمثلا في الأشياء الكمالية ، يعني أننا نتبنى جدلية لابد منها، وإن كانت صعبة لامراء في صعوبتها. ستفرض علينا هذه الجدلية أن نروح ونجيء، ونجيء ونروح، ونتقلب بين الأسود المائل إلى البياض، والأبيض المائل إلى السواد ، وهكذا دواليك، فليس هناك تصنيف بلغ الكمال: والترف من طبعه التغير، والهروب من قبضة من يريد الإحاطة بحقيقته، والترف متنوع ومتناقض، لا يثبت على حال تحدد هويته تحديداً نهائيا قط.

فقد كان السكر مثلا ترفا قبل القرن السادس عشر؛ وكذلك كان الفلفل قبل أن تغرب شمس القرن السابع عشر؛ والكحول والأصناف الأولى من المشروبات الروحية الفاتحة

للشهية التي يسمونها " الأبيريتيف "، كل هذا كان ترفا في عهد كاترين دي ميديسيس(١٥١٩ ـ ١٥٨٩) ؛ والمراتب المحشوة بريش البجع ، والكؤوس الفضية التي استخدمها نبلاء الروس المسمون بالبويار boiars حتى قبل أن يتربع بطرس الأكبر على سدة الملك كانت ترفا ؛ ومن قبيل الترف كانت الصحون المسطحة التي كلف الملك فرانسوا الأول في عام ١٦٥٣ واحداً من صياغ مدينة أنتڤرين (البلجيكية) بصناعتها ؛ وقد ظهرت الصحون الغويطة أول ما ظهرت ـ وكانوا يسمونها الصحون على الطراز الإيطالي ـ في مقتنيات الكاردينال مازاران Mazarin حيث جاء ذكرها في قائمة جرد يرجع إلى عام ١٦٥٣ ؛ وكانت شوكة الأكل ـ نعم شوكة الأكل ـ في القرنين السادس عشر والسابع عشر ترفا، وكذلك زجاج النوافذ العادي ، وكلاهما ورد الى فرنسا من البندقية . وكانت صناعة الزجاج المسطح قد تحولت منذ القرن الخامس عشر من استخدام البوتاس إلى استخدام الصودا مما أدى إلى إنتاج نوع يمتاز بشفافية أفضل وبسهولة في التشكيل على صورة ألواح . وانتشرت صناعة الزجاج في القرن التالي، القرن السادس عشر ، انتشارا يرجع الفضل فيه إلى استعمال الفحم الحجري كوقود ، فلا غرابة في أن يتخيل واحد من المؤرخين المحدثين أن شوكة الأكل القادمة من البندقية تلاقت في فرنسا مع الزجاج القادم من انجلترا(١). والكرسي مفاجأة أخرى من مفاجآت الترف . فقد كان الكرسي ترفاً عجيباً ، وشيئا نادراً في البلاد الإسلامية والهند ، وربما ظل هكذا إلى اليوم. فقد حدث في أثناء الحرب العالمية الثانية أن عسكرت بعض القوات الهندية في جنوب إيطاليا فرأت هناك ، في تلك البقاع التي نعتبرها بقاعًا فقيرة ، من علامات الثراء ما خلب لبها: تصوروا أن كل البيوت فيها كراسي! كذلك كان المنديل ترفاً، وهذا هو إسراسموس Erasmus، سيد الداعين الى مذهب الإنسانية في القرن السادس عشر، يكتب في رسالته عن تهذيب البنين " التمخط في الطاقية أو الكم من فعل الأجلاف؛ ومسح الأنف في الذراع أو في الكوع من فعل الفطائريين ؛ وليس التمخط في اليد، ثم مسحها في الثياب بالتصرف المتحضر؛ أما استخدام المنديل في تنظيف الأنف ، والابتعاد عن كرام الناس في أثناء التمخط ، فهذا هو السلوك اللائق ." (٢) . وكان البرتقال فاكهة كمالية في انجلترا ، وظل هكذا حتى في العصر الذي تربع فيه آل ستيورات على العرش، وما كانت ثمار البرتقال تظهر إلا قبيل الاحتفال بعيد الميلاد ، وكانت فاكهة ثمينة غالية يتوسل الناس بكل السبل لحفظها حتى شهر ابريل أو مايو. أما الملابس فالحديث عن الترف فيها حديث لا ينتهي، فلنؤجله إلى أن يحين حينه.

وهكذا تتعدد وجوه الترف وتتغير بحسب العصور والبلدان والحضارات . أما الذي لا يتغير فدخول الترف حياة الناس ، تلك الكوميديا الاجتماعية التي لا أول لها ولا آخر، كوميديا يطلق الترف شرارتها ، ويقوم منها في الوقت نفسه مقام الموضوع والمحور:

كوميديا اجتماعية يهفو إليها علماء الاجتماع والنفس والاقتصاد والتاريخ . ومن الضروري بطبيعة الحال أن يكون هناك اتفاق في إطار نوع من التواطؤ بين أصحاب الامتيازات المحظوطين من ناحية، والمتفرجين ، أي الجمهور الذي يحملق فيهم من ناحية ثانية. فالترف ليس هو الشيء النادر، وليس هو الغرور فحسب ، إنما الترف هو أيضا دليل على النجاح الاجتماعي، والإبهار الاجتماعي، إنه الحلم الذي يتوق الفقراء إلى تحقيقه يوماً، فإذا ما بلغوه تبدد كل ما كان يجلوه من بريق قديم . وإليك ما كتبه مؤخرا مؤرخ طبيب : " إذا تحول طعام من الأطعمة النادرة التي طال شوق الناس إليها إلى طعام في متناول الجماهير العريضة ، أدى ذلك على الفور الى زيادة مفاجئة في استهلاكه، وكأنما كانت هناك شهية طال كبتها فانطلقت من عقالها فيما يشبه الانفجار. فإذا ما انتشر ورطرط وأكله كل من هب ودب ، خبت جذوة فتنته شيئاً فشيئاً [...] وظهرت للعيان علامات دالة على نوع من التشبع" (٣). وكذلك قُضي على الأغنياء أن يمهدوا السبيل في الحاضر للحياة التي سيحياها الفقراء في المستقبل . ولهم في هذا مبرر من مبررات وجودهم على أية حال: إنهم يجربون المتع التي ستمتد إليها أيدي الجماهير الغفيرة، إن آجلا أو عاجلا.

والترف يلعب ألعابه التي تصطبغ بألوان السخف والتفاهة والتصنع والجري وراء النزوات والبدع . " وإننا لنجد فيما يكتبه المؤلفون الإنجليز في القرن الثامن عشر عبارات تفيض بالمديح المفتون يغدقونه بغير حساب على شوربة الترسة، والترسة سلحفاة بحرية، فمن قائل انها لذيذة الطعم ، وإنها فريدة في علاجها الهزال والوهن، وإنها تفتح الشهية. فما يليق أن تخلو مأدبة باذخة (من قبيل مآدب السيد اللورد عمدة مدينة لندن) من شوربة الترسة " (٤). ولنبق في لندن ولنرجع البصر كَرَّتين، لنرى من ألوان الترف في الطعام " لحم الضأن المشوي المحشو بالاستردُيا " وهي نوع من أنواع أم الخلول. ولنتجها إلى أسبانيا لنشهد سرفا لا مراء فيه : كانت أسبانيا تدفع بعملات من الفضة ثمن باروكات، كانت تصنعها لها بلاد الشمال التي كانت أسبانيا تعتبرها بلادا مارقة شيطانية اتبعت خطوات الشيطان وخرجت على الكاثوليكية الحقة. وشهد شاهد من أهلها هو أستاريث Ustariz الذي كتب في عام ١٧١٧(٥) يقول : " وهل بأيدينا أن نغير من هذا الأمر شيئا ؟ لقد كان الأسبان في ذلك الوقت نفسه يشترون ولاء طائفة من الشيوخ في شمال أفريقيا ويدفعون إليهم الثمن بضاعة تافهة من التبغ الأسود يجلبونه من البرازيل. وإذا نحن صدقنا لافيماس Laffemas مستشار الملك هنري الرابع فقد كان كثير من الفرنسيين يفعلون فعلة الأمم التي تعيش على البداوة " ويدفعون كنوزهم لقاء أعراض تافهة وبضائع عجيبة " لا قيمة لها " (٦).

كذلك كانت الهند الصينية والجزر المحيطية تقدم إلى الصين تراب الذهب والتوابل والأخشاب الثمينة، من قبيل خشب الصندل وخشب الورد، والعبيد، أو الأرز، وتتلقى في مقابلها بضائع صينية تافهة : من أمشاط وعلب مدهونة باللاكيه ، أو تتلقى منها عملات مصنوعة من النحاس المخلوط بالرصاص ... ولكن لنطمئن : فقد كانت الصين هي الأخرى مجنونة بأعشاش طائر السنونو يجلبونها من تونكين والهند الصينية وجاوه، وهي أعشاش يبنيها هذا الطائر من الطحالب، وحلا للبعض أن يأكلوها وأن يعتبروها من أفضل ألوان الطعام ، كذلك كانت الصين مجنونة بـ "كوارع الدببة وكوارع حيوانات وحشية أخرى تستوردها مملحة من سيام وكمبوديا وتتاريا "(٧).

ولنعد إلى أوروبا لنرى الناس مفتونين بالأواني المصنوعة من البورسلين الصيني . وهذا هو سباستيان ميرسييه يعبر في عام ١٧٧١ عن دهشته البالغة قائلاً : " ما أغرب هذا الترف الهش المؤسف المتمثل في الأواني المصنوعة من البورسلين الصيني ! إن القطة تستطيع بركلة واحدة أن تحطم من الأواني المصنوعة من البورسلين الصيني ما يزيد ثمنه عن الخسائر التي تحدثها عاصفة البرد عندما تجتاح عشرين فدان فرنسي (نحو عشرة فدادين مصرية) "(٨).ولكن أسعار البورسلين الصيني الوارد من الصين ما لبثت أن اتجهت إلى الانخفاض المستمر منذ ذلك الحين، حتى أصبحت منتجات البورسلين من قبيل البضائع العادية التي تشحن بها السفن العائدة من الصين إلى أوروبا.والحكمة التي نخلص بها من هذا التطور، والتي لا تقع منا موقع المفاجأة ، هي أن : كل شيء ترفي يشيخ بالزمن ، وتبطل موضته. ولكن الترف لا يهرم إلا ليولد من جديد، ولينبعث من بين الرماد ، وينهض حتى من بين ما يلحق به من إخفاق وفشل. إن الترف هو في حقيقة أمره صدى لفروق اجتماعية لا سبيل إلى القضاء عليها، فروق لا تكاد تتلاشى حتى تعيدها كل حركة إلى الوجود ، إنها " صراع طبقي " أبدي .

وليس هذا الصراع صراعا بين الطبقات فحسب، بل هو صراع بين الحضارات أيضاً. فالحضارات تنظر بعضها إلى البعض الآخر، وتلعب الواحدة مع الأخرى نفس الملهاة التي يلعبها الأغنياء مع الفقراء. ولما كانت هذه العملية عملية متبادلة بين جانبين، فإنها تؤدي إلى ظهور تيارات، وحدوث تبادلات نشيطة وسريعة على المدى القصير أولا ، وعلى المدى البعيد بعد ذلك. والخلاصة، في رأي مارسيل ماوس Marcel Mauss أن " المجتمع لم يجد في الإنتاج القوة التي تحركه، بل وجدها في الترف ". كذلك يرى جاستون باشلار Gaston Bachelard أن " سعي الناس للحصول على الكماليات يعطيهم حافزاً معنوياً أقوى من الحافز الذي يدفعهم إلى السعي للحصول على الضروريات. فالإنسان مخلوق تحركه رغباته ، وما هو بمخلوق تحركه حاجاته ." بل إن عالم الاقتصاد جاك روف Jacques Rueff يصل إلى حد القول بأن " الإنتاج وليد الرغبة ". وليس هناك بلا شك

الترف في مأدبة بمدينة ڤيرونا : جزء من لوحة " عرس قانا " من رسم الرسام الڤيروني پاولو كالياري الملقب بالڤيروني ، ڤيرونيزي Veronese (ترجع اللوحة الى عام ١٥٦٣).

إنسان ينكر هذه الدوافع وهذه الحوافز، حتى في مجتمعاتنا الحالية التي أصبحت ألوان الترف الجماهيري تسيطر عليها. والحقيقة أنه ليس هناك مجتمع إلا وفيه مستويات مختلفة ، وليس هناك اختلاف اجتماعي، مهما صغر، إلا وينتمي إلى الترف، هكذا كانت الحال في الماضي، وهكذا الحال في الحاضر.

ولكن هل ينبغي أن نندفع مع هذه الأفكار إلى بعيد، ونتبع ڤرنر زومبارت Werner Sombart في ذلك الرأي الذي نادى به بالأمس وتحمس له أشد التحمس(٩) حينما أكد أن الترف الذي بدأت به قصور الأمراء في الغرب (وكان قصر البابا في أڤينيون نموذجه الأول) كان هو صانع الرأسمالية الحديثة المبكرة ؟ أما يحق لنا أن نتساءل عن كنه هذا الترف المنوع ، المتباين ، الذى ظهر قبل حلول القرن التاسع عشر، وننظر نظرة فاحصة الى مبتدعاته واختراعاته؟ هل كان الترف عاملاً من عوامل التنمية؟ أم أنه كان على الأحرى بمثابة إشارة دالة على وجود محرك كان يدور في أغلب الأحايين بلا طائل، ولم يكن يحرك اقتصادا عجز عن استغلال رؤوس أمواله المتراكمة استغلالاً فعالاً؟ يشهد على ذلك أن صنفا بعينه من الترف خرج إلى الوجود منبثقا من الواقع المتهالك، وما كان يمكن إلا أن يكون كذلك ، فكان أشبه شيء بمرض من أمراض العصر القديم السابق على الثورة الصناعية، ثم بقي أحياناً بعد ذلك متمثلاً في الاستخدام الظالم، والفاسد، واللاقتصادي " للفوائض " التي كان يحققها مجتمع انكمش فيه النمو انكماشا لم يكن إلى الخلاص منه من سبيل. أما المدافعون المتعصبون عن الترف وعن قدراته الخلاقة فيرد عليهم عالم أحياء أمريكي هو دوبزانسكي Dobzhansky قائلا : " أنا عن نفسي لا آسف على ضياع أنماط نظامٍ اجتماعي كانت تستغل سواد الناس كما لو كانوا تربة خصيبة تستنبت فيها الزهور النادرة الحلوة التي تأتلف منها باقة ثقافة مرفهة مترفة " (١٠).

المائدة :
طعام الترف وقوت السواد

إذا نظرنا إلى المائدة تبينا للوهلة الأولى أنها تمثل بحراً له شاطئان متباينان يظهران واضحين كل الوضوح : شاطيء الترف، وشاطيء البؤس ، شاطيء السعة الباذخة، وشاطيء الضيق المسغب. ولنسرع الخطى الآن إلى الترف ، بعد أن أثبتنا هذه العبارة، فإن مشهد الترف هو أكثر المشاهد وضوحاً، وأفضلها توثيقاً ، وأشدها جاذبية بالنسبة للإنسان المعاصر ، الذي جلس في كرسيه الوثير، وتهيأ للملاحظة . أما المشهد المقابل، مشهد البؤس والمسغبة ، فإنه يثير في الإنسان الحزن ، وينفره ، ويصده ، حتى إنه ليضيق بالكتاب والمؤرخين من أمثال ميشيليه Michelet الذين وصفوه في اطار ما أخذوا به أنفسهم من رومانتيكية، وما كانوا ينتهجون في سعيهم هذا إلا نهجا بديهيا لايصعب على الإنسان إدراكه وتقديره .

ترف تأخر

صحيح أننا حيال أمور تقديرية، يختلف الحكم عليها بحسب المقياس الذي نقيس عليه، ولكننا نستطيع أن نقرر أن أوروبا لم تعرف الترف الحقيقي في شئون المائدة، أو لنقل أنها لم تعرف التفنن المتنعم في شئون المائدة قبل القرن الخامس عشر أو السادس عشر، فقد كان الغرب في هذه الناحية متأخرا بالقياس إلى حضارات العالم القديم .

فقد كان فن الطهي الصيني ، الذي غزا في أيامنا هذه الكثير من المطاعم في أوروبا ، فنا له تقاليده الموغلة في القدم، وكان له، منذ نحو ألف عام، تراث لم تمتد إليه يد التغيير تقريبا ، تراث تنسج خيوطه قواعد، وطقوس، ووصفات متقنة محكمة، وحرص حسي، وكَلَفٌ كبير بتسجيل كل مذاق، وكل نكهة ، وكل توليفة، وإجلال لفن الأكل، لا يشارك الصينيين فيه (وإن تغير الأسلوب) شعب آخر سوى الفرنسيين فيما أظن. وهناك كتاب جميل(١١) صدر مؤخراً يبرز ما تتسم به قائمة الأطعمة الصينية من ثراء لم يحظ بما هو جدير به من التقدير ، وما تتسم به من تنوع ، وتوازن ، ويقيم الدليل على هذا كله بما يورده من شواهد عديدة. والرأي عندي أن ما تضمنه هذا الكتاب الذي اشترك في تأليفه مؤلفون متعددون يغرق في حماس من نوع ذلك الحماس الذي استرسل فيه ف. و.موط F.W. Mote، وأنه يحتاج إلى كتاب ك. شانج K.C.Chang وإلى كتاب ج . سپنسر J.Spencer للحد من غلوائه . صحيح أن المأكولات الصينية صحية ولذيذة ومنوعة وغنية بالابتكار، وأنها تعرف كيف تستخدم على نحو رائع كل ما في متناول يدها ، وأنها تظل متوازنة، حيث تلجأ إلى الخضروات الطازجة وبروتينات الصويا لتعوض ندرة اللحم، وأن فن حفظ الأطعمة بكل أساليبه يزيد من إمكاناتها ومقوماتها. ولكننا

نستطيع أن نأتي من تراث الطهي في فرنسا أيضا بما يتيح لنا التفاخر، فنشيد بالتقاليد الريفية المختلفة في الطهي ، ونسهب في الحديث عما شهدته القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة من الابتكار في المأكولات، ومن ذوق ومن براعة في استخدام الإمكانات المنوعة في الأماكن المختلفة: أصناف اللحوم، والطيور، والصيد، والحبوب ، والأنبذة ، وأنواع الجبن، وما تخرجه حقول الخضروات وبساتين الفاكهة، ناهيك عن المذاقات المتعددة المختلفة لأصناف الزبد، ودهون الخنازير، ودسم الأوز، وزيوت الزيتون والجوز، وحدث ولا حرج عن الأساليب البيتية المجربة في حفظ المأكولات في أشكال عديدة. ولكن المشكلة تختلف عن هذا كله ، فهي ليست مسألة تفاخر، إنها تتلخص في السؤال: هل كانت هذه الأطعمة أطعمة غالبية الناس؟ " أما فرنسا فلم تكن هذه الأطعمة فيها يقينا أطعمة السواد. فقد كان الفلاح يبيع ما يجتمع له من فائض ، بل يزيد عليه ما يقتطعه من قوته، وكان الى هذا وذاك لا يأكل أفضل إنتاجه ، بل كان يقنع بالدخن أو الذرة، ويبيع قمحه، وكان يأكل مرة واحدة في الأسبوع لحم الخنزير المملح، ويحمل إلى السوق ما يربيه من طيور وماعز وخراف وعجول، وما يجمعه من بيض. وكانت الموائد المتخمة بصنوف الطعام والشراب التي يمدها الفلاحون في فرنسا في الأعياد ، شأن مثيلاتها في الصين، وسيلة يكسرون بها رتابة الحياة اليومية وما كانوا يأخذون أنفسهم فيها من طعام واحد متكرر، وتقتير لايسد الرمق. ثم إنها كانت يقينا وسيلة أكيدة للحفاظ على فن الطهي الشعبي. لم يكن طعام الفلاحين ، أو لنقل الغالبية الساحقة من الناس، يشبه في قليل أو كثير ما تتحدث عنه كتب الطهي التي كان المتميزون والمنعمون يستخدمونها، وما كان يشبه في شيء تلك القائمة التي وضعها أحد الذواقة في عام ١٧٨٨ وضمنها المأكولات التي أتيحت للذواقين في فرنسا :

الديوك الرومية المحشوة بالتروفات البيريجوردية - وهذه التروفات هي درنات فطر التروفا التي اشتهر به إقليم پيريجور في فرنسا؛

أصناف الپاستيتة المصنوعة من كبد الأوز الدسم الذي اشتهرت به مدينة تولوز؛

طواجن دجاج الحجل الأحمر التي اشتهرت بها منطقة نيراك ؛

الپاستيتة المصنوعة من سمك التونة الطازج التي اشتهرت بها مدينة طولون ؛

وعصافير القبرة المشهورة في بيزيناس ؛

ولحم الرأس الذي عرفت به مدينة طروا ؛

والدجاج البري الذي عرفت به منطقة دومب ؛

والديوك المزغطة التي اشتهرت بها منطقة نورمانديا ؛

والجامبون الذي اشتهرت به منطقة البايون؛

واللسان المسبك الذي اشتهرت به ڤيرزون؛

والكرنب المخلل المخروط المشهور في ستراسبورج والمعروف باسم شوكروت ستراسبور... (١٢)

ومن المؤكد أن الحال كانت على هذا المنوال أيضا في الصين : كان التفنن، والتنوع، بل كان مجرد الشبع ، للأغنياء دون الفقراء. وتدلنا الحكم الشعبية الصينية على أن اللحم، والنبيذ كانا يرمزان إلى الثراء، وأن الفقراء كانت تطيب نفوسهم ، ويحسون بالرضا إذا وجدوا " ما يلوكونه من أرز ". ويتفق شانج وسبنسر على أن چون بارو John Barrow كان على حق عندما قال في عام ١٨٠٥ إنه ليس هناك مكان في العالم تباعد فيه الشقة بين طعام الأغنياء، والفقراء أكثر من الصين. ويدعم سبنسر رأيه فيستشهد بفصل من رواية اشتهرت في القرن الثامن عشر هي رواية " حلم الجناح الأحمر"، يصور : البطل الشاب الغني يزور مصادفة بيتًا فقيراً تقيم فيه خادمة من خدمه، فتقدم إليه صينية، نمقتها على خير ما استطاعت ، ووضعت عليها أفضل ما عندها من فطائر ، وفاكهة مجففة ، وياميش، ولكنها أيقنت ، وقد تملكها الحزن " أن الصينية لم يكن عليها صنف من أصناف الطعام يمكنها أن تتصور أن سيدها يمكن أن يمد يده إليه " (١٣).

وهكذا فإننا عندما نتكلم عن فن الطهي الكبير في عالم الأمس فاننا نتكلم عن الترف، ونظل في نطاقه لا نخرج منه. يبقى أن نقول إن هذا الفن المنعم الذي أوتيته كل حضارة بالغة - الحضارة الصينية منذ القرن الخامس الميلادي والحضارة الإسلامية منذ القرن الحادي عشر أو الثاني عشر- لم يظهر في الغرب إلا في القرن الخامس عشر في المدن الإيطالية الغنية، حيث أصبح فنا غاليا له قواعده ومراسمه. يشهد على ذلك ما نقرأه عن مجلس الشيوخ في البندقية، وكيف احتج منذ وقت جد مبكر على إسراف النبلاء الشبان في إقامة الموائد الباذخة، وكيف منع في عام ١٤٦٠ اقامة الولائم التي تزيد فيه تكلفة طعام الفرد عن نصف جنيه من فئة الدوكات . ولكن الولائم التي عرفت باسم banchetti استمرت على الرغم من ذلك بطبيعة الحال . وقد سجل ماران سنودو Marin Sanudo في يومياته قوائم المأكولات التي كانت تقدم، وتكاليف إقامة بعض هذه الولائم الأميرية في أيام الاحتفال البهيج بالكرنڤال ، ونجد فيها تلك الأطعمة التي منعها مجلس الشيوخ ، وكأنها استقرت فيها بطريق المصادفة أو لنقل استقرار الشعائر التي لا يجوز أن يخلو منها أي احتفال جليل، ومنها طيور من نوع الحَجَل ، والتَدْرُج ، والطاووس... وما مر إلا وقت قليل حتى نشر اورتينزيو لاندي Ortensio Landi كتابه :

(تعليق على Commentario delle più notabili e mostruoses cose d'Italia

أعجب وأفظع الأشياء فيإيطاليا) ، ذلك الكتاب الذي طبع ، وتكرر طبعه في البندقية من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٥٥٩ ، واحتارالمؤلف فيما يختاره من بين الأطعمة التي يهفو اليها الذواقة في المدن الايطالية : سجق السيرڤيلات، والمقانق التي اشتهرت به بولونيا، والتسامپوني zampone أو الچامبون المحشو الذي اشتهرت به مودينا، والپاستيتا التي اشتهرت بها فيراري، وشطائر السفرجل cotognata التي اشتهرت بها ريچو Reggio، وجبن وطعمية الجنوكي gnocchi المصنوعة بالثوم والتي اشتهرت بها پياشنتزا، وعجينة اللوز أو عيش اللوز الذي اشتهرت به مدينة سيينا، وأنواع الجبن الشهية المسماة كاتشي مارتسوليني caci marzolini التي اشتهرت بها فلورنسا، والسجق الممتاز المسمى لوجانيكا سوتيلي luganica sottile، والعصاج المعروف باسم توماريللى tomarelle الذى اشتهرت به مونتسا، وأصناف من طيورالتدرج ، ومن المارون أوالكستنة، وهي أطعمة اشتهرت بها كياڤينّا، والأسماك وأم الخلول الڤينيسية، حتى الخبز الفريد الذي اشتهرت به مدينة بادوا، وأنواع الأنبذة التي أخذت شهرتها تتزايد مع مرور الوقت(١٤).

وفي ذلك العصر أصبحت فرنسا هي البلد الأول المتفرد في أمور المأكولات الممتازة، فيه تبتكر الأكلات، وإليه تنتهي وصفات الأطعمة البديعة قادمة من كل أرجاء أوروبا، وبين ظهرانيها تتطور نحو الكمال طرق تقديم المأكولات، ونظم إقامة الحفلات الدنيوية التي تذخر ولائمها بما يرضي الأكولين ، وتسير ترتيباتها بما يناسب الحريصين على الأصول ، وحسن السلوك . كانت وفرة المأكولات وتنوعها حقيقةً بأن تصيب أهل مدينة البندقية بالدهشة والعجب . ولنسمع هنا شهادة السفير چيرولامو ليبومانو Girolamo Lippomano جاء في عام ١٥٥٧ إلى باريس سفيرا للبندقية فيحسن بالذهول، وهو يرى الرخاء يعم المدينة كلها : " أصحاب المطاعم يقدمون إليك مأكولات من كل نوع، فمن الطعام ما تدفع فيه قطعة فضية من فئة التستون teston، ومنه ما تدفع فيه قطعتين ، ولديهم من الطعام ما يطلبون لقاءه جنيها ذهبيا من فئة الإيكو ecu، أو جنيهين أو أربعة أو عشرة أو عشرين للشخص الواحد ، إذا حلا له أن يطلب الغالي من الطعام. ولكنك إذا دفعت خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً أتوك بما تحلم به من طعام، ولو كان هو حساء بالمن والسلوى أو شواء العنقاء ... وبأغلى وأثمن ما على وجه البسيطة من طعام"(١٥). إلا أن فن الطهي الفرنسي الكبير لم يمكن لنفسه في الأرض إلا في زمن لاحق ، بعد نزع سلاح " فرقة مدفعية النهم " ، ونقصد بذلك عصر الوصاية ، الريچانس (١٧١٥ ـ ١٧٢٣) وما تحلى به الوصي فيليب دورليان من ذوق رفيع ، أو ربما بعد ذلك التاريخ ، في عام ١٧٤٦ عندما ظهر ، بعد طول انتظار، كتاب " الطاهية البورجوازية " La Cuisinière bourgeoise من تأليف مينون Menon، وهو كتاب قيم ، تكررت طبعاته ، بما يستحقه أو بما لا يستحقه، أكثر مما تكرر طبع كتاب

Provinciales باسكال "(١٦) . منذ ذلك الحين شغفت فرنسا ، أو على الأحرى باريس، بموضة الطهي الراقي، وهذا هو واحد من الباريسيين يكتب في عام ١٧٨٢: " إننا لم نعرف فن الأكل الراقي إلا منذ نصف قرن من الزمان "(١٧). وهذا كاتب آخر يقول في عام ١٨٢٧ إن فن الطهي قد حقق من التقدم منذ ثلاثين عاما أكثر مما حقق طوال القرن الذي سبقه " (١٨). وهو، إذ يقول هذا الكلام، يرى أمام ناظريه في الحقيقة مشهداً من مشاهد الترف ، والبذخ يأتلف من عدد من " المطاعم restaurants " الباريسية الكبيرة (ولم يكن قد مرآنذاك وقت طويل على تحول الطهاة إلى أصحاب مطاعم). والحق أن الموضة تسيطر على عالم المأكولات كما تسيطر على عالم الملبوسات . فالصلصات الشهيرة يأتي عليها يوم تفقد فيه شهرتها وتصبح موضة قديمة ، ويبتسم الناس ابتسامة العطف والرأفة عندما يسمعون اسمها. ويقول كاتب ساخر سخرية لاذعة ، لا أثر فيها للفكاهة أو الضحك ، هو مؤلف " قاموس البيان " Dictionnaire sentencieux (الذي صدر عام ١٧٦٨) : " فن الطهي الحديث يعتمد كل الاعتماد على المرق والبهريز " والله لا يرجع شوربة أيام زمان ". ويشرح الكلمات قائلا : " الحساء Soupe - وهو أشبه شيء بالشوربة potage والشوربة نوع من الطعام كان كل الناس يتناولونه فيما مضى ، وأصبحوا اليوم يضربون به عرض الحائط ، وينفرون منه باعتبار أنه طعام بورچوازي مفرط في البورجوازية ، طعام قدم عهده ، مبررين ذلك بأن كل أصناف الحساء تصيب عضلات جدران المعدة بالترهل ." والله لا يرجع كذلك " خضروات الشوربة " ، تلك الخضروات المسلوقة " التي نبذها العصر الآخذ بفن الطهي الراقي نبذا كاملا تقريبا على اعتبار أنها من الأطعمة الوضيعة ...وإن لم يغير هذا من وضع الكرنب شيئا ، فما زال الكرنب طعامًا ممتازا وصحياً " يأكله الأغنياء ، ويأكله الفلاحون جميعا طيلة حياتهم(١٩).

وهناك تغيرات صغيرة لم يكن لأحد فضل فيها ، بل حدثت من تلقاء نفسها تقريباً، منها مثلا ظهور الديك الرومي، الذي جاء من أمريكا في القرن السادس عشر. ولعل الرسام الهولندي يؤاخيم بوديكالير Joachim Buedkalaer (الذي ولد عام ١٥٣٠ وتوفي عام ١٥٧٣) هو أول رسام صور الديك الرومي في لوحة من لوحاته التي خص بها موضوعات مختلفة من النبات والحيوان والطبيعة الصامتة ، ولوحته هذه محفوظة في المتحف القومي Rijksmuseum بأمستردام . وتكاثرت الدجاجات الرومية والديكة الرومية في فرنسا ، والرأي عند البعض ، أنها تكاثرت وربت عندما استتب الأمن، وعاد السلام الداخلي إلى البلاد في عصر الملك هنري الرابع ؛ ولست على يقين من كنه ذلك الطبق الجديد (الذي كان في الحقيقة تجديدا لطبق قديم) الذي قدموه الى الملك باسم "الدجاجة في البرام "، وهل كانت دجاجته آنذاك دجاجة عادية أم دجاجة رومية ؛ ولكننا ما

نصل إلى نهايات القرن الثامن عشر حتى يتبدد كل شك في هذا الصنف ودجاجته ، فقد كانت يقينا دجاجة رومية ؛ واستمع إلى هذا الفرنسى الذي يكتب في عام ١٧٩٩: " أتت إلينا الديكة الرومية، فاختفى الأوز من فوق موائدنا ، وكان الأوز من قبل يحتل منها أعظم مكان وأجله" (٢٠). فهل يحق لنا أن نعتبر الأوز السمين في زمان رابليه Rabelais - النصف الأول من القرن السادس عشر - رمزاً دالاً على عصر مضى وانتهى من عصور الشراهة الأوروبية ؟

ويمكننا كذلك أن نتتبع مسار الموضة من خلال نظرة فاحصة إلى ما يكشفه لنا تاريخ بعض الكلمات الفرنسية التي استخدمت منذ زمن طويل في مجال الأطعمة، وبقيت برسمها إلى يومنا هذا ، ولكن مدلولاتها تغيرت مراراً في العصور المتعاقبة، ومنها مثلا: entrées, entremets, ragoûts...الخ وهي : أطباق الاستهلال أو مسح الزور؛ ثم الأطباق البينية بين الطبق الرئيسي والطبق الختامي؛ ثم المسبكات ... كذلك من الممكن تتبع طرق شي اللحم، سواء منها الطرق الجيدة، أوالطرق الرديئة ولكننا إذا فتحنا الباب على هذا الموضوع ، فلن ننتهي إلى نهاية.

أوروبا
وأهلها أكلة اللحوم

قلنا إن أوروبا لم تعرف قبل أواخر القرن الخامس عشر فن الطهي الرفيع . ولا ينبغي أن ينبهر القاريء ، عندما يرجع البصر إلى الماضي، بهذه أو تلك الولائم، ومنها ولائم بلاط الفالوا Valois في منطقة بورجونديا : حيث كانت الأنبذة تُملأ النافورات حتى تفيض ، والحفلات تتخذ هيئة المهرجانات الخلابة ، يُلبسون فيه الأطفال ثياب الملائكة، وينزلونهم من السماء على حبال ممدودة ... فقد كان الكم المبهر يغلب على الكيف. وكانت هذه الولائم تمثل، على أحسن الفروض ، ترفاً يستهدف سد حلوق النهومين المفجوعين بكميات ضخمة من الطعام . وكانوا يسرفون في تقديم اللحوم، سرفاً قُدِّر له أن يظل زمنا طويلا الطابع المميز لموائد الأغنياء ، المميز للترف في ذلك العصر.

كان اللحم على اختلاف صور إعداده ، مسلوقاً أو مشوياً، ممزوجا بالخضروات أو حتى بالأسماك، يقدم مهوشا مختلطا مكوما على شكل أكوام أو أهرامات، في أطباق هائلة، وكان هو الطعام الأوحد ، كان هو الأكلة mets. " هكذا كانت أصناف الشواء المكدسة بعضها فوق البعض تكون أكلة واحدة ، يقدمون معها الصلصات المنوعة أشد التنوع، منفصلة. بل إنهم لم يكونوا يترددون عن جمع الطعام كله في آنية واحدة، أو قارب واحد، وكانت هذه الآنية ، التي يضعون فيها هذا الصنف المشكل من كل أنواع اللحم ، تشكيلة السالميجوندي salmigondis البشعة ، هي الأكلة mets"(٢١).

وكانوا يستخدمون في تلك السنوات ، من عام ١٣٦١ إلى ١٣٩١ ، كلمة الصحون assiettes دلالة على المأكولات ، ولدينا كتب طهي فرنسية ترجع إلى هذا العصر، يقول مؤلفوها إن الوجبة تتكون مثلا من ستة صحون ، أى تتكون، بلغتنا الآن، من ستة أصناف متتالية. وكانت كلها أطعمة دسمة ثقيلة، تثير دهشتنا، ولانكاد نتصورها. وننتقي هنا أكلة واحدة من بين أربع أكلات يعرضها كتاب الطهي Ménagier de Paris الذي صدر في باريس في عام ١٣٩٣: كبة من اللحم العجالي، قطايف باللحم أو السمك ، سمك المورينة ، نوعان من البهريز باللحم ، صلصة بيضاء للسمك، ثم صلصة أربولاستر arboulastre ، وهي صلصة من الزبد والقشدة والسكر وعصير الفاكهة..(٢٢) " ويورد الكتاب مع كل صنف من هذه الأصناف طريقة طهيه، بعبارات لا ينبغي أن يأخذها طهاتنا الآن بمعناها الحرفي، فقد تبين أن تجربة هذه الأصناف حسب الوصفات المذكورة لا تؤدي إلا إلى نتائج فاشلة .

ويبدو أن استهلاك اللحم على هذا النحو لم يكن في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ترفاً قاصراً على كبار الأغنياء وحدهم دون غيرهم . فقد وجد مونتني Montaigne في مطاعم جنوب ألمانيا في عام ١٥٨٠ حمّالة عمودية للصحون ، يركب فيها الجارسونات الصحون واحدا فوق الآخر، فتتيح لهم تقديم طبقين من اللحم على الأقل في المرة الواحدة، بل لقد لاحظ ذات يوم أنهم قدموا بسهولة ويسر سبعة أطباق دفعة واحدة حملوها بهذه الحمالة بعضها فوق البعض(٢٣). كانت اللحوم التي تستخدم في الطبخ ، وفي الشواء متوفرة بكثرة فائقة : لحوم البقر ، والضأن ، والخنازير، والدجاج ، والحمام ، والماعز، والضأن اللباني ... أما لحوم الصيد فهناك كتاب في فن الطهي، ربما يرجع إلى عام ١٣٠٦ ، يتضمن قائمة طويلة من لحوم الصيد التي كانت متاحة في فرنسا ، وكان الخنزير البري منتشراً في صقلية في القرن الخامس عشر حتى إن ثمنه كان أقل من ثمن لحوم الجزارة العادية ؛ وقد عد رابليه طيور الصيد فلم يحصها: منها البلشون، وأبو شوشة ، والبجع البري ، والقوق ، والكركي ، والحجيل ، والراج ، والسمان، والحمام الغيطي، والترْغَل ، والدُّراج ، والشحرور ، والنحاف ، والغطاس ، ودجاج الماء ...(٢٤). ونستنتج من قائمة البضائع والأسعار الأسبوعية لسوق أورليان بين عام ١٣٩١ وعام ١٥٦٠ أن حيوانات وطيور الصيد (باستثناء الحيوانات الكبيرة ، وهي الخنزيرالبري، والوعل، والتيس البري) كانت متوفرة بانتظام : الأرانب البرية الصغيرة والكبيرة، الحَجَل ، الودقوق، القُبَّرَة ، الكورلي، الشرشير ...(٢٥). كذلك يدل ما وصل إلينا من وصف لسوق البندقية في القرن السادس عشر على الشراء الواسع . وكيف نشك في هذا الشراء؟ أليس هذا الشراء الواسع منطقيا بالقياس إلى أوروبا التي كانت خالية إلى نصفها من السكان؟ كانت المناطق الخالية مرتعا للحيوانات والطيور البرية. ألم نقرأ في

جريدة الجازيت دي فرانس Gazette de France بتاريخ ٩ مايو ١٧٦٣ هذا الخبر الذي تلقته الجريدة من برلين : " لما كانت الماشية قد ندرت ندرة شديدة هنا فقد أمر الملك بأن يزود الصيادون المدينة بمائة من الخنازير البرية، وعشرين من الوعول أسبوعياً لاستهلاك السكان"؟ (٢٦).

وليس من الصواب أن نبالغ في التمسك الحرفي بمنطوق الشكاوي التي وصلت إلى أيدينا، فكثيرا ما غلبت عليها الصياغة الأدبية ، وهي تتحدث عن الفلاحين الفقراء الذين كان " الأغنياء يسلبونهم النبيذ ، والدقيق ، والشوفان ، والأبقار، والخراف، والعجول، ولا يتركون لهم إلا خبز الجاودار ". فلدينا الدليل على عكس ذلك .

ففي الأراضي الواطئة في القرن الخامس عشر " كان اللحم بضاعة شائعة ، حتى إن المجاعات عندما كانت تحدث ، لم تكن تقلل من الطلب عليها إلا قليلا ". وكذلك شهد استهلاك اللحوم زيادة في النصف الأول من القرن السادس عشر (مثلا في مستوصف الراهبات في مدينة ليير)(٢٧). ونقرأ في مرسوم أصدره أمراء ساكسونيا في ألمانيا في عام ١٤٨٢: " وينبغي أن يحصل العامل الحرفي في كل من وجبتي الغذاء والعشاء على أربعة أطباق ، فإذا كان اليوم يوم لحم ، كان الطبق الأول شوربه ، يليه طبقان من اللحم، ومن بعدهما طبق الخضار ؛ أما إذا كان اليوم يوم جمعة (يوم أكل السمك) أو يوماً بغير لحم، فتكون الأطباق الأربعة على النحو التالي : شوربة ، سمك طازج أو مملح ، طبقان من الخضار. فإذا تقرر مد فترة الصيام عن اللحم ، فيزداد عدد الأطباق إلى خمسة تكون على النحو التالي : شوربة ، وصنفان من السمك ، وطبقان مختلفان من الخضار. ويضاف إلى ذلك الخبز صباحا ومساء ." ويضاف إليها كذلك الكوفينت kofent وهي بيرة خفيفة.وقد يقول قائل إن قائمة الطعام هذه قائمة طعام عمال حرفيين، خالصة لأهل المدن دون أهل الريف. ولكننا نعلم عن منطقة أوبرهيرجهايم Oberhergheim في الألزاس في عام ١٤٢٩ أن الفلاح الذي كان يكلف بالسخرة ، إذا لم يكن يريد أن يأكل مع الآخرين في المزرعة، تحت إمرة الخولي أو الماير Maier، كان على الخولي أن " يرسل إليه في بيته قطعتين من اللحم العجالي المطبوخ ، وقطعتين من اللحم المشوي ، ومكيالاً من الخمر، وما قيمته فينكان من الخبز (والفينك واحد من مائة من المارك الألماني)"(٢٨). ولدينا شواهد أخري في هذا الموضوع . فهذا رجل أجنبي طُلَعَة يلاحظ في باريس في عام ١٥٥٧ " ان لحم الخنزير هو الطعام الشائع بين الفقراء، الذين هم حقا فقراء، أما العمال الحرفيون ، والتجار ، فمهما كان دخلهم من الضيق ، فقد كانوا يحبون أن يأكلوا في أيام السعة لحم الحجل ولحم التيس البري شأنهم في ذلك شأن الموسرين"(٢٩).

ومامن شك في أن الأغنياء الذين نقرأ شهاداتهم ، ليسوا بالشهود العدول، فهم ينكرون على الفقراء أدنى ترف يتيحونه لأنفسهم ، خاصة وأن السعي إلى ترف في أمرٍ، يؤدي إلى تحري الترف في الأمور الأخرى ، وهذا هو توانو أربو Thoinot Arbeau يكتب في عام ١٥٨٨ :" لم يعد هناك عامل لا يحب أن يزفه يوم عرسه موسيقيون يعزفون على زمامير الأوبوا وأبواق الساكبوت المربعة " (٣٠).

والموائد المثقلة بأصناف اللحوم تتيح لنا أن نفترض وجود عمليات إمداد منتظمة منطلقة من المناطق الريفية ، والجبلية القريبة (الأقاليم السويسرية المسماة بالكانتونات). وكانت هناك مناطق أخرى في شرق أوروبا ، في پولندة ، والمجر ، والبلقان، تورد إلى ألمانيا وشمال ايطاليا حتى القرن السادس عشر ، ماشية نصف برية ، تسيِّرها على أرجلها إلى الأسواق . وما كان الناس يدهشون في بوتشتيت Buttstedt، هذه السوق الألمانية العظمى للبهائم، قرب ڤايمار Weimar، عندما يرون " قطعانا هائلة من البقر تبلغ ١٦ ألف رأس ، أو قد تصل إلى عشرين ألف رأس " تفد على أرجلها دفعة واحدة(٣١). أما البندقية فكانت قطعان ماشية شرق أوروبا تصل إليها بطريق البر، أو بطريق النقل البحري ، مرورا بالمحطات البحرية في دالماسيا ، فكانت البهائم تستريح في جزيرة ليدو Lido ، التي كانت علاوة على ذلك تستخدم كمنطقة لمناورات المدفعية، وللحجر الصحي تساق إليها السفن المشتبه فيها . أما السقط الذي يتخلف عن الذبح، وبخاصة الكرشة والمصارين ، فكانت الطعام اليومي الشائع لفقراء مدينة البندقية ، مدينة القديس مرقس، سان ماركو . ونقرأ في الوثائق أن جزاري مارسيليا اشتروا في عام ١٤٩٨ خرافا من أماكن بعيدة ، حتى لقد وصلوا إلى سان فلور Saint Flour في منطقة الأوڤرنيا Au-vergne . ولم يكونوا يستوردون من هذه المناطق البعيدة البهائم فحسب، بل كانوا يستقدمون منها الجزارين كذلك : ففي مدينة البندقية في القرن الثامن عشر كان الجزارون ، في كثير من الأحيان ، من أهل جبال الجريزون السويسرية، وكانوا يقولون عنهم أنهم غشاشون ، يسارعون إلى غش الناس في الأسعار عندما يبيعونهم السقط، والكرشة، والمصارين . ومن ربوع البلقان كان أهل ألپانيا ، ومن بعدهم أهل اپيروس اليونانية، يهاجرون ليعملوا في الجزارة ، وبيع السقط ، والكرشة ، والمصارين، وظلوا على هذه الحال حتى أيامنا هذه ، وربما حملتهم الهجرة إلى أماكن نائية (٣٢).

وليس من شك في أن أوروبا عرفت من عام ١٣٥٠ إلى عام ١٥٥٠ فترة من الحياة " الفردية " السعيدة ، فقد أصبحت اليد العاملة نادرة ، غداة الطاعون الأسود الذي حصد من الأرواح ما حصد ، وإذا ظروف البحث عن عمل تصبح يقيناً ظروفاً مواتية لكل إنسان أتيحت له القدرة على العمل ، وكانت الأجور " الحقيقية " آنذاك مرتفعة على نحو لم يحدث من قبل قط . ونحن نقرأ أن القائمين على الأوقاف الدينية في نورمانديا كانوا

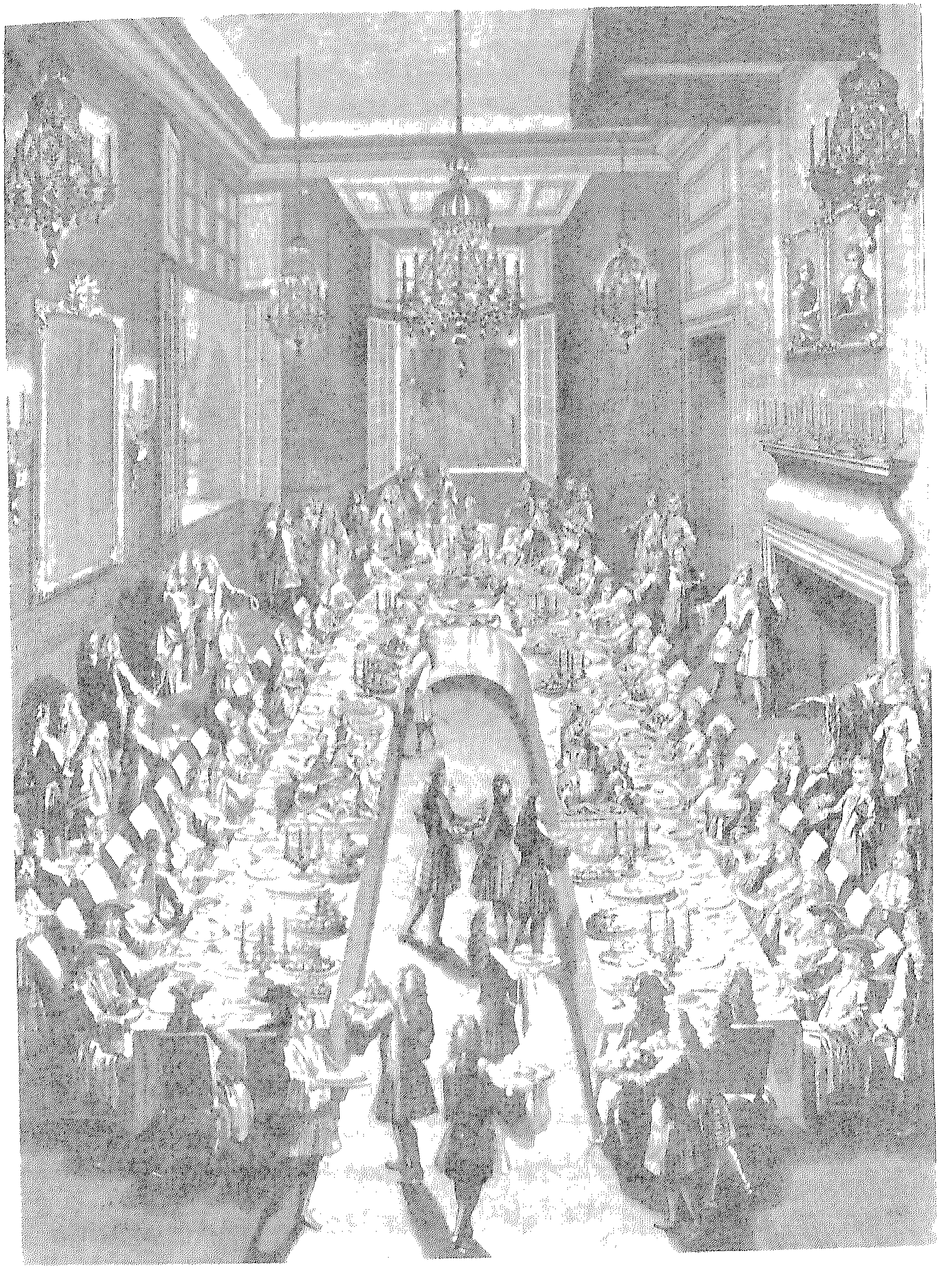

وليمة أقامها في باريس دوق ألبا ابتهاجا بمولد أمير أستوريا، في عام ١٧٠٧. رسم بالحفر من أعمال ج. سكوتان الكبير G.I.B.Scotin .

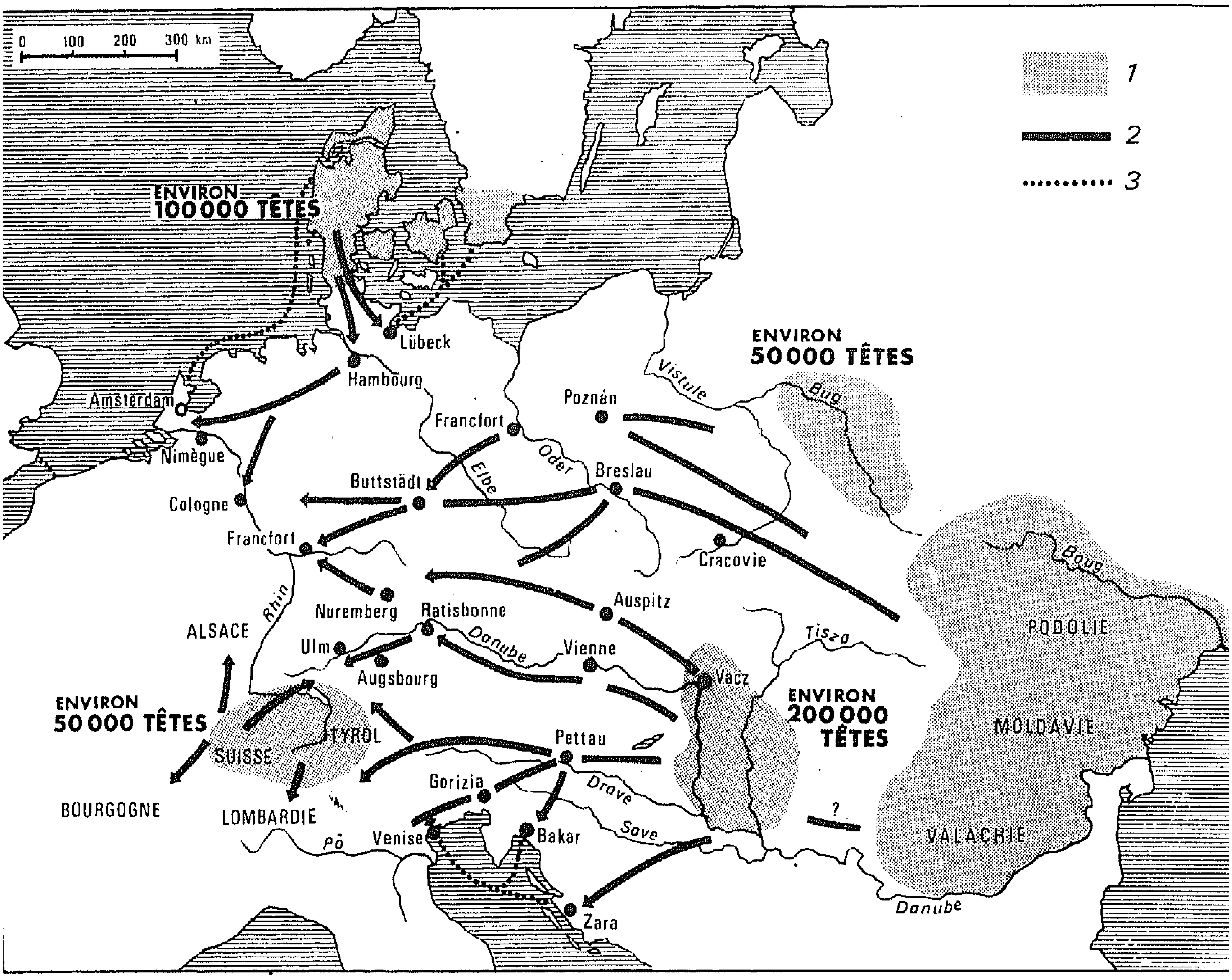

٢٠ـ تجارة الماشية الكبيرة في شمال أوروبا وشرقها حول عام ١٦٠٠

١ـ منطقة تربية ٢ـ طريق بري ٣ـ طريق بحري. مدينة باكار Bakar هي مدينة بوكاري القديمة Buccari. كانت تجارة الماشية الكبيرة ، حول عام ١٦٠٠، تجارة واسعة مذهلة، تنقل بطريق البر والبحر الى أوروبا الوسطى والشرقية أعدادا من الماشية تقدر بأربعمائة ألف رأس. أما أسواق الماشية في باريس في عام ١٧٠٧ (انظر المجلد الثاني، الباب الأول فكانوا يبيعون في العام نحو سبعين ألف رأس ، وهذا دليل على أن هذه التجارة الخارجية التي كانت تحمل بضائعها إلى مسافات بعيدة كانت نشاطا يضاف الى الأنشطة التجارية المحلية والاقليمية التي كانت تغطي الجانب الرئيسي من استهلاك اللحم في أوروبا .

يشكون من أنهم لا يجدون لفلاحة الأرض " رجلا يرضى بأجر يقل عما كان يتلقاه ستة من العمال في مستهل القرن "(٣٣). هذا هو التناقض الذي ينبغي أن نشدد عليه، فقد راودت البعض فكرة مبسطة ساذجة تصور لهم أن الإنسان كلما رجع إلى الوراء من الحاضر إلى الماضي نحو العصر الوسيط ، اقترب أكثر فأكثر من البؤس والشقاء. والحق أننا إذا تصدينا للحديث عن مستوى الحياة " الشعبي " ، أعني مستوى حياة غالبية البشر،

الجزار يعرض اللحم معلقا على خطاطيف وموضوعا على مناضد. في هولندة في القرن السادس عشر. هل صحيح أن زبائنه كانوا من البورجوازيين فقط ؟ رسم بالحفر . (مجموعة ڤيوليه ، Viollet)

وجدنا أن العكس هو الصحيح. وإليك هذه المعلومة الجزئية التي لها دلالة لامراء فيها: كان الفلاحون والحرفيون في منطقة اللانجدوك بفرنسا قبل عام ١٥٢٠ - ١٥٤٠ يأكلون الخبز الأبيض(٣٤)، ثم أصابهم التدهور بعد ذلك ، وأخذ هذا التدهور يتزايد كلما اتجهنا من خريف العصرالوسيط نحو منتصف القرن التاسع عشر، بل لقد استمر التدهور في بعض مناطق أوروبا الشرقية، وبخاصة في البلقان حتى في قلب القرن العشرين.

تناقص نصيب الفرد من اللحم ابتداءً من عام ١٥٥٠

بدأت ألوان من التضييق تظهر في الغرب منذ منتصف القرن السادس عشر. وهذا هو

في بيت من بيوت الفلاحين في النصف الثاني من القرن السابع عشر. يتناولون وجبة قوامها طبق واحد خال من اللحم. وكانت هناك أحوال أكثر سوءاً ، في هولنده أيضاً ، حيث كان الأشد فقرا يأكلون وجبة من العصيدة دون ما سواها (راجع في الباب الثاني من هذا المجلد صورة تمثل هذه الحالة البائسة في عام ١٦٥٣) . لوحة بريشة الرسام إيجبرت فان هيمسكيرك Egbert van Heemskerck (١٦٣٤ أو ١٦٣٥ ـ ١٧٠٤).

هاينريش موللر Heinrich Mûller من أهل منطقة شفابيا بألمانيا يكتب في عام ١٥٥٠: " كان الأكل على مائدة الفلاحين فيما مضى غيره اليوم ، كانت اللحوم وما إليها من المأكولات متوفرة كل يوم، وكانت الولائم التي تقام في الأعياد والموالد والمناسبات، تنوء تحت أطعمتها الموائد المتينة . أما اليوم فقد تبدلت الأحوال. أصبحنا منذ سنوات في زمن كثر فيه البلاء، واشتد الغلاء. وهؤلاء هم الفلاحون من ذوي اليسار يأكلون طعاما يكاد

يكون أسوأ من طعام الأجراء أو الخدم بالأمس " (٣٥). ولقد أخطا المؤرخون عندما غفلوا عن هذه الشواهد المتواترة ، وأصروا على أن يروا فيها تعبيرا عن حاجة الإنسان المَرَضية إلى امتداح العصور الماضية التي يهفو إليها ، والتغني بها . ولكن استمع إلى فلاح هرم من أبناء إقليم بريتانيا في فرنسا يقول في عام ١٥٤٨ : " أين يا أيها الرفاق ذلك الزمان ، الذي كان من العسير أن تمر فيه مناسبة، مهما كانت بسيطة ، دون أن يدعو الواحد من أبناء القرية أهل القرية ، جميعا ، ليأكلوا معه دجاجته، وجامبونه ، وحلّوفه، وخروفه الأول ، وخنزيره الصغير .." (٣٦). وإليك ما كتبه نبيل نورماندي في عام ١٥٦٠ : " في أيام والدي كنا نأكل كل يوم لحما ، وكان الأكل لدينا وفيرا ، وكنا نشرب النبيذ بلا حساب كأنه ماء " (٣٧). ويكتب شاهد آخر أن " الناس في القرى [الفرنسية، قبل الحروب الدينية] كانوا أغنياء ، خزائنهم عامرة بالخيرات، وبيوتهم مؤثثة بالكثير من الأثاث، وحظائرهم مليئة بالطيور والماشية، حتى لتكاد تظنهم من النبلاء " (٣٧). ولكن الأحوال تغيرت كل التغير . فكان على عمال مناجم النحاس في مانسفيلد بمنطقة سكسونيا العليا بألمانيا ، حول عام ١٦٠٠ ، أن يقنعوا بالخبز، وعصيدة الشوفان، والخضروات طعاما ، لأن أجورهم لم تكن تتيح لهم أفضل من ذلك . وكان عمال النسيج في مدينة نورنبرج الألمانية ، الذين نعموا بميزات كثيرة من قبل ، يشكون في عام ١٦٠١ من أنهم لم يعودوا يتناولون لحما سوى ثلاث مرات في الأسبوع، على الرغم من أن اللوائح كانت تعطيهم الحق في تلقي اللحم كل يوم من المعلم الذين يعملون تحت إمرته. ورد المعلمون على شكوى العمال قائلين إن مبلغ الستة كرويتسر Keuzer المخصص لإطعام كل عامل لم يعد يكفي لملء كروش العمال باللحم كل يوم(٣٩).

وأصبحت الحبوب منذ ذلك الحين تحتل مكان الصدارة في الأسواق . وارتفعت أسعارها ارتفاعا مسرفا، وعزّت النقود التي كان يمكن أن يشتري الناس بها الكماليات. وأخذ استهلاك اللحم يتناقص على مدى طويل ، واستمر هذا التناقص، كما ذكرنا من قبل، حتى عام ١٨٥٠ تقريبا. كان التراجع في استهلاك اللحم تراجعاً غريباً حقاً، وإن عرف حالات استثنائية، توقفت فيها مسيرته الهابطة ، أو انقلبت إلى شيء من الزيادة . فقد شهدت ألمانيا غداة حرب الثلاثين عاما (من ١٦١٨ الى ١٦٤٨) فترة استعادت فيها الثروة الحيوانية قوتها، حيث وجدت الحيوانات لها مرتعا خصبا في بلد خلا في كثير من ربوعه من السكان، نتيجة لأحداث الحرب . كذلك شهدت الفترة من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٨٠ في بعض مناطق هامة في نورمانديا الفرنسية، مثل أوج Auge وباسان Bassin، تحولاً متزايداً من زراعة الحبوب إلى تربية الماشية، نظرا للارتفاع المستمر في ثمن اللحم ، والانخفاض المستمر في ثمن القمح، وظل هذا التحول على الأقل إلى بداية أزمة العلف الكبيرة في عام ١٧٨٥ : وكانت النتيجة المنطقية زيادة البطالة بين صغار

الفلاحين، وتحول أعداد كبيرة منهم إلى التسول ، والتشرد ، وكان الفلاحون آنذاك يعانون من تزايد سكاني وخيم العواقب ...(٤٠) . ولكن هذه الفترات لم تكن تدوم طويلا، فقد كانت حالات استثنائية ، والحالات الاستثنائية لا تنال من القاعدة . كان الناس قد تملكهم جنون ، أو هوس بالزراعة ، وبالقمح ، وظل هذا الجنون، وهذا الهوس قائمين ، وكأنهما كانا يتشبثان بحقوقهما. وقل اهتمام الناس بتربية الماشية ، فقل اللحم، وقل الذبح ، وقل عدد الجزارين . والحق أننا نلاحظ أن عدد الجزارين ظل يتناقص في مدينة مونپيزا Montpezat الصغيرة ، بإقليم كيرسي السفلى Bas-Quercy، كان عددهم ١٨ في عام ١٥٥٠، وأصبح ١٠ في عام ١٥٥٦ ، و٦ في عام ١٦٤١ ، و٢ في عام ١٦٦٠، و١ في عام ١٧٦٣ ... وحتى إذا كان عدد السكان قد انخفض هناك في أثناء هذه الفترة ، فإن نسبة التناقص الكلية لا يمكن أن تكون ١٨ إلى ١(٤٢).

وتبين الأرقام التي بين أيدينا عن باريس في الفترة بين عام ١٧٥١ و عام ١٨٥١ أن استهلاك الفرد من لحم الذبائح كان يتراوح بين ٥٢ و ٦٥ كجم للفرد ، ولكن باريس حالة خاصة، باريس هي باريس . نتبين هذا الوضع الخاص عندما نراجع أرقام لاڤوازييه Lavoisier، الذي قدر الاستهلاك من اللحم للفرد الواحد في باريس تقديراً عالياً هو ٧٢,٦ كجم في مستهل الثورة الفرنسية في الوقت الذي قدر فيه متوسط استهلاك الفرد على مستوى فرنسا كلها في الفترة نفسها بـ ٤٨,٥ رطلا فرنسيا (الرطل الفرنسي كان يساوي آنذاك ٤٨٨ جراما) أي ٢٣,٥ كجم ، وهذا رقم اعتبره الباحثون الذين علقوا عليه رقما متفائلاً(٤٢). كذلك كانت الحال في مدينة هامبورج الألمانية في القرن الثامن عشر، وهي مدينة قريبة من الدنمرك ، تكاد تقع على أبوابها ، وكانت الدنمرك مصدرا للحوم ؛ كان استهلاك الفرد سنويا من اللحم في هامبورج يصل إلى ٦٠ كجم (منها ٢٠ كجم فقط من اللحم الطازج) ، أما ألمانيا في مجموعها في مطلع القرن التاسع عشر ، فقد كان استهلاك اللحم فيها أقل من ٢٠ كجم للفرد سنويا (مقارنا بـ ١٠٠ كجم للفرد سنوياً في أواخر العصر الوسيط) (٤٣) . وتبقى الحقيقة الأساسية متمثلة في التفاوت بين المدن المختلفة (كانت باريس تنعم مثلا بامتياز واضح بالقياس الى المدن الأخرى ، حتى في عام ١٨٥١)، والتفاوت بين المدينة والريف. وهناك عبارة واضحة قالها في عام ١٨٢٩ رجل تابع ما يجري حوله بنظرة ثاقبة : " في تسعة أعشار فرنسا لا يأكل الفقراء وصغار المزارعين اللحم إلا مرة في الأسبوع، ثم إنهم لا يأكلون اللحم الطازج، وإما يأكلون اللحم المملح " (٤٤) . (وكانوا يحفظون اللحم بتمليحه، وكان اللحم المملح بطبيعة الحال أقل قدراً من اللحم الطازج .)

عندما أهل نجم العصر الحديث، وسار مسيرته التي تحسب بالقرون، كان التفوق الأوروبي في استهلاك اللحوم قد أخذ يتدهور ويسير من سيء إلى أسوا، وظل الوضع

على هذه الصورة ، إلى أن ظهرت الأساليب الناجعة الفعالة في منتصف القرن التاسع عشر، فأصلحت ما فسد من أمره ، بما أخذت به من تعميم للمراعي المزروعة، وتطوير لطرق تربية الماشية ، واستغلال لإمكانات تربية الماشية التي أتيحت في العالم الجديد البعيد . ومعنى هذا أن أوروبا ظلت زمنا طويلا في ربقة الجوع ، ففي منطقة بري Brie الفرنسية، في عام ١٧١٧ نجد أن أراضي زمام ضرائب ميلون Melun البالغة ١٨٨٠٠ هكتار - بمقاييسنا الحالية - كانت تضم ١٤٤٠٠ هكتار صالحة للزراعة، ومساحة لا تذكر من المراعي الطبيعية تقدر بـ ٨١٤ هكتارا ، فكأنما لم تكن هناك مراع، ولم تكن هناك بالتالي ماشية تنتج اللحم . أضف إلى ذلك أن المزارعين لم يكونوا آنذاك يسارعون إلى الوفاء باحتياجات استغلال أراضيهم ، إلا ما لا محيص عنه، فكانوا يبيعون العلف في باريس مقابل سعر جيد (وكان العلف مطلوبا في العاصمة الفرنسية لإطعام الخيول

بيع اللحم المملح . صورة من كتاب " تقويم الصحة " الذي نقل من العربية إلى اللاتينية وانتشر في أوروبا في مخطوطات وطبعات مصورة، وكان اسمه باللاتينية Tacuinum sanitatis in medicina (مطلع القرن الخامس عشر) .

الكثيرة) . ولا جدال في أن الأراضي المزروعة كانت تعطي، إذا صح المحصول، ما بين ١٢ و١٧ قنطارا فرنسيا للهكتار الواحد ، ولذلك فقد كان من المستحيل أن يقاوم الفلاحون هذا الإغراء ، وأن يفضلوا زراعة القمح على تربية الماشية (٤٥).

لم يكن تراجع استهلاك اللحم بدرجة واحدة في كل مكان ، بل كان، كما سبق أن ذكرنا، متفاوتا ، فنراه في الربوع المطلة على البحر المتوسط أشد حدة منه في المناطق الشمالية الغنية بالمراعي الطبيعية اليانعة . ويبدو أن أهل هذه المناطق الشمالية، من بولنديين، وألمان ، ومجر ، وإنجلترا ، كانوا أقل من غيرهم اضطراراً إلى التضييق على أنفسهم في استهلاك اللحم . بل لقد شهدت انجلترا في القرن الثامن عشر زيادة في الإنتاج الزراعي، تضمنت زيادة في إنتاج اللحم، أو ما سمي ثورة حقيقية في إنتاج اللحوم ، داخل إطار ثورة زراعية واسعة النطاق . وهذا هو السفير الأسباني في لندن يرى المعروض من اللحوم في سوق ليدن هول Leaden Hall في عام ١٧٧٨ فتأخذه الدهشة ويقول : " إنهم يبيعون هنا من اللحم في شهر واحد أكثر مما تستهلكه أسبانيا كلها في عام كامل ." ومع ذلك فإننا نلاحظ حتى في بلد مثل هولندة ، حيث كانت الجرايات " الرسمية " كبيرة(٤٦)، وإن لم يكن مستحقوها يحصلون عليها كاملة ، أن طعام الناس كان طعاما يفتقر الى التوازن، وأنه ظل كذلك إلى أن دخلت عليه بعض التحسينات في نهاية القرن الثامن عشر: كانت الجراية المقررة تتكون من الفاصوليا ، وقليل من اللحم المملح ، والخبز (المصنوع من الشعير أو الجاودار) ، والسمك ، وقليل من شحم الخنزير، ومن لحم الصيد أحيانا ... وكان لحم الصيد يناله الفلاحون ، أو السيد صاحب الإقطاعية، أما فقراء المدن فلم يكونوا يعرفون عنه شيئا : " كان هؤلاء الفقراء يأكلون السلجم (وهو نوع من البنجر الأبيض يؤكل مطبوخا)، والبصل مقليا، والخبز الذي ربما كان جافا أو متعفنا " ، أو خبز الجاودار اللزج ، والبيرة الخفيفة التي كانوا يسمونها البيرة الصغيرة la petite boère (فقد كانت البيرة القوية بما فيها من مزيد من الكحول، والتي كانوا يسمونها البيرة المزدوجة أو البيرة الدوبل la double من نصيب الأغنياء والسكيرين دون سواهم). وكان سكان المدن أو البورجوازيين الهولنديون يعيشون حياة ضيقة ، لايجادل مجادل في أن أكلتهم القومية ، الهوتسبوت hutsepot، كانت تضم شيئا من اللحم، اللحم البقري أو لحم الضأن، ولكنه كان لحما مفريا ناعما، يقترون في استخدامه أي تقتير. وكانوا في المساء يتناولون عشاء عبارة عن فتة يستخدمون فيها ما تخلف من الإفطار والغذاء من خبز، يفتونه في اللبن(٤٧). ثم جاء يوم بدأ فيه الأطباء يتجادلون فيما إذا كان أكل اللحم يفيد الصحة أو يضر بها، وهذا هو لوي ليميري Louis Lemery يقول في عام ١٧٠٢ مقالة الحكيم : " أما أنا، فالرأي عندي - دون أن أدخل في كل هذه المناقشات التي تبدو لي عقيمة - أن أكل لحم الحيوانات يمكن أن يكون ملائما للصحة شريطة أن يكون في حدود الاعتدال..." (٤٨).

وواكب تقلص نصيب الفرد من اللحم عامة، تزايد واضح في استهلاك اللحم المدخن أو المملح. ولقد تحدث ڤرنر زومبارت Werner Sombart، حديثا لا يجافيه الحق، عن زيادة كبيرة، أو ثورة في الأطعمة المملحة ، تلك الأطعمة التي دخلت منذ القرن الخامس عشر مجال تغذية أطقم البحارة العاملين على السفن . وانظر إلى منطقة البحر المتوسط ترى أن السمك المملح، والخبز الملدن المقدد التقليدي يعتبران المكونين الرئيسين لطعام بحارة السفن في عرض البحر . وقد بدأ هذا التحول إلى الأطعمة المملحة في ميناء قادس الإسبانى المطل على المحيط الأطلسي الشاسع ، الذي كان البحارة فيه يعتمدون في طعامهم على اللحم البقري المملح وحده دون ما سواه . وأصبحت قادس هي مركز اللحم البقري المملح للبحارة ، لا يكاد ينازعها فيه منازع ، اللحم الذي سمي الباكا سالاد vaca salada، الذي كانت القيادة الأسبانية تقوم على تموينه منذ القرن السادس عشر. وكانوا يجلبون اللحم المملح من الشمال ، خاصة من إيرلندة التي كانت تصدر كذلك الزبد المملح. ولكن قيادة البحرية لم تكن هي الوحيدة التي تلعب دورا مؤثرا في هذا التحول، ففي الوقت الذي أصبح فيه أكل اللحم ترفا ، أصبحت الأطعمة المملحة بصفة عامة طعام الفقراء (ومن بينهم العبيد السود في أمريكا). وكان الناس في إنجلترا إذا انتهي الصيف، وجاء الشتاء ، وعز الطعام الطازج " يأكلون اللحم البقري المملح الذي أصبح الأكلة الشائعة في الشتاء " saltbeef was the standard winter dish. أما في منطقة بورجونديا في القرن الثامن عشر " فقد كان لحم الخنزير المملح يمثل الجزء الأكبر من اللحوم التي يستهلكها الفلاحون . أما اللحم الطازج فكان ترفا يؤْثرون به الناقهين، وكان ثمنه مرتفعاً ارتفاعا يجعل من الصعب على الناقهين أن يشتروه بصفة دائمة"(٤٩). وإليك إيطاليا وألمانيا التي كان باعة السجق الجائلون Wursthändler فيهما جزءا لا يتجزأ من الصورة العامة للمدن هناك . كان اللحم البقري المملح ، و - بقدر أكبر - لحم الخنزير المملح يمثلان نصيب فقراء أوروبا من اللحم ، وهو نصيب ضئيل ؛ هكذا كانت الحال من نابلي إلى هامبورج ، ومن فرنسا إلى مشارف سان بطرسبرج .

وليس من شك في أن هذه القاعدة كانت لها استثناءات، وكان الاستثناء الرئيسي الكبير من نصيب الانجليز الذين قال پ . ج . جروسلي P.J.Grosley عنهم في عام ١٧٧٠ " إنهم لا يعيشون إلا على اللحم ، وإن ما يأكله الفرنسي من خبز في يوم واحد قد يكفي أربعة من الإنجليز " (٥٠)، والجزيرة البريطانية في رأيه هي البلد " المتقدم" الوحيد في أوروبا الذي يتسم بهذه السمة ، ولكنها تشترك فيها مع كثير من المناطق المتخلفة نسبيا . ففي عام ١٦٥٨ قالت الآنسة دي مونپانسييه de Montpansier عن فلاحيها في منطقة دومب Dombes: " إنهم يلبسون الجيد من الثياب ، وإنهم لم يدفعوا [قط] ضريبة الفردة، وإنهم يأكلون اللحم أربع مرات كل يوم "(٥١) ، وهذا كلام ينبغي

أن يقام الدليل عليه، ولكنه ممكن لأن منطقة دومب الممتدة شمالي مدينة ليون كانت في القرن السابع عشر منطقة غير صحية ، كثيرة البرك والمستنقعات التي ردمت فيما بعد ، وكانت آنذاك بَرِيَّةً وحشية، تمرح فيها الحيوانات، كانت مثل هذه المناطق التي لا يحكم الانسان عليها قبضته، مناطق تنتشر فيها الحيوانات البرية، والمدجنة . ومن المحتمل أننا، أبناء القرن العشرين، نتصور الطعام العادي في مدينة ريجا Riga في عصر بطرس الأكبر ، أو في بلغراد في زمان الرحالة الفرنسي تاڤيرنييه Tavernier (١٦٠٥ ـ ١٦٨٩) أفضل من الطعام العادي الذي كان الناس يأكلونه في برلين ، وڤيينا ، أو حتى باريس في هذا الوقت نفسه، وتاڤيرنييه هوالذي كتب عن مدينة بلغراد قائلا ان كل شيء هناك " ممتاز " على الرغم من " سعره الفاحش "، الخبز ، والنبيذ ، واللحم ، وأسماك القشر، والشبوط الهائلة التي يصيدونها من نهر الدانوب ، ونهر الساڤ (٥٢). ويدلنا هذا المثل على أن بعض البلاد التي لم تكن تدخل في عداد البلاد الغنية ، لم تكن من الناحية الإنسانية، أو من ناحية مستوى معيشة الإنسان، أكثر فقراً من البلاد الغنية. ذلك أن مستوى المعيشة يحكمه التناسب بين عدد البشر ، والموارد المتاحة لهم .

وتبقـــى أوروبـا

محظوظـــة ...

والحق إن أوروبا تظل محظوظة . حتى إذا أخذنا في الاعتبار هذه الجوانب التي انتقصت من حظ أوروبا ، فإنها تظل محظوظة . ويكفي أن نفكر في أحوال الحضارات الأخرى لنتأكد من صحة هذا الحكم . في عام ١٦٠٩ قال أحد الرحالة الأسبان: " لا يأكل الناس في اليابان إلا لحم الحيوانات البرية التي يصيدونها " (٥٣). أما في الهند فان السكان ينفرون، لحسن الحظ ، من كل أكل دخل فيه اللحم. وقد لاحظ أحد الأطباء الفرنسيين أن جنود خان المغول الأعظم أورينج زيب Aureng Zeb لايطلبون عادة في طعامهم الشيء الكثير : " فهم يطيبون نفساً ماداموا يحصلون على وجبتهم من الكشري kicheris، وهو خليط من الأرز والبقول يصبون عليه الزبد المقدوح ..." . وتصنع هذه الأكلة إذا أردنا الدقة من خليط من " الأرز، والفول ، والعدس يطبخ، ويمزج معاً" (٥٤).

كذلك كان اللحم طعاما نادرا في الصين، فليست هناك حيوانات، أو يكاد ألا يكون هناك حيوانات للذبح ، كان عندهم الخنزير الداجن، يربونه في البيوت على نفايات المائدة، وربما أطعموه شيئا من الأرز، وكانت هناك الطيور ، وغنيمة الصيد ، بل كان هناك أنواع من الكلاب ـ فيما يحكيه الأب دي لاس كورتيس P. de Las Cortes ـ كانوا يبيعونها في بعض محلات الجزارة ، أو يبيعونها على عتب بعض البيوت " مسلوخة نيئة أو مشوَّحة في الطاسة " ، وقد يبيعونها حية موضوعة في أقفاص، وكانوا هكذا يبيعون

صغار الخنازير، وصغار الماعز ، ولكن هذه الحيوانات القليلة ما كانت تكفي لإرضاء شهية شعب كامل لو كان حريصا على أكل اللحم. لم يكن اللحم في الصين - باستثناء مناطق المنغوليين الذين يأكلون لحم الضأن المسلوق طعاما رئيسياً - يقدم قط كطبق مستقل، بل كانوا يقطعون اللحم قطعا صغيرة جدا ، كاللقم ، أو يفرمونه أحياناً، وكان اللحم يدخل هكذا في صنف من الأكلات يسمونه تساى tsai يضم عددا لا يحصى من الأطباق الصغيرة التي تقوم على خلط اللحم، أو السمك بالخضروات ، والصلصات، والبهارات، وهي أطباق كانت تقدم - طبقاً للتقاليد - مع الأرز. وعلى الرغم من أن هذه الأطباق كانت تقوم على التفنن، والحساب الحكيم ، فإنها كانت تبدو للأوروبيين الذين نزلوا الصين فقيرة فقراً يثير دهشتهم . وهذا هو الأب دي لاس كورتيس يلاحظ أن المانداران - أهل الحل والعقد - الأغنياء أنفسهم ، عندما يشرعون في تناول الطعام " يلتقطون في البداية بعض قطع لحم الخنزير ، أو الدجاج ، أو غير ذلك من اللحم ، وكأنهم يفتحون بها شهيتهم[...] وتعتبر كمية اللحم التي يأكلونها ضئيلة إذا قيست بما هم عليه من الحسب، والغنى ، ولو حلا لهم أن يأكلوا من اللحم مثل ما نأكله نحن الأوربيين ، فإن كل أنواع اللحوم التي لديهم لن تكفيهم بحال من الأحوال [...] وما كان يمكن لتربة الصين، مهما أوتيت من خصب، أن تتيح من المرعى، والعلف ما ينتج اللحوم المطلوبة " (٥٥).

وإليك الرحالة الايطالي، ابن نابلي، جيميللي كاريري Gemelli Careri، الذي اجتاز الصين من كانتون إلى بكين، ذهابا وعودة في عام ١٦٩٦، أثار غيظه ما وجده من أطعمة نباتية في المطاعم ، قال عنها إنها طهيت طهياً رديئاً، وآثر أن يشتري بحسب ظروف المنطقة، والمعروض في الأسواق دجاجاً، وبيضاً، وطيور الدراريج، والأرانب، والجامبون، وطيور الحجل... (٥٦). وخرج مفكر أوروبي حول عام ١٧٣٥ بنتيجة عبر عنها بقوله : " الصينيون يأكلون أقل القليل من لحوم الحيوانات الكبيرة "وأردف يقول : " وهم لذلك يحتاجون لأرض أقل مساحة لإطعام الحيوان." ولدينا تفسيرات أخرى، كتبها بعد نحو أربعين سنة ، واحد من المبشرين ، كان يعمل في بكين ، وهي تفسيرات تتسم بقدر أكبر من الدقة، قال : " إن الزيادة السكانية الضخمة ، التي لم يدرك فلاسفة أوروبا المحدثين مغباتها ، ولم يدركوا عواقبها ، " تضطر الصينيين " إلى إغفال تربية البقر، وقطعان الماشية، لأن الأرض التي يتطلبها إطعام البقر وغيره من الماشية، هم بحاجة إليها لإطعام الإنسان ." والنتيجة التي نجمت عن افتقارهم إلى الحيوانات هي افتقارهم الى السماد الحيواني الطبيعي، وإلى اللحم الذي يحتاجون اليه للمائدة، وإلى الخيول اللازمة للحرب " ثم " هم يضطرون الى العمل الشاق ، وبذل المزيد من الجهد، وتشغيل عدد أكبر من البشر للحول على نفس الكمية من الحبوب التي تنتجها الأرض في البلاد الأخر "

ويخلص إلى هذه النتيجة : " مع الاحتفاظ بالنسبة والتناسب ففي فرنسا عشر بقرات في مقابل كل بقرة في الصين "(٥٧).

والأدب الصيني مليء بالشواهد التي تحمل نفس الدلالة . وهذا نص يصور الأحوال في زمن أسرة تسينج الحاكمة ، يتحدث فيه الأب إلى ضيوفه في زهو عن زوج ابنته فيقول:" منذ أيام قليلة جاء زوج ابنتي وقدم الي رطلين من لحم الوعل المجفف ترونها أمامكم في هذا الصحن ." ونقرأ عن جزار أنه كان معجباً كل الإعجاب بأحد الوجهاء، وقال عنه " إنه كان يمتلك من المال أكثر مما يمتلك الإمبراطور نفسه " ، وإن " بيته كان يمتليء بعشرات الأقارب وعشرات الخدم . وذكر دليله الأكيد على ثراء هذا الرجل فقال إنه " كان يشتري في العام ما بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ رطل من اللحم ، حتى إذا لم يكن يقيم ولائم أواحتفالات أو نقرأ عن وليمة أنها حوت الأصناف التي لا يليق أن تخلو منها الولائم عادة ، وهي : " عش السنونو ، والدجاج ، والبط ، وسمك الحبار ، وخيار كوانج تونج المر..." . ويتحدث نص عن أرملة شابة لعوب ، كثيرة النزوات ، ويعدد ما تطلبه من نفيس الطعام ، فهي تطلب في كل يوم ثماني " فينات " fen من عقاقير مختلفة، وتطلب اليوم بطة، وغداً سمكًا ، وبعد غد خضروات طازجة ، وبعد بعد غد حساء براعم البامبو، وربما طلبت البرتقال ، والخبز الملدن ، واللوتس ، والعصافير المحمرة ، وأبو جلمبو المملح ، ولم تنس بطبيعة الحال أن تطلب النبيذ ، وعلى وجه الخصوص " نبيذ المائة زهرة"(٥٨) . كان الصينيون حريصين على التفنن ، بل التفنن المفرط الغالي. وإذا كان الأوروبيون قد جانبهم الصواب في فهم ترف فن الطهي الصيني ، فقد كان السبب في ذلك أن الترف كان في عرفهم مرادفا للحم . ولسنا نجد من بين الرحالة الذين جاسوا خلال الصين من وصف لنا أكواما من اللحوم إلا أن تكون في بكين ، أمام قصر الامبراطور، وفي بعض الميادين هناك . وما كانت هذه الأكوام من اللحوم إلا لحوم صيد مجلوبة من تتاريا ، وكان برد الشتاء يحفظها من الفساد شهرين أو ثلاثة أشهر ، و " كانت رخيصة الثمن حتى أن الخنزير البري أو التيس كان يباع بقطعة من فئة الثمانية " (٥٩).

ونلاحظ قلة اللحوم، وبخاصة اللحوم الطازجة، وزهد الناس فيها، على النحو نفسه في تركيا، التي لم يقتصر فيها أكل اللحم البقري المجفف ، البسطرمة pasterme ، على الجنود في الحرب ، بل كان الكافة يأكلونه . كانت السراى تستهلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر كميات هائلة من لحم الضأن ، أما متوسط استهلاك الفرد في مدينة استانبول فكان يتراوح بين خروف كامل وثلث خروف في العام، وكانت استانبول مدينة متميزة ...(٦٠). أما في مصر ، التي كانت تبدو للوهلة الأولى صومعة غلال وفيرة، فقد كان الأتراك ـ على نحو ما كتب رحالة في عام ١٦٩٣ـ " يعيشون حياة كأنها زهد دائم . فما كان طعامهم ، حتى أولي اليسار منهم، يتكون إلا من الخبزالرديء، والثوم،

والبصل، والمش ؛ فإذا أضافوا إلى ذلك شيئاً من لحم الضأن المسلوق، كانت تلك وليمة عظيمة في نظرهم . وهم لا يأكلون على الإطلاق دجاجاً أو غيره من الطيور على الرغم من أنها رخيصة الثمن في مصر " (٦١).

وإذا كان تميز الأوروبيين في استهلاك اللحم قد أخذ يتضاءل في قارتهم الأوروبية، فقد عاد أدراجه من جديد بالنسبة لبعضهم في مناطق أخرى ، توفرت فيها اللحوم، وكأنها كانت ترد إلى الحياة عصراً وسيطاً حقيقياً جديدا ؛ كانت هذه المناطق في شرق أوروبا ، في المجر مثلا، وفي أمريكا المستعمرة، في المكسيك، والبرازيل (في وادي ساو فرانسيسكو الذي غص بقطعان الحيوانات البرية ، ونشأت فيه لصالح البيض، والمولدين حضارة لحوم حقيقية) وكانت في الربوع الجنوبية من أمريكا أكثر ازدهاراً، حول مونتڤيديو أو بوينوس أيريس، حيث كان الفرسان يذبحون ثوراً برياً ليأكلوه في وجبة واحدة ... كانوا يذبحون الحيوانات بغير حساب .. وإذا لم تكن هذه المذابح قد نالت في الأرجنتين من

لطائف المأكولات الصينية . رسم على الحرير .

الحيوانات البرية الطليقة التي كانت تتكاثر على نحو يفوق التصور، فإنها أدت إلى تبديد سريع للثروة الحيوانية في شمال شيلي؛ فلم يبق منذ نهاية القرن السادس عشر حول كوكويمبو Coquimbo من الحيوان سوى الكلاب التي ارتدت إلى حياة التوحش.

وسرعان ما أصبح اللحم المقدد المجفف في الشمس ، الذي كانوا يسمونه اللحم الشمسي carne do sol في البرازيل ، موردا غذائيا لسكان المدن الساحلية، وللعبيد السود العاملين في المزارع الكبيرة. أما الشاركوي charque، ذلك اللحم المشفي المقدد الذي كانوا يصنعونه في معامل التمليح في الأرجنتين (طعاما لعبيد أمريكا وفقراء أوروبا) فكان اختراعا متأخراً يرجع إلى بداية القرن التاسع عشر . وهذا رحالة منعم مرفه ركب الغليون في عام ١٦٩٦ في رحلة العودة من مانيلا إلى ميناء أكابولكو Acapulco المكسيكي ، وطالت الرحلة شهوراً وشهوراً ، وفي نهاية الشهر السابع أو الثامن اضطر إلى أن يأكل " في أيام اللحم شرائح اللحم البقري والجاموسي المقددة ..وكان عليه أن يضربها بخشبة لا تقل عنها صلابة حتى تلين قليلاً ، وتستطيع الأسنان مضغها ، ولم تكن الأحشاء تقوى على هضمها إلا إذا تجرع الإنسان معها شربة مسهلة قوية " ، وأحس الرجل كأن القدر قد حكم عليه حكماً عادلاً بالتكفير عما أسرف من قبل في أكل اللحم . وزاد من القرف الذي اعتراه ، كما كان يعتري آكلي هذا اللحم المقدد، أن أسراباً من الدود كانت ترعى فيه وتمرح ، وتزيده بشاعة على بشاعة . وحاجة الإنسان إلى اللحم ، وسعيه إليه لا يخضع ، على ما يبدو ، لقوانين ، بل ليس له قوانين البتة . فربما نفر قراصنة جزر الأنتيل من لحم القرود ، ولكنهم كانوا يأكلونه ، وكانوا يفضلون لحم القرود الصغيرة على الكبيرة ، لايفترقون في ذلك عن زنوج أفريقيا ، وكان اليهود الفقراء البائسون في روما يشترون لحم الجاموس ، وكانوا يلتمسونه من جزارات خاصة به ، لأن عامة الناس في روما كانت تنفر منه نفورها من كل شيء بشع . كذلك كانت الحال في مدينة إكس ان بروڤانس Aix-en-Provence الفرنسية التي لم تبدأ في ذبح البقر وأكله إلا حول عام ١٦٩٠ ، فقد أكثر الناس من التقول على هذا اللحم، لحم الحيوانات الكبيرة، وأشاعوا أنه ضار بالصحة (٦٣). وإليك هذا الرحالة الفرنسي الذي حكى عن الدنمرك ، وقد خالجه شعور بالتقزز إذ قال " إن لحم الخيل يباع هناك في السوق " (٦٤).

الإسراف في الطعام
أو جنون المائــــدة

تركز ترف المائدة الواسع في الحقبة التي أعقبت القرن الخامس عشر أو السادس عشر في نفر قليل من المحظوظين أصحاب الامتيازات . وكان هذا الترف يتخذ ، فيما يتخذه من أشكال مجنونة ، شكل المغالاة في الأطعمة النادرة ، التي كانوا يقدمون منها كميات

هائلة، حتى إذا انفضت الوليمة، أكل الخدم مما تخلف منها ، فإذا بقي شيء بعد ذلك، حتى ولو كان فاسداً ، حملوه إلى التجار ليبيعوه إلى زبائنهم . من قبيل هذا السرف: استيراد ترسة - سلحفاة بحرية - من لندن الى باريس ، " وكان طبق الترسة [في عام ١٧٨٢] يكلف ألف جنيه فرنسي من فئة الإيكو écus، وكان يكفي سبعة أو ثمانية من الأكولين ." ويمكن أن نذكر على سبيل المقارنة أن الخنزير البري المشوي على شواية الفحم كان يعتبر بالقياس إلى طبق الترسة أكلا عاديا جدا . ويحدثنا هذا الشاهد نفسه بما يؤكد هذا المعنى : " ولقد رأيته بعيني رأسي فوق الشواية ، كان شواء عظيما لايمكن أن يكون شواء القديس لوران Saint-Laurent أعظم منه (يحكي التاريخ الكنسي أن القديس لوران عذب بالحرق على الشواية) . ولقد أحاطوا الشواء بالفحم المستعر، وغزغزوه بالفواجرا foie gras وهي عجينة من كبد الأوز السمين ، ورشوا عليه دهونا خفيفة أشعلوها وحمروه بجذوتها ، ثم أمطروه بوابل من الخمورالمعتقة اللذيذة ، وقدموه على المائدة كاملا برأسه ..." (٦٥) ولم يذق المدعوون من لحمه شيئاً يذكر، وإنما كان الشواء مجرد تسلية من تسالي الأمراء . أما الملك ، والبيوتات العظيمة ، فقد كان المتعهدون يملأون جعبتهم بأطيب ما تعرضه الأسواق من لحم الجزارة ، ولحم الصيد والسمك. أما البضاعة الرديئة المتبقية ، والنقاضة ، فكان التجار يبيعونها بعد ذلك بأسعار أغلى من الأسعار التي تقاضوها من الأغنياء مقابل البضاعة الممتازة المنتقاة . بل كان التجار يفعلون ما هو أسوأ من ذلك وأقبح ، كانوا يبيعون إلى العامة دائما بضاعة مغشوشة . " كان جزارو باريس ، عشية الثورة الفرنسية ، يوردون إلى البيوتات الكبيرة أطيب ما في الذبيحة من قطع ؛ وكانوا يبيعون إلى الشعب ما هو دون ذلك ، ويضيفون إلى هذا اللحم الرديء قطعا من العظم يسمونها على سبيل التهكم " الحلويات". أما القطع البالغة الرداءة، النفاية، والسقط، الشغت، والكناسة ، فكانت طعام الفقراء ، وكانت تباع خارج محلات الجزارة.(٦٦).

وإليك أمثلة أخرى من الأطعمة النادرة : طيور صغيرة يسمونها برابر الجنايني، وعصافير القطاة : أكلوا منها ما قيمته ١٦٠٠٠ جنيه من فئة الليڤر في حفل زفاف أميرة كونتي Conti في عام ١٦٨٠(٦٧). وهذه العصافير التي عرف عنها أنها تهفو إلى الكروم ، كانت كثيرة في قبرص ، وكانت قبرص في القرن السادس عشره تخللها في الخل ، وتصدرها مخللة الى البندقية ، كذلك كانت توجد في إيطاليا ، وفي منطقة البروڤانس Provence ومنطقة اللانجدوك Languedoc (٦٨). كذلك كان عشاق الأطعمة النادرة يجلبون من دييب Dieppe أو من كانكال Cancale في شهر أكتوبر أنواعا من أم الخلول أو فاكهة البحر يسمونها الأستريديا ، يأكلونها طازجة أو " خضراء " ، وكذلك كانوا يلتمسون النادر من الفواكه ، فيجلبون الفراولة أو يتهافتون على الأناناس الذي كان

يزرع في صوبات في المنطقة المحيطة بباريس . وكان الأغنياء يعشقون الصلصات المعقدة، بل المعقدة أشد التعقيد ، التي كان صناعها يمزجون فيها كل ما يخطر ببال الإنسان من مكونات فريدة : الفلفل والتوابل واللوز والعنبر والمسك وماء الورد ... ولا ينبغي أن ننسى في هذا المقام طهاة منطقة لانجدوك الفرنسية الذين كانت لهم فنونهم المتقنة المعقدة ، وكان أرباب اليسار والسعة في باريس وغير باريس يعرفون قدرهم وأنهم أفضل الطهاة على الاطلاق ، ويطلبونهم للعمل ، وينقدونهم أجرهم ذهباً . فإذا تاق فقير إلى أن ينال نصيباً من ولائم الأغنياء ، فعليه أن يتفاهم مع الخدم أو أن يذهب إلى سوق ڤرساي التي كانوا يبيعون فيها نفاية المآدب الملكية ، وكان ربع سكان المدينة يعيشون على هذه النفاية ولايجدون في ذلك ما يخجلون منه : " وربما دخل إلى هذه السوق رجل من الوجهاء يتمنطق بالسيف ، فيشتري سمك موسى ، أو رأس السلمون، وما إلى ذلك من أطايب الطعام العزيز النادر "(٦٩). والعليم بالأكل ومصادره يعرف أنه يجد طعاما أشهى وأفضل في مطعم من مطاعم المشويات في شارع الهوشيت Huchette بالحي اللاتيني، أو جسرالكي دي لا ڤاليه quai de Vallé (سوق الدواجن ولحوم الصيد) حيث يستطيع أن يشتري ديكا سمينا مسبّكا، يخرجونه له من تلك " الحلة العمّالة " المعلقة في خطاف كبير ، التي ينضج فيها مع عدد كبير من الديكة السمينة المزغطة ، ويأخذه ساخنا إلى بيته ، أو " في مكان قريب على بعد أربع خطوات ، بعد أن يرشه بالنبيذ البورجوندي "(٧٠). ولكن الذي يشترى هذا اللون من الطعام، ويأكله على هذا النحو ، يسلك سلوك البورجوازيين.

المائدة ... ونظامها

والترف لا يقتصر على المأكولات ، بل هو أيضا المائدة وطقم السفرة، والفضيات ، والمفرش ، والفوط ، والشموع ، والإطار العام لحجرة السفرة . وقد عرفت باريس في القرن السادس عشر عادة استئجار بيوت جميلة ، أو التسلل إليها عن طريق التواطؤ مع الحراس ورشوتهم ، والتوصل بهذه الطريقة إلى إمتاع الأصدقاء بمائدة أعدها طاهي المدينة . وكان يحدث أحيانًا أن الضيف المتسلل يظل في البيت ، ولا يبرحه إلى أن يطرده صاحب البيت الحقيقي . ويحكي أحد السفراء (في عام ١٥٥٧) أنهم " أيام كنت في باريس أجبروا صاحب النيافة الأسقف سالڤياتي Salviati، القاصد الرسولي للفاتيكان، على الخروج من البيت الذي تسلل اليه ، ثلاث مرات في شهرين"(٧١).

وكما أن هناك بيوتا فاخرة ، كانت هناك فنادق فاخرة . وقد كتب مونتني Montaigne في عام ١٥٨٠ ، كنا ننزل في مدينة شالون Châlons (sur-Marne) في فندق لاكورون La Couronne - التاج - وهو فندق جميل ، يقدمون فيه الطعام في أوان مصنوعة من الفضة " (٧٢).

وليمة عرس قانا لوحة بريشة هيرونيموس بوش Hieronymus Bosch. متحف بويمانس فان بوينينجن في روتردام Boymans-Van Beuningen .

ولنلق الآن السؤال الذي يعبر عن جوهر المشكلة : " كيف ننسق المائدة تنسيقاً فاخراً إذا كان عدد من سيتناولون الطعام ثلاثين فرداً من علية القوم؟ ". نجد الإجابة على هذا السؤال في كتاب للطهي يحمل عنوانا لا نتوقعه على كتاب للطهي هو " مباهج الريف" Les Délices de la campagne من تأليف نيقولا دي بونيفون Nicolas de Bonnefons، ظهر في عام ١٦٥٤ ، والإجابة هي : يوضع أربعة عشر كوڤير على كل جانب من جانبي المائدة ، ولما كانت المائدة مستطيلة الشكل ، فلنا أن نضع " على رأس المائدة " كوڤير ، وعلى الناحية المقابلة " كوڤير أو اثنين " ، ونترك " بين كل ضيف والذي يليه مسافة خالية قدر عرض الكرسي " ، وينبغي " أن يتدلى المفرش فيمس الأرض من الجوانب الأربعة ، وأن يوضع في وسط المائدة عدد من الملاحات ، ومن حوامل الصحون وتتكون الوليمة من ثمانية أطباق متتالية، الطبق الثامن والأخير من " الفاكهة المقندة أو المسكرة أو من الفاكهة المربة " ، ومن الجيلاتي، ولقمة المسك، ومنين فردان ، والسكر المعطر بالطيب والعنبر . ويقوم الريس، وقد تمنطق بسيفه، بإعطاء الأوامر إلى السفرجية لتغيير الصحون " مرة على الأقل عند نزول كل طبق جديد، وتغيير الفوط مرة كل طبقين" . ولكن هذا الوصف الدقيق ، الذي يبين بدقة كيف يتم مبادلة أطباق الغَرْف على المائدة ، لايذكر كيف يوضع الكوفير أمام كل ضيف، وكان الكوڤير في ذلك العصر يضم على وجه اليقين صحنا وملعقة وسكينا ، وربما ضم شوكه لكل ضيف - وإن لم يكن هذا مؤكدا - ، أما المؤكد فإنه لم يكن يضم كوبا خاصا بكل مدعو ، ولا زجاجة توضع أمامه . كذلك لسنا متأكدين من قواعد السلوك، كيف كانت بالضبط، لأن المؤلف يوصي ، على سبيل التأنق ، بوضع صحن غويط لكل ضيف، حتى يغرف فيه مرة واحدة ، " ولا يكون عليه أن يتناول ملعقة وراء ملعقة من آنية الغرف، مما قد يثير قرف الطاعمين بعضهم من البعض الآخر."

لقد تكونت طريقة تنسيق المائدة ، وتكونت أساليب السلوك على المائدة ، شيئا فشيئا، بتفصيلاتها الكثيرة ، بحسب العرف ، وعلى نحو يختلف من منطقة الى منطقة أخرى . ويعتبر استخدام الملعقة والسكين من العادات القديمة نسبيا ، وإن لم ينتشر استخدام الملعقة على نطاق عام إلا في القرن السادس عشر ، كذلك الحال بالنسبة لتقديم سكاكين إلى المدعويين ، فقد كان المألوف أن يأتي كل واحد بسكينه معه. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن الكوب ، فلم يكن من المألوف وضع كوب أمام كل مدعو ، يكون خاصا به وحده ، وكانت قواعد السلوك المهذب القديمة تحض كل مدعو على أن يفرغ كوبه تماما، قبل أن يقدمه إلى جاره ليشرب منه ، وكان على هذا أن يفرغ الكوب أيضا قبل أن يقدمه الى جاره وهكذا . وربما كان من الممكن أن يطلب الضيف من السفرجي أن يأتيه من المطبخ أو من الخزانة الملاصقة للسفرة بالشراب الذي يرومه ، سواء كان ماء أو نبيذا

وحكى مونتني عن جنوب ألمانيا التي مر بها في عام ١٥٨٠ " أن كل واحد كان أمامه كوزه أو طاسه المصنوع من الفضة ، وكان القائم بالخدمة يحرص على أن يملأ الكوز كلما فرغ ، دون أن يرفعه من مكانه ، فكان يصب فيه النبيذ من علٍ، مستخدما إبريقا من القصدير أو الخشب له بزبوز طويل " (٧٢). وكان ذلك حلا جميلا ، يوفر الجهد ، ولكنه كان يتطلب أن يكون لكل "ضيف" طاسه الخاص به موضوعا أمامه. وفي ألمانيا، تلك التي يصفها مونتني، كان لكل ضيف صحنه الخاص به ، من القصدير أو الخشب، وربما وضعوا جفنة من الخشب ومن فوقها الصحن المصنوع من القصدير . ولدينا الدلائل على استعمال الصحون الخشبية، فقد بقيت إلى القرن التاسع عشر مستخدمة في بعض المناطق الريفية الألمانية، وغير الألمانية .

ولكن الضيوف ظلوا ، قبل إدخال هذه المبتكرات المحسنة المرفهة المتأخرة، يقنعون ردحاً من الزمن بصحاف خشبية، أو " قرمة من الخبز " ، كانت عبارة عن شريحة من الخبز يضع عليها الطاعم قطعة اللحم(٧٤). فكان هناك على المائدة صحنا كبيرا للغرف ، يضعون فيه كل الأكل، لكل الضيوف ، وكان كل واحد يمد أصابعه اليه ليتناول القطع التي تروق له ، ويضعها على شريحة الخبز أمامه . وذكر مونتني ، في معرض الحديث عن سويسرا، " أنهم هناك يضعون من الملاعق الخشبية ذوات المقابض الفضية بعدد الرجال [يعني ملعقة لكل شخص]، وليس هناك سويسري لايحمل معه سكينه، الذي يستخدمه في تناول كل شيء ، فليس من عادة السويسريين تناول الطعام من آنية الغرف باليد " (٧٥). ونحن إذا جلنا ببصرنا في المتاحف وجدنا فيها ملاعق خشبية بمقابض معدنية ، ليست بالضرورة من الفضة ، وسكاكين من مختلف الأشكال . والسكاكين والملاعق أدوات قديمة .

أما الشوكة فليست من الأدوات القديمة . ربما كانت الشوكة الكبيرة جداً ذات السنين التي استخدمت في تقديم اللحوم إلى الضيوف وفي تقليبها ونقلها فوق الفرن أو في المطبخ قديمة، أما الشوكة الفردية، التي يستخدمها كل طاعم بمفرده فليست قديمة، وإن كان هناك بعض الاستثناءات.

وترجع هذه الشوكة الفردية الى القرن السادس عشر ، وانتشر استخدامها في البندقية، ثم في ايطاليا، ومن هناك إلى خارج البندقية وخارج إيطاليا، انتشاراً بطيئاً. وربما وجدت معارضين لها، فقد تحدث أحد رجال الدين الألمان عنها في عظة من عظاته حديثه عن الترف الشيطاني : لماذا أنعم الله علينا بالأصابع اذا كان يرضى لنا أن نأكل بهذه الآلة؟ ولم يكن مونتني يستخدم الشوكة ، يدل على ذلك أنه يعيب على نفسه أنه يأكل بسرعة، حتى " إننى أعض أصابعي أحيانا من فرط السرعة ." ولكنه يذكر انه كان" يستعين قليلا بالملعقة والشوكة " (٧٨). ونقرأ فيما كتبه النبيل ديفيامون في عام

١٦٠٥ تفصيلات كثيرة عن فن الطهي التركي ، وعادات الأكل عند الأتراك، ويضيف : " وهم لا يستخدمون الشوكة مطلقا ، شأنهم في ذلك شأن اللومبارديين والفينيسيين ". ولكنه لا يقول : والفرنسيين ، وله في ذلك أسبابه . وإليك هذا الرحالة الانجليزي ، توماس كوريات Thomas Coryate ، الذي اكتشف في ذلك العصر الشوكة في ايطاليا ، فوجد فيها طرافة ، ثم استخدمها ، فاتخذه أصدقاؤه سخرية، وسموه " أبو شوكة " fu-furciferus(٧٧). فهل كان إقبال الطاعمين الأغنياء على ارتداء الحرملة هو الذي أجبرهم على استخدام الشوكة ؟ نحن نشك في ذلك. ولسنا نجد في انجلترا ، على سبيل المثال، قبل عام ١٦٦٠ ، شوكا في سجلات جرد التركات . ولن يشيع استخدام الشوكة إلا حول عام ١٧٥٠ . فقد استمرت الملكة آن دوتريش أو آن النمساوية، زوجة الملك لويس الثالث عشر Anne d'Autriche ، على عادتها في الأكل بيدها ،ومد أصابعها إلى صحون اللحوم (٧٨). وكان المألوف في بلاط فيينا ، على الأقل حتى عام ١٦٥١ ، أن يأكل الكبراء بأيديهم . ولنا أن نسأل عمن كان يستخدم الشوكة في فرنسا في بلاط الملك لويس الرابع عشر ؟ ربما دوق مونتوزييه Montausier الذي قال عنه سان سيمون Saint-Simon إنه كان يأخذ نفسه " بنظافة رهيبة ". أماالملك نفسه فلم يكن يستخدم الشوكة ، ويحدثنا سان سيمون نفسه بعبارات المدح والتقريظ عن الملك أنه كان يأكل بأصابعه ، بمهارة دونها كل مهارة ، طاجن الخضار المسبك بالطيور ragout de volaille وحدث أن دعا الملك إلى مائدة العشاء دوق بورجونديا وإخوته ، فمدوا أيديهم الى الشوك ، التي كانوا قد تعلموا كيف يستخدمونها ، فما كان من الملك الا أن منعهم من الأكل بها. وكانت الأميرة شارلوته اليزابت الألمانية الأصل، زوجة أخي الملك لويس الرابع عشر، المعروفة باسم البالاتين la Palatine أو البفالتسية، هي التي أوردت هذه القصة ، معبرة عن رضاها عن تصرف الملك ، مضيفة " أنها كانت دائما تأكل بأصابعها وبالسكين ... " (٧٩). كان الكبراء إذن يستخدمون أصابعهم دون الشوكة، وهذا ما يفسر لنا كثرة الفوط التي كانت تقدم إلى المدعوين الى المآدب في القرن السابع عشر ، حتى يمسحوا فيها أصابعهم ، ولم تبدأ الفوط في الانتشار في دور أولي اليسار إلا في عصر مونتني، كما يقول هو بنفسه (٨٠). وواكبتها عادة " غسل اليد" باستخدام الإبريق والطست، وكان الطاعمون يغسلون أيديهم عدة مرات في أثناء تناول الطعام.

آداب السلوك

تسير بخطى بطيئة

لم تمكّن هذه التحولات ، التي تمثل آداب سلوك جديدة ، لنفسها إلا ببطء. كان اتخاذ قاعة خاصة خالصة للطعام ترفا لم يصبح شائعا في فرنسا إلا إبان القرن السادس عشر،

عندما خصصت حجرات للطعام في بيوت أولي اليسار من الناس . وكان السادة قبل ذلك يأكلون في المطبخ الفسيح .

وتعتمد المراسم الاحتفالية لتقديم الوجبات على الخدم، وتتطلب زيادة أعدادهم في المطبخ، ومن حول الطاعمين ، ولم تكن تلك هي الحال في فرساي فقط ، حيث كان العمل يسير على قدم وساق في " المطبخ الكبير" ، و " المطبخ الصغير "، لإعداد الوجبة الملكية، أو " اللحوم الملكية " . ولم ينتشر هذا اللون من الترف في فرنسا في مجموعها إلا منذ مطلع القرن الثامن عشر. وكتب دوكلو Duclos حول عام ١٧٦٥: " لو عاد الموتى، الذين ماتوا قبل ستين عاما إلى الحياة ، فلن يعرفوا باريس لما تغير فيها من أمور المائدة والملابس والعادات " (٨١). وتنطبق هذه الكلمات على أوروبا كلها التي كان الترف قد تفشى في كل جنباتها ، وعلى المستعمرات التي كانت أوروبا دائبة السعي إلى زرع عاداتها فيها. ومن هنا فقد كان الرحالة الأوروبيون ينظرون نظرة التعالي، والاستخفاف الى عادات، وسلوك الناس في ربوع العالم الواسع . فهذا هو چيميللي كاريري يدهش من سلوك مضيفه الفارسي، وكان رجلا رفيع القدر يوشك أن يكون من السادة في قومه، وقد دعاه الى مائدته في عام ١٦٩٤ ، " فقد كان يستخدم يمناه ، بدلا من الملعقة، فيتناول بها الأرز ، ويضعه في صحن [الضيوف]" (٨٢). أو لنقرأ ما كتبه الأب لابا Labat في عام ١٧٢٨ عن العرب في السنغال : " ليست لديهم أي فكرة عن الأكل على المائدة ..." (٨٣). ولا يرحم هؤلاء الرحالة ، أو أصحاب الأحكام القاسية، إلا الصينيين، الذين يعرفون السلوك الرفيع ، ويجلسون إلى موائدهم، وعليها سلطانياتهم الخشبية المدهونة باللاكيه ، ويحملون في الحزام الذي يتنمنطقون به ، السكين ، وعُصيتين (لهما علبة خاصة)، ويستخدمونها في تناول الطعام . ويصف البارون دي توت de Tott حول عام ١٧٦٠ وصفًا فيه فكاهة ما شهده في استانبول عندما دعى لتناول الطعام في البيت الريفي للسيدة الترجمانة الأولى ، وكانت واحدة من طبقة اليونانيين الأغنياء العاملين في خدمة السلطان ، وكان هؤلاء اليونانيون قد اتخذوا العادات التركية ، ولكنهم كانوا يسعون إلى أن يكون لهم طابعهم المختلف ." كانت المنضدة لديها منضدة مستديرة، صفت من حولها الكراسي ، ووضعت عليها الملاعق والشوك ، لم ينقص شيء ، إلا معرفة أسلوب استعمالها . وكان المدعوون يجتهدون في اتباع عاداتنا في تناول الطعام ، لايهملون منها شيئا ، فقد كانت عاداتنا قد بدأت تحظى بالقبول لدي اليونان مثلما حظيت العادات الإنجليزية بالقبول عندنا ، ورأيت في أثناء تناول طعام العشاء امرأة تتناول الزيتون بأصابعها ثم تخز الشوكة فيه لتأكله بالشوكة على الطريقة الفرنسية " (٨٤).

ولكننا نجد في عام ١٦٢٤ لائحة نمساوية صادرة لدوقية الألزاس ، تبين لشباب الضباط

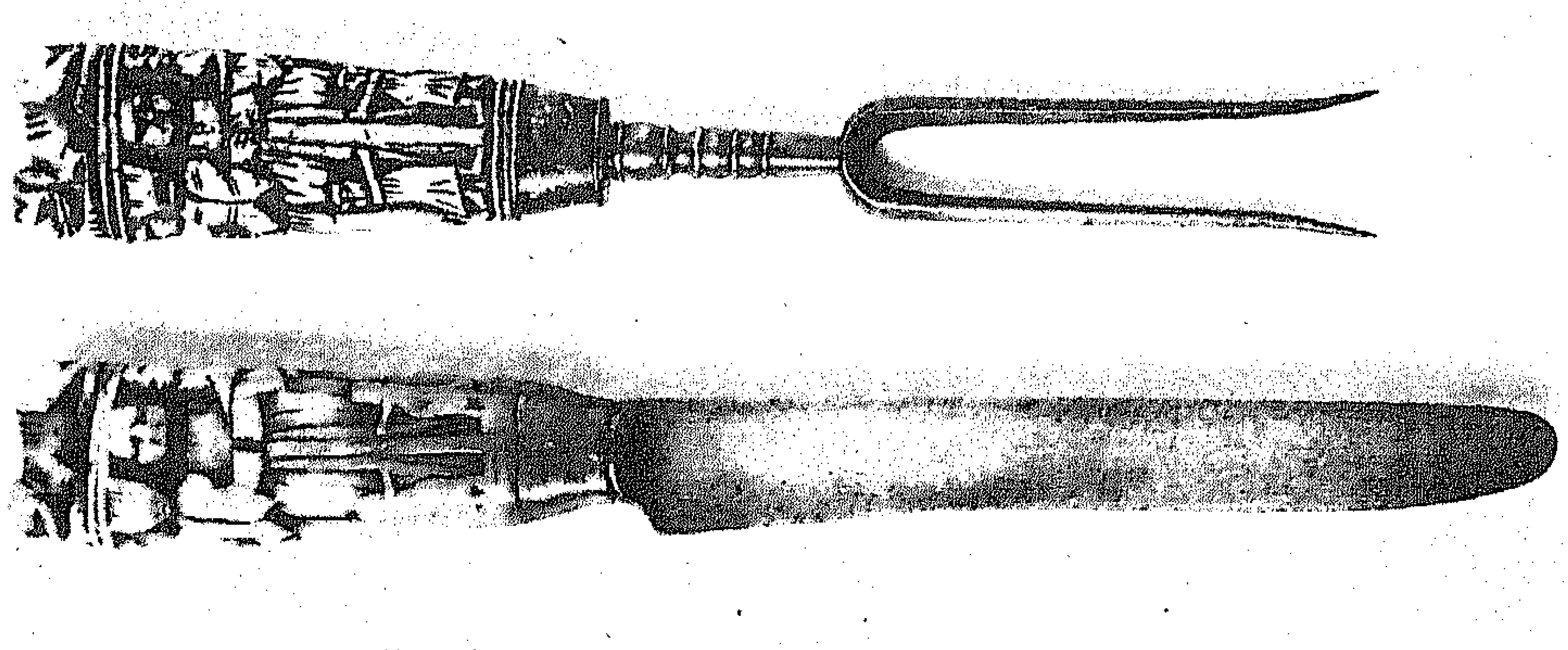

كوفير يتكون من سكين وشوكة ، لهما مقبضان من العاج .القرن السابع عشر.(المتحف الباڤاري القومي ، ميونيخ)

أسلوب السلوك ، والقواعد التي ينبغي عليهم أن يأخذوا أنفسهم بها ، عندما يدعون إلى تناول الطعام على مائدة الدوق : الحضور بثياب نظيفة ، عدم الحضور في حالة من السكْر، ولو كان متوسطاً، عدم الشرب بعد كل لقمة ، تنظيف الفم ، والشارب جيداً قبل الشرب، عدم لمس الأصابع، عدم البصق في الصحن بحال من الأحوال ، عدم التمخط في مفرش منضدة الطعام ، عدم الشرب بطريقة البهائم ... هذه التعليمات التي تضمنتها اللائحة من شأنها أن تثير شكوك القاريء فيما يتعلق بآداب السلوك في أوروبا في الوقت الذي كان فيه ريشيلو يمسك بزمام الحكم في فرنسا ـ الربع الثاني من القرن السابع عشر(٨٥).

الى مائدة السيد المسيح

ليس هناك شيء يزيدنا علما ، ونحن نقوم برحلتنا هذه إلى الماضي، أفضل من إنعام النظر في اللوحات التي رسمها الرسامون في الوقت السابق على ظهور هذا الترف المتأخر. والحق إن اللوحات التى صورت المآدب القديمة لوحات كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، وبخاصة تلك اللوحات التي تصور عشاء المسيح الأخير ، فقد تناول هذا الموضوع الرسامون الغربيون منذ أن عرف الغرب فن الرسم ، فاجتمعت لنا آلاف من هذه اللوحات. وقريب من موضوع العشاء الأخير ، موضوع تناول المسيح الطعام على مائدة سمعان، أو

عرس قانا، أو مائدة التلميذين في عمواس . وإذا نحن تحررنا لحظة من إسار الشخصيات ذات المدلول الديني في هذه اللوحات، فلم نر إلا المنضدة، والمفارش الموشاة، والمقاعد (البنكيتات أي الكراسي المصنوعة بغير مساند أو ظهور، الكراسي ، الأرائك)، ونظرنا نظرة مدققة إلى الصحون ، والأطباق ، والسكاكين ، فسنجد أن اللوحات التي رسمت قبل عام ١٦٠٠ ليس بها أية شوكة ، ولا ملعقة تقريبا ، وسنرى فيها بدلا من الصحون شرائح من الخبز المقدد ، وصحافاً خشبية مستديرة أو بيضاوية ، وصحافاً مستديرة من القصدير فيها شيء ضئيل من التقعير ، عليها بطع زرقاء هي السمة الغالبة للوحات المرسومة في جنوب ألمانيا . وكثيراً ما نرى شريحة الخبز المقدد موضوعة على صحن خشبي أو معدني ، والمقصود بهذه الشريحة من الخبز أن تمتص عصارة اللحم عندما تقطع فوقها. وكان المألوف أن يوزع هذا الخبز المشبع بعصارة اللحم على الفقراء بعد أن ينتهي المدعوون من تناول الطعام . ونجد في اللوحات دائماً سكيناً واحدة على الأقل، قد تكون كبيرة الحجم، وبخاصة عندما تكون سكينا واحدة مخصصة لكل المدعووين، وكثيراً ما نرى سكاكين صغيرة فردية . ومن البديهي أن نري في اللوحات الخمر ، والخبز، والحمل، هذه العناصر الثلاثة تجتمع في اللقاء الصوفي الذي تمثله اللوحة. كذلك من البديهي أن اللوحات لا تعرض مآدب باذخة مترفة ، فالمقصود منها التعبير عن التسامي فوق الأطعمة الدنيوية ، وعدم الحرص عليها . ومع ذلك فإن اللوحات تمثل المسيح والرسل يأكلون كما يأكل البورجوازيون من أهل مدينة أولم Ulm أو مدينة أوجسبورج Augs-burg من مدن ألمانيا ، فلم يكن الرسامون يفرقون كثيراً في لوحاتهم بين عرس قانا، أو وليمة هيرودس ، ووليمة أقيمت لدي واحد من وجهاء مدينة بازل ومن حوله أسرته وخدمه اليقظون ، أو لدى طبيب من مدينة نورنبرج Nürnberg أقامها لأصدقائه بمناسبة انتقاله إلى سكنه الجديد في عام ١٥٩٣. وربما كانت الشوكة التي نراها في لوحة من رسم چاكوبو باسانو Jacopo Bassano في عام ١٥٩٩ واحدة من الشوك الأولى التي رسمت في هذا الضرب من اللوحات .

الأطعمة اليومية :

الملح

ولنقفل صفحة الترف، ولنعد إلى الحياة اليومية وما يأكله الناس من طعام عادي. ولنبدأ بالملح ليعيدنا إلى سواء السبيل ، فالملح مادة شائعة كل الشيوع ، ترتبط بتجارة عالمية، إجبارية، لابد منها، وهو مادة لا غنى عنها للإنسان والحيوان، تستخدم في تمليح اللحم والسمك، ويزيد من أهميتها تَدَخُّلُ الحكومات في أمورها. والملح مصدر كبير لثراء

العشاء الأخير . جزء من نسيج مرسوم كان يستخدم كسوة لهيكل في كنيسة بمدينة نورنبرج في القرن الخامس عشر .(المتحف القومي البافاري، ميونيخ).

الدول والتجار .هكذا كانت حال الملح في أوروبا ، وهكذا كانت حاله في الصين كذلك، وسنعود إلى هذ الموضوع مرة أخرى . ولما كان الملح مادة لا غنى عنها فإنه يقهر العقبات، كل العقبات، ويفيد من التسهيلات كل التسهيلات. ثم ان الملح بضاعة ثقيلة الوزن، وهو لهذا ينتقل على صفحات الأنهار (نهر الرون في اتجاه المنبع)، وبواسطة الخطوط الملاحية عبر المحيط الأطلسي. وليس هناك منجم واحد للملح الحجري لم يستغل بعد. كذلك نلاحظ أن كل الملاحات البحرية التي تعتمد على الشمس في الحصول على الملح من الماء المالح في منطقة البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في أيدي البلاد الكاثوليكية ، وأن صيادي الشمال البروتستانت يحتاجون الى ملح برواج Brouage وسيتوبال Setubal أو سان لوكار في بارامیدا San Lucar de Barrameda . ومن هنا لم تكن عمليات تبادل الملح تنقطع في سلم أو حرب ، وكانت تحقق أرباحا طائلة تدخل خزائن اتحادات التجارة الضخمة . كذلك كانت كتل ملح الصحراء تجتاز الصعاب والعقبات وتصل إلى بلدان أفريقيا السوداء برغم الصحراء المترامية الأطراف ، تحملها قوافل الجمال ، ويبادلها التجار بخام الذهب ، والعاج ، أو العبيد الزنوج . وليست هناك أدلة أقوى من هذه على أن الحاجة إلى هذه التجارة حاجة عارمة لا سبيل إلى كبتها.

ولدينا برهان آخر من محافظة ڤالية Valais السويسرية الصغيرة، وهو برهان يقوم على الأرقام والمسافات . ففي تلك البلاد التى تحف بوادي الرون الأعلى ، نجد توازنا كاملا بين الموارد والسكان ، إلا فيما يتعلق بالحديد والملح . وبخاصة الملح الذي يحتاج اليه السكان في عمليات تربية الماشية وصناعة الجبن والتمليح ، والملح يأتي إلى هذه المحافظة الواقعة في جبال الألب من منطقة نائية هي پيكيه Peccais في إقليم اللانجدوك Languedoc بفرنسا ، وهي منطقة تبعد ٨٧٠ كيلومترا مرورا بمدينة ليون Lyon، ومن منطقة بارليتا Barletta التي تبعد ١٣٠٠ كيلومتر مرورا بالبندقية، ومن منطقة تراپاني Trapani على بعد ٢٣٠٠ كيلومتر عن طريق البندقية كذلك (٨٦).

الملح مادة جوهرية ، لابديل لها ، والملح طعام مقدس (" في اللغة العبرية القديمة واللغة المدغشقرية الحالية تستخدم عبارة 'طعام مملح 'كمرادف لعبارة'طعام مقدس'").ونلاحظ أن أوروبا في تلك الأزمان التي كان أهلها فيها يأكلون العصائد الماسخة المصنوعة من الدقيق ، كانت تستهلك كميات كبيرة من الملح (٢٠ جراماً من الملح للفرد يوميا ، وهو ضعف الاستهلاك الحالي). ويذهب مؤرخ طبيب إلى أن ثورات الفلاحين على ضريبة الملح في غرب فرنسا في القرن السادس عشر كان السبب فيها شدة احتياج الفلاحين إلى الملح أو ما أسماه جوع الفلاحين إلى الملح ، وكانت ضريبة الملح المرتفعة تحول دون حصولهم على ما يرضي هذا الجوع (٨٧). وأيا كان الأمر فنحن

نصادف معلومات جزئية متفرقة نعرف منها ، أو نعرف منها مُجدَّداً، على نحو خاطف، أن هناك استخدامات عديدة للملح لا تخطر ببال الإنسان على الفور عندما يفكر في الملح : منها مثلا صناعة البطارخ البروڤنسالية في جنوب فرنسا ، وتمليح الأطعمة لحفظها بالأسلوب البيتي الذي انتشر في القرن الثامن : لحفظ الأسبرجس ، والبسلة، وعيش الغراب المعروف بالشامبينيون ، وأنواع أخرى مختلفة من عيش الغراب، وقلوب الخرشوف...

الأطعمة اليومية :

منتجات الألبان والدهنيات والبيض

لم تكن الجبنة بأنواعها، والبيض، واللبن، والزبد أطعمة يحفل بها المترفون. كانت باريس تجلب أنواع الجبن المختلفة من منطقة بري Brie ومن منطقة نورماندياNormandie (وكانت تعرف بأسماء مثل Les Angelots du Pays de Bray أنجيلو منطقة برية، أو les Livarots ليڤارو ـ والليڤارو مدينة ، أو les ponts - l'évêque بونليڤيك ـ وبونليڤيك مدينة .)، وتجلب من منطقة الأوڤيرنيا Auvergne والتورين Touraine والبيكاردي Picardie، وكان الناس من أهل باريس يشترون هذه الأصناف من البقالين ، أولئك التجار الذين يبيعون بالقطاعي، ويرتبطون بالأديرة وبالأرياف القريبة بمعاملات فيجلبون منها جبن مونتري Montreuil وجبن ڤانسين Vincennes، وهي أنواع من الجبن الطازج الرائب كانت توضع في سلال من الخيزران والبوص للتخلص مما فيها من شرش، وكانوا يسمون هذه السلال jonchés (٨٨). أما منطقة البحر المتوسط فكانت أصناف الجبن الواردة من جزيرة سردينيا، والتي كانوا يطلقون عليها اسم كاتشوكاڤاللو cacio cavallo(٨٩) أو سالسو salso تصل إلى كل مكان ، إلى نابلي، وروما، وليفورنو، ومارسيليا ، وبارشلونة ، وغيرها: كما كانت تصدر من ميناء كالياري Cagliari تحملها بواخر تمتليء بها عن آخرها، وكانت لرخص سعرها، تلقى رواجا أفضل مما كانت تلقاه جبن هولندة نفسها التي تمكنت في القرن الثامن عشر من غزو أسواق أوروبا ، بل العالم كله . بل إن أصناف الجبن الهولندي كانت تهرب بآلاف الأقراص منذ عام ١٥٧٢ إلى ربوع أمريكا الخاضعة للحكم الإسباني . وكانت البندقية تستورد من دالماسيا أنواع الجبن التي تصنع هناك ، كما تستورد أقراص الجبن التي تصنع في جزيرة كريت . أما في مارسيليا فكانوا يأكلون في عام ١٥٤٣ أنواعاً مختلفة من الجبن من بينها جبن الأوفيرنيا (٩٠). وكانت أصناف الجبن وفيرة في منطقة الأوڤيرنيا لدرجة أنها كانت تشكل الطعام الأساسي للناس هناك في القرن السادس عشر. أما في القرن الخامس عشر فكان جبن الدير الكبير في منطقة دوفينيه Dauphiné يعتبر من الأصناف

الممتازة، وكانوا يأكلونه مقلياً محمراً en rôties أو مشويا en roties على الخبز المقمر. وشهد جبن الجروبير gruyere - الجروڤيرا - السويسري الأصلي انتشارا كبيرا في فرنسا حتى قبل القرن الثامن عشر، وكانت فرنسا تستورد منه حول عام ١٧٥٠ ثلاثين ألف قنطار فرنسي في العام. وسرعان ما حاولوا " تقليده في فرنسا [...] في مناطق فرانشكونتيه، واللورين، والساڤوى، والدوفينيه " ولكن الأنواع المقلدة لم تكن في شهرة النوع الأصلي، ولم تكن تباع بأسعاره، ولكنها شاعت، وانتشرت انتشاراً واسعاً. أما محاولات تقليد جبن البارميزان parmesan، التي جرت في نورماندیا مثلا، فقد باءت بالفشل (٩١).

وكان الجبن، من حيث هو بروتين رخيص الثمن، واحدا من أهم الأطعمة الشعبية في أوروبا، وإليه اشتد حنين الأوروبيين الذين كانوا يضطرون إلى الحياة بعيدا عن أوروبا، ولا يستطيعون الحصول عليه. ومن بيع الجبن حقق الفلاحون الفرنسيون حول عام ١٦٩٨ ثروات ضخمة عندما وردوه إلى الجيوش المتحاربة في إيطاليا وألمانيا. ومع ذلك فإن الجبن، في فرنسا خاصة، لم يحقق سمعته العظيمة في قائمة الطعام المتميز، ولم يعقد له لواء " النبل " إلا بعد مسيرة طويلة بطيئة. وكتب فن الطهي في القرون التي نتناولها بالبحث لا تفسح له إلا مكانا صغيراً، ولا تشيد بميزات كل صنف، ولا تنوه بالأسماء المختلفة التي تطلق على الأصناف المختلفة. بل إن الجبن الذي يصنع من لبن الماعز كان موضع الاحتقار، وكانوا يضعونه دون أنواع الجبن التي تصنع من لبن الضأن والبقر. بل إننا نقرأ في عام ١٧٠٢ فيما كتبه ليميري Lemery، وهو طبيب، أنه ليس هناك سوي ثلاثة أنواع من الجبن هي: " الروكفور، والبارميزان، والجبن الذي يأتون به من ساسيناچ Sassenage في منطقة الدوفينيه [...] يصح أن توضع على موائد الطعام التي بلغت أعلى درجات الرقي " (٩٢). أما الروكفور فكانوا يبيعون منه في ذلك الوقت ستة آلاف قنطار فرنسي في العام. وأما جبن الساسيناچ فكانوا يصنعونه من مزيج مغلي من لبن البقر والماعز والضأن. ونقرأ عن جبن البارميزان (وكذلك جبن المارسولين marsolin الفلورنسي الذي سرعان ما بطلت موضته) أنه أتى إلى فرنسا من إيطاليا في أعقاب الحروب التي دارت رحاها فوق الأراضي الإيطاليه، وكان الملك شارل الثامن هو الذي حمله معه في طريق عودته من إيطاليا إلى فرنسا. وإذا كان الطبيب ليميري قد حصر أنواع الجبن في ثلاثة، فإن الكاردينال دوبوا Dubois الذى كان سفيرا لفرنسا في لندن كتب إلى ابن أخيه أن يرسل إليه أشياء هفت إليها نفسه، حددها بالاسم هي: ثلاث دست من أقراص جبن البونليفيك Pont - l'Évêque، ومثلها من جبن المارول marolles، ومثلها من جبن البري bries - علاوة على باروكة(٩٣). لقد أصبح لكل صنف من أصناف الجبن المختلفة عشاقه الذين يتوقون إليه، ولا يرضون به بديلا.

فإذا تجولنا في البلاد الإسلامية حتى الهند وجدنا أن هذه الأطعمة المتواضعة، ذات القيمة الغذائية الغنية، وهي اللبن، والزبد، والجبن ، تحتل مكاناً كبيراً بحق . وهذا واحد من الرحالة يقول في عام ١٦٩٤ ، إن الفرس لا ينفقون على الطعام مالاً قلّ أو كَثرُ، " بل تراهم يقنعون بقليل من الجبن، واللبن الرائب، الذي يغمسون فيه خبزا بلديا رقيقا، كالرقاق، شديد السمرة ، ولا طعم له ، ويضيفون إلى هذا الطعام في الصباح الأرز المطبوخ بالبهريز أو بالماء فقط "(٩٤). وهذا الأرز المطبوخ بالبهريز واللحم، والذي يوشك أن يكون طبخة مسبكة ، من طعام الميسورين. ومن المؤكد أن الطعام في تركيا كان مثل الطعام في فارس، فقد كانت منتجات الألبان هي الطعام الوحيد أو شبه الوحيد للفقراء في تركيا : اللبن الزبادي (اليوغورت) ومعه بحسب الموسم الخيار أو الشمام ، أو بصلة، أو كرات، وربما أكلوا معه خشافاً يصنعونه من الفواكه المجففة. ولا ينبغي أن ننسى من منتجات الألبان ، وقد ذكرنا منها اليوغورت من قبل ، القشدة التي كانوا يغلونها ويضيفون إليها القليل من الملح وكانوا يسمونها الكايماك ، ثم هناك أنواع الجبن التي يحفظونها في قرب ويسمونها " تلوم tulum " - الحلوم - ، وتلك التي كانوا يشكلونها على هيئة أقراص أو كور ويسمونها " تيكرليك tekerlek " وهي شبيهة بجبن الكاسكاڤال cascaval الذى صنعه أهل الجبال الولاخية ، وصدَّروه إلى استانبول وإلى إيطاليا ، كذلك كانت هناك في تركيا أصناف من الجبن الضاني الذي يصنع من لبن الضأن بعد غليه عدة مرات، وكانت هذه الأصناف من الجبن الضاني تشبه جبن الكاتشو كاڤاللو الذي صنعته سردينيا وايطاليا.

ولا يجوز أن ننسى في معرض الحديث عمن يأكلون منتجات الألبان تلك الحالة الاستثنائية الهائلة والمستمرة التي تمثلها الصين في ربوع الشرق : فالصين أساسا لا تعرف في طعامها اللبن والجبن والزبد ؛ وكان الصينيون يربون الأبقار والماعز والأغنام للحمها دون ما سواه . فما هو هذا الزبد الذي ظن السيد دي جيني de Guignes أنه أكله هناك(٩٥) ؟ من يعلم . الذي نعلمه أن الزبد لم يكن يستخدم في الصين مطلقا إلا في صناعة بعض الأنواع النادرة من الفطائر . واليابان في هذا المقام تقاسم الصين هذا النفور من الزبد : حتى في القرى التي تقوم فيها الثيران والأبقار بحرث الأرض وما إلى ذلك من أعمال في مجال الزراعة نرى أن الفلاح الياباني ، حتى اليوم ، لا يأكل منتجات الألبان التي يعتبرها " قذرة "؛ وهو يستخرج من فول الصويا كميات الزيت الضئيلة التي تبدو له ضرورية في طعامه .

وعلى العكس من ذلك فإن مدن الغرب كانت تستهلك كميات كبيرة من اللبن ، وصلت من الضخامة إلى الحد الذي أصبحت تمثل فيه مشكلات تموينية. وكان استهلاك اللبن يزيد في لندن في الشتاء ، لأن كل الأسر الغنية كانت تقيم في العاصمة شتاءً،

ويقل في الصيف ، لعكس السبب ، وكان اللبن يتعرض لعمليات غش هائلة في الصيف والشتاء ، فقد كان الباعة يغشونه بالماء على نطاق واسع ، بل إن منتجي الألبان أنفسهم كانوا يقومون بعمليات الغش بالماء أيضاً . ويقولون إن " واحداً من كبار الملاك الزراعيين في منطقة سيري Surrey جنوبي لندن ، كانت لديه في مزرعة الألبان ، في عام ١٨٠١ ، طلمبة ماء ، كان يستخدمها في الغش ، وقد عرفت باسم " البقرة السوداء الشهيرة " ، لأنها كانت مدهونة باللون الأسود ، وكانوا يتحدثون عنها حديث الواثقين المتأكدين فيقولون إنها كانت تنتج من اللبن أكثر من البقر كله " (٩٦). ولهذا فقد نفضل أن نرجع إلى الوراء قرنا آخر ، لنطل على بلد الوليد Valladolid، وعلى المشهد اليومي الذي كانت تشهده الشوارع ، عندما تزدحم بأكثر من أربعمائة حمار تأتي إلى المدينة من الأرياف المجاورة ، حاملة اليها مؤنتها من أصناف اللبن ، والزبد ، والقشدة، التي تحدث عنها رحالة برتغالي مشيداً بجودتها ورخص ثمنها . كانت مدينة بلد الوليد بلد رخاء خرافي ، أو جنة الرخاء على الأرض ، وكانت عاصمة إسبانيا حتى هجرها الملك فيليب الثالث مفضلا عليها مدريد . والشيء بالشيء يذكر ، فقد كانت سوق الدواجن في بلد الوليد تبيع كل يوم أكثر من ٧٠٠٠ من الطيور ، وكان الضأن فيها أفضل ضأن في الدنيا كلها ، وكان خبزها ممتازا ، ونبيذها رائعاً ، وكانت منتجات الألبان هناك ترفا بالنسبة لأسبانيا التي كانت مثل هذه المنتجات نادرة فيها ندرة خاصة (٩٧).

وظل الزبد قاصراً على شمال أوروبا ، باستثناء تلك المناطق الشاسعة التي كانت تعرف الزبد الذي يشوبه طعم الزنخ ، من شمال أفريقيا إلى الإسكندرية بمصر ، وما بعدها . أما بقية القارة الأوروبية الضيقة فكانت تستخدم دهن الخنزير ، وشحم الخنزير ،وزيت الزيتون. وترتسم على أرض فرنسا خريطة التقسيم إلى منطقة للزبد ، ومنطقة لدهن الخنزير وشحمه وزيت الزيتون . فمنطقة اللوار في فرنسا منطقة يجري فيها نهر الزبد حقا، واستخدام الزبد في باريس وما حولها استخدام مألوف شائع ، هو القاعدة . كتب ليميري في عام ١٧٠٢ : " ما من صلصة تعد في فرنسا إلا ويدخل الزبد فيها . والهولنديون، وأهل الشمال يستخدمون الزبد أكثر منا معشر الفرنسيين ، ويقولون إن الزبد يسهم في نضارة بشرتهم "(٩٨) . والحقيقة إن استخدام الزبد ، حتى في هولندة، لم ينتشر انتشارا فعليا إلا في القرن الثامن عشر ، وكان استعماله يعتبر سمة مميزة للمأكولات التي تخرج من مطابخ الأغنياء. وكان أهل البحر المتوسط ، عندما يضطرون إلى المرور بهذه البلاد الغريبة التي يستخدم الناس فيها الزبد أو يكون عليهم أن يعيشوا فيها ، يشعرون بالاستياء والأسى، لأنهم كانوا يعتقدون أن أكل الزبد هو السبب في زيادة أعداد المرضى

بالجذام زيادة مضاعفة. وهذا هو كاردينال مملكة أراجون الأسبانية يقوم في عام ١٥١٦ برحلة إلى البلاد الواطئة ، فيحرص على أن يصطحب معه طاهيه الخاص ، وأن يحمل في أمتعته كمية كافية من زيت الزيتون(٩٩).

كانت باريس في القرن الثامن عشر مطمئنة إلى ما أتيح لها م ن نعم، وكانت تنال مؤنتها العريضة من الزبد الطازج ، ومن الزبد المملح (المستورد من ايرلنده وبريتانيا) ، وربما استوردت الزبد السايح على طريقة اللورين . وكانت كمية كبيرة من الزبد الطازج تأتي إلى باريس من جورني Gournay، وهي مدينة صغيرة على مقربة من دييب Dieppe كان التجار فيها يتلقون الزبد الخام فيعجنونه مرة أخرى حيث يخلص مما يكون قد بقي فيه من مصل ، " ثم كانوا يشكلونه على هيئة كتل ضخمة تزن الواحدة منها ما بين أربعين وستين رطلا فرنسيا ، ويرسلونها إلى باريس " (١٠٠). والتباهي بأصناف الأطعمة قديم وموجود في كل مكان ، وكأنما كانت له في مجال الطعام حقوقه التي لا ينزل عنها ، وهذا هو " قاموس البيان " Dictionnaire sentencieux الصادر في عام ١٧٦٨ يقول : " ليس هناك سوي نوعين من الزبد يليق بالطبقة الراقية التحدث نهما ، هما : زبد فڤانڤر Vanvre (ڤانڤ Vanves) وزبد فريڤالية Frévalais" (١٠١) وهي من المناطق القريبة من باريس.

وكان استهلاك البيض أمرا شائعا كل الشيوع. وما أكثر ما أعاد الأطباء على الأسماع وصايا مدرسة سالرنو القديمة : لا تسلق البيض مدة طويلا ، واعلم أن خير البيض ما كان طازجاً ، والعبارة باللاتينية : Si sumas ovum, molle sit atque novum . وتعددت الوصفات التي تسعى إلى الاحتفاظ بالبيض طازجا . وجدير بالذكر أن سعر البيض في ارتفاعه وانخفاضة له قيمة كبيرة ذات دلالة ، لأن البيض سلعة شعبية تواكب تغيرات الحالة العامة في البلاد. فإذا أتيحت لنا بيانات عن بيع البيض في فلورنسا ، كان في مقدور عالم الاحصاء(١٠٢) أن يستنتج منها ما يعينه على رسم الخط البياني الذي يبين حركة تكاليف الحياة وما كان يجري عليها من ثبات وزيادة ونقصان في القرن السادس عشر. إن سعرالبيض وحده يكفي بالفعل ليكون بينة تدل على مستوى المعيشة، وعلى قيمة النقود في مدينة بعينها أو قطر بعينه. ففي مصر في القرن السابع عشر، جاء وقت كان الإنسان يستطيع فيه أن يختار بين " ثلاثين بيضة ، أو حمامتين، أو دجاجة في مقابل سول واحد ." (والسول sol عملة فرنسية صغيرة كانت تساوي آنذاك البارة) ؛ ويحدثنا نفس الرحالة في أثناء رحلته في الربوع التركية في عام ١٦٩٤ أن الطعام ، على الطريق بين ماغنيزيا Magnésie وبروسا Brousse " كان غاليا : السبع بيضات ببارة، والدجاجة بعشر بارات ، والشمامة الشتوية الجيدة ببارتين ، والخبز الذي يكفي الفرد يوما ببارتين " ؛ ووصل الرحالة نفسه في فبراير من عام ١٦٩٧ إلى المنطقة القريبة

من أكابولكو في المكسيك التي كانوا يسمونها آنذاك إسبانيا الجديدة ، وحكى " أنه دفع إلى صاحب المطعم أو النزل قطعة من فئة الثمانية [= ٣٢ سول]مقابل دجاجة ، واشترى البيضة الواحدة بسول " (١٠٣). هكذا كان البيض جزءاً من طعام الأوروبيين العادي ، فلا عجب أنْ يدهش مونتني عندما وجد أنهم في المطاعم الألمانية " لا يقدمون البيض مطلقاً ، وإن قدموه فهو بيض مسلوق شديد الصلابة ، يقطعونه أربعة أرباع ، ويضعونه في السلطات " (١٠٤). كذلك كانت دهشة مونتسكيو Montesquieu كبيرة عندما سافر من نابلي الى روما في عام ١٧٢٩ ، ووجد " أن المسافر لا يجد في لاتسيو Lazio ، تلك المنطقة التاريخية العريقة ، دجاجة ، أو حمامة ، بل إنه كثيراً ما لايجد بيضة واحدة " (١٠٥).

ولكن هذه المناطق التي يعز فيها البيض تمثل حالات استثنائية لن تكن هي القاعدة في أوروبا ، ولكنها كانت القاعدة في الشرق الأقصى الذي أخذ بنظام الغذاء النباتي ، فلم تتح الصين واليابان والهند لنفسها هذا الطعام البسيط الغني بالقيمة الغذائية. كان البيض نادرا جدا هناك، ولم يكن على أية حال من مكونات القوت الشعبي. وليس بيض البط الصيني المشهور الذي كانوا يخللونه في الماء المملح ثلاثين يوما الا طعاماً مترفاً لمحبي الأكل من الأغنياء.

الأطعمة اليومية :

فواكه البحر

للبحر أهمية هائلة من حيث هو مصدر للغذاء ، وهي أهمية حقيقة بأن تتجاوز الحدود التي بلغتها ، فمازالت هناك مناطق شاسعة تجهل ، أو تكاد تجهل أطعمة البحر على الرغم من أنها في متناول أيديهم .

كانت هذه هي الحال بالنسبة للعالم الجديد ، على الرغم من مصائد جزر الأنتيل وشواطئها الغنية بالأسماك ، حيث كانت السفن المتجهة إلى بيراكروس Vera Cruz بالمكسيك ، تصيد من ناحية الكم والأنواع ما يثير العجب إذا كان الجو هادئا. كانت هناك ثروة سمكية هائلة على السواحل وفي مضاحل نيوفاوندلاند ولكنها كانت تستخدم طعاما لأوروبا وحدها ، أو تقريبا وحدها ، أو لنقل أن أوروبا كانت لها الأولوية (على الرغم من أن الأطنان من سمك البكلاه morue كانت تصل في القرن الثامن عشر الى المستعمرات الإنجليزية ومزارع أمريكا الجنوبية؛ وعلى الرغم من أن أسماك السلمون كانت تصل عن طريق الأنهار الباردة إلى كندا وألاسكا ؛ وعلى الرغم من أن خليج باهيا بأمريكا الجنوبية ، الذي كانت تيارات المياه الباردة القادمة من الجنوب فيه سبباً في نشاط صيد الحيتان ، وفي قدوم صيادين من الباسك في القرن السابع عشر كانوا يستخدمون

" عجوز تقلي البيض " ، لوحة رسمها بيلاسكويث Velasquez في عام ١٦١٨ قبل أن يغادر اشبيلية، مسقط رأسه .

السهام في الصيد.) أما في آسيا فكانت اليابان والصين الجنوبية ـ من مصب نهر يانج تسي كيانج Yang-tse-kiang إلى جزيرة هاينان ـ هما وحدهما اللذان يمارسان الصيد. أما فيما عداهما فلم تكن هناك في آسيا على ما يبدو إلا بعض قوارب الصيد المتفرقة، في ماليزيا، أو حول سيلان . أو قد نقرأ بعض الطرائف منها أن صيادي اللؤلؤ في الخليج الفارسي، قرب بندر عباس ، كانوا ـ في عام ١٦٩٤ ـ " يفضلون صيد السردين [كان السردين المجفف في الشمس طعامهم اليومي] على صيد اللآليء التي كانوا يبيعونها للتجار ، لأن صيد السردين كان في أعينهم أكثر أمانا وسهولة من صيد اللؤلؤ" (١٠٦).

أما في الصين، حيث كانت تربية السمك مزدهرة وكان الصيد في المياه العذبة يعطي نتاجاً كبيراً (كانوا يصيدون سمك التتقال esturgeons في بحيرات يانج تسي كيانج وفي نهر بي هو Pei Ho) كانوا كثيرا ما يحفظون السمك مهموكا على هيئة صلصة يصنعونها عن طريق ترك السمك يتخمر تلقائياً ، كما هي الحال في تونكين ؛ ولكن استهلاك هذه الصلصة كان ، ولا يزال إلى اليوم ، عديم الأهمية (٦, ٠ كجم للفرد في العام)؛ والخلاصة أن الطعام المستخرج من البحر لم يتغلغل إلى أعماق الصين . إلا اليابان ، فقد كانت آكلة للسمك على نطاق واسع ، وبقي تميزها في هذه الناحية قائما حتى اليوم(٤٠ كجم للفرد سنويا ، وأكبر أسطول صيد في العالم بعد أسطول بيرو)، واستهلاك السمك في اليابان يجعل منها ندا لأوروبا في استهلاك السمك . وترجع وفرة السمك هناك إلى ثروات البحر الداخلي ، يضاف إلى ذلك أن اليابان لديها ، في متناول يدها، مصايد ييسو Yeso، وسخالين Sakhaline عند ملتقى المياه الباردة القادمة من أويا شيفو Oya Shivo والمياه الدافئة القادمة من كوروتشيفو Kouro-chivo ، وتشبه هذه المنطقة منطقة صيد الأسماك شمال الأطلنطي في نيوفاونلاند، حيث يتلاقى تيار الخليج أو الجالف ستريم Gulf Stream وتيار لابرادور Labrador ، ذلك أن التقاء تيارات المياة الدافئة بتيارات المياه الباردة ينشط تكاثر الأسماك .

والحق إن أوروبا ، وإن لم يكن القدر قد أغدق عليها الرزق بسخاء، كانت تسلك الى مصادرالرزق ، القريبة والبعيدة ، سبلا متعددة . كان عندها السمك . وقد اتخذ السمك أهمية خاصة لأن الكنيسة كانت تحض الناس على الصوم أياما كثيرة (١٦٦ يوما في العام، من بينها الصيام الكبير بأيامه الأربعين ، الذي كان يتبع بصرامة بالغة حتى عصر الملك لويس الرابع عشر) . كان بيع اللحم والبيض والدواجن محرما في أثناء الصيام الكبير بأيامه الأربعين ، إلا للمرضى الذين كان ينبغي عليهم أن يقدموا شهادتين ، شهادة من الطبيب وشهادة من القسيس ، حتى يسمح لهم بالشراء . وقد أحكموا الرقابة ، فلم يسمحوا في باريس إلا لـ " جزار الصيام " ببيع الأطعمة الممنوعة ، واشترطوا عليه أن يبيعها في حرم المستشفى المعروف باسم أوتيل ديو أو بيت الله Hôtel - Dieu (١٠٧). كان الصيام عن لحم الحيوان والطير يعنى طلبا هائلا على السمك الطازج والمدخن والمملح .

ولكن السمك لم يكن يتوفر دائماً على مقربة من سواحل أوروبا. ولم يكن البحر المتوسط ، الذي كثيراً ما أشاد المشيدون بما فيه من ثروة سمكية ، يوفر من السمك إلا كميات محدودة ، بغض النظر عن بعض الاستثناءات : سمك التونة الذي كانوا يصيدونه من البوسفور ، وكافيار الأنهار الروسية (وكان طعامًا متميزاً يقبل عليه الصائمون المسيحيون في الديار الإسلامية حتى الحبشة) ، وأسماك الكالامار (الحبّار)

والبلبوس (الأخطبوط) المجففة التي كانت منذ أزمان بعيدة ترد من الأرخبيل اليوناني، والسردين والأنشوجة من منطقة البروفانس جنوبي فرنسا . كذلك كانوا يصيدون التونة في مصائد سميت بالمدرجة madrague أو المدارج ، في شمال أفريقيا ، وصقلية والبروفانس ، والأندلس ، وإقليم الغرب بالبرتغال Algarve: وكانت البرتغال تستورد من مستعمرتها في لاجوس التونة المملحة بكميات ضخمة تمتلىء بها المراكب الكاملة، وتمد بها منطقة البحرالمتوسط ، وبلاد الشمال (والمدارج مصائد من الشباك والأوتاد المنصوبة، دخلت الكلمة العربية الدالة عليها في الفرنسية).

وعلينا، على سبيل المقارنة، أن ننوه بالموارد البالغة الوفرة التي كانت تنتجها نظائر البحر المتوسط في الشمال: بحر المانش ، بحر الشمال ، بحر البلطيق ، وأكثر من هذا البحر أو ذاك المحيط نفسه . وقد عرف المحيط الأطلسي على سواحل أوروبا صيدا نشيطا منوعا (صيد أسماك السلمون ، والماكريل ، والبكلاه) في العصر الوسيط . كان بحر البلطيق وبحر الشمال ينتجان منذ القرن الحادي عشر كميات كبيرة من سمك الرنجة أنعمت على مدن الهانزا بالثراء وكانت مصدر رزق رغيد لصيادي هولندة وزيلندة . ويقولون إن رجلا من أهل هولندة اسمه وليم بويكلسزون William Beukelszoon هو الذي ابتكر في عام ١٣٥٠ الطريقة السريعة لتنظيف بطن الرنجة وتمليحها في مركب الصيد ، حيث كان الصيادون يقومون بتكبيسها في البراميل(١٠٨). ولكن الرنجة هجرت بحر البلطيق بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر(١٠٩) ، وكان على مراكب الصيد الهولندية والزيلندية أن تتجه إلى رمال المضاحل عند دوجر بانك Dogger Bank أمام سواحل انجلترة واسكتلندة حتى جزر أوركاد Orcades. وكانت سفن صيد أخرى تسعى إلى هذه الأماكن المتميزة حتى في أثناء الحروب الفرنسية الهابسبورجية في القرن السادس عشر ، حيث كانت اتفاقات هدنة تعقد رسميا بين الأطراف المتحاربة من أجل الرنجة، كانوا يسمونها " اتفاقات هدنة رنجية " ، كانت الأطراف تلتزم بها على نحو أو آخر، وكان الهدف منها ألا تحرم أوروبا من هذا الطعام المبارك .

وكانوا يصدرون الرنجة إلى غرب أوروبا ، وجنوبها بطريق البحر، وبالسفن النهرية، وبالعربات وعلى ظهور دواب الحمل. كانت الرنجة تصل إلى البندقية على ثلاثة أشكال : مملحة تماما، وكانوا يسمونها أيضاً الرنجة البيضاء، أو مدخنة، أو وسطا بين المملحة، والمدخنة. وكثيراً ما كان الباعة الجائلون المساكين يسرعون الخطى متجهين إلى المدن الكبيرة، باريس مثلا، دافعين أمامهم حصانا مسكينا أيضا يحمل السمك والاستريديا وهي قواقع من أنواع أم الخلول يأكلونها، وينادون على بضاعتهم قائلين: " رنجة طازة .. صيد الليلة دي " ، ونسمع مثل هذا النداء في " هتافات باريس "Les Cris de Paris من أعمال المؤلف الموسيقي كليمان جانكان Clément janequin (١٤٨٥ ـ ١٥٥٨).

صيد الحيتان. صورة على صحن من بورسلين ديلفت Delft يرجع إلى القرن الثامن عشر.

ونقرأ أن الاستريديا huîtres كانت في لندن مثلا ترفا متواضعا أتاحه صامويل پيپيس Samuel Peppys لنفسه وزوجه وأصدقائه ، فأكل معهم برميلا من الأستريديا ، وكان شاباً حريصاً على المال لا يشتري إلا الأشياء المعقولة الثمن.

ولا ينبغي أن نظن أن سمك البحر، سمك المياه المالحة ، كان يكفي لسد رمق الأوروبيين ، فكلما ابتعدنا عن السواحل البحرية ، وتوغلنا إلى داخل بلاد وسط القارة أو شرقها ، زاد اعتماد الناس على سمك المياه العذبة . لم يكن هناك نهر كبير أو صغير، حتى نهر السين في باريس ، إلا وكان له صيادون مرخصون . أما نهر الڤولجا البعيد فكان خزانا هائلا للأسماك النهرية ، وكان نهر اللوار في فرنسا مشهورا بما يخرج منه من سلمون وشبوط carpes. وكان نهر الراين مشهور بسمك الفرخ perches . ويطالعنا رحالة برتغالي زار مدينة الوليد في أسبانيا في مطلع القرن السابع عشر بأنه وجد المعروض في الأسواق من سمك البحر أقل من المطلوب ، ومن أنواع ليست من الممتازة، فقد كانت المسافة بين أماكن الصيد والأسواق طويلة . وذكر أنه وجد هناك طوال العام سمك موسىsoles، وسردين، وأستريديا ، وسمك النازلي colin ؛ وكانت أسماك الدوراد dorade الممتازة تأتي من سانتاندر Santander في أثناء الصيام الكبير . ويدهش

الرحالة نفسه أمام الكميات الهائلة من أسماك الطرويت truite النهرية العظيمة التي يبيعونها كل يوم في الأسواق، ويجلبونها من بلدة برقش Burgos ومدينة دي ريوسيكو Medina de Rioseco بكميات قد تكفي أحيانا لإطعام نصف البلدة ، التي كانت آنذاك عاصمة أسبانيا (١١٠). ورأينا من قبل في بوهيميا البرك الصناعية ، وأعمال تربية السمك في أبعديات جنوب بوهيميا الغنية. كذلك قرأنا عن سمك الشبوط carpes وهو من أسماك المياه العذبة ذات الانتشار الواسع في ألمانيا.

صيد البكلاه

كان التوسع في صيد البكلاه morue في القرن الخامس عشر من مضاحل نيوفاوندلاند ثورة ، نجم عنها صراع بين الباسك والفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وكان الصياد الأقوى يطرد الصياد الذي لا يجد له حماية أو سنداً، وهكذا أبعد الباسك الإسبان، واستأثرت بالصيد الدول التي تمتلك الأساطيل القوية وهي انجلترا وهولنده وفرنسا.

كانت المشكلة تتلخص في كيفية حفظ السمك ونقله . وكانوا يسلكون في ذلك سبيلا من اثنين : تجهيز السمك وتمليحه فوق السفينة عند نيوفاوندلاند ، أو تجفيفه على الأرض. وكان سمك البكلاه المملح فوق السفن يعرف باسم " البكلاه الأخضر " ، وكانت تلك التسمية تعني : " السمك الذي فرغوا لتوهم من تمليحه والذي مازال طريا بما فيه من ماء " . وكانت السفن المتخصصة في البكلاه الأخضر سفنا قليلة الحمولة ، على متنها عشرة أو اثنا عشر من الصيادين ، علاوة على الملاحين الذين يشرحون السمك وينظفون جوفه ويملحونه ، ويقومون بهذه الأعمال في قمرة تمتليء حتى عروق السقف بما تم تمليحه من السمك. كان الصيادون قد تمرسوا على العمل ، فتراهم بعد أن يتجهوا نحو مضاحل نيوفاونلاند بسفنهم هذه يستسلمون لتوجيه التيار . أما السفن الشراعية الكبيرة فتتولى نقل سمك البكلاه الذي جفف على الأرض أو المجهز للتجفيف، فهي تلقي مراسيها عند سواحل نيوفاوندلاند، ولا تقوم بالصيد، إنما تقوم القوارب بهذه المهمة . وعملية تجفيف البكلاه على الأرض عملية معقدة ، تتبع خطوات معينة يصفها ساڤاري Savary بالتفصيل(١١١).

وعلى كل سفينة شراعية أن تتمون قبل الإبحار بالملح والقوت والدقيق والنبيذ والكحول والحبال والسنارات . وكان الصيادون الدنمركيون والنورويجيون حتى مطلع القرن السابع عشر يذهبون الى سان لوكار دي باراميدا San Lucar de Barrameda قرب إشبيليه ليتمونوا بالملح ، ومن الطبيعي أن تجارالملح كانوا يعطونهم طلبهم على الحساب، وكان الصيادون عندما يعودون من أمريكا يسددون ما عليهم بما يساويه من السمك المملح(١١٢).

كذلك كانت الحال في ميناء لاروشيل La Rochelle الفرنسي المطل على المحيط، أيام ازدهاره في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كانت أعداد من السفن الشراعية تلم به في ربيع كل عام ، وكانت في أكثرها سفنا من حمولة المائة طن تقريبا ، مهيئة بقمرات تخزين فسيحة ، لأن سمك البكلاه " لا يزن كثيراً ، ولكنه يحتاج إلى مكان كبير"، وعليها من الرجال من ٢٠ إلى ٢٥ رجلا ، مما يدل على أهمية اليد العاملة في إنجاز هذ العمل الذي لم يكن يعود عليهم إلا بربح قليل . ويأتي " البورچوازي " الذي يقوم بأعمال التموين، فيقدم إلى ريس السفينة على الحساب الدقيق والمعدات والملح طبقا لبنود " عقد تموين " يسجل أمام موثق العقود ، وكانت هذه العقود تتسمى باسم chartes-parties. وميناء أولون Olonne الصغير القريب من لاروشيل، كان وحده، يقوم بتموين نحو مائة من سفن الصيد الشراعية ، وكان يدبر لها يداً عاملة تقدر بعدة آلاف من الرجال تحملهم السفن في رحلة الصيد إلى الجانب الآخر من المحيط. ولم يكن من الممكن جمع هؤلاء العمال البحريين من بين سكان المدينة نفسها الذين كان عددهم يقدر بثلاثة آلاف نسمة، ولهذا كان على أرباب السفن أن يبحثوا عن أيد عاملة خارجها ، وربما وصلوا إلى إسبانيا واستعملوا ملاحيها . أيا كان الأمر، فقد كان البورجوازي يدفع المال مقدما ، مجازفا أو مغامرا ، وتخرج السفينة إلى عرض البحر تبحث عن حظها في الصيد وفي الإبحار ، ولا يبدأ السداد إلا عندما تعود السفن، ابتداء من شهر يونية، والسفينة التي يتاح لها أن تكون أولى العائدات ، تحظى بالربح الخرافي، وهذا هو ريسها المسعد المظفر ، يتلقى العروض ، فيقبل البورچوازيون عليه في المكان الذي ينزل فيه ، جمعا كأنهم ينقضون عليه ، وتدور المناقشات، والمفاوضات، والمزايدات، وربما تشاتموا أو تضاربوا .. لقد حقق بعودته المبكرة نصراً فذاً له ثمنه الرائع . فقد كان الجميع ينتظرون وصول السمك الجديد : " وهل هناك شك في أن السمك الطازج هو الممتاز ؟ " وربما باع هذا الريس المسعد المائة سمكة بكلاه (كانت المائة تعد من ١١٠ الى ١٠٠ حسب العرف) بستين جنيها ، في حين أن السفينة التي تصل بعده بأيام قلائل لا تجد من يشتري الألف بأكثر من ثلاثين جنيها . وكان المألوف أن تكسب إحدى سفن أولون Olonne الشراعية هذا السباق، وتعود قبل السفن الأخرى، لأن سفن ميناء أولون كانت تقوم عادة برحلتي صيد في العام ، محققة موسمين كما كانوا يقولون، موسم " المركز الأول "، وموسم " المراكز المتأخرة "، وكانت نتيجة لهذا تتعرض في أثناء الجو العاصف لتيارات تدفع بها بسرعة بعيدا عن مضاحل الصيد(١١٣).

صيد لا ينفد: على مضاحل نيوفاوندلاند الكبيرة ، وهي هضبة ضحلة هائلة تحت صفحة الماء لايكاد الماء يغمرها، ذلك هو ملتقى " أسماك البكلاه العام [...] التي يتَّصِلُ بينها فيه الغَزَل ، وهي تقبل إلى هذا المكان بأعداد هائلة ، حتى إن الصيادين من

كل الأمم يجتمعون هناك ، ويعملون بكل ما أوتوا من قوة ، ليلا ونهارا ، في رمي الحبال ، وسحبها ، وبقر بطون البكلاه ، وشبك أحشائها في الشصوص لصيد غيرها . وربما استطاع الرجل الواحد أن يصيد في اليوم الواحد ٣٠٠ أو ٤٠٠ سمكة . فإذا فرغ الطعام الذي اجتذب أسماك البكلاه إليه ، تفرقت ، وراحت تهاجم سمك الوطنج merlan الذى يلذ لها التهامه . وتتدافع أسماك الوطنج هاربة ، لتنجو بحياتها ، فتلم المرة تلو المرة بسواحلنا (الأوروبية) فنحن مدينون لسمك البكلاه بما نصيده على سواحلنا من سمك الوطنج " (١١٤).

وهذا رجل من أهل مارسيليا يهتف في عام ١٧٣٩ بحمد الله على نعمة البكلاه ، هتافا تخالطه الدهشة : " الله هو الذي أنعم علينا بالبكلاه في نيوفاوندلاند ". وكان رحالة فرنسي قد عبر عن مثل هذه الدهشة قبل ذلك بقرن من الزمان ، فقال قول الواثق : " إن أفضل تجارة تمارسها أوروبا تتمثل في الذهاب لصيد البكلاه [...]فهي تجارة لاتتطلب مالا [وهذا كلام صحيح وخطأ في آن واحد] لأن صيد البكلاة لا يكلف إلا مشقة الصيد ، والبيع ؛ وأسبانيا تربح منه مالاً كثيرا ، ونحو مليون من البشر يعيشون عليه في فرنسا" (١١٥).

وليس من شك في أن رقم المليون هذا رقم تفتق عنه الخيال الواسع . ولدينا بيانات من أواخر القرن الثامن عشر تتضمن بعض أرقام متناثرة عن صيد البكلاه في فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة . ففي عام ١٧٧٣ تحركت لصيد البكلاه ٢٦٤ سفينة فرنسية (مجموع حمولاتها ٢٥٠٠٠ طن ، وعليها من أفراد الأطقم ١٠٠٠٠ فرد)؛ في عام ١٧٧٥ خرجت ٤٠٠ سفينة إنجليزية (٣٦٠٠٠ طن و ٢٠٠٠٠ فرد)؛ في عام ١٧٧٥ نفسه خرجت ٦٦٥ سفينة أمريكية (٢٥٠٠٠ طن و ٤٤٠٠ فرد). فيكون المجموع : ١٣٢٩ سفينة حمولتها ٨٦٠٠٠ طن ، وعليها ٣٤٠٠٠ فرد ، كان مجمل ما حملته من سمك البكلاة ٨٠٠٠٠ . واذا أدخلنا في الحساب الهولنديين والصيادين الأوروبيين الآخرين يمكن أن نصل الى رقم ١٥٠٠ سفينة، و ٩٠٠٠٠ طن من سمك البكلاه على أقل تقدير(١١٦).

ولدينا مراسلات واحد من التجار من أهل هونفلير Honfleur(١١٧)، معاصر للوزير كولبير Colbert نعرف منها على نحو وثيق كيفية التمييز الضروري بين النوعيات المختلفة من البكلاه ، هناك نوعية كانوا يسمونها gaffe وهي سمك البكلاه الضخم ضخامة فائقة للمألوف؛ ونوعية كانوا يطلقون عليها أسماء lingues و marchande و raguets، وهي السمك الصغير الذي يوشك أن يكون من النفاية إلا أنه أحسن بعض الشيء من النقاضة أو السمك المعيب ، وهو السمك الذي زاد تمليحه عن المطلوب، أو قل

عما ينبغي ، أو الذي تلف تحت نعال العمال ، وكانت كميته كبيرة . ولما كان سمك البكلاه الأخضر أي المملح يباع بالقطعة، على عكس سمك البكلاه المجفف الذي يباع بالوزن ، فقد كان من الضروري تعيين عمال فرز يستطيعون بنظرة سريعة أن يفرزوا البكلاه إلى ممتاز ورديء ، وأن يقدروا حجم الكميات. وكان تجار البكلاه في هونفلير يواجهون مشكلات ، منها منع وصول رنجة هولنده إلى سوق هونفلير (ولهذا فرضوا عليها ضرائب جمركية عالية) ، ومنها ، وربما من أهمها ، منع وصول الرنجة التي يصيدها في الوقت الممنوع ، وبخاصة بعد عيد الميلاد ، بعض الصيادين النورمانديين المساكين، وهو الوقت الذي يكون فيه هذاالسمك رديئا ولكنه لكثرة كمياته يباع بسعر رخيص جدا مما يؤثر على بيع البكلاه ، " فما يكاد هذا السمك الرخيص يظهر في السوق حتى يتوقف بيع البكلاه، فلا يباع منه شيء، قل أو كثر." ولهذا جاء الحظر الملكي الذي حمده له صيادو البكلاه الشرفاء.

وكان كل ميناء متخصصا في نوع من البكلاه بحسب متطلبات المنطقة التي يقوم الميناء بسد احتياجاتها التموينية ، كانت موانيء دييب Dieppe والهافر le Havre وهونفلير Honfleur تزود باريس لأن باريس آكلة للبكلاه الأخضر؛ وكانت نانت Nantes تمون حوض نهر اللوار والمناطق المرتبطة به بما تحتاج إليه من بضاعة ترضي الأذواق المختلفة، وكانت هذه البقاع متأثرة بحركة الملاحة النهرية؛ أما مارسيليا فكانت تصرف نصف صيد فرنسا من البكلاه المجفف ، قد تُجاوزه عاماً ، وقد تُنقص منه عاماً آخر، تستهلك ما تستهلك، وتصدر جزءاً كبيراً منه إلى إيطاليا ، وإن كانت السفن المحملة بالبكلاه قد أخذت تتجه مباشرة إلى الموانيء الإيطالية، وبخاصة جنوة ، منذ القرن السابع عشر .

وبين أيدينا ألف من التفصيلات عن تموين باريس بالبكلاه الأخضر (وقد يسمونه الأبيض أيضاً) ، فنحن نعلم أن سفن الصيد الأولى كانت تخرج منها مجموعة في شهر يناير، وتعود في شهر يولية ، ومجموعة ثانية تخرج في مارس ، وتعود في نوفمبر أو ديسمبر ، وكانت هاتان المجموعتان توفران للسوق كميتين تموينيتين ، الكمية الأولى ضعيفة، والكمية الثانية وفيرة ولكنها كانت تنفد حول شهر أبريل، فتبدأ في باريس، بل في فرنسا قاطبة ، ثلاثة شهور عجاف هي أبريل ومايو ويونية ، وهي أيضا " شهور تندر فيها الخضروات ، ويرتفع فيها ثمن البيض ، ولا يأكل الناس فيها إلا القليل من سمك المياه العذبة ". فلا غرابة في أن ترتفع فجأة قيمة البكلاه الأخضر الذي يصيدونه عند سواحل بلادهم ، ولا غرابة في أن يرفعوا ثمنه عندما يصدرونه إلى باريس عن طريق ميناء دييب، الذي يقوم في هذه الحالة بدور الوسيط(١١٨).

ونلاحظ أن كل السفن أو جلها كانت توقف عمليات صيد البكلاه عندما تنشب المعارك البحرية التي تستهدف السيطرة على العالم : مثل حروب الخلافة الإسبانية، وحروب الخلافة النمساوية، وحرب السنين السبع، وحرب الاستقلال الأمريكية .. ويظل الأقوى هو وحده القادر على الاستمرار في التمتع بالبكلاه.

وفي مقدورونا أن نتبين تزايدا تدريجيا في كميات الصيد، على الرغم من أننا لا نجد بين أيدينا بيانات تتيح لنا تقديرها تقديراً دقيقاً، ولكننا نعلم علم اليقين أن متوسط حمولة السفن تزايد على الرغم من أن المدة اللازمة لقطع الطريق ظلت في القرون التي نتناولها في هذا الكتاب على طولها لم تتغير (حيث كانت بين شهر وستة أسابيع ، ذهاباً وعودة). وكانت منطقة نيوفاوندلاند هي المنطقة التي تحققت فيها معجزة البكلاة، أو نعمة البكلاة ، نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فلم تكن أسماك البكلاة تكف عن تجديد نفسها ، والنماء الوفير فوق الحدود ، كانت تجد في مضاحل البكلاه ما تتغذى عليه، من كائنات عالقة في الماء ، وأسماك ووطنجات merlans، والبكلاه يحب طَعم الوطنج حبا لا يعادله حب آخر، وهو يتعقبه ويطارده وينأى به عن سواحل النيوفاوندلاند فيتلقفه الصيادون في الأماكن التي يصل إليها في أثناء هذه المطاردة، ويبدو أن البكلاه كان

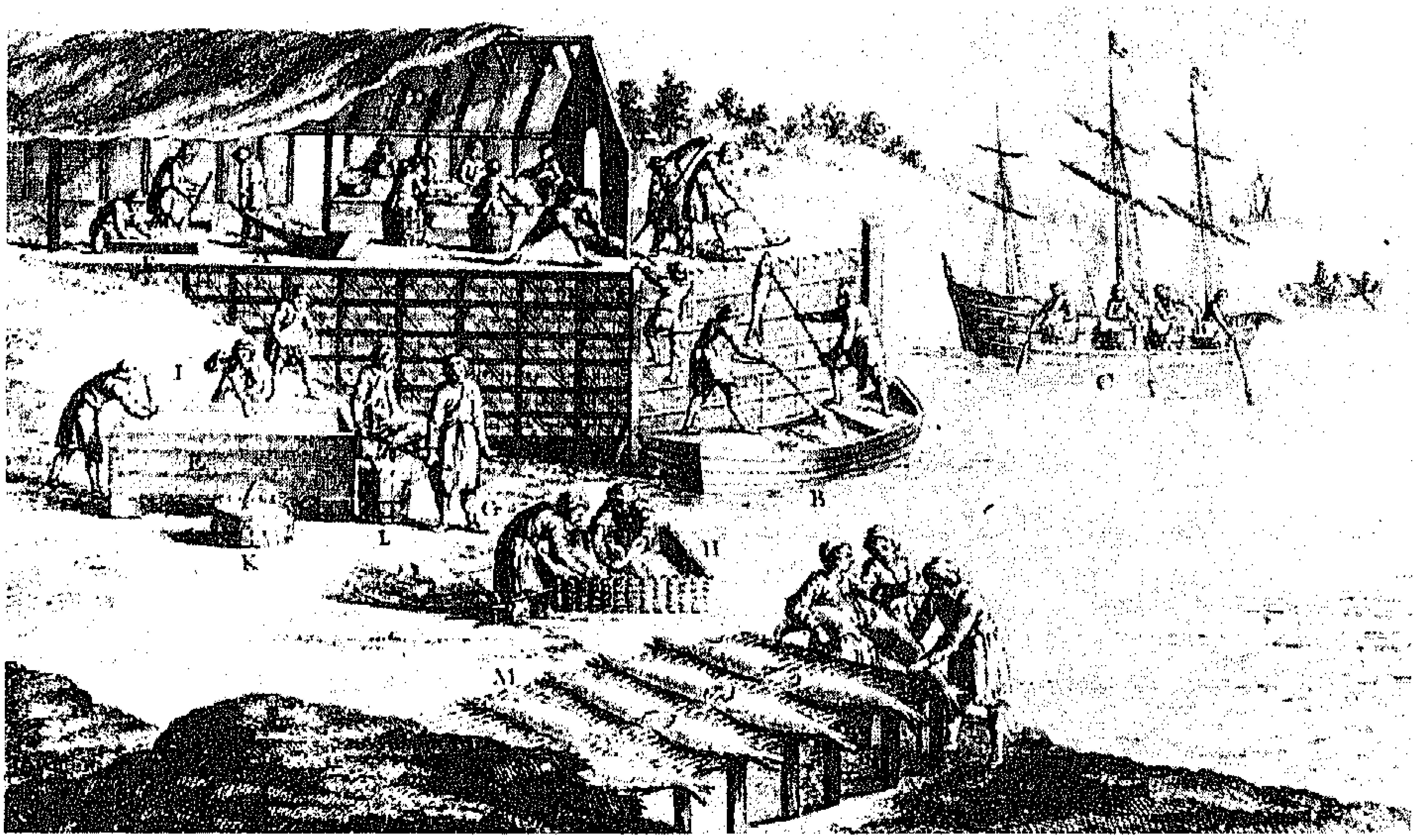

صيد البكلاه. عمليات التصنيع المختلفة التي يتم بها إعداد البكلاه المجفف على الأرض. (القرن الثامن عشر)

يصل هكذا بكثرة إلى سواحل أوروبا ، وكان بعد رحلة المطاردة هذه يعود أدراجه إلى الغرب .

ولقد تهافتت أوروبا على البكلاه أي تهافت ، وكأنه كان بالنسبة إليها المن والسلوى يتنزلان من السماء ، وهكذا وصلت في مارس من عام ١٧٩١ إلى لشبونه ٥٤ سفينة إنجليزية محملة بالبكلاه ، نقرأ أنها كانت تحمل ٤٨١١٠ قنطاراً ، " ياله من ربح هائل حققه الإنجليز من وراء هذه البضاعة وحدها"(١١٩). وقد ربما ما أنفقه السكان في إسبانيا في العام الواحد ، حول عام ١٧١٧ ، على ٢٤٠٠٠٠٠ پياستر piastres(١٢٠). والبكلاه ، شأنه شأن الأسماك الأخرى التي يقبل عليها الناس في طعامهم ، تفسد في أثناء النقل ، بل يصبح منفراً بمعنى الكلمة ، فربما فاحت منه رائحة مستهجنة ، بل إن الماء الذي كانوا يستخدمونه لإذابة ما في البكلاة من ملح ، كان يتحول بسهولة إلى النتن ، حتى لقد حظرت اللوائح على الناس أن يلقوا هذه المياه في بالوعات المجاري إلا في الليل(١٢١). ومن هنا نفهم الكلمات الحانقة التي وضعوها على لسان خادمة ، قالت في عام ١٦٣٦ عن البكلاه ، وكأنما كان بينها وبينه ثأر قديم : " إننى أفضل أيام اللحم، على أيام الصيام، [...] وأفضل في طعامي قطعة محترمة من السجق السمين ومعها أربع قطع من موزة الخنزير على قطعة مقيتة من البكلاة ، أو سلطانية سخيفة منه"(١٢٢).

والحق إن البكلاه كان بين أمرين، اما أن يكون الطعام المحتوم في أيام الصيام، أو طعام الفقراء، " طعام الأجراء " على حد قول واحد من مؤلفي القرن السادس عشر .

ومثل البكلاه مثل لحم الحوت baleine وشحمه ، وكانا في الحقيقة أشد خشونة، باستثناء لسان الحوت الذي قال عنه أمبرواز پاريه Ambroise Paré إنه لذيذ الطعم، وكان الفقراء يأكلون لحم الحوت وشحمه في أيام الصيام(١٢٣) ، إلى أن جاء اليوم الذي حولوا فيه شحم الحوت الى زيت استخدم في الإنارة ، وفي صناعة الصابون وفي صناعات أخرى متعددة. عندذاك اختفى لحم الحوت من الأسواق ، ولم يعد أحد يأكل لحم الحوت إلا " كفار المناطق القريبة من رأس الرجاء الصالح ، وهم أقوام على حالة من نصف البداوة " وهذا ما تتضمنه معاهدةأبرمت في عام ١٦١٩ ورد بها أيضاً أن أكل شحم الحوت مملحا كان قائما في إيطاليا آنذاك وأنه كان يسمى " الشحم الصيامي"(١٢٤). أياً كان الأمر فقد كانت احتياجات الصناعة كافية للاستمرار في صيد الحوت بل وزيادته زيادة مطردة : من هذا ما جرى على الحيتان في المياه المحيطة بميناء شپيتسبرجن Spitzbergen بين عام ١٦٧٥ و ١٧٢١ حيث بلغ مجموع ما أرسله الهولنديون من سفن صيد الحوت ٦٩٩٥ سفينة صادت بالخطاطيف ٣٢٩٠٨ حوتاً، حتى أتت على الحيتان

في هذه المنطقة(١٢٥). كذلك خرجت السفن من هامبورج ، بعضها وراء البعض، جرياً وراء زيت الحوت ، ونزلوا برحلات منتظمة إلى بحار جرونلاند Groenland(١٢٦).

الفلفل الأسود

تنحسر موجة انتشاره بعد عام ١٦٥٠

يحتل الفلفل الأسود في تاريخ الطعام مكانا متميزا غاية التميز ، وهو نوع من التوابل البسيطة لا يمكننا اليوم أن نقول إنه شيء لا غنى عنه ، ولكنه ظل القرون الطوال، هو والتوابل الأخرى محور تجارة الشرق . كان كل شيء رهناً به، حتى أحلام المكتشفين الجغرافيين في القرن الخامس عشر كانت تنبثق من الرغبة في الوصول إليه، وكان ذلك العصر هو الذي راج فيه المثل السائر : " غال كالفلفل " (١٢٧).

فقد ظلت أوروبا ردحا من الزمن يستبد بها شغف عارم با فل والتوابل، والقرفة، والقرنفل، وجوزة الطيب، والزنجبيل . ولا ينبغي أن نتعجل فنص هذا الشغف العارم بأنه هوس تملك أوروبا وحدها ، فقد كانت ديار الإسلام ، وبلاد الصين والهند تشارك أوروبا هذا الشغف، على الرغم من أن كل مجتمع له أمزجته الغذائية، التي تتغير من مجتمع لآخر ، وهي أمزجة قوية التأثير على الناس ، توشك أن تكون ضرورية. فهي تستجيب لحاجة الإنسان إلى الخروج من إسار الأطعمة الرتيبة ؛ واستمع لهذا الكاتب الهندي إذ يقول : " عندما يتمرد الفم على طعم الأرز المسلوق الماسخ الخالي من التوابل ، يحلم الإنسان بالسمن البلدي والملح والبهارات " (١٢٨) .

وهناك حقيقة واقعة نراها اليوم ، تتمثل في أن موائد الطعام الأكثر فقراً، والأكثر رتابة، هي التى يرغب أصحابها أشد الرغبة في الالتجاء إلى التوابل، ونحن نقصد بالتوابل المدلول الواسع الذي يشمل كل أنواع مواد التتبيل المستخدمة في أيامنا هذه (بما فيها أنواع الشطة الواردة من أمريكا والتي تتسمى بأسماء مختلفة) ولا نحصرها في البهارات الشرقية العريقة . كذلك كان لمائدة الفقراء في أوروبا في العصر الوسيط توابلها وهي : الزعتر (السعتر) ، والمردقوش (البردقوش) ، وورق الغار المعروف باسم ورق اللور أو اللوري ، والساريت sariette (وهو نوع من البهار الذي يستخدم خاصة لتتبيل الفاصوليا ويسميه البعض بهار الفاصوليا) ، والينسون، والكزبرة، والثوم الذي قال عنه طبيب القرن الثالث عشر الشهير أرنو دي ڤيلنيف Arnaud de Villeneuve، إنه ترياق الفلاحين ، والدواء الذي يعالجون به كل الأمراض . وظهر الزعفران من بين العطارة المحلية فكان أول صنف تبوأ مقعد الترف.

وكان العالم الروماني، منذ عصر پاوتوس Plautus، وكاتو الكبير Cato مولعاً بنبات السيلفيوم silphium الليبي، وهو نبات غامض اختفى من الإمبراطورية الرومانية

في القرن الأول ، ونقرأ عن يوليوس قيصر أنه عندما فض خزانة الامبراطورية في عام ٤٩ وجد فيها ١٥٠٠ رطل ـ أكثر قليلا من ٤٩٠ كجم ـ من هذا السيلفيوم . ثم ظهرت بعد موجة السلفيوم موجة جديدة ، هي موجة نوع من العطارة الفارسية اسمه حلتيت asa foetida ، " له رائحة كريهة نتنة هي السبب في تسميته باسم stercus diaboli أي براز الشيطان " ، وما يزال الحلتيت مستخدما إلى اليوم في بعض الأطعمة الفارسية. ولم يصل الفلفل إلى روما ولم تصل اليها التوابل الأخري إلا في وقت متأخر، " لم تكن معروفة في روما في الوقت السابق على فارون Varro وهوراتس Horatius، ولكنه عرف هناك بعد ذلك ، وإن عبر بلينيوس عن دهشته للحظوة التي نعم بها الفلفل." كان الفلفل قد شاع في زمانه ، وكان ثمنه متواضعاً نسبياً. ويذكر پلينيوس أن أسعار التوابل الجيدة كانت في زمانه أقل من سعر الفلفل، وهذا وضع سيتغير بمرور الوقت. فقد انتهى الأمر بالفلفل إلى أن أصبحت له في روما مخازن أو صوامع خاصة به سميت horrea piperataria ، وجد فيها ألاريك الأول Alaric ـ ملك الڤيزيجوت أو قوط الغرب ـ عندما اجتاح روما في عام ٤١٠ خمسة آلاف رطل من الفلفل غنمها مع ما غنم من ثروات المدينة " (١٢٩).

وورثت أوروبا الفلفل ، والتوابل عن روما. ومن المحتمل أن الفلفل والتوابل كانت بضاعة نادرة في أيام شارلمان (٧٤٢ ـ ٨١٤) لأن البحرالمتوسط كان في عصره شبه مغلق في وجه البلاد الأوروبية المسيحية . ولكن الأحوال ما لبثت أن تغيرت، وانتهت أيام الحرمان من الفلفل والتوابل ، وتحولت من الضد إلى الضد، وكأنما انتقمت أيام الحرمان لنفسها . فقد شهد القرن الثاني عشر جنونا بالتوابل ما في ذلك شك، وضحى من أجلها بكل أو بجل ما توفر لديه من المعادن النفيسة ، ودخل تجارة الشرق الصعبة التي جعلته يدور حول نصف الكرة الأرضية، وقد بلغ هذا الشغف بأهل أوروبا حد القبول ببدائل أخرى، الى جانب الفلفل الحقيقي، الأسود أو الأبيض (والفلفل يكون أسود اللون إذا احتفظ بقشرته السمراء، وأبيض اللون إذا كان مقشوراً) فقبلوا بالفلفل الطويل الحامي الذي استوردوه من الهند أيضا ، وأصبح هذا الفلفل الطويل من التوابل البديلة للفلفل الأصلي، ومن التوابل البديلة للفلفل أيضاً ، الفلفل التقليد أو المالاجيت malaguette الذي استوردوه من ساحل غينيا (١٢٠). ولم يفلح الملك فرديناند الكاثوليكي، ملك أراجون (١٤٧٩ـ١٥١٦) ، في التصدي لاستيراد القرفة ، والفلفل من البرتغال (وكان استيرادها يؤدي إلى خروج الفضة من البلاد ثمنا لها) ، ولم يقتنع رعاياه بحجته عندما قال لهم " إن الثوم [المَحَلّي] أفضل أنواع التوابل " buena specia es el ajoe"(١٣١).

وتشهد كتب الطهي على أن الولع بالتوابل أصاب كل شيء ، ودخل كل المجالات : اللحوم ، والأسماك ، والمربات ، وأنواع الشوربة ، والمشروبات المترفة . فمن هذا الذي كان يجروء على طهي لحوم الصيد دون أن يتبلها " بالفلفل الحامي "؟ كان التتبيل بالفلفل نصيحة قدمها دويه دارسي Douet d'Arcy في مطلع القرن الرابع عشر. ونقرأ في كتاب " طباخ باريس " Ménagier de Paris الذى يرجع إلى عام ١٣٩٣ نصيحة تبين كيفية استعمال التوابل، يقول : " أخِّر وضع التوابل قدر المستطاع " ، وهو يشرح طريقة تتبيل السجق الأحمر الذي يصنع من الدم ، فيقول : " خذ الزنجبيل ، والقرنفل ، وقليلا من الفلفل، واصحنها معا ". أما الطبق الذي يطلق عليه اسم " أوليه oille " والذي نقله الفرنسيون عن إسبانيا ، فكان خليطا من لحم البقر ، ولحم البط ، ولحم الحَجَل ، ولحم الحمام، ولحم السمان ، ولحم الدجاج (من الواضح أن المقصود هو الطبق الأسباني الشعبي المشهور الى اليوم المسمى أوليا پودريدا olla podrida) ، ويتبل هذا الطبق كما يقول الكتيب بمزيج من التوابل " ، والعطارة الطيبة النكهة ، والرائحة " الواردة من الشرق وغيره وهي : جوزة الطيب ، والفلفل ، الزعتر ، والزنجبيل والريحان ... كذلك كانت التوابل تدخل في صناعة الفواكه المقندة (أى المسكرة) ، وتدخل في تراكيب الأدوية التي كان الأطباء يعالجون بها مختلف الأمراض ، وقد اشتهرت التوابل حقيقة بأنها " تطرد الأرياح " و" تقوي الرجال على الإنجاب " (١٣٢). ونلاحظ في غرب الهند أنهم كثيرا ما كانوا يستخدمون الشطة الحمراء الحامية axi أو chile بدلاً من الفلفل، فيلقون بها في سخاء على اللحوم حتى أن الإنسان الذي لم يألفها لا يستطيع أن يبتلع منها قضمة واحدة(١٣٣).

ويمكننا أن نقول باختصار إنه لا مجال للمقارنة بين هذا الإفراط ، وبين القصد الذي أخذ به العالم الروماني في عصوره المتأخرة . كان العالم الروماني في حقيقة الأمر يستهلك القليل من اللحم (في عصر سيسيرون كان اللحم يخضع لقوانين التقشف)، أما أوروبا في العصرالوسيط ، فكانت على العكس ، تنعم بامتياز أكل اللحم بكثرة . وفي مقدور الإنسان أن يتصور أن اللحم الذي لم يكن دائما طريا ، والذي كان من الصعب حفظه من التلف ، كان السبب في الالتجاء إلى التوابل ، والى أنواع الفلفل القوية، والصلصات الحريفة. كانت التوابل ، والفلفل وسيلة من وسائل ستر عيوب اللحم. ثم إن أطباءنا اليوم يقولون أن هناك حالات نفسية ، نعجب لها أشد العجب، ترتبط بحاسة الشم. ويبدو إن هناك خطا فاصلا بين الشغف بالتوابل " ذات الرائحة النفاذة التي تعلق بالجسم مثل الثوم والبصل ... والشغف بالتوابل الأكثر رقة ذات الروائح العطرية العذبة التي تذكِّر الإنسان بروائح الزهور "(١٣٤). وكانت المجموعة الثانية من التوابل هي المفضلة في العصر الوسيط .

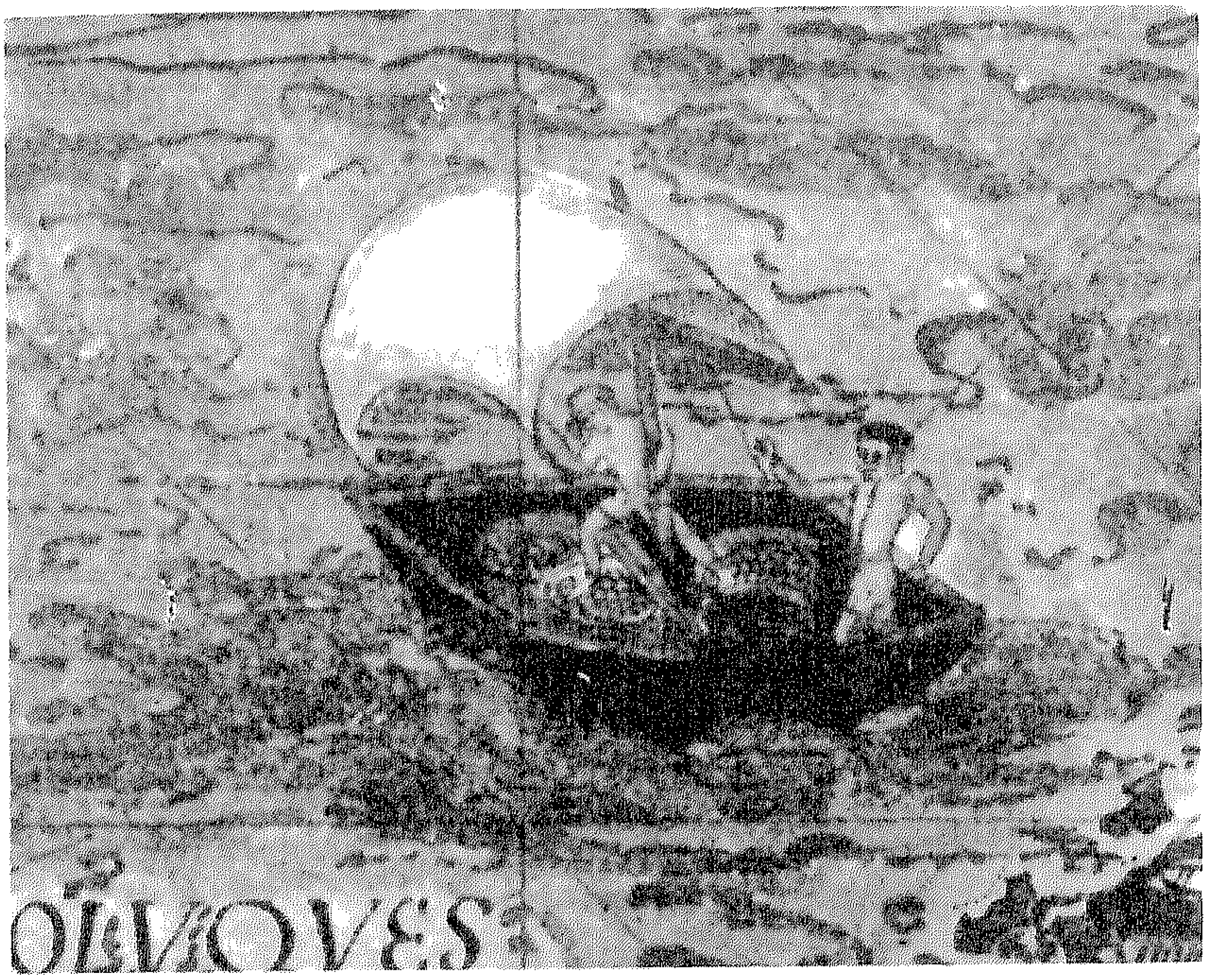

التوابل وكيف يقوم أهل البلد بنقلها . عن مخطوط " كتاب أحوال بلدان العالم " -Cosmogra phie universelle من تأليف ج . ليتستو G. Le Testu ، القرن السادس عشر.

ولكن الأحوال لم تكن يقينا بهذه البساطة . أياً كان الأمر فقد شهد القرن السادس عشر ارتفاعا مفاجئا في ورود التوابل في أعقاب رحلة فاسكو دي جاما Vasco de Gama، وزاد تبعا لذلك استهلاك التوابل التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين ترفا بالغا ، وبخاصة في بلدان الشمال التي تجاوزت مشترواتها من التوابل مشتروات منطقة البحر المتوسط تجاوزا بعيدا . ولم تكن لعبة التجارة ، والملاحة هي وحدها التي نقلت سوق توزيع التوابل من البندقية، وفندن الألمان Fondaco dei Tedeschi إلى ميناء أنتفرپن Antwerpen مرورا بلشبونة وأمستردام . وهذا هو مارتن لوتر يقول ـ طبعا على سبيل المبالغة ـ لقد كثرت التوابل في ألمانيا حتى أصبحت أكثر من القمح. أياً كان الأمر، فقد كان كبار مستهلكي التوابل يتمركزون في شمال أوروبا ، وفي شرقها . كانوا مثلا في هولندة في عام ١٦٩٧ يعتبرون أن أفضل بضاعة يتجر فيها الإنسان ـ بعد النقود ـ " في البلاد الباردة " هي التوابل ، التي كانت تستهلك " بكميات هائلة " في روسيا وپولندة(١٣٥). وربما كان الطلب عليها هناك شديدا أكثر ، لأنها دخلت متأخرة، وربما أفرطوا فيها لأنها كانت لا تزال ترفا جديدا. وكان القس مابلي Mably عندما وصل إلى

كراكاو Krakau قد استقبل بالترحاب فقدموا له نبيذا مجريا ، " ومائدة حافلة ، كان من الممكن أن تكون مائدة ممتازة لو أن الروس وحلفاءهم استغنوا عن هذه العطارة التي يبالغون في استخدامها مثل الألمان ، وهي القرفة وجوزة الطيب التي يسممون بها الأجانب الذين يحلون أرضهم "(١٣٦). ويبدو أن الميل الى التوابل الحريفة والبهارات كان لا يزال في ذلك التاريخ في شرق أوروبا على الحالة التي كان عليها في غربها في العصر الوسيط ، وكانت تلك العادات الغذائية القديمة التي أخذ بها الغرب في العصر الوسيط قد خفت فيه . ولكن حديث القس مابلي حديث انطباعات ، وليس حديثا عن أمور يقينية .

أيا كان الأمر ، فعندما انخفضت أسعار التوابل ، وبدأت تظهر على كل الموائد، ولم يعد استخدامها يدل على الترف والثراء ، أخذ استهلاكها ينكمش، وتزعزعت في الوقت نفسه مكانتها الرفيعة . وهذا هو مانفهمه عندما نطالع كتابا للطهي صدر في عام ١٦٥١ من تأليف فرانسوا پيير دي لاڤارين François - Pierre de La Varenne ، وما نفهمه أيضا عندما نقرأ نصاً ساخراً لبوالو Boileau تهكم فيه من المبالغة في استخدام التوابل (١٣٧).

فلما بلغ الهولنديون المحيط الهندي ، والجزر المحيطية بذلوا الجهد الجهيد ليستعيدوا احتكار الفلفل ، والتوابل ، وليستأثروا بخيراتها ، وتصدوا للتجارة البرتغالية التي سرعان ما تمكنوا من القضاء عليها ، ثم تصدوا للمنافسة الإنجليزية ، ومن بعدها للمنافسة الفرنسية أو الدنمركية . كذلك سعوا سعيا متصلا للإمساك بزمام تموين الصين، واليابان ، والبنغال ، وفارس، وكانوا إذا تعرضوا لخسارة في تجارة أوروبا عوضوها بإنماء تجارتهم في اتجاه آسيا . ومن المحتمل أن تكون كميات الفلفل التي وصلت إلى أوروبا عن طريق أمستردام (وخارج سوقها) قد شهدت تزايدا على الأقل حتى منتصف القرن السابع عشر ، ثم بقيت ثابتة على مستوى مرتفع . وربما كانت واردات الفلفل السنوية - قبل صعود النجم الهولندي - حول عام ١٦٠٠ في مستوى عشرين ألف قنطار (من قناطيرنا الفرنسية الحالية) فإذا قسمنا هذه الكمية على ١٠٠ مليون أوروبي كان متوسط حصة الفرد ٢٠ جراما في العام . أما في عام ١٦٨٠ فربما أمكننا أن نجازف ونقبل بكمية استهلاك سنوي من الفلفل في حدود خمسين ألف قنطار ، أي أنه زاد عن أيام الاحتكار البرتغالي بنسبة ٢٥٠ ٪ .ويبدو أن الاستهلاك وصل إلى الحد الأقصى، على ما يتبين لنا من مراجعة مبيعات شركة الهند الشرقية (الهولندية) من عام ١٧١٥ إلى ١٧٣٢. أما الشيء المؤكد فهو أن الفلفل (ومن بعده التوابل الأخرى التي جرها وراءه) قد كف عن أن يكون هو السلعة المهيمنة ، كما كانت الحال من قبل ، في أيام آل پيرولي Piruli وآل سانودو Sanudo، تلك الأيام التي شهدت ازدهار البندقية بلا منازع . فبينما

كان الفلفل في الفترة من عام ١٦٤٨ الى ١٦٥٠ يحتل المركز الأول في تجارة شركة الهند الشرقية في أمستردام (٣٣ ٪ من الحجم الكلي للتجارة) إذا به ينزل الى المركز الرابع في الأعوام من ١٧٧٨ إلى ١٧٨٠ (حيث كانت نسبته ١١ ٪) بعد المنسوجات (الحرير ، والقطن ، التي كانت نسبتها ٣٢,٦٦ ٪)، والتوابل " الرفيعة " (التي كانت نسبتها ٢٤,٤٣ ٪ والشاى ، والبن ٢٢,٩٢ ٪) (١٣٨). فهل كانت تلك هي الحالة النمطية التي تمثل نهاية استهلاك من النوع الترفي، وبداية استهلاك من النوع العام؟ أم هل كانت تلك نهاية استهلاك أسرف ، وتجاوز الحدود ؟

هذا التراجع في استهلاك الفلفل يمكن إرجاع السبب فيه إلى ظهور ورواج مواد ترفية جديدة هي القهوة ، والكاكاو ، والكحول ، والتبغ ، بل وإلى تزايد أصناف الخضروات التي أدخلت التنويع شيئاً فشيئاً إلى الموائد في أوروبا ، نذكر : الأسبرجس، والسبانخ ، والخس ، والخرشوف ، والبسلة ، واللوبيا ، والقرنبيط ، والطماطم ، والفلفل الحامي ، والشمام . خرجت هذه الخضروات إلى الناس من حدائق أوروبا ، من إيطاليا مثلا (فقد جلب الملك شارل السابع الشمام من إيطاليا)، وربما جاء بعضها من أرمينيا مثل الكانتالوب ، أو من أمريكا مثل الطماطم ، واللوبيا ، والبطاطس .

بقي تفسير أخير لتراجع استهلاك الفلفل، قال به البعض، ولكنه لايقوم على أرضية صلبة ، ويتلخص هذا التفسير في الإشارة إلى أنه حدث منذ عام ١٦٠٠ تراجع في استهلاك اللحم، وتحول عن نظام الطعام القديم ، تبعه القصد في استهلاك الفلفل، والتوابل، فقد أخذ الأغنياء أنفسهم في هذا الوقت بفن للطهي أكثر بساطة أي أكثر استهلاكا للحوم ، على الأقل في فرنسا. ويرى أصحاب هذا التفسير أن فنون الطهي في ألمانيا ، وبولندة تأخرت عن هذا التحول، وظلت أكثر سخاء في استهلاك اللحوم، وظلت بالتالي تحتاج إلى كميات أكبر من الفلفل، والتوابل .ولكن هذا التفسير لا يقوم إلا على الاحتمالات، ومن الممكن أن نقنع بالتفسيرات السابقة إلى أن تتاح لنا بيانات أوفى.

وهناك دليل بين على حدوث هذا التشبع في السوق الأوروبية يتمثل في أن الهولنديين - بناء على ما ذكره عالم اقتصاد ألماني في عام ١٧٢٢ ، وشاهد انجليزي في عام ١٧٥٤ - كانوا " يحرقون أو يلقون في البحر أحيانا كميات كبيرة من الفلفل ، وجوزة الطيب .. حفاظا على مستوى الأسعار " (١٣٩). ثم إن الأوربيين لم يكونوا يهيمنون على مزارع للفلفل ، باستثناء مزارع الفلفل في جاوة ، ولم تخرج المحاولات التي قام بها بيير باوڤر Pierre Poivre في الجزر التابعة لفرنسا ، وهي جزر موريشيوس في المحيط الهندى، وجزر الرينيون في المحيط الهندي أيضا، وكان حاكما لها (في عام ١٧٦٧)، عن كونها محاولات عابرة ، لم تستمر . كذلك كانت الحال بالنسبة للمحاولات الشبيهة التي جرت في غيانا الفرنسية (أمريكا الجنوبية).

ولما لم يكن هناك شيء بسيط على إطلاقه، فإننا نرى أن الفرنسيين في القرن السابع عشر عندما قطعوا ما بينهم ، وبين التوابل من ولع ، تملكهم شغف بالعطور، وإذا بهذه العطور تغزو مجالات المأكولات المسبكة ، والجاتوهات ، والمشروبات الروحية، والصلصات، نذكر منها : العنبر ، والسوسن ، وماء الورد أو المورد ، وماء الزهر أو المزهر (زهر البرتقال) ، والبردقوش، والمسك أو الطيب ... ولنا أن نتخيل البيض الذي كانوا يرشونه " بالمياه المعطرة " قبل أن يقدموه إلى الذواقة من الطاعمين.

السكر يغزو العالم

قصب السكر نبات موطنه الأصلي ساحل البنغال بين دلتا الكنج وأسام Assam، ومن هناك انتقل قصب السكر إلى الحدائق حيث ظل وقتا طويلا يزرع ليستخرج منه العصير الحلو، ثم ليستخرج منه السكر الذي كان يعتبر فيما مضى دواء : ونجده في الوصفات الطبية لأطباء فارس في أيام الساسانيين ، كذلك نجد السكر دواء في بيزنطة حيث كان منافسا لعسل النحل في الأدوية . ثم نجد السكر في القرن العاشر في دستور العقاقير الذي وضعته مدرسة الطب في سالرنو في صقلية . وكان الناس قد شرعوا يستخدمون السكر في الطعام حتى قبل هذا التاريخ ، في الهند، والصين، وكان قصب السكر قد دخل الصين حول القرن السابع الميلادي ، وتأقلم هناك بسرعة في منطقة كوانج تونج Kouang Toung ذات التلال قرب كانتون . ولا غرابة في ذلك ، فقد كانت كانتون الميناء الأكبر للصين القديمة ، وكانت هناك من خلفه ربوع غنية بالغابات التي كانت مصدراً لخشب الوقود ، وكانت صناعة السكر تتطلب الكثير من الوقود. وقد ظلت منطقة كوانج تونج على امتداد القرون تمثل عصب الإنتاج الصيني. وما جاء القرن السابع عشر حتى اتخذت شركة الهند الشرقية لها هناك وكالة للتصدير ، دون أن تصادف أية مشاكل، وكانت تصدر إلى أوروبا السكر مما تنتجه الصين وتايوان(١٤٠). حتى إذا أَهَلَّ القرن الثامن عشر وجدنا الصين نفسها تستورد السكر من الهند الصينية بأسعار منخفضة انخفاضاً شديداً ، وأقرب الظن أن الصين الشمالية لم تكن تعرف شيئا عن هذه المادة الترفية(١٤١).

وكان قصب السكر معروفا في مصر في القرن العاشر ، وكان السكر يصنع منه بطريقة علمية متقنة، فلما نزل الصليبيون الشام عرفوا السكر وصناعته هناك ، وجاءت معركة عكا التي خسرها الصليبيون في عام ١٢٩١ ، فانتقل السكر في أمتعة المسيحيين إلى قبرص ، وسرعان ما راج السكر هناك رواجا سريعا . وانظر إلى هذه المرأة الحسناء، كاتارينا كورنارو Catherine Cornaro زوجة آخر ملوك بيت لوزينيان Lu-signan ، وآخر ملكة تربعت على عرش جزيرة قبرص (فقد استولى عليها البنادقة في

عام ١٤٧٩) ، إنها : سليلة آل كورنارو ، أعيان تجار البندقية ، وكانوا في زمانهم " ملوك السكر ".

والحق إن قصب السكر، قبل هذه الموجة من الرواج في قبرص ، كان قد دخل صقلية عندما نقله العرب، وتداولوه ، فلقى ازدهاراً هناك ، ثم انتقل إلى بلنسية ، وازدهر فيها أيضاً. حتى إذا أشرف القرن الخامس عشر على نهايته كان قصب السكر قد انتقل إلى سوس في المغرب ، فازدهرت زراعته في واديها ، ومن هناك انتقل إلى جزيرة ماديره Madrere، ثم إلى جزر أزورس Açores وجزر كناريا Canaries في المحيط الأطلسي، وجزيرة ساو تومي Sáo Tomé ، وجزيرة برنس Prince في خليج غينيا. وفي عام ١٥٢٠ انتقلت زراعة قصب السكر إلى البرازيل ، فازدهرت هناك واستقرت في النصف الثاني من القرن السادس عشر ومنذ ذلك الوقت بدأت صفحة جديدة في تاريخ السكر ." فبعد أن كان السكر مادة لا يجدها الإنسان إلا في محلات العطارة والعقاقير،

في القرن الخامس عشر ، رؤوس السكر وصناعة الشربات .

يطلبها المرضى دون غيرهم، أصبح الناس اليوم يأكلون السكر بنهم . [...] وهكذا تحولت تلك المادة إلى غذاء بعد أن كانت في الماضي دواء . هذا ما كتبه أورتيليوس في كتابه "مسرح العالم " في عام ١٥٧٢.

فلما طرد الهولنديون من رسيف Recife في البرازيل في عام ١٦٥٤، وتعقبت محاكم التفتيش المارانيين البرتغال(١٤٣) (وهم اليهود الذين دخلوا في المسيحية فراراً من الاضطهاد) انتقل قصب السكر ، وآلات تصنيع السكر في القرن السابع عشر إلى المارتينيك، وجواديلوب ، وكوراساو الهولندية ، وجامايكا ، وسانتو دومينجو . وبدأت ساعات السعد في سانتو دومينجو حول عام ١٦٨٠ ، ومنذ ذلك الحين أخذ الإنتاج يتزايد تزايدا لم ينقطع . وإذا كان إنتاج قبرص من السكر ، فيما أعلم ، يقدر في القرن الخامس عشر بعدة مئات من القناطير الخفيفة (القنطار الخفيف = ٥٠ كجم) وعلى الأكثر بعدة آلاف ، فإن إنتاج سانتو دومينجو من السكر . عندما بلغ شأوه في القرن الثامن عشر ، كان يقدر بسبعين ألف طن . وقد بلغ استهلاك انجلترا السنوي من السكر في عام ١٨٠٠ نحو ١٥٠٠٠٠ طن ، أي ما يقرب من خمسة عشر ضعف ما كانت تستهلكه في عام ١٧٠٠ ، وكان اللورد شيفيلد Lord Sheffield على حق عندما كتب في عام ١٧٨٣ : " من الممكن أن يزيد استهلاك السكر زيادة كبيرة في المستقبل ، فنصف أوروبا لا تكاد تعرف عنه شيئا " (١٤٥). وكان استهلاك باريس عشية الثورة الفرنسية يقدر بخمسة كيلوجرامات للفرد الواحد في العام (بشرط أن نفترض أن عدد سكان باريس كان ستمائة ألف نسمة، وهو ما نشك فيه) . ولدينا رقم عن عام ١٨٤٩ (نراه أقرب إلى الحقيقة) يبين أن استهلاك الفرد كان آنذاك ٣,٦٢ كجم . وهناك تقدير للاستهلاك في فرنسا كلها يعطينا متوسط استهلاك نظري في عام ١٧٨٨ قدره كيلوجرام واحد . ولا ينبغي أن يغيب عنا أن السكر كان حتى ذلك الحين مادة ترفية على الرغم من إقبال الناس عليه ، وانخفاض سعره نسبيا. كانت بيوت ريفية كثيرة في فرنسا تعلق رأس سكر فوق المائدة ، وكانت طريقة استخدام رأس السكر تتلخص في أن يقرب الإنسان كوبه منه حتى يذوب فيه ما يُحَلّي المشروب . والحق إننا لو شرعنا في رسم خريطة لاستهلاك السكر ، لجاءت خريطة متفاوتة شديدة التفاوت . كانت هناك في مصر في القرن السادس عشر مثلا صناعة صغيرة حقيقية للمربي ، وللفواكه المجففة المسكرة أو المقندة ، وكانت فيها زراعة واسعة لقصب السكر ، حتى إن مصاصة القصب كانت تستخدم وقودا لصهر الذهب (١٤٧). وإذا كانت هذه هي الحال في مصر، فلا سبيل إلى مقارنتها بمناطق كثيرة في أوروبا كانت بكاملها لا تعرف السكر ، وظلت قرنين من الزمان بعد ذلك تتجهله .

ويرجع ضعف إنتاج السكر ، فيما يرجع إليه من أسباب ، إلى تأخر استغلال بنجر السكر، على الرغم من أنه عرف في عام ١٥٧٥ ، وكان العالم الكيميائي الألماني مارجراف Margraff هو الذي تمكن في عام ١٧٤٧ من استخراج السكر من بنجر السكر في صورة صلبة . ولم يبدأ العمل على استخراج السكر من البنجر على نطاق صناعي إلا في سنوات الحصار الذي فرضه نابليون بين عام ١٨٠٦ ، وعام ١٨١٣ على اتجار أوروبا مع انجلترا، وهو ما سمي بحصار القارة الأوروبية Blocus Continental ، ولكن صناعة استخراج السكر من البنجر احتاجت إلى قرن من الزمان ، منذ ذلك الحين، لتتطور وتصبح ذات أهمية كاملة .

ونلاحظ أن التوسع في زراعة قصب السكر ظل قاصرا على المناطق المناخية الدافئة ، وهذا هوالسبب الذي حصر زراعة قصب السكر الصينية في منطقة نهر يانج تسي كيانج Yang-tse-kiang، فلم يتجاوزها إلى الشمال. ثم إن السكر له متطلباته التجارية، والصناعية، فهو يتطلب أيد عاملة وفيرة (كانت تتمثل في أمريكا في العبيد السود) ، ويتطلب منشآت غالية ، من قبيل الآلات التى سميت إنچينيوس yngenios في كوبا، وفي إسبانيا الجديدة أي المكسيك ، وبيرو ، وهي تقابل انچينهوس engenhos في البرازيل، والانجان engins في الجزر التي كانت فرنسا تمتلكها، وربما سميت كذلك بطواحين السكر، وكان الإنجليز يستخدمون كلمة انچين engines للدلالة على هذه الآلات. كان استخراج السكر يتطلب في البداية ادخال قصب السكر بين اسطوانات الآلة ، أو العصارة التي تديرها قوة الدواب، أو قوة المياه ، أو قوة الرياح ، أو تديرها السواعد البشرية، كما كانت الحال في الصين، أو ربما عصر القصب بدون آلة ، حيث يعصره العمال بأيديهم ، يلفونه ، ويلوونه حتى يخرج ما به من عصير، كما كانوا يفعلون في اليابان . ويحتاج العصير بعد ذلك لألوان من المعالجة ، والتجهيز ، والاحتياطات ، فيوضع في أحواض نحاسية يغلونه فيها لمدة طويلة حتى يغلظ قوامه ، ثم يوضع في قوالب فخارية ليتبلور فيها ، فيخرج السكر الخام أو الأسمر moscouadè، وقد يقومون بتكريره ستخدام مادة بيضاء terre blanche فيسمونه terré sucre أو cassonade وهو سكر أقل سمرة من السكر الخام . وكانوا يحصلون على عشرة منتجات مختلفة إضافية في أثناء ذلك، علاوة على الكحول . وكثيرا ما كانت عملية تكرير السكر الخام تتم في أوروبا : في أنتڤرپن ، والبندقية ، وأمستردام ، ولندن ، وباريس، وبوردو، ونانت، ودريسدن ..الخ ؛ وكانت أرباح عملية التكرير تماثل تقريبا أرباح عملية إنتاج السكر الخام ، وكان هذا الوضع سببا في نشوب ألوان الصراع بين القائمين بالتكرير ، والقائمين بإنتاج السكر الخام ، وكان منتجو السكر الخام ، وهم المستعمرون في الجزر المستعمرة، يحلمون بأن يتولوا كل مراحل صناعة السكر وتكريره في مكان الإنتاج ، وإنتاج السكر

الأبيض. ولكن زراعة القصب، وتصنيعه كان يحتاج إلى رؤوس أموال، وإلى شبكات تجارية . فإذا لم تكن هناك شبكات تجارية في موقع الإنتاج ، فإن المبيعات لم تكن تتجاوز السوق المحلية على الإطلاق ، كانت هذه هي الحال في بيرو ، وفي إسبانيا الجديدة أو المكسيك ، وكوبا حتى القرن التاسع عشر . وإذا كانت جزر السكر ، وساحل البرازيل قد شهدت ازدهارا ، وغنى، ورفاهية ، فقد كان السبب في ذلك أنها كانت قريبة نسبيا ، فقد كانت المسافات بينها ، وبين أوروبا معقولة ، نتيجة لما تميزت به السفن في ذلك الوقت من سرعة وحمولة .

وهناك صعوبة إضافية تبينها هذه العبارة التي قالها القس رينال Raynal : " إن إطعام مستعمرة في أمريكا يتطلب زراعة إقليم في أوروبا "(١٤٨) فلم تكن المستعمرات المنتجة للسكر تستطيع أن تطعم نفسها من إنتاجها ، لأنها كانت تزرع الأرض كلها تقريبا بقصب السكر، ولاتترك إلا مربعات قليلة جداً تصل الى الندرة ، هي التي كانوا يزرعون فيها ما يحتاجون إليه من طعام. كانت هذه هي مأساة زراعة قصب السكر كمحصول واحد، في شمال شرق البرازيل ، وجزر الأنتيل ، ووادي سوس المغربي (الذي كشف فيه الأثريون عن معدات انتاج السكر القديمة). ونعلم أن انجلترة صدرت في عام ١٧٨٣ إلى مستعمرتها في الهند الغربية ـ أي أمريكا ـ (وبخاصة چامايكا) ١٦٥٢٦ طن لحم مملح (لحم بقري ، ولحم خنزير) ، و ٥١٨٨ قطعة من شحم الخنزير، و ٢٥٥٩ طن من الكرشة ، والسقط المملح (١٤٩). أما في البرازيل فكان طعام العبيد يعتمد على البكلاه المجلوب بكميات ضخمة من نيوفاوندلاند ، وعلى اللحم المجفف في الشمس carne do sol الذي كانوا يجلبونه من بقاع البرازيل الداخلية الكثيرة الأدغال المسماة سيرتاو sertao، ثم بلحم الشاركوي المجفف charque الذي كانت السفن تأتي به من منطقة ريو جراندي دو سول Rio Grande do Sul . أما جزر الأنتيل فكان رزقها من اللحم البقري المملح والدقيق يأتيها من المستعمرات الإنجليزية في أمريكا ، وكانت تلك المستعمرات تحصل بدلا منه على السكر ، وخمورالروم، وسرعان ما قامت هي بإنتاجه بنفسها.

والخلاصة أنه لا ينبغي لنا أن نتسرع فنتحدث عن انتشار ضخم مفاجيء للسكر، عن ثورة للسكر، صحيح أن السكر دخل مجال الطعام مبكراً ، ولكنه سلك سبيله ببطء بالغ ، ولم يكن منتشراً انتشاراً واسعا في العالم حتى مطلع القرن التاسع عشر. ليس في مقدورنا إن نقول ان السكر كان في متناول الجميع . ولكننا مع ذلك لابد أن نذكر في هذا المقام الإضرابات التي شهدتها باريس في عصر الثورة عندما شح السكر وكانت أسعاره الباهظة محددة بحكم القانون .

المشروبات والمنبهات

ينبغي علينا أن نتعرض للمشروبات القديمة، والجديدة، الشعبية ، والمرفهة ، وما جرى عليها من تغيرات على مر القرون ، حتى إذا كنا بصدد كتابة تاريخ موجز للمشروبات . والمشروبات لا تدخل كلها في نطاق المواد الغذائية ، فقد كانت هناك مشروبات منذ أقدم العصور يتناولها الناس كمنبهات ، أو يتوسلون بها إلى الهروب من الواقع ، بل لقد كان السكْر ، كما مارسته بعض القبائل الهندية ، وسيلة للتواصل مع عالم ما فوق الطبيعة . وأيا كان الأمر، فقد أخذ الإدمان الكحولي يتعاظم في أوروبا على مر القرون التي نتصدى لها في هذا الكتاب . ثم جاءت المنبهات المجلوبة من البلاد البعيدة : الشاي والقهوة ، وكذلك هذا المنبه الذي يصعب تصنيفه ، فما هو بطعام ، وما هو بشراب ، ألا وهو التبغ بكل أشكاله .

الماء

وعلينا أن نبدأ بالماء، حتى وإن بدا الأمر غريباً مناقضاً لما مهدنا به ، والناس لا يجدون الماء بسهولة ويسر دائما كلما طلبوه ، ولا يجدون نوع الماء الذي يريدونه ، على الرغم من نصائح الأطباء ،التي كانت تميز أنواع المياه تمييزا دقيقا بحسب الأمراض ، فتدعي أن هذا الصنف من الماء أحسن من ذلك الصنف ، فقد كان الناس يقنعون بالماء الذي يتاح لهم : ماء المطر ، ماء النهر ، ماء النافورة ، ماء الصهريج ، ماء البئر ، ماء البرميل ، الماء المحفوظ في آنية من النحاس حيث كان كلُّ بيتٍ حريصٍ يحتفظ لنفسه بكمية من الماء. وهناك حالات خارقة للمألوف ، منها مثلا : ماء البحر الذي كانوا يقطرونه باستخدام الأنبيق في الحصون الأسبانية بشمال أفريقيا في القرن السادس عشر، وإلا لكان عليهم أن يذهبوا إلى اسبانيا أو إيطاليا لإحضار ماء الشرب ؛ ومنها كذلك حالة هؤلاء الرحالة الذين كانوا يجتازون الكونغو في عام ١٦٤٨ فأصابهم الجوع ، وأرهقهم التعب ، فارتموا على الأرض ، " وشربوا مياه نكراء كأنها بول الخيول " (١٥٠). ومن الحالات الخاصة التي أقضّت المضاجع : مشكلة الاحتفاظ بالمياه العذبة فوق السفن، ولقد كانت مشكلة لا حل لها على الرغم من كثرة الوصفات التي أحاطها أصحابها بسياج من السرية البالغة مدعين أنها تتيح الحفاظ على الماء العذب من التَّسَنُّه .

وهناك مدن كاملة كانت تعاني من سوء التزود بالماء، على الرغم من غناها وثرائها ، كانت هذه هي الحال في البندقية، التي لم تكن تستمد مياهها من آبار يحفرونها في الميادين العامة، أو أفنية القصور، كما ظن البعض، ليستخرجوا الماء من طبقة مياه عذبة يتصورونها تحت التربة التي يغمرها ماء البحر، وإنما كانت تستمد مياهها من صهاريج

تمتليء إلى نصفها بالرمل الناعم ينفذ ماء المطر من خلاله ويتكرر ثم يعلو من خلال البئر التي يتخذونها في وسط هذا الصهريج الكبير . فإذا توقفت الأمطار عن الهطول لأسابيع طويلة فرغت الصهاريج وجفت ، كما حدث في أثناء إقامة ستندال Stendhal فى البندقية . أما إذا هبت العاصفة ، فإن ماء البحر المالح كان يصل إلى الصهاريج. بل إن مياه الصهاريج لم تكن تكفي الناس في الأوقات العادية نظرا لضخامة أعداد سكان المدينة . ولهذا كانوا يجلبون الماء العذب ، لا عن طريق مجرى ذي عيون ، وإنما عن طريق السفن التي تتحمل بالماء العذب في برنتا Brenta وتسير على صفحة قنوات البندقية حاملة الماء إلى الناس . فلا غرابة أن نجد السقايين الذين يعملون على هذه السفن acquaroli يكونون طائفة حرفية مستقلة في البندقية. ونجد نفس هذا الوضع الصعب في كل مدن هولندة التي لم يكن لها من سبيل الى الماء العذب إلا الصهاريج، والآبار القليلة العمق ، وماء القنوات الذي يفتقر إلى الأمان (١٥١).

ونحن إذا نظرنا إلى مجاري المياه التي كانوا يبنونها على هيئة أسوار تعتمد على عقود أو بوابات ، والتي عرفت باسم مجاري العيون aqueducs وجدنا أنها كانت في مجموعها قليلة ، كانت هناك مجار فوق عيون في استانبول ، ذاعت شهرتها ، وكانت جديرة بهذه الشهرة ، وكانت هناك مجار فوق عيون في شيقوبية Segovia (في أسبانيا) ترجع إلى زمان الرومان (ورممت في عام ١٨٤١) وكانت تفوح منها رائحة التسنه والنتن، فأطلقوا عليها اسم المنتنة la puente، وكانت على أية حال تثير إعجاب الزوار .

وكانت البرتغال توشك أن تحقق الرقم القياسي بمجاري العيون التى أقيمت فيها ، في قلمرية Coimbra، وتومار Tomar، وبيلا دو كوندي Vila do Conde ، وإيلباس Elvas. وأنشيء في لشبونة مجرى عيون جديد للمياه العذبة بين عام ١٧٢٩، وعام ١٧٤٨ ، يحمل الماء إلى نبع في ميدان راتو Rato البعيد، وكان السقاؤون يتزاحمون حول نبع الماء لملء دلائهم الحمراء ذات المقابض الحديدية التي كانوا يحملونها على كواهلهم(١٥٢). ومن هنا فقد كان من المنطقي أن يحرص البابا مارتان الخامس (جلس على كرسي البابوية من ١٤١٧ إلى ١٤٣١) أول ما يحرص، عندما عادت البابوية إلى الفاتيكان بعد حركة الانشقاق الكبير في الكنيسة الغربية ، على ترميم مجرى عيون متهدم في روما. ثم كان من الضروري إنشاء مجريين جديدين من مجاري العيون في نهاية القرن السادس عشر ، لتزويد روما بالماء ، وهما مجرى أكوا فيليتشي aqua felice ومجرى أكوا باؤلا aqua Paola. أما في جنوه فإن تغذية النافورات بالماء العذب كان يتم أساسا عن طريق مجرى عيون سكوفاره Scuffara، كانت به عجلات سواق تتحرك بقوة الماء داخل مباني مجرى العيون الشبيهة بالأسوار، وتوزع المياه على

الأحياء شرقي المدينة. أما غرب المدينة فكان يحصل على الماء من الينابيع ، والصهاريج(١٥٣). وننتقل إلى باريس، لنرى أن مجرى عيون بيلڤيل Belleville تم ترميمه في عام ١٤٥٧؛ وكذلك مجرى عيون بريه سان جيرڤيه Pré-Saint -Gervais الذي ظل يغذي المدينة بالماء حتى القرن السابع عشر؛ وأعادت ماري دي مديسيس بناء مجرى عيون أركوى Arcueil، وكان ينقل الماء من رونچيس Rungis إلى لوكسمبورج Luxembourg(١٥٤). وكانت هناك عجلات هيدروليكية كبيرة ترفع الماء من الأنهار لتزود بها أهل المدن (طليطلة ١٥٢٦ ؛ أوجسبورج ١٥٤٨) وكانت تشغل طلمبات

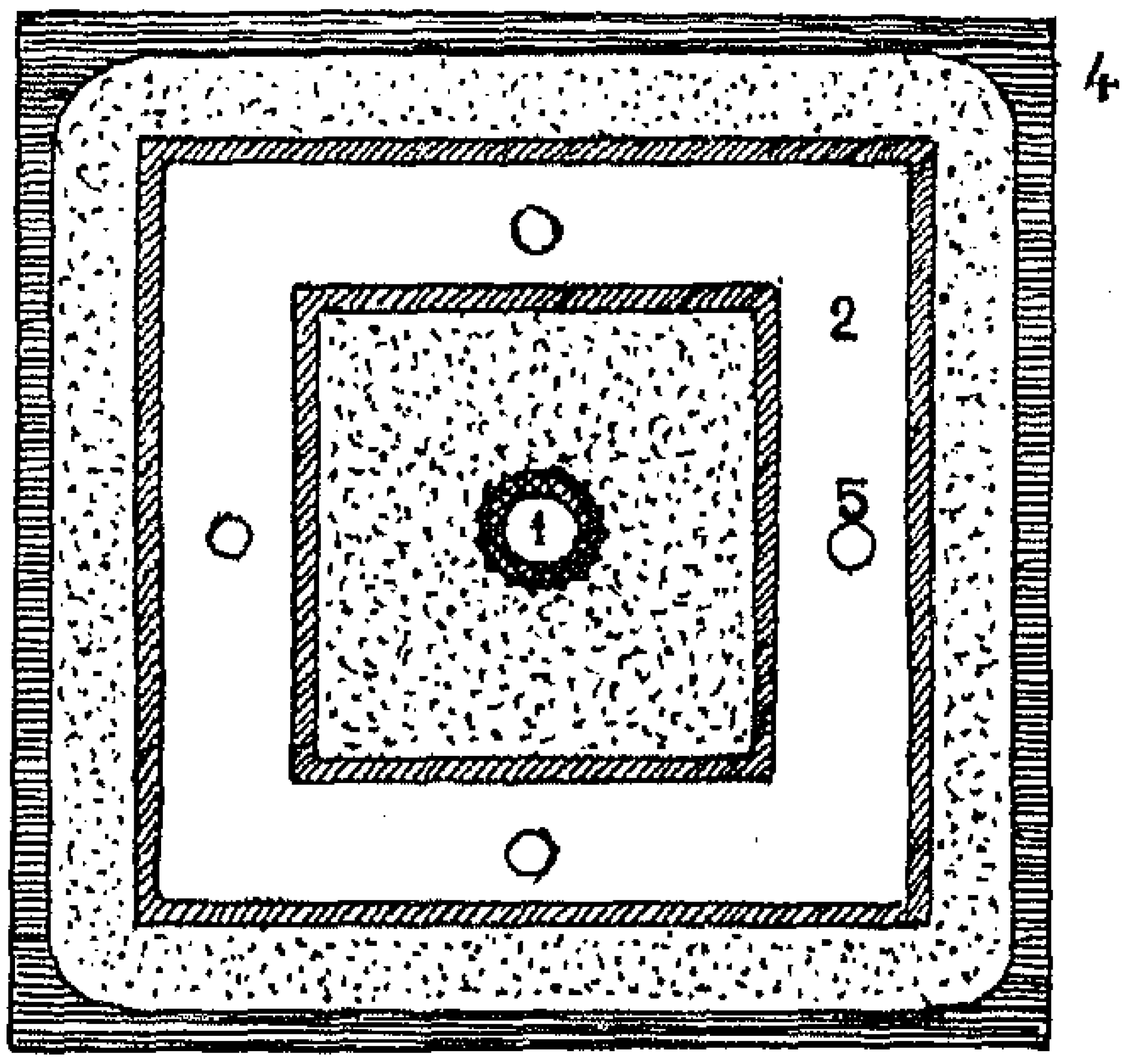

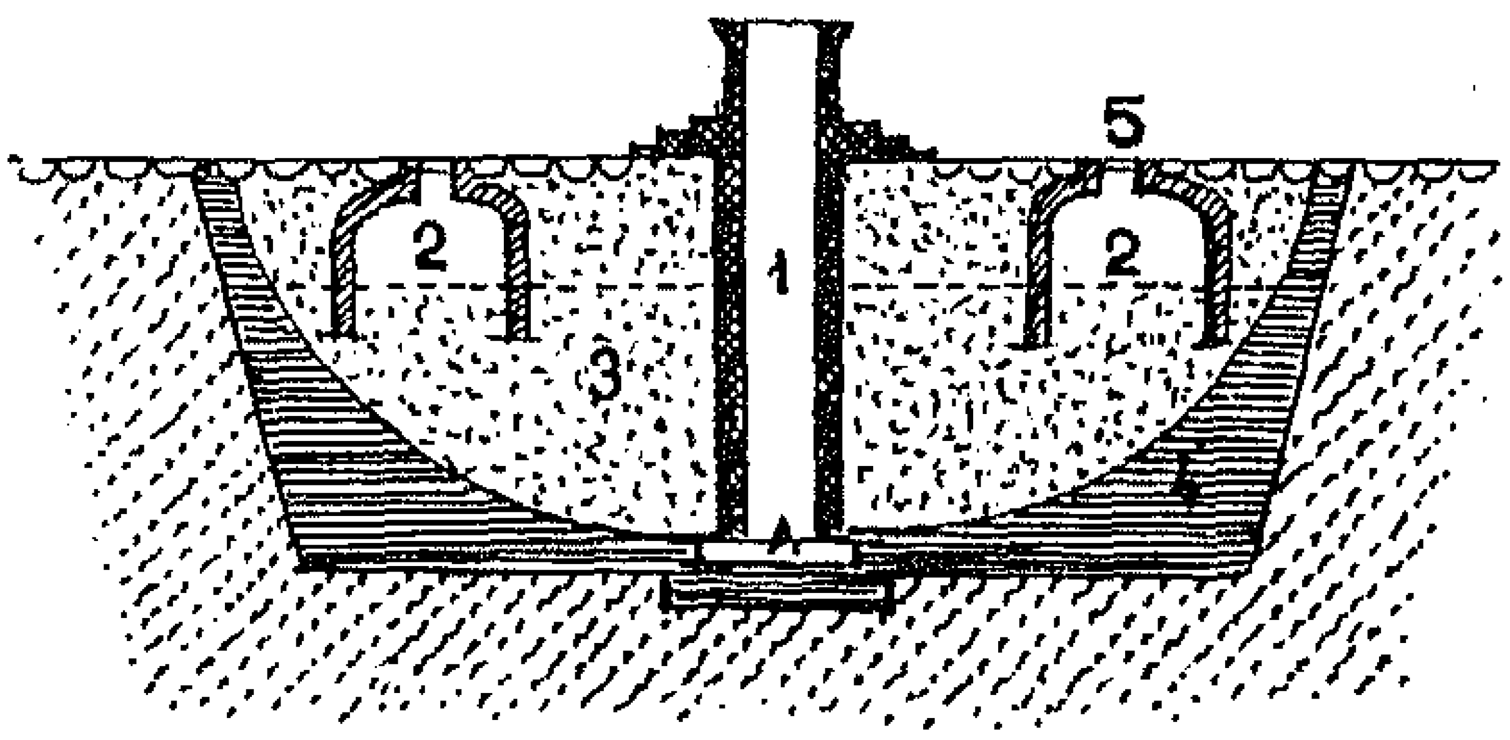

٢١ - بئر في صهريج : مسقط من أعلى ومقطع عرضي

١. بئر مركزية ٢ . خزانات لتجميع مياه الأمطار ٣ . رمل الترشيح ٤ . تكسية من طين الفخراني ٥ . فتحات خزانات التجميع التي كانت العامة تسميها بيليلي pilele أي أحواض الماء المباركة . وكانت المياه التي تتكرر من خلال الرمل ترتفع في البئر المركزية. وفي البندقية اليوم شبكة مياه ، ولكن الآبار القديمة لا تزال موجودة ، منها ما هو الميادين العامة ، ومنها ما هو في أفنية البيوت .

(نقلا عن E. R. Trincanato)

ماصة كابسة. وكانت طلمبة الساماريتين Samaritaine التي أنشئت بين عام ١٦٠٣ وعام ١٦٠٨ تصرف كل يوم ٧٠٠ متر مكعب من الماء تستمدها من نهر السين وتزود بها قصر اللوفر Louvre وقصرالتويليري Tuileries؛ وكانت طلمبات جسر نوتردام Notre-Dame تصرف في عام ١٦٧٠ ألفي متر مكعب تستمدها من نهر السين . وكانت مياه مجاري العيون توزع بعد ذلك عن طريق برابخ من الفخار (كتلك التي كانت تستعمل أيام الرومان) أو برابخ من الخشب (كانت عبارة عن جذوع أشجار مقورة على هيئة المواسير تركب بعضها في البعض الآخر) ؛ كانت هذه البرابخ مستخدمة في شمال إيطاليا منذ القرن الرابع عشر ؛ وفي مدينة بريسلاو Breslau (منذ عام ١٤٧١) وربما استخدموا مواسير من الرصاص ، إلا أن المواسير المصنوعة من الرصاص التي عرفت في انجلترا منذ عام ١٢٣٦ ظلت محدودة الاستخدام . ففي عام ١٧٧٠ كانت مياه نهر التيمز، " وكانت مياه غير جيدة على الاطلاق " ،تصل إلى كل البيوت اللندنية عن طريق مواسير خشبية مدوها تحت الأرض ، ولكن المياه لم تكن مياها جارية مستمرة على النحو الذي نعرفه ، ولكنها كانت " توزع بانتظام ثلاث مرات أسبوعيا بكميات محددة تكفي استهلاك كل بيت [...] وكانت تخزن في براميل خشبية حولها أطواق من الحديد"(١٥٥).

كان نهر السين هو المورد الرئيسي للمياه التي تحتاج إليها باريس، وكانت مياهه ، التي نسبوا إليها كل الميزات العظيمة ، ومنها ميزة لا تهم الشاربين ، وهي أن هذه المياه كانت موحلة، مطينة ، تحمل السفن على نحو جيد ، نظرا لارتفاع كثافتها (وهذا ما سجله مبعوث برتغالي في عام ١٦٤١) ؛ وربما ادعوا أنها ممتازة صحياً، وهذا ادعاء لنا الحق كل الحق في الشك فيه . فهذا شاهد عيان يقول في عام ١٧٧١ : " إذا نظرت إلى ذلك الجزء من فرع نهر السين الذي يبلل بمياهه رصيف پيلليتييه Pelletier، وكذلك الجزء الممتد في المنطقة بين الكوبريين ، رأيت عدداً كبيراً من الصباغين يلقون فيه ثلاث مرات كل أسبوع ما يتخلف عن عملهم من مواد الصباغة [...] أما العقد المقوس الذي يتكون منه رصيف چيڤر Gévres فهو بؤرة منتنة موبؤة . وسكان هذا الحي الباريسي يشربون ماء ملوثا "(١٥٦). ولكن لنطمئن ، فلن يمر وقت طويل حتى تتخذ الإجراءات لعلاج هذا الوضع السيء . ومهما كانت مياه نهرالسين من السوء ، فقد كانت أفضل من مياه الآبار التي كان الناس في الضفة الغربية للسين يستمدون منها مياههم ، فلم تكن قط بمنأى عن تسرب النفايات الرهيبة إليها ، وكان الخبازون يستعملون هذه المياه في صناعة الخبز . كانت هذه المياه تسبب للناس الإسهال ، وكأنما كانت تحتوي بطبيعتها على عقاقير ملينة ، فلا غرابة أن نعلم أنها كانت تثير سخط الأجانب ، ولكنهم كانوا يستطيعون التغلب على هذه المشكلة بإضافة بعض قطرات من الخل إلى الماء ، أو شراء

المياه المرشحة ، أو " المحسنة " كما كانوا يقولون ، أو حتى المياه التي كانوا يسمونها مياه الملك ، أو أفضل من هذه وتلك المياه التي كانوا يسمونها مياه بريستول Bristol ، " وكانت أغلى أنواع الماء ". ولكن الناس كانوا حتى عام ١٧٦٠ يجهلون هذه الرفاهية بأشكالها المختلفة " وكانوا يشربون ماء [السين] دون أن يطيلوا النظر إليه "(١٥٧).

وكان تزويد باريس بالماء حرفة يعيش عليها ٢٠٠٠٠ من السقائين - عيشة سيئة - يقوم الواحد منهم بثلاثين مشواراً كل يوم (حاملاً في كل مشوار دلوين) صاعداً بهما إلى أعلى الأدوار (كل مشوار لقاء أجر زهيد قدره سولان 2 sols). ثم بدأت ثورة عندما قام الأخوان پيرييه Perier بتركيب مضختين بخاريتين - أو ناريتين كما قيل آنذاك - حول عام ١٧٨٢ في شايو Chaillot ، " كانتا آلتين عجيبتين " ترفعان الماء باستخدام " بخار الماء الذي ترفع درجة حرارته إلى درجة الغليان " الى ارتفاع ١١٠ قدم فوق سطح نهرالسين ، وكانتا في ذلك تقلدان ما جرى في لندن التي كانت بها منذ عدة سنوات تسع مضخات . وكان حي سانت أونوريه Saint-Honoré وهو أكثر أحياء باريس ثراء هو السباق الى الأخذ بهذا التطور لأنه كان قادراً على دفع ثمنه . ولكن هل كان الناس ، عندما تعددت هذه المضخات ، يهتمون للمصير الذي سيصير إليه هؤلاء السقاءون الذين كان عددهم عشرين ألف سقاء ؟ ثم إن مشروع تركيب المضخات ما لبث أن تحول الى فضيحة مالية في عام ١٧٨٨ . ولكنها لم توقف التطور فقد كانت مشكلة توصيل مياه الشرب قد طرحت في القرن الثامن عشر بشكل واضح ، وكانت الحلول في مرمى البصر ، بل كان الوصول إليها قد تحقق في بعض الأحايين . ولم يقتصر الأمر على العواصم ، فقد كان هناك مشروع لتوصيل مياه الشرب في مدينة أولم Ulm الألمانية في عام ١٧١٣ ولم تكن أولم من العواصم ، مما يثبت أن توصيل المياه لم يقتصر على العواصم .

ولكن التطور في هذا المجال جاء ، على الرغم من كل هذا ، متأخرا ، فقد ظلت جميع المدن في العالم تعتمد على خدمات السقا. ونعود إلى الرحالة البرتغالي فنلتقي به في بلد الوليد بأسبانيا في زمن الملك فيليب الثالث، ونجده يشيد بالمياه الممتازة التي يبيعونها هناك في جرار رائعة من الفخار، اتخذوها على كل حجم ، وعلى كل لون(١٥٨). وكان السقا في الصين ، مثل نظيره السقا الباريسي ، يحمل دلوين يربطهما متوازيتين في طرفي عصا. ويبين رسم يرجع الى عام ١٨٠٠ أنهم كانوا في بكين ينقلون الماء أيضا في برميل كبير له عجل ، وله صنبور من الخلف . ولدينا من العصر نفسه رسم بالحفر " يبين الطريقة التي تحمل بها النساء الماء في مصر " حيث تحمل المرأة زلعتين ، تذكراننا بالأمفورات amphores التى كانت مستخدمة في بلاد اليونان قديما : فتضع المرأة زلعة كبيرة على رأسها تسندها بيدها اليسرى ، وزلعة صغيرة على

راحة يدها اليمنى ، وقد ثبتت ذراعها على نحو يتسم بالرشاقة ، والطلاوة . ونرى في استانبول أن التوضوء بالمياه " الجارية " الذي يفرضه الدين عدة مرات في اليوم قد دفع الناس إلى اتخاذ نافورات كثيرة في كل مكان . وما من شك في أن الناس هناك كانوا يشربون منها ماء أنقى من أى ماء آخر يشربه غيرهم في أي موقع من مواقع العالم . فهل هذا هوالسبب الذي جعل الأتراك يمتدحون قدرتهم على تمييز مذاق المصادر المائية المختلفة ، كما يمتدح الفرنسيون قدرتهم على تمييز مذاق الأنبذة المختلفة ؟

أما الصينيون فهم ينسبون إلى كل صنف من صنوف الماء خاصية مختلفة بحسب مصدره : فهناك ماء المطر العادي ، وماء المطر العاصف (خاصيته : ماء خطير) ، وماء المطر الذي يسقط في مستهل الربيع (خاصيته : ماء نافع) ، الماء الناتج من ذوبان الثلوج أو الندي المتجمد ، الماء الذي ينضحونه من الكهوف التي تتدلى من سقوفها الثلوج على هيئة الحراب أو المقرنصات (خاصيته: غالبا ما يستخدم دواء) ، مياه الأنهار ، مياه الينابيع ، مياه الآبار - ولهم كلام عن تلوث المياه ، وعن فائدة الغليان في التغلب على عيوب كل صنوف الماء المشكوك في صلاحيتها (١٥٩) . ثم ان الناس في الصين لا يشربون إلا المشروبات الساخنة (حتى انك تجد في الشوارع باعة تخصصوا في بيع الماء المغلي)(١٦٠) ، وليس من شك في أن هذه العادة قد أسهمت إسهاما كبيرا فيما ينعم به الصينيون من صحة جيدة .

أما استانبول فكانوا يبيعون فيها ، على عكس الصين ، ماء الثلوج صيفا في الشوارع لقاء أجر زهيد. وانظر إلى البرتغالي بارتولومي بينيرو دا بيجا Bartolomé Pinheiro da Veiga تجده يدهش في مدينة بلد الوليد الأسبانية في مستهل القرن السابع عشر لأن الإنسان يستطيع لقاء ثمن بخس أن يمتع نفسه في أثناء شهور القيظ " بالماء البارد ، والفاكهة المثلجة " (١٦١). ولكن ماء الثلوج الذائبة كان في أغلب الأحيان ترفاً كبيراً لا يقدر عليه إلا أولو اليسار من الناس . كانت تلك هي الحال على سبيل المثال في فرنسا التي لم تبدأ في تقدير طعم ماء الثلوج الذائبة إلا منذ أن لعب به الملك هنري الثالث في نزوة من نزواته . كذلك كانت الحال في منطقة البحر المتوسط حيث قامت السفن المحملة بالثلوج برحلات ربما طالت أحيانا . وكان فرسان المعبد أو فرسان مالطة يتزودون بالماء من نابلي ، ونقرأ في طلب قدموه في عام ١٧٥٤ أنهم هالكون لا محالة ، إذا حيل بينهم وبين ماء الثلوج الذائبة ، الذي يعالجون به الحمى إذا ألمت بهم ، وكانوا يعتبرونه " الدواء الذي لا يعلو عليه دواء آخر ..." (١٦٢).

النبيــــذ

إذا تناولنا بالحديث شرب النبيذ ، كان علينا أن نحيط بأوروبا قاطبة ، أما إذا دار

الرفاهية في القرن السابع عشر : بئر يمتحون منها الماء في المطبخ. لوحة من رسم بيلاسكويث Velasquez.

حديثنا حول إنتاج النبيذ ، فإننا نجده يقتصر على بعض ربوع أوروبا دون ما سواها. وعلى الرغم من أن الكروم (وربما النبيذ) قد حققت ألوانا من النجاح في آسيا وأفريقيا، وعلى نحو أوسع في العالم الجديد، حيث شغف الناس بعصر الخمر على النمط الأوروبي الذي ملك عليهم نفوسهم ، فإن أوروبا الضيقة ظلت هي منتج النبيذ الوحيد الذي له وزن .

كانت المناطق المنتجة للنبيذ في أوروبا هي مجموعة البلدان المطلة على البحر المتوسط، يضاف إليها منطقة في الشمال دخلت هذا المضمار بفضل مثابرة زراع الكروم فيها ، وما أخذوا أنفسهم به من دأب . وچان بودان Jean Bodin هو القائل : " إن الكرمة لا تستطيع النمو فيما شمال خط العرض ٤٩ نتيجة لبرودة المناخ " (١٦٣). والخط الذي يمتد من مصب نهر اللوار على المحيط الأطلسي حتى شبه جزيرة القرم ، ومن

ورائها إلى چيورچيا ، وجنوب القوقاز ، يمثل الحد الشمالي لزراعة الكروم زراعة " تجارية"، أو الحد الشمالي لمرفق من المرافق الكبيرة للحياة الاقتصادية في أوروبا ، وامتداداتها الى الشرق . فإذا نظرنا إلى منطقة القرم وجدنا أن مساحات زراعة الكروم كانت تنكمش على هيئة شريط لن تدب فيه الحياة والقوة من جديد إلا في القرن التاسع عشر (١٦٤). وكانت هذه المنطقة فيما مضى من الزمان منطقة زراعة كروم عريقة ، وكان الزراع في العصور القديمة يدفنون فيها الكروم عندما يقترب الشتاء حماية لها من الرياح الباردة التي تهب من أكرانيا (اسمها باللغة الأكرانية Ukrajina).

أما إذا خرجنا من أوروبا ، فإننا نجد أن الكروم تتبع الأوروبيين حيثما ذهبوا ، وقام الرواد بجهود دونها جهود الأبطال من أجل أقلمة الكروم في المكسيك، وبيرو، وشيلي منذ عام ١٥٤١ ، والأرچنتين منذ التأسيس الثاني لبوينوس أيريس في عام ١٥٨٠ . أما في بيرو فقد ازدهرت زراعة الكروم بسرعة في الوديان الحارة الموبوءة بالحميات المجاورة لليما Lima، وكانت مدينة واسعة الثراء ، وازدهرت الكروم على نحو أفضل في شيلي، حيث التربة مناسبة والجو موات : ونمت الكروم بين التربيعات cuadras، أو كتل المنازل الأولى في مدينة سانتياجو الناشئة. حتى إذا جاء عام ١٥٧٨ قرأنا عن الملاح فرنسيس دريك Drake أنه قبض في عرض البحر قبالة بالبارايزو Valparaiso على سفينة عليها شحنة من النبيذ الشيلي(١٦٥). وكان هذا النبيذ الشيلي نفسه يصل على ظهور البغال واللاما إلى مرتفع پوتوسي Potosi. أما كاليفورنيا فكان على زراعة الكروم فيها أن تنتظر حتى نهاية القرن السابع عشر ، ومطلع القرن الثامن عشر ، عندما امتدت الامبراطورية الإسبانية امتدادها الأخير نحو الشمال .

أما النجاح الباهر، الذي فاق في هذا المجال كل نجاح قبله ، فقد تحقق في قلب المحيط الأطلسي، في منطقة بين العالم القديم والجديد ، هي الجزر التي كانت وسطا بين أوروبا وأمريكا ، ونعني بها في المقام الأول ماديرا حيث حلت صناعة النبيذ الأحمر تدريجيا محل صناعة السكر، ثم جزر الأزور التي كانت التجارة الدولية تجد فيها في منتصف الطريق بين أوروبا ، وأمريكا أنواعا من النبيذ القوي ، ثم دخلت السياسة بخيرها ، عندما عقد اللورد ميثوين Methuen معاهدة مع البرتغال في عام ١٧٠٤ ، فحلت أنبذة الأزور محل أنبذة فرنسا التي كانت ترد من لاروشيل La Rochelle وبوردو Bordeaux؛ وأخيراً في جزر الكناريا ، وبخاصة في تينيريفه Tenerife التي كان ما تنتجه من نبيذ أبيض يصدر على نطاق واسع إلى أمريكا ، سواء منها المناطق الأنجلوسكسونية أو المناطق الأسبانية والبرتغالية ، بل إلى انجلترا نفسها.

أما في اتجاه الجنوب ، والشرق فقد اصطدمت الكروم بعقبة عنيدة هي الإسلام، ولكن الكروم ظلت باقية في عالم الإسلام ، أما النبيذ فكان كالمسافر المتخفي الذي لا يكف عن الترحال في الخفاء . وإذا نظرنا إلى استانبول وجدنا أصحاب الحانات المجاورة للترسانة البحرية يبيعون كل يوم بضاعتهم إلى الملاحين اليونانيين ، ووجدنا للسلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الملقب بالقانوني أو العظيم ، ابنا هو سليم ، كان مولعا بنبيذ قبرص القوي ولعا بغير حدود . وفي بلاد فارس كان للرهبان الكبوشيين تكعيبات كرومهم ، وكانت لهم أنبذتهم التي لم يقتصر استخدامها على المناولة في أثناء إقامة القداس ، بل كانت تباع في شيراز وإصفهان ، وكان لها زبائنها ، وكانت تحظى بشهرة كبيرة . وكانت هذه الخمور تصدر حتى بلاد الهند تحمل اليها في دمجانات ضخمة من الزجاج تحاط بسلال من الخيزران ، كانوا يصنعونها في إصفهان نفسها(١٦٦). ومن أسف أن سلاطين المغول ، الذين خلفوا منذ عام ١٥٢٦ سلاطين دلهي، لم يقنعوا بالأنبذة الفارسية القوية ، بل ارتموا على خمور الأرز والعرقي يعبونها عباً .

وهكذا فإن أوروبا وحدها هي التي تحيط بجوهر مشكلة النبيذ ، ولهذا يجدر بنا أن نعود إلى الحدود الشمالية لمنطقة الكروم ، الى ذلك المرفق الطويل الممتد من اللوار الى القرم ، لنرى فيه الفلاحين المنتجين زراع الكروم ، والمستهلكين الذي ألفوا النبيذ المحلي وعرفوا ميزاته ومغباته ؛ ثم نرى هناك أيضا أخلاطا من كبار الزبائن ، أقبلوا على شرب الخمور ، دون أن تكون لهم دراية بها في كل الأحوال ، ولكنهم كانوا يصرون على أنواع بعينها ، ويفضلون بصفة عامة الأنبذة القوية التي تشتد فيها نسبة الكحول : منهم الإنجليز الذي أقبلوا منذ وقت مبكر على أنبذة مالڤوازيا Malvoisie - أو مونيمڤازيا Maonemvasia وهكذا اسمها باليونانية - وأنبذة كاندي ، وهي جزيرة كريت ، وأنبذة الجزر اليونانية ، وهي أنبذة تصنع من العنب الحلو الناضج يسمونها cuits vins(١٦٧) وجعلوا لها شهرة . كذلك صنعوا فيما بعد شهرة الأنبذة القوية ، التي كانت تحتوي على نسبة عالية من الكحول ، والتي صنعت في بعض بلاد البرتغال، وأسبانيا وماديرة ، من قبيل أنبذة حملت أسماء نذكر منها : اليورتو ، والمالجا ، والمادير ، والجيريس أو الشيري، والمرسلة le porto, le malaga, le madère, le jérez, le marsala نسبة إلى مدن بورتو ، ومالقة ، وجزيرة ماديرة ، ومدينة خيريث دى لافرونتيرا ، ومَرْسَلة . أما الهولنديون فسنراهم يقبلون على كل أنواع الخمور منذ القرن السابع عشر ، ويدفعون بها إلى عالم الشهرة. ولكل إنسان ذوقه الذي قد يختلف عن أذواق الآخرين. وأهل الجنوب ينظرون باستخفاف الى أذواق أهل الشمال ، ويذهبون إلى أنهم لا يفهمون في الخمر وشربه ،وأنهم يعبون الكأس دفعة واحدة ، فلا ينعمون بمذاقه. ويذكر چان دوتون Jean d`Auton - مؤرخ لويس الثاني عشر - أنه رأى الألمان يتدافعون فجأة إلى عب

" الشرب حتى السكر ". حفر في الخشب يزين هيكل الكنيسة في مدينة مونريال الفرنسية الواقعة على نهر السيران Montréal-sur-Serein . والحفر من عمل الأخوين ريجولي Rigoley.

الخمر في أثناء قيامهم بنهب قصر فورلي Forli، بل رآهم الجميع يفجرون براميل الخمر تفجيرا، وما لبثوا أن تساقطوا مترنحين يكادون يموتون من شدة السكر في أثناء عملية التخريب البشع الذي تعرضت له روما في عام ١٥٢٧؟ والصور المحفورة بالنحت في القرن السادس عشر والسابع عشر التي تمثل الحفلات الريفية تضم دائماً تقريباً واحداً من المدعوين يميل في مجلسه على الدكة ساعياً إلى زيادة جرعته من السكْر البين. ويذكر فيلكس پاتر Felix Platter وهو من أهل بازل، تعليقا على مشاهداته في مدينة مونبلييه الفرنسية في عام ١٥٥٦ ، أن كل " السكيرين " - ويسميهم حرفيا أجولة النبيذ - في المدينة من الألمان ، وأن الناس تراهم يفترشون الأرض بين براميل الخمر، وقد علا شخيرهم، فقد كان العابثون يفضلون العبث بالألمان خاصة ، ودفعهم الى الإفراط في الشراب ، وإلى ما يأتي به المخمورون من مساخر ، وكانت هذه الألوان من العبث تتكرر يوماً بعد يوم (١٦٩).

هذا الإغراق في استهلاك الخمور في الشمال حدد مسار تجارة واسعة كان الجنوب يمثل نقطة انطلاقها: وكانت هذه التجارة تسلك طريق البحر من ميناء إشبيليه بالأندلس متجهة إلى انجلترا وإلى فلاندريا، تسلك طريق نهري دوردوني Dordogne والجارون Garonne نحو بوردو، والچيروند la Gironde، أو تنطلق من ميناء لاروشيل أو من مصب نهر اللوار؛ أو تسلك طريق نهر الأيون Yonne، وقناة بورجونديا Bourgogne، إلى باريس، ثم من بعدها إلى مدينة روان Rouen؛ أو تسلك طريق نهر الراين؛ أو تمر من خلال ممرات جبال الألپ (وكان الألمان غداة موسم جمع العنب يأتون بعربات كبيرة كانوا يسمونها كاريتوني carretoni ليبتاعوا الأنبذة الجديدة التي تنتجها مناطق التيرول، وبريشيا، وفيشينسا، وفريول، وإيستريا): ومن موراڤيا والمجر متجهة إلى بولنده(١٧٠)؛ وما لبثت التجارة أن سلكت الطرق البرية في منطقة البلطيق، منطلقة من البرتغال ومن أسبانيا وفرنسا، متجهة إلى سان بطرسبرج حاملة النبيذ إلى الروس،

الطعام في الدير: مائدة متواضعة ولكنها لا تخلو من النبيذ، فقد كان النبيذ شيئاً عادياً من لوازم الحياة اليومية في منطقة البحر المتوسط. لوححائطية كبيرة من رسم سينيوريللي Signorelli، القرن الخامس عشر، سيينا Sienne، دير مونتي أوليفيتو Monte Oliveto.

الذين كانوا شديدي الظمأ إليه ،قليلي الخبرة بأنواعه . ونحن نعلم علم اليقين أن سكان الشمال الأوروبي لم يكونوا كلهم يشربون النبيذ ، إنما كان الغني فقط هو الذي يشربه، من قبيل البورچوازي الموسر ، ورجل الدين الذي يحصل على دخل كنسي في منطقة فلاندريا منذ القرن الثالث عشر ؛ والسيد النبيل البولندي في القرن السادس عشر، الذي كان يعتقد أنه يقل قدراً إذا ما هو شرب مثل فلاحيه البيرة التي تصنع في البيت. ونقرأ عن بيار Bayard أنه ، عندما كان أسيرا في الأراضي الواطئة في عام ١٥١٣، أقام ولائم مفتوحة ، وكان النبيذ هناك غاليا " حتى إنه أنفق ذات يوم عشرة جنيهات من فئة الايكو لشراء النبيذ " (١٧١).

كان النبيذ الجديد هو النبيذ المفضل، ينقله أرباب هذه التجارة إلى زبائنه الذين كانوا ينتظرونه في شوق، ويقبلون عليه بالفرح، والبهجة ، فلم يكن حفظ النبيذ من عام إلى عام شيئاً ميسوراً، بل كان طعمه يتغير إلى اللذوعة ، فلم يكن تنقية النبيذ من الرواسب برفق ، وصبه بطريقة مناسبة من الدن إلى الزجاجات ، واستخدام سدادت من الفللين ، من الأمور التي عرفت في القرن السادس عشر، ولا حتى في القرن السابع عشر(١٧٢). ولهذا لم يكن سعر البرميل من النبيذ القديم في عام ١٥٠٠ يزيد على ستة جنيهات (جنيهات من نوع الليڤر المسكوك في تور) ، بينما كان البرميل من النبيذ الجديد الجيد يساوي ٥٠ جنيها من العملة نفسها (١٧٣). فما جاء القرن الثامن عشر حتى كانت الآية قد انعكست، وأصبح النبيذ القديم المعتق هو الغالي؛ وكانت عملية جمع زجاجات النبيذ القديم لبيعها لتجار النبيذ عملية من العمليات المربحة التي يحرص على ممارستها اللصوص والنشالون في لندن . أما نقل النبيذ فكان يتم منذ وقت طويل جدا باستخدام براميل من الخشب (تصنع من ألواح مضمومة بعضها إلى البعض يحيط بها أطواق من الحديد) بدلا من استخدام الدمجانات أو الأمفورات ، التي كان الرومان يستخدمونها (وإن كنا نلتقي هنا وهناك بمن كانوا يتشبثون بالماضي ويتمسكون في عناد باستخدام الأمفورات القديمة). وكانت هذه البراميل التي اخترعت في بلاد غالة إبان حكم الرومان (وغالة هو الاسم القديم لفرنسا) لاتحفظ النبيذ على ما يرام ، فإذا طعمه يتغير الى اللذوعة ، واذا النبيذ يستحيل الى خل . ولهذا فقد نصح دوق مونديجار Mondejar الملك شارل الخامس ، المعروف باسم شارلكان، في ٢ ديسمبر من عام ١٥٣٩ بألا يشتري كميات كبيرة من النبيذ للأسطول، " فإذا كان النبيذ يفسد، ويتحول الى خل، فالأفضل أن يفسد ، وهو عند أصحابه، لا عندكم يا صاحب الجلالة "(١٧٤). ونجد في القرن الثامن عشر قاموسا تجاريا يعبر فيه صاحبه عن دهشته من أن الرومان كانوا يعتبرون القدم أو" العتاقة " بمثابة " آية تدل على حسن النبيذ بينما الناس في فرنسا يدخلون في عداد الخمور الفاسدة (حتى أنبذة ديچون Dijon، ونوي Nuits، وأورليان

Orléans وهي أصلح الخمور للحفظ) كل أنبذة مرت عليها خمس أو ست سنوات (أو كما يقول حرفيا اذا وصلت إلى الورقة الخامسة أو السادسة) ." والموسوعة الفرنسية التي وضعها مفكرو القرن الثامن عشر L'Encyclopédie تذكر في عبارة بينة : " أن الأنبذة التي بلغت الورقة الخامسة أو السادسة التي يشيد بها بعض الناس خمور فاسدة"(١٧٥). ولكننا ، على عكس ذلك ، نقرأ عن جي باتان Gui Patin أنه، عندما عين عميدا لكلية الطب ، جمع ستة وثلاثين من زملائه واحتفل وإياهم بالمناسبة، وقال : " ما رأيت رجالاً من أهل الجد يضحكون ، ويشربون ، مثلما رأيت في ذلك الحفل[...] وكنت قد أعددت له أفضل نبيذ `معتق 'من إنتاج بورجونديا "(١٧٦).

ونلاحظ أن شهرة أنواع النبيذ العظيمة لم تمكن لنفسها حتى القرن الثامن عشر، وإنما تأخرت تأخرا واضحا، ولم تكن الأنبذة التى اشتهرت آنذاك هى الأنبذة ذات الصفات المتميزة، وإنما الأنبذة التي كان من السهل نقلها من مكان مجاور ، وبخاصة تلك التي كانت تنقل بطريق البحر أو النهر (من هذا القبيل ما كان يأتي من مزرعة الكروم الصغيرة في فرونتينيان Frontignan على ساحل اللانجدوك ، ومن مزارع الكروم الكبيرة في الأندلس ، والبرتغال ، وبوردو ، ولاروشيل) ، أو تلك التي كانت تنقل من مدينة قريبة ، فقد كانت باريس وحدها تستهلك في عام ١٦٩٨ نحو مائة ألف برميل من أنبذة أورليان ؛ ومن هذا القبيل ما حدث في ايطاليا ، حيث وجد نبيذ مملكة نابلي، من أنواع : الجريكو ، واللاتينو ، والمانجاجيرا ، ولاكريما كريستي (دموع المسيح) greco, latino, mangiaguerra, lacryma christi. رواجا هائلا في نابلي ، بل وفي روما نفسها. أما الشامبانيا ، فإن شهرة هذا النبيذ الأبيض الفائر ، الذي بدأوا يصنعونه في منطقة شامبانيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، احتاجت إلى وقت لكي تتغلب على شهرة الأنبذة القديمة التي كان منها الأحمر والأبيض وما بين هذ وذاك.ولكن الأنبذة الشهيرة التي نعرفها اليوم مكنت لنفسها بالفعل في منتصف القرن الثامن عشر . هذه حقيقة لا يماري فيها أحد . وهذا هو سيباستيان ميرسييه يكتب في عام ١٧٨٨: " تذوق أنبذة رومانيه Romanée ، سانفيفان Saint-Vivant، سيتو Cîeaux ، جراف Grave، الأحمر والأبيض [...] واحرص على تذوق التوكيه Tokai إذا وجدته ، فهو في رأيي أحسن نبيذ على وجه البسيطة ، وهو خليق بأن يشربه سادة العالم " (١٧٧). ونقلب في قاموس سافاري التجاري الصادر في عام ١٧٦٢ Dictionnaire de commerce فنجده يعدد أنواع النبيذ الفرنسية جميعها فيضع على القمة أنبذة شامبانيا ، وبورجونديا ، ويذكر الأسماء : " شابلي Chablis .. بومار Pomar، شامبرتان Chambertin، أبون Beaune ، لوكلو ديفوجو le Clos de Vougeau ، فولينيه Volleney ، لا رومانيه la Romanée ، نوي Nuits،

ميرسو Mursault (١٧٨)" . ومن الواضح أن النبيذ، وقد أخذ التمييز بين أصنافه يتزايد ، قد تحول شيئا فشيئا إلى بضاعة ترفية. وفي هذا العصر (١٧٦٨) على حد قول " قاموس البيان " Dictionnaire sentencieux ظهر تعبير فرنسي ذاع على لسان الطبقة الراقية هو sabler le vin de Champagne بمعنى: يشرب الشامبانيا كأنه يشرب ماء ، أو كأنما كانت الشامبانيا رملاً، أي يشرب بسرعة " (١٧٩).

ولو استرسلنا في رواية تاريخ الأنواع المترفة من النبيذ لانسقنا إلى مدارج بعيدة كل البعد، ولكننا نقف عند هذا الحد، ونوجه انتباهنا إلى شاربي النبيذ العاديين الذين تزايد عددهم ، وظل يتزايد دون ما توقف. ونعلم أن الإفراط في الشرب إلى حد السكر زاد في كل مكان منذ القرن السادس عشر : فقد بلغ استهلاك الفرد في مدينة بلد الوليد في العام ١٠٠ لتر من الخمور في منتصف القرن (١٨٠)؛ كذلك ازداد السكر في البندقية حتى اضطر المجلس العالي في عام ١٥٩٨ إلى اتخاذ إجراءات شديدة مرة أخرى ضد السكر العلني؛ وازداد السكر في فرنسا حيث نجد لافيما Laffemas في مطلع القرن السابع عشر يعبر تعبيرا واضحا عن استهجانه للإفراط في الشراب . ولم يكن هذا الإفراط في الشراب في المدن يتطلب نبيذا من النوع الجيد، ولهذا فإن مزارع الكروم تحولت إلى زراعة أنواع من الكروم الرديئة ذات المحصول الوفير، حتى تزود السكيرين بما يطلبونه من كميات كبيرة. وما يأتي القرن الثامن عشر حتى نجد أن حركة السكر قد شملت جهات الريف المختلفة (وأصبحت الخمارات شؤما على الفلاحين) بعد أن زادت في المدن زيادة بينة. وهكذا شهد القرن الثامن عشر شهرة الخمارات المسماة نجيت guin-guettes التى أقيمت على أبواب باريس خارج سور المدينة ، فلم يكن مرتادوها يدفعون الضريبة المسماة بالإعانة " aides" - لأنها كانت خارج حدود المدينة - وكانت هذه الضريبة " تقدر بأربعة سولات يدفعها الإنسان عند الدخول إلى حانات النبيذ، وكانت مفروضة على كل زجاجة نبيذ ، حتى تلك التي لا تزيد قيمتها في الحقيقة عن ثلاثة من السولات " (١٨١). واقرأ هذه القصيدة :

يا أبناء البورجوازية الصغار ، يا أرباب الحرف ، يا صويحبات المرح، وهاويات المغرمة والجسارة،

هيا اخرجوا من باريس، هيا أسرعوا ، ومدوا الخطى إلى خمارات الجانجيت، فيها تنالون أربع كؤوس كبيرة ولا تدفعون إلا ثمن كأسين،

ستجلسون على لوحين من الخشب ، إلى مائدة بلا مفرش ، بلا فوط

وستعبون الخمر في هذه الحانات الباخوسية كثيراً وفيراً

حتى ينهمر من عيونكم مدرارا ".

وردت هذه القصيدة في إعلان موجه إلى الفقراء، تحت صورة من صور العصر مطبوعة بطريقة الحفر، ولم يكن الكلام الذي ورد فيها مجرد دعاية ، بل كان يعبر عن الحقيقة . ولا غرابة في أن تحقق هذه الخمارات في الضواحي القريبة من باريس الثراء والشهرة ، ومن بينها خمارة كورتي المشهورة Cortille التى كانت على مقربة من حدود بيلڤيل Belleville، وكان الذي أسسها هو السيد رامبونو Ramponeau الذى كان اسمه ناراً على علم " يعرفه الجميع أكثر ألف مرة مما كانوا يعرفون اسم ڤولتير Voltaire أو اسم بوفون Buffon " ، على حد قول واحد من المعاصرين . أو كتلك الخمارة الشهيرة التي كانوا يسمونها " صالون الشحاذين " في ڤوجيرار Vaugirard والتى كان النساء، والرجال يرقصون فيها حفاة على الأرض المتربة، وسط سحابة من الغبار الثائر، ودوي موسيقى فقيرة ، كانت أقرب إلى الضجيج منها إلى أي شيء آخر." فإذا امتلأت خمارة ڤوجيرار على سعتها ، ذهب جمهور يوم الأحد ، زرافات ووحدانا ، إلى خمارة بيتي چانتيي Petit Gentilly أو خمارة بورشيرون Porcherons أو خمارة كورتي : وكان الناظر إلى المنطقة في اليوم التالي يرى أمام محلات بيع الخمور براميل نبيذ فارغة بالعشرات . كان الناس يشربون في يوم واحد ما يكفي ثمانية أيام "(١٨٢). ولم تكن الصورة في مدريد مختلفة ، " كان الناس يشربون خارج المدينة نبيذاً جيداً رخيصاً لأنهم لايدفعون ضرائب ، فقد كانت الضرائب في أكثر الأحوال تزيد على ثمن النبيذ نفسه"(١٨٣).

هل كان السكر هو الترف الذي أدى إليه النبيذ؟ دعونا ندافع عن النبيذ، ونذكر أمام المحكمة الظروف التي تخفف وطأة الاتهام . كان استهلاك الفرد في العام في باريس عشية الثورة الفرنسية في حدود ١٢٠ لترا ، وهذا رقم ليس في خد ذاته رقما فاحشا (١٨٤). والحقيقة أن النبيذ أصبح مادة غذائية رخيصة ، وبخاصة النبيذ الرديء . بل لقد كان ثمن النبيذ الرديء ينخفض نسبيا في كل مرة يرتفع فيه سعر القمح ارتفاعا مفرطا . فهل يجوز لنا أن نذهب إلى ما ذهب اليه المؤرخ المتفائل ڤيتولد كولا Witold Kula من أن النبيذ تحول الى مادة غذائية تعويضية (مثل الكحول) كانت تمد الناس بالسعرات الحرارية بسعر رخيص كلما عز الخبز في الأسواق؟ أم هل كان السبب في انخفاض سعر النبيذ عن الخبز في أيام المجاعات أن الناس كانوا يفرغون ما في جيوبهم من مال تلتهمه الأسعار الملتهبة ، فلا يجد النبيذ من يشترونه ، فينخفض سعره ؟ أيا كان الأمر ، فلا يجوز لنا أن نحكم على مستوى المعيشة تأسيسا على مظاهر الإفراط . وعلينا أن نذكر أن النبيذ (سواء كان مصدرا للسعرات أو لم يكن) كثيرا ما كان وسيلة للهروب ، وهو ما أسمته فلاحة من قشتالة من أهل زماننا ، وسيلة نسيان الهموم quita-penas أو وسيله طرد الهموم أو التخلص منها . هذا هو النبيذ الأحمر الذي أكب عليه رجلان في

لوحة من رسم بيلاسكويث Velasquez (بمتحف بودابست)، أو هذا النبيذ الأصفر الذهبي الذي يبدو أغلى ثمنا ، وأرفع قدرا ، إذ نراه في الكؤوس الطويلة ، أو في الأكواب الخضراء مرسوما في اللوحات الهولندية : في تلك اللوحات يجمع الشارب في مشهد مرح النبيذ ، والتبغ ، والغانيات ، وموسيقى عازفي الكمان الذين سيرتقون مدارج الشهرة في القرن السابع عشر .

البيـــرة :

وإذا نحن انتقلنا الآن إلى الحديث عن البيرة ، جاز لنا أن نقول إن أوروبا تستأثر بها، بشرط أن نغض النظر عن تلك البيرة المستخرجة من الذرة ، التي التقينا بها في أمريكا؛ وكذلك إذا غضضنا النظر عن البيرة المصنوعة من الدخن والتي كانوا يشربونها في أفريقيا السوداء ، كانت تلعب في مناسك الزنوج الدور الذي يلعبه الخبز والنبيذ لدى الغربيين ؛ وإذا لم نصر إصراراً مفرطاً على الحديث عن المصادر البعيدة لهذا المشروب القديم جدا . والحق أن البيرة كانت معروفة منذ أبعد الأزمان في بابل القديمة ، وفي مصر القديمة . كذلك كانت البيرة معروفة في الصين منذ نهاية الألف الثانية ، في عهد آل شانج Shang (١٨٥). أما الإمبراطورية الرومانية التي لم تكن تحبها إلا أقل الحب، فقد رأت البيرة ، وبخاصة في المناطق البعيدة عن حوض البحر المتوسط ، في منطقة نومانسيا Numantia باسبانيا القديمة التي حاصرها سيپيون Scipion فى عام ١٣٣ قبل الميلاد، وكذلك في إقليم غالة الذي تسمى فيما بعد باسم فرنسا . ويقولون ان الإمبراطور الروماني يوليان المرتد (٣٣١ - ٣٦٣) الذي ارتد عن الديانة المسيحية إلى الديانة الرومانية الموروثة ، لم يشرب البيرة إلا مرة واحدة ، ثم سبها ولعنها . فإذا انتقلنا الى مدينة ترير Trier فى إقليم جرمانيا وجدنا براميل البيرة (١٨٦) كثيرة ، فقد كانت شراب البرابرة ، وهكذا كان الرومان يسمون الجرمان . وما نصل إلى زمان شارلمان في نهاية القرن الثامن، ومطلع القرن التاسع الميلادي ، حتى نرى البيرة في كل جانب من جنبات امبراطوريته ، وفي قصوره حيث تولى معلمون محترفون مهمة صناعة البيرة الجيدة ، cervisam bonam ...facere debeant (١٨٧).

وتصنع البيرة من القمح أو الشوفان أو الجاودار أو الدخن أو الشعير أو حتى العلس، ولكنها لا تصنع من نوع واحد من الحب ، بل تخلط بنوع آخر من الحبوب، وصناع البيرة في أيامنا يستخدمون الشعير النابت (المالت) أساسا، ويضيفون إليه حشيشة الدينار أو الأرز. ولكن الوصفات التي كانوا فيما مضى يصنعون البيرة طبقا لها كانت كثيرة ، فقد كانوا يحسنون أنواع البيرة بإضافة الخشخاش البري، وعيش الغراب، ومكسبات النكهة، وعسل النحل، والسكر، وورق الغار أو اللور ... وكان الصينيون يضيفون إلى "أنبذتهم" المتخذة من الدخن أو الأرز مكسبات النكهة أو عقاقير طبية. أما استخدام

خمارة لاكورتي :أشهر خمارة «بلدى» باريسية من نوع الجانجيت» قامت خارج أسوار المدينة في القرن الثامن عشر.

حشيشة الدينار كمادة تضاف إلى البيرة على النحو الشائع في الغرب إلى اليوم (وحشيشة الدينار houblon نبات يحفظ البيرة ولكنه يجعل لها طعما مرا) بطريقة يقولون إنها ابتكرت أصلا في الأديرة في القرن الثامن أو القرن التاسع (ترجع أول إشارة اليها إلى عام ٨٢٢) وهناك شواهد على وجودها في ألمانيا في القرن الثاني عشر(١٨٨)؛ وفي الأراضي الواطئة في مطلع القرن الرابع عشر (١٨٩)؛ ووصلت الى انجلترا في مطلع القرن الخامس عشر كما تقول هذه الأبيات الشعرية في شيء من المبالغة (علما بأن حشيشة الدينار ظلت ممنوعة حتى عام ١٥٥٦) :

حشيشة الدينار وحركة الإصلاح الدينى والغار والبيرة

أتت الى انجلترا كلها فى عام واحد(١٩٠)

Hops, Reformation, bays and beer

Came into England all in one year

استقرت البيرة خارج حدود مناطق الكروم ، الى الشمال ، والوطن الحقيقي الذي اتخذته البيرة لنفسها يتمثل في المنطقة الفسيحة من انجلترا إلى الأراضي الواطئة وألمانيا وبوهيميا ، وپولندة وموسكوفيا ، وكانوا يصنعونها في المدن ، وفي إقطاعيات السادة النبلاء في أوروبا الوسطي ، " حيث كان صناع البيرة يميلون عادة إلى غش سيدهم". وكان الفلاح في الإقطاعيات الپولندية يستهلك كميات من البيرة تصل إلى ٣ لترات في اليوم .ومن الطبيعي أن مملكة البيرة لم يكن لها حدود دقيقة ناحية الغرب أو الجنوب . بل لقد أخذت المملكة تتسع بسرعة وتمد حدودها ناحية الجنوب ، وبخاصة في القرن السابع عشر، مع ازدياد التوسع الهولندي . وهكذا إذا نظرنا إلى بوردو التي كانت مملكة للنبيذ، وكانت تقاوم البيرة مقاومة عارمة وتحظر إقامة معامل لصناعتها، رأينا كيف أخذت البيرة المستوردة تغزو حانات ضاحية شارترون Chartrons التى أقبل عليها الهولنديون وغيرهم من الأجانب يشربونها بكثرة ، حتى كأنها كانت تسيل أنهاراً (١٩٢). وهناك مثل أوضح هو مدينة إشبيلية التي كانت عاصمة أخرى من عواصم النبيذ ، كما كانت عاصمة من عواصم التجارة الدولية ، فقد أنشأت معملا للبيرة في عام ١٥٤٢ . فإذا نظرنا إلى غرب عالم النبيذ ، إلى تلك المنطقة الحدودية الواسعة المتداخلة ، تبينا أن انشاء معامل للبيرة لم يعد يعتبر حدثا ثوريا . هكذا كانت الحال في منطقة اللورين ، فما كانت مزارع الكروم فيها مزارع لها أهمية خاصة ، وما كان إنتاجها من العنب إلا إنتاجا متقلبا لا يركن إليه أحد. وما كان يحدث في اللورين كان يمتد حتى يبلغ باريس . والرأي عند لوجران دوسي Le Grand d'Aussy فى كتابه " حياة الفرنسيين الخاصة " La Vie privée des Français الصادر في عام ١٧٨٢، أن البيرة، من حيث هي شراب الفقراء ، كانت تروج في كل عصر صعب، أما في عصور الرخاء الاقتصادي فكان شاربو البيرة يتحولون إلى شرب النبيذ، ويدلل على هذا الرأي بأمثلة مأخوذة من الماضي ، ثم يضيف : " ولننظر نحن إلى أنفسنا ، ألم نر أن أهوال حرب السنين السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) قد أحدثت بيننا نتائج مشابهة ؟ كان أهالي مدن بأكملها، ممن لم يكونوا يعرفون لهم سوى النبيذ شراباً ، يتعلمون شرب البيرة ، وأنا نفسي أعرف مدينة في شامپانيا أنشئت فيها في عام واحد أربعة معامل للبيرة دفعة واحدة"(١٩٣).

ومع ذلك فإننا نلاحظ في باريس في الفترة من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٧٨٠ أموراً تتناقض مع نظرية لوجران دوسي (وإن كان هذا التناقض ظاهريا ، لأن هذه الفترة كانت على المدى الطويل فترة رخاء اقتصادي) نلاحظ أن البيرة مرت في باريس في تلك السنوات الثلاثين بأزمة صعبة. فقد انخفض عدد معامل البيرة من ٧٥ الى ٢٣ معملا، وانخفض الإنتاج من ٧٥٠٠٠ مد إلى ٢٦٠٠٠ مد (المد = ٢٨٦ لترا). وكانت أحوال

المشتغلين بصناعة البيرة تدعو للرثاء حقا ، وأصبح عليهم أن ينقلوا اهتمامهم عاما بعد عام إلى التفاح في محاولة منهم لتعويض خسائرهم في البيرة بإنتاج خمر التفاح المعروف باسم السيدر cidre (١٩٤). ويمكن القول إن الوضع لم يتحسن من هذه الناحية عشية الثورة الفرنسية ؛ فقد ظل النبيذ هو الرابح الكبير : كان استهلاك باريس من النبيذ من عام ١٧٨١ إلى عام ١٧٨٦ يصل إلى ٧٣٠٠٠٠ هكتولتر في السنة تقريبا ، مقابل ٥٤٠٠٠ هكتولتر بيرة ، أي أن النسبة كانت ١ إلى ١٣,٥. ثم تأتي فترة تؤكد نظرية لوجران دوسي ، هي الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٤٠، فقد شهدت صعوبات اقتصادية لامراء فيها ، فإذا بنسبة استهلاك باريس من البيرة تصبح بالقياس إلى النبيذ ١ إلى ٦,٩ ، مما يشهد بزيادة نسبية في استهلاك البيرة (١٩٥).

ولكن البيرة لم تكن فقط علامة على الفقر، نعني البيرة الخفيفة التي يصنعونها في البيت، والتي كانت توضع كل يوم على المائدة مع اللحم البارد وكعك الشوفان . فهذه هي هولندة تعرف في القرن السادس عشر إلى جانب البيرة الشعبية الرخيصة بيرة ممتازة أو لوكس كانوا يستوردونها من مدينة لايبتسيج في ألمانيا ، لينعم بها الأغنياء . ونقرأ عن السفير الفرنسي في لندن أنه في عام ١٦٨٧ كان يرسل بانتظام طروداً من البيرة الانجليزية الى الماركيز ديسينيليه de Seignelay ، " من ذلك النوع من البيرة الذي يسمونه لامبيت إيل Lambet esle 'لا `من النوع القوي الذي لا يحب الفرنسيون مذاقه ، والذي يسكر مثل النبيذ ، والذي يناظر ثمنه المرتفع ثمن النبيذ " (١٩٦). واشتهرت مدينتا براوانشفيج Braunschweig وبريمن Bremen الألمانيتان في أواخر القرن السابع عشر ببيرة ممتازة كانتا تصدرانها حتى إلى جزر الهند الشرقية(١٩٧). ونلاحظ تطورا كبيرا في ألمانيا كلها ، وفي بوهيميا ، وبولندة ، في مجال صناعة البيرة بالمدن ، وكانت معامل البيرة في المدن تتخذ سمات تقرب من سمات المصانع ، وكانت تنتج بيرة قوية بما فيها من نسبة كحول عالية ، مما قلل من شأن البيرة الخفيفة التي كانوا ينتجونها في ضياع النبلاء بدون إضافة حشيشة الدينار في أغلب الأحوال ، فتراجعت إلى المرتبة الثانية . ولدينا مراجع ضخمة حول هذا الموضوع . فقد كانت البيرة مادة تناولها التشريع (١٩٨) كما صدرت القوانين التي تنظم الحانات التي تشرب فيها البيرة . كانت المدن حريصة على مراقبة إنتاجها ؛ وهكذا كان القانون يحدد الفترة التي يسمح فيها بإنتاج البيرة في مدينة نورنبرج Nürnberg الألمانية : من يوم القديس ميخائيل - يوم ٢٩ سبتمبر - إلى يوم أحد السعف . وكانت الكتب تؤلف لتشيد بميزات البيرة الممتازة التي كانت أنواعها تتزايد عاما بعد عام . وانظر إلى كتاب هاينريش كناوست Heinrich Knaust (١٩٩) الذي ظهر في عام ١٥٧٥ تجده يقدم الى الشاربين قائمة بأسماء وكنى هذه الأنواع الشهيرة من البيرة ، ويحمد لهم خواصها الطبية. أما موسكوفيا

التي كانت متأخرة في كل شيء ، فكان طالب البيرة هناك يشتريها حتى في عام ١٦٥٥ من " المحلات العمومية " ، كما يشتري منها الخمور ، والسمك المملح، والكاڤيار، وفراء الغنم المصبوغ باللون الأسود المستورد من استراخان وبلاد فارس ، لكي تمتلئ خزينة الدولة الضالعة في التجارة والاحتكار بالمزيد من المال (٢٠٠).

هكذا انتفخت كروش الملايين في جنبات العالم من شرب البيرة ، كروش البيرة ، وظل عشاق النبيذ في بلاد الكروم يسخرون من هذا المشروب الذي يقبل عليه أهل الشمال . وانظر إلى هذا الجندي الأسباني الذي شارك في معركة نوردلينجن Nordlingen تجده يحتقر البيرة ، وينأى عنها ، ولا يمسها " لأنها تبدو لي كلما نظرت إليها كبول حصان أصيب بالحمى ". حتى إذا مرت خمس سنوات ، جازف فجربها ، فندم على ما فعل، لأن الكؤوس التي عبها كانت مثل كؤوس امتلأت بالملينات potes de purga(٢٠١).. وإنما يشهد على فلمنكية الملك شارلكان شغفه بشرب البيرة ، وما كان لينصرف عنها ،

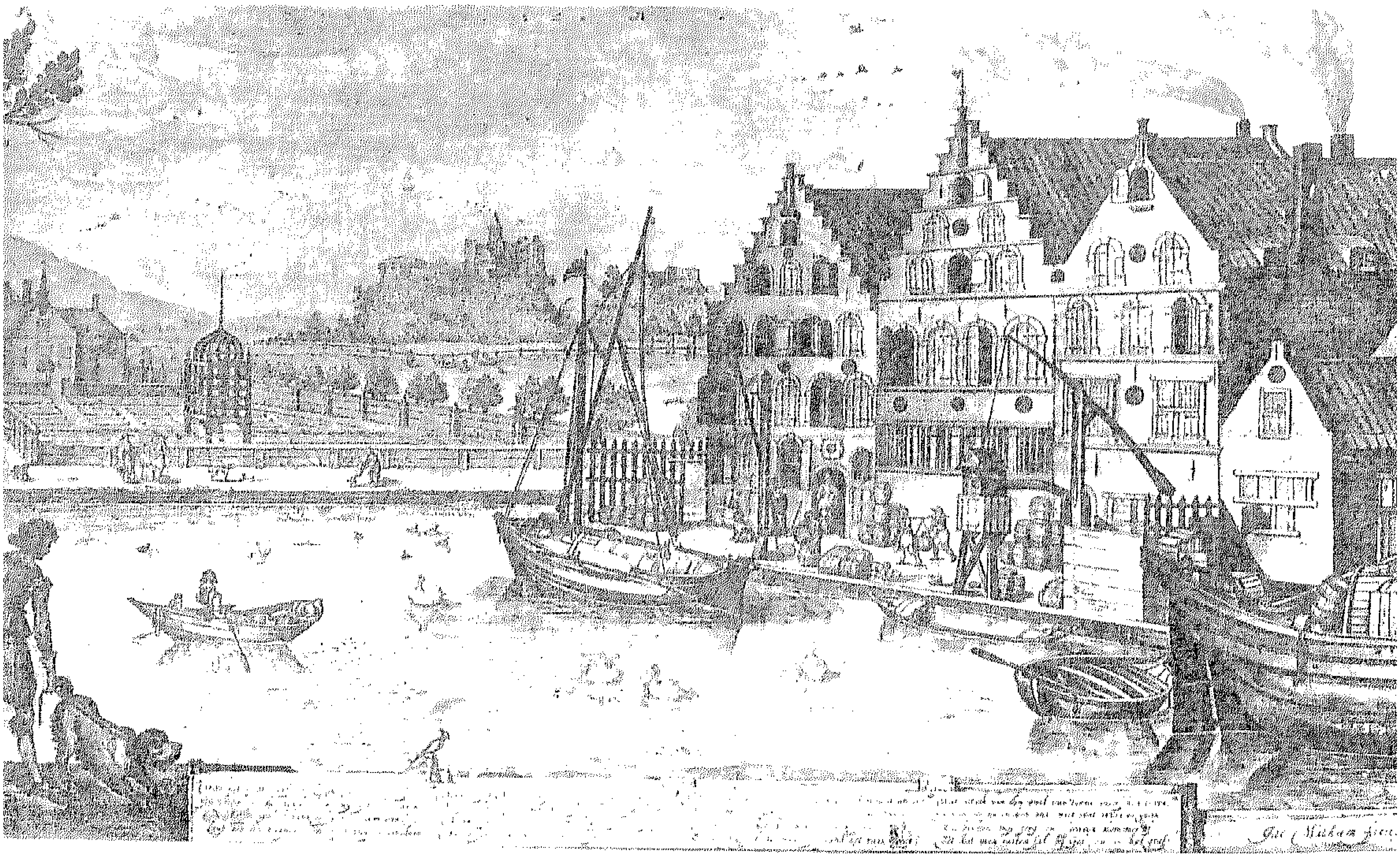

معمل البيرة المسمى " دي دراي ليلين De Drye Lelyen" أي النرجسات الثلاث، في مدينة هارلم Haarlem الهولندية في عام ١٦٢٧ ، من رسم ياكوب ماتام J.A.Matham (متحف فرانس هالس في هارلم)

حتى عندما اعتكف في يوسته Yuste وعلى الرغم من نصح طبيبه الإيطالي له مرارا بأن يكف عن شربها (٢٠٢).

خمر التفاح

ونقول كلمتين باختصار عن خمر التفاح الذي يسمونه السيدر cidre . ترجع هذه الخمر الى منطقة بسكايا شمالي إسبانيا Biscaye، حيث زرعت أشجار التفاح التي استخرجوه من ثمارها ، ثم ظهرت هذه الأشجار في مناطق كوتنتان Cotentin وفي ريف قان Caen وفي ربوع الأوج Auge في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر . وأخذ الناس يتحدثون عن خمر التفاح في القرن الثالث عشر في تلك البقاع التي نلاحظ أن الكروم كانت موجودة فيها ، وإن كانت بقاعا تمتد شمالي الحدود " التجارية " لمنطقة الكروم والنبيذ. ولكن هذه الخمر التي ظهرت في هذه البقاع ظهور القادم الجديد ، لم تكن تهدف إلى الوقوف في وجه النبيذ ، ولكنها جاءت لتنافس البيرة ، ونافستها بنجاح ، لأن البيرة كانت تصنع من الحبوب ، فإذا كان محصول الحبوب محدودا ، لم يكف لصناعتها ولصناعة الخبز ، فإذا قُدِّمت صناعة البيرة على صناعة الخبز في هذه الحالات ، كان معنى ذلك أن شرب البيرة يحرم الإنسان نفسه من الخبز (٢٠٣).

وسرعان ما حققت أشجار التفاح رواجاً ، وحققت الخمر التي تصنع منها نجاحا ، فغزت أشجار التفاح شرق نوماندیا (ناحية مصب نهر السين ، وفي إقليم كو Caux) في أواخر القرن الخامس عشر، ومستهل القرن السادس عشر . ونيابة عن النورمانديين نائبهم في مجلس النواب الفرنسي، في عام ١٤٨٤ إن هناك اختلافاً كبيراً بين نورمانديا قال السفلي ونورمانديا العليا، أما نورمانديا السفلى فتزرع شجر التفاح، وأما نورمانديا العليا (أي الشرقية) فلا تزرعها . ولم تستطع خمر التفاح أن تزحزح من نورمانديا العليا لا البيرة، ولا النبيذ (وبخاصة ذلك النبيذ الذي كانوا يعصرونه في بساتين الكروم التي ازدهرت عند انحناءات وادي نهر السين ، والتي كانت بمنأى عن الظروف المناخية غير المواتية) . ولم تلق خمر التفاح إقبالا إلا حول عام ١٥٥٠ ، ولم يكن هذا الإقبال بطبيعة الحال إلا إقبال الفقراء (٢٠٤). وتتجلى لنا صور نجاح هذه الخمر في الجزء الأعلى من حوض نهر المين Maine، وبخاصة منذ القرن الخامس عشر ، حيث أصبحت خمرالتفاح على الأقل في جنوب غرب الإقليم شراب الأغنياء ، أما الفقراء فكانوا يشربون البيرة.إلا أننا نلاحظ أن الأغنياء في منطقة لاڤال Laval ظلوا يقاومون غزو خمر التفاح حتى القرن السابع عشر، وكانوا يفضلون النبيذ الرديء على خمر التفاح الذي تركوه للبنائين والشماشرجية والخادمات ، ولكن مقاومتهم التي طالت إلى حين ، انتهت ذات يوم إلى الاستسلام(٢٠٥). فهل كان تراجع الحالة الاقتصادية في القرن السابع عشر هو المسئول

عن هذا التغير المحدود الذي اضطر إليه أغنياء منطقة لاقال ؟ ثم إن إقليم نورمانديا بطبيعة الحال قريب من باريس قرباً شديداً، لانتصور معه أن ما حققته خمر التفاح هناك من انتصارات ظل بعيدا عن التأثير على باريس . تأثرت باريس إذن ، ولكن لا ينبغي أن نبالغ ، فالبيانات تشير إلى أن الباريسي كان بين عام ١٧٨١ وعام ١٧٨٦ يستهلك في المتوسط - مع الأخذ في الاعتبار أن الرقم كان يزيد في عام وينقص في عام آخر - ١٢١,٧٦ لترا من النبيذ ؛ ٨,٩٦ من البيرة ؛ و ٢,٧٣ لتر من خمر التفاح (٢٠٦). وهكذا تأتي خمر التفاح بأرقامها الضئيلة في آخر الصف . ولا ننسى أن خمر التفاح نفسها كانت تتعرض لمنافسة أخرى ، في ألمانيا مثلا ، تتمثل في خمر التفاح البري، وهي خمر بالغة الرداءة.

المشروبات الروحية المقطرة
تحقق نجاحا متأخرا في أوروبا

وما نزال في أوروبا ، ولن نخرج عن نطاقها إلا بعد قليل . شهدت أوروبا بدعة كبيرة، أو ثورة ، تتمثل في صناعة المشروبات الروحية المقطرة، أو المشروبات الكحولية المستخرجة من الحبوب ، باختصار: الكحول. كان القرن السادس عشر هو الذي ابتدع الكحول ، إن جاز هذا التعبير، وكان القرن السابع عشر هو الذي دفعه إلى الأمام ، ثم جاء القرن الثامن عشر فعممه تعميما .

والمشروبات الروحية يحصلون عليها بالتقطير ، " بحرق " النبيذ . وتحتاج هذه العملية إلى جهاز ، هو الأنبيق واسمه بالفرنسي alambic، وهي كلمة دخلت العربية من اليونانية أمبيكوس ambicos وأضاف العرب إليها أداة التعريف الـ ، وانتقلت إلى الفرنسية عن العربية ، والأنبيق قارورة طويلة العنق يمكن استخدامها في تقطير مشروب كحولي . ولكن الاغريق والرومان لم يكونوا ، على أحسن الافتراضات ، يعرفون إلا نقطة البداية . ولكن الشيء الذي لا يرقى إليه الشك هو أن الغرب كانت به أنبيقات قبل القرن الثاني عشر، ونستنتج من ذلك أنه كانت لديه إمكانية تقطير كل أنواع المشروبات الكحولية . إلا أن تقطير النبيذ ظل زمانا طويلا حكرا على الصيادلة . وكان المشروب الروحي الذي يحصلون عليه نتيجة لعملية التقطير الأولى يعتبر دواء، وكذلك الحال بالنسبة لناتج عملية التقطير الثانية ، والذي كانوا يسمونه روح النبيذ (بالفرنسية إسبرى esprit، بالإيطالية اسپرتو spirito) ، وكان من حيث المبدأ " خاليا من الماء كلية " ، كان يعتبر دواء أيضا . وربما تم اختراع الكحول حول عام ١١٠٠ في جنوب ايطاليا " حيث كانت مدرسة الطب في سالرنو أهم مركز للبحوث الكيمائية " في ذلك العصر(٢٠٧) . أما القصص التي تنسب أول عملية تقطير كحولى إلى الفيلسوف

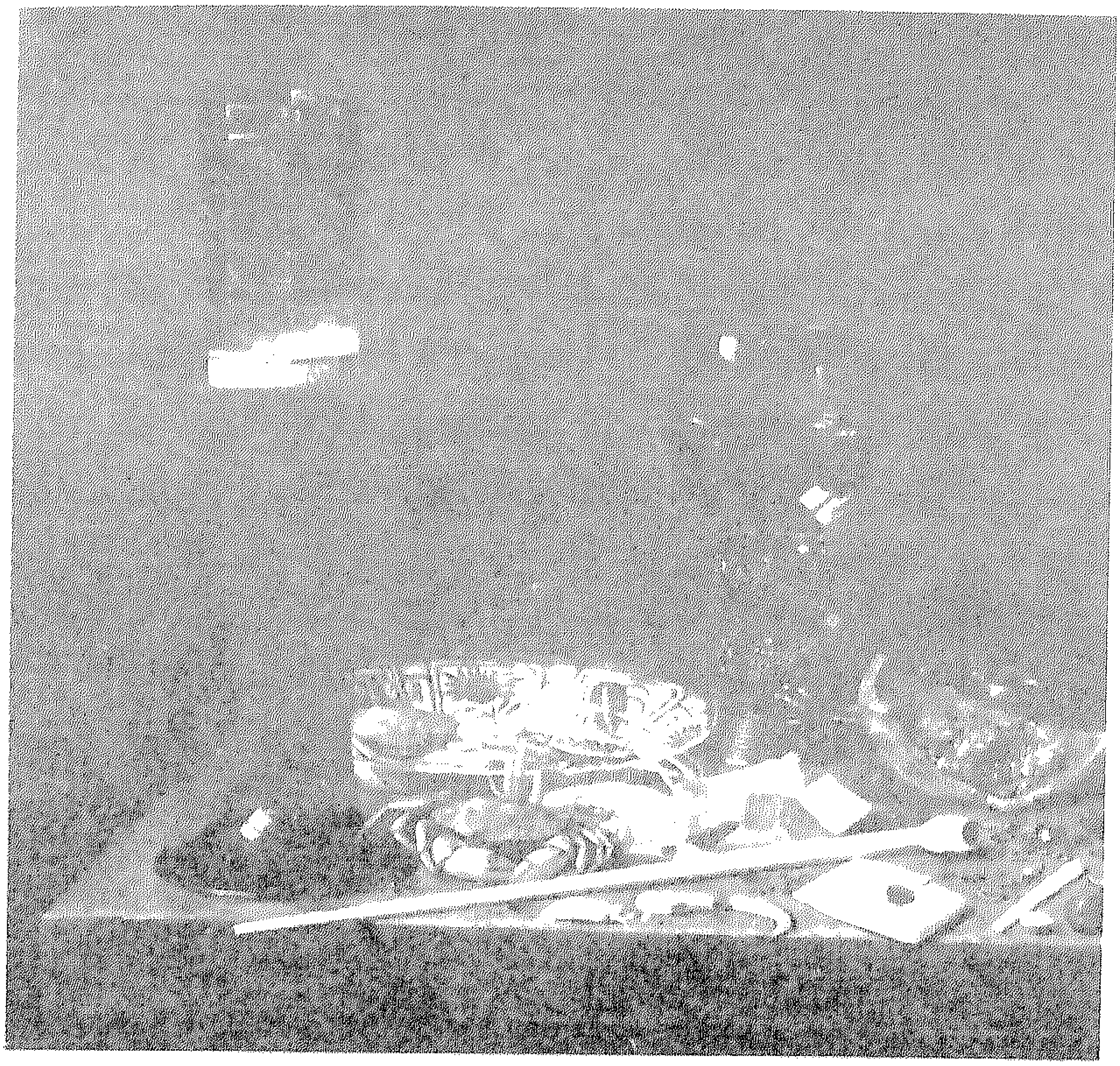

البيرة والنبيذ والتبغ . لوحة تصور الجماد nature morte ، من رسم يان يانس فان دي فيلده Jan Jansz. van de Velde (١٦٦٠) لاهاي ، متحف ماروتسهوس Mauritshuis .

الإسباني رايموندو لوللو Raimundo Lullo المتوفى في عام ١٣١٥ ، أو الى الطبيب العجيب أرنو دي فيلنيف Arnaud de Villneuve الذى كان كثير التجوال، ويقولون أنه ألقى محاضرات في مونبلييه ، وباريس ، وتوفي في عام ١٣١٣ بينما كان يقوم برحلة بين جزيرة صقلية ، وإقليم البروفانس جنوب فرنسا ، فهي قصص خيالية . وقد خلف الطبيب أرنو دي فيلنيف كتابا يحمل عنوانا جميلا جذابا هو : " الحفاظ على الشباب " La Conservation de la jeunesse يقول فيه إن المشروبات الروحية، ويذكرها باسم ماء الحياة aqua vitae ، تحقق هذه المعجزة، فهي تخلص الإنسان من الأمزجة الزائدة ، وتنشط القلب ، وتعالج المغص، وتبريء من الاستسقاء، ومن الفالج، ومن الحمى الرباعية، وتسكن آلام الأسنان ، وتقي من الطاعون . إلا أن هذا الدواء العجيب أنزل بالملك شارل الملقب بالشرير كارثة لا تنسى ، وفتك به على نحو فظيع، في عام ١٣٨٧ : فقد لفه الطبيب بملاءة مبللة بماء الحياة أو السبرتو وخاطها بغرز كبيرة ،

حرصا منه على تحقيق نتيجة أكثر فعالية ، حتى يضمن بقاء الملاءة حول المريض، وحدث أن أتى أحد الخدم ، وأراد أن يفض خيطا من الخيوط التي خيطت بها الملاءة، فقرب منها شمعة ، فأمسكت النار في الملاءة والمريض(٢٠٨)...

وبقي الكحول، أو روح النبيذ ، أو ماء الحياة زمانا دواء يستخدم لاتقاء الطاعون، ولعلاج النقرس أو داء الملوك ، وعلاج بحة الصوت . وظل الوضع على هذه الحال حتى عام ١٧٣٥ حيث نقرأ في كتاب في الكيمياء Traité de chimie" أن روح النبيذ إذا أحسن استخدامها كانت أشبه شيء بالدواء الذي يشفي كل داء " (٢٠٩). ولكن روح النبيذ كانت في ذلك التاريخ قد استخدمت منذ وقت طويل في صناعة المشروبات الروحية القوية المسماة ليكور liqueurs. ولكن هذه المشروبات الكحولية من نوع الليكورات، والتي كانت تصنع في ألمانيا حتى في القرن الخامس عشر ، بغلى أنواع من الأعشاب والعطارة ، كانت تعتبر من قبيل الأدوية . ولم يتكشف الفرق إلا في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ومستهل القرن السادس عشر . ونحن نقرأ في نص يرجع الى عام ١٤٩٦ أن المشروبات الروحية القوية لم يعد المرضى وحدهم هم الذين يقبلون عليها في مدينة نورنبرج الألمانية ، يشهد على ذلك أن قرارا صدر بحظر بيعها للكافة في أيام الأعياد . وإليك هذا الطبيب النورنبرجي الذي كتب في عام ١٤٩٣ : " لما كان كل من هب ودب قد اعتاد في أيامنا هذه أن يشرب الكحوليات aqua vitae فقد بات من الضروري أن يتذكر كل إنسان الكمية التي يستطيع أن يسمح بها لنفسه، وألا يشرب الا في حدود طاقته ، إذا أراد أن يسلك السلوك اللائق بالإنسان النبيل ." فليس هناك إذن أدنى شك في أن هذا العصر شهد مولد المشروب الكحولي البراندي ، النبيذ المحروق، بألمانية ذلك العصر : geprant Wein، بالفرنسية vin brûlé أو باللاتينية: vin أو كما جاء بالنصوص : vinum sublimatum(٢١٠).

ولكن الكحول لم يخرج من قبضة الأطباء ، والصيادلة إلا بخطوات بطيئة جدا ، فلم يعط لويس الثاني عشر لاتحاد صناع الخل امتياز التقطير إلا في عام ١٥١٤. وكان معنى ذلك الخروج بالكحول من دائرة الطب إلى دائرة الاستخدام العادي . أما في عام ١٥٣٧ فقسم الملك فرانسوا الأول الامتياز بين صناع الخل و صناع الليمونادة ، ونجم عن هذا التقسيم شجار كثير يثبت أن الكحول كان شيئا يستحق أن ينشب الشجار حوله . ونشهد في مدينة كولمار Colmar أن العملية بدأت مبكرة ، فقد بدأت المدينة في عام ١٥٠٦ تفرض رقابة على تقطير النبيذ ، وعلى تجار الكحوليات، ودخلت الكحوليات في بيانات الضرائب ، والجمارك . وبدأت الكحوليات تتخذ بسرعة شكل الصناعة القومية، التي أنيط بها اتحاد صناع البراميل ، وكان اتحادا مهنيا قويا في بلاد ازدهرت فيها بساتين الكروم . وحقق صناع البراميل أرباحا هائلة مما جعل التجار

يحاولون الاستيلاء على العملية منذ عام ١٥١١ . ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم هذا إلا بعد خمسين سنة. ولكن الصراع ظل مستمرا ، يشهد على ذلك أن صناع البراميل حصلوا في عام ١٦٥٠ مرة أخرى على حق التقطير، ولكن بشرط أن يسلموا الإنتاج إلى التجار . ونظرة الى سجلات التجارة تبين لنا أن قائمة تجار الكحوليات كانت تضم كل الأسماء العظيمة لوجهاء مدينة كولمار، مما يوحي بأن تجارة الكحوليات كانت في ذلك الحين تحتل مكانا كبيراً(٢١١).

ولكننا للأسف لا نمتلك إلا بيانات قليلة من هذا النوع تمكننا من رسم خطوط جغرافية وتاريخ صناعة الكحوليات في بدء إنشائها. وهناك بعض مؤشرات تتصل ببورديليه Bordelais تتيح لنا أن نستنتج أن جاياك Gaillac كان بها في القرن السادس العاشر معمل تقطير كحول في وقت مبكر ، وأن الكحول كان يصدر إلى الخارج عن طريق ميناء أنتفربن Antwerpen منذ عام ١٥٢١ (٢١٢). ولكن ، هل هذه البيانات أكيدة؟ المعلومات التي بين أيدينا تفيد أن الكحول acquavite لم يظهر، على الأقل في تعريفات الجمارك إلا في عام ١٥٩٦ (٢١٣). أما في برشلونه فلا نجد إشارة إلى الكحول قبل القرن السابع عشر . وبغض النظر عن هذه المؤشرات فإن بلاد الشمال، وهي ألمانيا ، والأراضي الواطئة ، وربوع فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، كانت في هذا المجال أسبق من بلاد حوض البحرالمتوسط . ولقد كان التجار والبحارة الهولنديون هم الذين اخترعوا ، أو على الأقل شجعوا صناعة تقطير الكحول ونشروها في واجهة أوروبا المطلة على المحيط الأطلسي . ولما كانوا قد تحملوا بأعباء أكبر تجارة نبيذ في ذلك العصر، فقد كانوا متمرسين على معالجة مشكلات النقل والحفظ والمذاق ؛ لقد كانت المشروبات الروحية إذا شقت طريقها الى منطقة ، حتى إذا كانت من الناحية الاقتصادية شديدة الضعف، أمدتها بالقوة وبثت فيها النشاط والحيوية ، ولما كان الكحول أغلى ثمنا من النبيذ، مع تساوي الحجم ، فقد كان ذلك يعني انخفاض تكاليف النقل . وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن الناس أقبلوا على الكحول واستحسنوا مذاقه ، فكان ذلك بداية عصر جديد...

وساعد الطلب المتزايد، وقلة تكاليف نقل الكحول عن تكاليف نقل النبيذ، على إقامة معامل تقطير الكحول في العمق، بعيدا عن البحر، في داخل بساتين كروم اللوارLoire، وبواتو Poitou، وبورديليه العليا Bordelais ، وبيريجور Perigord، وبيارن Bearn (ولقد كان نبيذ جورانسون Jurancon خليطا من النبيذ والكحول). وهكذا تكونت ، استجابة لنداء من الخارج ، الشهرة الواسعة للمشروبات الكحولية من نوع الكونياك والأرمنياك armagnac، وتضافرت على تحقيق هذه الشهرة كل العوامل مجتمعة : وجود أنواع ممتازة من الكروم (مثل تلك التي سميت

Enrageant أي " الخلابة " و Folle Blanche أي " البيضاء المجنونة " في ربوع الشارانت Charentes) ، توافر خشب الوقود ، قرب الطرق الملاحية . وتشير البيانات إلى أن كميات الكحول التي كانت تصدر منذ عام ١٧٢٨ من ميناء تونـي شارانت Tonnay-Charente ربت إلى ٢٧٠٠٠ برميل جاءت من منطقة كونياك (٢١٤). بل إن النبيذ الرديء الذي كان يعصر في وادي نهر الموز Meuse في إقليم اللورين أصبح يعالج بالتقطير منذ عام ١٦٩٠ (وربما قبل ذلك) ، بل لقد قطروا تفل العنب، واستخرجوا منه مشروبات كحولية أرسلوها بطريقة الملاحة النهرية إلى الأراضي الواطئة(٢١٥). وسرعان ما تطورت صناعة التقطير شيئا فشيئا وأصبح الكحول يقطر في كل مكان تتوافر فيه المادة الأولية ، وتدفقت المشروبات الروحية بالضرورة من بلاد الجنوب التي تنمو فيها الكروم : من الأندلس قرب خيريث ، وقتالونيا ، واقليم اللانجدوك.

وتزايدت كميات الإنتاج بسرعة ، كانت سيت Sète بفرنسا تصدر في عام ١٦٩٨ نحو ٢٢٥٠ هكتولتر من الكحول ، فارتفع الرقم الى ٣٧٥٠٠ في عام ١٧٢٥ (تنتج من تقطير ١٦٨٧٥٠ هكتولتر من النبيذ)؛ ثم إلى ٦٥٩٢٦ في عام ١٧٥٥ (ناتج تقطير ٢٩٦٦٦٧ هكتولتر من النبيذ) وكان هذا رقما قياسيا عشية حرب السنين السبع التي أصابت التصدير بالخراب . وواكب ذلك انخفاض في السعر من ٢٥ جنيه (ليڤر) للسطل المسمى فيرج verge، وكان يساوى ٧,٦ لترات في عام ١٥٩٥ ، إلى ١٢ جنيه للسطل في عام ١٦٩٨ ، ثم إلى ٧ جنيهات في عام ١٧٠١ ، و ٥ جنيهات في عام ١٧٢٥ ؛ ثم أعقب ذلك صعود بطيء بعد عام ١٧٣١، حتى وصل السعر إلى ١٥ جنيه للسطل في عام ١٧٥٨ (٢١٦).

ومن البديهي أن الجودة كانت على درجات مختلفة (٢١٧) ينبغي أخذها في الاعتبار : وكانت درجات الجودة تبدأ من الدرجة التي فوق الحد الأدنى ، وكان الحد الأدنى يتحدد بـ " الاختبار الهولندي " : وكان هذا الاختبار يتم بأخذ عينة من الكحول الجاري تقطيره ، توضع في زجاجة ، تملأ إلى نصفها ، ثم تسد الزجاجة بالابهام ، وترج ، فإذا كون الهواء الذي يختلط بالسائل فقاقيع ذات شكل معين ، كان ذلك مؤشراً يدل على أن الكحول ذو جودة تجارية ، أعنى بين ٤٧ و ٥٠ درجة ، أما ما دون هذه الدرجة فمعيب يجب التخلص منه أو تقطيره من جديد . وكانوا يطلقون على الجودة المتوسطة اسم " ثلاثة-خمسة " وهي نسبة كحول ٧٩ إلى ٨٠ : وأعلى درجة هي المسماة "ثلاثة -ثمانية " وهي السبرتو النقي بدرجة ٩٢ إلى ٩٣ في المائة..

وظلت صناعة الكحوليات تعترضها الصعاب ، وتعتمد على أساليب يدوية ؛ فلم تدخل على الأنبيق إلاتعديلات غير كافية كانت وليدة الممارسة ، إلى أن جاء ڤايجرت Weigert في عام ١٧٧٣ فابتكر الأنبيقات التي يتم التبريد فيها بتيار مزدوج(٢١٨). ثم كان على هذه الصناعة أن تنتظر الى أن يدخل أرباب الابتكار تعديلات حاسمة تمكن من إتمام عملية التقطير دفعة واحدة ، ثم جاء إدوارد آدم Edouard Adam وهو مخترع مغمور من مواليد عام ١٧٦٨ فأدخل تعديلات فعالة أدت إلى خفض سعر الكحوليات وأسهمت في انتشارها انتشارا هائلا في القرن التاسع عشر(٢١٩).

وأياً كان الأمر فقد تزايد الاستهلاك بخطوات سريعة. واستقرت بين أرباب السيف عادة سقاية الجنود كحوليات قبل أن يخوضوا غمار المعارك ، وإليك هذا الطبيب الذي كتب في عام ١٧٠٢ معبرا عن رأيه في أن الكحول لا يحدث بالجنود " أثرا سيئا"(٢٢٠). وكانت النتيجة باختصار أن الجنود تعودوا الشرب، وأصبحت صناعة الكحوليات أحياناً صناعة حربية . بل إن أحد الأطباء الإنجليز أكد في عام ١٧٦٣ أن النبيذ والمشروبات الروحية - من قبيل الليكورات - تفيد في القضاء على " الأمراض المنتنة " ، وهي مواد لا غنى عنها في الحفاظ على صحة قوات الجيش(٢٢١). وانظر إلى الشيالين في سوق باريس المعروفة باسم les Halles، تجدهم قد اعتادوا ، رجالا ونساء، تناول المشروبات الكحولية المخففة بالماء ، والمتبلة بالفلفل الحامي، وكان هذا الشراب قد ابتكر كوسيلة للتحايل على الضريبة التي كانت مفروضة على النبيذ، والتي كانت تحصل عند مداخل باريس ، فلم تكن على الكحول آنذاك ضريبة. كذلك أقبل على تناول هذا النوع من المسكرات الرخيصة زبائن "حانات المدخنين" التي سموها التباغيات" tabagies. من tabac. وكانت خمارات شعبية يلم بها العمال المدخنون، الذين وصموا بأنهم كسالى أو تنابلة (٢٢٢).

كذلك راجت موضة أخرى ، هي موضة الكحوليات المعطرة ، وكانوا يسمونها " راتافيا " ratafias، ونحن نميل الى تسميتها ليكورات liqueurs فقد كانت، ككل ليكور، قائمة على الكحول . تحدث عنها الطبيب لويس ليميري Louis Lemery في كتابه عن الأطعمة Traié des aliments فقال إنها " من أنواع الكحول السبرتو القابل للاشتعال، وإنها ذات طعم فيه شيء من اللذوعة ، أو ما يشبه الأطعمة الشايطة أو المحروقة [...] ومن هنا كان السعى إلى تخليصها من هذا الطعم الكريه ، بابتكار توليفات متعددة أطلقوا عليها اسم الماتافيا ، وليست الماتافيا شيئا آخر سوى المشروب الروحي أو المشروب الكحولي ، أو السبرتو ، أو روح النبيذ ، يضيفون إليها عناصر مختلفة يخلطونها بها "(٢٢٣). كان القرن السابع عشر هو الذي نشر موضة هذه الليكورات . أما جي پاتان Gui Patin الذى كان حريصا على السخرية من نزوات

معاصرية ، فلم ينس الإشارة إلى الروسولي rossolis الشهير الذي جلبوه من ايطاليا : " هذا الروس + سوليس ros solis (كلمتان لاتينيتان تعنيان : ندى الشمس) قائلا ما معناه أن ندى الشمس هذا لا شأن له بالشمس بل هو أقرب إلى النار الحارقة nihil habet solare sed igneum(٢٢٤). كانت الليكورات أو الكحوليات أو ربما أسموها الكحوليات الحلوة قد دخلت نهائيا ضمن عادات الناس في فرنسا ، ونطالع في كتب التدبير المنزلي البورجوازية الجيدة ، مثل كتاب " البيت المنظم " La maison reglée كيف كان المؤلفون يجدون من واجبهم أن يصفوا للناس " الطريقة الحقيقية لصناعة كافة أنواع الليكورات [...] على النمط الإيطالي " (٢٢٥). ولم يعد من الممكن أن يحصي الإنسان عدد التوليفات الكحولية التي كانت تباع في باريس في القرن الثامن حاملة أسماء لا حصر لها كثيرا ما ألحقوها بالماء أو المياه ، ومنها مثلا : مياه سيت ، مياه الينسون، ليكور بعجينة اللوز، مياه الكليريت clairettes (وكانت ليكورات المياه الكليريت هذه تصنع مثل النبيذ الكليريت بخلطها بمنقوع التوابل) ، راتافيا ممزوجة بالفواكه، مياه الباربادوس (نسبة إلى جزر الباربادوس وهي توليفة قوامها السكر وكحول الروم) ، ماء الكرفس ، والليكور الشمري (بالشمر) ، وماء الألف زهرة ، ماء القرنفل، المياه القدسية ، مياه القهوة ... وكان المركز الكبير لصناعة هذه التوليفات الكحولية ، مدينة مونبلييه ، على مقربة من معامل الكحوليات في منطقة اللانجدوك . أما العميل البارز فكان بطبيعة الحال باريس . ولهذا أعد تجار مونبلييه مخزنا مترامي الأطراف في شارع هوشيت Huchette بباريس يستطيع أصحاب الحانات أن يشتروا منه حاجتهم بكميات وأسعار نصف الجملة (٢٢٦). وهكذا تحولت الكحوليات من بضاعة ترفية في القرن السادس عشر إلى بضاعة عادية شائعة في القرن الثامن عشر .

ولم تكن المشروبات الروحية هي وحدها التي انتشرت في أوروبا، وفي العالم ، إنما ظهرت مشروبات أخرى . فقد استخدم سكر جزر الأنتيل في صناعة مشروب الروم rhum الذى راج في انجلتره وهولنده والمستعمرات الإنجليزية في أمريكا على نحو فاق رواجه في بقية ربوع أوروبا . ومن حق مشروب الروم أن نقول عنه إنه كان خصما شريفا كل الشرف ، جديرا كل الجدارة . أما في أوروبا فقد واجهت الكحوليات المصنوعة من نبيذ العنب ، المعروفة باسم روح النبيذ ، منافسة الكحوليات المستخرجة من خمر التفاح أو السيدر (ومن خمر التفاح استخرجوا منذ القرن السابع عشر المشروب الكحولي الفريد المسمى كالفادوس calvados وكان صنفا فوق كل مقارنة) (٢٢٧)، والكحوليات المستخرجة من الكمثرى ، والبرقوق، والكريز ؛ وجاء مشروب الكريز الكحولي المسمى كيرش kirsch من الألزاس ومن اللورين ومن إقليم فرانش كونتيه ، واستخدموه حول عام ١٧٦٠ في باريس أول ما استخدموه كدواء ثم تحول إلى مشروب بعد ذلك؛ ونذكر

مشروب الماراسكان marasquin أو الماراسكينو - المستخرج من نوع مزز من أنواع كريز منطقة البحر المتوسط - الذي اشتهر حول عام ١٧٤٠ - قادما من مدينة زارا Zara اليوغوسلافية ، وقد احتكرته البندقية ، وأحكمت قبضتها عليه . كذلك واجهت الكحوليات المستخرجة من نبيذ العنب منافسة أنواع أقل جودة من المشروبات الكحولية المستخرجة من الفواكه ، ولكنها كانت مشروبات لها خطرها ، نذكر منها المشروبات الكحولية التي استخرجوها بالتقطير من تفل العنب وغيره ، وكانوا يسمونه المارك marc، وتلك التي استخرجوها من الحبوب ، وكانوا يسمونها الكورن أو كحوليات الحبوب . ففي عام ١٦٩٠ أو نحوه شرعوا في إقليم اللورين يقطرون تفل العنب المتخلف عن العصر . وإذا كان تقطير الكحوليات المستخرجة من العنب يتطلب نارا هادئة، فإن تقطير تفل العنب يحتاج إلى نار قوية ، وبالتالي إلى كميات ضخمة من الخشب كوقود . ولما كان الخشب وفيرا في اللورين ، فقد لعب دوره في إنتاج هذا النوع من الكحوليات . وانتشر هذا النوع من التقطير رويداً رويداً ، في بورجونديا التي ما لبث ما تنتجه من مارك أن اشتهر حتى فاقت شهرته كل الأصناف الأخرى، كذلك أدخلت معامل النبيذ الايطالية هذا التقطير ، وأنتج كل معمل نوعا خاصا به ، وكانوا يسمونه جرابا grappa.

أما أبرزالمنافسين الذين واجهتهم الكحوليات المقطرة من نبيذ العنب (وما أشبه هذه المنافسة بمنافسة البيرة للنبيذ) فكانت الكحوليات المستخرجة بالتقطير من الحبوب وهي المسماة : كورنبراند Kornbrand ، ڤودكا vodka، ويسكي whisky ، چين gin، چينييفر genièvre (من حَب حسن الرائحة اسمه حَب العرعر) ، وقد ظهرت هذه الأصناف شمال الحد التجاري لمنطقة الكروم ، ولا علم لنا بالوقت الدقيق الذي بدأت فيه انتشارها (٢٢٨). وتمتاز هذه الكحوليات بسعرها المتواضع. ونظرة إلى انجلترا في مطلع القرن الثامن عشر تبين لنا أن المجتمع البريطاني كان كله، عاليه وواطيه ، يعب الجين حتى السُّكر، ويحرص عليه أشد الحرص وأدقه .

ومن الطبيعي أن البلدان الممتدة إلى الشمال من حدود منطقة الكروم تجمع بين أذواق مختلفة مختلطة : كانت انجلترا تفتح أبوابها أمام الكحوليات المستخرجة من النبيذ الواردة من أوروبا، كما تفتحها أمام الروم القادم من أمريكا (وبدأ مشروب البونش punch وهو توليفة أساسها الروم المعطر بالليمون والقرفة يلقى رواجا وشهرة ، وكلمة بونش هندية الأصل ومعناها خمسة ، إشارة الى التوليفة الخماسية) ، وكانت إلى هذا وذاك تشرب إنتاجها من الويسكي والجين ؛ أما هولندة فكانت أكثر خلطا من انجلترا، فكانت ملتقى كل أنواع الكحوليات المقطرة المستخرجة من النبيذ، وكل أنواع الكحوليات المستخرجة من الحبوب في العالم ، لا يستثنى منها صنف، حتى الروم

" بائع الكواس الروسي " . والكواس kwas نوع من البوظة كان بمثابة كحول الفقراء . وكانوا يصنعون الكواس في روسيا بتخمير الشعير وربما بتخمير بقايا الخبز أو الفواكه الحامضة . صورة مرسومة بالحفر من أعمال لوبرانس J.B-. Le Prince.

الوارد من كوارساو وغيانا . نجد كل هذه الكحوليات متداولة في بورصة أمستردام : وعلى رأسها الروم : يليه روح نبيذ العنب : أما الكحوليات المستخرجة من الحبوب فتأتي متأخرة أوضح التأخر بعد هذين الصنفين اللذين عقد لهما لواء السيادة . أما ألمانيا ، بين نهر الراين ونهر الإلبة ، فكان الاستهلاك فيها مزدوجا هي أيضا ، في عام ١٧٦٠ استوردت هامبورج من فرنسا ٤٠٠٠ برميل من كحوليات النبيذ ، في كل برميل ٥٠٠ لتر ، أي نحو عشرين ألف هكتولتر. أما البلاد التي لم تكن تشرب إلا الكحوليات

المستخرجة من الحبوب ، ولا تكاد تشرب سواها ، فلا تبدأ إلا فيما وراء نهر الإلبة، ومن حول بحر البلطيق . ففي نفس العام ، عام ١٧٦٠ ، لم تستورد مدينة لوبيك الألمانية المطلة على بحر البلطيق سوى ٤٠٠ برميل فقط من كحوليات النبيذ الفرنسية ، أما كونجسبرج königsberg فاستوردت ١٠٠ برميل فقط ، وستوكهولم ١٠٠ برميل ؛ وكانت الكمية التي استوردتها لوبيك " كمية قليلة جدا ، ثم إنها لم تكن لاستهلاكها هي[...] بل لاستهلاك بروسيا ". ويشرح سافاري الوضع فيقول ان پولنده والسويد " على الرغم من أنهما أكثر تحفظا تجاه الخمور المقطرة ذات النسب العالية الحراقة من الكحول [...] فإنهما تفضلان الكحوليات المقطرة المستخرجة من الحبوب على الكحوليات المقطرة المستخرجة من نبيذ العنب "(٢٢٩).

وأيا كان الأمر فقد خطت أوروبا بثورتها الكحولية خطوات هائلة على درب النجاح . ووجدت أوروبا في الكحول واحدا من من منبهاتها التي تستخدمها في حياتها اليومية، ووجدت فيه مصدرا رخيصا للسعرات الحرارية ، وترفا من المؤكد أن السبيل إليه سهل ميسور، وأن عواقبه وخيمة فظيعة . ولن تلبث الدولة أن تفيد منه هو الآخر ، فما كانت الدولة إلا متربصة متلهفة على ما ينفعها.

الكحولية

خارج أوروبا

والحقيقة أنه ليست هناك حضارة لم تجد لنفسها سبيلاً أو سبلاً لحل مشكلة الشراب، وبخاصة المشروبات الكحولية . وكل تخمير لمنتج نباتي يتولد عنه كحول . فالهنود الحمر الكنديون يحصلون على كحولهم من عصارة شجرة الاسفندان erable؛ وكان المكسيكيون - قبل لاس كورتيس [رحلته كانت من عام ١٦٢١ إلى عام ١٦٢٦] وبعده يشربون مشروبهم الكحولي المسمى پولكوي pulque " يسكر مثل الخمر " وكانوا يستخرجونه من صبار الأجاهة agave؛ أما الهنود الحمر في جزر الأنتيل أو في أمريكا الجنوبية ، وكانوا أقواما مساكين، فكانوا يستخرجون كحولهم من الذرة أو المنيوق . حتى قبائل التوپينامبا Tupinambas في منطقة خليج ريو دي چانيرو الذين رآهم جان دي ليري Jean de Lery في عام ١٥٥٦، وحدث عما يتسمون به من براءة ، كانوا يعبون في أعيادهم شرابا يستخدمون له المانيوق يمضغونه أولا، ثم يخمرونه بعد ذلك(٢٣٠). وهناك أماكن أخرى كان الناس فيها يشربون خمرا يصنعونها من عصارة النخيل المخمرة . وعرف الشمال الأوروبي خموره المستخرجة من عصارة شجرة البتولا ، وبيرته المستخرجة من الغلال، وسارت أوروبا وبخاصة أوروبا الشمالية حتى القرن الخامس عشر بخمر الهيدروميل hydromel (المصنوع من العسل المخفف المخمر) في مدارج

الشهرة ، بينما عرف الشرق الأقصى منذ وقت مبكر خمر الأرز التي كانوا يفضلون صناعتها من الأرز الجلوتيني، الغني بمادة الجلوتين .

فهل تفوقت أوروبا على كل هذه الشعوب بفضل الأنبيق الذي أتاح لها إمكانية صناعة مشروب كحولي متميز هو الليكور ، نوعت فيه : الروم ، والويسكي ، والكورنبراند، والفودكا ، والكالفادوس ، والمارك ، وروح النبيذ ، والجين ، كلها أخرجتها من أنبوبة التبريد التي ينتهي بها الأنبيق ؟ ينبغي للإجابة على هذا السؤال أن نتحقق من أصل كحول الأرز أو الدخن في الشرق الأقصى ، وهل كان موجودا قبل أو بعد ظهور الأنبيق في الغرب ، وقد ظهر الأنبيق في الغرب في وقت ما من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر .

ومن البديهي أن الرحالة الأوربيين لا يقدمون إلينا الإجابة على هذا السؤال. فنحن نجدهم يقررون وجود العرقي arak وقد يكتبون الاسم بحسب الأصل arrequi، في بداية القرن السابع عشر في الجزائر في معرض الحديث عن القراصنة (٢٣١). وإليك ما يدعيه هذا الرحالة ، وهو مانديلسلو Mandelslo، الذي نزل جودجيرات في عام ١٦٣٨، حيث يقول : " إن التيري terri الذى يستخرجونه من النخيل ...مشروب كحولي حلو يجد الإنسان في شربه متعة كبيرة " ويضيف : " وهم يستخرجون العرقي من الأرز ومن السكر ومن البلح ، والعرقي نوع من المشروبات الكحولية أقوى وألذ من الكحوليات التي تصنع في أوروبا ." (٢٣٢). أما الطبيب المتبحر كيمفر kämpfer فقد شرب الساكي sacki في اليابان في عام ١٦٩٠ وهو من قبيل بيرة الأرز، فقال عنه " إنه مشروب قوي في مثل قوة نبيذ اسبانيا " ؛ أما اللاو lau الذى تذوقه في سيام فقال عنه انه من قبيل البراندي Branntwein، وقرر الرحالة أنه كانت هناك خمرا أخرى اسمها العرقة araka(٢٣٣). ونقرأ في رسالة من رسائل اليسوعيين أن الخمر الصينية " بيرة حقيقية " يصنعونها من الدخن أو الأرز ، ويضيفون إليها في كثير من الأحيان بعض الفواكه " إما طازجة، أو مقندة مسكرة أو مجففة في الشمس " ومن هنا أتت أسماؤها : " خمور السفرجل، خمور الكريز ، خمور العنب ". ولكن الصينيين يشربون كذلك مشروبا روحيا " قطر بالأنبيق، وهو مشروب يحدث في الحلق شواظاً يكاد يشبه البراندي"(٢٣٤). وبعد ذلك بسنوات قليلة ، في عام ١٧٩٣ شرب جورج ستونتون في الصين " نوعا من الخمر الصفراء " هي خمر الأرز " كانت أشبه شيء بالبراندي، وكان هذا البراندي أفضل من النبيذ ، لأن النبيذ كان عادة عكرا ، سيء الطعم سريع التلف. أما البراندي فكان قوياً صافياً ونادرا ما كان طعمه يتحول إلى طعم الأشياة المحروقة أو الشايطة ." وكان هذا المشروب الكحولي من القوة بحيث إذا اختبره الانسان وجده أشد قوة من روح النبيذ "(٢٣٥). ونصل الى جميلين Gmelin المكتشف الألماني الذي قام

برحلة كشفية في سيبريا ، فنجده يقدم إلينا ، ولكن في عام ١٧٣٨ لا قبله ، وصفا للأنبيق الذي كان الصينيون يستخدمونه(٢٣٦).

ولكن المشكلة لا تزال هي مشكلة معرفة متى بدأ التقطير. ويكاد يكون من المؤكد أن بلاد فارس أيام الساسانيين كانت تعرف الأنبيق ، ويحدثنا أبو يوسف يعقوب الكندي (٧٩٦ ـ ٨٧٣) في القرن التاسع عن التقطير، وهو لا يكتفي بالحديث عن تقطير العطور، بل يصف الأجهزة التي تستخدم في التقطير . ويحدثنا عن الكافور الذي يستخلصه بتقطير خشب شجرة الكافور(٢٣٧). ولكننا نعرف أن الكافور كان ينتج في الصين في وقت مبكر جدا . وليس هناك ما يمنع أن يكون الصينيون قد عرفوا تقطير الخمر في القرن التاسع . وهذا ما يمكن أن نستنتجه من قصيدتين من عصر آل تانج Tang، جاء فيهما ذكر الشاو شيو shao chiu الشهير ، الخمر التي تلسع، خمر سيتشوان Setchouen في القرن التاسع . ولكن علينا أن نظل على يقيننا من أن المشكلة ما تزال غامضة ، ففي هذا الكتاب الجماعي الذي صدر في عام ١٩٧٧ والذي تحدث فيه شافر E.H.Schafer عن احتمال ظهور التقطير في الصين في القرن التاسع، يرجع م . فريمان M.Freeman بداية تقنيات التقطير إلى مستهل القرن الثاني عشر، في حين يذكر ف . و . موط F.W.Mote التقطير كبدعة ظهرت في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر(٢٣٨).

وهكذا فمن الصعب ، والحال هذه ، أن نتحدث عن أسبقية الغرب أو الصين . وربما كان علينا أن نذكر الأصل الفارسي للتقطير، خاصة وأن إحدى الكلمات الصينية التي تدل على المشروب الكحولي منحوته من الكلمة العربية عرق araq .

ولا سبيل إلى إنكار أن البراندي ، والروم ، والأكوا أردينتي (الكحول المستخرج من قصب السكر) كانت هي الهدايا المسمومة التي قدمتها أوروبا إلى حضارات أمريكا. وعلى هذا المقياس نقيس براندي المسكال mezcal الذى ابتدع بتقطير لب صبار الأجافة والذي يحتوي على نسبة أعلى بكثير مما كانت تحتويه خمر البولكوي pulque الخفيفة التي كانوا يصنعونها بداية من نفس النبات . لقد عانت شعوب الهنود الحمر معاناة هائلة من هذه الكحولية التي أتيحت لهم، وأغلب الظن أن حضارة مثل حضارة هضبة المكسيك، وقد خسرت نظمها وشرائعها القديمة التي كانت تمنعها ، فاستسلمت بلا انضباط لغواية أنزلت بها منذ عام ١٦٠٠ من التخريب ما لا يتصوره العقل . وعلينا أن نتصور أن أن خمر البولكوي كانت تحقق لخزانة الدولة في إسبانيا الجديدة ـ المكسيك ـ نصف ما كانت تحققه لها مناجم الفضة(٢٣٩) ولقد كانت تلك سياسة متعمدة مارسها السادة الجد. وهذا هو مندوب الملك في المكسيك ، برناندو دي جالبيث Bernando de Galvez

يشيد بنتائج هذه السياسة ، ويبرز خاصة إقبال الهنود الحمر على الشراب، ويوصي بنشره بين الأباتشي Apaches في شمال المكسيك لأنهم لم يكن لهم به علم . إن نشر الخمر بينهم لن يؤدي فحسب إلى تحقيق موارد للخزانة ، بل إن الخمر وسيلة لا تفضلها وسيلة أخري لخلق " حاجة جديدة لديهم تضطرهم أشد الضطرار إلى الإقرار بتبعيتهم الإجبارية لنا "(٢٤٠). وكان الإنجليز والفرنسيون قد اتبعوا المنهاج نفسه في أمريكا الشمالية ، فروج الفرنسيون البراندي ، وروج الإنجليز الروم على الرغم من أوامر الحظر الملكية .

الكاكاو

والشاي والقهوة

وفي نفس الوقت الذي راج فيه الكحول تقريباً، اكتشفت أوروبا، التي كانت ملتقى كل جديد في العالم ، ثلاثة مشروبات جديدة منبهة ومقوية : القهوة والشاي والكاكاو، وثلاثتها أخذتها أوروبا من بلاد ما وراء البحار فيما يشبه الاستعارة ، فالقهوة عربية (وكانت من قبل أثيوبية) ، والشاي صيني والكاكاو مكسيكي.

والكاكاو أتى إلى أسبانيا من المكسيك التي كانت تسمي إسبانيا الجديدة ، حول عام ١٥٢٠، على هيئة قوالب و أقراص ، فلا غرابة في أن يظهر الكاكاو في عام ١٦٠٦ في الأراضي الواطئة التي كانت تحت الحكم الإسباني قبل أن يظهر في فرنسا ، وهناك حكاية طريفة يمكن أن تكون حقيقية ، تحكي عن ماري تيريز ابنة الملك فيليب الرابع الأسباني التي تزوجها الملك لويس الرابع عشر في عام ١٦٥٩ ، أنها كانت تشرب الكاكاو في الخفاء ، وكان شرب الكاكاو عادة إسبانية لم تستطع قط الكف عنها (٢٤١). ويقولون إن الذي أدخل الكاكاو باريس حقا هو الكاردينال دي ريشيليو Richelieu (أخو ريشيليو الوزير،. وكان مطران مدينة ليون ؛ توفي في عام ١٦٥٣)، وهذا جائز. وكان الكاكاو في ذلك الحين يعتبر دواء ، ولم يكن يدخل في عداد المواد الغذائية، ومن قائل: "سمعت من بعض الخدم إنه [أي الكاردينال] كان يتعاطى الكاكاو لكي يضبط أبخرة طحاله، وقد وصفت له هذه الوصفة، التي كانت من قبيل الأسرار، بعض الراهبات الإسبانيات أتين بالكاكاو الى فرنسا. (٢٤٢)." ومن فرنسا انتقل الكاكاو إلى انجلترا حول عام ١٦٥٧.

ظهر الكاكاو أول ما ظهر في الخفاء، على استحياء ، يكاد يتوارى عن العيون، ونقرأ في بعض خطابات المدام دي سيفينييه Mme de Sevigné (٢٤٣) ان الكاكاو كان بحسب الظروف والتقولات يُمتدح في البلاط الملكي أشد الامتداح ، أو يستهجن أشد الاستهجان، فهو تارة ينال الحظوة ، وتارة يخسرها . وكانت هي نفسها قلقة تخشى من

أخطار هذا المشروب الجديد على الصحة ، واعتادت مثل آخرين غيرها أن تخلطه باللبن. وإنما ينبغي أن ننتظر حتى يحل هذا العصر المعروف باسم الوصاية الريچانس Regence من عام ١٧١٥ إلى عام ١٧٢٣ ، لكي يثبت الكاكاو قدميه ، وكان الوصي الأمير فيليب دورليان هو الذي بلغ به مراتب الشهرة. وكانت عبارة " لنذهب إلى الكاكاو " تعني في البلاط لنذهب الى الأمير ساعة ينهض من فراشه، وبالتالي لنتملقه، لنسعى لنيل حظوته(٢٤٤). ومع ذلك فما يجوز لنا أن نبالغ في تصوير هذا النجاح ، ونحن نقرأ في نص يرجع إلى عام ١٧٦٨ " أن الكبراء يشربون الكاكاو أحيانا ، وأن كبار السن كثيرا ما يشربونه، أما الشعب فلم يشربه قط. " أما المنطقة الوحيدة التي غزاها الكاكاو حقيقة في نهاية المطاف فكانت إسبانيا : وما من أجنبي نزل إسبانيا آنذاك إلا وتهكم على مشروب الكاكاو الغليظ القوام الذي يضيفون إليه القرفة لتعطيه نكهتها ، والذي كان مشروب أهل مدريد المفضل. وإذا كان التاجر اليهودي هارون كولاس Aron Colace قد يمم شطر مدينة بايون Bayonne في البرانس من وراء الشمال الأسباني، واستقر فيها في عام ١٧٢٧ ، فلابد أنه فعل ذلك لأسباب لها قميتها، منها ما يتصل بتجارة الكاكاو، وقد بقيت مراسلاته تشهد على ذلك . كان هذا التاجر اليهودي على اتصال بأمستردام ويسوق بضائع المستعمرات (وبخاصة كاكاو كاراكاس الذي كان كثيراً ما يلف هذه اللفة غير المتوقعة فيصل الى أمستردام) وكان يراقب من مدينته بايون حركة السوق في شبه جزيرة إيبريا ،إسبانيا والبرتغال(٢٤٥).

وعندما نزل الرحالة چيميللي كاريري في ديسمبر من عام ١٦٩٣مدينة ازمير قدَّم، على سبيل التلطف والتودد، مشروب الكاكاو الى أغا تركي : فانتابته حالة كالدوار " فإما أن يكون قد سكر من الكاكاو [وهو ما نشك فيه]، أو ربما كان دخان التبغ هو الذي أصابه بالدوخه ، ولكنه على أية حال ثار علي ثورة عارمة ، وقال إنني سقيته خمرة لأذهب بوعيه ، وأفقده عقله ..."(٢٤٦).

وجاء الشاي من الصين البعيدة بصحبة البرتغاليين والهولنديين والإنجليز، وكان الشاي قد انتشر في الصين قبل ذلك بألف أو ألف ومائتي عام . وكان نقل الشاي من الصين عملاً طويلاً وصعبا : فقد تطلب نقل أوراق نبات الشاي ، ونقل براد الشاي ، وفناجين الشاي المصنوعة من البورسيلين ، ثم نقل الإقبال على طعم هذا المشروب الغريب الذي عرفه الأوربيون أول ما عرفوه في الهند حيث كان شرب الشاي شيئاً واسع الانتشار . ومن قائل إن أول شحنة من الشاي وصلت إلى أمستردام حول عام ١٦١٠ وكانت شركة الهند الشرقية هي التي سبقت إلى التفكير في استيرادها (٢٤٧).

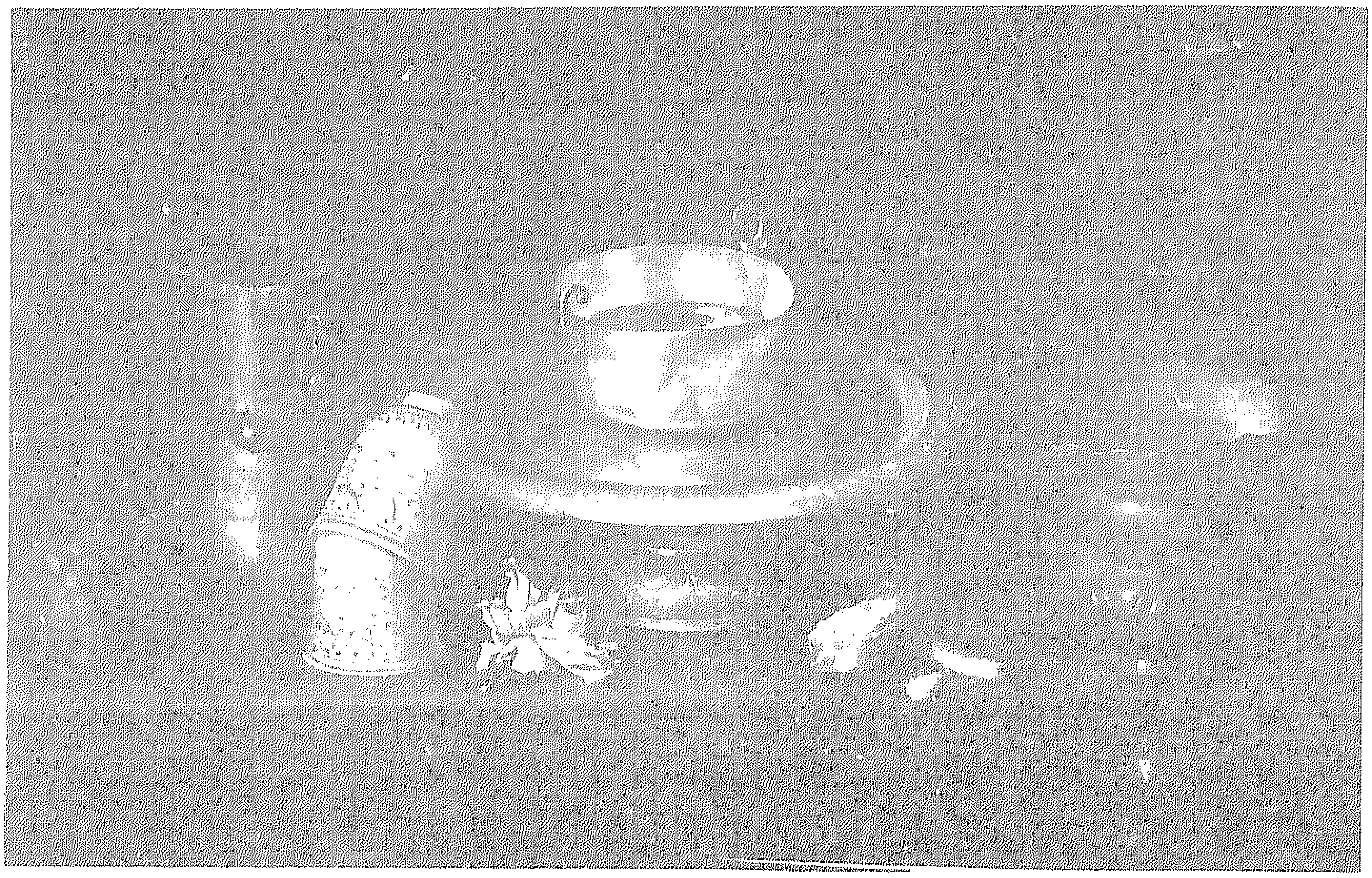

الكاكاو في أسبانيا ... افطار بالكاكاو ، لوحة من رسم فرنثيسكو ثورباران Zurbaran (١٥٦٨ـ ١٦٦٤) متحف بيزانسون .

وشجرة الشاي ـ وكانوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر يستخدمون في فرنسا لفظة théier للدلالة عليها، ثم ثقلت على الاستخدام وتوارت واستخدموا بدلا منها arbre à thè أي شجرة الشاي ـ شجيرة كان الفلاحون الصينيون يجمعون أوراقها، وكانت الجنهية الأولى أو القطفة الأولى هي التي تنتج الشاي الأمبراطوري، الذي ترجع عظمته الى صغر أوراقه وليونتها ؛ ثم كانوا يتعهدون هذه الأوراق بالتجفيف، فإما أن يجففوها بالنار فتنتج الشاي الأخضر، وإما أن يجففوها بالشمس، فيلم بها شيء من التخمر، وتصطبغ باللون الأسود، وتنتج الشاي الأسود. ثم كانوا بعد ذلك يبرمون الشاي بأيديهم، ويعبئونه في صناديق كبيرة مبطنة بالرصاص أو القصدير، ثم يصدرونه .

ولم ترد إشارة عن الشاي ، من حيث هو مشروب جديد ، في فرنسا إلا في عام ١٦٣٥ أو ١٦٣٦، على حد قول ديلامار Delamare، ولكن الشاي لم يكن آنذاك قد أخذ مكانه بين المشروبات المألوفة ، أو لم يكن ـ كما يقولون ـ قد حصل على حق المواطنة بعد .ورآه طالب في كلية الطب في باريس ، كان قد أتم دراسته ، وتهيأ لكتابة رسالة الدكتوراه ، فكتب عنه رسالة الدكتوراه في عام ١٦٤٨ ، فثارت ضجة تحدث عنها جي پاتان Gui Patin قائلا : " إن بعض الدكاترة أحرقوا الرسالة ، ووبخوا عميد كلية الطب، لأنه أجازها . ولك أن تقرأها إذا شئت ، لتوقن من أنها تثير الضحك ". وعلى الرغم من

.ذلك، ما مرت عشر سنوات أو زهاؤها حتى قدمت في عام ١٦٥٧ رسالة دكتوراه أخرى عن الشاي، أشرف عليها المستشار سيجييه Séguier - وكان من المولعين بالشاي - أشادت بخواص المشروب الجديد بعبارات التقديس والتكريس (٢٤٨).

وإلى الإنجليز جاء الشاي عن طريق هولنده ، وتولى أصحاب المقاهي في لندن مهمة ترويجه والوصول به إلى حد الموضة ، ويحدثنا صامويل پيپيس Samuel Pepys أنه شرب الشاي لأول مرة في ٢٥ سبتمبر من عام ١٦٦٠ (٢٤٩). ولكن شركة الهند الشرقية لم تبدأ في استيراده من آسيا إلا في عام ١٦٦٩(٢٥٠) ، والحقيقة أن استهلاك الشاي لم يصبح شيئا مذكورا في أوروبا إلا في الأعوام من ١٧٢٠ الى ١٧٣٠، في تلك الأعوام بدأت حركة تجارية مباشرة تجلبه من الصين إلى أوروبا. وكان الشاي حتى ذلك الحين يأتي في أغلبه مروراً بمحطة باتاڤيا Batavia التى كان الهولنديون قد أقاموها في عام ١٦١٩. وكانت السفن الشراعية الصينية المسماة بالجونكات تنقل إلى باتاڤيا شحناتها المألوفة ، وكانت تنقل كذلك القليل من الشاي الخشن. الذي كان هو الصنف الوحيد الذي يحتمل الرحلات الطويلة . ونجح الهولنديون حيناً من الزمن في ألا يدفعوا ثمن هذا الشاي المستورد من فو كيين Fou Kien بالفضة، بل كانوا يسددون ثمنه مقايضةً على بالات من أعشاب السَّلْبية sauge التي كانت تستخدم في أوروبا فيإعداد مشروب أفاضوا في الإشادة بمنافعه الطبية ، ولكن الصينيين لم يقعوا في هذا الإغراء، ولم تحظ أعشاب السلبية بما حظي به الشاي من رواج متعاظم في أوروبا(٢٥١).

وفي ايطاليا : الكاكاو . لوحة من رسم لونجي Longhi (١٧٠٢-١٧٨٥).

وسرعان ما تفوق الإنجليز على الهولنديين .وكانت صادرات الشاي من كانتون في عام ١٧٦٦ على النحو التالي : على السفن الانجليزية ٦ مليون رطل افرنجي (الرطل الافرنجي نصف كيلو) ؛ على السفن الهولندية ٤.٥ مليون ؛ على السفن السويدية ٢.٤ ؛ على السفن الفرنسية ٢.١ ؛ المجموع الكلي : ١٥ مليون رطل فرنسي أي ما يقرب من ٧٠٠٠ طن . وما مر إلا وقت قصير حتى تكونت أساطيل حقيقية للشاي؛ وأصبحت كميات متزايدة الضخامة من أوراق الشاي المجففة يجري تفريغها من السفن في كل الموانيء التي كانت لديها " أرصفة الهند " : لشبونة ، لوريان Lorient، لندن، أوستنده Ostende، أمستردام ، جوتيبورج ، وربما جنوا وليفورنو أحيانا . تزايدت الكميات بمعدلات هائلة : الصادر من كانتون ٢٨٠٠٠ بيكول من الشاي (البيكول = ٦٠ كجم) في العام من سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٧٤٠ ؛ و ١١٥٠٠٠ بيكول من الشاي من عام ١٧٦٠ الى عام ١٧٧٠ ؛ و ١٧٢٠٠٠ بيكول من الشاي من عام ١٧٨٠ إلى عام ١٧٨٥ (٢٥٢) . فإذا وضعنا نقطة البداية ، كما فعل جورج ستونتون ، في عام ١٦٩٣ ، وحسبنا معدل الزيادة من عام ١٦٩٣ إلى عام ١٧٩٣ ، وجدنا أنه بلغ " ١ الى ٤٠٠ " على مدى قرن . وكان أكثر الانجليز فقراً في زمانه يستهلكون ٢.٥ إلى٣ كجم من الشاي في العام (٢٥٣). ولا ينبغي أن تغيب عنا هذه السمة المميزة لهذه التجارة المجنونة وهي : أنها لم تكن تشمل كل مناطق أوروبا بنسبة واحدة ، كان جزء محدود فقط من أوروبا الغربية هو الذي أولع بهذا المشروب الجديد ، ويشمل هولندا وبريطانيا ؛ أما فرنسا فلم تكن تستهلك على الأكثر إلا عشر كمية الشاي التي كانت ترد إليها ، كذلك كانت ألمانيا تفضل القهوة ، وكانت أسبانيا أقل من فرنسا وألمانيا استهلاكاً للشاي .

فهل صحيح أن الشاي حل في انجلترة محل الچين الذي كانت الحكومة البريطانية قد أعفت إنتاجه المحلي من الضريبة حتى تقاوم استيراد الكحوليات من القارة الأوروبية، فأفرط الإنجليز في شربه ؟ وهل صحيح أن الشاي كان علاجا لظاهرة الإدمان الكحولي الواضحة التي استبدت بالمجتمع اللندني في عصر الملك جورج الثاني ؟ أم هل كان فرض ضرائب مفاجئة على الچين في عام ١٧٥١ (٢٥٤) ، وارتفاع أسعار الغلال عامة هما اللذان مهدا الطريق أمام هذا القادم الجديد الذي تغنى بعظمته المتغنون فجعلوا منه دواء ناجعا لنزلات البرد والاسقربوط والحميات ؟ فلعل الشاي كان نهاية " حارة الچين " Lane Gin التي تصورها هوجارث Hogarth. أيا كان الأمر فقد انتصر الشاي ، وفرضت الدولة عليه ترتيبات ضرائبية وجمركية صارمة (منها الضرائب الجمركية التي فرضت على الشاي في المستعمرات الأمريكية ، والتي اتخذتها المستعمرات ذريعة للثورة). كذلك نشطت عمليات تهريب الشاي على نحو لم يسمع به أحد من قبل ، وتمكنت العصابات من أن تهرب من القارة الأوروبية إلى انجلترة كميات بين ٦ و ٧ مليون رطل

أفرنجي (الرطل = ٥٠٠ جرام) عبر بحر الشمال ، والمانش ، وبحر إيرلنده ، وشاركت في عمليات التهريب هذه كل الموانيء ، وكل شركات الهند ، وهي الشركات الأوروبية التي تأسست للاتجار مع الشرق ، وكبار رجال المال في أمستردام وفي غير أمستردام . كان الجميع ضالعين في تهريب الشاي ، حتى المستهلك الإنجليز نفسه . (٢٥٥).

هذه الصورة التي رسمناها لاستهلاك الشاي تقتصر على شمال غرب أوروبا ، وتغفل عميلاً هاما هو : روسيا . كان الشاي معروفا في روسيا ، ربما منذ عام ١٥٦٧ ، وإن لم يكن قد شاع في البلاد قبل عقد اتفاقية نيرتشينك Nertchink فى عام ١٦٨٩، ثم ما تم بعد ذلك بسنوات طوال من إنجاز هام تمثل في إقامة سوق كياتكا Kiatka فى عام ١٧٦٣ جنوبي إركوتسك Irkoutsk. ونقرأ في وثيقة كتبت بالفرنسية ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر محفوظة في أرشيف لينينجراد : " [البضائع] التي يأتي بها الصينيون [...] عبارة عن أقمشة من الحرير ، ومصنوعات خشبية مطلية باللاكيه، وقليل من البورسيلين ، وكميات كبيرة من أقمشة كانتون التي نسميها نحن نانكينيات nankins ويسميها الروس شيتري chitri، وكميات ضخمة جدا من الشاي الأخضر، ونوعية هذا الشاي أفضل بكثير من نوعية الشاي الذي تتلقاه أوروبا عبر البحار الشاسعة ، وعلى الروس أن يدفعوا ثمن هذا الشاي عشرين فرنك للرطل الأفرنجي على الرغم من أن الصينيين لا يحصلون عادة على أكثر من ١٥ أو ١٦ فرنكا ثمنا له . ويلجأ الروس إلى رفع أثمان ما يصدرونه من فراء ، حتى يعادلوا هذه الزيادة في سعر الشاي، لأن الفراء هي البضاعة الوحيدة تقريبا التي يوردونها إلى الصينيين ، ولكن هذه الحيلة لا تفيد التجار الروس كثيرا ، بل تفيد الحكومة الروسية التي تفرض ضريبة مقدارها

الشاي : جزء من لوحة صينية ترجع الى القرن الثامن عشر .

تشارلس اليوت Charles Eliot (١٨٠١ - ١٨٧٥) قبطان سفينة بريطانية يجري مفاوضات مع الصينيين ، من رسوم رسمها اليابانيون في ديشيما في القرن التاسع عشر . ويظهر القبطان والصينيون يشربون الشاي.(متحف الرسومات في المكتبة القومية بباريس).

٢٥ في المائة على المشتروات والمبيعات جميعها " (٢٥٦). إلا أن روسيا لم تكن تستورد من الصين في نهاية القرن الثامن عشر إلا ٥٠٠ طن من الشاي ، وهي كمية قليلة جدا بالقياس إلى استهلاك الغرب آنذاك وكان يبلغ سبعة آلاف من الأطنان .

ولنذكر ختاما لهذا الفصل عن الشاي في الغرب ، أن أوروبا ظلت وقتا طويلا عاجزة عن الحصول على نبات الشاي نفسه ، ولم تبدأ زراعة أشجار الشاي في جاوة إلا في عام ١٨٢٧ ، وفي سيلان بعد عام ١٨٧٧ ، وعلى وجه التحديد في أعقاب عمليات الإبادة التي قضت عمليا على كل ما كان في الجزيرة من أشجار البن.

كان هذا النجاح الذي حققه الشاي في أوروبا - على الرغم من أنه كان محدودا في روسيا ، وفي هولندة ، وانجلترة - شيئا جديدا هائلا ، ولكنه يفقد أهميته إذا نحن قسناه بمقياس العالم ككل . ونحن عندما نتحدث عن الشاي نلاحظ أن مركزه الرئيسي كان - ولا يزال إلى اليوم - في الصين ، أكبر منتج وأكبر مستهلك للشاي . كان الشاي يلعب في الصين دور نبات عالي الحضارة على نفس مستوي الدور الذي لعبته الكرمة على ضفاف البحر المتوسط . فكلاهما كانت له منطقته الجغرافية الخاصة التي تطورت فيها زراعته

العتيقة وتحورت وسارت إلى الكمال خطوة خطوة. كانت ألوان الرعاية الدقيقة المتوالية ضرورية للوفاء بمتطلبات المستهلكين العليمين . كان الشاي معروفا في منطقة سيتشوان منذ وقت بعيد يسبق التقويم الميلادي ثم غزا بقاع الصين قاطبة في القرن الثامن الميلادي(٢٥٧) ، ويحدثنا پيير جورو Pierre Gourou أن " الصينيين رققوا ذوقهم حتى أنهم كانوا يستطيعون أن يميزوا بين مختلف أنواع الشاي، وأن يرتبوها درجات درجات في تدرج هرمي بالغ الدقة. [...] كل هذا يذكرنا على نحو عجيب بزراعة الكروم في الطرف الآخر من العالم القديم ، فقد كانت هذه الزراعة ثمرة لخطوات من التقدم استمرت ألف عام ونهضت بها حضارة تعتمد على الفلاحين المستقرين"(٢٥٨).

وكل نبات ممثل لحضارة بعينها يتطلب جهودا كبيرة كأنها السخرة أو الاسترقاق، فإعداد أرض مزارع الشاي ، ونشر البذور، وتقليم أشجار الشاي لكي تظل في حجم الشجيرات، ولا تتضخم لتصبح على هيئة الأشجار ، أي " على صورتها التي تتخذها عندما تنمو شيطانيا " ، وقطف الأوراق برقة ؛ ثم البدء بمعالجة الأوراق المقطوفة على الفور في اليوم نفسه ؛ ثم تجفيف الأوراق بالنار أو في الشمس ؛ ثم برم الأوراق ثم تجفيفها مرة أخرى ... وكانت عملية برم الشاي وتجفيفه تتكرر أحيانا ست أو سبع مرات في اليابان . وكان ناتج هذه العمليات يختلف من حيث الجودة ، وإن من الشاي ما كان البائع يطلب ثمنه ذهبا . وكانت جودة الشاي ترتهن بالأصناف المختلفة من النبات، وبنوع التربة، وترتهن على نحو أشد بموسم القطف ، فأوراق الشاي اللينة الربيعية أطيب نكهة مما عداها، وترتهن بالمعالجة : فالشاي الأخضر يتميز عن الشاي الأسود الخ . وكان اليابانيون يستخدمون أفضل أصناف الشاي الأخضر في صناعة بودرة الشاي التي تذوب في الماء المغلي(بدلا من الالتجاء إلى النقع والغلي) ، وكانوا يصنعونها طبقا لطريقة صينية قديمة نسيها الصينيون إلى أنفسهم ، وكان اليابانيون يقدمون الشاي المصنوع بهذه الطريقة في حفل الشاي الشهير الذي يسمونه شانويو Cha-no-yu. وهذا الحفل له طقوس معقدة ، على نحو ما نقرأ في مذكرة ترجع إلى القرن الثامن عشر ، جاء فيها " إن الإنسان يحتاج إلى معلم متخصص ليعلمه هذا الفن ، كما يحتاج الإنسان في أوروبا إلى معلم متخصص ليعلمه الرقص ، والانحناء للتحية الخ " (٢٥٩).

كانت للشاي طقوسه ، مثله في ذلك مثل النبيذ ، ومثل كل نبات حضارة كريم يعتد بنفسه، فقد كانت كل البيوت في الصين واليابان ، حتى بيوت الفقراء ، مجهزة دائما بالماء المغلي لإعداد الشاي في كل ساعة من ساعات النهار (٢٦٠). ولم يكن من الممكن استقبال ضيف دون أن يقدم إليه فنجان من الشاي ، وفي بيوت أرباب اليسار من الصينيين ، كما يشرح لنا نص من عام ١٧٦٢ " أدوات خاصة مريحة جدا ، منها منضدة

مزخرفة (الطبلية المنخفضة التقليدية المدهونة باللاكيه) ، ومنقد صغير يشتعل فيه الفحم، ودواليب صغيرة على هيئة صناديق لها أدراج بها سلطانيات وفناجين وأطباق فناجين وملاعق للفواكه المقندة والمربية ، وسكر مقند (سكر نبات) مشكل على شكل البندقة يضعها الانسان في فمه في أثناء احتساء الشاي فلا تغير من مذاق الشاي، وتقلل من استهلاك الإنسان من السكر ، ويقدمون مع الشاي فواكه مختلفة مقندة ومربية ، والصينيون يتقنون صناعتها، أشهى ، وأرق ، وألذ " (٢٦١) من أى حلواني في أوروبا . وينبغي مع ذلك أن نضيف ما قاله رحالة من أهل القرن التاسع عشر عن ربوع شمال الصين التي ينمو فيها الشاي على نحو سيء ، قال إن الفقراء لا يعرفون الشاي إلا من حيث هو ترف ، وأنهم يشربون الماء الساخن ويجدون فيه نفس المتعة التي يجدها الموسرون عندما يحتسون الشاي الأخضر . ويقنعون بالاسم إذ يسمون هذا الماء الساخن شايا " (٢٦٢). فهل كانت العادة الاجتماعية المتمثلة في شرب الشاي هي التي جعلت هؤلاء الناس يلجأون إلى هذا البديل العجيب : الماء الساخن ؟ أم هل كانت هذه هي القاعدة في الصين - وفي اليابان أيضاً - أن يشرب الناس كل شيء ساخنا : الشاي ، والساكي ، وكحول الأرز أو الدخن ، ثم الماء نفسه ؟ فعندما شرب الأب دي لاس كورتيس فنجانا من الماء البارد أمام الصينيين أصيبوا بالذهول وتحلقوا حوله وسعوا إلى اقناعه بالإقلاع عن هذه العادة الخطيرة أشد الخطر (٢٦٣). وهناك كتاب عاقل جداً صدر في عام ١٧٦٢ يقول : " لو أن الأسبان المولعين بشرب المثلجات في كل فصل من فصول السنة اتبعوا سنة الصينيين ، لما انتشرت بينهم كل هذا الأمراض ، ولما عانوا من نحافة القوام وجفاف البدن " (٢٦٤).

كان الشاي هو المشروب العام في الصين واليابان ، ومن هناك انتقل إلى ربوع الشرق الأقصى الأخرى ، ولكنه لم ينتشر فيها انتشارا عاما ، وإنما تفاوت انتشاره تفاوتا شديدا. وكانوا يكبسون الشاي على هيئة قوالب كقوالب الطوب إذا أرادوا تصديره إلى أماكن نائية ، ويحملونه على قوافل من أبقار الياق منذ وقت مبكر لتبلغ به التبت، منطلقة من منطقة اليانج تسي كيانج ، مجتازة أشد طرق العالم وعورة وفظاعة . وكانت هناك قوافل من جمال الفرعوس ذوات السنمين تحمل هذا الشاي المكبوس إلى روسيا قبل أن تمد خطوط السكك الحديدية ، وما تزال قوالب الشاي شائعة في بعض مناطق الاتحاد السوفييتي.

كذلك كان الشاى سعيد الحظ في بلاد العالم الإسلامي. فقد أصبح الشاي بالنعناع والسكرالزيادة المشروب القومي في المغرب ، ولكنه لم يصل إلى هناك إلا في القرن الثامن عشر، عن طريق الإنجليز، ولم ينتشر على نطاق واسع إلا في القرن التالي. أما المسارات التي سلكها الشاي في بقية العالم الإسلامى فمعرفتنا بها قاصرة أشد القصور.

ولكن ألا يلفت النظر أن نجاح الشاي شهدته بصوره المختلفة البلدان التي لا تعرف الكروم : شمال أوروبا وروسيا وبلاد الإسلام؟ فهل يجوز لنا أن نستنتج أن نباتات الحضارة يستأثر الواحد منها بمنطقته ويستبعد ما سواه ؟ كان أوستاريث Ustariz يرى هذاا لرأي عندما أعلن في عام ١٧٢٤ أنه لا يخشى من انتشار الشاي في إسبانيا ، لأن الشمال لا يستخدم الشاي إلا " ليعوض ندرة النبيذ "(٢٦٥). وعلى العكس فأنبذة أوروبا و كحولياتها لم تغز الشرق الأقصى .

أما تاريخ القهوة فإنه يوشك أن يشتت انتباهنا حتى نتنكب السبيل ، فهو تاريخ يمتلىء بل يفيض بالنوادر وبالصور الخلابة وبأحاديث لا يقوم عليها دليل .

وربما كانت شجرة البن (٢٦٦) فارسية الأصل ، كما كانوا يقولون بالأمس ، والأرجح أنهاحبشية الأصل . وأيا كان أمر أصلها فإن شجرة البن والقهوة لم يحدثنا أحد بأنه رآهما قبل عام ١٤٥٠ ، في هذاالتاريخ كان أهل عدن يشربون القهوة، ومن هناك وصلت إلى مكة في أواخرالقرن الخامس عشر ، وما جاء عام ١٥١١ حتى حرم شرب القهوة . ثم عاد الناس إلى احتسائها وتكرر تحريمها في عام ١٥٢٤ . أما في عام ١٥١٠ فقد شاهدها شاهد في القاهرة ، وفي عام ١٥٥٥ كانت القهوة في استانبول ؛ وهناك تقلبت بين التحليل والتحريم، على فترات متساوية ، ولكنها انتشرت في جنبات الإمبراطورية التركية ، في دمشق وحلب والجزائر . وقبل أن ينتهي القرن السادس عشر كانت القهوة قد استقرت في وطنها في كل العالم الإسلامي تقريبا .إلا في الجزءالإسلامى من الهند عندما زاره الرحالة تافيرنييه Tavernier حيث تبين أن القهوة هناك شيء غير مألوف(٢٦٧).

كانت بلدان العالم الإسلامي هي البلدان التي شهد فيها الرحالة الغربيون القهوة ، وربما شهدوا شجرة البن كذلك . نذكر ذلك الطبيب الإيطالى پروسبيرو ألپيني Prospero Alpini(٢٦٨) الذي حط رحاله في القاهرة حول عام ١٥٩٠ ، أو ذلك الرحالة النفاج پييترو ديللا ڤاللي Pietro della Valle الذى حل القسطنطينية في عام ١٦١٥ وكتب يقول : " ولدى الأتراك مشروب آخر لونه أسود ، ينعش الإنسان غاية الإنعاش في الصيف ، ويدفيء البدن أقوى دفء في الشتاء ، وجوهره بين هذا وذاك لا يتغير ، بل يبقى بارداً كان أو ساخنا كما هو [...] ويشربون القهوة في شفطات طويلة ، ولا يتناولونها في أثناء الطعام، بل بعد الفراغ منه ، وكأنها نوع من الحلو أو الطرف، ويتجرعون القهوة شفطة شفطة، حتى يستطيعوا التسامر بعضهم مع البعض على راحتهم عندما يجتمعون للسمر . ولا يرى الإنسان جماعة من الناس اجتمعت معا إلا وشربت القهوة . وهم يتخذون إلى جانبهم نارا متقدة قد صفوا إليها صحافا صغيرة جاهزة

من البورسيلين ، مملوءة بهذا المخلوط ، فإذا سخن بما فيه الكفاية ، جاء رجال مكلفون بهذا العمل ، لا شغل يشغلهم إلاحمل هذه الصحاف وتقديمها إلى الصحاب، على أن تكون ساخنة إلى أعلى درجة ممكنة ، وهو يقدم إليهم كذلك نوعا من لب الشمام يلوكونه في هذه الأثناء . وهكذا فهم يتسلون بهذا اللب ، وبهذا المشروب الذي يسمونه قهوة Cahué ، وهم يتبادلون أطراف الأحاديث [...] التي قد تستمر إلى ست، أو سبع ساعات"(٢٦٩)

ووصلت القهوة إلى مدينة البندقية حول عام ١٦١٥ ، وفي عام ١٦٤٤ أحضر تاجر من أهالي مارسيليا اسمه السيد دي لا روك La Roque أول حبات من البن إلى مدينته، وأحضر معها الفناجين القيمة وأباريق القهوة .(٢٧٠) ومنذ عام ١٦٤٣ بدأت القهوة، التي كانوا يعتبرونها من العقاقير ، تظهر في باريس (٢٧١) وربما ظهرت في انجلترة في عام ١٦٥١(٢٧٢). ولكن هذه التواريخ لا تعبر إلا عن ظهور خاطف أولي، ولا تعبر عن البدايات الحقيقية لاشتهار القهوة و شيوع استهلاكها بين الناس.

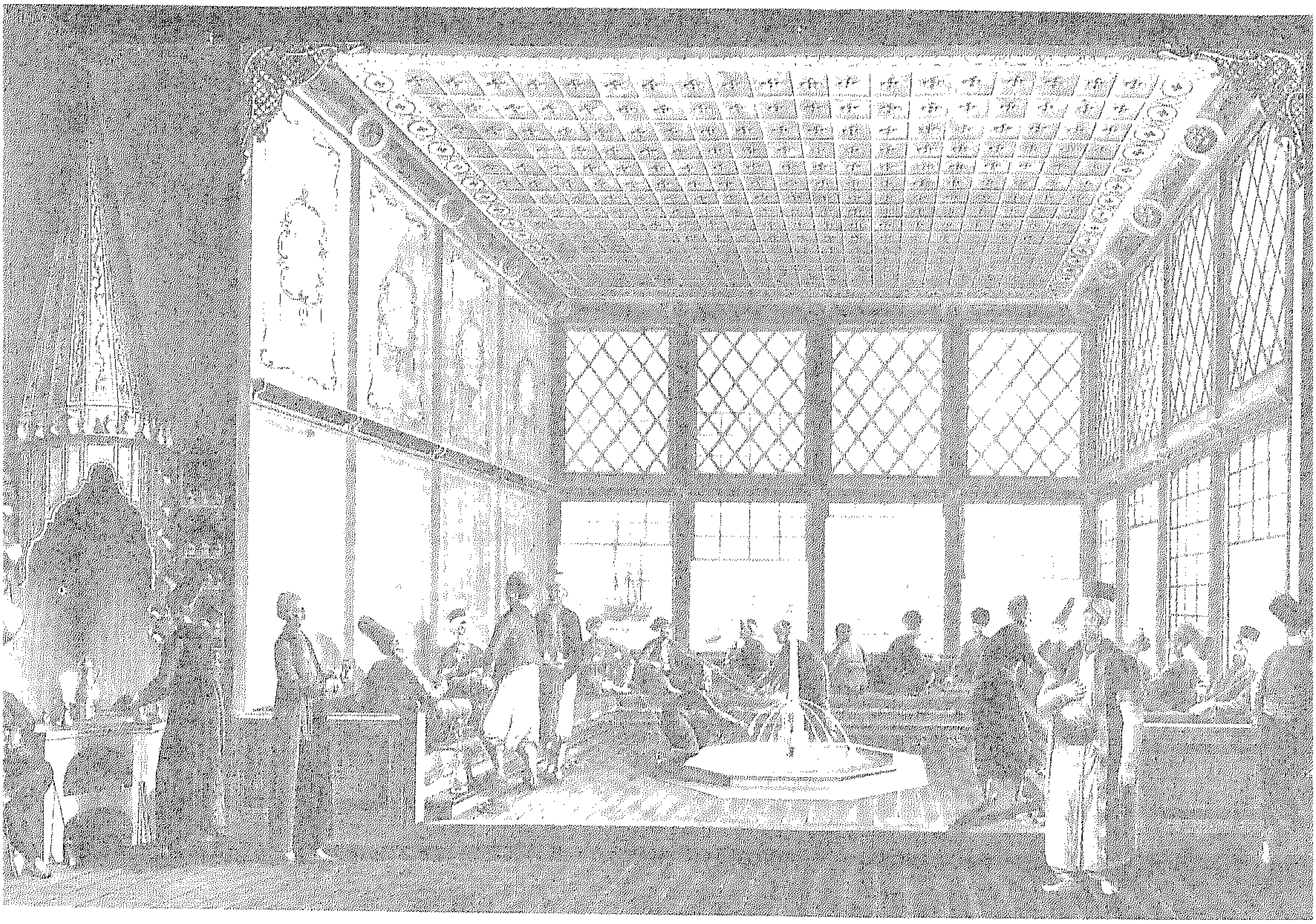

مقهى تركي في استانبول من الداخل .(متحف الرسوم بالمكتبة القومية بباريس).

والحقيقة أن باريس هي المدينة التي شهدت فيها القهوة الاستقبال الذي أثر على ما أوتيت من حظ لازمها بعد ذلك . ففي عام ١٦٦٩ كان في باريس سفير تركي اسمه سليمان مصطفى راكا ، كان رجلا متعجرفا ولكنه كان ودودا ، وكان كريما مضيافاً، يقدم إلى ضيوفه الباريسيين القهوة ، ومنْ قائلٍ أن سفارته فشلت ، وأن قهوته كانت هي التي نجحت(٢٧٢).وجرى على القهوة ما جرى على الشاي ، فقد اشاد بها المشيدون باعتبار أنها دواء عجيب . وهناك كتاب ظهر في فرنسا في مدينة ليون في عام ١٦٧١ لا يحمل اسم مؤلف، ولعل ياكوب سپون Jacob Spon هو الذي ألفه ، وكان الكتاب يحمل عنوان : استخدام الشاي ، والقهوة، والكاكاو L'Usage du caphé, du thé et du chocolate ، وهو ينسب إلى القهوة كل الخواص العلاجية فهي " تجفف القرح والخراريج وداء الخنازير ، وتطرد الأرياح ، وتقوي الكبد، وتخفف الاستسقاء بما تمتاز به من قدرة على التنقية، ومفعولها في أمراض المرارة والدم عظيم ؛ وهي تنشط القلب، وتقوي النبض؛ وتخفف آلام المعدة وتعالج فقدان الشهية؛ وتفيد في الرعشة، والدوخة، والبرد ، وثقل الدماغ؛ ودخان تحميص البن مفيد في رمد العيون وطنين الأذن؛ عظيم في معالجة كرشة النفس، والبرد الذي يصيب الرئة، وآلام الطحال؛ فعال ضد الديدان؛ وللقهوة مفعول ملطف خارق للعادة للتخمة ، والإفراط في الشراب ؛ ولا شيء يفضل القهوة لمن يكثرون من أكل الفاكهة "(٢٧٤). ومع ذلك فقد كان هناك بين الأطباء ، وبين أصحاب الرأي من قالوا إن القهوة تسبب الضعف الجنسي، وأنها مشروب الخصيان، أو " مشروب الشابون " وهو الديك الذي يخصونه حتى يسمن(٢٧٥).

وأدت الدعاية المتغنية بمحاسن القهوة ، على الرغم من المثالب التي رميت بها ، إلى تقدمها في باريس(٢٧٦) ، ونرى في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر باعة جائلين، كانوا من الأرمن الذين تزيوا بزي الأتراك واتخذوا العمامة غطاء لرؤوسهم، وحملوا سفطاً من الخيزران علقوه في حمالة تستند على القفا ، والكتفين، عليه بكرج القهوة ، والمنقد المتقد ، والفناجين . ثم جاء هاتاريون Hatarioun، وهو أرمني عرف باسم باسكال Pascal، فافتتح أول محل لبيع القهوة، في نَصْبة بسوق سان چيرمان Saint-Germain الذي كان يقام منذ قرون بجوار دير سان جرمان والذي كان يرتبط به ويعتمد عليه ، في الساحة التي يشغلها حاليا شارع فور Four وشارع سان سولپيس Saint-Sulpice. ولكن باسكال لم يوفق في هذه التجارة ، فانتقل الى الشاطيء الأيمن لنهر السين عند جسر مدرسة اللوفر L'École du Louvre وكان له هناك زبائنه من أهل المشرق ومن طائفة فرسان مالطة ، ثم هاجر إلى انجلترة بعد فشله فى التجارة. وعلى الرغم من فشل باسكال ، فقد افتتح آخرون مقاه ، يطالعك منها المقهى الذي افتتحه رجل أرمني أيضا اسمه ماليبان Maliban فى شارع بوسي Buci، ثم نقله بعد ذلك إلى

شارع فيرو Férou. أما أشهر مقهي فكان ذلك المقهى الذي أسسه على النمط الحديث رجل كان يعمل جارسونا عند باسكال اسمه فرانسيسكو بروكوپيو كولتيللي، نعرف عنه أنه ولد في جزيرة صقلية في عام ١٦٥٠ ، فلما افتتح المقهى حول اسمه إلى ما يناظره بالفرنسية فتسمى باسم پركوب كوتو Procope Couteau، وقد بدأ في سوق سان جرمان ، ثم انتقل بعد ذلك إلى شارع تورنون ، وانتهى به التنقل في عام ١٦٨٦ إلى شارع فوسيه سان جرمان Fossés-Saint-Germin. كان هذا المقهى الثالث - الذي ما يزال موجودا إلى اليوم في باريس - قريبا من المنطقة الأنيقة النشيطة من المدينة ، عند ميدان بوسي Buci، وعند البونّيف Pont-Neuf (قبل أن يصبح الپاليه رويال أي القصر الملكي Palais-Royal في القرن الثامن عشر)، وما مر إلا وقت قليل بعد أن افتتح پروكوپ المقهى حتى اتخذت فرقة الكوميديا الفرنسية Comedie-Française الكوميدي فرانسيز مسرحها على الناحية المقابلة، وكان ذلك في عام ١٦٨٨ ، وهكذا لعب الحظ دوره في نجاح هذا الرجل القادم إلى باريس من صقلية، واستغل هذه الفرصة السانحة ، فهدم جداري البيتين اللذين يكتنفان المقهى ، فاتسع ، وزين الحيطان بالورق المزخرف ، وبالمرايا ، وعلق النجف والثريات، ولم يكتف بتقديم القهوة ، بل قدم كذلك الفواكه المقندة ، والمشروبات الروحية، وسرعان ما أصبح مقهاه ملتقى أرباب الفراغ والجدة، وهواة الثرثرة ، والظرفاء ، وأهل الفكر (وكان شارل ديفلو Charles Duflos الذي أصبح فيما بعد سكرتير الأكاديمية الفرنسية ركنا ركينا في هذا المنتدى) والحسناوات : وكان المسرح قريباً ، فافتتح فيه پروكوب كشكه الذي كان يبيع المرطبات.

ولم يكن من الممكن أن يظل المقهى الحديث امتيازاً ينعم به حي دون آخر أو شارع دون شارع ، وكانت حركة نمو العاصمة قد هبطت شيئاً فشيئاً بِقَدْرِ الشاطيء الغربي لنهر السين ، ورفعت قدر الشاطيء الأيمن الذي غص بالنشاط على نحو ما تبين لنا الخريطة الموجزة للمقاهي الباريسية في القرن الثامن عشر وكان عددها قد بلغ ٧٠٠ الى ٨٠٠ مقهى(٢٧٧) ومنها ما ثبت أركان شهرته ، مثل مقهى الريچانس Café de la Regence الذي تأسس في عام ١٦٨١ في ميدان الپاليه رويال - القصر الملكي - فلما قاموا بتوسيع الميدان، انتقل المقهى إلى مكانه الحالي في شارع سانت أونوريه Saint-Honoré . وسرعان ما فقدت حانات الشراب أهميتها ، بعد أن زاحمتها المقاهي التي تألقت في عالم الشهرة والمجد . وظهرت الموجة نفسها في ألمانيا وإيطاليا والبرتغال. وكانت القهوة رخيصة في لشبونة لأنهم كانوا يستوردون البن من البرازيل نفسها، كما كانوا يستوردون السكر الناعم رخيصاً منها أيضاً ، وكانوا لذلك يسرفون في إلقائه في فناجين القهوة حتى إن احد الإنجليز قال إن الملاعق تنغرس في السكر فتظل قائمة لا تميل(٢٧٨).

وإذا كانت القهوة قد بدأت مسيرتها كمشروب للوجهاء وحدهم ، فإنها سرعان ما انتشرت وذاعت بين الناس . كانت الأسعار كلها تتجه إلى الارتفاع ، إلا سعر فنجان القهوة ظل ثابتا تقريبا ، لأن إنتاج الجزر من القهوة كان وفيراً غاية الوفرة . وهذا هو لوجران دوسي Le Grand d`Aussy يشرح لنا في عام ١٧٨٢ ما حدث : " لقد زاد استهلاك القهوة فأصبح ثلاثة أمثال ما كان عليه من قبل ؛ وليس هناك بيت من بيوت أواسط الناس لا يقدم إليك فيه فنجان من القهوة ؛ وما من بائعة في محل، أو طباخة ، أو خدامة لا تشرب القهوة باللبن في الإفطار. وانظر إلى الأسواق العامة ، وبعض الشوارع، والممرات في العاصمة ، تجد نساء يبعن لعامة الناس ما يسمينه قهوة باللبن، وما هي إلا بعض اللبن المغشوش مزجنه بحثالة القهوة يشترينها من خدم البيوت الكبيرة أو من المقاهي ، ويضعن هذا المشروب في قدر من المعدن الأبيض ، له صنبور، ومن تحته موقد يحفظه ساخنا . وهناك عادة إلى جانب الدكان الصغير أو الكشك الذي تبيع فيها المرأة مشروبها هذا دكة من الخشب للزبائن . وقد تعقد المفاجأة لسانك عندما تلمح امرأة من سوق الخضار ، أو شيالا أتى ليشتري القهوة ، التي يقدمونها إلى الشاربين في سلطانيات من الخزف ، كان لها اسم خاص هو " génieux "، واعتاد هؤلاء الزبائن المحترمون أن يحتسوا القهوة وقوفا ، وما زالت أحمالهم فوق ظهورهم ، إلا أن تغلبهم الرغبة في التمتع بالمشروب ، وارتشافه في هدوء ، فيضعون عنهم أحمالهم ، ويجلسون على الدكة . وكثيراً ما أرى من نوافذ بيتي القائم على هذا الجسر الجميل (جسر اللوڤر قرب كوبري البونيف) هذا المشهد يتكرر في تلك الأكشاك الخشبية التي أقاموها على طول الطريق من البونِّيف حتى قرب اللوفر . وربما لمحت لوحات حية سفت لأنني لست تينييه Teniers ولا كالو Callot لأنقلها إلى لوحات التصوير والرسم " (٢٧٩).

ولنصحح هذه اللوحة التي رسمها بورجوازي سليط من بورچوازيي باريس، ولنقل أن أجمل مشهد ، أو المشهد الأكثر إثارة للمشاعر، هو مشهد البائعات الجائلات اللاتي يقفن على النواصي عندما يتجه العمال إلى أعمالهم إذا طلع النهار ، تراهن يحملن على ظهورهن هذا القدر المعدني الأبيض، فيقدمن إليهم القهوة باللبن ، في سلطانيات من الخزف لم يبالغن في اضافة السكر إليها ، ولا يتقاضين إلا ثمنا زهيدا هو سولان sols فقط. وهكذا نجحت القهوة نجاحا هائلا ؛ فقد " أتاحت القهوة للعمال فرصة توفير النقود ، وأمدتهم بمشروب يسد الرمق ، له طعم سائغ لايجدونه في غيره من المشروبات. وكانت النتيجة أنهم أقبلوا عليه يشربون منه كميات هائلة، وقالوا إنه يمدهم بالقوة طوال النهار الى أن يحل المساء . فاكتفوا بوجبتين بدلاً من ثلاث، الغذاء نهاراً و المقدونسية مساء..."(٢٨٠) والمقدونسية شرائح من اللحم البقري البارد يضاف اليه المقدونس والزيت والخل .

وإذا كان استهلاك القهوة قد زاد زيادة كبيرة منذ منتصف القرن الثامن عشر ، لا في باريس أو فرنسا وحدهما ، فإنما يرجع ذلك إلى أن أوروبا نفسها قد نظمت إنتاجه . فطالما كانت السوق العالمية تعتمد على أشجار البن في المناطق المحيطة بمخا في شبه الجزيرة العربية ، كانت الكميات التي تستوردها أوروبا بالضرورة كميات محدودة . وتغير الوضع عندما زرعت أشجار البن منذ عام ١٧١٢ في جاوة ؛ ومنذ عام ١٧١٦ في جزيرة بوربون (الرينيون) ؛ وفي عام ١٧٢٢ في كايين Cayenne (على الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي، مما يدل على أنها اجتازت المحيط إلى أمريكا) ؛ وبين عام ١٧٢٣ و ١٧٣٠ في المارتينيك ؛ وفي عام ١٧٣٠ في چامايكا ؛ وفي عام ١٧٣١ في سان دومينجو . وهذه التواريخ ليست تواريخ الإنتاج ، بل تواريخ دخول أشجار البن . وقد بدأت فرنسا

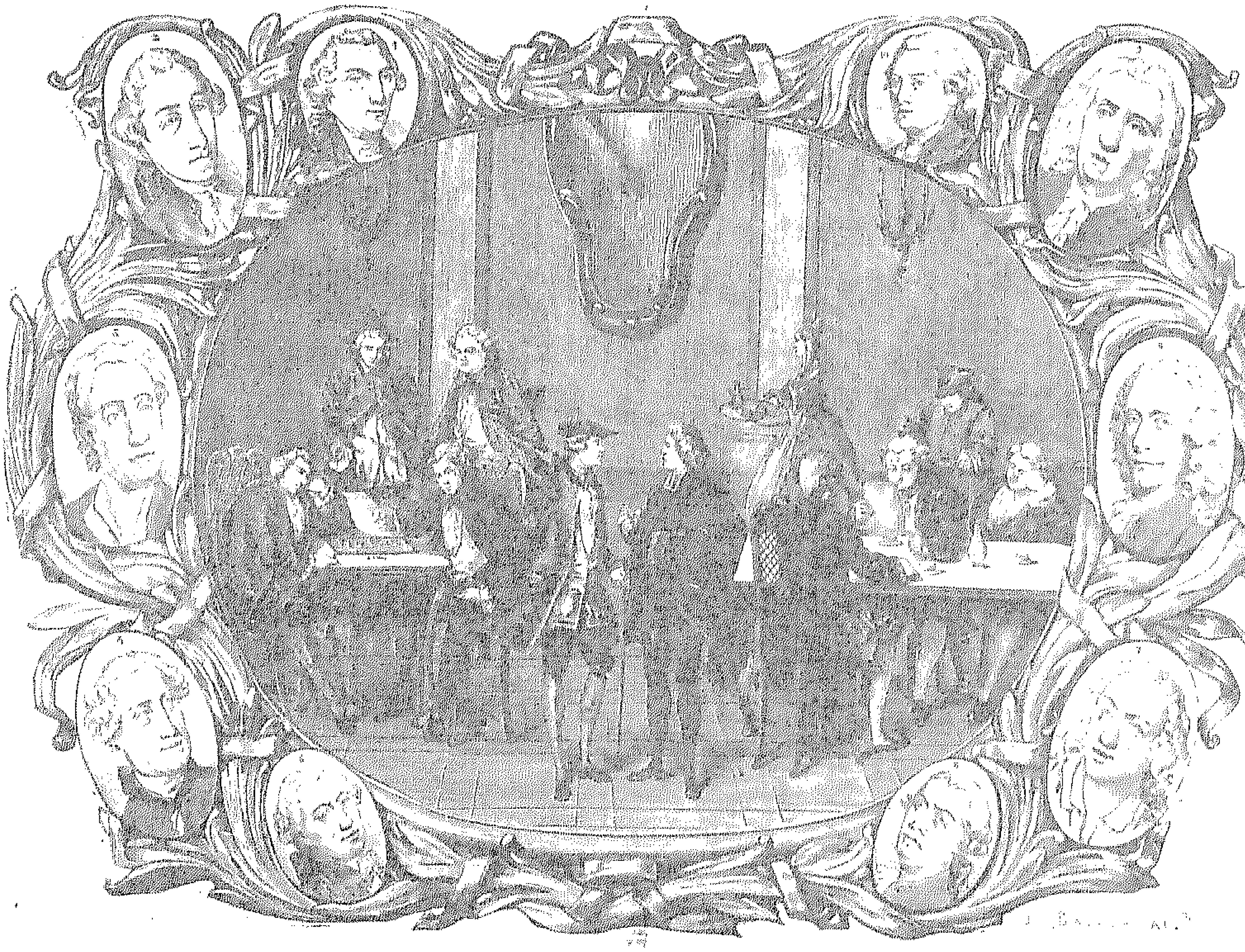

مقهى پروكوب ، ملتقى الوجهاء مع صور لمشاهير الرود : بوفون Buffon ، جيلبير Gil-bert ، ديديرو Diderot ، دالامبير D`Alembert، مارمونتيل Marmontel ، لوكان Le Kain ، ج ب. روسو J.-B. Rousseau ، فولتير Voltaire ، بيرون Piron ، دولباك D`Holbach.

تستورد البن من الجزر في عام ١٧٣٠ (٢٨١). ثم كان من الضروري بعد أن دخلت أشجار البن في هذه المناطق الجديدة أن تنمو هذه الأشجار وتتزايد وتترعرع. وهذا هوالأب شارلفوا Charlevoix يشرح الأوضاع في عام ١٧٣١ : " يتمنى الناس أن يروا البن يحمل الشراء الى جزيرتنا [سان دومينجو]، وقد نما الشجر الذي ينتجه في هذه الأثناء نموا جيدا وكأنه هنا طبيعي في موطنه الأصلي [...] ولكن ينبغي أن نعطي هذه الأشجار الوقت لكي تتأقلم كلية ." (٢٨٢) كان البن الوارد من سان دومينجو هو آخر بن نزل السوق ولهذا كان أقلها سعرا ، وأكثرها وفرة : فقد بلغ إنتاجه في عام ١٧٨٩ نحو ٦٠ مليون رطل افرنجي (الرطل الإفرنجى = ٥٠٠ جرام) وكان استهلاك أوروبا قبل هذا التاريخ بخمسين سنة نحو ٤ ملايين رطل فقط . وكان بن مخا (نسبة إلى مخا في اليمن) يتصدر دائما قائمة الأصناف من ناحية الجودة وارتفاع السعر ، تليه أصناف البن الواردة من جاوه وجزيرة بوربون (وكانت الجودة تعرف " بأن تكون الحبة صغيرة وأن يكون لونها مائلا إلى الزرقة كما هي الحال بالنسبة لبن جاوة ") ثم تليها أصناف البن القادمة من المارتينيك ، وجواديلوب وأخيراً بن سان دومينجو (٢٨٣).

ولكن علينا أن نحذر من تضخيم أرقام الاستهلاك : وكل عملية مقارنة دقيقة نوعا ما تؤكد لنا هذه الحقيقة (٢٨٤). كانت فرنسا في عام ١٧٨٧ تستورد ٣٨٠٠٠ طن من البن ، وتعيد تصدير ٣٦٠٠٠ طن منها ، وكانت باريس تحتفظ لنفسها بحوالي ١٠٠٠ طن من البن لاستهلاكها الخاص .وجدير بالذكر أن بعض المدن الفرنسية في المناطق الريفية لم تكن تعرف القهوة ، من هذا القبيل أن أهل مدينة ليموج الفرنسية " Limoges" لم يكونوا يشربون القهوة " إلا كدواء ". ولم تكن تتبع الموضة وتشرب القهوة سوى بعض الشرائح الاجتماعية ، مثل السادة القائمين على بريد الشمال . لهذا كان من الضروري البحث عن إمكانات توزيع جديدة ، وزبائن جدد . هكذت سلك بن المارتينيك طريق مارسيليا ليصل بعد عام ١٧٣٠ إلى بلاد المشرق على الرغم من منافسة البن اليمني(٢٨٦). أماشركة الهند الشرقية الهولندية التي كانت تمون بلاد فارس والهند المسلمة ، التي ظلت مخلصة وفية للبن اليمني ، فقد سعت إلى أن تحل المتبقي من إنتاج جاوه من البن محل البن اليمني . وإذا نحن أضفنا إلى الـ ١٥٠ مليون أوروبي الـ ١٥٠ مليون مسلم ، وجدنا أن السوق الافتراضية كانت تتكون من ٣٠٠ مليون نسمة - ثلث عدد سكان الأرض تقريبا - يشربون القهوة ، أو يمكن أن يشربوا القهوة . هذه صورة تقديرية قائمة على التصور والاستنتاج العقلي. ولكننا نستطيع أن نقول اعتمادا على المنطق إن القهوة قد أصبحت مثل الشاي " بضاعة ملكية " أي بضاعة مربحة تحقق الثراء، فلا غرابة أن اهتم قطاع نشيط من الرأسمالية بإنتاجها وترويجها وتأكيد نجاحها. وتمثلت نتيجه هذه الأوضاع في تأثير فعال حقيقي على الحياة الاجتماعية والثقافية في

باريس . فأصبح المقهى ، ذلك المكان الذي كان المشروب الجديد يباع فيه ، ملتقى الوجهاء وأرباب الفراغ والجدَة ، وملاذ الفقراء . ويحدثنا سيباستيان ميرسييه (في عام ١٧٨٢) عن المقهى ورواده فيقول : " هذا الرجل يأتي إلى المقهى حول الساعة العاشرة صباحاً ، فيظل فيه لا يبرحه إلا في الحادية عشرة [مساء وكانت تلك هي الساعة الاجبارية لإغلاق المقهى وكان البوليس يراقب تنفيذ هذا النظام] ؛ ويتناول في وقت الغذاء فنجانا من القهوة باللبن ، وفي وقت العشاء بالوظة على الطريقة الباڤارية "(٢٨٧) .

وهناك حكاية من قبيل النكت تبين كيف أن القهوة انتشرت ببطء شديد بين العامة ، يقولون إن السفاح كارتوش Cartouche عندما حانت ساعة تنفيذ حكم الإعدام فيه (٢٩ نوفمبر ١٧٢١) اقترح عليه نائب الأحكام ، وكان يشرب القهوة باللبن ، أن يعطيه فنجانا منها : " فأجاب بأن القهوة ليست مشروبه المفضل وأنه يفضل كأسا من النبيذ وكسرة من الخبز " (٢٨٨).

المنبهات :

أمجاد التبغ

انتشرت الكتابات اللاذعة تصب جام نقدها على المشروبات الجديدة . فكتب كاتب يقول أن انجلترة قد حل بها الخراب نتيجة لممتلكاتها في الهند ، وكان الذي أتى عليها هو " ذلك الترف الأحمق المتمثل في الشاي " (٢٨٩) . وهذا هو سيباستيان ميرسييه في رحلته الخيالية الأخلاقية - وكم كانت أخلاقية ! - التي تصور أنه يقوم بها خلال باريس في عام ٢٤٤٠ ، ويتبع فيها حكيما يقوم منه مقام المرشد والدليل ويقول له فيما يقول من كلام محكم : " أترى إلينا كيف نبذنا ثلاثة من السموم كنتم عليها عاكفين : التبغ والقهوة والشاي . لقد كنتم تدسون في أنوفكم بودرة النشوق القبيحة المتخذة من التبغ ، فكانت تبدد ذاكرتكم ، أنتم يا أيها الفرنسيون ، وما كانت ذاكرتكم من قبل ذلك إلا واهنة أشد الوهن . وكنتم تحرقون بطونكم بمشروبات منبهة تشحذ نشاطها وما تزال تشحذه حتى هلك . وما كانت أمراضكم العصبية التي شاعت بينكم إلا نتيجة لهذه المشروبات التي كانت كغسول أنثوي يجردكم من العصارة المغذية للحياة الحيوانية "...(٢٩٠)

والحقيقة أن كل حضارة تحتاج فيما تأكل إلى صنوف من الترف ، وتحتاج الى طائفة من المنبهات والمنشطات . فقد أولع الناس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالتوابل والفلفل ؛ وفي القرن الرابع عشر بأول نوع من الكحوليات ؛ ثم جاء بعد ذلك الشاي والقهوة ، ناهيك عن التبغ . وسيكون للقرنين التاسع عشر والعشرين بدع من الترف،

متمثلة في عقاقير، منها الطيب ومنها الخبيث . ونحن على أية حال نحب هذا النص الذي كتب عن الضرائب في البندقية في مطلع القرن السابع عشر ، لأنه يحدد بدقة ، وعقلانية ، دون أن يخلو من الطرافة ، أن الضرائب لا تجبى فقط على الماء المثلج ، والقهوة والكاكاو، والشاي، وغيرها من المشروبات، بل على كل المواد الشبيهة سواء منها ما قد اخترع بالفعل، أو ما سيتم اختراعه يوما ما (٢٩١). ومن المؤكد أن ميشيليه يسلك سبيل المبالغة عندما يرى في القهوة ، منذ عصر الوصاية أو الريجانس ، مشروب الثورة(٢٩٢) ، ولكن المؤرخين الذين لزموا باب الحكمة يسلكون سبيل المبالغة هم أيضا عندما يتحدثون عن القرن العظيم - القرن السابع عشر - وعن القرن الثامن عشر وينسون الإشارة إلى أزمة اللحوم ، وتعاظم شأن الكحوليات أو ثورة الكحول، وتعاظم شأن القهوة أو ثورة القهوة ، وما زلنا نكتب كلمة الثورة في هذه الحالات بحرف صغير. أم هل نحن يا ترى المخطئون، وأن ما أبصرنا به تراءى لنا عن خطأ في المنظور الذي نتطلع منه إلى الأمور؟ والرأي عندنا أن استمرار الصعاب الغذائية ، أو تزايد حدتها، يجعل الإنسانية بحاجة إلى التعويض طبقا لقانون ثابت ينتظم حياتها .

والتبغ ضرب من ضروب هذا التعويض . ولكن كيف السبيل الى تصنيفه ، وفي أي مكان نضعه ؟ لويس لوميري Louis Lemery " طبيب معتمد في كلية الطب بباريس، وعضو الأكاديمية الملكية للعلوم " لا يتردد في وضع التبغ ضمن الأطعمة فهو يتناوله بالحديث في كتاب عن الأطعمة (ظهر في عام ١٧٠٢) " ذلك النبات الذي يتعاطاه الناس عن طريق الأنف ، أو التدخين أو المضغ ". كذلك يتحدث عن أوراق نبات الكوكا ، التي تشبه نبات الريحان ، والتي " تخفف الجوع والألم ، وتمنح القوة " ، ولكنه لا يتكلم عن الكينا ، وعندما يشير إلى الأفيون الذي كان الأتراك يستخدمونه أكثر من أهل الغرب ، فإنه يكتفي بالقول إنه عقار " خطير في استعماله"(٢٩٣). ولقد غاب عنه ما كان للأفيون من مغامرة هائلة بين الهند والجزر المحيطية ، على خط من الخطوط الرئيسية التي عرفها الإسلام في انتشاره ، والتي تمتد حتى الصين . ثم بدأت نقطة التحول الخطيرة بعد عام ١٧٦٥ غداة استيلاء الإنجليز على البنغال واحتكار شركة الهند الشرقية الإنجليز لمزارع الخشخاش ، وكانت هذه المزارع قبل ذلك مصدر ثراء للخان الأعظم. كل هذه حقائق كان لويس ليميري يجهلها في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، وهذا شيء بديهي . كذلك لم يكن يعرف نبات أبو النوم الهندي .وليس المهم أن نصنفه في قائمة المخدرات أو قائمة الأغذية أو قائمة الأدوية ، فهي كلها أشبه شيء بشخصيات رئيسية في مسرحية ما يتمثل دورهم في تغيير الحياة اليومية للبشر وتعكير صفوها .

ولنكتف هنا بالحديث عن التبغ . استطاع التبغ أن يغزو العالم كله بين القرن السادس عشر والسابع عشر ، وكان النجاح الذي حققه أعظم من النجاح الذي حققه الشاي أو القهوة ، وما هذا بالشيء الهين .

التبغ نبات موطنه الأصلي العالم الجديد ، فعندما وصل كولمبوس في ٢ نوفمبر من عام ١٤٩٢ إلى كوبا رأى أهل البلاد الأصليين يدخنون أوراق التبغ المبرومة . وانتقل نبات التبغ الى أوروبا باسمه الأصلي (وهو اسم ربما كان كاريبياً أو برازيلياً) ، وزرعه الناس حينا في الحدائق بدافع الفضول، وربما زرعوه لينتفعوا بما كان ينسب إليه من خواص طبية . فهذا هو چان نيكو Jean Nicot سفير مولانا الملك المتمسك بالمسيحية في لشبونه (في عام ١٥٦٠) يرسل إلى الملكة كاترين دي ميديسيس Catherine de Médicis مسحوق التبغ ، النشوق ، لعلاج الصداع النصفي ، وكانت تلك طريقة علاجية مجربة جرت بها العادة في البرتغال . أما أندريه تيڤيه André Thevet وهو رجل آخر ممن أدخلوا التبغ في فرنسا فيؤكد أن السكان الأصليين للبرازيل يستخدمون التبغ للتخلص من " إفرازات المخ الزائدة " (٢٩٤). ولا غرابة في أن يأتي رجل مثل چاك جوهوري Jacques Gohory (توفي في عام ١٥٧٦،) فيدعي إلى حين أن التبغ دواء لكل داء (٢٩٥).

وزرع نبات التبغ منذ عام ١٥٥٨ في إسبانيا ، ومنها انتشر بسرعة ، فدخل فرنسا وانجلترا (حول عام ١٥٦٥) ثم إيطاليا وبلاد البلقان وروسيا . وكان نبات التبغ قد وصل الى الفيليبين في عام ١٥٧٥ ، حمله إلى هناك مركب هو غليون مانيلا ؛ ودخل إلى ڤيرجينيا في عام ١٥٨٨ ولكن زراعته لم تزدهر إلا ابتداء من عام ١٦١٢ ؛ ودخل اليابان في عام ١٥٩٠ أو نحوها ؛ وفي ماكاو منذ عام ١٦٠٠ ؛ وجاوه في عام ١٦٠١؛ والهند وسيلان بين عام ١٦٠٥ وعام ١٦١٠ تقريبا (٢٩٦). وإنما تشد هذه الأرقام الدالة على انتشار التبغ على هذا النحو انتباهنا على نحو خاص ، لأن التبغ لم تكن له في الأصل من وراء ظهره سوق منتجة ، ونقصد بالسوق الحضارة التي يستند اليها ، كما كانت الحال بالنسبة إلى الفلفل في بداياته الأولى (في الهند) ، والشاي (في الصين) والقهوة (العالم الإسلامي) ، ولا حتى الكاكاو الذي كانت تسانده في أسبانيا الجديدة (المكسيك) " ثقافة " تتسم بجودة عالية . إنما جاء التبغ من لدن أناس يعيشون على حياة بدائية همجية في أمريكا ، ولهذا كان من الضروري أن يصل الانسان بهذا الإنتاج إلى درجة الإنتاج المضمون قبل أن ينعم بطيباته . وكان هذا النبات يمتاز بميزة فريدة هي مرونته الكبيرة وقدرته على التأقلم في كل الظروف المناخية، وفي كل أنواع التربة ، وكانت المساحة الصغيرة من الأرض تكفي لإنتاج محصول مجز . فلا غرو أن بدأ التبغ انتشاره في انجلتره بين الفلاحين الصغار الصغار (٢٩٧).

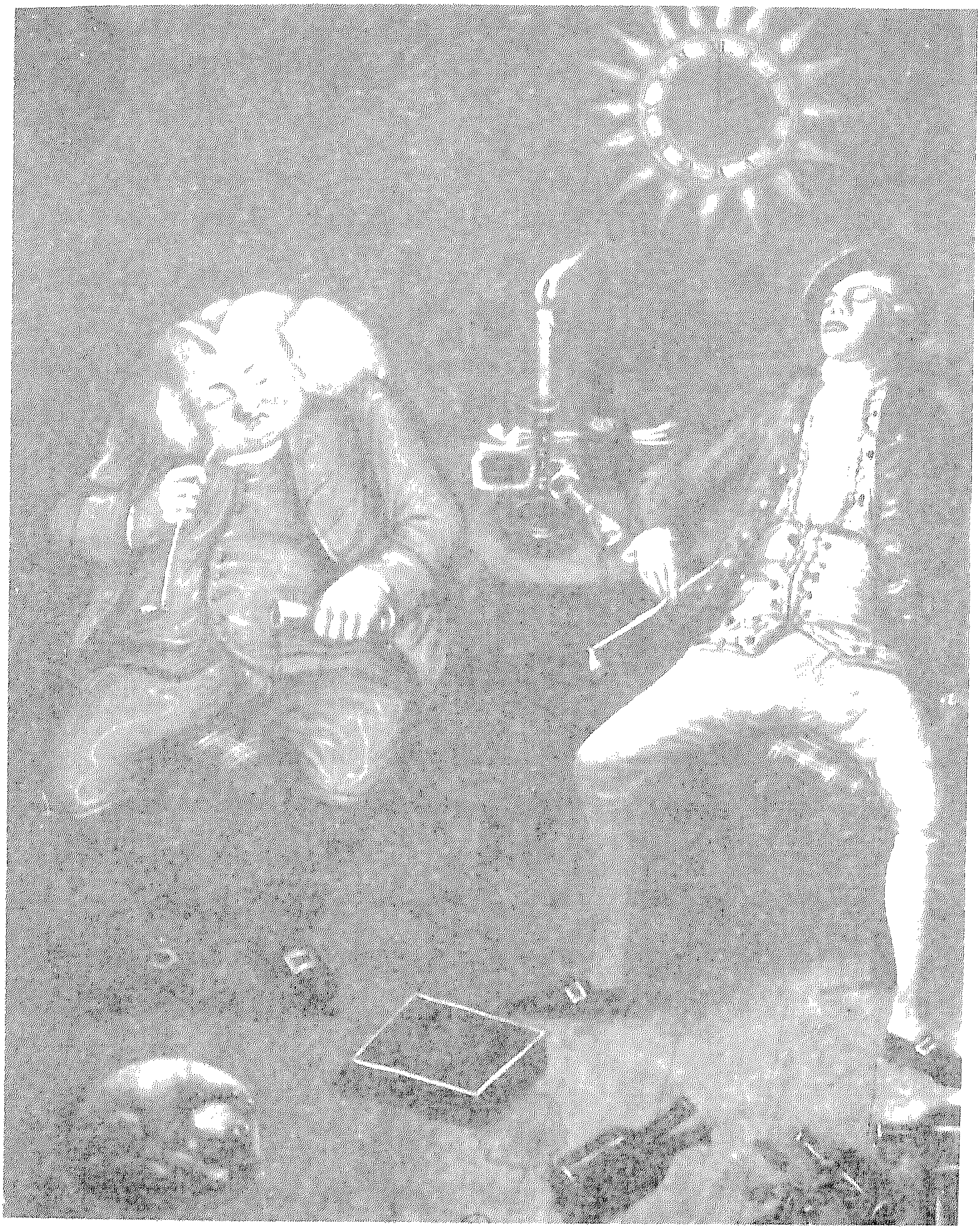

لذة الحياة في الكاس والراح والصديق . رسم انجليزي بالحفر يرجع إلى عام ١٧٧٤. غلبهما التبغ ونبيذ پورتو ، فلا حديث بين الصديق والصديق .

ولم يبدأ تاريخ التبغ بنسج خيوطه من حيث هو تجارة إلا مع السنوات الأولى من القرن الثامن عشر في لشبونة ، واشبيلية ، وأمستردام خاصة ، على الرغم من أن نجاح التبغ في صورة مسحوق النشوق قد بدأ في لشبون في عام ١٥٥٨ إن لم يكن قبله . أما الطرق الثلاث لتعاطي التبغ (على هيئة نشوق ، على هيئة دخان ، على هيئة مضغة) فقد تبين أن الطريقتين الأوليين منها هما أكثرها أهمية ، وسرعان ما اتخذ التبغ المسحوق على هيئة نشوق صوراً مختلفة بحسب المواد التي أضيفت إليه : المسك، العنبر ، البرغموت ، زهر البرتقال . ونرى أصنافا أسموها النشوق على الطريق الأسبانية، وبرائحة مالطة ، أو برائحة روما ، ونرى " الشهيرات من النساء يتعاطين النشوق مثل المشاهير من الرجال ". واستمر التبغ في مسيرة نجاحه - إلى جانب النشوق - على هيئة دخان ، فدخنوه ردحا من الزمن في البيبة ، ثم صنعوا السيجار بعد ذلك ، من أوراق التبغ " يلفونها بطول الشمعة " (٢٩٨) على طريقة الأهالي الأصليين في أمريكا الإسبانية ، وهي طريقة لم يقلدها الأوروبيون على الفور ، الا في أسبانيا حيث ذكرها سافاري Savary كشيء نادر ، على ما يبدو ، عندما تحدث عن أوراق التبغ الكوبي " التي يدخنها المدخنون بدون بيبة بل يلفونها على هيئة القمع الصغير "(٢٩٩) ؛ ثم صنعوا السيجارة في مرحلة تالية . ومن المؤكد أن السجائر ظهرت في العالم الجديد لأننا نقرأ في مذكرة فرنسية كتبت عام ١٧٠٨ عن " الكمية الهائلة التي لا حدود لها من الورق التي تستورد من أوروبا " ليصنعوا منها هذه اللفائف الصغيرة التي يلفون فيها التبغ المفري ليدخنوه " (٣٠٠). وانتشرت السيجارة عن طريق إسبانيا في زمن حروب نابليون : حيث تعلم الناس عادة لف التبغ في ورق صغير الحجم ، كانوا يسمونه پاپيليتو papelito، ومن اسبانيا انتقلت هذه العادة إلى فرنسا حيث أقبل عليها الشباب خاصة . وبمرور الوقت رق الورق ، وانتشر تدخين السجائر وأصبح شيئاً شائعاً في عصر الرومانتيكية ، وهذه هي الأديبة جورج صاند George Sand تقول في معرض الحديث عن الطبيب الذي عالج الأديب الشاعر ألفريد دي موسيه Musset في البندقية : " إن كل ما كان لديه من بيب لا تساوي سيجارة واحدة من سجائري " (٣٠١).

وقد انتهت إلينا أخبار بدايات تعاطي الناس للتبغ فيما وصل إلى علمنا من قرارات الحكومات الصارمة لحظر تداوله (قبل ان تتنبه إلى أنه مورد جميل من موارد الضرائب : ويرجع احتكار التبغ في فرنسا المسمى la Ferme du Tabac إلى عام ١٦٧٤). وانظر إلى المعمورة كلها ترى قرارات حظرالتبغ قد مرت بجنباتها كلها : انجلترا في عام

١٦٠٤، اليابان ١٦٠٧ ـ ١٦٠٩ ، الدولة العثمانية ١٦١١ ، الدولة المغولية ١٦١٧، السويد والدنمرك ١٦٣٢ ، روسيا ١٦٣٤ ، نابـلي ١٦٣٧ ، صقلية ١٦٤٠، الصين ١٦٤٢، الفاتيكان ١٦٤٢ ، إمارة كولونيا ١٦٤٩ وكان عليها أمير ناخب ، ڤيرتمبرج ١٦٥١ (٣٠٢) . ومن البديهي أن هذا الحظر ظل حبراً على ورق ، وبخاصة في الصين ، حيث توالت قرارات الحظر حتى عام ١٧٧٦ ، ولكن تعاطي التبغ كان شائعا في إقليم تشي لي Tche-li، وفي فو كيين Fou Kien شهد شاهد في سنة ١٦٦٤ " إن كل انسان هناك يضع بيبة طويلة في فمه ، ويشعلها ، ويشد الدخان مع الشهيق وينفثه مع الزفير " (٣٠٣). وزرعوا في الصين مناطق شاسعة بالتبغ وصدروه إلى سيبريا وروسيا. فلما آذن القرن الثامن عشر بالانتهاء كان كل واحد في الصين يدخن ، الرجال والنساء ، العظماء من الماندارين ، والفقراء والبائسون ، بل إن واحدا من المتأدبين في تشي كيانج Tche-Kiang (٣٠٤) يقول مقالة الاستنكار " حتى الأطفال الذين لم يزد طولهم عن قدمين ، ما أسرع ما تتغير العادات " ونقرأ نفس الشيء في عام ١٦٦٨ عن كوريا التي استوردت زراعة التبغ من اليابان حول عام ١٦٢٠ (٣٠٤). وانظر إلى لشبونة، ألا ترى الصبية فيها يتعاطون النشوق (٣٠٦) ؟ كانت كل أنواع التبغ ، وكل طرق تعاطيه معروفة ومتداولة في الصين ، بما في ذلك تعاطي التبغ مخلوطا بالأفيون ، وهي طريقة عرفت منذ القرن السابع عشر ، وانتقلت من الجزر المحيطية وفورموزا برعاية شركة الهند الشرقية الهولندية ، وهناك إعلان يرجع إلى عام ١٧٢٧ يكرر مرة أخرى " أن أفضل بضاعة للتصدير إلى بلاد الهند الشرقية هي التبغ المسحوق ، سواء منه نشوق إشبيلية أو نشوق البرازيل . " أيا كان الأمر فلم تظهر في الصين ولا في بلاد الهند حركة تستهجن التبغ ، أو على الأقل تبغ التدخين (لا تبغ النشوق)، كتلك الحركة التي شهدتها أوروبا لحظة في القرن الثامن عشر ، والتي لا نعرف عنها إلا القليل . ولكن الاستهجان كان بطبيعة الحال نسبيا ، ألم تر كيف كان الفلاحون في بورجونديا يتهالكون على متعة التدخين (٣٠٧) ، وعلى شاكلتهم المترفون جميعا في سان بطرسبرج ؟ وهذا هو تبغ فرجينيا ومريلاند تستورده انجلترا في وقت مبكر هو عام ١٧٢٣ ، لتعيد تصدير ثلثي الكمية على الأقل الى هولنده وألمانيا والسويد والدنمرك ، وربت الكمية المستوردة إلى ٣٠٠٠٠ برميل ، تطلبت خدمات ٢٠٠ سفينة (٣٠٨).

وأيا كان الأمر فإن إقبال أفريقيا على التبغ اتخذ هيئة الموجة المتزايدة ، وكان النوع المفضل هو التبغ الأسود من الدرجة الثالثة المبروم على هيئة حبال المعسل ، المدهونة

بالعسل الأسود ، ولهذا ظل التبغ حتى القرن التاسع عشر سببا في تشجيع حركة تجارية نشيطة بين باهيا وخليج بينين ، استمرت فيها تجارة العبيد الزنوج في الخفاء حتى عام ١٨٥٠ (٣٠٩).

شارب الخمر المرح ، لوحة بريشة يوديث لايستر J. Leyster (١٦٢٩) وتبين اللوحة عدة التدخين التي يستخدمها المدخن الحريف : البيبة ، التبغ ، أعواد الثقاب الطويلة ، والموقد فيه الفحم النباتي المتقد . (متحف رايكسموزيوم Rijksmuseum في امستردام) .

الباب الرابع

الأشياء الكمالية والأشياء العادية
المسكن والملبس والموضة

حاولنا في فقرات الباب السابق ، ابتداءً من الحديث عن استهلاك اللحم ، وانتهاءً بالحديث عن تعاطي التبغ ، أن نرسم الخط الفاصل بين الأشياء الكمالية ، والأشياء العادية . وهانحن أولاء نكمل الرحلة بالحديث عن المسكن والملبس ، حيث تتاح لنا الفرصة مرة أخرى للمقارنة بين الفقراء والأغنياء . وهل هناك موضع آخر يطلق الترف لنفسه فيه العنان أكثر من هذه المجالات التي اخترناها : البيت ، الأثاث ، الملبس؟ هنا يخرج الترف أحيانا عن جادة الصواب ، فيسترسل في الجمع ، والتكديس، والحشر ثم إنه لا يتورع عن أي شيء ، ويستصوب كل شيء ، أو هكذا يبدو . ولسوف تتاح لنا الفرصة لنقارن بين الحضارات : فليست هناك حضارة أخذت بنفس الحلول التي أخذت بها حضارة أخرى ..

البيوت
في العالم كله

لا يكاد يكون من الممكن أن نتبين في البيوت ، من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر ، إلا القليل من السمات المشتركة ، التي لا تقبل الجدل ، والتي لا نستغربها ، أو ندهش لها . أما أن نصل إلى سمات مشتركة بين البيوت في العالم كله ، نطمئن إليها كل الاطمئنان ، فهذا شيء لا أمل في السعي إليه .

ولكننا لحسن الحظ وجدنا ، في تسع وتسعين في المائة من الحالات، سمات ثابتة، استمرت دون أن تتغير، أو لم تتغير إلا في حدود تطور بطيء . ونحن نجد تحت بصرنا ، في أماكن كثيرة من العالم بيوتا قديمة عديدة ، أنشئت في عصور مضت ، بعضها بقي على حاله ، وبعضها أعيد بالترميم إلى ما كانت عليه حاله ، بيوتا ترجع بنا إلى القرن الثامن عشر أو إلى القرن السادس عشر، وإلى القرن الخامس عشر أو إلى ما قبل هذه القرون، من أمثلة هذه البيوت القديمة : بيوت حارة كاملة في حى قلعة رادشين Hradschin مدينة براغ يسمونها حارة الذهب ؛ وبيوت قرية سانتيليانا Santillana الرائعة قرب سانتاندر Santander شمال أسبانيا . وربما حفظ لنا رجال من القرن الماضي أو ما قبله صورة بيوت قديمة كانت قائمة في زمانهم . فقد تحدث رجل قوي الملاحظة في عام ١٨٤٢ عن مدينة بوڤيه Beauvais الفرنسية فقال إنه لاتوجد مدينة حفظت على أرضها مثلما حفظت هذه المدينة من الدور القديمة ، ووصف " نحو أربعين من البيوت الخشبية التي ترجع إلى القرنين السادس عشر ، والسابع عشر " (١). كل بيت يبني ، أو يعاد بناؤه ، يتبع نماذج تقليدية متوارثة. والحق أننا نحس في مجال بناء البيوت على نحو خاص بقوة الماضي تفرض نفسها فرضا . فعندما حدث ، في عام ١٥٦٤ ، حريق مروع دمر البيوت في مدينة بلد الوليد في أسبانيا ، استعانوا في إعادة بناء بيوت الأغنياء ببنائين كانوا يمثلون، على نحو لاشعوري، الفنون الإسلامية القديمة(٢). ومن هنا بقي الطابع القديم الذي طبع هذه البيوت الجديدة ، والجميلة. وليست هذه حالة فريدة ، فالعادات ، والتقاليد تلعب دورها في كل مكان بالعالم ، وما العادات والتقاليد إلا التراث القديم الذي لا يستطيع إنسان أن يمحوه. وهكذا احتفظت البيوت الإسلامية بسمتها القديمة التي جرت بها العادات والتقاليد، فنراها بيوتا منغلقة على نفسها ، تستر ما بداخلها . ولقد كان هذا الرحالة على حق عندما قال في حديثه عن بلاد فارس ، في عام ١٦٩٤، إن بيوت الأغنياء جميعا " لها نمط معماري واحد: في وسط كل بيت قاعة مربعة طول ضلعها ثلاثون قدما تقريبا، في قلبها فسقية مملوءة بالماء من حولها السجاجيد "(٣) . هكذا البيوت تتسم بسمات نصفها بالاستمرارية.

والريفيون في كل جنبات العالم يتسمون باستمرارية أكثر صدقا . ونحن عندما ننظر الى ذلك البيت الصغير ، أو الكوخ الصغير caboclo، الذي كان الفلاح الفقير فقراً شديداً يبنيه من الخشب في عام ١٩٣٧(٤) في منطقة بيتوريا Vitoria شمالي ريو دي جانيرو ، نجد بين أيدينا وثيقة غير محدودة بزمن معين ، تشهد على ما كان يحدث قبل زماننا بمئات السنين . من هذا القبيل أيضا خيام البدو الرحل البسيطة ، نراها تعبرالقرون دون أن تتغير، ينسجونها اليوم على نفس النول البدائي القديم الذي كانوا ينسجونها عليه في الماضي.

وخلاصة القول أن " البيت " في أي مكان من العالم ، يبقى على مر الزمن ، شاهداً على بطء الحضارات ، والثقافات التي تحرص حرصا عنيداً على الحفاظ، والإبقاء، والتكرار .

مواد البناء الغنية :

الحجر والطوب

وهذا التكرار الذى نلاحظه في بناء البيوت تكرار طبيعي يزيد من طبيعيته أن المواد المستخدمة في البناء لا تتغير إلا قليلا ، وأنها تفرض نفسها في كل منطقة بحسب الخامات المتاحة بما لا يتيح إلا القليل من الاختيار . وهذا لا يعني أن الحضارات تعيش بشكل مطلق تحت إلزام جبري تفرضه الحجارة المنحوتة ، والطوب ، والخشب ، والطين. وإنما هي في كثير من الأحيان قيود تفرضها هذه المواد لفترات طويلة . وقد كتب أحد الرحالة يقول في معرض الحديث عن بلاد فارس: " إنهم هناك يبنون الأسوار والبيوت من الطين ، شاءو أو لم يشأوا ، فليس لديهم حجارة [ونضيف : وليس لديهم خشب]. هكذا يبنون البيوت من الطوب ، محروقا أحيانا ، ونيا مجففا في الشمس في أغلب الأحايين . " والأغنياء يجملون هذه الأسوار من الخارج ، فيبيضونها بخليط من الجير، والبودرة الخضراء الموسكوفية ، والراتنج الذي يجعلها تبدو فضية "(٥) . وهي مع ذلك أسوار من الطين . أما أن مادة البناء هي الطين ، فأمر تفسره الجغرافيا ، ولكن البشر هم الذين يقومون بالبناء ، وبتجميله ، فليست الجغرافيا وحدها صاحبة الكلمة ، وإنما للبشر أيضا كلمتهم .

أما الحجر ، الذي تأكد أنه مادة ترفية ، فلا بد من دفع ثمنه الغالي ، أو الالتجاء إلى الحلول الوسط ، أو التهرب من الحجر البحت: بالجمع بين الطوب والحجارة، كما فعل البناءون الرومان، والبيزنطيون ، ومازال البناءون الأتراك أو الصينيون يبنون بالطوب والحجارة معا ؛ والجمع بين الخشب والحجارة ، أو قصر استخدام الحجارة على بيوت الأمراء ، والآلهة . فإذا نظرنا إلى مدينة كوزكو Cuzco التي بناها الإنكا

حارة في مدينة ديلفت Delft حول عام ١٦٥٩ . لوحة من رسم يان فيرمير Jan Vermeer.
ونرى فيها بيوتا من الطوب ، لها شبابيك بمصاريع من الخشب ، ونوافذ زجاجية ثابتة لا تفتح ، (المتحف
القومي في أمستردام) .

وجدناها قد بنيت كلها بالحجارة ، في حين نرى المايا يقصرون استخدام الحجر على بناء المراصد ، والمعابد ، وساحات الرياضة . وإلى جانب هذه المباني الحجرية يمكن لمن يزور هذه المنطقة أن يتخيل الأكواخ المبتناه من فروع الشجر ، والطين ، والتي كان الناس يسكنونها أو يستخدمونها في حياتهم اليومية ، وله أن يستعين في تخيله بالآثار الباقية في شيشين ايتسا Chichen Itza وباللينكوي Palenque في شبه جزيرة يوكاتان Yucatan (أمريكا الوسطى) . كذلك في الدكن بالهند نجد عمارة رائعة من الحجر في تلك المدن المستطيلة الشكل التي تمتد شمالا إلى أن تصل إلى المناطق الخالية من الحجر في السهل بين نهري السند والكنج .

أما في الغرب ، وفي منطقة حوض البحرالمتوسط ، فقد احتاجت حضارة الحجر إلى قرون لكي تمكن لنفسها في الأرض . كان من الضروري استغلال المحاجر، واختيار الحجر الذي يسهل تشغيله ، والذي يزداد صلابة في الهواء . وقد تطلب هذا إنفاق المال الكثير على مدى قرون طوال .

وإذا نظرنا إلى باريس ، وجدنا من حولها محاجر لايحصيها العد ، منها محاجر الحجر الرملي ، ومحاجر الرمل ، ومحاجر حجر البناء ، ومحاجر الحجر الجيري... وكانت المدينة قد بدأت منذ البداية باستخراج مواد البناء من نفس الموقع الذي تقوم فيه، وكانت النتيجة أن باريس شيدت فوق حفائر هائلة " من ناحية شايو Chaillot، وپاسي Passy، وطريق أورليان Orléans القديم " ، نجد هذه الحفائر التي تخلفت عن المحاجر القديمة تحت " ضاحية سان چاك Saint-Jacques ، وشارع لا هارپ la Harpe بل وشارع طورنون Tournon نفسه "..(٦). وقد استمراستغلال محاجر حجر البناء على نطاق واسع حتى الحرب العالمية الأولى ، وكانت الكتل الكبيرة تنقل إلى محطات الضاحية الكبيرة، حيث تقطع بالمناشير ، ثم تنقل من خلال باريس على عربات مخصصة لحمل الشحنات الثقيلة تجرها الحيوانات . ولا ينبغي ، مع ذلك ، أن تضللنا هذه الصور، فنتصور أن باريس كانت مدينة شيدت مبانيها بالحجارة : فلم تكن باريس، منذ أن نشأت، تستخدم الحجر في البناء ، وإنما تحولت تدريجيا إلى عمارة الحجر ابتداء من القرن الخامس عشر بفضل جهود هائلة مستمرة شاركت فيها أعداد غفيرة من النجارين القادمين من نورمانديا ، والعمال المتخصصين في السقوف الجمالونية، والعمال المتخصصين في قطع الحجارة وتهذيبها ، والبنائين القادمين من منطقة ليموزان (وكانوا معروفين بقدرتهم على العمل الشاق) ، والعمال المتخصصين في كسوة الحيطان بورق الحائط الدقيق ، وأعداد كبيرة من المبيضين بالمحارة ، والمتخصصين في الزخرفة بالجبس والجص . وكان من الممكن ، في زمن سيباستيان ميرسييه ، أن يتبين الإنسان ، بمتابعة آثار الجير والجبس البيضاء الطريق الذي سلكه هؤلاء العمال المتخصصون في شغل

الجص ليعودوا إلى بيوتهم كل مساء (٧). ولم تكن البيوت كلها تبنى كاملة بالحجارة، فما أكثر البيوت التي كانوا يبنون أساسها ويدرومها بالحجر ، والأدوار العلوية من الخشب وعندما حدث حريق البيتي پون Petit Pont في عام ٢٧ ابريل ١٧١٨ اشتعلت النار في البيوت الخشبية ، واستعرت " وكأنها كانت فرن جير هائلا تهاوت إليه العروق الخشبية " . أما البيوت المبنية من الحجر فكانت السد المنيع الذي حجز النار، ومنعها من الانتشار ، وكتب شاهد عيان يقول : " كان القصر الصغير المعروف باسم لو بيتي شاتيليه Le Petit Châtelet الذي بني بناء متينا صلبا هو الذي أنقذ شارع هوشيت Huchette، ورصيف شارع جالاند Galande "(٨).

هكذا كانت باريس حينا من الزمن مدينة مبنية من الخشب مثل الكثير من المدن الأخرى ، مثل مدينة طروا Troyes التي اشتعلت فيها النار فجأة ، فاستعر بها حريق هائل في عام ١٥٤٧ ، ومثل ديچون Dijon التي كانت بيوتها حتى القرن السابع عشر مبنية من الخشب ، وكانت أسطحها الجمالونية من القش ؛ ولم تتغير الحال إلا منذ القرن السابع عشر حيث فرضت الحجارة نفسها ، وواكبها القرميد الذي تغطى به السطوح الجمالونية ، وبخاصة القرميد الذي سمي بالقرميد المذهب الذي ظهر أول ما ظهر آنذاك(٩). وكانت بيوت المدن والقرى في اللورين تتغطى سطوحها بقطع من الخشب ، ثم جاء القرميد المستدير بعد ذلك متأخرا ، وإن كانت هناك رواية عنيدة - ولكن كاذبة - تدعي أن القرميد المستدير قديم ، يرجع إلى أيام الرومان ، وأنه ظل باقيا منذ ذلك الحين(١٠). ونقرأ عن منطقة ڤيتراو Wetterau الألمانية شمالي فرنكفورت، قرب نهر الماين أن قرارا صدر بحظر تغطية الأسطح الجمالونية بالقش أو بقطع الخشب. وليس من شك أن سبب الحظر كان تحسب الحرائق . والحق أن الحرائق كانت تحدث كثيرا، في منطقة ساڤوا Savoie حيث أن حكومة ملك سارديينيا ارتأت في عام ١٧٧٢ ألا تقدم عونا إلى منكوبي الحرائق " في المدن ، والبنادر ، والقرى الكبيرة " إلاإذا كانت الأسطح الجديدة فيها مغطاة بالقرميد أو الأردواز . وخلاصة القول إن استخدام الحجر في البناء ، والقرميد في تغطية الأسطح الجمالونية لم يكن يتحقق في العديد من الأماكن إلا بقرارات إجبارية ، أو سعيا للحصول على مكافأة حكومية . ولقد ظل السطح الجمالوني المغطى بالقرميد " رمزا للغني " في سهل الساؤون في القرن الثامن عشر(١٢)، بل لقد كان القرميد في عام ١٨١٥ شيئا غير مألوف في بيوت الفلاحين في فرنسا(١٣). ونرى في متحف مدينة نورنبرج الألمانية رسما يوضح بالأرقام مساكن إحدى القرى ، فالأسطح الحمراء هي المغطاة بالقرميد ، والأسطح الرمادية هي المغطاة بالقش؛ ولنا أن نراهن على أن هذا التفريق بين أسطح القرميد وأسطح القش كان تفريقا مقدما بين الفلاحين الأغنياء ، والفلاحين الفقراء .

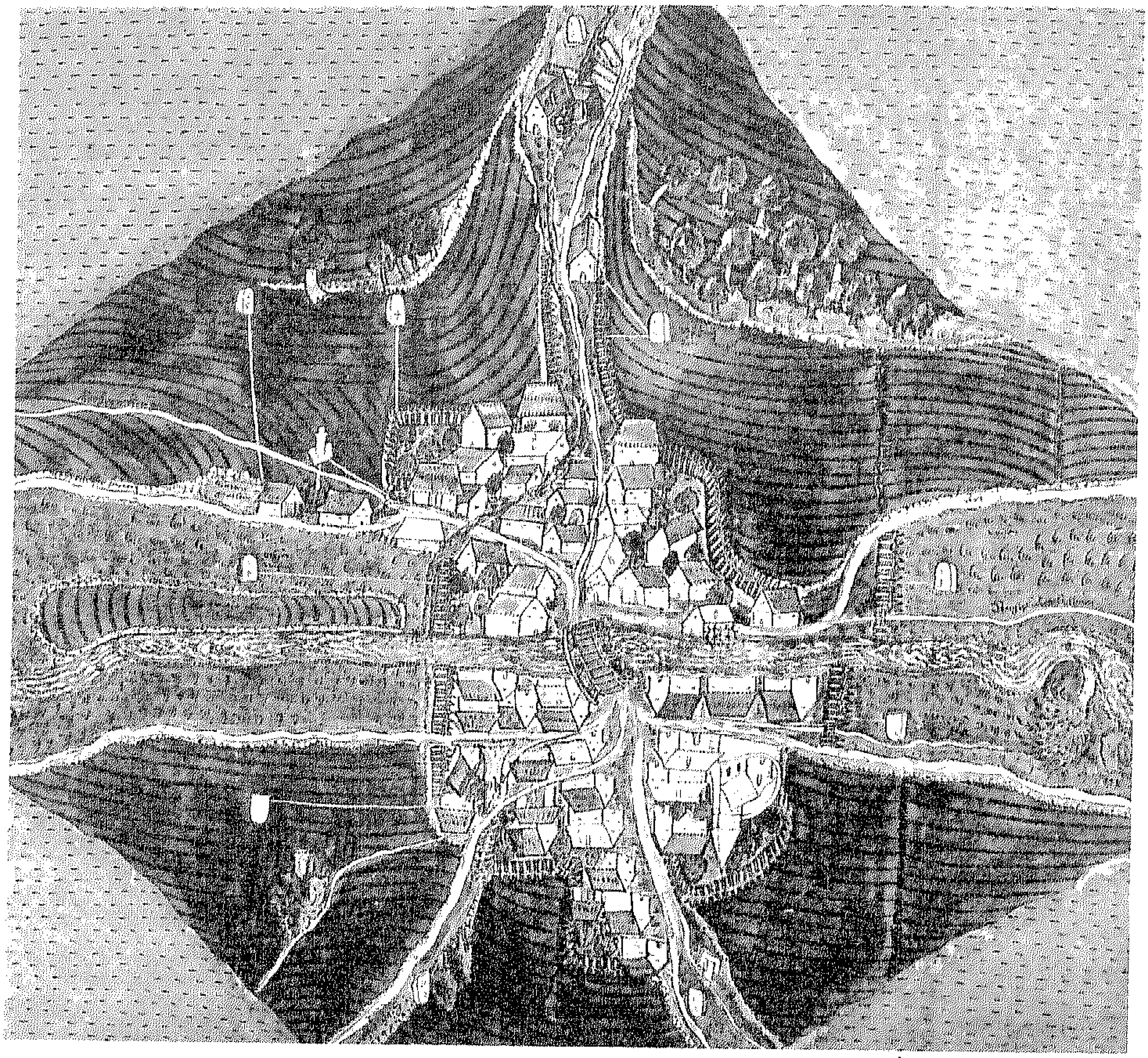

قرية كبيرة قرب مدينة نورنبرج الألمانية في عام ١٦٠٠ : يبلغ عدد بيوتها نحو ٥٠ بيتا ، من بينها ٤٠ تقريبا أسطحها مغطاة بالقش (لونها غامق) ، و ١٠ تقريبا أسطحها مغطاة بالقرميد (لونها فاتح) ؛ وبالقرية طاحونتان (احداهما بعجلتين) ، وبها مراع ، وحقول محروثة ، ويحيط بالقرية سياج من الأوتاد الخشبية المغروسة في الأرض (مصلحة المباني في نورنبرج)

كذلك كانت الحال في المناطق الممتدة من انجلترا حتى بولنده، نرى فيها أن الطوب الأحمر لم يدخل الحلبة منتصرا منذ البداية ، وإنما دخلها عادة ليحل محل عمارة من الخشب كانت قائمة من قبل . أما في ألمانيا فقد حقق الطوب الأحمر نجاحا مبكرا ، منذ القرن الثاني عشر ، وإن كان قد سار بخطى بطيئة .

وفي الوقت التي تحولت فيه باريس إلى مدينة من الحجارة ، كانت لندن، منذ عصر الملكة اليزابيث ، تتحول إلى مدينة من الطوب. واكتمل هذا التحول بعد حريق عام ١٦٦٦ الذي اجتاح ثلاثة أرباع المدينة ، أي ما يربو على ١٢٠٠٠ بيت، وكانت المباني التي أنشئت بعد الحريق مبان ضخمة مضطربة بغير نظام ، فما كان إلى تنظيمها من

سبيل . كذلك شيدت كل المباني الجديدة في القرن السابع عشر من الطوب، وكان الطوب المستخدم يكتسي بطبقة واقية من القطران تضفي عليه لونا بنيا داكنا، تظهر فيه الأجزاء الحجرية البيضاء التي تمثل جباه العقود ، والأفاريز . كذلك كانت الحال في موسكو ، حيث بنيت البيوت عادة من الخشب ، ثم شهد شاهد في عام ١٦٦٢ أنهم أخذوا منذ سنوات " بدافع التباهي ، أو سعيا وراء مزيد من الأمان في مواجهة الحرائق [...] التي كانت كثيرة الحدوث " في بناء بيوت من الطوب " بأعداد كبيرة حقا"(١٤).

هكذا تتابعت مواد البناء على مر الزمن ، وكان تتابعها يمثل خط التقدم ، والثراء، وإن كنا نلاحظ أن مواد البناء المختلف كانت تتعايش ، قديمها مع جديدها ، في كل البقاع تقريبا . ففي الصين ، على سبيل المثال ، كان الخشب يستخدم بكثرة مع الطوب النيء ، وجاء الطوب الأحمر فاتخذ مكانا هاما إلى جوارهما في بناء البيوت سواء في المدن أو بعض القرى في تلك الأرياف التي كانت تنعم بالتميز والامتياز. كانت أسوار المدن تبنى في الصين من الطوب ، وكانت الكباري تشيد غالبا من الحجر، كما كانت بعض الطرق تعبد بالبلاط . وانظر إلى البيوت في كانتون ، تجدها منخفضة، تتكون من دور أرضي لا ترتفع فوقه طوابق ، ونجدها مبنية ، على عادة البيوت في الصين، بناء خفيفا بالغ الخفة ، تكاد ألا يكون لها أساس ، ويستخدمون في بنائها الطوب النيء أو الأحمر، ويمحرونها بمونة من الجير يخلطونها بالقش(١٥). لا ترى في هذه الأبينية حجراً أو رخاماً ، فهما من مقومات ترف الأمراء ، كهذا السور الهائل الذي يكتنف قصور بكين، فيه الشرفات ، والسلالم ، والدرابزينات من الرخام الأبيض ، تتابع بعضها وراء البعض الى مالانهاية ، بل " إن كل المباني هناك مشيدة على قواعد من الرخام الرمادي المشرب بحمرة " على ارتفاع قامة الإنسان(١٦). أما الأسطح ذات الأحرف الملفوفة إلى أعلى، والتي كسيت بالقرميد المصقول الشهير، فهي ترتكز على عمد من الخشب "وعلى ما يشبه " الغابة من العروق ، والمراين ، والألواح الخشبية التي طليت بطبقة لامعة خضراء تداخلها أشكال زخرفية من الذهب "(١٧). ولانجد هذا الجمع بين الرخام، والخشب في العمارة الصينية إلا في بناء القصر الأمبراطوري، وهو مدينة في حد ذاته، مدينة خارقة للمألوف . وإليك هذا الرحالة الذي يصف شاو كينج فو Chau-King-fu ، مدينة شيكيانج Chekiang " التي تقع في سهل من أجمل سهول الدنيا ، وبينها ، وبين البندقية الكثير من الشبه " بقنواتها التي تعلوهاالكباري، وشوارعها التي عبدت بالحجارة البيضاء " ، ويضيف الرحالة : " ومن البيوت ما شيد بالحجر الأبيض المنحوت ، الذي تفوق نصاعة بياضه المألوف ، وهو شيء لا مثيل له في كل المدن الصينية الأخرى"(١٨).

مواد البناء الأخرى :

الخشب ، الطين ، القماش

كان الخشب ، سواء اشترك مع الطفلة أو استقل بنفسه ، هو سيد مواد البناء كلها في تلك المناطق التي كانت الظروف الجغرافية، وتقاليد البناء تتيح استخدامه : في منطقتي پيكارديا ، وشامپانيا الفرنسيتين ، وفي البلاد الاسكندناڤية ، والموسكوفية، ومناطق حوض نهر الراين ، وفي كل مكان استمر فيه التأخر عن استخدام الحجر والطوب . وانظر إلى رسامي مدرسة كولونيا في القرن الخامس عشر ، تجدهم يرسمون في غير كلل أو ملل ، بيوتا أقيمت على هيئة تقفيصة colombage من الخشب ملئت الفراغات فيها بالسياغ torchis ، وهي عجينة من الطين والقش . وارجع البصر كرة إلى موسكو تجدهم هناك يبنون بيوتا من الخشب في ساعات قلائل ، يستخدمون فيها أجزاء سابقة التجهيز ، بل كانوا يستطيعون أن يبنوا البيوت في مكان ، وأن يحركوها، وينقلوها إلى المكان الذي يعيّنه صاحبها(١٩) . كانت الغابات تملأ الرحب ، وتتربع على سدة البسيطة في تلك الأنحاء، وتقدم إلى الناس خدماتها ، فما الذي يدفعهم إلى البحث عن مواد بناء أخرى ؟ وهذه هي پولندة التي تمتلىء جنباتها بغابات كثيفة متراصة، مثل غابات موسكوفيا ، إذا أراد الفلاح أن يبني فيها بيتا " قطع بعض أشجار الصنوبر ، وشق جذوعها شقين طوليا ، ووضع أربعة من هذه الجذوع المشقوقة على هيئة المربع بحيث ترتكز أطرافها على أربع قطع من الحجارة في الأركان الأربعة، راسمة مربعا ، هو أساس البيت، جاعلا الناحية الملساء من الجذوع المشقوقة إلى الداخل، وكان يصطنع في أطراف الجذوع المشقوقة تقويرات تتيح تعشيقها بعضها في البعض الأخر ، بحيث لا تنشأ فراغات كبيرة بينها ، وما يزال يضع الجذوع المشقوقة بعضها فوق البعض الآخر حتى يكتمل قفص ارتفاعة ٦ أقدام وطول ضلعه ١٢ قدماً، تاركاً فتحتين، فتحة طولها قدم يدخل منها الضوء ، وفتحة ارتفاعها أربع أو خمس أقدام هي الباب الذي يدخل منه البشر؛ ويركب على النافذة لوحين أو ثلاثة ألواح من الزجاج، أو شريحة من هذا الورق الذي كانوا يعالجونه بالزيت حتى يكتسب شيئا من الشفافية. وفي ركن من أركان هذا البناء ترتفع من القاعدة إلى أعلى أربعة عروق من الخشب تنضم على هيئة الهرم المخروطي ، وتتشابك بعوارض من فروع الشجر يليّسونها بالطفلة المعجونة، فتأتلف منها مدخنة تصرف دخان الفرن الذي يبنونه في الداخل". ولا يستخدم الفلاح، وهو يبني هذا البيت إلا " أداة واحدة " هي البلطة (٢٠). وليس هذا النمط من البناء قاصراً على شرق أوروبا ، بل نجده في جبال الألب الفرنسية، والإيطالية، بل إن نمط بيوت " الرواد " ، الذين ارتادوا أمريكا الشمالية، لم يختلف كثيرا عن هذا النمط، في تلك البقاع التي كانت الظروف فيها مشابهة .

أما المناطق التي يعز فيها الخشب ـ ويعتبر لونا من ألوان الترف - فإن الطين والطفلة والقش تصبح هي الملجأ الوحيد الذي يلجأ إليه الإنسان في البناء . وهذا رجل جال بناظريه في المنطقة القريبة من جوا Goa البرتغالية في عام ١٦٣٩ فرأى " البيوت كلها صغيرة شيدوها من القش، ولم يتركوا بها من فتحات سوى باب صغير منخفض، ولم يتخذوا فيها من أثاث سوى بعض الحصر المصنوعة من الخيزران، يفترشونها عند النوم، ويمدون عليها السماط عندما يأكلون .[...] وهم يليطون هذه الأكواخ من الخارج بروث البقر إيماناً منهم بأنه يطرد البراغيث "(٢١) . وينطبق هذا الوصف اليوم أيضا على مناطق كثيرة في الهند : حيث البيت ضيق ضيقا مفرطا ، لم يتخذوا فيه فرنا، ولم يفتحوا فيه نافذة ، وترى الزقاق الضيق في القرية يعج بالبهائم، فليس لها زرائب تأوي إليها.

والمدن الريفية في شمال الصين ، قياسا على ما قاله ماكارتني Macaertney وجيني Guignes في وصفها بيوت " [غالبيتها] مبنية بالطين أو بكتل من اللبن، يشكلونها بوضعها بين لوحين ، وتجفيفها في الشمس تجفيفا رديئا [...] وربما أقاموا الحيطان من الخيزران يليسونه بالطفلة ، ويصنعون الأسطح من القش بصفة عامة، وربما صنعوه من النجيل ، أما التقسيمات الداخلية في البيت فكانوا يصنعون الفواصل بينها من الخيزران المتشابك ، ويكسونها بورق رسمت عليه صور الآلهة ، أو كتبت عليه عبارات الحكمة ، وجوامع الكلم على هيئة أعمدة ، ومن حول كل بيت حوش خال، يحيط به سياج صنع من غصون الصفصاف المضفورة أو من عيدان نبات يسمونه القاولين kow lean. [وهو: الذرة السكرية أى السرغون sorgho]"(٢٢). ونمط البيت الصيني في أيامنا هذه يذكرنا بهذا النمط القديم الذي وصفه لنا الرحالة . وهذا البيت في صورته البسيطة عبارة عن مستطيل صغير، أو هو على الأحرى مستطيلان أو ثلاثة مستطيلات، تتوزع حول حوش يكتنفه سور ـ والأبواب تفتح على هذا الحوش، وإذا كانت هناك نوافذ، فإنها تتخذ من هذا الحوش منوراً لها. ومواد البناء المستخدمة هي الطوب، والقرميد في الجنوب (وهي من علامات الثراء أو التمسك بالتراث) والطين، والقش (قش السرغون أو قش القمح) في الشمال .

وسواء كان البيت من الطوب الأحمر أو من الطين ، فإنه يعتمد دائما تقريبا على تجهيزات من الخشب . أما كانت عملية البناء في الصين تسمى آنذاك (بل وما زالت تسمى إلى يومنا هذا) " عملية طين وخشب "؟ ولكن الخشب كان نادراً في الصين، وبخاصة في شمال الصين التي ليس بها غابات، وحتى إذا كان المبنى المزمع مبنى عاديا ، فإن تدبير الخشب اللازم له كان يتطلب " مصاريف جنونية " من الفضة ومن الرجال. وإليك هذا الكاشف من أبنا القرن السادس عشر يذكر مثلا من الأمثال الشعبية السائرة

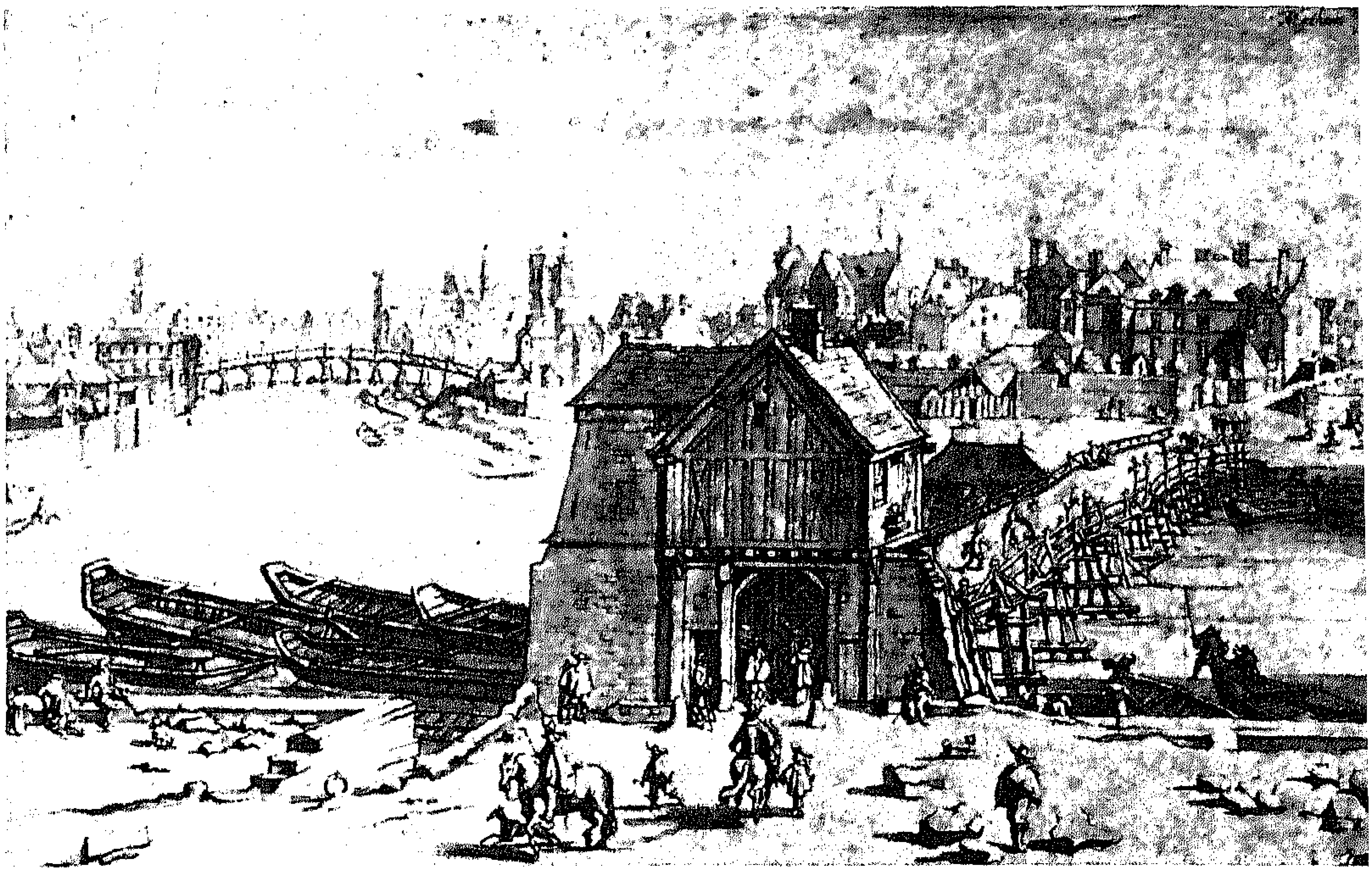

من باريس في عام ١٦٢٠ : كوبري تورنيل Tournelle الخشبي . رسم بقلم ماتان Mathan.

في منطقة سيتشوان Se-tchouan: " إذا ذهب إلى الجبال ألف رجل سعيا وراء خشب البناء ، هلك خمسمائة منهم ، ولم يعد إلا خمسمائة ." ويحدثنا الشاهد نفسه أن الفلاحين في منطقتي هوبيه Houpé، وسيتشوان كانوا ، إذا علموا بأنهم سيكلفون بقطع الأشجار للحصول على خشب يستخدم في الانشاءات الإمبراطورية، "يولولون، وينتحبون حتى تنقطع أنفاسهم " من سوء ما بشروا به ..."(٢٣).

ويمكن القول بصفة عامة أن الصين - والأقاليم القريبة منها ، والدائرة في فلك إشعاعها الثقافي على نحو أو آخر - كانت تبني فوق سطح الأرض، فوق وجه الأرض، مبان صلبة، وكلمة صلبة كلمة نسبية ، فقد تكون طوبا أحمر، وقد تكون طوبا نيا. وعلى العكس من ذلك نرى أن مناطق جنوب شرق آسيا (في لاوس وكمبوديا ، وسيام، باستثناء المناطق الفيتنامية المطبوعة بالطابع الصيني) ظلت - غالبية الوقت - متمسكة بنظام بناء البيت ، والصوامع على خوازيق ، وهذا يعني أنها كانت، شاءت أو لم تشأ، مضطرة إلى البناء الخفيف باستخدام الخشب أو البامبو ، فتستخدم ألواحا من الخشب، وعجينة السياغ من الطين والقش ، وتغطي الأسطح " بالعشب " ، وهو ما يناظر في أوروبا الأسطح المتخذة من القش (٢٤). وهل كانت الصلابة النسبية للعمارة الصينية دليلا على صلابة اقتصادها الريفي ، وصلابة حياتها المتسمة بالعمق ؟

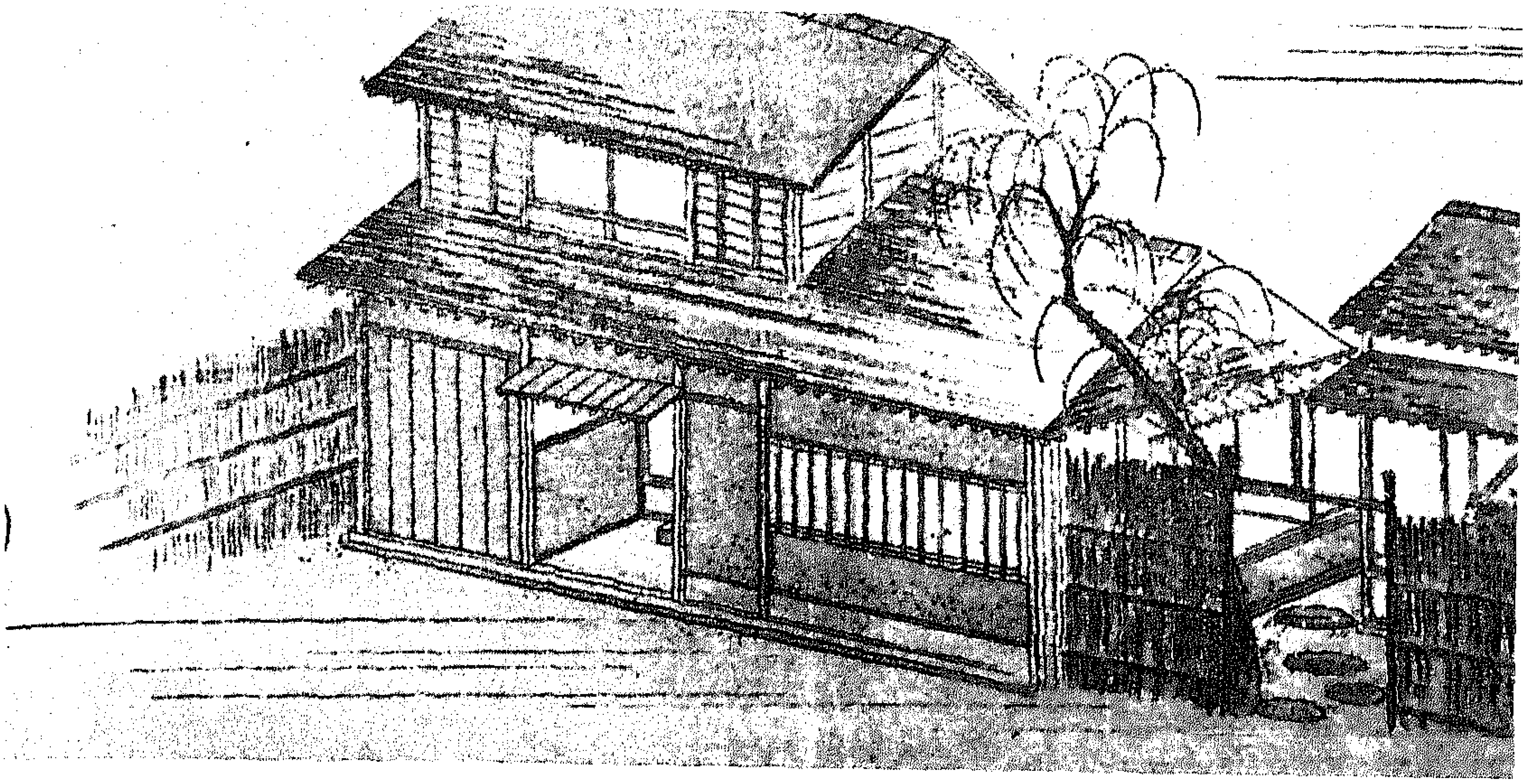

بيت ياباني . وكان البيت الصيني القديم يقام على هذا النمط .
(جاليري چانيت أوستيبه Galerie Janette Ostier).

كذلك كان الناس في بلدان العالم الإسلامي يبنون مبان صلبة . وهذا هو الفارس شاردان Chardin الذي عرف بدقته ، التي نضيق بها حينا، وتشدنا إليها أحياناً، يصف نظام البناء في بلاد فارس التي زارها ، وأحبها ، وتحمس لها، فكانت مشاهداته مشاهدات إنسان لا يضارعه آخر في دقة الملاحظة ، يحدثنا أن الحجر ليس عزيزا في بلاد فارس ، ولكن الطوب مع ذلك هو مادة البناء المهيمنة ، يستخدمون الطوبة نايمة أو قايمة، في كل الأغراض، حتى في بناء القباب فوق البيوت . إلا المباني الضخمة فكانوا يتخذون لها أسطحا تستند على أعمدة أو ركائز من الخشب . وسواء كان الطوب من النوع المحروق الأحمر الصلْب (كان ثمن المائة طوبة جنيها من فئة الإيكو écu)، أم كان من نوع اللبن المجفف في الشمس فقط (لم يكن ثمن المائة يزيد عن مليمين أو ثلاثة من فئة السول sols) ، فهو مادة بناء هشة. ولهذا فإن البيوت هناك ، " وهي أبعد ما تكون عن جمال البيوت عندنا " ، تتدهور بسرعة ، حتى القصور إذا لم تلق الصيانة المستمرة . وإذا ورث أحدهم بيتا ، سواء كان رجلا غنيا أو فقيرا ، فهو يفضل عادة أن يهدمه ، وأن يبني مكانه بيتا جديدا له (٢٥). وهكذا نرى ونحن نجول في ربوع العالم ، أن هناك ترتيبا هرمياً لمواد البناء يقوم تأسيساً عليه ترتيب فنون العمارة في العالم ، بعضها بالقياس إلى البعض الآخر .

وربما كان أوهى بيت سكنه الإنسان هو خيمة البدو الرحل ، وتصنع الخيام من مواد مختلفة (اللباد ، النسيج المصنوع من شعر الماعز أو وبر الجمال) ، كذلك تتنوع أشكال الخيام ، ومقاييسها . ولكن الخيمة الواهية بقيت على مر القرون ، ولم تمتد إليها يد البلى . فهل كان السبب في ذلك هو الضرورة ؟ أم هل كان الرضا بأفضل الموجود ؟ وكان البدو الرحل يتحولون إلى الاستقرار إذا أتيحت لهم ظروف مناسبة أو فرصة مواتية ، وكانوا يغيرون أنواع مساكنهم عندما يستقرون ؛ نلاحظ ذلك التحول من البداوة إلى الاستقرار، على نحو ما ، عندما آذنت شمس الإمبراطورية الرومانية بالمغيب؛ كذلك نلاحظه على نحو أكثر يقينا إبان الغزوات التركية ، وما واكبها من عمليات استقرار اضطرارية في شبه جزيرة البلقان ؛ ونلاحظه في الجزائر عندما استعمرت بالأمس، وفي كل بلدان العالم الإسلامي اليوم.

البيت الريفي
في أوروبا

ونحن نعرف باديء ذي بدء النمطين الكبيرين للبيوت في جوانب العالم : البيوت الريفية ، والبيوت الحضرية . والبيوت الريفية هي بداهة الغالبة ، وهي ملاجيء أكثر منها بيوت ، مخصصة لسد الحاجات الأولية للبشر ، وللحيوانات الداجنة . ومن الصعب على الأوروبي أن يكون صورة عن البيوت الريفية في بلدان العالم الإسلامي أو آسيا في الماضي ، وكيف كانت في واقعها اليومي ، فليست لديه البيانات الكافية التي يمكنه أن يبني عليها معرفة تاريخية. ونتبين في هذا المجال ، كما نتبين في المجالات الأخرى ، أن القارة المحظوظة المتميزة من ناحية البيانات التي تمكن من بلوغ المعرفة التاريخية هي قارة أوروبا . ولكن الامتياز في هذا المقام امتياز محدود .

والبيت الريفي الأوروبي لا يظهر ، إذا جاز لنا هذا القول ، في الوثائق الأدبية. فلسنا نجد أعمالاً أدبية في هذه القرون القديمة تحرص على وصفه . وما الوصف الكلاسيكي الذي خلفه لنا نويل دي فيل Noël du Fail إلا تخطيط كروكي سريع للبيت في منطقة بريتانيا حول منتصف القرن السادس عشر (٢٦). ويمكن أن نقول نفس الكلام عن وصف عزبة فنلندية قرب سان بطرسبرج(١٧٩٠)، جاء في نص أدبي، وإن اتسم بدقة نادرة ، فهو يحدِّث عن : مجموعة من الأكواخ الخشبية ، غالبيتها متهدمة، والكوخ عبارة عن حجرة واحدة ، ران عليها سواد الدخان ، وحظيرتين صغيرتين، وحمام (ساونا sauna) وفرن لتجفيف القمح ، والجاودار . أما الأثاث ؟ فكان يتكون من منضدة، ودكة، وحلة من الحديد الزهر ، ودست ، وقروانة ، ودلو ، وبراميل، وأناجر وأطباق من الخشب أو الفخار، وبلطة ، وفأس، وسكين لتقطيع الكرنب(٢٧).

ونحن في المعتاد نستخلص معلومات أكثر من رسوم ، ولوحات الرسامين، عن شكل القرى بكاملها ، وعن داخل البيوت التي عاش فيها البشر ، والبهائم معا . ونستخلص المزيد عندما ندقق في دراسة اللوائح المنظمة لبناء الدور في القرى .

والحق أن البيت لم يكن يبتنى، ولم يكن يرمم في القرية، إلا بموافقة مجلس القرية، وبتصريح من السلطة التابعة للسيد الشريف صاحب الأرض الذي له الأمر على المحاجر التي يستخرجون منها الحجارة أو الطفل ، وعلى الغابات التي يأتون منها بالخشب اللازم لبناء البيوت . وكان بناء بيت في الألزاس يتطلب في القرن الخامس عشر قطع خمس شجرات كبيرات، وكان بناء صومعة غلال يتطلب آنذاك قطع عدد مماثل من الشجر(٢٨). ونتبين من هذه اللوائح المنظمة للبناء الطريقة التي كان العمال يضمون بها الخيزران ، والغاب ، أو القش ليصنعوا منها الأسطح الجمالونية ؛ ونعرف منها طريقة استخدام الحجارة لتثبيت شقاف الخشب ، التي كانت الأسطح في المناطق الجبلية تكسى به، حتى لا تطيح بها الرياح ؛ ونعرف منها أن الأسطح المصنوعة من القش، إذا تعرضت للمطر وما إليه من ظروف مناخية سيئة فترة طويلة من الزمن، كانت تصبح أقل عرضة للحريق نسبيا ، وأن الأسطح القديمة المصنوعة من القش، كانوا عندما يخلعونها ليركبوا أسطحا جديدة بدلها ، يستخدمونها كسماد ممتاز للأرض، وأنها في أوقات الضنك كانت

بيوت الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر ، بأسطحها الجمالونية المصنوعة من القش ؛ في مقدمة الصورة عربة ، وبئر من فوقها شادوف . رسم بالنحت على الخشب ، عن كتاب " وصف العالم " Cosmograghie من تأليف سيباستيان مونستر Sebastian Münster الصادر في عام ١٥٤٣ . (المتحف الجرماني القومي Germanisches Nationalmuseum Nürnberg في نورنبرج

تستخدم علفا للماشية (كما حدث في منطقة سافوى في القرن الثامن عشر)(٢٩): ونعرف منها طريقة الجمع بين الخشب والطفل في البناء ، وطريقة وضع الألواح الخشبية لكسوة أرضية الحجرة الرئيسية؛ والعادة التي استقرت في اتخاذ علامة مميزة تعرف بها الحانة، فتكون هذه العلامة طوق برميل، أو تكون تاجاً، كما هي الحال في ألمانيا. ونستقي منها معلومات عن ميدان القرية ، والسور الذي كثيرا ما كانوا يبتنونه ليحيط بالدور، والقلعة التي كثيراً ما تكون هي الكنيسة ، وطرق التزود بالماء (الماء الجاري، النافورة ، البئر) ؛ وتقسيم الدوار إلى مكان يسكنه البشر ، ومكان للبهائم ، وجرن تخزن فيه المحاصيل ؛ وتفصيلات كثيرة معروفة ، استمرت حتى القرن التاسع عشر، وربما تجاوزت . ولو نظرنا إلى مدينة ڤارزي Varzy الواقعة على نهير النييڤر Niévre، وهي مدينة صغيرة في بورجونديا، لها سمات القرية ، لوجدنا بيوت الأغنياء ريفية الطابع ، ولوجدنا أن محاضر جرد محتوياتها في القرن التاسع عشر لا تصف فيها إلا حجرة كبيرة واحدة للمعيشة ، هي المطبخ ، وحجرة النوم ، وصالة المعيشة في آن واحد(٣٠) .

وقد أجريت منذ خمسينيات قرننا الحالي حفريات في مواقع القرى البائدة، في الاتحاد السوفييتي وبولندة ، والمجر ، وألمانيا ، والدنمرك ، وهولندة ، وانجلترة، وبعد ذلك بحين في فرنسا ، وجاءت نتائجها لتسد شيئا فشيئا ثغرات في معلوماتنا، كانت تمثل نقصا شبيها بالمرض المزمن . كشفت هذه الحفائر عن بيوت ريفية في براري المجر المسماة پوستا puzta وفي غيرها ، نرى فيها من الأنماط ، والتفصيلات (ومنها الفرن المبني بالطوب) أشياء شاء لها القدر أن تبقى . وتركزت الحفائر الفرنسية (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) حول ثلاث من القرى المهجورة ، هي : مونتيجو Montaigut (في أڤيرون Aveyron) وسان چان لو فروا Saint-Jean-le-Froid (في تارن Tarn) ودراسي Dracy (في كوت دور Côte-d'or) ، القرية الأولى قرية واسعة كبيرة ، والقرية الثالثة غنية بالأشياء المختلفة ، والثانية واضحة المعالم إلى حد كبير بحيث يستطيع الإنسان أن يتصور خططها بما كان فيها من متاريس ، وخندق ، وطريق رئيسي ، وحارات معبَّدة، حفروا فيها قنوات صغيرة للصرف ، ونتبين آثار حي سكني من أحيائها، وكنيسة صغيرة، يبدو أنها بنيت فوق أطلال كنيستين أو ثلاث كنائس ، سبقتها في موضعها، وكانت أكبر في مقاييسها ، وأعظم من الكنيسة الصغيرة الأخيرة التي لاتزال ملامحها باقية، وقرافة ... (٣١).

ونخرج من هذه الحفريات بدرس يتلخص في أن هذه القرى ، والنجوع كانت تتحرك حركة نسبية من مواقعها؛ كانت تنشأ ، وتنمو ، وتنكمش ، وقد تنتقل إلى موقع آخر. وربما وجدنا " أطلالا " بلا اسم هي تلك التي يشير إليها الجغرافيون ، والمؤرخون الألمان

باسم " Wüstungen ". وكان الذي يجري على هذه القرى في أكثر الأحوال هو عملية زحزحة في منطقة معينة ، بحيث يتحرك مركز الثقل من نقطة إلى نقطة أخرى؛ وكان كل من وما بالقرية المهجورة من منقولات ، وبشر ، وحيوانات ، وأحجار يتزحزح، فينتقل إلى موضع آخر على بعد بضعة كيلومترات . وربما تغير في أثناء هذه الملمات شكل القرية نفسه . وربما أدى هذا التغير إلى نشأة قرية كبيرة مزدحمة ، " ويبدو " أن القرية الكبيرة في منطقة اللورين قد نشأت أول ما نشأت في القرن السابع عشر (٣٢). وقد نشأت في العصر نفسه في أرض المستنقعات المسماة جاتين في منطقة ڤانديه الفرنسية Gatine vendéene طريقة تحويط العزب ، وأراضي المراعي الكبيرة بأسيجة تفصلها بعضها عن البعض ، مما غير شكل الطبيعة هناك(٣٣).

وهناك قرى أو بيوت قديمة كثيرة بقيت حتى زماننا الحالي . وقد دخلت عليها بعض التعديلات على مر الزمن غيرت شيئا من هيئتها بطبيعة الحال . وما علينا إلا أن ننظر اليها . واذا كانت هناك مدن تعتبر بمثابة متاحف ، مدن متحفية ، فهناك أيضا قرى متحفية، يمكن أن نتتبع من خلالها مسار الزمن، نعود على مدارجه إلى الوراء، إلى ماض بعيد، وستواجهنا في هذه الرحلة مشكلة كبيرة هي مشكلة تحديد تاريخ المراحل المختلفة تحديدا دقيقا . ولكن هناك بحوث واسعة تمت بالفعل . ونشرت نتائجها بالنسبة لإيطاليا كلها(٣٤) وما زالت قيد النشر بالنسبة لفرنسا ، حيث يبلغ عدد البحوث المستقلة التي تنتظر النشر ١٧٥٩ بحثا (٣٥) . هذه البحوث ترسم خطوط إمكانية إعادة تكوين المراحل الماضية على نحو مقبول . ونلاحظ أن البلدان التي لم تندفع فيها الحياة بخطى مفرطة السرعة ، مثل سارَدينيا ، كثيراً ما نجد فيها بيوتا ريفية احتفظت بهيئتها القديمة سليمة ، ونراها قد تنوعت ، وإنما تنوعت لتناسب المهام المختلفة، ولتتيح الراحة لشاغليها، بحسب اختلاف المناطق في الجزيرة (٣٦).

وفي مقدور كل سائح أو زائر أن يجد بنفسه ، وبدون أن يساعده باحث ببحث علمي، نماذج من القاعات الداخلية لبيوت سكان القرى الجبلية المحفوظة في متحف إنسبروك، وفي مقدوره كذلك أن يزور بيتًا قديماً من بيوت الفلاحين في ساڤوى الفرنسية ما يزال قائما في مكانه ، لم تمتد إليه نزوات من يلمون بهذه المنطقة الجبلية طلبا للفرجة، وحبا في قضاء أيام العطللة ، وما يزال في هذه البيوت القديمة الفرن الخشبي الذي يستخدم في تدخين الجامبون والمقانق ويسمونه هناك borne. كذلك نجد في لومبارديا بإيطاليا بيوتا ريفية فسيحة ترجع الى القرن السابع عشر، وفي قطالونيا بإسبانيا بيوتا ريفية رائعة يسمونها هناك ماسيا masia ترجع إلى القرن الخامس عشر، وتمتاز بقبابها، وعقودها، وحجارتها الجميلة(٣٧). ومن المؤكد ان هذه البيوت، سواء في لومبارديا أو في قطالونيا، كانت سكنا للفلاحين الموسرين ، ومن هنا اكتسبت قيمتها كتراث يتسم بالندرة.

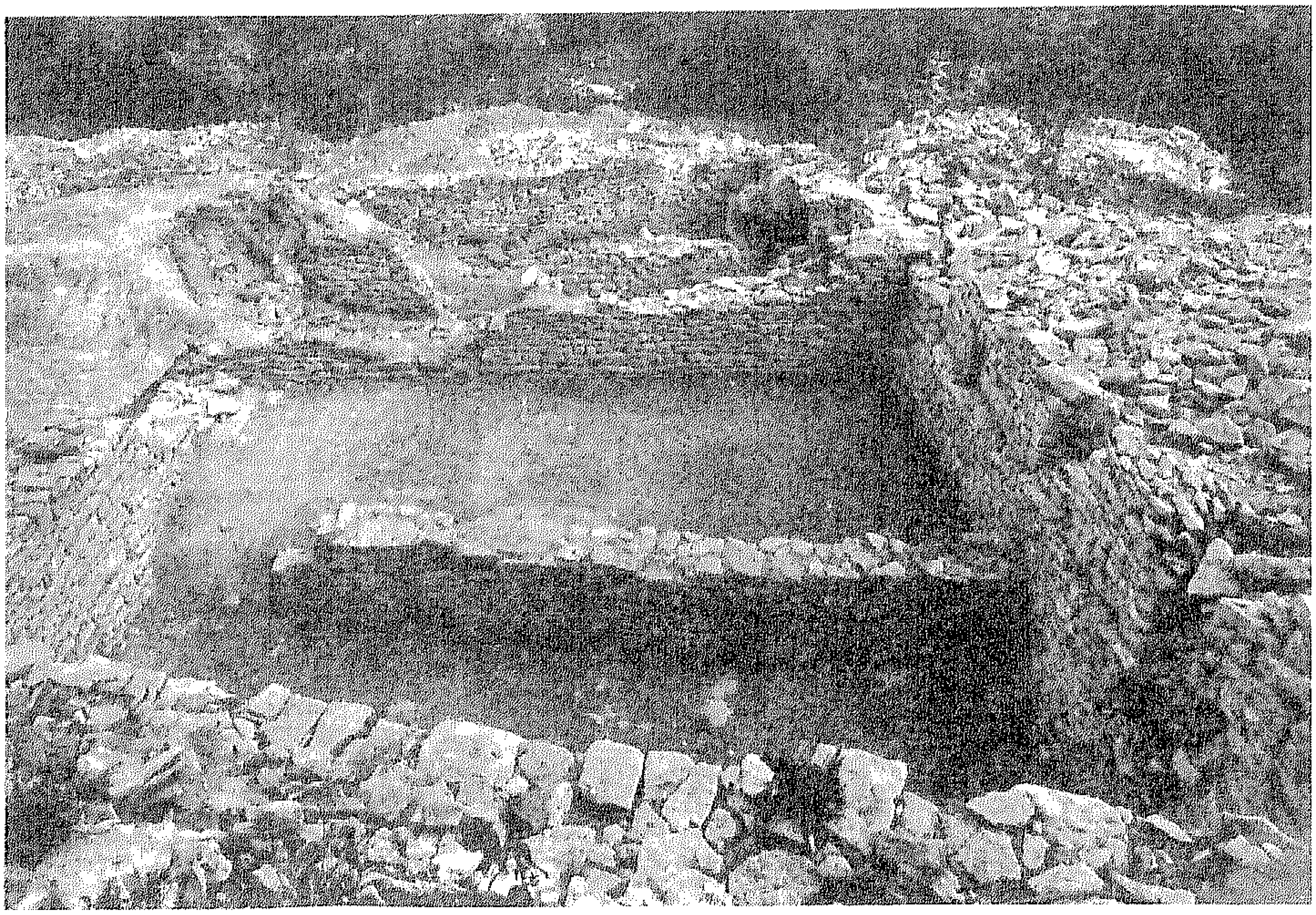

دراسي Dracy قرية من منطقة زراعة الكروم البورجوندية في فرنسا، وقد هجرها سكانها بين عام ١٤٠٠ و ١٤٢٠ : وقد كشفت الحفائر عن ٢٥ بيتا تقريبا. ونرى في الصورة بيتين ؛ في المقدمة بيت نمطي يشتمل على بدروم (كان يعلوه مخزن غلال) وقاعة معيشة كبيرة أرضيتها من الطين المدكوك ؛ والنوافذ صغيرة من وراء نيشات بسمك الجدار، وهي نوافذ من النوع الذي يضيق كلما اتجهنا إلى الخارج حتى يتخذ شكل الفتحة الضيقة .

البيوت
والمساكن الحضرية

ولنذهب الآن لزيارة بيوت المدينة . وليس من شك في أن زيارة الأغنياء في المدينة أسهل من زيارة الفقراء في الريف ، وستنحصر زيارتنا على أوروبا، فلم تبق في خارج أوروبا تقريبا، باستثناء قصور الأمراء، بيوت قديمة قاومت مواد بنائها عوامل البلى. هكذا نفتقر إلى شواهد جيدة من خارج أوروبا. فلنبق إذن في نطاق أوروبا الضيقة.

نجد في باريس مبنى متحف كلوني Cluny (وكان سكن قساوسة كلوني) المواجه للسوربون، وقد فرغوا من تشيده في عام ١٤٩٨ (في أقل من ١٣ سنة) ، وكان الذي أنشأه هو چاك دامبرواز Jacques d`Ambroise أخو الكاردينال الذي ظل حينا طويلا من الزمن وزيرا للملك لويس الثاني عشر. وقد أقامت في هذا المبنى لفترة قصيرة في

عام ١٥١٥ الملكة ماري المعروفة باسم ماري الإجليزية، أرملة الملك الفرنسي لويس الثاني عشر وكانت في ميعة الصبا . أما دار النبلاء من آل جيز Guise الذين أقاموا فيها من عام ١٥٥٣ إلى عام ١٦٩٧ في حي ماريه Marais، فقد تحولت الآن إلى دار المحفوظات القومية Archives Nationale وكان الوزير مازاران Mazarin يقيم من عام ١٦٤٣ إلى عام ١٦٤٩ في الدار التي أصبحت اليوم دار الكتب القومية Bibliothèque Nationale أما دار ابن صامويل برنار Samuel Bernard (أغنى تاجر في أوروبا في عصر لويس الرابع عشر) الكونت چاك صمويل دي كوبير Coubert في شارع باك Bac ، رقم ٤٨ ، على بعد بضعة أمتار من بولڤار سان جرمان ، فقد تم بناؤها من عام ١٧٤١ إلى عام ١٧٤٤. وما مر تسع سنوات ، أي في عام ١٧٥٣، حتى أفلس الكونت صاحب الدار ، وكان ڤولتير من بين الضحايا ...(٣٨)

ولنترك الآن باريس ، ونيمم شطر مدينة كراكاو في پولندة ، تلك المدينة التي بقيت مبانيها القديمة على نحو مدهش ، ويمكننا أن نزور هناك إما الأمير تشارتوريسكي Czartoyski. إما التاجر الواسع الثراء ، في القرن الرابع عشر، فيرتسينك Wierzynek الذي كانت داره تطل على ميدان السوق (الرينك le Rynek) حيث يستطيع الإنسان أن يتناول غذاءه حتى اليوم . وإذا كنا نخشى أن نضل الطريق في مدينة براغ ، فيمكننا أن نزور دار فالليشتاين Wallenstein المنيفة البالغة الأبهة والروعة، على شاطيء نهرالمولداو Moldau. فإذا تركنا پولندة ، وانتقلنا إلى طليطلة، وجدنا هنا الدار التي أصبحت متحف نبلاء آل ليرما Lerma، وهي بلا شك أكثر أصالة من بيت الرسام الجريكو El Greco...

ويمكننا أن ننزل إلى درجة متواضعة ، إلى شقق باريس في القرن السادس عشر، التي يمكننا أن نعيد تصور رسوماتها الهندسية بفضل ملفات أرشيف الشهر العقاري التي يمكننا أن نطلع عليها كما لو كنا عملاء يودون شراءها . وهذه الرسومات الهندسية تكاد تنطق بمعناها ومدلولها ، ولكن هذه المساكن لم تكن مساكن يستطيع كل الناس أن يحصلوا عليها (٣٩). حتى إذا كانت المباني قد كثرت في باريس كثرة خارجة عن المألوف في القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، فإن الفقراء ظلوا يسكنون في مساكن بائسة، أسوأ من اليوم ، وليس هذا بالشيء القليل .

كان تجار الخمور، وباعة البروكات هم عادة الذين يقومون بتأجير الغرف المفروشة في باريس، وكانت غرفا قذرة قميئة ، مليئة بالقمل ، والبق ، تلم بها بنات الليل، والمجرمون، والأجانب، والشبان الفقراء الذين أتوا لتوهم من الريف ، وكان البوليس لا يفتأ يغشى هذا الغرف لتفتشيها دون هوادة . أما من هم أحسن حالاً قليلاً من هؤلاء

فكانوا يسكنون في الأدوار المسروقة التي كان المهندسون يبنونها بأسعار منخفضة، وكانت " أشبه شيء بالكهوف " ، أو يسكنون في الأدوار العلوية ، وكانت القاعدة هي أنه كلما علا الدور في البيت، كانت تلك دلالة على سوء الأحوال الاجتماعية للمستأجر. كان البؤس يلم بالدور السادس ، والسابع ، وفي الغرف الرديئة تحت الأسطح، ومنها ما كان يتخذ مخازن للغلال وما إليها . ولقد خرج من هذه الغرف الوضيعة مشاهير من أمثال جروز، وفراجونار ، وفيرنيه Greuze, Fragonard, Vernet، و " ما كانوا يخجلون " من ذلك لأنهم صعدوا إلى الشهرة . ولكن هل كان غيرهم لا يخجلون من السكنى على هذا المستوى ؟ الإجابة واضحة . وإذا نحن انتقلنا إلى " ضاحية سان مارسيل " Saint-Marcel، وجدنا في عام ١٧٨٢ أسوأ أحوال البؤس ، فكثيرا ما كانت " الأسرة الكاملة تعيش في غرفة واحدة ...صفت فيها سراير مكسرة بلا ستائر ، وأواني المطبخ بجانب القصاري التي تقضى فيها الحاجة." وكانت نهاية كل الشهر تشهد عمليات تعزيل سريعة ، مخجلة، وكانت أصعبها على النفس ، وأكثرها نكراً عمليات التعزيل في رأس السنة عندما يشتد برد الشتاء . " يأتي شيال فيحمل على ظهره ، مستعيناً بالحبل والخطاطيف ، كل منقولات الساكن الفقير : السرير ، والمرتبة المحشوة بالقش ، والكراسي ، ومنضدة ، ودولاب ، وأواني المطبخ، وينزل بالعفش من الدور خامس ، ليصعد به في بيت آخر إلى الدور السادس [...] وهكذا فقد صدق من قال إن البيت الواحد في ضاحية سانت أونوريه Saint-Honoré {حول عام ١٧٨٢] كان يدر من المال أكثر مما تدر كل بيوت حي سان مارسيل مجتمعة ..." أضف إلى هذا أن الحي كان يتعرض على فترات منتظمة إلى الغرق في فيضان نهير البييفر Biévre " نهير آل جوبلان Gobelins" الذين استقروا على ساحل البييفر منذ القرن الخامس عشر ، واشتهروا بصناعة المنسوجات المصورة(٤٠). ومن الممكن أن نقول مثل هذا الكلا م عن البيوت المزنقة في المدن الصغيرة ، مثل بيوت مدينة بوفيه Beauvais المبتناة علىٰ هيئة تقفيصة خشبية ملئت فراغاتها بالطين والقش ، " بالبيت غرفتان في الدور الأرضي ، وغرفتان بالدور الذي يعلوه ، وكل غرفة من الغرف الأربع تسكنها عائلة " (٤١). أو انْظر إلى بيوت مدينة ديجون Dijon" التي بنيت متوارية إلى الخلف ، لم تكن تطل على الحارة إلا واجهاتها الضيقة " التي كانت تنتهي سطوحها الجمالونية بسن مدببة فتبدو " كطرطور المجانين "، وكانت كلها بيوتا مبنية على طريقة التقفيصة الخشبية التي ملئت فراغاتها بالطين والقش(٤٢).

وتقابلنا نفس الأوضاع في كل مكان نصل إليه، نجدها في مدن هولندة، بل في أمستردام نفسها، كان الفقراء يسكنون في البيوت المنخفضة، أو في الغرف الحقيرة، وكان نمط البيوت الفقيرة ، الصغيرة ، المنخفضة هو النمط السائد سيادة القاعدة على

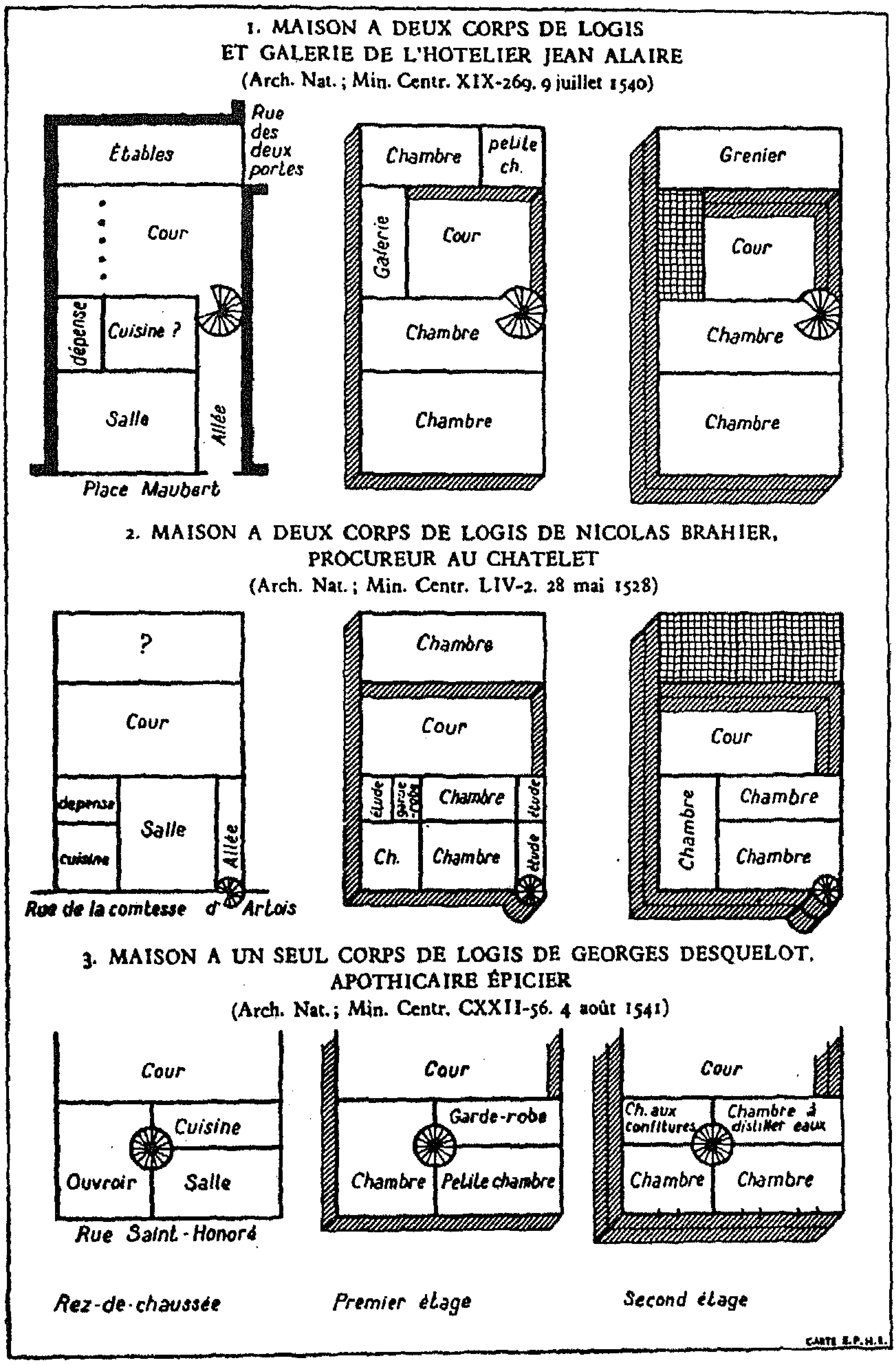

٢٢ ـ الشقق في باريس في القرن السادس عشر .

الاستثناء قبل أن يعم الثراء في القرن الثامن عشر، وكان البيت يتكون من غرفتين: " الغرفة الأمامية ، والغرفة الخلفية ". فلما تحسنت الأحوال أقبل أصحاب هذه البيوت الضيقة عليها ، فوسعوها من الداخل ، وجعلوها بيوتا " بورجوازية " ، ولكن واجهاتها ظلت ضيقة ، وأصبح المألوف أن تسكنها عائلة واحدة ، وبذلوا كل ما استطاعوا من جهد في توسيعها إلى أعلى ، وإلى الخلف ، وإلى أسفل تحت الأرض ، فخلقوا فيها ما سمي " بالغرف المعلقة " ، وأكثروا فيها من الإضافات الملتوية ، أوالمطوعة؛ وربطوا الغرف بعضها بالبعض بسلالم ضيقة تشبه السلم النقالي(٤٣) ، وإذا ألقينا نظرة على بيت الرسام رمبرانت Rembrandt وجدنا خلف حجرة المظاهر ، غرفة رئيسية ، وقد وضع السرير بها في نيش كالكهف أو القبة الرأسية تفترشه ساسكيا Saskia العليلة.

أما أبرز ألوان الترف الذي شهده القرن الثامن عشر فكان يتمثل في تحول أساسي في نظام سكنى الأغنياء ، وكان لهذا التحول نتائجه التي أثرت على الفقراء، ولكن هذه مسألة أخرى ، وتمثل هذا التحول في فصل المسكن الذي يأكل الإنسان فيه، وينام، ويربي الأطفال، ولا يكون على المرأة فيه من مهمة إلا أن تمارس دورها كسيدة البيت. ولما كانت الأيدى العاملة كثيرة كثرة تفوق الحاجة ، فقد ازدحمت البيوت بالخدم الذين كانوا يعملون، أو يتظاهرون بأنهم يعملون ، ويتصايحون ، ويصخبون، ويتقلبون بين الجبن، والخيانة ، وبين الخوف ، والفزع : فقد كانت كلمة واحدة ، أو اشتباه، أو سرقة تكفي لكي ينتهي الخادم إلى السجن ، بل ربما انتهى إلى المشنقة ... ومن ناحية أخرى البيت الذي يعمل فيه الإنسان ، أو المحل الذي يبيع فيه ، أو حتى المكتب الذي يقضي فيه الإنسان أجمل أيام حياته (٤٤). كان النظام الذي استقر حتى ذلك الحين لا يعرف هذا الفصل : كان للمعلم في بيته دكانه أو ورشته ؛ وكان يأوي فيه عماله ، وصبيته. وكان هذا النظام هو الذي أضفى على بيوت التجار، والحرفيين في باريس سمتها المميزة، كانت بيوتا ضيقة ، وعالية لأن الأرض كانت غالية الثمن ، وكان المحل يتخذ مكانه أسفل البيت ، ومن فوقه سكن المعلم ، ومن فوق سكن المعلم غرف العمال. وكان هذا النظام معروفاً في انجلترا ، حيث كان الفران في عام ١٦١٩ يأوي في بيته أولاده ، وخادماته ، وصبيته ، وكان هؤلاء معا هم " العائلة " the family التي كان المعلم الفران هو ربها أو كبيرها (٤٥). بل لقد كان وزراء الملك أنفسهم ، في عهد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر يتخذون مكاتبهم الوزارية في بيوتهم الخاصة .

تغير كل هذا في القرن الثامن عشر . وعلينا أن نصدق أن المدينة الكبيرة قد فرضت هذا التحول المنطقي ، فنحن نجده أيضا ـ وإن عجبنا لهذا أيما عجب ـ في كانتون بالصين (كما نجده في باريس وفي لندن): ففي القرن الثامن عشر كان التجار الصينيون المتعاملون مع الأوروبيين يفصلون الدكان عن البيت ، وكذلك كانت الحال في بكين، حيث

كان التجار الموسرون ينصرفون كل مساء عن حوانيتهم ، ويلمون بالحي الذي تقيم فيه زوجاتهم وعيالهم (٤٦).

ولكم نحس بالأسى ، ونحن في معرض تقييم الظاهرة على مستوى العالم عندما نتبين أننا نجهل أحوال البلاد الأجنبية ، فلا نجد تحت أيدينا بيانات كافية عنها، ولا يجد فضولنا ما يشفي غلته والصور والرسوم التخطيطية التي نرسمها للبيوت في البلدان الإسلامية والصين والهند ، توشك أن تكون ، بل هي بالفعل، صورة لا تأخذ الزمن في اعتبارها ، وكأنها كانت هكذا في كل العصور. حتى المدن في تلك البقاع لا نستطيع أن نرسم صورتها الحقيقية ، لأننا لا نحتكم على البيانات الكافية ، وللقاريء أن يرجع إلى ما سنقوله عن بكين في معرض حديثنا عن المدن ليجد مصداق ذلك . فلم يكن الرحالة الذين أتونا بالبيانات يتسمون بهذا النوع من الفضول المدقق الذي اتسم به مونتني Montaigne: كانوا يسارعون إلى المشاهد العظيمة التي يتلهف عليها القراء ، فلا يحفلون في القاهرة بوصف بيوت الأهلين ، بل يصفون الأهرامات ؛ ولا يهتمون بالشارع أو الحوانيت، ولا حتى ببيوت الأعيان في بكين أو دلهي ، وإنما يدفعهم فضولهم إلى المدينة الأمبراطورية المحرمة ، والأسوار الصفراء في الصين ، وقصر الخان الأعظم في الهند ...

الريف

يصطبغ بصبغة الحضر

ويتضح لنا بجلاء على مستوى العالم كله ، أن تقسيم البيوت إلى بيوت ريفية، وبيوت حضرية تقسيم فيه قطعية مبالغ فيها ، فهاتان الطائفتان من البيوت تلتقيان عندما يتحقق الثراء فتصبح البيوت الريفية على شاكلة البيوت في المدن . وإذا نحن غضضنا الطرف عن بعض مشروعات التجديد الشامل التي تناولت القرى الإجليزية في مجموعها على نحو استعراضي في القرنين السادس عشر، والسابع عشر(٤٧) فإن الطفرات التي نبصر بها في الأرياف كانت انعكاسا ، ونتيجة لترف المدينة . كانت المدينة إذا زاد فيها الثراء عن الحد ، وتكدس فيها المال، نقلته ، واستثمرته في الأرياف القريبة منها ، وكانت المدينة تسلك هذا السبيل أيضا، فكان الأغنياء يجدون في الأطيان ما يشدهم اليها ، لأن الغني إذا امتلك زماماً كبيراً حقق لنفسه إمكانية الحصول على لقب السيد النبيل، وكان عائد الزراعة مجزيا أو على الأقل مضمونا ، وكان للسيد صاحب الأرض كلمته في القوانين الريفية ، وكان ينعم في داره الريفية بحياة رغدة.

والعودة إلى الحقول سمة قوية من سمات الغرب . فلما جاء القرن السابع عشر، وزاد الثراء زيادة ضخمة أصبحت العودة إلى الريف هوسًا طاغيًا . ورأينا المدن تحيط بها عزب

النبلاء ، والبورجوازيين ، ترسم ما يشبه بقعة الزيت التي تزيد اتساعا بمرور الزمن. ولم تبق على حالها ، بفلاحيها، وتراثها القديم إلا المناطق المتطرفة ، التي كانت لبعدها، بمنأى عن هذه الشهوات العارمة التي استبدت بأهل المدن ، ودفعتهم إلى الريف. وكان صاحب الأطيان القادم من المدينة يسهر على أملاكه ، وعلى حقوقه، ودخله ، ويحضر من أرضه الزاد والزواد من قمح ونبيذ وطيور . وكان يلم بأطيانه فيقيم في العزبة من حين لحين ، وكثيراً ما كان يهيء لنفسه جزءاً من المباني ليستخدمها هو، وكان يحرص على جمع قطع الأرض معا ، وتطويقها بسياج(٤٨) .

هذه الظاهرة تفسر لنا ما شهدته باريس من عزب النبلاء التي أحاطت بها ، وما بني حولها من دور للسادة ، ومن بيوت ريفية . وتطالعنا نفس الظاهرة في الريف البروڤنسالي جنوب فرنسا حيث اتخذ الأغنياء لأنفسهم دورا في وسط الحقول . بل إننا نلاحظ أن الدور الفارهة ، التي ابتناها الأغنياء في الريف حول مدينة فلورنسا بإطاليا

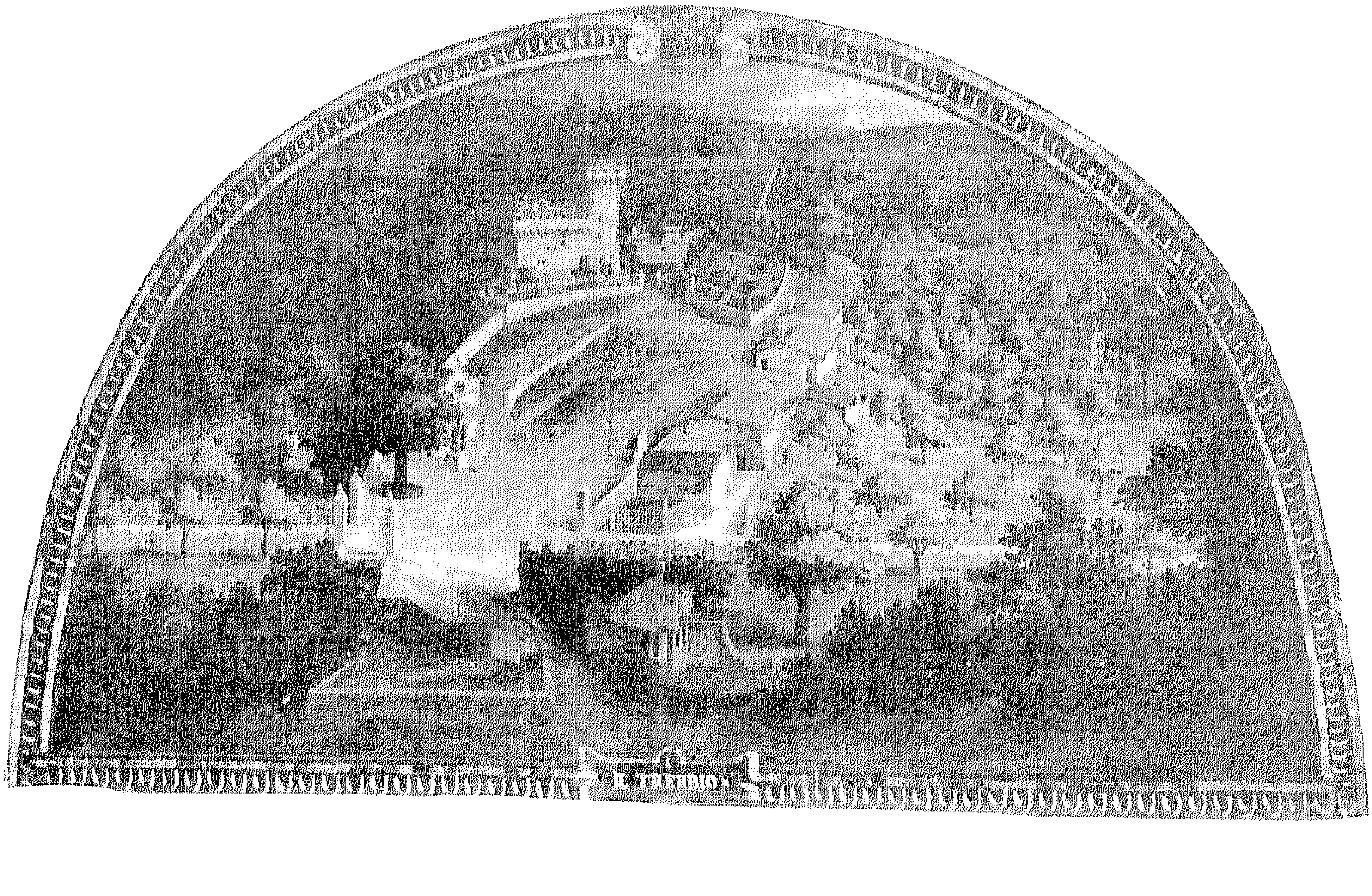

ڤيللا ميديتشي Villa Medici، التيربيو il Trebbio ، في وادي سيڤه Sieve ، وهو نهير يصب في نهر أرنو Arno، وللفيللا كنيستها الصغيرة ، وحدائقها ، ومبانيها الريفية والڤيللا مبنى حصين على أسلوب العصر الوسيط ، أعد ليحتمي به صاحبه عند اللزوم ، وكان ملكا ليوحنا زعيم العصابات السوداء Jean des Bandes Noires، المتوفي في عام ١٥٢٨، وهو أبو كوزيمو Cosimo غرندوق توسكانا الأول.

منذ القرن السادس عشر ، خلقت فيما وراء حدود المدينة فلورنسا أخرى ، كانت في مثل غنى فلورنسا الأصلية . من هذا القبيل تلك الدور الفارهة التي ابتنيت قرب مدينة البندقية في وادي برينتا Brenta ، وما زالت تجذب الأثرياء حتى أوشكت أن تجرد المدينة القديمة من جوهرها. وكان الأثرياء في القرن الثامن عشر يكرهون قصور المدينة، ويفضلون عليها الڤيللات الريفية، ومن الواضح أن هذا التفضيل كانت تحكمه المنفعة، لأننا نلاحظ الظاهرة نفسها في مشارف مدن عديدة : لشبونه ،راجوزه، ديجون، مارسيليا، بوردو ، ميلانو، نورنبرج ، كولونيا ، هامبورج ، لاهاي ، لندن . ولقد شهد الريف الإنجليزى قاطبة نشأة دور ريفية منيفة غالية في القرن الثامن عشر . وهناك مجموعة من الرسوم ترجع إلى عام ١٧٧٩ (٤٩) تشتمل على وصف ، ورسوم لـ ٨٤ من هذه " القصور " ، وبخاصة قصر دوق أورفورد Orford في هاوتن Houghton بنورفوك Norfolk ، وقد بدأ بناءه ولبول Walpole في عام ١٧٢٢ ، وانتهى البناء في عام ١٧٣٥ ، ويضم القصر قاعات فسيحة ، وأصنافاً من الرخام ، وأبهاء قدَّروها تقديراً. وما دمنا نقوم برحلات إلى الماضي في مواقع كثيرة ، لنرى شواهد تتصل بموضوعنا، فلا بد من أن نقوم برحلة إلى الڤيللات الريفية الكلاسيكية المحدثة التي نشأت في القرن الثامن عشر في المناطق المحيطة بنابلي حتى نصل إلى توري ديلجريكو Torre del Greco ؛ ومن باره Barra إلى سان چورچيو S.Gorgio؛ ومن كريمانو Cremano إلى بورتيتشي Portici قرب القصر الملكي ؛ ومن ريزينا Resina إلى توري أنونتسياتا Torre Annunziata . كلها ڤيللات ريفية مترفة ، كانت مقار صيفية رائعة بين سفوح بركان ڤيزوڤيو Vesuvio والبحر .

استعمرت المدينة الريف استعمارا نراه واضحا جليا في أوروبا، ولكنه يمثل ظاهرة عامة، يمكن أن نتتبعها في كل مكان ، انظر إلى الدور التي بناها أغنياء استانبول على ضفاف البسفور(٥٠) أو إلى تلك الدور التي بناها كبار البحارة في الجزائر على تلال الساحل قرب مدينة الجزائر ، وجعلوا لها حدائق كانت " أجمل حدائق الدنيا "(٥١). وإذا لم تكن لدينا صورة واضحة عن هذه الظاهرة في الشرق الأقصى ، فإنما يرجع ذلك إلى أن الوثائق المتاحة لنا غير كافية، فإذا لم يكن أعيان المدينة هناك قد اتخذوا لهم بالفعل دورا فارهة في الريف ، فربما كان السبب في ذلك أن الأمن لم يكن مستتبا في الريف . وهذا هو برناردينو دي ايسكالانتي Bernardino de Escalante يتحدث في كتابه الصادر في عام ١٥٧٧، معتمدا على أقوال رحالة آخرين، عن " بيوت الرفاهية " التي يمتلكها أغنياء الصينيين " بحدائقها، ومجموعات أشجارها المنسقة، وتقفيصات طيورها ، وبركها "(٥٢). وإليك السفير الموسكوفي الذي وصل في نوفمبر من عام ١٦٩٣ على مقربة من بكين ، وأعجب " بعدد كبير من الدور المرفهة ، أو القصور

الرائعة ، التي يمتلكها الماندارين - وهم الكبراء وأصحاب الحل والعقد - وسكان العاصمة [...] وقد شقت أمام كل دار قناة عريضة من فوقها كوبري من الحجر يوصل إليها(٥٣). وكان اتخاذ هذه الدور الريفية تقليداً قديماً ، والأدب الصيني يمتدح، منذ القرن الحادي عشر، إن لم يكن قبل ذلك ، مباهج هذه الدور ، ومتعها وسط المياه الدافقة، وكانت دائما قرب بركة اصطناعية، تزدان بزهور اللوتس " الحمراء والقرمزية ". وكانوا ينعمون في هذه الدور بمطالعة الكتب التي ضموها في مكتبات ، كما كانوا يتمتعون بمشاهدة البجع " أو طيور الكراكي عندما تهاجم السمك " ، أو بالنظر " بعين الخيانة إلى الأرانب عندما تخرج" من جحورها فيرسل فيها سهامه وما زالت على" فوهة الجحر، فهل على وجه البسيطة من المتع ما يفوق هذه؟ (٥٤).

البيوت
من الداخل

إذا كان النظر إلى البيوت من الخارج هو المشهد الأول ؛ فالنظر إلى البيوت من الداخل هو المشهد الثاني . وليس في مقدور إنسان أن يقول إن المشهد الثاني أبسط من المشهد الأول ، ذلك أن كل مشكلات التصنيف ، والتفسير ، والنظرة الشاملة على مستوى العالم أجمع مشكلات نلتقي بها في مجال دراسة البيوت من داخلها ، كما التقينا بها من قبل في مجال دراسة البيوت من خارجها . والبحث هنا عن الاتجاهات التي تبقى على حالها ، والاتجاهات التي تتحور شيئاً فشيئاً ، يعنى رسم الخطوط العريضة للدراسة في مجموعها ، وهاتان النوعيتان من الاتجاهات تنطبعان بديهيا بطابع المنطقة . والتأثيث الداخلي لا يتغير في بيوت الفقراء أيا كانوا ، ولا يتغير في حالة الحضارات المحرومة من الحركة ، المنغلقة على نفسها: فهي حضارات فقيرة أو دفعت إلى الفقر. الغرب وحده هو الذي ينطبع بطابع التغير المستمر، الذي لم ينقطع . ذلك هو الامتياز الذي يحظى به السادة .

الفقراء
بلا أثاث

القاعدة الأولى، قاعدة تجرد الفقراء من كل شيء ، قاعدة بديهية، فإذا انطبقت على أكثر الحضارات ثراء ، وقدرة على التغير السريع، حضارة أوروبا، فإنها تنطبق بالتالي على الحضارات الأخرى. والفقراء في الريف ، مثلهم مثل الفقراء في المدن، لا يمتلكون شيئاً تقريباً، ليس لديهم أثاث تقريبًا، على الأقل كانت هذه هي الحال. قبل القرن الثامن عشر الذي بدأ فيه انتشار ترف أولي متمثلا في الكراسي ـ وكان الناس من قبل يقنعون بالجلوس على دكك(٥٥) ـ وفي المراتب المحشوة بالصوف، والمراتب المحشوة بالريش، كذلك شهد القرن الثامن عشر من هذا الترف الأولي، في بعض المناطق، الأثاث الريفي الفاخر المدهون ، أو المزين بالأويما التي اشتغلوها بصبر طويل . ولكن هذه الأشياء المترفة كانت استثناء من القاعدة . ولدينا قوائم جرد مقتنيات المتوفين، وهي مستندات صادقة موثوقة ، تؤكد هذه الحقيقة مائة مرة لا مرة واحدة . ولننظر إلى منطقة بورجونديا في فرنسا في القرن الثامن عشر ـ اذا غضضنا الطرف عن بعض الفلاحين الموسرين – وكانوا قلة ـ نجد أن منقولات العامل اليدوي ، والفلاح الصغير كانت هي هي متساوية في الفقر: " خطاف لتعليق الغلاية ، وغلاية ماء توضع في بيت النار ، وحلة، وقلايات، ومعجن، ... وصندوق بقفل ومفتاح ، وسرير خشب بأربعة عمدان ، ومخدة من الريش، ولحاف ، وخددية ، وكوفرتة أحيانا ؛ وبنطلون من الصوف الرديء يصل إلى ما تحت

الركبة ، وصديري ، ودزلك - وهو غطاء للساق والحذاء ؛ وبعض الأدوات مثل الجاروف والفأس " . أما قبل القرن الثامن عشر فكانت هذه القوائم تقتصر على بعض الملابس البالية، وكرسي تابوريه بلا ظهر ، ومنضدة ، ودكة ، وملة سرير ، ومراتب من القش. ولدينا محاضر وجدناها في بورجونديا ، ترجع إلى القرن السادس عشر ، والسابع عشر، والثامن عشر مليئة " بإشارات إلى أناس ينامون على القش ... ليس لديهم سرير أو أثاث " لا يفصلهم عن " الخنازير إلا ساتر من البوص "(٥٦). وهل نصدق عيوننا عندما ننظر إلى لوحة من رسم أدريان براور Adrien Brouwer (١٦٠٥-١٦٣٨) فنجد أربعة

عشاء روسي . في هذا الكوخ القروي الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر لا نكاد نرى شيئا من أثاث، وقد علقوا مهد الرضيع في حبل يتدلى من السقف. رسم بالحفر من أعمال چان باتيست لوبرانس Le Prince (١٧٣٤-١٧٨١) . متحف الرسوم بالمكتبة القومية في باريس .

من الفلاحين يغنون معاً كالجوقة في غرفة رديئة الأثاث ، فيها : عدد من الكراسي التابوريه بدون ظهر ، ودكة ، وبرميل يقوم مقام المنضدة ، وضع فوقه رغيف من الخبز بجوار خرقة بالية ، وَدنٌ . وليس استخدام البرميل على هذا النحو مصادفة ، فقد كانوا في ذلك العصر ينشرون البرميل القديم إلى نصفين يستخدمان ككرسيين بمساند، وكانت البراميل القديمة تستخدم لأغراض كثيرة في حانات القرية التي كان الرسامون الهولنديون في القرن السابع عشر يحبون رسمها . ونرى في لوحة من رسم ي. ستين J.Steen لوحاً من الخشب موضوعا على برميل فأصبح قمطرا لصبي من الفلاحين يتعلم الكتابة، وأمه تقف بجواره تعطيه الدرس . ولكن هذا الصبي الذي يتخذ من البرميل القديم قمطراً لا يدخل في عداد الفقراء فقرا مدقعا ، فهو يتعلم القراءة والكتابة ، وهو ما لم يكن متاحا للكثيرين . وهناك نص قديم من القرن الثالث عشر ترسم بعض كلماته لوحة حقيقية: ففي منطقة جاسكونيا الفرنسية " وإن كانت غنية بالخبز الأبيض والنبيذ الأحمر الممتاز "، ترى الفلاحين " يجلسون حول النار ، وقد اعتادوا أن يتناولوا الطعام دون مائدة ، وأن يشربوا من كوز واحد " (٥٧).

كل هذا منطقي : فالفقر موجود في كل مكان . ومن الأمور التي لها دلالتها هذا المرسوم الذي صدر في فرنسا في عام ١٦٦٩ ينص على هدم " البيوت التي يبنيها المتشردون ، والحثالة على فروع الشجر " على أطراف الغابات(٥٤). هذه الأكواخ تذكرنا بالأكواخ التي بناها بعض الإنجليز الذين فروا في عام ١٦٦٦ من طاعون لندن إلى الغابات وبنوا لهم فيها أكواخا من فروع الشجر. كذلك كان الوضع بالنسبة للأثاث في المدن وضعا محزنا: في باريس ، وفي ضاحية سان مارسيل، وحتى في ضاحية سانت أنطوان لم يكن يعرف طعم الحياة المريحة إلا بعض النجارين وحدهم دون ما سواهم؛ أما في مانس Mans وبوفيه Beauvais فكان عمال النسيج يعيشون في فقر مدقع. وأما في بيسكارا Pescara الواقعة على البحر الأدرياتيكي، وهي مدينة صغيرة كان يسكنها نحو ألف نسمة ، أجري حصر في عام ١٥٦٤ بين أن ثلاثة أرباع العائلات القادمة من الجبال المجاورة أو من البلقان لاسكن لها ، بل تأوي إلى أوكار قذرة مقيتة (سبقت ظهور الأكواخ الصفيح) ، وعلى الرغم من أن المدينة كانت صغيرة، فقد كان لها قلعتها، وحاميتها، وأسواقها ، ومرفأها ، وملاحاتها ، وكانت تتخذ مكانها في ذلك الجزء من إيطاليا الذي شارك في القرن السادس عشر في مسيرة العظمة والثراء التي سارتها اسبانيا عندما اجتازت المحيط الأطلسي، وجلبت المعادن الثمينة من أمريكا(٦٠). أما جنوة التي كانت تتمتع بثراء مفرط فقد كان الفقراء ، الذين لا مأوى لهم، يبيعون أنفسهم في الشتاء ليعملوا تطوعاً ، مثل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، على السفن الجاليرية الكثيرة المجاديف (٦١). فإذا نظرنا إلى البندقية وجدنا البائسين

يقيمون ، ومعهم عائلاتهم على متن سفن بشعة قرب أرصفة الميناء ، أو تحت الكباري المقامة فوق القنوات، وكانوا في هذه الحياة البائسة إخوة للحرفيين الصينيين الذين كانوا يعيشون على سفنهم ، المسماة بالجونكات والسمبانيات ، على صفحة الأنهار في المدن، يروحون ويغدون، في اتجاه المنبع حينا ، وفي اتجاه المصب حينا آخر، بحثا عن عمل، ومعهم عل سفنهم أسرهم ، وحيواناتهم ، وطيورهم الداجنة .

الحضارات التقليدية
لا تغير الشكل الداخلي لبيوتها

القاعدة الثانية: الحضارات التقليدية تظل متشبثة بالشكل الداخلي المألوف للبيت. ونحن إذا غضضنا الطرف عن بعض التنويعات التي دخلت على الأشياء المصنوعة من البورسيلين أو البرونز ، وتلك التي تطالعنا في اللوحات ، حق لنا إن نقول أن الشكل الداخلي للبيت الصيني في القرن الخامس عشر لايختلف عنه في القرن الثامن عشر؛ كذلك الحال بالنسبة لليابان حيث نجد أن البيت الياباني في القرن السادس عشر هو البيت الياباني في القرن السابع عشر، وهو البيت الياباني اليوم ، اللهم الرسوم الملونة المطبوعة بالحفر التي لم تبدأ في تزيين البيت الياباني إلا في القرن الثامن عشر. وهذه هي الحال في الهند كذلك . والشكل الداخلي للبيت الإسلامي في الماضي يمكن تصوره اعتماداً على أحدث الصور.

والحضارات غير الأوروبية ، باستثناء الحضارة الصينية ، فقيرة في الأثاث . فليس هناك بصفة عامة كراسي ومناضد في الهند ، وكلمة ميسي méçwi في اللغة التاميلية ، والتي تعني منضدة مأخوذة من البرتغالية ميسا mesa. وليست هناك كراسي في أفريقيا السوداء ، وكان الفنانون في بينين يقنعون بتقليد الكرسي الأوروبي. كذلك ليست هناك كراسي أو مناضد مرتفعة في بلدان العالم الإسلامي أو في البلدان التي تأثرت بها . ونقرأ في كتاب نشره بيريث دي تشينتشون Perez de Chinchon ضد المواركة أو الموريسكيين في عام ١٥٣٢ عبارة غريبة يبرهن بها على التفوق، يقول : "نحن المسيحيين، نجلس على ارتفاع لائق ، ولا نجلس على الأرض كالحيوانات" .(٦٢). وإذا نظرنا إلى المناطق المسلمة من يوغوسلافيا الحالية وجدنا في مدينة موستار Mostar المنضدة المنخفضة، الطبلية ، يتحلق حولها الضيوف، يجلسون على شلت ، وظلت هذه هي القاعدة إلى عشرين سنة مضت ، ولا تزال هذه الطبلية مستخدمة إلى يومنا هذا في بعض العائلات المتمسكة بالتقاليد في موستار ، وفي العديد من القرى . ونقرأ في عام ١٦٩٩ أن العليمين بعادات الروس أوصوا التجار

الهولنديين بأن يوردوا إلى موسكوفيا ورقا من نوع شديد المتانة لأن الروس ليس لديهم مناضد ، وأنهم لهذا كثيرا ما يسندون الورق على حجورهم عندما يكتبون ، ومن هنا كان من الضروري أن يكون الورق شديد المتانة(٦٤).

والشيء المؤكد أن الغرب لم يكن متفوقا على الحضارات الأخرى في كل المجالات. فقد أخذت هذه الحضارات الأخرى في شئون السكن ، والأثاث بحلول ذكية مبتكرة، كثيراً ما كانت أقل تكلفة من حلوله. تفوقت هذه الحضارات على الغرب في أمور منها: الحمامات في العالم الإسلامي ، وكان هو قد ورثها عن الرومان ؛ أما اليابان فقد تفوقت في مجال التنسيق الداخلي للبيت ، ونظافته ، وأبدعت في ترتيبه أيما إبداع، حتى في البيوت العادية .

وعندما سلك عثمان أغا سبيله عائداً إلى الوطن بعد أن تحرر من أسر طويل عسير في ربيع عام ١٦٩٩ ، وكان الألمان قد أسروه قبل ذلك بعشرة أعوام ، وأنزلوه منزلة العبيد، في غمار معركة ليبوڤا Lipova ، مر بمدينة بوده Bude أو Buda (وهي التي ضمت إلى پست مكونة مدينة بوداپست ، وكان المسيحيون قد استعادوها من العثمانيين في عام ١٦٨٦) ، سعد كل السعادة حينما استطاع أن يذهب " إلى الحمامات الرائعة في المدينة " (٦٥) . وكانت تلك الحمامات هي الحمامات التركية التي أقامها العثمانيون على ضفة نهرالدانوب أسفل المدينة الحصينة ، وكان كل إنسان إبان الحكم العثماني يستحم فيها بدون مقابل .

أما رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero (٦٦) الذي رأى البيوت اليابانية في عام ١٦٠٩ ، فقال إن البيوت اليابانية ليس لها ما للبيوت الأسبانية من واجهات جميلة تطل على الشارع ، ولكنها تفوق البيوت الأسبانية في جمال الشكل الداخلي. حتى في أكثر بيوت اليابانيين تواضعاً، كان كل شيء يتخذ منذ الصباح هيئة منسقة، وكأنهم كانوا يحرصون على أن يبعدوا عن نظرات الفضوليين كلَّ ما لا يحبون أن يطلع عليه أحد، مثل الشلت التي ينامون عليها ؛ ويحكي عن الحصيرة المصنوعة من القش التي لا يخلو منها مكان ، ويقول إن اليابانيين يقسمون المسكن باستخدام حواجز يتخللها الضوء تجعل المكان منيرا ، وأن كل شيء في البيت الياباني مرتب منظم .

ولكن هذه البلدان التي نجد فيها هذه الألوان من التفوق ، تتخلف عن أوروبا في مجالات أخرى . فلستَ بواجدٍ تدفئة في بيوتها ، إنما يعتمد الناس هناك بصفة أساسية على الشمس ، يكلون إليها أمر التدفئة مباشرة ، كما هي الحال في المناطق الأوروبية المطلة على البحر المتوسط . ولكن الشمس كثيرا ما لا تحقق التدفئة المرجوة . ولا نجد

في أي مكان من العالم الإسلامي التركي في القرون التي نتناولها بالدراسة في هذا الكتاب مدفأة ثابتة مبنية ، باستثناء المدفأة المنيفة المقامة في سراى السلطان في استانبول. والحل الوحيد الذي يلجأ اليه الناس عندما يشتد البرد هو المنقد أو الدفاية brasero أو brasier إذا أتيح لهم الفحم النباتي أو الجمر. وفي يوغوسلافيا الحالية نجد أن البيوت الإسلامية تخلو من المدافيء الثابتة ، أما الفرس فلديهم مدافيء مبنية في كل الحجرات في بيوت الأغنياء ، ولكنهم يبنون المدفأة ضيقة ، ارتفاعها أكثر من عرضها ، " لأن الفرس في سعيهم إلى تحاشي الدخان ، وحرصاً منهم على الاقتصاد في الخشب الغالي غلوا شديدا ، يحرقونه قائماً في المدفأة لا راقدا فيها(٦٧) ". ولا توجد مدافيء مبنية في الهند ، ولا في الجزر المحيطية (وما كانت هناك ضرورة دائمة تدعو إليها). ولا توجد مدافيء ثابتة مبنية في البيوت اليابانية على الرغم من أن البرد هناك قارس : أما الدخان المتصاعد من فرن المطبخ " فليس له من مخرج إلا فتحة متخذة في السقف " ، أما المناقد فلم تكن تدفيء الغرف إلا بشق الأنفس، خاصة وأن الغرف لم تكن محكمة القفل (٦٨) ، كذلك كانوا يحرصون على الاستحمام بالماء الساخن الذي تقترب درجة حرارته من الغليان ، في أحواض لا يخلو منها أي بيت، وهم يتخذون من الخشب وقوداً ، والاستحمام على هذا النحو يدفيء الجسم ، وينظفه في آن واحد .

فإذا نظرنا إلى الربوع الشمالية من الصين حيث يشتد البرد على نحو ما يشتد في سيبريا ، وجدنا الصينيين هناك يدفئون القاعة " بأن يوقدوا نارا في منقد صغير يضعونه عند مقدم المصطبة القائمة في مؤخر القاعة حيث ينامون . أما أغنياء بكين فالدفايات لديهم أكبر حجماً، وهم يسلكونها تحت الأرضية ، ويشعلون النار فيها من خارج البيت " ، فهي نوع من التدفئة المركزية . أما البيوت الفقيرة فيقنع أهلها في كثير من الأحيان بالمنقد البدائي ؛ " وهو عبارة عن إناء فيه الفحم المتقد " (٦٩). وأهل فارس يستخدمون منقدا مشابها على الرغم من البرد الذي كثيرا ما يشتد هناك (٧٠).

ومجمل القول أن العالم خارج نطاق أوروبا لا يأخذ بالتدفئة ، أو لا يأخذ إلا بالقليل منها . كذلك لا نجد أثاثا أو لانجد إلا القليل من الأثاث . نجد في بلدان العالم الإسلامي بعض الصناديق الثمينة المصنوعة من خشب الأرز، التي توضع فيها الملابس، والمنسوجات ، وما بالبيت من أشياء قيمة ؛ كذلك قد يستخدم الناس هناك منضدة منخفضة ، طبلية ، وصينية كبيرة من النحاس ، يضعونها على قاعدة من الخشب. وهناك على الأقل في البيوت التركية ، والفارسية نيشات محفورة في الحيطان تلعب دور

الدواليب. ولكن " ليس هناك سراير، ولا كراسي مثل تلك التي لدينا، ولا مرايا، ولا مناضد، ولا ترابيزات وسط، ولا كومودينات، ولا لوحات " . ليس عندهم سوى مراتب يمدونها في الليل، ويرفعونها في النهار، وشلت كثيرة، وسجاجيد رائعة من الصوف ألوانها قوية، ربما وضعوها بعضها فوق البعض الآخر، وقد أولعت بها أوروبا منذ أقدم العصور . وما هذه المنقولات إلا منقولات البدو الرحل .

أما التحف التي نراها في متاحف استانبول شاهدة على الثراء فهي منسوجات ثمينة، غالبا ما تكون موشاة بزهورالتوليب المحورة أسلوبياً ؛ وكئوس عليها زخارف حلزونية (يسمونها عيون البلبل)؛ وملاعق بديعة من الكريستال الحجري، ومن العاج، ومن خشب الفلفل، مكفتة بالنحاس، والفضة، والصدف، والمرجان ؛ وبورسلين من قبرص أو على الأحرى من الصين، ومجوهرات باذخة، وكرسيين أو ثلاثة من كراسي العرش، رائعة روعة خارقة للمألوف، مكفتة تكفيتا ثريا بالياقوت، والزمرد، والفيروز، واللؤلؤ. وهذا هو نفس الانطباع الذي نخرج به عندما نستعرض الحصر الدقيق لكنوز ذلك الأمير الكردي التي استولى عليها الجيش التركي في يولية من عام ١٦٥٥، وباعها بالمزاد: صناديق من العاج، والأبنوس، وخشب السرو، وعلب مكفتة بالجواهر الخلابة، وزجاجات ماء الورد تتلألأ بالألماس، وأوان لتبخير العطور، كتب مطبوعة في الغرب، مصاحف مرصعة بالأحجار الكريمة السخية، أعمال من كتابة مشاهير الخطاطين، شمعدانات من الفضة، بورسلين من الصين، كئوس من العقيق، صحون، وصحاف من إزنيك Iznik، وأسلحة كأنها من عالم ألف ليلة وليلة، وسيوف رائعة لها أسلحة من الصلب، وأغمدة مرصعة بالجواهر، وسبائك من الفضة، وسروج موشاة بالذهب، ومئات من فراء النمور، وما لا يحصى من السجاد ...(٧٢).

نمطان من الأثاث

في الصين

لم تحدث تغيرات شديدة في الصين في أثناء القرون التي تشغلنا، ولكن الصين اتسمت بسمات معقدة كامنة ميزتها عن كل البلاد غير الأوروبية، فهي حالة استثنائية بما كان فيها من أثاث كثير، دقيق الصنعة، صنع من أخشاب قيمة، كثيرا ما كانوا يجلبونها من بعيد، وطليت بأنواع من اللاكيه، ومنها دواليب، ورفوف صممت بطريقة رائعة، ومناضد عالية ومنخفضة، وكراسي، وأرائك، وكراسي تابوريه بدون ظهر،

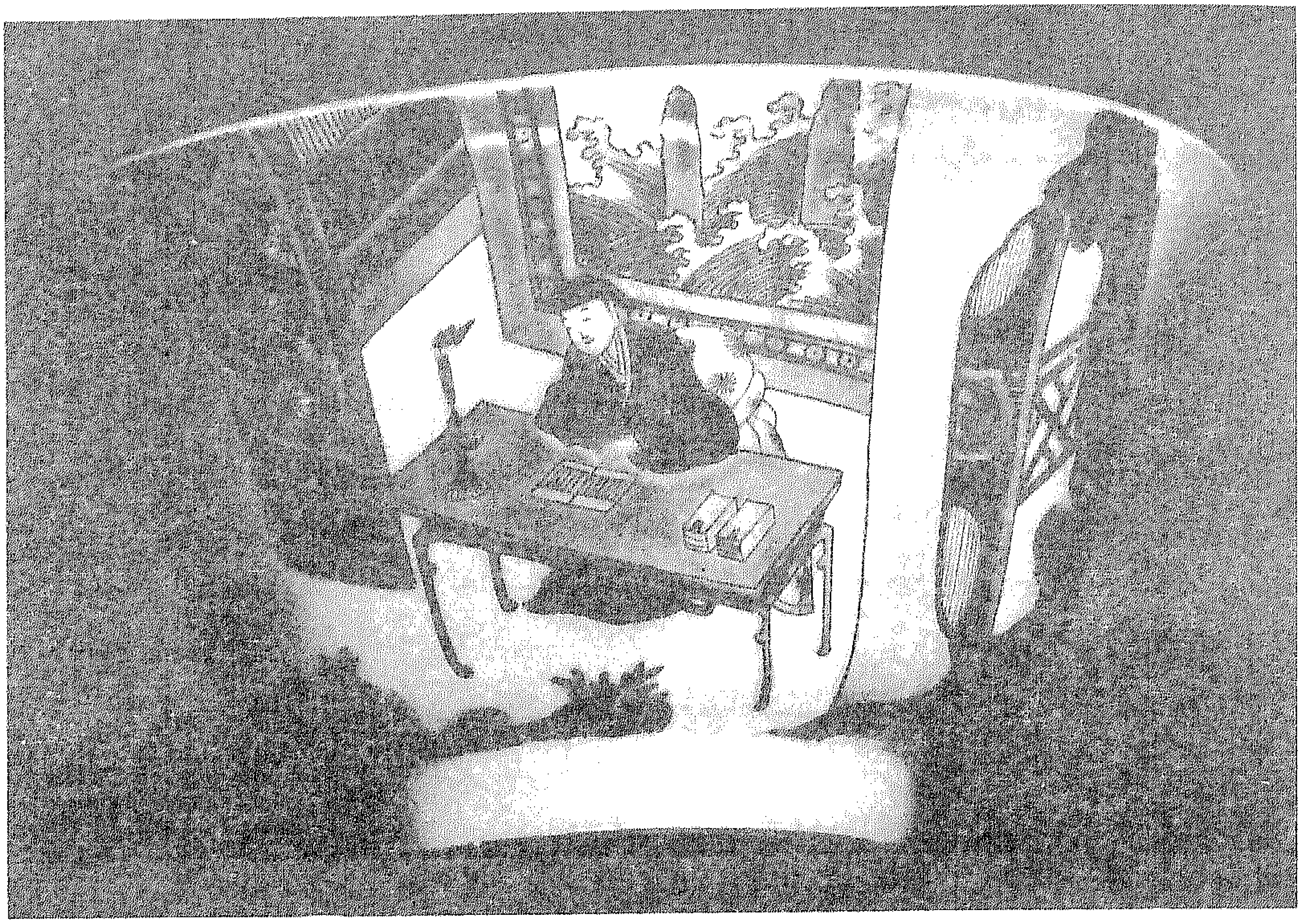

سلطانيةمن الصين ترجع إلى القرن الثامن عشر عليها رسم يمثل أديباً يجلس على كرسي في وطاق ويطالع . ويحتمل أن يكون هذا الرسم مشهداً مأخوذاً من رواية ما . (متحف جيميه Guimet)

وسراير غالبا ما تحوطها الستائر ، بينها وبين السراير القديمة في أوروبا شيء من الشبه. وتكمن أصالة الأثاث الصيني (وهي أصالة تعكس أسلوب حياة خاص) في استخدام المنضدة ومعها الكرسي أو الكرسي التابوريه (بدون ظهر أو مساند) أو الأريكة. وعلينا ألا نغفل عن أن هذا الأثاث لم يكن أثاث الصين البدائية ، فعندما استعارت اليابان كل مواد الحضارة الصينية التي اتصلت بها في زمان آل تانج Tang (من عام ٦١٨ إلى عام ٩٠٧) ، ونقلتها نقلا دقيقا بالغ الدقة ، لم تجد فيها كراسي أو مناضد عالية . والحق أن الأثاث الياباني الحالي يطابق تمام المطابقة الأثاث الذي كان في الصين في أزمانها العتيقة : المناضد المنخفضة ، مساند للذراعين يرتاح إليها من يركع على ركبتيه ، الحصير (حصير التاتامي tatami الياباني) الذي يفرش على مصاطب كانت متفاوتة الارتفاع ، أثاث منخفض توضع فيه الأشياء (رفوف ، وأطقم من الصناديق) ، شلت ، وكلها أشياء صنعت لتناسب أسلوب حياة قريب من سطح الأرض.

وربما دخل الكرسي الصين منذ القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد ، ولكنه احتاج إلى وقت طويل جدا لكي يصبح قطعة من الأثاث الدارج . أول صورة لكرسي وصلت إلينا ترجع إلى الفترة من عام ٥٣٥ إلى عام ٥٤٠ وهي لوحة حجرية منحوتة ، محفوظة في متحف كانساس سيتي في الولايات المتحدة الأمريكية . ويبدو أن أصله أوروبي، أيا كانت الطرق المطولة التي سلكها لكي يصل إلى الصين ، إما عن طريق فارس والهند أو عن طريق شمال الصين . يضاف إلى ذلك أن الاسم الصيني البدائي للكرسي ، وهو الاسم الذي لا يزال مستعملا إلى اليوم يعني حرفيا : " مرقد البرابرة " . ومن المحتمل أن يكون الكرسي قد استخدم كمقعد شرفي ، في المجال الديني أو الدنيوي ، بل لقد ظل الكرسي إلى الماضي القريب قاصرا على ضيوف الشرف، وكبار السن، بينما كان الكرسي التابوريه الذي ليس له ظهر أكثر شيوعاً ، كما كانت الحال في أوروبا في العصر الوسيط .

ولكن الشيء الهام الذي نتبينه هنا هو أن وضع الجلوس الذي يتطلبه الكرسي ذو الظهر أوالكرسي التابوريه ينضوي على أسلوب حياة خاص ، على مجموعة من الحركات تختلف عن الحركات التي كانت مألوفة في الصين ، وعن الحركات التي كانت مألوفة في بلاد آسيا الأخرى ، بل وكل البلاد غير الأوروبية : وإذا كان الكرسي قد انتقل إلى الصين عن طريق بلاد فارس ، والهند فهو لم يلق انتشاراً شعبياً في هذه البلاد التي مر بها. ونحن نرى على رسوم لفافة صينية ترجع إلى القرن الثالث عشر ، تسلك بنا طريقا في الريف، ثم في مدينة صينية ، أن الحانات الريفية ، شأنها شأن الحوانيت الحضرية ، كانت فيها مناضد مرتفعة ، صفت إليها أرائك ، ومقاعد مختلفة .

كان اقتناء الصين للكرسي يعنى اتخاذها أسلوب حياة جديد اتسم بالغرابة ، ولهذا فهو لم يقض على أنماط الحياة القديمة القائمة. وكانت النتيجة أن الصين أصبح فيها نمطان من الأثاث ، الأثاث المنخفض، والأثاث المرتفع . وهذه هي القاعة الأساسية الواسعة التي يتميز بها البيت الصيني في ربوع شمال الصين حيث كلها أصبحت مزدوجة التأثيث: فيها على المستوى المنخفض الكرسي العادي، وكرسي التابوريه ، والأريكة، ومعها المنضدة العالية ، والدولاب العادي الذي غالبا ما تكون فيه بعض الأدراج (ولم تعرف الصين قط الشيفونيره أو الكومودينو، وهما من الموبيليات التي تتكون من أدراج فقط، وإذا كانت عرفتهما ففي وقت متأخر، وبصورة متفرقة، كنوع من تقليد أوروبا). أما الأثاث الذي على النمط القديم، أو النمط الياباني ، فكان يوضع على المستوى المرتفع، أي فوق المصطبة العريضة المبنية بالطوب بارتفاع الأريكة، وهكذا كان يحتل مكانا أعلى من منسوب بقية القاعة ، وكانت هذه المصطبة تسمى الكانج kang ، وكانت تدفأ بمواسير من تحتها ، وتغطى بالحصير أو اللباد، وتصف عليها الشلت، والسجاجيد

بألوانها الفاقعة، وتوضع عليها المنضدة المنخفضة الطبلية ، والدواليب، والصناديق، وكلها قصيرة منخفضة. كان الصينيون ينامون على هذه المصطبة في الشتاء، في مأمن من البرد، ويستقبلون عليها الضيوف ، ويشربون معهم الشاي جلوسا على الأرض، وكانت النساء تجلس عليها لتمارس أعمال الحياكة ، أو صناعة السجاد . وكان الصيني يخلع حذاءه قبل أن يرتقي المصطبة، ثم يلبس حذاء برقبة ، مصنوعاً من القماش، له نعل أبيض مبطن كانوا يحرصون على أن يكون نظيفا نظافة لا ران عليها . أما في الربوع الجنوبية من الصين فلم تكن هناك حاجة إلى التدفئة، ولكن الصينيين هناك كانوا يتمسكون بنمطي الأثاث ، المنخفض، والمرتفع . وعندما وصف الأب دي لاس كورتيس مشاهداته في كانتون بالصين في مطلع القرن السابع عشر، وصف الصينيين يجلسون على كراسيهم إلى منضدة مربعة يتناولون طعامهم . أما كرسي الهودج الذي رآه هناك ووصفه، فلا يختلف ـ على الرغم من خفته ـ عن كرسي الهودج الذي عرف في أوروبا.

تطرقنا في التلخيص السريع السابق إلى مشكلات هذه الطفرة المثيرة التي شهدها

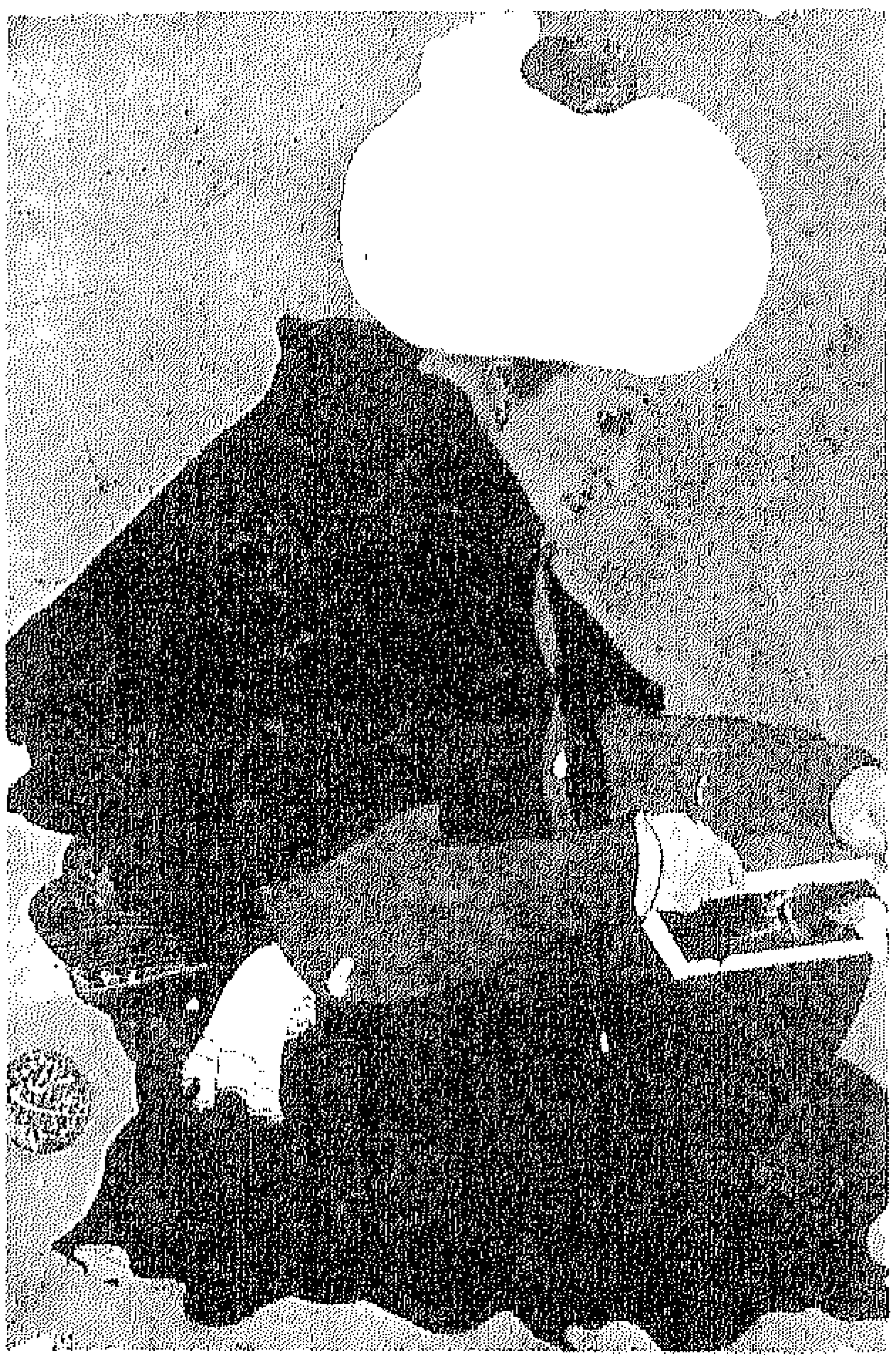

هناك طريقتان للجلوس . في الصورة التي فوق هذا الكلام رسام المنمنمات يجلس على الأرض . والصورة نسخة فارسية منقولة عن صورة تمثل رجلا تركيا منسوبة إلى الرسام چينتيلي بيلليني (١٤٢٤ ـ ١٥٠٧). (مجموعة ج. دوسيه J.Doucet)

والطريقة الأخرى للجلوس هي الجلوس على الكرسي .وفوق هذا الكلام صورة الكاتب من رسم شاردان Chardin القرن الثامن عشر . (متحف الرسومات بالمكتبة القومية الفرنسية) .

مجال الأثاث في الصين ، دون أن نسلك إلى حلها من سبيل . ولو ذهب ذاهب إلى أن هذه الطفرة لم تكن إلا مغامرة الكرسي ، والنتائج التي ترتبت على إدخاله ، لكان ذلك تفسيراً من هذه التفسيرات المسرفة في التبسيط التي تمتليء بها كتب تاريخ التقنيات التي ظهرت في الماضي . والرأي عندنا أن الحقيقة تتسم دائما بالتشعب ، وهذا موضوع سنعود إليه بصفة عامة في الباب التالي من كتابنا . والواقع أن الصين (ولنقل دون تحديد دقيق : في الوقت السابق على القرن الثالث عشر) شهدت تطوراً واسع النطاق في حياة الناس ، انفصل فيه نمط الحياة الجالسة على الكرسي عن نمط الحياة القاعدة على الأرض ، كان نمط القعود على الأرض هو النمط التقليدى المألوف ، أما الجلوس على الكرسي فكان نمط جلوس الامبراطور على العرش ، والكبراء أو الماندارين، كذلك كانت المدارس مؤثثة بالدكك ، والكراسي ... كل هذا يحتاج إلى تفسيرات، وبحوث تتجاوز نطاق كتابنا . ولكن هناك شيء له دلالته ، وهو أن هناك على مستوى العالم كله نمطين من السلوك في الحياة اليومية، القعود على الأرض . وهو نمط منتشر في ربوع

العالم كله باستثناء الغرب . والجلوس على الكرسي في الغرب ، أما الصين وحدها فكان فيها النمطان متجاورين معا . والبحث عن أصول هذا السلوك في أوروبا يصل بنا إلى العصور القديمة ، وإلى الجذور الأولى للحضارة الغربية .

ونقدم الآن بعض الصور تقوم مقام العرض الموجز . العربة التي تجرها الثيران في اليابان لم يكن فيها بطبيعة الحال مقعد للراكب . في صورة فارسية منمنمة نرى أميراً يتربع على عرشه العريض بمعنى الكلمة ، يقعد عليه متربعا. وبالأمس كان الحوذي المصري في القاهرة يقعد على مقعده بالعربة ، ويضع أمامه حزمة دريس، ويضم ساقيه مقعيا بدلا من أن يمدهما. وكأنما كان الناس يختلفون بعضهم عن البعض الآخر ببيولوجيا فيما يتعلق بطريقة الجلوس(٧٣): فالأوروبي لا يستطيع أن يرتاح إذا جثا على كعبيه، على الطريقة اليابانية ، أو إذا قعد متربعا على النحو المألوف في بلدان الإسلام وتركيا، أو إذا قعى مثلما يفعل الهنود في كثير من الأحيان ، تلك جلسة مستحيلة، أو على الأقل صعبة على الأوروبيين الذين يجلسون على الكراسي بطريقة يدهش لها اليابانيون ، ويعبرون عنها بتعبير لطيف هو : " يدلي رجليه ". ولننظر إلى هذا الرحالة، جيميللي كاريري Gemelli Careri ، تقله عربة تركية، أو على الأحرى بلغارية ، في شتاء عام ١٦٩٣ ، مسافراً من غاليبولي إلى أندرينوبل، فلا يجد فيها مقعداً : " ولما

«نساء من هندوستان»، ساعة تناول الطعام.
رسم منمنم من كتاب «تاريخ الهند» Histoire de L'Inde من تأليف مانوتشي Manucci . (متحف الرسومات بالمكتبة الفرنسية).

لم أكن معتاداً على الجلوس متربعاً على الأرض على الطريقة التركية ، فقد تعبت أشد التعب في هذه العربة الخالية من المقاعد ، والتي صممت على هيئة لا يمكن إلا أن ترهق أي أوروبي كما أرهقتني ." ونجد هذا الرحالة بعد عامين في الهند " يضطر إلى أن يرقد " في هودج النقل كأنه يرقد في سرير(٧٤). وربما كان اضطراره إلى الرقود أقل إرهاقا له من إضطرار إلى القعود على الأرض متربعاً. وكانت العربات في بكين كذلك خالية من المقاعد ، وإليك چون بارو John Barrow يعاني ويشكو مثل چيميللي كاريري من أن هذه العربات " أبغض أنواع العربات التي يمكن أن يتصورها الإنسان(٧٥).

كان الصينيون وحدهم هم الذين اعتادوا الجلستين معا (على الرغم من أن الصينيين الذين ينحدرون من أصل تتاري لم يستخدموا الكرسي والمنضدة إلا قليلا؛ بل إننا نلاحظ في بكين أن هناك اختلافا في أسلوب الحياة بين المدينة التتارية ، والمدينة الصينية قياسا على نمط الجلسة). وهذا رجل من فرنسا ، استقبلوه في بكين في عام ١٧٩٥ عضوا في سفارة هولندية ، يقول : " وتصور الماندارين أننا يمكننا أن نجلس متربعين . فلما أدركوا أن هذه الجلسة لا تلين لنا ، أخذونا إلى بهو كبير [...] أثث بالكراسي، والمناضد وغيرها من الأثاث تأثيثاً فاخراً ؛ وكانت المصطبة مفروشة بسجادة كبيرة ، وقد أوقدوا النار من تحتها "(٧٦). وقد شهد الغرب نتيجة تراكب الثقافتين الإيبرية، والإسلامية حينا في أسبانيا موقفا مشابها . وقد أشرنا من قبل إلى مقالة بيريث دي تشينتشين الذي ميز المسيحيين على المسلمين ، قائلا إن المسيحيين لا يجلسون على الأرض كالحيوانات، ونقرأ لبيريث دي تشينتشين نفسه تعبيرا آخر يبدو لنا للوهلة الأولى غير مفهوم، هو : " ... يتربعون على الأرض مثل النساء ". والحق أن النساء في أسبانيا ظللن وقتا طويلا (حتى القرن السابع عشر) يجلسن الجلسة العربية على الشلت أو المخدات، ومن هنا جاءت العبارة الأسبانية tomar la almohailla التي تعني حرفيا" تأخذ شلتة " ، وتستخدم في الدلالة على أن سيدة من سيدات البلاط يحق لها الجلوس أمام الملكة. وكانوا في عصر الملك شارلكان - شارل الخامس - يعدون منصة مرتفعة عليها شلت، أو مخدات ، وأثاث منخفض تخصص للنساء(٧٧). لو اطلعت عليها ، لظننت أنك في الصين .

في أفريقيا السوداء

الفقر فقر، سواء كان فقر البشر أو فقر الحضارات. فإذا اجتمع فقر "الثقافات"(٧٨)، وفقر أهلها ، كان الفقر مزدوجاً، وهكذا استمر الفقر المزدوج المدقع عبر قرون، وهذا هو المشهد الذي نراه في أفريقيا السوداء، والذي نتوقف عنده لحظة بغية التثبت السريع مما نذهب إليه .

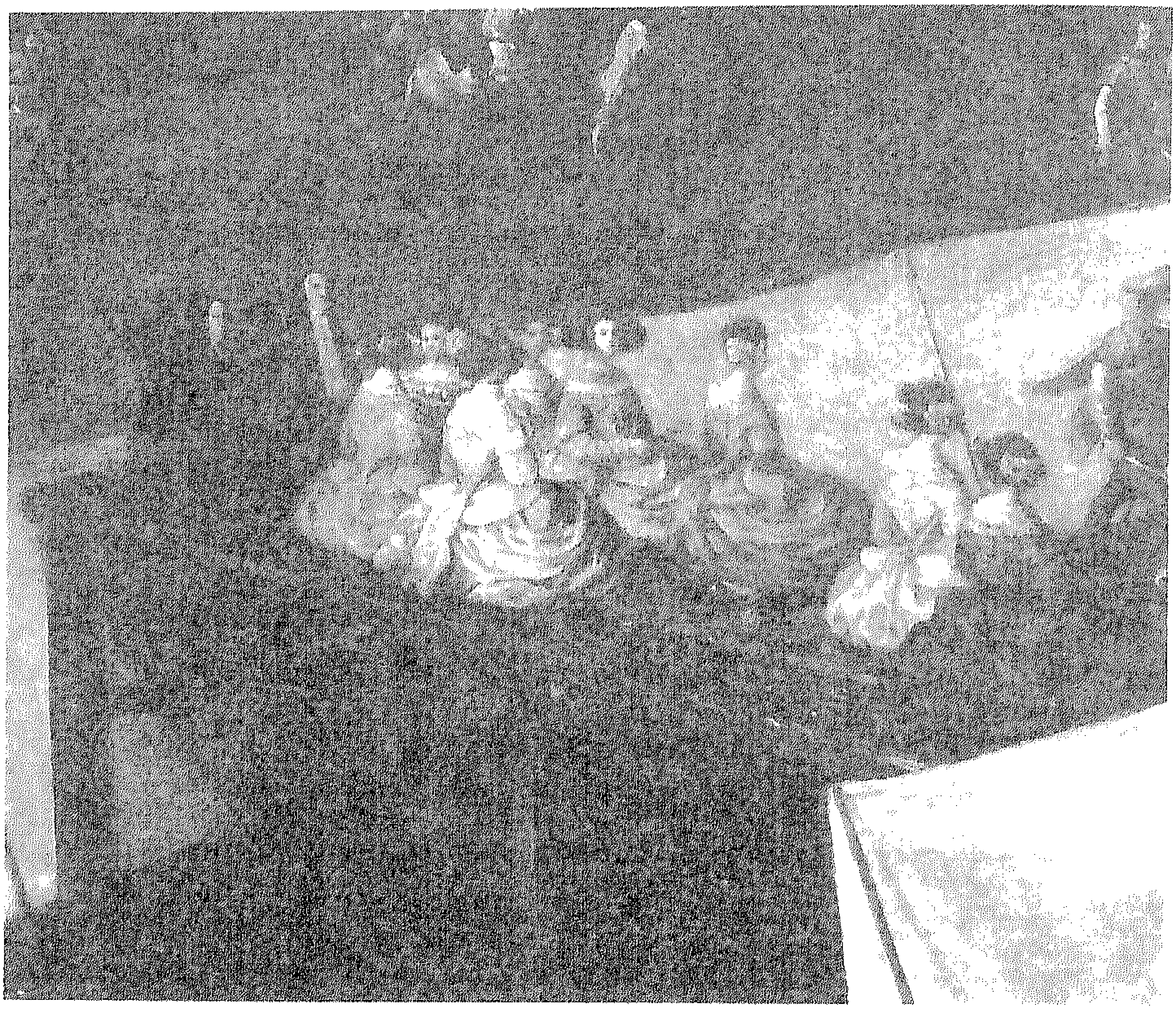

La caceria del Tabaldillo en Aranjuez أي: صيد الأيل في منطقة الرجوز Aranjuez بأسبانيا في عام ١٦٦٥ ، وتظهر نساء البلاط ، جالسات جلسة المسلمات على شلت فوق منصة نصبت لهن ليحضرن الصيد . وكان المألوف أن تذبح الحيوانات التي يصيدها الصيادون تحت المنصة التي تجلس عليها السيدات . جزء من لوحة رسمها مارتينيث ديلماثو Martinez del Mazo

إذا نظرنا إلى سواحل خليج غينيا التى أقامت فيها التجارة الأوروبية مراكزها، ونفذت من خلالها، لم نجد مدائن كثيفة على النحو الذي نعرفه في أوروبا، أو في الصين. ونجد تجمعات من القرويين ، لا أقول عنها أنها تتسم بالتعاسة (فهذه الكلمة هنا تظل بلا معنى)، بل أقول فقيرة معدمة ، ابتداءً من تلك القرى التي نلتقي بها في قصص الرحالة عندما نطالعها بدافع الفضول .

لا نجد هناك في الحقيقة مساكن بمعنى الكلمة ، إنما نجد أكواخاً من الطين، و فروع الشجر، والغاب، " مستديرة كأبراج الحمام " ، ونادرا ما نجد من بينها أكواخا مبيضة بالجير، وكلها بغير أثاث ، اللهم إلا بعض الجرار الفخارية ، والمشنات ، وبغير نوافذ، يبشون فيها الدخان كل ليلة ليطردوا منها الناموس maringouins الذي يخز وخزا

أليما، والذي قال عنه قائل إنه من أبناء عمومتهم. ويكتب الأب لابا Labat في عام ١٧٢٨ : " لم يألف كل إنسان ما ألفه الزنوج من التضوع بالدخان كالچامبون المدخَّن، فهم يتشبعون برائحة الدخان التي تثير غثيان كل من يبدأ في مخالطتهم " (٧٩). ولن نترك موضوع الغثيان هذا دون تعليق . فهناك من المؤرخين وعلماء الاجتماع في البرازيل من يقولون لنا (ولسنا مضطرين إلى تصديق كلامهم) أن زنوج البرازيل ، الذين استقروا في جمهوريات مستقلة ، فيما سمي سيرتاؤن sertão، بل والزنوج الذين كانوا يقيمون في المدن، في أحياء فقيرة يسمونها موكابوس mucabos، كانوا يعيشون حياة أفضل من الناحية الصحية من حياة سادتهم في المزارع أو المدن(٨٠).

ولو دققنا النظر لوجدنا في أفريقيا إلى جانب هذه الأكواخ العادية ، بعض الأكواخ البيضاء المبيضة بالجير ، وكان هذا البياض في حد ذاته ترفاً، ترفاً يسيراً بطبيعة الحال، ولكنه كان ترفا بالقياس إلى الوضع العام . ثم ندقق النظر أكثر فأكثر فنجد القليل من البيوت المبنية " على الطريقة البرتغالية " ، طريقة الغزاة القدامى ، التي تشبث بها " الأمراء " كما تشبثوا بلغتهم، وكانت هذه البيوت بيوتا بها "ردهات مفتوحة "، صفت فيها للضيوف "مقاعد خشبية صغيرة نظيفة جداً " ، بل وضعت فيها مناضد، ومن المؤكد أنهم كانوا يقدمون إلى صفوة الضيوف نبيذ النخيل . في مثل هذه البيوت كانت تعيش المولدات الحسناوات اللاتي كن يملكن على ملوك البلد، أو على بعض التجار الإنجليز أفئدتهم، فالنتيجة واحدة . ومن المولدات الحسناوات تلك الغانية التي تربعت على عرش قلب " ملك " برّه Barre ويصفونها بأنها " كانت تلبس صدرية صغيرة من الستان على الطريقة البرتغالية " وتلبس ، بدلاً من الجونيللة ، رهطاً من تلك الرهاط الجميلة المستوردة من جزيرة سانتياج Saint Yague واسمها بالبرتغالية ساوتياجو Saotiago من جزر الرأس الأخضر [Cabo verde ...] رهطا ثمينا لا تلبسه إلا أعزة النساء ، وهي في الحقيقة رهاط جميلة كل الجمال ، ورقيقة أشد الرقة "(٨١). هذه صورة جميلة ، وخاطفة تثبت أن الأرض الأفريقية المترامية الأطراف شهدت المواجهة المألوفة بين الجبهتين ، أو بين الناحيتين ، الناحية الطيبة ، والناحية السيئة من الحياة، بين الفقر المدقع ، والترف .

الغرب
وموبيلياته المتعددة

تتمثل أصالة الغرب في مجال الموبيليات ، وتجميل البيت من الداخل ، حتى بالمقارنة بالصين نفسها، وبقية العالم ، في شغفه بالتغيير ، وبسرعة تطوره النسبية ، فما عرفت الصين هذه السرعة في التطور في أي مرحلة من مراحل تاريخها . كان كل شيء في

الغرب يشمله التغيير . صحيح أن التغيير لم يكن يتحقق بين عشية وضحاها ، ولكن التغيير كان متعدد الأشكال ، وكان مستمرا ، شاملا لكل شيء. ونحن إذا خطونا خطوة بعد خطوة في متحف ، وانتقلنا من قاعة إلى قاعة ، وجدنا الدليل على هذا التغيير؛ وإذا كان هذا التغيير قد شمل أوروبا كلها ، فإنه كان يتنوع من منطقة إلى منطقة في ربوعها ، إلا التحولات الكبيرة ، كانت عامة شاملة ، تتجاوز ظواهر تخلف منطقة عن منطقة، وإن اشتدت، وتتجاوز ما نلحظه من عمليات التقليد ، والنقل الشبيه بالعدوى، والتي كانت تحدث على نحو شعوري أو لا شعوري .

هكذا الحياة الأوروبية العامة كانت تمزج على لوحتها ألوانا مختلفة ، عنيدة، يصر كل لون على طابعه ، فقد كان لشمال أوربا لونه المختلف عن لون جنوب أوروبا ، وكانت أوروبا مختلفة عن العالم الجديد ، وكانت أوروبا القديمة مختلفة عن أوروبا الجديدة التي مدت حدودها شرقا إلى سيبريا البربرية. وتقوم الموبيليات شاهدا على هذه الاختلافات، والتعارضات ، وتؤكد وجود الأوطان الصغيرة التي ينقسم إليها العالم الغربي. وهناك شيء آخر ، ربما كان من الخير أن نشدد عليه مرة أخرى ، وهو أن المجتمع يلعب دوره في إحداث هذا الاختلاف ، والتنوع ، فلكل مجتمع هنا كلمته التي يقولها. كذلك تشهد الموبيليات ، أو على الأحرى ديكور البيت في مجموعه ، على الحركة الاقتصادية، والثقافية الواسعة التي دفعت أوروبا نحو التقدم الذي أطلقت عليه أوروبا اسم التنوير les Lumiéres

الباركيه ..الحائط ..
السقف .. الباب .. الشباك

إذا نحن انطلقنا في بداية تأملاتنا من الديكور العادي المألوف في حياتنا الحالية، تكشف لنا كل شيء : التراث، الإنجازات القديمة . فهذا المكتب الذي أكتب عليه ، وهذا الدولاب الذي نرتب فيه البياضات ، وهذا الورق الملون الذي يزدان به الحائط، وهذه الكراسي، والباركيه الخشبي، والسقف الجصي ، وتقسيم المطارح ، والمدفأة، والسلم، والبيبلوهات، والرسوم ، بل واللوحات. ويمكن أن ننطلق من الديكور البسيط في أيامنا هذه لنتخيل مراحل التطور القديم ، فنديـر بكرة الفيلم عكسيا إلى الوراء لكي نصل بالقارىء إلى صور الترف القديم التي نلاحظ أنها تأخرت في الظهور. إننا عندما نقوم بهذه الرحلة العكسية نحدد نقطا متتالية على الطريق، ونتبين ألفباء تاريخ الأثاث. لانريد أكثر من هذا. ولكن علينا أن نبدأ من البداية .

كان للحجرة التي يسكن فيها الإنسان منذ أقدم العصور أربعة حيطان ، وأرضية، وسقف، وشباك أو عدة شبابيك ، وباب أو عدة أبواب . وظلت أرضية الدور الأرضي

ردحا من الزمن من الطين المدكوك ، ثم عبّدت بقطع من الحجر ، ثم بلطت بالبلاط . وإذا نظرنا إلى المنمنمات القديمة رأينا فيها الأرضيات المكسوة بالبلاط فاخرة بديعة في كثير من الأحيان : وهو ترف يحتاج إلى من يرسمون بالبلاط أشكالا جميلة . وكان البلاط الموزايكو مستعملا منذ القرن الرابع عشر ، وظهر في القرن السادس عشر البلاط المسمى بلومبيه plombés أي الرصاصي، المكسو بطبقة من الميناء المصنوع من خليط أساسه الجرافيت؛ وانتشر استخدام البلاط السراميك في القرن السابع عشر في كل مكان حتى في البيوت المتواضعة . ولكننا نلاحظ أن الفسيفساء لم تظهر، على الأقل في فرنسا ، قبل نهاية القرن السابع عشر . أما الباركيه بمعناه الحديث ، وهو الباركيه القائم على التجميع فقد ظهر في القرن الرابع عشر ، ولكنه لم يحقق رواجاً كبيراً إلا في القرن الثامن عشر ، بتشكيلاته المنوعة، المربعات المرتبة على شكل الفسيفساء ، أو القطع الطولية على النمط المسمى بالنمط المجري، وتكون قطعة الباركية فيه على شكل المعين ..(٨٢). وزاد الطلب على الخشب. وهذا هو فولتير يكتب: " كانت أشجار القرو فيما مضى تظل في الغابة إلى أن تتعفن، وتتلاشى، أما الآن فإنها تتحول إلى باركيه ."

وكان الناس في فرنسا يسمون السقف " أرضية " plancher، وكانوا على حق في ذلك، لأن السقف لم يكن سوى أرضية غرفة الخزين العلوية ، أو أرضية الدور العلوي، بعفشتها المكونة من عروق ، ومراين تظهر خشنة في البيوت العادية ، وممسوحة بالفارة، ومزخرفة أو مغطاة بغلالات في بيوت الأغنياء . وشهد مطلع القرن السابع موضة جاءت من ايطاليا تغطي العروق ، والمراين بعلب من الخشب مزينة بالأويما ، أو بالتذهيب، أو برسوم من الأساطير القديمة . فلما جاء القرن الثامن عشر بدأت موضة الأسقف الفاتحة، التي كسيت بالمصيص أو الاستوكو بحيث أخفت العفشة الخشبية ؛ ونحن عندما نبحث تحت طبقات المصيص أو الاستوكو ، المتراكمة بعضها فوق البعض الآخر ، في بعض البيوت القديمة قد نعثر على عروق ، ومراين مدهونة، ومرسوم عليها زهور أو خرطوشات زخرفية ترجع إلى زمن يرجع ثلاثة قرون إلى الوراء (٨٣).

وكانت هناك عادة غريبة غاية الغرابة ظلت حتى القرن السادس عشر (بل ربما بعده) تتمثل في تغطية الأرضيات الباركيه في الأدوار الأرضية ، وفي الحجرات التي تعلوها بالقش في الشتاء ، وبالحشيش الأخضر ، والزهور في الصيف ، وإليك هذه الشهادة: " شارع فوار Fouarre ـ حرفيا شارع القش ـ مهد كليتي العلوم والآداب اتخذ اسمه من القش الذي كانوا يغطون به أرضية قاعات المحاضرات "(٨٤). وكانت هذه العادة متبعة في القصور الملكية . في يونية من عام ١٥٤٩ أقامت مدينة باريس وليمة تكريما لكاترين دي ميديسيس Catherine de Médicis ، وحرصوا " على أن يفرشوا أرضية

القاعات بالأعشاب العطرة " (٨٥). وهناك لوحة من رسم فنان مجهول ترجع إلى عام ١٥٨١ أو ١٥٨٢ تصور حفل الرقص الذي أقيم في ليلة عرس الدوق ديجوييز -Joy-euse نرى فيها الباركيه ، وقد نثرت فوقه الزهور . وكان من الضروري بطبيعة الحال تجديد هذه الزهور ، والحشائش ، وأنواع القش التى تنثر فوق الپاركيه . ولكن إراسموس يحدثنا بأنهم لم يكونوا يهتمون بهذا الأمر في انجلترة ، بل ربما تركوا هذه الفرشة حتى تتحول إلى قاذورات ، وفضلات متكومة . وعلى الرغم من هذه المنغصات فمن الأطباء من كانوا يوصون بنثر هذه الفرشة من الحشائش الخضراء على الأرضية، نذكر هذا الطبيب الذي قال في عام ١٦١٣ " الحجرة الجميلة التي تكسو أرضيتها الحصير وتزدان حيطانها بالسجاجيد، وعلى أرضيتها نثرت نباتات عطرية مثل الحصى لبان، والحبق، والمرزنقوش، والبردقوش، والسلبية وأشباهها" (٨٦). ولكن القش، والأعشاب ، والبوص أو

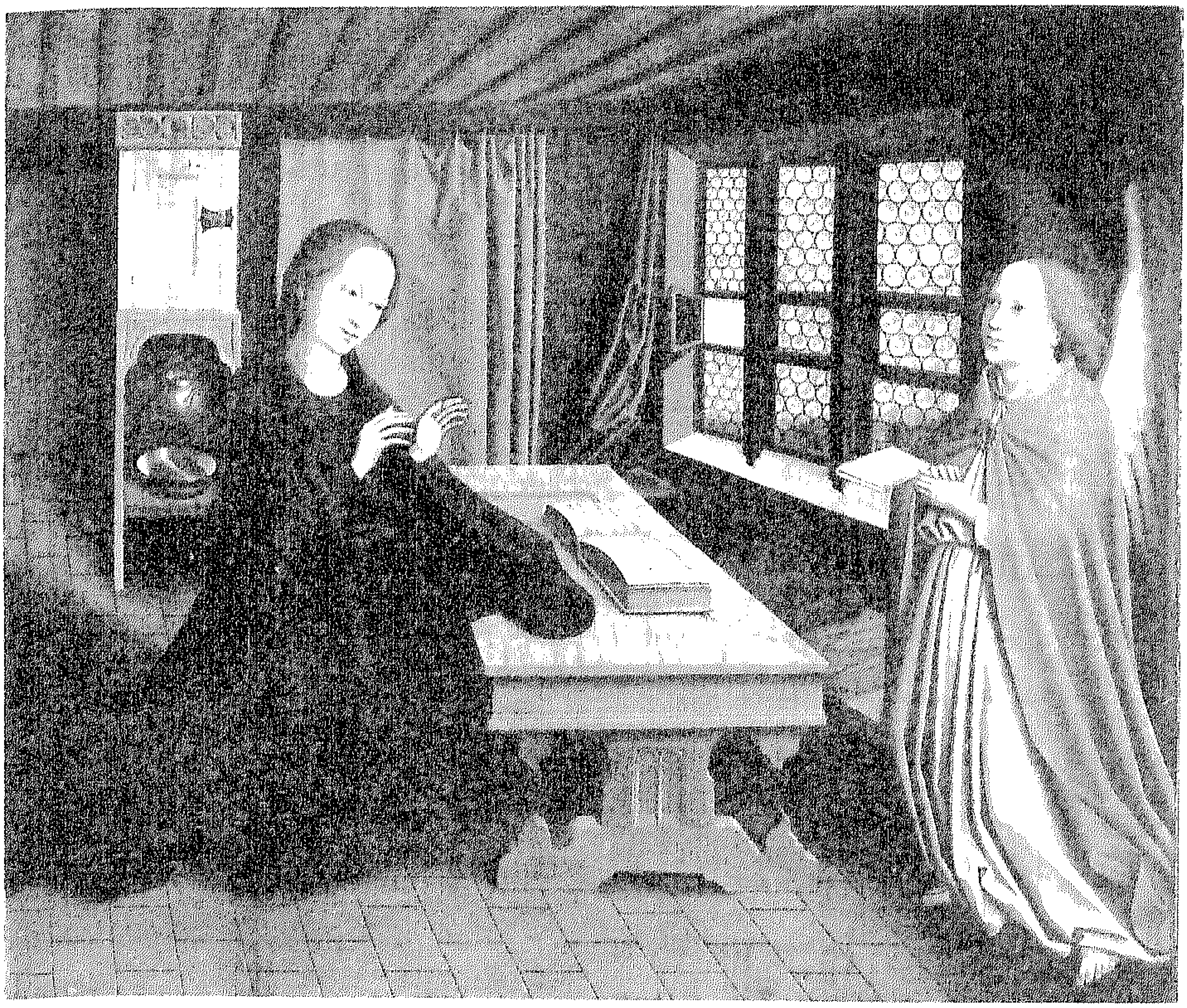

بيت بورچوازي من الداخل في جنوب ألمانيا ، في القرن الخامس عشر . لوحة من رسم رسام مجهول . (متحف الفن ، كونستموزيوم Kunstmuseum ، بازل) .

الجلاديول التى كانت تنثر على طول الحيطان ، وكانت من قبيل الزينات الريفية ، تلاشت أمام الحصير والسجاد : أما الحصير فكان الحصير المصنوع من القش المجدول ، المتداول منذ أقدم العصور ، والذي ما لبث صناعه أن لونوه بالألوان المختلفة ، وجملوه بأشكال زخرفية متنوعة تذكر بالفن العربي يسمونها الأرابيسك ، وأما السجاد ، فقد ظهر بين الناس في وقت جد مبكر ، وكانت السجاجيد آنذاك سجاجيد سميكة ، فاقعة الألوان ، تستخدم فرشاً للأرضيات ، وللمناضد التي كانت تغطيها من أعلاها لأسفلها بحيث لا تظهر أرجلها ، وكانوا كذلك يبسطون السجاجيد فوق الصناديق، بل ربما فرشوها فوق ظهور الدواليب.

كانوا يرسمون على حيطان الحجرة المدهونة بالبوية الزيت أو بالغراء زخارف على شكل الزهور ، والغاب ، والجيزران ، فتلاشت هذه الموضة ، وحلت محلها أنواع من الكسوة المنسوجة كانوا يسمونها تابيسيري tapisseries، وكانت " تصنع من مختلف أنواع الأقمشة ، مثل القطيفة ، والدماست (الدمشقي)، والحرير المطرز بالقصب المسمى بالبروكات ، وتقليد البروكات المسمى البروكاتيللو، والساتان البروجي (الوارد من مدينة بروجه Brugge ببلجيكا) ، والقماش الصوفي القادسي الخشن (الوارد من قادس في أسبانيا) ". وكان ساڤاري Savary في عام ١٧٦٢ ـ يرى أن يقصر استخدام كلمة تاپيسيري على " البسط البرجامية (نسبةالى مدينة برجام في أسيا الصغرى) ، الجلود المذهبة (الغداميسية guadameciles المعروفة منذ قرون طويلة)، والتابيسيريات الصوفية التي كانت تصنع في باريس وروان Rouen، والتاپيسيريات المبتكرة التي كانوا يصنعونها من الشبيكة ، وكانوا يوشونها برسوم من كل الألوان تقلد الأشخاص، والعناصر الزخرفية النباتية التي كانت تحلى أنواع المطرزات الرفيعة"(٨٧). كانت هذه المطرزات الرفيعة التي تتحلى برسوم أشخاص قد انتشرت موضتها منذ القرن الخامس عشر ، وكان أصحاب الفضل فيها العمال الفنيون في فلاندريا ببلچيكا ، ثم بلغت بها صناعة الجوبلان ذروة الإتقان الفني . ولكن انتشارالجوبلان المشغول برسوم أشخاص ككسوة كاملة للحيطان اصطدم بعقبتين، كانت العقبة الأولى هي ثمنه المرتفع ، أما العقبة الثانية فتمثلت في انتشار الموبيليات انتشارا متزايدا في القرن الثامن عشر ، فكان الإنسان إذا وضع كومودينو أو بوفيه إلى الحائط الذي اكتسى بالجوبلان قطع الشخص المرسوم عليه إلى قطعتين، غطى نصفه، وكشف النصف آخر، على حد شرح سيباستيان ميرسييه .

أما ورق الحائط فقد انتشر نتيجة لرخص ثمنه انتشارا حاسما ، وكان ورق الحائط الملون يسمونه " دومينو " domino لأن صناع ورق لعبة الدومينو والكوتشينة هم الذين قاموا بطبعه وتلوينه. ونقرأ في نص يرجع إلى عام ١٧٦٠ : " كان هذا النوع من ورق

الحيطان المطبوع [...] في البداية قاصرا على القرويين ، وعلى فقراء باريس، الذين كانوا يستخدمونه على طريقة التاپيسييرات ليزينوا حيطان بعض الأركان في غرفهم، وأكواخهم أو دكاكينهم . وما اقترب القرن السابع عشر من نهايته حتى كان صناع هذا الورق قد بلغوا به درجة من الإتقان ، والجمال جعلت الطلب عليه يشتد ، فكان يصدر إلى البلاد الأجنبية بكميات كبيرة ، ويرسل إلى كل البلاد الرئيسية في المملكة، ولم يكن هناك بيت في باريس ، مهما كان من الروعة والفخامة ، لم يستخدم ورق الحائط المطبوع في تزيين بعض حيطانه ، على الأقل حيطان مكان تغيير الملابس، ودورات المياه التي زينت به أجمل زينة " (٨٨). وما كان الإنسان يصعد درج البيت إلى أعلاه، إلى تلك الحجرات المتخذة تحت السطح الجمالوني ، حتى يجد بالضرورة ورق الحائط المطبوع قد كسيت به الجدران ، ومنه أنواع كانت بسيطة جدا ، ازدانت بخطوط عريضة بيضاء وسوداء . فقد كانت أنواع ورق الحائط تتفاوت في الدرجة أشد التفاوت ، فلم يكن كل ورق حائط من نوع تلك العينة (١٧٧٠) الفريدة المحفوظة في المتحف القومي في ميونيخ، والتي تأثر فيها صانعها بالفن الصيني .

وكانت الحيطان تكسى أحيانا بالخشب المشغول . فمنذ القرن الرابع عشر كان النجارون الإنجليز قد صنعوا من قرو الدنمرك بانوهات لكسوة الحيطان ، وكانوا يقصدون بها أن تكون وسيلة للحد من أثر البرد(٨٩). ونجد هذه البانوهات الخشبية بسيطة، في غرفة العمل الضيقة ببيت من بيوت آل فوجر Fugger في ألمانيا (القرن السادس عشر) كما نجدها كبيرة ، ومشغولة شغلاً فاخراً ، مدهونة ، ومذهبة ، في صالونات القرن الثامن عشر الفرنسية التي ستقوم مقام النموذج بالنسبة لأوروبا كلها بما فيها روسيا .

والآن حان الوقت لكي نفتح " الأبواب " و " الشبابيك ". كان الباب حتى القرن السابع عشر ضيقاً، يفتح إلى الداخل، ولا يتسع إلا لمرور شخص واحد، ولم تظهر الأبواب الكبيرة المزدوجة إلا متأخرا. كذلك الشباك كان كلما رجعنا إلى الماضي (وكلما بعدنا عن المدينة إلى الريف حتى في القرن الثامن عشر) يصغر حتى لنجده يتكون من مصراع بسيط من الخشب. وكان الزجاج في أول الأمر حكراً على الكنيسة، وامتيازا من امتيازاتها ، فلما انتقل من الكنيسة إلى البيوت الخاصة ، كان الزجاج المموج الذي يحاط، ويثبت بالرصاص شديد الثقل ، باهظ الثمن ، لايسمح بصناعة مصراع النافذة المتحرك . وظهر الشباك الزجاجي الثابت ، الذي لا تنفتح فيه إلا تربيعة واحدة. وكان هذا هو الحل الألماني لمشكلة ثقل الزجاج . وكان هناك الحل الهولندي الذي زاوج بين البانوهات الثابتة المصنوعة من الزجاج الثابت، والبانوهات المتحركة المصنوعة من الخشب، والتي كانت تقوم مقام المصراع المتحرك. أما في فرنسا فكانت الشبابيك

الزجاجية ثابتة لا تفتح ، نستنتج هذا من كلام مونتني: " إن ما يجعل الزجاج يلمع ويتلألأ [في ألمانيا] هو أن الشبابيك هناك متحركة، وليست ثابتة مثل الشبابيك عندنا ، " مما يتيح لهم إمكانية " تلميعها مرارا "(٩٠). وكانت هناك شابيك متحركة بها في مكان الزجاج الرق المسمى بالبرشمان ، أو القماش المتشرب بالتربنتينة، أو ورق الزبدة، أو شرائح الجص اللميع . ولم يظهر الزجاج في صورة الألواح الزجاجية الشفافة ظهورا حقيقيا إلا في القرن السادس عشر : ثم انتشر انتشارا متباينا بحسب المناطق. انتشر في انجلتره بسرعة منذ ستينيات القرن السادس عشر ، وواكب انتشاره في بيوت الفلاحين الثراء الذي شهده قطاع الزراعة آنذاك ، وتطور صناعة الزجاج (٩١). وفي الوقت نفسه تقريبا (في عام ١٥٥٦) كان الملك شارلكان ، شارل الخامس ، يعد العدة للسفر إلى الايكبستريمادورا الأسبانية قادما من فلاندريا ، وكان حريصا على أن يشتري ألواح الزجاج قبل أن تبلغ به الرحلة غايتها (٩٢). ويحدثنا مونتني Montaigne أنه، وهو في طريقه من فرنسا إلى ألمانيا ، لاحظ ابتداء من مدينة إبينال E'pinal، أنه" ما من بيت قروي مهما صغر إلا كانت شبابيكه من الزجاج ." (٩٣). وما تمر ستون سنة حتى يقول براكينهوفر Brackenhoffer، وهو من أبناء شتراسبورج Strassburg(٩٤). كلاما مشابها لكلام مونتني ، وهو يتحدث عن مدينتي نيڤير Nevers، وبورج Bourges . ويحدثنا أثنان من الرحالة خرجا من البلاد الواطئة متجهين إلى إسبانيا، عن خط فاصل بين منطقة استخدام الزجاج ، والمنطقة التي لا تستخدمه ، فقد لاحظا أن البيوت تخلو من الشبابيك الزجاجية عندما عبرا نهر اللوار عند مدينة سومير Saumur(٩٥). ومن قائل اننا عندما نتجه من فرنسا شرقا إلى چينيف نجد أن أعظم البيوت لا تعرف الشبابيك الزجاجية ، وإنها تقنع بورق الزبدة (٩٦) بديلا له، وبينما كانت بيوت أصغر العمال في باريس منيرة بما أوتيت من شبابيك زجاجية، كانت مدينو ليون الفرنسية ، ومدن أخرى في الأقاليم ، على حد قول مصدرنا نفسه، متشبثة بورق الزبدة ، وبخاصة في بيوت عمال الحرير ، الذين كانوا يرون أن الضوء الذي ينفذ من ورق الزبدة " ألطف وأحلى " من الضوء الذي ينفذ من الزجاج "(٩٧). ولم تظهر ألواح الزجاج في نوافذ بلاد الصرب على شكل عام إلا في قلب القرن التاسع عشر، بل لقد كانت الشبابيك الزجاجية في عام ١٨٠٨ شيئاً نادراً(٩٨).

كذلك كان هناك تطور بطيء تمثل في أن برواز الشباك كان يتضمن العديد من التقسيمات الخشبية ، تقسمه إلى تربيعات على قدر مساحة قطع الزجاج المتاحة، ولم يبدأ الشباك الكبير الخالي من التقسيمات الكثيرة في الظهور إلا في القرن الثامن عشر، حيث أصبح هو القاعدة، على الأقل في بيوت الأغنياء .

ولدينا شواهد متعددة في لوحات الرسامين على هذا التطور الحديث الذي سلك طريقه متأخراً، ويمكننا أن نتصور أن هذه الشواهد تباينت في مضمونها، فلم يكن هناك خط واحد منتظم يسير من خلال أوروبا من أولها إلى آخرها فيما يختص بتطوير الشباك، والانتقال به الى الحداثة . فنرى في وقت واحد شباكا على النمط الهولندي له شراعات زجاجية ثابتة إلى أعلى ، بينما الجزء السفلي منه هو المتحرك ، وهو عبارة عن مصراع له حشوات من الخشب. ونرى في لوحة " البشارة Annonciation " للرسام شونجاور Schongauer شباكاً من هذا النوع ، ولكننا نرى في العصر نفسه شباكاً آخر، لا يتكون إلا من بانو واحد زجاجي ضيق متحرك . ونجد شباكا آخر عبارة عن مصراع خشبي من الخارج ينقفل على شباك زجاجي ثابت . وربما وجدنا الشباك بمصراع واحد، وربما وجدناه بمصراع مزدوج . ومن الشبابيك ما كانت له ستائر من الداخل ، ومنها ما لم تتخذ له ستائر. ومجمل القول إن المشكلة الواحدة كانت تجد لها حلولا مختلفة ، والمشكلة هنا هي تهوية البيت، وإنارته، مع اتقاء البرد، واتقاء النور الخارجي الذي قد ينفذ إلى النائم فيقض مضجعه . وكل هذه الحلول كانت رهنا بالمناخ : وهذا هو مونتني Montaigne لا يرضى عما وجده في ألمانيا حيث " لم يأخذ الألمان في اعتبارهم اتقاء الريح والندى عندما اكتفوا بالشباك الزجاجي البسيط ، الذي لا يستره من الخارج ساتر من خشب " ، فهو شباك بلا مصاريع من الداخل ، وبلا مصاريع من الخارج ، ويأخذ على السراير في الفنادق الألمانية أنها لم تهيأ بستائر ...(٩٩)

المدفـــأة

لا نجد فيما بين أيدينا من شواهد ما يدل على أن المدفأة المفتوحة المبنية إلى الحائط كانت موجودة قبل القرن الثاني عشر . كان المألوف حتى ذلك الحين أن يكون هناك فرن دائري مفتوح في وسط المطبخ . أما طلاب التدفئة فكانوا يستخدمون المناقد أو الدفايات(١٠٠). ولكن سرعان ما ظهرت المدفأة الثابتة المفتوحة في البندقية، وكانت لها مداخن خارجية عالية كثيرا ما رسمها الرسامون، ومن البندقية انتقلت المدفأة حتى وصلت إلى بحر الشمال، وحتى مشارف موسكوفيا ، وحتى المحيط الأطلسي، واستقرت المدفأة الثابتة المفتوحة في الحجرة الرئيسية التي كان الجميع يلمون بها اتقاء للبرد .

وكان بيت النار في البداية يبلط بالطوب الأحمر ، ثم أصبحوا منذ القرن السابع عشر يغطونه بلوح من المعدن . وكانوا يستعينون ببرامق يسندون إليها خشب الوقود، ويضعون لوحا من الحديد الزهر رأسيا يمثل ظهر المدفأة ، وكثيراً ما كانوا يزينونه بالزخارف (ومن هذه الزخارف ما بلغ درجة كبيرة من الجمال) ، أما في داخل تجويف المدفأة نفسها، تحت ملقف الدخان ، فكانوا يعلقون حلة أو على الأحرى - غلاية في طرف خطاف مسنن ، يثبتونه بسن من سنونه في حلقة، وكان من الممكن تحريكه إلى

المنقد الأسباني ، جزء من لوحة " ميلاد القديس إيلوا " من أعمال الرسام پ . نونييث P.Nunez.
(متحف الفن القطالوني ، برشلونة) .

أعلى وإلى أسفل لضبط بعده عن النار، وكانت هذه الغلاية تستخدم لتسخين الماء بلا انقطاع. أما الطهي فكان يتم فوق بيت النار، على مقدم النار، يفيدون من ألسنة اللهب تحت الحلل، أو من الجمر ، الذي كثيرا ما كانوا يضعونه فوق غطيان الحلل المصنوعة من الحديد الزهر. أما القلايات فكانت لها أيد طويلة تتيح استخدامها بسهولة وتوجيهها إلى بؤرة الحرارة .

وأصبحت المدفأة الثابتة المفتوحة في بيوت الأغنياء بطبيعة الحال العنصر الزخرفي الأساسي للقاعة العامة التي كانت تقام فيها : فباكيتها تزدان بنقوش، ورسوم بارزة، وملقف الدخان من فوقها يتحلى بافريز زخرفي ، وأضلاعها تغشاها حليات تنتهي بالكابوليات، أو بتيجان أعمدة . ونرى على ملقف دخان مدفأة قديمة في مدينة بروجة البلچيكية Brugge ترجع إلى القرن الخامس عشر مشهدا منقولا عن لوحة " البشارة"Annonciation من رسم واحد من فناني مدرسة چيرارد داڤيد Gérard David (١٠١).

ولكن هذه المدافيء الجميلة ظلت ردحا من الزمن بدائية التصميم ، شبيهة من الناحية التقنية ببيوت الفلاحين في بداية القرن العشرين : كانت مدخنتها الرأسية واسعة ، يمكن أن يمر من خلالها رجلان من منظفي المداخن دفعة واحدة ، فكانت تسحب الهواء سحبا شديدا فتتأجج النار حتى يكاد الإنسان ينشوى عندما يتخذ مكانه قريبا منها ، بينما يظل باقي الغرفة أو المطبخ بارداً يرتعش من يجلس فيه. وقد أدى هذا إلى تضخيم المدفأة ، وزيادة مقاييسها زيادة مطردة ، إلى حد أنهم كانوا يبنون إلى جانبي المدفأة تحت ملقف الدخان المتسع مصطبتين من الحجر يجلس عليهما الناس ملتصقين بالمدفأة عندما تهبط النار وتتحول إلى جمرات ضعيفة ، فيتبادلون أطراف الحديث تحت" عباءة " المدفأة كما كانوا يقولون .

كان التصميم تصميماً يمكن أن يرضى به الإنسان في المطبخ، وإن لم يكن يفي بالغرض ، أما من ناحية التدفئة فكانت هذه المدفأة المبنية الثابتة وسيلة تدفئة سيئة كل السوء. فإذا كان الإنسان في البيت البارد في أيام الشتاء القارسة التي تهبط فيها الحرارة إلى درجات التجمد ، فلا مفر من أن يلتصق بحواف المدفأة ، يلوذ بها درءاً للبرد. وإليك بهو المرايا في قصر الملك بفرساي ، كانت له مدفأتان عظيمتان عند نهايتيه ، ولكنهما ما كانتا تقويان على تدفئة البهو الهائل . ولم يكن بد من الالتجاء إلى لبس الفراء . ولكن هل كان الفراء يكفي لتدفئة الناس ؟ كتبت الأميرة ليزيلوتة البفالتسية الألمانية الأصل (التي عرفت في فرنسا باسم البالاتينة la Palatine، نسبة إلى منطقة البفالتس الألمانية) بتاريخ ٣ فبراير ١٦٩٥ تقول : " لقد تجمد النبيذ، والماء في الأكواب على مائدة الملك من شدة البرد ." وهذه جملة واضحة كافية، ولا داعي لايراد المزيد ، تبين لنا ما كان البرد يفعله في البيوت في القرن السابع عشر فيجعل الحياة فيها صعبة عسيرة. كان البرد في ذلك العصر يعتبر كارثة عامة ، فقد كان يجمد مياه الأنهار ، ويوقف دوران الطواحين، ويزيد من حدة الأوبئة، ويحرك أسرابا من الذئاب المتوحشة في جنبات البلاد تفتك بالناس، والحيوان . كانت عواقب البرد وخيمة في باريس في عام ١٧٠٩ مثلا " حتى إن الناس كانوا يموتون من فرط البرودة ويتساقطون كالذباب " (٢ مارس) ، وتحدثنا الأميرة البالاتينة أن البرد الشديد، وغياب التدفئة تسببا منذ يناير من ذلك العام " في توقف كل العروض المسرحية، وتوقف القضايا في المحاكم "(١٠٣).

ولكن هذه الأمور تغيرت كلها حول عام ١٧٢٠ : " فقد أصبح الناس، منذ الوقت الذي أمسك فيه الوصي على العرش زمام الحكم، يحسون بأن أملهم في أن ينعموا بالدفء في الشتاء لم يعد سرابا." وإنما بلغوا هذه الغاية نتيجة للتقدم الذي تحقق فيما

أسموه " الكامينولوچيا " caminologie ، أي علم المدفأة، ويرجع الفضل في هذا التقدم إلى جهود العمال المتخصصين في تنظيف المداخن ، وفي تركيبها ، فقد اكتشفوا أسرار " السحب " ، وعرفوا كيف تسحب المدخنة الدخان ، وطريقة التحكم فيه، فصغروا حجم بيت النار في المدفأة ، وعمقوه ، وهبطوا بملقف الدخان أو بالعباءة ، وكوعوا المدخنة نفسها، لأن المدخنة المستقيمة من أعتى عيوبها أنها تنفث الدخان بدلاً من أن تسحبه(١٠٤). (وهنا يحل لنا أن نعود بالذاكرة إلى الوراء ، ونتساءل عما بذله رافائيل العظيم من جهد عندما كلفه دوق ديسته d`Este بأن يعمل على منع خروج الدخان من المدافيء في قصره.) أيا كان الأمر فقد حدث تقدم ، وكان هذا التقدم فعالا يستهدف تدفئة غرف ذات مقاييس معقولة . لم يعد الهدف هو تدفئة صالات قصور من نوع قصر مانسار Mansard، بل تدفئة حجرات بيوت من نوع بيت جابرييل Gabriel . وصممت مدافيء لها بيوت نار متعددة ، على الأقل بيت نار مزدوج من النوع الذي سمي بوبلينيير Popeliniére، وكانت هذه المدافيء تمكن من تدفئة أماكن كثيرة بالبيت حتى غرف الخدم . وهكذا شهد مجال المدافيء ثورة ، وإن جاءت متأخرة .

ولكننا لا ينبغي أن نتصور أن التطور الجديد في مجال المدافيء حقق توفيرا في خشب الوقود على النحو الذي كان يحلم به كتاب "توفير خشب الوقود " L' E'pargne - bois الذي صدر قبل حدوث هذا التطور بقرن ، في عام ١٦١٩، لأن المدافيء انتشرت انتشاراً متزايداً هائلاً ، كأنما مستها عصا سحرية ، منذ أن أصبحت أكثر فعالية. وكانت المدن كلها، بلا استثناء ، تستعد من قبل أن يحل الشتاء، فتنشغل بعمليات نقل الخشب وتقطيعه. وكانت باريس، حتى عشية الثورة الفرنسية، تشهد هرجاً، ومرجاً منذ منتصف أكتوبر " فتعج بالضجيج، لا يخلو منه حي من أحياء المدينة. كانت آلاف من العربات ـ من النوع ذي العجلتين الملتويتين ، تملأ الشوارع ، وقد شحنت بخشب الوقود، وتعطل المرور، وكانت تعرض حياة الناس، وسلامتهم للخطر، حيث كان المارة يواجهون خطر أن تدهمهم العربات ، فتقضي عليهم، أو تكسر سيقانهم أو تطرحهم أرضاً، وكانت الشوارع تتعطل نتيجة إنزال خشب الوقود وإلقائه، ونشره ونقله. كان الحمالون لكثرة ما لديهم من عمل ، يلقون خشب الوقود على عجل، وبغير نظر أو تدبير من أعلى العربة إلى الشارع ، فيرتطم بالرصيف ويحدث دويا. وإن هؤلاء الحمالين لصمٌ ، عميٌ ، لا هَم لهمَّ إلا أن يفرغوا شحنات الخشب بسرعة ، وربما ألقوها على رؤوس المارة . ثم يأتي النشار بمنشاره ، ويحرك منشاره في الخشب بسرعة بهلوانية، ويطوح القطع المقصوصة على طول ذراعه من حوله، دون أن يكلف خاطره بالنظر هل هناك بشر يمكن أن يصيبهم "(١٠٥).

وكان هذا المشهد يتكرر في كل المدن. كنا نرى في روما بائع خشب الوقود، ومعه

حماره يعرض توصيل الطلبات إلى المنازل. وعلى الرغم من أن مدينة نورنبرج الألمانية تقع في قلب منطقة غنية بالغابات ، فقد صدر في ٢٤ أكتوبر من عام ١٧٠٢ أمر إلى الفلاحين في دائرة سلطة المدينة بأن يوردوا إلى السوق نصف احتياطياتهم من خشب الوقود(١٠٦). كذلك نرى في مدينة بولونيا الايطالية Bologne العمال المشتغلين بإعداد خشب الوقود يعرضون خدماتهم .

أفران .. ودفايات

أشار مونتني على عجل فيما قاله عن ألمانيا إلى إنه ليس هناك مدافيء من النوع المبني المفتوح . ونحدد المقصود بدقة فنقول إنه يقصد إنه لم ير هناك في غرف النوم بالفنادق أو في قاعات المعيشة العامة مدفأة ثابتة مبنية مفتوحة. فقد كانت هذه المدافيء تقام في المطابخ. ثم هو يذكر أن الألمان " يستقبحون أن يدخل إنسان

امرأة أمام دفاية . رسم بالحفر باستخدام حمض النيتريك . من أعمال رمبرانت Rembrandt، هولنده ، القرن السابع عشر . (متحف الرسوم بالمكتبة القومية الفرنسية) .

مطابخهم ." وعلى السائح الذي ينزل في الفندق أن يتدفأ في قاعة المعيشة العامة الفسيحة ، التي يتناولون فيها الطعام ، والتي تقوم فيها مدفأة مقفولة مكسوة بالبلاط القيشاني يسمونها " فرن قيشاني" أو كاخل أوفن Kachelofen (١٠٧).ويضيف إلى ذلك أن الفرن ليس" على طريقتنا "، " فهم يبنون الفرن في وسط المطبخ أو في ركن منه، ويتخذون ملقف الدخان أو العباءة على مساحة كبيرة تقدر بما بين ٧ و ٨ أقدام مربعة حتى لتكاد تشغل جانب المطبخ كله، ويؤدى ملقف الدخان الواسع إلى المدخنة التي ترتفع لأعلى المبنى؛ ويتيح لهم ملقف الدخان الواسع مكاناً كافياً ليضعوا ما يسمى بالشراع ، وهو ما لا يمكن أن نستخدمه في فرنسا ، ولو استخدمناه لسد ملقف الدخان، وسد السكة أمام الدخان"(١٠٨). والمقصود بالشراع ريش مروحة تدور بتأثير الدخان ، والهواء الساخن المتصاعدين ، وتدير معها السياخ ...ويمكننا أن نلقي نظرة على الصورة التالية، فهي توفر علينا الشروح الطويلة ، وإذا لم نتبين هذه الآلية ، فسنتبين على الأقل السياخ، وبيت النار المرتفع الذي يتيح للإنسان الطبخ دون أن ينحنى كما هي الحال بالنسبة للأفران في فرنسا ، وچينيف(١٠٩)، والأراضي الواطئة .

هذا الفرن نلتقي به خارج حدود ألمانيا ، في المجر ، وپولندة وروسيا ، وسرعان ما يصل إلى سيبريا . نلتقي في هذه البلاد بأفران عادية مبنية بالحجر أو الطوب، وبالطفلة أحياناً. كان الفرن يبنى في ألمانيا منذ القرن الرابع عشر على نحو أبسط، وأخف، يعتمدون في بنائه على طَفْلة الفخراني Töpferton، أما البلاط القيشاني الذي كانت الأفران تكسى به فكثيرا ما كانت تزينه الزخارف ، وكانوا يضعون أمام هذا الفرن دكة يمكن للإنسان أن يجلس أو ينام عليها. ويشرح اراسموس - في نص يرجع إلى عام ١٥٢٧ - كيف يسلك الإنسان المهذب عندما يدخل حجرة بها فرن : " فتخلع في الحجرة التي بها الفرن الحذاء الطويل ذا الرقبة ، وتلبس الحذاء العادي ، ويمكنك إذا شئت أن تغير قميصك ، وأن تعلق على مقربة من الفرن ملابسك التي بللها المطر ، وتقترب أنت نفسك من الفرن حتى تجف " (١١٠). ويقول مونتني في مدح الفرن الألماني : " على الأقل لايحرق الانسان وجهه أو حذاءه الطويل ، ولا يعاني من الدخان كما هي الحال في فرنسا "(١١١). وكان الرحالة الذين يعبرون پولندة ينزلون في البيوت لعدم وجود فنادق، وهذا هو فرانسوا دي باڤي François de Pavie ينزل في بيت ، وينام مع أفراد العائلة التي تمتلكه ، ومع النزلاء الآخرين ، على الكنب العريض، وقد وضعوا عليه الشلت والفراء، وصفّوه إلى جوانب الحجرة التي بها الفرن . وكان السيد أوكتاڤيان الإيطالي يستغل هذا النظام فيختار مكانه قريبا من واحدة من النساء ، " اللاتي كن أحياناً يكرمن وفادته ، وأحيانا يخربشنه بأظافرهن " ، وكان يفعل كل هذا في سكون، دون أن يوقظ أحداً(١١٢).

وكانت الأفران المكسوة بالقيشاني قد ظهرت في فرنسا حول عام ١٥٢٠، بعد مرور خمسة أعوام على الانتصار في معركة مارينيان Marignan، ولكنها لم تبدأ في الانتشار إلا في القرن السابع عشر ، ولم تثبت أقدامها إلا في القرن الثامن عشر. نذكر في هذا المقام أن المدافيء المبنية المفتوحة كانت في عام ١٥٧١ نادرة في باريس(١١٣). وكان الناس يستخدمون المناقد للتدفئة . وكان الفقراء في باريس ، في القرن الثامن عشر ، يستخدمون هذه المناقد التي كانوا يضعون فيها الفحم الحجري ، وكثيرا ما كانوا يصابون بالاختناق(١١٤). أيا كان الأمر فإن المدفأة المبنية المفتوحة ستظل تلعب في فرنسا دورا أكبر من الأفران ، بينما ستستمرالأفران في البلاد الباردة في شمال أوروبا وشرقها . وهذا هو سيباستيان ميرسييه يكتب في عام ١٧٨٨: " ما أعظم الفرق بين المدفأة الثابتة المفتوحة والفرن المقفول . إننى عندما تقع عيناي على فرن مقفول أحس بجذوة خيالي تخمد وتستحيل إلى رماد "(١١٥).

ولنذكر أن أسبانيا لم يكن بها لا مدفأة ثابتة ، ولا فرن ، وفي هذا تقول الكونتيسة دولنوا إنها لم تر مدفأة أو فرناً في " أي مسكن من المساكن هناك، ... فما كان الناس يستخدمون سوى المناقد ". وتضيف الكونتيسة دولنوا d`Aulnoy على عبارتها السابقة: " وتلك صادفة سعيدة أن الناس في هذا البلد الذي يعز فيه خشب الوقود لا يحتاجون إليه "(١١٦).

أما انجلترة فإنها تحتل في تاريخ المدافيء مكانا منفردا ، لأنها ، وقد عانت من قلة خشب الوقود، أخذت تزيد من استخدامها الفحم الحجري شيئا فشيئا منذ القرن السادس عشر كوقود عام. وقد أدى هذا إلى إدخال عدة تحويرات في بيت النار ، وكان من أهم هذه التحويرات ما أنجزه رمفورد Rumford من إحداث انعكاس للحرارة إلى داخل المكان(١١٧).

من تفانين صناع الموبيليا
إلى غرائب مطالب الزبائن

ومهما كان كلف الأغنياء بالتغيير ، فإن الديكورات الداخلية والموبيليات لم تكن تتغير بسرعة كبيرة قط . صحيح أن الموضة تدور دورتها ، ولكنها تدور في بطء وتؤدة. ولهذا البطء أسبابه : فعمليات التجديد تتكلف تكاليف باهظة ، ثم إن إمكانات الإنتاج كانت، في القرون التي ندرسها ، محدودة . فلم يكن هناك حتى عام ١٢٥٠، على أقل تقدير، منشار آلي يتحرك بقوة دفع الماء (١١٨). ولم يكن هناك حتى القرن السادس عشر بصفة عامة مادة يصنع منها الأثاث سوى خشب القرو. ثم بدأت موجة خشب الجوز، وأخشاب البلاد البعيدة في مدينة أنتڤرپن ببلچيكا . أضف إلى هذا أن كل شيء كان

إنها تطهو دون أن تحني ظهرها . الفرن الألماني ذو بيت النار المرتفع (١٦٦٣). عن كتاب من " كتب جمعية اخوان ميندل " Mendelsche Büderbücher، مكتبة مدينة نورنبرج) .

رهنا بالحرف ، وما كانت الحرف تتطور إلا في بطء . ولم يخرج نجارو الموبيليا من نطاق النجارين المعماريين إلا بين القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وتسمى نجارو الموبيليا بالفرنسية باسم menuisiers من menu أو bois menu أي الخشب الصغير. ثم خرجت من تحت عباءة نجاري الموبيليا طائفة نجاري الموبيليات الدقيقة الذين تخصصوا في شغل القشرة والتكفيت أو الماركيتيري(١١٩).

وكان النجارون المعماريون هم الذين اشتغلوا ببناء البيوت وصنع الأثاث في البداية، وظلت الحال على هذا المنوال قرونا طويلة. وكانت النتيجة أن الموبيليات التي صنعوها كانت تتسم بالضخامة ، والمتانة ، وبشيء من الغلظة الواضحة في الموبليات " القوطية" gothiques ، تلك الدواليب الثقيلة التى كانوا يثبتونها في الحيطان، والمناضد الضخمة

الضيقة ، والدكك التي كانوا يؤثرونها على البنكيتات ، والتابوريهات ، والكراسي، والصناديق المصنوعة من ألواح عريضة مضطربة ، كانوا يمسمرونها دون تعشيق، ويثبتونها بحدايد ذات مسامير ، ويركبون لها كوالين ضخمة (١٢٠). وكانت هذه الصناديق تستخدم كموبيليات في البيت ، ولنقل الأمتعة ، وما إليها حين السفر . وكان النجارون يهذبون الألواح بالبلطة ، أما الفارة - وهي ألة قديمة عرفت في مصر القديمة وعرفها الإغريق والرومان - فلم تعد إلى الظهور في شمال أوروبا إلا في القرن الثالث عشر . كان النجارون يثبتون الألواح بالمسامير الحديدية ، ثم استخدموا فيما بعد التعشيق باللسان ، والنقر ، الدكر والنتاية ، والسبعات والتمانيات، والمسامير الخشبية، والخوابير المطورة ، وأخيراً المسامير البريمة التي كانت معروفة من قديم الزمن، ولكنها لم تستخدم على نطاق واسع إلا في القرن الثامن عشر .

إما العدد فنذكر منها البلطة الكبيرة ، والبلطة الصغيرة ، والمقص ، والدقماق، والشاكوش ، والمخرطة التي تدار بالقوس (لخرط القطع الكبيرة مثل رجل المنضدة) ، والمخرطة التي تدار باليد أو بالرجل (لخرط القطع الصغيرة) وكلها عدد كانت معروفة منذ أقدم العصور، من تراث انحدر من بعيد ، من خلال العالم الروماني (١٢١). وقد بقيت العدد ، وطرق الشغل القديمة في إيطاليا التي نلتقي فيها بالموبيليات الوحيدة التي وصلت إلينا من الوقت السابق على عام ١٤٠٠ ، في هذا المجال كان لإيطاليا أسبقيتها وتفوقها ، وكانت إيطاليا هي التي نشرت الموبيليات ، وموديللاتها ، وطرق صنعها. ويكفي لكي نقتنع بهذا أن نرى في المتحف القومي بميونيخ تلك الصناديق الإيطالية التي ترجع إلى القرن السادس عشر والتي تتحلى بأشكال منحوتة معقدة ، وتقوم على قواعد متميزة ، وتستخدم أخشابا مصقولة ، وتتخذ أنماطا تنم عن التفكير والتفنن ، وكان بها في كل هذا ما يميزها عن كل الصناديق التي صنعت في بلاد أوروبا الأخرى كلها. والأدراج أتت من ايطاليا متأخرة بعد أن عبرت جبال الألب إلى الشمال مخترقة وادي نهر الراين ، وقد طالت رحلتها فلم تصل إلى انجلترا مثلا إلا في القرن الخامس عشر.

وكان المألوف حتى القرن السادس عشر ، بل حتى القرن السابع عشر هو طلاء الموبيليات ، والسقوف ، والحيطان ببويات ملونة ، وعلينا أن نتصور هذه الموبيليات ما ازدانت به من أشكال منحوتة وقد طليت بالذهب أو الفضة أو الأحمر أو الأخضر، تستوي في ذلك موبيليات الدور ، والقصور ، والكنائس . ويشهد هذا الطلاء بالألوان على تلهف الناس على النور، والألوان الفاقعة في الحجرات الداخلية المظلمة التي لم تكن تنفتح على الضوء الخارجي إلا على نحو ضيق أشد الضيق. وكانوا أحياناً يلصقون على الموبيليا غلالة رقيقة من القماش ، ويعالجونها بالجبس قبل دهانها حتى يداري الطلاء الملون ما فيها من عيوب . ولم تظهر الموبليات الملمعة بالشمع أو الورنيش فقط إلا في القرن السادس عشر .

ولكن كيف السبيل إلى تتبع قصة حياة كل قطعة من قطع الموبيليات على حدة ؟ فالموبيليات تظهر ، وتتحور ، ولكنها لا تتلاشى كل التلاشي بعد ذلك . وهي إلى هذا وذاك تخضع بلا انقطاع لطغيان الأسلوب المعماري للمباني ، وترتيب البيوت من داخلها.

فمن المحتمل أن تكون الدكة التي وضعت بجوار المدفأة الثابتة المبنية المفتوحة هي التي فرضت شكل المنضدة المستطيلة الضيقة؛ كان الضيوف يجلسون إلى هذه المائدة من جانب واحد على الدكة، مولين النار ظهورهم، ومولين الطعام كروشهم . أما المائدة المستديرة فإن شكلها المستدير يلغي مشكلة الصدارة ، فليس فيها مكان لمن يتصدر المائدة، وإنما يتساوى الجالسون إليها في القدر، وتحكي أسطورة الملك أرتوس (بالإنجليزية أرثر، بالفرنسية أرتور) أن جماعة من صفوة الفرسان تساووا في القدر كانوا يلتقون حول مائدته المستديرة. ولكن هذه المائدة المستديرة لم تشق طريقها إلى النجاح إلا برفقة الكرسي ذي الظهر الذي لم يدخل الساحة ، ويحصل على حقوقه ، ويكتسب شكله، وينتشر بشكل كبير إلا في وقت متأخر. وكان الكرسي البدائي الأول هو الكرسي الهائل الوحيد المخصص للسيد الاقطاعي، أما الآخرون فكانوا يجلسون على الدكك، والبنكيتات، والتابوريهات، والبوفات، ثم الكراسي، التي جاءت في وقت جد متأخر(١٢٢).

وكأنما كانت قطع الموبيليا في مباريات بعضها ينازل البعض الآخر ، والحكم في هذه المباريات هو المجتمع ، أو لنقل الزهو ، وحب المظاهر . ولنأخذ الدريسوار dressoir مثلا، هذه القطعة من الموبيليا ولدت في المطبخ ، حيث كانت في البداية منضدة صغيرة توضع فوقها الأطعمة الجاهزة ، والأطباق الكثيرة اللازمة لتقديم الوجبة التي حان موعدها. ثم إذا بنا نرى في بيوت السادة دريسواراً ثانياً يضعونه في قاعة الاستقبال، ويعرضون فيه الصحون المصنوعة من الذهبة والفضة أو الفضة المذهبة، والأناجر، والأباريق، والأقداح ، وكان الدريسوار يضم عدداً من الرفوف أو الطوابق، يتغير على نحو تحدده المراسم طبقا لرتبة صاحب البيت ، فكان للبارون أن يتخذ في دريسواره طابقين، وكان من يعلوه درجة يتخذ طابقا أكثر ، وهكذا كانت الطوابق تزيد بحسب سلم الرتب(١٢٣). وهناك لوحة تصور وليمة تصور الرسام أن هيرودس أقامها، يظهر فيها دريسوار بسبع طوابق يرمز إلى المكانة الملكية العليا ، قمة الرتب كلها. ثم جاء اليوم الذي بلغ فيه الدريسوار ذروة التظاهر ، فكانوا يضعونه في الشارع أمام البيت يوم الاحتفال بعيد الرب،" وقد زينوا واجهة البيت بالسجاجيد ". وقد دهش رحالة إنجليزي، هو توماس كورييت Thomas Coryate عندما رأى في عام ١٦٠٥، في شوارع باريس، عدداً كبيراً من الدريسوارات العامرة بالفضيات(١٢٤).

في القرن الخامس عشر : دريسوار صفت عليه أطباق من الذهب . من كتاب " تاريخ الاسكندر العظيم Alexandre Hisoire du grand صفحة ۸۸ من المخطوط ، متحف بيتي باليه Petit-Palais بباريس .

ويمكننا عل سبيل المثال أن نستعرض تاريخ الدولاب ، منذ أيام الدواليب القديمة الثقيلة التي كانوا يدعمونها بمفصلات ، وسدابات من الحديد ، إلى أيام الدواليب التي تبرجزت ـأو انطبعت بالطابع البورجوازي ـ في القرن السابع عشر على حد تعبير مؤرخ لم يكن يحب ما اتسم به طراز لويس الثالث عشر من " حلية على هيئة جبهة عالية أو فرونتون fronton، وعمدان ، وأشباه عمدان ، ورؤوس عمدان "(١٢٥). وكانت الدواليب من هذا الطراز تصل إلى مقاييس طويلة ، عريضة ، ضخمة، مما حدا ببعض المصممين إلى شطر الدولاب إلى شطرين، وصناعة ما سمي بالدولاب

التحتاني le bas armoire الذي لم يلق رواجا. وأصبح الدولاب من موبيليات التظاهر، وربما اتخذ الكثير من الزخارف، والأويما، والأشكال المنحوتة. ولكن الدولاب كف عن هذا الدور في القرن الثامن عشر، على الأقل في البيوت الغنية المترفة، واقتصر دورالدولاب على حفظ الملابس، ولم يعد يظهر في حجرات الاستقبال(١٢٦). ولكن الدولاب ظل طوال قرون عديدة مفخرة بيوت القرويين، ومساكن الناس العاديين.

والموضة تتقلب بين الازدهار، والاندثار، يوم لك، ويوم عليك، على نحو ما نتبين عندما نتتبع ما حدث لقطعة من الموبيليا، كانت تسمى كابينيته cabinet، وكانت تضم عدداً من الأدراج، والخانات ترتب فيها أدوات التواليت، وأدوات الكتابة، وورق لعب الكوتشينة، والحلي. وكان الفن القوطي يعرف هذا النوع من الموبيليات. وشهد القرن السادس عشر أول نجاح للكابينيتات، ثم ظهرت في عصر الرينيسانس كابينيتات مكفتة بأحجار قيمة، وظهرت الكابينيتات على الطراز الألماني، وشقت طريقها إلى فرنسا. ونجد في عصر لويس الرابع عشر كابينيتات كبيرة، أو ضخمة الحجم، حتى إذا جاء القرن الثامن عشر حلت قطعة الموبيليا المسماة سكرتير secrétaire، والتي تشبه المكتب محل الكابينيتة.

وربما كان الأفضل أن نلقي نظرة على الكومودينو commode الذي سرعان ما احتل مكان الصدارة، وخلع الدولاب عن العرش وتربع هو عليه. نشأ الكومودينو في فرنسا في مستهل القرن الثامن عشر. وإذا كان في مقدورنا أن نتصور، اعتماداً على بعض الموبيليات الريفية، في منطقة بريتانيا الفرنسية، وبعض الموبيليات التي عرفت في ميلانو، كيف كانت الدواليب الأولى صناديق، وضعت على جنبها واقفة، كذلك يمكننا أن نتصور الكومودينو كمجموعة من الصناديق الصغيرة، وضعت بعضها فوق البعض الآخر. ولكن هذه الفكرة جاءت متأخرة، كما جاء تنفيذها متأخرا هو الآخر.

أصبح الكومودينو موضة جديدة في قرن اتسم بالأناقة الشديدة، وسرعان ما أصبح قطعة من الأثاث الترفي الفاخر، التي تنوعت كل التنوع، فاتخذت خطوطاً مدروسة، متأنقة، مستقيمة تارة، ومنحنية تارة أخرى، وتصميمات قائمة الزوايا، أو متعددة الاستدارات، قد تكون ضخمة، وقد تكون رقيقة، وقد تكون محلاة بالماركيتيري، أو مصنوعة من الأخشاب الثمينة، أو مجملة بالبرونزيات، ومطلية بأنواع اللاكيه المختلفة. هكذا اتبع الكومودينو خطوط الموضة المتغيرة، حتى تلك التي تسمت بالموضة الصينية، وظهر الكومودينو طراز لويس الرابع عشر، ثم لويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر. وكان الكومودينو موبيليا أساسية خاصة بالأغنياء، ولم ينتشر انتشاراً واسعاً عاما إلا في القرن التاسع عشر.

وهنا نطرح السؤال التالي: هل إذا كتبنا تاريخ قطع الموبيليا ، قطعة بعد قطعة، نصل في النهاية إلى تاريخ الأثاث والتأثيث ؟

الانطباع العام
للأثاث في مجموعه هو الأساس

مهما كانت السمات المميزة لقطعة الموبيليا الواحدة فإنها لا تخلق بمفردها الانطباع العام، ولا تجعلنا نحس به ، فالمجموعة المتكاملة من الأثاث هي التي تحدث هذا الانطباع . فالمتاحف ، بما فيها من قطع منفردة متباعدة ، لا تعلمنا بصفة عامة إلا ألفباء تاريخ متشعب معقد . والشيء الأساسي ، الجوهري ، هو ما وراء الأثاث، هو التنسيق الجامع، سواء كان هذا التنسيق محدداً طبقا لأسلوب معين ، أو كان حراً ، الشيء الأساسي، الجوهري هو الجو العام ، هو فن الحياة ، في الحجرة التي توجد فيها الموبيليات أولا ، ثم خارج الحجرة ، في البيت الذي تعتبر الحجرة جزءاً منه. علينا أن نعرف كيف كان الناس يعيشون ، كيف كانوا يأكلون ، كيف كانوا ينامون في ذلك العالم المفروش بالموبيليا، عالم الترف طبعا ؟

الشواهد الأولى الدقيقة عن الأسلوب القوطي المتأخر، على قدر ما نجدها في لوحات الرسامين الهولنديين، والألمان، تبين لنا كيف كان هؤلاء الرسامون يدخلون في تكوين لوحاتهم، إلى جانب الأشخاص، الموبيليات ، يرسمونها بنفس الحب الذي يرسمون به الأشخاص، ويصورونها كمجموعة من عناصر الحياة الصامتة. وهذه لوحة" مولد القديس يوحنا " من أعمال فان أيك Van Eyck ولوحة " البشارة " من أعمال الرسام فان درفايدن Van der Weyden نجد فيهما فكرة مجسمة عن الجو في حجرة المعيشة العامة في القرن الخامس عشر ، ويكفي أن نلمح في اللوحة باباً مفتوحاً يؤدي إلى الغرف الأخرى حتى نتصور المطبخ، وانهماك الخدم في العمل. والموضوع مناسب: البشارة التي تلقتها العذراء ، والميلاد ، سواء كانت اللوحات من رسم كارباشو Carpaccio أو من رسم هولباين الكبير Holbein، أو شونجاور Schongauer، بما فيها من سراير، وصناديق ، ونافذة مفتوحة ، ودكة بجانب المدفأة، والطشت الخشبي الذي يحمون فيه الطفل، والسلطانية التي يقدمون فيها الشوربة إلى الوالدة، كل هذه الأشياء توحي إلينا بالانطباع العام، بالجو العام، كما توحي الينا لوحات العشاء الأخير بنظام تناول الطعام.

وعلى الرغم من السمة الروستيكية، أي الريفية، الصارمة للموبيليات، وقلة عددها، فإن هذه المساكن التي أثثت على النمط القوطي المتأخر ، تتسم ، على الأقل في شمال أوروبا ، بجو الألفة الحميمة الذي تشعه تلك الحجرات المغلقة ، المنطوية على نفسها،

التي تتوارى في حنايا طائفة من الأقمشة الفاخرة المترفة بألوانها الزاهية البراقة. والترف الحقيقي فيها يتمثل في: الستائر، وأغطية السراير، وألوان الحيطان، والشلت المصنوعة من الحرير . وإليك سجاجيد القرن الخامس عشر بألوانها المشرقة ، ورسومها الوضاحة التي تأتلف عناصرها من الزهور ، والحيوانات . إنها تشهد كذلك على هذا الذوق ، وهذه الحاجة إلى الضوء ، وكأنما كان الجو داخل البيت في ذلك العصر رد فعل تجاه العالم الخارجي ، وكأنما كان البيت المنغلق على نفسه " والدير ، والقصر المحصن ، والمدينة المحاطة بالأسوار ، والحديقة المتوارية وراء الجدران " ، يمثل ألوانا من التصدي لصعوبات الحياة المادية التي كان الناس يحسون بها إحساسا غامضا .

إلا أننا نلاحظ أن إيطاليا ، منذ عصر النهضة ، الرينسانس ، وقد سبقت غيرها من الدول في مجال الاقتصاد سبقا لا مراء فيه ، أخذت تبتدع مقومات الأبهة الجديدة

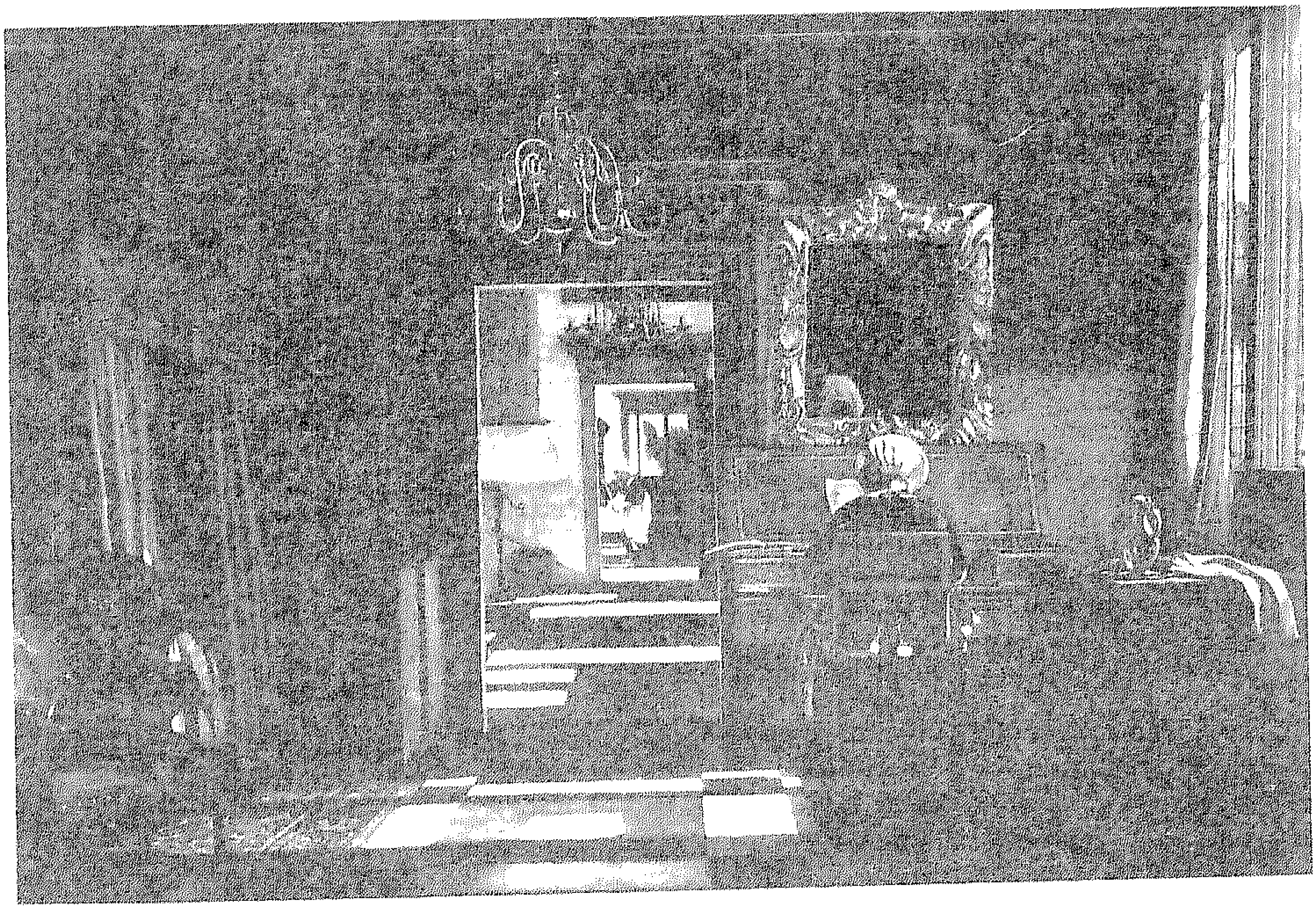

داخل بيت بورجوازي في هولندة ، في القرن السابع عشر : نور ، أثاث قليل بسيط ، قاعة معيشة فسيحة ، فيها بيانو من نوع الكلافيكورد أمام سرير ذي ستائر ؛ الحجرات مفتوحة بعضها على البعض الآخر . متحف بويمانس فان بوينينجن في مدينة روتردام. Boymans-van Beuningen.

لقصور الأمراء وعشاق المظاهر ، وإذا بالصورة في شبه الجزيرة الإيطالية تختلف ، وتتخذ طابعا فيه المهابة وفيه التكلف ، وأصبح فن العمارة وفن الأثاث يهدفان إلى إبراز العظمة، والضخامة، والتظاهر الاجتماعي، وكانت قطع الأثاث تكرر في تصميماتها عناصر الضخامة التي تأخذ بها العمارة من فرونتونات ، وكرانيش ، وزخارف على هيئة المداليات ، وأشكال منحوتة . وهذه هي الديكورات الداخلية في الدور المنيفة ، والقصور في إيطاليا في القرن الخامس عشر تصطنع لنفسها الأعمدة المصطفة ، والسراير الضخمة المزينة بشغل النحت ، والحفر ، والأويما ، والمعممة بالبلدكانات، وتبتني السلالم الهائلة، فتعطينا إرهاصا مسبقا بما سيكون عليه الذوق في عصر لويس السابع عشر الذي سمى " القرن العظيم " جران سيكل Grand Siécle، وبهذه الحياة في البلاط التي ستكون نوعا من التظاهر، والاستعراض ، والتمثيل المسرحي . ولا مراء في أن الترف سيكون فيها وسيلة من وسائل الحكم .

ولنترك القرن الخامس عشر ، ونقفز قفزة كبيرة إلى القرن السابع عشر. في القرن السابع عشر - إذا أخذنا في الاعتبار الاستثناءات، وتمثلها بلاد أكثر بساطة مثل هولندة، وألمانيا، وغيرهما - كان ديكورالمنزل في فرنسا ، وانجلترة ، أو حتى في الأراضي الواطئة الكاثوليكية يضع الإقبال على الدنيا ، والتعبير الاجتماعي التظاهري في المقام الأول، ويضحي في هذا السبيل بكل مرتخص وغال . أصبحت قاعة الاستقبال فسيحة، وأصبح سقفها عالياً، وزادوا في فتحها على الخارج ، وأرادوها مهيبة، وحملوها فوق الطاقة بالزخارف ، والتماثيل ، وموبيليات تظاهرية (بوفيهات من الكريدينسا crédence التي صممت برفوف للصحون ، وبوفيهات مثقلة بأعمال النحت) تحمل الفضيات التي صممت هي كذلك للتظاهر ، كذلك علقت الصحون ، والأطباق على الحيطان، كما علقت اللوحات ، وطليت الحيطان ، ونقشت بعناصر زخرفية معقدة (كما حدث بالنسبة لصالون روبنس الذي اتخذ للديكور فيه عناصر تعمد فيها التهويل) ، وفرشت أرضها بالسجاجيد التي كانت تحظى بالاستحسان منذ وقت طويل، ثم تغير أسلوبها ، وتحول إلى نوع من التهويل ، والمبالغة ، والتقيد المكلف الذي كان يفتقر إلى الذوق أحيانا ، ويتحمل بتفصيلات كثيرة لا يحصيها العد .

وعلى الرغم من كل هذه العناصر التي استهدفت التظاهر فقد كانت هذه القاعة قاعة معيشة عامة : ففي هذا الديكور المهيب الحافل بكل ثمين ، على النحو الذي نراه في لوحات الرسامين الفلمنكيين من فان دي باسين Van de Bassen إلى ابراهام بوصي Abraham Bosse ، وهيرونيموس يانسين Hieronymus Janssen، نجد السرير ، قد وضع إلى جانب المدفأة ، وقد ستروه عن الأنظار بستائره الكبيرة ، نعم نجده في نفس هذه القاعة التي نرى فيها الضيوف قد دعوا إلى وليمة حافلة . ولكن الترف في القرن

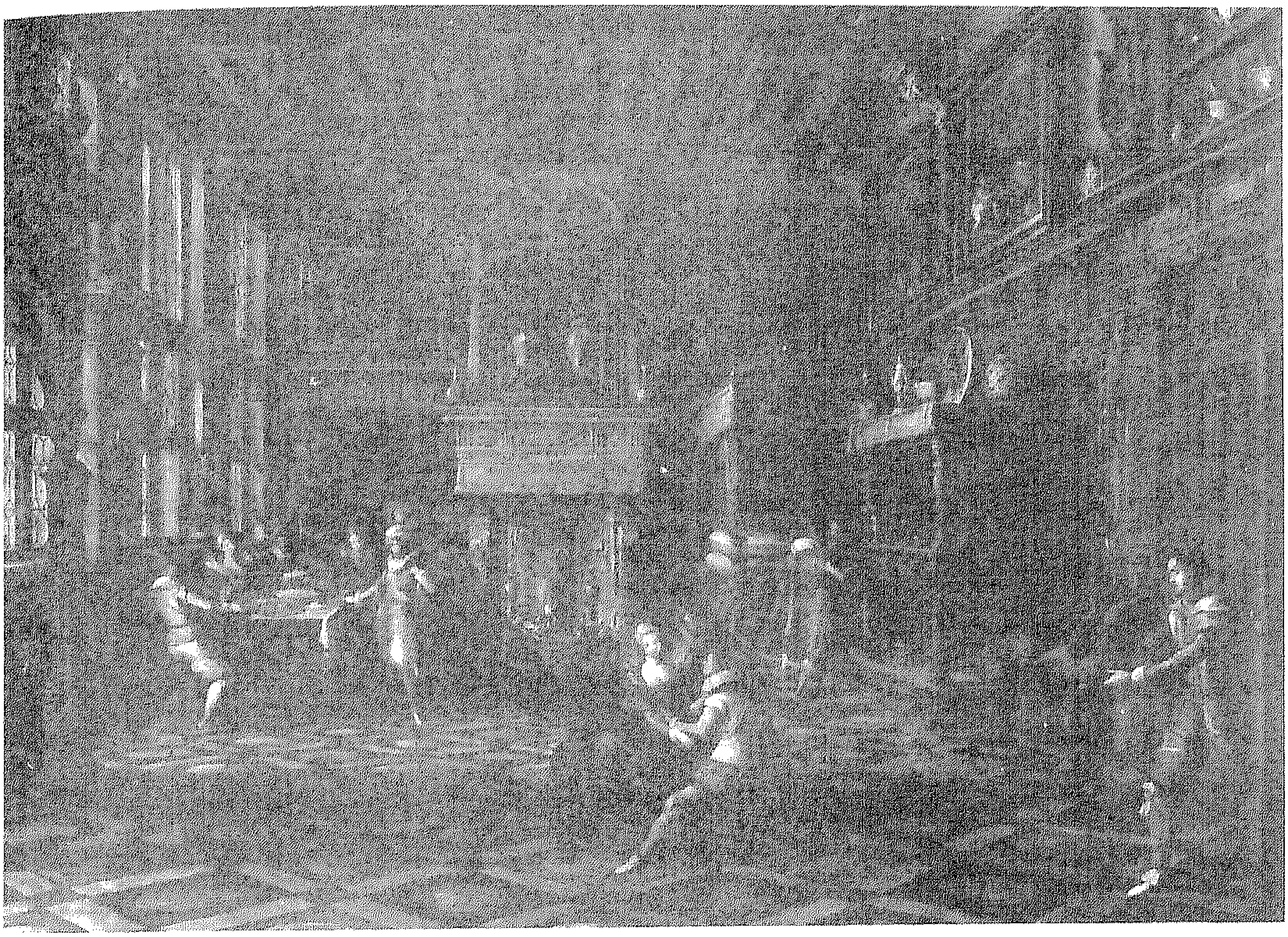

ديكور فلمنكي داخلي من القرن السابع عشر : في قاعة الاستقبال الهائلة التي تنطق بالولع بالمظاهر وتصطبغ بالترف جمعوا كل شيء معا : المدفأة المنيفة ، والسرير المتوج ببلدكانة عالية ، والمنضدة التي مدت عليها مأدبة ينعم بأطايبها الضيوف. (متحف الفنون الزخرفية ، باريس) .

السابع عشر كان يجهل الكثير من وسائل الراحة والرغد ، فلم يكن يعرف التدفئة، ولم يعرف الحياة الخاصة الحميمة ، وهذا هو الملك لويس الرابع عشر نفسه عندما كان يقيم في قصر ڤرساي، كان إذا أراد أن يزور محظيته المدام موتيبان Mme de Montespan يضطر إلى المرور من خلال حجرة مدموازيل دي لا ڤاليير de La Vallière، محظيته السابقة(١٢٨). كذلك نجد نفس الشيء في دار من الدور العظيمة في باريس في القرن السابع عشر، حيث كانت الحجرات في الدور الأول ، وهو المخصص للسادة النبلاء أصحاب الدار، حجرات متداخلة الواحدة في الأخرى ، حجرة من داخل حجرة، تستوي في ذلك حجرات الصالون ، والنوم ، والردهات ، والأنتيشامبرات، وكثيرا ما لم يكن من السهل تمييزها بعضها عن البعض الآخر ، وكان لمن يريد الذهاب إلى السلم مثلا أن يمر من خلال جميع الحجرات ، حتى الخدم وهم يقومون بأعمالهم اليومية .

وكان القرن الثامن عشر هو الذي غير هذا الوضع بما أبدعه من جديد في التصميم . لم تتخل أوروبا عن الأبهة ، والبذخ ، ولم تقلل من كلفها بالمظاهر ، والمجتمع الراقي بل زادت فيه زيادة لم تعرف من قبل ، ولكن الفرد أخذ يحرص على تأكيد حياته الخاصة. فتغير المسكن، وتغير التأثيث، لأن الأفراد أرادوا التغيير ، وتاقوا إليه ، ولأن المدينة الكبيرة شاركتهم في هذا المسعى ، أو تواطأت معهم عليه . فكأنما انساب تيار، كان يكفي الأفراد أن يسيروا في اتجاهه . ونلاحظ في لندن ، وباريس ، وسان بطرسبرج أن كل شيء كان ينمو نمواً سريعاً ، وتلقائياً ، وأن الأسعار أخذت في الارتفاع ، واندفع الترف اندفاعا جامحا لا يقف عند حد ، وضاق المكان، وأصبح على مهندس المباني أن يستغل المكان المحدود الذي كانوا يدفعون ثمنه ذهبا ، وأن يذهب في استغلاله إلى أبعد الحدود (١٢٩). فظهر البيت الحديث ، والشقة الحديثة ، صمما لحياة أقل هيلمانية، وأكثر راحة. ونقرأ في إعلان عرض فيه بعضهم في باريس في عصر لويس الخامس عشر شقة للإيجار : " شقة مكونة من عشر غرف ، عبارة عن أنتيشامبر، وحجرة سفرة، وحجرة استقبال، وحجرة استقبال مجهزة للشتاء [أي فيها تدفئة] ، وغرفة صغيرة للمكتبة ، وغرفة صغيرة للمقابلات، وجناح للنوم والملابس"(١٣٠). كان مثل هذا الإعلان عن مثل هذه الشقة شيئا غير متصور في عهد الملك لويس الرابع عشر .

أصبح المسكن ، على نحو ما يشرح لنا كاتب من أبناء ذلك الزمان، ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم للاستقبال، والمجتمع حيث يستقبل الإنسان أصدقاءه على نحو لطيف مريح؛ وقسم للمظاهر أو إظهار العظمة؛ وقسم للراحة ، والحياة الخاصة العائلية(١٣١). كان هذا التقسيم للسكن يتيح منذ ذلك الحين لكل فرد أن يعيش نوعاً ما على مزاجه.. وأخذت المساكن تميز الأوفيس عن المطبخ ، وحجرة السفرة عن الصالون، وأصبحت حجرة النوم مملكة قائمة بذاتها . ومن رأي لويس مامفورد Lewis Mum ford أن الحب ، الذي لم يكن الناس يشغلون به إلا في الصيف ، أصبح يشغل الناس منذ ذلك الحين طوال العام(١٣٢) وليس علينا أن نصدقه بالضرورة في هذا الذى ذهب إليه، فتواريخ ميلاد الأطفال المبينة بسجل الحالة المدنية تثبت العكس، ولكن تبقى حقيقة تتمثل في أن السكن شهد حول عام ١٧٢٥ " تقسيما داخليا للشقق " لم تعرفه روما ، ولا توسكانا في عصر المديتشي ، ولا فرنسا في عهد لويس الرابع عشر . هذا التقسيم الجديد " الذي قسم الشقة تقسيماً فنياً ممتازاً ، ارتاح فيه السيد، والخادم"(١٣٣) لم يكن مجرد موضة. في هذه " الشقق الصغيرة التي تعددت فيها المطارح، أي الغرف ...تحقق لأصحابها الشيء الكثير في المكان القليل "(١٣٤). وما مر بعض الوقت حتى كتب سيباستيان ميرسييه : " هذه شققنا الصغيرة قد خرطوها، وقسموها، فأصبحت كالصدف المدور المصقول ، وقد تغيرت الغرف القديمة ، التائهة، المظلمة فأصبحت الآن منيرة ، مشرقة ، مريحة "(١٣٥). ويضيف رجل حكيم : " لقد

كان نظام السكن القديم (في المساكن الهائلة) باهظ النفقات، ولم تعد الناس الآن واسعة الثراء لتنفق على مثل هذه المساكن الهائلة"(١٣٦).

أما الموبيليات فقد تركز عليها نهم الناس إلى الترف ، وأصبحوا مولعين بعدد لا نهاية له من الموبيليات الصغيرة التي أغدقوا عليها الثمين القيم من الشغل ، وكانت أقل ضخامة ، وزحمة من موبيليات الأمس لتناسب المقاييس الجديدة للصالونات الحريمي الرقيقة، وحجرات الاستقبال الصغيرة ، والغرف الصغيرة ، التي أصبحت الآن متخصصة تخصصا فائقا لكي تناسب المتطلبات الجديدة للراحة والخصوصية . إنه الوقت الذي ظهرت فيه المناضد الصغيرة المتعددة الأشكال ، والكونصولات ، ومناضد لعب الكوتشينة ، والمناضد التي توضع بجانب السرير ، والمكاتب، ومناضد الوسط، وما أسموه بالخدم الخرس وهي مناضد الأركان ، الخ كذلك كان هو الوقت الذي ظهر فيه الكومودينو - في مطلع القرن الثامن عشر - وكل أشكال الكراسي الوثيرة المنجدة. واخترعوا أسماء خلابة للموبيليات المبتكرة : بيرچير bergére ماركيز marquise ، دوشيس duchesse ، توركواز turquoise ، ڤييز veilleuse ، ڤوايز voyeuse، أتينيين athénienne ، فوتيل كابريوليه cabriolet أو فولان volant..(١٣٧) وظهرت الاتجاهات الابتكارية نفسها في مجال الديكور : البانوهات المحاطة بسدابات ملونة ، ومشغولة بالأويما ، فضيات خلابة كثيراً ما أفرطوا في زخرفتها، مشغولات برونز ولاكيه من طراز لويس الخامس عشر، أخشاب غريبة مستوردة من البلاد النائية، مرايا ، أبليكات ، شمعدانات، مرايا عمدان ، حرير على الحيطان ، بورسيلين من الصين وبيبلوهات من ساكسونيا . إنه عصر فن الروكوكو rococo الفرنسي الألماني الذي أثر بطرق مختلفة على أوروبا كلها : وهو في انجلترا عصر هواة جمع التحف الكبار، وعصر الزخارف الأرابيسك الجصية للفنان روبرت آدم Robert Adam ، وعصر الجمع بين بدائع الفن الصيني - الشينوازيري - والزخارف التي سميت بالزخارف القوطية، " وقد مزج الأسلوبان مزجا ناجحا مفرحا " على حد تعبير مقال ظهر في صحيفة ورلد World في عام ١٧٧٤(١٣٨). ومجمل القول إن البساطة الجديدة التي شملت مجال العمارة لم تواكبها بساطة في الديكور ، بل على العكس . اختفت الضخامة، والعظمة، وحل محلهما في كثير من الأحيان التنميق المبالغ فيه.

الترف .. والراحة

إلا أن هذا الترف لم يواكبه في كل الأحوال ما قد نسميه الراحة " الحقيقية ". كانت التدفئة سيئة ، وكانت التهوية سيئة أيضاً ، وكان الناس يطهون الطعام في كثير من الأحيان على الطريقة الريفية ، فوق كانون متنقل يعمل بالفحم النباتي كانوا " يبنونه من الداخل بالطوب ، ويكسونه من الخارج بالخشب". ولم يكن بالشقق مرحاض،

أو ما سمي بالكابينيه الإنجليزي ، الذي اخترعه في عام ١٥٩٦ السير چون هارينجتون John Harington ، وإذا وجد المرحاض فكان من الضروري تركيبه على كوع حرف S، أو على الأقل عمل مدخنة تهوية للتخلص من الرائح الكريهة الفظيعة(١٣٩). وكانت عملية نضح أو تفريغ المجاري المكشوفة في باريس مشكلة شغلت بها أكاديمية العلوم في عام ١٧٨٨ . واستمر الناس على عادتهم القديمة في دلق القصاري من الشبابيك، حتى لقد كانت الشوارع أشبه شيء بالبيارات المكشوفة . وكان أهل باريس يذهبون إلى ناحية حدائق قصر التويلري " ويقضون حاجتهم تحت صف من شجيرات الزرنيب " ، فلما طردهم حراس القصر ، وكانوا يسمونهم الحرس السويسري ، ذهبوا إلى شواطيء نهرالسين لقضاء حاجتهم هناك ، فامتلأت هذه الشواطيء بالغائط " على نحو يؤذي العين والأنف " أيما أذى (١٤٠). هذه الصورة التي رسمناها ترجع إلى عصر الملك لويس الرابع عشر . وهي تنطبق انطباقا يقل حيناً، ويزيد حينا على كل المدن، الكبيرة والصغيرة، على ليبج وقادس، على مدريد، وعلى مدن أوڤيرنيا العليا الصغيرة التي كان يخترقها مجرى أو غدير يسمونه " ميردريل merderel " أي خرارة ـ يرمي فيه الناس كل ما كانوا يريدون التخلص منه من قاذورات(١٤١) .

في هذه المدن في القرنين السابع عشر ، والثامن عشر كان الحمام شيئا بالغ الندرة، وكانت الحشرات من براغيث ، وقمل ، وبق تشغي في لندن ، وباريس ، وتعشش في بيوت الأغنياء ، والفقراء ، أما إضاءة البيوت فكانت تعتمد على الشموع الكبيرة، والصغيرة، وقناديل الزيت ، واستمرت الحال على هذا المنوال إلى مطلع القرن التاسع عشر عندما ظهر غاز الاستصباح الأزرق . ونلاحظ أن الأشكال العديدة المبتكرة التي استخدمت في الإضاءة البدائية ، من المشعل إلى المصباح ، والأبليك ، والشمعدان الصغير، والنجفة المتعددة الشموع ـ هذه الأشكال التي نراها في اللوحات القديمة ـ ظلت تعتبر حتى وقت متأخر من ألوان الترف . وتبين دراسة عن مدينة تولوز أن تلك الأشكال لم تبدأ في الانتشار هناك إلا حول عام ١٥٢٧ (١٤٢) ، ولم تكن البيوت قبل هذا التاريخ تضاء ، أو لم تكن تضاء إلا فيما عز وندر. ثم تحقق " الانتصار على ظلام الليل " وكان انتصاراً جعل منه الناس سببا من أسباب التظاهر بالعظمة والتفاخر، ولكنه كان مكلفاً ، غالي الثمن. فقد كان يعتمد على الشمع، والشحم ، وزيت الزيتون (أو على الأصح زيت جهنم الذي كان نوعا رديئا يستخرج من زيت الزيتون)، ثم تزايد في القرن الثامن عشر استخدام زيت الحوت ، وهو ما أدى إلى ثراء صيادي الحوت في هولندة، وفي هامبورج، ثم فيما بعد، في موانيء الولايات المتحدة التي تحدث عنها ميلفيل Melville في القرن التاسع عشر .

وهكذا فإذا تصورنا أننا أتيحت لنا الفرصة لندخل إلى داخل البيوت في تلك الأزمان الغابرة ، فلن نرتاح إليها ، وسرعان ما نضيق بها ، لقد كانت جميلة، بل رائعة أحيانا ، ولكن الكماليات فيها لا تكفينا .

الأزياء .. والموضة

ليس تاريخ الأزياء عامرا بالطرائف كما قد يبدو للإنسان من الوهلة الأولى ، بل إنه يعج بالمشكلات ، كل المشكلات : مشكلات المواد الأولى - عمليات التصنيع - تكاليف التصنيع - الارتباطات الثقافية - الموضات - الطبقات الاجتماعية . والزي يتغير حسب المزاج ، ويدل في كل مكان أوضح الدلالة على التناقضات الاجتماعية . فترى قوانين التقشف تعبر عن حكمة الحكومات ، وتعبر على نحو أكبر عن غيظ طبقات المجتمع العالية عندما ترى محدثي النعمة تقلدها. فما كان الملك هنري الرابع ، وطبقة نبلائه ليرضى بأن تلبس نساء ، وبنات البورجوازية الباريسية ثيابا من الحرير. ولكن ليس هناك إنسان استطاع أن يقف في وجه شغف الناس بالوصول ، وبالترقي، أو شوقهم إلى التزيي بالأزياء التي تعبر في الغرب عن الصعود الاجتماعي مهما كان بسيطا. كذلك لم تستطع الحكومات قط أن تمنع ترف التظاهر الاستعراضي الذي كان السادة الكبار يأخذون به، من إقامة مهرجانات فائقة للمألوف كانت تقام للسيدات بعد الوضع في البندقية، واستعراضات الثراء ، والجاه في الجنازات، والمآتم التي كانت تقام في نابلي.

وكان نفس الشيء يحدث في أكثر البيئات تواضعا ، ففي قرية روميجي Rumegies الفلمنكية ، قرب ڤالينسيين Valenciennes كان الفلاحون الأغنياء - طبقا لما أورده قسيس القرية الذي سجل يومياته في عام ١٦٩٦ - يضحون بكل مرتخص وغال من أجل الترف في الملابس . كان " الشباب يلبسون قبعات موشاة بالذهب والفضة ، وما إلى ذلك ؛ وكانت البنات يلبسن على رؤوسهن قواويق عالية ترتفع إلى ما يساوي شبرين ، ويلبسن الثياب المناسبة لهذه الطواقي ..." ولقد بلغت بهن الوقاحة " حدا لم نسمع به من قبل ، فأصبحن يرتدن الحانات في أيام الآحاد..." وتدور الأيام، ويحدثنا القسيس نفسه: " وإذا استثنينا أيام الآحاد التي يذهبون فيها إلى الكنيسة، أو يلمون بالحانات، فقد بلغت بهم جميعا القذارة (فقراء وأغنياء) حدا نفر البنات من الرجال ، والرجال من البنات ، وكأنما أصبحت القذارة دواء لكبح الشهوة الجنسية..."(١٤٣). هنا نرى الشغف بالملابس وما إليها في مكانه الحقيقي، نراه في إطار الحياة اليومية . وهذه مدام دي سيڤينييه de Sevigné تنظر إلى هذه الأوضاع نظرة نصفها الإعجاب ، ونصفها الاستنكار ، فقد استقبلت في يونية من عام ١٦٨٠" فلاحة صغيرة جميلة من بوديجا Bodegat من أعمال بريتانيا تلبس فستانا من قماش هولندة القشيب ، المبطن ببطانة من نوع التابي tabis، وقد زين كُمّاه بفتحات جميلة..". ولكنها للأسف جاءت إليها لأنها كانت مدينة لها بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه(١٤٤). ولكن هذه الفلاحة التي كانت تلبس هذا الفستان كانت حالة استثنائية ، مثلها مثل الفلاحات اللائي

نراهن في لوحة تمثل عيداً في قرية ألمانية في عام ١٦٨٠، متحليات بحرامل مكشكشة حول الرقبة . فقد كان المألوف أنهن يسرن حافيات، أو شبه حافيات، حتى إن الإنسان ليستطيع بنظرة إلى من بالسوق أن يميز البورجوازيين عن عامة الشعب.

لو لم يتحرك المجتمع ...

لو بقي المجتمع ثابتاً على حاله أو نحو ذلك ، لما ألم التغيير بالأشياء إلا قليلا. وهذا هو في أغلب الأحيان شأن الطبقات التي تتربع على قمة السلم الاجتماعي . فإذا نظرنا إلى الصين ، قبل القرن الخامس عشر بكثير ، وجدنا الماندارين يلبسون نفس الثوب، سواء كنا في بكين التي أصبحت منذ عام ١٤٢١ العاصمة الجديدة ، أو توغلنا إلى داخل المناطق المتطرفة مثل سيتشوان Se-tchouan، ويونن Yunann . وهذا الثوب الحريري الموشى بالذهب الذي رسمه الأب دي لاس كورتيس de Las Çortes في عام ١٦٢٦ هو نفس الثوب الذي نراه في رسوم القرن الثامن عشر ، والذي يلبس الماندارين معه " أحذية حريرية طويلة مختلفة الألوان ." فإذا كان الماندارين في بيوتهم ، لبسوا ثيابا قطنية بسيطة . فهم إذن يلبسون الثوب الحريري البراق الموشى بالذهب عندما يمارسون مهام مناصبهم الرفيعة ، وكأنه قناع اجتماعي، أو دليل صدق على هويتهم . والقناع لا يتغير على مر القرون، إذا كان المجتمع ساكنا أو أقرب ما يكون إلى السكون. بل إن الرجة التي أحدثها الغزو التتاري ابتداء من عام ١٦٤٤ لم تمس التوازن القديم ، أو لم تمسه إلا قليلاً . فقد فرض الساسة الجدد على رعاياهم حلق شعر الرأس (إلا خصلة واحدة) ، وعدلوا الثوب القديم العظيم . هذا هو كل ما حدث. وأنه لَعَمْري شيء قليل . وهذا هو رحالة يسجل في عام ١٧٩٣ : " شكل الثياب لا يتغير في الصين تبعا للموضة أو للمزاج إلا فيما عز وندر . فالملبس الذي يناسب رتبة الإنسان والفصل من السنة الذي يُلبس فيه الثوب يُصنع دائما على نفس النمط. والنساء أنفسهن لا يعرفن موضات جديدة قط ، اللهم إلا في ترتيب الزهور ، وما إليها من زخارف يضعنها فوق رؤوسهن ."(١٤٥). كذلك اليابان كانت محافظة ، وربما كانت محافظة رغما عنا ، بعد الحركة العنيفة التي قام بها تيوتومي هيديوشي Hideyoshi (ولد في عام ١٥٣٦ ـ وتوفي ١٥٩٨) ، وهكذا ظلت اليابان على مر القرون الطوال مخلصة للكيمونو kimono، الذي كان ثوبًا للبيت مختلفا اختلافاً طفيفاً عن الكيمونو الحالي، مختلفا كذلك عن الـ " چينباؤري jinbaori وهو ثوب من الجلد على ظهره رسم". وهو الذي كان اليابانيون يلبسونه خارج البيت عادة(١٤٦).

والقاعدة العامة في مثل هذه المجتمعات أنه لا تحدث تغييرات إلا لصالح انقلابات سياسية تمس النظام الاجتماعي كله . في بلاد الهند التي شملها الغزو الإسلامي كلها تقريباً أصبح زي الفاتحين المغول (البيجاما pyjama والشاپكان chapkan) هو القاعدة، على الأقل بالنسبة للأغنياء . " كل صور أمراء إقليم الراچبوتان Radjpoutes تبين لنا [باستثناء صورة واحدة] هؤلاء الأمراء يلبسون ثوب البلاط، وهذا دليل، لا يداخله الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه، على أن نبلاء الهندوس قد قبلوا بصفة عامة عادات وتقاليد ملوك المغول "(١٤٧ . ونلاحظ نفس الشيء في الإمبراطورية العثمانية: في كل مكان شعر الناس فيه بقوة السلطان العثماني ، ونفوذه دخل الزي العثماني وفرض نفسه على الطبقات العالية ، حدث هذا في الجزائر البعيدة ، كما حدث في پولندة المسيحية التي لم تنصرف عن الموضة إلا في وقت متأخر ، وعلى نحو منقوص، حيث حلت الموضة الفرنسية في القرن الثامن عشر محل موضة العثمانلي. ونلاحظ أن ما يقوم به الناس في منطقة ما من تقليد لموضة ثياب يظل ثابتاً بلا تغيير طوال قرون، وأن النموذج يظل ثابتاً . وهذا هو موراج دوسون Mouradj d'Ohsson صاحب كتاب " صورة عامة للأمبراطورية العثمانية " الصادر في عام ١٧٤١ يكتب الملحوظة التالية:" إن الموضات التي تسيطر سيطرة طاغية على نساء أوروبا لا تحرك فى نساء الشرق ساكناً: " نساء الشرق يلبسن نفس الطاقية، ونفس الأزياء ، بنفس التفصيل، ونفس نوع القماش"(١٤٨). وهكذا لم تتغير موضة ملابس النساء على مر ثلاثة قرون في الجزائر التي غزاها الأتراك في ١٥١٦ ، وبقيت تركية إلى عام ١٨٣٠ . وإذا نحن قرأنا الوصف الدقيق الذي سجله حول عام ١٥٨٠ الأب هيدو Haedo الذي وقع في الأسر" وجدنا أنه يمكن أن يصلح ، مع قليل من التصويب ، لشرح الصور التى رسمت بالحفر في عام ١٨٣٠ " (١٤٩).

إذا لم يكن في الدنيا
سوى فقراء ...

فلن يكون لهذه المشكلة وجود . ولن يتحرك شيء من كل الأشياء الثابتة، ولن تكون هنا ثروة، ولن تكون هناك حرية حركة ، ولن تكون هناك تغيرات يمكن أن تتحقق. والفقراء، أينما كانوا، يتجاهلون الموضة ، هذا هو قدرهم . وثيابهم ، سواء منها الجميلة، أو الفقيرة، تبقي على هيئتها، لا تتغير. أما الثوب الجميل، فهو ثوب العيد ، كثيرا ما يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وعلى الرغم من التنويعات اللانهائية التي نراها في الأزياء الشعبية القومية والمحلية، فإن ثوب العيد يبقى على مر القرون على حاله، لا

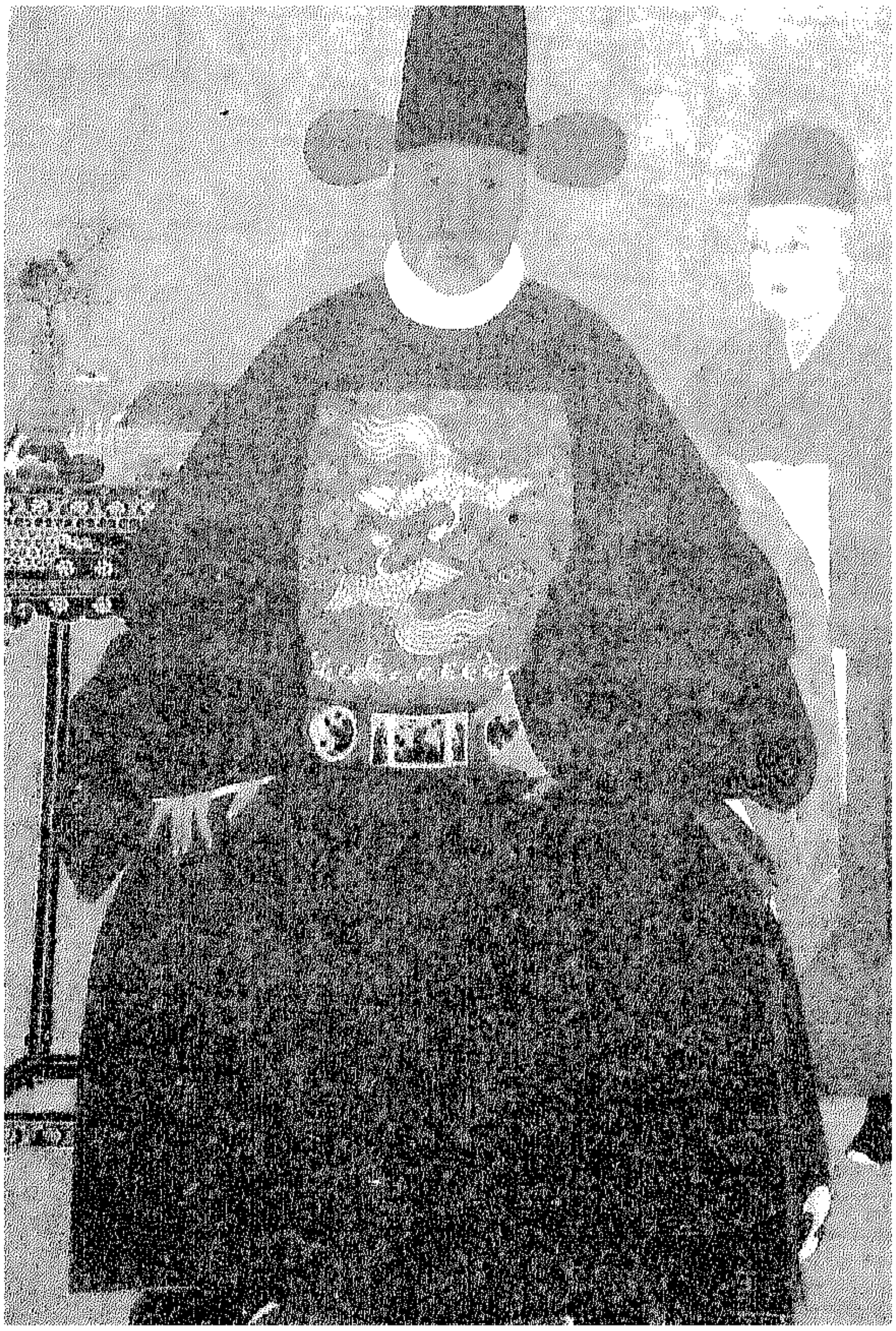

قاض صيني . لوحة صينية على الحرير ترجع إلى القرن الثامن عشر . ـ مجموعة لو Loo القديمة

يشبه إلا نفسه. أما الثوب الفقير فهو ثوب العمل ، ثوب كل يوم ، يصنعونه من أقل المواد المحلية تكلفة ، وهو لا يتغير أيضا ، بل إنه أبعد عن التغيير من ثوب العيد .

ونجد مصداق ذلك في ملبس نساء الهنود الحمر في إسبانيا الجديدة ـ المكسيك في أيام لاس كورتيس ، فقد كن يلبسن قميصاً طويلا من القطن ، اتخذنه فيما بعد من الصوف، كن يوشينه أحيانا على النحو الذي نراه في القرن الثامن عشر . أما زي الرجال فقد تغير ما في ذلك شك ، ولكنه تغير في إطار ما طلبه الغزاة والمبشرون من الهنود من أن يغطوا بملابسهم عوراتهم ، وألا يكشفوها كما كانوا يفعلون في الماضي. أما في

پيرو فكان أهل البلاد الأصليون يلبسون في القرن الثامن عشر نفس الزي الذي يلبسونه اليوم، تربيعة من صوف اللاما ينسجونها في البيت، ويجعلون في وسطها فتحة للرأس، ويسمونها البونتشو poncho. ونلاحظ نفس الجمود في الهند منذ أقدم العصور: فقد كان الهندوس يلبسون ثوبهم المسمي الدهوتي dhoti كما كانوا يلبسونه فيما مضى من الزمان . وكان " القرويون والبسطاء " منذ قديم الزمان " يصنعون ثيابهم من الأقمشة القطنية [...] من كل نوع ، ولون"(١٥٠)، وكانت هذه الثياب عبارة عن قميص طويل محزق من الوسط. وكان الفلاحون اليابانيون في عام ١٦٠٩ ، كما كانوا قبل ذلك بقرون فيما نرجح ، يلبسون الكيمونو المبطن بالقطن (١٥١). واليك ڤولني Volney في كتابه " رحلة مصر" (١٧٨٣) يعبر عن دهشته وقد رأي ثياب المصريين: " هذا الشال الكبيرالذي يلفونه. ويبرمونه برما كثيراً فوق رؤوسهم الحليقة، وهذا الجلباب الطويل الذي يتدلى حتى يصل إلى الكعبين ، والذي يلتف حول الجسم، فيبدو كالغلالة أكثر ما يبدو كالثوب"(١٥٢). هذا الجلباب زي قديم ، شديد القدم، أقدم من زي أثرياء المماليك الذي بقي على حاله هو الآخر لم يتغير منذ القرن السابع عشر. أما فقراء المسلمين في أفريقيا السوداء فيصف الأب لابا Labat ثوبهم ، ولنا أن نتساءل هل كان من الممكن أن يتطور هذا الثوب الذي لم يكن في الحقيقة موجوداً: " لم يكونوا يلبسون قمصانا ، بل كانوا يلفون أجسامهم من فوق الكلسون بقطعة من القماش يثبتونها حول وسطهم بحزام؛ وكان أغلبهم يسيرون حفاة، حاسري الرأس "(١٥٣).

أما فقراء أوروبا ، فربما ستروا أبدانهم بقدر من الملابس أكبر من فقراء أفريقيا ، ولكنهم كانوا مثلهم لا يحلمون بالموضة . ولنقرأ ما كتبه چان باتيست سي Jean-Baptiste Say في عام ١٨٢٨ : " أعترف لكم بأنني لا أحس بأي ميل إلى موضات الثياب الجامدة عند الأتراك ، وغيرهم من شعوب الشرق ؛ وكأنها تطيل أمد الاستبداد الأحمق [...] والقرويون عندنا يشبهون الأتراك في موقفهم من الموضات؛ إنهم أسرى الروتين ، وإننا لنرى لوحات قديمة تصور حروب الملك لويس الرابع عشر فيها الفلاحون والفلاحات يلبسون ثياباً لا تختلف إلا قليلا عن الثياب التي يلبسها الفلاحون والفلاحات اليوم "(١٥٤). ويمكننا أن نطبق نفس التفكير على فترة سابقة: فإذا نحن قارنا، على سبيل المثال ، في " متحف اللوحات في ميونيخ " لوحة من رسم پيتر إيرتسن Pieter Aertsen (١٥٠٨ ـ ١٥٧٥) بلوحتين من رسم يان بروجل Jan Brueghel (١٥٦٨ ـ ١٦٢٥) ، فهذه اللوحات الثلاث تمثل مجموعات من الناس في سوق، ومن الطريف أن نتبين من الوهلة الأولى في اللوحات الثلاث، من هم الباعة المساكين، والسماكين، ومن هم البورجوازيون ، سواء كانوا من الزبائن أو المارة: ثيابهم تمكننا من تمييزهم بعضهم عن البعض الآخر على الفور. أما الملحوظة الثانية فهي أكثر

طرافة، ففي فترة النصف قرن التي تفصل بين الرسامين الاثنين تغير الزي البورجوازي تغيراً كبيراً : فقد حلت الحرملة المكشكشة المشتركة بين الرجال ، والنساء عند بروجل محل موضة الياقة العالية الأسبانية الموشاة بشريط بسيط مبروم عند إيرتسن؛ أما الزي الشعبي للنساء ـ ياقة مثنية مفتوحة ، صديري ضيق ، مريلة من فوق جونيللة ذات كسر ـ فقد بقي بغيراختلاف ، اللهم إلا الطاقية التي اختلفت ، ربما باختلاف المناطق . ولدينا وثيقة من قرية من قري منطقة چورا العليا في فرنسا Haut-Jura ترجع إلى عام ١٦٣١ نستنتج منها أن زوجا أوصى في وصيته أن تتلقى زوجته إذا مات وترملت" كل عامين زوجين من الأحذية ، وقميصا ، وكل ثلاثة أعوام ثوبا من الجوخ الثقيل"(١٥٥).

والحقيقة أن زي الفلاحين الذي ظل على حاله ظاهريا قد تغير في بعض تفصيلاته الهامة. فقد بدأ الناس في فرنسا وفي خارج فرنسا ، يلبسون الملابس الداخلية. وكان أهل ساردينيا في القرن الثامن عشر لا يغيرون قميص النوم سنة كاملة علامة على الحداد ، ونفهم من ذلك أن الفلاح كان يلبس آنذاك قميص النوم، وأن عدم تغيير القميص طوال عام كامل يعتبر تضحية تعبر عن الحزن . ونحن نعلم على أية حال، استنتاجا من لوحات كثيرة معروفة أن الأغنياء والفقراء لم يكونوا حتى القرن الرابع عشر يلبسون قميص نوم عندما يأوون الى الفراش، بل ينامون عرايا.

وقد عرفنا هذا العالم المتخصص في علم السكان ، من أبناء القرن الثامن عشر، الذي لاحظ أن " الجرب، والقراع، وكل الأمراض الجلدية، وبعض الأمراض الأخرى التي يرجع السبب فيها إلى انعدام النظافة لم تكن منتشرة فيما مضي بين الناس إلا لأنهم لم يكونوا يلبسون ملابس داخلية "(١٥٦). وتبين كتب الطب والجراحة أن هذه الأمراض لم تختف في القرن الثامن عشر كلية ، ولكنها قلت وتراجعت . ويلاحظ العالم نفسه أن الفلاحين في زمانه كانوا يلبسون بصفة عامة الملابس الصوفية الثقيلة الخشنة . يقول : " الفلاح الفرنسي لا يلبس إلا السيء من الثياب، والأسمال التي تستر عورته لا تقيه إلا أضعف وقاية من قسوة الجو في الفصول المختلفة ، ولكن يبدو أن حاله ـ من ناحية الثياب ـ أقل سوءاً من الماضي ، وليس لزي الفقراء شأن بالترف ، إنما هو مجرد وسيلة لابد منها لاتقاء البرد : والثياب المصنوعة من الكتان التي يلبسها الكثير من الفلاحين لا تقيهم من البرد على نحو كاف [...] ولكننا نلاحظ منذ عدة سنوات [...] أن عدداً أكبر من الفلاحين يلبس ثيابا صوفية ، والدليل على ذلك هين ميسور ، فمن المؤكد أن كمية الأقمشة الصوفية الثقيلة الخشنة التي تصنع في المملكة قد زادت ، ولما كانت لا تصدر إلى الخارج، فهي تستخدم في صناعة ثياب عدد أكبر من الفرنسيين"(١٥٧).

ولكن هذه التحسينات التي دخلت على ثياب الفرنسيين جاءت متأخرة ، وكانت محدودة ، ويمكننا أن نقول إنها بالنسبة للفلاح الفرنسي كانت متأخرة إذا قيست بالتحول الذي أخذ به الفلاح الإنجليزي في ثيابه قبله بفارق واضح . فقد كان الفلاحون الفرنسيون عشية الثورة الفرنسية في مناطق مثل الشالونيه le Chaâlonnais، والبريس la Bresse" يلبسون الكتان المصبوغ باللون الأسود " وكانوا يصبغونه باستخدام منقوع قشور شجر القرو وكانت " طريقة الصباغة بمنقوع قشر شجر القرو هذه قد انتشرت إلى حد أتلف هذه الأشجار في الغابات كلها نتيجة لتجريد الأشجار من قشورها. "ثم إن" الثياب لم تكن تمثل عبئا على ميزانية الفلاح في منطقة بورجونديا Bourgogne(١٥٨). كذلك كانت الحال في ألمانيا حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث كان الفلاح يلبس ثيابا من الكتان . إذا نظرنا إلى منطقة التيرول Tyrol في عام ١٧٥٠ وجدنا تلك اللوحة التي تمثل منظر المزود من مناظر ميلاد المسيح ، وفيه الرعاة يلبسون قميصا أزرق من الكتان يتدلى حتى يصل الركبتين، ويترك الساقين عاريتين ، ويسيرون حفاة ، أو ربما لبس بعضهم نعلا بسيطا مربوطا برباط من الجلد يلف حول الساق. ولم تختلف الحال في منطقة توسكانا التي كانت تعتبر من المناطق الغنية ، فقد كان القروي يلبس، حتى في القرن السابع عشر ، ثياباً من أقمشة نسجت في البيت، أي من أقمشة من التيل أو من خليط نصفه تيل ونصفه صوف ، ما كانوا يسمونه ميتسيلانه mezzelane، أي نصف صوف(١٥٩).

أوروبا

وجنون الموضة

ويمكننا الآن أن نلم بأوروبا الأغنياء والموضات المتغيرة ، دون أن نخاطر بالتشتت في وسط نزوات الموضة الكثيرة . ونحن نعلم بداية أن هذه النزوات لا تمس إلا عدداً قليلاً جداً من الناس ، ولكنهم يحدثون الكثير من الدوي ومن الضجيج ربما لأن الآخرين، ومن بينهم أكثرالناس بؤسا ، ينعمون النظر إليهم ، ويشجعونهم حتى فيما يسترسلون فيه من سرف وشطط .

كذلك نعرف أن هذا الجنون بالتغيير ، الذي تمثل في تغيير الموضة كل عام، لم يصبح حقيقة واقعة إلا في وقت جد متأخر . واقرأ ما كتبه سفير للبندقية لدى بلاط الملك الفرنسي هنري الرابع (حكم من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٦١٠)، يقول : " لا يعتبر الرجل غنيا إلا إذا كان لديه من الثياب ما بين خمسة وعشرين ، وثلاثين ثوبا منوعة الأشكال، وعليه أن يلبس منها كل يوم ثوبا مختلفا"(١٦٠). ولكن الموضة ليست مجرد وفرة، وكمية، وانتشارا ، انما الموضة تتمثل في الدوران دورة كاملة من الأمام إلى

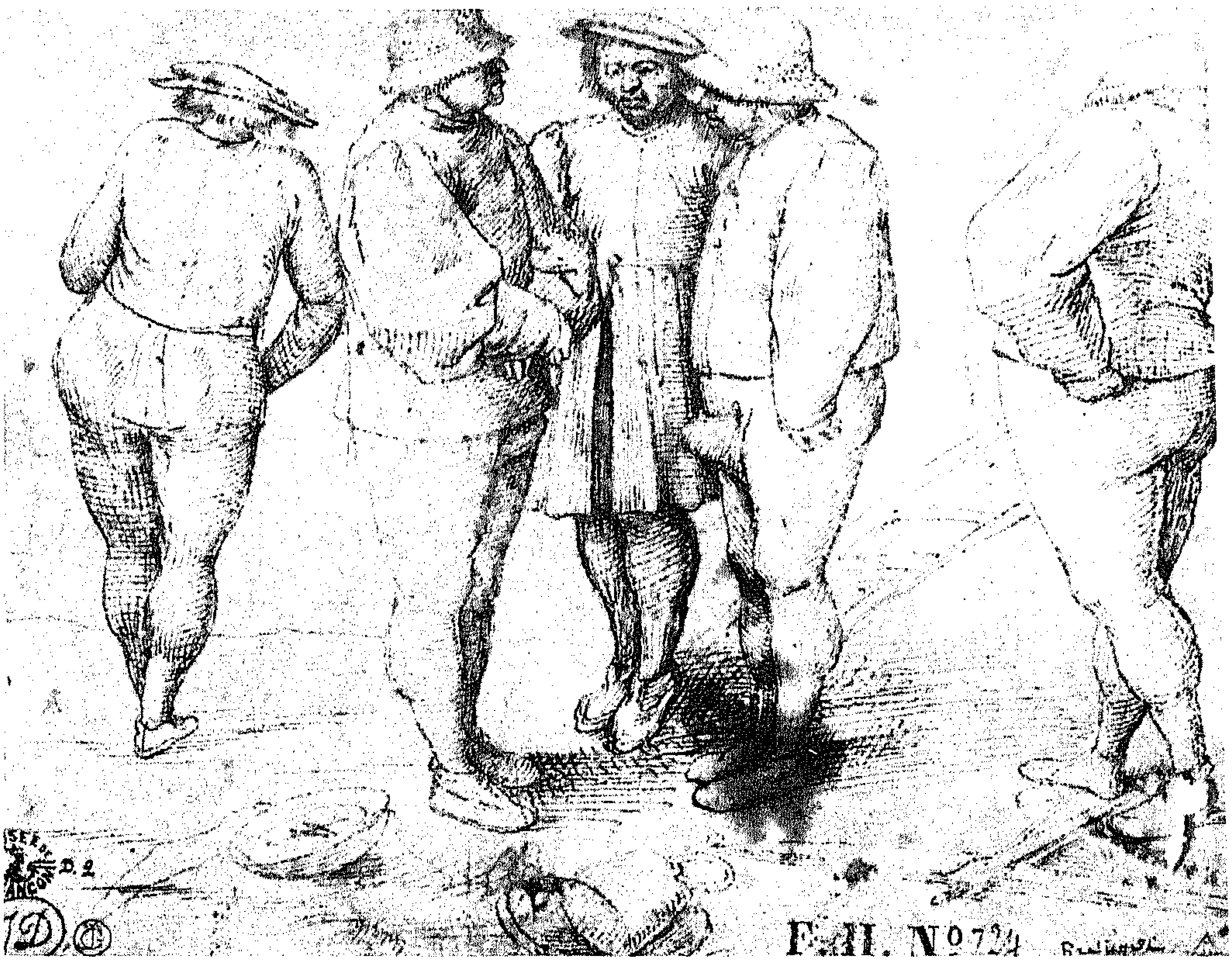

فلاحون يتجاذبون أطراف الحديث ، في منطقة فلاندريا الفلمنكية، في القرن السادس عشر . رسم ينسب إلى بروجل الكبير Brueghel. (متحف بيزانسون) .

الخلف في اللحظة المطلوبة ، في موسم بعينه ، ويوم بعينه ، وساعة بعينها ، ولم تظهر سيطرة الموضة la mode بهذا المعنى قبل عام ١٧٠٠ ، عندما أهلت اللحظة التي تجدد فيه شباب هذه الكلمة التي انتشرت في ربوع الدنيا بمعنى جديد هو: اتّباع ما هو عصري. هنالك اتخذت الأشياء كلها سمات الموضة بمعناها الذي نعرفه اليوم، ولم تكن الحياة قبل ذلك تسير بخطى سريعة .

والحق إننا إذا عدنا إلى الماضي البعيد وجدنا أوروبا تأخذ نفسها بالجمود، وأن الأحوال فيها كانت مثل تلك الأحوال التي التقينا بها في الهند ، والصين ، وبلدان العالم الإسلامي. وظل الجمود هو القاعدة حتى مطلع القرن الثاني عشر ، كان الناس في أوروبا يلبسون بصفة عامة نفس الثياب التي كان أسلافهم يلبسونها أيام كانت بلاد غالة تابعة للدولة الرومانية ، كانوا يلبسون ثوبا يشبه العباءة يتدلى حتى الكعبين إذا لبسته

المرأة، وحتى الركبتين إذا لبسه الرجل. ودارت القرون جامدة لا يتغير فيها شيء. فإذا حدث تغيير، أيا كان ، مثل إطالة ثوب الرجل ، كما حدث في القرن الثاني عشر، تعرض لنقد عارم . فهذا هو أوردريك فيتال Orderic Vital (١٠٧٥ ـ ١١٤٢) يستنكر ألوان الجنون التي مست الملابس في عصره ، ويرى أنها أتت بأشياء لا معنى لها، ولا نفع فيها، يقول: " لقد تسببت الابتكارات الجديدة في قلب أوضاع الملابس رأسا على عقب"(١٦١) . وليس من شك في أنه يبالغ أشد المبالغة . ومن هذا القبيل أيضا تأثير الحروب الصليبية ، الذي كان أقل مما ظن البعض فيما مضى : جاءت هذه الحروب في مجال الملابس بالحرير، وترف الفراء ، ولكنها لم تغير شكل الثياب تغييرا أساسيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

أما التغيير الكبير الذي شهدته الملابس فهو ذلك الذي حدث حول عام ١٣٥٠ عندما قصروا ملابس الرجال ، على نحو رآه الحكماء ، والشيوخ ، وحماة التقاليد فاضحا. هناك نص منحول يقلد أسلوب جيوم دي نانجي Guillaume de Nangis. راهب من أبناء القرن الثالث عشر كتب أخبار زمانه ـ يقول: " في هذا العام لبس الرجال، وبخاصة النبلاء، والخيالة ، وخاصتهم ، وبعض البورجوازيين ، وخدمهم ثيابا مسرفة في القصر، والضيق حتى إنها كانت تبرز ما كان الحياء يفرض ستره .وعجب عامة الناس من هذه الثياب أشد العجب "(١٦٢). وقد بقيت هذه البدلة التي التصقت بالجسم، ولم يعد الرجال إلى الثوب الطويل القديم بعد ذلك . كذلك اتخذت النساء الكورساج corsage. الصدرية المحزقة ـ الذي التصق بالجسم ، وبين شكله ، وانفتح من أعلاه على هيئة الديكولتيهات الواسعة ـ مما أثار الاستهجان ، هو أيضاً .

ويمكننا على نحو ما أن نؤرخ بهذه السنوات البداية الأولى للموضة، فمنذ ذلك الحين أصبح التغيير في الملابس قاعدة لها وجودها وفعاليتها في أوروبا . كذلك نلاحظ أن الثوب التقليدي بقي على هيئة واحدة تقريبا في كل بقاع أوروبا، أما الثوب القصير فلم ينتشر على وتيرة واحدة في كل مكان ، بل كان يلقى المعارضة حيناً، وتمتد إليه يد التعديل والتحوير أحيانا أخرى ، حتى نشأت الموضات القومية ، التي كانت بعضها تؤثر في البعض الآخر، فكان هناك الزي الفرنسي، والزي البورجوندي، والزي الإيطالي، والزي الإنجليزي ...الخ . أما أوروبا الشرقية فوقعت بعد تفكك بيزنطة تحت التأثير المتزايد للموضات التركية(١٦٣). وبقيت أوروبا ، فيما يختص بالملابس، متعددة الألوان حتى القرن التاسع عشر على الأقل، وإن ظلت مستعدة لقبول قيادة بلد بعينه، تتحقق له ميزات القيادة .

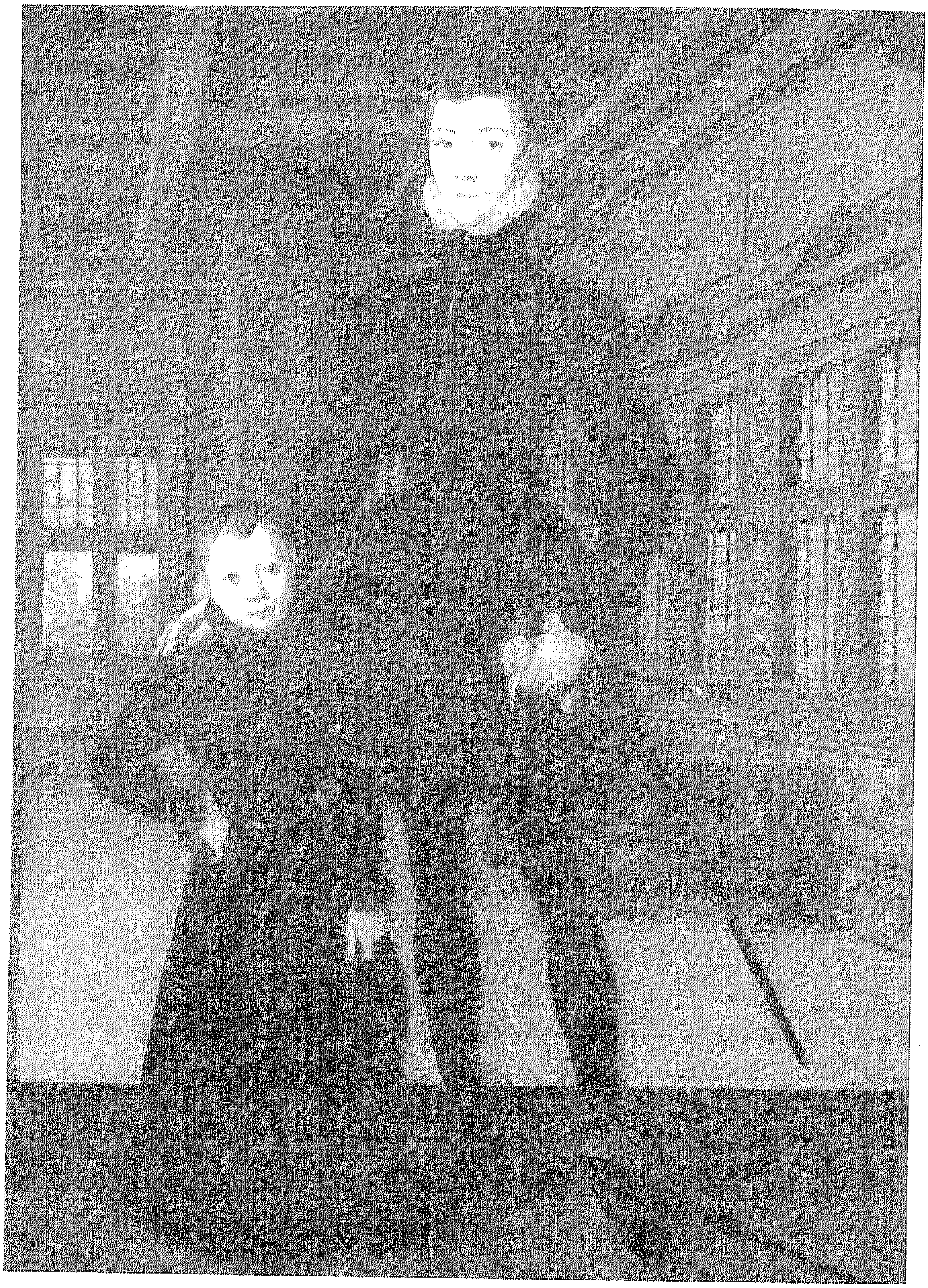

البدلة السوداء على الطراز الإسبانى ، يلبسها اللورد دارنلي Lord Darnley وأخوه الصغير (١٥٦٣)، لوحة من رسم هانس إيڤورث Hans Eworth، في قلعة وندسور .

وهكذا ظهرت البدلة المصنوعة من الجوخ الأسود المستوحاة من الأنماط الإسبانية، وفرضت نفسها في القرن السادس عشر على طبقات المجتمع الراقية. وكانت هذه الموضة آية النفوذ السياسي للإمبراطورية العالمية التي يتربع على عرشها صاحب الجلالة الملك الكاثوليكي (الإسباني) . توارت بدلة الرينسانس الايطالية الفاخرة، بفتحة الصدر المربعة الواسعة ، والكم الفضفاض ، والتطريز بالذهب والفضة ، والأقمشة الحريرية، والقصب، والساتان، والقطيفة القرمزية ، التي كانت نموذجا احتذاه جزء كبير من أوروبا ، وحلت محلها البساطة الإسبانية ، بالأجواخ الغامقة ، والصديري المحزق، والأحذية الطويلة ذات القلابة ، والعباءة القصيرة (الكيب)، والياقة العالية المرتفعة التي تزدان بحلية مكشكشة قصيرة . أما في القرن السابع عشر فقد خطا الزي الفرنسي شيئا فشيئا نحو النجاح والذيوع ، وكان زيا صنع من أقمشة حريرية فاقعة الألوان ، واتخذ في التفصيل طابعا أكثر تحررا ، وانطلاقا . ومن البديهي أن إسبانيا كانت أكثر الدول بطئا في قبول إغراء هذه الموضة الفرنسية . وهذا هو الملك الإسباني فيليب الرابع (١٦٢١ ـ ١٦٦٥) الذي كان يكره ترف عصر الباروك Baroque يفرض على الطبقة الأرستقراطية في مملكته الموضة المتزمتة المتوارثة من عصر فيليب الثاني. وظلت البدلة الملونة ممنوعة في البلاط الملكي زمنا طويلا ، ولم يكن يسمح للأجنبي بدخول البلاط إلا اذا لبس" الملابس السوداء " اللائقة . حتى إن مبعوث الأمير كونديه Condé حليف الأسبان آنذاك لم يؤذن له بالمثول بين يدي الملك إلا بعد أن غير بدلته، ولبس البدلة السوداء المفروضة. ولم تنفذ الموضة الأجنبية إلى أسبانيا إلا بعد موت الملك فيليب الرابع ، حول عام ١٦٧٠ ، ووصلت إلى قلب أسبانيا نفسه، إلى مدريد ، وكان الابن غير الشرعي للملك فيليب الرابع ، الدون خوان النمساوي الثاني Don Juan de Austria، هو الذي مكن لهذه الموضة الأجنبية من النجاح والذيوع(١٦٤). إلا أننا نلاحظ أن إقليم قطالونيا كان قد أخذ بالمبتكرات الجديدة منذ عام ١٦٣٠ قبل أن يثور على مدريد بعشر سنوات. فإذا نظرنا إلى هولندة ، وجدنا أن بلاط اللاستاتهاودر Stathouder ـ الوالي المعين من قِبَل الملك الإسباني ـ كان في هذا الوقت قد استسلم لغواية الموضة الجديدة على الرغم من المحافظين المتزمتين ، الذين لم يكونوا قلة . وهناك في المتحف القومي Rijksmuseum لوحة تمثل بيكر Bicker عمدة أمستردام في عام ١٦٤٢ يلبس الزي التقليدي على النمط الإسباني. وليس من شك في أن موضوع الأخذ بالموضة هناك كان أيضاً يختلف باختلاف الأجيال، فنحن نرى في اللوحة التي رسمها الرسام د . فان سانتفورت D. van Santvoort للعمدة ديرك باس ياكوبس Dirk Bas Jakobsz

في عام ١٦٣٥ أنه هو وزوجته يلبسان الحرملة المكشكشة على الموضة القديمة ، بينما يلبس أولادهما جميعا ثيابا على الموضة الجديدة . كذلك عرفت ميلانو الصراع بين الموضة القديمة والموضة الجديدة ، ولكن هذا الصراع كان له معنى آخر : كانت ميلانو من الممتلكات الإسبانية ، ونرى في رسم كاريكاتوري يرجع إلى منتصف القرن السابع عشر رجلا إسبانيا يلبس ثيابا على الموضة التقليدية ، ويبدو عليه أنه يوبخ رجلا من أهل ميلانو، اختار أن يلبس ثيابا على الموضة الفرنسية. فهل يجوز لنا أن نرى في انتشار الموضة الفرنسية من خلال أوروبا علامة على مدى تدهور أسبانيا ؟

هذا التتابع في مجال نفوذ الموضة يوحي إلينا بالتفسير الذي قدمناه في معرض حديثنا عن انتشار الزي المغولي في الهند أو الزي العثماني في الامبراطورية التركية : والرأي عندنا أن أوروبا أسرة واحدة ، على الرغم من - أو ربما بسبب - صراعاتها . كان من يحظى بالمزيد من الإعجاب هو الذي يفرض الموضة ، أو هو الذي يفرض القانون في مجالها ، وليس هو بالضرورة ، كما يظن الفرنسيون ، الأكثر قوة ، أو الأكثر حظا من الحب ، أو من الذوق الرفيع . ومن الواضح أن تغيرات النفوذ السياسي التي شملت الجسم السياسي لأوروبا بكامله - وكأنما كان هذا الجسم السياسي سيغير ذات يوم اتجاه مسيرته أو مركز ثقله - لم تمس على نحو مباشر مملكة الموضات بكامل هيئتها . ولكننا نلاحظ أن تيار الموضة تيار يتقدم هنا، ويتعثر هناك ، يلقى القبول في هذه المنطقة ، والرفض في تلك ، يسير بسرعة حينا ، وببطء أحيانا. وإذا كانت الموضة الفرنسية قد بدأت تظهر عل الموضات الأخرى في القرن السابع عشر ، فقد مكنت لنفسها ، وأصبحت مسيطرة سيطرة حقيقية في القرن الثامن عشر . حتى في بيرو ، في عام ١٧١٦، حيث كان ترف الأسبان قد بلغ درجة لم تسمع بها أذن من قبل ، كان الرجال يلبسون " على الموضة الفرنسية ، وكانوا في أكثر الأحيان يستوردون البدلة الفرنسية الحريرية من أوروبا ، وربما مزجوا الألوان الفاقعة مزجا عجيبا "(١٦٥). كانت الموضة قد انطلقت إلى ربوع أوروبا كلها في عصر التنوير ، خارجة من باريس ، وكانت تسير بها الى كل الأنحاء عرائس المانيكان ، أو عرائس العرض ، التي صنعت في وقت جد مبكر. وأصبحت عرائس الموضة تحكم بغير منازع . نجد مصداق ذلك في البندقية ، التي كانت عاصمة قديمة للموضة وللذوق في القرنين الخامس عشر ، والسادس عشر ، فقد تسمى فيها محل من أقدم محلات الموضة " لا بيافولا دي فرنتسا La Piavola de Franza " أى " عروسة فرنسا "، عروسة الموضة .ونقرأ عن ملكة بولندة (وكانت أخت الإمبراطور) أنها طلبت إلى مرسال أسباني بأن يأتيها ، إذا ذهب إلى البلاد الواطئة ، " بعروسة تلبس على الموضة الفرنسية لكي يستخدمها خياطها نموذجا " لأن الأسلوب البولندي في تفصيل الأزياء لم يعجبها(١٦٦).

ومن البديهي أن السعي إلى اختزال ما يحدث في مجال الملابس بهدف الوصول إلى موضة واحدة سائدة سعي ينضوي على السكوت عن أشياء وإهمالها ، فهناك على الهامش ، الجمود الهائل الواسع في مجال الشياب التي كان الفقراء يرتدونها ، كما قلنا من قبل . كذلك هناك أشياء برزت على سطح بحر الملابس المائج ، منها ما كان يتصل في بعض المناطق من مقاومة محلية ، أو من انغلاق محلي في وجه الموضة . والمؤرخون الذين يكتبون تاريخ الأزياء يجدون أنفسهم في مواقف تسبب اليأس ، عندما يرون ما تتعرض له الخطوط العامة التي يتبينونها من حركات معارضة مناقضة نافرة منحرفة. كان بلاط الڤالوا Valois في منطقة بورجونديا الفرنسية شديد القرب من ألمانيا ، شديد الأصالة ، ولهذا لم يكن ليتبع موضة البلاط الملكي الفرنسي . فمن الممكن أن نتبين في القرن السادس عشر انتشارا عاما للطوق الذي كانوا يضعونه تحت الجونيللة حتى تبدو فضفاضة منفوخة ، وكذلك انتشارا أوسع ، وأبقى على مرالقرون للتوشية بالفراء، ولكن كل واحد كان يتخذه على الطريقة التي تحلو له . ونلاحظ أن الحرملة المكشكشة كانت موضة ، ولكنها كانت تتخذ أشكالا مختلفة ، تبدأ بكولة معقولة مكشكشة، وتنتهي إلى الحرملة الضخمة المصنوعة من الدنتيللة التي تتحلى بها ايزابيل براسنت Isabelle Brandt في الصورة التي رسمها روبنس Rubens والتي تظهر فيها بجانبه، كذلك نراها في تلك اللوحة التي رسمها كورنيليس دي فوس Cornelis de Vos والمحفوظة بمتحف بروكسل والتي يظهر فيها الرسام مع زوجته وبنتيه، وقد تزينت زوجته بهذه الحرملة الكبيرة المصنوعة من الدنتيللة .

ونقرأ عن ثلاثة من الرحالة الشبان من أهل البندقية نزلوا سرقسطة بأسبانيا ذات مساء في شهر مايو في عام ١٥٨١ ، وكانوا فتية حساناً ، أشرافاً ، محبين للحياة، حساسين ، أذكياء ، واثقين ، وراضين عن أنفسهم . وبينا هم في الشارع ، مر بهم موكب يحمل قدس الأقداس ، ومن خلفه حشد من الرجال والنساء . يقول الراوي مقالة الهمز واللمز : " كانت النساء قبيحات ، طلين وجوههن بأصباغ من كل الألوان ، وكم كانت دهشتنا عندما رأينا أنهن يلبسن أحذية عالية ، أو على الأصح قباقيب مرتفعة من نوع التسوكولي (١٦٧)، على موضة البندقية ، وشيلانا من نوع المانتيليا mantilla على الموضة الإسبانية الشائعة ." وقد دفعهم حب الفضول إلى مشاهدة هذا المنظر، ولكن الذي يحملق في الناس، يحملق الناس فيه، ويشيرون إليه بأصابعهم ، ويستغربونه كما يستغربهم. وأخذ المارة من الرجال والنساء يسخرون منهم ، بالكلمة والضحكة. ويقول أحدهم – وهو فرنتشيسكو كونتاريني Francesco Contarini " وإنما سخروا منا لأننا كنا نلبس ياقات من الدنتيللة من طراز النيمفي nimphe، أكبر من الياقات المألوفة في إسبانيا، وصاح فينا بعضهم قائلين : " أتكون هولندة قد أتت إلينا بقضها

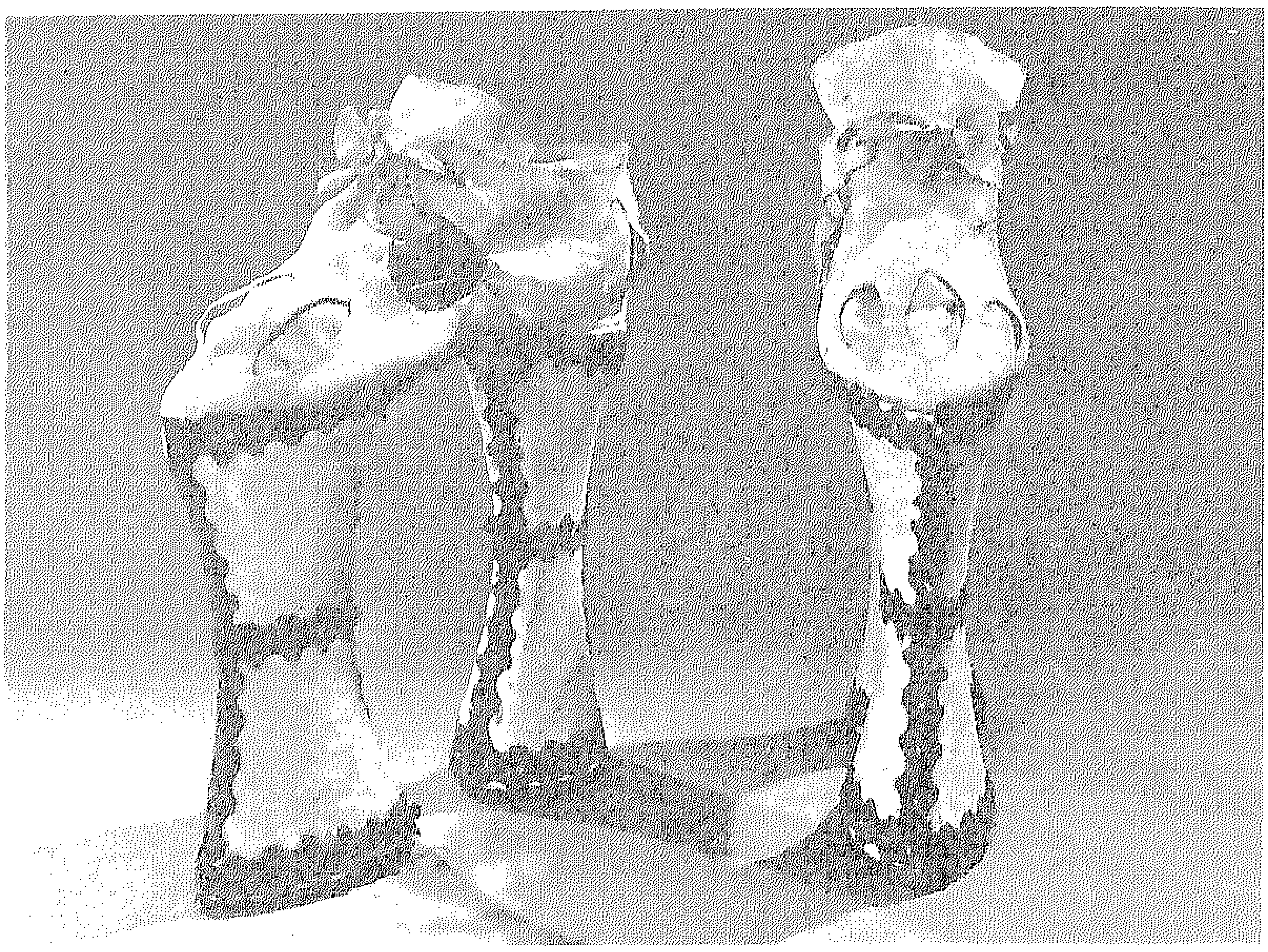

قباقيب عالية كانوا يسمونها تسوكولي zoccoli، وكانت النساء يلبسها اتقاء للمياه المتراكمة في شوارع البندقية ، وكانت موضة انتشرت حينا في البندقية في القرن السادس عشر .

وقضيضها ؟ [يقصدون بهولندة قماش هولندة ، أو تلاعب بكلمة olando التي كانت تعني القماش الذي يصنع منه ملايات السراير والبياضات] وصاح البعض الآخر: ياقات هذه أم تراها أوراق الخس المرجرجة؟ وقد وجدنا في كلامهم هذا ما أضحكنا وأمتعنا"(١٦٨). أما القس لوكاتيللي Locatelli فكان أقل ثقة في نفسه، عندما نزل مدينة ليون في فرنسا قادماً من إطاليا في عام ١٦٦٤، فلم يستطع التصدي للأولاد الذين سخروا من ملبسه، وجروا وراءه في الشارع : " وكان علي أن أخلع القبعة العالية التي عرفت باسم قمع السكر ... والجوارب الملونة ، وأن ألبس ثيابا على الموضة الفرنسية ، فلبست قبعة بحافة ضيقة من النوع المسمى تساني Zani، وحرملة عريضة تناسب الطبيب أكثر مما تناسب القسيس ، وثوباً قصيراً لا يصل إلا إلى منتصف فخذي ، وجوارب سوداء، وأحذية ضيقة ليس لها أربطة بل لها أبزيمات من الفضة . فلما لبست هذا الزي ظننت أنني لم أعد قسيسا "(١٦٩).

الموضـــــة

هل هي طيش وعبث؟

تبدو الموضة في ظاهرها كأنها طليقة في تصرفاتها، حرة في نزواتها، ولكن الحقيقة

الدوقة ماجدالينا البافارية Herzogin Magdalena von Bayern ، لوحة من أعمال الرسام پيتر دي نفتته Pieter de Witte الذي يعرف أيضا باسم Peter Candid (١٥٤٨ـ ١٦٢٨). تلبس الدوقة ثيابا باذخة من الحرير المحلى بالذهب ، والأحجارالكريمة ، والبروردري ، والدنتيللة الغالية. متحف الفن Pinakothek في ميونيخ.

أن الموضة طريقها مرسوم من قبل إلى حد كبير، وتشكيلة اختياراتها. التى نشبهها بالمروحة التي نفتحها، وننشرها شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مداها - محدودة كذلك .

والموضة، بما لها من آليات، ترتبط بالتغيرات الثقافية، أو ترتبط على الأقل بقواعد انتشار هذه التغيرات الثقافية . وكل انتشار من هذا النوع هو بطبيعته انتشار بطيء، وهو رهن بآليات عليه أن يتبعها ، ومحظورات عليه أن يلتزم بها. وقد تسلى توماس ديكر Thomas Dekker الكاتب المسرحي الإنجليزى (١٥٧٢ـ١٦٣٢) بتعداد ما في الملابس من أشياء استعارها مواطنوه الانجليز من الأمم الأخرى، فقال: " فتحة البنطلون الأمامية أخذناها من الدنمرك، و ياقة السترة الضيقة، والقماط الذى يشده الناس تحتها من فرنسا ، والكرانيش ، والأكمام الضيقة من إيطاليا ، والصديرى القصير أخذناه من تاجر خردوات وكُلُف هولندى من مدينة أوترخت ، والأحذية الضخمة ذات الكعوب العالية من أسبانيا ، والأحذية ذات الرقبة من پولندة"(١٧٠). و ليس من المؤكد أنْ تكون شهادات إثبات المصدر التي أصدرها توماس ديكر سليمة ودقيقة ، ولكن المؤكد هو: تنوع مكونات الثياب ، تنوعا يوحي بأن أرباب الموضة ظلوا يعملون أكثر من موسم كامل، ليخرجوا على الناس بتوليفة يقبلها الجميع ، تكون هي موضة الموسم .

ولقد دبت السرعة في كل شيء في القرن الثامن عشر، وامتلأ بالنشاط ، والقوة، والحيوية، ولكن الطيش ظل هو القاعدة التي تقوم عليها مملكة الموضة التي تمتد إلى ما لانهاية، ولا نرى لها شاطئًا ، وهي مملكة يحب أهلها التحدث عنها، و يهفوا إلى التحدث عنها الشهود، الذين يقفون خارجها ، ويتطلعون إلى ما يجرى فيها. ولنستمع إلى سيباستيان ميرسييه ، دون أن نصدقه عميانيا، وكان صحفيا موهوبا، جيد الملاحظة، ولكنه لم يكن ، على وجه اليقين ، مفكراً كبيراً، كتب في عام ١٧٧١ يقول: " لو خطر ببالي أن أكتب بحثاً عن فن تسريح الشعر، لأَدهشت القراء عندما أبرهن لهم أن هناك ثلاثمائة أو أربعمائة طريقة لتصفيف شعر الرجل من أبناء الطبقة الراقية ." هذه العبارة التي نستشهد بها مكتوبة بطريقة هذا الكاتب المميزة المألوفة ، وهي طريقة تحرص على إبراز الناحية الأخلاقية كما تحرص على الطرافة المسلية. ولهذا فإننا نجد فيما يكتبه هذا الكاتب ما يغرينا بالنظر إليه نظرة جادة، وهو يقيم تطور الموضة النسائية في عصره، فهو يقول : " إن المخدات ، التي كانت أمهاتنا يضعنها كالحشو تحت الجونيللات، والقماش الذى كن يفضلنه مخططاً طولياً ويكثرن فيه من الكشاكيش، والتقفيصات المصنوعة من الأطواق التي كن يلبسنها تحت الفساتين، وطوابع الحسن المصنوعة من القماش التي كن يلصقنها على وجوههن ، والتي كان منها ما يلوح كاللبخة الملبخة، كل هذا تلاشى، ولم يبق إلا تسريحة الشعر العالية المبالغ فيها: فلم تستطع غرابتها المثيرة للضحك أن تغير من تعلق النساء بها ، ولكن الذوق ، والجمال هما الكفيلان بإصلاح

عيوب هذه التسريحة العالية ، فالذوق ، والجمال هما العنصران اللذان يهيمنان على الأناقة، أو على ما يمكن أن نسميه بنية عمارة الأناقة . والنساء ، إذا أخذنا بصورتهن في مجموعها، يلبسن اليوم ثيابا أكثر أناقة من أي وقت مضى ، وهن يتخذن أناقتهن على نحو يجمع بين الخفة ، والاحتشام ، والسلاسة ، والطلاوة . إن هذه الفساتين التي يلبسنها الآن ، والتي صنعت من الأقمشة الرقيقة (الأقمشة الهندية) تتجدد موضتها أكثر من الفساتين التي كانت تتلألأ بالذهب والفضة، إنها تكاد تتبع في تجددها المستمر- إذا صح هذا التعبير - درجات ألوان زهور المواسم المختلفة..."(١٧١).

هذه شهادة جميلة يبين فيها صاحبها أن الموضة تقوم بالتصفية وتقوم بالتجديد، أي أنها تقوم بعمل مزدوج ، وتواجه مشكلة مزدوجة . ويتمثل التجديد هنا في الأقمشة الهندية المطبوعة التي كانت تصنع من القطن، والتي كان ثمنها منخفضا نسبيا. ولكن هذه الأقمشة لم تغز أوروبا بين عشية وضحاها، وتاريخ الأقمشة يبين بوضوح أن كل ما يجرى في هذا المجال يجرى فيما يشبه حفل الموضة الراقص ، الذى لا يتاح للمدعوين فيه من الحرية إلا أقل مما يظن الإنسان للوهلة الأولى .

ولكن هل الموضة في الحقيقة شيء سخيف لا طعم له ولا معنى؟ أم هل الموضة، على نحو ما نرى ، علامة تقوم في حقيقتها العميقة شاهداً على مجتمع ، واقتصاد ، رحضارة بعينها ؟ وشاهدا على دوافع المجتمع وإمكاناته ، ومطالبه ، وابتهاجه بالحياة؟ في عام ١٦٠٩ كان رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero عائداً من مانيللا حيث شغل منصب القائد العام بالوكالة ، وجنحت به سفينته - وكانت سفينة كبيرة حمولتها ٢٠٠٠ طن - على شواطيء اليابان، وكان قد ركب هذه السفينه لتقله الى أكاپولكو في أمريكا الجنوبية أو ما كانوا يسمونه إسبانيا الجديدة. وسرعان ما تحول هذا الرجل الذى كان يوشك على الغرق إلى ضيف يلقى الترحاب في هذه الجزر التي لاذ بها، فأقبل الأهالي بالشغف والفضول على هذا الأجنبي، وأحسنوا وفادته ، ثم تحول بعد ذلك إلى ما يوشك أن يكون السفير فوق العادة الذي سيحاول - ولكن دون جدوى - أن يغلق هذه الجزر في وجه التجارة الهولندية ، وسيفكر - أيضا بدون جدوى - في استقدام عمال مناجم من إسبانيا الجديدة بهدف تحقيق استغلال أفضل لما في الجزر من مناجم فضة ونحاس . ويصح أن نضيف ان هذا الرجل اللطيف كان يتميز بالذكاء وحسن الملاحظة. وكان ذات يوم يتبادل أطراف الحديث مع رجل عينه عظيم اليابان الذي كان يعرف بالشوجون Shogun، نائبا عنه في ييدو Yedo (طوكيو)، فعاب النائب على الإسبان كبرياءهم ، وتحفظهم ، ثم عرج على طريقتهم في اللبس ، فشكك فيها قائلا: " إنهم ينّوعون في ثيابهم، تنويعا يبين أنهم متقلبون، لا يكادون يثبتون على حال، حتى إنهم يلبسون كل عامين ثيابا تختلف عن تلك التي كانوا يلبسونها من قبل ." وكان مندهشا

لأنهم لا يدركون ما تدل عليه هذه التغييرات من طيش في طبعهم ، وطيش في مسلك حكوماتهم التي تسمح بمثل هذه الموبقات ؟ أما هو فذكر إنه " يستطيع أن يعتمد على شهادة التراث المتواتر في بلاده ، والوثائق القديمة الباقية ليدلل على أن أمته لم تغير ثوبها منذ أكثر من الف سنة "(١٧٢).

كذلك شاردان Chardin (١٦٨٦)، الذى عاش عشر سنوات في بلاد فارس، يعبر عن رأى قاطع من النوع نفسه إذ يقول : " لقد شاهدت ثياب تيمورلنك التي يحفظونها في خزينة بإصفهان، فوجدت أنها مفصلة تماما كالثياب التي يصنعها الشرقيون في هذه الأيام، دون أى اختلاف" ويضيف " لأن ثياب الشرقيين لا تخضع البتة للموضة، بل هي تصنع دائما على الطراز نفسه ، كذلك [...] الفرس [...] ليسوا ممن يغيرون الألوان ، والدرجات اللونية ، وأنماط الأقمشة " (١٧٣).

و لست بحاجة إلى إصدار حكم على هذه الملحوظات الجوفاء . فالحقيقة أن المستقبل سيكون ـ وما يمكن أن يكون هذا من قبيل المصادفة البحتة ـ ملك يمين هذه المجتمعات التى كانت من الطيش بحيث أخذت تهتم بتغيير ألوان الملابس، والمواد التي تصنع منها والأشكال التى تتخذها، وكذلك تغيير نظام المقاييس الاجتماعية، وتغيير خريطة العالم ـ أى أن المستقبل سيكون ملك يمين المجتمعات التي قطعت ما بينها ، وبين التقاليد من صلة . ذلك أن الأشياء كلها مترابطة بعضها مع البعض الآخر . ألا يقول شاردان عن هؤلاء الفرس أيضاً " إنهم ليسوا شغوفين بالاختراعات الجديدة ، والاكتشافات " وأنهم" يعتقدون أن لديهم كل ما يلزمهم لسد حاجاتهم ، وتدبير أمور حياتهم ، وهم يتمسكون بهذا الذى لديهم "(١٧٤). التقاليد فضيلة ، والتقاليد سجن. فهل تحتاج عملية فتح الأبواب أمام التجديد يا ترى ـ وهى الأداة المؤدية إلى كل تقدم ـ إلى أن يحل بالناس قلَقُ مُعيّن، لا يقتصر على أمرٍ بعينه ، بل يمتد حتى يصل إلى الملابس، وإلى شكل الأحذية، وتسريحات الشعر؟ أم هل تحتاج كل حركة تجديدية إلى قدر من الغنى والرفاهية يغذيها ؟

ولكن الموضة لها مدلولات أخرى أيضاً . وكثيراً ما خطر ببالي أن الموضة تَصْدُرُ في كثير من أمرها عن رغبة المتميزين في التميز ـ أيا كان الثمن ـ التميز عن جماعة المنافسين الذين يتبعونهم، وفي إقامة حاجز فاصل بينهم وبين هذه الجماعة التابعة ـ يشهد على ذلك ما ذهب إليه رجل من أهل صقلية مر بباريس في عام ١٧١٤ ، فرأى فيها ما جعله يقول : " ليس هناك شيء يجعل الإنسان يمقت الثياب المذهبة التي يلبسها الوجهاء أكثر من رؤيتها على أبدان أناس من أحط الطبقات"(١٧٥). لابد عندئذ، عندما يلبس العامة الثياب المذهبة التي يلبسها الخاصة ، أن يبتكر المبتكرون ملابس مذهبة جديدة ،

أو يبتكروا سمات مميزة جديدة ، أيا كانت ، ويبقى إحساس بالحزن عندما يتبين الوجهاء " أن كل شيء ـ كما نقرأ في نصٍ من عام ١٧٧٩ ـ قد تغير وأن موضات الثياب البورچوازية الجديدة ، التي يلبسها البورچوازيون من النساء والرجال على السواء، تختلط بموضات الثياب التي يلبسها أبناء الطبقة الراقية(١٧٦). هناك شيء واضح كل الوضوح ، وهو أن المقلدين ، والسائرين في الركاب يبثون الحياة في سباق الموضة. ولكن إن كانت تلك هي الحقيقة الواقعة فمرجعها إلى أن الثراء يميز أهله ، ويدفع إلى الأمام بعدد من الأغنياء الجدد . هناك صعود اجتماعي، وهناك تأكيد لرفاهية معينة، وهناك تقدم مادي ، ولو لم يكن هناك هذا التقدم المادي لما حدث تغير بهذه السرعة .

ثم إن عالم التجارة يستغل الموضة استغلالاً واعياً ، ونحن نقرأ ما كتبه نيكولا باربون Nicholas Barbon في عام ١٦٩٠ يتغنى بمحاسن الموضة : "الموضة أو تغيير الثياب ... هي روح التجارة ، وشريان حياتها ". يرجع الفضل إلى الموضة في " أن جسم التجارة الكبير يظل حياً نشيطاً " ، وفي أن الإنسان يعيش في ربيع دائم دون أن " يرى أبدا خريف ثيابه"(١٧٧). ولقد استغل تجار وِصناع الحرير في مدينة ليون الفرنسية في القرن الثامن عشر طغيان الموضة الفرنسية في فرض إنتاجهم على الخارج، وتنحية المنافسة . كانت أقمشتهم الحريرية رائعة ، ولكن الفنيين المهرة في إيطاليا كانوا يقلدونها دون جهد، وبخاصة عندما انتشرت طريقة إرسال العينات مسبقا للترويج للبضاعة. ووجد تجار وصناع الحرير الليونيون الحل، فشغلوا الرسامين، الذين عُرفوا باسم "رسامي الحرير"، ليجددوا في كل العام رسومات الحرير تجديدا كليا . فإذا نزلت الرسومات التي قلدها الإيطاليون إلى السوق تكون قد أصبحت موضة قديمة. ولقد نشر كارلو پوني Carlo Poni مراسلات تبين ، بما لا يدع مجالا للشك، حيلة تجار وصناع الحرير الليونيين، وكيف كانوا يمارسونها (١٧٨).

والموضة هي أيضاً البحث عن لغة جديدة للهبوط بمستوى القديم، هي البحث عن وسيلة يتمكن بها كل جيل من إنكار الجيل السابق، والتميز عنه (على الأقل في المجتمع الذى يكون فيه صراع بين الأجيال). وهناك نص يرجع إلى عام ١٧١٤ يقول: " الخياطون يتعبون في الابتكار أكثر مما يتعبون في الخياطة "(١٧٩). كانت المشكلة في أوروبا هي على وجه التحديد: الاختراع، هي هدم صروح لغات الإعادة والتكرار. أما القيم المطمئنة، الكنيسة ، والملكية ، فكانت تسير في الاتجاه المضاد، وتصر على المحافظة على وجهها نفسه على الأقل ظاهريا ، فالراهبات يلبسن ثياب نساء العصر الوسيط، والرهبان المنتمون إلى طوائف البندكتين ، والدومينيكان، والفرنسيسكان يخلصون لثيابهم العتيقة . وانظر إلى الثياب الملكية الانجليزية، والمراسم التي يحرصون عليها، تراها ترجع على الأقل إلى حرب الوردتين ، تلك الحرب الأهلية التي نشبت في القرن الخامس عشر في انجلترا بين أسرة يورك وأسرة لانكستر، أسرة اتخذت لها الوردة البيضاء

هؤلاء الأتراك الذين رسمهم بلليني Bellini في القرن الخامس عشر يمكننا أن نلتقي بهم دون تغيير ملحوظ في لوحات القرن التاسع عشر . واللوحة من مجموعة روتشيلد في متحف اللوڤر .

رمزاً ، وأسرة اتخذت من الوردة الحمراء رمزاً لها. وما التمسك بمراسم قديمة إلا لعبة متعمدة تقوم على السباحة ضد التيار. ولم يخطيء سيباستيان ميرسييه عندما كتب في عام ١٧٨٢ : " عندما أرى أفراد التشريفة الكنسية أقول في نفسي.. هكذا كان الناس جميعا يلبسون في عصر شارل السادس..."(١٨٠).

كلمتان في موضوع جغرافية المنسوجات

قبل أن نختم هذا الفصل يسوقنا تاريخ الملابس إلى موضوع تاريخ المنسوجات، والأقمشة ، وإلى جغرافية تتناول إنتاجها ، وتبادلها ، وتبحث عمل النساجين البطيء، والأزمات المتتالية الناجمة عن نقص المواد الأولية . كانت أوروبا تعاني نقصاً في الصوف ، والقطن ، والحرير ، وكانت الصين تعاني نقصاً في القطن ، وكانت الهند وبلاد العالم الإسلامي تعاني نقصاً في الصوف الخفيف ، وكانت بلاد أفريقيا السوداء تشترى المنسوجات الأجنبية على سواحل المحيط الأطلنطي ، والمحيط الهندى ، وتدفع ثمنها بالذهب ، وبالعبيد . وكانت تلك هي الوسيلة التي تدفع بها الشعوب الفقيرة ثمن مشترواتها الترفية .

وإذا نظرنا إلى خريطة العالم وجدنا أن مناطق الإنتاج تتسم بنوع من الثبات، فهناك منطقة للصوف ترتسم من حولها حدود لم تتغير إلا قليلاً من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، إذا استبعدنا أمريكا وما تمكنت من انتاجه من أصواف (رقيقة جداً)، وكانت أمريكا تصنع هذه الأصواف الرقيقة جدا من وبر الفيكونيا، والأصواف الخشنة من وبر اللاما. وكانت منطقة الصوف هذه تشمل حوض البحر المتوسط وأوروبا. وإيران، وشمال الهند، والجزء الشمالي البارد من الصين.

فالصين كانت فيها أغنامها " والصوف فيها شائع، ورخيص الثمن". ولكن الصينيين " لا يعرفون كيف يصنعون منه أقمشة حسب الموضة الأوروبية "، وهم يعجبون بالأقمشة الصوفية الأوروبية، ولا يستطيعون شراءها " لأن ثمنها أعلى من ثمن أجمل الأقمشة الحريرية بما لا يدع مجالا للمقارنة ." والأقمشة الصوفية التي يصنعونها أقمشة غليظة من نوع الغطف البنية الثقيلة التي كانت معروفة في أوروبا . ولكنهم كانوا أيضا يصنعون مقاطع صوفية " رقيقة جداً، وقيمة جداً ... كان الشيوخ، والوجهاء يلبسونها في الشتاء " (١٨١). والحق إن ما عاناه الصينيون من حيرة في هذا المجال كان ينصب على الاختيار، فقد كان عندهم الحرير، والقطن، وكان عندهم، فوق هذا وذاك، نوعان أو ثلاثة أنواع من الألياف النباتية، يصنعونها صناعة سهلة أو على الأقل صناعة عامة . فإذا أقبل الشتاء لبس الوجهاء، أصحاب الأمر، المعروفون باسم الماندارين والسادة صوف القاقم، ولبس الفقراء صوف الغنم(١٨٣).

والمنسوجات، شأنها شأن كل النعم الثقافية المتواضعة، تجد السبيل إلى التنقل، وإلى السعي إلى مناطق جديدة . فالصوف سيلتمس لنفسه محلاً مختاراً في ربوع استراليا في القرن التاسع عشر . والحرير وصل إلى العالم الأوروبي على الأرجح في عصر تراجان (ولد فى عام ٥٢ ـ وحكم من عام ٩٨ إلى ١١٧)، والقطن خرج من الهند، وأغرق الصين ابتداء من القرن الثاني عشر، ووصل إلى منطقة البحر المتوسط في وقت أسبق، حول القرن العاشر، عن طريق محطة انتقال يمثلها العالم العربي .

من بين هذه الرحلات التي قامت بها المواد الأولية كانت رحلات الحرير أكثرها إثارة . فقد ضربت الصين على الحرير سياجا من الحراسة الصارمة، وكأننا بعاشق غيور يخفي معشوقته عن العيون، فظل الحرير قرونا يحاول الخروج حتى تحقق له بلوغ منطقة البحر المتوسط . ولم يظهرالصينيون في البداية رضاء خالص النية تجاه رحلة الحرير، وكذلك كان موقف الفرس الساسانيين الذين كانوا حريصين على الفصل بين الصين وبين بيزنطة، ويشددون الحراسة في اتجاه الصين، وفي اتجاه بيزنطه جميعاً. حتى جاء جوستنيان . ولم يكن جوستنيان فقط مؤسس كنيسة القديسة صوفيا، ولم يكن فقط صاحب التشريع

الذى حمل اسمه، وإنما كان أيضاً امبراطور الحرير، فقد نجح بعد مغامرات عديدة مختلفة في أن يجلب إلى بيزنطة دودة القز ، وشجرة التوت الأبيض، وطريقة فض الشرانق، ونسيج خيوط القز أو الحرير الثمين . وكسبت بيزنطة ثروة ظلت طوال العديد من القرون حريصة على الحفاظ عليها ، وكتمان أسرارها .

وفي القرن الذى يبدأ به كتابنا هذا ، وهو القرن الخامس عشر، كان الحرير قد عرف طريقه منذ أربعمائة سنة تقريبا إلى صقلية ، والأندلس . وانتشر الحرير - ومعه شجرة التوت - إبان القرن السادس عشر في مناطق توسكانا ، وڤينيسيا ، ولومبارديا، وشمال پيومنتي في إيطاليا ، وعلى طول وادي نهر الرون في فرنسا . وكان الفوز الأخير الذى حققه في جولته هو دخوله الساڤوى في القرن الثامن عشر. ولو لم تتقدم زراعة أشجار التوت، وتربية دودة القز في صمت وسكون لما عرفت صناعة الحرير في إيطاليا وفي غير إيطاليا ما عرفته من ازدهار فذ فريد ابتداء من القرن السادس عشر .

ولم تكن رحلات شجرة القطن، ورحلات القطن أقل إثارة، فلن تلبث أوروبا أن تعرف قماش القطن الثمين اعتبارا من القرن الثالث عشر خاصة عندما شح الصوف نتيجة قلة تربية الأغنام . فلما قل الصوف انتشر قماش بديل ، أو قماش مخلوط عرف بالاسم الألماني "ersatz" إرزاتس" ، وبالاسم الفرنسي "futaines" فوتين " ، وكانت لُحمته خيوطا من التيل، وسُداته خيوطا من القطن . وشاع هذا القماش شيوعاً كبيراً في إيطاليا ثم في منطقة شمالي جبال الألپ ، وبدأ الحظ يبتسم لنوع منه اسمه برشنت Barchent في مدينتي أولم ، وأوجسبورج الألمانيتين ، وهما في منطقة وراء جبال الألب كانت البندقية تؤثر فيها من بعيد بما تمارسه من تجارة . والحقيقة أن المدينة الكبيرة ، مدينة البندقية ، كانت ميناء استيراد القطن ، تجلب منه الغزل كما تجلب بالات القطن الخام (الذى كانوا يسمونه صوفا). كانت البندقية ترسل في كل عام في القرن الخامس عشر سفنا كبيرة إلى الشام في طلب القطن . وكانت بلاد الشام نفسها تصنع القطن لديها ، في حلب، وفي المنطقة حول حلب مثلا ، وكانت تصدر قماشه إلى أوروبا . وكانت أنواع من الأقمشة القطنية الزرقاء الغليظة - التي تماثل أقمشة مرايل المطبخ التقليدية لدينا - تستخدم إبان القرن السابع عشر في صناعة الملابس الشعبية بجنوب فرنسا . ثم جاءت فيما بعد، في القرن الثامن عشر، إلى الأسواق الأوروبية الأقمشة القطنية الهندية، وكانت أقمشة رقيقة مطبوعة اشتهرت باسم " الهنديات " سعدت بها النساء حينا إلى أن قامت الثورة الصناعية، ومكنت الإنجليز من إنتاج ما يناظر إنتاج النساجين الهنود ، ثم من إنزال الخراب بهم بعد ذلك .

انجلترا بلد الصوف حفر على النحاس من منطقة نورث ليتش - بلوسشتلر.

أما التيل والجوت فقد بقيا تقريبا في مواطنهما الأصلية، وربما تحركا في اتجاه الشرق ناحية پولندة ، والبلاد البلطيقية، وروسيا ، ولكنهما لم يبرحا أوروبا (أو على الأحرى أوروبا وأمريكا). ولكن هاتين المادتين الأوليتين أديتا خدمات جليلة، فمنهما صنعت: الملايات، ومفارش الموائد والمناضد، والملابس الداخلية، وكذلك الأكياس، والبلوزات ، وبنطلونات الفلاحين ، وأشرعة السفن ، والدوبار والحبال، كل هذه الأشياء كانت تصنع من واحدة من المادتين التيل، والجوت، أو منهما معا . وكان القطن في مناطق أخرى، وبخاصة في أمريكا، يؤدى مهامهما تماما بلا تقصير ، حتى في صوارى السفن، وإن كانت الچونكات الصينية واليابانية، وهي سفن لها شراع على هيئة الحصيرة تفضل استخدام برامق من البامبو، لم يكف المتخصصون في فن الملاحة عن التغني بميزاتها.

وإذا نحن أردنا الآن أن نعالج تاريخ صناعة المنسوجات ، وأن نتناول المميزات الخاصة لأنواع الأقمشة التي لا يحصيها العد ، لاحتجنا إلى صفحات ، وصفحات، وإلى قاموس كبير للمصطلحات المستخدمة لدينا في فرنسا ، والمصطلحات الواردة إلينا ، والتى لا تدل دائما على نفس المنتجات ، وربما كانت تطلق على أشياء لا نعرفها نحن الآن على وجه اليقين .

ولكننا سنعود بالضرورة في المجلد الثاني من هذا الكتاب إلى هذا الموضوع في الفصل الخاص بصناعات المنسوجات . فلنترك الموضوع إلى أن يحين حينه .

الموضات بالمعنى الواسع
وذبذبات طويلة الأجل

الموضة لا تسيطر على الملابس وحدها ، بل لها مجال أوسع بكثير ، وقاموس البيان المعروف Dictionnaire sentencieux يعرف كلمة موضة la mode كما يلي: " إنها طريقة اللبس، والكتابة، والسلوك التي لا يكف الفرنسيون عن تعديلها ، وتقليبها على ألف وجه ووجه ، ليتيحوا لأنفسهم مزيداً من الرقة ، ومن اللطف، وقد يضفون على أنفسهم بها في كثير منّ الأحيان مزيداً من السمات المضحكة" . هذه الموضة التي تمس كل شيء هي إذن الطريقة التي ترسم بها كل حضارة الاتجاه الذى تهتدى به. الموضة تشمل الفكرة التي يتفتق عنها الذهن ، والثوب الذي يتأنق به الإنسان ، والكلمة التي تنطق بالنجاح، والحركة التي تعبر عن الغندرة، وطريقة استقبال الضيف عند المائدة، وأسلوب لصق المظروف الذى نضع فيه الخطاب .الموضة هي الطريقة المعينة للكلام ، وهي أنماط معينة نقرأ عنها فيما كتبه بعضهم في عام ١٧٦٨ : " البورچوازيون يتخذون خدماً، وأبناء الطبقة الراقية يتخذون شمشرجية ، والقساوسة يتخذون فراشين. "فالموضة تنوع أشكال الخدم . والموضة تحدد شكل الطعام ، وهذه هي ساعة تناول الوجبات في أوروبا تتنوع بحسب المناطق ، وبحسب الطبقات الاجتماعية ، وتتنوع أيضا بحسب الموضة . وكانوا في القرن الثامن عشر يستخدمون فعل dîner (يتعشى) للدلالة على تناول طعام الغذاء déjeuner. وهناك نص من القرن الثامن عشر يقول : " الحرفيون يتعشون (!) في الساعة التاسعة صباحا ، والريفيون في الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وأهل باريس في الساعة الثانية ، ورجال الأعمال في الساعة الثانية والنصف، والسادة في الساعة الثالثة بعد الظهر." وكانوا يتناولون وجبة الـ souper بالمعنى الذى تستخدم فيه لفظة diner أى العشاء ،فنقرأ أن " هذه الوجبة يتناولونها في الساعة السابعة في المدن الصغيرة ، وفي الساعة الثامنة في المدن الكبيرة، وفي الساعةالتاسعة في باريس ، وتكون في البلاط الملكي في الساعة العاشرة

والسادة ورجال المال (أى علية القوم) يتناولون طعام العشاء كل يوم بانتظام ، أما رجال السلك القضائي فلا يتعشون أبداً ، وأما الكتبة فيتعشون عندما يستطيعون "، ومن هنا نفهم تلك العبارة الفرنسية التي تكاد تجرى مجرى المثل: " القضاء يتغدى ، والمال يتعشى "، مما يوحي بتقييم اجتماعي لنوعية الوجبة (١٨٤).

والموضة تشمل طريقة المشي ، وطريقة التحية . هل ينبغي على من يلبس قبعة أن يرفعها عن رأسه ، أو هل له أن يتركها على رأسه عندما يلقى الناس ؟ ويقال إن عادة خلع القبعة في حضرة الملوك في فرنسا أتت من نبلاء نابلي الذين أدهشوا الملك شارل السابع بمراسم أدبهم معه، فأمر بأن يتخذوا مثلا يحتذيه رعاياه .

وتدخل في الموضة وسائل العناية بالجسم ، والوجه ، والشعر . وإذا كنا قد أخرنا الحديث عن هذه الأشياء الثلاثة ، فالسبب في ذلك أن تتبعها أسهل من تتبع غيرها ، وسنلاحظ فيما يتصل بهذه الأشياء الثلاثة أن هناك ذبذبات بطيئة جداً للموضة مناظرة للاتجاهات tendances أو الـــ trends التي يكشف عنها الاقتصاديون عندما يتتبعون مسار حركة الأسعارالمتدافعة والمتفرقة التي يسجلونها يوماً بيوم . هذه الذبذبات، هذه الذهابات والإيابات البطيئة ، التي قد يقل بطؤها أو يكثر ، تعتبر وجها من وجوه الترف، وحقيقة من حقائقه الواقعة ، وشاهدا على الموضة في أوروبا في الفترة بين القرن الخامس عشر، والثامن عشر .

كانت نظافة البدن في حالة نكراء ، في كل العصور ، لا فرق بين أغنياء وفقراء ، أو بين مكان هنا ومكان هناك . وكان من يأخذون أنفسهم بنظافة البدن في هذا الوقت المبكر قلة متميزة ، وقد تحدث بعضهم عن القذارة المنفرة التي رانت على الفقراء ، ومنهم هذا الرجل الإنجليزي الذي عبر في عام ١٧٧٦ عن دهشته " للقذارة التي تتجاوز حدود التصديق " والتي علقت بأبدان الفقراء في فرنسا ، وإسبانيا وإيطاليا : إنها " تجعلهم أقل صحة، وأكثر تشوهاً من الفقراء في انجلترا "(١٨٥). ونضيف في هذا المقام أن الفلاح كان في كل مكان، او في كل مكان تقريباً، يحتمي وراء بؤسه الذى كان يَعْرِضُهُ عرضاً، ويجعل منه درعًا له في علاقته بالسيد صاحب الأرض، ويجابي الضرائب. ولكن لنبق في أوروبا ، ولنسأل: هل كان المتميزون أنفسهم، أبناء الطبقات المتميزة، يتسمون بالنظافة ؟

لم يحدث إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، أن تعلم الرجال عادة لبس" الكالسون الذى يغيِّره الإنسان كل يوم، والذى يحقق نظافة البدن" بدلاً من اللباس المبطن الواحد القديم . ولقد ذكرنا من قبل أن البانيوهات كانت قليلة ، ولم تكن موجودة إلا في المدن الكبيرة . وإذا نظرنا إلى ناحية الاستحمام في البانيو، ونظافة الجسم،

وجدنا أن الغرب شهد في الفترة من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر تدهوراً عجيباً. كانت الحمامات، وهي ميراث قديم يرجع إلى روما ، مألوفة في كل بلاد أوروبا طوال العصر الوسيط . كانت هناك حمامات خاصة ، وحمامات عامة عديدة كذلك ، فيها مقصورات ساخنة ، وبانيوهات، وأرائك للراحة، أو فيها المغاطس الكبيرة، وما كان يحدث فيها من اختلاط عجيب بين الرجال والنساء عرايا . وكان الناس يتلاقون في هذه الحمامات بصورة طبيعية كما كانوا يتلاقون في الكنيسة، وكانت الحمامات العامة مفتوحة أمام الطبقات المختلفة ، وقد وصلت إلى حد أنها كانت تخضع لحقوق السادة أصحاب الأرض، مثلها مثل الطواحين، وورش الحدادة ، واستهلاك المشروبات(١٨٦). أما البيوت الثرية فكانت لها حمامات خاصة بها في البدرومات تتكون من محمى لتسخين الماء ، وأحواض كانت في العادة تصنع من الخشب الذى كانوا يشكلونها دائرياً كالبراميل . وكان الملك شارل الجسور يمتلك صورة من الترف النادر عبارة عن

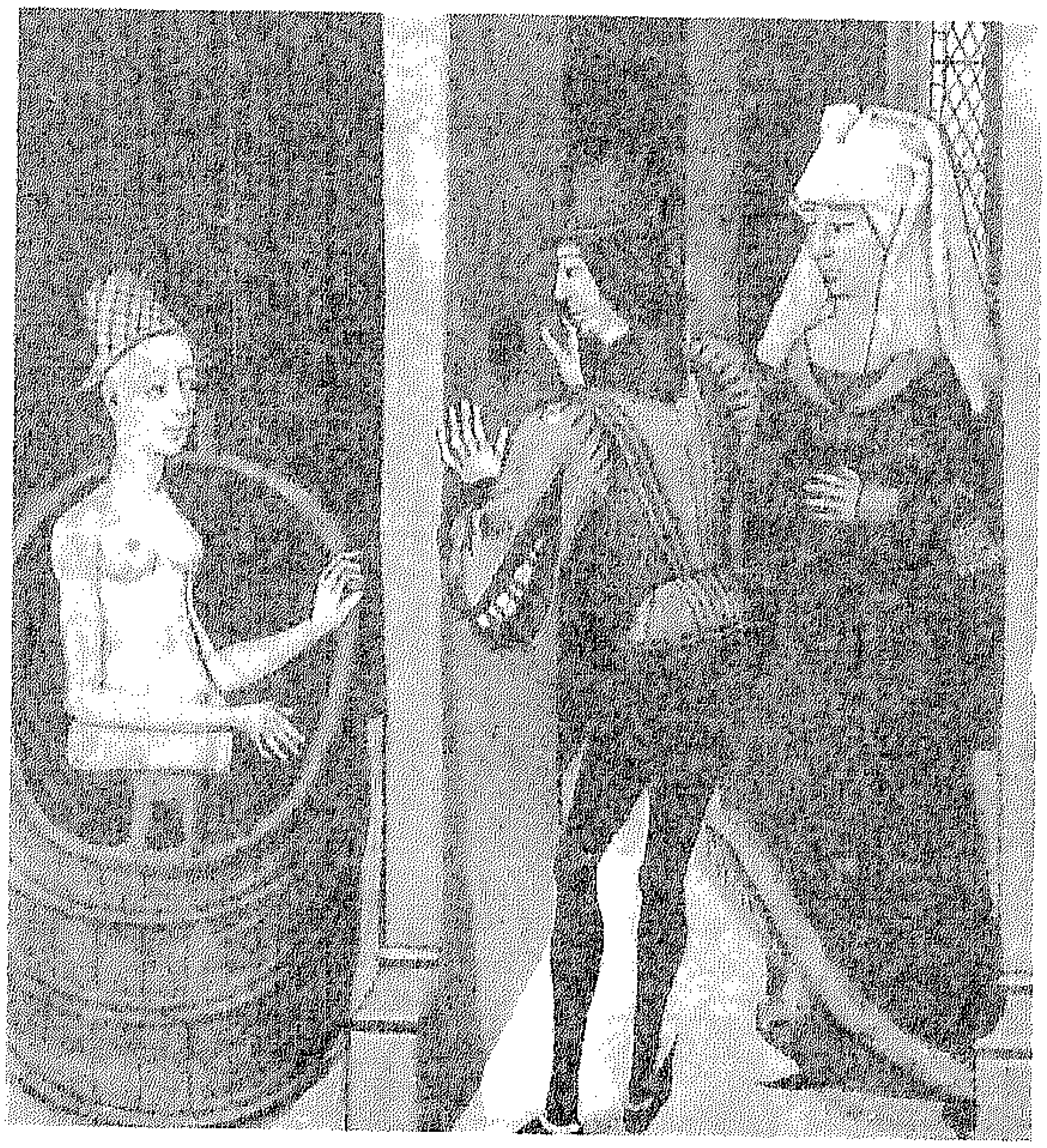

البانيو في القرن الخامس عشر ، أو الحيلة التي لجأ إليها الكونت ليزيار Liziart ، كونت فوريه comte de Forest ، ليختلس النظر إلى الحسناء اوريان Euryant في الحمام من خلال ثقب ثقبته له في الحائط الخادمة الخائنة. رواية البنفسج Roman de la Violette .من مقتنيات المكتبة القومية في باريس) .

بانيو من الفضة كان يتبعه في ميادين القتال : و لقد عثروا على هذا البانيو الفضي في معسكره بعد كارثة جرانسون Granson التي هزم فيها هزيمة منكرة على يد السويسريين في عام ١٤٧٦ (١٨٧).

وأخذت الحمامات العامة تقل إلى درجة الندرة مع مطلع القرن السادس عشر خوفا ـ كما يقولون ـ من مرض الزهرى الفظيع . وربما كان السبب فيما جرى للحمامات العامة تحمس الوعاظ ، الكاثوليك والكالفينيين، في التنديد بما تمثله من كبيرة أخلاقية مهلكة، وإثم مقيت . ولكن الحمامات بقيت إلى حين في بيوت الخاصة ، ولكنها تحولت تدريجياً، من عادة من عادات نظافة البدن ، إلى وسيلة من وسائل العلاج الطبي، لا يلجأ إليها إلا من أصابه مرض . ونلاحظ أن بلاط الملك لويس الرابع عشر لم يكن يلجأ إلى الاستحمام إلا استثناءاً، في حالة الإصابة بالمرض(١٨٨). ثم إن الحمامات العامة ، التي بقيت في باريس ، انتقلت في القرن التاسع عشر إلى أيدى الحلاقين الجراحين، ولم تبق الحمامات العامة إلا في أوروبا الشرقية ، في المدن ، وفي القرى أيضا، حيث احتفظت بسمة من براءة العصر الوسيط . أما في الغرب فقد تحولت في أكثر الأحايين إلى دور مقفلة خاصة بالزبائن الأغنياء .

ونشرت الموضة منذ عام ١٧٦٠ عادة الاستحمام في نهر السين، وأعدت لذلك حمامات على متن سفن بنيت خصيصا لهذا الغرض. وانتشرت بعد ذلك " الحمامات الصينية " التي أقيمت قرب جزيرة سان لويس وسط نهر السين في باريس، وظلت مشهورة حيناً من الزمن. إلا أن سمعة هذه الحمامات ظلت تحوطها الشبهات، ولم تحقق النظافة شيئاً مذكوراً من تقدم حاسم (١٨٩). و يذكر ريتيف ديلابريتون Retif de La Bretonne في عام ١٧٨٨ أن جميع الناس تقريبا في باريس لا يستحمون" ومن يستحمون يكتفون بالاستحمام مرة أو مرتين في الصيف ، أي مرة أو مرتين في العام " (١٩٠). ولم يكن هناك في لندن في عام ١٨٠٠ حمام عام واحد؛ ولقد حدث بعد هذا التاريخ بسنوات عديدة أن حكت امرأة إنجليزية مرموقة على جانب كبير من الجمال هي الليدى مارى مونتاجو Lady Mary Montagu أن بعضهم لفت نظرها إلى أن نظافة يديها ليست على ما يرام فقالت له : " كأنك تقول عن يدى إنها قذرة ؟ فماذا تقول إذا رأيت قدمي ؟ " (١٩١).

ولن ندهش ، والحالة هذه ،لضآلة إنتاج الصابون ، وإن كان الصابون يرجع في أصله إلى بلاد غالة la Gaule الرومانية ، وهو الاسم القديم لفرنسا إبان الامبراطورية الرومانية . وكانت ندرة الصابون سببا في العديد من المشكلات ، ومن المؤكد أنها كانت واحدا من أسباب نسبة الوفيات العالية بين الأطفال (١٩٢). كان الصابون الصلب

المصنوع من الصودا الواردة من منطقة البحرالمتوسط يستخدم كصابون تواليت ، ومن أنواعه قطع الصابون الصغيرة ، التي كانت الموضة تشترط فيها أن تكون " مجزعة كالرخام ، ومعطرة ، جديرة بأن تمر على وجنتي كل أنيق وأنيقة عندنا " (١٩٣). أما أنواع الصابون السائل ، الذي كان يصنع من البوتاس (في الشمال) فكانت تخصص لغسيل الملاءات ، وما إليها من أقمشة . يا لها من حصيلة فقيرة ، خاصة بالنسبة لأوروبا التي تعتبر قارة الصابون ، فالصابون لم يكن له وجود في الصين، لم تعرفه، كما أنها لم تعرف الملابس الداخلية .

علينا أن ننتظر حتي يأتي القرن الثامن عشر ، واكتشافاته التي أضيفت إلى تراث الماضي لنشهد العناية بجمال المرأة . كانت المرأة المتأنقة ، المتغندرة ، تعكف خمس أو ست ساعات متواصلة على زينتها، مستسلمة لأيدى خادماتها ، ومستسلمة أكثر لأيدى مصفف شعرها، وتثرثر في أثناء ذلك مع قسيسها أو مع " عشيقها ". كانت المشكلة الكبيرة تتمثل في تصفيف الشعر على هيئة نصبة عالية علوا كبيرا، حتى إن عيني الحسناء كانتا تبدوان وكأنهما في وسط بدنها. أما المكياج فكان أهون بكثير من تصفيف الشعر، فقد كان المألوف تغطية البشرة تغطية كثيفة بألوان الأساس ، وكان اللون الأحمر - الروج - الفاقع الذى فرضته موضة فرساى هو الذى يتطلب الاختيار بين أصناف كثيرة بينها فروق ، وكانوا يقولون: " أريني الأحمر الذي تضعينه على بشرتك أقل لك من أنت ". كذلك كانت العطور متعددة ، وكانت تصنع من خلاصات زهور : البنفسج، الورد، الياسمين ، النرجس ، الأرانج، الزنبق، السوسن، السوسان ؛ وكانت إسبانيا قد فرضت منذ وقت طويل ذوق أو موضة العطور النفاذة التي تقوم على أساس العنبر، والمسك(١٩٤). وفي عام ١٧٧٩ لاحظ واحد من الإنجليز " أن كل امرأة فرنسية تعتقد أنها في أمور الزينة هى ربة الذوق ، كل الذوق ، والأناقة كل الأناقة ، وتتصور أنه ليس هناك من وسائل التجميل ما يجوز اختراعه لتجميل قوام إنسان آخر غير قوامها هي، وتستأثر لنفسها في ذلك بحق نهائي لا منازع فيه "(١٩٥). يتبين من النص مدى التعقيد الذى وصلت إليه موضة الزينة آنذاك ، و " قاموس البيان " الذى أشرنا إليه من قبل يؤكد هذا في تعريفه : " الزينة - التواليت - هي ائتلاف كل أصناف البودرة، وكل أنواع الخلاصات العطرية ، وكل ألوان المكياج التي تهدف إلى تغيير طبيعة الإنسان ، وتحويل شيخوخته الى شباب ، وقبحه إلى جمال . بالزينة يصلح الإنسان عيوب قوامه، ويصطنع لعينيه أهدابا ، ويعوض ما فقده من أسنانه، وينشيء لنفسه وجها، ويغير شكله ، ويغير جلده " (١٩٦)

ولكن أكثر الموضوعات طيشا هو موضوع موضات الشعر ، حتى تلك التي تخص الرجال(١٩٧). فهل يطيلون شعورهم أم يقصرونها؟ هل يقصون اللحى والشوارب أم

يعفون عنها؟ وهانحن أولاء أمام مفاجأة كبيرة تتمثل في أن هذا المجال الشخصي الشديد الشخصية، لا تهيمن عليه النزوات الفردية وحدها ، بل يظل دائما كحصان مربوط في اللجام العام ، وإن كان له لجامه الخاص به.

كان الملك شارل الثامن ، والملك لويس الثانى عشر في بداية حروب إيطاليا يطيلان شعر الرأس، ويحلقان اللحية . وجاءت الموضة الجديدة ـ موضة إطالة اللحية والشارب مع تقصير شعرالرأس ـ من إيطاليا ، ويقولون إن البابا جول الثاني Jules II هو الذى أطلقها، وذلك أمر يجوز لنا أن نشك فيه ، وجاء الملك فرانسوا الأول (١٥٢١) بعد ذلك فقلد هذه الموضة ، ثم قلدها كذلك شارل الخامس (١٥٢٤)، وليس للتاريخين المكتوبين بين الأقواس قيمة مؤكدة. الشيء المؤكد هو أن هذه الموضة غزت أوروبا قاطبة. "عندما تقدم فرانسوا أوليفييه François Olvier في عام ١٥٣٦ إلى المحكمة، وكانت تسمى آنذاك " برلمان " ـ وفرانسوا أوليفييه هذا هو الذي أصبح منذ ذلك التاريخ مستشارا ـ عندما تقدم لكي يشغل منصب رئيس التحقيقات أفزعت لحيته الدوائر المجتمعة فاحتجت عليه. ولم تقرر تعيين أوليفييه إلا بشرط أن يتنازل عن لحيته." وكانت الكنيسة قد هبت على نحو أعنف من البرلمان ضد ما أسمته " عادة تنمية شعر الوجه ". وكان من الضرورى ـ حتي عام ١٥٥٩ ـ أن تصدر مراسيم ملكية عالية لإجبار هذا المطران الملتحي أو ذاك الأسقف الملتحي على التخلي عن اللحية التي كان يتمسك بها بعناد تمسكه بالتقاليد الموروثة ، والموضة القديمة .

ومن البديهي أن المعارضين لم يكسبوا المعركة ، وأن المنتصرين أنفسهم تعبوا من نجاحهم . ومثل هذه الموضات لم تكن تدوم أكثر من قرن على أكثر تقدير. وما بدأ عصر لويس الثالث عشر حتى طالت الشعور من جديد ، وتضاءلت اللحى ، والشوارب. وساءت عاقبة مَنْ تأخر عن الركب. وهذه هي المعركة قد غيرت هدفها دون أن تغير معناها. فسرعان ما أصبح أصحاب اللحى الطويلة " على نحو ما غرباء في بلدهم . وكان الذى ينظر إليهم يظن أنهم قدموا من بلاد نائية . وهذا هو ما شعر به سوللي Sully.[...] فقد دعاه لويس الثالث عشر إلى البلاط ليستشيره في أمر هام ، فلم يستطع الشباب من رجال البلاط أن يمنعوا أنفسهم من الضحك ، عندما وقعت أعينهم على هذا البطل بلحيته الطويلة ، وثيابه غير المألوفة ، ومسلكه المهيب، وتصرفاته التي كانت تتبع مراسم البلاط القديم ." ومن البديهي أن اللحية التي بدأت الشكوك تحوم حولها أخذت تضمر تدريجياً ، حتى جاء لويس الرابع عشر " فمنع اللحية المدببة . وكان الرهبان من طائفة سان برونو هم الوحيدون الذين لم يتخلوا عنها (١٧٧٣)، فالكنيسة كانت دائما، وبحكم طبيعتها ، تنفر من التغييرات ، فإذا قبلتها بعد حين تمسكت بها وظلت متمسكة بها حتى بعد فوات أوانها ، واتبعت في التمسك بقبولها منطقا لا يقل وضوحا

عن منطق نفورها السابق . فلما بدأت، حول عام ١٦٢٩، موضة " الشعر العيرة " ، التي لن تلبث أن تؤدى إلى استخدام الباروكات الكاملة، ثم الباروكات المرشوشة بالبودرة، ثارت الكنيسة على هذه الموضة أيضًا. هل يجوز أن يلبس القسيس باروكة أو لا يجوز ؟ هل يجوز أن يقيم القداس ، وهو يضع على رأسه الباروكة يخفي بها قَصَّة الشعر التقليدية الخاصة برجال الدين ، والتي يسمونها إكليل الأكليروس؟ كان هذا موضوعا احتدم حوله جدل عنيف. ولكن الجدل العنيف لم يمنع الباروكات من الاستمرار، بل لقد شهد مطلع القرن الثامن عشر القسطنطينية تصدر إلى أوروبا" شعر الماعز، وقد جهزوه لصناعة الباروكات."

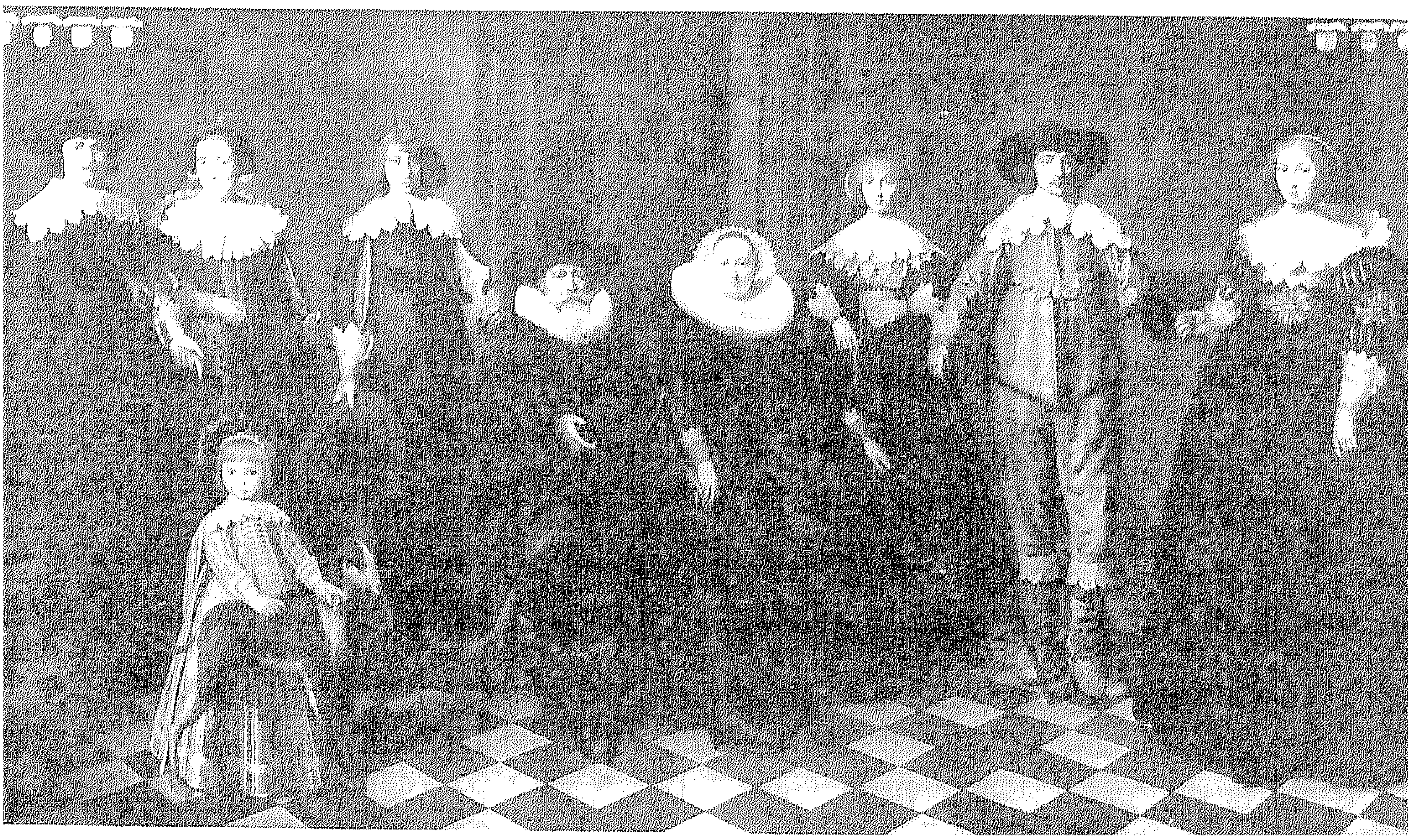

الموضات والأجيال . تبين هذه اللوحة العائلية التى رسمه سانفورت D.van Sanfoort في عام ١٦٣٥ العمدة ديرك باس باكويس وزوجته متمسكين بالموضة الأسبانية : ملابس غامقة ، حرملة مكشكشة ، لحية طويلة ، شارب كث . أما أولادهما جميعا فهندامهم يتبع الموضة الفرنسية الهولندية الجديدة : بنطلونات ضيقة ملونة ، كولات كبيرة من القماش الخفيف والدنتيللا ، تغطي ما تحتها . ويتخذ الابن الأكبر شاربا صغيراً حسب الموضة ، وله لحية خفيفة. (المتحف القومي Rijksmuseum في أمستردام).

والخلاصة الجوهرية التي نخرج بها من هذه الأنابيش الخفيفة أن الموضات المتعاقبة كانت كل منها تبقى نحو قرن من الزمان . فاللحية التي اختفت عندما تربع لويس الرابع عشر على سدة الملك لن تعود إلا مع الرومنتيكية ، لتختفي بعد ذلك مع الحرب العالمية الأولى حول عام ١٩٢٠ . فهل لدينا الآن موضة تستمر قرنا ؟ الإجابة بالنفي. فقد عادت إلى الانتشار منذ عام ١٩٦٨ موضة الشعور الطويلة، واللحى، والشوارب. ولا يحق لنا أن نهول ، ولا أن نهون من أهمية هذه الأشياء كلها . وإذا صحت بيانات مصلحة الضرائب في انجلترا فقد كان في انجلترة في عام ١٨٠٠ ، عندما كان تعداد السكان ١٠ مليون نسمة ، ١٥٠٠٠٠ يلبسون الباروكات . ولكي ينضم هذا المثل الصغير إلى ملحوظاتنا ، ويقوم وإياها مقام المقياس ، نرى أن نشير إلى نص يرجع إلى عام ١٧٧٩ ، لا شك في أنه صائب ، وهو على الأقل يصدق على فرنسا: " كان الفلاحون وأبناء البلد ... دائما يحلقون لحاهم حلاقةً أياً كانت ، ويقصرون شعورهم إلى حد كبير ، ويهملونها إهمالا شديدا"(١٩٨). ونحن ، دون أن نأخذ هذه الشهادة أخذاً حرفياً، نراهن على أن أحوالا أخرى قد ظهرت ، وتكررت، تبين أن الجمود يتشبث بجانب، هو جانب الأغلبية ، والحركة تتصل في جانب ، هو جانب الترف .

و ما هي كلمة الختام ؟

كل هذه الموضوعات التي هي من شأن الحياة المادية ـ الأطعمة ، والمشروبات، والمساكن ، والملابس ، ثم الموضة في النهاية ـ هي موضوعات ليس بينها ارتباطات وثيقة، وعلاقات نسبة وتناسب ، يكفي أن نشير إليها مرة حتى يكون قد وضح نهائيا. وليس تمييز الترف عن البؤس إلا تصنيفاً أولياً ، يسير في خط واحد منفرد ، وهو لا يرقى ـ إذا أخذناه وحده ـ إلى مستوى التصنيف الدقيق الكافي . والحقيقة أن موضوعات الحياة المادية كلها ، وما اتخذته من أشكال ، لا يمكن اعتبارها ثماراً أثمرتها الضرورات الضاغطة وحدها ، لم تشاركها عوامل أخرى : صحيح أن الإنسان يأكل، ويسكن، ويلبس لأنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأن الأكل والسكن واللبس ضرورات لا مفر منها، ولكننا نعود فنقول إنه كان يمكنه أن يأكل على نحو آخر، وأن يسكن، ويلبس على نحو مختلف . هنا تتجلى الموضة. ونحن إذا نظرنا إلى تحركات الموضة ، وتقلباتها، وجدناها تعبر عن معنى بعينه ، ووجدناها تتابع ، على هيئة مراحل مرحلة بعد مرحلة ، ولوجدنا المعنى نفسه تعبر عنه المواقف التى يقفها العالم حيال هذه التحركات ، والتقلبات ، معارضاً إياها في لحظة من لحظات الماضي، والحاضر بطريقة تزامنية ، فإذا الموقف الواحد يتكرر في أماكن مختلفة في لحظة بعينها. والحقيقة أننا لا نقف هنا في مجال الأشياء وحده ، بل في مجال " الأشياء و الكلمات" ، فاهمين هذا

التعبير على نحو يجاوز معناه العادى . إننا نقصد أن هناك لغات ، بكل ما يضيفه إليها الإنسان، وكل ما يضمنه إياها ، جاعلا من نفسه على نحو لا شعورى سجينا في زنزانتها، وأشيائها ، وكلماتها ، وهو يجلس أمام قصعة أرزه أو شريحة خبزه اليومي.

والمهم ـ لكي نتابع مسيرة الكتب التي تتحرى التجديد، مثل كتاب ماريو براس Mario Praz (١٩٩) ـ أن نفكر بداية في أن هذه النعم، التي أتصورها على هيئة اللغات ينبغي أن نراها في إطار جامع . ينبغي أن نراها في إطار نظم الاقتصاد بالمعنى الواسع لها. نعم بلا جدال . وينبغي أن نراها في إطار المجتمعات . نعم بلا شك . وإذا لم يكن الترف وسيلة جيدة لدعم أو لدفع اقتصاد بعينه ، فإنه وسيلة للحفاظ على مجتمع ما، ولهزه بعصا سحرية. وأخيراً تلعب الحضارات لعبتها، وهي شركات غريبة تأتلف من النعم، ومن الخيرات ، ومن الرموز ، ومن التوهمات، ومن الخيالات ، ومن التخطيطات الفكرية ... والخلاصة أن هناك نظامًا معقداً ، له تعقيد خاص به ، يتغلغل في كل شيء تغلغلا شديدا إلى أن يبلغ أعمق أعماق الحياة المادية، نظاما تدخل فيه المعاني الخفية، وصنوف التورية ، وما يجري على أنماط الاقتصاد، والمجتمعات، والحضارات من مؤثرات ، وضغوط لاشعورية.

الباب الخامس

انتشـــار التقنـيـــات
مصادر الطاقة والتعدين

كل شيء يدخل في إطار التقنية : الجهد الشاق العنيف ، وكذلك الجهد الصبور المتأني المتكرر الذى يبذله البشر للتأثير على العالم الخارجي ؛ وتدخل في إطار التقنية تلك الطفرات الهائلة التي قد نتعجل فنسميها ثورات (بارود المدافع ، الملاحة في أعالي البحار، المطبعة ، الطواحين المائية ، الطواحين الهوائية ، بداية التشغيل الآلي) ، كما تدخل فيه التحسينات البطيئة التي شملت العمليات الفنية ، والمعدات ، وتلك الحركات اللانهائية التي يأتي بها الإنسان عندما يؤدي عملا ، وهي حركات لا تكتسي في حد ذاتها بأهمية تجديدية : حركة الملاح الذى ينشر حباله ، حركة العامل في المناجم يحفر دهاليزه ، حركة الفلاح وراء محراثه، والحداد أمام سنداله ... كل هذه الحركات التي جاءت ثمرة معرفة تراكمية. وكان مارسيل ماوس Marcel Mauss يقول : " إنني أطلق لفظة تقنية على كل عمل تقليدى فعال " (١) ؛ أو لنقل بصفة عامة إن لفظة تقنية تطلق على كل عمل يتضمن نشاط الإنسان إذ يؤثر على الإنسان ، على كل عمل من أعمال الترويض التي بدأت منذ بدأ الزمان ، وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا.

ثم إن التقنية تتسع اتساع التاريخ نفسه ، وتتسم بما يتسم به التاريخ من بطء وغموض، والتاريخ يفسرالتقنية ، كما أن التقنية تفسرالتاريخ ، دون أن يصل بنا هذا الترابط بينهما ، سواء علاقة التاريخ بالتقنية أو علاقة التقنية بالتاريخ، إلى صورة نرضى عنها كل الرضا . ونلاحظ في هذا المجال ، الذى اتسع ليصل إلى أقصى شواطيء التاريخ المترامي الأطراف ، أنه لم يشهد تحركا واحدا . بل شهد تحركات متعددة ، وأن التروس المتشابكة التي تمت بها هذه التحركات تأتلف في منظومات مختلفة ، لا منظومة واحدة . فالتاريخ لا يسير في مسار واحد . والخطأ الذى ارتكبه القائد الفرنسي لوفيفر دينويت Lefebvre -Desnouettes . الذى أنجز أعمالا لا زلنا نعجب بها . هو أنه تصور أن التاريخ يسير في مسار واحد ، فقدم قرابينه على هيكل واحد هو هيكل المادية الساذجة . وكان يرد كل شيء إلى سبب مادى بسيط . صحيح أن الرقبية التي ابتكرت في القرن التاسع ، وأسندت على كتفي الحصان ، وحلت منذ ذلك الحين محل الرقبية التي

كانت تطوق رقبة الحصان وتخنقه ، زادت من قوة شد الخيل ، ولكن من التبسيط الساذج أن ننظر إلى هذه الوسيلة المادية على اعتبار أنها هيَ التي أدت تدريجيا إلى القضاء على عبودية الإنسان (رفض مارك بلوك Marc Bloch هذا التبسيط المعيب)(٢)؛ وعلى النحو نفسه لا يمكن أن نقول أن تلك الدفة الخلفية التي جاءت من بحار الشمال كانت هي التي مهدت وحدها منذ القرن الثاني عشر لمغامرة الاكتشافات البحرية الرائعة ، ومكنت لها(٣) . وشبيه بهذا الحديث الكلام الطريف الذى قاله ل . وايت L. White في حديثه عن النظارات ذاهبا إلى أن انتشارها منذ القرن الخامس عشر زاد من عدد القراء ، وساعد على الانتفاضة الفكرية لعصر النهضة أو عصرالرينسانس ، وما يمكن أن نأخذ هذا الكلام مأخذ الجد ، فما هو إلا من الطرائف . فهناك أشياء كثيرة يمكن أن نقول عنها ما قاله وايت عن النظارة . من الممكن أن نعارض جملة وايت الطريفة بجمل طريفة مماثلة، نشيد فيها بالمطبعة ، وبالإضاءة الداخلية للبيوت التي انتشرت هي أيضا ، وأدت إلى زيادة ساعات القراءة والكتابة إنما ينبغي علينا بصفة خاصة أن نسأل عن أسباب هذا الشغف الجديد بالقراءة ، وأن نتعرف إلى ما يسميه الاقتصاديون " التلهف " على المعلومات : أما كان هناك تلهف على المخطوطات القديمة ، وجرى محموم وراءها منذ عصر بتراركا (المتوفي في عام ١٣٧٤) قبل أن تنتشر النظارات ؟

والخلاصة أن التاريخ العام ، أو إذا شئنا ، المجتمع بمعناه الواسع ، كانت له كلمته في هذا الجدل، الذى لم تنفرد به التقنية قط . والمجتمع هو في تصورنا تاريخ بطيء أصم معقد ، أو هو ذاكرة تتمسك في عناد بالحلول المعروفة ، والمكتسبة ، وتنحي الصعاب عن الطريق ، وتنأى بالإنسان عن خطر التشتت ، والحلم بأشياء أخرى . فإذا جاء اختراع جديد، وقرع الباب ، لم تفتح له على التو ، بل تركته ينتظر السنوات ، أو القرون العديدة حتى تسمح له بالخروج إلى الحياة الواقعة . والاختراع inventio يأتي أولا ، ثم يأتي بعده بزمنٌ طويل التطبيق الذي يشار اليه بلفظة usurpatio،أي الاستيلاء على الاختراع، وإدخاله الخدمة عندما يكون المجتمع قد تهيأ له أو بلغ الدرجة المنشودة من التقبل . والتقبل أمر هام . ولنا في المنجل عبرة ، فقد حدث أن توالت الأوبئة ، وفتكت بأعداد هائلة من البشر في الغرب في القرن الرابع عشر، وأصبح المنجل ، الذى كان الناس يصورون الموت ممسكا به Schnitter Tod شيئا بشعا ، ووسواسا خناسا . وما كان المنجل في ذلك الوقت إلا أداة تستخدم فى حش حشائش المراعي دون ما سواه ، وما كان يستخدم في حصد القمح إلا نادرا ، فقد كان الحصادون يستخدمون الشرشرة ليقطعوا السنابل على ارتفاع كثر أو قل ، وكانوا يتركون ما دون ذلك لقطعان الماشية ، وكانوا يحملون من الغابة ورق الشجر والغصون ليفرشوا بها الحظائر . وعلى الرغم من التوسع الحضرى الهائل ، ومن تحويل أوروبا إلى أرض لزراعة القمح (وهو مايسميه المؤرخون الألمان تقميح أوروبا Vergetreidung) فإن المنجل لم يحظ بالقبول ، واتهم بأنه يبعثر القمح من السنابل ، ولم ينتشر إلا في بدايات القرن التاسع عشر (٥). في ذلك الوقت كانت الحاجة إلى إنجاز أسرع للحصاد ترضى بشيء من بعثرة الحب ، هي التي مهدت

في هولندة التي كانوا يسمونها الأراضي الواطئة : حصاد القمح باستخدام المنجل الطويل . ولم يكن استخدام هذا المنجل شيئا مألوفا في نهاية القرن السادس عشر . لوحة من رسم برويجل الصغير Brueghel le Jeune (ولد عام ١٥٦٥ وتوفي عام ١٦٣٧)

الطرق لتقبل المنجل ، ومكنت لانتشار هذه الأداة السريعة الفعالة ، ومنحتها الأسبقية على ما عداها .

وسنجد عشرات ، وعشرات الأمثلة الأخرى التي تعبر عن المضمون نفسه. اختراعات تنتظر أن تتهيأ الظروف لتقبلها . عندنا مثلا الآلة البخارية ، هل كانت هي التي أطلقت الثورة الصناعية (أم هل كانت الثورة الصناعية هي التي أطلقتها ؟). إن تاريخ الاختراعات ، اذا اختزلناه ، وقصرناه على ذاته ، لا يزيد عن أن يكون لعبة بالمرايا المزيفة ، نبحث فيها عن صور الحقيقة . وهناك جملة عظيمة لخص بها هنرى بيرين Henri Pirenne الجدل الدائر حول هذا الموضوع : " لقد اكتشف الفايكينج أمريكا ثم ما لبثوا أن تركوها ، وضاع أمر اكتشافها لأن أوروبا لم تكن آنذاك بحاجة اليها ." (٦)

وماذا نقول الآن ؟ هل نقول إن التقنية هي ذلك الشيء الممكن، الذى لا يستطيع البشر الوصول إليه ، واستخدامه خير استخدام لأسباب كثيرة منها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسية ؟ أم هل نقول إن التقنية هي ذلك السقف العالى الذى تصطدم به جهود البشر ماديا ، و" تقنيا " ؟ ولكن هذا السقف لن يلبث أن يتصدع ذات يوم ، ويصبح تصدعه التقني نقطة الانطلاق إلى اندفاع سريع . أيا كان الأمر ، فإن الحركة التي يتاح لها أن تقتحم العقبة ، لا تقتصر على مجرد تطور يحدث في داخل التقنية أو العلم في حد ذاتيهما ، بل تتسع لتشمل أمورا أخرى عديدة ، هذا ما يمكننا أن نقطع به، على الأقل ، بالنسبة للزمان السابق على القرن التاسع عشر .

المشكلة الأساسية
مصادر الطاقة

كان الإنسان في الفترة بين القرن الخامس عشر ، والقرن الثامن عشر يعتمد على قوته، وقوة الحيوانات المستأنسة ، وقوة الريح ، وقوة الماء الجاري ، والطاقة التي تتولد عن الخشب، والفحم النباتي ، والفحم الحجري . وكانت كل هذه مصادر منوعة للطاقة، ولكنها كانت متواضعة . ونحن نعرف ، قياسا على الأحداث التى ستحدث فيما بعدّ ، أن التقدم سيقوم على أساس المراهنة على ورقة الفحم الحجرى ، الذى كان يستخدم في أوروبا منذ القرنين الحادى عشر والثاني عشر ، أو الذى كان يستخدم في الصين منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد ، على نحو ما توحي به النصوص المتاحة لنا، ثم جاء استخدام الفحم على نحو منظم في تعدين الحديد ، بعد تحويله إلى فحم كوك . ولكن البشر سيحتاجون إلى وقت طويل ليكتشفوا أن الفحم ليس مجرد وقود نافع ، بل هو أكثر من ذلك بكثير . بل إن اكتشاف الكوك لم يتبعه استخدامه على الفور (٧).

المحرك البشرى

يعتبر الإنسان بعضلاته محركا ضئيلا . و قوة الإنسان ، إذا قيست بقوة الحصان البخارى أو بالقدرة الحصانية ق ح (وهي رفع ٧٥ كجم إلى ارتفاع متر واحد في الثانية الواحدة) تلوح لنا ضئيلة تافهة ، فلم تكن إلا : ما بين ٣ و ٤ من مائة من الـ ق ح ، في حين أن قوة حصان الجر كانت : ما بين ٢٧ و ٥٧ من مائة من الـ ق ح (٨). وكان فوريست دي بليدور Forest de Belidor يقول إننا نحتاج إلى سبعة رجال للقيام بما يقوم به الحصان الواحد (٩). ولدينا معايير أخرى نقيس بها : ففي عام ١٨٠٠ كان الرجل يستطيع " أن يحرث ما بين ٣,٠ و٤,٠ من الهكتار ، ويستطيع أن يجهز الدريس على مساحة ٤,٠ من الهكتار من المراعي ، وأن يحصد قمحا بالشرشرة على ٢,٠ من الهكتار، وأن يدرس نحو ١٠٠ لتر من القمح "، وهذه الأرقام تبين بكل تأكيد ضعف قوة الانسان (١٠).

وللأجر دلالته ، فعلى الرغم من تقدير فوريست لقوة الانسان على أنها سبع قوة الحصان ، فلم يكن الرجل في عصر الملك لويس الثالث عشر يحصل لقاء يومية العمل سبع ما يحصل عليه الحصان من أجر ، بل كان يحصل على النصف (٨ سولات للرجل و ١٦ سولا للحصان) (١١) ، وهذه التعريفة ترفع على نحو عادل من قدر العمل البشرى ، لأن المحرك البشرى الضئيل كان يتزود دائما بما يزيد من قوته ، وبما ينوعها إلى أقصى حدود التنوع ، كان يستخدم تلك الأدوات ، والمعدات العديدة التي اصطنعها لنفسه ، وجعلها رهن يمينه ، ومنها ما عرفه منذ عصور بالغة القدم : المطرقة ، والبلطة،

والمنشار، والكماشة، والمجراف ، ومنها أنواع من المحركات البدائية التي كان يشغلها بقوته وهي : المثقاب ، والبكرة المنفردة ، والبكرة المزدوجة ، والونش ، والكريك، والبدال، ويد التدوير ، وطبلية الرفع الدوارة. والأدوات الثلاث الأخيرة أتت إلى الغرب من الصين أو الهند في الماضي ، ويقترح ج . هودريكور G.Haudricourt تسميتها باسم مناسب طريف هو " المحركات البشرية ". ولننظر إلى البكرة المزدوجة وما تفعله بالطاقة البشرية : ألا تزيد إلى أربعة أو خمسة أضعاف محصلة الطاقة البشرية المستغلة في تشغيلها؟ وقياسا على هذا فإن جيرار فالتر Gerard Walter. وهو مهندس حاصل على درجة الاجريجاسيون في الفزياء - يرى أن متوسط قوة المحرك البشرى يجب أن يحسب في إطار ارتباطه بالآلة ، فنجد أنه بين ١٣ و ١٦ في المائة من القدرة الحصانية ق ح (رسالة بتاريخ ٢٦ يونية ١٩٨٠).

فالإنسان وحده عبارة عن سلسلة من الإمكانات .تشمل هذه الإمكانات المهارة، والمرونة وحسن التصرف : كان الشيال في باريس ، على سبيل المثال (وهذه شهادة ترجع إلى عام ١٧٨٢) يحمل على ظهره " أحمالا يمكن أن تزهق روح الحصان " (١٢). ونقرأ في مقال كتبه ب .ج. بوانسو P.G.Poinsot في مجلة اسمها " سميرالمزارعين " في عدد صدر عام ١٨٠٦ - L` Ami des cultivateurs. نصيحة عجيبة ، تثير دهشتنا نظرا لتاريخها المتأخر : " ليتنا نستطيع أن نحرث كل الأراضي باستخدام المجراف ، فإننا إذا وفقنا إلى ذلك سنكون يقينا قد حققنا إنجازا يفوق الحرث بالمحراث ، علما بأن هناك مناطق عديدة في فرنسا تفضل المجراف على المحراث ، ولو تعودنا على المجراف على نطاق واسع، لاختصرنا عملية إعداد الأرض للزرع ، لأن الرجل الواحد يستطيع أن يقلب بالمجراف ٤٨٧ متر مربع من الأرض بعمق ٦٥ سم في مدة ١٥ يوما ، وهذا الحرث مرة واحدة بالمجراف يكفي لجعل التربة صالحة للزرع ، بينما الحرث بالمحراث لا بد أن يتكرر ثلاث أو أربع مرات متتالية في حالة التربة القوية حتى يمكن البذر ؛ ثم إن التربة لا يمكن أبدا تقليبها ، وتفتيتها جيدا إلا بالمجراف ؛ ومعنى هذا أن الحرث بالمحراث عمل سيء من الناحية الاقتصادية ، إذا لم يكن لدى الانسان مساحة فسيحة من الأرض يقوم بزراعتها؛ وهو السبب الرئيسي الذى يرجع إليه الكساد الذى يحل بكل المزارعين الصغار تقريبا ، [...] ثم إنه من المحقق أن محاصيل الأراضي التي تزرع ، بعد إعدادها بالمجراف، ثلاثة أضعاف محاصيل الأراضي التي تعد بالمحراث . والمجراف الذى يستخدم في تقليب تربة الحقول ، ينبغي أن يكون طولا وسمكا ضعف المجراف الذى يستخدم في تقليب أرض الحدائق ، فمجراف الحدائق لن [...] يتحمل الجهود التي يضطرالإنسان لبذلها لكي يقلب تربة صلبة ويفتتها على نحو كاف " (١٣).

ولا ينبغي أن نتصور أن فكرة تقليب الأرض بالمجراف مجرد فكرة ساذجة تفتق عنها ذهن ذلك الكاتب ، ولم يكن لها شأن بالواقع . فكثيرا ما كان العمال اليدويون في الريف يقومون بزراعة حقولهم الصغيرة باستخدام المجراف أو المعول . وكانوا في القرن الثامن عشر يسمون هذا النوع من العمل الاستصلاح " باليد " أو " الزراعة بالذراع " (١٤). والسؤال الآن هو كيف يمكن أن نتصور النتيجة التي كان يمكن أن تؤدي اليها هذه الطريقة اليدوية ، المنافية للمنطق ، والتى تشبه العمل بالطريقة الصينية ، إذا خرجت عن هذا النطاق المحدود ، وأصبحت هي الطريقة العامة ، إذا أصبحت هي القاعدة لا الاستثناء ؟ أكانت المدن الغربية تستطيع البقاء؟ أو هل كان من الممكن أن تنشأ هذه المدن إذا كانت الأرض الزراعية تحرث باليد؟

هذا الرجل ، الواحد ، الذى يعمل بيديه عاريتين لا زلنا نجده في صور متكررة متواترة في كل ناحية من نواحي الصين في أيامنا هذه. وهذا واحد من الرحالة يسجل في عام ١٧٩٣ ملحوظاته : لا يقتصر أمر عمل البشر هنا في الصين على أنه هو " العمل الذى يدفعون فيه أقل ثمن ، بل إنه هو العمل الذى لا يكفون عن اللجوء إليه ، ماداموا على يقين من أنه لن يستغل استغلالا سيئا " ، وهذا التحفظ الذى يضيفه عندما يقول"...ماداموا على يقين من أنه لن يستغل استغلالا سيئا..." تحفظ ليس إلى

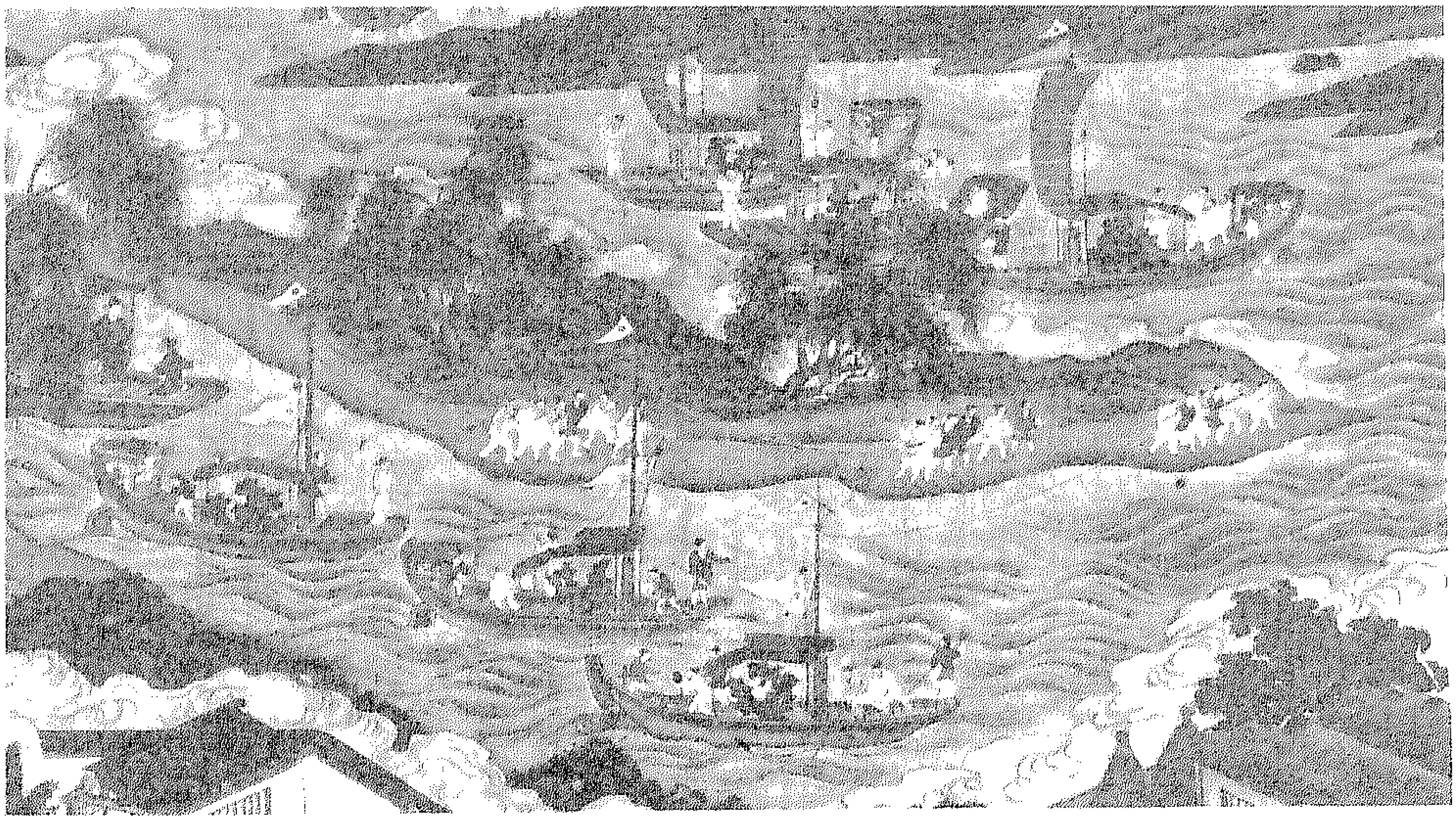

طريق على شاطيء النهر . ويحتاج شد المركب الواحد المحمل بالأحجار الكريمة إلى ستة من الصينيين. لوحة صينية من القرن الثامن عشر . (متخف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس.)

تصديقه من سبيل. فقد قام الإنسان في الصين بالعديد من الأعمال، كان يعزق الأرض، ويشد المحراث بدلا من الجاموس، ويوزع الماء ، ويشغل الطلمبة ذات الجنزير، ويدير الطواحين اليدوية لطحن الحبوب (" وتدوير الطواحين باليد عمل يشتغل به عدد هائل من الصينيين ") ويحمل المسافرين ، ويحمل الأثقال الهائلة ، وينقل أحمالا يعلقها متوازنة في طرفي زانة طويلة ترتكز على كتفه ، ويدير رحى طواحين الورق، ويشد المراكب، وهو عمل يستخدمون له الخيول في بلاد أخرى كثيرة "(١٥). وهناك على القناة الكبيرة الممتدة من يانج تسي كيانج Yang-tse-Kiang إلى بكين، هويس يسمونه تيين في شا Tien Fi Cha - أي ملكة وسيدة السماء - وهم لا يشغلونه بفتح قفل بوابات متخذة فيه ، بل يقومون برفع السفن من ناحية إلى الناحية الأخرى بالاستعانة ببكرات، و" بكميات من الحبال ، والسلبات المنوعة ، ينهض ما بين أربعمائة وخمسمائة رجل بشدها من هذا الطرف إلى الطرف الآخر للقناة ، وربما استخدموا عددا أكبر من الرجال ، بحسب حجم السفينة ، وثقلها ". وقد نبه الأب دي ماجايان P.de Magaillans إلى صعوبة هذه العملية ، وإلى الأخطار التي كانت تكتنفها ، فهل كان على حق عندما اعتبر هذا العمل شاهدا على مبدأ من مباديء التقاليد الصينية، يتمثل في " القيام بكل أنواع الأعمال الميكانيكية باستخدام أدوات أقل منا بكثير ، وعلى نحو أيسر منا بكثير"(١٦)؟ ومن بعد دي ماجايان بعشر سنوات دهش جيميللي كاريرى Gemelli Careri- في عام ١٦٩٥ - لسرعة حمالي الكراسي الذين كانوا ينطون نطا في أثناء حمل الكراسي ، ويفوقون " رهوانات الديار التتارية " في السرعة (١٧). ونقرأ عن أب من الآباء اليسوعيين صنع في بكين في عام ١٦٥٧ طلمبة إطفاء قادرة على "نفث الماء إلى ارتفاع مائة شبر " ، أى ما يربو على عشرين مترا تقريبا ، معتمدة على قوة البشر، وقوة الريح (١٨). ولكننا إذا نظرنا إلى خارج الصين ، وليكن إلى الهند ، وجدنا البشر يستعينون بقوة الحيوان ، فقد شغل الهنود سواقي المياه ، وطواحين السكر ، ومعاصر الزيت بالحيوانات المكدنة أى التي ربطت بعضها إلى البعض الآخر(١٩). ولكننا نجد عكس ذلك أحيان ، نجد في الناحية المقابلة المتطرفة صورة من صور هوكوساى Hokusai، ترجع إلى اليابان في القرن التاسع عشر تمثل مشهدا لا يكاد العقل يصدقه: الإنسان يهرس قصب السكر بيديه ، دون الاستعانة بأية آلة .

وهؤلاء هم الآباء اليسوعيون يستمرون في الشرح فيقول قائلهم في عام ١٧٧٧ : "إن مسألة فائدة الآلات ، وحيوانات الشغل مسألة ليس من السهل القطع فيها ، على الأقل بالنسبة لبلد لا تكاد الأرض فيه تكفي لإطعام الناس . فما فائدة الآلات ، والحيوانات ؟ إنها ستؤدى إلى حويل نسبة من الأهالي إلى عاطلين [يستخدم الكاتب القديم لفظة عجيبة هي philosophistes أى متفلسفين متحذلقين] لا ينفعون المجتمع بشيء على

جانب من منجم كوتنا هورا Kutna Hora للفضة في عام ١٤٩٠ تقريبا . وكانوا يسحبون سلال تراب الفضة إلى أعلا باستخدام بريمة أو خنزيرة يشغلها رجلان . كذلك كانت هناك في هذا المنجم بريمات أو خنزيرات أخرى كبيرة تشغلها الخيول ، ولكن تلك المعدات كانت ما تزال في حالة بدائية لم تتطور بعد. وما مر نصف قرن من الزمان ـ عندما أهل عصر عالم التعدين جيورج باور الملقب بأجريكولا Agricola ـ حتى ركبت عجلات هيدروليكية ضخمة لتقوم بعمليات الرفع .

الإطلاق ، ويحملونه بأعباء احتياجاتهم ، وينتظرون منه أن يهيء لهم الرغد ، ويثقلون عليه بما هو أسوأ من ذلك ألا ، وهو أفكارهم المضحكة الهزلية . وأهل الريف عندنا هنا في الصين [وما يزال الكلام لليسوعيين الصينيين] عندما يوقنون من أنهم أصبحوا من العمالة الزائدة ، أو من المتعطلين في هذا الإقليم أو ذاك ، يقررون الذهاب، والعمل في تتاريا الكبرى أو في البلاد التي غزوناها مؤخرا ، حيث تحقق زراعتنا الكثير من التقدم..." (٢٠) . إنه يقول كلاما معقولا ، على ما يبدو . ثم إنه على حق في اشارته إلى أن الزراعة الصينية عرفت آنذاك استعمارا قويا من الداخل ومن الخارج . وهذه هي أيضا فرصة لنسجل أن التقدم الزراعي لم يكن في ذلك العصر قادرا على مواكبة التقدم السكاني ، ناهيك عن سبقه .

هل هناك ضرورة لإطالة الحديث عن عمل البشر في أفريقيا السوداء أو في الهند؟ عندما قام أورينج زيب Aureng Zeb بالرحلة الى كشمير، وبلغ بجماله المنحدرات الوعرة الأولى في الهيمالايا كان من الضروري إنزال الحمولات من فوق ظهور الجمال ، وتحميلها فوق ظهور الشيالين الذين بلغ عددهم ما بين ١٥ و ٢٠ ألفا من البشر ، كانت فئة منهم مسخرة على العمل ، تضطر إليه اضطرارا ، وكانت الفئة الأخرى تجد في الأجر ما يغريها ، فقد كان الأجر " عشرة جنيهات لكل حمولة تبلغ خمسين كيلوجراما "(٢١) . وربما ظن البعض أن دفع تلك الأجور كان من قبيل التبذير . وربما فكر البعض عند تشغيل البشر ، أن في تشغيلهم اقتصادا ، وتوفيرا . ففي مستشفى بيستر Bicetre في فرنسا كانوا في وقت مضى - على ما نقرأ في نص يرجع إلى عام ١٧٨٨ - يستخرجون الماء من البئر مستعينين بـ ١٢ حصانا ، ثم " اتخذوا تدبيرا اقتصاديا حكيما؛ حقق فائدة أكبر، حيث كلفوا عددا من المسجونين الأقوياء الأشداء بالقيام بهذا العمل منذ ذلك التاريخ " (٢٢) . والعجيب أن الذي يقول هذا الكلام هو سيباستيان مرسييه الذي عهدناه يتحرى الفكر الأخلاقي . ونحن - إذا نظرنا إلى مدن البرازيل - وجدنا السادة يسلكون مسلكا شبيها ، فيعلقون العبيد السود محل الخيول في شد عربات اليد المحملة بالأثقال .

من شروط التطور ، دون شك، أن يحقق التوازن المعقول بين العمل الذي يقوم به الإنسان في المجالات المختلفة ، وبين مصادر الطاقة الأخرى البديلة . والحق أن الفائدة التي يظن البعض أنه يحققها عندما يحمل الإنسان بأعباء يمكن أن تتحمل بها مصادر الطاقة الأخرى فائدة تافهة ، ومضللة ، إنها الزج بالإنسان في حلبة منافسة تتجاوز المعيار والصواب ، كما حدث في العالم القديم ، وفي الصين حيث أدى هذا المسلك إلى إيقاف العمل بالآلة ، والاعتماد على العمالة البشرية الرخيصة : العبيد في بلاد اليونان، وفي روما ، والعمال الذين كانوا يسمونهم " الكولي " في الصين ، وما كان أكثرهم عددا ،

وأكثرهم نشاطا والحقيقة أن التقدم لم يكن ليتحقق دون تكريم وتقدير للإنسان على نحو ما. حقيقة أن الإنسان مصدر للطاقة ، له عائد معين ، ولكن التقدم جاء من منطلق التفكير في مساعدته ، أو إن أردنا ما هو خير من ذلك ، التفكير فيما يحل محله.

قوة الحيوان

نعم الإنسان منذ وقت مبكر بارتقاء تحقق له بفضل الحيوانات الداجنة التي نراها ترفا ساء توزيعه في ربوع العالم المختلفة. كانت هذه الحيوانات بمثابة " محركات " ، سارت في مدارج التاريخ، وسيتضح لنا تاريخ هذه " المحركات " على نحو أفضل إذا ميزنا منذ البداية بين العالم القديم من ناحية ، والعالم الجديد من ناحية ثانية .

وإذا نحن نظرنا إلى العالم الجديد ، إلى أمريكا ، بدا لنا كل شيء سهلا ، واضحا . كان الميراث الوحيد الهام الذى انتقل عن الأمريكوهنديين هو اللاما lama ، " كبش الأنديز " ، وهو حيوان حمل رديء ، ولكنه الوحيد القادر على التكيف مع الهواء الخفيف في المناطق العالية من جبال الأنديز ، أما جميع الحيوانات الأخرى - باستثناء الفيجونيا vigogne (وهو حيوان كاللاما) والديك الرومي - فقد جاءت من أوروبا : الثيران، والأغنام ، والماعز ، والخيول ، والكلاب ، والطيور المنزلية . وكانت أهم الحيوانات بالنسبة للحياة الاقتصادية هي البغال التي أصبحت بمرور الوقت وسيلة النقل الأساسية في العالم الجديد ، باستثناء أمريكا الشمالية وبعض مناطق البرازيل المستعمرة ، ومراعي البامبا pampa الأرجنتينية التي كان الناس فيها يستخدمون عربات من الخشب بعجلات عالية، تجرها ثيران مكدنة ، وقد بقيت هذه العربات مستخدمة حتى القرن العشرين .

كانت قوافل البغال تفرض وجودها بأجراسها الصاخبة في بقاع شاسعة من العالم الجديد ، فيما نعرفه باسم المكسيك ، وكان يسمى اسبانيا الجديدة ، حيث سجل الكسندر فون هومبولت في عام ١٨٠٨ أهميتها لنقل البضائع ، ونقل دقيق الذرة (٢٣) ، ذلك الدقيق الذى ما كانت أية مدينة كبيرة ، وبخاصة مدينة المكسيك ذات الثراء الضخم ، تستطيع أن تعيش بدونه ، كذلك لاحظ أوجست دي سان هيلير Auguste de Saint-Hilaire بعينه الثاقبة نفس الشيء في البرازيل بعد ما يقرب من عشر سنوات. كانت قوافل البغال لها مواقف ، ولها مسارات ، ولها محطات ، كانوا يسمونها محطات البغال، منها بورتو دا استريللا Porto da Estrella (٢٤) ، أسفل سيرا دو مار على مشارف ريو دى جانيرو . وكان أصحاب قوافل البغال البرازيلية ، الذين عرفوا باسم التروبيرو tropeiros، يمولون إنتاج القطن ، ثم البن ، ولنا أن نعتبرهم بمثابة رواد رأسمالية مبكرة.

قافلة من اللاما في بيرو .

وكانت هناك في مملكة بيرو الشاسعة في عام ١٧٧٦ أعداد من البغال ، تقدر بنصف مليون بغل ، تستخدم في النقل على الساحل أو في جبال الأنديز ، أو تجر العربات في ليما . وكانت المملكة تستورد من البغال ٥٠٠٠٠ كل عام ، تجلبهم من الجنوب من المراعي الأرجنتينية. وكانت البغال تكبر هناك في الطبيعة على حالتها الوحشية، يراقبونها من بعيد ، ثم يقوم النفارون peones، وقد امتطوا صهوة الخيول ، بتنفيرها نحو الشمال ، في قطعان هائلة ، تعد بالآف المؤلفة من البغال ، الى أن يبلغوا بها توكومان Tucuman وسالتا Salta حيث يتم ترويضها بكل عنف ، وشراسة. حتى إذا تم ترويضها ، ساقوها إلى بيرو أو البرازيل ، وتوجهوا بها خاصة إلى سوق سوروكابا Sorocaba الهائلة في منطقة ساو باولو Sao Paulo(٢٥). وإليك مارسيل باتايون Marcel Bataillon الذي أوحت اليه عملية إنتاج البغال وتسويقها بصورة صناعة السيارات في أيامنا هذه ، و" سوقها الداخلية في قارة مفتوحة أمام كل مركبة تسير بمحرك "(٢٦).

كانت تجارة البغال هذه وسيلة توسلت بها الأرجنتين البدائية للمشاركة بنصيب في فضة بيرو، وذهب البرازيل ، فقد كان هناك في بيرو نصف مليون بغل، وكان في البرازيل

نصف مليون بغل أخرى ، ثم كانت هناك بغال اسبانيا الجديدة (المكسيك) ، وأعداد البغال المستخدمة في غير هذه المناطق ، في مناطق كاركاس ، أو سانتا في Santa Fe في بوجوتا Bogota أو في أمريكا الوسطى ، يعني بكل تأكيد ما يقرب من مليون أو مليونين من البغال ، التي كانت تستخدم في حمل البضائع أو في الركوب (وما كانت تستخدم في الجر إلا نادرا) ؛ يعني أن النسبة كانت بغلا واحدا لكل ٥ أو ١٠ من السكان ، وكانت البغال في مجموعها تمثل طاقة محركة هائلة في خدمة المعادن الثمينة، والسكر ، والذرة . لم تكن هناك أعداد يمكن أن تقارن بهذه الأرقام الضخمة إلا في أوروبا ، مع الفارق . كان عدد السكان في أسبانيا في عام ١٧٩٧ عشرة ملايين (ما يساوي تقريبا عدد سكان البلاد الأمريكية الذين ينحدرون من أصل ايبيري) وكان عدد البغال في أسبانيا ربع مليون فقط(٢٧). حتى إذا أدت الأبحاث المدققة الى تعديل أرقام أمريكا ، فإن الاختلاف في النسبة سيظل هائلا .

كذلك الحيوانات الداجنة والمستأنسة الأوروبية الأخرى تزايدت في العالم الجديد، وبخاصة الثيران والخيول . أما الثيران فقد حكم عليها بأن تخضع للنير فأخذت تجر العربات الثقيلة المسماة كاريوله carriole في هضبة الأرجنتين ، والعربات المميزة للبرازيل أيام الاستعمار، والتي كانت تسمي كارو الثيران carro de boi، كانت عربات لها عجلات سميكة ، ومحور خشبي يصدر عنه صوت تزييق ؛ وكانت علاوة على هذا وذاك تكون قطعانا برية كبيرة . هكذا كانت القطعان تنتشر في وادى ريو ساو فرنشيسكو بالبرازيل ، حيث كثر إنتاج الجلود ، واتصلت " حضارة الجلود " التي كانت مشاهدها تذكر بمشاهد الهضبة الأرجنتينية ، وريو جراندى دو سول Rio Grande do Sul ، بما اتسمت به من مبالغة في التهام اللحم المشوى ، الذى كان الناس يأكلونه ولما يتم نضجه .

أما الحصان فقد كان ، على الرغم من وفرته ، يمثل هنا ، كما كان يمثل في كل مكان بالعالم ، نوعا من الأرستقراطية العنيفة والرجولية ، أرستقراطية السادة ، والنفارين الذين يقتادون قطعان الماشية. وقد عرفت مراعي البامبا الأرجنتينية منذ نهاية القرن الثامن عشر أعجب فرسان العالم المعروفين باسم جاوتشوس gauchos. وقد يسأل سائل عن ثمن الحصان ؟ كان ثمنه ريالين قديمين ، شيئا زهيدا. وكانت الخيول كثيرة، كالبضاعة التي يحمل منها الواحد على قفاه قدر ما يستطيع أن يشيل كما يقولون، أو البضاعة التي على عينك يا تاجر ، إذا هرب حصان إلى البرية ، اتخذوا بدله عشرة ، بالشراء أو بوضع اليد . أما الثور فلم يكن له ثمن يباع أو يشترى به ، إنما الثور لمن يمسكه بالحبل المعقود اللاسو lasso، أو لمن يصيده بالرصاص bolas. أما البغلة فكانت لها قيمتها ، كانت تباع في سوق سالتا بثمن قد يصل إلى ٩ بيسوس pesos، وهي من العملات

الذهبية (٢٨). ولما كان العبد الأسود يباع في بوينوس أيريس بـ ٢٠٠ بيسوس في أغلب الأحيان ، فمعنى ذلك أن العالم الجديد رفع بهذه التعريفة قدر الإنسان ، وكان الإنسان قد أمد العالم الجديد بثروة ضخمة منوعة من الحيوانات.

أما في العالم القديم فكانت عمليات الاستعانة بالحيوانات قد بدأت منذ وقت طويل، وتفرقت بها السبل ، وأدت إلى أوضاع اصطبغت بسمات الأشياء العتيقة ، التي تعقدت أشد التعقيد.

وليس هناك شيء أكثر معقولية من أن نستنتج ، قياسا على ما عرفناه فيما بعد، أن الجمال - سواء منها الجمل ذو السنم الواحد أو جمل الفرعوس ذو السنمين - كانت منتشرة في كل المنطقة المنخفضة من العالم القديم ، حيث تتصل حلقات سلسلة من الصحارى لا تنتهي، صحارى حارة ، وصحارى باردة ، بداية من الصحراء المطلة على المحيط الأطلسي، وانتهاء بصحراء جوبي Gobi المنغولية . والصحارى الحارة هي عالم الجمل ذى السنم الواحد ، وهو حيوان حساس للبرد ، ولا طاقة له على المناطق الجبلية ، أما الصحارى الباردة ، والجبال فهي عالم الجمل ذى السنمين ، والأناضول وايران تفصل بينهما ، الجمل ذو السنم من هذه الناحية ، والجمل ذو السنمين من تلك . ويقول أحد الرحالة في عام ١٦٩٤ :" إن العناية الإلهية خلقت نوعين من الجمال ، نوعا للبلاد الحارة و نوعا للبلاد الباردة "(٢٩).

ولكن الوصول إلى هذا التوزيع الحكيم لم يتحقق بين عشية وضحاها ، بل جاء نتيجة لعملية طويلة ، فالجمل ذو السنم الواحد لم يصل الى الصحراء الافريقية إلا في وقت قريب من زماننا الحاضر ، ولم يتوغل في داخلها إلا مع الفتح العربي في القرنين السابع والثامن ، ومع وصول " كبارالرحل " في غضون القرنين الحادى عشر والثاني عشر . أما الجمل الفرعوس ذو السنمين فلم ينطلق في غزواته نحو الغرب إلا في الفترة بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر، مع الموجات التركية الزاحفة إلى آسيا الصغرى والبلقان . ومن البديهي أن الجمال ذات السنمين ، والجمال ذات السنم الواحد تجاوزت حدود منطقتيهما (٣١) ، فقد اجتازت الجمال ذات السنم الواحد ايران ، ونزلت الهند حيث كانت تباع بأثمان مرتفعة كالخيل ، ونفذت إلى جنوب الصحراء الأفريقية إلى مشارف العالم الأسود ، حيث كانت قوارب البروجات ، والشيالون يعملون على ربط ما ينقطع من مساراتها. بل لقد انطلقت الجمال ذات السنم الواحد لحظة إلى الشمال ، إلى بلاد غالة - فرنساالقديمة - إبان حكم الأسرة الميروفنجية ، في حين انطلقت الجمال ذات السنمين إلى شرق شرق أوروبا ، وغزت البلاد البلقانية حتى القرن التاسع عشر ، ولكن غزوها إياه كان واهيا منقوصا . في عام ١٥٢٩ كانت الجمال ذات السنمين تحمل المدد إلى الجيش

التركي تحت أسوار فيينا . وعلى النحو نفسه كان الطرف الآخر من العالم القديم ، أي شمال الصين ، تغزوه الجمال ذات السنمين . وقد شاهد أحد الرحالة (١٧٧٥) في بكين بجانب عربات اليد جملا ذا سنمين " يحمل [فوق ظهره]بعض الغنم " (٣٢).

واصطنعت بلاد الإسلام الجمال لنفسها ، وكأنها من الناحية العملية قد احتكرتها احتكارا ، واعتمدت على هذه الحيوانات القوية في أعمال النقل المحلي ، وأعمال الحرث، وتشغيل السواقي (على الرغم من أن الحمار كان في المنطقة القريبة من البحر المتوسط يقدم خدماته منذ وقت قديم) والنقل بالقوافل على مسافات طويلة خلال الصحراء، والشرق الأدنى ، وآسيا الوسطى ، وكانت هذه القوافل تربط الأماكن بعضها بالبعض، وتحقق اتصالات في إطار رأسمالية قديمة نشيطة (٣٣). والجمال ذات السنم الواحد، وذات السنمين تحمل أثقالا كبيرة تقدر بـ ٧٠٠ رطل فرنسي قديم للحيوانات الضعيفة نسبيا ، وبـ ٨٠٠ رطل للحيوانات المتوسطة (كما كانت الحال في المنطقة المحيطة بمدينة ارزروم التركية) ومن ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ رطل في المنطقة بين تبريز واستانبول ، على نحو ما تذكر وثيقة ترجع إلى عام ١٧٠٨ (٣٤). ومن الواضح أن الرطل الفرنسي القديم المذكور يقل عن الرطل الفرنسي الحالي الذى يساوي ٥٠٠ جرام . ويمكننا أن نقدر متوسط الحمولة على وجه التقريب بما يتراوح بين ٤ و ٥ قناطير على أساس أن القنطار ١٠٠ رطل أفرنجي ، وأن الرطل ٥٠٠ جرام . فإذا كانت القافلة تضم ستة آلاف جمل فإن حمولتها الكلية تكون ما بين ٢٤٠٠ و ٣٠٠٠ طن ، وكانت تلك حمولة تعادل حمولات من ٤ إلى ٦ سفن شراعية متينة في ذلك العصر . وهكذا فإن النفوذ الإسلامي الذى كان (وظل زمنا طويلا) مهيمنا على المواصلات الداخلية في العالم القديم كلها وجد في الجمال الوسيلة الحاسمة التي يقيم عليها تفوقه التجارى .

وانتشر الثور (ثم الجاموس والزيبو zebu) خلال العالم القديم ، ولم توقفه في الشمال سوى الغابة السيبيرية حيث كان حيوان الرنة renne (الوحشي والمستأنس) هو الحيوان المسيطر، وفي الجنوب أوقفته الغابة الاستوائية ، وبخاصة في أفريقيا ، حيث سدت عليه ذبابة التسي تسي الطريق .

أما في الهند حيث يلعب الثور في كثير من الأحيان دور صاحب المعاش الذى ينال شيئا من القوت ، ولا يعمل شيئا ، فإننا قد نجده يشد محراثا ، أو يسحب عربة مذهبة ، أو يدير طاحونة ، أو يجعل من ظهره ركوبة لجندى أو لواحد من السادة . وربما سارت قوافل من الثيران تبلغ الواحدة منها عشرة آلاف ثور تنقل القمح أو الأرز ، وتأتمر بأمر ملتزمي القوافل من طبقة المورين العجيبة. فإذا هوجمت القافلة ، كان على الرجال والنساء أن يدافعوا عن أنفسهم بالسهام . فإذا تلاقت قافلتان على طريق من طرق شمال

الهند الضيقة التي تحدها الأسوار والأشجار ، وقفت إحداهما ، ومرت الأخرى ، حتى إذا انتهت تبعتها التي وقفت، لا يختلطان ، وكأنهما نهران ، يتبع أحدهما الآخر، أما المسافرون الآخرون على الطريق فكان عليهم أن ينتظروا يومين أو ثلاثة أيام وسط البهائم، لا يستطيعون تقدما أو تقهقرا ، حتى ينفسح لهم الطريق (٣٥) . والثيران الهندية لا تنال من الطعام إلا أخشنه ، ولا تعرف لنفسها حظائر تأوي اليها . أما الجاموس الصيني فهو أكثر ندرة ، وهو يشتغل قليلا ، ويأكل دون ما يأكله الهندى، وعليه أن يصرف أمور حياته حتى لا ينفق ، وهو على حال قريب من التوحش، وتتملكه الرهبة والفزع بسهولة عندما يرى عابر سبيل .

وهناك منظر مألوف ، وبخاصة في أوروبا ، وهو منظر ثورين مكدنين تحت النير، يشدان من ورائهما حتى اليوم (في جليقية الأسبانية) عربة خشبية عجلاتها مصمتة . ومن الممكن أن يكدن الثور مثل الحصان : على طريقة اليابانيين والصينيين (الذين يستخدمون رقبية يثبتونها على صدر الثور ، ولا يربطون شيئا في قرنيه) وربما على طريقة أبناء شمال أوروبا (الذين يستخدمون رقبية يسندونها على كتفي الثور). والثور من حيث هو حيوان للجر له إمكانات هائلة. وهذا هو ألونسو دي هيريرا Alonso de Herrera (٣٦) عالم الزراعة الأسباني، الذى نشر كتابه في عام ١٥١٣ يدافع عن كدن الثيران ، ويناهض كدن البغال في جر المحاريث ، والرأى عنده أن البغال تسير أسرع من الثيران ، ولكن الثيران تحرث أعمق منها ، وعلى نحو أكثر اقتصادية . وعلى العكس منه نرى في فرنسا شارل اتيين Charles Estienne وجان ليبو Jean Liebaut يتغنيان بمدح شغل الخيل فى الزراعة(٣٧) ويكتبان في عام ١٥٦٤ : " إن حصانا واحدا جيدا من خيول فرانس [يقصد من خيول جزيرة ايل دى فرانس] Ile-de-France أو من خيول منطقة البوس la Beauce لينجز من العمل قدر ثلاثة من أجود ثيران البوربونيه Bourbonnais أو الفوريه Forez." وسيعود فرانسوا كيني Quesnay في عام ١٧٥٨ إلى الحديث في هذا الموضوع القديم مبينا أن نظام الزراعة الرأسمالي المعتمد على الخيول زحزح نظام الزراعة التقليدى المعتمد على الثيران(٣٨). ويمكننا اعتمادا على المقاييس الحالية أن نقول أن قوة شد الحصان تساوى قوة شد الثور. ولكننا إذا أخذنا كل العناصر في حسابنا (فالحصان أسرع ، ويومية عمله أطول ، ولكنه يأكل أكثر ، ويفقد الكثير من قيمته عندما تتقدم به السن بالمقارنة بالثور الذى لا يفقد الكثير من قيمته لأن سكين الجزار تنتظره) إذا أخذنا كل العناصر في حسابنا وجدنا أن نفس العمل الذى يعمله الحصان إذا عمله الثور كانت تكلفته النهائية أكثر بنسبة ٣٠ ٪ . وكانوا في بولندة في القرن السابع عشر يحسبون الحصان موازيا لاثنين من الثيران ، وكانت لديهم وحدة مساحية للأرض يقدرونها بعمل حصان أو ثورين .

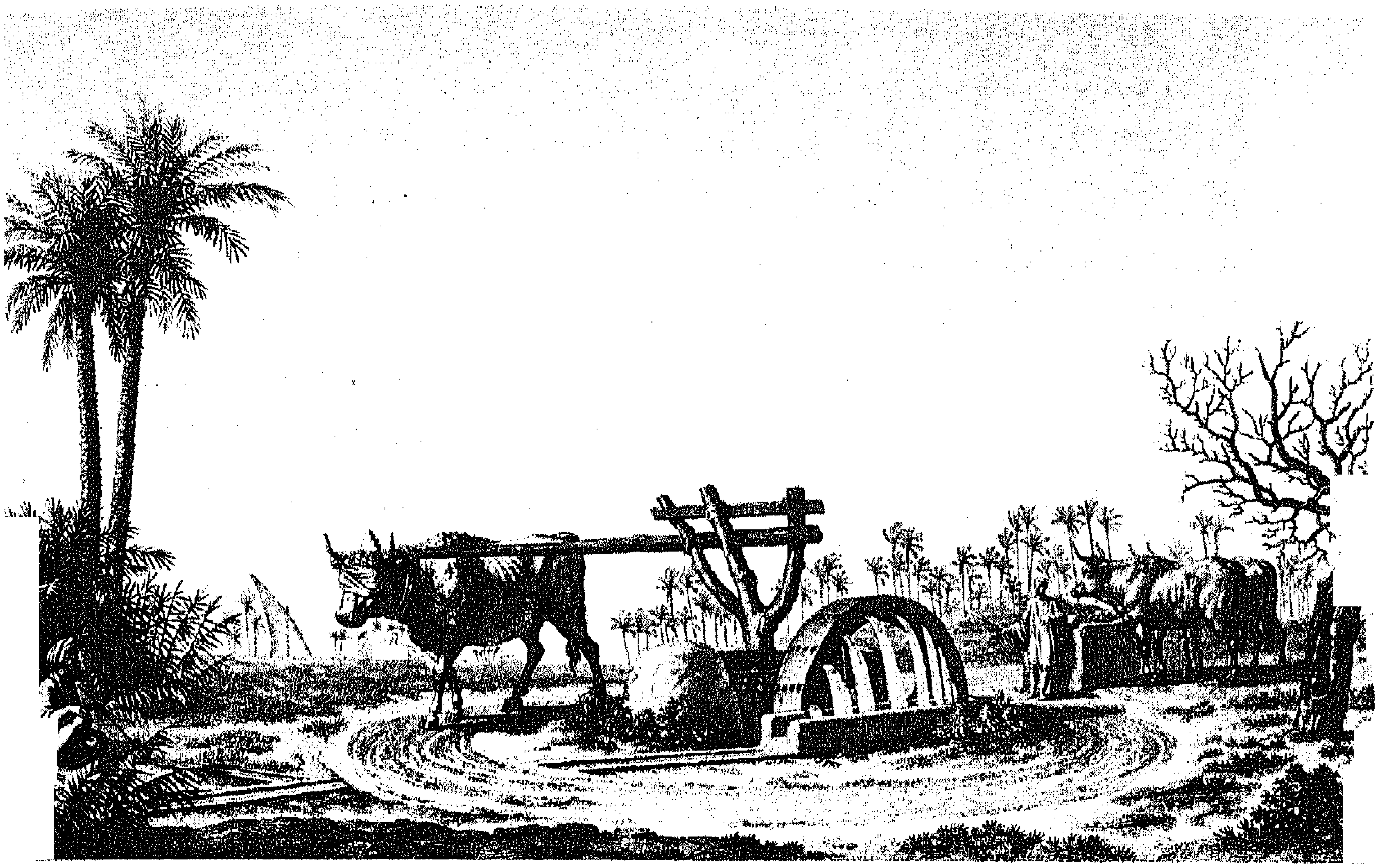

الساقية أو الناعورة المصرية في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . مأخوذة عن كتاب "Description de l'Egypte" "وصف مصر" الذى أعدته مجموعة من العلماء رافقت نابليون بونابرت في حملته على مصر ، ونشرت الحكومة الفرنسية الكتاب في عام ١٨١٢ .

والحصان ممثل قديم في مسرح التاريخ ، فهو موجود في فرنسا منذ العصر الحجرى الحديث، كما تبين قرافة العظام الكبيرة المكتشفة في سولوتريه Solutré بالقرب من ماكون Macon والتي تغطي مساحة تزيد على الهكتار . والحصان موجود في مصر منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وهو قد اجتاز الصحراء في العصر الروماني . وربما كان الموطن الأصلي للحصان في المناطق التي تحيط ببوابة زونجاريه Dzoungarie في صميم قلب آسيا .أيا كان الأمر فإن الحصان انتشر في ربوع أوروبا انتشارا طيبا ، حتى أننا نجد في القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد خيولا وحشية - أو ربما كان الأفضل أن نقول خيولا ارتدت إلى حالة الوحشية - تعيش في غابات وآجام شمال غرب ألمانيا ، وفي جبال سويسرا ، والألزاس ، والفوج les Vosges. ونلتقي في عام ١٥٧٦ برسام للخرائط الجغرافية اسمه دانييل شبيكله Daniel Spekle يتحدث عن هذه الخيول الوحشية " في الغابات الفوجية حيث تتكاثر وتأكل وحدها في كل فصول السنة ، فإذا

حل الشتاء احتمت بالصخور والآكام ... وهي خيول هيابة فزاعة إلى أقصى حد، وأرجلها ثابتة مطمئنة فوق الصخور الضيقة الزلاقة ."

فالحصان إذن أوروبي قديم . وقد ألفه الناس في أوروبا منذ قرون طوال ألفة أدت الى تطوير متدرج ، ومتلاحق لسرج الحصان (بدأ برقبية تستند على الكتفين استخدمت في القرن التاسع في الغرب ، ثم جاءت في وقت سابق أو لاحق : البردعة ، والركابة، والشكيمة، واللجام ، والسرج ، والكدن المتوالي ، والحدوة). وكان الحصان في أيام روما يكدن كدنا سيئا (برقبية تركب على صدر الحيوان ، وتؤدى إلى خنقه) وما كان يستطيع أن يشد إلا حمولة ضعيفة نسبيا دون أن تضغط الرقبية على رقبته ، وتخنقه، ولم يكن يساوى في الشغل أكثر من أربعة عبيد . أما في القرن الثاني عشر فقد تحسن وضع الحصان تحسنا كبيرا مفاجئا فقد زادت قدرته المحركه إلى أربعة أو خمسة أضعاف بفضل الرقبية التي تسند إلى كتفيه ، ولا تمس رقبته . وكان الحصان حتى ذلك الحين حيوان حرب ، ثم تحول منذ ذلك الوقت إلى حيوان يلعب دورا عظيم الأهمية في تزحيف التربة ، وحرثها ، وفي عمليات النقل . وقد دخل هذا التحول الهام طرفا في إطار سلسلة من الطفرات الأخرى هي : الزيادة السكانية، وانتشار المحراث الثقيل ، وذيوع الدورة الزراعية الثلاث سنوية الهادفة إلى تحسين التربة في الشمال ، وزيادة العائد، والنهضة الواضحة التي تحققت في أوروبا الشمالية .

وجدير بالذكر أن توزيع الحصان في العالم ظل يتسم بالتفاوت الشديد ، فلم تكن هناك في الصين إلا خيول قليلة نسبيا . يقول الأب دى لاس كورتيس في عام ١٦٢٦ : " لم نر من الخيل إلا أقل القليل في مملكة شانشينفو- Chanchinfu، وكانت حيوانات صغيرة الحجم ، بطيئة الخطى ، وهم لا يركبون للخيل حدوات ، ولا يستخدمون المهاميز. وليست البرادع التي تسرج بها ، والشكائم التي تلجم بها مماثلة لما عندنا من برادع وشكائم [كانت هناك حتى في القرن الثامن عشر برادع من الخشب ، وحبال عادية تستخدم لجاما] ثم رأينا خيولا أكثر قليلا في ممالك فوشينسو Fuchinsu وكانتون Canton، ولم يحدث قط أن رأينا خيولا بأعداد كبيرة . وقال لي بعضهم أن هناك في الجبال خيولا كثيرة ارتدت إلى فطرتها الوحشية ، وأنهم يذهبون إليها في البرية، ويمسكونها ويروضونها " (٤٠) . أما البغال فهي ـ فيما يقول رحالة آخر ـ قليلة وصغيرة صغرا لافتا للنظر ، على الرغم من أنها تباع بأثمان أغلى من الخيول لأن إطعامها أيسر من إطعام الخيول ، ولأنها تحتمل التعب أكثر من الخيول (٤١). واذا ما أراد مسافر في الصين أن يسافر ممطيا صهوة جواد ، فعليه أن يختار من البداية حيوانا جيدا لأنه لن يستطيع تغييره في الطريق ، فليست هناك محطات لتغيير الخيول على مراحل إلا لخيول الأمبراطور وحده. والكيس من اختار للسفر الكرسي المحمول ، فهو خفيف سريع

مريح يحمله ثمانية رجال يتبادلون حمله على مراحل . أما نقل الأمتعة والبضائع فكان عملية منظمة تنظيما مدهشا تقوم بها مكاتب ، ويكفي أن يسلم الإنسان أمتعته وبضائعه في المكتب عند القيام (فيجدها عند الوصول في المكتب المقابل) ، ويقوم الحمالون بحملها أو يستخدمون في نقلها عربات يد لها عجلة واحدة يدفعها رجل أو رجلان ، ومن النادر أن يجرها بغال أو حمير(٤٢) . ومن الممكن أن نقول : " إن امبراطورالصين كان أقوى أمراء العالم اعتمادا على سلاح فرسانه " ويذكر ماجايان Magaillans في عام ١٦٦٨ أعداد خيول الأمبراطور ، وهي أعداد تتسم بالدقة : ٣٨٩٠٠٠ حصان للجيش ، و ١٧٥٠٠٠ لمراحل النقل البريدى (٤٣) ، وكلها مخصصة لخدمة الأمبراطور في كل جنبات الإمبراطورية . ولكن هذا لم يمنع ما حدث في عام ١٦٩٠ عندما قام الإمبراطور بحملة ضد خان الايلوتيين Eluths ، فقد جمع الجيش الصيني كل الخيول الموجودة في بكين من أصحابها ، سواء كانوا من العامة أو من وجهاء الماندارين (٤٤). ويمكننا أن نسأل أنفسنا ، هل كان رعايا الامبراطور في مجموعهم يمتلكون من الخيول أكثر مما كان الإمبراطور نفسه يمتلك . أيا كان الأمر فقد كان تزويد الصين بالخيول - باستثناءات بسيطة منها مثلا خيول سيتشوان Setchouen الصغيرة - يتم من الخارج ، وتتولاه أسواق خاصة متخصصة تقوم على الحدود مع منغوليا ، ومنشوريا : أسواق Ka-Yuan كايوان ، أو Kuang Min كوانج مين ، أوالسوق التي كانت تقام ابتداء من عام ١٤٦٧ في ضواحي Fu-Shun فوشون (٤٥). وتبين معلومات ترجع إلى مطلع القرن الثامن عشر أن مشتروات الامبراطور في هذه الأسواق بلغت ٧٠٠٠ حصان في العام ، وكانت " مشتروات السادة ، ورجال الماندرين المدنيين، والعسكريين " وبقية الشعب تصل " إلى ضعف أو ثلاثة أمثال هذا الرقم " ، أى إلى حد أقصى قدره ٢٨٠٠٠ حصان كل عام تشترى من الشمال ، وهذا قليل .

وكانت الخيول أكثر ندرة في الهند ، وفي أفريقيا السوداء، وكانت تعتبر هناك من أترف الترف . وكانوا يقايضون الخيول المغربية في السودان على بودرة الذهب ، والعاج ، والعبيد ، وكانوا يحصلون على اثني عشر عبدا مقابل الحصان في مطلع القرن السادس عشر، ثم هبط العدد فيما بعد إلى خمسة عبيد فقط (٤٦). وانظر إلى مضيق هرمز ترى الأساطيل تسير من خلاله إلى الهند محملة بالخيول التى اشتروها من بلاد فارس . وكان الحصان يباع في جوا بـ ٥٠٠ باردويات pardoes وهي تناظر ١٠٠٠ روبية من روبيات الخان الأعظم ، عظيم المغول ، وكان العبد الفتي يساوى في ذلك الوقت من ٢٠ إلى ٣٠ باردويات (٤٧).

ومن حقنا أن نسأل عن هذا الحصان الذى كانوا يشترونه بسعر غال إلى هذا الحد، كيف كان يعيش بدون شعير أو شوفان ؟ كتب تافيرنييه Tavernier في عام ١٦٦٤

يقول : " وهم يطعمون الخيل بنوع من البقول الغليظة الصلبة التي يجرشونها بين حجري طاحونة صغيرين ، ثم يبللونه بالماء لأنه جاف جفافا يطيل الهضم طولا شديدا . وهم يقدمون إلى الخيل هذه البقول مساء وصباحا ، ثم يبلعون الخيول رطلين من السكر الأسود الخشن المعجون بمثل وزنه دقيقا ، ويبلعونها رطلا من الزبد يشكلونه على هيئة كرات صغيرة تدس في حلقومها ، ثم يغسلون أفواه الحيوانات بعد ذلك غسلا جيدا لأن الخيول تمج هذا الطعام . أما في أثناء النهار فإنهم لا يطعمون الخيول إلا ببعض أنواع الحشائش التي يقتلعونها من الحقول بجذورها ، ويعتنون بغسلها ، وتنظيفها من الطين والرمل " (٤٨). وفي اليابان حيث تستخدم الثيران (من كوريا) في شد العربات يعتبر الحصان مطية النبلاء.

ويمثل الحصان في البلاد الإسلامية أرستقراطية عالم الحيوان ، وهو القوة الضاربة للمسلمين منذ نشأة الإسلام ، وازدادت قيمته هذه بعد انتصارات الإسلام الأولى. وهذا هو جوفاني بوتيرو Giovanni Botero يعترف حول عام ١٥٩٠ بتفوق الفرسان الولاخيين، والمجريين، والبولنديين والأتراك : " إذا لاحقوك فلن تستطيع أن تفر منهم ، وإذ تفرقوا تحت وطأة هجومك ، فلن تستطيع ملاحقتهم ، لأنهم ، مثلهم مثل الصقور ، إما أن ينقضوا عليك بغتة أو يفلتوا منك بغتة(٤٩) ". ولقد كانت الخيول كثيرة في البلاد الإسلامية : وهذا رحالة يحكي أنه رأى في عام ١٦٩٤ في بلاد فارس قوافل قوام الواحدة منها ١٠٠٠ حصان (٥٠). وكانت الإمبراطورية العثمانية في عام ١٥٨٥ ، من الناحية العسكرية ، عبارة عن ٤٠٠٠٠ حصان في آسيا ، و ١٠٠٠٠٠ حصان في أوروبا ، أما فارس التي كانت تناصب الإمبراطورية العثمانية العداء ، فكانت بحسب قول أحد السفراء تمتلك ٨٠٠٠٠ حصان (٥١). وهكذا امتدت ساحات الخيول الشبيهة بالحدائق التي كانت تملك على الإنسان نفسه . والحق أن آسيا تفوقت في تربية حصان الحرب أيما تفوق ، تشهد على ذلك حشود الخيول التي تشبه المهرجانات ، والتي ازدحم بها ميناء أسكدار المطل على البسفور في آسيا ، حيث كانت أعداد ضخمة من الخيول تصطف، صفوفا صفوفا ، وتنتظر الشحن على سفن محكمة خاصة تحملها إلى استانبول (٥٢).

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى القرن التاسع عشر ذهل تيوفيل جوتييه Théophile Gautier عندما رأى في استانبول أعدادا كبيرة من الخيول الأصيلة جلبوها من نجد ، والحجاز ، وكردستان . هذا ما كان من أمر الخيول ، التي لم تكن تشغل الساحة وحدها ، فقد كانت هناك عند المعدية في مواجهة اسكدار " أنواع من العربات الخنطور التركية " يسمونها عربات arabas، وهي " عربات مذهبة ومطلية " غطيت من أعلاها بقماش كثيف ثبت على مدادات دائرية " ، كانت تشدها " جواميس سوداء أو ثيران لونها رمادى مفضض " (٥٣) . والحقيقة أن الحصان كان حتى القرن التاسع عشر

مخصصا للجنود ، وللأثرياء ، وللأعمال الرفيعة القدر . وليس معنى هذا أننا لا نجد الخيول تقوم بما دون ذلك ، فربما أدارت الطواحين في استانبول . ومن الخيول تلك الجياد الصغيرة التي كانوا في البلقان يركبون لها حدوات كاملة ، ويكلون إليها شئون النقل. ولكنها كانت خيولا من طبقة الخدم . ولم تكن من الخيول العظيمة التي كانت حتى الأمس ، حتي عام ١٨٨١ ، على ما يحكي رحالة نزل مزجان Mazagan فى المغرب، وجدها تساوى ما بين ٤٠ و ٥٠ من جنيهات الدوكات في الوقت الذى كان فيه العبد الأسود البالغ من العمر ١٨ سنة يباع بـ ١٦ دوكات ، والصبي بـ ٧ دوكات . ولم يتم التحول من استخدام الثور والجمل إلى استخدام الحصان في القيام بأعمال الحرث في آسيا الصغرى إلا حول عام ١٩٢٠ ، بعد الحرب العالمية الأولى.

وكانت أوروبا بطيئة في تطوير مواردها الخاصة في مواجهة هذا العالم من الفرسان والخيالة ، وكانت خبرتها في هذه الناحية خبرة صعبة ، ثقيلة الأعباء ، غالية الثمن. فلما انتهت معركة بواتييه (في عام ٧٣٢) ـ بين فرسان العرب وجيش شارل مارتل ـ وجدت أوروبا لزاما عليها أن تضاعف من أعداد الخيول ، والفرسان لتحمي نفسها ، ولتضمن بقاءها : كان لديها حصان الديستريه destrier أو الأيمن الذى يمتطي الفارس المسلح المسربل صهوته في المعركة ، وحصان الباليفروا palefroi العادي الذى يركبه الفارس في الأوقات العادية ، والحصان الروسيني roussin الجلف الرديء الذى يركبه التابع والغلام. كانت الجهود في عالم الإسلام وفي عالم المسيحية على السواء مركزة على الحرب، ممتلئة بتوتراتها ، ومتأثرة أيضا بسكناتها . وحدث ذات يوم أن انتصر المشاة السويسريون على فرسان الملك شارل الجسور، فكان هذا الانتصار مؤذنا بالعودإلى الاعتماد على المشاة، أو الرماحين أو البيكييه piquiers وهم المشاة الذين يتسلحون بالرمح أو الحربة، ثم على المشاة الذين يتسلحون ببندقية الأركوبوزو وهي بندقية كانوا يسندونها على حامل ، وكان التيرثو tercio أو جندى المشاة الأسباني في القرن السادس عشر آية انتصار المشاة ، وعلى الجانب التركي كان الجندى الانكشارى رمز العودة إلى عصر الجندى المترجل . ولكن الانكشاري التركي لم يكن يحارب وحده ، بل كان يجد من الفارس أو السباهي spahi دعما ، ومؤازرة ، ومن هنا ظل فيلق الفرسان التركي زمنا جيشا هاما يتفوق على جيوش الفرسان في الغرب تفوقا لا يدع مجالا للمقارنة.

كانت الخيول " الجيدة " تباع في أوروبا بأثمان من ذهب . وهذا هو الأمير كوسمه الميديتشي Cosme de Medicis، وقد استعاد سلطانه في فلورنسا في عام ١٥٣١ ، ينشيء لنفسه حرسا من الخيالة قوامه ألفان من الفرسان ، وينفق على هذه الأبهة والاستعراض ما أدى إلى خراب خزينته . وما نصل إلى عام ١٥٨٠ حتى نرى كتائب الفرسان الأسبانية تحقق انتصارا سهلا وسريعا على البرتغال ، وإذا نحن نسمع القائد دوق

دالبا le duc d`Albe يشكو من قلة الخيول والعربات، وتكررت شكاوى القواد من ألوان النقص نفسها في القرن التالي إبان حرب قطالونيا، مثلا (من عام ١٦٤٠ الى عام ١٦٥٩) وطوال عصر لويس الرابع عشر حيث كان الجيش الفرنسي يعتمد على ما بين ٢٠ و ٣٠ ألف حصان كان يستطيع شراءها من الخارج ، وإن كان عليه أن يحسب حساب السوق التي كانت تتغير من عام إلى عام ، فتمده مرة وتعجز عن إمداده مرة أخرى. ثم جاء انشاء وتنظيم مراكز تربية الخيول الفرنسية التي سميت " هرس haras- وهي كلمة مأخوذة من اللفظة العربية " فرس " - والتي اشتروا لها بانتظام فحول الجياد من فريسلاندة ، وهولندة ، والدنمرك ، وبلاد المغرب العربي البربرى la Barbarie(٥٥) ، ولكن هذه المراكز لم تحل دون ضرورة الالتجاء إلى تدبير خيول من الخارج طوال القرن الثامن عشر (٥٦).

في منشوريا في القرن الثامن عشر : كانوا يمسكون بالخيول المتوحشة بالاستعانة بالحبل المعقود المسمى باللاسو ، وهي نفس الطريقة التي استخدمت في سهول الأرجنتين . وكانت كتائب الفرسان التابعة للامبراطور الصيني تحصل على حاجتها من الجياد من هذه المنطقة ، لأن الصين لم تعرف نظام تربية الخيول .(متحف جيميه Guimet).

أما الخيول الجميلة فكانوا يربونها في نابلي، وفي الأندلس: كانت خيول نابلي هي الخيول الكبيرة ، وكانت خيول الأندلس هي الخيول الرشيقة ، ولم يكن مسموحا للناس بشراء هذه الخيول حتى لو دفعوا ثمنها ذهبا إلا بموافقة ملك نابلي أو ملك أسبانيا . ومن البديهى أن التهريب نشط نشاطا كبيرا ، وأن المهربين كانوا يجلبون الخيول الممنوعة من ايطاليا، ومن أسبانيا ، وكان مهربو الخيول يتعرضون على الحدود القطلونية لمطاردة عنيفة من قبل محاكم التفتيش التي أنيط بها السهر في صرامة على تنفيذ هذا الحظر . وأيا كان الأمر فلا بد لمن يسعى إلى اقتناء الجياد العظيمة أن يكون ثريا واسع الثراء مثل المركيز دى مانتو Mantoue ، حتى يتخذ له وكلاء خصوصيين يفتشون له في الأسواق في قشتالة ، وغيرها حتى تركيا ، وشمال أفريقيا ، ويشترون الجياد الجميلة ، والكلاب الأصيلة ، والصقور(٥٧). وكثيرا ما كان غرندوق توسكانا ـ الذى كانت سفنه الجاليرية ذوات المجاديف الكثيرة ، أو لنقل سفن طائفة القديس اتيين Saint-Etienne المؤسسة في عام ١٥٦٢ ، تقوم بأعمال القرصنة في البحر المتوسط ـ يقدم خدمات إلى القراصنة البربر ، ويحصل لقاءها على نفحات من الخيول الجميلة (٥٨). فلما أهل نجم القرن السابع عشر ، وأصبحت العلاقات بشمال أفريقيا أكثر سهولة ، كانت الخيول البربرية المجلوبة من شمال أفريقيا تنزل في ميناء مارسيليا ، وتباع بضاعة رائجة في أسواق بوكير Beaucaire. وما لبثت انجلترة ، منذ عصر الملك هنرى الثامن ، ثم فرنسا ، منذ عصر الملك لويس الرابع عشر ، ثم ألمانيا أن حاولت تربية الخيول الأصيلة من جياد عربية أصيلة استوردتها لهذا الغرض (٥٩). ويشرح بوفون Buffon هذا الموضوع قائلا : " من هذه الخيول [العربية] استولدوا على نحو مباشر أو غير مباشر أجمل خيول الدنيا." وهكذا تحسنت أجناس الخيول في الغرب تحسنا مطردا ، وزادت أعدادها زيادة ملحوظة . وإذا كانت كتائب الفرسان النمساوية قد أحرزت في القرن الثامن عشر بقيادة الأمير أويجين Prinz Eugen انتصارات رائعة على الأتراك ، فإنما ترجع هذه الانتصارات جزئيا إلى هذا التقدم الذى تحقق في مجال تربية الخيول .

وواكب هذا التطور الذى جرى في الغرب في مجال تربية خيول الركوب ، وخيول الفرسان تطور آخر شمل استخدام خيول الجر التي كان الجيش يحتاج إليها في عمليات التموين ، ونقل قطع المدفعية . وإنما أحرز جيش الدوق دالبا الذى غزا البرتغال في عام ١٥٨٠ تقدما سريعا ، لأنه كان مزودا بعربات كثيرة (٦٠). وكان جيش الملك شارل الثامن قد أدهش الناس في ايطاليا في سبتمبر من عام ١٤٩٤ بمدفعية ميدانه التي كانت تمر من أمامهم بسرعة كبيرة ، فلم تكن الثيران هي التي تجرها ، بل الخيول الضخمة التي " قطعت ذيولها وآذانها على الطريقة الفرنسية "(٦١). وهناك كتاب تعليمي من عصر الملك لويس الثالث عشر (٦٢) يعدد كل ما لابد من تدبيره لنقل قوات قوامها

٢٠٠٠٠ رجل مزودة بالمدفعية ، فيذكر عددا هائلا من الخيول لنقل : أواني الطبخ ، وأمتعة الضباط على اختلاف رتبهم ، والصحاف التي يقدم إليهم فيها الطعام ، ومعدات حداد الميدان ، ومعدات النجار ، وصناديق الجراح ، وقبل هذا وذاك قطع المدفعية ، وذخائرها . وكانت القطع الكبيرة من المدفعية ، وهي القطع التى تتكون منها البطاريات، تحتاج إلى ما لا يقل عن ٢٥ حصانا لتحمل القطعة الواحدة ، ثم تحتاج إلى ١٢ حصانا آخرين على الأقل لحمل البارود والقنابل .

هذه أعمال وقع العبء فيها على خيول شمال أوروبا الضخمة التي أخذوا يصدرونها على نحو متزايد إلى الربوع الجنوبية . كانت ميلانو ، على الأقل منذ مطلع القرن السادس عشر ، تشترى هذه الخيول الضخمة من التجار الألمان ، وكانت فرنسا تشتريها من الوسطاء اليهود في مدينة ميتس Metz، وكانت منطقة اللانجدوك الفرنسية تطلب شراءها ، وكانت مناطق تربية هذا النوع من الخيول قد بدأت تظهر، وتثبت أركان وجودها في فرنسا : في بريتانيا ، ونورمانديا (سوق جيبرى Guibray) ، وفي ليموزان Limousin، وجورا Jura...

ولسنا نعرف هل انخفضت أسعار الخيول نسبيا في القرن الثامن عشر أم لا ، ولكننا نعرف أن أوروبا كانت تتزود باحتياجاتها ، وأنها شهدت مظاهر التشبع ، فقد نشط لصوص الخيول ، والمتواطئون معهم في إخفاء الخيول المسروقة ، وأصبح هؤلاء وأولئك يكونون في انجلترا في مطلع القرن التاسع عشر شريحة اجتماعية قائمة بذاتها. أما في فرنسا ، عشية الثورة الفرنسية ، فقد قدر لافوازييه Lavoisier عدد الحيوانات بثلاثة ملايين من الثيران و ١٧٨٠٠٠٠ من الخيول ، فيها ١٥٦٠٠٠٠ تعمل في الزراعة (ما يزيد قليلا على ٩٦٠٠٠٠ في المناطق التي تعمل فيها الخيول وحدها ، و٦٠٠٠٠٠ في المناطق التي تعمل فيها الخيول مع الثيران) (٦٣). كانت هذه الأعداد من الخيول متاحة لفرنسا التي بلغ تعداد سكانها ٢٥ مليون نسمة . وقياسا على هذا التناسب بين عدد الخيول وعدد السكان يمكن أن نقول أن أوروبا كانت تنعم بساحة من الخيول تضم ١٤ مليونا من الجياد علاوة على ٢٤ مليونا من الثيران . وكانت هذه كلها مقومات تدخل في حساب قوتها .

وللبغل كذلك دوره في أوروبا ، لعبه في الزراعة في أسبانيا وفي منطقة اللانجدوك الفرنسية ، وغير هذه وتلك من المناطق . ويتحدث كيكيران دى بوجيه Quiqueran de Beaujeu عن الأحوال في موطنه بإقليم البروفانس فيقول عن البغال هناك " إن أسعار البغال تزيد في كثير من الأحيان عن أسعار الخيول " (٦٤) ، والمؤرخ الذى يلم بعدد البغال وعدد البغالة ، ويتتبع حركة الاتجار في البغال يمكنه أن يستنتج منها إيقاعات

الحياة الاقتصادية في البروفانس في القرن السابع عشر (٦٥). ونحن نعرف أن العربات لم يكن يسمح لها بالسير إلا في بعض الطرق المتميزة في جبال الألب ، مثل طريق ممر البرنر Brenner ، أما الطرق الأخرى فكانت مخصصة للنقل بالبغال بغير منازع ، وربما وصفوا البغال في مدينة زوزه Suse، وغيرها من محطات البغال في جبال الألب بأنها " العربات الكبيرة " . ويصح أن نذكر من بين المناطق الهامة التي ازدهرت فيها تربية الحمير والبغال منطقة بواتو Poitou الفرنسية .

ولم تكن هناك مدينة لا تعتمد على الخيول في تموينها اليومي، ومواصلاتها الداخلية، وعرباتها الخاصة ، وعرباتها المؤجرة . كان عدد الخيول في باريس في عام ١٧٨٩ نحو ٢١ الف حصان (٦٦). وكان من الضروري تجديد هذه الخيول باستمرار . ولهذا كانت الخيول ترد إلى باريس بغير توقف في " عربات الخيول " ، كما كان الناس يقولون ، وكانوا يقصدون بذلك طوابير الخيول التي كانوا يربطونها معا ، وكان الطابور يضم ١٩ أو ١٢ حصانا ، يربطون الواحد منها في ذيل الحصان الذى أمامه ، ثم ينشرون فوق ظهورها غطاء يغطيها جميعا ، ويشدون إلى كل جانب من الجانبين زانة كالعريش . وكانوا يجمعون هذه الطوابير أو عربات الخيول ناحية سان فيكتور Saint-Victor أو على جبل سانت، جينيفيف Sainte-Geneviève ، وكان هناك سوق للخيل ظل قائما حينا من الزمن في شارع سانت أونوريه Saint-Honoré .

لم يكن نهر السين يستخدم في حركة النقل العام التي لم تكن قد وجدت بعد إلا في صورة غير محددة المعالم ، لا نستثني من ذلك إلا يوم الأحد الذى كانت بعض السفن فيه (السفن المغطاة المسماة galiotes والسفن الصغيرة المسماة bachots) تحمل في غير انتظام رواد الفرجة إلى سيفر Sévres أو سان كلو Saint-Cloud قرب باريس. كان المتعجل يركب العربة بالأجرة وهي عربة حنطور يجرها الخيل . وكان عدد هذه العربات الرديئة حتى نهاية القرن الماضي ألفين ، عربات حنطور رديئة كانت تجرى في جنبات المدينة تجرها خيول مستهلكة ، ويقودها حوذيون يتكلمون لغة العربجية ، فرض عليهم أن يسددوا كل يوم ضريبة قدرها ٢٠ سولا " ليسمح لهم بالسير فوق الطرق المعبدة ". كانت حالات " ارتباك المرور في باريس " في ذلك العصر مشهورة ، ولدينا صور ناطقة عنها . يقول أحد الباريسيين " عندما تكون عربات الحنطور صباحا على لحم بطنها ، أو على فيض الكريم ، فإنها تكون طيعة تستجيب لإشارة الزبون ، وتمتثل لأمره ، فإذا أقبل الظهر أصبحت صعبة المنال ، حتى إذا حل المساء أصبح من المستحيل التعامل معها." وعربات الحنطور لم يكن من الممكن العثور عليها في ساعات الذروة ، مثلا في الساعة الثانية بعد الظهر في وقت تناول طعام العشاء (وكانوا في ذلك العصر يسمون طعام الغذاء طعام العشاء)." فأنت تفتح باب العربة الحنطور، وتركب ، فإذا بزبون آخر قد فعل

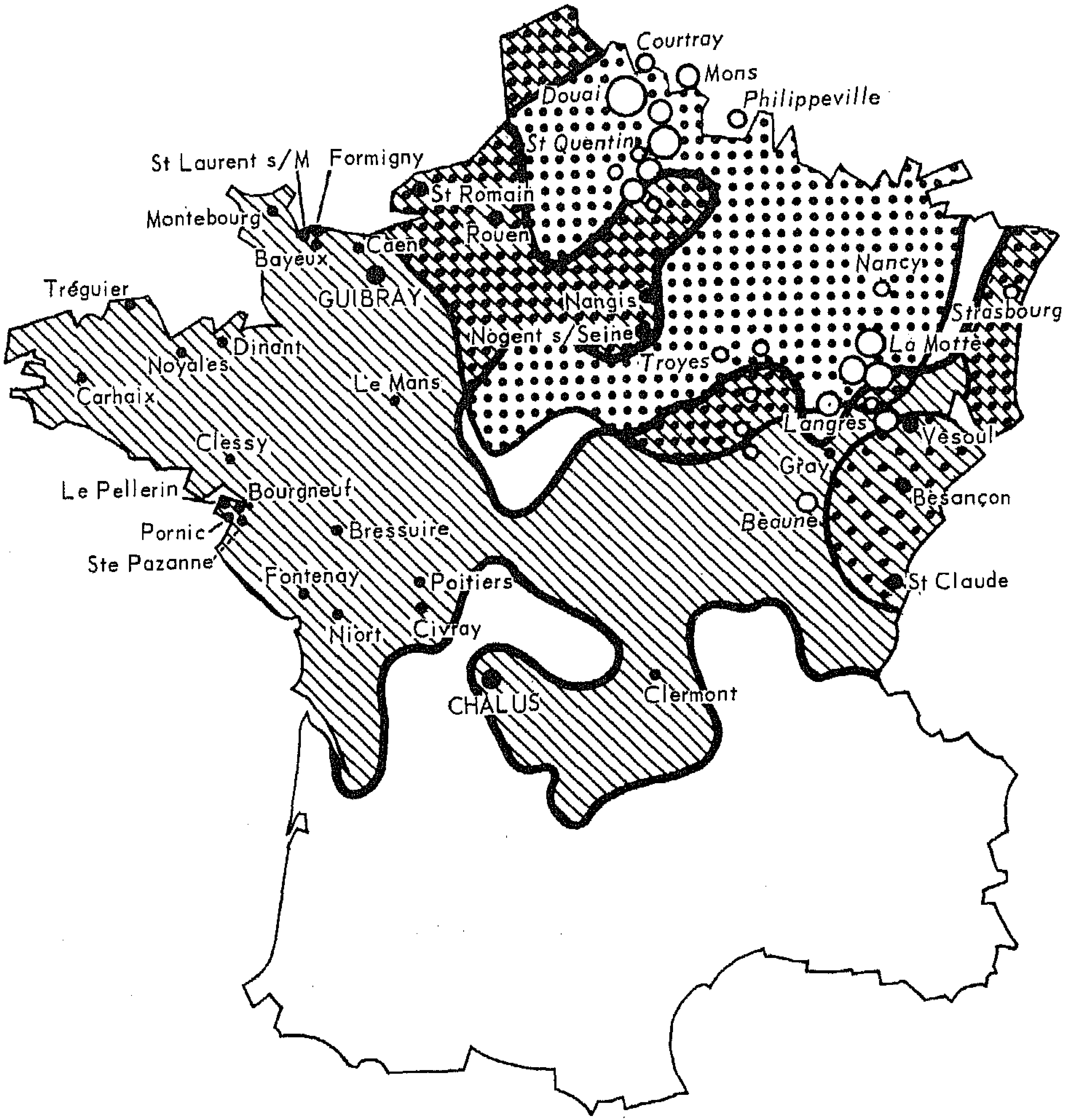

٢٣ ـ تربية الخيول في فرنسا في القرن الثامن عشر

نلاحظ أولا : البقاع التي تتم فيها تربية الخيول ، وثانيا: الحدود التقريبية الشمالية الشرقية لبقاع فيها حقول مكشوفة يشملها نظام الدورة الثلاث سنوية لتحسين التربة ، وأسواق كبيرة للشوفان ، وأماكن يسود فيها استخدام الخيل في حرث الأرض . وتلك منطقتان واضحتان. ولكن هناك مناطق استجمامية (نورمانديا ، وجورا ، والألزاس الخ). كان الحرث باستخدام الثيران المكدنة هو القاعدة السائدة ـ وان كانت هناك استثناءات منها أولا : شمال فرنسا. كذلك نلاحظ أن منطقة البروفانس وجزءا من منطقة اللانجدوك ، ومن منطقة الدوفينيه كانت تمثل استثناء آخر فقد كانت تستخدم البغال في الحرث.

مثلك ، ولكن من الناحية الأخرى ، وركب هو الآخر . ولا مفر من الضروري من الذهاب إلى ضابط البوليس ليقرر من منكما يبقى ، ومن ينزل ." ومن الممكن في ساعات الذروة أن ترى عربة مذهبة سدت عليها السكة عربة حنطور تسير الهوينا ، بخطي وئيدة ، معدودة ، عربة " مبهدلة ، منحولة الوبر ، محروقة الكسوة ، ممزقة الجلد ، سدت فراغات براويز المرايا فيها بألواح من الخشب " (٦٧).

وكان المسئول الحقيقي عن هذه الاختناقات هو باريس القديمة ، تلك الشبكة من الحوارى الضيقة التي تحف بها بيوت متهالكة ، مزدحمة بالسكان ، وكان الملك لويس الرابع عشر قد وقف في وجه نهضة المدينة (بمرسومه الذى أصدره في عام ١٦٧٢). كانت باريس في ذلك الوقت هي نفس باريس في وقت لويس الحادى عشر . هل كانت باريس في حاجة إلى كارثة تمسح المدينة القديمة من على وجه البسيطة كما حدث للندن بحريق عام ١٦٦٦ ، أو للشبونة بزلزال عام ١٧٥٥ ؟ كانت تلك هي الفكرة التي خطرت ببال سيباستيان مرسييه ، وهو يتحدث عن " الهدم " الحتمي الذي ستتعرض له باريس ذات يوم ، ويشير إلى لشبونة التي كانت عبارة عن فوضى ضخمة من البيوت القبيحة ، فكفت ثلاث دقائق " لمسح ما كانت أيدى البشر ستحتاج إلى وقت طويل لهدمه [...] ثم نهضت المدينة بعد الزلزال بهية رائعة " (٦٨).

أما الطريق من باريس إلى فرساى ذهابا وإيابا ، فكانت العربات تندفع فيه على راحتها ، تجرها خيول هزيلة ، ولكن الحوذيين كانوا يدفعونها إلى الجرى بلا رحمة ، ولا يرعون فيها إلاً ولا ذمة ، وكانت " تتصبب عرقا " من فرط الإجهاد . فإذا تحدثوا عن هذه الخيول ، تكلموا عن " المسعورة ". ثم إن فرساى كانت " موطن الخيول " ، وكانت الخيول فيها متباينة ، " يقوم بينها التباين الذى يقوم بين سكان المدينة ، فيكون منها السمين المربرب المهذب ... ويكون منها الأعجف المسكين الحزين الذى لا ينقل في العربة التي يجرها إلا الخدم والقرويين ..." (٦٩).

هذا المنظرالذى نراه هنا في فرساي، منظر يتكرر بطبيعة الحال في سان بطرسبرج ، وفي لندن . ويكفي أن يتابع الانسان على مدى الأيام وصف المتنزهات ، وحلبات السباق، والأماكن التي ارتادها الكاتب الانجليزى الناقد صامويل بيبس Samuel Pepys، على نحو ما سجله في يومياته، وكانت رحلات وسفريات ومشاوير قام بها راكباً عربات الحنطور بالأجرة في عصر شارل الثاني، ثم راكبا عربة خاصة ، وسع بها على نفسه بعد ذلك.

ومن الصعب أن نتصور معنى مشكلات النقل في ذلك الوقت ، سواء نقل البضائع أو نقل البشر. فقد كانت المدن مليئة بحظائر الخيل ، وكان البيطار عنصرا من عناصرها ، وكانت ورشته مثل ورشة تصليح السيارات في أيامنا هذه . ولا ينبغي أن ننسى مشكلة

تدبير الشوفان ، والشعير ، والقش ، والدريس للخيل . وسيباستيان ميرسييه يكتب في عام ١٧٨٨ : " أن من يكره أن يشم ـ في باريس ـ رائحة الدريس الجديد ، يضيع على نفسه متعة شم عطر من ألطف أنواع العطور؛ أما من يحب هذه الرائحة فعليه أن يذهب مرتين في الأسبوع إلى ناحية بوابة لابورت دانفير la Porte d`Enfer [وهي مازالت موجودة للآن إلى الجنوب من دانفير روشيرو Denfert-Rochereau]. هناك يجد طوابير من العربات تحملت فوق طاقتها بالدريس ووقفت تنتظر قدوم المشترين ...وهاهم أولاء القائمون على شئون تموين بيوت أصحاب العربات والخيول يتفحصون الدريس ، ويختبرون جودته ، وإذا بهم يقبضون قبضة من الدريس ، ويتحسسونها ، ويشمونها ، ويمضغونها . إنهم الخدم المكلفون بخيول السيدة الماركيزة " (٧٠). كان العلف إذن ينقل بالعربات ، ولكن الطريق الكبير لنقل العلف والمؤن كان هو نهرالسين بما كان يجرى على صفحته من سفن . ونقرأ عن سفينة محملة بالدريس اشتعلت فيها النيران وهي تمر من تحت بواكي كوبرى بيتي بون Petit -Pont، ووصلت النيران إلى البيوت المطلة عليه، وإلى المساكن المجاورة ، حدث هذا يوم ٢٨ ابريل من عام ١٧١٨ (٧١). وفي لندن كان الدريس يشترى في السوق خارج حدود وايتشابل Whitechapel. وكذلك كانت الحال في مدينة أوجسبورج الألمانية ، استنتاجا مما نراه مرسوما في لوحة كبيرة تمثل الفصول الأربعة في سوق بيرلاخبلاتس Perlachplatz في القرن السادس عشر : نرى في هذه اللوحة في الجزء الخاص بشهر اكتوبر ، إلى جانب لحم الصيد ، ومؤنة الخشب اللازمة للشتاء، كومة من الدريس يحملها الفلاحون . ولدينا صورة عن مدينة نورنبرج الألمانية، يظهر فيها بائع جائل يعرض على عربة يد قشا مما تحتاج إليه حظائر المدينة .

محركات مائية

محركات هوائية

عرف الغرب في القرون الحادى عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر أول ثورة من ثوراته الميكانيكية . ثورة ؟ نعم ثورة ، ونعني بكلمة ثورة هنا : مجموع التحولات التي نجمت عن انتشار عجلات الطواحين التي تعمل بقوة الماء أو قوة الرياح . ولقد كانت هذه العجلات ، أو هذه المحركات الأولى ، ضعيفة تقدر قوة عجلة الطاحونة المائية بما بين ٢ و٥ قوة حصان (٧٢) أما أجنحة الطاحونة الهوائية فكانت قوتها نحو ٥ حصان ، وربما وصلت إلى ١٠ حصان . ولكنها كانت تعني ، بالنسبة لاقتصاد موارده من الطاقة سيئة، زيادة في القوة حرية بأن يحسب لها حساب. وهي قد لعبت بالفعل في مرحلة النمو الأول في أوروبا دورا لا يستهان به.

والطاحونة المائية أكبر أهمية من الطاحونة الهوائية - وهي أصلا أقدم منها - فهي لا تتأثر بعدم انتظام الريح ، وإنما تعتمد على الماء ، وهو أكثر انتظاما ، وأقل خضوعا لنزوات الريح . ولقد انتشرت الطاحونة المائية انتشارا واسعا لأسباب منها قدمها ، ومنها تعدد الأنهار، والشرايين المائية ، وخزانات المياه ، والتفريعات ، ومجارى المياه المقامة على قناطر أو عيون ، والتي تسمى مجارى العيون . هنالك يحرك تيار الماء عجلة الطاحونة ذات الريش أو ذات البرامق . ولا ينبغى أن ننسى استخدام تيار الماء مباشرة لتسيير السفن ذات العجلات الطاحونية في باريس على نهر السين ، وفي تولوز على نهر الجارون ، وفي غير هذا وذاك من الأماكن . ولا ينبغي كذلك أن ننسى استخدام قوة المد والجزر الذى عرف في بلاد الإسلام ، وفي بلاد الغرب على السواء ، حتى في الأماكن التي لم تكن حركة المد والجزر فيها كبيرة . وهذا رحالة فرنسي ينزل البندقية في عام ١٥٣٣، ويحس بالدهشة التي تصل إلى حد الذهول ، وهو يرى الطاحونة المائية الوحيدة على جزيرة مورانو Murano" وقد وجهوا إليها عن طريق قناة ماء البحر ليحركها عندما يعلو ويهبط بالمد والجزر" (٧٣).

ولقد كانت الطاحونة المائية الأولى طاحونة أفقية ، وكانت أشبه شيء بالتوربين البدائي، وقد يسمونها الطاحونة اليونانية لأنها ظهرت في بلاد اليونان القديمة ، وقد يسمونها الطاحونة الاسكندنافية لأنها بقيت في البلاد الاسكندنافية زمنا طويلا. ويمكننا أن نسميها طاحونة صينية أو كورسيكية أو برازيلية أو يابانية أو فيروية (نسبة الى جزائر فيروى Feroe) أو ننسبها إلى آسيا الوسطى حيث كانت العجلة المائية تدور هناك في بعض البقاع حتى القرن الثامن عشر ، ومنها ما بقي حتى القرن العشرين . وكانت هذه العجلة الطاحونية الأفقية تنتج قوة بدائية يمكن أن تحرك ببطء رحاية لطحن الحبوب. ولا غرابة في أن نجد مثل هذا النوع من العجلات البدائية في بوهيميا ، حيث ظلت تستخدم حتى القرن الخامس عشر ، وكانت موجودة في رومانيا حول عام ١٨٥٠.وكانت هناك في مكان قريب من بيرشتيسجادن Berchtesgaden طواحين مائية ذات برامق ، ظلت تعمل حتى عام ١٩٢٠.

ودخل على الطاحونة تغيير هام تمثل في عملية " عبقرية " جعلت العجلة في وضع رأسي، وهي عملية قام بها المهندسون الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد ، نقلوا بها الحركة الرأسية عن طريق مجموعة التروس ، وحولوها في النهاية إلى حركة أفقية لحجر الطاحونة الذى تضاعفت سرعته إلى خمسة أضعاف سرعة العجلة المحركة . ولم تكن هذه المحركات الأولى محركات بدائية في كل الحالات . فقد وجد علماء الآثار قرب آرل Arles في

باربيجال Barbegal تصميمات رومانية مدهشة، منها مجرى عيون طوله أكثر من ١٠ كيلومترات ، كانت المياه تنهمر فيه بقوة لتحرك في نهايته ١٨ عجلة طاحونية ، الواحدة وراء الأخرى ، يمكن اعتبارها بحق مجموعة محركات موصلة على التوازى .

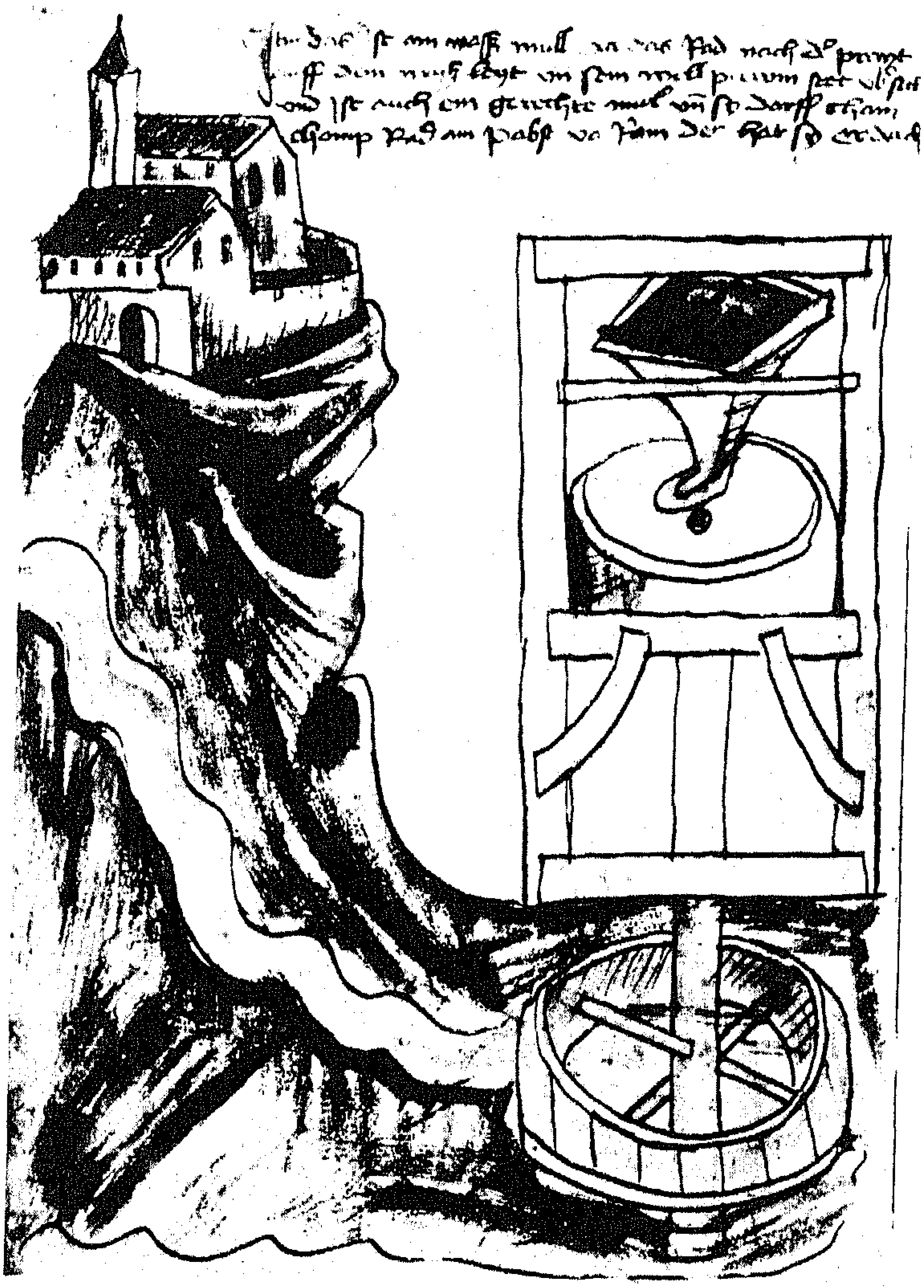

رسم توضيحي طريف يرجع الى وقت متأخر نسبيا (عام ١٤٣٠) يمثل طاحونة لها عجلة أفقية ، وهذه العجلة هنا عجلة من طاحونة بوهيمية حيث بقي التصميم الأفقي متبعا زمنا طويلا. (قارن هذا الرسم برسم من رسوم الكتاب المقدس la Bible française أوردناه في كتابنا هذا ، المجلد الثالث ، الباب الخامس ، حيث اتخذت العجلة وضعا رأسيا).

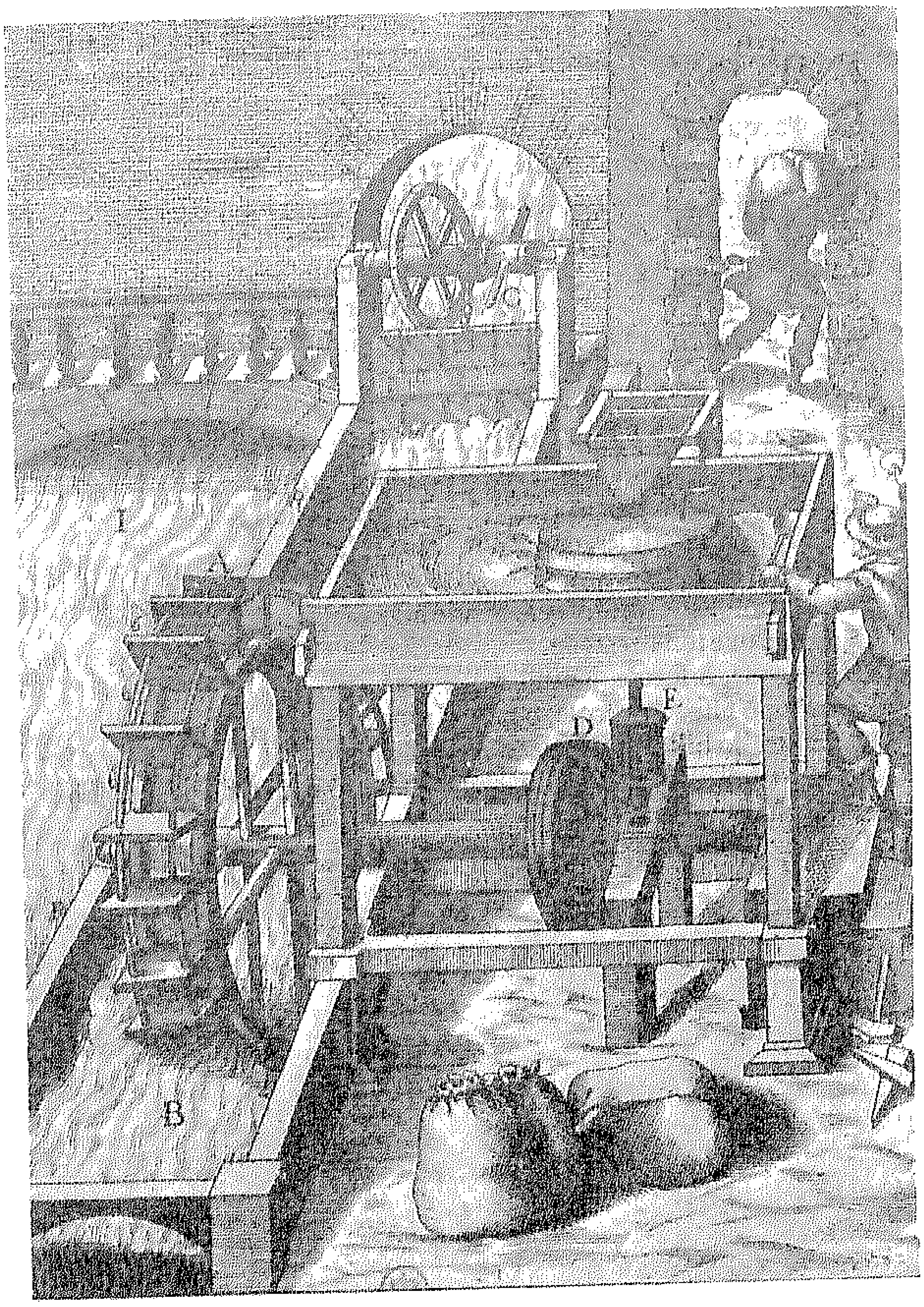

تصميم الطاحونة المائية (١٦٠٧) : يتضح في الرسم تحويل الحركة الرأسية للعجلة الى حركة أفقية للطاحونة (وهو اكتشاف لم يكن جديدا في ذلك العصر بل كان آنذاك اكتشافا قديما يرجع إلى عدة قرون مضت)

إلا أن هذا التصميم الروماني الذي جاء متأخرا كان قاصرا على بعض بقاع الامبراطورية ، وكان يستخدم في طحن القمح فقط . أما ثورة القرن الثاني عشر، والثالث عشر التي تحدثنا عنها فلم تكتف بالإكثار من العجلات المائية المحركة التي استخدمت في الطاحونة المائية ، بل وسعت مجال عملها لتشمل استخدامات أخرى غير طحن الحبوب . ونهض رهبان الطائفة السيسترسيانية cisterciens بنشر هذه العجلات المائية المحركة ، كما نشروا في الوقت نفسه كور الحدادة في فرنسا ، وانجلترة ، والدنمرك . هكذا انتشرت هذه العجلات المائية المحركة على مر القرون ، حتى لم تعد هناك قرية في أوروبا من المحيط الأطلسي الى مسكوفيا la Moscovie إلا وفيها طحانها ، وطاحونتها

المائية التي يحركها تيار المجرى المائي ، أو يحركها الماء الذي يسيرونه لينهمر مائلا من فوقها .

وتعددت استخدامات العجلة المائية ، فاستخدمت في تشغيل مدقات صحن خامات المناجم، والمطارق الثقيلة التي كانت تطرق الحديد في ورش الحدادة ، واستخدمت في تحريك المكابس الهائلة التي كانت تكبس اللباد ، وفي تحريك منفاخ الكور في ورش الحدادين . كذلك استخدمت في تشغيل الطلمبات ، وإدارة أحجار سن السكاكين، والمطاحن التي كانت تطحن القلف وقشور الأشجار الداخلة في دبغ الجلود ، وفي تشغيل المطاحن الوليدة : مطاحن الورق . وينبغي أن نضيف إلى هذه الاستخدامات: المناشير الآلية التي بدأت تظهر منذ القرن الثالث عشر ، كما يبين التخطيط الذى رسمه حول عام ١٢٣٥ " المهندس " الأريب فيار دى هونيكور Villard de Honnecourt. فلما شملت المناجم نهضة فائقة في القرن الخامس عشر استخدمت أجمل العجلات المائية فيها لتشغيل البريمات أو الخنزيرات لرفع سلال المناجم (وكانت بريمات وخنزيرات تستطيع عكس الحركة للتطليع ، والتنزيل) وتشغيل الآلات القوية اللازمة لتهوية سراديب المناجم ، وناعورات ضخ المياه التي كانت تتكون من سلاسل ركبت فيها دلاء ، بل وتشغيل المضخات الماصة الكابسة ، وآليات التشغيل عن بعد ، والروافع التي كانت تستهدف تحريك آليات معقدة، وهي تصميمات ستظل على حالها طوال القرن الثامن عشر ، بل ستتجاوز القرن الثامن عشر . ونحن نرى هذه التصميمات الميكانيكية الرائعة (وفيها أحيانا عجلات هائلة يصل قطر بعضها إلى ١٠ متر) في اللوحات الجميلة الرائعة في كتاب التعدين De re metallica الذى نشره جيورج أجريكولا Georg Agricola في بازل في عام ١٥٥٦، ولخص فيه الكتب السابقة في هذا المجال وزاد عليها .

أما المناشير، ومكابس اللباد ، والمطارق ، والمنافيخ فكانت مشكلتها تتلخص في تحويل الحركة الدائرية إلى حركة ترددية ، وهو ما تحقق باستخدام عمود الكامة . ومن الممكن أن يؤلف مؤلف كتابا كاملا يتناول بالشرح أنواع التروس المختلفة، ونظم تشغيلها، وكيف أدت دورها في الإفادة من العجلات المائية وما إليها، وقد ألف بعضهم مثل هذا الكتاب بالفعل . والشيء المدهش حقا ، من وجهة نظرنا، هو أن هذه الآلات وما زودت به من تجهيزات كانت تصنع من الخشب ، وأن الخشب الذى استخدم في صناعة هذه العجلات المحركة مكن بالفعل من الوصول إلى الحلول البالغة التعقيد . ولم يكن منظر هذه الروائع الميكانيكية منظرا مألوفا للناس في ذلك الزمان ، فإذا أتيحت لهم الفرصة لمشاهدتها ، دهشوا لها ، بل لقد كانوا يدهشون لها في تواريخ لاحقة . فعندما اجتاز بارتيليمي جولى Barthelemy Joly في عام ١٦٠٣ منطقة جورا Jura متجها إلى جينيف ، شاهد على مصب بحيرة سيلان Silan، في وادى نيرول Neyrolles، تلك

العجلات المائية المحركة التي تنشر " خشب الصنوبر pin، والتنوب sapin الذى يلقون أشجاره بعد قطعها من أعلى الجبال المنحدرة ، شجرة وراء شجرة ، فتتلقفها عجلة واحدة محركة تدور بقوة الماء ، صممت بحيث تحدث حركات كثيرة من أسفل الى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل [هي حركات المنشار]، تتلقف العجلة المائية ذات المنشار جذع الشجرة الذى يتقدم تلقائيا للنشر ، حتى إذا تم نشر جذع ، تبعه الجذع التالي، بنظام محكم، كأنما كان هذا العمل يتم بيد البشر " (٧٤). ومن الواضح أن المنظر الذى رآه كان منظرا غير مألوف جديرا بأن يتوقف عنده الرحالة ويصفه .

وأصبحت الطاحونة المائية ، أو العجلة المائية ، على أية حال أداة عامة محركة، مما جعل قوة جريان الأنهار ، سواء استغلت بالكامل أو لم تستغل ، تفرض نفسها ، وأصبحت المدن " الصناعية " (وهل يمكن ألا تكون المدينة صناعية ؟) تتكيف مع الأنهار، وتقترب منها ، وتنظم المياه الجارية في قنوات تشقها في جنباتها ، وبدأت المدن تتخذ سمات قريبة الشبه من سمات مدينة البندقية ذات القنوات ، فأجرت القنوات في شوارعها الثلاثة أو الأربعة الرئيسية على الأقل . كان هذا مثلا هو منظر مدينة تروا Troyes الواقعة على نهر السين ، وكان في مدينة بار لي دوق Bar-le-Ducشارع اسمه شارع التانير Tanneurs يشقه فرع محول من النهر ، كذلك مدينة شالون Chalons المعروفة باللباد والجوخ حولت إلى شوارعها فرعا من نهر المارن (وكان عليه كوبرى يسمى كوبرى الطواحين الخمس) ، وهكذا فعلت مدينة ريمس بنهر الفيل la Vesle، ومدينة كولمار بنهر الايل ، ومدينة تولوز بنهر الجارون Garonne . وكان هناك دائما ، ومنذ وقت مبكر أسطول من " المراكب الطاحونية " كما كانوا يقولون ، ويقصدون مراكب تتحرك بعجلات مائية تدور بقوة تيار النهر .وانظر إلى مدينة براغ تراها استقرت على انحناءات نهر المولداو Moldau. وكانت مدينة نورنبرج الألمانية تستغل نهر البيجنيتس Pegnitz في إدارة العجلات المائية داخل أسوارها ، وفي مواضع متعددة من الريف المجاور (كانت ١٨٠ طاحونة لا تزال تعمل في عام ١٩٠٠). أما باريس فكانت فيها ، وحولها نحو عشرين طاحونة تؤدى عملها ؛ ولكن إذا فرضنا أن هدوء الظروف المناخية لن يتسبب في إيقافها يوما واحدا ، فإنها لن تنتج واحدا على عشرين من الدقيق الذي كان خبازو باريس يستهلكونه . وكانت هناك ١٢٠٠ طاحونة مائية (أغلبها مخصصة لطحن الحبوب) كانت تعمل على طول نهر السين ، ونهر الواز ، ونهر المارن ، والنهيرات الصغيرة مثل الايفيت Yvette ، والبييفر Bièvre (حيث أنشئت في عام ١٦٦٧ صناعة الجوبلان الملكية) ، وكانت النهيرات التى تنساب من المنبع مباشرة تمتاز بأنها لا تتعرض إلا نادرا للتجمد في الشتاء القارص .

كانت الطواحين إذن في المدن ، اتخذتها لنفسها ، فهل كان استيلاء المدن على الطواحين يمثل بصفة عامة مرحلة ثانية سبقتها مرحلة أولى؟ يبين روبير فيليب Robert Philippe في أطروحته التي لم تظهر مطبوعة بعد ، أنها فعلا مرحلة ثانية سبقتها مرحلة أولى شهدت انتشار الطواحين ، طبقا للقواعد التي فرضها الماء المطلوب لتشغيلها ، في الريف على مقربة من القرى التي استقرت الطاقة فيها وبقيت بها لقرون . وأصبحت الطاحونة، التي كانت مخصصة أساسا لطحن القمح ، الأداة الأساسية التي قام عليها اقتصاد الإقطاعيات أو الأبعاديات ، فالسيد صاحب الأبعدية هو الذى كان يقرر إنشاء الطاحونة وهو الذى كان يشتري الرحى ، ويقدم الحجر ، والخشب، وكان الفلاحون يقومون بالعمل . واقتصاد الأبعاديات يتمثل في مجموعة من الوحدات الأساسية القادرة على الاكتفاء الذاتي . وهو يختلف عن اقتصاد التبادل الذى يقوم على تجميع البضائع ، وإعادة توزيعها ، وهو اقتصاد يعمل من أجل المدن ، و ينتهي عند المدن ، وهذا الاقتصاد هو الذى سيفرض نفسه ، بعد أن يظهر على نظام الاقتصاد السابق ، وسيؤدى إلى تكثيف جديد للطواحين يناسب المتطلبات العديدة (٧٥).

وكانت الطاحونة في نهاية المطاف نوعا من المقياس أوالمعيار الذى كانت الطاقة في أوروبا تقدر به في الأزمان التي سبقت عصر الصناعة الأوروبي . نجد مصداق ذلك في ذلك الأسلوب من التفكير الذى فكره طبيب رحالة اسمه كيمفر Kaempfer من منطقة فستفاليا في ألمانيا توقف في أثناء رحلته في عام ١٦٩٠ في جزيرة قليلة الأهمية في خليج سيام ، وأراد أن يعطي القارىء فكرة عن تصرف النهر هناك فقال إن مياهه من الوفرة بحيث تكفي لتشغيل ثلاث طواحين (٧٦) . ولدينا احصائية من منطقة جاليسيا Galicie التى دخلت تحت السيطرة النمساوية في نهاية القرن الثامن عشر تبين أن منطقة مساحتها ٢٠٠٠ فرسخ مربع عدد سكانها مليونان بها ٥٢٤٣ طاحونة مائية (و١٢ طاحونة هوائية فقط) . وقد يلوح لنا الرقم هائلا للوهلة الأولى ، ولكن كتاب دوميسداى Domesday Book يذكر في عام ١٠٨٦ عدد ٥٦٢٤ طاحونة لثلاثة آلاف مركز في جنوب نهرى سيفرن Severn وترينت Trent (٧٧) ، ويكفي أن ينظر الإنسان باهتمام وتدقيق إلى الطرق الصغيرة التي لا يحصيها العد ، والتي تظهر واضحة في كثير من اللوحات ، والرسومات ، وخرائط المدن لنفهم إلى أى مدى كانت الطواحين منتشرة ومعممة . وأيا كان الأمر فإذا كانت نسبة الطواحين المائية إلى عدد السكان خارج بولندة هي نفس النسبة في داخلها ـ قياسا على إقليم جاليسيا ـ فالمفروض أن يكون عدد الطواحين في فرنسا ستين ألف(٧٨) ، وأن يتروواح عدد الطواحين في أوروبا بين نصف مليون ، وستمائة الف طاحونة عشية الثورة الصناعية .

في مقال دقيق ، متميز ، أعتبره في مثل تميز المقال الكلاسيكي لمارك بلوك Marc Bloch عن الطاحونة المائية ، أكد لازلو ماكاى Lazlo Makkai الأرقام التالية تقريبا: " من ٥٠٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠٠٠ طاحونة ، وهي تمثل طاقة تتراوح بين مليون ونصف، وثلاثة ملايين حصان ق ح ." وقد استنتج الباحث هذه الحسابات بناء على العقود، ومقاييس العجلات (الأقطار من ٢ إلى ٣ أمتار) ، وعدد البرامق أو الريش في العجلة (٢٠ في المتوسط) ، وكمية الدقيق المنتجة في الساعة (نحو ٢٠ كجم لكل طاحونة)، وعدد عجلات كل طاحونة (١,٢ أو أكثر) ، والمقارنة بين طواحين شرق، وغرب أوروبا (وكانت بصفة عامة متشابهة ، وينطبق هذا على الأقل على طاحونة القمح)، والتناسب الثابت تقريبا بين عدد الطواحين الهوائية وعدد السكان (في المتوسط في هذه الحالات ١ إلى ٢٩). ولما كان عدد الطواحين ، وحجم العجلات المحركة قد تزايدا تزايدا مستمرا، متناسبا مع تزايد عدد السكان ، سائرا بنفس الإيقاع ، فيمكننا أن نستنتج أن الفترة من القرن السابع عشر إلى الثامن عشر شهدت بصفة عامة تضاعف القوة المحركة . كان لكل قرية طاحونتها . وفي الحالات التي لم تكن فيها الريح أو المياه كافية - في سهل المجر مثلا - لم يكن من الممكن تشغيل الطاحونة بقوة الماء أو الهواء، ولذلك كانوا يستخدمون الخيول أو سواعد البشر في تشغيلها (٧٩).

أما الطاحونة الهوائية فقد ظهرت متأخرة عن الطاحونة المائية بوقت طويل . وكان الناس حتى الأمس يعتقدون أن الطاحونة الهوائية أصلها من الصين ، والأرجح أنها أتت من مرتفعات ايران أو التبت.

كانت الطواحين الهوائية تدور في ايران على الأرجح منذ القرن السابع الميلادى، ومن المؤكد أنها كانت موجودة هناك في القرن التاسع الميلادى ، وكانت تتحرك بأشرعة رأسية مركبة على عجلة تدور أفقيا. وكانت حركة هذه العجلة تنتقل إلى محور مركزى فتدير رحى لطحن الحب. كان التصميم شديد البساطة : فلم تكن هناك حاجة إلى توجيه الطاحونة ناحية اتجاه الريح لأنها كانت تدور بحيث تظل دائما في مهب الريح . وتمتاز هذه الطاحونة بميزة أخرى ، وهي أن الربط بين حركة المروحة ، وحركة الرحى لم يكن يحتاج إلى تروس نقل . ولا تحتاج طاحونة الحب بصفة عامة إلا إلى تحريك رحى تدور أفقيا، فتفتت الحب فوق رحى ثابتة تحتها هي الرحى النائمة أو الساكنة. ويقال أن المسلمين نشروا هذه الطواحين في اتجاه الصين والبحر المتوسط . وكانت مدينة طركونة Tarragona على الحدود الشمالية لاسبانيا المسلمة تمتلك منذ القرن العاشر طواحين هوائية(٨٠) . و لكننا لا نعرف كيف كانت تدور.

ويتمثل الإنجاز الكبير الذي تم في الغرب في تحويل العجلة المحركة الهوائية الأفقية الى عجلة منصوبة رأسيا على غرار ما حدث للعجلة المحركة المائية ، على خلاف مع

حدث في الصين حيث ظلت الطاحونة الهوائية تدور أفقيا طوال قرون . ويقول المهندسون أن هذا التعديل كان عبقريا وأنه زاد القوة زيادة كبيرة . وكانت هذه الطاحونة بعد أن تم تعديلها إلى هذا النمط الجديد هي التى انتشرت في الديار المسيحية.

وتسجل لوائح آرل Arles في القرن الثاني عشر وجود هذه الطاحونة. ومن المؤكد أنها كانت في ذلك العصر موجودة في انجلترة وفي فلاندريا . وما جاء القرن الثالث عشر حتى كانت فرنسا كلها قد استقبلتها ، وأفسحت لها مكانا بين ربوعها ، ونجدها في القرن الرابع عشر في بولندة ، وفي مسكوفيا ، نقلتها إليهما ألمانيا. ونذكر هنا ملحوظة صغيرة وهي: أن الصليبيين لم يجدوا طواحين هوائية في الشام ، وقد ذكر البعض أنهم أدخلوها هناك(٨١) . وهناك تفاوتات زمنية متعددة من منطقة إلى منطقة ، فقد سبقت هذه المنطقة إلى إدخال الطاحونة، وتأخرت تلك في إدخالها ، ولكن أوروبا الشمالية كانت

طاحونة هوائية. مقعد خشبي من القرن الرابع عشر .(متحف كلوني)

بصفة عامة أسبق من اوروبا الجنوبية . وهكذا نرى أن الطاحونة الهوائية وصلت متأخرة إلى بعض بقاع اسبانيا، ومنها منطقة مانتشا Mancha ، ويحدثنا واحد من المؤرخين عن خوف دون كيخوته Don Quixote من الطواحين الهوائية فيقول أنه كان بديهيا ، لأنها كانت جديدة في الناحية ، وكانت تلوح له كعفاريت هائلة . ونلاحظ نفس الشيء في ايطاليا حيث صور الشاعر دانتي Dante الشيطان (في عام ١٣١٩) يبسط ذراعيه الهائلتين في " الجحيم Inferno" مثل الطاحونة التي تحركها الريح، يقول:come un molin che il vento gira(٨٢).

وكانت الطاحونة الهوائية أكثر تكلفة في صيانتها من بنت جلدتها الطاحونة المائية ، وكانت غالية التكاليف في التشغيل أيضا وبخاصة في أعمال الطحن . ولكن الطاحونة الهوائية كانت تستخدم استخدامات أخرى . وكان أهم استخدام لها ذلك الذي شهدته هولندة ، وكانوا يسمونها هناك فيبمولين Wipmolen، منذ القرن الخامس عشر (وعلى نحو أكبر بعد عام ١٦٠٠) هناك استخدمت في تحريك جنازير بها قواديس كانت مهمتها صرف الماء من الأرض والقائه في قنوات(٨٣). ومن هنا فقد كانت وسيلة من الوسائل التي استخدمت في تجفيف الأراضي الواطئة الضحلة ، وكسب مزيد من الأرض ، والحفاظ عليها وراء السدود التي أقيمت في وجه البحر، وفي وجه البرك التي كانت قد تكونت في المواضع التي حفروا فيها في الماضي حفرا كثيرة لاستخراج التراب النفطي أو الطورف . وهناك سبب آخر جعل من هولندة وطن الطواحين الهوائية ، وهو أنها تقع في وسط مجال الرياح الغربية الدائمة التي تهب من المحيط الأطلسي إلى بحر البلطيق .

والتصميم البدائي للطاحونة الهوائية (٨٤) يقوم على جعل الطاحونة كلها في مجموعها تدور حول نفسها لكي توجه أجنحتها إلى اتجاه الريح ، ولهذا اتسمت الطواحين في إقليم بريتانيا باسم مميز هو " الشمعدان " . وترى الطاحونة كلها مركبة على صار مركزي ، له عارضة تمكن من تحريك الطاحونة حول محورها . ولما كانت الأجنحة تتميز بأنها مركبة في أعلى نقطة ، بعيدا عن الأرض ، لتتلقف الريح على أشدها ، فإن مجموعة التروس ، والرحى كانت توضع في أعلى البناء ، (ومن هنا كان من الضروري رفع أجولة الحبوب إلى أعلى). ملحوظة تفصيلية صغيرة : لم يكن محور الطاحونة دائما أفقيا تماما ، وإنما كان يركب بميل يتحدد بالخبرة البحتة . والتصميمات التخطيطية (مثل تصميمات راميللي ١٥٨٨) التي وصلت إلينا ، وكذلك الطواحين الموجودة إلى الآن تتيح لنا فهم الآليات البسيطة التي تقوم عليها : نقل الحركة ، نظام التوقيف، إمكانية تركيب مجموعتين من الرحى على الجانبين بدلا من المجموعة الوحيدة في الوسط...

ولن يكون من الصعب شرح طريقة عمل الطاحونة الهوائية الكاسحة للمياه ، الفيبمولين الهولندية ، فهي تأخذ قوتها المحركة من أعلى الطاحونة ، وتنقلها إلى أسفل، حيث ركب الجنزير ذو القواديس التي تلعب دور المضخة. وتنتقل الحركة في هذه الحالة من خلال الصارى المجوف عن طريق عمود . ومن هنا فقد صادف تحويل الطاحونة الكاسحة لطحن الحبوب بعض المشكلات ، ولكنها لم تكن مشكلات استعصى حلها.

وانتشرت في وقت مبكر ، يقينا في القرن السادس عشر ، طاحونة ابتكرها المهندسون الهولنديون ، هي الطاحونة ذات البرج : جعلوا الجزء العلوى منها فقط هو المتحرك، الذي يغير اتجاه المراوح لتواجه الريح . وكانت مشكلة هذه الطواحين ـ التي كانوا يسمونها الطواحين ذات البلوزة لأن منظرها من بعيد كان يوحي بمنظر الفلاح الذى يلبس بلوزة منفوخة ـ تتلخص في تحريك الجزء العلوى المتحرك ـ الذي أسموه " الطاقية " المتحركة ـ فوق الجزء السفلي الثابت من الطاحونة ، وذلك باستخدام قبابيب لها عجل، أو باستخدام أنواع مناسبة من العجلات تباينت تصميماتها . أما في داخل الطاحونة فإن المشكلات التي كان مطلوبا حلها كانت هي نفس مشكلات الطواحين الأخرى وهى: توجيه حركة الأجنحة ، وتوقيفها ، والتحكم في كفوف الأجنحة ، وتدبير نزول الحب ببطء من خلال القمع إلى فتحة الرحى العلوية الدوارة ، بالإضافة إلى المشكلة الرئيسية، وهي قلب الحركة عن طريق استخدام تروس من حركة رأسية للأجنحة إلى حركة أفقية للرحى.

كان التقدم الذي تحقق في مجال الطواحين ، إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية أكثر عمومية، يتمثل في اكتشاف أن محركا واحدا ، عجلة محركة واحدة ـ سواء كانت تلك عجلة طاحونة هوائية أو عجلة طاحونة مائية ـ يمكن أن تنقل الحركة لتشغيل آلات مختلفة في وقت واحد: لا طاحونة واحدة ، و لكن طاحونتين ؛ لا منشارا واحدا ، ولكن منشارا ومطرقة ؛ لا هاونا واحدا ، ولكن مجموعة من الهاونات ، كما رأينا في نموذج طريف في منطقة التيرول ، تقوم بدق القمح بدلا من طحنه(٨٥) ، وكان دق القمح في هذه الحالة دقا خشنا ينتج دقيقا كامل المكونات يستخدم في صناعة الخبز الكامل على شكل الرقاق .

الشراع :

في الأساطيل الأوروبية

ليس هدفنا هنا أن نطرح مشكلة أشرعة السفن برمتها ، ولكن هدفنا أن نتصور الطاقة التي يضعها الشراع في خدمة البشر ، باعتبار أن الشراع محرك من أقوى المحركات التى أتيحت لهم. وإذا اتخذنا من أوروبا مثلا وجدنا الشراع يوضح المشكلة وضوحا لا عوج فيه ولا اختلال . كانت أوروبا تستخدم حول عام ١٦٠٠ سفنا تجارية تتسع لما بين

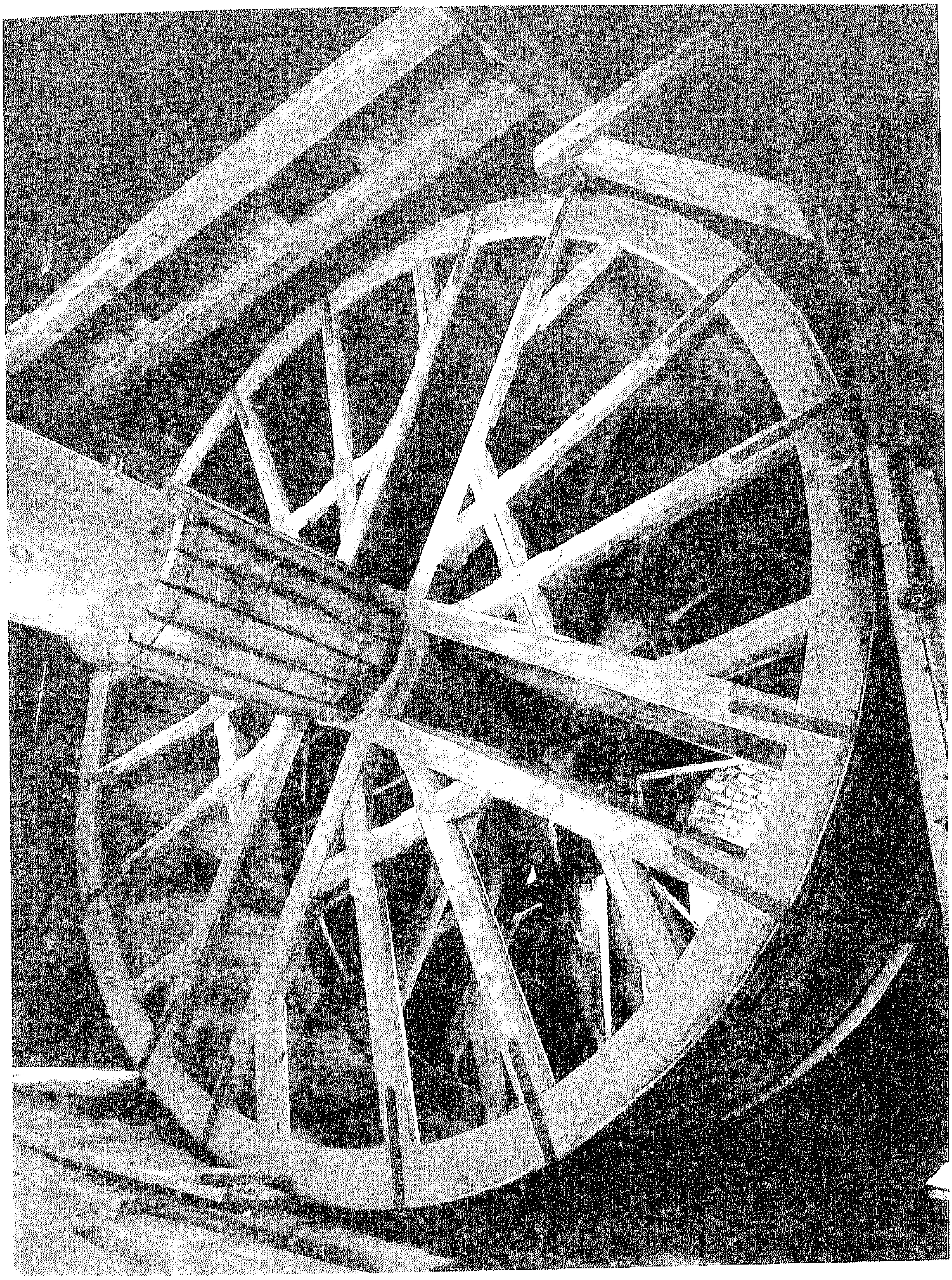

آلات وتروس مصنوعة من الخشب : هذه العجلة الضخمة ذات الخنزيرة الرافعة عبارة عن قفص كان ثلاثة رجال يحركونه من الداخل .(المتحف الألماني في ميونيخ .)

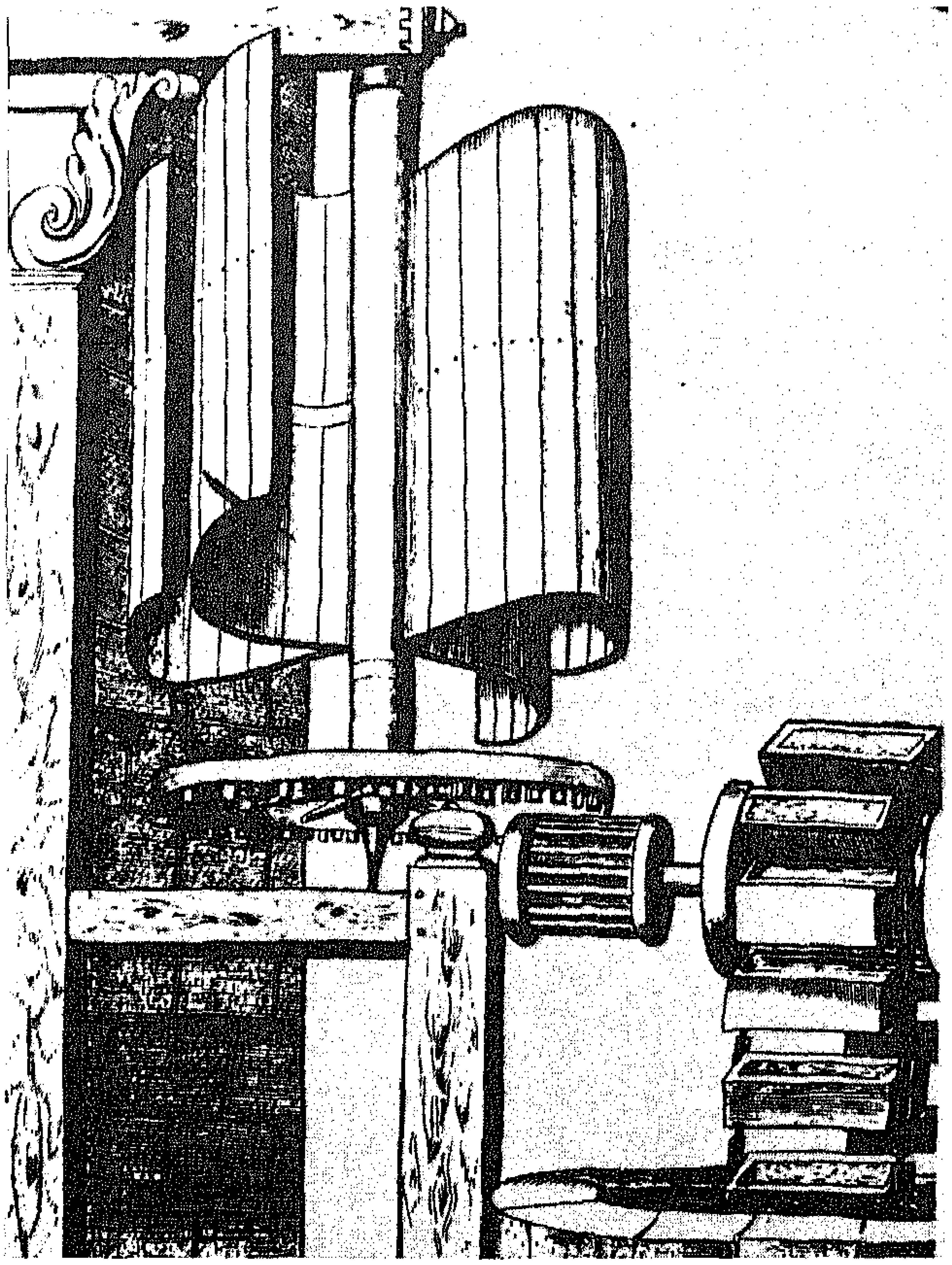

طاحونة هوائية ذات أجنحة من نوع خاص جدا تدور حول محور رأسي ، ولا تحتاج إلى التوجيه بحسب اتجاه الريح . وتتم عملية قلب الحركة هنا على عكس الطاحونة المائية : حركة أفقية في البداية تتحول إلى حركة رأسية تدير عجلة رأسية ذات قواديس ، كعجلة الساقية ، ترفع المياه (وكانت هذه الطاحونة تشغل جهازا لصرف الماء من المستنقعات الانجليزية المسماة Fens صنع في انجلترا في عام ١٦٥٢). أما الطواحين الهولندية فكانت تقوم بعمليتين لقلب الحركة : حركة رأسية (ابتداء من الأجنحة) ، وأفقية هي الحركة المنقولة عن طريق العمود المركزى ، ثم تتحول الى رأسية مرة أخرى عند عجلة الضخ . (رسم W. Blith, The English Improver improved, London, ١٦٥٢).

٦٠٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠٠ طن بحري من البضائع ، وهو رقم نورده متحفظين التحفظ المألوف، فهو على أكثر تقدير يعطينا صورة عامة عن الحجم . ولكن هناك احصائية جادة تمت في فرنسا في فترة مؤكدة من عام ١٧٨٦ إلى عام ١٧٨٧ تبين أن الأسطول الأوروبي، عشية الثورة الفرنسية ، كانت طاقته تصل إلى رقم ٣٣٧٢٠٢٩ طن(٨٦)، ومن المحتمل أن تكون طاقة هذا الأسطول قد زادت الى خمسة أمثالها في غضون قرنين،

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . فإذا حسبنا للسفينة في المتوسط ثلاث رحلات في العام فإننا نصل إلى رقم ١٠ ملايين من الأطنان البحرية، وهو رقم حركة النقل في ميناء واحد كبير من موانينا الحالية.

ولا يمكننا أن نحسب استنتاجا من هذه الأرقام قوة المحركات الهوائية المتمثلة في أشرعة السفن التي كانت تنقل هذه الكميات من البضائع حسابا يتسم بنفس الدقة التي نحسب بها قوة أسطول نقل البضائع الذى يعمل بالبخار . فالمحرك البخاري له قوة معروفة مقدرة بحصان القوة . ولكننا نعرف أنهم ، حول عام ١٨٤٠ ، عندما كانت هناك سفن شراعية ، وسفن بخارية تعمل في وقت واحد ، كانوا من الناحية العملية يقدرون أن السفينة البخارية تؤدى عمل خمس سفن شراعية تقريبا. فإذا حسبنا حسبتنا انطلاقا من أن الأسطول الأوروبي كانت حمولته بين ستمائة الف وسبعمائة ألف طن، وحولناها على أساس ما يقابلها من سفن الشحن البخارية ، فيمكننا أن نجازف برقم (غير موثق على الإطلاق) يتراوح بين ١٥٠٠٠٠ و ٢٣٣٠٠٠ حصان ، بحسب ما إذا كنا نقدر بثلث أو ربع حصان القدرة اللازمة لنقل الطن البحرى حول عام ١٨٤٠ . وينبغي أن نزيد هذا الرقم زيادة كبيرة عندما ندخل في الحساب أساطيل الحرب (٨٧).

الخشب

مصدر يومي للطاقة

الحسابات الخاصة بالطاقة تنحي اليوم جانبا عمل الحيوان ، وإلى حد ما ، العمل اليدوى للبشر، و تنحي جانبا في كثير من الأحيان أيضا الخشب ومشتقاته. ولكن الخشب، وهو أول المواد المألوفة ، كان قبل القرن الثامن عشر مصدرا هاما للطاقة . ولقد كانت حضارات ما قبل القرن الثامن عشر حضارات خشب ، وفحم نباتي ، أو خشبي، كما أن حضارات القرن التاسع عشر حضارات الفحم الحجرى .

هذه المعلومة التي ذكرناها ترسم صورة المشهد الأوروبي . فالخشب دخل على نطاق كبير في البناء ، حتى في البناء بالحجر . ومن الخشب صنعت وسائل النقل البرى، والبحرى ، والآلات ، والأدوات ، وما كانت الأجزاء المعدنية فيها إلا اجزاء خفيفة بسيطة . ومن الخشب صنعت الأنوال وعجلات الغزل ، والعصارات ، والمضخات ، ومن الخشب صنعت أدوات تجهيز الأرض للزراعة ، فكانت الحراثة البسيطة من الخشب، والمحراث كثيرا ما كان يصنع من وتد خشبي صفحوه بسلاح رقيق من الحديد . فلا غرابة من وجهة نظرنا في أن تصنع من الخشب تروس معقدة تتعشق بعضها في البعض الآخر بدقة، على نحو ما نرى في معروضات المتحف الألماني بميونيخ ، وهو متحف خاص بالتقنيات. هناك نرى عددا من ساعات الحائط ترجع إلى القرن الثامن عشر صنعت في الغابة السوداء وكل

تروسها من الخشب، بل هناك قطعة أكثر ندرة هي ساعة يد مدورة كل ما فيها مصنوع من الخشب، من تلك المادة التى عهدناها قابلة للكسر.

كان تغلغل الخشب في كل شيء أمرا شديد الوطأة في ماضي الزمان. ولما كانت أوروبا محظوظة من ناحية الغابات ، فقد كان ذلك سببا من أسباب قوتها. وكان عالم الإسلام في مواجهتها يضمحل على المدى الطويل نتيجة لقلة موارده من الغابات ، وهي والخشب الذى يعنينا الآن هو الخشب الذى يحرق فيتحول مباشرة إلى طاقة تستخدم في تدفئة البيوت ، وفي الصناعات المعتمدة على النار، والمسابك، وصناعة البيرة، وصناعة التكرير، وصناعة الزجاج وصناعة القرميد، والتفحيم ، وفي الملاحات التي كثيرا ما كانت تحتاج الى التسخين . وكمية الخشب التي تستخدم وقودا تتحدد تبعا لاستخدامات الخشب الأخرى التي يتصدرها تصنيع وسائل إنتاج الطاقة على نطاق واسع .

والغابة مسخرة للإنسان ليتدفأ بخشبها ، وليقيم منها بيته، ويصنع أثاثه، وأدواته ، وعرباته ، وسفنه.

وهو يحتاج إلى هذا أو ذاك النوع من الخشب حسب الحالة ، فبناء البيت يتطلب خشب القرو chêne ، وبناء السفن يتطلب عشرة أنواع مختلفة(٨٩) من خشب التنوب sapin إلى خشب القرو وخشب الجوز noyer ، وصناعة جرارات المدافع تتطلب خشب الغرغاج orme . ومن هنا تعرضت الغابات لعمليات تبديد هائلة. لم تكن الترسانات أو دور صناعة السلاح ترفع يدها عن غابة خشية صعوبة النقل أو البعد أو التكلفة الباهظة ، فامتدت الأيدى إلى كل الغابات . كانت الألواح والمراين تحمل فوق السفن في مرافيء البلطيق ، وهولندة ، وتذهب الى لشبونة ، واشبيلية منذ القرن السادس عشر، بل كانت هناك سفن تبنى ثقيلة ورخيصة لرحلة واحدة ، يرسلها الأسبان إلى أمريكا، ولا يخططون لعودتها ، فإذا أنهت مهمتها في جزر الأنتيل أسلموها ، حتى منذ يوم وصولها ، إلى من يحطمها ، وكانوا يسمونها السفن الضائعة los navios al traves . هكذا كانوا يبددون الخشب .

وكان إنشاء أى أسطول في أى بلد يتطلب تبديد مساحات شاسعة من الغابات . وقد أدت المنشآت البحرية في زمن كولبير Colbert إلى قطع شجر كل الغابات في فرنسا ، وكانت الأخشاب المقطوعة تسلك كل الطرق الملاحية مهما صغرت ، ومنها مسالك مائية ثانوية ، وأنهار صغيرة مثل الأدور Adour والشارانت Charente . كان نقل أخشاب التنوب من الفوج يتم بالتعويم في المواضع الضحلة من نهر الميرت Meurthe ثم بالدفع حتى بار لي دوق Bar-le-Duc حيث يتم تجميع جذوع الشجر في أورنان Ornain على هيئة أطواف تسلك من هناك سبيل السو Saulx والمارن Marne ثم تصل إلى نهر السين(٩٠). أما الصوارى التى كانت لازمة للسفن الحربية من حيث هي قطع أساسية

في بنائها ، فلم يكن بد من جلبها من الخارج ، وكانت فرنسا قد حيل بينها وبين تجارة البلطيق التي كانت تزود انجلترة بحاجتها من الصواري عن طريق ريجا Riga ثم بعد ذلك عن طريق سان بطرسبرج ، ولكنها لم تفكر (كما سيفعل الانجليز فيما بعد) في استغلال غابات العالم الجديد، وبخاصة غابات كندا .

وهكذا وجدت البحرية الفرنسية نفسها مضطرة إلى اللجوء إلى أنماط " الصوارى المركبة " ، وكانت صوارى مصطنعة مكونة من عدة قطع من الخشب ركبت بعضها في البعض الآخر، وأحيطت بأطواق حديدية لتثبيتها ، فكانت تفتقر إلى المرونة ، وكانت تتحطم إذا شد الشراع بقوة . ولهذا ظلت السفن الفرنسية بالقياس إلى السفن البريطانية تفتقر إلى شيء من السرعة . ويمكننا أن نقيم أهمية هذا الموضوع عندما ننظر إلى الفترة التي انقلب فيها الوضع حينا في أثناء حرب استقلال المستعمرات الانجليزية في أمريكا ، فقد سحبت عصبة المحايدين منطقة البلطيق من الانجليز، واضطر الانجليز إلى استخدام الصوارى المركبة ، فانقلبت الموازين لصالح أعدائهم (٩١).

ولم تكن عمليات التبديد هذه هي العمليات الوحيدة التي تعرضت لها الغابات ، بل لم تكن هي أخطرها على المدى الطويل . فقد عمد الفلاحون ، وبخاصة في أوروبا ، إلى اقتلاع الأشجار من جذورها دون توقف ، وتحويل مكانها لزيادة الرقعة الزراعية . وامتداد الرقعة الزراعية هي عدو الغابة . كانت غابة أورليان Orlésns في عصر الملك فرانسوا الأول مساحتها ١٤٠٠٠٠ فدان فرنسي arpent، فانخفضت مساحتها بعد قرن على ما يقولون إلى النصف فأصبحت ٧٠٠٠٠ فدان فقط . وهذه الأرقام ليست مؤكدة ولكن هناك شيء مؤكد وهو أن الفترة من نهاية حرب المائة عام (التي شجعت على غزو الحقول للغابات) إلى عصر الملك لويس الرابع عشر شهدت عمليات مكثفة لاقتلاع الغابات ، وتحويل أرضها إلى الزراعة أدت إلى تضييق رقعة الغابات إلى حدودالشريحة الضيقة القائمة اليوم (٩٢). وكانت الظروف تتوالى في الاتجاه نفسه ، ففي عام ١٥١٩ هبت عاصفة أوركانية عارمة اقتلعت ما بين خمسين وستين الف شجرة في غابة بلو la forêt de Bleu التي كانت في العصر الوسيط تربط غابات ليون ، وغابات جيزور Gisors معا ، وانتهزت الزراعة الفرصة واحتلت الفجوة ، ولم تنشأ منذ ذلك اليوم مرة أخرى غابة تربط المنطقتين(٩٣). ونحن اليوم اذا ركبنا الطائرة ونظرنا إلى الأراضي الممتدة من وارسو الى كراكاو شرقي أوروبا ، رأينا إلى أى حد تتغلغل الحقول الطوال في الغابات على نحو واضح لا ريب فيه . وإذا كانت الغابات الفرنسية قد حققت استقرارا في القرنين السادس عشر والسابع عشر فهل كان السبب في ذلك التشريع الواعي (المرسوم الكبير الصادر في عام ١٥٧٣ والاجراءات التي اتخذها كولبير) ؟ أم هل كان الفضل في

ذلك للتوازن، الذى تحقق بصورة طبيعية لأن الأرض التي كان يمكن التفكير في اقتطاعها من الغابات لم تكن لتغطي ما ستتكلفه من جهد، فما كانت إلا أرضا فقيرة؟

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول ، استنادا إلى خبرات العالم الجديد خاصة ، أن حرق الغابات، وإقامة مناطق مزروعة على حسابها كانت طعما خداعا ، فقد كان هادم الغابة يضيع ثروة متاحة في مقابل ثروة يسعى إلى تكوينها ، ولم تكن الثروة المستهدفة بالضرورة أكبر من الثروة المضيعة. وهذا تفكير ينطوى على تضليل بين، فليست هناك ثروة ترتجى من الغابات إلا في إطار النظام الاقتصادى الذي يستغلها، وينهض بعمليات استغلال الغابات كثيرون ، من رعاة يرعون قطعانهم فيها (ولا يقتصر أمر استغلال الغابات على الخنازير التي تأكل ثمار شجر القرو) ، وحطابين ، وفحامين، وعربجية، وغير هؤلاء وأولئك من أناس أقوياء على الفطرة جعلوا من استغلال الغابات، والانتفاع بها، وقطع ما فيها حرفة لهم . وهكذا فالغابة لا قيمة لها الا إذا استغلت.

ولقد ظلت مساحات هائلة من الغابات قبل القرن التاسع عشر بعيدة عن منال الحضارات: الغابات الاسكندنافية ؛ الغابة الفنلندية ؛ الغابة التي توشك أن تكون متصلة

حطابون يحتطبون . صورة من ورق أبيض مقصوص . لعلها من بريتانيا السفلى حول عام ١٨٠٠ (متحف الفنون والتراث الشعبي في باريس.)

بين موسكو وأرخانجل Arkhangel والتي تخترقها شبكة كثيفة من الطرق؛ الغابة الكندية؛ الغابة السيبيرية التي ربطها القناصون بأسواق الصين وأوروبا ؛ الغابات الاستوائية في العالم الجديد وفي أفريقيا وفي الجزر المحيطية الأسيوية التي لم يجد فيها الناس ضالتهم من حيوان الفراء، فاستعاضوا عنه بقطع أشجار الخشب القيم : فخفوا في طلب خشب الكامبيش campeche في المنطقة التي تتسمى حاليا هندوراس، وهو خشب يسمى بخشب البرازيل pau brasil يعطي صبغة حمراء، كانوا يقطعون أشجاره على سواحل شمال شرق البرازيل ، ويجلبون خشب التيك tek من الديكن ، علاوة على خشب الصندل، وخشب الورد ...

وكان الخشب يستخدم ، فوق هذا وذاك ، في طهي الطعام ، وفي تدفئة البيوت، وفي الصناعات التي تعتمد على النار ، والتي أخذ الطلب عليها يزيد زيادة مقلقة منذ ما قبل القرن السادس عشر ولدينا مثل مثير واضح : في منطقة على مقربة من ديجون Dijon في السنوات من ١٣١٥ إلى ١٣١٧ تطلب تموين أفران صناعة بلاط القيشاني قيام ٤٢٣ من الحطابين بقطع الأشجار في غابة لوسيه Lesayes، وعمل ٣٣٤ من الحمالين والفعلة والحوذيين لنقل الخشب(٩٤). كان هناك عدد كبير من المنتفعين ماليا من قطع الأشجار، الذين يمدون أيديهم إلى هذه الثروة المشكوك في أمرها ، فلم تكن وفيرة إلا في ظاهرها، ولم تكن الغابة باخشابها معينا غنيا يغترف الإنسان منه ما يحتاج إليه من وقود ، يمكن أن يقارن ـ حتى في ذلك الزمان القديم ـ بمنجم متواضع جدا للفحم . فإذا قطع البشر أشجار غابة ما ، كان عليهم أن ينتظروا ما بين عشرين وثلاثين سنة حتى تنمو أشجار أخرى ، وتتكون الغابة المجتثة مرة ثانية. وقد حدث في أثناء حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) أن قام السويديون بقطع الشجر في مناطق شاسعة من غابة Pommern بوميرانيا ليحصلوا على المال اللازم للحرب ، وأدت عمليات قطع الأشجار إلى تصحر مساحات كبيرة ، غزتها الرمال بعد ذلك وبورتها(٩٥). وكان وضع الغابات في فرنسا متزايد السوء في القرن الثامن عشر ، لأن ورشة الحديد الواحدة كانت تستهلك من الخشب ما يكفي حاجة مدينة مثل شالون سور مارن Chalons-sur-Marne من الوقود . وكان هناك من أهل القرى من استشاطوا غيظا ، وضجوا بالشكوى من ورش الحدادة والمسابك التي التهمت الغابات ، ولم تترك فيها شيئا من خشب حتى لتشغيل أفران الخبازين(٩٦). وقد حدث في فيليسا Wielicza في بولندة أن اضطرت مناجم الملح الضخمة في كثير من الأحوال منذ عام ١٧٢٤ إلى التخلي عن استخدام النار، والاكتفاء بكتل الملح الحجرى الجافة ، نظرا للخراب الذى حل بالغابات المجاورة، والذى حرمها من خشب الوقود(٩٧).

وخشب الوقود مادة هايشة ، ضخمة الحجم ، قليلة الوزن ، ولهذا كان من الضروري أن تكون قريبة من مكان استخدامها ، فإذا زاد نقلها عن ٣٠ كيلومترا أصبحت تكلفتها فاحشة مخربة ، اللهم إلا إذا كان النقل يحدث تلقائيا بتعويم الخشب على مياه نهر أو بحر. هكذا كانوا يلقون جذوع الشجر في نهر الدو Doubs في القرن السابع عشر، فتعوم، وتسبح حتى تبلغ مارسيليا . وكان الخشب " الجديد " يصل إلى باريس مشحونا على سفن تغص به كاملة . ونقرأ عن اختراع ظهر في عام ١٥٤٩ ، هو " اختراع تعويم الخشب " ، فعوموا أولا الخشب الوارد من مورفان Morvan على صفحة نهر الكير Cure، ونهر اليون Yonne ، ثم عوموا بعد ذلك خشب اللورين والباروا Barrois على صفحة المارن وفروعه . وكانت المهارة التي تتم بها عمليات تعويم الخشب، وقد صفوه على هيئة رتل يصل طوله إلى ٢٥٠ قدما يمر من تحت بواكي الكباري، مهارة تثير إعجاب الفضوليين من أهل باريس. أما الفحم النباتي فكان يصل إلى العاصمة الفرنسية منذ القرن السادس عشر من منطقة سانس Sens، ومن غابة أوت Othe على وجه التحديد. ومنذ القرن الثامن عشر كان الفحم النباتي يرد من كل الغابات القريبة، تحمله العربات أو حيوانات النقل ، وكثيرا ما كانت تنقله مراكب تسير على صفحة أنهار اليون، والسين ، والمارن ، واللوار ، مراكب " مشحونة فوق الحد يستعينون فيها بعوارض جانبية لتسند الفحم ألا يقع من الجانبين " (٩٨).

وكانت أطواف هائلة منذ القرن الرابع عشر تنزل أنهار بولندة إلى بحر البلطيق(٩٩). وكان المشهد نفسه يتكرر على نحو أكثر ضخامة في الصين البعيدة ، حيث كان خشب سيتشوان يصل إلى بكين على هيئة جذوع شجر ، مربوطة بعضها إلى البعض الآخر بحبال من الخيزران، تتخذ هيئة الأطواف التي كانت تتفاوت في الضخامة " بحسب ثروة التاجر الذي يمتلكها، وقد يجاوز طول الطوف نصف فرسخ "(١٠٠) والفرسخ مقياس أطوال قديم يزيد على أربعة كيلومترات .

وكان البحر ينهض بأعباء نقل وتوريد الخشب على المسافات البعيدة ، وهكذا كانت " السفن الشراعية السوداء " تنقل الفحم النباتي من كاب كورس cap Corse - شمالي جزيرة كورسيكا - إلى جنوا. كذلك سارت سفن من استرى Istrie وكارنيرو Quarnero لتمد البندقية في كل شتاء بالخشب الذي توقده ، وكذلك كانت آسيا الصغرى تمد قبرص ومصر بالخشب، وكانت السفن الشراعية تسحب أحيانا جذع شجرة تعومه في مياه البحر من خلفها. حتى السفن الجاليرية ذات المجاديف الكثيرة كانت تحمل خشب الوقود إلى مصر حيث كان العجز في مواد الوقود عجزا عنيفا مثيرا(١٠١).

ولكن عمليات النقل والتوريد كانت لها حدودها، وكان على غالبية المدن أن تقنع بما تجده قريبا منها من خشب الوقود. وهذا هو ت . بلاتر Th.Platter من أهل بازل،

يذهب في عام ١٥٩٥ إلى مونبيليه بفرنسا ليتم دراسة الطب ، فيلاحظ عدم وجود غابات حول المدينة ، ويكتب " إن أقرب غابة إلى المدينة هي الغابة التي تقوم فيها مصانع زجاج سان بول Saint-Paul على بعد ثلاثة أميال طوال في اتجاه سيلنيف Celleneuve . من هذه الغابة كانوا يجلبون إلى المدينة الخشب الذى تحتاج اليه وقودا ، ويبيعونه بالميزان. وإنني أتساءل ، من أين سيأتون بالخشب لو طال عليهم الشتاء ، لأنهم يستهلكون منه كمية هائلة يحرقونها في دفاياتهم ، ويجلسون بجوارها يرتعدون لأن التدفئة لا تبلغ الدرجة التي تكفيهم . وهم هنا ، في هذه الربوع ، لا يعرفون الأفران التي تستخدم في البيوت للطهي والتدفئة معا . والخبازون يوقدون أفرانهم بهشيم نبات الحصى لبان -rom-arin، والسنديان القرمزى chêne kermes ، وغير هذا و ذاك من شجيرات جافة نظرا للنقص الشديد في الخشب ، على عكس الحال عندنا " (١٠٢). وكلما اتجهنا جنوبا وجدنا النقص في الخشب أشد حدة . ولقد كان المفكر الأسباني أنطونيو دى جيبارا Antonio de Guevara ، وهو من دعاة الهومانية ، على حق عندما قال، إن الوقود في مدينة الكامبو Medina del Campo أغلى من الطعام الذى يطهونه به(١٠٣). وكانوا في مصر يستخدمون مصاصة القصب وقودا ، فما كانوا يجدون خيرا منها. أما في كورفو Corfou فكانوا يتخذون من كسب الزيتون وقودا ، يشكلونه على هيئة قوالب يجففونها .

كان توريد الخشب على هذا النطاق الهائل يتطلب تنظيما ضخما لعمليات النقل، وصيانة للمجارى المائية التي تستخدم في تعويم الخشب ، ويتطلب شبكات واسعة من التجار ، ومتابعة للاحتياطيات التي كانت الحكومات تضع لها الكثير من النظم، وتفرض عليها العديد من ألوان الحظر . وعلى الرغم من هذا كله فإن الخشب، حتى في البلاد المحظوظة ، كان يزداد مع الأيام ندرة . وكان المطلوب العمل على حسن استخدامه، والتوفير فيه . ولكن الناس ، في مصانع الزجاج ، وفي ورش الحدادة ، لم يكونوا يفكرون ، على ما يبدو ، في الاقتصاد في الوقود . كان الذى يحدث ، هو أن المصنع المعتمد على النار ، إذا زادت مطالبه من الوقود عن القدر المتاح ، وارتفعت تكلفة تدبيرها في منطقة ما ، سعى أصحابه إلى نقله الى مكان أفضل من ناحية تدبير الوقود. أو ربما سعوا إلى خفض نشاطه . وهذا فرن عال " بنوه في عام ١٧١٧ في دولجين Dolgyne فى منطقة ويلز بانجلترا " ، ولم يستطيعوا تشغيله إلا بعد أربع سنوات عندما " كوموا من الفحم النباتي ما يكفي لتشغيله ستة وثلاثين أسبوعا ونصف ." ولم يكونوا يشغلونه إلا خمسة عشر أسبوعا في العام في المتوسط، لا لشيء الا لنقص الوقود. يضاف إلى هذا أن الصعوبة المستمرة في تدبيرالوقود جعلت من المألوف أن " تشغل الأفران العالية عاما واحدا ، وتنتظر عاما أو عامين ، وربما انتظرت أربعة وخمسة

وستة أعوام ، وقد تزيد إلى تسعة أعوام " (١٠٤) . ويبين حساب أجراه واحد من الخبراء في الفترة السابقة على القرن الثامن عشر أن ورشة الحدادة المتوسطة ، التي يعمل فرنها في العامين عامين كاملين ، كانت تستهلك وحدها خشب ألفي هكتار من الغابات. وكان هذا الوضع وراء مظاهر التوتر التي أخذت تزداد حدة مع بداية القرن الثامن عشر. " لقد أصبحت تجارة الخشب في منطقة الفوج تجارة واسعة يمارسها الناس جميعا ، كلهم يتبارون في قطع الأشجار ، ولن يمر إلا وقت قصير حتى تكون الغابات قد تبددت كلية"(١٠٥). ولقد كانت هذه الأزمة ، التي ظلت كامنة مستترة في انجلترة منذ القرن السادس عشر ، هي التي ستتولد عنها على المدى الطويل ثورة الفحم الحجرى .

وكانت هناك بطبيعة الحال توترات في الأسعار ، و هذا هو سوللي Sully يصل في كتابه " الاقتصاديات الملكية " économies royales إلى حد القول " ان البضائع الحيوية الضرورية سترتفع أسعارها دواما ، وأن ندرة خشب الوقود المطلوب ستكون هي السبب في ذلك "(١٠٦) وأخذ ارتفاع الأسعار يتزايد بالفعل منذ عام ١٧١٥ ، و" انطلق كالسهم في السنوات العشرين الأخيرة للعهد القديم " ، وإذا بالناس لا يجدون في بورجونديا " خشبا للعمل " وإذا " الفقراء يضطرون إلى التخلي عن التدفئة "(١٠٧).

ومن الصعب في هذه المجالات التوصل إلى أرقام ، وحسابات محددة حتى على مستوى الخطوط العريضة ، ولكننا نستطيع على الأقل تقديم تقديرات عمومية . فعندما اضطرت فرنسا في عام ١٩٤٢ إلى العودة إلى التدفئة بالخشب، نتيجة لظروف الحرب ، استهلكت بحسب هذه التقديرات العمومية ١٨ مليون طن من الخشب ، كان نصفها تقريبا خشب وقود . ويقولون أن استهلاك فرنسا من الخشب كان في عام ١٨٤٠ نحو ١٠ ملايين من الأطنان ، بين خشب وقود وفحم (ولا يدخل في الحساب الخشب المستخدم في البناء)(١٠٨) . أما في عام ١٧٨٩ فكان استهلاك الخشب نحو ٢٠ مليون طن ، وكانت باريس وحدها تستهلك من الفحم النباتي ، وخشب الوقود نحو مليوني طن(١٠٩) وهو ما يعني طنين لكل فرد . وهذا رقم مرتفع ارتفاعا ملحوظا ، ولكن علينا أن نأخذ في اعتبارنا أن كميات الفحم الحجرى ، التي كانت ترد إلى باريس، كانت قليلة الأهمية فقد كانت نسبتها : واحد على ١٤٠ من الخشب (ومن الواضح أن الفرق بين الرقم الخاص بعام ١٨٤٠ ، والرقم الخاص بعام ١٧٨٩ ، يرجع إلى الزيادة المتعاظمة للفحم الحجرى) . وإذا افترضنا أن النسبة بين استهلاك فرنسا واستهلاك أوروبا هى ١ إلى ١٠ ، فمعنى ذلك أن اوروبا حرقت في عام ١٧٨٩ نحو ٢٠٠ مليون طن من الخشب، وفي عام ١٨٤٠ نحو ١٠٠ مليون طن .

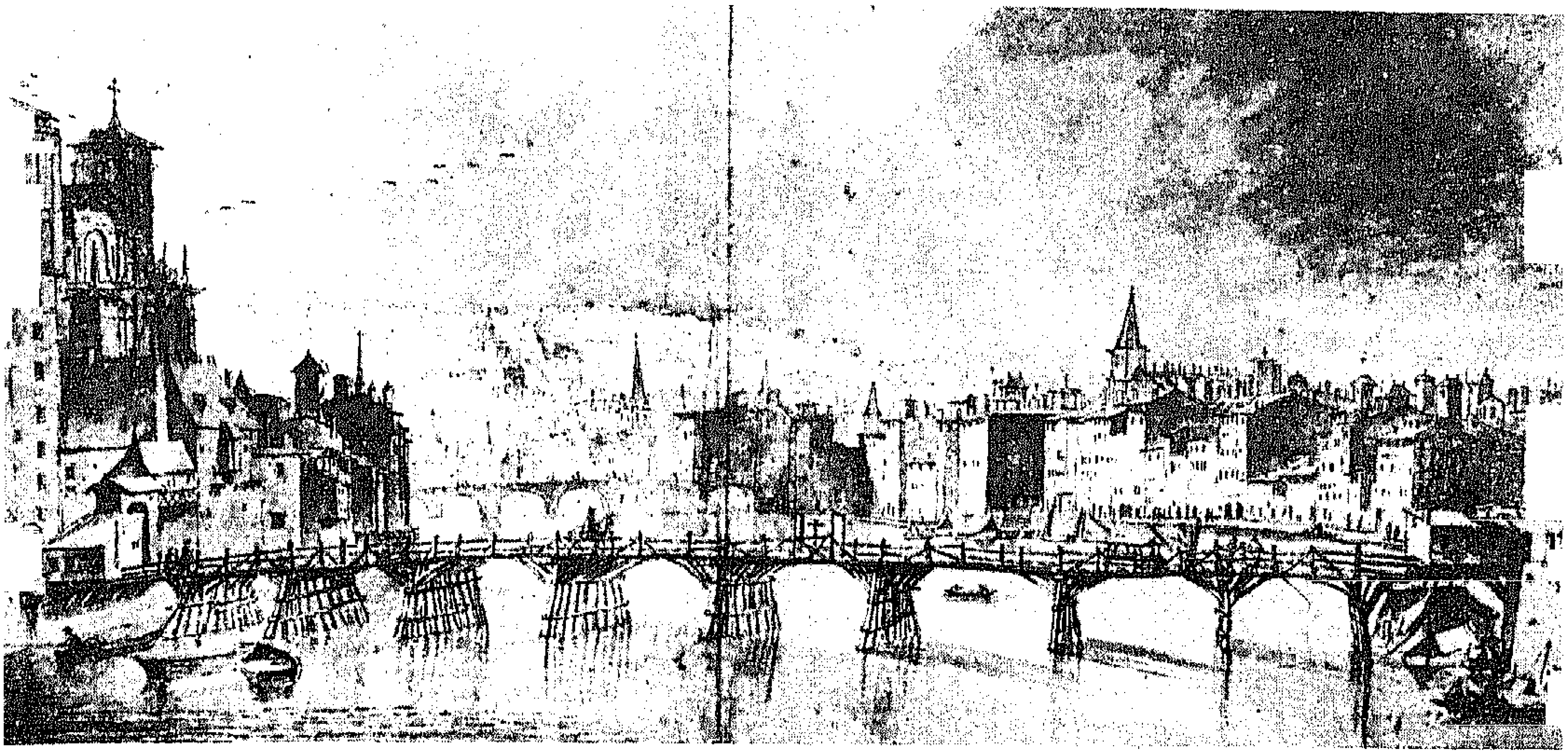

مدينة ليون في القرن السابع عشر وما زالت فيها الكبارى المصنوعة من الخشب . رسم يوهانس لينجلباخ Johannes Lingelbach.(مجموعة ألبرتينا في فيينا) .

وعلينا أن نحاول أن نحول رقم الـ ٢٠٠ مليون طن خشب وقود الجزافي إلى ما يقابله من القدرة الحصانية ق ح . والطن الواحد من الفحم الحجرى يعادله طنان من الخشب. وإذا قبلنا بافتراض أن القدرة الحصانية في الساعة تساوى حرق كيلوجرامين من الفحم ، وقبلنا كذلك بافتراض أن استخدام الطاقة يجرى طبقا لإيقاع هو ٣٠٠٠ ساعة في السنة تقريبا ، فإننا ننتهي إلى قدرة كلية مقدارها تقريبا ١٦ مليون حصان ق ح . هذه التقديرات التي عرضتها على مختصين لا تعطينا إلا أرقاما عمومية جدا ، وغير محددة ، يضاف إلى هذا أن تحويل استهلاك الخشب إلى مقابل يقدر بقوة الحصان ق ح عملية تكتنفها أخطاء التطبيق والترجيح . وينبغي في حالتنا هذه أن نقبل كذلك بمقدار فعلي منخفض لا يزيد على ٣٠ ٪ من الطاقة المستخدمة ، أي ما بين ٤ و ٥ مليون حصان ق ح . وهذا الرقم يظل عاليا نسبيا ، بالقياس إلى معدلات استهلاك الطاقة في عصر ما قبل الصناعة ، وإن لم يكن فيه شذوذ كبيرعن القاعدة . وعلينا أن نسجل أن الحسابات ، التي تعتبر أكثر تدقيقا من حساباتنا ، انتهت إلى أن الفحم الحجرى لم يسبق الخشب في الاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية إلا في عام ١٨٨٧ .

الفحم الحجرى

لم يكن الفحم الحجرى مجهولا ، لا في الصين ، ولا في أوروبا . كانوا يستخدمونه في بكين لتدفئة البيوت (منذ ٤٠٠٠ سنة على ما يؤكد الأب دى ماجايان) وكان

يستخدم للطهى في بيوت الكبراء ، ووجهاء الماندارين ، وكذلك كان يستخدمه " الحدادون، والخبازون ، والصباغون ، ومن على شاكلتهم " (١١٠). أما في أوروبا فكانوا يستخرجونه منذ القرنين الحادى عشر ، والثاني عشر من البقاع الضحلة في انجلترة، وفي لييج Liège، والسار Sarre، ومن البقاع النفطية في منطقة ليون ، وفورية Forez ، وأنجو Anjou ، وكانوا يستخدمونه في قمائن الجير ، وتدفئة المنازل، وفي بعض عمليات الحدادة (لا في كل العمليات ، وكان الفحم المستخدم آنذاك هو فحم الانتراسيت أو فحم الكوك ، وفحم الكوك لم يدخل الحلبة إلا متأخرا ، في أواخرالقرن الثامن عشر .) أما الفحم الحجرى فكان قبل هذا التاريخ بوقت طويل يحتل المواقع البسيطة التي يتركها له الفحم النباتي في أفران الكور ، وورش التقطيع ، وورش السحب التي يحول فيها الحديد إلى أسلاك . وكان الفحم الحجرى ينقل من مسافات بعيدة نسبيا.

في عام ١٥٤٣ سجلت جمارك مارسيليا وصول شحنات من الفحم عن طريق نهر الرون قادما على الأرجح من أليس Alès (١١١). وفي هذا الوقت نفسه كان الفلاحون في منطقة لاماشين La Machine، على مقربة من ديسيز Decise ، يستهلكون كميات من الفحم تقدر بالأطنان (وكانوا يشيرون إلى هذا الفحم تارة بكلمة تعني " سمك "، وتارة بكلمة تعني " حمولات ")، وكانوا ينقلون هذا الفحم إلى ميناء لالوج La Loge الصغير على نهر اللوار ومنه يشحن بالسفن إلى مولان Moulins، وأورليان Orléans ، وتور Tours (١١٢). والحقيقة أن هذه الأمثلة تعبر عن شحنات قليلة القيمة . كانوا على سبيل المثال يستخدمون الفحم في عمليات التسخين منذ القرن السادس عشر لاستخراج الملح في ملاحات سولنو Saulnot على مقربة من مونبيليار Montbeliard. وفي خريف عام ١٧١٤ عندما شح الخشب في باريس أجرت شركة جالابان وشركاه Galabin et Cie، وكانت شركة تعمل في التجارة والاستيراد ، تجارب عملية عامة في مقر دار البلدية عرضت فيها فحما أسمته " وقود اسكتلندا " ، وحصلت الشركة على امتياز استيراد هذا الفحم الأجنبي(١١٣). وحتى في منطقة الرور نفسها كان من الضرورى الانتظار حتى تأتي السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ليلعب الفحم دوره . وكان هذا الوقت نفسه هو الوقت الذى بدأ فيه شحن فحم أنزان Anzin إلى ما وراء دنكرك ، حيث وصل إلى بريست Brest ولاروشيل La Rochelle . كذلك كان هو الوقت الذى استخدم فيه فحم مناجم منطقة بولونيه Boulonnais القديمة في أرتوا ، وفلاندريا لاستخراج الفحم اللازم لتدفئة قشلاقات الحرس ، ولتشغيل قماين الطوب، ومعامل البيرة ، وقماين الجير، وورش البيطرة . وأصبح فحم مناجم منطقة الليونيه Lyonnais يصل بسهولة أكثر إلى ليون ، بعد إنشاء قناة جيفور Givors، بعد عام

١٧٥٠ ، وكان النقل بالعربات وبحيوانات الجر والحمل قد ظل بالفعل حتى ذلك الحين المعضلة الأولى والأساسية (١١٤).

وإذا نحن نظرنا إلى استخراج الفحم على مستوى أوروبا كلها، تبينا أنه لم يحقق سوى نجاحين مبكرين ملحوظين نسبيا ، أولهما : استخراج الفحم من حوض لييج Liège ، وثانيهما : استخراجه من حوض نيوكاسل في انجلترة . كانت لييج منذ القرن الخامس عشر دار صناعة بمعنى الكلمة ، كانت منطقة تعدين ، وكان فحمها قد استخدم في صناعة منتجاتها ، فتضاعف إنتاجها ثلاثة أو أربعة أضعاف في النصف الأول من القرن السادس عشر . ثم إن لييج كانت إقليما محايدا (لا يتبع إلا مطرانه) فأعانها الحياد على زيادة نشاطها الصناعي إبان الحروب التالية . واستخدموا نهر الموز Meuse فى نقل الفحم الذى كانوا يستخرجونه من المناجم العميقة ، وربما وجهوه الى التصدير نحو بحر الشمال، وبحر المانش (١١٥). أما نجاح نيوكاسل فكان أبعد مدى لأنه ارتبط بثورة الفحم التي بدأت تحدث تطورا في انجلترة منذ عام ١٦٠٠ ممهدة السبيل إلى استخدام الفحم كوقود في طائفة من الصناعات ذات التوزيع الكبير : مثل صناعة استخراج الملح من ماء البحر بتسخينه ، وتبخيره ، وصناعة ألواح الزجاج ، وقوالب الطوب، والقرميد ، وتكرير السكر ، واستخلاص الشب الذى كان من قبل يستورد من منطقة البحر المتوسط ، وأصبحوا يستخرجونه من ساحل يوركشير ، دون أن ندخل في حساباتنا أفران الخبازين ، ومعامل البيرة ، والتدفئة المنزلية الهائلة التي كانت منذ قرون تفسد هواء لندن بدخانها المتصاعد من مداخن دفايات الخشب ، والتي ستزيد إفساد الهواء هناك فيما بعد نتيجة للتحول إلى استخدام الفحم . وقد حفز هذا الاستهلاك المتزايد عمليات استخراج الفحم من مناجم نيوكاسل ، فأخذ انتاج الفحم في الزيادة : ٣٠٠٠٠ طن سنويا ١٥٦٣-١٥٦٤ ؛ ثم نصف مليون طن سنويا ١٦٥٨ -١٦٥٩. وكان الإنتاج في عام ١٨٠٠ حول مليونين من الأطنان ، وهو رقم لا يداخله شك . وكان خليج نهر التاين Tyne يمتليء دائما بمراكب نقل الفحم التي كانت تقوم خاصة بالرحلة من نيوكاسل إلى لندن ، وكانت حمولة السفن تقدر في عام ١٧٨٦ -١٧٨٧ بنحو ٣٤٨٠٠٠ طن تقوم بست رحلات ذهاب وإياب كل عام . وكان جزء من هذاالفحم يذهب إلى التصدير، وكانوا يسمونه فحم البحر sea coal وكان يلقى رواجا ويصل على الأقل حتى مالطة منذ القرن السادس عشر (١١٦).

وقد فكر الناس منذ وقت مبكر في أن الفحم ، لكي يستخدم في صناعة الحديد ، لابد من تقطيره على النحو الذى كان يتبع في تقطير الخشب نفسه في قمائن بدائية تطلى بالطين تنتج الفحم النباتي . ومنذ عام ١٦٢٧ أصبح الكوك معروفا في انجلترة ، وأصبح من الضرورى الحصول على امتياز لصناعته . و يرجع استخدام الفحم الحجرى في

دربيشاير Derbyshire إلى الأعوام ١٦٢٤٢ـ ١٦٤٨ . وفي نفس الوقت تقريبا حل الكوك محل الفحم العادى والقش في معامل البيرة حيث استخدم لتجفيف شعير البيرة، وكان هذا الوقود الجديد هو الذى أضفي على بيرة دربي "Derby" النصاعة والعذوبة اللتين حققتا لها الشهرة(١١٧) " وخلصاها من رائحة الفحم العادى الكريهة ، وهكذا أصبحت هي البيرة الأولى في انجلترا.

ولكن الكوك لم ينجح في غزو الصناعات التعدينية غزوا سريعا. يقول رجل من رجال الاقتصاد في عام ١٧٥٤ : " في مقدور الإنسان أن ينقي [الفحم]من البيتومين، والكبريت اللذين يحتوى عليهما ، وهو عند ذلك يفقد ثلثي وزنه ، وشيئا من حجمه، ولكنه يظل وقودا تخلص من المكونات التي تبعث تلك الرائحة المزعجة التي ينكرها الناس عليه ... (١١٨) ". وعلى الرغم من أن تلك الحقيقة كانت معروفة على نحو ما يبين هذا النص فإن " جمرة فحم " الكوك لن تحقق نجاحها الأول إلا حول عام ١٧٨٠ . وسيكون علينا أن نعود إلى بحث هذا التأخر فيما بعد ، وهو يمثل ظاهرة تبدو لأول وهلة غير مفهومة تماما (١١٩). وهي على أية حال مثل ممتاز للتبلد الذى يستبد بالناس حيال كل جديد .

وإذا نظرنا إلى الظاهرة من هذه الناحية وجدنا الصين مثلا أكثر وضوحا. ولقد ذكرنا من قبل أن الفحم كان يلعب فيها دوره في تدفئة المنازل ربما منذ آلاف من السنين قبل الميلاد ، وفي تعدين الحديد منذ القرن الخامس قبل الميلاد أيضا. ولقد أتاح استعمال الفحم الحجرى وقودا منذ وقت مبكر جدا الفرصة بالفعل لإنتاج وتداول الحديد الزهر. ولكن هذا التبكير الهائل لم يؤد إلى الاستخدام المنظم للكوك في عصر الإنتفاضة الصينية في القرن الثالث عشر على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون استخدام الكوك قد عرف آنذاك(١٢٠). نقول " من المحتمل " ، ولا نقول " من المؤكد ". وإلا فكيف السبيل إلى تكوين رأي في هذا الموضوع ؟ وعلى أى مبررات نستند؟ هل نقول إن الصين القوية في القرن الثالث عشر كانت لديها الوسائل الكافية لفتح البوابة الكبرى للثورة الصناعية ، ولكنها لم تفعل وكأنها تركت هذا الامتياز لتناله انجلترة في نهاية القرن الثامن عشر، وكانت انجلترة نفسها قد ضيعت وقتا طويلا لتعرف كيف تنتفع بما كان متاحا لديها ، وموجودا تحت يدها. وما التقنية في حقيقة الأمر إلا وسيلة ، والإنسان هو الذى لا يعرف دائما كيف يستخدم هذه الوسيلة.

وختاما

ونعود إلى أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر لندون ملحوظتين ترتبط الواحدة منهما بالأخرى : الملحوظة الأولى تتعلق بموارد الطاقة منظورا إليها في مجموعها ؛ والملحوظة الثانية تتعلق بالآلية التي وضعت في خدمتها .

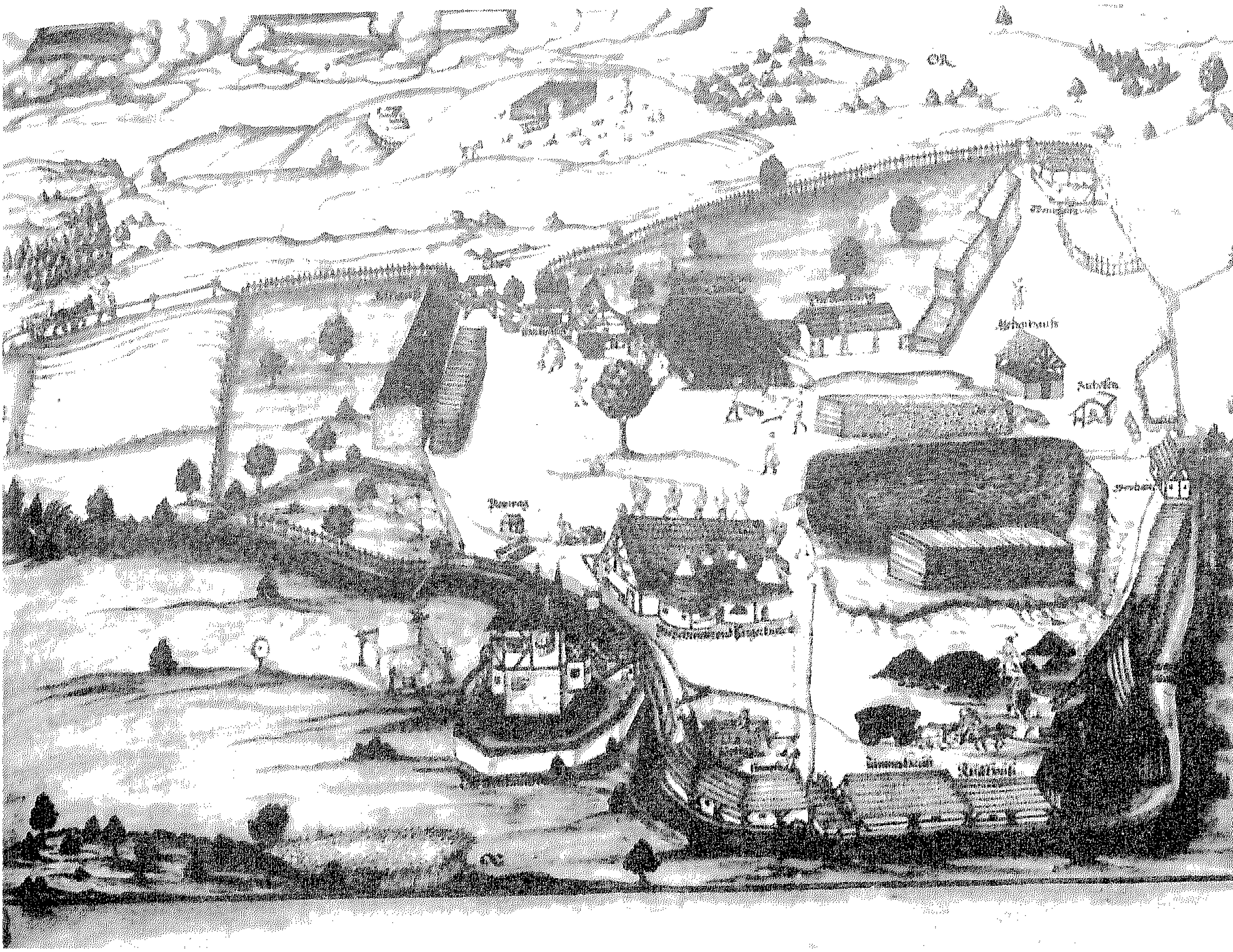

في منطقة تورينجن الألمانية مصنع لصهر النحاس تمتلكه عائلة بفينتسينج Pfinzing وهي من مدينة نورنبرج . وكان الوقود المستخدم في عام ١٥٨٨ هو الفحم النباتي ، ونرى في الصوره أكوامه الضخمة. (أرشيف الدولة ، نورنبرج).

١ ـ أمكننا ، دون أن نخشى التورط في الخطأ ، أن نرتب مصادرالطاقة التي كانت متاحة ، وذلك بحسب تناقص وتراجع أهميتها على النحو التالي : على رأس هذه المصادر استخدام الحيوان للجر ، ١٤ مليون من الخيول ، ٢٤ مليون من الثيران، ويمثل كل حيوان منها ربع حصان أو ربع قدرة حصانية ق ح ، وهو ما يساوى في المحصلة النهائية ١٠ مليون ق ح . يلي ذلك الإنسان والآلة (٥٠ مليون من العاملين) يعني ما يساوى ٦ الى ٨ مليون ق ح . يلي ذلك الخشب الذى يساوى تقريبا ٤ الى ٥ مليون ق ح . ثم تأتي الطواحين ، والعجلات المائية ، وتمثل ما بين واحد ونصف و٣ مليون ق ح . وأخيرا الشراع وهو يساوى حوالي ٢٣٣٠٠٠ ق ح على أكثر تقدير، دون حساب

الأسطول الحربي. وهكذا نجد أنفسنا بعيدين عن معدلات الطاقة الحالية ، وقد كنا نعرف ذلك سلفا ، وليست هذه النتيجة هي الفائدة التي كنا نرجو الوصول إليها من هذا الحساب الناقص (فلم نذكر فيه الطواحين الهوائية ، وطاقة التيارات النهرية ، والفحم النباتي، ولا حتى الفحم الحجرى.) الذى يهمنا في الحقيقة هي بيان أن قوة الحيوان ، وقوة الإنسان، ثم الطاقة المستخرجة من الخشب ، تحتل بلا منازع المركزين الأول والثاني (أما الطواحين الهوائية فكانت أقل عددا من الطواحين المائية ، ولا يمكن أن تمثل إلا ثلث أو ربع قوة المياه المستغلة.) وإذا لم يكن حل مشكلة الطاقة عن طريق استغلال الطاحونة قد استمر في السير في مدارج التطور فقد كان مرجع ذلك إلى أسباب تقنية (منها الاستخدام الواسع للخشب دون الحديد) وإلى أن المكان الذى كانت تقام فيه الطواحين لم تكن فيه فرصة استغلال الطاقة الكبيرة المنتجة، ولم تكن هناك، في ذلك العصر، وسيلة لنقل الطاقة من مكان إلى مكان آخر . ولقد كان نقص الطاقة هو المعوق الأساسي للاقتصاد الفرنسي في العهد القديم ، أى قبل الثورة الفرنسية . ولقد كانت الطاحونة المائية المتوسطة تعطي طاقة تساوى خمسة أمثال الطاقة التي تنتجها الطاحونة التي يشغلها رجلان باليد ، وكانت تمثل ثورة في زمنها . ولكن أول طاحونة بخارية سيكون عائدها من الطاقة خمسة أمثال عائد الطاحونة المائية(١٢١).

٢ـ ولكن الثورة الصناعية سبقتها رغم ذلك مرحلة تمهيدية. كانت هناك في هذه المرحلة التمهيدية : الحيوانات المكدنة ، وشعلات النارالمتصاعدة من الخشب المتقد، والمحركات الأولية التي تحركت بقوة تيار النهر أو بقوة الرياح ، وتزايد الرجال في ساحة العمالة. ولقد أدت هذه العناصر ـ بين القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ـ إلى شيء من النمو في أوروبا ، وإلى تزايد بطيء في القوة ، والطاقة ، والذكاء العملي . وعلى أساس هذه الانطلاقة القديمة انبنى التقدم الذى أخذ يتزايد منذ السنوات ١٧٣٠ـ١٧٤٠. هكذا كانت هناك ثورة صناعية تمهيدية ـ قد لا يدركها الناس وقد يدركونها وينكرونها ـ وكانت هذه الثورة الصناعية التمهيدية عبارة عن كم تراكمي من الاكتشافات، ومن صورالتقدم التقني، بعضها واضح جلي، وبعضها لا يرى إلا بالعدسة المكبرة ، منها: تعشيقات التروس المختلفة ،الكريكات، جنازير النقل ، والمنظومة العبقرية المكونة من أذرع للنقل، ولتغيير الحركة ، والحدافة التي ضبطت كل أنواع الحركة ، ومعدات الدرفلة ، والتجهيزات الآلية المتزايدة التعقيد التي استخدمت في المناجم .وتتابعت فيها الابتكارات ، منها: أنوال التريكو، وأنوال الشريط ، وعمليات كيمائية ... " وكان النصف الثاني من القرن الثامن عشر هو الذى شهد المحاولات الأولى لتطويع معدات الخراطة ، والثقب والتخويش، والدشلكة للاستخدام الصناعي " وكانت معدات معروفة منذ وقت طويل . وكان هذا الوقت هو كذلك الوقت الذى شهد تحويل عمليات النسيج والغزل إلى التشغيل الأوتوماتيكي ، وهى خطوة ستكون حاسمة بالنسبة لبداية انطلاق الاقتصاد الانجليزى(١٢٢). وكان الشيء المفقود، الذى كان الناس يحتاجون اليه ، ليشغلوا هذه

الآلات التي حلموا بها أو نفذوها ، هو وفرة من الطاقة تكون هناك طريقة سهلة لنقلها حسب الرغبة. أما المعدات فكانت موجودة ، وكان العمل على تحسينها مستمرا. يشهد على المستوى الذى وصلت إليه المعدات آنذاك ما نطالعه في كتابات جميع الرحالة الأوروبيين، الذين كانوا يدهشون للمعدات البدائية التي شاهدوها في الصين ، والهند، والتي كانت تتناقض مع جودة ورقة المنتجات هناك . يقول أحدهم(١٢٣) : " إننا ندهش لبساطة الأدوات التي تستخدم في صناعة أجمل الأقمشة الحريرية الصينية." وتلك ملحوظة نطالعها في كتابات مؤلف آخر ، يعبر عنها تقريبا بنفس الألفاظ ، وهو يتحدث عن أقمشة الموسلين (الموصلين) القطنية الشهيرة في الهند(١٢٤).

فليأت البخار حتى يتحرك كل شيء في الغرب بسرعة توشك أن تكون سحرا. ولكن هذا السحر كان سحرا له أسبابه ، ومبرراته : فقد سبقه التمهيد ، والإعداد ، حتى أصبح تحقيقه ممكنا من قبل أن يحين موعده . ويمكننا أن نعيد بألفاظنا كلام أحد المؤرخين (هو بيير ليون Pierre Leon) يقول ما معناه : لقد كان هناك من قبل تطور (يعني حركة صاعدة بطيئة) ثم حدثت ثورة ، أى حركة سريعة . ولقد كانت الحركتان مرتبطتين الواحدة بالأخرى.

منجم فرنسي حول عام ١٦٠٠ (لوحة على مدفأة). وقد كتب عليها ما معناه: " من جد وجد".(المتحف الألماني بميونيخ .)

الحديــــد:

ابن فقير من أبناء العائلة

نحن على يقين من أن وصف الحديد بأنه ابن فقير من أبناء العائلة ما كان سيلوح جادا ولا صادقا لكائن من كان في الدنيا كلها في تلك الحقبة من التاريخ التي يستهلها القرن الخامس عشر، وبخاصة في القرن الثامن عشر . بماذا كان يرد بوفون Buffon الذى كان صاحب مصانع حديد في مونبار Montbard ؟ والحقيقة أننا، نحن أبناء القرن العشرين، ننظر بعين الدهشة إلى ذلك العصرالقريب ، والبعيد الذى يبدو لنا مسكينا فقيرا لأنه كان قليل الحظ من الحديد.

كانت صناعة تعدين الحديد تستخدم بصفة عامة العمليات الأساسية التي تستخدم اليوم ، من أفران عالية ، ومطارق ، ولكن الفرق يكمن في الكم . فبينما أوتي الفرن العالي اليوم " القدرة على أن يستهلك في أربع وعشرين ساعة ما يساوى حمولة ثلاثة قطارات من الكوك وخام الحديد " ، كان أكمل فرن عال في القرن الثامن عشر، أولا لا يعمل إلا على نحو متقطع ، وكان ثانيا - إذا زود بوحدة للتنقية بشعلتين مثلا - لا ينتج إلا ما بين ١٠٠ و ١٥٠ طن من الحديد في العام . أما اليوم فان إنتاج الفرن العالي من الحديد يقدر بآلاف الأطنان . فيما مضي ، منذ مائتي سنة ، كانوا يتحدثون عن " مئات الوزنات cents pesants" وهي تناظر القناطيرالفرنسية الحالية التي يزن القنطار منها خمسين كجم . هذا الفرق الذي لاحظناه هو فرق بين درجتين من درجات السلم ، بين مقياسين يفرقان بين حضارتين . ولقد كتب مورجان Morgan في عام ١٨٧٧ : " عندما نجح الحديد في أن يصبح المادة ذات الأهمية الكبرى في الإنتاج ، فقد كان ذلك حدث الأحداث في تطور الإنسانية." (١٢٥) وقد ذهب اقتصادى بولندى هو ستيفان كوروفسكي Stefan Kurowski إلى حد القول بأننا نستطيع أن نفهم كل خلجات الحياة الاقتصادية من خلال حالة متميزة هي صناعة التعدين : فهي تلخص كل شيء، وتنبيء بكل شيء(١٢٦).

ولكن " حدث الأحداث " تأخر طويلا ، فلم يتحقق إلا في مطلع القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٠٠ لم يكن إنتاج الحديد بكل أشكاله (الزهر، والحديد المطروق ، والصلب) يصل إلا الى مليوني طن (١٢٧) ، وهذا رقم لا يعتمد إلا جزئيا على بيانات موثقة، وهو يبدو لنا مبالغا فيه. وقد كانت الحضارة الاقتصادية في ذلك الوقت تحت هيمنة النسيج (وكان القطن، على أية حال ، هو الذى سيطلق الثورة الانجليزية من عقالها) أكثر مما كانت تحت هيمنة الحديد.

والحق أن التعدين ظل إلى حين تقليديا، عتيقا ، هش التوازن . كان رهنا بالطبيعة، وبمواردها ، وبالخام الذى كان لحسن الحظ متاحا وفيرا ، وبالغابة التي لم تكن قط كافية، وبالقوة المتغيرة لتيار الماء: في القرن السادس عشر كان الفلاحون في السويد يصنعون الحديد ولكنهم لم يكونوا يصنعونه إلا عندما ينتهي الشتاء ، ويذوب الجليد، وتنهمر المياه في الربيع ، وكان انخفاض المياه في النهر في الموضع الذي يقوم فيه الفرن العالي يتسبب في البطالة . ولم يكن هناك عمال متخصصون ، أو لم يكن هناك إلا القليل من العمال المتخصصين ، وكانوا في أغلب الأحوال من الفلاحين العاديين ، كانت هذه هي الحال في الالزاس ، وفي انجلترة ، وفي الأورال . ولم يكن هناك مقاولون وأصحاب أعمال بالمعنى الحديث للكلمة . وما أكثر أصحاب مصانع الحدادة في أوروبا الذين كانوا أصلا ملاك أطيان ، وكانوا يعتمدون في إدارة مصانع حديدهم على الخولي المكلف بالأرض أو المزارعين وكان الحديد يعاني من محنة أخرى ناءت بكلكلها على مصيره ، وهي أن الطلب عليه كان رهنا بالظروف ، مرتبطا بالحروب التي كانت تنشب حينا ، ثم ينطفيء سعيرها بعد حين .

ومن المؤكد أن الأمور لم تكن تبدو على هذا النحو للمعاصرين، فقد كانوا يؤكدون مطمئنين ان الحديد هو أنفع المعادن ، ولقد أتيح لهم رؤية ورشة الحدادة (على الأقل ورشة الحدادة في القرية أو ورشة البيطار) والفرن العالي ، والكور ، ووحدة تنقية الحديد. وكان المألوف آنذاك هو الإنتاج المحلي القائم على وحدات متفرقة ، حيث يكون النقل يسيرا بين أماكن قريبة بعضها من البعض الآخر. وكانت مدينة أميان Amiens في القرن السابع عشر تجلب حديدها من تييراش Thierache من أسواق تبعد نحو ١٠٠ كم ، وتقوم بتوزيعه وتصريفه في المناطق المحيطة على مسافات بين ٥٠ و ١٠٠ كم (١٢٨). ولقد وصلت إلينا وثيقة عن الأحوال في القرن السابق ، هي دفتر يومية خاص بواحد من تجارالحديد في المدينة النمساوية الصغيرة يودنبورج Judenburg بمنطقة الشتايرمارك العليا (١٢٩) ، وكان هذا التاجر يجمع الحديد ، والصلب ، والمنتجات المعدنية من ورش الحدادة المجاورة ، أو من المركز النشيط في ليوبن Leoben، ويقوم بتصريفها. ويمكننا أن نتابع في سجلاته يوما بيوم تفاصيل الشراء ، والبيع ، والنقل ، والأسعار، والمقاسات، ويمكننا أن نتوه في خضم أسماء الأنواع المختلفة العديدة التي لا حصر لها ، من الحديد الخام إلى الخوص ، والتخانات المختلفة ، من الصلب ، ومن سلك الحديد (كان السلك الغليظ ، على سبيل المثال ، يعرف باسم " السلك الألماني " ، والرفيع باسم " السلك الرومي ") ناهيك عن الإبر ، والمسامير ، والمقصات ، والحلل ، والأواني المصنوعة من الحديد الأبيض . ولكن لم يكن شيء من هذا يجري تصديره إلى أماكن بعيدة، حتى الصلب ـ الذى كان ثمنه مرتفعا ـ لم يعبر جبال الألب متجها إلى البندقية .

فلم تكن المنتجات المعدنية بضاعة سهلة التنقل مثل المنسوجات ، إذا استثنينا المنتجات الترفية، وسيوف طليطلة ، وأسلحة بريشا Brescia، ونبل الصيد التى كانت مدينة أنتفربن تطلبها من تاجر يودنبورج ، إذا شئنا أن نعود اليه وإلى سجلاته. وكانت عمليات التبادل الكبيرة للمنتجات المعدنية (في القرن السادس عشر انطلاقا من المنطقة القنتبرية شمالي أسبانيا ؛ وفي القرن السابع عشر انطلاقا من السويد ؛ وفي القرن الثامن عشر انطلاقا من روسيا) تفيد من الطرق النهرية ، والبحرية ، ولا تتعامل ـ كما سنرى ـ إلا في كميات متواضعة .

والخلاصة أن الحديد لم يكن قادرا قبل القرن الثامن عشر ، بل قبل القرن التاسع عشر، بكمياته ، واستخداماته ، من قلب ميزان الحياة المادية في أوروبا (ويصدق هذا الكلام، بطبيعة الحال ، أكثر على المناطق خارج أوروبا). فنحن الآن في العصر السابق على عصر إنتاج الصلب ، أى في العصر الذى لم يكتشف بعد طريقة تكرير الزهر ، ولم يعمم بعد طريقة الصهر بالكوك . إننا في الوقت السابق على ظهور سلسلة الأسماء المرموقة، والطرق الشهيرة : بيسمر Bessemer، زيمنس Siemens ، مارتان Martin، توماس Thomas ...كانت كلها في علم الغيب ، أو كأنما كانت في كوكب آخر كما يقولون.

ورشة حدادة يابانية في القرن السابع عشر .

في البداية
صناعات تعدين مبتدئة في العالم كله، إلا في الصين.

اكتشف تعدين الحديد في العالم القديم - عالم ما قبل أمريكا. وانتشر في ربوعه في وقت مبكر جدا، منطلقا على وجه اليقين من ربوع القوقاز منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وتعلمت كل حضارات العالم القديم هذه الصنعة الابتدائية على نحو مبكر وجيد، وإن تفاوتت المناطق في التاريخ الذى عرفتها فيه، ودرجة الجودة التي وصلت إليها . ومن بين صور التقدم تنفرد صورتان بسمات الإدهاش المحير : الصورة الأولى هي صورة التقدم المبكر في الصين الذى يلوح لنا كأعجوبة ذات لغزين ، لغز البداية المبكرة ، ولغز التوقف والتجمد بعد القرن الثالث عشر)، والصورة الثانية هي صورة التقدم الذى بدأ متأخرا في أوروبا ولكنه كان حاسما.

كان للصين بلا جدال امتياز السبق ، والتبكير، فقد عرفت حول القرن الخامس قبل الميلاد صهر الحديد، واستخدمت في وقت مبكر أيضا الفحم الحجرى ، و" ربما " عرفت في القرن الثالث عشر من زماننا هذا صهر خام الحديد بالكوك ، وإن كان هذا الموضوع الأخير موضوعا إشكاليا تحيط به الكثير من التساؤلات . ثم إن أوروبا لن تعرف الحديد في صورته المنصهرة قبل القرن الرابع عشر ، وربما عرفت صهر الحديد بالكوك في القرن السابع عشر، ولن يصبح صهر الحديد بالكوك شائعا في انجلترة إلا بعد السنوات الثمانينية من القرن الثامن عشر بصورة عامة .

وموضوع السبق الصيني تكتنفه مشكلة . فمما لا شك فيه أن استخدام الفحم الحجرى أتاح الوصول إلى درجات حرارة عالية، ولما كانت أنواع الخام المستعملة تحتوى على نسبة كبيرة من الفوسفور ، فقد كانت تنصهر في درجات حرارة منخفضة نسبيا، وكان استخدام منافيخ ذات كباس يحركها البشر ، أو تحركها العجلات المائية ذات الريش قد مكن من إحداث نفخ مستمر، وبلوغ درجات حرارة مرتفعة داخل الأفران . وكانت تلك الأفران مختلفة أشد الاختلاف عن أفراننا : كانت على هيئة " حفر مستطيلة مبنية بالطوب الذى يتحمل النار" ، يضعون فيها بوتقات، ويكومون الفحم الحجرى بين هذه البوتقات التي تحوى خام الحديد ، وهكذا فإن خام الحديد لم يكن يتصل اتصالا مباشرا بالوقود، وكان من الممكن أن يضاف إليه في أثناء الصهر هذه أو تلك المادة ، بما في ذلك الفحم النباتي. وكانت عمليات الصهر المتعاقبة في البوتقة تؤدى إلى الحصول على حديد مطاوع قد تخلص كلية تقريبا من الكربون، أو إلى الحصول على حديد فيه نسبة كذا أو كذا من الكربون ، أي الحصول على صلب مرن ، زادت مرونته أو قلت . كانت عملية الصهر التي تكرر مرتين متعاقبتين تمكن الصينيين من إنتاج أسلحة المحاريث ، وأواني الطهي على

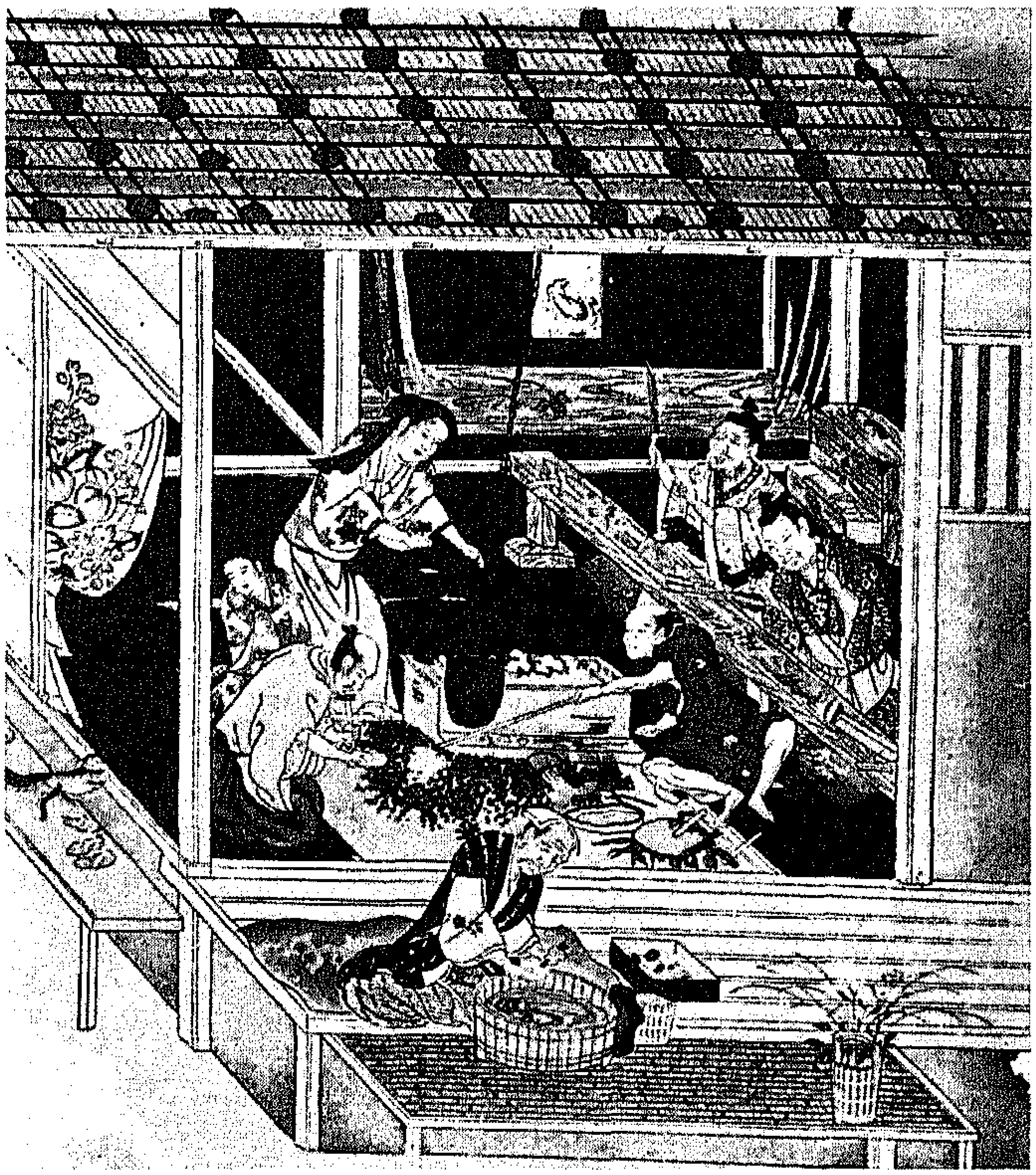

في اليابان ، صناعة السيوف . الحدادة و الصقل (القرن الثامن عشر)

نحو نمطي لن تعرفه بلاد الغرب إلا بعد ١٨ أو ٢٠ قرنا . ومن هنا جاء رأى أودريكور A.G.Haudricourt الافتراضى المعتمد على معطيات فيلولوجية ، والذى يقول أن الفرن السيال Flussofen الذى خلف فرن القطعة Stueckofen، وهو الفرن العالي الذى كان متداولا في شتايرمارك والنمسا في القرن الرابع عشر ، ماهو إلا المرحلة النهائية من مراحل عملية نقل التقنية الصينية ، التي وصلت أولا الى آسيا الوسطى، ثم سيبريا، ثم بلاد الأتراك، وروسيا (١٣٠).

وكان صهر الخام في البوتقة على الطريقة الآسيوية له ميزة ، تتمثل في أنه كان يمكن من صناعة معينة ـ البعض يظنها هندية الأصل والبعض الآخر يظنها صينية الأصل ـ هي صناعة صلب خاص، " صلب كربوني على درجة عالية من الجودة " يضاهي أحسن أنواع الصلب التي نتداولها في زماننا الحالي . ولقد ظل كنه هذا الصلب، وطريقة صناعته أشياء غامضة عجيبة حار فيها الأوروبيون حتى القرن التاسع عشر . كان هذا الصلب يعرف في

أوروبا باسم الصلب الدمشقي ، أو الفولاذ المموج poulad jauherder كما يسمونه في فارس أ او البولات boulat في روسيا ، وقد أطلق عليه الانجليز فيما بعد اسم ووتز wootz، وكان هذا الصلب، أو الفولاذ ، يستخدم في صناعة سيوف حادة بدرجة فائقة للمألوف. كان هذا الفولاذ يصنع في الهند، في مملكة جولكوند Golconde ، عندما نزل الأوروبيون هناك ، وكان يباع على هيئة قوالب يصفها تافيرنييه بأنها كانت في سمك الخبز الأفرنجي الصغير ، وكانت تزن ما بين ٦ و ٧٠٠ جرام. وكانت هذه القوالب تصدر بكثرة حتى إلى الشرق الأقصى، وإلى اليابان ، والى الجزيرة العربية ، وسوريا ، وروسيا ، وفارس . ويشرح شاردان Chardin حول عام ١٦٩٠ أن هذا المعدن الهندي - الذى يعتبر الفرس " صلبهم أقل جودة منه ، ويعتبرون صلبنا أقل جودة من صلبهم " (١٣١)- هو المعدن الذى يصنع الفرس منه أجمل سيوفهم . ويتميز هذا الصلب بسمة مميزة هي التجزيعة ، أو التمويجة التي تنشأ في الوقت الذى يبلور فيه التبريد في البوتقة في كتلة المعدن عروقا بيضاء من السيمنتيت cementite وهو كربيد حديد شديد الصلابة. ويشهد على شهرة هذا الصلب الغالي غلوا باهظا أن البرتغاليين استولوا في عام ١٥٩١ على شحنة منه على سواحل الهند ، فلم يتمكن من طرقه أى حداد في البرتغال أو في أسبانيا. وذاق رومور Reaumur (١٦٨٣-١٧٥٧) طعم الفشل نفسه مرة أخرى عندما أحضر عينة من هذا الفولاذ من القاهرة ، ودفع بها إلى الصناع الباريسيين ، فلما سخنوا الفولاذ أو الووتز الى درجة الاحمرار تكسر تحت المطرقة ، وانمحت تجزيعته . فلم يكن من الممكن طرق هذا الفولاذ إلا في درجة حرارة منخفضة ، أو كان من الضروري صهره من جديد في البوتقة ، وصبه مرة أخرى . في العقود الأولى من القرن التاسع عشر عكف عدد من علماء الغرب ، ومن المتخصصين في التعدين الروس على دراسة أسرار فولاذ الووتز ، وكانت البحوث التي قاموا بها نواة علم المعادن أو الميتالوجرافيا (١٣٢).

هذه المجموعة من الوقائع هي السبب الذى دعا إلى نسبة أبوة هذا الصلب الدمشقي إلى الهند دون جدال . ولكن هناك مقالة خلابة معتمدة على مصادر عربية ، وفارسية من القرنين التاسع ، والحادى عشر ، وعلى مصادر صينية أقدم من هذه وتلك ، انتهى فيها كاتبها - على مزاهيرى - إلى افتراض أن يكون هذا الصلب الهندى من أصل صيني (وأنه صنع في البوتقة كما كان الزهرالصيني يصنع ، وعلى نحو ما ذكرنا من قبل) وجعل من السيف sabre، المصنوع من الصلب الأسيوى المصهور في البوتقة، صنو السيف epée المصنوع من الصلب المطروق ، المقسي في الغرب ، ورسم خطوط التاريخ العجيب للسيف الدمشقي ، الذى انتشر من خلال ربوع آسيا ، ووصل إلى مشارف التركستان حتى بلغ الهند عن طريق الغزو الاسكيتي scythe، ثم بلاد فارس، والبلاد الإسلامية، ومسكوفيا نفسها . وإنما ترجع الانتصارات الرائعة التي حققها الفرس

الساسانيون على الفرق الرومانية ـ المسلحة بسيوف قصيرة من الحديد الرديء ـ إلى أن الفرسان الفرس كانوا يستخدمون السيف الفولاذى الدمشقي الذى كانت جودته تفوق بكثير جودة الأسلحة الغربية . ويرجع الباحث في نهاية أبحاثه إلى " السيف " ـ وإلى الصين ـ تفوق الجحافل الأسيوية التي انقضت على [...] على العالم الروماني، وعلى أوروبا الوسيطية "(١٣٣).

والشيء المذهل هو أن هذا السبق تبعه وقوف وجمود في بلاد الصين في أعقاب القرن الثالث عشر . فقد كف كل شيء عن التقدم، وظلت أعمال الصهر ، والحدادة في الصين تكرارا معادا لما قد كان . ولم يتقدم الزهر المصنوع بالكوك ـ على فرض أنه عرف هناك. وكل هذه أمور من الصعب تتبعها وشرحها . ولكن قدر الصين في مجموعه ما يزال يطرح نفس المشكلة المضطربة الغامضة التى لم تعرف السبيل إلى حل جيد بعد.

التقدم بين القرن الحادى عشر والخامس عشر في منطقة الشتايرمارك ومنطقة الدوفينيه.

ونأتي إلى المشكلة الثانية : وهي نجاح أوروبا الذي بدأ في وقت متأخر . يمكننا أن نتلمس بدايات التعدين الوسيطية في وادى نهر الزيج la Sieg، وفي وادى نهر السار Sarre أو بين نهر السين، ونهر الأيون Yonne . وكان خام الحديد موجودا في كل مكان تقريبا. أما ما كان نادرا فالحديد شبه النقي، النيزكي ، وكانوا يستغلونه في أوروبا منذ عصر الحديد الثاني المسمى عصر لاتين La Tene نسبة إلى منطقة لاتين في سويسرا . كان هذاالخام يصحن، ويغسل، ويسخن عند اللزوم ، ويوضع على هيئة طبقات متعاقبة بين الطبقة ، والتالية طبقة من الفحم النباتي ، في داخل فرن كان يصنع على أشكال متعددة. وفي غابة أوت Othe بين نهر السين ، ونهر الأيون وجدوا بعض الحفر على سفح الرابية تمثل أفرانا بدائية غير مبتناة ، أفرانا مكشوفة ، أو أفران الهواء الطلق ، فإذا أضرموا النار فيها تكونت بعد يومين أو ثلاثة ايام كتلة صغيرة اسفنجية من الحديد، تعتورها كمخات شبيهة بالرغاوى ، وكان من الضرورى معالجة هذا الحديد يدويا في ورشة الحدادة بتسخينه (إدخاله النار عدة مرات) ، وطرقه على السندال(١٣٤).

وظهرت في وقت مبكر أفران أكثر تعقيدا ، أحيطت بجدران ، ولكنها لم تغلق بعد، ولم تكن تكتفي بالتهوية الطبيعية (على هيئة مدخنة بسيطة). من هذا القبيل فرن لاندنتال Landenthal في وادى السار ، ذلك الفرن الذى كشفت عنه الحفائر، وكان يستخدم بين عام ١٠٠٠ وعام ١١٠٠ ، وكانت له جدران من الفخار المحروق المصبوب على ألواح من الخشب ، وكانت مقاساته ١,٥ م ارتفاعا و ٠,٦٥ م قطرا في أوسع موضع (فهو فرن مخروطي الشكل) ، وكان له منفاخان(١٣٥). هذا التصميم يمثل ـ مع

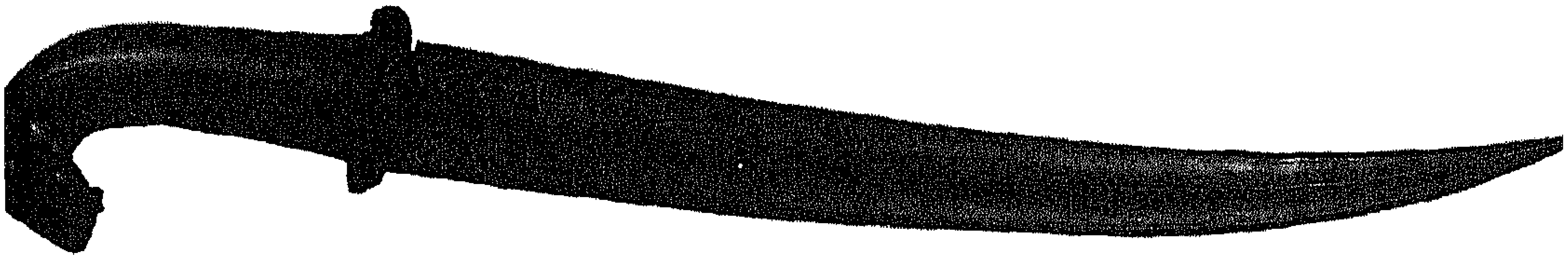

خنجر هندي له مقبض على هيئة رأس الحصان (من القرن السابع عشر) . مصنوع من الفولاذ الدمشقي ، ومرصع بحجر اليشب الرمادى .(متحف اللوفر ، قسم الآثار الشرقية .)

بعض التغييرات . نمط مجموعة من الأفران الكورسيكية ، والقاطالونية ، والنورمندية (وكانت الأفران النورمندية تصهر خام الحديد الذى كان يرد إليها من السويد، وكان يسمى أوسمورد ossmurd) كل هذه الأفران كانت محاطة بجدران ، ولم تكن مغلقة من أعلى ، وكانت النار فيها تنشط بمنافيخ هزيلة ، وكان الإنتاج الكلي إنتاجا ضعيفا. وهذه أرقام تعطي فكرة عن ذلك الإنتاج الضعيف : كان خام الحديد الذى يحتوى على ٧٢ ٪ من الحديد يعطي كتلة معدنية بنسبة ١٥ ٪. وهذه النسبة تصدق بطبيعة الحال أيضا فيما بعد القرن الحادى عشر على أنشطة التعدين البدائية ، سواء تلك التي كان الفلاحون يمارسونها بهمة في أوروبا ، أو تلك التي كانت تمارسها الشعوب القليلة الحظ من التطور في العالم القديم أى عالم ما قبل اكتشاف أمريكا(١٣٦).

كانت عجلة الطاحونة المائية قد أحدثت في أوروبا منذ القرنين الحادي عشر، والثاني عشر ألوانا من التقدم الحاسم ، وإن اتسم بالبطء الشديد ، ولكن العجلات المائية اتخذت مكانها على أية حالة في كل مناطق الإنتاج الكبيرة . وحلت ورش الحدادة المقامة على شواطيء الأنهار محل ورش الحدادة التي كانت تقام في الغابات . أصبحت قوة الماء تحرك منافيخ ضخمة، وتشغل هاونات ضخمة تكسر الخام ، ومطارق ضخمة تطرق الحديد بعد تسخينه مرارا، أو ـ كما يقولون ـ بعد إدخاله النار على مراحل متعاقبة . وواكبت هذه الألوان من التقدم إنشاء الفرن العالي في نهايات القرن الرابع عشر . ولقد ظهر الفرن العالي أول ما ظهر في ألمانيا (أو ربما في الأراضي الواطئة) ، وسرعان ما دخل إلى شرق فرنسا ، في أعالي وادى نهر المارن ، بينما ظلت ورش الحدادة اليدوية المقامة في الغابات مستمرة في مناطق البواتو Poitou، ومناطق المين السفلى Bas-Maine، وكل ربوع غرب فرنسا حتى القرن السادس عشر(١٣٧).

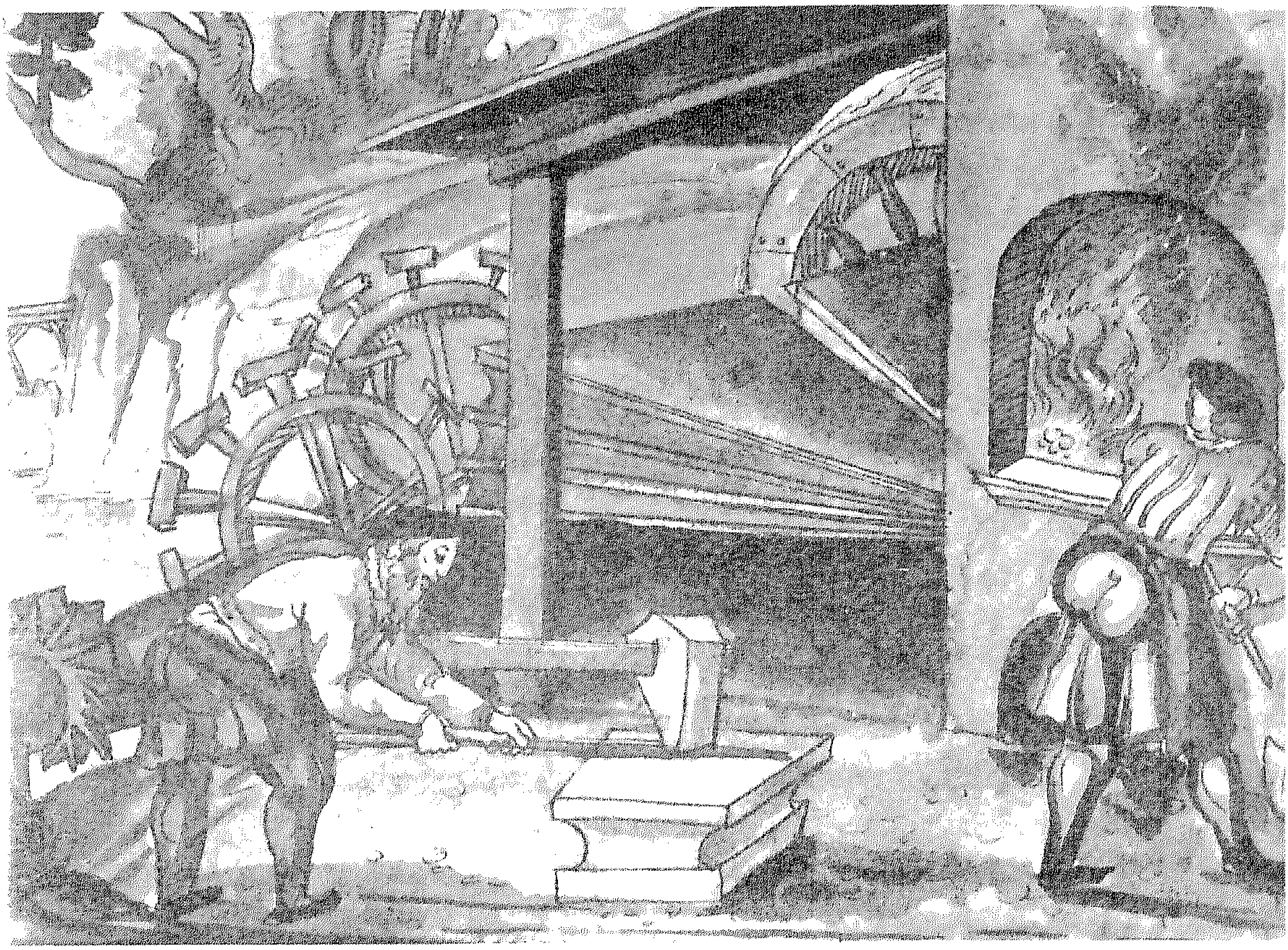

في منطقة التيرول (القرن السادس عشر): ورشة حدادة ميكانيكية يتحرك المنفاخ والمطرقة فيها بفعل عجلة مائية ، ويظهر في الصورة عمود الكامة الذى يغير الحركة من حركة دائرية الى حركة ترددية .

(من أرشيف الصور الملحق بالمكتبة القومية النمساوية في فيينا.)

وتعتبر منطقة الشتايرمارك النمساوية مثلا طيبا على ألوان التقدم الجديدة : في القرن الثالث عشر ظهر الفرن الذي كانوا يسمونه " النارالجارية " Rennfeuer، وكان فرنا مبنيا بالكامل، وكانت له منافيخ يدوية ؛ و في القرن الرابع عشر ظهر فرن القطعة Stueckofen ، وكان فرنا أعلى من سابقه ، زود بمنفاخ يعمل بالعجلة المائية؛ ومع نهاية القرن نفسه ظهرت الأفران العالية ، وكانت شبيهة بأفران القطعة ، ولكنها كانت أكثر ارتفاعا منها، وكان لها بوتقة أمامية ، وكانت المنافيخ مجمعة فيما أسموه بيت المنفاخ Blaehhaus (وقد ظهرت هذه التسمية في وثيقة بتاريخ ١٣٨٩). والمهم أن استخدام المنافيخ الجلدية الضخمة التي تتحرك بقوة الماء، واستخدام خواب ، وأفران عالية، يعني

أننا ندخل للمرة الأولى في مرحلة الصهر ، أو يمكن أن نقول بعبارة أخرى لقد تم "اكتشاف" عملية صهر الحديد في القرن الرابع عشر، وأصبح الزهر منذ ذلك الحين متاحا، والزهر هو المنطلق المشترك لإنتاج الحديد أو الصلب ، حسب الرغبة، عن طريق اختزال الكربون ، وستتركز الجهود في منطقة الشتايرمارك على إنتاج الصلب(١٣٨). ولكن صناعة التعدين كانت ، في أغلب الأحوال، تنتج " الحديد الصلب " ، لا الصلب ، وظل الأمر على هذا المنوال إلى أن جاءت ابتكارات نهاية القرن الثامن عشر .

ولكن ورشة الحدادة عندما انفصلت عن الفرن العالي ، تحركت نحو مصب النهر ، لأن المصنع الكبير ، في حرصه على وحدته ، أصبح مستهلكا هائلا للوقود ، يعمل الحساب كل الحساب لتأمين تزوده بالوقود ، وعدم التعرض لعقبات أو مضايقات . وهناك رسم تخطيطي من عام ١٦١٣ يبين بيت المنفاخ منعزلا منفصلا عن ورشة الحدادة ، التي اتجهت نحو مصب النهر ، وعملت مرتبطة بقوة تيار الماء المنساب بين شاطئيه . كان لورشة الحدادة مطرقة كبيرة تعمل بقوة الماء ، عرفت باسم " المطرقة الألمانية "، وكانت لها زقمة ، عبارة عن عرق هائل من القرو يعمل عمل يد المطرقة ؛ وكان رأس المطرقة يزن ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ رطل فرنسي ، وهو ما يساوى ٢٥٠ الى ٣٠٠ كجم ، وكان رأس المطرقة يتحرك بعجلة لها ذراع تجعل رأس المطرقة يهوى على السندال . وأصبحت هذه القوة الضاربة لازمة لطرق المعدن الخام الذى كانوا ينتجونه منذ ذلك الوقت بكميات كبيرة. ولكن الحديد كان يتطلب معالجات متعاقبة ، لا تكاد تنتهي إلى نهاية ، وكانوا يستخدمون لها ، بعد المطارق الكبيرة ، المطارق الصغيرة أيضا ، التي أسموها مطارق ايطالية ، والتي كانت تهوى على الحديد في حركات سريعة متتالية ، وربما كان النموذج الأول لهذه المطارق قد أتى من بريشيا Brescia عاصمة الحديد القديمة ، عن طريق العمال القادمين من منطقة الفريول Frioul، وهي منطقة في محيط إقليم البندقية القديم، كانت تخضع للسيطرة النمساوية (١٣٩).

وهناك مثل آخر يشهد على هذا التقدم يقودنا إلى الربوع الغربية من جبال الألب، وهو مثل يمتاز بأنه يبين الدور الهام الذى لعبه رهبان طائفة الكارتاوزيين chartreux فى إحداث هذه الانتفاضة الأولى للتعدين. وكان هؤلاء الرهبان قد استقروا منذ القرن الثاني عشر في الشتايرمارك ، ولومبارديا ، وكيرنتن Kaernten، وبيمونتى، وكانوا "مشاركين مشاركة وثيقة في صناعة التعدين [قبل] الحديثة ". ويقال أنهم كانوا في منطقة الدوفينيه الفرنسية القديمة ، وعلى وجه التحديد في اليفار Allevard ، هم الذين اخترعوا الصهر منذ القرن الثاني عشر، أو على أية حال في تاريخ يسبق تاريخ ظهور عملية الصهر في الشتايرمارك ، وغيره بوقت كبير ، وإنما تمكنوا من ذلك عن طريق استخدام تهوية عنيفة تمكنوا من إحداثها اعتمادا على أقماع مائية تلقفت بالكامل غديرا

جبليا منهمرا من جبال الألب . ثم أقبل العمال من منطقة التيرول (منذ عام ١١٧٢) ومعهم طريقة لتنقية الزهر تستخدم الفحم النباتي ، وإضافات من الخردة ، أتاحت على الأرجح إنتاج الصلب الذى كانوا يسمونه " طبيعيا ". ولكن هذه التواريخ ليست مؤكدة(١٤٠).

والحقيقة أن كل مركز من مراكز التعدين كانت له مراحله الخاصة به ، وأساليبه ، وبخاصة في التكرير والتنقية ، وكانت له أسراره ، وعملاؤه ، ومختاراته من قائمة المنتجات المختلفة . إلا أن التقنيات ، أيا كان مصدرها ، كانت تسعى إلى الانتشار والتعميم ، على الأقل عن طريق الصناع الذين نجدهم دائما يسارعون إلى التنقل من مكان إلى مكان . ونذكر في هذا المقام مثلا صغيرا جدا ، ففي عام ١٤٥٠ تلقى " اثنان من العمال من أهل لييج " البلجيكية تكليفا " بإنشاء مسقط مائي تمهيدا لإنشاء مسبك لصهر الحديد أو مصنع للحديد " في منطقة فرنسية على نهير أفيلون Avelon قرب سانليس Senlis (١٤١).

ولسوف تصبح الأفران العالية كلها ، أسرعت في ذلك التطور أو أبطأت ، أفرانا مستمرة الإشعال، فما يكاد الفرن يفرغ من المادة المصهورة، حتى يملأ من جديد بخام الحديد، والفحم النباتي ، وأخذت فترات التوقف للإصلاح أو الشحن تقل على نحو متزايد . وتعاظمت الأفران العالية ، فتضاعفت سعتها بين عام ١٥٠٠ وعام ١٧٠٠، حتى أصبحت تسع ما يصل إلى ٤,٥ متر مكعب ، تعطي يوميا طنين اثنين من الزهر المنصهر(١٤٢). وتعممت كذلك طريقة سقي الحديد في الخام المنصهر لزيادة محتواه من الكربون .

عمليات التمركز الأولية

وساعدت الحرب الحديد، فقد تضاعف الطلب على السرابيل، والسيوف، والرماح، والبنادق الأركبوزية المعتمدة على حامل ، والمدافع ، والقنابر الحديدية... وكان هذا الطلب الضخم موقوتا بطبيعة الحال، لا يستمر على حاله . ولكن رجوع الناس إلى معدات ومنتجات الماضي في احتياجات الحرب وغيرها بات صعبا ، وأصبح الحديد والزهر يستخدمان في صناعة أواني المطبخ من قزانات ، وحلل وشوايات، وبيوت النار، وألواح الأفران، والدفايات، وأسلحة المحاريث. وأدي هذا الطلب، باتساعه وتنوعه ، إلى عمليات تمركز، أو على الأصح إلى عمليات تمركز أولية، كانت في بداياتها ضعيفة إلى حد ما بسبب النقل، والوقود ، والقوة المحركة القابلة للتجميع في نقطة واحدة، والتزود بالقوت، فما كانت مسيرة الأنشطة المختلفة بإيقاعاتها المتباينة تسمح بعمليات تجميع متقدمة تقدما مفرطا.

في نهاية القرن الخامس عشر كانت منطقة بريشيا الايطالية تضم نحو ٢٠٠ مصنع سلاح، من النوع المسمى botteghe، وهو مصنع له معلم واحد وما بين ٣ و ٤ من العمال. وهناك نص يتحدث عن ٦٠٠٠٠ شخص يعملون في الحديد ، وهو رقم كبير كبرا مبالغا فيه ، على الرغم من أنه ينبغي علينا أن ندخل فيه - في منطقة واسعة تمتد حتى وادى فال كامونيكا Val Camonica- عمال أفران الصهر ، والحدادة ، والعجلات المائية، وعمال الحفر ، والمناجم الذين يستخرجون الخام ، وعمال النقل بالعربات ، وأخلاطا من العمال المبعثرين في دائرة من ٢٠ إلى ٣٠ كم حول المدينة (١٤٣).

ونرى الوضع نفسه ، في القرن السادس عشر ، في ليون التي جمعت في دائرة نصف قطرها ١٠٠ كم منتجات عدداً كبيراً من المراكز التعدينية الصغيرة. كانوا في سانت اتيين Saint-Etienne يصنعون نوعيات متباينة نذكرها فيما يلي مرتبة بحسب درجة أهميتها: أواني المطبخ ، البنادق الأركبوزية المستندة على حامل ، الرماح ؛وبكميات أقل: معدات السيوف والخناجر . أما في سان شامون Saint-Chamond فكانت المنتجات: أدوات المطبخ ، البنادق الأركبوزية المستندة على حامل، والأبازيم، والحلقات، والأطواق ، والمهاميز ، والبرادة ، والأدوات اللازمة لبرم فتل الحرير ، وصباغته ، مثل القروانات النحاسية ، ومغازل برم فتل الحرير .. وكانت المراكز الثانوية تختص بصناعة المسامير ، من هذه المراكز : سان بول أن جاريه Saint-Paul-en-Jarez ، سان مارتان Saint-Martin ، سان رومان Saint-Romain ، سان ديدييه Saint-Didier؛ وكانت تيرنوار Terre Noire تنتج أدوات المطبخ؛ وكانت سان سيمفوريان Saint-Symphorien تنتج " الأواني الحديدية " ؛ وكانت سانتأندريه Saint-André تنتج معدات الزراعة : المجاريف، والقطع الحديدية للمحاريث . أما فيفرول Viverols التى كانت على طرف الدائرة فكانت تصنع أجراس البغال ، وربما كانت هذه المنطقة هي موطن الأجراس الصغيرة التي كان التجار الايطاليون في ليون يصدرونها الى خارج المملكة ؛ وحققت منطقة سان بونيه لي شاتو Saint-Bonnet-Château شهرة في صناعة معدات جز الصوف(١٤٤).

وكان الصناع يحملون بأنفسهم بضاعتهم إلى المدينة ، هكذا كان صناع المسامير يفعلون، وكانوا يكملون حمولة حيوان النقل بكمية من الفحم ، مما يدل على أن صناعتهم كانت تستخدم الفحم الحجرى الذى كانت ليون تستخدمه في تدفئة البيوت (تستخدمه في قماين الجير بحي فيز Vaise) ، وأن إنتاج صناعة التعدين كان يحظى بتوزيع أفضل - أو أقل سوءا - من المادة الخام.

ولنا أن نفحص الأنشطة العديدة لصناعة أدوات المطابخ الحديدية في مدينة نورنبرج الألمانية وما حولها ، وأنشطة صناعة التعدين السويدية في القرن السابع عشر ، ونهضة

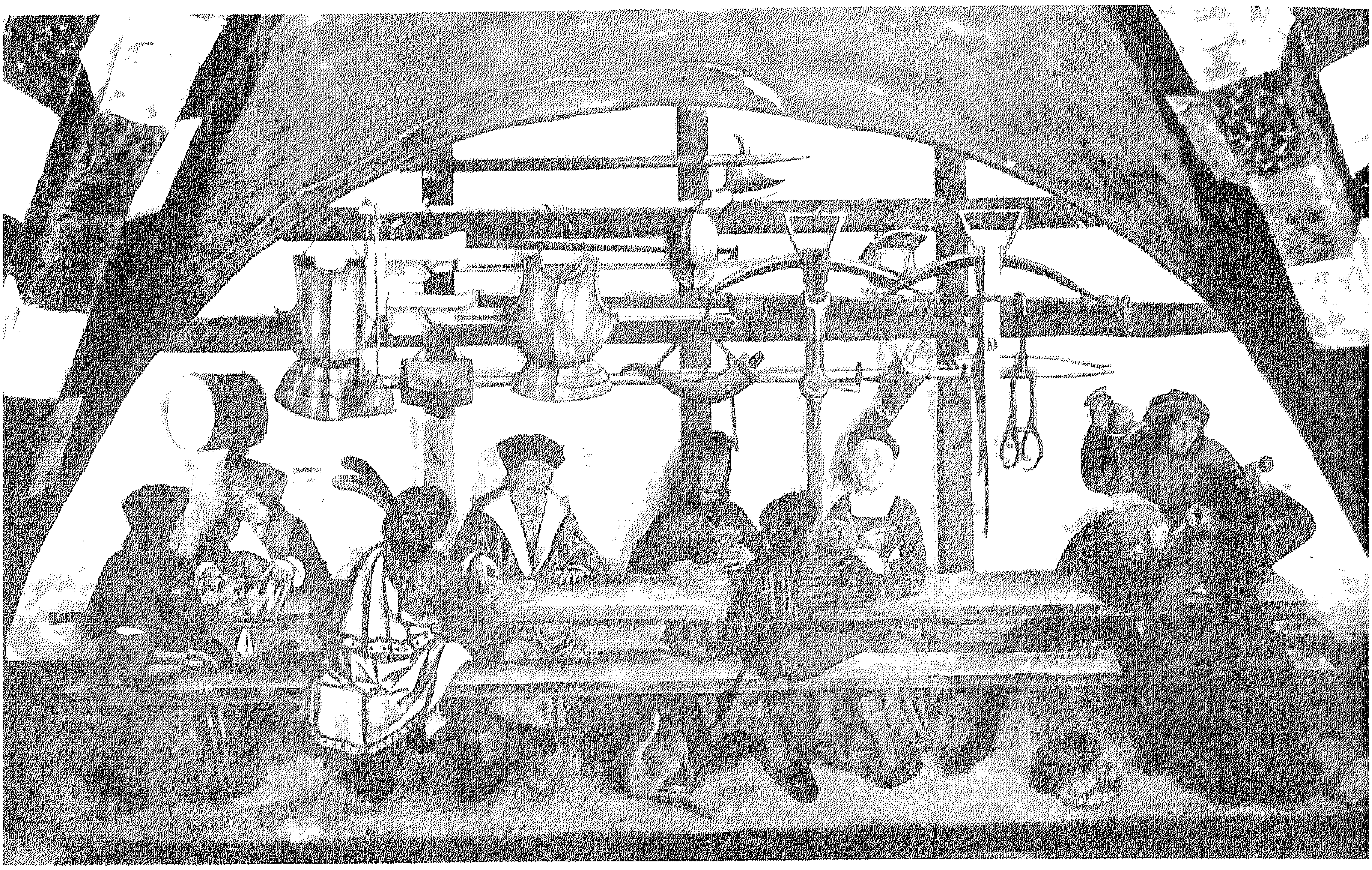

حانة من القرن الخامس عشر. رجال جالسون إلى منضدة وقد علقوا أسلحتهم خلفهم . من رسمة فريسكية على حائط في قصر ايسوني Issogne.

الصناعة في منطقة الأورال في القرن الثامن عشر ، وأحوال الصناعة في منطقة البسكايه الأسبانية، ومنطقة لييج البلجيكية : سنجد نفس السمات المتمثلة في تواضع وحدات الإنتاج، وتبعثرها النسبي ، وصعوبة النقل . لم يكن هناك من تمركز إلا في الأماكن التي يتاح فيها طريق نهرى أو طريق بحرى : نهر الراين ، بحر البلطيق، نهر الموز Meuse، خليج جاسكوني، ونهر الأورال .في منطقة البسكاية الاسبانية نلاحظ أن وجود المحيط الأطلسي، والجبل بغدرانه المتدفقة، وغابات القرو ، والمناجم الغنية ، كل هذا يفسر قيام صناعة تعدين هامة. وكانت أسبانيا ، حتى منتصف القرن الثامن عشر، تبيع حديدها لانجلترة ، ولقد استخدم الانجليز الحديد الأسباني في تجهيز السفن التي حاربت الأساطيل الأسبانية ذات يوم(١٤٥).

بعض الأرقام

قلنا من قبل ان الرقم المقدر للانتاج العالمي في عام ١٨٠٠ ، وهو مليونان من

الأطنان، رقم مبالغ فيه بكل تأكيد . ويمكن أن نفترض أن الإنتاج العالمي قبل الثورة الصناعية كان مثلي أو ثلاثة أمثال إنتاج أوروبا ، وإنتاج أوروبا حول عام ١٥٢٥ (حسب تقدير جون نيف John Nef) لم يجاوز قط ١٠٠٠٠٠ طن ؛ وفي عام ١٥٤٠ (حسب ستيفان كوروفسكي Stefan Kurowski(١٤٦) الذى نأخذ عنه أيضا الأرقام التالية) كان الإنتاج العالمي ١٥٠٠٠٠ طن ؛ في عام ١٧٠٠ كان الانتاج العالمي ١٨٠٠٠٠ طن (منها ١٢٠٠٠ نصيب انجلترة ، و٥٠٠٠٠ نصيب السويد)؛ في عام ١٧٥٠ كان الإنتاج العالمي ٢٥٠٠٠٠ طن (٢٢٠٠٠ نصيب انجلترا و٢٥٠٠٠ نصيب روسيا)؛ وفي عام ١٧٩٠ كان الإنتاج العالمي ٦٠٠٠٠٠ طن (منها ٨٠٠٠٠ نصيب انجلترة ، و ١٢٥٠٠٠ نصيب فرنسا ، و٩٠٠٠٠ نصيب السويد ، و١٢٠٠٠٠ نصيب روسيا). وفي عام ١٨١٠ لم يكن إنتاج أوروبا يربو على١١٠٠٠٠٠ طن ؛ وفي عام ١٨٤٠ كان الإنتاج ٢٨٠٠٠٠٠ طن نصفها تقريبا من نصيب انجلترا. ولكن الثورة الصناعية الأولى كانت قد أحدثت أثرها.

كان إنتاج أوروبا في السنوات السبعينية من قرننا الحالي ، حول عام ١٩٧٠، يقدر بصفة عامة بـ ٧٢٠ مليون طن من الصلب . ونستطيع قياسا على هذا الرقم أن نحكم بأن عصر الحديد لم يكن قد حل بعد طوال الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الكتاب من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر . وإذا نحن رجعنا القهقرى من الحاضر إلى الماضي، متجاوزين العتبة الكبيرة للثورة الصناعية ، واسأنفنا المسيرة الي الوراء ، فإننا نشهد تضاؤلا مستمرا في دور الحديد ، ونجده على تلك الحالة من التواضع التى كانت هي القاعدة في العهد القديم السابق على حدوث الثورة الفرنسية . وسنصل في النهاية، ونحن نتابع مسيرتنا العكسية من حاضر إلى ماض ، عصرا بعد عصر، إلى العصر الهوميرى الذى كان فيه الحديد بضاعة نادرة غالية ، فكان سربال المحارب " يساوى ستة ثيران ، والسيف يساوى أربعة عشر ثورا ، وكانت شكيمة الحصان أغلى من الحصان نفسه " (١٤٧). ما يزال " عصرنا " - أي العصر الذى نتناوله في كتابنا هذا - هو من أوله إلى آخره تحت سيطرة الخشب الذى نراه في كل مكان صغر أو كبر .

المعادن الأخرى

لقد اعتدنا ، نحن المؤرخين ، أن نضع في الصف الأمامي من اهتماماتنا الإنتاج الكبير أو التجارة الكبيرة ، فلا نهتم بالتوابل ، بل بالسكر ، وبما هو أهم منه ، وهو القمح، وكذلك نحن لا نهتم بالمعادن النادرة أو الثمينة ، بل بالحديد الذى هو أساس الحياة اليومية حتى في تلك القرون التي لم تكن قد عرفت بعد الحاجة الشرهة إلى خدماته. هذه الملحوظة ملحوظة صحيحة ، وتنطبق على المعادن النادرة ذات الاستخدام المتواضع :

الأنتيمون ، القصدير ، الرصاص ، الزنك . والزنك لم يستخدم إلا في نهاية القرن الثامن عشر . ولكن الجدل الدائر حول الموضوع لا يحسم بمثل هذه الملحوظات ، إذ ينقصه الحديث عن المعدنين النفيسين : الذهب والفضة . فهذان المعدنان يفسحان المجال أمام مضاربات وأعمال لا يعرفها الحديد الذى هو معدن بروليتارى . فمن أجل الفضة بذل الانسان أفضل ما أوتي من المهارة ، وكأني به أنفق كنوزا من المهارة ليحصل على كنوز الفضة، نجد مصداق ذلك في تلك الرسوم التخطيطية الجميلة في كتاب أجريكولا Agricola عن المناجم ، أو في ذلك القطاع الطولي البديع المثير في مداخل ودهاليز مناجم سانت ماري أومين Sainte- Marie-aux-Mines في إقليم الفوج. من أجل الفضة كان الاهتمام بطبقات الزئبق في منطقة المعدن Almaden باسبانيا (فقد جعلت طريقة خلط الفضة بمعادن أخرى من الفضة في القرن الخامس عشر ، وبخاصة منذ القرن السادس عشر، معدنا ذا إنتاج صناعي) . ومن أجل الفضة كان السعي إلى إحراز التقدم في سبل استغلال المناجم (شق الدهاليز ، صرف المياه ، التهوية).

ومن الممكن أن نفترض أن النحاس كان يلعب دورا مساويا ، أو ربما أكبر من دور الحديد . فالقطع المصنوعة من البرونز في المدفعية تمثل الارستقراطية في هذا المجال. وقد أخذت طريقة تكفيت جسم المركب بالنحاس تنتشر في القرن الثامن عشر. وأدى الصهر المضاعف للنحاس ، بنفس الطريقة المتبعة مع الرصاص ، إلى فصل الفضة المختلطة بخام النحاس منذ القرن الخامس عشر . والنحاس هو المعدن الثالث في قائمة المعادن المستعملة في سك العملة ، إلى جانب الذهب والفضة . ثم إن النحاس أفاد من ميزة السهولة النسبية في تعدينه (يمكن للفرن ذى الغطاء العاكس أن ينتج في اليوم ٣٠ طنا من النحاس) وأفاد من الرأسمالية الأولي ، وهو ما يفسر الصعود الخاطف الذى حققته مناجم النحاس في مانسفيلد Mansfeld، وساكسونيا Sachsen في القرن السادس عشر، ويفسر فيما بعد الطفرة التي حققها النحاس السويدى في القرن السادس عشر، كما يفسر المضاربة الكبيرة التي اندفع إليها في اللحظة نفسها النحاس الياباني الذى احتكرته في نهاية السباق شركة الهند الشرقية Oost Indische Companie. وكان جاك كور Jacques Coeur، وأكثر منه آل فوجر Fugger ملوك النحاس. حتى في القرون التالية كان الباحث عن الربح في بورصة أمستردام يضارب على النحاس مطمئن الفؤاد ، قرير العين، واثقا من الكسب.

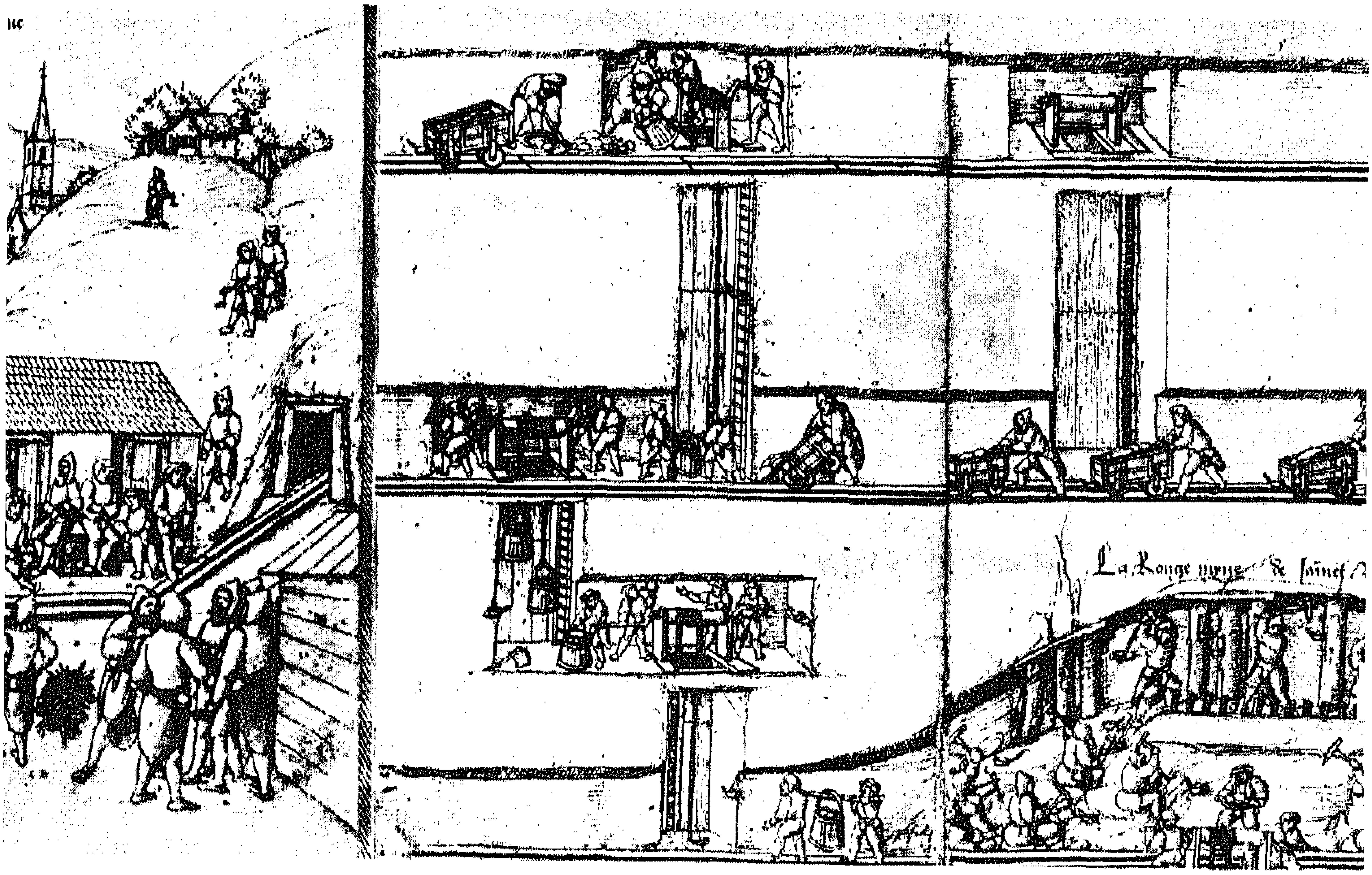

في منطقة الفوج Vosges الفرنسية مناجم الفضة بقرية كروا دى لورين Croix-de- Loraine في النصف الأول من القرن السادس عشر : مداخل ، ومهابط ، ومنازل ، وسلالم ، وبكرات، وخنزيرات، وعربات نقل الام. وقد ظلت هذه المناجم تستغل حتى عام ١٦٧٠. (متحف الرسومات بالمكتبة القومية الفرنسية.)

الباب السادس

التقنيات .. بين تخلف وثورة

كانت الأركان الأساسية التي قامت عليها التقنيات متثاقلة لم يشق التجديد سبيله بينها إلا بطيئا بطيئا، فتطورت المدفعية، والطباعة، والملاحة في أعالي البحار، وكان تطورها يمثل الثورات التقنية الثلاث الكبيرة التي حدثت بين القرن الخامس عشر، والثامن عشر. ولكننا عندما نقول ثورات، لا نعني المضمون الحقيقي لكلمة الثورة، فلم يسر التطور في هذه المجالات الثلاثة بالسرعة التي نتصورها عندما نسمع كلمة الثورة. وكان التطور الذي شهده مجال الملاحة في أعالي البحار هو الوحيد الذي أحدث اختلالا في توازن العالم، وحطم ما كان فيه من تجانس. ويمكن أن نقول بصفة عامة أن الابتكارات الجديدة ينتهي بها الأمر إلى الانتشار في العالم كله : الأرقام العربية، البارود، البوصلة، الورق، دودة القز، المطبعة ... لم يحدث أن بقي ابتكار جديد قاصرا على خدمة مجموعة واحدة من البشر، أو دولة واحدة، أو حضارة واحدة، اللهم إلا إذا تبين أن الآخرين ليسوا في حاجة إليها. ونلاحظ في حالة التقنيات الجديدة، التي تطورت في الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، إنها تطورت ببطء أتاح للجيران أن ينظروا إليها، ويندهشوا لها وأن يسألوا عن أخبارها. ويمكن القول أن المدفعية ظهرت لأول مرة في الغرب في كريسي Crécy، أو على الأصح في كاليه Calais في عام ١٣٤٧، ولكنها لم تصبح ذات شأن كبير في الحروب الأوروبية إلا منذ الحملة التي قام بها الملك الفرنسي شارل الثامن في ايطاليا في سبتمبر من عام ١٤٩٤، أي بعد قرن، ونصف قرن من المحاولات، والتجارب، والكلام، والحديث.

وكان الجمود مسيطرا على بعض المجالات بصفة خاصة: مجال المواصلات في الوقت الذي تقارب فيه العالم، وأحس لأول مرة، منذ رحلة ماجلان (١٥١٩-١٥٢١) بوحدته البحرية - مجال الزراعة الذي لم يمس التقدم الثوري فيه إلا قطاعات ضيقة محدودة فقط ثم تبدد في متاهات الروتين، وما اتسم به العهد القديم من بطء وتباطوء وعجز يائس ميئس، وإذا كان العهد القديم قد تغير بعض الشيء فإنه لم يكن قد قضي عليه بعد.

ثلاثة ابتكارات
تقنية كبيـــرة

البارود ومن أين أتى

هناك نزعة قومية " أوروبية " تدفع مؤرخي العلوم، والتقنيات إلى إنكار ما أخذته أوروبا عــن الصيــن، أو التقليل من شأنه. وعلــى الرغــم مــن أننا نقـدر ألدو مييـلي Aldo Mieli (١) قدره ، ونعترف له بتميزه كمؤرخ عظيم متخصص في تاريخ العلوم، إلا أننا لا نرى رأيه في أن اكتشاف الصينيين للباردود لا يزيد عن أن يكون "أسطورة". فالحقيقة أن الصينيين كانوا يصنعون البارود منذ القرن التاسع الميلادي من ملح البارود، والكبريت، والفحم النباتي المسحوق. كذلك صنع الصينيون الأسلحة النارية الأولي في القرن الحادي عشر، أما أول مدفع صيني "سجله التاريخ" فيرجع إلى عام ١٣٥٦ (٢).

فهل يمكن القول بأن أوروبا اخترعت البارود في نفس الوقت الذي اخترعته فيه الصين؟ لقد نسب البعض اختراع البارود بغير دليل أو برهان إلى بيكون Bacon الكبير نفسه (١٢١٤ ـ ١٢٩٣) ، علما بأن المدفع لم يظهر يقينا إلا في فلاندريا Flandern حول

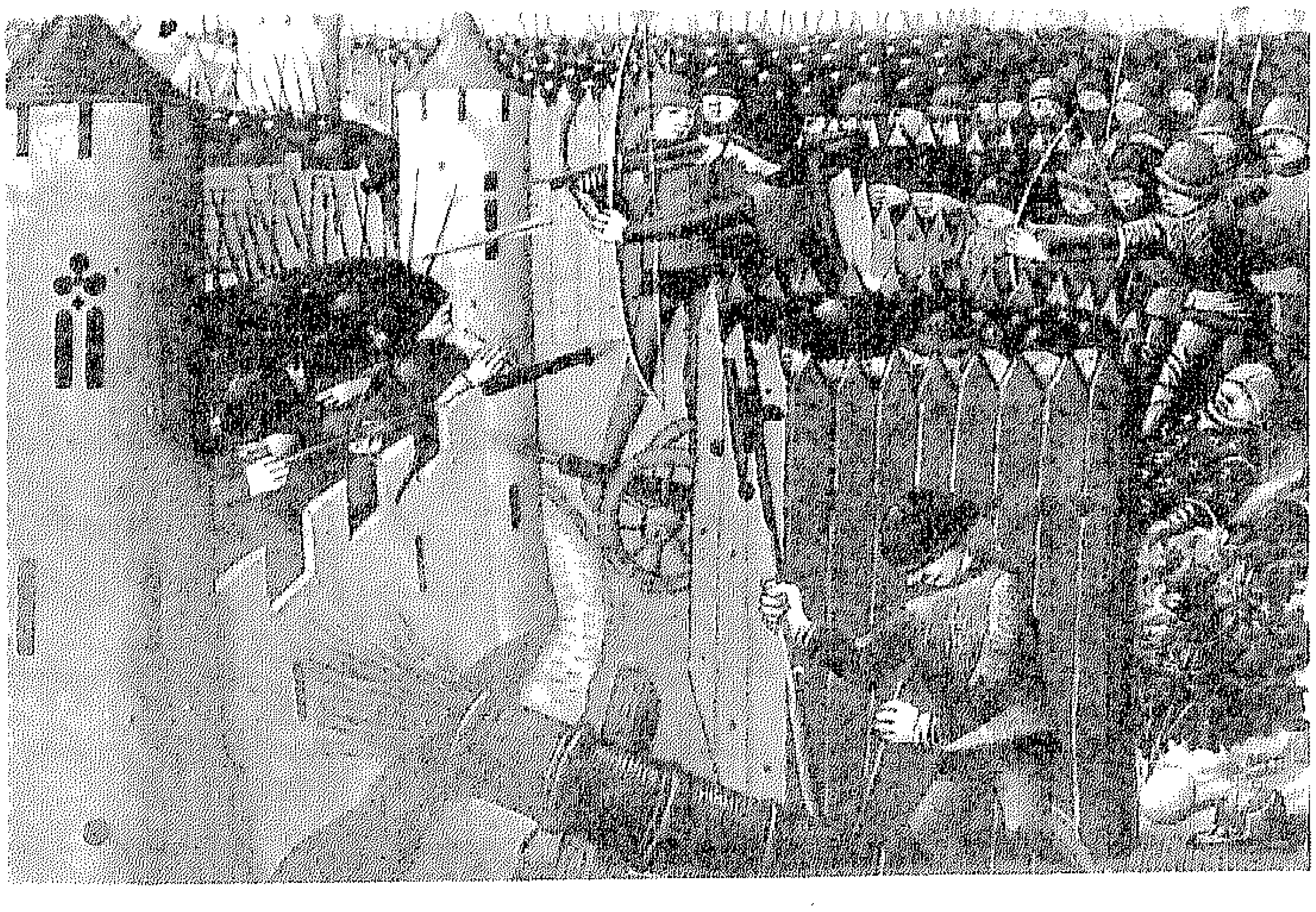

المدفعية الاولى تضرب أسوارالمدن عن قرب . من كتاب " مغاوير الملك شارل السابع "Vigiles de Charles VII من تأليف مارتسيال دي باري Martial de Paris الملقب بـ دوفرني d`Auvergne، يرجع الكتاب إلى عام ١٤٨٤ ، محفوظ في المكتبة القومية بباريس .

عام ١٣١٤ أو ١٣١٩؛ وعند مدينة ميتس Metz في عام ١٣٢٤ ؛ وفي فلورنسا في عام ١٣٢٦؛ وفي انجلترة في عام ١٣٢٧ (٣) ؛ وفي عام ١٣٣١ في حصار سيفيدال Cividale في منطقة فريولي Friuli الايطالية التي يسميها الفرنسيون le Frioul(٤)؛ وربما ظهر المدفع في ميدان معركة كريسي (١٣٤٦) التي يقول عنها فرواسار Froissart (مؤرخ ولد عام ١٣٣٧ وتوفي حول عام ١٤٠٠) إن "قصافي" bombardiaux الانجليز أذهلوا الفرنسيين الذين كانوا تحت إمرة فيليب السادس دي فالوا Valois . وهناك أخبار أكثر يقينا عن الملك ادوارد الثالث، أنه استخدم المدافع في العام التالي - عام ١٣٤٧ - ضد كاليه (٥). ولكن المدفع ، هذا السلاح الجديد ، لم يدخل الحرب دخولا حقيقيا إلا في القرن التالي إبان الحروب الدينية ، التي روعت قلب أوروبا ، والتي دافع بها أتباع المصلح الديني التشيكي يان هوس Jan Hus عن ثورتهم على الكنيسة : وكان الثوار منذ عام ١٤٢٧ يستخدمون عربات مزودة بقطع مدفعية خفيفة . ثم لعبت المدفعية دورا حاسما في نهاية حروب شارل السابع ضد الانجليز، وكان دورها هذه المرة في صالح الفرنسيين الذين كانوا قد هزموه في كاليه قبل قرن أو نحوه . وإنما تجددت أهمية المدفع نتيجة لاختراع البارود الحبيبي في عام ١٤٢٠، أو حوله، ذلك الاختراع الذي مكن من إشعال البارود على نحو فوري وأكيد، على عكس الخليط القديم الذي لم يكن الهواء يتخلله ، فكان بطيء الاشتعال .

ولكن لا ينبغي أن نتصور أن المدافع كانت موجودة بانتظام في كل المعارك . فنحن نعرف على نحو مبهم أن المدفعية لعبت دورا في أسبانيا، وفي شمال أفريقيا منذ القرن الرابع عشر. ولنتصور أنفسنا في عام ١٤٥٧ داخل أسوار مدينة سبتة Ceuta على ساحل بلاد المغرب، تلك المدينة التي كانت لها أهمية حاسمة في الحرب التي شنتها البرتغال في هذا المنطقة ، فقد احتل البرتغاليون المدينة منذ عام ١٤١٥ ، وعاود المغاربة الهجوم على البرتغاليين ، ولنستمع الى جندي دفعته المغامرة إلى الانضمام إلى صفوف البرتغاليين لمحاربة المغاربة المسلمين الذين أسماهم الكفار ، يقول : " أطلقنا عليهم الحجارة من آلاتنا فحققنا قدرا من النجاح ... أما المغاربة Maures فكان لديهم رماة يصوبون السهام ، ويستخدمون النبال frondes... كذلك كانوا يطلقون قذائف بالمنجنيق catapultes طوال اليوم ."(٧). إلا إننا نرى الأتراك قبل هذا التاريخ بأربعة أعوام، في عام ١٤٥٣ ، يتخذون مواقعهم عند أسوار القسطنطينية ويصوبون مدفعا هائلا نحو المدية ... فإذا عدنا إلى أسبانيا مرة أخرى وجدنا المنجنون trebuchet الذي يقذف الحجر ما يزال يستخدم في حصار برغش Burgos في عام ١٤٧٥ - ١٤٧٦. ويمكننا أن نضيف الى هذه التفصيلات أن ملح البارود كان معروفا في مصر حول عام ١٢٤٨، وكانوا يسمونه " الثلج الصيني ". وما أكثر المدافع canons التي استخدمت

يقينا في القاهرة منذ عام ١٣٦٦ وفي الاسكندرية في عام ١٣٧٦، وكانت المدافع شائعة في مصر وسوريا في عام ١٣٨٩. على أن هذه التواريخ المتتابعة التي أوردناها: كاليه ١٣٤٧ ، الصين ١٣٥٦... الخ لا تقيم الدليل على من الذي سبق إلى اختراع المدفع . والرأي عند كارلو شيبولا Carlo Cipolla أن المدفع الصيني كان في القرن الخامس عشر ندا للمدفع الأوروبي ، بل إنه كان يفوقه . أيا كان الأمر فما اقترب القرن الخامس عشر من نهايته حتى كانت المدفعية الأوروبية قد فاقت كل ما كان يمكن صنعه في آسيا من مدافع . ومن هنا أحدثت المدافع الأوروبية ، عندما ظهرت في الشرق الأقصى، في القرن السادس عشر، أثرا هائلا هو المباغتة المرعبة(٨). ومجمل القول أن المدفعية الصينية لم تستطع أن تتطور، وأن تفي بمتطلبات الحرب . وإليك هذا الرحالة الذي سجل في عام ١٦٣٠ ما شاهده في الأحياء الواقعة على مشارف المدن الصينية:" الصينيون يقومون بسبك المدافع، ولكنهم تعوزهم الخبرة والمهارة في استخدامها." (٩)

المدفعية

تصبح متحركة

كانت قطع المدفعية في بداية الأمر أسلحة خفيفة، قصيرة، يقترون في تعميرها بالبارود كل التقتير (لأن البارود كان مادة نادرة وغالية الثمن). ونحن عندما ننظر إلى الأسماء التي أطلقت على المدافع فيما مضى لا نعرف على وجه التحديد شكلها. لدينا مثلا كلمة ريبودكان ribaudequin التى لا نعرف عنها إلا أنها كانت تطلق على مجموعة من المدافع (شبيهة بمجموعة من مواسير البندقية القديمة المسماة بالبارودة أو الأركبوزة arquebuse) كانوا يضمونها بعضها إلى البعض الآخر ، حتى شبهها من شبهها بالمترليوز أوالمدفع الرشاش.

ثم زادت أحجام المدافع وأوزانها، فبعد أن كان المدفع يزن في المتوسط ١٣٦ كجم، أصبح يزن ٢٧٢ كجم في عصر ريتشارد الثاني (١٣٧٦- ١٤٠٠) استنتاجا من النماذج المحفوظة في برج لندن ، فلما أهل نجم القرن الخامس عشر، بلغت المدافع أحجاما هائلة أحيانا، وكانوا يسمونها آلات القصف الضخمة bombardes وكانوا يسمونها في ألمانيا دونربوكسين Donnerbuechsen أي قاصفات الرعد، وكانت عبارة عن مواسير خرافية الحجم ، مصنوعة من البرونز، كانوا يركبونها على حوامل خشبية، ولم يكن من الممكن تقريبا نقلها من مكانها، لأن عملية النقل كانت تتطلب حل طائفة من المشكلات ، كان من العسير حلها في ذلك الوقت . ونحن نعرف أن المدفع المعجزة الذي أسموه بالألمانية " در شتراوس der Strauss " أي النعامة، والذي أعارته مدينة ستراسبورج إلى الأمبراطور ماكسيميليان ، في عام ١٤٩٩، ليخمد به تمرد المقاطعات

السويسرية ، ويردها إلى حظيرة الطاعة، لم يكن من الممكن نقله إلا ببطء شديد، حتى لقد أوشك العدو أن يستولي عليه ، ولم ينج المدفع إلا لأن الحظ حالفه . وهناك واقعة أخرى ليس فيها ما يفوق المألوف، فقد استقدم لودوفيكو مورو Lodovico Moro، أمير ميلانو، في عام ١٥٠٠ ، من ألمانيا " ستا من مواسير المدافع الثقيلة " ، فانكسرت ماسورتان منها في الطريق(١٠).

وفي وقت يسبق هذا التاريخ بسنوات ظهرت مدفعية ثقيلة العيار، تمتاز بأنه كان من الممكن تحريكها نسبيا، وهكذا كانت المدفعية التي صممها الأخوان بيرو Bureau هي السلاح الذي حقق به الملك شارل السابع انتصاراته في فورميني Formigny في عام ١٤٥٠، وفي كاستيون Castillon في عام ١٤٥٣. وظهرت المدفعية المتحركة في إيطاليا حيث كانت تجرها الثيران المكدنة ، واستخدمت في معركة صغيرة هي معركة موليناشيلا Molinacela في عام ١٤٦٧(١١). إلا أن المدفع المحمول على غنداق تجره خيول قوية مكدنة لم يظهر في ايطاليا إلا مع الملك شارل الثامن في سبتمبر من عام ١٤٩٤، وكان دخوله حدثا أثار فزع الحكماء . وكان هذا المدفع يقصف جللا حديدية، بدلا من قذائف الحجر التي كانت تستخدم من قبل، وسرعان ما انتشر استخدام الجلة الحديدية ، وسرعان ما استهدف القصف بالجلل أسوار المدن، بعد إن كان يستهدف بيوت المدن المحاصرة وحدها. ولم تقو مدينة حصينة على الوقوف في وجه هذه القذائف الجديدة التي كانت المدافع تطلقها من مكان شديد القرب من الأسوار فتهدمها، وكانت الحرب حتى ذلك الحين تقوم على الدفاع عن أبواب المدينة، وكان تسليم الأبواب يعني الهزيمة، والتشبث بها يعني الصمود . وجاءت المدافع المتحركة التي كانوا يدفعون بها تصل إلى بداية المتاريس، ويضعونها على الشاطيء الخارجي للخنادق الدفاعية المحيطة بالأسوار، ثم يسرعون بتغطيتها، أو بوضعها تحت غطاء ، ويستخدم مؤرخ لويس الثاني عشر جان دوتون Jean d`Auton مصطلح " sous taudis".

وقد أدى استخدام هذه المدافع المتحركة ، والجلل الحديدية العنيفة إلى أن المدن أصبحت تمثل في الحرب نقط ضعف ، واستمرت الحال على هذا المنوال نحو ثلاثين سنة، فقد كانت الأسوار تتهاوى كما تتهاوى ديكورات المسرح . ثم بدأ رد الفعل تدريجيا، فتلاشت المتاريس الهشة المقامة من الحجارة ، وحلت محلها المتاريس الترابية الكثيفة التي لم تكن ترتفع ارتفاعا كبيرا، فكانت قذائف المدافع تغوص فيها، وتضيع دون جدوى ثم اتخذوا تبات في أكثر المواضع ارتفاعا، أسموها كافالييه cavaliers أي خيالة، وضعوا عليها المدفعية الدفاعية . وهذا هو مستشار الامبراطور شارلكان، ميركوريو جاتينارا Gattinara Mercurio(١٢) ، يشيد بنظام الدفاع الجديد، فيؤكد حول عام ١٥٣٠، أنه لا يحتاج إلا إلى ٥٠ قطعة مدفعية للدفاع عن هيمنة الأمبراطور

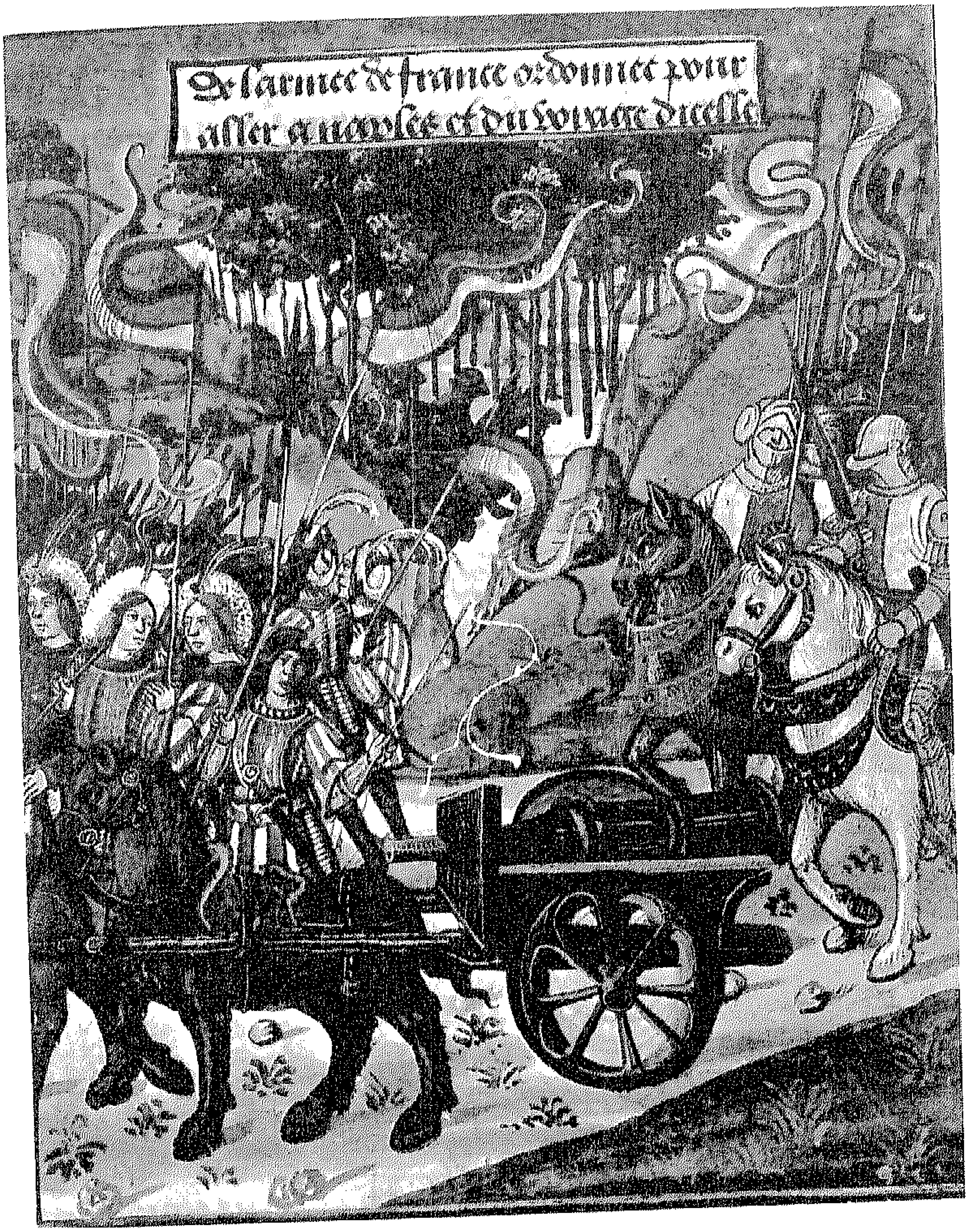

المدفعية تتحرك . مدافع الميدان المحمولة على غنداق ، استخدمها الملك شارل الثامن ، وكانت تسير على الطرق في ربوع ايطاليا مصاحبة للجيش. (صورة مأخوذة من الكتاب الذي أخذت منه الصورة السابقة)

شارلكان، وممتلكاته في ايطاليا، والزود عنها ، وجعلها في مأمن من الفرنسيين(١٣). وقد حدث هذا بالفعل في عام ١٥٢٥، عندما شلت تحصينات بافيا Pavia حركة جيش فرانسوا الأول في عام ١٥٢٥ ، مما أتاح لقوات الامبراطور شارلكان مباغتتها من الخلف في ٢٤ فبراير . وقد تكرر نفس الشيء في عام ١٥٢٤، وعام ١٥٣٦ عندما قاومت مارسيليا قوات شارلكان ؛ وتكرر في عام ١٥٢٩ عندما قاومت فيينا الأتراك؛ وتكرر في عام ١٥٥٢ ـ ١٥٥٣ عندما تصدت ميتس Metz للقوات الامبراطورية.

ولكن هذا لا يعني أن المدن لم يكن من الممكن الاستيلاء عليها بغتة ، فقد سقطت بعض المدن على هذا النحو، منها ديرن Dueren في عام ١٥٤٤، وكاليه في عام ١٥٥٨، وأميان Amiens في عام ١٥٩٦. وأدى بناء القلاع الحصينة إلى ظهوراستراتيجية تقوم على التدبير العلمي لعمليات الحصار والدفاع ؛ حتى إذا جاء فريدريش الثاني ، ونابليون ، رأيناهما يديران ظهريهما تماما لتلك الاستراتيجية ، ويتبعان استراتيجية لا تهتم بالاستيلاء على المدن ، بل تركز على ضرب القوة الحيوية للعدو .

ودخلت التحسينات شيئا فشيئا على المدفعية ، وشملها الترشيد، فحدد شارلكان عيارات المدفعية في عام ١٥٤٤ بسبعة عيارات، ثم حددها الملك هنري الثاني بستة عيارات، وكانت المدافع الكبيرة تستخدم في حصار المدن، أو الدفاع عنها، وكان مدى قصفها ٩٠٠ خطوة ، أما المدافع الأخرى ، التي سميت مدافع الميدان، فكان مداها ٤٠٠ خطوة فقط(١٤). ثم سارالتطور بعد ذلك بطيئا : فقد أخذت فرنسا مثلا بنظام المدفعية الذي ينسب إلى الجنزال دي فاليير Valliere والذي يرجع إلى عصر الملك لويس الخامس عشر ، واستمر هذاالنظام إلى أن أصلحه جريبوفال Gribeauval في عام ١٧٧٦ ، وبقيت المدافع الجميلة التي تفتق عنها هذا الإصلاح، ونراها تستخدم في أثناء حروب الثورة الفرنسية، وحروب الامبراطورية النابليونية.

المدفعية

على متن السفن

اتخذ المدفع مكانه على متن السفن منذ وقت جد مبكر ، ولكنه كان في البداية في صورة غريبة وغير فعالة . من هذا ما نراه في عام ١٣٣٨ من أن السفينة الانجليزية "ماري أوف تاور" Mary of Tower قد اتخذت مدفعا على متنها ، حدث هذا إذن قبل معركة كريسي Crecy التي جرت في عام ١٣٤٦. وما مر ثلاثون عاما - في عام ١٣٧٢ - حتى خرجت ٣٠ سفينة أسبانية من قشتالة ، تهاجم بالمدافع في عرض البحر، أمام ميناء لاروشيل ، سفنا انجليزية ، وتحطمها ، وكانت السفن الانجليزية خالية من المدافع، عاجزة عن الدفاع عن نفسها(١٥). ويقول المتخصصون ، أن السفن الانجليزية أصبح عليها أن تتسلح بالمدافع ، وأن تسليحها بالمدافع أصبح هو القاعدة حول عام ١٣٧٣ فإذا انتقلنا إلى مدينة البندقية لم نجد شواهد تدل على أن السفن الجاليرية الكثيرة المجاديف التابعة لمجلس الرئاسة أو السنيوريا Signoria ، كانت مسلحة بالمدافع في حروبها النكراء ضد جنوة (١٣٧٨) ، أما في عام ١٤٤٠ فلدينا شواهد تدل على أن السفن كانت هناك مزودة بالمدافع؛ كذلك كانت السفن التركية مسلحة بالمدافع، ونعلم على أية حال إنه حدث بالقرب من ساحل جزيرة ليسبوس Lesbos في مياه ميناء

موتيليني Mutilini أن هاجمت سفينة تركية من النوع المسمى سكيراتسو schierazo تزيد حمولتها على ١٥٠ طن (أو ٣٠٠ بوطة botte) أربع سفن جاليرية كثيرة المجاديف تابعة للبندقية ، وقصفتها بدانات من مدفع من النوع الذي كان يسمى بومبارده bombarde فأصابتها ، بينما هي أقوى منها ، بثلاث دانات حجرية تزن الدانة ٨٥ رطل أفرنجي أي نحو ٤٢,٥ كجم(١٦).

وليس من شك في أن تسليح السفن بالمدافع لم يتم بين عشية وضحاها، ولم يتم بسهولة ويسر. فلم تكن السفن تتسلح بمدافع طويلة المواسير ، قادرة على التوجيه المستقيم، والإصابة المباشرة قبل عام ١٥٥٠؛ ولم تظهر المزاغل المستديرة، أو طاقات المدافع في جنبات السفن بشكل منتظم إلا في القرن السادس عشر . وبقيت السفن المسلحة بالمدافع والسفن غير المسلحة بها جنبا إلى جنب ، في نوع من التعايش، برغم الخطر الذي كانت تتعرض له السفن غير المسلحة. ولقد أشرنا من قبل إلى الكارثة التي تعرضت لها السفن الانجليزية غير المسلحة بالمدافع في مياه لاروشيل في عام ١٣٧٢. وفي الوقت الذي كانت فيه سفن القراصنة الفرنسيين، حول عام ١٥٢٠، مسلحة بالمدافع كانت السفن التجارية البرتغالية بغير مدافع . ولنذكر التاريخ جيدا : حول عام ١٥٢٠.

إلا أن تزايد نشاط القراصنة سرعان ما أرغم كل السفن في القرن السادس عشر على التسلح بالمدافع ، بتلك الفوهات التي تطلق القذائف النارية، واستخدام مدفعيين متخصصين للعمل عليها . ولم يكن هناك فرق كبير بين السفن التجارية، وبين السفن الحربية من حيث التسلح بالمدفعية ، فقد كانت كلها مسلحة . ومن هنا نفهم المنازعات التي شهدها القرن السابع عشر حول مراسم تحية السفن، فقد كان للسفن الحربية في عصر الملك الرابع عشرالحق في تحية خاصة عندما تدخل الميناء، ودار النقاش حول شرط ألا تكون محملة بالبضائع، ومن هنا كانت المشكلة ، لأن السفن كانت تجارية من حيث حملها للبضائع ، وحربية من حيث تسلحها بالمدافع وأطقمها .

وما لبث تسليح السفن بالمدفعية أن انتشرانتشارا عاما ، وأصبحت له قواعد توشك أن تكون ثابتة محددة ، تنظم النسبة بين: عدد المدافع ، وعدد الأفراد ، والحمولة مقدرة بمعيار الطن البحري. وكانت القاعدة منذ القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر تنص على أن تكون هناك قطعة مدفعية لكل ١٠ أطنان بحرية . وبناء على هذه القاعدة يمكننا القول أن تلك السفينة الانجليزية التي ألقت مراسيها في ميناء بندر عباس في ابريل من عام ١٦٣٨ على الساحل الفارسي، الذي ارتفعت درجة الحرارة فيه ارتفاعا كبيرا، كانت ضعيفة التسليح، فكانت حمولتها تقدر بـ ٣٠٠ طن بحري ، بينما كانت تتسلح بـ ٢٤ قطعة مدفعية فقط. ومن البديهي أن قاعدة العشرة أطنان كانت قاعدة

مرنة ذات طابع عام ، فلم تكن السفن كلها من نمط واحد، ولم تكن المدافع كلها من صنف واحد، وكانت هناك مقاييس أخرى لتقدير التسليح، منها مثلا عدد الأفراد. وإذا نظرنا إلى البحر المتوسط وإلى الطرق الملاحية البعيدة إلى الهند، وإلى السفن الانجليزية التي كانت تسلكها، وجدنا أنها كانت منذ نهاية القرن السادس عشر، مسلحة تسليحا أكثر مما ينبغي، فقد كان عدد ما عليها من أفراد، ومن مدافع أكثر من السفن الأخرى، كذلك كان سطح السفن الانجليزية الذي جهز بالمدافع خاليا من البضائع، مما جعل هذه السفن أكثر قدرة على المناورة والدفاع عن نفسها. وكانت تلك من بين أسباب نجاح هذه السفن الانجليزية(١٧).

وهناك أسباب أخرى. كانت السفينة الضخمة قد ظلت زمانا تتربع على عرش البحار، لأنها كانت أكثر أمنا، أكثر تمكنا من الدفاع عن نفسها ، بما تسلحت به من مدافع كثيرة عالية العيار. حتى إذا أهل نجم القرن السادس عشر راجت السفن الصغيرة رواجا " تجاريا " مذهلا لأنها كانت أسرع في الشحن ، والتفريغ ، فلم تكن "تنام" طويلا في الموانيء ، كما حققت رواجا " عسكريا " لأنها نجحت في أن تتخذ لنفسها تسليحا أفضل . وهذا ما شرحه الفارس دي رازيي de Razilly في نوفمبر من عام ١٦٢٦ للوزير ريشيليو، قال : " لقد كان السبب الذي جعل السفن الضخمة فيما مضى مهابة الجانب هو تسلحها بالمدافع الضخمة ، في الوقت الذي لم تكن السفن المتوسطة فيه تحمل إلا المدافع الصغيرة ، التي لم تكن لها القدرة على إعطاب السفن الكبيرة . أما الآن فقد أتيح لنا هذا الاختراع الجديد الذي يعتبر جوهر البحرية الحق، وأصبح في مقدور السفينة التي تتسع لثلاثمائة طن بحري أن تحمل نفس المدافع القوية التي تحملها السفينة ذات الثمانمائة طن بحري"(١٨). بل إن السفينة الكبيرة أوشكت، عند حدوث الاشتباكات، أن تكون أسوأ حالا من السفينة الصغيرة : لأن السفينة الصغيرة كانت أسرع حركة، وأيسر استجابة للمناورة ، فكانت تستطيع على راحتها أن تصيب السفينة الكبيرة في مقتل . وإنما حقق الهولنديون والانجليز ما حققوا من نجاح، وانتصار في بحار العالم السبعة لأنهم اعتمدوا على السفن المتوسطة والصغيرة .

البارودة والبرقيلة والبندقية

ليس في مقدورنا على الإطلاق أن نحدد على نحو دقيق متى ظهرت البندقية المسماة بالبارودة أو الأركبوزة arquebuse، وأغلب الظن أنها ظهرت حول نهاية القرن الخامس عشر، وكانت موجودة بالفعل في مستهل القرن السادس عشر، ففي عام ١٥١٢ عندما حوصرت مدينة بريشيا Brescia الايطالية ، " أخذ المدافعون عنها يطلقون مدافعهم

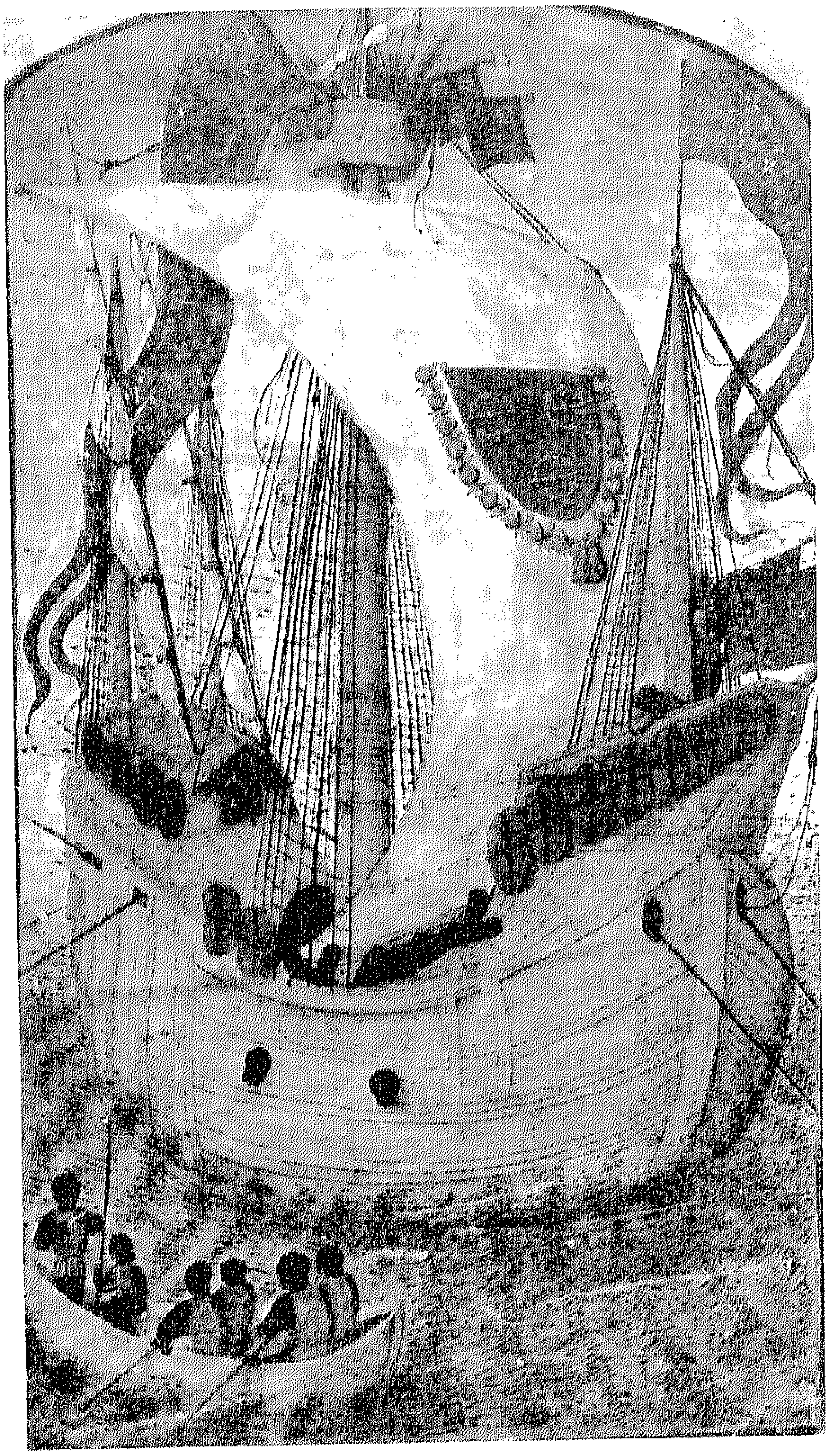

مدفعية بحرية : سفينة مسلحة بالمدافع تحت قيادة الأدميرال لوي ماليه Louis Malet، سير دي جرافيل sire de Graville (المتوفي في عام ١٥١٦) . من مخطوط " الفارس الهمام " Le chevalier delibre وهو من تأليف أولفييه دي لا مارش Olivier de la Marche محفوظ في متحف كونديه بشانتيي condéa chantilly

وباروداتهم التي كانت طلقاتها تنهمر كثيفة كأسراب الذباب"(١٩). لم تكن المدافع الأولى المسماة بومباردة bombarde ولا تلك التي سميت كوليفرينة couleuvrine (حرفيا = الثعبانية) هي التي أنهت وجود الفرسان القدامي، بل كان الرماة المسلحون

بالبارودة هم الذين حلوا محل الفرسان ، بينما كانت المدافع قد ضعضعت أهمية القلاع الحصينة، وأرهبت المدن حينا . ونقر أن بطل معركة بريشيا ، النبيل بايار Bayard قد خر صريعا عندما أصابته طلقات البارودة في عام ١٥٢٤. وعلق مونلوك Monluc فيما بعد على هذه الحادثة الأليمة قائلا : " رباه ، ليتهم لم يخترعوا هذه العدة النكر "، وذكر أنه جمع في عام ١٥٢٧ للقائد دي لوتريك de Lautrec وحملته، التي منيت بالفشل عند نابلي، ما بين ٧٠٠ و ٨٠٠ رجل من إقليم جاسكونيا ، " وقد أنجزت هذه المهمة في أيام قليلة [...] وكان من بين هؤلاء الرجال نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ من الرماة بالبارودة الأركبوزة، وهو عدد يكاد يتجاوز عدد الرماة بالبارودة في فرنسا في مجموعها"(٢٠).

توحي هذه الملحوظات ، وغيرها بأن الجيوش التي أتيحت لفرنسا كانت في بداية هذا

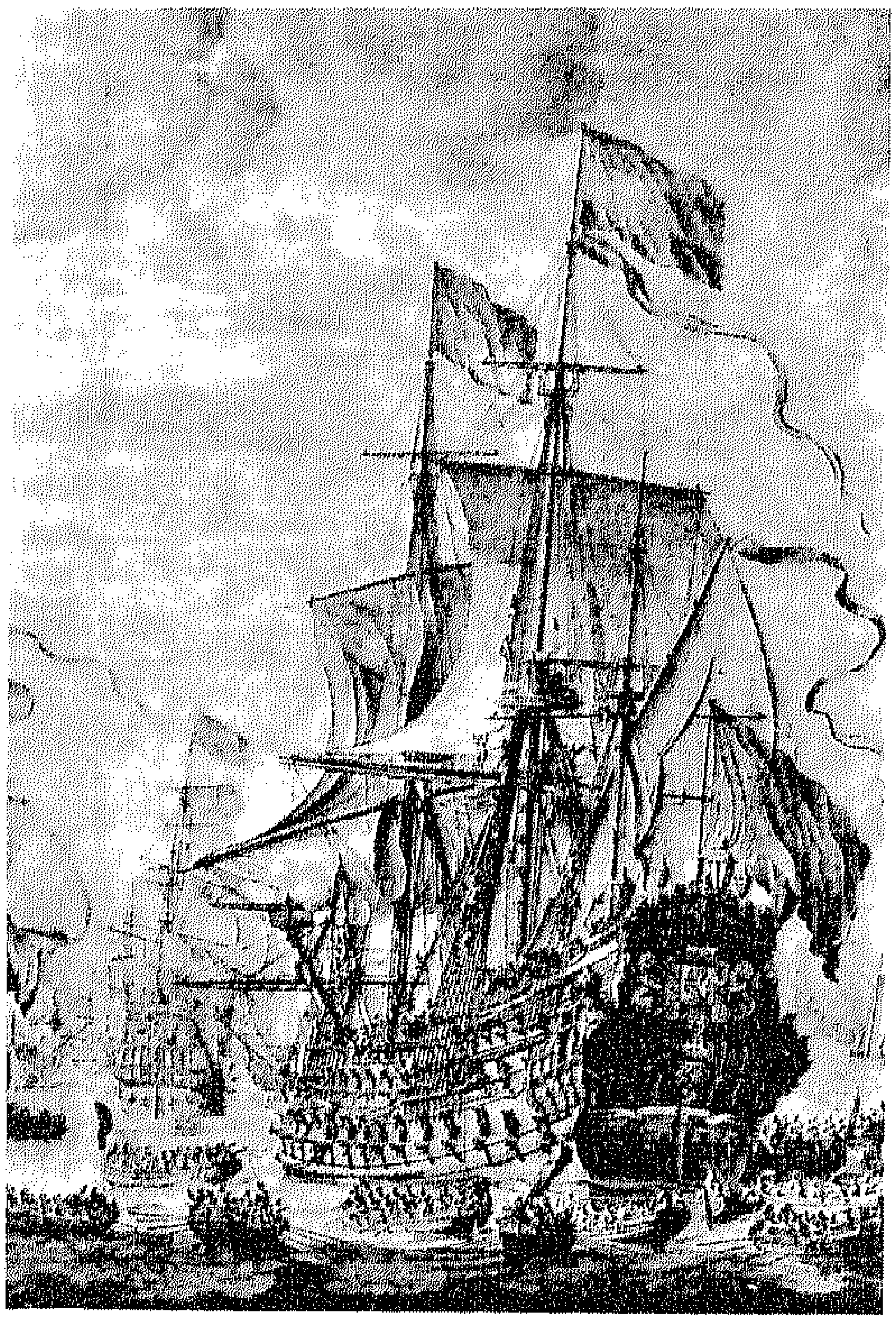

السفينة المسماة " الأقاليم السبعة " De Zeven Provincien ، وهي سفينة القيادة ، تحت إمرة الأدميرال دي روتر De Ruyter(١٦٠٧-١٦٧٦) وكانت مسلحة بعدد كبير من المدافع .(المتحف القومي في أمستردام)

التحول متأخرة عن الجيوش الألمانية ، والايطالية وبخاصة عن الأسبانية. ويشهد على ذلك أن الكلمة الفرنسية الدالة على البارودة الأركبوزة : هاكيبوت haquebute كانت تحويرا للكلمة الألمانية هاكينبوكسه Hackenbuechse، ثم حورت مرة ثانية عن الايطالية أركيبوجو archibugio فأصبحت الكلمة أركيبوز arquebuse . ونلاحظ أن هذا التردد في صياغة الكلمة الفرنسية تردد له دلالته . وهناك أسباب كثيرة تفسر الهزيمة الساحقة التي مني بها الفرنسيون في معركة بافيا Pavia بايطاليا في عام ١٥٢٥، منها القذائف الثقيلة التي كانت تطلقها البارودات الأسبانية . وكانت النتيجة أن الفرنسيين ضاعفوا عدد رماة البارودة في جيوشهم ، فكانت نسبة رماة البارودة إلى رماة الرماح ١:٢ . أما القائد الأسباني الدوق دالبا Alba فقد ذهب إلى أبعد من هذا، حيث قسم فرق المشاة في هولندة إلى مجموعتين متساويتين في العدد : مجموعة رماة البارودة، ومجموعة رماة الرماح .أما في ألمانيا في عام ١٥٧٦ فكانت نسبة الرماة بالرماح إلى الرماة بالبارودة ٥:٣ .

والحق أن القضاء على الرمح كان ضربا من المحال ، وكانوا حتى القرن السابع عشر يسمون الرمح la pique" ملكة الأسلحة " (الكلمة الفرنسية التي تعني رمح مؤنثة)، لأن إطلاق البارودة كان يتطلب وقتا طويلا، فقد كان من الضروري سندها على حمالة، ثم تعميرها بالبارود، وإشعال الفتيلة ، فإذا انطلقت القذيفة ، كان من الضروري تفريغ البارودة ، وإعادة الكرة . وحتى عندما ظهرت البندقية السماة بالبرقيلة أو الموسكيتة mousquet قرر الملك السويدي جوستاف أدولف أن تكون نسبة الرماة بالبارودة أو البرقيلة إلى الرماة بالرمح ٢:١ . ولم يحدث تغيير حقيقي إلا بعد اختراع البندقية fusil التي كانت برقيلة أو موسكيتة محسنة ، تفتقت عنها قريحة المصممين في عام ١٦٣٠ ، ولم يستخدمها الجيش الفرنسي إلا في عام ١٧٠٣ ؛ وبعد استخدام الخرطوشة المغلفة بالورق التي أدخلها الأمير الناخب الكبير ـ der Grosse Kurfuerst فريدريش فيلهلم Friedrich Wilhelm أمير براندنبورج بروسيا ـ في تسليح قواته منذ عام ١٦٧٠ ولم يأخذ بها الجيش الفرنسي الا منذ عام ١٦٩٠ ؛ وبعد تركيب السونكي على البندقية ، وهو ما أدى إلى القضاء على تقسيم المشاة إلى رماة بالبندقية، ورماة بالرمح. وما أشرف القرن السابع عشر على نهايته حتى كانت فرق المشاة في أوروبا قاطبة مسلحة بالبندقية ذات السونكي ، وهكذا احتاج تطوير البندقية إلى قرنين من الزمان، من البارودة إلى البرقيلة إلى البندقية ثم البندقية ذات السونكي .(٢١).

أما في تركيا فقد سار التطور بخطوات أكثر بطئا. ففي معركة ليبانتو Lepanto البحرية (عام ١٥٧١) كانت السفن الجاليرية التركية تحمل من الرماة بالأقواس أكثر مما كان عليها من الرماة بالبارودة. بل إن السفن التركية الجاليرية التي هاجمت سفينة

برتغالية في عام ١٦٠٣ قرب جزيرة أويبويا Euboia في بحرايجة رشقتها بوابل من السهام " حتى لقد انغرست السهام فيها حتى بلغت السلة أعلى الصاري"(٢٢).

إنتاج الأسلحة والميزانية

أحدثت المدفعية ، والأسلحة النارية تحولا هائلا شمل الحرب بين الدول، والحياة الاقتصادية، والتنظيم الرأسمالي لإنتاج الأسلحة .

وعلى الرغم من أننا نلاحظ نوعا من التركيز الصناعي ترتسم خطوطه شيئا فشيئا، فإن هذا التركيز لم يتخذ صورة حاسمة، وظلت الصناعة الحربية متفرقة متشعبة: كان الذي يصنع البارود ، لا يصنع البارودة أو الأركبوزة ، ولا يصنع السلاح الأبيض، ولا يصنع قطع المدفعية الثقيلة ؛ ثم إن الطاقة اللازمة لصناعة الأسلحة لم تكن رهن الإشارة، يجدها الإنسان حيث يريد، بل كان عليه أن يلتمسها في مياه الأنهار المتدافعة التي تحرك العجلات المائية ، أو في بطون الغابات حيث يتوفر خشب الوقود.

كانت الدول الغنية وحدها هي التي تستطيع تحمل التكاليف الهائلة الخرافية للحرب الجديدة. وكانت هذه التكاليف الهائلة هي السبب في تلاشي المدن الكبيرة المستقلة، التي ظلت زماناطويلا قائمة بذاتها ، قادرة على الوفاء بمتطلبات وجودها ، وكانت على مستوى المسئولية. ولدينا بعض الشواهد على مسار هذا التحول ، فقد كتب مونتني Montaine أنه في أثناء رحلته في ربوع ألمانيا شاهد في عام ١٥٨٠ في مدينة أوجسبورج Augsburg مخازن السلاح (٢٣) ، ولو مر بمدينة البندقية ، لوجد فيها الترسانة الضخمة التي كانت تثير الدهشة ، وكانت عبارة عن صناعة حربية هائلة يشتغل فيها في ذلك الزمان ما يربو إلى ٣٠٠٠ عامل ، كان جرس كاتدرائية سان ماركو الهائل يدق كل يوم من أجلهم دقاته ، حتى يلموا بالعمل مبكرين . هذا ما كان من شأن المدن الكبيرة المستقلة . أما الدول فكان لها بطبيعة الحال ترساناتها هي أيضا، فقد أنشأ فرانسوا الأول ١١ ترسانة، وبلغ عدد الترسانات أو دور الصناعة الحربية في نهاية عصره ١٣ ترسانة . كذلك كانت كل الدول تتخذ لنفسها مخازن كبيرة للأسلحة، كانت مخازن الأسلحة الرئيسية في انجلترة مثلا ، في عصر الملك هنري الثامن، هي مخازن برج لندن، وويستمينستر وجرينتش .وفي أسبانيا كانت سياسة ملوكها الكاثوليك تعتمد على الترسانات التي اتخذوها في مدينة ديلكامبو Medina del Campo، وفي ملقة Malaga(٢٤). أما السلطان العثماني فكانت ترساناته في جالاتا Galata وفي توفانه Tophane. ولكن الترسانات الأوروبية كانت، حتى قيام الثورة الصناعية في أكثر الأحيان، مجموعة متجاورة من الورش أو من الوحدات ، أكثر مما كانت صناعة تقوم

على ترشيد العمل ، والإنتاج المنوط بها . بل كثيرا ما كان العمال الحرفيون يعملون من أجل الترسانة في ورشهم الخاصة التي كانت تباعد بينها مسافات كبيرة . بل لقد كان الحرص أحيانا سببا في إبعاد جزء من أجزاء الترسانة ، هكذا كانوا يبعدون معمل البارود بطواحينه عن المدن . كانوا يقيمون هذه المعامل عادة في المناطق الجبلية ، أو في المناطق القليلة السكان ، مثل كالابريا Calabria الايطالية ، ومنطقة الأيفل Eifel في ألمانيا قرب مدينة كولونيا ، وفي إمارة برج Berg ؛ ونعلم أن منطقة مالميدي Malmedy البلجيكية ، أقيمت بها في عام ١٥٧٦ عشية الثورة على الأسبان ١٢ طاحونة بارود . وكانت كل هذه الطواحين ، حتى تلك التي أقيمت في القرن الثامن عشر، طواحين مائية أقيمت على شاطيء نهر الفوبر Wupper أحد روافد نهر الراين، وكانت تصنع الفحم النباتي الذي تحتاج إليه من خشب شجرة شوكة الصباغين la bourdaine (بالألمانية Faulbaum وباللاتينية rhamnus frangula) وكانت تفضل خشب هذه الشجرة على ما عداه . وكانت الطواحين تطحن الفحم مع الكبريت وملح البارود ، وتنتج البارود الخشن أو البارود الناعم .

وكانت مدينة البندقية، بما عرف عنها من اقتصاد ، متمسكة باستخدام البارود الخشن، وكان الرئيس الأعلى للقلاع هناك يرى في عام ١٥٨٨ أن الأفضل هو" الاقتصار على استخدام البارود الناعم فقط كما يفعل الانجليز ، والفرنسيون ، والأسبان، والأتراك الذين لا يتخذون إلا نوعا واحدا من البارود للبارودة الأركبوزة والمدفع ." كان مجلس الرياسة ـ السينيوريا Signoria ـ في البندقية يختزن في ذلك الوقت ٦ مليون رطل افرنجي من البارود الخشن ، وهي كمية كانت تكفي ٣٠٠ قذيفة لكل قطعة من قطع المدفعية الموجودة في القلاع ، وعددها ٤٠٠ قطعة . أما زيادة القذائف بحيث تكون ٤٠٠ قذيفة لكل مدفع فكان يعني تدبير مليوني رطل إضافي من البارود تتكلف ٦٠٠٠٠٠ جنيه من فئة الدوكات. وكان نخل البارود الخشن للحصول على بارود ناعم يكلف مبلغا إضافيا يساوي ربع المبلغ الأول أي ١٥٠٠٠٠ دوكات ، ولكن البندقية كانت تفضل هذه الطريقة ، لأنها كانت في النهاية أرخص، حيث أن شحنة البارود الناعم كانت تقل بمقدار الثلث عن شحنة البارود الخشن(٢٥).

ونستميح القاريء عذرا لأننا شغلناه بهذا الحساب العتيق، ولكن القاريء خرج على أية حال ببيانات عن نفقات تحقيق الأمن في البندقية ، وكيف أن البارود كان يتكلف مليونا وثمانمائة ألف دوكات ذهبية ، وهو رقم يزيد على الموارد السنوية لميزانية البندقية كلها. ونرى في هذا الرقم دليلا على نفقات الحرب الباهظة ، حتى في الوقت الذي لا تكون فيه حرب. ولقد تعاظمت الأرقام عاما بعد عام : فقد كان أسطول الأرمادا الأسباني Armada، الذي لقب بالأسطول المنيع ، عندما خرج متجها نحو

الشمال في عام ١٥٨٨ يحمل ٢٤٣١ مدفعا، و٧٠٠٠ بارودة ، و١٠٠٠ برقيلة، و١٢٣٧٩٠ قذيفة ، بمعدل ٥٠ قذيفة لكل قطعة مدفعية، واحسب البارود اللازم . كذلك كانت فرنسا في عام ١٦٨٣ تسلح أساطيلها بـ ٥٦١٩ مدفع من الحديد الصب، وكان عدد مدافع الأساطيل الانجليزية ٨٣٩٦ (٢٦).

وبدأت الصناعات المعدنية الحربية في الظهور، في بريشيا ، على أراضي البندقية، منذ القرن الخامس عشر؛ وفي إقليم شتايرمارك Steiermark النمساوي على مقربة من مدينة جراتس Graz؛ وحول مدينة كولونيا في ألمانيا؛ وحول مدينة ريجنسبورج Regensburg في ألمانيا؛ وحول مدينة نوردلينجن Noerdlingen في ألمانيا؛ وحول مدينة زول Suhl (كانت ترسانة ألمانيا تعتبر أهم مركز للصناعة الحربية في أوروبا إلى أن دمرها القائد تيللي في عام ١٦٣٤)(٢٦)؛ وفي سانت اتيين Saint-Etienne حيث ربا عدد العمال في عام ١٦٠٥ عن ٧٠٠ عامل ، في " ترسانة زوج فينوس الأعرج الضخمة" (زوج الربة فينوس هو اله الحرب في الأساطير الأغريقية): وفي السويد أنشئت الأفران العالية في القرن السابع عشر برؤوس أموال من هولندة وانجلترة ، وسرعان ما أصبحت مصانع جير Geer قادرة على إنتاج ٤٠٠ قطعة مدفعية كانت هي التي مكنت الأقاليم الهولندية المتحدة من صد تقدم الأسبان في جنوب دلتا الراين في عام ١٦٢٧(٢٨).

وقد حفز تطورالأسلحة النارية الصناعات النحاسية على صناعة مدافع من البرونز، حيث اتبعت في صبها نفس الطرق المتبعة في صب أجراس الكنائس (واستخدمت سبيكة جيدة تختلف عن سبيكة الأجراس، تتكون من ٨ أجزاء قصدير إلى ٩٢ جزء نحاس، عرفت منذ القرن الخامس عشر). ثم ظهرت المدافع الحديدية منذ القرن السادس عشر، وكانت في الحقيقة مصنوعة من الحديد الزهر . وإذا نحن نظرنا إلى أسطول الأرمادا المنيع ، وجدنا أن عدد المدافع المصنوعة من الحديد فيه كان ٩٣٤ مدفعا من بين مجموع المدافع البالغ عددها ٢٤٣١. كان المدفع الحديدي هو المدفع الرخيص الذي قدر له أن يحل محل المدفع البرونزي الغالي، وأصبح المدفع الحديدي ينتج على نطاق كبير. وتتضح لنا هنا الصلة بين تطورالمدفعية وبين الأفران العالية (ومن بينها الأفران العالية التي أنشأها الوزير كولبير Colbert في إقليم دوفينيه الفرنسي).

والمدفعية لا تتكلف فقط في الانشاء ، والتموين ، ولكنها تتكلف في الصيانة، والنقل.كان للأسبان ٥٠ قطعة مدفعية في الأراضي الواطئة في عام ١٥٥٤ ما بين مدفع، ونصف مدفع ، وقطع من نوع الكوليفرينة couleuvrine ، والسربنتينة serpentine، كانت صيانتها تتكلف شهريا أكثر من ٤٠٠٠ جنيه ذهب من فئة

الجنود المسلحون بالبارودة أو الأركبوزة . جزء من تصور خيالي لمعركة بافيا (١٥٢٥)، من رسم روبريشت هيللر Ruprecht Heller، وكان رساما عمل في ألمانيا حول عام ١٥٢٩. (المتحف القومي باستوكهولم .)

الدوكات. وكان نقل هذه القطع الخمسين يحتاج إلى " قافلة صغيرة " من الخيل، قوامها ٤٧٣ حصانا يركبها الخيالة ، و" قافلة كبيرة " من الخيل قوامها ١٠١٤ حصانا، علاوة على أكثر من ٥٧٥ عربة ، تجرها خيول ، بمعدل ٤ خيول للعربة، أي أن المجموع الكلي كان ٣٧٨٧ حصانا، وهو ما يصل بنا إلى نحو ٧٥ حصانا لكل قطعة مدفعية (٢٩). وللمقارنة نذكر أن تكاليف صيانة السفينة الجاليرية كان يبلغ ٥٠٠ جنيه ذهب من فئة الدوكات شهريا (٣٠).

المدفعية

على مستوى العالم

نلاحظ على مستوى العالم أن التقنية في حد ذاتها لها قيمتها، ولكن يجب أن نضيف إلى التقنية أيضا طريقة استخدامها ـ فقد كان الأتراك ممتازين في التعامل في أثناء الحرب مع الأرض ، لا يضارعهم أحد في حفرالخنادق عند الحصار، وكانوا يجيدون الضرب بالمدافع ، ولكنهم لم ينجحوا حول عام ١٥٥٠ في استخدام طبنجات اليد الواحدة الثقيلة التي سلح بها الخيالة (٣١) . كذلك تخلفوا في مجال آخر، يحدثنا عنه بعض الثقاة ، فقد تحدث شاهد رآهم إبان حصار مالطة في عام ١٥٦٥ فقال " إنهم لا يعمرون البارودة بنفس السرعة الخاطفة التي يعمرها بها رجالنا ". وننتقل مع رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero إلى اليابانيين الذين كان معجبا بهم ، فنجده يقول أنهم لا يعرفون كيف يستخدمون مدفعيتهم، ويضيف قوله، إن ملح البارود عندهم ممتاز ، ولكن البارود الذي يصنعونه منه رديء . ويقول الأب دي لاس كورتيس de las Cortes عن الصينيين في عام ١٦٢٦: أنهم عندما يطلقون قذائف البارودة لا يستخدمون الكمية الكافية من البارود (٣٢) ، والبارود عندهم ـ كما قال شاهد آخر في وقت لاحق ـ رديء وخشن ، ولا يصلح على أكثر تقدير إلا لطلقات التحية. أما في المناطق الجنوبية من الصين فقد أدخلت إليها في عام ١٦٩٥ التجارة مع الأوروبيين " بنادق طولها سبعة أشبار تطلق مقذوفا صغيرا جدا ، وتستخدم للتسلية أكثر مما تستخدم في شيء جاد " (٣٣).

فلا عجب أن تنبه الناس في أوروبا إلى أهمية مدارس المدفعية التي انتشرت في المدن، وبخاصة في المدن التي يشعر أهلها بأنهم مهددون ، والتحق بهذه المدارس تلاميذ المدفعية الذين كانوا يذهبون كل أحد إلى ميادين الرماية ، تسبقهم في الذهاب والإياب فرق موسيقية . وعلى الرغم من شدة الطلب فإن أوروبا لم تفتقد المدربين على المدافع، وعلى بنادق البارودة ، وكذلك المعلمين في صناعة صب المدافع . وكان هؤلاء يجوبون العالم، نجدهم في تركيا ، وشمال أفريقيا، وفارس ، والهند، وسيام ، والجزر المحيطية،

ومسكوفيا . كان المدفعيون في الهند في عصر الخان الأعظم ، وحتى وفاة أورينج زيب في عام ١٧٠٧، مرتزقة من أوروبا ، ثم حل محلهم مسلمون، ولم يكن ذلك إجراء حكيما .

كانت هذه الرحلات التي قام بها الفنيون سببا في انتفاع الجميع بثمرات التقنية، وينطبق هذا الكلام على أوروبا خاصة ، حيث كانت ألوان النجاح التي تحققت تبرز تارة في هذا الجانب ، وتارة في ذلك ، فأتاحها تنقل الفنيين للجميع . وإذا كانت معركة روكروا Rocroi في عام ١٦٤٣ تعتبر، في رأي البعض ، شاهدا على انتصار المدفعية الفرنسية (وهو ما نشك فيه) فلم تكن، على أفضل التقديرات ،انتصارا لم ينل مثله الآخرون (ولنذكر ما فعله الرماة بالبارودة في الفرنسيين إبان معركة بافيا) ، هكذا كانت الأمور تسير: يوم لك ، ويوم عليك . والشيء المؤكد أن المدفعية لم تخلق اختلالا دائما في توازن القوى لصالح هذا الأمير أو ذاك . والمؤكد أيضا أنها رفعت تكاليف الحرب، ورفعت تبعا لذلك أهمية الدولة ، ودورها الفعال، كما زادت أرباح المقاولين ورجال الأعمال ومن على شاكلتهم . كذلك عادت المدفعية على أوروبا بالتميز والتفوق: وبخاصة على الحدود البحرية للشرق الأقصى ، وفي أمريكا ، التي لم يكن للمدفع فيها سوى دور صغير ، وإنما كانت البارودة هناك صاحبة الكلمة المسموعة .

كذلك كان الأمر بالنسبة للبلدان الإسلامية ، التي مكنتها المدافع تارة من النصر، وتسببت لها في الهزيمة تارة أخرى . فقد سقطت غرناطة في عام ١٤٩٢، واحتل الأسبان بعض حصون شمال أفريقيا في الأعوام ١٤٩٧، و١٥٠٥ ، و١٥٠٩ـ١٥١٠، كذلك استولى ايفان الرهيب على بلاد كانت في أيدي المسلمين هي كازان في عام ١٥٥١، واستراخان في عام ١٥٥٦ . وفي الناحية المقابلة انتصر الأتراك ، واستولوا على القسطنطينية في عام ١٤٥٣، وعلى بلغراد في عام ١٥٢١ ، وعلى موهاتش Mohacs جنوب المجر في عام ١٥٢٦ . وكانت حروب الأتراك تنعم بما غنمته من قطع المدفعية المسيحية (غنم الأتراك ٥٠٠٠ قطعة مدفعية من عام ١٥٢١ إلى عام ١٥٤١) وأحدث الأتراك بنيران المدفعية رعبا فاق المألوف في ذلك الزمان ، فقد تجمعت المدفعية التركية في معركة موهاتش في قلب ميدان القتال وقسمت خط الحشود المجرية إلى قسمين ؛ وبلغت قذائف المدافع التركية التي سقطت على القوات المدافعة عن مالطة في عام ١٥٦٥ ستين ألف قذيفة ، أما عدد القذائف التي أمطر بها الأتراك فاماجوسته من عام ١٥٧١ الى عام ١٥٧٢ فكانت ١١٨٠٠٠ قذيفة . أتاحت المدفعية للأتراك تفوقا ساحقا على بقية بلدان العالم الإسلامي فاجتاحوا سوريا في عام ١٥١٦، ومصر في عام ١٥١٧، وكان لها دور بارز في المعارك ضد الفرس، فقد قصفت المدفعية

التركية مدينة تبريز الفارسية الكبيرة طوال ثمانية أيام بوابل من القذائف فسقطت في عام ١٥٤٨. ولنسجل في سجل المدفعية حملة ظاهرالدين بيبور (الذي يسميه الفرنسيون بابر Baber) الذي توغل في ربوع الهند ، وقهر سلطان دلهي في معركة بانيبات Panipat في عام ١٥٢٦ التي استخدم فيها المدافع ، والبارودات ؛ كذلك نسجل تلك المغامرة الصغيرة التي جرت في عام ١٦٣٦، عندما أطلقت ثلاثة مدافع مصنوعة في البرتغال قذائفها من فوق سور الصين العظيم فشتت الجيش المنشوري المهاجم، واضطرته إلى الفرار، ومكنت آل منج Ming من الاحتفاظ بسلطانهم في الصين نحو عشر سنوات أخرى .

وإذا لم نكن قد استعرضنا البيانات كلها ، فإن تلك التي عرضناها تتيح لنا أن نخرج ببعض الاستنتاجات، فالمدفعية لم تستطع أن تقلب أوضاع الحدود التي ارتسمت حول التجمعات الثقافية الكبيرة ، فقد كانت المعارك تتيح التقدم حينا، ثم تمنى بالتقهقر حينا آخر، وهكذا بقي العالم الإسلامي حيث كان، ولم يصل أحد إلى أعماق الشرق الأقصى؛ فلم تدر رحى معركة بلاسي Plassey بالهند إلا في عام ١٧٥٧، تلك المعركة التي انتصرت فيها القوات البريطانية، وبدأت منها الهيمنة البريطانية . كذلك نلاحظ أن المدفعية انتشرت في كل مكان شيئا فشيئا، تحركت بقوتها الذاتية، فبدأت تظهر فوق متن سفن القراصنة اليابانيين منذ عام ١٥٥٤ ؛ حتى إذا بدأ القرن الثامن عشر لم يكن هناك قرصان من الملايو إلا وقد اتخذ مدفعا على سفينته .

من الورق
إلى المطبعة

أتى إلينا الورق من بلاد بعيدة ، بعيدة جدا، هي الصين، نقلته إلى الغرب البلاد الإسلامية. ودارت مراوح طواحين معامل الورق في أسبانيا في القرن الثاني عشر. ولكن صناعة الورق الأوروبية لم تبدأ إلا في مطلع القرن الرابع عشر، منطلقة من ايطاليا. فقد كانت هناك في المنطقة المحيطة بفابريانو Fabriano منذ القرن الرابع عشر عجلة هيدروليكية تتحرك بقوة جريان الماء وتشغل ما سمي " بالمضارب " battoirs، وكانت عبارة عن مدكات ضخمة ، أو شواكيش من الخشب ، ركبت عليها شفرات، ومسامير لهرس وتفتيت الخرق البالية التي كان الورق يصنع منها(٣٥).

وكان الماء يستخدم كقوة محركة لهذه الطواحين أو العجلات المائية ، وكان يدخل كذلك كمكون من مكونات الإنتاج . ولما كانت صناعة الورق تتطلب كميات ضخمة من الماء النقي فقد كانت تتمركز على شواطيء الأنهار السريعة الجريان ، على مسافة من المدن، التي ربما لوثت مياه الأنهار . كان ورق البندقية يتم إنتاجه حول بحيرة جارد

Garda. وأنشئت في منطقة الفوج Vosges في وقت مبكر معامل الورق ؛ كذلك أنشئت معامل للورق في منطقة شامبانيا ،التي كانت مدينة طروا Troyes مركزا لها؛ وحدث نفس الشيء في منطقة دوفينيه(٣٦). وقد لعب العمال والرأسماليون الايطاليون دورا كبيرا في انتشار معامل الورق في فرنسا . أما المادة الأولية، فمن حسن الحظ أنها كانت متوفرة ، فلم تكن هذه المادة الأولية سوى الخرق البالية، ولقد كانت متوفرة لأن زراعة الكتان والقنب نمت واتسعت في أوروبا منذ القرن الثالث عشر. وكانت البياضات المصنوعة من التيل قد حلت محل البياضات الصوفية القيمة، إذا افترضنا أنها كانت موجودة أصلا. يضاف إلى ذلك أن الحبال القديمة البالية كان من الممكن استخدامها مادة أولية (على نحوما كانوا يفعلون في جنوة)(٣٧). وما لبثت الصناعة الجديدة أن ازدهرت إلى الحد الذي واجهت فيه صعوبات في الحصول على كميات المواد الأولى اللازمة لها ، حتى لقد تفجرت القضايا بين صناع الورق ، وجامعي الخرق البالية ، الذين كانوا جوالين تشدهم المدن الكبيرة ، أو تجذبهم شهرة هلاهيل هذه المنطقة أو تلك ، مثل هلاليل بورجونديا .

لم يكن للورق ما للرق أو البارشمان من متانة وجمال، ولكنه كان يتفوق على الرق من ناحية السعر. كان المخطوط الذي يعد ١٥٠ صفحة يحتاج إلى رق أو بارشمان من جلود نحو ١٢ نعجة(٣٨) " ومعنى هذا أن عملية النسخ نفسها كانت أقل البنود في التكلفة الكلية ". والحقيقة أن ما يمتاز به الورق من مرونة وتجانس كان يؤهله مقدما ليكون هو الحل الوحيد لمشكلة الطباعة . أما الطباعة فكان كل شيء قد تهيأ ومهد أمامها سبيل النجاح . فمنذ القرن الثاني عشر زاد عدد القراء زيادة كبيرة في جامعات أوروبا ، وفي خارج جامعات أوروبا أيضا . كان هناك جمهور نهم إلى الاطلاع، بث النشاط في مكاتب النساخين ، وضاعف عدد النسخ الصحيحة ، مما دعا إلى البحث عن طريقة سريعة لإنتاج نسخ عديدة ، منها تكرارالنسخ المشفوفة بالألوان ، وكان التلوين بهذه الطريقة يستخدم على الأقل في استنساخ أرضية الرسوم. وكانت هذه الوسائل السريعة للاستنساخ تنتج " طبعات " بمعنى الكلمة ، طبعات كثيرة النسخ، منها كتاب" رحلة ماندفيل " Voyage de Mandeville الذي تم استنساخه في عام ١٣٥٦، وصلت إلينا منه ٢٥٠ نسخة (٧٣ بالألمانية والهولندية ، ٣٧ بالفرنسية ، ٤٠ بالانجليزية، ٥٠ باللاتينية)(٣٩).

اكتشاف

الحروف المتحركة

ليس المهم أن نحدد بالضبط من الذي قام في الغرب، حول منتصف القرن الخامس

عشر، باختراع حروف الطباعة المتحركة، هل كان هو الألماني ابن مدينة ماينتس Mainz يوهان جوتنبرج Gutenberg ومساعدوه (وهو الأرجح)؟ أم هل كان هو ابن مدينة براغ بروكوب فالدفوجل Procope Waldfogel الذي كان يقيم في مدينة أفينيون الفرنسية ؟ أم هل كان هو كوستر دارليم Coster d`Harlem. على فرض أنه كان موجودا أصلا ؟ أم هل كان هذا أو ذاك المجهول ؟ إنما يتلخص جوهر المشكلة، على الأحرى، في تبيان ما إذا كان هذا الاكتشاف ابتداعا، أو تقليدا ، أو إعادة اكتشاف.

فقد عرفت الصين الطباعة منذ القرن التاسع عشر ، وكانت اليابان في القرن الحادي عشر تطبع طائفة من الكتب البوذية، ولكن هذه الطباعة الأولى كانت تتم باستخدام ألواح خشبية محفورة ، فكانوا يحفرون لوحا لكل صفحة ، وكانت هذه الطريقة بطيئة أشد البطء . ثم خطرت الفكرة الثورية ، فكرة استخدام حروف منفصلة، متحركة، تضم بعضها إلى البعض، ببال بي شينج Pi Cheng بين عام ١٠٤٠ و١٠٥٠، وصنع هذه الحروف من الفخار السراميك ، وكان يضمها معا على قالب من المعدن، ويثبتها بالشمع.. ولم تنتشر هذه الطريقة، كذلك لم تنتشر الطريقة التي تلتها، والتي كانت تستخدم حروفا من القصدير المصبوب ، سرعان ما كان التلف يصيبها . إلا أن الحروف الخشبية المنفصلة المتحركة شاعت في مستهل القرن الرابع عشر ، وانتشرت إلى أن وصلت إلى التركستان . حتى إذا وصلنا إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر وجدنا الحروف المصنوعة من المعدن قد دخلت عليها التحسينات ، في الصين، أو في كوريا، وانتشرت انتشارا واسعا في نصف القرن الذي سبق " اختراع " جوتنبرج(٤٠). فهل انتقل هذا الاختراع من الشـرق الى الغرب ؟ هذا هو الرأي الذي ذهب إليه لوا لي روا Loys Le Roy في كتابه الذي صدر في عام ١٥٧٦ ، وهو رأي ظهر متأخرا أوضح التأخر. يقول : "إن البرتغاليين الذين قاموا برحلات بحرية في جنبات العالم المختلفة " جلبوا من الصين " كتبا مطبوعة بكتابة تلك البلاد ، وأكدوا إن الطباعة كانت معروفة هناك منذ وقت طويل . وقد دفع هذا الكلام البعض إلى الاعتقاد في أن هذا الاختراع جلبه من جلبه ، عبر تارتاريا la Tartarie ومسكوفيا Moscovie إلى ألمانيا، ومنها انتقل إلى المسيحيين الآخرين ." ولكننا نفتقر إلى العنعنة ، أو سلسلة انتقال الاختراع من يد إلى أخرى، حتى جوتنبرج . ولكننا نعرف عن يقين أن عددا كبيرا من الرحالة، والرحالة المثقفين زاروا الصين ، وعادوا منها، مما يضع نسبة اختراع الطباعة إلى أوروبا ضمن الأمور التي يحوطها الشك أكبر الشك .

وأيا كان الأمر ، فسواء كانت الطباعة نقلا ، أو كانت إعادة اختراع، فإن الطباعة الأوروبية ظهرت في وقت بين عام ١٤٤٠، وعام ١٤٥٠، وجاهدت وكابدت، وأدخلت التعديل تلو التعديل، فقد كان من الضروري صناعة الحروف من سبيكة دقيقة

النسبة، تتكون من الرصاص ، والقصدير ، والأنتيمون ، لتكون عالية المقاومة، دون أن تكون مفرطة الصلابة (وجدير بالذكر أن مناجم الأنتيمون لم يتم اكتشافها، على الأرجح، إلا في القرن السادس عشر). كانت عملية صناعة الحروف في حقيقتها ثلاث عمليات متتالية : العملية الأولى هي عملية صناعة سنبك من الصلب المقسى تقسية عالية عليه رسم بارز للحرف؛ العملية الثانية هي عملية استخدام هذه السنبك الصلب في بصم قالب مجوف في أم من النحاس (وربما اتخذت في أحوال نادرة من الرصاص)؛ العملية الثالثة صب السبيكة في قوالب أمهات الحروف للحصول على الحروف التي تستخدم في الطباعة. هذه الحروف يتم " صفها "، وتجميعها على هيئة سطور، تدس بينها شرائح تحدد المسافات بين السطور ، ثم تأتي مرحلة التحبير ، وبعدها الكبس على الورق، فتتم الطباعة . وقد ظهر المكبس ذو البرمقين حول منتصف القرن السادس عشر، وظل على صورته دون تعديل حتى القرن الثامن عشر . وكانت المشكلة الأساسية تتلخص في أن الحروف كانت تستهلك بسرعة ، وكان من الضروري العودة إلى السنابك مرة أخرى، وكانت هي بدورها تستهلك بسرعة ، أو اللجوء إلى تكرارالعمليات الثلاث كلها من جديد. كانت الطباعة في حقيقة أمرها حرفة صياغ(٤٢). فلا غرابة أن يخرج هذا الاختراع الجديد من بين حنايا الصاغة ، وأهلها، لا كما قال البعض، من بين أحضان حرفة الحفر في الخشب، التي كانت تحفر الصفحة كاملة على لوح من الخشب، ثم تحبرها ، وتطبعها، وكانت هذه الطريقة تسمي الاكسيلوجرافيا xylographie . بل إن العكس هو الذي حدث فقد قاوم تجار الرسوم الشعبية ، التي كانت رسومهم تطبع بطريقة الحفر في الخشب، الاختراع الجديد . حتى إذا جاء عام ١٤٦١ قام ألبريشت بفيستر Albrecht Pfister، وكان صاحب مطبعة في مدينة بامبرج Bamberg الألمانية، هو الذي قام لأول مرة بالجمع بين طريقة الطباعة بالحروف المنفصلة المتحركة، وطريقة الحفر في الخشب، ومنذ ذلك الحين لم يعد للمنافسة معنى(٤٣).

وظلت حرفة الطباعة بطيئة التطور ، فكانت في القرن الثامن عشر على الصورة التي كانت عليها في بداياتها تقريبا . حتى حدث تطور كبير " في عام ١٧٨٧ ، عندما ابتكر فرانسوا أمبرواز ديدو Françcois Ambroise-Didot المكبس ، الذي يمكن من طبع الفرخ الكامل، أي وجه الملزمة ، بلفة بريمة واحدة . وكانت المطبعة قد بقيت حتى ذلك التاريخ على حالها الأول ، حتى أن جوتنبرج لو بعث حيا، ودخل مطبعة في فرنسا في الوقت الذي جلس فيه لويس السادس عشر على عرشها ، لظن على التو أنه في مطبعته التي ألفها، لم يتغير فيها إلا بعض التفصيلات الضئيلة "(٤٤).

انتشر اختراع المطبعة في ربوع العالم . وكما فعل صناع المدافع ، عندما خرجوا يضربون في الأرض بحثا عن عمل في أي مكان، كذلك خرج أرباب الطباعة الجديدة

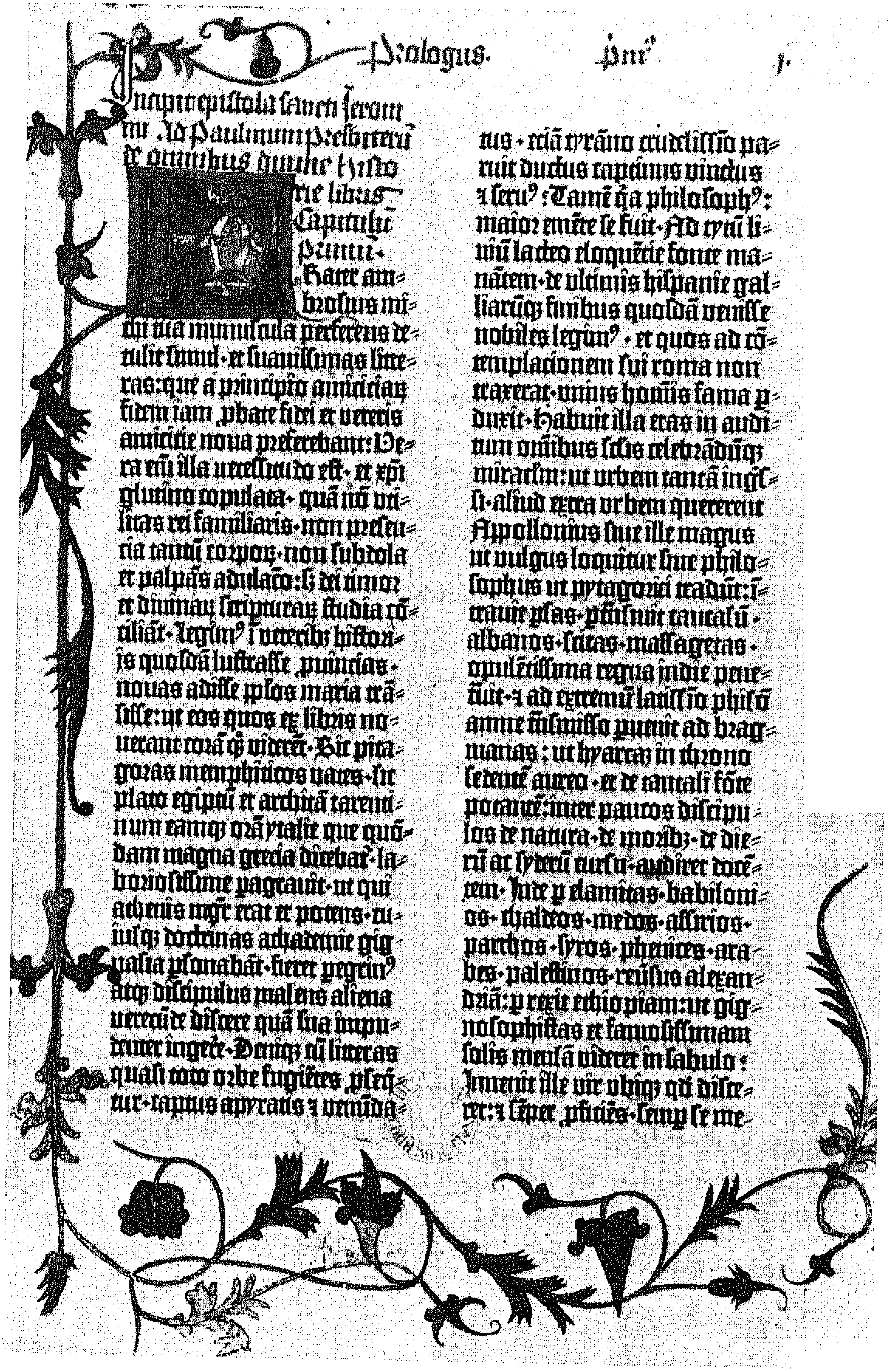

Prologus. I.

Incipit epistola sancti Ieronimi ad Paulinum presbiterum de omnibus divine historie libris. Capitulum primum.

Frater Ambrosius tua michi munuscula perferens detulit simul et suavissimas litteras: que a principio amicitiarum fidem iam probate fidei et veteris amicitie nova preferebant. Vera enim illa necessitudo est et Christi glutino copulata, quam non utilitas rei familiaris, non presentia tantum corporum, non subdola et palpans adulatio: sed dei timor et divinarum scripturarum studia conciliant. Legimus in veteribus historiis quosdam lustrasse provincias, novos adisse populos, maria transisse: ut eos quos ex libris noverant coram quoque viderent. Sic pitagoras memphiticos vates, sic plato egiptum et architam tarentinum eamque oram ytalie que quondam magna grecia dicebatur laboriosissime peragravit: ut qui athenis magister erat et potens, cuiusque doctrinas achademie gignasia personabant, fieret peregrinus atque discipulus, malens aliena verecunde discere quam sua impudenter ingerere. Denique cum litteras quasi toto orbe fugientes persequitur, captus a piratis et venundatus etiam tyranno crudelissimo paruit, ductus captivus vinctus et servus: tamen quia philosophus maior ementi se fuit. Ad titum livium lacteo eloquentie fonte manantem de ultimis hispanie galliarumque finibus quosdam venisse nobiles legimus, et quos ad contemplationem sui roma non traxerat, unius hominis fama perduxit. Habuit illa etas inauditum omnibus seculis celebrandumque miraculum: ut urbem tantam ingressi aliud extra urbem quererent. Apollonius sive ille magus ut vulgus loquitur sive philosophus ut pytagorici tradunt: intravit persas, pertransivit caucasum, albanos, scitas, massagetas, opulentissima indie regna penetravit, et ad extremum latissimo phison amne transmisso pervenit ad bragmanas: ut hyarcam in throno sedentem aureo et de tantali fonte potantem inter paucos discipulos de natura, de moribus, de cursu dierum et siderum audiret docentem. Inde per elamitas, babilonios, chaldeos, medos, assirios, parthos, syros, phenices, arabes, palestinos reversus alexandriam: perrexit ethiopiam, ut gignosophistas et famosissimam solis mensam videret in sabulo. Invenit ille vir ubique quod disceret, et semper proficiens semper se me-

الصفحة الأولى من المجلد الأول من الكتاب المقدس ، بسطورها الستة والثلاثين ، وزخارفها المرسومة باليد ، من طبعة جوتنبرج التي أتمها في مدينة بامبرج حول عامي ١٤٥٨ و ١٤٥٩ ، وتعرف هذه الطبعة باسم جوتنبرجبيبل Gutenbergbibel.

يحملون معهم معداتهم ، ويبحثون عن حظهم في بلاد الله، فحطوا رحالهم حيثما وجدوا ظروفا مواتية، ثم كانوا يرحلون من جديد إذا وجدوا كريما آخر يحسن وفادتهم. فعرفت باريس الطباعة ، وظهر فيها أول كتاب مطبوع في عام ١٤٧٠، أما أول كتاب طبع في ليون فقد ظهر في عام ١٤٧٣ ، في بواتييه في عام ١٤٧٩ ، في البندقية في عام ١٤٧٠، في نابلي في عام ١٤٧١، في لوفن Leuven في عام ١٤٧٣ ، في كراكاو في عام ١٤٧٤. وزاد عدد المدن الأوربية التي عرفت المطبعة في عام ١٤٨٠ عن ١١٠ مدينة. وانتقلت المطبعة من عام ١٤٨٠ إلى عام ١٥٠٠ إلى أسبانيا، وزاد انتشارها في ألمانيا ، وايطاليا ، وبلغت البلاد الاسكندنافية . حتى إذا جاء عام ١٥٠٠ وجدنا المطابع في ٢٣٦ مدينة أوروبية(٤٥).

ولدينا احصاء عن الكتب التي تسمى بـ " الكتب المهد " incunables. وهي الكتب التي طبعت قبل عام ١٥٠٠ ـ يبين أن عدد نسخها يبلغ في مجوعه عشرين مليون نسخة. وكان عدد سكان أوروبا آنذاك نحو ٧٠ مليون نسمة. وزادت سرعة ظهور الكتب في القرن السادس عشر : ٢٥٠٠٠ طبعة في باريس ، ١٣٠٠٠ في ليون، ٤٥٠٠٠ في ألمانيا ، ١٥٠٠٠ في البندقية ، ١٠٠٠٠ في انجلترة ، حوالي ٨٠٠٠ في الأراضي الواطئة . ولنا أن نفترض أن الطبعة كانت في المتوسط ١٠٠٠ نسخة ؛ فإذا كان العدد الكلي للطبعات في أوروبا بين ١٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ طبعة، فان عدد الكتب كان بين ١٤٠ و ٢٠٠ مليون نسخة . ولم يكن عدد سكان أوروبا، عندما أشرف القرن السادس عشر على نهايته، يزيد على ١٠٠ مليون بما في ذلك الأماكن الحدودية المسكوفية(٤٦).

وصدرت أوروبا الكتب، والمطابع إلى أفريقيا وأمريكا. أما بلاد البلقان، فقد دخل إليها عن طريق البندقية عمال الطباعة الجائلون القادمون من الكرنا جورا Crna Gora في الربوع الصربية الكرواتية التي تعرف أيضا باسم مونتنيجرو Montenegro. وأما القسطنطينية فقد كان اليهود الذين لاذوا بها هم الذين أدخلوا إليها المطابع التي استوردوها من الغرب. ويرجع الفضل إلى الرحلات الملاحية البرتغالية في إدخال المطابع والحروف المنفصلة المتحركة إلى الهند ، وبطبيعة الحال إلى جوا Goa العاصمة (في عام ١٥٥٧)، ثم إلى ماكاو Macao (في عام ١٥٨٨) جنوبي كانتون بالصين، ثم ناجازاكي (في عام ١٥٩٠)(٤٧). وإذا كان اختراع الطباعة قد جاء في بداياته من الصين، فهاهوذا يتم دورته حول الدنيا، ويعود إلى نقطة انطلاقه .

الطباعة
وتاريخ العالم

كان الكتاب في ذلك الزمان ترفا، خضع في البداية للقوانين الصارمة التي تحكم

الربح، والعرض، والطلب . وكان على المطبعة أن تغير مرارا وتكرارا الحروف التي تستخدمها، وما إليها من معدات، وكانت تدفع أجورا مرتفعة للعمال الحرفيين ، وكانت تكاليف الورق تمثل أكثر من ضعف تكاليف البنود الأخرى ، وكان عائد المبالغ المستثمرة في الطباعة بطيئا ، وكانت كل هذه الأمور تضع المطبعة تحت رحمة أصحاب الديون، الذين ما لبثوا أن سيطروا على توزيع الكتب ، وتربعوا تربع السادة على كراسي شبكات التوزيع . وأصبح لعالم النشر منذ القرن الخامس عشر رجاله الكبار من أشباه آل فوجار Fugger، ولكن على نطاق ضيق (كان لآل فوجار منذ مطلع القرن السادس عشر تقريبا هيمنة على عالم التجارة في مدينة أوجسبورج الألمانية ثم اتسع نفوذهم اتساعا كبيرا فأصبحوا مضرب الأمثال) : فظهر بارتيليمي بروير Barthelemy Bruyer (المتوفي في عام ١٤٨٣) في مدينة ليون ، وظهر في باريس أنطوان فيرار Antoine Verard الذي كان أصلا معلما على رأس محل لكتابة المخطوطات متخصص في فن الخطوط ، وفي زخرفة المستنسخات ، فلما جاءت المطبعة أدخل طرقها الجديدة ، وتخصص على مستوى فرنسا وانجلترة في طباعة الكتب ذوات الرسوم ؛ وعرف عالم النشر في فلورنسا آل جونتا Giunta ؛ وبرز في مدينة نورنبرج الألمانية أنطون كوبرجر Anton Koberger، الذي نشر بين عام ١٤٧٣، وعام ١٥١٣ مالا يقل عن ٢٣٦ كتابا، وربما كان هو أقوي الناشرين جميعا في زمانه ؛ ونذكر جان بيتي Jean Petit الذي كان سيد سوق الكتاب على مستوى باريس في مستهل القرن السادس عشر؛ أو الناشر ألدو مانوتشي Aldo Manuce في مدينة البندقية (توفي عام ١٥١٥) ؛ ونختم الأسماء التي تمثلنا بها باسم بلانتان Plantin، الذي ولد في تورين بفرنسا عام ١٥١٤ ، وانتقل الى أنتفربن Antwerpen في عام ١٥٤٩ حيث أنشأ مطبعته ، وذاع صيته ، وأصبح يشار اليه بالبنان(٤٣).

والكتاب سلعة، ولهذا ارتبط أمره بالطرق، والتجارة، والأسواق الموسمية: فكانت هناك في القرن السادس عشر سوق ليون، وسوق فرنكفورت ؛ وشهد القرن السابع عشر سوق لايبتسيج. ثم إن الكتاب كان ، بصفة عامة ، عاملا من عوامل القوة في خدمة الغرب والفكر أيا كان ، يعيش على الاتصال والتبادل . وهكذا بث الكتاب المطبوع الحركة السريعة ، والواسعة في تلك التيارات التي كان الكتاب المخطوط يتناولها برفق ولين. ومن هنا نرى ملامح السرعة والتدافع تتبدى لنا ، على الرغم من المعوقات العنيفة التي كانت قائمة . ونلاحظ في القرن الخامس عشر ، في أيام " كتب المهد "، أن اللغة اللاتينية كانت لها الغلبة ، وارتبطت باللغة اللاتينية كتب الدين ، والكتب التي تحض على التقوى . حتى إذا أهل هلال القرن السادس عشر أخرجت المطابع طبعات باللاتينية واليونانية لآثارالتراث اليوناني واللاتيني القديم ، خدمت قضية الإنسانيات، والمعركة

التي خاضها ، في غير هوادة ، دعاة المذهب الهوماني، أو الإنساني، أوالهوما نزم humanisme. ثم جاءت بعد ذلك حركة الإصلاح الديني la Réforme البروتستانتية، وفي أعقابها الحركة المضادة، حركة مناهضة الإصلاح الديني la Contre- Réforme واستخدم دعاة هذه وتلك الكتاب المطبوع وسيلة لبلوغ أهدافهم .

والخلاصة أن المطبعة لم تكن في خدمة جانب بعينه ، بل نشرت المطبعة كل شيء على نطاق واسع ، وبثت النشاط في كل شيء . ولكننا ربما استطعنا أن نستخلص جانبا كان لها فيه دور بعيد المدى، فقد شهد القرن السابع عشر اكتشافا عظيما أحدث ثورة في الرياضيات، وهو على حد تعبير أوسفالد اشبلنجر Oswald Sprengler اكتشاف: الدالة العددية ، أو كما نقول الآن س = ص (ع) ، وما كان لإنسان أن يتوصل إلى الدالة العددية ، إذا لم يكن على علم بمفاهيم أساسية هي مفهوم المتناهي الصغر، ومفهوم المحدود ، وهي مفاهيم وصل اليها أرشميدس منذ قرون، ولكن من الذي قرأ أرشيمدس ؟ ربما قرأه عدد قليل من المحظوظين يصل إلى الندرة. ونعلم أن ليوناردو دا فنشي Leonardo da Vinci بحث مرة عن مخطوط من مخطوطات أرشميدس حدثه عنه بعضهم ، ثم أعاد الكرة على أمل أن يظفر به. وإذا كانت المطبعة قد تباطأت في البداية في الاتجاه إلى الكتب العلمية ، فإنها سرعان ما اهتمت بها شيئا فشيئا ، ونشرت كتب الرياضيات اليونانية القديمة واحدا بعد الآخر، فنشرت مؤلفات اقليدس Euklid وأبولونيوس Apollonios (عن المخروط)، وعرفت القراء بفكر أرشيميدس الذي قامت على أساسه الثورة الرياضية المظفرة.

وهل يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان تأخر المطبعة في نشر هذه الكتب العلمية هو المسئول عن بطء مسيرة التطور بين القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر نحو الرياضيات الحديثة؟ ربما . ولكن علينا أن نذكر على أية حال ، إنه لولا المطبعة ، لطال انتظار التقدم .

من مآثر الغرب :

الملاحة في أعالي البحار

أتاح غزو أوروبا لأعالي البحار تفوقا عالميا دام قرونا. ونحن هنا بإزاء تقنية، تقنية الملاحة في أعالي البحار ، أدت إلى اضطراب التوازن على مستوى العالم، وتمييزا للبعض دون البعض الآخر. والحق أن اندفاع أوروبا لخوض غمار بحار العالم يطرح سؤالا كبيرا هو: لماذا لم تصبح تقنية الملاحة في أعالي البحار قسمة بين كل الحضارات الملاحية في العالم ؟ لماذا لم تشارك فيها هذه الحضارات بعد أن رأت بداياتها واضحة جلية؟ كان من الممكن، من حيث المبدأ، أن تدخل كل هذه الحضارات مضمار التنافس، ولكن الذي حدث هو أن أوروبا بقيت فيه وحدها بغير منافس .

الملاحة

في العالم القديم

وما يزال هذا السؤال المطروح يثير دهشتنا، فقد كانت الحضارات الملاحية في العالم القديم يعرف بعضها بعضا منذ أقدم العصور، ويضيف بعضها ما يضيف إلى رحلات البعض الآخر، حتى اخترقت آفاق العالم القديم، راسمة خطا متصلا يبدأ من المحيط الأطلسي الذي تطل عليه أوروبا، ويمتد إلى المحيط الهندي، والجزر المحيطية، والبحار المطلة على المحيط الهادي. وجان بوجاد Jean Poujade هو القائل أن البحر المتوسط، والمحيط الهندي لايشكلان في حقيقة الأمر الا مجالا بحريا فسيحا واحدا يطلق عليه اسما جميلا هو " طريق الهند " (٤٩). والحق أن "طريق الهند" كان منذ أقدم العصور محور الملاحة في العالم القديم، وكان يبدأ من بحر البلطيق والمانش ويصل إلى المحيط الهادي .

ولم يكن برزخ السويس يقطع الطريق إلى جزئين، فقد كان أحد فرعي النيل يصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، بقناة كانت تسمى في العصور القديمة قناة نيخاو Nechao، كانت هي بمثابة قناة سويس العصور القديمة، وكانت موجودة ومستعملة في وقت الملك القديس لويس - منتصف القرن الثالث عشر - ثم ردمت بعد ذلك. حتى إذا بدأ القرن السادس عشر فكر البنادقة والمصريون في فتحها من جديد . ولم يكن فرع النيل، والقناة التي امتدت منه الى البحر الأحمر، هما الطريق الوحيد بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، فقد كانت زرافات من البشر، والدواب، والمراكب (التى كانوا يفككونها إلى أجزاء ثم يضمونها عند الوصول مرة أخرى) تجتاز البرزخ برا . وهذا ما كان من أمر الأساطيل التي دفع بها الأتراك الى البحر الأحمر، في عام ١٥٣٨، وعام ١٥٣٩، وعام ١٥٨٨ ، حملتها الجمال على ظهورها أجزاء متفرقة، فلما وصلت الى غايتها جمعوها سفنا كاملة (٥٠). ولم تؤد رحلة فاسكو دا جاما Vasco da Gama (في عام ١٤٩٨) إلى قطع أواصر هذه الرابطة القديمة التي ربطت أوروبا والمحيط الهندي، بل أمدتها بطريق جديد .

ولم يكن الاحتكاك، والاختلاط، والتجاور يعنى بالضرورة الامتزاج، فلم يكن هناك إنسان تمسك بعاداته الخاصة وتقاليده قدر الملاح أينما كان . ولم تكن السفن الجونكية الصينية، على الرغم مما اتسمت به من مميزات متفوقة عديدة (الأشرعة، الدفة، الهيكل المكون من غرف منفصلة، البوصلة منذ القرن الحادي عشر، ضخامة الجسم الطافي منذ القرن الرابع عشر) قد وصلت إلا إلى اليابان، ولكنها لم تتجاوز في اتجاه الجنوب خليج تونكين . أما مياه المنطقة الممتدة من دانانج Da Nang بفيتنام، والتي

تعرف في الفرنسية باسم توران Tourane، إلى سواحل أفريقيا فكانت ترتاد بحارها السفن الاندونيسية ، والهندية ، أو العربية المتوسطة بأشرعتها المثلثة . فقد كانت هناك حدود بحرية (هل يمكن القبول بهذا الرأي؟) للحضارات، لها من الثبات ما للحدود البرية على صفحة القارات . كانت كل ثقافة تود أن تكون، سواء في البحر أو في البر، في حضن دارها. ولكن الجيران ، وقد سكن كل في داره ، يتزاورون : وإنما ارتادت السفن الشراعية، والسفن الجونكية الصينية خليج تونكين ، أن تونكين كانت في الحقيقة خاضعة للحكم الصيني . وإذا لم يكن برزخ السويس قد قام مقام الحدود الفاصلة، على الرغم من أن شكله وإمكاناته كانت توهله لذلك ، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن الحضارات قد عبرت من فوقه على نحو مستمر منتظم . مصداق ذلك أن الحضارة الإسلامية، عندما استقرت على جزء كبير من شواطيء البحر المتوسط ، أدخلت إليه الشراع الذي يطلق عليه اسم الشراع اللاتيني أو الشراع الآذاني ، وهو في أصله شراع هندي، وجده المسلمون في خليج عمان . ولقد كان عبور البرزخ على هذه الصورة التاريخية، ضروريا لكي يمكن الشراع المثلث الشكل لنفسه في البحرالمتوسط ، حتى أصبح هذا الشراع المثلث في نظرنا رمزا له(٥١).

ولكن هذا الشراع كان في حقيقة الأمر مستعارا من خارج منطقة البحر المتوسط، الذي دخل إليه وحل محل الشراع المربع الذي استخدمته شعوب البحرالمتوسط القديمة من فينيقيين ، واغريق، وقرطاجيين ، ورومان . ويصح أن نذكر معلومة جزئية صغيرة، وهي أن هذا الشراع الوافد قد واجه مقاومة في بعض الأماكن ، كما حدث في منطقة اللانجدوك الفرنسية الساحلية؛ وكانت المقاومة أشد في بلاد اليونان في الوقت الذي كانت بيزنطة هي المسيطرة على البحر بأساطيلها وبنيرانها التي عرفت باسم النار الاغريقية ، التي كانت تنطلق فعالة مفزعة على كل من يقترب ، فلما دالت دولة بيزنطة تلاشت المقاومة . ولا غرابة في أن نجد هذا الشراع المثلث في البرتغال ، التي أثر فيها الإسلام تأثيرا واضحا قويا.

أما شمال أوروبا، الذي شهد منذ ما قبل القرن الثالث عشر نهضة ملاحية، فكان الشراع المربع هو القاعدة ، وكان قفص المركب يبتنى متينا من ألواح من الخشب، يركب كل لوح على الآخر، بطريقة تركيب قطع الأردواز التي تستخدم كسوة للسطوح الجمالونية، فتكون شفة اللوح العلوي فوق شفة اللوح السفلي، (شفة داخلة وشفة خارجة)؛ أما أعجوبة العجائب في شمال أوروبا فكانت الدفة المحورية التي يشغلونها من داخل السفينة، وكانت هذه الدفة تركب على مؤخر السفينة المسمى etambot، ولهذا عرفت في أوساط المتخصصين باسم gouvernail d`etambot الدفة الخلفية .

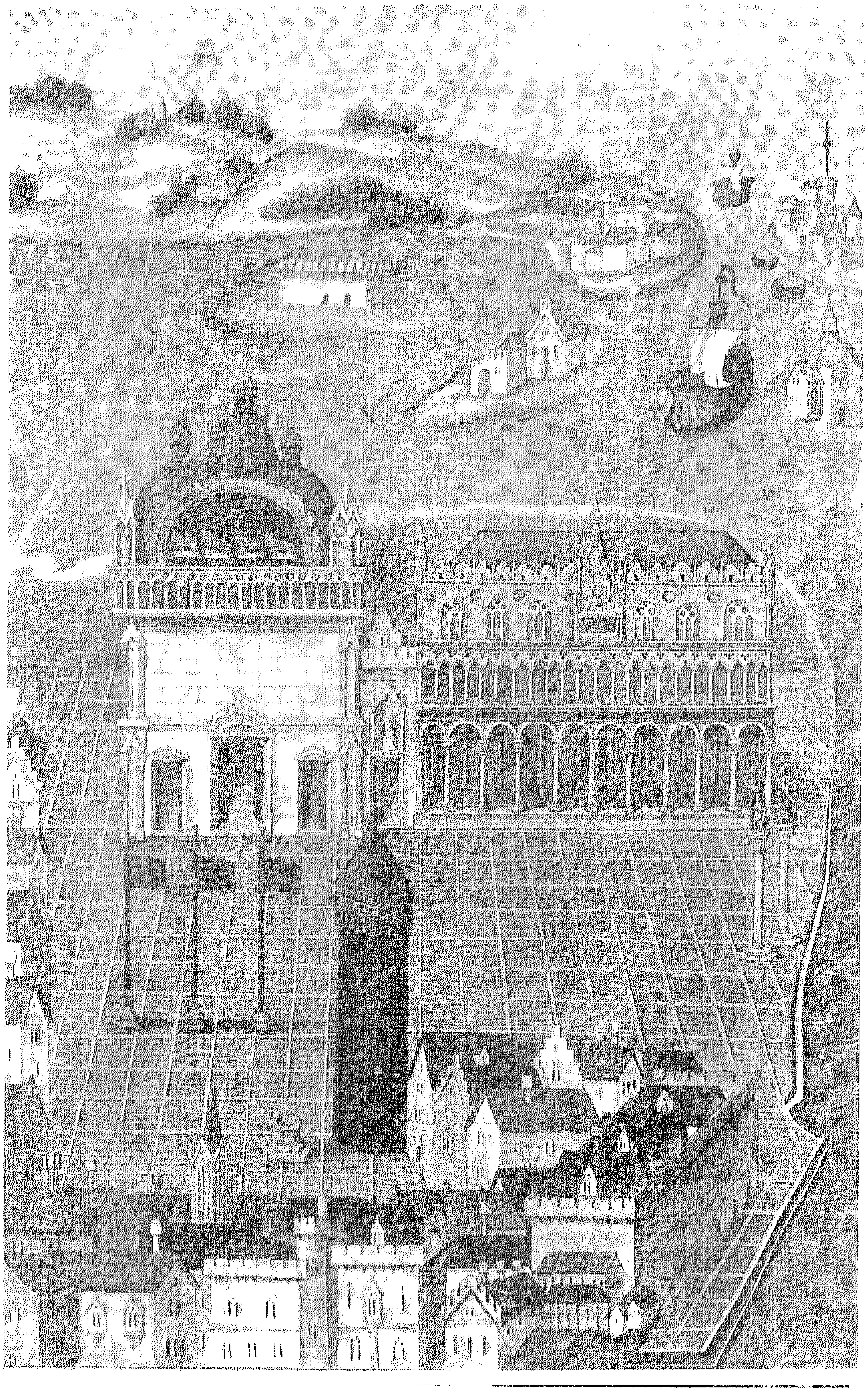

صورة خيالية تمثل البندقية (أواخر القرن الخامس عشر) ونرى فيها ميدان السوق بعموديه والكامبانيله أو برج الأجراس ، وقصر الدوج . ونرى في الخلفية بين الجزر المتخيلة ما يمكن أن يكون مدخل البوغاز، وفيه سفن لها أشرعة مربعة . (متحف كوندي Condé في شانتيي Chantilly).

سفينة لها شراعان مثلثان ، رسم يزدان به صحن بيزنطي .
(متحف كورنثوس).

والخلاصة أنه كان هناك أسطولان بحريان أوروبيان : أسطول البحر المتوسط، وأسطول شمال أوروبا، ولقد حدثت مواجهات اقتصادية ، لا سياسية ، بين الأسطولين، ثم ائتلفا معا في نهاية الأمر. ونحن نرى منذ عام ١٢٩٧ سفن جنوة (٥٢) ، وهي سفن البحر المتوسط الكبيرة ، تمخر عباب البحر شمالا ، وتنزل ميناء بروجه Bruegge في الأراضي الواطئة، وتستأثر بنصيب الأسد من تجارة الشمال . وربما حدثت مصادمات من قبيل القرصنة أو الهيمنة، ولكن الجانبان تعلم بعضهما من البعض . وإذا كانت لشبونة قد انتعشت في القرن الثالث عشر ، فإنما يرجع انتعاشها إلى أنها استوعبت دروس ايطاليا فأقامت اقتصادا رأسماليا نشيطا على المنطقة الساحلية ، يستند على الأسطول البحري. وهكذا تحققت الظروف التي أصبحت فيها سفن البحر المتوسط نموذجا نقلت عنه الأساطيل الشمالية، وأخذت عنه الشراع المثلث . ومن الناحية الأخرى انتقلت من الشمال، عن طريق سلسلة من الوسطاء كان أهل الباسك طرفا فيها، طريقة تركيب

الألواح، شفة داخلة وشفة خارجة ، والدفة الخلفية التي تمكن الملاحين من مجابهة الريح على نحو أفضل، وتأقلمت هذه الطرق شيئت فشيئا في أماكن بناء السفن على شواطيء البحر المتوسط . كانت هناك ألوان من التبادل ، ومن التداخل المضطرب، تقوم شاهدا على أن وحدة حضارية جديدة كانت في طريقها الى التمكين لنفسها ألا وهي: أوروبا .

وكانت السفينة البرتغالية الكارافيل la caravelle التي ظهرت حول عام ١٤٣٠ ثمرة المزاوجة بين النمطين ، فقد كانت سفينة شراعية صغيرة ، ركبت ألواحها شفة داخلة وشفة خارجة، واتخذت دفة خلفية ، وثلاثة صوار، وشراعين مربعين ، وشراعا مثلثا ، وكان الشراع المثلث مركبا بطول السفينة ، وكان مائلا على الصاري الذي حمله (فقد كان الدوقل أي الصاري الأفقي عاليا من جانب ومنخفضا من الجانب الآخر)، وهكذا كان يمكن السفينة من الدوران بسهولة، ويوجهها . أما الشراعان المربعان ، اللذان كانا مركبين بطول السفينة ، فكانا يتلقيان الريح من الخلف . فلما تدربت سفن الكارافيل في المحيط الأطلسي، وأكملت تدريبها ، مخرت عباب البحر، هي وسفن أوروبية أخرى، فوصلت إلى جزرالكناريا ، وتخلت عن الشراع المثلث، ورفعت أشرعة مربعة في تلك المناطق التي تهب فيها الرياح التجارية بلا انقطاع، وما زالت حتى وصلت إلى البحر الكاريبي .

طرق الملاحة

العالمية

فما هو الهدف الذي كانت هذه المغامرة ترمي إليه؟ لقد كانت ترمي إلى الاستيلاء على طرق الملاحة في العالم . ليست لدينا دلائل تشير إلى أن أمة من الأمم الملاحية قد تمكنت من السبق إلى كسب هذا السباق على الرغم من تكرار المحاولة . ونعلم أن الفينيقيين داروا حول أفريقيا تنفيذا لأمر فرعون مصر ، وكان ذلك قبل فاسكو دا جاما بأكثر من ألفي عام. وكان بعض البحارة الأيرلنديين ، قبل كريستوف كولومبوس بعدة قرون، قد اكتشفوا جزر فروار Foroyar حول عام ٦٩٠ ، وكان رهبان أيرلنديون قد وصلوا إلى ايسلنده حول عام ٧٩٢ ، ثم أعاد الفايكينج اكتشافها حول عام ٨٦٠؛ ونعرف أن ايريك Erik ،المسمى بايريك الأحمر، وصل في عام ٩٨١ أو ٩٨٢ إلى جرينلاند، التي بقي فيها الفايكينج حتى القرن الخامس عشر أو السادس عشر. حتى إذا كان عام ١٢٩١ اجتاز الأخوان فيفالدي Vivaldi بسفينتين جاليريتين مضيق جبل طارق في طريقهما إلى الهند، ثم تلاشت آثارهما بعد رأس جوري Jupy. ولو قدر لهما أن يدورا حول أفريقيا لاعتبرت رحلتهما بداية الاكتشافات الجغرافية الكبرى(٥٣).

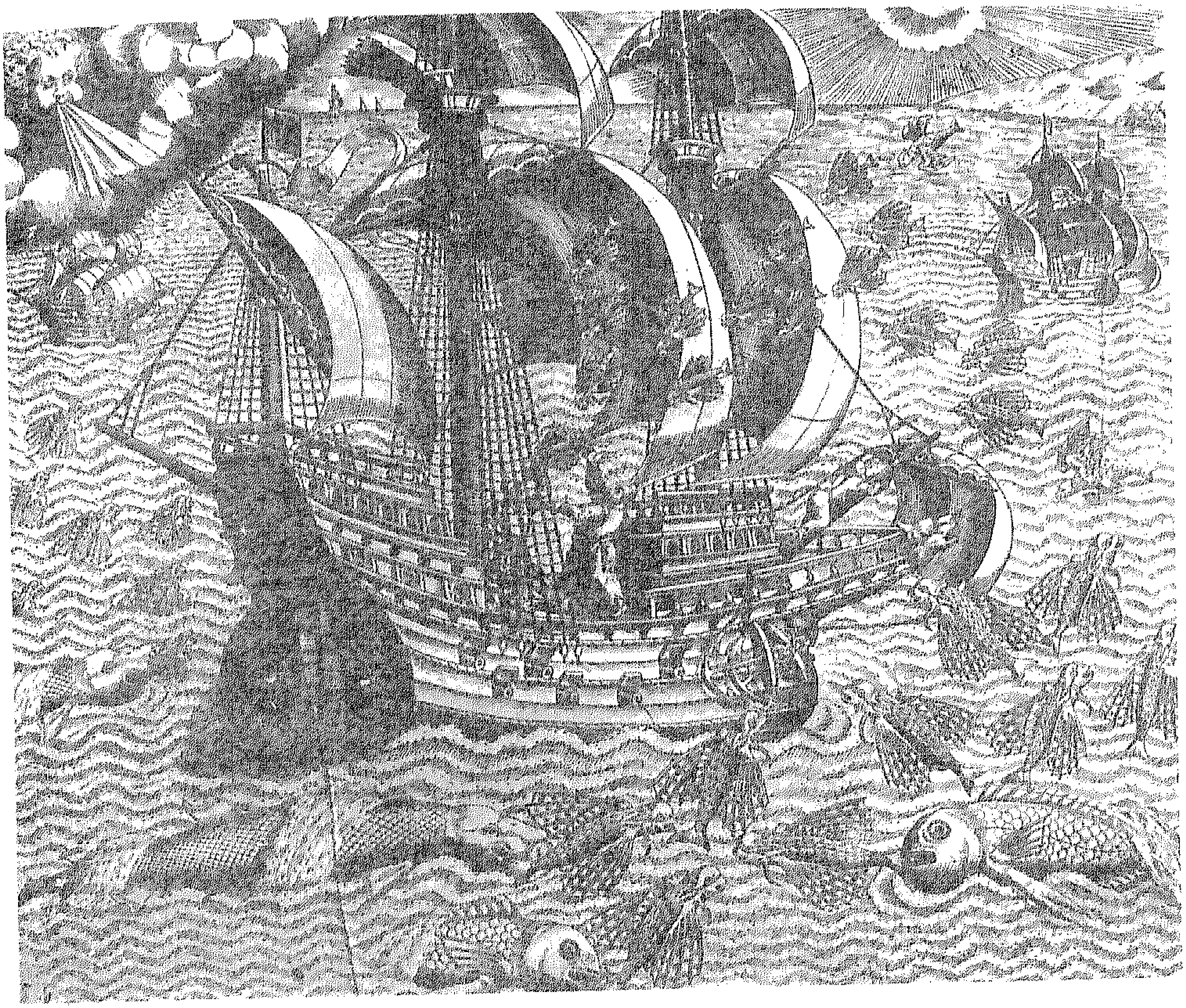

سفينة تجارية مسلحة بالمدافع ، ترجع الى بداية القرن السابع عشر ، في طريقها إلى الهند ، وقد تطايرت من حولها الأسماك الطائرة في أسراب كالمطرالمنهمر . صورة مأخوذة من كتاب وضعه تيودور دي بري Theodore de Bry بعنوان " عجائب القصص " Admiranda Narratio. صدر في فرنكفورت في عام ١٥٩٠ . والصورة من الفصل الخاص بالرحلة الى البرازيل في أمريكا Navigatio in Brasiliam Americae

هذا ما حدث على الصعيد الأوروبي . أما الصينيون فقد شقوا عباب البحر منذ القرن الحادي عشر، منافسين الأوروبيين منافسة لا نظير لها ، فقد نعموا منذ القرن الرابع عشر باستخدام البوصلة فخرجوا، " بسفن جونكية ضخمة، لها أربعة سطوح، وغرف منفصلة، وما بين أربع وست صوار تحمل اثني عشرة شراعا كبيرا ، وتتسع لألف من البشر". وقام الصينيون، عندما كان لواء الحكم في الجنوب معقودا لآل سونج Song (١١٢٧-١٢٧٩) ، بإزاحة السفن العربية عن تجارة بحر الصين ، وكأنما أبعدوا بقوة هذه السفن من أمام باب دارهم . حتى إذا أقبل القرن الخامس عشر قامت الأساطيل

الصينية برحلات مدهشة تحت قيادة الخصي الكبير تشينج هفو Tscheng Hwo، وكان مسلما من أبناء مقاطعة يونن الصينية Yunnan. فقامت برحلة أولى بـ ٦٢ سفينة جونكية ضخمة وصلت إلى الجزر المحيطية (١٤٠٥- ١٤٠٧) : وقامت بحملة ثانية بـ ٤٨ سفينة عليها ٢٧٠٠٠ رجل (١٤٠٨- ١٤١١) انتهت بغزو سيلان ؛ وانتهت الحملة الثالثة (١٤١٣ - ١٤١٧) بغزو سومطرة ؛ وكانت الرحلتان الرابعة (١٤١٧-١٤١٩) والخامسة (١٤٢١ - ١٤٢٢) رحلتين سلميتين استهدفتا تبادل الهدايا والسفراء، فوصلت أولاهما إلى الهند ، ووصلت ثانيتهما إلى شبه الجزيرة العربية، والحبشة : ثم كانت هناك رحلة سادسة سريعة ، حملت رسالة أمبراطورية إلى سيد وحاكم باليمبانج Palembang في سومطرة ؛ تبعتها رحلة سابعة ، وأخيرة ، كانت هي أكثر الرحلات إثارة : خرجت من ميناء لونج فان Long Wan في ١٩ يناير ١٤٣١، ولزمت السفن طوال المدة المتبقية من العام موانيء أقصى جنوب تشي كيانج Tsche Kiang وفو كيين Fu Kien؛ ثم استأنفت الرحلة في عام ١٤٣٢ إلى جاوة ، وباليمبانج، ومالاكا Malacca، وكلكتا ، وانتهت إلى ميناء هرمز الذي كان هدف الرحلة، وكان ذلك في ١٧ يناير ١٤٣٣، وأنزلت سفيرا صينيا ، إسلامي الأصل، يحتمل أن يكون قد يمم شطر مكة . ثم عادت السفن إلى نانكين يوم ٢٢ يولية ١٤٣٣(٥٤).

ثم توقفت الرحلات البحرية بعد ذلك ، على قدر علمنا. والأرجح أن الصين في عصر آل مينج كانت تجابه خطر بدو الشمال الذي تجدد ، فنقلت العاصمة من نانكين إلى بكين (في عام ١٤١٢) وقفلت صفحة من سجل التاريخ . ولنا أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث لو أن السفن الجونكية الصينية وصلت الى رأس الرجاء الصالح ، أو بلغت رأس الإبرة، الذي هو المنفذ الجنوبي بين المحيط الهندي ، والمحيط الأطلسي .

وهذه فرصة أخرى ضاعت: كان الجغرافيون العرب قد اتخذوا موقفا معارضا لرأي بطليموس، فتحدث المسعودي في القرن العاشر، وكان يعرف المدن العربية المطلة على ساحل زنجبار ، مؤكدا إمكانية الدوران بطريق البحر حول أفريقيا ، وتبعه عدد من الجغرافيين العرب الآخرين في هذا الرأي بعد ذلك . وكانوا بذلك يقولون نفس الرأي الثابت الذي ذهبت إليه الكنيسة المسيحية ، اعتمادا على الكتاب المقدس، وهو أن البحار كلها وحدة واحدة متصلة . أيا كان الأمر فقد كانت أخبار بعض الرحالة أو الملاحين العرب قد تسللت حتى وصلت إلى البلاد المسيحية ، وكانت تدور حول رحلة عجيبة يرى ألكسندر فون هومبولت Alexander von Humboldt أنها كانت يقينا رحلة حقيقية، قامت بها سفينة عربية حول عام ١٤٢٠ ، على نحو ما يبين الكلام المكتوب على خريطة فرا مورو Fra Mauro. في عام ١٤٥٧ - ، وكان الجغرافي الذي لا يشق له غبار في مدينة البندقية ، يعرفونه بكنيته اللاتينية

geographicus incomparabilis. ويشير هذاالكلام إلى أن السفينة قطعت في رحلتها بين السماء والماء ألفي ميل في " بحر الظلمات " ، وهكذا كان العرب يسمون المحيط الأطلسي، واستغرقت رحلة الذهاب ٤٠ يوما ورحلة العودة ٧٠ يوما (٥٥) .

وأيا كان الأمر فقد كانت أوروبا هي التي استأثرت في النهاية بفضل حل مشكلة المحيط الأطلسي، فلما حلت هذه المشكلة، انحلت المشكلات الأخرى .

المحيط الأطلسي
ومشكلته اليسيرة

تشتمل خريطة الملاحة والرياح التي تمثل المحيط الأطلسي على ثلاث دوائر، كل دائرة منها على هيئة القطع الناقص . وما يحتاج الملاح الذي يمخر عباب المحيط الأطلسي إلا أن يركب التيارات البحرية والرياح في الاتجاه الصحيح ، فتذهب به إلى حيث يريد، ثم تعود به من حيث أتى . الدائرة الأولى هي دائرة الفايكينج في شمال المحيط الأطلسي؛ والثانية دائرة كريستوف كولمبوس : فقد دفعت الرياح في منطقة خطوط العرض المتوسطة سفنه الثلاث نحو جزرالكناريا ، ومنها إلى جزرالأنتيل، ثم أعادته، في ربيع عام ١٤٩٣، عن طريق جزر أزورس ، بعد أن عرجت به إلى مقربة من نيوفاوندلاند Terre-Neuve. والدائرة الثالثة الكبيرة تتجه نحو الجنوب، وتصل إلى ساحل أمريكا، ومن هناك إلى رأس الرجاء الصالح عند أقصى جنوب القارة الأفريقية. لم يكن الملاح يحتاج، كما قلنا، إلا إلى أن يلتمس الرياح المواتية ، فإذا وجدها كان عليه أن يتشبث بها حتى يبلغ بها هدفه ...كانت هذه هي القاعدة في أعالي البحار .

ولو كان البحارة قد حفظوا في مكامن فطرتهم خبرة الملاحة في أعالي البحار، لظلت الأمور سهلة يسيرة إلى أقصى حدود السهولة واليسر. كان الايرلنديون والفايكينج قد خبروا الملاحة في أعالي البحار منذ وقت مبكر ، ولكن خبراتهم ضاعت في ليل الزمان البهيم. وكان على أوروبا أن تجدد هذه الخبرات التي ضاعت ، واحتاجت من أجل بلوغ هذه الغاية إلى أن تصحو من سباتها على وقع حياة مادية أكثر نشاطا، وأن تمزج تقنيات الجنوب وتقنيات الشمال معا، وأن تعرف البوصلة، والخرائط البحرية، وأن تقهر بصفة خاصة الرهبة الغريزية وهكذا وصل المكتشفون البرتغاليون إلى ماديرة في ١٤٢٢، وإلى الأزورس في ١٤٢٧ ، ثم ساروا بحذاء السواحل الأفريقية. ولم يكن الوصول إلى رأس بوخادور Bojador إلا شيئا بالغ السهولة واليسر ، أما رحلة العودة فكانت صعبة عسيرة، فقد كانت الريح ساكنة ، ثم كان من الضروري السير ضد الرياح التجارية الشمالية. كذلك كانت الرحلة إلى غينيا ، والنزول إلى أسواق العبيد فيها، والحصول على تراب الذهب ، والفلفل البري ، كانت كلها من الأمور السهلة اليسيرة أيضا، أما

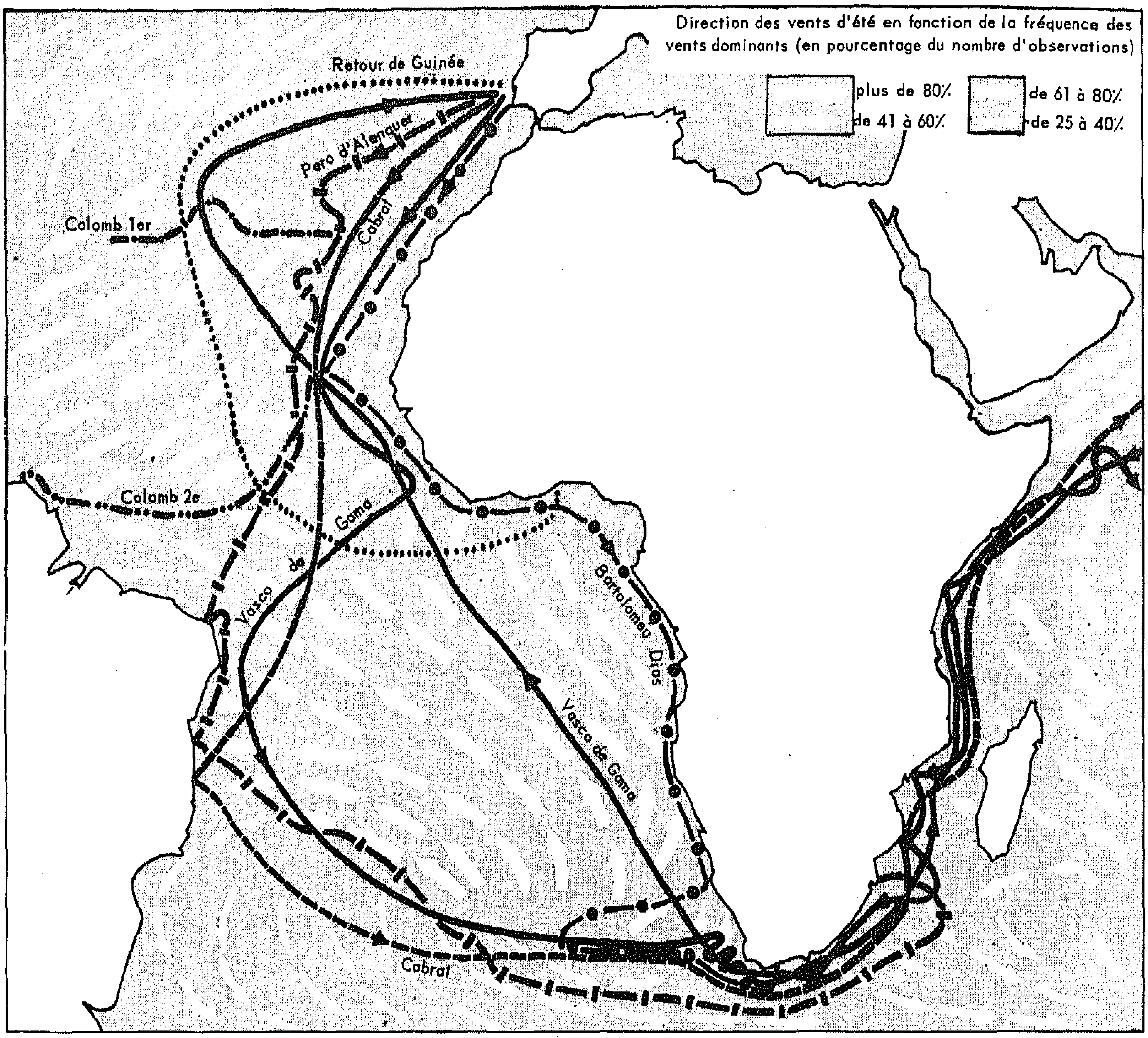

٢٤ ـ الاكتشافات الكبرى : اجتياز المحيط الأطلسي ذهابا وايابا

توضع هذه الخريطة المبسطة اتجاه الرياح التجارية الشمالية ، والرياح التجارية الجنوبية في الصيف . والمعروف أن كتلة هذه الرياح المزدوجة تتحرك بحسب فصول السنة . وكانت مسارات الرحلات البحرية الى ما سمي آنذاك بالهند ذهابا ، ومن الهند إيابا ، تتبع قواعد شديدة البساطة : فكانت السفينة المتجهة إلى الهند تسلم قيادها في البداية للرياح التجارية الشمالية ، ثم تدع الرياح الشمالية الجنوبية تدفعها بعد ذلك حتى تصل الى البرازيل ؛ وكانت السفينة في رحلة العودة تستغل الرياح الجنوبية ، فتسير في خط مستقيم ثم تشق الرياح التجارية الشمالية الى أن تصل إلى رياح مناطق خطوط العرض المتوسطة. وبناء على هذا فان مسار رحلة العودة من غينيا (أو من دا مينا da Mina كما كان البرتغاليون يسمون غينيا) كان يبين ضرورة الابتعاد عن الساحل الأفريقي في حالة الاتجاه الى أوروبا. ونعرف عن بارتولوميو دياس Bartolomeo Dias، الذي سبقت رحلته رحلة فاسكو دا جاما ، أنه بسيره بحذاء الساحل ، عندما كان متجها نحو الجنوب ارتكب خطأ جسيما . ولقد كانت الصعاب التي واجهتها الرحلات البحرية الأولى في أعالي البحار أكبر مما تبينه خرائطنا العادية ، وكان على الملاحين أن يتعرفوا شيئا فشيئا على قواعد الإبحار في أعالي البحار . كذلك ينبغي علينا أن نكمل الصورة ونذكر أهمية التيارات البحرية التي تمثل عوامل قادرة على تسهيل الملاحة وعلى إعاقتها ايضا .

رحلة العودة فقد كانت صعبة عسيرة ، تتطلب مجابهة الرياح التجارية ، والتماس الرياح المتجهة من الغرب إلى الشرق ، والتي لا يلقاها الملاح إلا عندما يصل إلى بحر سارجاس la mer des Sargasses بعد شهر من المكابدة وسط البحر. كذلك كان الرجوع من لامينا la Mina (هي ساو جورجه دا مينا Sao Jorge da Mina التي أنشئت في ١٤٨٧) يضطرالملاح إلى أن يجابه الرياح المضادة أياما طويلة إلى أن يصل إلى جزر الأزورس .

وكانت المعضلة الكبرى تتمثل حقيقة في الجرأة على المغامرة ، على خوض الغمار كما يقولون في التعبيرالاستعاري ، وكانوا يستخدمون في ذلك الوقت الكلمة الفرنسية s`engoulfer.كان ركوب أعالي البحار عملا خارقا للمألوف ، نسي الناس الجرأة التي كان أجدادهم يقبلون بها عليه ، كما سينسى أحفادنا في المستقبل الجرأة التي أقدم بها رواد الفضاء على مغامراتهم . يقول جان بودان Jean Bodin: " ونحن نعلم بما فيه الكفاية أن ملوك البرتغال عندما مخروا عباب أعالي البحار منذ مائة عام " استولوا" على أعظم ثروات الهند وملأوا خزائن أوروبا بكنوز الشرق "(٥٦). وهكذا جاءت الثروات الهائلة في مقابل الجرأة الهائلة التي تطلبها الإقدام على المغامرة .

وكانت عادة البحارة حتى في القرن السابع عشر إلا يبتعدوا عن السواحل إلا في أقل حد ممكن . وقد تحدث تومي كانو Thome Cano الذي ظهر كتابه في اشبيلية في عام ١٦١١ فقال عن الايطاليين : " انهم ليسوا من ملاحي أعالي البحار "(٥٧). والحق أن أهل البحر المتوسط كانت الملاحة بالنسبة اليهم رحلات محدودة ، كانت تنتقل بهم من مكان أليف إلى مكان أليف آخر على شاطيء البحر ، وكأنما كانت تنتقل بهم من فندق إلى فندق ، وكان خوض غمار البحر يعني في تقديرهم ركوب البحر من رودس إلى الاسكندرية ، وقضاء أربعة أيام في البحر ، في بحر كأنه صحراء قدت من الماء، إذا جرت الرياح بما تشتهي السفن ؛ أو ربما كان منتهى خوض غمارالبحر ، في عرفهم، الإبحار من مارسيليا إلى برشلونه ، والسير بالسفينة على هذا الخط الخطير الذي يشبه وتر القوس في خليج الأسد golfe de Lion؛ أو اختراق البحر في خط مستقيم من جزرالبليار إلى ايطاليا مرورا بساردينيا ، وربما حتى صقلية ؛ وكانت أصعب رحلة في المياه الملتحمة بأوروبا إبان العصرالقديم للسفن والملاحة ، هي تلك الرحلة التي تبدأ من شبه جزيرة ايبريا ، وتنتهي عند مدخل بحر المانش ، والعودة . وكانت تلك الرحلة تتعرض للمفاجئات ، والأحداث الجسام في خليج جاسكونيا العاصف ، ولأمواج المحيط الأطلسي المتلاطمة . أما قرأنا عن فرديناد ، عندما ترك أخاه الملك شارلكان في عام ١٥١٨ ، وركب الأسطول في لاريدو Laredo واتجه به الى بحر المانش فأخطأ الاتجاه، وبدلا من أن يلج بحر المانش ، وجد نفسه في أيرلنده (٥٨) واليك دانتيسكوس

Dantiscus ، سفير ملك بولندة ، الذي قام في عام ١٥٢٢ برحلة بالسفينة من انجلترة إلى اسبانيا شهد فيها من الأهوال ما لم يشهده في حياته من قبل (٥٩). ولقد ظل اجتياز خليج جاسكونيا على مدى قرون عملا يتطلب من الملاحين يقينا خبرة بأعالي البحار في الظروف العارمة ، وربما كانت تلك الخبرة مع غيرها من الخبرات الشرط الذي كان مفروضا أن يتوافر لغزو العالم .

ولقد تساءل الملاحون والمراقبون الأوروبيون في القرنين السادس عشر ، والسابع عشر، عندما شاهدوا أساطيل الصين واليابان المختلفة عن أساطيلهم أشد الاختلاف :

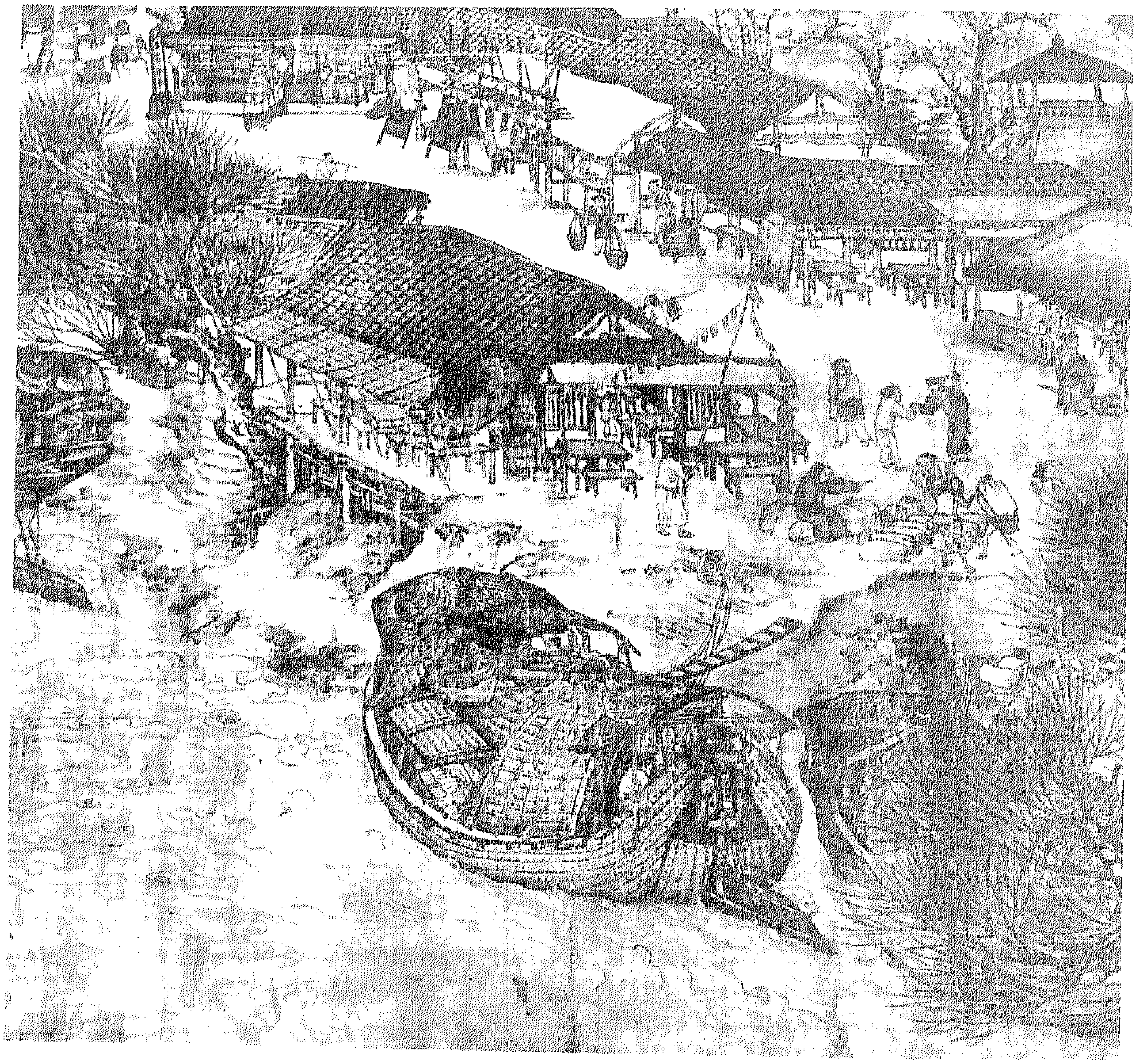

سفينة صينية على صفحة النهر .(متحف الرسومات بالمكتبة القومية الفرنسية .)

لماذا كانت أوروبا هي وحدها التي خاضت غمار أعالي البحار ؟ وكان الرأي الذي ذهب اليه الأب ميندوثا Mdoza في عام ١٥٧٧ هو : أن الصينيين " هيابون من البحر، وأنهم أناس ليست لديهم عادة خوض غمار البحر والتوغل فيه "(٦٠). وكان الملاحون في الشرق الأقصى أيضا يقومون برحلاتهم البحرية قرب الساحل ، فيما كانوا يسمونه رحلات بحرية من فندق الى فندق . ونقرأ ما كتبه رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero وقد أقلته السفينة على صفحة المياه الداخلية لليابان بين أوزاكا ، وناجازاكي، في رحلة دامت ما بين ١٢ و ١٥ يوما ، قال: " إن الإنسان عندما يقوم برحلة بحرية هنا يقضي كل ليلة تقريبا على البر "(٦١) . وشبيه بهذا ما قاله الأب دي هالد du Halde في عام ١٦٩٣ عن الصينيين : " انهم ملاحون مهرة عندما يركبون البحر قرب الساحل، ملاحون غشم عندما يركبون أعالي البحار"(٦٢). بل أن بارو Barrow تحدث في عام ١٨٠٥ عن الصينيين قائلا : " إنهم يسيرون بحذاء الشاطيء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولا يدعون البر يخرج من تحت أعينهم ، إلا إذا اضطروا إلى ذلك، ولم يجدوا لهم من مفر" (٦٣).

أما جورج ستونتون George Staunton فقد أنعم النظر في هذه الأمور في نهاية القرن الثامن عشر، حيث أتيحت له الفرصة في خليج تشي لي Tche-li، فيما وراء البحر الأصفر ، ليفحص على راحته السفن الجونكية الصينية : " إن الإنسان ليدرك التضاد الصارخ بين السفن الصينية، والسفن الانجليزية، عندما يرى الصواري السامقة، والحبال المعقدة على السفينتين الانجليزيتين [السفينة لوليون Le Lion والسفينة جاكال Jackall اللتين أقلتا السفير ماكارتني Macartney ومعيته]وسط السفن الجونكية الصينية المنخفضة ، البسيطة ، المصنوعة صناعة تفتقر إلى الدقة ، والتي كانت، إلى هذا تتسم بالمتانة ، والسعة ، فقد كانت السفينة الجونكية الواحدة تتسع لمائتي طن بحري تقريبا ." وشد انتباهه أن جسم السفينة الجونكية قسم إلى غرف ، وأن الصاريين كانا سميكين سمكا خارقا للمألوف ، فقد صنعوا كل " صار من جذع شجرة واحد، أو من كتلة خشبية واحدة " وركب على كل من الصاريين " شراع مربع كبير كانوا عادة يصنعونه من بوص البامبو المشقوق طوليا ، أو من الحصر المكونة من القش أو السمار المضفور. وقد جعلوا طرفي السفينة الجونكية ـ مقدمتها ومؤخرتها ـ مسطحين، على مستوى واحد تقريبا ، وركبوا على أحد الطرفين دفة عريضة مثل دفة صنادل النقل في ميناء لندن، ثبتوها بحبال مدوها من أحد جانبي السفينة إلى الجانب الآخر . " وكانت السفينة جاكال ، أصغر من سفينة الخط الملاحي لوليون: وكانت حمولتها ١٠٠ طن بحري فقط . فلما دخلت ميناء تشي لي ، ووقفت إلى جانب السفن الجونكية، كانت في وضع يشبه المنافسة ، وظهر أن السفن الجونكية تفضلها ، وشرح ستونتون حقيقةالأمر:"

كانت السفينة الانجليزية جاكال مصممة للإبحار في ظروف تحكمها رياح متغيرة ، يغلب عليها أن تهب في ضد الاتجاه المطلوب ، وهي الرياح التي تهب في بحار أوروبا ، ولهذا جعلت عميقة الغاطس حتى تثبت في وجه هذه الرياح ، ولكن هذا الغاطس العميق كان يفرض عليها ، عندما تسير، أن تدفع كمية مضاعفة من المياه ، ضعف الكمية التي تدفعها السفينة الجونكية المساوية لها في الحمولة ، لأن غاطسها كان ضعف غاطس السفينة الجونكية المساوية لها في الحمولة . أما العيب الذي يتمثل في عدم القدرة من الإفادة من الرياح التي تهب من الجانب ، وهو عيب كانت تعاني منه نوعية السفن الأوروبية التي جعل قاعها مسطحا على نحو مفرط ، فلم تكن آثاره تظهر واضحة في بحارالصين، التي لا تبحرالسفن فيها إلا مدفوعة بالرياح الموسمية ـ الموزون ـ المواتية [التي تهب من الخلف]. أضف إلى هذا أن أشرعة السفن الجونكية الصينية مصممة بحيث تدور بسهولة حول صواريها ، أنها تصنع زاوية حادة مع ضلعي السفينة مما يجعل وضعها ملائما في وجه الريح على الرغم من ضعف ثبات السفينة الجونكية في الماء.

ومجمل القول : " أن الصينيين ينعمون بالميزة التي ينعم بها اليونانيون ، وبحارهم تشبه البحر المتوسط، فهي ضيقة الحدود ، كثيرة الجزر التي تراها العين من كل ناحية. كذلك ينبغي أن نلاحظ أن تحسين الأوروبيين للملاحة بغية الإتقان ، بدأ في نفس العصر الذي دفعهم فيه الولع والحاجة إلى القيام برحلات بعيدة المدى على صفحة المحيط الشاسع"(٦٤).

ونحن نتبين أن هذه الملحوظات لا تبعد بنا عن نقطة البداية ، بل هي تلف ، وتدور، وتعود إلى نفس الكلام ، وهو أن الملاحة في أعالي البحار هى مفتاح بحور العالم السبعة. ولكننا لا نجد من يقدم إلينا الدليل على أن الصينيين ، واليابانيين لم تكن لديهم القدرة ، من الناحية التقنية ، على القبض على هذا المفتاح ، واستخدامه .

والحق أن المعاصرين ، والمؤرخين قد ظلوا في حديثهم عن هذه المشكلة متشبثين بأنها لم يكن لها إلا حل واحد ، هو الحل التقني ، وظلوا أسرى هذا الحل التقني، يصرون على استخلاصه ، وإقامة الدليل عليه بأي ثمن . وربما لم يكن الحل تقنيا في المقام الأول . وانظر إلى هذا الملاح البرتغالي الذي أكد للملك خوان الثاني (حكم البرتغال من عام ١٤٨١ ـ ١٤٩٥) أن الملاح يستطيع أن يعود من ساحل لامينا ـ غينيا ـ " بأي سفينة من أي نوع مادامت في حالة جيدة " ، فما كان من الملك إلا أن أمره بالصمت ، وهدده بالسجن إن هو فتح فمه. ولدينا مثل لا يقل وضوحا ونصاعة يرجع إلى عام ١٥٣٥ : فقد عاد دييجو بوتيليو Diego Botelho من الهند على ظهر مركب بسيطة، سرعان ما أمر ملك البرتغال بإحراقها على الفور(٦٥).

ونحن نفضل على هذه الأمثلة أن نذكر مغامرة السفينة الجونكية اليابانية ، التي اعتمدت في عام ١٦١٠ على إمكاناتها الذاتية ، فأبحرت من اليابان إلى ميناء أكابولكو بالمكسيك . وقد حملت هذه السفينة على متنها رودريجو بيبيرو ، وصحبه - الذين نجوا من حادثة غرق سفينتهم - وكان اليابانيون قد قدموا هذه السفينة الجونكية هدية إليهم . كانت السفينة الجونكية التي قامت بهذه الرحلة في أعالي البحار يابانية ، ولكن طاقمها كان أوروبيا . ولكننا نعرف أن سفينتين جونكيتين أخريين ، بملاحين يابانيين ، قامتا بنفس هذه الرحلة بعد ذلك (٦٦).

وتقيم هذه المحاولات الدليل على أن السفينة الجونكية لم تكن من الناحية التقنية عاجزة عن خوض غمارأعالي البحار. ومعنى هذا أن التفسير الذي يعتمد على التقنية وحدها تفسير قاصر .

وقد يصل الأمر بالمؤرخين " اليوم " إلى حد القول بأن سفينة الكارافيل لم تحقق ما حققته من نجاح في أعالي البحار نتيجة لتصميم أشرعتها ، ودفتها ، وإنما نتيجة لقلة غاطسها مما " أتاح لها اكتشاف السواحل، ومصبات الأنهار " ، ونتيجة لشيء له في نظرهم أهمية أكبر وهو أن " السفينة الصغيرة كانت رخيصة التكلفة نسبيا من ناحية التسليح " (٦٧) معنى هذا الحط من قيمة الدور الذي لعبته هذه السفينة.

كذلك ليس من السهل تعليل تقاعس السفن الإسلامية في مجال الملاحة في أعالي البحار، كانت هذه السفن تقوم برحلات مباشرة في المحيط الهندي ، وكانت على الأرجح رحلات سهلة ، تتبع اختلاف الرياح الموسمية، ولكنها كانت على أية حال تعتمد على معلومات رصينة ، وعلى استعمال الاسطرلاب أو مقياس النجوم ، وكانت السفن نفسها سفنا عالية الجودة . وما قصة الملاح العربي الذي رافق فاسكو دا جاما ، وتولى الأسطول البرتغالي الصغير في ميلينده Melinde، وقاده مباشرة إلى كلكتا ، إلا قصة واضحة الدلالة . ولكن لماذا لم تنته مغامرات السندباد البحري وخلفائه إلى تحقيق سيطرة العرب على العالم ؟ لنلتقط كلمة من كلمات فيدال ديلابلاش Vidal de La Blache، ونسأل سؤالا آخر : لقد كانت الملاحة البحرية العربية موجودة جنوب زنجبار، ومدغشقر، فلماذا توقفت من الناحية العملية " أمام تيار موزمبيق الرهيب الذي يجرف السفن في عنف ناحية الجنوب" ، ونحو أبواب بحر الظلمات (٦٨) ؟ ويمكننا أن نجيب في البداية قائلين: إن السفن العربية القديمة وصلت بالإسلام فعلا إلى حيث سيطر على العالم القديم حتى القرن الخامس عشر، على نحو ما شرحنا من قبل، ولم تكن نتائج ذلك قليلة أو هينة؛ ولقد وجد المسلمون لديهم قناة السويس (من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلادي) فما الذي يدفعهم إلى الدوران حول أفريقيا، حول الرأس الذي عرف فيما بعد

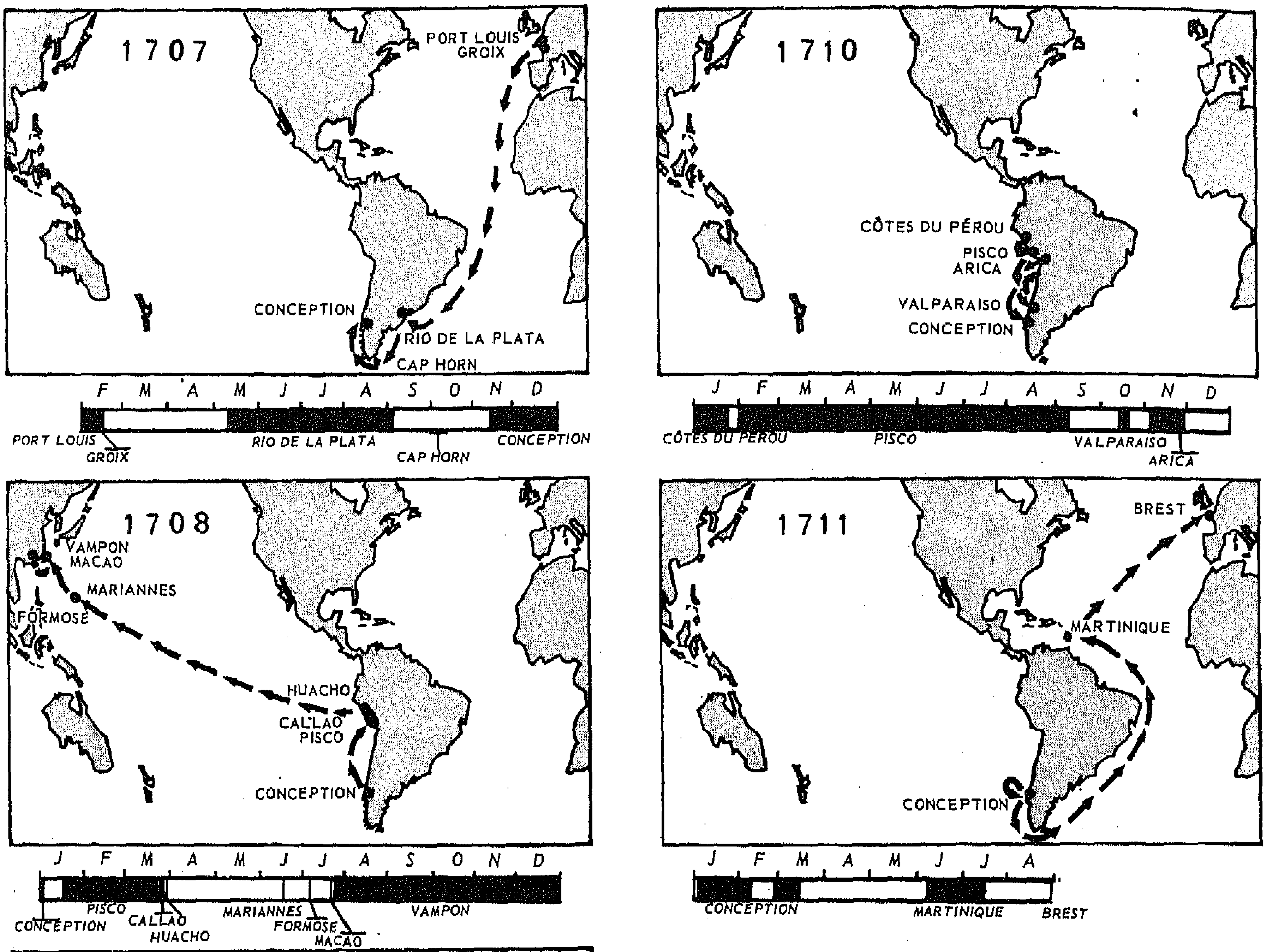

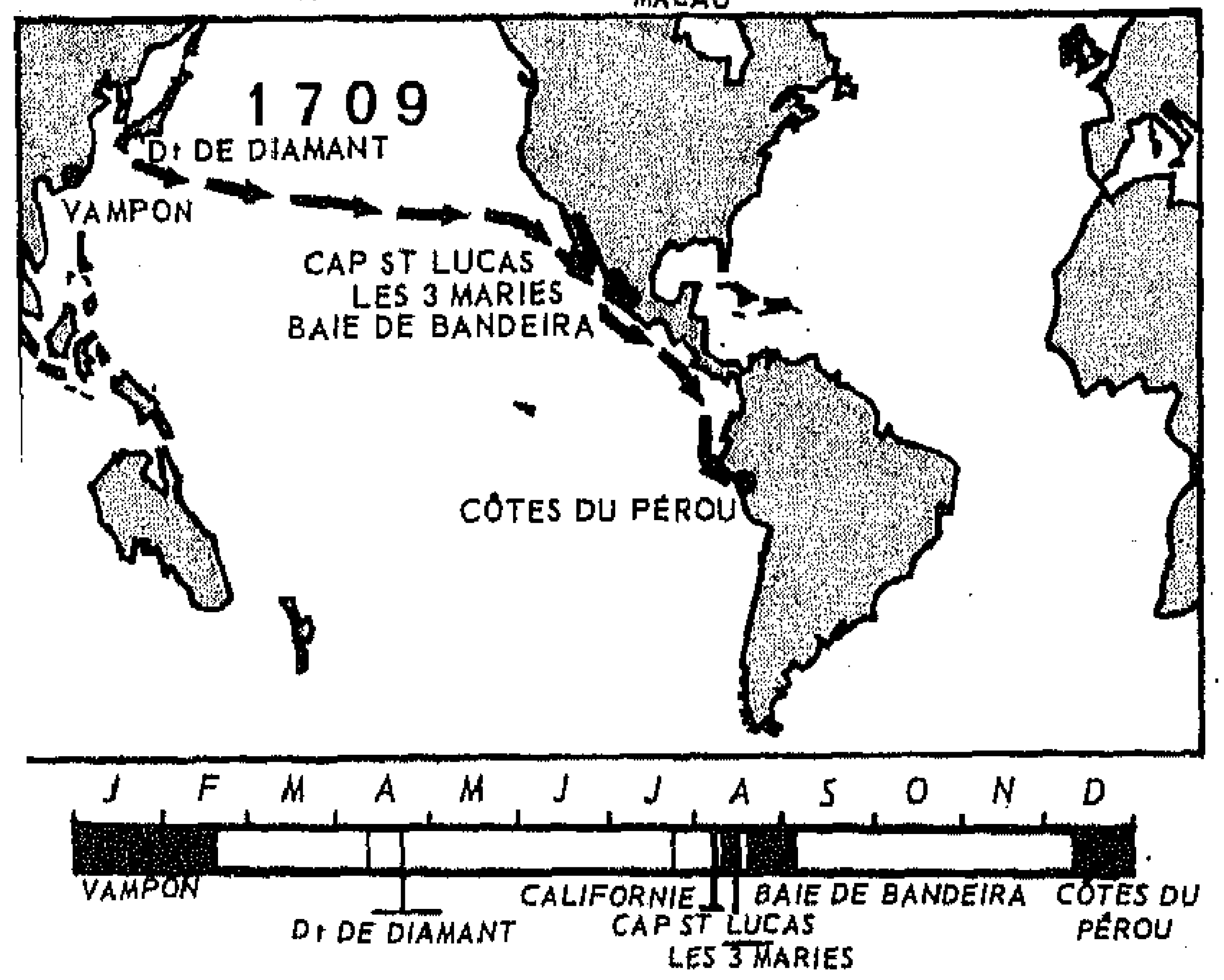

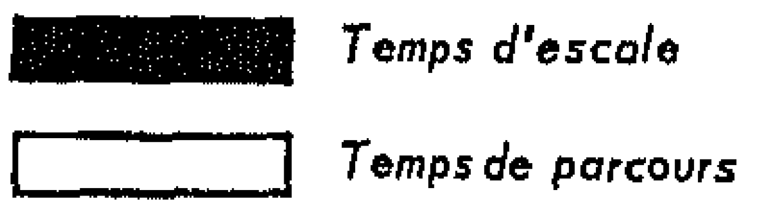

٢٥ ـ رحلة السفينة سانت أنطوان .

رحلة السفينة سانت أنطوان تحت قيادة السيد دي فروندادMonsieur de Frondad التي استمرت ٥٥ شهرا. ونحن عندما نتتبع مسار هذه الرحلة الكشفية نتمثل ضخامة العالم في القرن الثامن عشر ، وكيف كانت المسافات فيه طويلة تقدر بالشهور والسنوات . ونلاحظ أن السفينة سانت أنطوان ، شأنها شأن السفن الأخرى في ذلك الزمان ، كانت تمضي في الموانيء من الوقت أكثر مما كانت تمضي في البحر . (عن وثيقة من وثائق المكتبة القومية الفرنسية).

باسم رأس الرجاء الصالح ؟ ما الذي كان يمكن أن يجدوه إذا قاموا برحلات بحرية إلى هناك ؟ لقد كان الذهب ، والعاج ، والعبيد تحت سيطرة المدن الإسلامية ، وتجارها على ساحل زنجبار وفي القوس الذي يرسمه نهر النيجر فيما وراء الصحراء. كان القيام برحلات بحرية الى غرب أفريقيا يتطلب أن تكون هناك " حاجة " اليها . فهل كان هذا ، الذي يتصوره البعض على أنه تميز الغرب ، في حقيقته: أن الغرب وجد نفسه محصورا في قارته الضيقة التي كانت أشبه شيء بـ " رأس آسيا " فكان بحاجة إلى العالم ، بحاجة إلى الخروج من داره؟ ويقول مؤرخ متخصص في تاريخ الصين ، إنه ما كان يمكن أن يحدث شيء مما حدث ، لو لم تنطلق مدن الغرب الرأسمالية انطلاقتها آنذاك ...(٦٩) . لقد كانت هذه المدن هي المحرك الذي لولاه لظلت التقنية عاجزة .

ولا يعني هذا أن المال، ورأس المال هما اللذان صنعا الملاحة في أعالي البحار. على العكس : لقد كان مجتمع الصين ، ومجتمع البلدان الإسلامية في ذلك العصر مجتمعين أوتيا ما قد نسميه بلغة اليوم مستعمرات. وكان الغرب آنذاك بالقياس اليهما ما يمكن أن نسميه " بروليتاريا ". ثم حدث شيء هام يتمثل في ذلك التوتر المستمر الذي أخذ، منذ القرن الثالث عشر ، يهز أركان الحياة المادية ، ويغير سيكولوجية العالم الغربي كلها. وكان الدافع الذي أسماه المؤرخون : الجوع إلى الذهب ، أو الجوع إلى العالم، أو الجوع إلى التوابل، دافعا يواكبه ، في مجال التقنية ، سعي دائب إلى الجديد بكل أشكاله، وإلى التطبيق النفعي بمختلف ألوانه ، سعي دائب إلى تطبيقات تكون في خدمة البشر، وتستهدف التخفيف من جهد الانسان وكده، وإلى زيادة فعالية نشاطه إلى أقصى حد. ومن هنا نرى أن تتابع الاكتشافات العملية المعبرة عن إرادة واعية إلى السيطر على العالم، والاهتمام الزائد بكل ما يمكن أن يكون مصدرا للطاقة ، سمتان ترسمان وجه أوروبا الحقيقي، حتى قبل أن تحقق نجاحها ، وتشهدان على مسيرتها إلى الهيمنة .

طريق في القرن السابع عشر، لايكاد يكون له رسم. (جزء من لوحة بعنوان " طاحونة هوائية "من رسم يان بروبجل الكبير Jan Brueghel الذي يكنى ببروبجل القطيفة Brueghel de Velours)

بطء المواصلات

كان نجاح الملاحة البحرية هائلا ، وكان شيئا جديدا رائعا : أدى إلى إنشاء منظومة اتصالات عالمية . ولكنه لم يستطع أن يغير شيئا مما اعتور وسائل النقل من بطء وقصور، وظلت وسائل النقل البطيئة المعيبة تمثل طائفة من الحدود الدائمة التي وقفت في وجه اقتصاد العهد القديم . ظلت الرحلات الملاحية حتى القرن الثامن عشر طويلة طولا مفرطا، توشك ألا تنتهي إلى نهاية ، وظلت وسائل النقل البري بطيئة توشك أن تكون مصابة بالشلل . وليقل من يشاء أن شبكة ضخمة من الطرق الفعالة قد أنشئت في أوروبا في القرن الثالث عشر ، يكفي مثلا أن ننظر إلى مجموعة اللوحات الصغيرة التي رسمها يان بروبجل Jan Brueghel، المحفوظة في متحف Alte Pinakothek في ميونيخ، لنتبين أن الطريق في القرن السابع عشر لم يكن، حتى في السهول، "شريطا" ينساب عليه المرور في سيولة . بل إن الانسان لا يكاد يتعرف على المسار الذي يحد الطريق . ومن المؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يتبينه من الوهلة الأولى ، وعليه أن يستدل عليه بالتدقيق في حركة الذين يسلكونه وهم في أغلب الأحيان فلاحون يسيرون على أقدامهم ، وعربة يعجلتين تحمل على متنها فلاحة معها سلالها متجهة إلى السوق؛ ورب رجل سار على قدميه ممسكا بلجام دابة... وقد نجد من حين لآخر ثلة من الفرسان يزهون بأنفسهم ، أو عربة تجرها ثلاثة جياد متينة مرحة ، وكأنها تقل أسرة كاملة من البورجوازيين . فإذا نظرنا إلى اللوحة التالية وجدنا بركا مليئة بالماء، والفرسان يخوضون في الوحل، ودوابهم تغوص بأرجلها حتى العراقيب في الماء الراكد، والعربات تتقدم في عناء ، ومشقة ، وقدغاصت عجلاتها في الوحل . أما المترجلون، والرعاة، والخنازير فقد آثروا السلامة ، وأخذوا أنفسهم بالكياسة ، فارتقوا الجانب المرتفع الآمن الذي يحف بالطريق . وتتكرر نفس المشاهد في شمال الصين ، بل ربما كانت هناك أشد سوءا ، فقد كانت " العربات ذوات العجلتين ، والخيول ، والمترجلون "، إذا أصيب الطريق " بالتلف " أو إذا كان يلف " لفة طويلة" ، " يمرون من خلال الحقول المنزرعة لاختصار السكة ، ويصنعون لأنفسهم طريقا آخر أفضل ، لا يعبأون بالغرس النابت ، أو الذي بلغ درجة من النماء " (٧٠). وإنما نذكر هذا المشهد لنصحح به الصور التي رسمها الرحالة الأوروبيون لطرق كبيرة أخرى ، قالوا عنها إنها تلقى الصيانة المدهشة ، وتكسى بالرمل، أو تعبد بالبلاط ، وأفاضوا في الثناء عليها، والإعجاب بها (٧١).

لم يتغير شيء في هذه المجالات ، لا في بلدان أوروبا التي أمسك ريشيليو بزمام أمورها، ولا في تلك التي تربع شارلكان على عرشها، ولا في الصين التي حكمها آل سونج Song ، ولا في الإمبراطورية الرومانية ـ التي آل تاجها إلى شارلمان في مستهل القرن التاسع وأصبحت تسمى فيما بعد بالأمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية ـ

أو لم يتغير إلا أقل القليل. كانت هذه الطرق البطيئة هي التي تحكم التبادل التجاري، بل تحكم العلاقات بين البشر حتى في أبسط صورها ، وتجعلها بطيئة ثقيلة . وكان سعاة البريد في ذلك العصر يمضون الأسابيع أو الشهور في الطريق حتى يصلوا إلى من يسعون اليهم بالبريد . ولم ينهزم المكان ـ على حد قول ارنست فاجيمان Ernst Wagemann ـ وتقصر المسافات، إلا منذ عام ١٨٥٧، عندما مد أول كابل بحزى بين القارات ، ولم تستهل السكة الحديدية ، والسفينة البخارية ، والتلغراف ، والتليفون عصر الاتصالات الواسعة الحقيقية على مستوى العالم ، إلا متأخرة أشد التأخر .

تحديد المسارات

ولنأخذ على سبيل المثال أي طريق ، في أي عصر من العصور التي نتناولها في هذا الكتاب . سنري على هذا الطريق علامات هي بعض العربات ، ودواب الحمل ، وبعض الفرسان ، وبعض الفنادق ، وورشة حدادة ، وقرية ، ومدينة . هذه العلامات ترسم مسارا محددا، خطا محددا، لا ينبغي أن نتصور أنه خط واه، مهما لاح عليه من قلة الوضوح، فهو قائم بهذا التحديد حتى في منطقة حشائش البامبا pampa الأرجنتينية ، وفي ربوع سيبريا في القرن الثامن عشر . وظل المسافرون ، والمشتغلون بالنقل ، إلى حين، أسرى شبكة محدودة لا تتيح لهم إلا القليل من الاختيار ، فربما فضلوا هذا المسار على ذاك ليتفادوا نقطة دفع رسوم الطريق أو نقطة جمارك ، وربما واجهوا في الطريق الجديد من الصعاب ما يدفعهم إلى الرجوع ، وسلوك الطريق الذي كانوا يرجون تفاديه ؛ وربما أتيح لهم أن يختاروا في الربيع طريقا يناسب الربيع ، وفي الشتاء طريقا يناسب الشتاء، حتى لا ينزلقوا على طبقة من الصقيع الصلد ، أو يخوضوا في برك موحلة . ولكنهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عن سلوك طرق قد حددت ونظمت سلفا. فالسفر معناه الاعتماد على خدمات الآخرين .

ونقرأ عن الطبيب السويسري ياكوب فريس Jakob Fries، الذي كان يعمل ضابطا في الجيش الروسي ، أنه قطع في ١٧٨ ساعة الطريق الطويل الممتد من أومسك Omsk إلى تومسك Tomsk (٨٩٠ كيلومترا) بسرعة ٥ كيلومترات في الساعة في المتوسط، وكان يغير الحصان على نحو منتظم ، في كل مرحلة أو محطة من مراحل أو محطات الطريق،فيترك الحصان المتعب، ويأخذ حصانا جديدا ، حتى يكون مطمئنا إلى أنه سيصل سالما إلى المرحلة أو المحطة التالية دون أن يلقى من مطيته ما يعكر صفوه(٧٢).

ولو حدث للمسافر في الشتاء القاسي ما يحول دون وصوله إلى المرحلة أو المحطة التالية فمعنى ذلك أنه سيموت مدفونا تحت الثلوج .

كذلك كانت الحال في أعماق الأرجنتين في القرن الثامن عشر ، سواء كان الإنسان يسافر راكبا عربة ثقيلة من العربات التي تجرها الثيران ، والتي كانت تصل إلى بوينوس أيريس محملة بالقمح أو بالجلود ، ثم تعود أدراجها فارغة إلى ميندوثا Mendoza، أو سانتياجو في شيلي ، أو خوخوي Jujuy في اتجاه بيرو ، أو كان يفضل ركوب البغل أو الحصان : كان من الضروري ضبط سرعة السفر بحيث يتمكن المسافر من اجتياز البوادي الخالية من البشر despoblados، الصحاري ، في الوقت المقرر ، والوصول في الموعد المناسب إلى البيوت الآهلة ، والقرى ، ونقط التزود بالماء ، وباعة البيض واللحم الطازج . وإذا لم يكن الانسان يرتاح الى المقصورة الضيقة في العربة التي تجرها الثيران، فله أن يكتري حصانين ، حصانا يمتطي صهوته ، وحصانا يحمل عليه ما " يكفي من الفراش " ، ويسبق بهما القافلة ، راكضا ركضا سريعا ، والأفضل أن يكون ذلك بين الثانية ، والعاشرة صباحا تفاديا لحرارة الجو . " والخيول هناك مدربة على السرعة في هذه الأسفار ، حتى دون أن يهمزها الراكب بالمهماز، بل هي تركض من تلقاء نفسها عندما يترك لها العنان." وما الذي يجنيه الإنسان عندما يعدو مسرعا؟ إنه يتمكن من الوصول بسرعة الى " فنادق أو منازل البريد التي هي أفضل مكان يأوي إليه المسافر لينال بغيته من الراحة "(٧٣). فيها ينال المسافر طعاما ، ومرقدا . وتعيننا هذه التفصيلات على فهم الكلمات التي قالها واحد من كتاب القرن الثامن عشر في معرض الحديث عن الجزء الأول من الطريق الذي يؤدي من بوينوس أيريس إلى كاركارنيا Carcarana (التي تسمى بالفرنسية كاركارانال Carcaranl) : " كان الإنسان في أثناء هذه السفرة التي استمرت ثلاثة أيام ونصف يجد البقر ، والخراف أو الدجاج وفيرا ورخيصا ، باستثناء مرحلتين في جوف البوادي"(٧٤).

هذه الصور التي تصورالسفر في البلاد " الجديدة " (سيبريا ، والعالم الجديد) في وقت متأخر من القرن الثامن عشر تعطينا فكرة دقيقة عن السفر في القرون السابقة في البلدان المتحضرة " القديمة " .

كان الوصول إلى استانبول عن طريق البلقان ، بحسب نصيحة بيير ليكالوبييه Pierre Lescalopier، في عام ١٥٧٤ ، يتطلب" السير من الصباح إلى المساء بغير توقف ، اللهم إلا إذا أتيحت لك فرصة للنزول من فوق الحصان ، والجلوس قرب غدير أو على مرج ، وتناول بعض اللحم البارد من شنطة السرج ، أو زجاجة نبيذ من بين المتاع المحمول على الحصان ، والتبلغ بوجبة خفيفة ظهرا ، بينما الخيول التى حل لجامها، وعقلت أرجلها ترعى الكلأ أو تأكل ما يلقى إليها من علف ." فاذا أرخى المساء سدوله كان عليك أن تلم بأقرب كرفانسراي حيث تجد الطعام والشراب . والكرفانسرايات، وهي من قبيل الخانات، أنشئت بحيث تكون محطات عند نهاية كل يوم من أيام السفر ...

والأغنياء والفقراء يلمون بهذه الخانات لأنهم لا يجدون أفضل منها، وهي أشبه شيء بحواصل الغلال الكبيرة ، والنور لا ينفذ إليها ، لا من خلال نوافذ ، بل من خلال مزاغل كتلك التي تتخذ لإطلاق المدافع ." وينام الناس في هذه الكرفانسريات على مصاطب صفت حول القاعة ، ربطت فيها الدواب . وهكذا يرى كل نزيل حصانه تحت عينه، ويقدم إليه الطعام فوق المصطبة ، وإذا أراد الأتراك أن يعلفوا الخيول بالشعير، والشوفان فانهم يضعون العلف في مخلاة من الجلد يعلقونها بحمالة من فوق أذني الحصان ، ويدس الحصان رأسه فيها"(٧٥). وفي عام ١٦٩٣ وصف رحالة من أبناء نابلي هذه الكرفانسريات وصفا أبسط فقال: " انها لا تعدو أن تكون حظائر مستطيلة، خصص وسطها للخيول أما الجوانب المحيطة فللسادة " (٧٦).

أما في الصين فنجد " دليلا عاما " طبع في القرن الثامن عشر يبين الطرق التي تخرج من بكين ، ومساراتها ، ومحطاتها التي ينزل فيها وجهاء الحكام الماندارين عندما يسافرون في مهام رسمية على نفقة الأمبراطور، فيبيتون، ويأكلون، وينالون المطايا، والقوارب ، والحمالين . كانت هذه المحطات تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة يوم سفر، وكانت تقام في المدن الكبيرة ، والمدن من الدرجة الثانية ، وفي القصور، أو في أماكن الحراسة المسماة " ييه " Ye أو " شين " Chin التي " يقيم فيها رجال الدرك " . " وكانت محطات الاستراحة فيما مضى من الزمان تبنى في الأماكن التي لم يكن بها مدن ..." وكثيرا ما نشأت المدن في هذه المواقع فيما بعد(٧٧) .

ولم يكن السفر مستحبا إلا في البلاد التي تكون فيها المدن والقرى متقاربة لا يضطر فيها المسافر إلى قطع مسافة طويلة كل يوم ، ويجد عند كل مرحلة فندقا يرتاح فيه . وهذا دليل ظهر في عام ١٦٤٣ يذكرنا بالدليل المشهور بين السياح الآن ، والمعرف باسم " الدليل الأزرق " Guide Bleu، أسماه صاحبه " أوليس الفرنسي " françois Uiysse ، وذكر فيه الفنادق الجيدة، ومن بين هذه الفنادق مثلا فندق "فوكون رويال" Faucon royal في مارسيليا ، وفندق " كاردينال " Cardinal في أميان، ويحذر الدليل (ولا نعرف هل كان يفعل هذا بدافع من النية الصادقة أم بدافع الانتقام ؟) من النزول في فندق " سير " Cerf في مدينة بيرون Peronne . كان الترويح عن النفس من وعثاء السفر، والسرعة في الانتقال من مكان لآخر ميزة اقتصرت على البلاد الآهلة بالسكان، التي تمسك الحكومة فيها بزمام الأمور في غير تهاون ، وتحقق فيها الأمن والضبط، مثل الصين ، واليابان ، وأوروبا ، وبلدان العالم الإسلامي . وقد وجد رحالة في فارس في عام ١٦٩٤ " كرفانسرايات جيدة لا يبعد الواحد عن الآخر إلا قدر أربعة فراسخ lieues" وأكد أن السفر في بلاد فارس " رخيص" التكلفة ، فلما خرج الرحالة نفسه من فارس بعد ذلك ، ويمم في العام التالي، عام ١٦٩٥ ، شطر

الهندستان ، لم يجد هناك فنادق، ولا كرفانسرايات ، ولا دواب تكترى لجر لعربات ، ولم يجد فيها أطعمة تباع، وتشترى خارج " المدن الكبيرة التي قامت على أراضي خان المغول الأعظم " ؛ " فلا مكان للنوم، إلا أن تفترش الغبراء، وتلتحف السماء، في العراء، أو تحت شجرة(٧٨).

ربما أحسسنا بشيء من الدهشة عندما أدركنا أن الطرق البرية طرق محددة منذ البداية، ولكننا نحس بمزيد من الدهشة عندما نعلم أن مسارات الرحلات البحرية طرق محددة أيضا، فالسفن تخضع للرياح ، وللتيارات البحرية، ولمواضع التوقف في أثناء الرحلة. فالملاحة في البحار الحدودية في الصين ، شأنها شأن الملاحة في البحر المتوسط كانت ملاحة بمحاذاة الساحل ، كان الساحل هو الذي يوجه الملاحين ، وكان هو الذي يشدهم اليه ليتوقفوا في محطاته ، أما الملاحة المتوغلة في البحر فلها قواعدها التي تمليها الخبرة . وهكذا فإن خط الملاحة ذهابا إيابا بين أسبانيا ، وبين الهند الغربية - أمريكا - قد حدده في البداية كريسوف كولومبوس، ولم يدخل عليه ألامينوس Alami-nos في عام ١٥١٩ إلا القليل من التعديل(٧٩)، ثم بقي ثابتا لا يتغير حتى القرن التاسع عشر . كانت السفن في رحلة العودة تقترب من خط العرض ٣٣ شمالا، فكان الركاب يواجهون بغتة برودة المناطق الشمالية القاسية، وكتب أحدهم في عام ١٦٩٧: " بدأنا نحس بقسوة البرد ، وكان الفرسان الذين يلبسون الملابس الحريرية ، ولا يتدثرون بمعاطف من أشد الناس تعرضا لوطأته "(٨٠) . وحدث نفس الشيء في عام ١٥٦٥ عندما حدد أوردانيتا Urdaneta نهائيا مسار الرحلة البحرية من أكابولكو إلى مانيللا ، أي من أسبانيا الجديدة (المكسيك) إلى الفيليبين ، ذهابا وعودة ، وكانت رحلة الذهاب سهلة (تستغرق ٣ أشهر) ، أما رحلة العودة فكانت شاقة عسيرة ، تطول حتى لا تكاد تنتهي إلى نهاية (وربما استمرت ما بين ٦ و ٨ أشهر) وكان المسافر في هذه الرحلة في عام ١٦٩٦ يدفع مبلغا من المال يصل إلى ٥٠٠ قطعة (ذهبية) من فئة الثمانية(٨١).

كانت السفينة ، إذا سارت الأمور على ما يرام ، تسلك المسار الذي حددته القواعد المقررة ، وتقف حيث رسمت القواعد لها أن تقف . فإذا وقفت في المحطات أو الموانيء المصطلح عليها ، تموّنت بالأطعمة والماء ، وربما أجرت إصلاحات في قاعها، أو غيرت صاريا، إذا احتاج الأمر ، وكان لها أن تبقى في هذه المحطات، أو هذه الموانيء مطمئنة القلب ، وقتا طويلا . فقد رتبت هذه الأمور من قبل ، واتخذت تدابير لكل لشيء . فإذا كانت السفينة في عرض البحر قرب غينيا ، في تلك المنطقة المنخفضة التي لا ترتادها إلا السفن ذوات الحمولات الخفيفة ، فقد تفاجئها نوة عاصفة قبل أن تربط الشراع إلى الصاري ، فينكسر الصاري ، وهنا تذهب السفينة إذا استطاعت، إلى جزيرة البرينشيبه

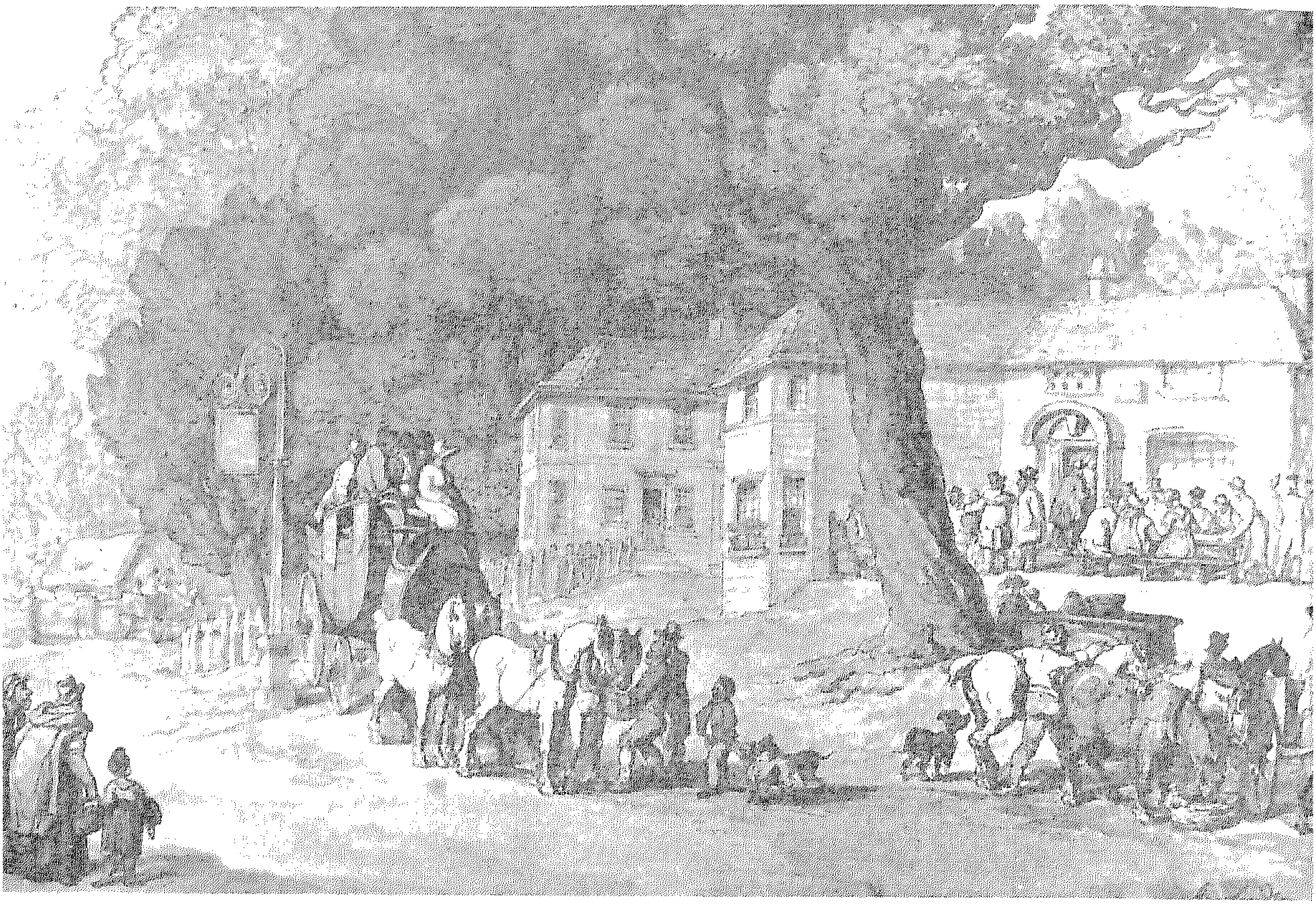

فندق على الطريق The roadside inn. وكان محطة عند كل مرحلة من مراحل الطريق ، ومكانا للتلاقي (رسم بالألوان المائية من أعمال توماس رولاندسون Thomas Rowlandson، عام ١٨٢٤) . ولقد لعب الفندق دورا كبيرا في انجلترة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في تطوير سوق حرة تفلت من إسار قوانين المدينة ولوائحها (انظر المجلد الثاني من كتابنا هذا) (متحف وايتورث بمانشستر Whiteworth Art Gallery)

البرتغالية a ilha do Principe، بحثا عن صار بديل، وتجد هناك السكر والعبيد . أما إذا كانت السفينة في مضيق سونده la Sonde فالكياسة تفرض عليها أن تلزم جانب سومطرة عن كثب تتجه إلى شبه جزيزة ملقا Malacca؛ فالساحل الجبلي للجزيرة الكبيرة يقي السفينة من النوات المباغتة ، والمياه هناك قليلة العمق . فإذا هب الأوركان - كما حدث عندما ركب كيمفر Kaempfer السفينة متجها إلى سيام - كان من الضروري إلقاء الهلب في الماء الغائض، والتشبث به كما فعلت السفن الأخرى القريبة التى رآها، حتى تنزاح العاصفة إلى مكان بعيد، فتستأنف الملاحة .

الطرق

ما لها وما عليها

لا ينبغي علينا أن نبالغ في تعظيم أحداث تاريخ الطرق ، فهي أحداث كانت تظهر بغتة على غير انتظار، وتتناقض بعضها مع البعض الآخر، وربما محت بعضها بعضا. ولو استطعنا أن نستنطق الطرق ، وسمعنا شهادتها ، لفسرت لنا كل الظواهر التي نود أن نعرف لها تفسيرا. وقد يظن البعض أن المنغصات التي كانت السلطات الفرنسية، وبخاصة في زمن لويس العاشر Louis x المعروف بالمزعج le Hutin (١٣١٤ ـ ١١٣١٦)، تسترسل فيها على الطرق المؤدية الى أسواق شامبانيا، هي الأسباب التي تشرح لنا تردي أحوال هذه الأسواق، ولكن هذا الظن لا طائل وراءه. كذلك لا ترجع أسباب تردي أحوال الطرق إلى ما حدث منذ عام ١٢٩٧، عندما استهلت سفن جنوة الكبيرة إقامة العلاقات الملاحية المباشرة المنتظمة بين البحرالمتوسط ، وميناء بروجه Bruegge في الأراضي الواطئة . في بدايات القرن الرابع عشر تغيرت بنية التجارة الكبيرة، فتلاشى التاجر الجوال الذي يسافر مع بضاعته ، وأصبح ظاهرة نادرة متزايدة الندرة، وأصبحت البضاعة تسافر وحدها ، وأصبحت المراسلات التحريرية هي التي تنظم حركة البضاعة عن بعد ، بين ايطاليا من ناحية والبلاد الواطئة من ناحية ثانية ، وهما قطبا الاقتصاد الأوروبي ، دون أن تكون هناك حاجة ، منذ ذلك الحين إلى أن يلتقى التجار معا في مكان ما في منتصف الطريق ، للتفاوض ، والتباحث . ومن هنا تدنت أهمية منطقة شامبانيا ، من حيث هي محطة وسيطة على الطريق، ولم يبدأ ازدهار أسواق جينيف، من حيث هي نقطة التقاء أخرى للمباحثات التجارية وتسوية الحسابات، إلا منذ بداية القرن الخامس عشر(٨٢).

كذلك لا ينبغي أن نلتمس لما حدث حول عام ١٣٥٠ من انقطاع الطريق التجارية عبر قارة آسيا، تلك التي سميت بالطريق المنغولية ، تفسيرات صغيرة . كان الغزو المغولي في القرن الثالث عشر قد حقق عن طريق البر اتصالا مباشرا بين الصين، والهند، وأوروبا ، بعد أن غابت شمس الحكم الإسلامي ، وقد سلك هذه الطريق أبو ماركو بولو وعمه، ومن بعدهما ماركو بولو نفسه Marco Polo ، ولو يكونوا هم وحدهم الذين وصلوا إلى الصين البعيدة ، والهند ، سالكين طرقا طويلة توشك ألا تنتهي إلى نهاية، ولكنها كانت طرقا آمنة بدرجة تثير الدهشة . إنما كان السبب في انقطاع هذه الطريق هو الركود الهائل الذي حدث في منتصف القرن الرابع عشر . فقد أصاب الركود كل شيء فجأة ، لا فرق في ذلك بين الغرب وبين الصين تحت حكم المغول . ولا ينبغي لنا أن نصدق أن اكتشاف العالم الجديد قد غير على الفور ترتيب أولويات طرق المواصلات على

وجه الأرض . فقد شهد البحر المتوسط بعد انقضاء قرن على اكتشاف كولومبوس ، وفاسكو دا جاما ازدهار الحياة في ربوع العالم ؛ ولم يبدأ الركود في هذه المنطقة إلا متأخرا .

أما إذا نظرنا إلى تاريخ الطرق البرية القصيرة فإننا نتبين أن الحالة الاقتصادية العامة تحدد مقدما ما يكون لهذا الطريق أو ذاك من نجاح أو فشل، ما يزيد من الحركة عليه ، وما يقلل منها . ومن هنا فنحن نشك في أن " سياسة التبادل الحر " التي اتبعها أمراء منطقة برابانت Brabant كانت واسعة الأثر كما قال البعض : ولعلها كانت فعالة في القرن الثالث عشر عندما كانت أسواق شامبانيا تنعم بالازدهار كل الازدهار. كذلك كانت الاتفاقيات التي عقدتها ميلانو مع رودولف الهابسبورجي Rudold von Habsburg (١٢٧٣ -١٢٩١) للحصول على طريق معفى من الضرائب من بازل إلى برابانت تعتبر نجاحا ضخما . ولم يكن ذلك حدثا كبيرا في ذلك الزمان. ثم تتابعت الاتفاقيات بعد ذلك بين عام ١٣٥٠ ، وعام ١٤٦٠ تنص على امتيازات جمركية على نفس هذاالطريق ، في نفس الوقت الذي كانت فيه مدينة جنت Gent في عام ١٣٣٢ تقوم عند سانليس بإصلاح الطريق الذي يصلها بأسواق شامبانيا (٨٣) ، والرأي عندنا أن هذه الأحداث كانت على الأحرى تعبر عن مسعى للخروج من حالة اقتصادية متدنية . وعلى صعيد آخر ، وفي وقت شهد عودة الازدهار الاقتصادي ، قام مطران زالتسبورج burg Salz في عام ١٥٣٠ بإصلاح طريق البغال في جبل تاورن Tauern - من جبال الألب ـ دون أن يتحول هذا الطريق إلى منافس حقيقي لطريقي سان جوتارد St. Gotthard وبرينر Brenner اللذين تقف ميلانو ، والبندقية وراءهما (٨٤). فقد كان النشاط الاقتصادي من السعة بحيث كانت كل الطرق تنال نصيبها منه .

الملاحة

النهرية

قليل من الماء يبث الحياة في الأرض .ما ينساب نهر في جنبات منطقة حتى تدب فيها الحياة . وليس من الصعب علينا عندما نذهب الآن إلى أي مكان فيه ممر مائي أن نتخيل كيف كانت الحياة تتصل مرتبطة به . فإذا ذهبنا مثلا إلى جري Gray الواقعة على نهر السون Saone العريض الذي يلوح اليوم خاليا من حركة السفن، تصورنا السفن النهرية النشيطة التي كانت بالأمس تنساب على صفحته متجهة ناحية المنبع حاملة " بضائع مدينة ليون " وما أتيح لها من نبيذ ، ثم متجهة ناحية المصب في رحلة العودة حاملة شحنات من القمح، والشوفان والتبن ؟ وما كانت باريس تجد الطعام، والشراب، وما تتدفأ به على راحتها ، لو لم تكن هناك أنهار السين la Seine والواز

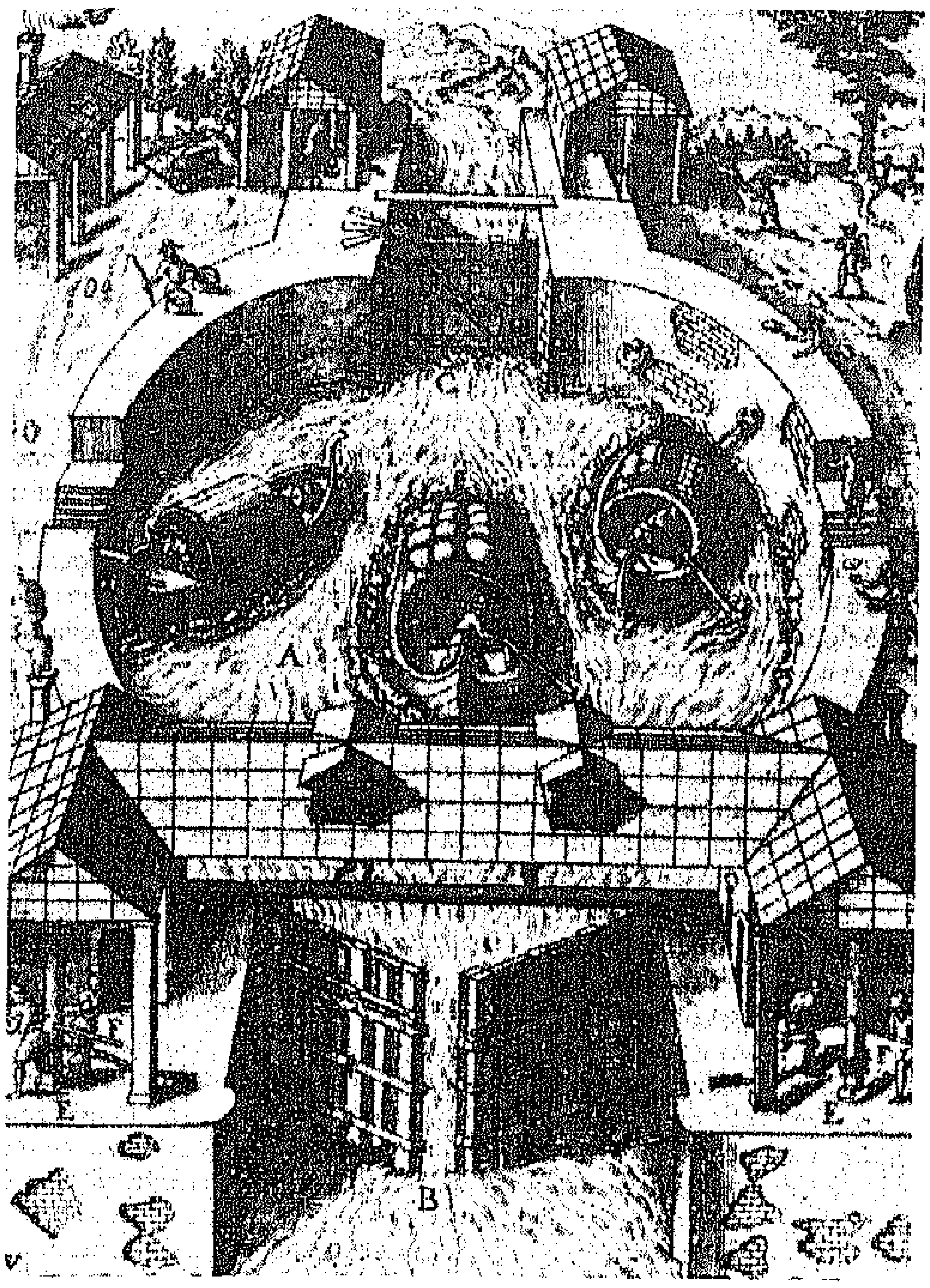

آليات الهويس وكيف يعمل . رسم يرجع الى عام ١٦٠٧ ، بريشة ف . زونكا Zonca. كان اكتشاف الهويس في رأى ت .س. فيلان T. S. Willan في مثل أهمية اكتشاف البخار ، وهو على الأقل علامة هامة من علامات التقدم التقني للغرب .

l`Oise والمارن la Marne والأيون l`Yonne . ولو لم تؤت مدينة كولونيا Koeln الألمانية نهر الراين لما أصبحت ، منذ ما قبل القرن الخامس عشر، أكبر مدن ألمانيا .

فإذا تصدى واحد من جغرافيي القرن السادس عشر لشرح نشأة البندقية، وتطورها، وما اتصل فيها من حركة ، فسيبدأ بالحديث عن البحر، وعن المسارات المائية التي تصل إلى مخاضاتها ، وهي أنهار البرينتا Brenta والبو Po والأديجي Adige، تلك الأنهارالتي كانت القوارب والمعديات التي يسيرونها بزانة طويلة، تسلكها هي وقنواتها بغير انقطاع ، متجهة إلى المدينة الكبيرة . وكانت أصغر الترع ، مهما بلغت من الصغر، تستخدم حيثما وجدت طريقا للمواصلات . وانظرإلى نهر الإيبرو في أسبانيا تجد، حتى القرن الثامن عشر، القوارب ذوات القاع المسطح تجري عليه من" تطيلة Tudela إلى طرطوشة Tortosa حتى تبلغ البحر " تنقل البارود، والقنابل، والذخيرة التي كانت تصنع في إقليم نابارة Navarre، على الرغم من الصعاب، والعقبات العديدة ، وعلى الأخص " شلال فليكس حيث كانوا يفرغون شحنات السفن ثم يعيدون شحنها بعد الشلال من جديد" (٨٥).

أما المنطقة الكلاسيكية للملاحة النهرية ، والتي فاقت ألمانيا ، فكانت تلك التي تمتد فيما وراء نهر الأودر Oder، وهي بولندة وليتوانيا ، حيث قامت ملاحة نهرية نشيطة منذ العصر الوسيط اعتمدت على أطواف ، كانوا يصنعونها من جذوع الشجر، يضمونها بعضها إلى البعض الآخر ، ويقيمون فوقها تعريشة كالكوخ للملاحين، وكانت حركة الملاحة النهرية ، والنقل واسعة أدت إلى نشأة محطات نهرية ، أو موانيء نهرية مثل طورن Thorn وكوفنو Kovno وبريستليتوفسك Brest-Litovsk ، كانت مثارا لمشكلات ومشاحنات لا تنتهي(٨٦).

أما جنوب الصين فقد بلغ في الملاحة النهرية من النهر الأزرق إلى مشارف منطقة يونن درجة لا تعدلها درجة أخرى على مستوى العالم كله. وقد تحدث شاهد عيان حول عام ١٧٣٣ فقال : " والتجارة الداخلية في الصين تعتمد على هذه الملاحة ، ولا تعدل الصين في هذا المضمار دولة أخرى في العالم قاطبة ... والإنسان يرى في كل جنباتها حركة دائبة على صفحات الأنهار ، من سفن ، وقوارب ، وأطواف . ومن الأطواف ما يبلغ طوله نصف فرسخ ، وقد برعوا في صناعتها أي براعة ، فهي تنحنى عندما ينحني مجرى النهر . وهي تكون في مواضع كثيرة ما يشبه المدن المتنقلة . والملاحون يسكنون على هذه المراكب إقامة دائمة ، ومعهم زوجاتهم وأولادهم ، مما يحمل الإنسان على تصديق ما يقوله غالبية الرحالة الذين جابوا الصين ، وقالوا أن عدد الذين يعيشون على متن السفن من الأهالي يساوي عدد الذين يعيشون في المدن والريف مجتمعين"(٨٧). ولقد قال الأب دي ماجايان Magaillans من قبل : " ليس هناك بلد في الدنيا كلها يضاهي الصين في الملاحة [يقصد الملاحة النهرية]"..." وكأن امبراطورية الصين امبراطوريتان ، امبراطورية تعيش على صفحة الماء ، وامبراطورية تعيش على وجه الأرض ، ولديها من المدن ذوات القنوات ، والقوارب الشبيهة بالبندقية مثل ما لديها من المدن الأخرى " (٨٨). ولدينا حكم قال به شاهد عيان في عام ١٦٥٦ كان قد ركب السفينة طوال أربعة أشهر كاملة ، حتى بلغ مدينة سيتشوان Setchouan ونهر يانج تسي كيانج Yang-tse-kiang الذي يسمونه " ابن البحر "، قال أن هذا " الكيانج لا حد له ولا قاع كالبحر ". واعتقد رحالة آخر جاء بعد هذا بعدة سنوات ، وعلى وجه التحديد في عام ١٦٩٥ ، أنه توصل إلى المبدأ الذي يفسر حياة الصينيين : " إن الصينيين يحبون الحياة على الماء مثل البط ..." ويضيف إلى ذلك أن الناس هناك يسيرون بقواربهم ساعات ، وساعات قد تصل إلى نصف النهار كله " بين صفوف متراصة من الأطواف العائمة ، وعليه أن يجتاز قنوات ، وأنهار المدينة في بطء مثبط، ميئس " بين أخلاط وأخلاط من السفن"(٨٩).

وسائل المواصلات

جامدة ، متخلفة ، عتيقة

لو أننا جمعنا سلسلة من الصور المتصلة بوسائل المواصلات في العالم كله من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وقدمناها إلى القاريء بغير تعليق أو شرح، وخلطناها بعضها ببعض ، فمن المؤكد أنه سينجح في ترتيبها جغرافيا بحسب الأماكن التي تصورها ، فمن السهل أن ينسب الإنسان إلى الصين الكرسي الصيني الذي يحمله الحمالون كالهودج ، والعربة الصينية الصغيرة ذات العجلتين المزدانة بستارة ، وينسب إلى الهند الثيران التي تحمل الناس والبضائع ، وكذلك الفيلة ، وينسب الى عالم الإسلام الحصان العربي الذي يركبه الأتراك في البلقان أو في تونس ، وقوافل الجمال، وينسب إلى أفريقيا طوابير الحمالين، وينسب إلى أوروبا العربات ذوات العجلتين ، والأربع عجلات التي تجرها الثيران أو الخيول.

أما إذا طلبنا اليه أن يرتب هذه الصور زمنيا ، فستستبد به الحيرة كل الحيرة ، لأن وسائل المواصلات لم تتطور قط في هذه الفترة التي نتناولها بالبحث . ففي عم ١٦٢٦ رأى الأب دي لاس كورتاس Las Cortas في منطقة كانتون بالصين الحمالين الصينيين " يحملون كرسي المسافر مستخدمين عرقين من البامبو " وفي عام ١٧٩٣ وصف جورج ستونتون George Staunton نفس الحمالين النحاف العجاف " بأسمالهم البالية، وقبعاتهم المصنوعة من القش، ونعالهم ." وبينما كان متجها إلى بكين على متن سفينة، كان من الضروري نقل السفينة من قناة إلى قناة ، فحملوها بقوة السواعد ، والروافع ذات الحبال ، والبكر " وحملوها على هذا النحو إلى أعلى في أقل من الوقت الذي كان يمكن أن يتطلبه الهويس ، وإن تطلب استخدام الكثير من البشر ، ولكن البشر قوة جاهزة حاضرة في كل الأحوال ، تتكلف القليل ، ويفضلونها دائما على كل ما عداها ."(٩٠). وعلى النحو نفسه يستوي أن نقرأ في وصف قافلة في آسيا أو أفريقيا نصا كتبه ابن بطوطة في عام ١٣٢٦ ، أو نصا كتبه في القرن السادس عشر رحالة انجليزي لم يكتب اسمه، أو نصا كتبه رينيه كاييه René Caillé (١٧٩٩ - ١٨٣٨) ، أو تلك العبارات التي سجلها المكتشف الألماني جيورج شفاينفورت Georg Schweinfurth (١٨٣٦ - ١٩٢٥): فالصورة التي نخرج بها واحدة : صورة لم تتغير بالزمن، بل تبدو كما لو كانت خارج الزمن . بل لقد رأينا نحن بعيوننا في نوفمبر ١٩٥٧، في شوارع بولندة في منطقة كراكاو، ما يمكن أن نصفه بأساطيل من العربات الريفية الكارو الضيقة ذوات الأربع عجلات تتجه نحو المدينة، تحمل الناس وفروع أشجارالصنوبر الإبرية، تجرها من خلفها على الأرض، وكأنها شعر نساء من البشر تدلى على الأرض واختلط بالتراب. هذا

المنظر ، الذي يعيش الآن يقينا أيامه الأخيرة ، كان مألوفا في القرن الخامس عشر، دون ما تغيير .

وكذلك كانت الحال بالنسبة لوسائل المواصلات البحرية ، فسواء كانت هي السفن الجونكية الصينية أو اليابانية ، أو القوارب البيروجية التي يركبها أهل الملايو وبولينيزيا ، أو السفن العربية في البحر الأحمر أو المحيط الهندي ، فإننا نجد أنفسنا أمام أنماط لم تتغير ، مثل الشخصيات النمطية التي لا تتغير على المسرح . ويمكننا أن نقرأ ما كتبه إرنست زاخاو Ernst Sachau (١٨٩٧ ـ ١٨٩٨) الذي كان خبيرا في حضارة بابل ، أو ما كتبه بيلون دي مانس Belon du Mans (١٥٥٠) أو ما كتبه جيميللي كاريري Gemelli Careri (١٦٩٥) في وصف السفن العربية التي صنعت من ألواح ربطت بحبال ليف مصنوعة من ألياف النخل ، دون أية مسامير ، فسنجد أن الوصف هو هو لم يتغير على مر القرون . وسجل جيميللي ما رآه عندما شاهد بعينيه إنشاء سفينة في دامان Daman بالهند : " كانت المسامير من الخشب ، وكانت القلفطة التي سدت بها الفروج من القطن "(٩١). ولقد ظلت هذه السفن الشراعية العربية باقية زمنا طويلا إلى أن بدأ استخدام البواخر الانجليزية ، بل ما زالت إلى اليوم تؤدي في بعض الأماكن نفس الخدمات التي كانت تؤديها أيام السندباد البحري .

وسائل المواصلات

في أوروبا

من الواضح أنه من الممكن أن نتبين في أوروبا ، خلافا لما ذهبنا اليه من قبل، بعض الفروق التي تحمل طابع الزمن . فنحن نعرف أن العربات ذات العريش الأمامي المتحرك، التي تطورت عن عربات المدفعية، لم تستخدم استخداما حقيقيا إلا حول عام ١٤٧٠؛ وأن العربات المسماة كاروسة carrosses لم تظهر في صورة بدائية إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر (ولم تتخذ نوافذ من الزجاج إلا في القرن السابع عشر) ؛ وأن عربات الديليجنس diligences أو عربات السفر لم تظهر إلا في القرن السابع عشر ، ولم تنتشر عربات البريد voitures de poste ، أي عربات السفر، مثلها مثل الحنطور الايطالي vetturini، إلا في عصر الرومانتيكية ؛ وبدأ إنشاء أول هويس في القرن الرابع عشر . ولكن هذه الابتكارات الجديدة لا قدرة لها على أن تواري الحقيقة المتمثلة في أشياء لا تحصى في الحياة اليومية ظلت على حالها ولم تتغير. حتى مجال السفن ، الذي بدأ يشمله التغيير ، كان محدودا بحدود قصوى لا سبيل إلى تجاوزها ، حدود السعة ، والسرعة ؛ فقد ظلت سمات السعة وسمات السرعة من الأمور الجامدة المستمرة على حالها ، السقف الذي لاسبيل إلى اختراقه .

فمنذ القرن الخامس عشر كانت هناك في جنوة سفن شراعية يسمونها الكراكات caraques تتسع لحمولة ١٥٠٠ طن ؛ وكانت سفن البندقية التي تحمل ١٠٠٠ طن تحمل بالات القطن الضخمة من سوريا ؛ وكانت السفن الشراعية تخرج من ميناء راجوزة في القرن السادس عشر تحمل بضاعة بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ طن تخصصت في تجارة الملح ، والصوف ، والقمح ، وصناديق السكر ، وبالات الجلد التي تشغل حيزا كبيرا (٩٢). كذلك كانت سفن الكراكات البرتغالية التي أسموها بعمالقة البحار تتسع لما يصل إلى ألفي طن ، وتحمل على متنها من المسافرين والبحارة ما يربو على ٨٠٠ شخص(٩٣). وكانت هذه السفن عرضة للكوارث ، ولخسائر مادية فادحة ، كأن يتبين أن الخشب الذي بنيت منه لم يكن قد جف قبل استخدامه على نحو كاف ، فتصاب السفينة في جنبها بخرق يندفع منه الماء ، أو تهب عاصفة هوجاء تلقي بالسفينة على المواضع الضحلة من ساحل موزمبيق ، أو يحيط القراصنة بمراكبهم الخفيفة بهذه السفينة العملاقة ويستولون عليها ، ويضرمون فيها النار . وقد حدث في عام ١٥٩٢ أن استولى الانجليز على السفينة البرتغالية مادري دي ديوس Madre de Deus (= حرفيا " أم الرب " أي أم يسوع المسيح) فلم يستطيعوا الإبحار بها في التيمس لعمق غاطسها، وكانت حمولتها تزيد على ١٨٠٠ طن ، وقال السير جون بارو John Burrough، معاون رالي Raleigh الذي استولى عليها ، إنها غول ضخم ضخامة هائلة (٩٤).

كانت ترسانات السفن قد حققت أرقاما قياسية من حيث ضخامة السفن التي قامت ببنائها ، قبل أن يظهر أسطول الأرمادا المنيع Armada إلى الوجود في عام ١٥٨٨ بنحو قرن من الزمان . ولكن هذه السفن العملاقة لم يكن من الممكن استخدامها استخداما مجزيا إلا في نقل شحنات البضائع الثقيلة أو في القيام بالرحلات التجارية البعيدة ، وهكذا كانت السفن العملاقة ترفا استأثرت به الاحتكارات ، سواء منها الاحتكارات التي كانت قائمة على أساس من القانون، أو التي كانت قائمة قياما فعليا. ولكن ضخامة هذه السفن كانت تقف عند حد لم يمكن تجاوزه آنذاك ، ولنا أن نذكر السفن العظيمة التي عرفت باسم " الهنود indiamen" والتي كانت ، على الرغم من اسمها، متخصصة حول نهاية القرن الثامن عشر في التجارة مع الصين ، فلم تكن حمولتها تزيد على ١٩٠٠ طن ، وكان هذه الحمولة تمثل الحد الأقصى الذي تفرضه المواد التي تبنى منها السفن ، كما تفرضه الأشرعة ، والمدافع المنصوبة فوق متنها .

ولكن الحد الأقصى شيء ، والمتوسط شيء آخر . فقد كانت هناك حتى الأيام الأخرى للملاحة الشراعية سفن صغيرة جدا حمولتها ٣٠ أو ٤٠ أو ٥٠ طن تشق عباب البحار . وظلت الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٤٠ حيث أتاح استخدام الحديد إمكانية بناء سفن أكثر حمولة. حتى ذلك التاريخ كانت السفينة التي تبلغ حمولتها ٥٨٠

٢٠٠ طن هي المألوفة ، أو هي القاعدة ، أما السفن التي تصل حمولتها إلى ٥٠٠ فكانت الاستثناء ، وأما تلك التي تصل إلى ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ طن فكانت حالات فريدة مثيرة .

سرعة بطيئة

وتجارة بطيئة

كانت الطرق رديئة ، وكانت السرعة تبعا لها بطيئة . والإنسان في عام ١٩٧٩ يفكر في هذه الأمور ، ويرى فيها رأيه ، وهو في موقف أفضل من موقف الإنسان الذي عاصرها ، وكانت بالنسبة إليه حقائق الحياة اليومية التي ألفها . إن الإنسان اليوم يدرك العوائق الهائلة التي كانت تعترض طريق الحياة النشيطة في كل صورها. وبول فاليري Paul Valéy هو القائل: " كان نابليون يسير بنفس البطء الذي سار به يوليوس قيصر". ونظرة إلى الرسوم التخطيطية الثلاثة التالية تتيح لنا قياس سرعة انتقال الأخبار من الخارج إلى مدينة البندقية ، فقد سجل مارين سانودو Marin Sanudo في يومياته Diarii، وسانودو من أعيان البندقية ، في الفترة من عام ١٤٩٦ إلى عام ١٥٣٣، وكان يسجل يوما بيوم تاريخ ورود الرسائل التي كان مجلس الرئاسة السينيوريا يتلقاها ، وتاريخ خروج الرسائل التي كان يصدرها ، أما في الفترة من عام ١٦٨٦ إلى عام ١٧٠١ ، ومن عام ١٧٣٣ الى عام ١٧٣٥ فقد رجعنا فيها إلى الصحف المكتوبة باليد التي كانت تظهر في البندقية ، وكانت عبارة عن " أخبار شغل يد " بمعنى الكلمة ، كما كانوا يقولون في باريس . ولنا أن نجري ما نشاء من الحسابات ، فسنصل إلى نفس النتيجة ، وهي أن سرعة نقل الأخبار كانت عادة لا تجاوز ١٠٠ كيلومتر في الـ ٢٤ ساعة ، باستخدام الخيول ، والسفن ، والعدائين ، وكانت تلك الأرقام هي الأرقام القياسية ، أما ما كان البعض يحققه من أرقام تجاوز هذه المستويات ، فكانت شيئا محدودا ، باهظ التكاليف ، من قبيل الترف . فقد كان في مقدور من يدفع الثمن ، في أوائل القرن السادس عشر ، أن يرسل أمرا من مدينة نورنبرج الألمانية إلى مدينة البندقية الايطالية ، فيصل في أربعة أيام . وإذا كانت المدن الكبيرة قد تمكنت من تلقى الأخبار السريعة ، فإنما تحقق لها ذلك لأنها كانت قادرة على دفع ثمن السرعة ، ولأنه كانت هناك دائما وسائل لقهر المكان . ومن بين هذه الوسائل بطبيعة الحال إنشاء الطرق المعبدة بالحجارة ، ولكن هذه الطرق ظلت وقتا طويلا استثناء من القاعدة .

كان الطريق المعبد من أوله الى آخره ، الممتد بين باريس وأورليان ، يعتبر وسيلة اتصال سريعة ، على الرغم من قطاع الطرق الذين ظل الناس في منطقة غابة تورفو Torfouيخشونهم حتى القرن السابع عشر ، وكانت أورليان هي الميناء النهري الأساسي

في فرنسا ، وكانت تضارع باريس أو تكاد تضارعها . ثم إن نهر اللوار كان أكثر الطرق المائية راحة للناس " كان نهر اللوار واسع المجرى ، طويل المسار ... فكان من الممكن ركوب السفن الشراعية الجارية على صفحته لمسافة تزيد على ستين فرسخ في المملكة ، وهو ما لا يتحقق في نهر آخر في فرنسا ". كان الطريق المعبد بين باريس وأورليان هو " ملك الطرق " ، هو طريق العربات الكبير أو كما قال أحد الايطاليين في عام ١٥٨١ strada di carri. من هذا القبيل أيضا طريق استانبوليول Stamboulyol من استانبول إلى بلغراد عبر صوفيا ، وكانت العربات تجري على صفحته منذ القرن السادس عشر ثم سلكته العربات arabas الفاخرة في القرن الثامن عشر (٩٥).

أما التقدم الذي أتى به القرن الثامن عشر فكان يتمثل في فرنسا في القرن الثامن عشر على سبيل المثال في التوسع في مد الطرق المعبدة . وكانت قيمة الإيجار الذي تدفعه عربات السفر الفرنسية - التي كانت تسمى بعربات البريد - لقاء استخدام الطرقات تبلغ ١٢٢٠٠٠٠ جنيها من فئة الليفر في عام ١٦٧٦ ، ارتفعت إلى ٨٨٠٠٠٠٠ في عام ١٧٧٦ ؛ وكانت ميزانية الطرق ، والكباري في عصر لويس الرابع عشر نحو سبعمائة ألف من الجنيهات ، فارتفعت في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية إلى سبعة ملايين (٩٦)، علما بأن هذه الميزانية لم تكن تصرف إلا على الأعمال الفنية ، وعلى شق الطرق الجديدة ؛ أما صيانة الطرق القديمة فكانت تنهض به السخرة التي عرفت بسخرة الطرق الكبيرة ، وكانت قد تقررت حول عام ١٧٣٠ على أساس إداري، وألغاها ناظر المالية تورجو Turgot في عام ١٧٧٦ ، ثم أعيدت في العام نفسه مرة أخرى ، ولم تنته إلا في عام ١٧٨٧ . وكان مجموع أطوال شبكة الطرقات الموجودة في فرنسا آنذاك ١٢٠٠٠ فرسخ (أى ما يساوي ٥٣٠٠٠ كيلومتر) علاوة على ١٢٠٠٠ فرسخ من الطرق التي كانت تحت الإنشاء (٩٧) .

وهكذا جاء إنشاء عربات المسافرين السريعة المسماة ديليجانس diligences في وقته المناسب ، حيث كانت الطرق قد تطورت ، وتهيأت لها ، ومن بين هذه العربات السريعة النوع الذي سمي تورجوتين turgotine نسبة إلى ناظر المالية ، والمصلح الاقتصادي تورجو ، وكان المعاصرون يصمونها بالشيطانية ويجدونها خطيرة ، ويفيضون في إبراز عيوبها ، فمن قائل " إنها عربة ضيقة ، حشرت مقاعدها حشرا ، حتى كأن الركاب يلتحمون بعضهم في البعض إذا جلسوا ، فإذا أراد أحدهم النزول كان عليه أن يخلص ذراعه وساقه من جاره [...] وإذا شاء سوء الحظ أن يركب بجانبك راكب عظيم الكرش ، أو عريض المنكبين [...] فأنت بين أمرين ، إما أن تئن وتتوجع طوال الرحلة أو تنزل "(٩٨). وكانت سرعة التورجوتينات مجنونة ، وحوادثها كثيرة ، ولم يكن ضحاياها يتلقون تعويضا. أما الطرق الكبيرة نفسها فلم تكن معبدة على سعتها ، بل

كانوا يعبدون في وسطها حارة ضيقة فقط ، فلم يكن من الممكن أن تمر عربتان الواحدة بجانب الأخرى دون أن تغرس عجلة في الشريط الترابي الجانبي ، وكانت تنجم عن ذلك الحوادث.

ومن عبارات النقد التي قيلت في هذه العربات ما كان ساذجا سذاجة نادرة ، يذكرنا بما سيقال فيما بعد " ترحيبا " بالسكك الحديدية في بدايتها الأولى . فما قطعت عربة سريعة من عربات نقل المسافرين في عام ١٦٦٩ المسافة بين مانشيستر ولندن في يوم واحد ، حتى انهمرت الاحتجاجات ، وقال من قال إن عصر الفرسانية النبيل قد ولى ، وأن الخراب أحدق بصناع السروج والمهاميز ، وأن حياة البحارة العاملين على سفن نهر التيمس قد انتهت (٩٩).

ولكن حركة التقدم لم تتوقف . وظهرت بين عام ١٧٤٥ ، وعام ١٧٦٠ العلامات الأولى لثورة في مجال الطرق ؛ من هذه العلامات انخفاض أسعار النقل ، والانتقال، ومنها أيضا علامة أكثر بروزا ودلالة على تغير الزمان ، وهي استغلال " طائفة من صغار الرأسماليين المهتمين بالمضاربات " لهذا الانخفاض في الأسعار .

وجدير بالذكر أن هذه الأرقام القياسية ، على تواضعها ، كانت قاصرة على الطرق الكبيرة دون سواها . فإذا خرجنا عن نطاق الطرق الكبيرة ، طرق العربات التي دهش لها يانج Young (١٠٠) ، إلى الطرق الأخرى ، وجدنا من المحال أن تسلكها العربات الثقيلة مطمئنة في أغلب أوقات العام ، بل إن آدم سميث Adam Smith يضيف أنه كان من المحال " أن يسلك الإنسان هذه الطرق ممتطيا صهوة جواد ، وأن السبيل الوحيد لاجتيازها دون التعرض لأخطار الموت هو ركوب البغال ."(١٠١) . هكذا كانت المناطق الريفية التي لا تصل إليها الطرق مناطق حكم عليها بما يشبه الاختناق .

النقل

وأرباب النقل

كان النقل ، بعد الفراغ من الحصاد أو من جني العنب ، أو في شهور الشتاء ، يمثل الحرفة الثانية التي يمارسها الملايين من فلاحي الغرب الذين كانوا يقنعون بأجور زهيدة. وكأنما كان إيقاع نشاط هؤلاء الفلاحين ، من عمل وفراغ ، تحدده أعمال النقل صعودا وهبوطا. وسواء كانت أعمال النقل منظمة أو غير منظمة ، فإن عبئها كان يقع على كاهل أخلاط من البشر الفقراء ، وربما كان من بينهم من لا يحسبون على الفقراء المدقعين، ولكنهم كانوا على أية حال يعيشون حياة متواضعة أشد التواضع . ولم تكن حال البحارة تختلف عن هؤلاء ، فقد كانوا يأتون بهم من بين بؤساء أوروبا ، بل من بين بؤساء العالم. ولم يكن بحارة السفن الهولندية ، التي حققت ما حققت من نجاح في بحار الدنيا

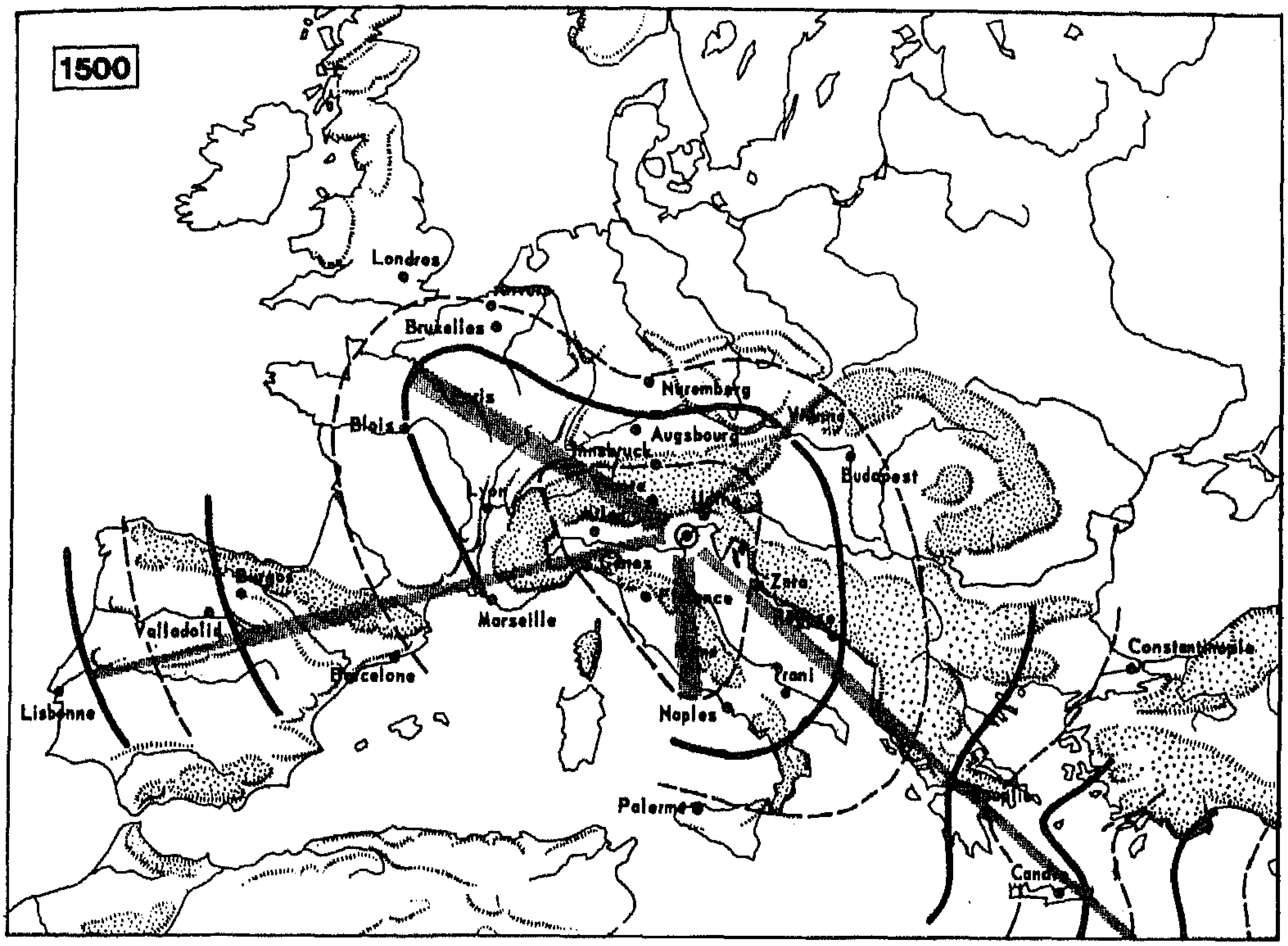
1500
Londres
Bruxelles
Nuremberg
Blois
Augsbourg
Budapest
Marseille
Valladolid
Lisbonne
Naples
Constantinople
Palerme
Trani

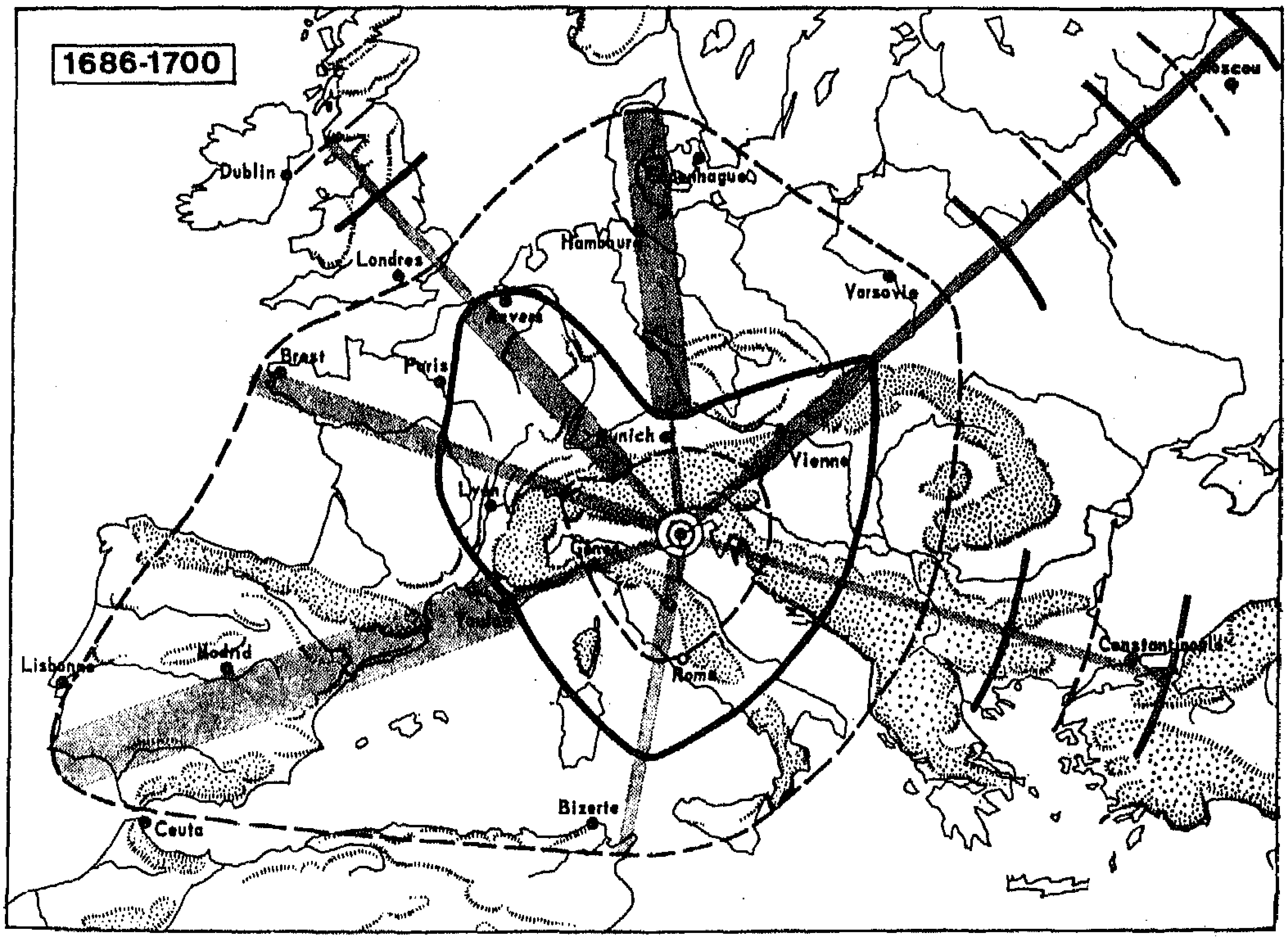
1686-1700
Dublin
Londres
Hambourg
Varsovie
Brest
Paris
Vienne
Lyon
Madrid
Lisbonne
Rome
Constantinople
Bizerte
Ceuta

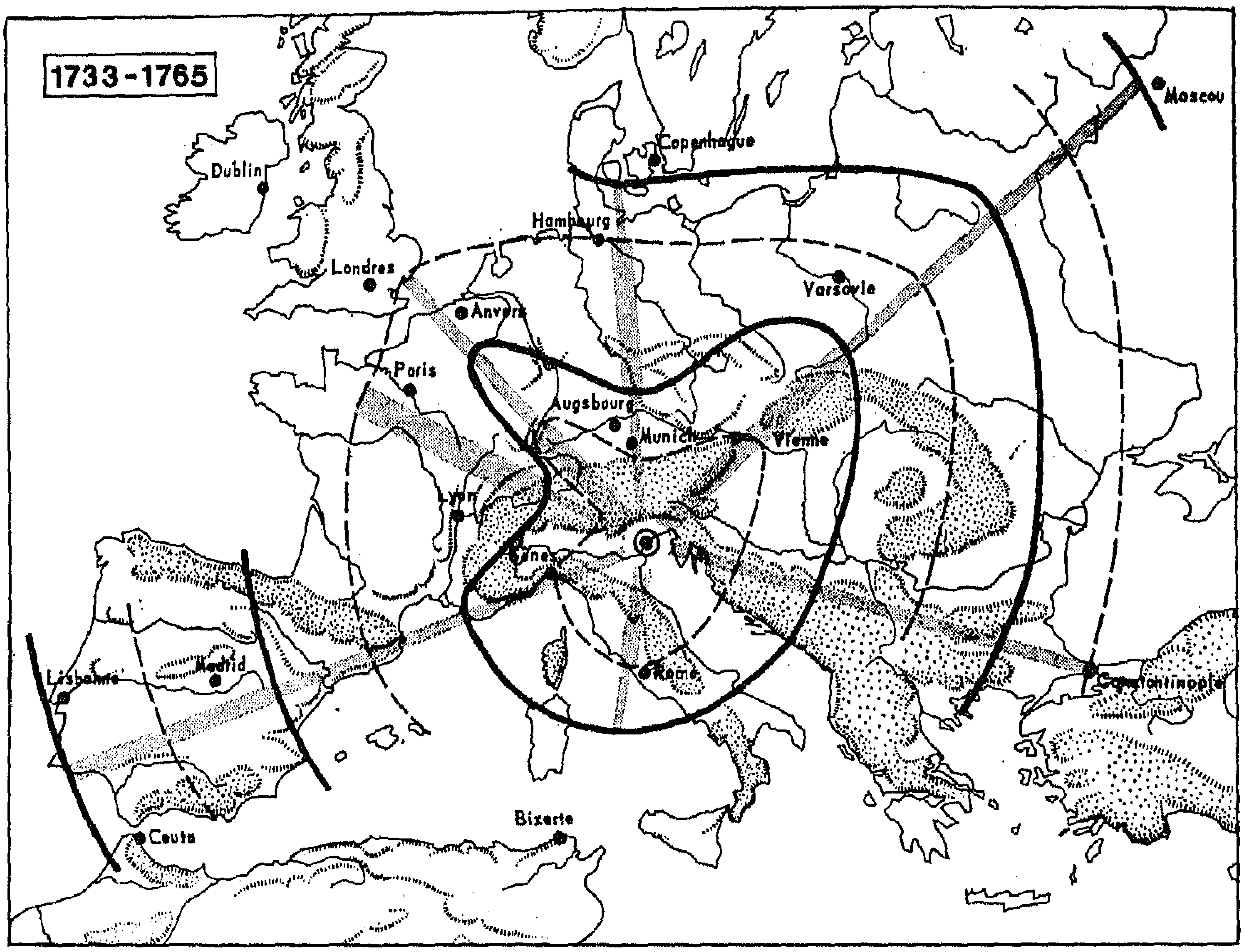

٢٦ ـ الأخبار والمدد التي كانت تحتاج اليها للوصول الى البندقية .

تبين خطوط الزمن (اسبوع ، اسبوعين ، ثلاثة أسابيع الخ) في الخرائط الثلاث التوضيحية الوقت التقريبي الذي يحتاج اليه الخطاب ليصل الى البندقية .

وقد رسمت الخريطة الأولى بناء على الدراسات التي قام بها ب . ساردييلا P. Sardella عن عام ١٥٠٠ ، أو اذا أردنا الدقة عن الأعوام من ١٤٩٦ـ ١٥٣٣. أما الخريطة الثانية ، والخريطة الثالثة فقد رسمتا بناء على البيانات التي تضمنتها صحف البندقية المكتوبة باليد ، والمحفوظة في دار محفوظات لندن Record Office، وتولى ف .ك . سبونر F. C. Spooner استخلاص هذه البيانات من أجلي . ونلاحظ أن المسارات المظللة تزداد كثافة تظليلها تبعا لازدياد متوسط السرعة.

ونلاحظ أن الاختلافات بين الخرائط تتباين شدتها تبعا لهذا أو ذاك المحور . وترجع هذه الاختلافات الى عدد العدائين الذين كانوا يكلفون بحمل الخبر ، وكان عددهم يزيد اذا كان الخبر هاما وملحا . كما نلاحظ أن وقت نقل الخبر في الخريطة الأخيرة يطابق في المتوسط الوقت في الخريطة الأولى ، أما في الخريطة الثانية فهو أحيانا أقل بكثير (وليس لدينا دليل قاطع على ذلك) . والمفروض من ناحية المبدأ أن نستطيع المقارنة بين السرعات بحسب المناطق التي تحدها خطوط الزمن على المستوى نفسه ، ولكن هذه المناطق من الصعب تحديدها بدقة كافية. ومع ذلك فنحن عندما نحاول أن نطابق بينها ، نجدها متقاربة متوازنة ، نظرا لأن الزيادة في ناحية يقابلها نقص في ناحية ثانية . ومن البديهي أن تحويل الأرقام الدالة على المكان مقدرة بالكيلومترات المربعة إلى سرعات يومية عملية تكتنفها التحفظات .

كلها، استثناء من هذه القاعدة . ومن هذا القبيل نفسه كان هؤلاء الملاحون الأمريكيون، الذين أثاروا الدهشة في أواخر القرن الثامن عشر بمغامراتهم الغريبة ، والذين كان الصينيون يعتبرونهم " انجليزا من الدرجة الثانية " ، كانوا يخرجون على متن سفن صغيرة ، ربما تراوحت حمولاتها بين ٥٠ و ١٠٠ طن ، من فيلادلفيا أو من نيويورك، ويتجهون إلى الصين ، وكانوا ، كما قال الرواة ، يشربون حتى السكر كلما وجدوا إلى عب الخمر من سبيل(١٠٢).

وجدير بالذكر أن مقاولي النقل لم يكونوا عادة من طبقة الرأسماليين الكبار ، فقد كانت أرباحهم قليلة ، وهذا موضوع سنعود إلى الحديث عنه مرة أخرى .

وأيا كان الأمر فقد كان النقل غاليا ، على الرغم من تواضع التكاليف والعائد، لأنه كان يتكلف في المتوسط ١٠٪ من قيمة البضاعة المنقولة ، على قدر ما يقرر مؤرخ تخصص في تاريخ ألمانيا في العصر الوسيط (١٠٤). وكان هذا المتوسط يتغير من بلد إلى بلد، ومن وقت إلى وقت . ونحن لدينا بيانات عن سعر القماش الذي تم شراؤه في الأراضي الواطئة ، وصدر إلى فلورنسا في الفترة بين عام ١٣٢٠ ، وعام ١٣٢١ ، ونعرف منها أن تكاليف النقل (تأسيسا على ستة حسابات معروفة) كانت تتدرج بين ١١,٧٠ ٪ كحد أدنى ، و٢٠,٣٤ ٪ كحد أعلى من القيمة الكلية للبضاعة (١٠٥). كانت هذه هي المعدلات بالنسبة للبضائع الغالية الثمن ، القليلة الوزن، أما ما غير تلك من بضائع فلم تكن تنقل إلى مسافات بعيدة . ففي القرن السابع عشر كان التاجر " يدفع ما بين ١٠٠ و١٢٠ جنيه من فئة الليفر لينقل من أبون Beaune إلى باريس برميلا من النبيذ فيه كمية كانوا يقدرونها بمكيال قديم هو الكو une queue ، ويساوي ١,٥ مويد Muid، أو ٣٩٢ لترا من النبيذ لم تكن قيمته تزيد على ٤٠ جنيها من فئة الليفر في المعتاد " (١٠٦).

وكانت نفقات النقل بطريق البر عادة أعلى من نفقات النقل بطريق البحر . وقد أدى هذا إلى حالة من ضعف حركة نقل البضائع على الطرق البرية الطويلة ، نستثني منها حركة النقل على الطرق النهرية ، وإن كان السادة أصحاب الأراضي وأصحاب الحل والعقد في المدن قد أثقلوا على الناس ، وأكثروا من تحصيل رسوم المرور على الطرق النهرية ، وكانت عملية التحصيل مضيعة للوقت بما تتطلبه من وقوف، وتأدية الزيارات، وشرب النبيذ . ومن هنا نفهم أن التجار كانوا ، حتى في وادي نهر البو Po، وعلى طول نهر الراين ، يفضلون الطرق البرية على الطرق النهرية التي كانت نقاط تحصيل رسوم المرور تقوم عليها مستخدمة سلاسل فولاذية تمد من الشاطيء إلى الشاطيء المقابل . أضف إلى ذلك مخاطر العصابات التي لا يستهان بها ، والتي كانت شائعة في العالم كله ، وكانت علامة هامشية دالة على عسر اقتصادي واجتماعي دائم .

أما الطريق البحري فكان يعني ، خلافا لما سبق، نوعا من الانطلاق إلى حياة سهلة، الانطلاق إلى آفاق " التبادل الحر " أو التجارة الحرة ، التي حققت مزيدا من المكاسب لاقتصاد البلاد المطلة على البحار . وقد علمنا أن أسعارالغلال في انجلترة كانت منذ القرن الثالث عشر يرتفع ثمنها بنسبة ١٥ ٪ عن كل ٨٠ كيلومتر نقل بالطريق البري، بينما كان نبيذ جاسكونيا ينقل من ميناء بوردو الفرنسي الى ميناء هال الانجليزي Hull أو الى ايرلندة بطريق البحر قاطعا مسافة طويلة فلا يزيد ثمنه نتيجة النقل إلا بنسبة ١٠ ٪ (١٠٧). وإلا لنقرأ ما قاله جان باتيست سي Jean-Baptiste Say في عام ١٨٢٨ لطلابه في معهد الفنون ، والصنايع في باريس عن سكان مدن الولايات المتحدة الأمريكية المطلة على المحيط الأطلسي من أنهم " يستخدمون في التدفئة الفحم الذي يجلبونه من انجلترة التي تبعد عنهم أكثر من ألف فرسخ ، وكانوا يفضلون ذلك الفحم على خشب غاباتهم الذي يبعد مسافة عشرة فراسخ ، فقد كان نقل الخشب بطريق البر مسافة ١٠ فراسخ أغلى من نقل الفحم بطريق البر مسافة تربو على ١٠٠٠ فرسخ"(١٠٩). وفي الوقت الذي كان فيه جان باتيست سي يلقي هذه المعلومات الأولية على مسامع تلاميذه (وكانت هذه المعلومات تكرارا للمحوظات شبيهة سبقه اليها آدم سميث) لم تكن السفينة البخارية قد ظهرت إلى الوجود بعد. إلا أن النقل البحري كان على الرغم من ذلك قد تطور منذ حين ، معتمدا على خبرة متزايدة في إنتاج السفن المبتناة من الخشب، والمزودة بالشراع والدفة ، ووصل إلى أقصى درجات الإتقان الممكن.

وبقدر ما تطورالنقل البحري ، ظل النقل البري متخلفا على نحو يثيرالدهشة كما يتضح من المقارنة ، وكان النقل البري في سعيه إلى الإتقان ينتظر حدوث الانطلاقة الأولى للثورة الصناعية حول الأعوام المضطربة ، بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠، ليقف على أعتاب السكك الحديدية وانتشارها. والحق أن الانتقال من ابتكار عربات " التورجوتين" إلى اختراع السكك الحديدية التي غطت على التورجوتين يمثل تحولا هائلا في النقل البري، ويبين لنا ما كان يمكن من الناحية التقنية تحقيقه في وقت أسبق بكثير. حدث توسع في شبكات الطرق البرية (وصل في الولايات المتحدة ، التي اتخذ فيها كل شيء أبعادا هائلة ، إلى ثمانية أضعاف في الفترة من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٥٠ ؛ أما نسبة التوسع في الامبراطورية النمساوية من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٧ فقد زاد على الضعف) ؛ كذلك دخلت تحسينات على العربات ، وعلى القضبان ؛ وشاعت وسائل المواصلات بين الناس شيوعا ديموقراطيا . ولم تتحقق هذه الطفرات نتيجة هذا أو ذاك الاكتشاف التقني بعينه ، بل جاءت بكل بساطة نتيجة استثمارات ضخمة، وتحسينات

مقصودة ، ومنظمة منهجيا ، وكان الانطلاق الاقتصادي في ذلك الوقت هو الذي جعل تحقيقها شيئا " مجديا " وضروريا .

النقل

يعرقل الاقتصاد

لم يكن هدفنا من التفسيرات الموجزة التي قدمناها أن نقدم وصفا كاملا لقطاع النقل، بل إن هذه الشروح الموجزة لا تكفي لتلخيص التعليقات المستفيضة المسهبة التي تضمنها الكتاب الكلاسيكي في هذا المجال، وأعني به كتاب فرنر زومبارت Sombart Werner(١٠٩) ـ أضف إلى هذا أنني سأعود الى تناول بعض الموضوعات الخاصة بالنقل مرة أخرى(١١٠).إنما كان هدفي يتلخص في أن أوضح بسرعة إلى أي مدي عرقل النقل مسيرة التبادل ، وفرض عليه قيوده المتمثلة في البطء، والقصور ، وعدم الانتظام ، والغلاء ، وما التبادل إلا أداة كل مجتمع اقتصادي آخذ بأسباب التقدم ، فإذا تعطل التبادل ، تعطل النشاط الاقتصادي تبعا له . كان كل شيء يصطدم بعجز إمكانات النقل . ولنا أن نعيد عبارة بول فاليري التي ذكرناها من قبل لكي نستحيي ذلك الواقع القديم : " كان نابليون يسير بنفس البطء الذي سار به يوليوس قيصر ".

كان الحصان في الغرب يرمز إلى السرعة ، وكان هو الوسيلة المثلى لقطع المسافات، وسيلة نراها اليوم ، عندما نعود ببصرنا من الحاضر الى الماضي ، هزيلة قاصرة . ولكن الغرب اجتهد ما استطاع في تحسين الخدمات التي كان الحصان يقوم بها : فقد تزايدت الخيول ، وكدنت خمسة وستة وثمانية خيول لتتمكن من جر العربات الثقيلة ؛ وهيئت محطات عند مراحل الطرق تقف فيها عربات المسافرين ، والبريد ويقف فيها المسافرون المتعجلون لكي يبدلوا الخيول ، فيتركوا تلك التي تعبت ، ويكتروا جيادا مرتاحة نشيطة ؛ كذلك أدخلت تحسينات على الطرق نفسها ...وإذا كان هذا هو الذي حدث فربما كان السبب في ذلك أن النقل بطريق البر كان متفوقا تفوقا بعيدا على النقل النهري والنقل على صفحات القنوات الذي كان بطيئا شديد البطء (١١١). يشهد على هذا أنهم كانوا في شمال فرنسا حتى القرن الثامن عشر ينقلون من الفحم بالعربات أكثر مما كانوا ينقلون بالسفن النهرية (١١٢).

كان هذا الصراع ، الذي تصور الإنسان أن في استطاعته أن يغلب فيه المسافات بالخيل، صراعا اتصلت أسبابه في كل بقاع العالم ، وإن بدا عليه مقدما أنه مقضي عليه بالفشل . فإذا ذهبنا إلى الصين أو إلى بلاد فارس، وجدنا ظروفا عكسية تدلنا بعكسيتها على أهمية الحصان، ذلك أنهم كانوا هناك يعتمدون أكثر ما يعتمدون على

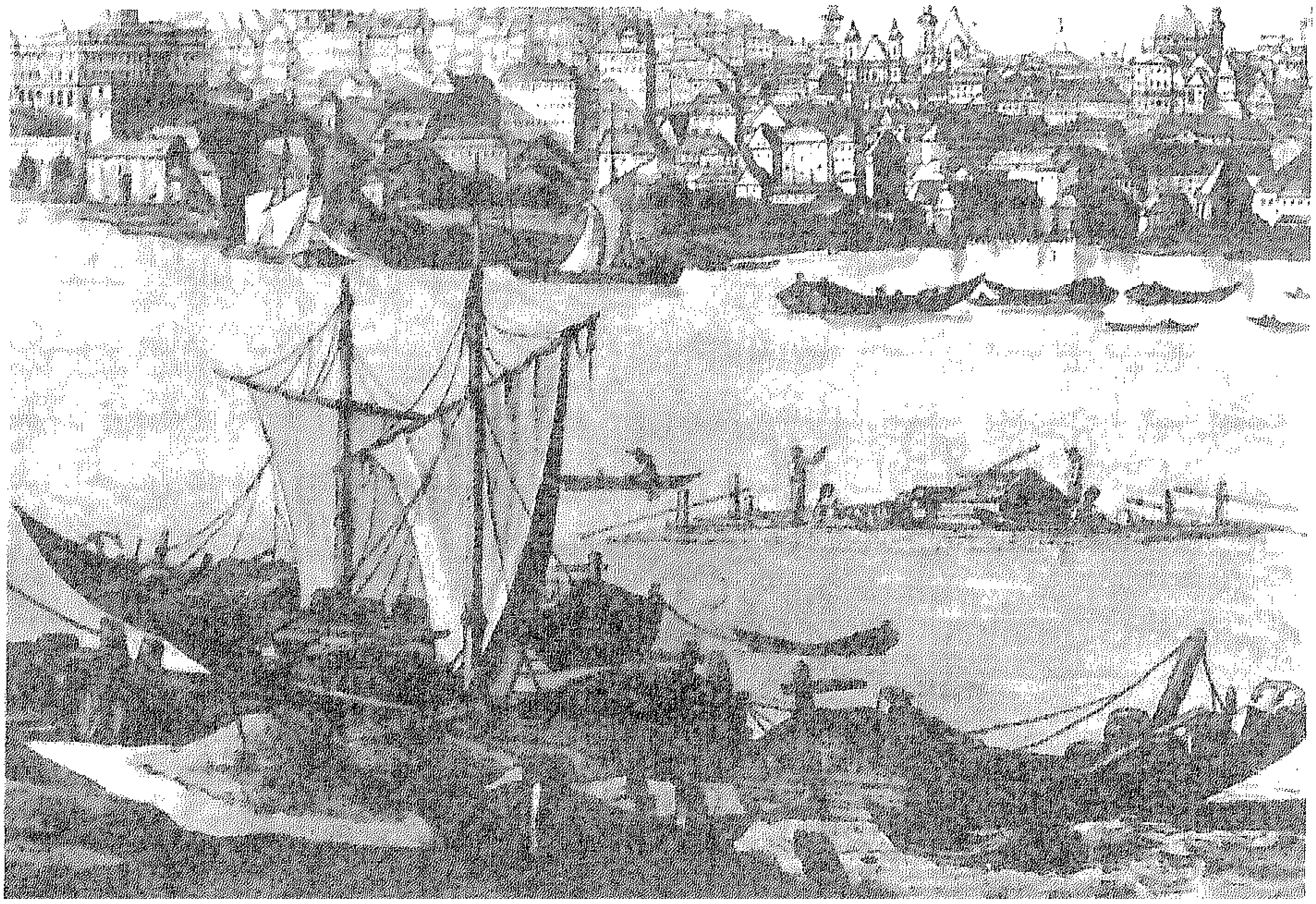

وارسو على البر الأيسر لنهر الفايكسل . ونرى سفنا من مختلف الأنواع تنساب بلا انقطاع على صفحة النهر ، منها سفن الشحن الشراعية ، والقوارب ، والأطواف . رسم بريشة زيجموند فوجل Zygmunt Vogel، أواخر القرن الثامن عشر .

قوة الإنسان بدلا من الحصان . وكانوا في الصين يقولون أن الشيال يجاري الرهوان أو الحصان التتاري الصغير. أما في فارس فقد كانت الخيول رائعة ، ولكنها لم تكن تستخدم إلا في الحرب ، وفي الأبهة ، وكانوا يجللونها " بجلل من الفضة ، والذهب، والأحجار الكريمة " ، وما كانوا يستخدمونها في النقل أو في الاتصالات السريعة ، إنما كانوا يستخدمون الإنسان ، فيعهدون إليه بالرسائل السريعة ، والمكاتبات، والبضائع القيمة . ويحدثنا شاردان ـ في عام ١٦٩٠ ـ بأنهم كانوا " يسمون الساعي السريع شاطرا chatir، وهو اسم يطلق على السعاة الذين يحسنون الجري وقطع المسافات بسرعة. وتعرفهم في الطريق بسيماهم ، فهم يحملون قنينة ماء ، وجرابا يضعونه على ظهورهم، وفيه زادهم الذي يكفيهم ثلاثين أو أربعين ساعة ، يعتمدون عليه إذا عز القوت في الطريق ، فهم يتركون الطرق الرئيسية ، ويخترقون البقاع تخرما ليصلوا إلى الهدف بسرعة. كذلك تعرفهم بأحذيتهم وبجلاجلهم الكبيرة التي يدقونها دقا يشبه جلاجل

البغال ، ويعلقون هذه الجلاجل الرنانة في أحزمتهم لكي تعينهم صلصلتها على اليقظة . وهؤلاء الشطار يتعاطون هذه الحرفة بالوراثة أبا عن جد ، ويتدربون منذ سن السابعة أو الثامنة على خطوتها ، وهي خطوة واسعة يخطونها دون أن تنقطع أنفاسهم ."

كذلك " أوامر الملوك في الهند، كان مرسالان يحملانها في طرد يضعه الواحد منهما مكشوفا ظاهرا فوق رأسه ، وكان المرسالان يجريان بما يحملان مسافة فرسخين، ثم يبدلان بمرسالين آخرين . وكانت لهما أجراس يسمع صليلها عندما يقتربان ، كما يسمع نفير الحوذي عندما تقترب عربة المسافرين ؛ فإذا وصل المرسالان العداءان ، انبطحا على الأرض ، فأخذوا عنهما الطرد ، وحملوه على رجلين آخرين ، تجهزا لهذه المهمة " وكان المرسال من هؤلاء يقطع في اليوم بين ١٠ و ٢٠ فرسخا (الفرسخ أكثر من ٤ كيلومترات) (١١٣).

التقنيات
وتاريخها المتثاقل

تاريخ التقنية هو تاريخ السرعة ، وتاريخ الوقوف ، التقنية عملية دفع سريع، وعملية تجميد أيضا ، كثيرا ما أعقبت الواحدة الأخرى ، فالتقنية تدفع حياة البشر إلى الأمام، ولكنها تصل شيئا فشيئا إلى إحداث توازنات جديدة على درجات أعلى، ثم ما تلبث هذه التوازنات أن تجمد في مكانها وقتا طويلا ، لأن التقنية تتجمد أو تتقدم على نحو غير ملحوظ، منتقلة من ثورة إلى ثورة ، ومن تجديد إلى تجديد آخر. كل هذا يجري، وكأنما كانت هناك عمليات إيقاف تتوالى بلا نهاية ، وأنا حريص على تأكيد أثر عمليات الإيقاف هذه تأكيدا أوضح مما قد فعلت من قبل . ولكن هل من الممكن أن تكون التقنية دفعا سريعا، وأن تكون أيضا إيقافا وتجميدا ؟ نعم ، إن التقنية ، سواء سلكت سبيل الدفع السريع إلى الأمام ، أو سلكت سبيل الإيقاف والتجميد، هي تاريخ البشر بكل كثافته. وهذا هو السبب الذي نرجع إليه عجز المؤرخين الذين يعتبرون أنفسهم متخصصين في تاريخ التقنية عن الإحاطة بالتقنية الإحاطة كاملة شاملة.

التقنية
والزراعة

وعلى الرغم مما يبديه المؤرخون المتخصصون في تاريخ التقنية من نوايا طيبة ، وعلى الرغم من الفصول الموجزة التي يكتبونها ويجتهدون فيها في أن يقولوا على عجل ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه من أساسيات في هذا المجال ، فإنهم لم يولوا تقنيات الزراعة إلا القليل من اهتمامهم، مع أن الزراعة كانت طوال آلاف السنين هي" الصناعة" الكبرى لبني البشر . لقد درس هؤلاء المؤرخون تاريخ التقنيات، في أغلب الأحوال، على اعتبار أن تاريخ التقنيات هو مرحلة ما قبل التاريخ بالنسبة إلى الثورة الصناعية، ومن هنا تركز الاهتمام على الميكانيكا ، والتعدين، ومصادر الطاقة، حتى في الوقت الذي كانت فيه التقنيات الزراعية سواء بأساليبها التقليدية المألوفة أو بأساليبها المتغيرة (فقد كانت الزراعة في حقيقة الأمر تتغير ، وان كان تغيرها بطيئا) . تؤدي إلى نتائج عظيمة .

فاقتلاع الجذور ، والأعشاب ، والحشائش : تقنية ؛ واستزراع أرض ظلت زمنا طويلا جرداء : تقنية ثانية ؛ إنها أعمال تحتاج إلى محاريث متينة ، ودواب قوية مكدنة، وعمالة متزايدة ، والتعاون مع الجيران (المشاركة على سبيل المجاملة por favor في استصلاح الأرض على النحو المألوف بين البرتغاليين ، حيث يسارع الجار إلى مساعدة جاره دون انتظار لأجر)؛ وتوسيع الرقعة الزراعية ، بإزالة الغابات (مع اقتلاع جذور

الأشجار المجتثة أو تركها في مكانها، حرق الحسك ، والمخلفات الزراعية ، تدوير الشجر، الصرف ، إقامة السدود الترابية ، الري ، كل هذه تقنيات سواء في الصين أو في هولنده أو في ايطاليا حيث كانت عمليات استصلاح الأراضي مشروعات ضخمة ما لبث المهندسون أن تدخلوا فيها تدخلا منتظما .

ولقد رأينا أن كل تقدم إنساني، وكل تكاثر بشري يتبع - أو على الأقل يواكب - تحولا في الزراعة . كان إدخال النباتات الجديدة التي جلبت من أمريكا يمثل منعطفات هائلة في التاريخ، حدث هذا في الصين (عند إدخال الذرة، والفول السوداني، والبطاطا) وحدث في أوروبا (مع إدخال الذرة والبطاطس واللوبيا). وإدخال النبات الجديدة يعني بطبيعة الحال ابتكار تقنيات جديدة أو تطويع تقنيات موجودة، وتجويدها. كان هذا كله يتم دائما ببطء ، بل ببطء شديد ، ولكنه كان يتم على مستوى الجموع، ذلك أن الزراعة، والعمل في الأرض هو على الأرجح أكثر الأعمال اتصالا بالجماعة، والتجديد لا تكون له قيمة إلا إذا كان مرتبطا بنهضة اجتماعية تسانده وتفرضه .

التقنية الخالصة

ونحن إذا طرحنا السؤال الآتي : هل هناك تقنية خالصة ؟ وجدنا أن الإجابة عنه ستكون بالنفي ، فليست هناك تقنية خالصة قائما بذاتها، وهذا هو ما قلناه وكررناه في معرض الحديث عن القرون التي سبقت الثورة الصناعية. ولكن هناك كتاب ظهر حديثا (١١٤). أعطى نفس الإجابة فيما يتصل بالعصر الحاضر : إن العلم والتقنية يتضافران اليوم معا للسيطرة على العالم ، ولكن هذا التضافر يقتضي حتما أن تؤدي المجتمعات الحالية دورها في هذا الاتجاه ، فالمجتمعات الحالية مثلها مثل المجتمعات في الماضي تطلب التقدم أو توقفه .

زد على هذا أن العلم لم يكن قبل القرن الثامن عشر يحفل بالحلول والتطبيقات العملية إلا قليلا . هناك بطبيعة الحال استثناءات من هذه القاعدة ، نذكر منها اكتشافات هيجنس Huygens (البندول ١٦٥٦-١٦٧٥ ؛ والرقاص ١٦٧٥) التي أحدثت ثورة في صناعة الساعات ؛ ونذكر كتاب بيير بوجيه " السفينة ، بناؤها وحركاتها " (١٧٤٦) ، ولكن هذه الاستثناءات تؤكد القاعدة . وتكونت التكنولوجيا على أية حال شيئا فشيئا ، وشقت طريقها وتطورت ، وبدأت التكنولوجيا بمجموعة من الوصفات المستقاة من خبرة الحرفيين . وتأخرت الكتب الأساسية الممتازة في الظهور، نذكر منها : " التعدين " De Re Metallica من تأليف جيورج باور المشهور باسم أجريكولا (Georg Bauer (Agricola وقد ظهر في عام ١٥٥٦؛ وكتاب أجوستينو راميللي Agostino Ramelli "الآلات الفنية المختلفة "Le Diversel et Artifciose Machine

الذي ظهر في عام ١٥٨٨ ؛ وكتاب فيتوريو تسونكا Vittorio Zonca" عالم الآلات المباني الجديد" Nuovo Teatro di machine ed edifici الذي صدر عام ١٦٢١؛ وقاموس المهندسين الصغير Dictionnaire portatif de L'ingéniéur الصادر في عام ١٧٥٥ من تأليف برنار فوريست Bernard Forest. وبدأت مهنة المهندس تظهر ببطء شيئا فشيئا .وكان المهندس ingénieur في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يشتغل بالفنون العسكرية ، وكان يقدم بالأجر خدماته في مجالات العمارة ، والهيدروليكا ، والنحت ، والتصوير . ولم تكن هناك قبل القرن الثامن عشر دراسة منظمة لتعليم المهندسين . حتى أنشئت " مدرسة الطرق والكباري " في باريس في عام ١٧٤٣ ، ومدرسة المناجم في عام ١٧٨٣ على غرار أكاديمية المناجم الألمانية Bergakademie التي أنشئت في عام ١٧٦٥ في فرايبرج Freiberg ، وكانت فرايبيرج مركزا قديما للمناجم في سكسونيا ، وتخرج فيها عدد كبير من المهندسين طلبوا للعمل في روسيا خاصة .

وليس من شك في أن الحرف الأساسية الأولى تتخصص على نحو متزايد ، وكأنما سلكت هذا السبيل من تلقاء نفسها ، وهذا هو يوست أمان Amman Jost الحرفي السويسري يعدد في عام ١٥٦٨ تسعين حرفة مختلفة ؛ وفي موسوعة ديديرو Diderot نجد ٢٥٠ حرفة ؛ أما كاتالوج دار بيجوت Pigot في لندن ، فيورد في عام ١٨٢٦ قائمة تضم ٨٤٦ عملا من الأعمال المختلفة التي كان الناس يمارسونها في المدينة الكبيرة. ومن بين هذه الأعمال أعمال طريفة ، ولكنها هامشية لا شك في ذلك (١١٥). وأيا كان الأمر فقد حدث هذا التخصص ببطء شديد. وكانت هناك تصرفات تقليدية تعرقل هذا التطور. فقد قام عمال المطابع الفرنسيون حول منتصف القرن السادس عشر بإضرابات قصدوا بها الوقوف في وجه التحسينات التي أدخلت على المطبعة مما أدي إلى خفض عدد العمال . وهناك مثل آخر واضح الدلالة على وقوف العمال في وجه التطوير التقني تحسبا للاستغناء عنهم ، وهو وقوف العمال ضد استخدام ابتكار رافعة ، أطلق عليها اسم المايوش mailloche، كانت تستهدف تسهيل استخدام مقصات الجوخ الهائلة التي كانت تحتاج إلى قوة عضلية كبيرة ، وكانوا لذلك يسمونها forces. وإذا لم تكن صناعة النسيج قد تطورت إلا قليلا ، في الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، فإنما كان السبب في ذلك أن نظامها الاقتصادي والاجتماعي ، وتقسيمها الشديد لعمليات الإنتاج ، وبؤس عمالها ، كل ذلك مكنها بحالتها تلك أن تواجه احتياجات السوق . فما أعجب هذه العوائق التي عرقلت التقدم لقد كان جيمس واط James Watt على حق عندما أسر إلى صديقه سنيل Snell. في ٢٦ يولية من عام

١٧٦٩ . " لا أعرف في الدنيا شيئا أكثر حماقة من الاختراع . وإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن النجاح في مجال الاختراع يتطلب الحصول على موافقة المجتمع .

ومصداق ذلك ما نجده في البندقية ، حيث كان تسعون في المائة من براءات الاختراع ، سواء منها الاختراعات الجادة وغير الجادة ، والتي سجلت في أوراق وملفات مجلس الشيوخ(١١٦) ، يقدم حلولا لمشكلات المدينة ، مثل كيفية استغلال المسارات المائية المتجهة نحو المستنقع في الملاحة ؛ طرق حفر القنوات ؛ رفع الماء؛ تجفيف المستنقعات ؛ كيفية إدارة الطواحين دون الحاجة الى قوة المياه الدفاقة والمنهمرة نظرا لأن المياه هناك ساكنة في مجموعها ؛ كيفية تحريك المناشير ، والرحى ، والمطارق التي تهرس عفص الدباغة tanin والمواد الأولية التي تدخل في صناعةالزجاج . والخلاصة التي نخرج بها هي أن المجتمع هو الذي يتحكم في الاختراع .

وكان المخترع الذي أسعده الحظ فاستمال الأمير وأغراه، يستطيع أن يحصل على براءة الاختراع ، أو بعبارة أكثر دقة ، يحصل على امتياز يمكنه من استغلال اختراع ما استغلالا احتكاريا. ولقد أصدرت حكومة الملك لويس الرابع عشر عددا كبيرا من هذه البراءات في مجالات تقنية مختلفة أشد الاختلاف منها مثلا عملية التدفئة الاقتصادية التي شاركت فيها المدام دي منتينون Mme de Maintenon بأنصبة من رأسمالها"(١١٧) . ويمكننا أن نتصور أن بعض الاكتشافات الحقيقية ظلت حبرا على ورق لأنه لم يوجد في المجتمع إنسان تصور أنه يمكن أن يكون بحاجة إليها.

ولنذكر مثلا بالتازار دي ريوس Baltasar de Rios، هذا المخترع الألمعي الذي شهد السنوات الأولى من حكم الملك فيليب الثاني (حكم أسبانيا من عام ١٥٥٦ إلى عام ١٥٩٨) ، حاول هذا الرجل دون جدوى بناء مدفع كبير العيار يمكن تفكيكه إلى قطع منفصلة يحملها بضعة مئات من الجنود على ظهورهم (١١٨). وفي عام ١٦١٨ ظهر كتاب " التاريخ الطبيعي للبئر المشتعلة قرب جرينوبل " Histoire naturelle de la fontaine qui brûle prés Grenoble فلم يحفل به أحد ، وكان مؤلفه جان تاردان Jean Tardin، وهو طبيب من مدينة تورنون Tournon، قد درس في كتابه هذا موضوع " المقياس الطبيعي للغاز المنبعث من هذه البئر " ، ونوه بتقطيرالفحم الحجري بمعزل عن الهواء للحصول على غاز قابل للاشتعال قبل أن يشق غاز الاستصباح طريقه المظفرة في مجال الإنارة بقرنين من الزمان . كذلك بين جان ري Jean Rey، وهو طبيب من منطقة بيريجور Périgord الفرنسية ، في عام ١٦٣٠ ، قبل لافوازييه Lavoisier بأكثر من قرن ، أن الرصاص والقصدير يزيد وزنهما عندما يتكلسان نتيجة " اندماج الجزء الثقيل من الهواء " فيهما(١١٩). وفي عام ١٦٣٥ نشر شفينتر Schwenter

كتابه " ألاعيب فيزيائية رياضية " Delassements physico mathématiqu شرح فيه المبدأ الذي يقوم عليه التلغراف الكهربي ، وكيف أنه يتيح " لشخصين الاتصال أحدهما بالآخر بالاستعانة بإبرة مغناطيسية " ولم يحفل به أحد ، حتى جاء عام ١٨١٩ وأجري أورستيد Oersted تجاربه على الإبرة المغناطيسية." والغريب أن شفينتر ظل مجهولا لم يحفل به أحد ، كما لم يحفل أحد بكلود شاب Chappe (١٧٦٣ ـ ١٨٠٥) وأخيه " اللذين ابتكرا التلغراف الهوائي الذي يعمل بأشارات من فوق أبراج(١٢٠). وفي عام ١٧٧٥ ابتكر الأمريكي بوشبل Bushbell الغواص

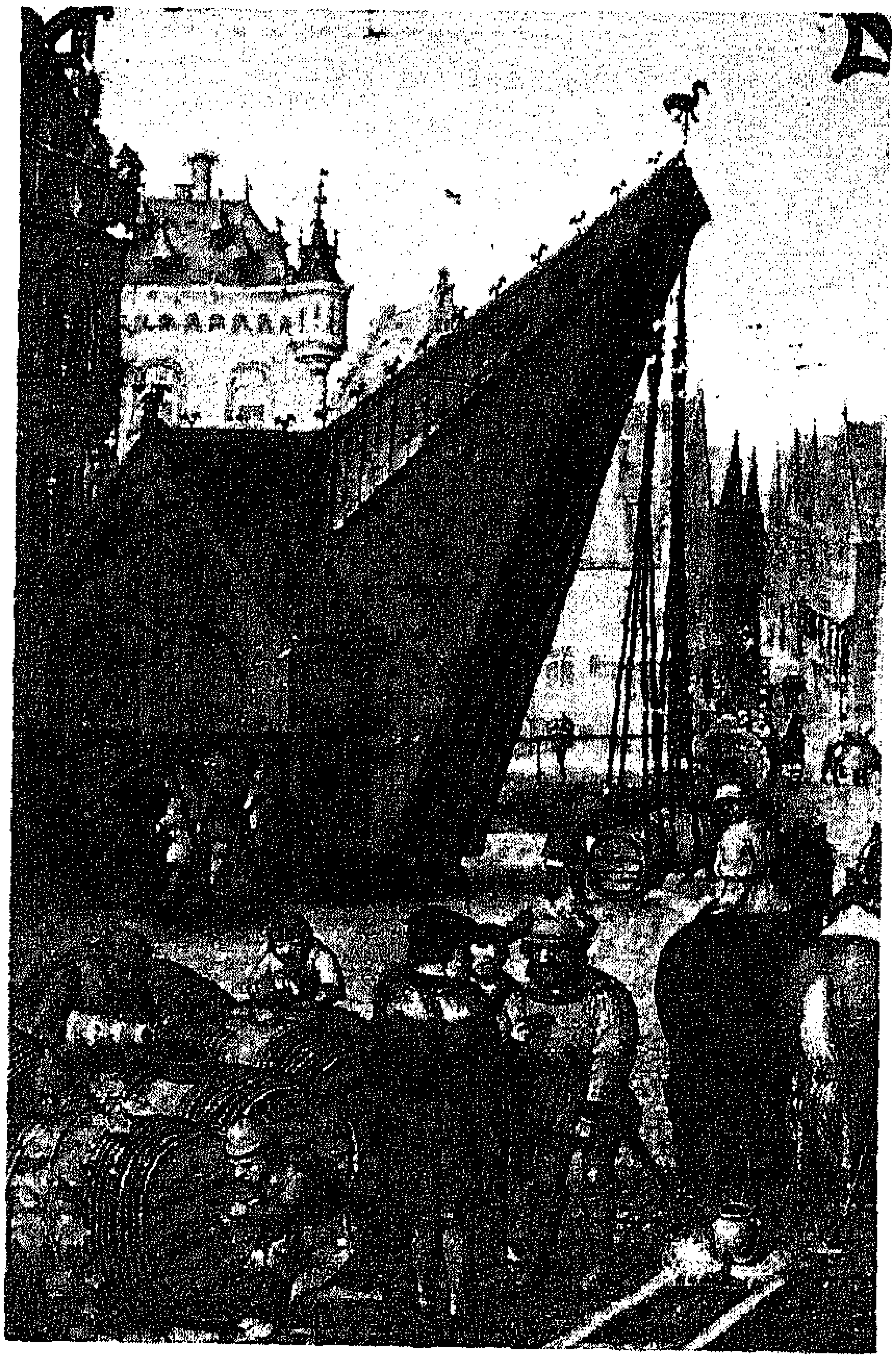

ونش ميناء بروجه Bruegge في العصر الوسيط، وكان بناء ضخما من الخشب له عجلة كبيرة يديرها ثلاثة رجال بأرجلهم. (دار الكتب البافارية).

، واكتشف مهندس عسكر فرنسي هو دوبيرون Duperon المترليوز ، أو المدفع الرشاش على أساس ضم مواسير متجاورة على هيئة الأرغن ، أو ما سمي بـ " الأرغن العسكري".

كانت كل هذه الابتكارات بلا جدوي ، لن يهتم بها أحد . والأمثلة كثيرة ، نضيف إلى ما ذكرناه منها أن نيوكومن Newcomen اخترع آلته البخارية في عام ١٧١١، ولكنها لم تنتشر بين الناس ، فبعد مرور ثلاثين عاما على الاختراع ، لم تكن في انجلترة سوى آلة بخارية واحدة ، ولم تكن في القارة الأوروبية سوى آلتين . ولم يبدأ النجاح إلا إبان الثلاثين سنة التالية ، فقد صنعت ٦٠ آلة بخارية في كورنوول Cornwall لضخ المياه خارج مناجم القصدير . أما فرنسا فلم يكن بها في نهاية القرن الثامن عشر سوى خمس آلات بخارية فقط كانت تستخدم في التعدين . وشبيه بهذا التأخر السافر العميق الدلالة التأخر في استخدام الكوك في صناعة الحديد ، كما أشرنا من قبل .

كانت هناك مئات ومئات من الأسباب تسد الطريق أمام التقدم . وكم من سائل سأل عن الأيدي العاملة التي توشك أن تفقد عملها نتيجة للتطور التقني ؟ لقد كان مونتسيكيو Montesquieu يلوم الطواحين لأنها قامت بالعمل الذي كان العمال الزراعيون يقومون به ، وتركتهم بلا عمل . واليك الماركيز دي بوناك de Bonnac، سفير فرنسا في هولندة ، الذي كتب في رسالة بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ يطلب أن يرسلوا إليه " من فرنسا رجلا عليما بالآلات ، له القدرة على أن يسرق سر الطواحين ، والآلات المختلفة التي يستخدمونها في أمستردام ، والتي توفر الكثير من استهلاك الطاقة البشرية"(١٢١) . ولكن هل كان أولئك الذين تلقوا رسالته مقتنعين بضرورة توفير استهلاك الطاقة البشرية؟ الإجابة بالنفي . ولهذا لم يرسلوا إليه هذا الرجل العليم بالآلات الذي طلبه .

بقي موضوع تكاليف الإنتاج ، وهو الشغل الشاغل للرأسماليين . ففي الوقت الذي كانت فيه الثورة الصناعية قد تقدمت في مجال القطن تقدما كبيرا، نرى أن أصحاب الأعمال الانجليز ، الذين كانوا ينتجون الغزل آليا في مصانعهم ، استمروا في الاعتماد على النسج اليدوي . كانت المشكلة بالنسبة اليهم هي تزويد النساجين اليدويين بالغزل، ولقد أتيح لهم إنتاج الغزل آليا ، وقضوا على هذا " الاختناق " ، فما الذي يدعوهم إلى ميكنة النسج أيضا مادام إنتاج النسيج يدويا في بيوت النساجين يغطي الطلب ؟ وما كانت أساليب النسج الآلي لتفرض نفسها ، إلا إذا زاد الطلب على النسيج زيادة كبيرة ، أو إذا ألح النساجون على زيادة أجورهم. ولكن الذي حدث هو أن أجورالنساجين اليدويين انخفضت انخفاضا رهيبا ، ولهذا نرى أن عددا من أصحاب الأعمال ظل يهمل

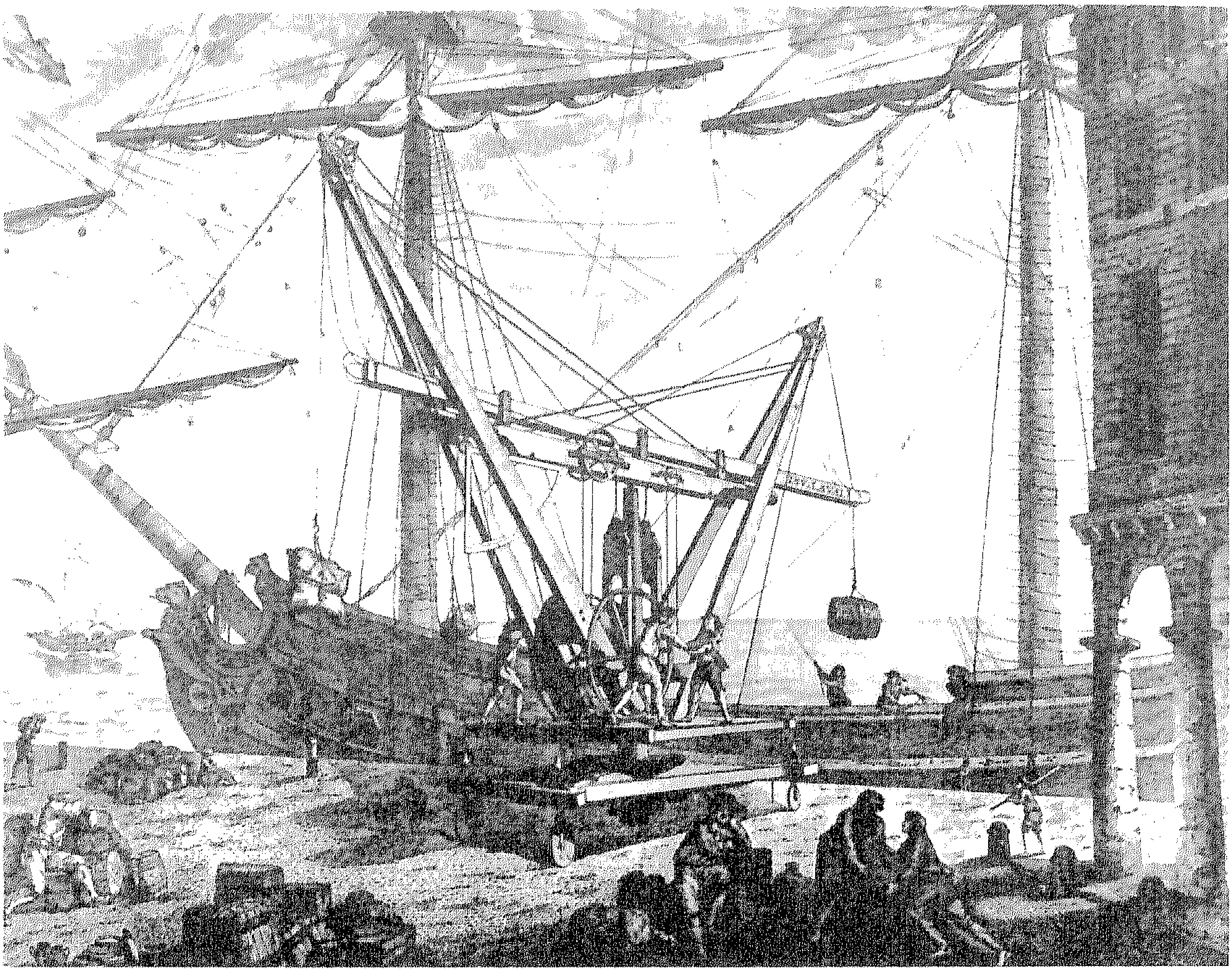

ونش مزدوج في ميناء دنكرك في عام ١٧٨٧ . صمم على أساس تروس اختزال السرعة ، وجعل متحركا قابلا للنقل على عجل ، وقابلا للدوران على محور ، واستخدم فيه المعدن الى جانب الخشب ، ويبين هذا التصميم بالقياس الى ونش بروجه التقدم الهائل ، ولكنه كان ما يزال يعمل بقوة السواعد البشرية . (المكتبة القومية الفرنسية).

التقنيات الجديدة ، ويفضل عليها الالتجاء إلى النساجين اليدويين ، لا لشيء إلا لأسباب من شأنها خفض تكاليف الإنتاج . ومن الممكن أن نسأل ماذا كان يمكن أن يحدث لو تعثر ازدهار صناعة المنسوجات القطنية الانجليزية ... لم يكن الابتكار الجديد يلقى القبول على الفور ، بل كان كل ابتكار جديد يواجه العقبات مرارا وتكرارا ، عشر مرات، أو مائة مرة . إنها حرب الفرص الضائعة . وستتاح لي فرصة أخرى للتحدث عن هذه الفرص الضائعة عندما أتناول موضوع البطء الهائل الذي يفوق التصور ، في

استخدام الفحم الكوك في صهر خام الحديد ، فلما استخدم الفحم الكوك كان استخدامه يعني تحولا جوهريا ، مهد على نحو غير مقصود للثورة الصناعية الانجليزية .

ونحن ، وقد بينا ما يقيد التقنية من حدود ومصادفات لا ريب فيها ، فإننا لا نذهب إلى حد التقليل من دورها ، فإن دور التقنية في الحقيقة دور أولي مبدئي ، وكل شيء ينتهي ذات يوم إلى الخضوع للتقنية ، والخضوع لتدخلها الذي بات أمرا ضروريا. وطالما بقيت الحياة اليومية تدور في أفلاكها ، في إطار بنياتها الموروثة ، لا تلقى في ذلك صعابا بالغة مسرفة ، وطالما قنع المجتمع بالثوب الذي يلبسه ، وطالما وجد فيه الراحة، فليس هناك حافز اقتصادي يدفع إلى بذل الجهد الذي يستهدف التغيير . وتظل مشروعات المخترعين (ومشروعات المخترعين موجودة في كل عصر وآن) حبيسة صناديقها، لا تخرج إلى النور . حتى يأتي اليوم الذي يتبين فيه المجتمع أن الأمور كلها قد اعتورها العجز ، واعتراها الشلل ، وأنه قد ارتطم بالسقف الذي ينتهي عنده الممكن ، والمتاح ، هنالك يفرض الالتجاء إلى التقنية نفسه تلقائيا ، ويصحو الاهتمام بألف اختراع واختراع ظلت غافية في مكامنها ، ويجري البحث عن أفضلها، عن الاختراع القادر على اقتحام العقبات ، وحل المعضلات ، وفتح السبيل أمام مستقبل مختلف. هناك في كل عصر وآن مئات من الابتكارات الممكنة، تغط في سبات عميق، وما تزال في سباتها العميق حتى تأتي الحاجة الملحة فتوقظها .

ولننظر إلى أحوالنا اليوم ، منذ الركود الاقتصادي الذي شهدته سبعينيات قرننا الحالي، ألا نجد فيها التفسير ، أفضل التفسير ، للعلاقة بين التقنية والمجتمع؟ كانت مشكلات البطالة ، والتضخم ، بعضها من بعض ، وكانت بوادر خيانة الطاقة البترولية، كل ذلك حفز على الالتجاء إلى الابتكار والتجديد ، وكان الالتجاء إلى الابتكار والتجديد هو الحل الوحيد ، كما قال جرهارد مينش Gerhard Mensch، وكان محقا فيما قال (١٢٢). ونلاحظ أن السبل التي سلكها الابتكار والتجديد هنا ، والتي تركزت عليها البحوث ، وتوجهت إليها الاستثمارات ، سبل كانت معروفة حق المعرفة قبل عام ١٩٧٠ : الطاقة الشمسية ، استغلال الشيست البيتوميني ، وحرارة باطن الأرض ، والغاز المتولد عن تخمير مواد نباتية ، والبديل الكحولي للبنزين Benziner-satz ، وكلها أشياء استخدمت في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وسارع الهواة إلى تطويرها ، ثم أغفلت ، وطوتها أستار النسيان . إلا أن الموقف يختلف الآن ، ويتمثل الاختلاف حاليا في أن هناك أزمة عامة (من تلك الأزمات التي نسميها أزمة القرن أو أزمة العصر Crise séculaire التي سنعود إلى الحديث عنها) تضع جميع النظم الاقتصادية المتطورة في مفترق الطرق : إما أن تجدد أو تموت ، فإذا لم تجدد ، ولزمت التجمد والتحجر كان في ذلك موتها . ومن المؤكد أن النظم الاقتصادية المتطورة ستختار

التجديد. وليس من شك في أن مثل هذه المواقف الحاسمة ، التي تشبه إنذار الدائن للمدين بالدفع أو الحبس ، قد سبقت كل حركات الانطلاق الكبيرة للنمو الاقتصادي، التي كانت منذ قرون وقرون تعتمد على دعامة من التقنية . ومن هنا فإن التقنية ملكة متوجة : إنها هي التي تغير العالم .

الباب السابع

النقـــود

إن طرح موضوع النقود على مائدة البحث يعني الصعود إلى طابق أعلى من طوابق البناء ، ربما يبدو من الناحية الظاهرية خروجا على خطة هذا الكتاب . ولكننا إذا نظرنا إلى الموضوع في مجموعه من منظور يتسم بشيء من الارتفاع ، وجدنا لعبة النقود تبدو لنا كوسيلة أو كبنية أو كطريقة تنظيمية عميقة لكل حياة تقوم على أساس تبادل يأخذ نفسه بشيء من النشاط والسرعة . والنقود بصفة خاصة ، أيا كان موضعها ، تندمج مع كل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية كما يندمج الحجر في البينيان المرصوص؛ ثم هي تصبح بعد ذلك " مؤشرا " رائعا يكشف لنا عن أمور أخرى. فنحن إذا نظرنا الى النقود كيف تجري ، أو كيف تلهث ، أو كيف تتعقد ، أو كيف تشح ، نستطيع أن نصدر حكما مؤكدا على نشاط البشر كله ، على كل مستويات حياتهم حتى أكثرها تواضعا .

والنقود حقيقة قديمة العهد ، أو على الأصح وسيلة تقنية قديمة ، إليها يصبو طمع الطامعين ، وعليها يتركز حرص الحريصين ، وهي إلى هذا وذاك لا تكف عن مباغتة الناس بما لا يتوقعون ، فهي في عرفهم غامضة مليئة بالأسرار ، ومثيرة للقلق . والنقود بادىء ذي بدء معقدة في حد ذاتها ، لأن الاقتصاد النقدى الذي صاحبها لم يكتمل في أى مكان حتى في بلد مثل فرنسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولا حتى في القرن الثامن عشر . وهي لم تنفذ آنذاك إلى كل المناطق والقطاعات، بل نفذت إلى بعضها فقط، وظلت تحدث اضطرابا في المناطق والقطاعات الأخرى التي لم تنفذ إليها. ولقد كانت شيئا جديدا، لا في حد ذاتها ، ولكن بما أحدثته . فما هذا الذى أحدثته؟ لقد أحدثت تغييرات مفاجئة في سعر السلع الضرورية الأساسية ، وأحدثت علاقات غامضة، لم يعد الإنسان فيها يعرف نفسه ، ولا عاداته ، ولا قيمه القديمة : وإذا عمله يصبح بضاعة، وإذا هو نفسه يصبح " شيئا ".

وهؤلاء هم الفلاحون البريتانيون الذين تقدمت بهم السن ، يجري الكاتب الفرنسي نويل دى فى Noel du Fail، في عام ١٥٤٨ ، على ألسنتهم حوارا فيتحدثون عن دهشتهم وحيرتهم ، فيرون أن الكساد الذي حل بالفلاحين ، وتغلغل إلى عقر دورهم، يرجع السبب فيه على الأرجح إلى " إنهم لا ينتظرون على الدجاج وغيره من الطيور حتى تبلغ كامل نموها ، بل يتعجلون ، فيذهبون إلى حيث يبيعونها [في سوق المدينة، يقينا] مقابل نقود يتلقونها بأيديهم ثم يهرعون بها ، إما الى السيد المحامي أو السيد الطبيب (أشخاص لم تكن حتى الأمس معروفة) ، إلى المحامي الذي يلجأ الواحد منهم اليه سعيا للإضرار بجاره وتجريده مما آل إليه من ميراث ، وإلى الطبيب الذى يسعى إليه ليعالجه من حمى أو ليصف له حجامة (أحمد الله أنني لم أجربها)، أو حقنة شرجية؛ يشكون من علل ، أذكر أن تيفين لابلوا Tiphaine La Bloye، تلك السيدة العليمة بالرقى، كانت تعالجها بدعاء واحد إلى الرب - أبانا الذى في السموات - ولا تحتاج فيها لأى لبخة أو عقار أو ترياق ." هذه هي " المدن انتقلت إلى قرانا "، حاملة اليها التوابل، والحلويات، والفلفل " و معه الكرات الذي استحال الى كبسولات " ، أشياء لم يكن آباؤنا وأجدادنا يعرفون عنها شيئا ، وكلها مواد تضر جسم الانسان، " وبدونها لا يكون لوليمة من ولائم هذا العصر مذاق، أو شكل متسق ، أو جمال ." ويعلق واحد من هؤلاء الريفيين الذين يجري الأديب نويل دي في على ألسنتهم الحوار قائلا: " إنك والله تقول الحقيقة كل الحقيقة يا عمي، وما أظن هذا العالم الذى أصبحنا فيه إلا عالما جديدا كل الجدة "(١). تلك كلمات ساذجة، ولكنها واضحة في معناها وضوحا لا مراء فيه، و لو أردنا أن نضم اليها أشباهها من ربوع أوروبا كلها لطالت القائمة بغير طائل وامتلأت بالتكرار.

والحقيقة أن كل مجتمع قديم البناء يفتح أبوابه أمام النقود يفقد ذات يوم، آجلا أو عاجلا، توازناته التي اكتسبها في الماضي، ويطلق في الوقت نفسه قوى من عقالها لا يحسن التحكم فيها. وهذه هي اللعبة الجديدة، لعبة النقود، تخلط الأوراق خلطا مضطربا، وتميز قلة قليلة ضئيلة من الناس، وترمي بالآخرين إلى الجانب المنكود من القدر. وكل مجتمع يتعرض لهذا التأثير الجديد يتحتم عليه أن يتخذ لنفسه جلدا جديدا.

ولهذا فإن انتشارالاقتصاد النقدي يعتبر حدثا دراميا تكتنفه الانتفاضات، هكذا هو في البلاد القديمة التي ألفت وجوده ، وهكذا هو في البلاد التي يتنزل فيها هذا الاقتصاد النقدي دون أن تكون على وعي تام به: مثل تركيا أيام العثمانيين أو العثمانلي - كما يقولون - في أواخر القرن السادس عشر (حيث أخذت إقطاعيات فرسان السباهي، التي كانوا يطلقون عليها اسم timars، تتخلى عن مكانها للملكية الخاصة بمعناها الحقيقي)؛ ومثل اليابان إبان حكم التوكوجافا Tokugawa ، تلك الأسرة الشريفة التي

اثنان من جباة الضرائب . لوحة من أعمال الرسام مارتين ڤان ريمارسفاد
، Martin van Reymerswade ، القرن السادس عشر.(مقتنيات الناشونال جاليري في لندن.)

استأثرت بالحكم منذ بداية القرن السابع عشر الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر، وكانت اليابان في الوقت نفسه، أو تقريبا في الوقت نفسه، تواجه أزمة نمطية مزدوجة:

حضرية وبورجوازية في آن واحد . ولكننا نكون صورة طيبة عن هذه العمليات الجوهرية التي تحدث عندما يغزو الاقتصاد النقدي منطقة ما ، إذا ما فحصنا ما يحدث في أيامنا هذه وتحت بصرنا ، في بعض البلاد النامية ، في أفريقيا السوداء، حيث نجد أن ما بين ٦٠ و٧٠ ٪ من المبادلات تتم بغير نقود أو تفلت من ربقة النقود. والإنسان يستطيع أن يعيش في تلك المناطق ، حينا من الزمن ، خارج نطاق اقتصاد السوق ، حياة منغلقة على نفسها ، مثل " القوقعة داخل بيتها " ، ولكنه يعيش هكذا حياة المدان الذي أجل تنفيذ الحكم عليه إلى موعد قادم لا محالة ، فلابد له يوما ما من اللجوء إلى النقود.

ولكن هؤلاء المدانون ، الذين أجل تنفيذ الحكم عليهم، لن يفلتوا من مصيرهم المحتوم، والماضي لا يكف عن استعراضهم أمام عيوننا . إنهم مدانون يتسمون بدرجة كبيرة من السذاجة، وبصبر يثير الدهشة . فالحياة تضرب من حولهم ضرباتها ، ذات اليمين، وذات الشمال، دون أن يعلموا من أين يأتي الضرب . تتوالى الضربات في صورة إيجارات الأطيان، وإيجارات البيوت ، والرسوم ، ومكوس الملح ، والمشتروات الإجبارية في سوق المدينة ، والضرائب . وجد الناس أنفسهم مطالبين بأن يدفعوا ثمن متطلباتهم بقطع رنانة من النقود ، فإذا أعوزتهم العملات الفضية البيضاء فبالعملات النحاسية . وهذا هو خولي مزرعة مدام دى سيفينييه Mme de Sévigné فى منطقة بريتانيا الفرنسية يحمل اليها يوم ١٥ يونية ١٦٨٠ إيجار المزرعة ، عبارة عن شيلة ثقيلة من العملات النحاسية قيمتها في مجموعها ٣٠ جنيها (٢). وكانت مكوس الملح تجبى في صورة عينية، ثم صدر مرسوم في ٩ مارس من عام ١٥٤٧ يلزم بجباية هذه المكوس نقدا في فرنسا استجابة لطلب كبار تجار الملح .

أخذت العملات المعدنية الرنانة الموزونة تدخل إلى الحياة اليومية سالكة سبلا كثيرة لا حصر لها. والدولة الحديثة هي المدبر الأول لهذه العملات (من ضرائب، ورواتب المرتزقة التي كانت تدفع بالفضة ، ومرتبات الموكلين بالوظائف) والدولة هي المستفيد من هذه الطفرات المتمثلة في استخدام النقود ، وإن لم تكن المستفيد الوحيد. فما أكثر الذين حققوا الثراء : جباة الضرائب، محصلو الجمارك ، المسلفون على رهونات ، أصحاب الأملاك ، التجار المقاولون الكبار، رجال المال . كانت شباكهم تمتد إلى كل مكان . ومن الطبيعي أن هؤلاء الأثرياء الجدد ، مثلهم مثل الأثرياء الجدد في أيامنا هذه ، لا يحظون بحب الناس وتعاطفهم . ونحن نرى في المتاحف لوحات ورسوما ، تطل علينا منها وجوه المشتغلين بالمال ، كأنها ترصدنا ، وكأن عيونهم تحملق فينا ، وقد ترجم الرسامون المرة تلو المرة ما يكنه الإنسان العادى من حقد ومقت لهؤلاء الأثرياء. والحق أن هذه الأحاسيس، وهذه المطالب المستترة أو الصريحة ، التي تعتمل في نفوس الناس حيال ذوي المال، تغذي الريبة المستمرة التي ينظر بها الشعب إلى النقود نفسها ، وهي ريبة لن يتخلص منها

الاقتصاديون الأول بسهولة ، ولكن هذا كله لن يغير في النهاية شيئا من مسار الأمور. فقد رسمت الدوائر النقدية الكبيرة في ربوع العالم كله خطوطا ومراحل متميزة وحققت ألوانا من الالتقاء المثمر بأنشطة التجارة ذات الأرباح العظيمة في " البضائع الملكية ". كان ماجيللان Magellan، وديل كانو Del Cano قد قاما بالدوران حول الأرض في ظروف صعبة ، تخللتها أحداث جد مثيرة ، أما فرنتشيسكو كارليتى Francesco Carletti، وجيميللي كاريري Gemelli Careri فقد قاما برحلتيهما ـ الأول في عام ١٥٩٠ والثاني في عام ١٦٩٣ ـ ودارا حول العالم ، يحمل كل منهما كيسا مملوءا بالعملات الذهبية والفضية ، ويحمل طرودا من البضائع المختارة . وعاد كل منهما من رحلته البعيدة سالما غانما (٤).

والنقود ، بطبيعة الحال هي المؤشر والعلامة الدالة على الطفرات ، والثورات التي طرأت على الاقتصاد النقدي ، وهي أيضا السبب الذي أدى اليها . والنقود لا يجوز فصلها عن الحركات التي تحملها ، والتي تنشئها . وكانت التفسيرات القديمة في الغرب تنظر في أغلب الأحيان إلى النقود في حد ذاتها ، وتسلك في تعريفها سبيل التشبيه والمقارنة بأمور أخرى . فمن قائل إن النقود هي " دم الجسم الاجتماعي " (وهي صورة متكررة ساذجة جاءت قبل اكتشاف هارفي بكثير Harvey (٥) وهو الطبيب الانجليزي وليم هارفي المتوفي في عام ١٦٥٧ الذى اشتهر باكتشاف الدورة الدموية) . وكثيرا ما تحدث المتحدثون عن النقود حديثهم عن " بضاعة " ، وجعلوا من هذا التشبيه حقيقة كرروها مرارا على مر القرون . والنقود على حد قول وليم بيتي William Petty (١٦٥٥) " هي شحم جسم السياسة ، الإفراط فيه يضر مرونة الجسم ونشاطه ، والقصد فيه يسبب له المرض "(٦) : عبارة تلوح لنا كأنما كان قائلها طبيبا . وفي عام ١٨٢٠ شرح تاجر فرنسي ماهية النقود قائلا " إنها ليست المحراث الذى نشق به الأرض ، لنستخرج منها خيراتها ، إنها لا تزيد عن أن تكون وسيلة تعين على دوران البضائع، أو على تليين حركتها " مثل الزيت الذى يلين حركة الآلة، ويجعلها أكثر سهولة، والتروس تتحرك بسهولة إذا زيتت بقدر، أما الإفراط في التزييت فيؤدي إلى عرقلة الحركة"(٧)،تشبيه آخر كأنما كان قائله ميكانيكي. ولكن هذه الصورة على اية حال أحسن حالا، وأفضل قيمة من التعبير عن آراء مشكوك فيها ، والتمسك بها ، والإلحاح في تأكيدها ، على نحو ما فعل جون لوك John Locke فى عام ١٦٩١ ، وهو فيلسوف مجيد، أما أفكاره الاقتصادية فلا سبيل إلى الأخذ بها ، فقد ذهب إلى إن النقود ورأس المال شيء واحد(٨)؛ وخلط بذلك النقود ، والثروة ، أو خلط المقياس والشيء الذي يقاس .

وكل هذه التعريفات تغفل عن العنصرالجوهري، ألا وهو : الاقتصاد النقدي نفسه، فالاقتصاد النقدي هو الذي يبرر في الحقيقة وجود النقود. والنقود لا تخرج إلى الوجود إلا حيث تكون بالناس حاجة اليها ويكونون قادرين على تحمل تكاليفها. وما اتصاف النقود بخفة الحركة ، والتعقيد إلا انعكاس لما يتصف به الاقتصاد ، الذي يجرها وراءه، من خفة حركة وتعقيد. ومن هنا فقد ظهرت هناك نوعيات من النقود ، ومن النظم النقدية ، متعددة ، ومتنوعة بقدر تعدد وتنوع الإيقاعات الاقتصادية ، والنظم الاقتصادية ، والظروف لاقتصادية . هذه الأمور تعمل متضافرة ، يشد بعضها بعضا في لعبة ليس فيها غموض على أية حال . كان هناك مثلا في العصر المسمى في فرنسا بالعهد القديم ، وهو عهد ما قبل الثورة الفرنسية ، اقتصاد نقدي مختلف عن الاقتصاد النقدي الحالي ، اقتصاد متعدد الطوابق ، لم يكتمل بعد ، ولم يكن يشمل الناس جميعا، كانت المقايضة تحتل طابقا من طوابقه المتعددة. والحق أن المقايضة ظلت طوال فترات طويلة ، طالت طولا هائلا ، بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر هي القاعدة . فلما طرأت أحوال احتاجت فيها المقايضة الى العون ، أتت النقود إليها في صورة تحسين أولي تمثل في تداول تلك النقود ، التي كانوا يسمونها نقودا " بدائية " ، وكانت هذه النقود على هيئة الودع ، والمحار ، وما إليه ، وما كانت هذه النقود بدائية إلا في نظرنا نحن : فما كانت أنماط الاقتصاد التي تداولتها قادرة على احتمال غيرها . ثم إن النقود المعدنية نفسها في أوروبا كانت في أغلب الأحيان تعتورها ألوان من النقص والعجز . والنقود ، شأنها شأن المقايضة ، لا تستطيع الوفاء بمهمتها في كل الأحوال ، فإذا عجزت ، ظهر الورق ، أيا كان نوعه ، ليقدم خدماته ، الورق أو على الأحرى الائتمان، السيد ائتمان أو الهر كريديت Herr Credit كما كانوا يقولون على سبيل التهكم في ألمانيا في القرن السابع عشر . وسواء كان الأمر أمر مقايضة ، أو عملة ، أو ورق، فالعملية في أساسها واحدة ، ولكنها تجري على مستوى مختلف، أو في طابق آخر من طوابق البناء . وكل اقتصاد نشيط ينبثق في الحقيقة من لغته النقدية أو لغة نقوده ، ويستحدث اعتمادا على حركته ابتكارات ، وهذه الابتكارات تكتسب بالنسبة إليه قيمة الاختبار فهي تختبر حركته وتكشف عنها. ونظام لو le Système de Law (جون لو المتوفي في عام ١٧٢٠ الذى ابتدع نظاما مصرفيا كان إفلاسه في فرنسا مشهورا ، وتحدث الناس طويلا عن الفضيحة الانجليزية لشركة بحار الجنوب la Compagnie des Mers du Sud) هذا النظام كان شيئا آخر يختلف عن الحيل المالية ، التي عرفت في فترة ما بعد الحرب ، ويختلف عن المضاربات التي تتم بلا وازع من ضمير، كما يختلف عن عمليات التقسيم التي تجريها " جماعات الضغط " (٩) فيما بينها . ولقد شهدت فرنسا مولد الائتمان ، وكان مولدا عسيرا محفوفا بالاضطراب والفشل، ولكنه كان

مؤكدا واضح المعالم . انتشرت أوراق الائتمان، وصاحبها ما صاحبها من أحداث . وهذه هي الأميرة شارلوت اليزابت البفالتسية المعروفة باسم لابالاتين او الأميرة البالاتينية la Palatine تصرخ في بعض رسائلها : " كثيرا ما تمنيت أن تهب نيران جهنم فتحرق كل هذه الأوراق ." وتضيف : " وأقسم أنني لا أفهم شيئا من نظام الائتمان هذا الكريه المقيت"(١٠). هذا النفور يعبر عن وعي بما يمكن أن نسميه لغة جديدة ، لأن النقود لغات (وليغفرن لنا القاريء نحن أيضا الالتجاء الى المقارنة ، والتشبيه ، والحديث عن النقود من حيث هي لغات) .النقود لغات تنادى ، وتتيح الحوار ، والنقود تظل قائمة طالما بقي الحوار قائما .

وإذا لم تكن الصين قد اتخذت لنفسها ، في القرون التي تعنينا (باستثناء الحقبة الغريبة ، والطويلة التي استخدمت فيها بالفعل نقودا ورقية) نظاما نقديا معقدا ، فإما يرجع السبب في ذلك إلى أنها لم تكن بحاجة إليه في تعاملاتها في المناطق المجاورة التي كانت تستغلها : منغوليا ، والتبت ، والجزرالمحيطية ، واليابان . وإذا كان الإسلام ، في العصرالوسيط ، قد سيطر من مركز سامق على القارة القديمة ، من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي ، لقرون طوال ، فإنما يرجع ذلك إلى أنه لم تكن هناك دولة (باستثناء بيزنطة) تستطيع أن تنافسه في نقوده المسكوكة من الذهب والفضة : الدينار والدرهم . كانت هذه النقود ، من دنانير ودراهم ، هي وسائل قوته ومنعته . وإذا كانت أوروبا في العصرالوسيط قد أخذت تحسن نقودها ، فإنما دفعها الى ذلك أنها كانت تريد أن ترقى في " مدارج " العالم الإسلامى القائم في مواجهتها . كذلك كانت الثورة النقدية التي غزت الامبراطورية التركية شيئا فشيئا، في القرن السادس عشر ، تعبرعن دخولها صاغرة في دائرة التعامل مع أوروبا ، ولم تكن دائرة التعامل هذه قاصرة على تبادل السفراء في حفلات تتجلى فيها آيات البذخ والأبهة . كذلك انغلقت اليابان ـ منذ عام ١٦٣٨ ـ على العالم الخارجي، ولكن انغلاقها كان اسميا ، لأنها ظلت في الحقيقة مفتوحة أمام السفن الجونكية الصينية ، وأمام المراكب الهولندية المصرح بها . كأنما كانت هناك في جدار الانغلاق ثغرة ، ولكنها كانت ثغرة واسعة اتساعا كافيا سمح بدخول البضائع والنقود الى اليابان ، واضطرها الى الرد بالردود الضرورية ، واتخاذ الإجراءات المناسبة، ومن بينها استغلال مناجم الفضة والنحاس اللازمة لسك العملة . وارتبط هذا الجهد المبذول في هذا المجال المتصل بالعالم الخارجي والاقتصاد النقدي في الوقت نفسه بالتوسع الحضري في اليابان في القرن السابع عشر وازدهار " حضارة بورجوازية حقيقية " في المدن التي تمتعت بالامتيازات . فالأشياء كلها مترابطة يشد بعضها بعضا .

من هنا يتضح أن النقود تمارس نوعا من السياسة الخارجية حيث تمسك بعض الجهات الخارجية أحيانا بزمام اللعبة ، وتفرضها تارة بقوتها ، وتارة بضعفها. والحديث مع

رسم من الرسوم الكاريكاتورية العديدة من القرن السابع عشر لموت السيد كريديت أو السيد ائتمان أو الهر كريديت ، وتظهر جثته في المقدمة. ويظهر الباكون النائحون من حول الجثة. والائتمان المقصود هو الائتمان المتداول في الحياة اليومية من نوع الجر على النوتة والشكك الذي يقدمه أصحاب المحلات لصغار المتعاملين ، وكان قد انقطع نظرا لقلة النقود . و كتب تحت الرسم المنفذ بطريقة الحفر على النحاس على لسان الخباز يقول للزبون بالألمانية ما معناه : " إذا كانت لديك نقود فلدي خبز ".(المتحف القومي الجرماني في نورنبرج).

الآخرين يعني بالضرورة التوصل إلي لغة مشتركة ، وإلى مجال للتفاهم . والميزة التي تمتاز بها التجارة الخارجية أو " التجارة البعيدة " أو" الرأسمالية الكبيرة المشتغلة بالتجارة" هي أنها عرفت كيف تتكلم بلغة التبادل العالمي. حتى إذا لم تكن لعمليات التبادل التجاري العالمي ـ على نحو ما سنرى في المجلد الثاني من كتابنا هذا ـ الأولوية من ناحية الحجم (كانت تجارة التوابل على مستوى العالم مثلا أقل بكثير من تجارة القمح على مستوى أوروبا ، ليس فقط من ناحية الكم ، ولكن أيضا من ناحية القيمة)(١١) فإنها كانت حاسمة التأثير، بما أوتيت من فعالية وجدية بناءة. فقد كانت عمليات التبادل التجاري العالمي مصدر كل " تراكم " سريع للخبرات، وكانت لها القدرة على أن تقود العالم القديم، وأن تسخر النقود لخدمتها ، فإذا بالنقود تتبعها من ورائها ، أو تسبقها من أمامها ، تسيرها حسب إرادتها ومشيئتها هكذا كانت عمليات التبادل توجه الاقتصاد على اختلاف صوره.

نظم اقتصادية ونقود
بعيدة عن الكمال

لو أننا بدأنا نصف الأشكال الأولية للتبادل النقدى لما انتهينا إلى نهاية، فصور هذا التبادل النقدي كثيرة ، تحتاج إلى التقسيم والتصنيف . وهناك ما هو أكثر من هذا ، فالحوار بين النقود التي بلغت الكمال (إذا كان لها وجود) والنقود التي يعتورها النقص، أو التي مازالت بعيدة عن الكمال ، حوار من شأنه أن يلقي الضوء على مشكلاتنا حتي يصل إلى جذورها . وإذا كان التاريخ تفسيرا ، فعلى التاريخ أن يلعب هنا دوره هذا كاملا . ولكن عليه أن يراعي شرطا ، هو تحاشى الوقوع في بعض الأخطاء، ومنها : ألا نعتقد أن الكمال والنقص لا يتجاوران ، أو لا يختلطان أحدهما في الآخر أحيانا؛ وأن سجل الكمال وسجل النقص لا يعبران عن مشكلة واحدة أو عن نفس المشكلة؛ وأن كل تبادل لا يعيش بالضرورة على الاختلافات في جهد التيار (وهذه حقيقة قائمة إلى يومنا هذا). والنقود أيضا وسيلة لاستغلال الآخرين ، في موطنها ، وخارج موطنها، وهي وسيلة لدفع اللعبة إلى الإسراع .

وقد ظلت هذه الحال حتى القرن الثامن عشر ، ويكفي أن نلقي نظرة " تزامنية " على العالم لنتبين ذلك في وضوح دونه كل وضوح . فهذه مساحات هائلة فيها ملايين من البشر لا زالوا يعيشون في زمن هومير الذى كان الناس فيه يقدرون بالثيران قيمة درع أخيل . وهذا هو آدم سميث يحلم بهذه الصورة ، عندما يكتب : " إن سلاح ديوميد Diomedes ، بناء على ما كتبه هومير ، لم يتكلف صنعه أكثر من تسعة ثيران، بينما تكلف سلاح جلوكوس Glaukus مائة ثور ." تلك صور من عالم الإنسانية البسيطة وما قد يسميه بعض الاقتصاديين اليوم العالم الثالث : لقد كان هناك دائما عالم ثالث، ولقد كان الخطأ الحاسم الذي وقع فيه هذا العالم الثالث، هو أنه قبل الحوار، ولقد كان الحوار دائما في غير صالحه . ولو لم يقبله لأكرهوه عليه عند اللزوم .

النقود البدائية

عندما يجري تبادل بضائع فهذا التبادل يحمل في طياته عملية نقدية، قد تكون في مرحلة التطور الأولي، أو ما نشبهه بنوع من لعثمة الطفولة . والبضاعة التي يزيد عليها الطلب، أو التي يزيد انتشارها تلعب دور النقود، أو تقوم مقام معيار التبادل، أو قد تجتهد في أن تلعبه. وهكذا كان الملح عملة في " ممالك " أعالي السنغال، وأعالي النيجر، والحبشة، حيث كان الناس يصنعون مكعبات من الملح ، يقول مؤلف فرنسي عنها في عام ١٦٢٠ إنهم " كانوا يشكلونها على هيئة البللورالصخري، جاعلين طولها مثل طول اصبع الإنسان " ، وكانوا يستخدمونها دون غضاضة نقودا وطعاما في آن

واحد، " حتى أن الإنسان ليستطيع أن يقول عنهم بحق أنهم يأكلون نقودهم ". وحدث ولا حرج عن الخطر الذي تتعرض له هذه النقود ، وهذا هو الفرنسي الحريص نفسه يعبر عن دهشته، وخشيته " من أن يجد هؤلاء الناس ذات يوم نقودهم قد ذابت في الماء، وجرى عليها ما يجري على الماء من ضياع " (١٢). وكانت الأقمشة القطنية تلعب الدور نفسه على سواحل مونوموتابا Monomotapa ، وشواطيء خليج غينيا حيث كانو يتحدثون في مقام النخاسة الزنجية عن " المقطع الهندي " ، وكانوا يقصدون به المقطع من الأقمشة القطنية الهندية الذي يساوى ثمن الرجل في سوق النخاسة ، ثم أصبحت عبارة " المقطع الهندي " تعني الرجل نفسه. وكان " المقطع الهندي " رجلا بين الخامسة عشر والأربعين، كما يقول الخبراء .

وعلى ساحل افريقيا نفسه كانت الأساور النحاسية ، التي يسمونها المانيليات manilles، وبودرة الذهب المقدرة بالميزان ، والخيول نقودا أيضا . ويتحدث الأب لابا Labat في عام ١٧٢٨ ـ عن هذه الخيول الرائعة التي كان العرب يبيعونها إلى الزنوج، فيقول إنهم كانوا يقدرونها بما يساوى خمسة عشر عبدا أو مقطعا. يا لها من عملة طريفة، ولكن كل بلد له عاداته."(١٣) .وأدخل التجار الانجليز في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، في معرض سعيهم إلى القضاء على منافسيهم ، تعريفة لا سبيل إلى قهرها : " حددوا ثمن العبد أوالمقطع الهندي بأربع أوقيات من الذهب أو ثلاثين قرشا [من الفضة]، أو ثلاثة أرباع الرطل الافرنجي من المرجان ، أو سبعة مقاطع من القماش الاسكتلندى ." ومع ذلك فقد كانت هناك قرى زنجية في الداخل لا تتعامل بهذه النقود ، ويحكي الأب لابا عنها ، فيقول إنها تزخر " بدجاج سمين ، طري اللحم ، لا يقل جودة عن الديوك ، والدجاج المزغط في البلاد الأخرى " ، وعن الثمن ، يقول إن الإنسان يشتري الدجاجة مقابل صحيفة من الورق (١٤).

ومن أشكال النقود على سواحل أفريقيا الودع ، على اختلاف ألوانه ، وأحجامه، وأشهره ودع الزيمبو zimbos على سواحل الكونغو، وودع الكوري cauris. وفي عام ١٦١٩ كتب أحد البرتغاليين في وصف هذا الودع ، يقول : " ودع الزيمبو هو نوع من القواقع البحرية الصغيرة جدا ، ليس له في حد ذاته فائدة أو قيمة ، وقد أدخلت بلاد البرابرة la barbarie هذه العملة في الماضي ، وظلت تستخدمها حتى الآن "(١٥). ويمكن أن نضيف أنها لا تزال مستخدمة حتى القرن العشرين . أما ودع الكوري فنوع من القواقع الصغيرة الزرقاء المجزعة بالأحمر ، ويصنعون من هذا الودع عقودا، وكانوا في الجزر النائية في المحيط الهندي ، وجزر الملديف les Maldives، وجزر اللاكيديف les Laquedives يشحنون منها سفنا كاملة يرسلونها إلى أفريقيا، وشمال شرق الهند، وبورما. كذلك كانت هولندة تستورد هذا الودع في القرن السابع عشر، وتفرغ شحناته في

ميناء امستردام ، لتستخدمها في خبث لتحقيق مآربها ، وكانت هولندة قد أدخلت ودع الكوري إلى الصين مع المبشرين الذين سلكوا به السبل التي سلكتها البوذية من قبل، عندما دعت الناس إلى اعتناقها. ولم ينسحب ودع الكوري أمام عملة السابيك الصينية sapèques انسحابا كاملا، فقد ظل إقليم يونن Yunnan الغني بخشبه ونحاسه متمسكا بودع الكوري في تعاملاته حتى عام ١٨٠٠ تقريبا. وقد كشفت بحوث حديثة عن عقود إيجار، وعقود بيع في تواريخ متأخرة ، تحدد المبالغ بالكورى(١٦).

وهناك عملة لا تقل غرابة ، اكتشفها واحد من الصحفيين الذين رافقوا في ماض قريب الملكة اليزابث، والأمير فيليب إلى أفريقيا ، كتب عنها : " الوطنيون في عمق نيجيريا لا يشترون الماشية، والأسلحة ، والمنتجات الزراعية، والأقمشة ، بل وزوجاتهم بالجنيهات الاسترلينية الصادرة عن صاحبة الجلالة البريطانية ، بل بنقود غريبة من المرجان، سكت (أو على الأصح صنعت) في أوروبا . ولدت هذه النقود [...] في ايطاليا حيث يسمونها أوليفيته olivette، ويتم تصنيعها في منطقة توسكانا خاصة ، وعلى وجه التحديد في ورشة بمدينة ليفورنو ظلت باقية حتي اليوم. وهذه الأوليفيتات على شكل خرزات اسطوانية من المرجان تثقب في وسطها ، وتقلم بقنوات طولية على سطحها الخارجي، ويتداول الناس هذه النقود في نيجيريا، وسيراليون ، وساحل العاج - كوتديفوار- وليبيريا ، وبلاد أخرى أبعد من هذه وتلك . والافريقي الذي يشتري هذه الأوليفيتات ينظمها على هيئة عقد، أو مسبحة يعلقها في حزامه ، فيعرف من يراه بمجرد النظر مدى ثروته. ويروى عن بيهانزان Behanzin- ملك مملكة داهومي الذي خلعه الفرنسيون عن عرشه، ونفوه الى الجزائر - أنه اشترى في عام ١٩٠٢ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه استرليني اوليفيته خاصة ، رائعة اللون تزن كيلوجراما (١٧).

ولن نستطيع أن نضع قائمة كاملة، جامعة مانعة، لكل هذه النقود العجيبة التي لا يتوقع الإنسان وجودها ، والتي ينبغي أن نتعقبها في مكامنها ، في كل صوب وحدب. كانت هناك في ايسلنده - على ما تبين لوائح عام ١٤١٣ وعام ١٤٢٦ - قائمة سلع، وأسعار حقيقية تذكر ثمن البضائع مقدرا بالأسماك المجففة (السمكة المجففة الواحدة ثمن لحدوة حصان ؛ ٣ سمكات ثمن زوجين من أحذية النساء؛ ١٠٠ سمكة ثمن برميل النبيذ؛ ١٢٠ سمكة ثمن دست الزبد الخ)(١٨). أما في ألاسكا ، أو في روسيا القيصرية أيام بطرس الأكبر فقد لعب الفراء هذا الدور ، وربما اتخذوا الفراء على هيئة مربعات صغيرة كانت تضيق بها صناديق الصرافين العسكريين العاملين في خدمة القيصر أحيانا. وفي سيبريا كانت الضرائب تجمع على هيئة قطع من الفراء الثمين ذي القيمة التجارية، وكانوا يسمونها " الذهب اللين " ، وكان القيصر يسدد بهذا الذهب اللين الكثير من الالتزامات، ومن بينها مرتبات الموظفين خاصة. أما في أمريكا، إبان الاستعمار،

فكانت النقود تتنوع بحسب المناطق، وتتمثل في التبغ أو السكر أو الكاكاو. وكان الهنود الحمر في أمريكا الشمالية يستخدمون نقودا على هيئة قطع اسطوانية صغيرة منحوتة في الودع الأبيض أو البنفسجي ، منظومة علـى هيئة عـقود ، هـي الفامبومـات wampums، التي ظل المستعمرون الأوروبيون يستخدمونها رسميا حتى عام ١٦٧٠، والتي ظلت متداولة حتى عام ١٧٢٥ على الأقل(١٩) . كذلك شهدت منطقة الكونغو، بالمعنى الواسع للاسم (الذي يشمل انجولا أيضا) ، بين القرن السادس عشر ، والثامن عشر انتعاشا شمل الأسواق ، وشبكات المبادلة ، وكانت هذه وتلك بلا شك في خدمة عملية " المقايضة " أساسا، وفي خدمة تجارة التجار البيض، ووكلائهم الـ pombeiros الذين كانوا في أغلب الأحيان يستقرون في الداخل في أماكن بعيدة . وكان هناك نوعان من أشباه النقود يتداولهما الناس في تلك البقاع : ودع الزمبو و مقاطع القماش(٢٠). أما الودع فكان محدد العيار: وكان هناك غربال عيارى يميز الودع الكبير، والودع الصغير (الودعة الكبيرة = ١٠ ودعات صغار). أما مقاطع القماش ، التي كانت تقوم مقام النقود، فكانت مختلفة الحجم ، منها اللوبونجو lubongo فى حجم صحيفة الورق، والمبوسو mpusu في حجم فوطة المائدة . وكانت هذه الأقمشة النقدية، التي كانوا يضمونها عادة في درزينات اثنا عشرية ، تحاكي النقود المعدنية، وتمثل درجات من القيم تتضاعف ارتفاعا ، وتنقسم هبوطا ، وكان من الممكن تدبير مبالغ ضخمة منها. ففي عام ١٦٤٩ جمع ملك الكونغو ١٥٠٠ ربطة من الأقمشة ، كانت تساوى تقريبا ٤٠ مليون ريال برتغالي (٢١).

في كل مرة تتاح للبحث متابعة مصير أشباه النقود هذه ، بعد تعرضها للتأثير الأوروبي (سواء فيما يتعلق بودع الكوري في البنغال(٢٢) أو الفامبومات بعد عام ١٦٧٠ أو ودع الزمبو الكونغولي)، يتبين لنا أنها تسلك في تطورها نفس المسار: إنها تنتهي إلى حالات من التضخم الفظيع الرهيب ، نتيجة تزايد المخزون منها ، وتزايد سرعة تداولها تزايدا يصل إلى درجة الجنون، ونتيجة لما يواكب ذلك من انخفاض القيمة المذهل بالنسبة للعملات الأوروبية المهيمنة . ويضاف إلى ذلك أثر تزييف النقود البدائية. ففي القرن التاسع عشر قامت الورش الأوروبية بصناعة فامبومات مزيفة من عجينة الزجاج، أدت الى تلاشي العملة القديمة نهائيا . اما البرتغاليون فكانوا أكثر دهاء، فقد استولوا حول عام ١٦٥٠ عند سواحل جزيرة لوانده Loanda ـ أنجولا ـ على " مصايد النقود "، يعني مصايد ودع الزيمبو ، وكانت تلك النقود قد فقدت بين عام ١٥٧٥ و عام ١٦٥٠ قيمتها بنسبة ١ الى ١٠(٢٣).

من كل ما تقدم ينبغي أن نستنتج أن النقود البدائية ، في كل مرة تصبح فيها نقودا حقيقية ، تتخذ سمات النقود الحقيقية ، وتتحرك حركتها . أما النكبات التي حلت بالنقود البدائية فهي تلخص تاريخ الصدمة التي حدثت بين أنماط الاقتصاد البدائي، وأنماط الاقتصاد المتقدم ، وتمثلت هذه الصدمة في زحف الأوروبيين على بحور العالم السبعة .

المقايضة في قلب النظم الاقتصادية النقدية

أما الشيء الذي قد لا نعرفه معرفة جيدة فهو أن أوضاعا قديمة ومتفاوتة ـ ربما نفس التفاوت ـ استمرت قائمة في قلب البلاد " المتحضرة " ، وظلت باقية ، تحت ما يمكن أن نصفه بأنه الجلد الرقيق لنظم الاقتصاد النقدي ، في صورة أنشطة بدائية، مختلطة، تصطدم بالأنشطة الأخرى ، مثلا عندما تلتقي بها التقاء منتظما في سوق المدينة، أو عندما تلتقي بها في خضم الأسواق الصاخبة ، وهكذا ظلت في قلب أوروبا أنماطا اقتصادية حية نشيطة ، حاصرتها الحياة النقدية دون أن تقضي عليها، بل لقد أبقت

الامبراطور قبلاي فاتح الصين يأمر بسك نقود من قلفة شجر التوت مهرها بالخاتم الامبراطوري . صورة من مخطوط فرنسي يحمل عنوان " أسفارالعجائب Livres des Merveilles".

عليها، واحتفظت بها لنفسها على هيئة مستعمرات داخلية في متناول يدها . وهذا هو آدم سميث يتحدث - في عام ١٧٧٥ - عن قرية اسكتلندية " ليس من النادر أن يرى إليعلى هيئة مسامير بدلا من النقود "(٢٤). وفي الوقت نفسه تقريبا كانت هناك قطاعات متفرقة في البرانس القاطالونية يذهب الريفيون فيها إلى الدكاكين ، يحملون أكياسا صغيرة مليئة بالغلال ، يدفعون بها ثمن مشترواتهم(٢٥). ولكن هناك أمثلة من عصور بعد هذه بكثير ، نراها أكثر إقناعا . فعلماء الأجناس يقررون أن جزيرة كورسيكا لم تأخذ حقيقة باقتصاد نقدي على نحو فعال إلا بعد الحرب العالمية الأولى التي وضعت أوزارها في عام ١٩١٨ . وهذه الطفرة - استخدام النقود - لم تحدث في بعض المناطق الجبلية من الجزائر " الفرنسية " قبل الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الظاهرة تمثل مشكلة مثيرة ، ظلت كامنة تحت السطح ، في منطقة الأوراس الجزائرية حتى نحو عام ١٩٣٠(٢٦) ، وهذه المشكلة المثيرة تتيح لنا أن نتصور المشكلات المثيرة الشبيهة ، في عوالم صغيرة مقفلة لا حصر لها في ربوع الشرق الأوروبي ، في بعض الأقاليم الريفية أو الجبلية ، أو في ربوع الغرب الأمريكي ، عندما حلت بها أساليب عصرية حديثة من أساليب النظام النقدي ، في تواريخ مختلفة كل الاختلاف، يمكننا، على الرغم من التباعد الزمني بينها ، أن نقارنها بعضها بالبعض ، وأن نكشف عن أوجه الشبه.

و يذكر رحالة فرنسي من القرن السابع عشر هو فرانسوا لابوليه François La Boullaye أن مناطق شركسيا Circassie ومنجرليا Mingrelie - أي المناطق بين جنوب القوقاز والبحر الأسود - " لا تتداول النقود " ، وأن الناس هناك لا يمارسون إلا المقايضة ، وكانت الجزية التي يدفعها أمير منجرليا في كل عام إلى السلطان تتكون من " مقاطع قماش وعبيد ". وكان السفير، الذي يكلف بنقل الجزية إلى استانبول، يواجه مشكلة خاصة هي: كيف يدفع نفقات إقامته في العاصمة التركية ؟ فكان يتخذ له حاشية تتكون من ثلاثين أو أربعين عبدا ، كان يبيعهم الواحد تلو الآخر ، لا يبقي إلا على كاتبه - كما يقول لابوليه - الذى لم يكن ينفصل عنه إلا في آخر لحظة . ثم " يعود وحده إلى بلاده " (٢٧).

وهذا مثل روسي واضح الدلالة كذلك . كان الناس في نوفجورود Novgorod في مطلع القرن الخامس عشر " لا يستخدمون [...] إلا عملات تجارية صغيرة، هي قطع من فراء السمور ، وقطع من الجلد المدبوغ المبصوم ببصمة خاصة. ولم يشرعوا، إلا في عام ١٤٢٥ ، في سك نقود فضية كانت رديئة جدا . وسبقت نوفجورود بنقودها المسكوكة الاقتصاد الروسي الذى ظل معتمدا على المبادلات العينية ردحا من الزمن "(٢٨). وكان عليه أن ينتظر إلى القرن السادس عشر حتى تأتي إليه النقود الألمانية، والسبائك (لأن الميزان التجاري الروسي كان في ذلك الحين إيجابيا) لكي يشرع الروس في سك نقود

على نحو منظم . ولقد كان ذلك السك في البداية متواضعا ، وكثيرا ما كان يتم استجابة لمبادرة خاصة . وظلت المقايضة على أية حال قائمة هنا وهناك في ربوع البلاد المترامية الأطراف . ولم يحدث ، إلا إبان حكم بطرس الأكبر ، أن أقيمت روابط تربط المناطق التي كانت منعزلة. وتأخر روسيا عن الغرب لا سبيل إلى انكاره : فلم يستغل ما في سيبريا من ذهب استغلالا حقيقيا إلا منذ عام ١٨٢٠ (٢٩).

كذلك أمريكا كانت في زمن الاستعمار ترسم صورة معبرة إلى أقصى درجات التعبير عن استمرار المقايضة. فلم يغز الاقتصاد النقدي إلا المدن الكبيرة في البلاد ذات المناجم ـ المكسيك وبيرو ـ والمناطق القريبة من أوروبا : الأنتيل ، والبرازيل (وقد نعمت مبكرا بخيرات مناجم الذهب). كانت أنماط الاقتصاد هناك أبعد ما تكون عن أنماط الاقتصاد النقدي الكامل، ولكن الأسعار كانت عائمة متقلبة ، وتلك علامة على نوع من النضج الاقتصادي. ونلاحظ مع ذلك أن الأسعار ظلت حتى القرن التاسع عشر ثابتة لا تعرف التقلبات في الارجنتين ، وفي شيلي (التي كانت تنتج النحاس، والفضة) (٣٠)، كانت الأسعار هناك ثابتة ثباتا ملحوظا ، بل يمكننا ان نقول إنها كانت كمن يولد ميتا . كان المألوف في كل القارة الأمريكية أن يجري تبادل البضائع مقابل البضائع ، وليست الضياع الاقطاعية ، أو شبه الإقطاعية ، التي كانت الحكومات الاستعمارية تقطعها إلا مؤشرا على ندرة النقود . ولكن النقود الضعيفة ، أو العاجزة ، كانت تلعب آنذاك بطبيعة الحال دورها وكانت تتخذ صورة قطع من النحاس في شيلي، وصورة التبغ في منطقة فرجينيا ، وصورة " نقود الورق " في كندا الفرنسية ، وصورة التلاكوات في اسبانيا الجديدة التي تسمت فيما بعد باسم المكسيك(٣١). وكلمة تلاكو و تجمع على تلاكوس tlacos (أصلها مكسيكية، وتعني أصلا ما هو ضعيف نحيف) أطلقت على عملة صغيرة هي جزء من ثمانية أجزاء من الريال ، صنعها التجار الصغار، تجار القطاعي، أصحاب الدكاكين المسماة مستيزا mestizas ـ من قبيل دكاكين الألف صنف ـ وكانت تبيع كل شيء من الخبز ، والكحول ، إلى الحرير المستورد من الصين . وكان كل صاحب دكان يصدر قطعا كالقشاط ، أو ماركات من الخشب ، أو النحاس ، أو الرصاص بعلامة الدكان المميزة. وكانت هذه الماركات تتداول في نطاق جمهور صغير محدود، وكان من الممكن تغييرها عند اللزوم ببزيتات فضية حقيقية ؛ وكان منها ما يضيع بطبيعة الحال، وما يدخل في كثير من الأحايين في مضاربات وتلاعبات قذرة . ويرجع السبب في ظهور هذه الماركات الخاصة إلى أن النقود الفضية كانت من فئات كبيرة ، وكانت في الحقيقة تتجاوز إمكانات وتعاملات صغار الناس. كذلك كان الأسطول ، عندما يرسو ، يفرغ البلد من كل ما فيها من فضة ، وكان من الضروري إتمام التعاملات بوسائل أخرى. وفشلت المحاولة التي جرت في عام ١٥٤٢ لصناعة نقود من النحاس(٣٢)، وبقي الناس على

النظام المعيب صاغرين ، وكأنما كانت نقوده نقودا بدائية . أما كان هذا هو الذي حدث في فرنسا في القرن الرابع عشر عندما دفعت فدية ملكها الملك جان الطيب Jean le Bon الذى أسره الانجليز ؟ كان تدبير الفدية يعني تجريد البلاد من كل ما كان فيها من نقود مسكوكة. واضطر الملك بعد ذلك أن يسك نقودا من الجلد ، عاد فاشتراها بعد سنوات.

وظهرت نفس المشكلات في المستعمرات الانجليزية ، قبل وبعد تحريرها. في نوفمبر من عام ١٧٢١ كتب تاجر من فيلادلفيا الى مراسله المقيم في جزيرة ماديرا يقول له : " كنت أنوى أن أرسل شحنة من القمح، ولكن الدائنين هنا مترددون ، والنقود نادرة الى حد أننا بدأنا نعاني من الضيق ، بل أصبحنا بالفعل نعاني من الضيق ، منذ بعض الوقت ، نتيجة عدم وجود وسيلة للدفع ، وإذا لم تكن هناك وسيلة للدفع ، أصبحت التجارة عملية مليئة بالمنغصات المحيرة "(٣٣). وكان الناس فيما يتصل بالتبادلات اليومية يسعون إلى الإفلات من ربقة هذه " المنغصات المحيرة " . واليك كلافيير Clavière وبريسو Brissot، وهما شخصيتان كانت الثورة الفرنسية تعرفهما حق المعرفة، ألفا في عام ١٧٩١ كتابا عن الولايات المتحدة ، بينا فيه انتشار المقايضة هناك على نحو واسع غريب، وقالا بكلمات تعبر عن الإعجاب : " بدلا من استخدام النقود ، التي تدخل الأيدي، ثم تخرج منها ، لتعود اليها بغيرانقطاع ، يتبادل الناس في المناطق الريفية الوفاء بمتطلباتهم عن طريق المبادلات المباشرة . فالخياط ، والاسكاف يأتيان الى المزارع، وينجزان لديه ما يطلب منهما من أعمال ، ويقدم إليهما في أغلب الأحيان المادة المطلوبة، والثمن في صورة عينية. وهذه الأشكال من المبادلات منتشرة على نطاق واسع، وتشمل الكثير من المجالات ؛ وكل طرف يسجل لديه ما يقدمه للآخر ، وما يتلقاه منه، وفي نهاية السنة ، يقفل الناس حسابات عمليات المبادلات المنوعة أكثر التنوع مستخدمين القليل من النقود، ولو كانوا في أوروبا لاستخدموا فيها مالا كثيرا". وهكذا " فهناك وسيلة عظيمة لتصريف البضائع ، وإنجاز الخدمات ، بدون نقود ..." (٣٤).

وامتداح نظام المقايضة ، وتسديد مقابل الخدمات بالعينيات ، والذهاب إلى أن ذلك يمثل الأصالة التقدمية لأمريكا الفتية كلام فيه كثير من الطرافة التي تثير الضحك. فقد كانت عمليات الدفع بالعينيات في القرن السابع عشر ، بل وفي القرن الثامن عشر، منتشرة إلى حد كبير في أوروبا ، حيث كانت تراثا خلفه ماض كان فيه نظام المقايضة هو القاعدة. ولو أننا أردنا المزيد من أمثلة من شملهم نظام المقايضة في أوروبا (متبعين ما ذكره ألفونس دوبش Alfons Dopsch) لضممنا إلى القائمة(٣٥) صناع المدى، وسناني السكاكين في مدينة زولينجن بألمانيا Solingen، وعمال المناجم، وصناع المنسوجات في بفورتسهايم Pforzheim، وصناع الساعات الريفيين من أهل الغابة السوداء ، وكانوا جميعا يتلقون أجورهم عينيا ، في صورة طعام ، أو ملح ، أو منسوجات ، أو سلوك

مارك من البرونز يحمل العلامة المميزة لآل بيروتسي Peruzzi وهي عبارة عن ثمرتين من الكمثرى ، وكان آل بيروتسي تجارا في فلورنسا. وقد تلقيت هذا المارك هدية من السيد بيرنوكي M.Bernocchi الذى ضم في مجموعته كميات من ماركات صغيرة مشابهة ، يبدو أن مؤسسات فلورنسية كانت تصدرها لمعاملاتها الداخلية ، لأنها كثيرا ما كانت تحمل علامتين ترمزان الى أسرتين من أسر التجار ، تشتركان في أعمال تجارية (قطر الماركة = ٢٠ مم)

معدنية، أو كميات محددة من الغلال ، وكانت كلها منتجات غالية غلاء فاحشا ، ولها أثمان معروفة . وكانوا يسمون نظام المقايضة هذا بالألمانية Trucksystem، وهو نفس النظام الذي كان يسمى بالفرنسية troc، وكان متداولا في ألمانيا ، وهولندة ، وانجلترة، وفرنسا ، وكان الموظفون الرسميون في الامبراطورية الألمانية أو الرايخ الألماني، وبخاصة الموظفون في البلديات ، يتلقون جانبا من رواتبهم على هيئة عينيات. وما أكثر مدرسي المدارس الذين كانوا حتى القرن الماضي يتلقون أجرهم في صورة طيور داجنة، وزبد، وقمح (٣٦). وكان سكان القرى الهندية يدفعون لأصحاب الحرف (الذين يمارسون الصنعة أبا عن جد في إطار الطبقات الحرفية) أجورهم دائما على هيئة مواد غذائية ، وكانوا يسمون نظام المقايضة باراتو baratto، وكان هو النظام العام الحكيم الذى اتبعه التجار الكبار منذ القرن الخامس عشر ، حتي في رحلاتهم التجارية الى بلاد المشرق العربي، وفي كل مجال أتيح لهم الأخذ بهذا النظام . وليس من شك في أن تقاليد المقايضة هي التي شحذت قرائح المتخصصين في الائتمان ، وهم أهل جنوا في القرن السادس عشر، وحفزتهم على إقامة أسواق ، سميت أسواق بيزانسون Besançon ، كانت تسوى فيها صكوك التبادل على مستوى أوروبا كلها ، وكانت تتم هناك عمليات مقاصة حقيقية قبل أن يظهر هذا المصطلح . وهذا هو واحد من أهل البندقية يعبر في عام ١٦٠٤ عن دهشته البالغة لملايين الجنيهات الذهبية ، أو الدوكاتات ، التي يجرى التعامل فيها بالمقاصة في مدينة بياتشينتسا Piacenza الايطالية ، مركز الأسواق، دون أن ترى العين إلا حفنات قليلة من " العملات الذهبية "، الذهب في ذهب(٣٧) ، يقصد العملات الذهبية الحقيقية.

خارج نطاق أوروبا:
نظم اقتصادية ونقود في دور الطفولة.

أما اليابان، وبلدان الإسلام، والهند، والصين فمواقفها وسط بين نظم الاقتصاد البدائية، ونظام اقتصاد أوروبا، وكأنها كانت في منتصف الطريق إلى حياة اقتصادية نقدية نشيطة كاملة .

في اليابان
والدولة العثمانية

ازدهر الاقتصاد النقدي في اليابان مع مطلع القرن السابع عشر، ولكن تداول العملات الذهبية والفضية والنحاسية لم يمس الجماهير، وبقيت النقود القديمة المتمثلة في الأرز تمارس مهمتها ، فكان الناس يتبادلون أحمالا من الرنجة في مقابل أحمال من الأرز .ومع ذلك

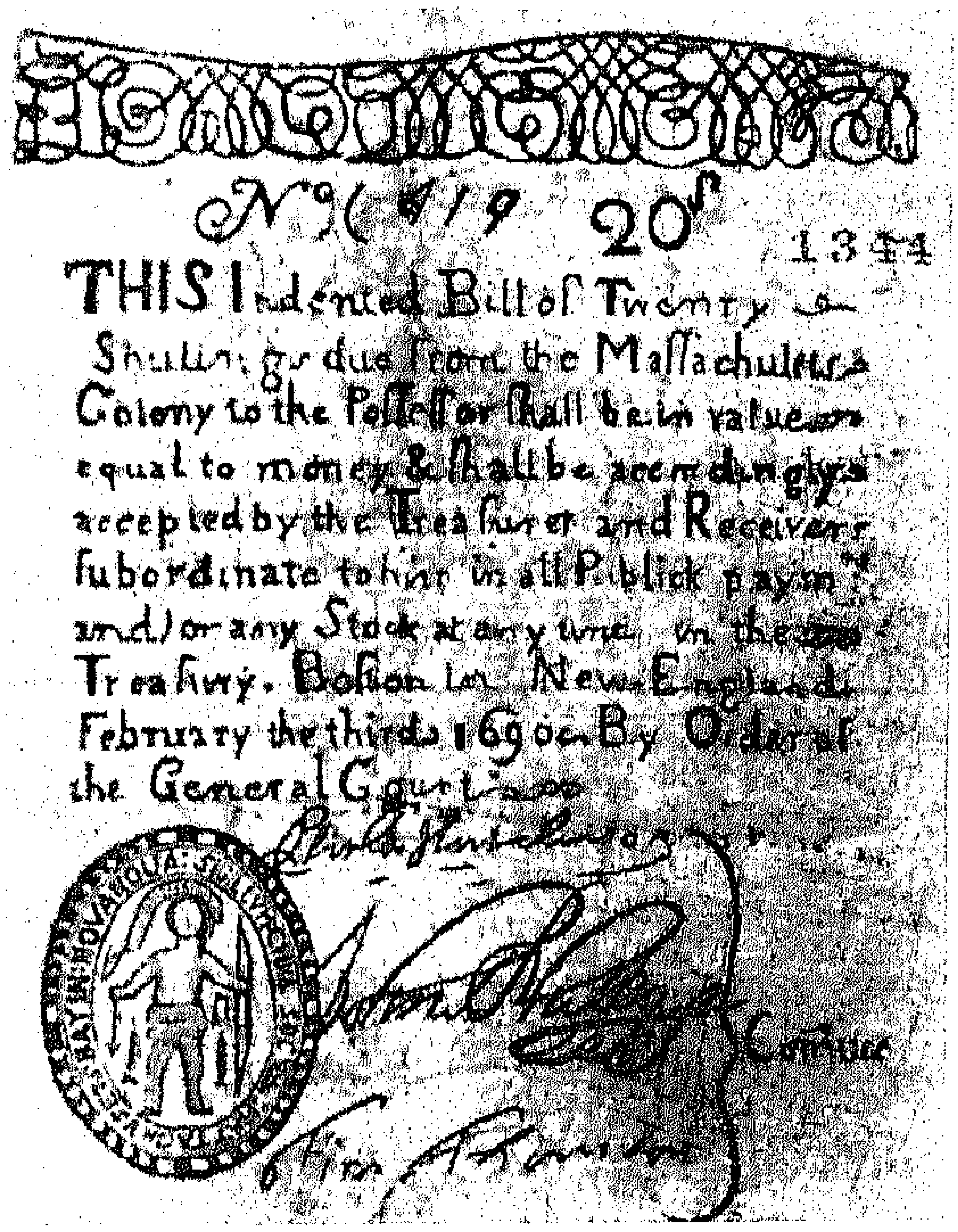
No 16419 20s 1344
THIS Indented Bill of Twenty Shillings due from the Massachusetts Colony to the Possessor shall be in value equal to money & shall be accordingly accepted by the Treasurer and Receivers subordinate to him in all Publick paym.ts and for any Stock at any time in the Treasury. Boston in New England February the third 1690. By Order of the General Court

صك صادر من مستعمرة ماساشاسيتس Massachusetts فيما كان يسمى قديما الجلترة الجديدة بتاريخ ٣ فبراير ١٦٩٠. وهذا الصك محفوظ في أرشيف شركة مولسون Molson بمونتريال التي تفضلت مشكورة فقدمت إلى صورة منه.

فقد أخذ التحول يشق طريقه ، وأصبح بين أيدي الفلاحين قدر كاف من النقود النحاسية، يدفعون بها الضرائب المقررة على الحقول الجديدة غير المنزرعة بالأرز. (أما الحقول الأخرى فقد بقيت على النظام القديم المتمثل في السخرة، وفي الضرائب العينية).
في الجزء الغربي من اليابان ، في ضياع الوالي الملقب بلقب الشوجون shogoun كان ثلث الضرائب المفروضة على الفلاحين يسدد نقدا ، بل إن بعض السادة الإقطاعيين، الذين يسمون بالدايميو daimyos ، كانوا يمتلكون كميات كبيرة من العملات الذهبية، والفضية، حتى أنهم كانوا يدفعون بالعملات الذهبية الصفراء ، والفضية البيضاء، رواتب نبلاء الساموراى الصادعين بخدمتهم . ولكن هذا التطور في مجال تداول النقود سار ببطء نتيجة للتدخل البشع المتكرر من جانب الحكومة ، ونتيجة للعقليات المعادية للنظام الجديد، ونتيجة لأخلاقيات الساموراى التي كانت تحرم عليهم أن يفكروا في المال، أو يتكلموا عنه مجرد الكلام(٣٨). وكانت اليابان ، الآخذة بالنظام النقدي، تعتبر في مواجهة يابان الفلاحين والإقطاعيين ، يابانا ثورية من ثلاثة أوجه : الحكومة، والمدن، والتجار. والمؤشر الأكيد الذي يظهرنا على درجة النضج في هذه الناحية هو تقلبات الأسعار (المعروفة لنا)، وبخاصة أسعار الأرز ، وتقلبات الضرائب النقدية المضروبة على الفلاحين ، وكذلك : إجراءات خفض قيمة النقود التي اتخذها الوالي الياباني أوالشوجون في عام ١٦٩٥ على أمل أن تؤدي إلى " مضاعفة كمية النقود " (٣٩).

كان لدى العالم الإسلامي في المناطق الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الهند تنظيم نقدي ، ولكنه كان تنظيما قديما ، ظل محصورا في دائرة تراثه وتقاليده . ولم يحدث تطور إلا في بلاد فارس ، التي كانت نقطة التقاء تجارية نشيطة، وفي الدولة العثمانية، وفي استانبول بالذات التي كانت مدينة خارقة للمألوف . فقد وضع الأتراك في تلك العاصمة الهائلة، في القرن الثامن عشر ، تعريفة ، هي قوائم البضائع والأسعار، تحدد بالنقود التركية أسعارالبضائع ، والرسوم الجمركية مقدرة حسب العملة المحلية، وكانت عمليات تحويل العملات، من وإلى التركية تتم في كل المراكز الكبيرة في أوروبا مثل أمستردام ، وليفورنو، ولندن، ومارسيليا ، والبندقية ، وفيينا ...

كانت النقود المتداولة نقودا ذهبية تسمى سلطانية sultanins أو قد تسمى بندق أو بندقي fonducchi fonduc(على فئات، منها فئة القطعة الكاملة، وفئة نصف القطعة، وفئة ربع القطعة). وكانت هناك نقود فضية هي القروش أو الغروش التركية grouck أو grouch. كذلك أصبحت البارة para والسفريتة aspre من النقود المتداولة. كان السلطاني يساوي ٥ قروش ، وكان القرش يساوي ٤٠ بارة، وكانت البارة تساوي ٣ سفريتات ، وكان هناك المنجير menkir أو الجيدوكي gieduki وهو ربع سفريتة وهو أصغر قطعة عملة حقيقية متداولة (من الفضة أو النحاس). وكان تداول

هذه العملات في استانبول بعيد المدى، يصل مداه إلى مصر والهند عن طريق البصرة ، وبغداد ، والموصل، وحلب، ودمشق، حيث عملت جاليات من التجار الأرمن على تنشيط حركة التعامل . وشهدت هذه المناطق ، في مجال تداول العملات، أمورا لا سبيل إلى الشك فيها ، منها تفوق طائفة من العملات الأجنبية على العملات العثمانية ، وكان ذلك نوعا من الخلل في النظام النقدي لا مراء فيه : بل لقد هيمنت بعض العملات الأجنبية على النقود العثمانية ، ومن هـذه العمـلات الأجنبية مثلا التسيكينو البندقي sequin،وهو عملة ذهبية تساوي خمسة قروش ونصف ؛ والتالرالهولندي ، والجنيه الراجوزي، وهما من العملات البيضاء تساوى القطعة منهما ٦٠ بارة ، والتالر النمساوى المسمى قره قروش Cara Grouch، وكانوا يغيرونه بـ ١٠١ أو حتى بـ ١٠٢ باره (٤٠). وتشير وثيقة من البندقية إلى أنه كان من الممكن في عام ١٦٦٨ أن يحقق الإنسان ربحا قد يصل إلى ٣٠ ٪ عند تحويل الريالات الاسبانية (التي أرسلت الى مصر) . وتشير وثيقة أخرى ترجع إلى عام ١٦٧١ إلى أنه كان من الممكن كسب ما بين ١٢ و ١٧,٥٪ عند شراء عملات التسيكينو أو المجر ongari من البندقية ، وتصريفها في استانبول(٤١). هكذا كانت الامبراطورية التركية كالفخ الذي يجتذب ويتصيد عملات الغرب ، وكانت الدولة العثمانية تحتاج إليها لتنشيط تداول عملاتها : أي أنها كانت هي الطالبة.

ودخل اللعبة نوع آخر إضافي من السعي وراء الربح : " كانت كل العملات [التي تصل الى بلاد المشرق] ترسل الى المسابك ، ثم ترسل بعد ذلك إلى بلاد فارس ، وبلاد الهند بعد صهرها ، وتحويلها إلى سبائك " ، وهناك تستخدم في سك اللارين larin الفارسي ، والروبية الهندية(٤٢). هذا هو على أية حال ما يذكره نص فرنسي يرجع إلى عام ١٦٨٦ . أيا كان الأمر فقد كانت عملات غربية تصل سليمة في سكتها الأصلية إلى اصفهان ، ودلهي . وكانت المشكلة التي يواجهها التجار في بلاد فارس هى أن العملات التي كانت تدخل هناك، كانت يؤمر بها أن تحمل إلى دار سك العملة ليعاد سكها، وتحويلها إلى لارينات، وكان التجار يتحملون نفقات السك . وحتى عام ١٦٢٠ كان اللارين ، وقد أصبح نوعا من العملة الدولية في الشرق الأقصى ، يقيم بأكثر من قيمته . وكانت هذه الزيادة في القيمة تعوض ما يفقده التجار نتيجة إعادة سك العملات الأجنبية . ولكن اللارين فقد في غضون القرن السابع عشر تدريجيا هذه الميزة التي انتقلت إلى الريال ، وفي الوقت الذى كان فيه تافيرنييه هناك كان كثير من التجار في بلاد فارس يسعون للحصول على الريالات ، ويهربونها لتمويل عملياتهم في الهند، حيث كان أصحاب القوافل يقومون بأنشطة تجارية واسعة النطاق ، وكذلك كانت الحال بالنسبة للأساطيل التى تلم بالخليج الفارسي(٤٣).

الهنـــد

كانت القارة الهندية منذ وقت طويل ، سبق ميلاد المسيح، تعرف العملات الذهبية والفضية، وتألفها. وحدثت ، إبان القرون التي تهمنا هنا في كتابنا هذا ، ثلاث حركات استهدفت التوسع في الاقتصاد النقدي، في القرن الثالث عشر، ثم في القرن السادس عشر، ثم في القرن الثامن عشر ، ولكن هذه الحركات لم تتسم أي منها بالاكتمال أو الشمول الذي تحيط بمناطق الهند المتنازعة ، فقد استمر النزاع بصورة أو بأخرى بين الشمال ـ الذي كان ابتداء من وديان نهري الكنج والسند يمثل منطقة السيطرة الإسلامية والجنوب الذي بقيت فيه بعض الممالك الهندوكية ، ومن بينها مملكة فيشناياناجار Vijnayanagar التي ظلت مزدهرة حينا من الزمن ؛ وكان النظام النقدي في الشمال عندما تتاح له فرصة العمل ـ يقوم على ثنائية معدنية قوامها الفضة ، والنحاس، وكان النحاس يشغل مكانا دون مكان الفضة، ولكنه كان أكثر أهمية بكثير . ظهرت القطع الفضية، وهي الروبية roupie وكسورها ـ وكانت تارة مستديرة ، وتارة مربعة ـ في القرن السادس عشر، ولم تكن متداولة إلا على قمة الحياة الاقتصادية ، أما ما دون ذلك فكان من شأن النحاس ، واللوز المر (وكان اللوز المر يمثل نوعا من النقود العجيبة الوافدة من بلاد الفرس). أما النقود الذهبية التي يسمونها المهور mohurs والتي ضربها السلطان أكبر Akbar فلم تكن بصفة عامة مخصصة للتداول(٤٤). ولم تكن تلك هي الحال في جنوب الهند، حيث كان الذهب هو العملة الأساسية في ممالك الدكن ، ومن تحت الذهب كانت هناك النقود الفضية ، والنقود النحاسية تكمل الودع ، والقواقع التي كانت تستخدم نقودا (٤٥). كانت النقود الذهبية ، على حد تعبير الغرب ، تسمى باجودات pagodes وكانت قطعا قطرها صغير ، ولكن سمكها كان كبيرا " وكانت تساوي [في عام ١٦٩٥] التسيكينو البندقي"، وكان معدنها أكثر نقاوة من " البيستولا الأسبانية "(٤٦).

واستمرت الفوضى النقدية في القرن الثامن عشر. كان سك العملات مقسما بين دور عديدة لا حصر لها، وكانت دار سورات Surat. وسورات هو المرفأ الكبير لجودجيرات Goudjerate ـ هي أهم الدور ولكنها لم تكن الوحيدة . ونلاحظ أن العملة المحلية كان لها الغلبة على العملات الأخرى . ولكن تعدد السك كان يفتح الباب أمام تدخل الأمراء تدخلا مغرضا، يعمد إلى تمييز قيمة العملة التي تسك أخيرا حتى لو كانت دون مستوى القديمة، وكان ذلك شيئا يحدث دائما . وهذا هو جيميللي كاريري(١٦٩٥) يوصي التجار بأن يعيدوا سك القطع البيضاء " لتكون من عملات البلد ...مع مراعاة أن تكون الشفة هي شفة السنة نفسها، وإلا فقد صاحبها ما يساوي نصفا في المائة . وسك النقود متاح في كل البلاد الواقعة على حدود بلاد الخان الأعظم "(٤٧).

ونظرا لأن الهند لم تكن تنتج عمليا ذهبا، أو فضة ، أونحاسا ، أو ودع الكورى cauris، فإن عملات الأمم الأخرى كانت تأتي إليها ، وتنفذ من خلال بابها الذى لم يقفل قط، والذي كان يمدها بالقدر الأساسي من المادة النقدية الأولى . وهناك دلائل على أن البرتغاليين شجعتهم هذه الفوضى على سك قطع منافسة للقطع الهندية . كذلك كانت هناك (حتى عام ١٧٨٨) روبية سكت في باتافيا، وروبيات فارسية . ثم جرى استنزاف مستمر منظم للمعادن النفيسة في العالم كله ، جرى لصالح الخان الأعظم وبلاده . كتب أحد الرحالة في عام ١٦٩٥ ، يقول :" وعلى القارىء أن يأخذ بعين الاعتبار أن كل الذهب، وكل الفضة المتداولين في العالم ينتهيان في النهاية إلى [بلاد الخان الأعظم] منغوليا كأنما كانت هي مقرهما. والمعروف أن الذهب ، الذي كان يخرج من أمريكا، كان ينتهي بعضه ، بعد جولان خلال ممالك أوروبية عديدة ، إلى تركيا، وبعضه الآخر إلى بلاد فارس، عن طريق ازمير ، بغية الحصول على الحرير . والأتراك لم يكونوا يستطيعون التخلي عن القهوة التي تأتي من بلاد اليمن، التي كانت تسمى بلاد العرب السعيدة؛ و كذلك لم يكن في مقدور العرب، والفرس، والأتراك التخلي عن بضائع الهند، فكانوا يرسلون مبالغ كبيرة من المال عن طريق البحر الأحمر إلى مرفأ مخا قرب باب المندب، والى مرفأ البصرة في عمق الخليج الفارسي، وبندر عباس، وكوميران، ومن هناك إلى الهند على سفنهم ." كذلك كان الهولنديون ، والانجليز، والبرتغاليون يدفعون بالذهب والفضة ثمن ما يشترونه في الهند من بضائع " فما كان من الممكن أن يحصل الإنسان من الهنود على بضائع تشحن إلى أوروبا ، إلا إذا دفع الثمن نقدا "(٤٨).

هذه لوحة لايكاد الغلو يشوبها . ولما لم يكن هناك شيء مجاني يناله الإنسان بلا مقابل ، فقد كان على الهند أن تنفق بغير حدود من معادنها الثمينة، وهذا سبب من أسباب الحياة الصعبة التي اتصلت هناك ، وهو أيضا سبب من أسباب نهضة الصناعات التعويضية، وبخاصة صناعات المنسوجات في جودجيرات التي كانت ركيزة حقيقية للاقتصاد الهندي ، و محركا له من قبل وصول فاسكو دي جاما . وكانت هناك عمليات تصدير نشيطة تتجه إلى البلاد القريبة والبعيدة. ويمكننا أن نتصور جودجيرات، بنساجي القطن فيها، على صورة هولندة بنساجي الصوف فيها في العصر الوسيط. وكانت منذ القرن السادس عشر مصدر قوة وتصنيع هائلة ، أحدثت صداها على طول مجرى نهرالكنج. في القرن الثامن عشر أغرقت الأقمشة القطنية الهندية ، التي عرفت باسم " الهنديات indiennes" ، بلاد أوروبا، وكان التجار يستوردون كميات ضخمة منها، إلى أن فضلت أوروبا ذات يوم أن تقوم هي نفسها بصناعتها ، وأصبحت منافسة للهند فيها.

ومن المنطقي إلى حد كبير أن يتبع التاريخ النقدي للهند حركات الغرب : كانت النقود في الهند تتأثر عن بعد بما يجري في أوروبا. كان كل شيء يجري كما لو كانت إعادة سك

النقود الفضية في دلهي - بعد عام ١٥٤٢ - قد انتظرت مجيء الفضة من أمريكا إلى أوروبا، وهروبها من أوروبا إلى الهند بعد ذلك. هكذا سارت الأمور آنذاك. وهذا هو ماجالاس جودينيو V.Magalhaes Godinho يشرح بالتفصيل أن الروبيات كانت تسك من الريالات الأسبانية، واللارينات الفارسية، وكانت اللارينات الفارسية نفسها أصلا ريالات أسبانية أعيد سكها. كذلك كانت النقود الذهبية سكا جديدا للذهب البرتغالي الوارد من أفريقيا، وللذهب الأسباني الوارد من أمريكا، وقبل هذا وذاك للتسكينو الوارد من البندقية(٤٩). وكانت هذه الواردات الجديدة قد قلبت، رأسا على عقب، الموقف النقدي القديم الذي كان قائما على أساس موارد متواضعة نسبيا من المعادن الثمينة القادمة من مصادر أسيوية (الذهب من الصين، وسومطرة، ومونوموتابا - والفضة من اليابان وفارس) ومن مصادر في منطقة البحر المتوسط (ذهب وفضة من البندقية). وعلينا أن نضيف إلى ما سبق كمية متواضعة أيضا من النحاس الوارد من الغرب عن طريق البحر الأحمر، وأن نضيف إلى هذا وذاك كمية وفيرة من أشباه النقود: ودع الكوري من البنغال وغير البنغال، و لوز مر مستورد من بلاد فارس الى جودجيرات. وتعرض تداول النحاس، مثله مثل الذهب والفضة، الى الاضطراب نتيجة لاستيراده من البرتغال بكميات ضخمة استهلكت كلها في الهند المغولية. وظلت الحال على هذا المنوال حتى جاء الوقت الذي ندر فيه النحاس في لشبونة (٥٠) ثم اختفى تماما بعد عام ١٥٨٠، فحدث قحط في النحاس في الهند على الرغم من النهضة التي حققها النحاس في الصين واليابان. بعد حكم الجهانكير (حكم من ١٦٠٥ الى ١٦٢٧) أي نحو عام ١٦٢٧ أخذت إصدارات النقود النحاسية - التي كانت حتى ذلك الحين وفيرة - تتباطأ في الهند المغولية، وشرعت الفضة تحتل مكانا متعاظما في العمليات التجارية، بينما تزايد دور ودع الكوري من جديد ليحل جزئيا محل قطع البايساه paysahs النحاسية(٥١).

الصيـــن

لا يمكن فهم الصين - وهي كتلة قائمة بذاتها - إلا في وسط عالم من نظم الاقتصاد البدائية القائمة في المناطق القريبة التي كانت ترتبط بها، وتعتمد عليها، وهي: التبت، واليابان (تقريبا إلى القرن السادس عشر)، والجزرالمحيطية، والهند الصينية. وإذا كانت الاستثناءات تؤكد القاعدة فينبغي أن نستبعد من هذا العرض العام لأنماط الاقتصاد البدائية شبه جزيرة مالاكا Malacca التى كانت مركزا تجاريا تتلاقي فيه النقود من تلقاء نفسها، والطرف الغربي من سومطرة حيث قامت المدن العامرة بالذهب والتوابل، وجزيرة جاوة التي كانت آنذاك تعج بالسكان، وكانت فيها العملات النحاسية المسماة كايشا caixas منقولة عن النموذج الصيني، وإن كانت جاوة في ذلك الحين في مرحلة أولية من حياتها النقدية لم تتجاوزها بعد.

كانت الصين إذن تعيش قريبا من بلاد ما تزال في مرحلة الطفولة: كانت اليابان مستمرة في استخدام الأرز كالنقود. أما الجزر المحيطية، فكانت هناك الكايكسات الصينية المستوردة من الصين أو المنقولة عن النموذج الصيني، كذلك كانت هناك عملات تسمي الجونج gongs، مصنوعة من النحاس، ثم كانت هناك بودرة الذهب التي تستخدم نقودا بحسب الوزن، وكان هناك القصدير والنحاس يستخدمان بحسب الوزن؛ أما في التبت كان المرجان المستورد من الغرب البعيد يستخدم نقودا إلى جانب بودرة الذهب.

كل هذا يفسر تأخر الصين نفسها، ويفسر في الوقت نفسه تلك الصلابة النسبية التي اتسم بها نظامها النقدي، وكان نظاما " سائدا ". ولقد استطاعت، دون التعرض لخطر، أن يكون تاريخها النقدي تاريخا كسولا، وقنعت بأن تكون فوق مستوى جيرانها. ولكن علينا أن نفسح مكانا خاصا للضربة العبقرية التي نجحت فيها الصين، وتمثلت في النقود الورقية التي ابتكرتها وظلت تستخدمها من القرن التاسع البعيد إلى القرن الرابع عشر، وكانت هذه النقود الورقية تقوم بدور فعال بصفة خاصة في زمن المغول، عندما انفتحت الصين من خلال طرق آسيا الوسطى على عالم مراعي الاستيبس في روسيا، ووسط آسيا- وعالم الإسلام، والعالم الغربي جميعا. ولقد سهلت النقود الورقية المعاملات الداخلية بين إقليم وإقليم، وأتاحت علاوة على ذلك إمكانية الحفاظ على الفضة، واستخدامها في عمليات التجارة، وتصديرها إلى آسيا الوسطى والى الغرب الأوروبي (ولنسجل عابرين هذه الحقيقة المذهلة وهي أن الصين كانت آنذاك مصدرة للفضة). كان امبراطور الصين يحصل بعض الضرائب مدفوعة بنقود ورقية، وكان التجار الأجانب (وبيجولوتي Pegolotti يذكر ذلك) يطالبون بتغيير عملاتهم إلى نقود ورقية، فإذا عزموا على مغادرة البلاد ردت إليهم عملاتهم(٥٢). ولابد أن استخدام النقود الورقية جاء استجابة للانتعاش الذى حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وكان استخدام النقود الورقية وسيلة للتغلب على الصعوبات التي اكتنفت التداول العتيق للكايشات النحاسية أو الحديدية الثقيلة، وكان يمثل في الوقت نفسه وسيلة تهدف الى تنشيط التجارة الخارجية للصين عبر طرق الحرير.

فلما تراجعت هذه النهضة في القرن الرابع عشر، وتمكنت ثورة الفلاحين من الوصول بأسرة مينج Ming القومية إلى السلطة، انقطعت الطريق المغولية الطويلة المتجهة إلى الغرب. ولقد استمر اصدار العملات الورقية، إلا أن الناس أحسوا بوطأة التضخم، ففي عام ١٣٧٨ كانت ١٧ كايشات ورقية تساوي ١٣ كايشات معدنية، وبعد سبعين سنة، أي في عام ١٤٤٨، أصبح على من يريد الحصول على ٣ كايشات معدنية أن يدفع ١٠٠٠ ورقة. وكان حدوث التضخم بهذه السهولة مرتبطا بسمعة الورق، فقد كان الورق

يذكر الناس بالحكم المغولي المقيت. ولهذا قررت الدولة أن تتخلى عن الورق؛ وظلت البنوك الخاصة وحدها هي التي تتداول الورق في عمليات محلية .

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك في الصين إلا عملة واحدة هي الكايشات caixas، أو caches، أو السابكات sapèques النحاسية ، وهكذا حور الأوروبيون اسمها . وكانت هذه العملة المعدنية اختراعا قديما ظهرفي الصين قبل ميلاد المسيح بقرنين من الزمان، وبقي صامدا في مواجهة المنافسة القوية التي تعددت أشكالها، منافسة الملح، والغلال، ومنافسة بضاعة أكثر خطورة هي الحرير في القرن الثامن، ومنافسة الأرز الذى ظهر من جديد في القرن الخامس عشر عندما اختفت العملات الورقية(٥٣). وفي بداية عصر أسرة مينج كانت النقود عبارة عن قطع معدنية من النحاس المخلوط بالرصاص (٤ أجزاء رصاص الى ٦ أجزاء نحاس) وكان ذلك الخليط يجعلها سهلة الكسر ما إن " يضغط الانسان عليها بأصابعه حتى تتكسر" ، وكانت تسك من جانب واحد فقط، وكانت مستديرة، وبها ثقب مربع يمكن أن يسلك فيه حبل رفيع لتكوين عقد يضم ١٠٠ أو ١٠٠٠ قطعة . ويذكر الأب دي ماجايان ، الذي توفي في عام ١٦٧٧ ، وخلف كتابا ظهر في عام ١٦٨٨: " إن الإنسان يدفع عادة عقدا من ألف دينييه denier ليحصل على جنيه ايكو écu أو تاييل taël صيني ؛ ويتم هذا التحويل في البنوك، وفي أكشاك عامة مخصصة لهذا التغيير ." ومن الواضح أن " الدينييهات " الصينية لم يكن في مقدورها أن تنهض بكل الأعباء لأنها كانت وحدات ضئيلة بالغة الضآلة. ولكن معدن الفضة الذي كانوا يستخدمونه بحسب الوزن كان عملة تفوق هذه الدينييهات، كان أشبه شيء بعملة عالية الفئة. وكانوا يتخدون من الفضة (وربما من الذهب الذي كان يلعب دورا محدودا جدا) قطعا لا يشكلونها على شكل العملة ، ولكن على هيئة سبائك على صورة " قوارب صغيرة " ، وكانوا يسمونها في ماكاو Macao. وماكاو هذه مستعمرة برتغالية في الصين ـ أرغفة paes فيقولون الأرغفة الذهبية أو الأرغفة الفضية ". وكانت السبائك أو القوارب أو الأرغفة الذهبية تساوي جنيها أو جنيهين أو عشرة جنيهات، وقد تصل إلى عشرين جنيها أو تاييلا صينيا؛ أما الأرغفة الفضية فكانت تقابل نصف جنيه أو جنيه أوعشرة جنيهات أو عشرين جنيها أو خمسين وربما مائة أو ثلاثمائة جنيه"(٥٤).والأب البرتغالي يصمم على استعمال كلمتي دينييه denier و جنيه écu ولكن عباراته واضحة . ونحن نستنتج على وجه التحديد أن الجنيه أو التاييل taël كان في أغلب الأحيان " عملة حسابية "، وهذا تعبير سنعود إلى الحديث عنه فيما بعد.

والحق أن السبيكة الفضية كانت هي الوحيدة التي اكتسبت أهمية على هذا المستوى العالي من التعاملات. وهذه السبيكة كانت " بيضاء كالثلج " لأنها كانت مخلوطة بالأنتيمون، وكانت الوسيلة الأساسية للتبادلات التجارية الكبيرة ، وبخاصة عندما ازدهر

في عهد أسرة مينج (١٣٦٨-١٦٤٤) اقتصاد نقدي ورأسمالي، ونمت الحرف الصناعية، واتسع نشاط المناجم . ولنتصور التدافع على مناجم الفحم الصينية (في عام ١٥٩٦) والفضيحة الضخمة التي نجمت عنه في عام ١٦٠٥. وكانت الفضة في ذلك الوقت مطلوبة ، تهافت الناس عليها ، حتى إنهم كانوا يبادلونها بالذهب ، بنسب قد تصل الى ١:٥. وفي الوقت الذي بدأ فيه غليون مانيللا le galion de Manille يشق عباب البحر، ويربط مانيللا عن طريق المحيط الهادي بالمكسيك التي كانت تسمى آنذاك اسبانيا الجديدة، عجلت السفن الجونكية الصينية بالذهاب لملاقاته. وكان غليون مانيللا سفينة

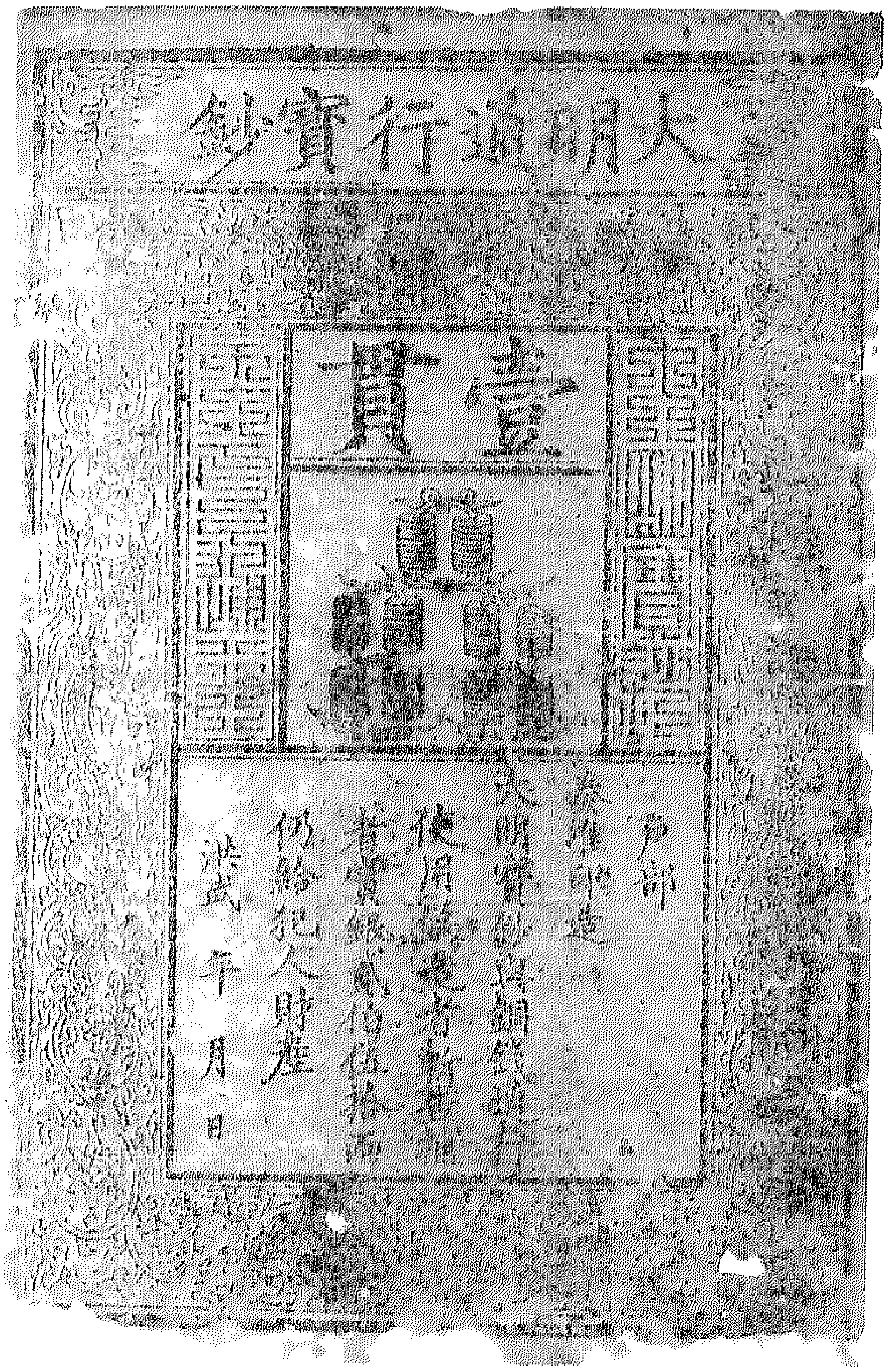

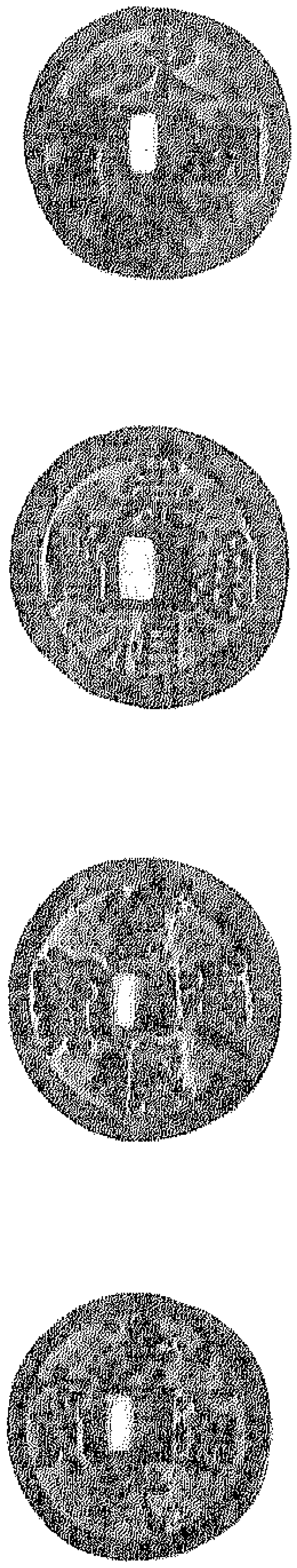

إلى اليسار : صك مصرفي صيني من القرن الرابع عشر . من إصدار الامبراطور الأول من أسرة مينج . مجموعة ج. ليون G.Lion . الى اليمين : نقود من عصر أسرة مينج ، وترجع . بالترتيب من أعلى لأسفل - الى القرن الرابع عشر ، فالخامس عشر، فالسابع عشر .(متحف تشيرنوسكي Cernuschi في باريس .)

شراعية، وكانت السفن الجونكية الصينية قوارب شراعية . وكانت كل بضاعة يقايضون عليها في مانيللا بفضة المكسيك، ولا شيء سواها ، وكان حجم التبادل يصل إلى مليون بيزوس pesos في السنة(٥٥). وكان الصينيون يبذلون قصارى جهدهم حتي ليكادوا ينزلون إلى الجحيم - على ما يكتب سيباستيان مانريكي Sebastian Manrique . ليجدوا بضائع جديدة يحصلون بها على الريالات التي كانوا يتحرقون شوقا إليها. وكانوا يقولون بلغة اسبانية محرفة : plata sa sangre" الفضة هي الدم"(٥٦).

و لم يكن من الممكن استخدام السبائك المسماة بالأرغفة الفضية في الواقع اليومي كاملة في كل حالة ، بل كان المشترون " يقصونها بمقصات مصنوعة من الصلب كانوا يحملونها معهم لهذا الغرض ،فيقطعون قطعا كبيرة أو صغيرة بحسب قيمة ما يشترون." وكانت هذه الشرائح التي يقطعونها توزن، وكان البائعون، والمشترون يحملون معهم لهذا الغرض موازين رومية صغيرة . وهذا واحد من الأوربيين يكتب بين عام ١٧٣٣ و ١٧٣٥ : " ليس هناك صيني واحد، مهما كانت حاله من البؤس، لا يحمل معه مقصا وميزانا ، أما المقص فيستخدمه في تقطيع الذهب أو الفضة، ويسمونه ترابيلان trapelin ، وأما الميزان فليزن به المعدن ويسمونه ليتان litan. والصينيون مهرة في هذه العمليات حتى أنهم ليقطعون ما يقابل ليار liard من الفضة، وما يقابل خمسة سولات من الذهب sols بدقة كبيرة ، ومن أول مرة ، دون حاجة إلى مراجعة، أو تعديل"(٥٧).

ونجد هذه التفصيلات نفسها قبل قرن من الزمان - في عام ١٦٢٦- فيما كتبه الأب دي لاس كورتيس، الذي دهش هو الآخر لتمرس كل الصينيين المذهل على هذه الوسيلة العجيبة للدفع ، يقول ليس هناك طفل لا يعرف كيف يقدر نوعية معدن السبيكة ودرجة نقاوتها. وهم يلتقطون أصغر فتات من المعدن بقمع صغير مملوء بالشمع يحملونه في حزامهم . حتى إذا جمع الشمع قدرا كافيا من الفتات سيحوا الشمع وحصلوا على المعدن(٥٨). هل ينبغي أن يعجب الإنسان بهذا النظام ؟ شاهدنا الأول لا يتردد عن الإعجاب به. إنه يكتب : " وأنا عندما أفكر في تعدد نقودنا في أوروبا أرى أن تلك ميزة ينعم بها الصينيون إذ ليس لديهم نقود من فضة أو ذهب، وإنما يرجع السبب في ذلك فيما أرى - الى أن هذه المعادن متداولة في الصين من حيث هي بضاعة، ولهذا فإن الكمية التي تدخل منها الى البلاد لا يمكن أن تسبب زيادة في أسعار الأطعمة، والبضائع، وما يمكن أن تحدث هذه الزيادة إلا في بلد تكون فيه النقود الفضية شائعة جدا..." ويضيف شاهدنا المتحمس : " ثم إن سعر كل شيء محدد تحديدا جيدا في الصين، بحيث لا يشتري الإنسان الأشياء بأكثر من قيمتها العادية المحددة، بنسبة بعضها إلى البعض. الأوروبيون

وحدهم هم الذين يقعون ضحايا حسن نيتهم. فمن من المألوف جدا أن يبيع لهم الصينيون ما يشترونه بأزيد من السعر الجاري في البلاد "(٥٩).

الحقيقة إذن أن الصين المترامية الأطراف لم تكن غارقة في الفضة على الرغم من أن الكثير من المؤرخين يصفونها بأنها " مضخة ماصة " شفطت ما في العالم من معدن الفضة الأبيض . وأين الدليل ؟ دليلنا على ذلك هو ما كان للقطعة الفضية البسيطة من فئة الثمانية une pièce de huit من قوة شرائية هائلة .أما أن القطعة الفضية من فئة الثمانية كانت تساوي بحسب الأقاليم (وبحسب العملة المختلفة ، والتي كانت مع ذلك العملة الوحيدة المتداولة) ما بين ٧٠٠ و ١١٠٠ كايكسات فهذا مؤشر لا يكشف لنا شيئا كثيرا من قيمتها الفعلية ، ولكننا نقرأ أن هذا الرحالة الذي زودنا بهذه المعلومات كان يستطيع في مقابل قطعة واحدة من هذه القطع الفضية الثمانية الرقيقة في عام ١٦٩٥ " أن يشتري كمية من أفضل خبز في العالم تكفي طوال ستة أشهر "، كان يقصد طبعا استهلاك فرد واحد من الخبز، وهو رحالة قدم من الغرب فأفاد من الرخص الفائق للمألوف لدقيق القمح الذي لم يكن يحظى إلا بالقليل من التقدير في الصين . وهذه القطعة الفضية الثمانية الصغيرة البيضاء كان الرحالة يدفعها كل شهر ليستأجر خادما صينيا " يطهي طعامه " ، وكان يتيح لنفسه مقابل قطعة واحدة من فئة التايل (والتايل tael كان يساوي تقريبا ١٠٠٠ من الكايكسات ، وكان يساوي آنذاك قطعة فضية من ذات الثمانية) خدمات خادم صيني " يافع " ، كان يدفع له علاوة على ذلك " أربع قطع فضية من فئة الثمانية [مرة واحدة] لتنفق منها أسرته على معاشها " طوال الوقت الذى يرافق فيه الرحالة ـ وهو كاريري ـ في رحلته إلى بكين(٦٠).

ولابد أن نأخذ في اعتبارنا عملية الاكتناز الهائلة التي شهدتها الصين، ونعني بها عملية اكتناز الفضة والنحاس الضخمة التي قامت بها الخزينة الامبراطورية (علاوة على عمليات الاكتناز التي قام بها الأغنياء والمرتشون) . وكانت الأرصدة التي اكتنزت وجمدت قد تكدست إلى حد ما نتيجة لقرارات الحكومة واجراءاتها التي لجأت اليها للتأثير على الأسعار، وهو ما تشرحه مراسلات الآباء اليسوعيين في عام ١٧٧٩، فهم يذكرون أن قيمة الفضة بالنسبة إلى الأشياء قد تغيرت في عهد أسرة تسينج Tsing، يقصدون أن الأسعار ارتفعت بصفة عامة . وسواء كانت الفضة نقودا بالمعنى المحدد أو لم تكن (بكل تأكيد لم تكن)، فقد كانت الصين تعيش في ظل نظام ثنائي العملة على نحو ما قوامه النحاس والفضة، وكانت عملية التحويل الداخلي التي ألفها الناس تتم بين السابيكات من ناحية، وبين " أوقية " الفضة الصينية من ناحية ثانية ، أو قطعة العملة الفضية الثمانية، يبيعها تاجر من الغرب . وكان هذا التحويل بين الفضة والنحاس يتغير بحسب الأيام والمواسم والسنوات ، أو بحسب عمليات إصدار أو طرح الفضة والنحاس

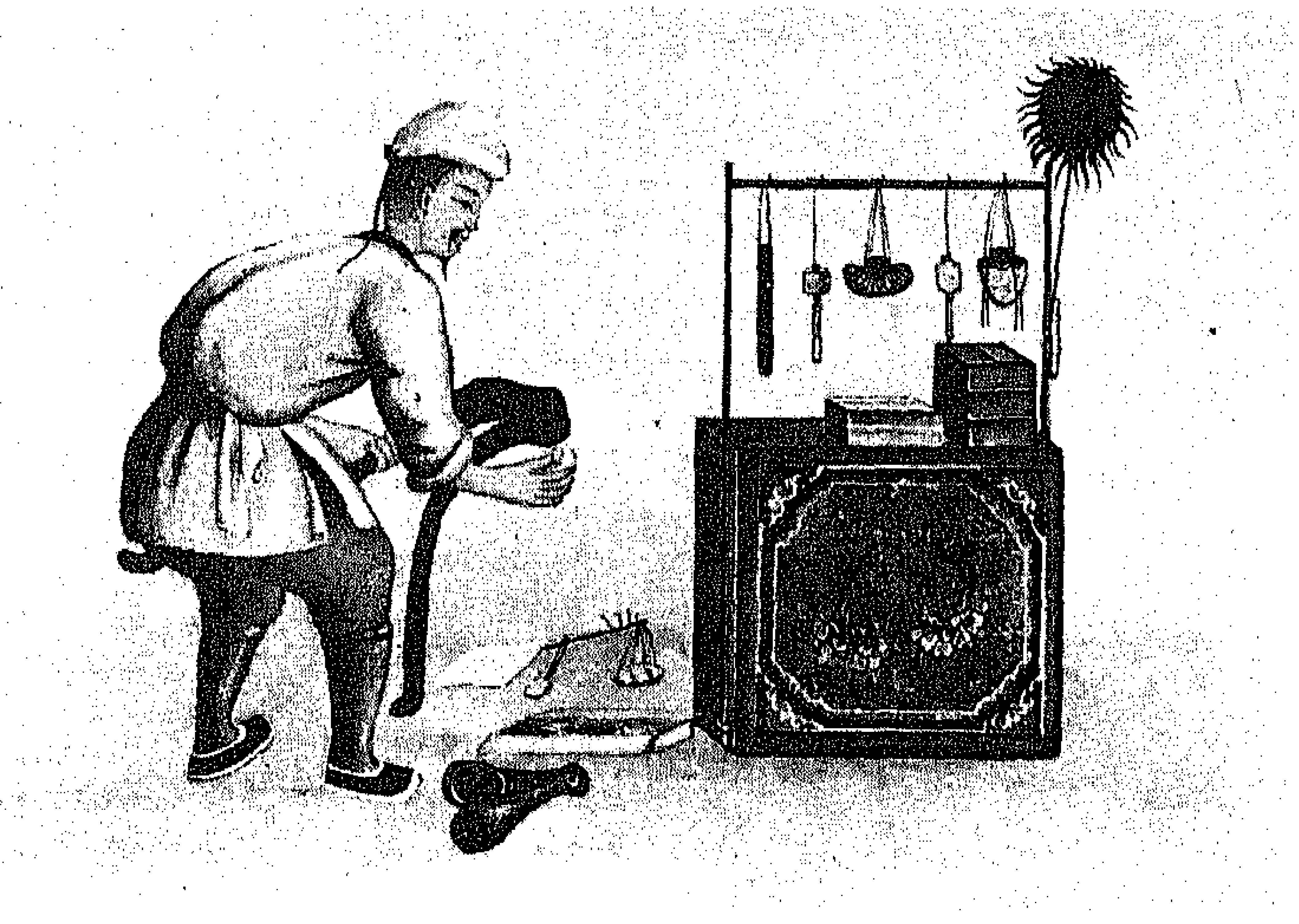

في شوارع بكين: تاجر يمسك بيديه مقصا ضخما لقطع سبائك الفضة ، وعنده ميزان لوزن الشرائح التي يتم قطعها. وتاجر آخر يبيع الحبال التي تستخدم في نظم السابيكات على هيئة عقود. انظرالصورة السابقة، وتظهر فيها عملة السابيكات ، وبوسطها ثقب ، كذلك تظهر فيها على الصك المصرفي هذه العملات منظومة على هيئة عقود ، وتبدو كأنها مصفوفة بعضها فوق البعض الآخر. (متحف الرسوم بالمكتبة القومية في باريس)

التي كانت تأمر بها الحكومة الامبراطورية. وكان هدف الحكومة الامبراطورية من إصدار أو طرح الفضة يتلخص في الحفاظ على تداول نقدي سوي، وكانت الحكومة، كلما دعت الضرورة، تتدخل بهدف إعادة العلاقة بين الفضة والنحاس إلى المعدلات العادية، فتطرح من الخزينة العامة كميات من الفضة إذا ارتفعت قيمة الفضة ارتفاعا مفرطا، أو تطرح كميات من النحاس في حالة ارتفاع قيمة النحاس ارتفاعا مفرطا. يقول اليسوعيون الصينيون : " حكومتنا ترفع وتخفض قيمة الفضة وبالتالي قيمة النقود ... وهي قد استأثرت لنفسها بهذا الصلاحية في الامبراطورية كلها ." وكانت هذه الرقابة تتم على نحو سهل ميسور نظرا لأن الدولة تمتلك كل مناجم النحاس(٦١).

ولهذا لا يمكن أن نقول أن النقود كانت وسيلة محايدة لا تتأثر بشيء، ولا أن الأسعار كانت ثابتة على نحو معجز رائع دائما. فنحن نعرف أن بعض الأسعار كانت تتحرك في القرن الثامن عشر، وبخاصة أسعار الأرز، فقد ارتفعت أسعار الأرز في كانتون تحت تأثير التجارة الأوروبية نتيجة لثورة مزدوجة ، نقدية وائتمانية ، تغلغلت تغلغلا عميقا داخل اقتصاد امبراطورية الصين أو امبراطورية الوسط كما كانوا يسمونها(٦٢). وهذا هو اقتصاد المناطق الساحلية ، اقتصاد البياستر piastre يقلب اقتصاد السابيك أو اقتصاد المناطق الداخلية رأسا على عقب، وما كان اقتصاد هذه المناطق الداخلية في جوهره ساكنا بليدا كما يتصور الناس عادة.

والآن، وقد أوردنا هذا الذي أوردناه ، فلا شك في أن القاريء سيقبل وجهة نظرنا التي تتلخص في: أن الصين كانت من الناحية النقدية أكثر بدائية ، وأقل تطورا من الهند. ولكن نظامها كان يتسم بنوع أخر من التماسك وبالوحدة التي تبدو ظاهرة للعيان. لم يكن لدى الصين النقود المألوفة للعالم أجمع.

بعض قواعد
الألعاب النقدية

هذه هي أوروبا في جانب قد أصبحت ضخمة هائلة ، وقد عرفت كل درجات سلم الخبرة النقدية وما يجري في طوابق البناء المختلفة: في الدور الأراضى أكثر مما يقال عادة. المقايضة، تدبير أمورالمعيشة ذاتيا ، النقود البدائية ، وهي وسائل قديمة، و طرق بديلة لتوفير قطع العملة المعدنية الرنانة؛ وكانت أوروبا - إذا بقينا في صورة البناء المتعدد الطوابق - تتداول في الدورالذي يعلو هذاالدورالأرضي النقود المعدنية المسكوكة من الذهب والفضة والنحاس، تتداولها بوفرة نسبية؛ وعرفت أوروبا أخيرا الائتمان بصوره المتعددة - من السلفيات بضمان رهونات والتي كان يقدمها اللومبارديون أو التجار اليهود، إلى الكمبيالات والمضاربات في المراكز التجارية الكبيرة .

و لم تكن هذه الممارسات أو الألعاب قاصرة على أوروبا ، بل كان نظامها ينعكس على مستوى العالم، ويجد تفسيره على مستوى العالم أيضا ، وكان هذا النظام عبارة عن شبكة ضخمة كشبكة الصيد ألقيت فوق ثروات قارات أخرى غير أوروبا. وإذا كانت "كنوز " أمريكا قد جرى تصديرها لصالح أوروبا ابتداء من القرن السادس عشر إلى خارج أمريكا حتى وصلت إلى الشرق الأقصى ، وتحولت هناك إلى عملات محلية أو سبائك، فليست هذه بمعلومة فرعية هينة . لقد بدأت أوروبا تلتهم العالم وتهضمه. ونحن نحتج على نفر من اقتصاديي الأمس، بل ومن اقتصاديي اليوم الذين يحلو لهم، عندما يرجعون ببصرهم إلى الوراء، أن يتباكوا على أوروبا ، وما أصاب صحتها من توعك، وقد يقول قائلهم أنها كانت تعاني في علاقاتها بالشرق الأقصـــى من نزيف نقدي دائم. وأول ما نرد به على هؤلاء أن أوروبا بقيت حية ولم تمت نتيجة هذا الذي يقولون أنه لحق بها. ثم نضيف أن هذا التباكي يشبه التباكي على من ينسف مدينة بالقنابل ويستولي عليها لأنه تكلف ما تكلف من قنابل وبارود وجهد.

ثم إن عملات الدنيا في نهاية المطاف متشابكة ، بعضها يرتبط بالبعض الآخر ، على الأقل من أثرالسياسة النقدية التي تتبعها كل منطقة وتعمل بها على اجتذاب هذا أو ذاك المعدن النفيس أو التخلص منه. وهذا الذي يجرى على النقود من حركات يحدث صدى يصل إلى مسافات بعيدة بعدا هائلا.وقد بين ماجالاس جودينيو أن عملات ايطاليا ومصر والشرق الأقصى كانت تؤثر الواحدة منها على الأخرى في القرن السادس عشر كما تؤثر العملات الأوروبية بعضها على البعض الآخر. هذاالتماسك، هذا البناء النقدي العالمي لم يكن لأوروبا القدرة على إعادة تشكيله على مزاجها. إنما كان عليها أن تلعب فيه الدور المحلي في كل مكان تريد أن تفرض فيه نفسها. ولكنها بقدر ما كانت تمتلك - حتى من

قبل غزو أمريكا - من كمية كبيرة نسبيا من المعادن النفيسة أمكنها أن تجعل اللعبة تتطور لصالحها.

تناحر
المعادن النفيسة

والعملة المعدنية مجموعة من القطع النقدية مترابطة فيما بينها، الصغيرة منها جزء من الكبيرة ، والكبيرة جزء من قطع أكبر وهكذا: فهذه القطعة عشر أو واحد على ست عشر أو على عشرين من تلك وما إلى ذلك. والمألوف أن تستخدم في العملات عدة معادن، نفيسة وغير نفيسة، في وقت واحد. وتمسك الغرب بثلاثة معادن هي الذهب والفضة والنحاس، مع ما في ذلك التنوع من ميزات وعيوب . الميزات :الوفاء بمتطلبات التبادل المتنوعة من كبيرة وصغيرة ؛ وكل معدن يتحمل عن طريق القطع التي تسك منه بأعباء سلسلة معينة من الأعمال التجارية. ولو كان هناك نظام أحادي يقوم على القطع الذهبية فقط لبات من العسير تسديد أثمان المشتروات اليومية العادية . ولو كان النظام النقدي قاصرا على النحاس وحده لكانت عمليات الدفع مزعجة أشد الإزعاج ،إذ يحتاج الإنسان الى كمية كبيرة منها لتسديد أثمان المشتروات الكبيرة. والحقيقة ان كل معدن يلعب دوره الشخصي: الذهب من شأن الأمراء، وكبارالتجار (ومن شأن الكنيسة أيضا)؛ والفضة تناسب العمليات العادية؛ والنحاس يستقر في الدور الأرضي المناسب له: النحاس هو النقود " السوداء " لسواد الناس والفقراء. والنحاس يوصف بالسواد لأنه إذا خلط بشيء من الفضة يسود لونه بسرعة، وتصبح إطلاقة " النقود السوداء " اسما على مسمى.

ومن الممكن أن يستشف الإنسان توجه اقتصاد بعينه وحالته الصحية من النظرة الأولى إلى المعدن الذي يحكم هذا الاقتصاد . في نابلي في عام ١٧٥١ كانوا يكنزون الذهب، وكانت الفضة تنزح من المملكة إلى الخارج ، وكان النحاس ، على الرغم من ضعف كميته (كانت كمية النحاس تقدر بمليون ونصف دوكات نحاسية في مقابل ستة ملايين فضية وعشرة ملايين ذهبية) هو الذي يستخدم في تدبير الجزء الأساسي من العمليات التجارية لأنه كان على الرغم من رداءته سريع التداول ، " مستقرا في مكانه "(٦٣). وتكرر المشهد نفسه في أسبانيا: في عام ١٧٢٤ " كان القدر الأكبر من المدفوعات يتم[...] بنقود سكت من النحاس المخلوط بقليل من الفضة، كان نقلها [في حالة المبالغ الكبيرة] مكلفا ومزعجا عسيرا، ويضاف إلى هذا أن العرف جرى على تقديرها بحسب وزنها..." (٦٤) وكان هذا العرف شيئا محزنا ، لأن هذه السبيكة المصنوعة من النحاس المخلوط بقليل من الفضة لم تكن تستخدم في فرنسا وفي هولندة في العصر نفسه إلا

للنقود التكميلية الصغيرة القيمة. ولكن أسبانيا ـ التي ظلت من الناحية الظاهرية سيدة فضة العالم الجديد ـ لم تستأثر بالفضة لنفسها ، لأن الدول الأخرى لم تتركها تمتلك كنوز الفضة في تلك الربوع الأمريكية البعيدة إلا بشرط أن تسمح للفضة بأن تخرج إلى التداول في صورة عملة " مشتركة بين الأمم قاطبة " ، وكان ذلك يعني أن تفرغ أسبانيا خزائنها لمصلحة الآخرين. وهكذا أصبحت أسبانيا ـ مثلها مثل البرتغال بالنسبة للذهب "مجرد قناة " عبور يمر من خلالها المعدن الأبيض ، تستخرجه من مستعمراتها ، وتبيعه للآخرين . فعندما وصل كاريري بأسطول من السفن المسماة بالغليونات إلى ميناء قادس الأسباني في عام ١٦٩٤ رأى في يوم واحد " أكثر من مائة مركب تدخل إلى الخليج الأسباني لتتحمل بالفضة ثمنا للبضائع التي كانت قد صدرتها إلى الهند، واستنتج أن الجزء الأكبر من هذا المعدن الذى تنقله الغليونات لايبقى في أسبانيا بل يدخل جعبة الأمم الأجنبية "(٦٥).

وعلى العكس مما لاحظناه في الأمثلة السابقة، نجد أن معدنا واحدا من المعدنين الثمينين، الذهب أوالفضة ، كان ينفرد بتثبيت أركان دوره في البلاد التي أخذت بأسباب النهوض مثل انجلترة . في عام ١٦٩٩ تصف الغرفة التجارية في لندن النقود الفضية قائلة " إنها أكثر نفعا وأكثر عملية من الذهب ". ولكن الوضع ما لبث أن تغير وعرف الذهب في القرن الثامن عشر تضخما واسع النطاق ، فاعترفت انجلترة في عام ١٧٧٤ عمليا بالذهب عملة شرعية وعامة ، وأصبحت الفضة منذ ذلك الحين تلعب دورا تكميليا معاونا (٦٦). أما فرنسا فكانت الفضة فيها تحتل المركز الأول، أو اذا استعرنا تعبيرا من لغة المقامرة نقول انها استمرت تلعب ورقة الفضة.

ومن نافلة القول أن نضيف أن ما ذكرناه لا يزيد عن أن يكون قواعد عامة لها استثناءات واضحة لا مراء فيها . فبينما كانت المراكز التجارية الكبيرة في القرن السابع عشر تنفر من العملات النحاسية نفورها من الطاعون ، كانت البرتغال تسعى إليها سعيا لكي تصدرها ـ على عادتها ـ إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح، إلى الهند.ومعنى ذلك انه ينبغي علينا أن نحترس من الأخذ ببعض الظواهر .حتى الذهب يمكن أن يضللنا: فهذه هي تركيا في أيام العثمانيين تشغل منذ القرن الخامس عشر منطقة من مناطق الذهب (قياسا على ذهب أفريقيا وعملات مصر الذهبية وكانت هذه البلاد تحت السيطرة التركية). وكان الذهب قبل عام ١٥٥٠ وفيرا نسبيا في منطقة البحر المتوسط وأوروبا ، فإذا وجدناه وفيرا في تركيا آنذاك أيضا ، فقد كانت وفرته هناك من نوع آخر ، فما كانت تركيا بالنسبة للعملات الأوروبية البيضاء سوى منطقة عبور في اتجاه الشرق الأقصى.

أضف إلى ذلك أن هيمنة عملة من العملات (الذهبية أو الفضية أو النحاسية) إنما ينبني خاصة على أساس لعب المعادن المختلفة بعضها ضد البعض الآخر. فبناء النظام

النقدي يقوم على تنافسها. ومن البديهي أن دور النحاس بصفة عامة هو أقل الأدوار أهمية لأن العملات الصغيرة قيمتها ليست متناسبة تناسبا دقيقا مع قيمة المعدن الذى تتضمنه ، بل إنها تتخذ سمه " العملات الورقية " من الفئات الصغيرة. ولكن من الممكن أن تحدث مفاجئات أحيانا : فقد أدت قلة النحاس الى أن أصبح النحاس نفسه في القرن السابع عشر مركبة مريحة تركبها تضخمات أولية قوية في ربوع اوروبا قاطبة، وبخاصة في ألمانيا (٦٧) وأسبانيا حتى عام ١٦٨٠ (٦٨) ، في بلاد مريضة اقتصاديا لم تجد لها وسيلة أخرى للخروج من مشكلاتها . بل لقد حدث نفس الشيء أيضا في بلاد خارج أوروبا ، في بلاد فارس مثلا حول عام ١٦٦٠ فقد غزت البلاد عملة صغيرة نحاسية " تبدو كالجلد المسلوخ وقد تلونت بلون أحمر كلون لحم الغراب " وإذا " بالمعدن الأبيض [الفضة] يصبح بين عشية وضحاها نادرا غاية الندرة في مدينة اصفهان " (٦٩).

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن النحاس ، ونترك موضوعه وننتقل إلى المعدنين الباقيين ، الذهب والفضة، و هما السيدان المهابان .كان إنتاجهما يسير على غير نظام، ولا يتسم قط بشيء من المرونة ، فيأتي وقت يتوفر فيه أحد المعدنين ، ويقل المعدن الآخر نسبيا ، ثم تنقلب الآية ببطء قد يشتد وقد لا يشتد ، وما يمر بعض الوقت حتى تنعكس الآية ، فيشح ما كان وفيرا ويكثر ما كان قليلا ، وهكذا دواليك . وتنجم عن هذه التقلبات فورات وكوارث ، ومن وراء هذه وتلك اضطرابات بطيئة وعنيفة، كانت من سمات النظام النقدي في العصر القديم أي في العصر الذي سبق الثورة الفرنسية. حتى حصحص الحق وعرف الناس أن " الذهب والفضة " أخوان عدوان . وقد تناول كارل ماركس الموضوع من وجهة نظره فقال : " في كل مكان بقي فيه الذهب والفضة معا على نحو قانوني أحدهما بجوار الآخر كعملتين فشلت كل المحاولات التي بذلت في معاملتهما على اعتبار أنهما مادة واحدة(٧٠)." لقد استمر التناحر بينهما إلى غير نهاية.

وكان أصحاب النظريات القدامي يرون أن هناك علاقة ثابتة بين قيمة الذهب والفضة فيجعلون للقطعة من الذهب ١٢ ضعف قيمة قطعة الفضة المساوية لها في الوزن. ولم تكن تلك بطبيعة الحال هي القاعدة دائما من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر بل كانت النسبة تتغير كثيرا حول هذا المعدل ، أو تتجاوز هذه العلاقة التي كانوا يصفونها بأنها العلاقة " الطبيعية "، ولكن الميزان تأرجح على المدى الطويل، ومال تارة الى هذا المعدن وتارة إلى ذاك، دون أن نأخذ في اعتبارنا التغيرات القصيرة أو المحلية التي لا ينبغي أن تعطلنا الآن.

وهكذا فقد زادت قيمة المعدن الأبيض ـ الفضة ـ من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر، و على نحو عام الى السنوات حول عام ١٥٥٠ ؛ وإذا جاز لنا أن نقهر

ضرب العملة: لوحة لهانس هيسه Hans Hesse(١٥٢١) رسمت بلاشك فى اللحظة التى حصلت فيه مدينة أنابيرج Annaberg بألمانيا على الحكم الدائم لضرب العملة مستخدمة المعدن المستخرج من مناجمها دون ماسواه. وهذه اللوحة معلقة فى كاتدرائية المدينة غير بعيد عن هيكل عمال المناجم.

الكلمات قهرا للتعبير عن المعنى المراد، فيمكننا أن نقول أنه كانت هناك طوال قرون حالة من تضخم الذهب. هذا الذهب الذى كانت تضربه دور سك العملة في أوروبا كان يرد من المجر، ومن جبال الألب، ومن مناخل الذهب النائية في السودان ثم من أمريكا في بداية استعمارها. وكانت قطع العملة المسكوكة من الذهب أيسر أنواع العملات لمن يجمع المال، وكان الأمراء يستخدمون هذه العملات الذهبية في تحقيق مآربهم، وهكذا أمرالملك شارل الثامن بضرب عملات من الذهب عشية زحفه على ايطاليا (٧١). كذلك كانت الأموال التي أنفقها فرانسوا الأول وشارل الخامس ـ شارلكان ـ على معاركهما نقودا ذهبية.

ومن الذي سيحقق أرباحا من هذا الفيضان النسبي الذي فاضه الذهب؟ لا شك أنهم أولئك الذين سيكونون ممسكين بزمام عملات فضية أو بمعدن الفضة، وعلى وجه التحديد: تجار أوجسبورج، سادة مناجم بوهيميا والألب، ومن بينهم ملوك غير متوجين هم آل فوجار أو أسرة فوجار أو الفوجار Fugger. وهكذا كان المعدن الأبيض هو الوحيد من بين المعدنين ـ الذهب و الفضة ـ الذي استأثر بالقيمة الأكيدة.

وظهر اتجاه عكسي مضاد في الفترة ما بين عام ١٥٥٠ وعام ١٦٨٠ عندما استخدمت مناجم الفضة في أمريكا تقنية حديثة (هي تقنية الأمالجام) مما أدى إلى وفرة بالغة في إنتاج الفضة، وأصبحت الفضة نتيجة لذلك محرك تضخم شديد مستمر. وأصبح الذهب نادرا نسبيا وارتفعت قيمته ، وكان الذين سبقوا إلى اللعب على ورقة الذهب، مثل الجنويين في ميناء أنتفربن البلجيكي منذ عام ١٥٥٣ قد ساروا في الطريق المؤدي إلى تحقيق الربح(٧٢).

وما نتجاوز عام ١٦٨٠ حتى ينقلب الميزان من جديد ، على نحو طفيف، مع بداية استغلال الذهب في البرازيل ، ثم يستقرالوضع بالنسبة إلى الذهب حتى نهاية القرن، ويعود الاتجاه بعد ذلك نحو الصعود. كانت العلاقة بين المعدنين في ألمانيا في أسواق فرنكفورت ولايبتسيج في الفترة من عام ١٧٠١ الى عام ١٧١٠ هي ١ الى ١٥,٢٧؛ وأصبحت في السنوات من ١٧٤١ إلى ١٧٥٠ تساوي ١ الى ١٤,٩٣(٧٣). ولكن الفضة لم تفقد على الأقل قيمتها ، كما حدث قبل تداول ذهب البرازيل. وزاد انتاج المعدن الأصفر من عام ١٧٢٠ إلى عام ١٧٦٠على مستوى العالم الى الضعف على الأقل. وهناك معلومة صغيرة ، ولكنها ذات دلالة تجعلها جديرة بأن نثبتها في هذا المقام: فقد عاد الذهب الى الظهور بين أيدى الفلاحين في بورجونديا حول عام ١٧٥٦(٧٤).

في هذه اللعبة البطيئة كانت أية حركة يتحركها معدن من المعدنين تشد معها حركة المعدن الآخر، وتحكمها على المدى الطويل . هذا قانون بسيط وهناك شواهد تؤيده. فقد أدى التوفرالنسبي للذهب في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر إلى إحداث " انطلاقة " في مناجم الفضة في ألمانيا ، كذلك أدت الانطلاقة الأولى لذهب البرازيل حول عام ١٦٨٠ إلى تنشيط مناجم الفضة في منطقة بوتوزي Potosi البوليفية، وكانت في الحقيقة تحتاج إلى هذا التنشيط احتياجا شديدا، وعلى النحو نفسه أدت هذه الانطلاقة نفسها الى تنشيط مناجم اسبانيا الجديدة ـ المكسيك ـ التي تألقت واصطبغت بألوان من الازدهار العظيم في جواناخواتو Guanajuato وسعدت بعرق ضخم من الذهب، وجدوه في بيتا مادره Veta Madre .

وهذه الاهتزازات يحكمها ما يسمى بقانون جريشام Gresham ،وكان جريشام هذا مستشار الملكة اليزابث ملكة انجلترة. والحقيقة أنه ليس مبتدع هذا القانون، فمنطوق القانون معروف : العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة . وبناء على تحركات طويلة المدى كانت قطع العملة الصفراء والبيضاء ـ الذهبية والفضية ـ تلعب متراوحة دور العملة الأقل جودة التي تطرد العملة الأخرى الأفضل التي تكون بين أيدى المضاربين أو تحت بلاطة المكتنزين أو في الجورب الصوفي ـ كما يقولون. تارة يطرد الذهب الفضة، وتارة أخرى تطرد الفضة الذهب. ومن الطبيعي أن هذه اللعبة التلقائية كانت تنشط أحيانا وتسير

بخطى سريعة إذا تعرضت للتأثيرات الخارجية المتمثلة في تدخل غير موات من جانب الحكومات التي لم تكف على مر الزمن عن اتخاذ إجراءات تسعى بها إلى إعادة ضبط وتنظيم العملة ، ورفع قيمة القطع الذهبية أو الفضية عندما تتعرض السوق لاهتزازات ، على أمل إعادة التوازن الذي لم يكن يتحقق إلا نادرا.

وإذا تدخلت الحكومة بإجراءاتها وكان الرفع سليما من الناحية الاقتصادية، فلن ينجم عنه سوء أو لن يؤدى إلى زيادة الوضع خطورة . أما إذا كان الرفع شديدا جدا ، فالنتائج تختلف. ففي حالة رفع قيمة العملات الذهبية مثلا ، فإن كل قطع العملة الصفراء في البلاد المجاورة تهرع إلى البلد الذى تكون لها فيه الغلبة ، سواء كان هذاالبلد هو فرنسا ايام هنري الثالث ـ حكم من عام ١٥٧٤ الى عام ١٥٨٩ ـ أوالبندقية في عصر الرسام تيزيانو (١٤٧٧ ـ ١٥٧٦) أو انجلترة في القرن الثامن عشر . وإذا استمر هذا الوضع طويلا فإن هذه العملة الذهبية ـ التي ترتفع قيمتها فوق الحد ـ تلعب دور العملة الرديئة، وتطرد العملة الفضية . هكذا كانت الحال على نحو دائم أو في أغلب الأحيان في البندقية منذ عام ١٥٣١ ، وكانت هذه هي الحال العجيبة في صقلية(٧٥). كان هناك اهتمام في البندقية وصقلية بإرسال المعدن الأبيض ، الفضة ، إلى شمال أفريقيا ، وعلى نطاق أكبر إلى بلاد المشرق ، ومن هنا قلنا أن نستنتج أن هذه الحركات ، التي تلوح في ظاهرها عارية عن المنطق، لم تكن قط بغير سبب، على الرغم مما يمكن أن يفكره المفكرون، ومما يقوله لنا أصحاب النظريات في ذلك العصر.

ـ هذه مجالات يمكن أن يحدث فيها أى شيء في أى يوم إذا ما سنحت الظروف الملائمة لحدوثه . وهذا هو الكاتب ادمون جان فرانسوا باربييه Edmond - Jean - François Barbier يسجل في جريدته في باريس في يولية من عام ١٧٢٣: " لا يرى الإنسان في التجارة هنا سوى الذهب؛ وقد وصل الأمر إلى حد أن الإنسان يدفع نحو عشرين سولا[...] ليغير جنيه ذهب من نوع اللويدور إلى ما يقابله من القطع الفضية... ومن ناحية ثانية فان جنيهات اللويدور أصبحت توزن [تباع بحسب وزنها]...مما نجم عنه ارتباك شديد. وينبغي على الإنسان أن يحمل ميزانه في جيبه "(٧٦).

هروب وتوفير واكتناز

يعاني النظام النقدي في أوروبا ، وفي خارج أوروبا من مرضين لا علاج لهما : أولهما هروب المعادن الثمينة إلى الخارج ؛ وثانيهما تجمد هذه المعادن نتيجة التوفير والاكتناز الحريص ؛ وتتمثل النتيجة في أن المحرك يفقد إلى مالانهاية جزءا من وقوده .

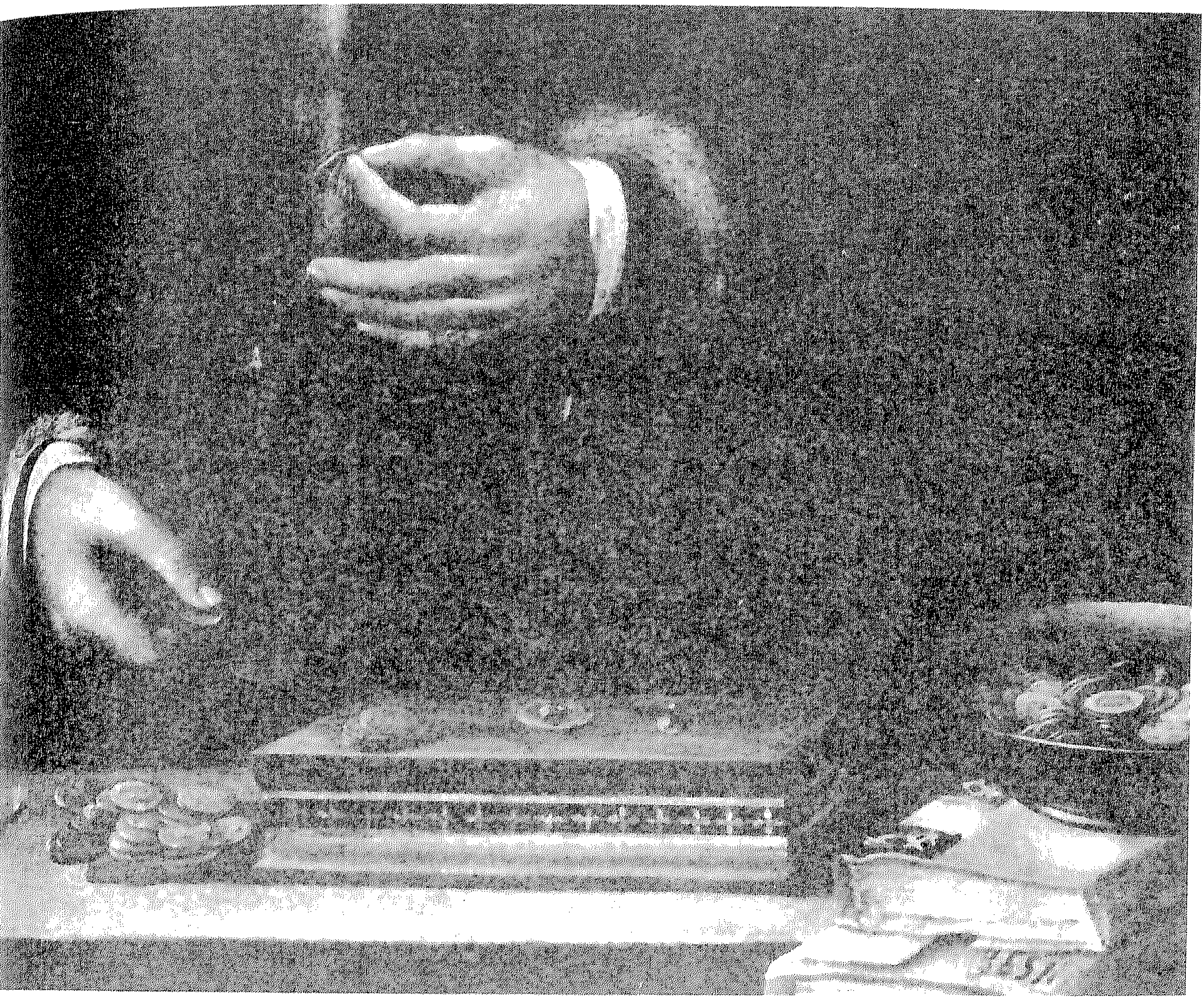

رجل يتحسس الفضة بأنامله: ياكوب فوجار Jacob Fugger، لوحة لروينزو لوتو Lorenzo Lotto (جزء من اللوحة يبين اليدين).(متحف الفنون الجميلة في بودابست.)

فالمعادن الثمينة، باديء ذي بدء، لم تكف عن الخروج خارج الدوائر المالية الغربية، متجهة إلى الهند وإلى الصين خاصة، وقد حدث هذا منذ وقت بعيد يعود بنا إلى أيام الدولة الرومانية. كان من الضروري دفع ثمن الحرير والفلفل والتوابل والعقاقير ولآليء الشرق الأقصى بالفضة أو الذهب. كانت الفضة والذهب الوسيلتين الوحيدتين لإرغامها على القدوم إلى الغرب . ومن هنا فقد ظل ميزان أوروبا يسجل عجزا في هذا الاتجاه

الأساسي فيما يختص بالصين حتى حوالي عام ١٨٢٠ (٧٧). كان ما يحدث هو هروب مستمر على وتيرة واحدة لبنية معينة structure: كانت المعادن الثمينة تجري من تلقاء نفسها نحو الشرق الأقصى سالكة طريق المشرق ورأس الرجاء الصالح ، بل مجتازة المحيط الهادي أيضا في القرن السادس عشر على هيئة قطع أسبانية من فئة الثمانية أوما سمي بالريالات الأسبانية reales a ocho أوالريالات الثمانية ؛ وفي القرن السابع عشر، والثامن عشر في صورة بيسوس أو بياسترات صلبة pesos duros (وكانت هذه البياسترات الصلبة أو البسوس تطابق ـ وهذه سمة أخرى من سمات الاستمرارية ـ الريالات الثمانية ؛ كل ما في الأمر أن الإسم تغير). وليس من المهم أن يتم تنظيم رحيل المعادن الثمينة انطلاقا من خليج قادس Cadix، ذلك الخليج الفسيح الذي كان يناسب عمليات التهريب والغش والنصب، أوانطلاقا من بايون Bayonne حيث كانت عمليات التهريب تتم من خلال جبال البرانس، أو انطلاقا من أمستردام ولندن اللتين كانتا المكانين اللذين كانت فضة الدنيا تتواعد على اللقاء فيهما . بل لقد حدث أن استخدمت سفن فرنسية في نقل الفضة من أمريكا إلى آسيا انطلاقا من سواحل بيرو .

وجرت عمليات هروب للمعدنين الثمينين إلى بلدان أوروبا الشرقية انطلاقا من بحرالبلطيق . فقد سعى الغرب سعيا حثيثا إلى تشجيع تداول النقد في هذه البلدان المتخلفة التي كانت تبيع القمح ، والخشب، والجاودار ، والسمك ، والجلود ، والفراء ، ولم تكن تشتري في المقابل إلا القليل، مما أدخلها في عداد ضعاف المشترين ، وكان هذا يعني أن الأثمان التي تتقاضاها فضة وذهبا تبقي فيها. نلاحظ هذا التحول في القرن السادس عشر في شكل الحركة التي عج بها ميناء نارفا Narva الذي كان نافذة موسكوفيا la Moscovie المفتوحة ـ في عام ١٥٥٨ ـ على البلطيق الى أن أغلق في عام ١٥٨١؛ وفي شكل التجارة التي بدأها الانجليز في عام ١٥٥٣ في ميناء أرخانجيلسك Arkhangelsk على البحر الأبيض في روسيا ؛ وفي شكل تجارة سان بطرسبرج في القرن الثامن عشر . كان من الضروري إعطاء هذه البلدان حقن تقوية من النقود الذهبية والفضية ، حتى يمكن أن تتحقق في مقابلها عمليات التوريد المطلوبة التي تقوم بها هذه البلدان حيث تصدر المواد الخام . وحدث ذات يوم أن رفض الهولنديون الدفع نقدا وصمموا على الدفع بمنتجات من نسيج وأقمشة ورنجة ، فكانت النتيجة أنهم فقدوا المركز الأول الذي كانوا يحتلونه في روسيا (٧٨).

وتبرز فى مجال استخدام النقود مشكلة تتمثل فى أن العملة المعدنية التى يزيد الطلب عليها ، عملة ينبغى عليها أن تدور دورة سريعة، وأن تجرى، وأن تزيد من سرعتها ما استطاعت الى ذلك من سبيل. ولكن الذى كان يحدث هو أنها كثيرا ماكانت تقف فى مكانها حتى فى أوروبا نفسها نتيجة للتوفير الذى اتخذ صورا مختلفة. وقد احتج على

التوفير فرانسوا كينيه François Quesnay (١٦٩٤ـ١٧٧٤)(٧٩) وكل دعاة الاقتصاد الطبيعي أوالفيزيوقراطية (ومن بعدهم بحين اللورد كينس Keynes المتوفى في عام ١٩٤٦). كذلك كانت النقود تظل جامدة في مكمنها ، لاتدور دورتها ، نتيجة لحرص مذهل ومناف للمنطق يتمثل في الاكتناز، وما الاكتناز إلا هوة سحيقة لا تمتلىء أبدا ، شبيهة بهوة الهند السحيقة التي كانت " الشره إلى الفضة ".

ولقد كانت أوروبا في العصر الوسيط مغرمة بالمعادن الثمينة وبالحلي الذهبية، ثم جاء الغرام الجديد " الرأسمالي " ، المتلهف على جمع قطع العملة، وقد نبكر فنرجع بداية هذا الاتجاه إلى القرن الثالث عشر، ولو أخرناه لما صح أن نبعد به عن منتصف القرن الرابع عشر. ولكن الغرام القديم، والولع القديم بالأشياء القيمة ظل قائما. وهكذا كان العظماء في أسبانيا يخلفون من ورائهم لورثتهم صناديق مكتظة بالعملات الذهبية ، وبما لا يحصى ولا يعد من الحلي الذهبية التي كان الصياغ يتفننون في إبداعها : حتى دوق البا le duc d'Albe الذي مات في عام ١٥٨٢ ، والذي لم يشتهر عنه أنه كان من الأثرياء ترك لورثته ٦٠٠ دستة من الأطباق الفضية و ٨٠٠ من صحون التقديم الفضية(٨٠). ونعبر قرنين من الزمان بعد ذلك إلى عام ١٧٥١ حيث نجد جالياني Galiani في نابلي يقدر الأرصدة المكتزنة في المملكة بأربعة أضعاف الأرصدة النقدية المتداولة . ويشرح ذلك بقوله " لقد جعل الترف كل المشغولات الفضية ـ الساعات وعلب السجائر ومقابض السيوف ومقابض العصي وأطقم الملاعق والشوك والسكاكين والأطباق - أشياء عادية، وهو شيء لا يكاد الإنسان يتصوره . وأهل نابلي الذين كانوا يتشبهون بالأسبان القدامي في كل شيء تقريبا ويقلدونهم في عاداتهم يجدون متعة فائقة في الاحتفاظ بالأشياء الفضية القديمة في خزائنهم التي يسمونها scrittorأو scarabattoli"(٨١). ويعلق سباستيان ميرسييه التعليقات نفسها على هذا الثراء " الفارغ، والعاطل " في باريس، والذي يتمثل " في أثاث من الذهب ، والفضة ، وفي حلي ، وفي أطقم مائدة من الفضة" (٨٢).

وليس هناك رقم نطمئن اليه فيما ورد من تقديرات للمعادن الثمينة المختزنة . كان و. ليكسيس W.Lexis يقبل ، في دراسة قديمة تناول فيها مطلع القرن السادس عشر نسبة ٣ الى ٤ ، نسبة المعادن الثمينة المكتنزة إلى المعادن المضروبة المتداولة على هيئة عملات(٨٣). و لابد أن النسبة تغيرت في القرن الثامن عشر ، ولعلها أصبحت ٤ الى ١ وهي نفس النسبة التي ذكرها جالياني ، الذى كان حريصا على أن يبين أن الطلب على المعادن الثمينة لا يتحدد فقط باستخدامها كنقود ، بل يمتد إلى اكتنازها. والحقيقة أن الكم الكلي للمعادن قد زاد زيادة هائلة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، بنسبة تقدر بـ ١ الى ١٥ ، بحسب التقدير التقريبي الذي ذكره ليكسيس(٨٤)، والأمثلة

المعروفة لا تدحض هذا التقدير ، ففي عام ١٦٧٠ كان التداول النقدي في فرنسا في حدود ١٢٠ مليون جنية livres؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، عشية الثورة الفرنسية، كان النقد المتداول مليارين . أما في نابلي فكان الرصيد النقدي ٧٠٠٠٠٠ دوكات في عام ١٥٧٠، وفي عام ١٧٥١ كان الرصيد ١٨ مليون . كانت نابلي وايطاليا في القرنين السابع عشر والثامن عشر متخمة بالنقود المكنوزة غير المستغلة. وكان أصحاب المصارف في جنوا ، حول عام ١٦٨٠ ، يعرضون أموالهم على الأجانب قروضا بأرباح من ٢ إلى ٣ ٪ ، لأنهم لم يكونوا يجدون أفضل من ذلك ، فما كان من كثير من الطوائف الدينية إلا أن اقترضت من هذا النبع العجيب لكي تتحرر من الديون القديمة التي كانت فوائدها بين ٦,٥ ٪ و ٧ ٪ (٨٥).

وكانت الحكومات مشتركة في هذا الاكتناز : نذكر الأرصدة المختزنة في خزانة البابا سيكستوس الخامس ، أو سيكسته كوينت Sixte Quint (بابا من ١٥٨٥ الى ١٥٩٠) والتي كانت محفوظة في قصر الملاك المقدس ، وكنوز الوزير الدوق سوللي Sully(١٥٦٠ـ١٦٤١) المحفوظة في مبنى الأرسنال بباريس ، وأرصدة الملك الجندي الملك فريدريش فيلهلم Friedrich Wilhelm البروسي الذي حكم من عام ١٦٨٨ إلى عام ١٧٤٠ ـ تلك الأرصدة التي لم ينفق ، لا هو ولا جيشه شيئا منها، فقد كان دائما متهيئا للضرب ولكنه لم يضرب قط . وهذه أمثلة معروفة ، كثيرا ما ذكرها الكتاب في كتبهم . وهناك أمثلة أخرى ، منها تلك المصارف الحويطة التي أنشت أو التي أعيد إنشاؤها في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، ومن بينها المصرف التليد: بنك أمستردام . وهذا شاهد واع يقول عن هذا البنك في عام ١٧٦١ :

" كل الفضة موجودة بالفعل في البنك على هيئة نقود [...] وليس هذا هو المجال المناسب للتساؤل عما إذا كان وجود هذه الفضة ، مخبأة في بطن المصرف، لا يفيد التداول مثل وجودها مخبأة في بطون المناجم . أما أنا فأميل الى القول بأنه من الممكن تحريكها للتداول لصالح التجارة دون الإضرار بالائتمان ، ودون المساس بالثقة والمصداقية..."(٨٦). وكل المصارف تستحق أن يوجه اليها هذا اللوم، باستثناء بنك انجلترة المؤسس في عام ١٦٩٤ ، وكان على نحو ما سنرى ثوريا على طريقته.

العملات

الحسابية

فرضت الحياة المختلطة للعملات من تلقاء نفسها ظهور العملات الحسابية التي تسمى بالعملات " الوهمية ". فهذه العملات الحسابية بحاجة الى إجراءات عامة مشتركة، وهذا شيء منطقي ما هناك شيء أكثر منه منطقية. والعملات الحسابية هي وحدات قياس مثلها مثل الساعة والدقيقة والثانية في ساعاتنا .

وإذا نحن قلنا : في اليوم الفلاني من عام ١٩٦٦ كان سعر الجنيه الذهبي بصورة نابليون يساوي ٤٤,٧٠ فرنكا في بورصة باريس، فإننا لا نذكر حقيقة صعبة الفهم، ولكننا نقدم بين يدي القاريء هذه الملحوظات . أولا : الإنسان الفرنسي العادي لا يشغل باله بهذا السعر، ولا يلتقي في كل يوم من أيام حياته بهذه العملات الذهبية القديمة. ثانيا: أن الفرنك، من حيث هو عملة حسابية حقيقية، موجود في محفظة الإنسان الفرنسي العادي في شكل أوراق بنكنوت . أما إذا قلنا : في شهر كذا من عام ١٦٠٢ ذكر مواطن ما من مواطني باريس أن الايكو écu الذهبي يساوي ٦٦ سولا أو إذا فضلنا، كان يساوي ٣ جنيهات من نوع الليفر livres و٦ سولات، فإن هذا المواطن كان أولا يلتقي بالعملات الذهبية والعملات الفضية في حياته اليومية أكثر من الفرنسيين اليوم ، فقد كانت بالنسبة اليه العملة الجارية . وهو ، على العكس من أبناء زماننا ، ما كان يعرف الجنيه من نوع الليفر ، وما كان يعرف السول الذي هو واحد على عشرين من الجنيه الليفر، ولا يعرف الدنييه denier الذي هو واحد على اثني عشر من السول . فهناك عملات وهمية تستخدم في الحساب وفي تقدير قيمة قطع العملة وفي تحديد الأسعار والمرتبات ومسك حسابات التجار ، ومن الممكن ترجمتها بعد ذلك إلى أي عملة حقيقية، محلية أو أجنبية، إذا اقتضى الأمر الانتقال من الحسابات إلى الدفع الحقيقي. فالدين الذي يقدر بمائة جنيه حسابية يمكن أن يسدده الانسان بعدد من قطع العملة الذهبية، وعدد من قطع العملة الفضية ، وربما أضاف الإنسان اليها عددا من قطع العملة النحاسية.

لم يلمس واحد من معاصري الملك لويس الرابع عشر (حكم فرنسا من عام ١٦٤٣ إلى عام ١٧١٥) أو من معاصرى الاقتصادي تورجو ، الذي كان وزيرا للملك لويس السادس عشر (حكم فرنسا من عام ١٧٧٤ إلى قيام الثورة الفرنسية)، جنيها توريا أو سولا وريا tournois. نسبة الى دار السكة في مدينة تور Tours الفرنسية - ولم يقلب أيا من القطعتين في راحة يده (كانت أخر عملات من فئة الدنييه سكت في تور هي تلك التي سكت في عام ١٦٤٩). فإذا ما أراد الإنسان أن يجد القطع النقدية المقابلة لهذه العملات الحسابية كان عليه أن يعود بعيدا إلى الوراء . وليست هناك عملات حسابية لم تكن في الماضي، في وقت بعينه ، عملة حقيقية. هذه هي الحال بالنسبة للجنيه التوري، والجنيه الباريسي، والجنيه الاسترليني ، وجنيهات المدن الايطالية أو الدوكات البندقي الذي أصبح في عام ١٥١٧ عملة حسابية ، أو الدوكات الأسباني الذي كف منذ عام ١٥٤٠ عن أن يكون عملة حقيقية - ونقول هذا على العكس مما حلا للبعض أن يكتبوه في هذا الموضوع، أو الجروس gros العملة الحسابية لفلاندريا Flandern، والذي هو الجروس الفضي القديم الذي ضربه الملك القديس لويس في عام ١٢٦٦. ولنخرج إلى البلاد

البعيدة، ونتغرب لنجد نفس المشكلة يعبر عنها أحدهم في مذكرة تجارية في القرن الثامن عشر، والحديث هنا عن الهند، يقول : " وهم يحسبون في كل ربوع الهند على أساس الروبية المحلية وقيمتها ٣٠ سولا " (ولما كان الكاتب فرنسيا فإن السولات المعنية هي سولات تورية) ويضيف: " وتلك عملة وهمية مثل جنيهات فرنسا والجنيه الاسترليني الانجليزي، أو جنيه الجروس في فلاندريا وهولندة la livre de gros؛ وهذه العملة النظرية تستخدم في تسوية حسابات الأعمال التجارية التي يقوم بها الإنسان، وينبغي على الإنسان أن يوضح هل المقصود هي الروبية المحلية أم روبية بلد أخرى..." (٨٧).

ويكتمل الشرح بأن نضيف أن قطع العملة الحقيقية لا تكف قيمتها عن الارتفاع، فقد دأبت الحكومات على رفع قيمة العملات الحقيقية دون توقف، خافضة بذلك قيمة العملات الحسابية. وإذا استوعب القاريء هذه الفكرة فسيفهم بسهولة المصير الذي آل اليه الجنيه الليفر التورى .

أما هل يمكن تحاشي ألاعيب العملة الحسابية ، فسؤال يقدم ما حدث في فرنسا الرد الواضح عليه . ففي عام ١٥٧٧ قام الملك الفرنسي هنري الثالث، وهو من أكثر ملوكنا تعرضا للاستهجان، باتخاذ قرار تحت ضغط تجار مدينة ليون بإعادة تقييم الجنيه التوري. وليس هناك شيء أسهل من اتخاذ قرار بربط العملة الحسابية بالذهب. هذا هو ما نجحت حكومة الملك الضعيفة في تحقيقه ، عندما قررت أن تتم كل الحسابات من تاريخ القرار فصاعدا بالايكو écu لا بالليفر livre ، يعني بالجنيه الذهبي لا بالجنيه الحسابي، بالجنيه الذهبي الرنان الموزون بالميزان، والذي قيم بما يساوي ثلاثة جنيهات من نوع الليفر أو ٦٠ سولا. وكانت النتيجة التي تحققت شبيهة بالنتيجة التي يمكن أن تحدث لو أن حكومة فرنسية قررت غدا أن ورقة البنكنوت من فئة الخمسين فرنك ستكون مساوية لجنيه ذهبي من نوع اللويس الذهبي أو اللويدور، وقررت أن تتم الحسابات بالجنيه الذهبي المسمى باللويس الذهبي أو اللويدور. (والسؤال: هل يمكن أن تنجح ؟) يقال أن عملية عام ١٥٧٧ نجحت ، حتى جاءت السنوات الحالكة على أثر مقتل الملك هنري الثالث (١٥٨٩). بعد تلك الحادثة تدهور كل شيء كما يتبين مما حدث في التبادل الخارجي. فقد انفصل الايكو الحقيقي عن الايكو الحسابي ، وظل الايكو الحسابي مساويا لستين سولا بينما أصبح سعر الايكو الحقيقي ٦٣ أو ٦٥ سولا بل ربما وصل إلى ٧٠ سولا. وفي عام ١٦٠٢ تقرر العودة الى الحساب بالجنيه التوري، وكانت تلك العودة اعترافا بالتضخم؛ وانفصلت من جديد العملة الحسابية عن الذهب(٨٨).

وظلت الحال على هذا المنوال حتى عام ١٧٢٦ حيث قامت حكومة الملك لويس الخامس عشر بوضع نهاية لسلسلة طويلة من الاهتزازات النقدية ، ولم تكتف بذلك بل

بعض العملات الذهبية: من اليسار الى اليمين : فلورين فلورنسي حول عام ١٣٠٠ ، فلورين ذهبي للويس دالجو من القرن الرابع عشر ، جنيه ذهبي من جنوا أو جينيفينو genovino ذهبي من القرن الثالث عشر.

ربطت الجنيه التوري بالذهب، وظل النظام على حاله إلا من تعديلات طفيفة. وكان آخر تعديل هو: التحجج بهروب الذهب من البلاد ، وإصدار إعلان ٣٠ أكتوبر ١٧٨٥ الذي حدد العلاقة بين الذهب، والفضة ـ وكانت حتى ذلك الحين ١ الى ١٤,٥ ـ بأقل من ١ إلى٥ ,١٥.

وبهذا لم تتخل فرنسا كثيرا عن تفضيلها للفضة، يدل على ذلك أن النسبة كانت في اسبانيا، وانجلترا ١ الى ١٦. وليست هذه بأمور هينة. فما دام الذهب قد أصبح في فرنسا أرخص منه في انجلترة، فقد بات من المربح أن يجلبه الناس الى انجلترة (عبرالسوق الفرنسية) لكي يسك في دور السكة بانجلترة . أما في الاتجاه العكسي فقد خرجت الفضة من انجلترة للأسباب نفسها ، وقدرت كمية الفضة التي خرجت من انجلترا من عام ١٧١٠ إلى عام ١٧١٧ بمبلغ هائل هو ١٨ مليون جنيه استرليني(٨٩) . وفي الفترة من عام ١٧١٤ الى عام ١٧٧٣ قامت دور السكة الانجليزية بضرب قطع ذهبية نسبة قيمتها إلى قيمة ما ضربته من قطع فضية ٦٠ الى ١(٩٠).

كانت تلك اجراءات تستهدف الاستقرار، استطاعت أوروبا أن تتخذها وتتيح لنفسها في القرن الثامن عشر الترف المرتبط بها. وكانت كل العملات الحسابية قد تعرضت حتى ذلك الحين ، سواء منها الكبيرة القيمة والصغيرة القيمة ، لعمليات متتالية مستمرة من خفض القيمة، وكانت هذه العمليات متفاوتة السرعة من عملة الى عملة، فقد كانت سريعة بالنسبة للجنيه التوري، وللجروس grosz البولندي. وليس من شك في أن هذه التخفيضات لم تمر عابرة دون أن تحدث آثارها ، فقد شهدت البلاد المصدرة للمواد الخام خاصة مثل بولندة بل وفرنسا ، نتيجة لانخفاض قيمة عملتها ، نوعا من النشاط الزائد في مجال التصدير.

وأيا كان الأمر فقد كان تخفيض قيمة العملات الحسابية يحفز على زيادة الأسعار بشكل مستمر منتظم. وقد حسب أحد رجال الاقتصاد (هو لويجي أينودي Luigi Einaudi) أن الأسعار زادت في فرنسا من عام ١٤٧١ إلى عام ١٥٩٨ بنسبة ٦٢٧,٦٪ ، كانت نسبة تأثير تخفيض قيمة الجنيه التوري على هذه الزيادة في الأسعار لا تقل عن ٢٠٩,٦ ٪ (٩١) وحتى القرن الثامن عشر لم تتوقف قيمة العملات الحسابية عن الانخفاض . وقد سبق اتيين باسكييه Etienne Pasquier العصر عندما قال في كتاب له ظهر بعد موته بست سنوات ـ أي في عام ١٦٢١ ـ أنه لا يستصوب العبارة المأثورة التي تقول عمن يفقد قيمته " أنه فقد قيمته كما تفقد العملة القديمة قيمتها ، مصورة بذلك إنسانا سيء السمعة ...لأن أحوالنا في فرنسا تشهد بأن العملة القديمة أفضل من الجديدة ، فهذه هي الجديدة تضعف ، وتزداد ضعفا منذ مائة سنة..."(٩٢).

الأرصدة المعدنية
وسرعة دوران النقد

ربما كانت أرصدة فرنسا النقدية عشية الثورة الفرنسية مليارين من الجنيهات التورية، فإذا علمنا أن عدد السكان بلغ آنذاك نحو عشرين مليون نسمة فإن النسبة تكون ١٠٠ جنية لكل فرد . وإذا انتقلنا إلى نابلي ، وشططنا في تقديرالأرقام ، وصلنا إلى أرصدة نقدية قيمتها ١٨ مليون دوكات ، مقابل ٣ مليون نسمة في عام ١٧٥١ ، بمعنى أن الفرد كان نصيبه ٦ دوكات . أما بالنسبة للذهب والفضة فمن المحتمل ان يكون مقدار الأرصدة الموجودة منها في أوروبا في عام ١٥٠٠ قبل وصول المعادن من أمريكا هو ٢٠٠٠ طن من الذهب و ٢٠٠٠٠ طن من الفضة ، وهي أرقام مستنتجة من حساب يتعرض للجدل أشد الجدل (٩٣). فإذا حولنا هذا المقدار كله الى فضة كان الحاصل هو ٤٠٠٠٠ طن مقابل ٦٠ مليون من السكان ، أي أكثر قليلا من ٦٠٠ جرام للفرد ، وهو

رقم مذهل . في الفترة من عام ١٥٠٠ الى عام ١٦٥٠ تبين الأرقام الرسمية أن أساطيل الهند أنزلت في ميناء اشبيلية الأسباني ١٨٠ طن من الذهب و ١٦٠٠٠ طن من الفضة. وهذه كميات هائلة ، ولكنها في الوقت نفسه متواضعة.

فعندما نصف كمية من النقود بأنها هائلة أو كبيرة فإن الكبر نسبي . وما كانت هذه الكميات تستهدف أكثر من تنشيط دورات ضعيفة التصريف ، على الرغم مما تخيله المعاصرون . والعملات بصفة خاصة تنتقل من يد إلى يد ، أو هي - على حد قول اقتصادي برتغالي في عام ١٧٦١ - تنهمر كالشلال (٩٤) ، درجة بعد درجة ، وهي تتضاعف نتيجة لسرعة حركتها (وكان دافانتساتي Davanzati- الذي ولد في عام ١٥٢٩ وتوفي في عام ١٦٠٦ - قد ألمح الى سرعة دوران النقد ، ثم وضح هذا الموضوع وليم بيتي William Petty، وكذلك كانتيون Cantillon الذي كان أول من استخدم التعبير)(٩٥). عند كل درجة من درجات الشلال المنهمر يتم تسوية حساب جديد، فالمال يحقق عمليات التبادل " مثل اللسان الخشبي الذي يحقق التعشيقة في أعمال الخشب" على حد تعبير عالم اقتصاد من أيامنا هذه. ولكن تسوية الحساب لا تعني تسوية كل ثمن المبيعات، ولا كل ثمن المشتروات ، وإنما الفرق بينهما فقط.

في نابلي في عام ١٧٥١ كانت النقود المتداولة عبارة عن مليون ونصف من الدوكات ducato على هيئة عملات نحاسية ، و ٦ مليون قطعة فضية و ١٠ مليون قطعة ذهبية (منها ٣ مليون قطعة في المصارف) ، أي ما يساوي تقريبا ١٨ مليون دوكات . وكانت عمليات البيع وعمليات الشراء تقدر في مجموعها في العام بنحو ٢٨٨ مليون دوكات. وإذا نحن أخذنا في اعتبارنا عمليات الاستهلاك الذاتي ، حيث يستهلك المنتج نفسه ما ينتجه ، والمرتبات المدفوعة عينيا ، وعمليات البيع على أساس المقايضة، وإذا أخذنا في اعتبارنا أيضا - كما يبين جالياني Galiani- أن " الفلاحين ، وهم ثلاثة أرباع شعبنا، لا يسوون إلا عشر حساب استهلاكهم بالدفع نقدا " حق لنا أن نختصر هذا الرقم إلى النصف . ومن هنا تنشأ المشكلة التالية : كيف يمكن استخدام أرصدة قدرها ١٨ مليون دوكات في تسوية مدفوعات قدرها ١٤٤ مليون دوكات ؟ والإجابة : يتم ذلك بأن تغير كل قطعة عملة مالكها ثماني مرات(٩٦). إذن فسرعة الدوران هي نتيجة قسمة المدفوعات على مقدار النقود المتداولة . هل ينبغي علينا أن نستنتج أن المدفوعات إذا زادت ، تحركت النقود أسرع أو " انهمرت " انهمارا أكثر سرعة؟

ويساعد قانون ايرفنج فيشر Irving Fisher على صياغة المشكلة. فاذا اعتبرنا (ك) مقدار المنتجات المتبادلة ، و(ع) متوسط السعر ، و(ق) كمية العملة ، و(س) سرعة الدوران ، فالمعادلة أو المتطابقة هي كما يكتبها تلاميذ الاقتصاد : ك # ع = ق # س

أي: حاصل ضرب مقدار المنتجات المتبادلة في متوسط السعر، يساوي حاصل ضرب كمية النقود المتداولة في سرعة دورانها . فإذا زادت كمية المدفوعات، وبقيت أرصدة النقود ثابتة، فلا بد أن تزيد سرعة دوران النقود، إذا كان الاقتصاد سليما (اقتصاد نابلي أو غيره).

وهكذا يبدو لنا أنه في الوقت الذي حدث فيه الازدهار الاقتصادي الذي صاحبته "ثورة الأسعار" في القرن السادس عشر ، زادت سرعة الدوران بنفس إيقاع العناصر الأخرى في معادلة ايرفينج فيشر . وإذا كان الإنتاج ومقدار النقود والأسعار - بمعنى عام - قد تضاعفت خمسة أضعاف ، فإن سرعة الدوران قد تضاعفت هي الأخرى خمسة أضعاف. ومن البديهي أننا نقصد هنا المتوسطات التي تستبعد التغيرات التي لا تستمر طويلا (مثلا : الكساد الخطيرالذي تعرضت له الأعمال في السنوات من ١٥٨٠ الى ١٥٨٤) كما تستبعد التغيرات المحلية.

ومن الممكن في بعض النواحي أن يصل دوران النقود الى سرعات استثنائية شاذة؛ فقد حدث في باريس أن غير الجنيه الذهبي الايكو - على نحو ما يقول معاصر جالياني - مالكه خمسين مرة في أربع وعشرين ساعة ، يقول الشاهد : "... ليس هناك في العالم كله نصف كمية النقود التي يتم إنفاقها في عام واحد في مدينة باريس وحدها، إذا أخذنا في اعتبارنا كل مجالات الإنفاق ، وكل ما يدفع بالنقد من يوم أول يناير الى يوم آخر ديسمبر على كل مستويات الدولة : من مستوى قصر الملك ، إلى مستوى الشحاذين الذين يأكلون رغيفا بسول واحد في اليوم ..." (٩٧)

وقد شغل دوران النقود بال الاقتصاديين حتى أقض مضاجعهم، وذهبوا في فهمه مذاهب، فرأوا فيه مصدر الثروة ، وشبهوه في أثره على الثروات بالأدلة بروتيوس Proteus الذي أوتى القدرة على التحور والتحول الى كل شكل، ووجدوا فيه الشرح الشافي للمتناقضات التي تشق عصا الطاعة على كل منطق . ويشرح واحد منهم رأيه قائلا :" في أثناء حصار مدينة تورنيه Tournay بمنطقة جبال البرانس في عام ١٧٤٥ وقبله بقليل، انقطعت الاتصالات، وحدث هرج ومرج ، فقد عز المال اللازم لدفع رواتب الجنود. وخطر ببال أولي الأمر أن يقترضوا من المقاصف مبلغ ٧٠٠٠ فلورين florin كان هو كل الرصيد المتاح لديها . وما مر أسبوع حتى كانت الفلورينات قد عادت إلى المقاصف (حيث اشترى بها الجنود حاجاتهم) ، فاقترضوا المبلغ نفسه منها مرة ثانية، وتكرر ما حدث، إذ عاد المبلغ إلى المقاصف ، واستعاره أولو الأمر من جديد، وهكذا دواليك حتى انتهى الحصار بعد سبعة أسابيع ، أحدث مبلغ الـ ٧٠٠٠ فلورين فيها فعل ٤٩٠٠٠ فلورين (حيث دار سبع دورات) ..." (٩٨) ومن الممكن أن نذكر أمثلة كثيرة

أخرى شبيهة، منها مثل النقود التي استخدمت في أثناء حصار مدينة ماينتس Mainz من مايو الى يولية ١٧٩٣ (٩٩).

خارج نطاق
اقتصاد السوق

ولكن لنعد إلى مملكة نابلي في عام ١٧٥١ . كانت الأرصدة النقدية المتحركة تغطي نصف العمليات، وهذا كثير، ولكن المتبقي الذي لا تغطيه الأرصدة النقدية كان هائلا. فقد أفلتت من نطاق النقود عمليات الفلاحين ، والمرتبات التي تدفع عينيا (في صورة شحم الخزير والملح واللحم المملح والنبيذ والزيت) ؛ ولم تدخل في إطار التعامل بالنقود أجور العمال المشتغلين في صناعات النسيج والصابون وتكرير الكحول في نابلي وخارجها إلا على نحو عابر . والحق أن هؤلاء العمال المشتغلين في تلك الصناعات كانوا يتلقون أجورا نقدية، ولكن هذه الأجور كانت تنفق بسرعة ، فما تكاد تقع في أياديهم حتى تذهب إلى أفواههم ، أو كما يقولون بالايطالية della mano alla boca... وكان أحد رجال الاقتصاد الألمان هو فون شروتر von Schroetter يقول في ذلك الوقت - في عام ١٦٨٦ - أن إحدى الميزات التي تمتاز بها الصناعات تتلخص في " زيادة حركة انتقال المال من يد إلى يد فتتيح القوت لمزيد من الناس على هذا النحو ..." (١٠٠). كذلك فإن وسائل النقل ، على الرغم من أنها لا تنال إلا القليل من الأجر ، تدخل في مجال المدفوعات النقدية . ولكن هذا لا يمنع أن يكون هناك - في نابلي وغيرها - اقتصاد مقايضة ومبادلة يقوم على قدم المساواة مع اقتصاد السوق بأنشطته المرنة.

والكلمة المحورية أو الكلمة التي تقوم مقام المفتاح هي في غالبية الأحوال كلمة باراتو الايطالية baratto وتعني المقايضة ، ومنها فعل barattare وعبارة dare a baratto بمعنى يبادل أو يعطي على سبيل المقايضة. والمقايضة، وتسمى بالفرنسية troc، هي بصفة عامة لب التجارة في المشرق ، وكانت تقوم منذ ما قبل القرن الخامس عشر على مقايضة أو مبادلة التوابل والفلفل أوالعفص بالمنسوجات أو خرز البندقية الزجاجي، أى دون دفع الثمن نقدا. وكان العرف الجاري في القرن الثامن عشر، في نابلي، هو أن يتم تبادل البضائع لقاء هذه المنتجات، وكان كل واحد يعتمد على الأسعار التي قامت السلطات بتحديدها فيما بعد (وهي الأسعارالتى يقولون عنها alla voce أى أسعارشفهية)؛ وكانوا في هذه الحالة يقدرون ثمن كمية البضاعة المعروضة بما تساويه من النقود، ثم تتم المقايضة على أساس القيمة المقدرة لهذه الكمية والقيمة المقدرة للكمية المقابلة . وكانت عمليات المقايضة من هذا النوع معينا لا يفرغ ، يستخرجون منه مسائل الحساب للتلاميذ الذين كانت وجوههم تشحب من فرط ما كانوا يعانونه في استيعابها،

وحلها على نحو ما كانوا يجدونها في كتاب الحساب العملي Arithmetica Practica من تأليف الأب اليساندرو ديللا بوريفيكاتسيوني P. Alessandro della Purificazione والصادر في روما في عام ١٧١١. وكانت المقايضة تعني تطبيق قاعدة الثلاثة - واسمها في الكتاب بالايطالية la regola di tre- على حالة من الحالات الثلاث الأساسية التالية: المقايضة البسيطة ، شمع مقابل فلفل مثلا ؛ مقايضة نصفها نقدي ونصفها عيني؛ والمقايضة المرتبطة بأجل محدد " عندما يحدد تاريخ للتسوية "...وإذا كانت هذه العملية تعالج في كتاب للحساب فتلك دلالة على أن التجار كانوا هم أنفسهم يمارسون المقايضة، وكانت المقايضة شأنها شأن الكمبيالات " تسمح بإخفاء سعر الفائدة".

كل هذا يكشف عن نواحي العجز في الحياة النقدية، حتى في القرن الثامن عشر النشيط الذي كنا، عندما نصل إليه قادمين من عصور سابقة ، نعتبره إلى حد ما بمثابة جنة زاهرة. ولكن روابط المال والسوق لا تضم بين ذراعيها ، في هذه الجنة، حياة البشر جميعا، إذ يظل الفقراء خارج حدود هذه الروابط ، وما تنضوي عليه من وشائج . ويمكننا أن نقول عن الفترة حول عام ١٧١٣ أن " التغيرات التي كانت تطرأ على النقود لم تكن تمس القطاع الأكبر من الفلاحين [البورجونديين] الذين لم يكونوا يمتلكون نقودا "(١٠١). وهذه حقيقة من واقع حياة الفلاحين تكاد تصدق على كل زمان.

وعلى العكس من قطاعات الفلاحين، ومن إليهم، كانت هناك قطاعات متقدمة تقدما كبيرا، وقعت في ربقة الائتمان وتعقيداته. ولكنها كانت قطاعات ضيقة.

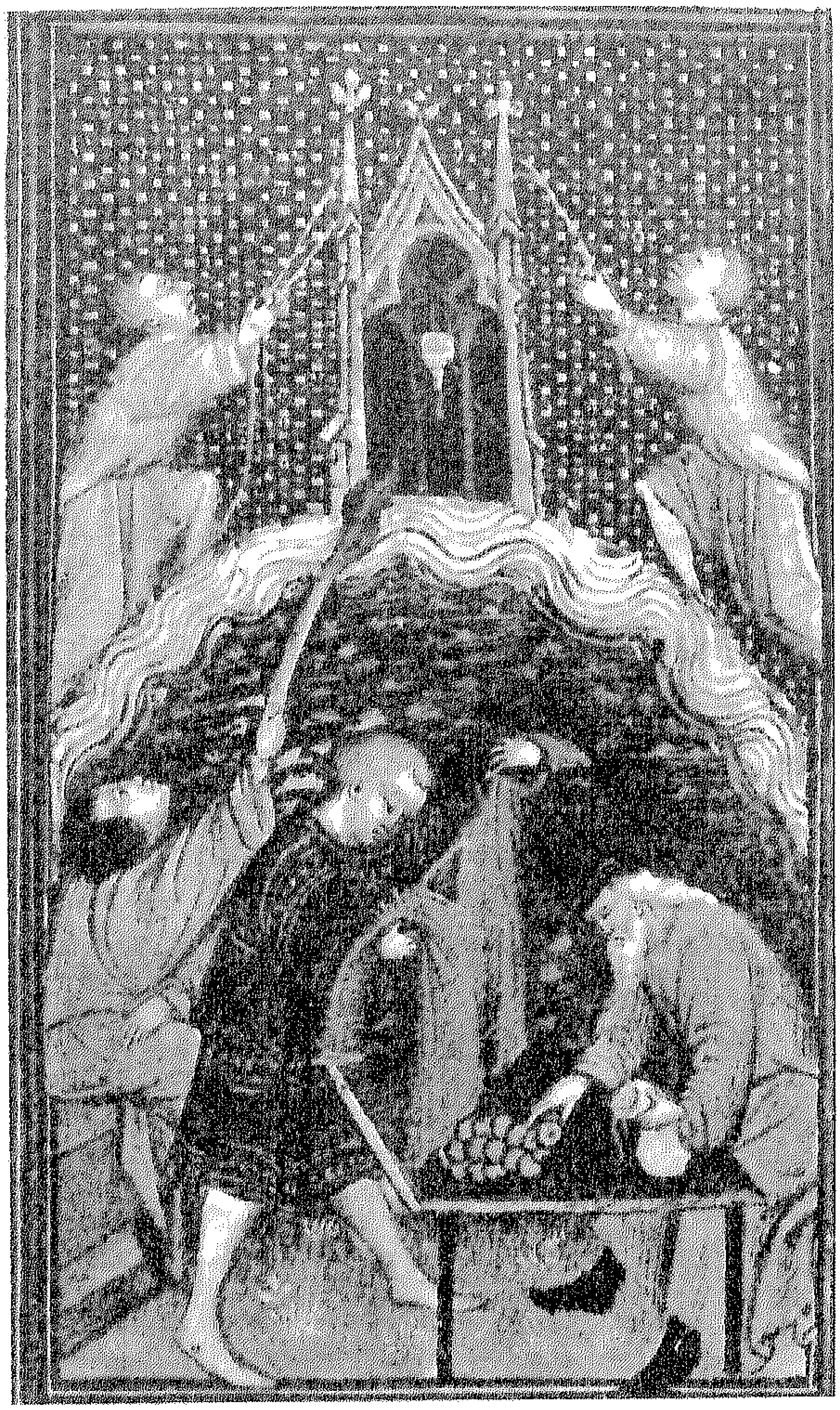

رجل يقرض بضمان الرهونات . كان لهؤلاء الديانة ، الذين يقرضون الناس القروض بضمان الرهونات، مكانهم في قلب الحياة اليومية بكل بلاد الدنيا أيا كانت العملة المتداولة فيها . رسم من الرسوم التي تحلى بها كتاب روهان للصلوات والأدعية Heures de Rohan، والرسم مأخوذ من باب شهر مارس.

نقود ورقية
ووسائل ائتمانية

كانت هناك بجانب النقود المعدنية نقود ائتمانية يتداولها الناس (أوراق البنك أو صكوك البنك أو البنكنوت) و نقود مكتوبة في الدفاتر (تسويات قائمة على أساس لعبة التسجيل في الدفاتر، وتحويل الحساب إلى حساب مصرفي ، وهو ما يطلق عليه الألمان الاسم الجميل Buchgeld" بوخجيلت " أى نقود الكتاب أو نقود الدفتر أو النقود الدفترية، والرأي عند مؤرخي الاقتصاد أنه كان هناك تضخم في النقود الدفترية منذ القرت السادس عشر.)

هناك حد فاصل بين النقود (في كل صورها)، والائتمان (بكل وسائله). فالائتمان هو تبادل التزامين مختلفين من الناحية الزمنية: أنا أقدم اليك خدمة الآن، وأنت تدفع لي فيما بعد. فالسيد صاحب الأرض الذي يقدم إلى الفلاح تقاوي القمح مقدما بشرط أن يقدم إليه الفلاح الثمن فيما بعد عندما يجنى المحصول إنما يقيم علاقة ائتمان أو يفتح حساب ائتمان؛ من هذا القبيل أيضا ما يفعله صاحب الحانة الذي لا يطالب الزبون بدفع ثمن المشروبات على الفور، ويخط خطا أو علامة بالطباشيرة على الحائط (ما يسمونه تقييد الثمن بالطباشيرة، أو الدفع بالطباشيرة)؛ ومن هذا القبيل أيضا ما يفعله الخباز الذي يسلم الخبز، ويستخدم كعلامة على الدفع المؤجل قطعة من الخشب يشقها إلى شقين متكاملين، أحدهما يبقى مع من يقدم الخبز والآخر مع من يتلقاه. والتجار الذين يشترون القمح من الفلاحين قبل أن يجنوا المحصول ، أو يشترون من مربي الاغنام الصوف قبل جزه ، على نحو ما كان يجري في منطقة شيقوبية بأسبانيا وفي غيرها من المناطق، ينهجون النهج نفسه. وهذا النهج هو نفسه نهج " الكمبيالة "(١٠٢) فبائع الكمبيالة في زمان ما ومكان بعينه، مثلا في القرن السادس عشر في سوق مدينة الكامبو Medina del Campo يتسلم على الفور النقود، أما الذى يأخذ الكمبيالة فإنه يتسلم النقود في مكان آخر بعد مرور ثلاثة اشهر بحسب سعر التحويل في ذلك الحين. وعليه أن يعمل على ضمان ربحه وأن يتحمل المخاطر.

وكان الكثيرون من المعاصرين يعجبون للكمبيالات التي ظلت بالنسبة إليهم نبعا لا ينضب لمشاعر الدهشة والذهول ، فقد كانوا يتمثلونها " كأعمال سحرية غامضة لا يفهم سرها إلا القلة " ويشبهونها بأعمال القبالة أي السحرة اليهود (١٠٣) ، هكذا أذهلتهم هذه النقود التي كانت نقودا دون أن تكون نقودا ، والتي كانت تمثل صنوفا من اللعب بالمال لا تتسم بالتعقيد فحسب بل بالشيطانية ، إذ كانت تمزج المال بالكتابة أبسط الكتابة فإذا هما يتداخلان ويختلطان . ولقد كانت صورة التاجر الايطالي الذي جاء إلى مدينة ليون

حول عام ١٥٥٥ لا يحتكم إلا على منضدة وقلم فحقق ثروة واسعة صورة تعبر عن فعلة شيطانية أو فضيحة بكل ما في الكلمة من معنى ، حتى في نظر أولئك الذين كانوا يفهمون أمور المال ولعبة المبادلات والتحويلات فهما جيدا. بل إن رجلا مرموقا يتربع على مستوى فكري رفيع هو ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) وكان فيلسوفا و مؤرخا بل واقتصاديا أيضا وقف في عام ١٧٥٢ موقف عداء لا يلين من " الورق المخترع حديثا " و " الأسهم و كمبيالات البنك وصكوك الخزانة " ، وكان يقف من الدين العام موقف العداء نفسه . ولم يزد اقتراحه ولم ينقص عن المطالبة بإلغاء ١٢ مليونا من هذه الأوراق التى افترض أن الناس يتداولونها في انجلترا بجوار ١٨ مليونا من الاسترليني، وكان الجنيه الاسترليني المعدني في نظره هو الوسيلة الأكيدة لاجتذاب كمية جديدة من المعادن الثمينة إلى المملكة(١٠٤). ومن سوء حظ فضولنا (أقصد بالنسبة لبريطانيا بكل تأكيد) أن هذا النظام المناهض لنظام لو Law لم يوضع موضع التجربة. على أية حال كان سيباستيان ميرسييه يرى رأيا آخر ويأسف لأن باريس لم يتم " تشكيلها على نموذج بنك لندن " ، وهو يصف منظرا عجيبا هو منظر عمليات الدفع نقدا في باريس: " في اليوم العاشر واليوم العشرين واليوم الثلاثين من كل شهر يرى الإنسان من الساعة العاشرة صباحا الى الساعة الثانية عشرة ظهرا حمالين ينوؤون تحت ثقل أكياس ملآى بالنقود، ، وهم يجرون كما لوكان جيش من الغزاة يوشك أن ينقض على المدينة؛ كل هذا دلالة على أننا لم ننشيء لدينا هذا الرمز السياسي [يقصد ورقة البنكنوت]الذي كان يمكن أن يحل محل هذه المعادن التي تتحول إلى رموز غير متحركة بدلا من الرحلة التي تقوم بها من خزينة الى خزينة . والويل عند ذلك لمن يكون عليه أن يدفع كمبيالة و لا يكون لديه رصيد " وكان هذا المشهد مثيرا على نحو خاص لأنه كان يتركز في شارع واحد هو شارع فيفيين Vivienne الذي يقول عنه كاتبنا صاحب هذه المعلومات " إن فيه من المال أكثر مما في بقية المدينة ؛ إنه جيب العاصمة " (١٠٥).

وما هي إلا
حيل قديمة

كل هذه ألوان من "تطويل" النقود ، بالمعنى الدقيق لكلمة التطويل الذي يجاوز الحد، وما هي في حقيقة أمرها إلا أساليب قديمة، بل قديمة جدا ، أو هي ابتكارات كانت قد تاهت في غيابات ليل الزمان البهيم . إنها وسائل كانت موجودة في الماضي، وبات من الضروري اكتشافها من جديد ، ثم إنها كانت في مجموعها طبيعية، أكثر " طبيعية " مما يبدو عليها ، ويشهد ماضيها القديم على طبيعيتها.

فالحقيقة أن البشر منذ أن عرفوا الكتابة، ومنذ أن عرفوا النقود المعدنية ذات الوزن، وذات الرنين استعاضوا عنها بمكتوبات، وبصكوك، ووعود ، وأوامر . ففي بابل قبل ميلاد

المسيح بعشرين قرن كان تجار السوق ورجال المصارف يستخدمون أوراقا وصكوكا ليست هناك ضرورة للمبالغة في مدح حداثتها لكي نعجب ببراعتها. ونجد نفس الوسائل في بلاد اليونان ، وفي مصر إبان حكم الاغريق حيث أصبحت الاسكندرية " أكثر مراكز تجارة الترانزيت العالمي نشاطا ". أما روما فقد عرفت الحساب الجاري ، وما له وما عليه في دفاتر رجال المال. ثم إن كل وسائل الائتمان - الكمبيالة، السند، خطاب الاعتماد، الورقة المصرفية أو الصك المصرفي، الشيك - كلها كانت معروفة للتجار في العالم الإسلامي، مسلمين وغير مسلمين ، على نحو ما تكشف لنا عن الفترة ابتداء من القرن العاشر الميلادي وثائق geniza التى تم العثور عليها في المعبد اليهودي في مصر العتيقة(١٠٦) وكانت الصين تستخدم تستخدم الورقة المصرفية منذ القرن التاسع الميلادي .

ينبغي أن تجعلنا هذه الأنماط الأولي القديمة النائية في مأمن من الاستسلام إلى صنوف من الاندهاش يداخلها شيء من السذاجة .ولنستخدم عبارة متوازنة فنقول : عندما اكتشف الغرب مرة أخرى هذه الوسائل الائتمانية القديمة ، لم يكن لاكتشافه أهمية تضارع اكتشاف امريكا. فكل اقتصاد يسير في مسار يوشك أن يكون منطقيا ، وفي اتجاه يتفق مع طبيعته ونشاطه ، فإذا ما وجد نفسه في ضيق من تداول المعادن، اندفع من تلقاء نفسه اندفاعا سريعا نحو وسائل الائتمان: وهذه الوسائل تنشأ من التزامات الاقتصاد نفسه، وتنبثق بالقدر نفسه تقريبا من نواحي النقص فيه.

شهد القرن الثالث عشر إذن اكتشاف الغرب مرة أخرى للكمبيالة من حيث هي وسيلة للدفع بعيدة المدى، ما لبث الصليبيون أن اجتازوا بها البحر المتوسط على طوله. وفي وقت مبكر، أسبق بكثير مما يخطر ببالنا عادة ، دخل التظهير على الكمبيالة، فأصبح الحائز على الكمبيالة يوقع على ظهرها ، وينزل عنها الى آخر. ومن الواضح أن نظام التظهير عندما ظهر لأول مرة في عام ١٤١٠ لم يكن بالصورة التي اتخذها فيما بعد. ولكنه كان يمثل تطورا جديدا دخل على الكمبيالة : فلم تعد محدودة بعملية واحدة، أو بما يمكن أن نصفه بأنه رحلة واحدة من مكان الى مكان آخر ، كما كانت الحال في البداية ، بل أخذ رجال الأعمال يدفعونها الى الجري من مكان الى مكان ، ومن سوق الى سوق، وبدلا من قيامها بعملية تحويل واحدة ، أصبحت تقوم بالتحويل وإعادة التحويل فيما أسموه في فرنسا change et rechange ، وما تسمي في ايطاليا باسم ricorsa. وما لبثت هذه العمليات التي تقوم على مد الائتمان وإطالته أن شاعت مع تزايد الصعاب في القرن السابع عشر . وأصبحت هناك على نحو ما فرقة خيالة تجري بالكمبيالات، يعينها في جريها رجال الأعمال متواطئين ، بل لقد أصبح من المألوف أن يصدر الواحد كمبيالات يسحبها على نفسه ، وانفتح الباب أمام الانحرافات ، ومنها انحرافات عرفناها قبل القرن

السابع عشر نفسه : نذكر منها عمليات إعادة التحويل الزائفة التي أفاد منها آل فوجار Fugger منذ عام ١٥٩٠ ، ومنها ما جرى في سوق ليون في عام ١٥٩٢؛ وكانت هناك أمثلة أشد وضوحا شهدتها جنوا ، مدينة البدع، منذ القرن الخامس عشر.

وليس هناك ما يدعو إلى الإفاضة في الحديث عن أن ورقة البنكنوت ظهرت أول ما ظهرت في عام ١٦٦١ في شبابيك بنك ستوكهولم ، ثم ما لبثت أن توقفت في عام ١٦٦٨ ، أو لنقل ما هو أكثر واقعية : إن ورقة البنكنوت ظهرت في شبابيك بنك انجلترة منذ عام ١٦٦٧ . ولم تكن كل ورقة بنكنوت مثل الأخرى . وشهدت انجلترة منذ ١٦٦٧ تضاعف أعداد الأذونات الحكومية - التي كانت النماذج الأولى للبنكنوت ، وكانت هناك من قبل في منتصف القرن أوراق تداولها الناس وعرفت باسم أوراق الصياغ goldsmiths notes ثم أصبحت تعرف فيما بعد باسم أوراق المصرفيين bankers notes، وكان الصياغ في لندن يتلقون العملة المعدنية فيخزنونها رصيدا مقابل هذه الأوراق . وفي عام ١٦٦٦ بلغ ما أنزله صائغ واحد فقط للتداول مليونا ومائتي ألف جنية استرليني على هيئة أوراق . بل أن كرمويل Cromwell نفسه لجأ اليها. وعلى نحو يوشك أن يكون تلقائيا تولدت الورقة المصرفية أو ورقة البنكنوت من الممارسة التجارية. وربما ارتبطت بالصراع على البقاء وكانت مسألة حياة أو موت : ففي عام ١٦٤٠ استولى الملك شارل الأول على السبائك التي حفظها تجار المدينة في برج لندن، وكان أن لجأ التجار بأموالهم الى الصياغ فحفظوها لديهم ، وتلقوا عنها صكوكا، وحقق الصياغ ثراء أي ثراء حتى أنشي بنك انجلترة.

ولكن انجلترة لم تحتكر في هذه المجالات امتيازالسبق والتبكير فقد كانت مؤسسة أو بيت سانجورجو في ايطاليا Casa di San Giorgio قد أصدرت أوراق بنكنوت على الأقل منذ عام ١٥٨٦ وكانت تسمى biglietti وكان من الممكن اعتبارا من عام ١٦٠٦ الحصول على مقابل هذه الأوراق بعملات من الذهب أو الفضة بحسب نوع الرصيد الضامن لها؛ كذلك كانت هناك في البندقية منذ القرن الخامس عشر بنوك يسمونها بنوك كتابة كانت تصدر أوراقا يمكن تحويلها ، والحصول على مقابلها النقدي .

أما الجديد بالنسبة لبنك انجلترة فكان يتمثل في أنه أضاف الى وظائف البنك المعروفة ، وهي الايداع والتحويل، وظيفة جديدة تجعل منه بنك إصدار بمعنى الكلمة، جرى تنظيمه بدقة وأمانة، وأوتى القدرة على تقديم ائتمان واسع على شكل أوراق كانت قيمتها من الناحية الفعلية تتجاوز بكثير أرصدة العملات الحقيقية التي تغطيها. وكان الرأي عند لو Law أن البنك ، وقد فعل هذا ، قد قدم الى التجارة والى الدولة أعظم خدمة، إذ أنه " زاد كمية النقود "(١٠٨).

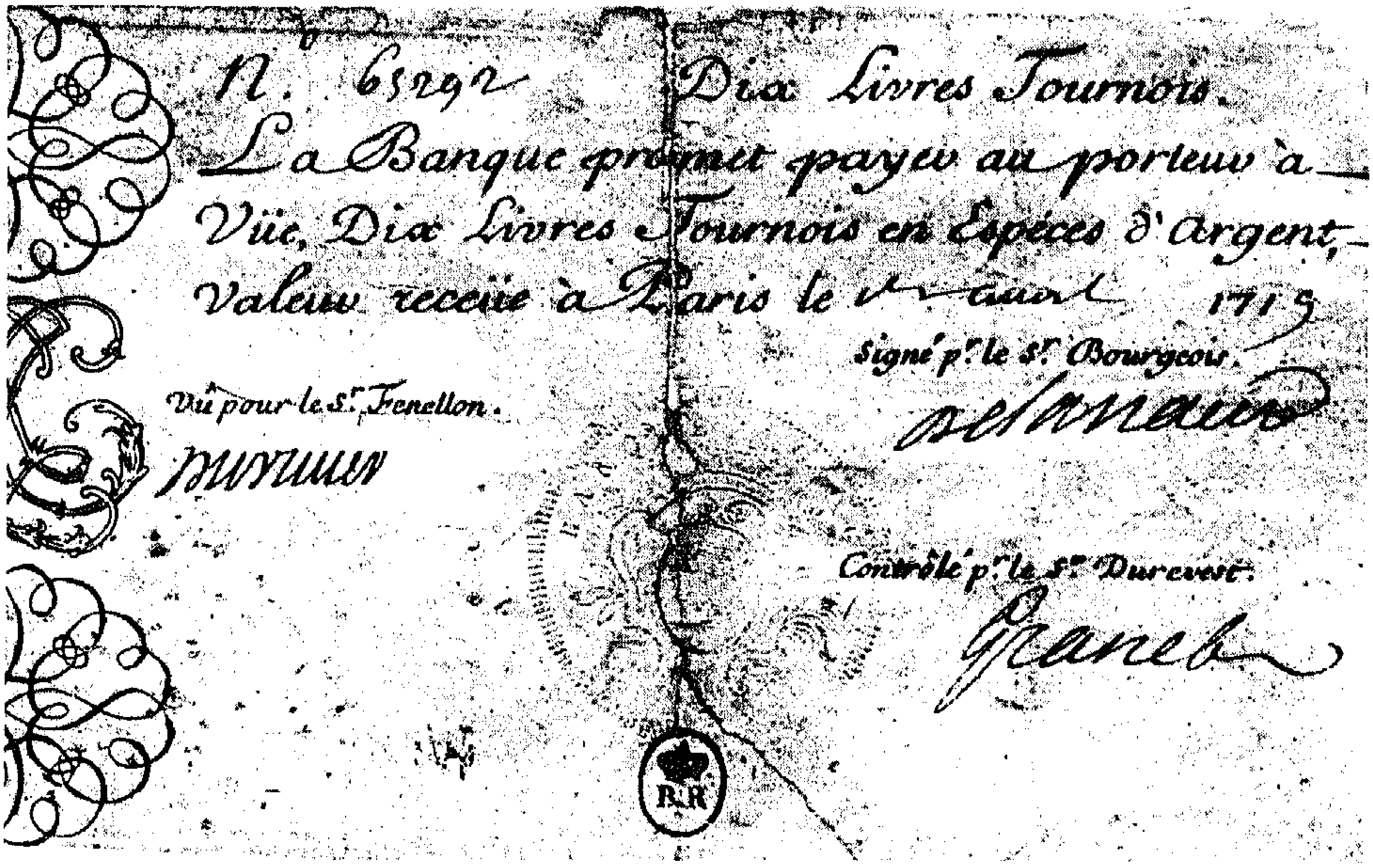

ورقة لو Law المصرفية، أو بنكنوت لو . محفوظة في المكتبة القومية بباريس. وكان الفرنسيون في القرن الثامن عشر ينطقون الاسم الانجليزي "Law" لاس"

أما موضوع النقود المكتوبة فسنعود إليها في حينها ؛ وهي قد بدأت مع بدايات صناعة المصرفيين نفسها : فقد كانت العملية تتمثل في تعويض حساب من حساب آخر بناء على رغبة العميل، بل إن هناك حسابات أصبحنا فيما بعد نسميها حسابات على المكشوف، كان في استطاعة العميل أن يتجاوز فيها رصيده إذا وافق صاحب البنك. فهذه النقود المكتوبة أو المتمثلة في أوراق مصرفية كانت قائمة في بداية العصور التي نعالجها في كتابنا هذا.

نقود

وائتمان

و الشيء المؤكد الذي لا يتغير بتغير الزمن هو أن الاوراق والصكوك ليس لها جمهور واسع. ولنا أن نذكر في هذا المقام أفكار ديفيد هيوم التي أشرنا اليها من قبل .نجد مصداق ذلك في فرنسا التي تأسس فيها بنك فرنسا la Banque de France متأخرا (١٨٠١) ، ولم تكن أوراقه وسنداته تهم إلا بعض التجار ورجال البنوك من أهل باريس ، ولم تكن تهم على الإطلاق أي انسان من أهل الريف. ويرجع السبب في ذلك بلا

شك إلى الذكرى الأليمة الباقية التي حفظها الناس عن إفلاس لو Law الذى جذب بنكه في باريس في مطلع القرن الثامن عشر أموال الناس ، وأسعدهم في البداية بربح سريع، ثم أذاقهم مرارة الإفلاس والخراب.

ومع ذلك فإن الورق والائتمان ، وقد تنوعت أشكالهما أيما تنوع، لم يكفا عن اللحاق بدورة النقود والاندماج في التيار العام . كانت الكمبيالة المظهرة (أي التي ينزل عنها مالكها عن طريق إضافة تأشيرة وتوقيع، لا يثبتان على ظهر الورقة التي تحمل الصياغة المحددة والبيانات ، ولكن على وجهها ، على عكس ما نفعله عندما نظهر شيكاتنا حاليا) يتم تداولها، منذ ذلك الحين، " مثل النقود الحقيقية ". بل كانت صكوك الدين العام، في أى مكان كان، تباع في البندقية ، وفلورنسا ، وجنوا ، ونابلي، وأمستردام، ولندن . ونفس الشيء حدث بالنسبة لسندات الدخل الصادرة من دار البلدية في باريس، تلك السندات التي أنشئت في عام ١٥٢٢ والتي تعددت صروفها وكثرت تقلباتها. وأيا كان الأمر فقد اشترى الوجيه مونمورانسي Montmorency في أول نوفمبر من عام ١٥٥٥ أرضا (هي أبعدية ماريني Marigny) ودفع ثمنها بسندات دار البلدية(١٠٩). وكان الملك فيليب الثاني وخلفاؤه يسددون ما عليهم لرجال الأعمال في صورة تعهدات هي سندات على الدولة محسوبة بقيمتها الإسمية . فلما تلقى رجال الأعمال مستحقاتهم على هذه الصورة ، قاموا هم بدورهم بتسديد ديونهم إلى الآخرين مستخدمين نفس " النقود "، أي مستخدمين السندات ، محملين الآخرين مخاطر وأخطار صناعتهم . أما بالنسبة إليهم هم فقد كان الأمر يتمثل في الانتقال من الديون القصيرة الأجل (القروض المقدمة الى الملك والتي كانت تسمى أسينتوس asientos) إلى ديون طويلة الأجل أودائمة أو مدى الحياة، مجمعة أو موحدة. ولكن سندات المشاركة في القروض الملكية ، الأسينتوس نفسها ، كانت تتنقل بالتنازل والتوريث والتوزيع، أى أنها كانت متداولة في السوق على الرغم من سمة التحفظ التي كانت السوق تتسم بها(١١٠). كذلك عرفت السوق " أسهم " بورصة أمستردام في زمانها. وتداولت السوق، إلى هذا وذاك، سندات الدخل التي أنشأها القائمون على مالية المدينة بضمان الحقول، وبساتين الكروم أو بيوت الفلاحين في البلاد الغربية كلها ، لقد كان هذا كله يرسم مشهدا ضخما هائلا نراه كلما أمعنا النظر ودققنا الملاحظة . بل لقد كان الناس يبيعون حتى إيصالات تخزين الغلال التي يسميها الايطاليون شيدولا cedole والتي كان أصحاب مخازن القمح في صقلية يعطونها لأصحاب القمح الذين يخزنونه لديهم، ثم ظهرت الشيدولات المزورة أو إيصالات القمح المزورة ، التي تواطأ علي إصدارها أصحاب المخازن وأصحاب السلطان(١١١). وثمة معلومة تفصيلية أخيرة : كان نائب الملك في نابلي يصدر أذونات tratte لتصدير الغلال بل والخضروات؛ وكان يصدر من هذه الأذونات

عددا أكثر من المطلوب، وما لبث تجار البندقية أن مارسوا اللعبة بانتظام ، فكانوا يشترون الأذونات رخيصة بأقل من سعرها الإسمي، ويسددون بها رسوم الجمارك رخيصة أيضا رخص الأذونات التي اشتروها. ولنا أن نتصور هذه الحركة التي تشبه الأمواج المتلاطمة أو حلبات الرقص التي تعج بجموع من الراقصين يعارض بعضهم بعضا، ونتصور كميات هائلة من الأوراق تتدافع إليها مختلفة الأشكال، والمستويات ، والأسماء. والخلاصة أن النقود المعدنية إذا تعطلت ، انهمر الورق انهمارا، فإن لم يكن الورق موجودا اخترعوه، والإنسان، إذا احتاج الى النار، أوقدها من أي خشب.

وهناك ملحوظة جديرة بأن نثبتها، وهي " أن المال السائل كان نادرا في باريس في السنوات ١٦٤٧ و ١٦٤٨ و ١٦٤٩ في التجارة حتى أن من كان يسدد مبلغا كان يدفع الربع على هيئة عملة حاضرة والثلاثة أرباع على هيئة أوراق مصرفية أو كمبيالات عليها توقيعات على بياض تقوم مقام التظهير، ولا تقوم مقام أمر الدفع . هكذا كان التجار ورجال الأعمال، والمصرفيون قد تواضعوا فيما بينهم على أن يدفع بعضهم إلى البعض بهذه الوسيلة "(١١٣) . هذه العبارات تحتاج الى شروح (مثلا فيما يتصل بالتوقيعات على بياض) ولكن أهمية النص ليست في هذه المعلومة التفصيلية التي تحتاج إلى من يفسرها ، وإنما في التعبير عن أن الناس ، إذا لم يجدوا المال السائل، استعانوا على قضاء حوائجهم بالائتمان : وكأنما كان الائتمان يأتي وليد اللحظة وعلى سبيل الارتجال. وهذا هو بصفة عامة ما يوصي به وليم بيتي William Petty في كتابه العجيب Quantulumcumque concerning money (١٦٨٢) ويمكننا أن نترجم هذا العنوان بتصرف إلى :" أقل شيء يمكن أن نقوله عن النقود " ، ونذكر بداية أن بيتي يستخدم في كتابه طريقة السؤال والجواب .نقرأ السؤال رقم ٢٦ : ما هو العلاج إذا شحت النقود؟ والإجابة هي: ينبغي علينا أن ننشيء بنكا ... يكون آلة لخلق الائتمان ولزيادة فعالية النقود المتاحة . ـ ونظرا لأن الملك لويس الرابع عشر ، الذي شغل بحروب لا تنقطع، لم ينجح في إنشاء بنك، فقد تحتم عليه أن يعيش على عون رجال المال، سواء منهم من كانت بينه وبينهم عهود مكتوبة منحتهم امتيازات خاصة أو من لم يكن بينه وبينهم إلا علاقة الاستدانة ، كانوا يقدمون اليه القروض لقاء كمبيالات ليسدد النفقات الهائلة التي تطلبتها جيوشه خارج الحدود. وكان هؤلاء الذين يقرضونه يقدمون إليه من مالهم ومن مال الآخرين المودع لديهم . وكان على هؤلاء أن يستردوا أموالهم من الخاصة الملكية. أما الملك، فهل كان أمامه سبيل آخر غير الاستدانة على هذا النحو بعد أن خلت مملكته من المعادن الثمينة؟

وعلينا أن نتنبه إلى أن الهدف كان يتمثل في دفع النقود المعدنية الثقيلة إلى الأمام أو إلى إيجاد بديل لها إن أمكن، تلك النقود التي كانت بطيئة في القيام بواجباتها ، أو

كانت تختفي أحيانا (في حالة البطالة). هكذا جاء هذا السعي، وتكرر، كلما دعت إليه الضرورة، ليرتجل حلولا كلما تعثرت النقود المعدنية الرنانة أو تعطلت، وجر وراءه أفكارا وافتراضات حول طبيعة النقود نفسها. ما هو الموضوع الذي إتجه إليه السعي؟ اتجه السعي إلى تصنيع النقود أواصطناعها، إلى ايجاد بديل أو ارزاتس ersatz للنقود، أو الى نقود تخضع للمناورة، أوتستجيب للحركة والمناورة. وقد أدرك كل مؤسسي البنوك، ومنهم الاقتصادي الاسكتلندي جون لو، ادراكا متزايد الوضوح " مدى الإمكانات الاقتصادية التي ينضوي عليها هذا الاكتشاف الذي يعني أن النقود، ورأس المال، بالمعنى النقدي للكلمة، يمكن صنعهما أو خلقهما بحسب الإرادة "(١١٤). كان ذلك اكتشافا مثيرا (أفضل من الاكتشاف الذي كان الكيميائيون أو علماء الكيمياء القديمة يصبون إلى تحقيقه عندما سعوا إلى تحويل المعادن الى ذهب) يا له من إغراء وغواية بل يا له من نور أشرق علينا! لقد تبين أن العملة المعدنية يعتورها البطء، أو لنستعر على سبيل الفكاهة لغة الميكانيكيين: إنها تفتقر الى الأفانس الذي يؤدي إلى سرعة انتقال الشرارة إلى البوجيهات والى سرعة دوران الموتور. والعملة المعدنية ببطء حركاتها، وثقل وزنها، هي التي خلقت منذ فجر الحياة الاقتصادية مهنة صاحب البنك، وجعلتها مهنة ضرورية. وصاحب البنك هذا، هو الذي يأتي عندما يصاب المحرك بعطل فيصلحه أو يحاول إصلاحه.

السير على درب شومبيتر :
كل شيء نقود، كل شيء ائتمان

وهانحن أولاء نصل إلى المناقشة الأخيرة من مناقشاتنا وهي أكثرها صعوبة. هل هناك حقيقة فرق مطلق في الطبيعة بين النقود المعدنية وبين النقود التكميلية ووسائل الائتمان؟ أما أننا نقوم في البداية بتمييزها بعضها عن البعض فشيء بديهي؛ ولكن أليس من المناسب بعد ذلك أن نقربها بعضها من البعض الآخر، أو حتى نخلطها؟ هذه المشكلة التي تفتح الباب على كثير من الاختلافات، والمشاحنات، وهي نفسها مشكلة الرأسمالية الحديثة التي تنتشر وتمتد حتى تصل الى هذه المجالات فتجد فيها وسائلها، بل إنها، وهي تسعى الى تعريفها، " تعي وجودها ذاته ". ومن البديهي أنها مناقشة نفتحها دون أن تكون لدينا النية للفراغ منها على نحو نرتاح إليه. ولكننا سنعود إليها فيما بعد.

كان كل الاقتصاديين على الأقل حتى عام ١٧٦٠ مهتمين بتحليل الظاهرة النقدية مأخوذة في صورها الأولى. ثم نراهم بعد ذلك طوال القرن التاسع عشر وبعده، حتى يأتي كينزKeynes بنظريته المتميزة، يميلون إلى اعتبار النقود عنصرا محايدا للتبادلات

الاقتصادية ، أو يعتبرونها كاللثام : ومن هنا يتركز مسعاهم على إماطة اللثام، والكشف عما يخفيه ، وسيمثل هذا المسعى موقفا من المواقف المألوفة في كل تحليل اقتصادي "حقيقي" ، وسيكف الاقتصاديون عن النظر الى النقود ذاتها بألعابها الخاصة بها ، بل سينظرون الى الحقائق الكامنة وراءها : تبادل الثروات والخدمات وانسياب تيار المصروفات والدخول ...

وهذا هو مسارنا في مرحلته الأولى: سنأخذ على وقت التقريب بالطريقة القديمة (الإسمية nominaliste) طريقة ما قبل عام ١٧٦٠، ولنبق عمدا في منظور تجاري مركانتيلي، عمره عدة قرون. كان هذا المنظور يضفي اهتماما مطلقا على النقود معتبرا إياها الثروة في حد ذاتها ، مثل النهرالذي تطلق قوته وحدها عمليات التبادل، وتنجزها وتؤدي كتلة مياهه الى التعجيل بالتبادلات أو الإبطاء فيها .النقود، أو على الأحرى الرصيد النقدي ، هي في وقت واحد الحركة والكتلة. فإذا زادت الكتلة أو كانت سرعة الحركة هي التي زادت في مجموعها، فالنتيجة تقريبا واحدة : كل شيء سيكون في جانب الارتفاع (ارتفاع الأسعار ، وارتفاع المرتبات على نحو أبطأ من الأسعار؛ وارتفاع حجم العمليات المالية). أما إذا حدث العكس ، وقلت كتلة الرصيد النقدي أو قلت سرعة حركته، فسيتراجع كل شيء. في حالة الارتفاع ، وفي ظل الظروف المرتبطة به، يستوي أن يحدث تبادل مباشر للبضائع (عن طريق المقايضة)، أو أن تسمح النقود التكميلية بإنجاز اتفاق تجاري دون اللجوء الى النقود بمعناها الدقيق ، أو أن يؤدي الائتمان الى تسهيل عملية تجارية، في كل هذه الحالات علينا أن نستنتج على نحو ما أن هناك زيادة في الكتلة المتحركة . والخلاصة أن كل هذه الوسائل ، التي تستخدمها الرأسمالية، تدخل متساوية في اللعبة النقدية ، سواء كانت هي أشباه النقود أو كانت نقودا حقيقية. وكان كانتيون Cantillon هو أول من نبه الى ما بين النقود الحقيقية وأشباه النقود من تساو في القيمة، وكأنما كان يقدم إلينا الدرس الأول عن المصالحة بينهما.

ولكن الإنسان إذا استطاع أن يؤكد أن كل شيء نقود، فإنه يستطيع على العكس أن يدعي أن كل شيء ائتمان، أي وعد، أو واقع مؤجل الى حين . حتى هذا الجنيه الذهب اللويدور الذي يقدمه الناس إلي وأمسكه بيدي هو وعد ـ وعد بالدفع ـ أو هو شيك (ونحن نعرف أن الشيكات بصورتها الحقيقية أي المسحوبة على حساب خاص لم تصبح ممارسة مألوفة في انجلترة إلا حول منتصف القرن الثامن عشر) ؛ هذا الجنيه الذهبي الذي يقدمه الناس إلّي، وأمسكه بيدي هو في الحقيقة شيك تقابله مجموعة الثروات، والخدمات الملموسة المتاحة، والتي سأختار من بينها بعد حين، غدا أو في أي وقت لاحق. عند ذلك، وعند ذلك فقط، تكون قطعة النقود قد حققت في إطار حياتي مصيرها أو المهمة المنوطة بها ، وهذا هو المعنى الذي يعنيه الاقتصادي يوزف ألوئيس شومبيتر

J.A.Schumpeter) ولد عام ١٨٨٣ وتوفي عام ١٩٥٠) عندما يقول : " والنقود بدورها ليست شيئا آخر سوى أداة ائتمانية ، إنها وثيقة تتيح الوصول الى وسائل الدفع النهائي الوحيدة، ونقصد بها المواد الاستهلاكية. واليوم - عام ١٩٥٤- يمكننا أن نقول إن نظريتنا هذه، التي تتسم بالقدرة على التطور والتوسع واستعياب أشكال عديدة، وصياغات أوفى، هي النظرية التي تشق طريقها إلى الظهور على النظريات الأخرى"(١١٥). وخلاصة القول أن ملف القضية يمكن تأويله ، في هذا الاتجاه تارة، وفي ذلك الاتجاه تارة أخرى دون أن نشط أو نزيف الحقيقة.

النقود والائتمان

لغة

النقود والائتمان، مثلهما مثل الملاحة في أعالي البحار أو مثل الطباعة، تقنيتان تتكرران، وتستمران من تلقاء ذاتهما، وهما لغة واحدة يتكلمها كل مجتمع بطريقته الخاصة، ويتحتم على كل فرد أن يتعلمها، حتى إذا لم يكن على معرفة بالقراءة والكتابة، فالثقافة العالية هي وحدها التي تأخذ نفسها بالكتابة. فالإنسان الذي لا يتعلم الحساب يحكم على نفسه بالفناء. والحياة اليومية هي المدرسة الإلزامية للأرقام: إن قاموس الوارد والمنصرف، والمقايضة والأسعار، والسوق، والنقود المتذبذبة يحيط بكل مجتمع نال شيئا من التطور ويهيمن عليه. كل هذه تقنيات تتحول الى وشائج من التراث، تنتقل بالضرورة عن طريق المثل والخبرة. وهي تحدد حياة البشر مادامت الحياة، يوما بيوم، وعلى مرالأجيال، وكر القرون. وهي الغلاف المحيط بتاريخ البشر على مستوى الدنيا كلها .

والمجتمع عندما يزيد عدد أفراده، ويثقل بالمدن، وبما تعج به من المطالب الكثيرة المتعاظمة، وألوان التبادل السلعي الهائلة التي تشبه الفيضان، فإن اللغة تتعقد لكي تحل أنواع المشكلات التي تطرأ. وهذا يعني أن هذه التقنيات المتغلغلة العارمة تنشط، أولا وقبل كل شيء آخر، بذاتها ، وتتولد من ذاتها ، وتتحور بحركتها الذاتية. وإذا كانت الكمبيالة (بالفرنسية lettre de change، بالألمانية Wechsel، بالايطالية cambiale) التي عرفت منذ وقت طويل في عالم الإسلام المظفر في القرنين التاسع والعاشر، قد ولدت مرة ثانية في الغرب في القرن الثاني عشر، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن المال كان المفروض أن يتحرك الى مسافات بعيدة هائلة عبر البحر المتوسط كله، ومن خلال المدن الايطالية الى أسواق منطقة شامبانيا Champagne الفرنسية شمال شرق فرنسا. ظهرت الورقة الواجبة الدفع، ثم جاءت طريقة التظهير ، ونشأت البورصات، والبنوك، وطريقة الخصم، وإذا كانت هذه الوسائل قد ظهرت، الواحدة بعد الأخرى، فإنما يرجع السبب في ذلك الى أن نظام الأسواق الموسمية بما اتبعه من آجال التسديد البعيدة

المحددة بتواريخ ثابتة كان يفتقر إلى المرونة الكبيرة ، والحركة المتجددة السريعة، وهما أمران ضروريان، لا غنى عنهما لاقتصاد نفض عن نفسه غبار البطء، واندفع بسرعة متزايدة. وكانت هذه السرعة المتزايدة تمثل ضغطا اقتصاديا لم يظهر في شرق أوروبا إلا متأخرا. ولدينا شهادة ترجع الى عام ١٧٨٤، الى ذلك الوقت الذي كان فيه أهل مارسيليا يحاولون الدخول بتجارتهم الى شبه جزيرة القرم، فقد سجل واحد من تجار مارسيليا ملحوظة اعتمد فيها على ما رآه بعينيه: " العملة النقدية غير موجودة مطلقا في خرسون Cherson والقرم : لا يرى الإنسان هناك سوى قطع عملة نحاسية وورقية لاتدور دورتها، لأنهم لا يعرفون هنا نظام الخصم على الحساب والكمبيالات." فلم يكن الروس قد احتلوا القرم، وحصلوا من تركيا على فتح المضايق إلا منذ وقت قليل. ثم كان من الضروري الانتظار سنوات حتى يبدأ تصدير أصناف القمح الأوكراينية بانتظام عبر البحر الأسود. وحتى ذلك التاريخ من الذي كان يمكن أن يفكر في تنظيم طريقة الخصم والائتمان في خرسون؟

إن تقنيات المال، مثل كل التقنيات، تستجيب لطلب ملح عاجل مستمر، يتكرر على مدى طويل . وكلما كان البلد متطورا اقتصاديا، زاد من توسيع سلم وسائله النقدية وأدواته الائتمانية. والحقيقة أن المجتمعات المختلفة يتخذ كل منها في إطارالوحدة النقدية الدولية مكانه، بعض المجتمعات تحتل أماكن متميزة، وبعضها الأخر يأتي في المؤخرة، وبعضها يئن تحت وطأة المعاناة . المال هو وحدة العالم، والمال هو أيضا ظلم العالم.

والبشر أكثر وعيا مما يظن الإنسان بهذا التقسيم، تقسيم العالم فيما يتعلق بالنقود والائتمان - إلى مناطق متميزة ، ومناطق متأخرة، ومناطق معاناة. وبالنتائج التي تنجم عنه (لأن المال يخدم تقنيات المال، ويهرع إليها ، فحيث تتطور تقنيات المال يتوفرالمال، ويزيد الثراء). وهذا هو كاتب من القرن الثامن عشر اسمه فان أودر مويلين Van Ouder Meu-len يلاحظ في عام ١٧٧٨ أن الإنسان عندما يقرأ ما كتبه المؤلفون في زماننا " يميل إلى الاعتقاد بأن هناك أمما ستصبح بمرور الوقت دولا قوية الى أقصى مراتب القوة، وأخرى ستصبح فقيرة إلى أدنى مراتب الفقر "(١١٦) وقبل ذلك بقرن، ونصف قرن، في عام ١٦٢٠، كتب سيبيون دي جرامون Scipion de Gramont: " لقد قال حكماء الاغريق السبعة أن المال هو دم البشر، وروحهم، وأن من ليس لديه مال يسير ميتا بين الأحياء"(١١٧).

الباب الثامن

المدن

المدن مثل المحولات الكهربائية: تزيد الجهد ، وتدفع عمليات التبادل، وتؤثر على حياة البشر تأثيرا لا حدود له . أترى إلى المدن كيف نشأت نتيجة لأقدم صورة من صور تقسيم العمل، وأكثرها ثورية : التقسيم إلى شطرين ، شطر تحتله الحقول ، وما يتصل بها من أنشطة، وشطر آخر تحتله أنشطة وصفت بأنها حضرية أو من شأن المدن؟ "ولقد بدأ هذا التعارض بين المدينة والريف منذ أن بدأ الانتقال من الهمجية barbarie إلى الحضارة civilisation ، من نظام القبائل tribus إلى نظام الدولة Etat، من المحلية localié إلى الأمة nation ، ولقد ظل هذا التعارض قائما نلتقي به في كل عصر من عصور التاريخ إلى يومنا هذا." سطور كتبها كارل ماركس في شبابه.(١)

والمدينة يمكن وصفها بأنها منعطف ، أو قطع حدث في خط ممتد ، ويمكن وصفها بأنها قدر العالم . عندما ظهرت المدينة تحمل الكتابة على كتفيها فتحت الباب أمام ما نسميه "التاريخ" l'histoire. فلما ولدت المدينة ميلادها الجديد في أوروبا مع بزوغ نجم القرن الحادي عشر بدأت القارة الضيقة - أوروبا - مراحل صعودها . وكان ازدهار المدينة في ايطاليا يعني عصر النهضة Renaissance. هكذا كانت العلاقة بين المدن، والنهضة منذ أن خرجت المدن إلى الوجود ، المدن التي سميت بوليسات poleis في زمن الاغريق القدامى ، والمدن medinas في زمن الفتوح الإسلامية ، واستمرت الحال على هذا المنوال إلى يومنا هذا: كل لحظات النمو الكبار تعبر عن نفسها عن طريق انفجار حضري .

أما السؤال: هل المدن هي سبب النمو، وأصله؟ فسؤال لا فائدة من طرحه، تماما كالسؤال عن الرأسمالية: هل هي مسئولة عن الصعود الاقتصادي في القرن الثامن عشر، أو عن الثورة الصناعية la Révolution industriekke. العلاقة بين المدن والنمو تبادلية، نعم، هنا تلعب "تبادلية المنطلقات " الأثيرة على جورج جورفيتش Georges Gurvitch دورها كاملا، فالمدينة تخلق التوسع كما أن التوسع يخلق المدينة. ولكن الشيء المؤكد هو أن المدينة ، حتى إذا لم تصنع كل العناصر التي يتكون منها التوسع، فإنها تقود لعبة التوسع لصالحها، يضاف إلى هذا أن هذه اللعبة تتضح ملامحها في المدينة بشكل أقوى مما يتاح لها في أي مركز مراقبة آخر.

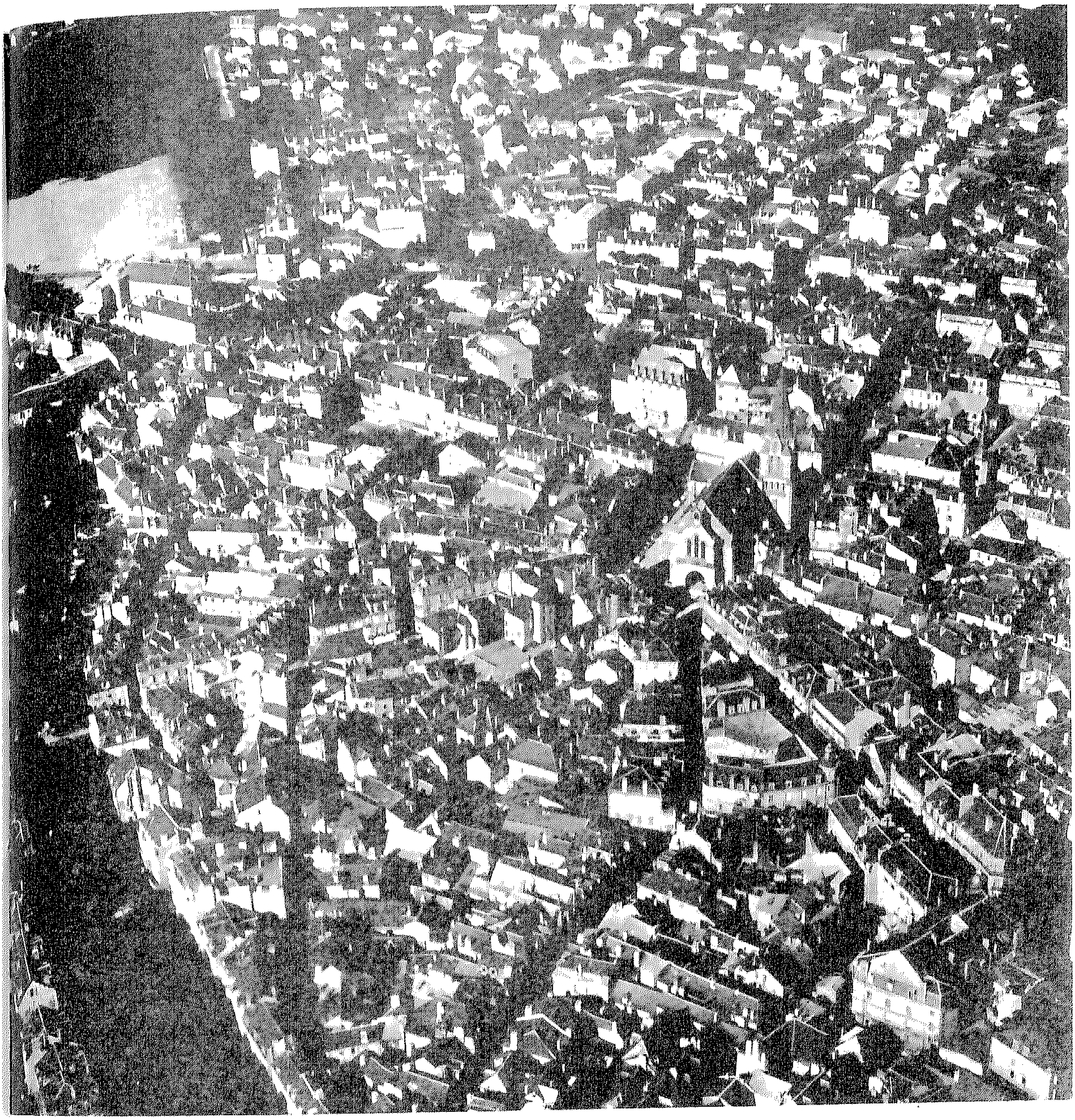

صورة لمدينة بريف Brive (من أعمال محافظة لاكوريز la Corréze الفرنسية) ملتقطة من الجو: وهي نموذج المدينة ذات الشوارع المتشابكة التي تعتبر جزءا من ميراث العصر الوسيط .

المدينــــة
في حد ذاتها

تفترض المدينة، أيا كان موقعها ، وجود عدد معين من الحقائق الواقعة، والعمليات المنتظمة انتظاما واضحا جليا. فليست هناك مثلا مدينة بغير تقسيم إجباري للعمل، وليس هناك تقسيم للعمل على درجة من التقدم لا يكون للمدينة دخل فيه . ليست هناك مدينة بدون سوق، وليست هناك أسواق إقليمية أو قومية بدون مدن . وكثيرا ما يتحدث الناس عن الدور الذي تلعبه المدينة في تطوير الاستهلاك ، وتنويعه ، ولكنهم نادرا ما يتحدثون عن واقعة بالغة الأهمية ، وهي أن أهل المدينة، حتى أكثرهم فقرا، لابد أن يسلكوا سبيل السوق لتدبير ما يحتاجونه من مواد تموينية، وأن المدينة، في نهاية المطاف، هي التى تضفي على السوق سمة العمومية . فخط السوق ـ وسأعود إلى الحديث عنه فيما بعد ـ هو الذي يقسم المجتمعات وأنماط الاقتصاد تقسيما جوهريا إلى شطرين ، فيدع بعضها إلى هذا الجانب ـ اقتصاد السوق ـ والبعض الآخر إلى الجانب المقابل. وليست هناك مدينة بدون سلطة ، سلطة تحمي وتقهر في وقت واحد ، ايا كان شكل هذه السلطة، وأيا كانت المجموعة الاجتماعية التي تجسمها. وإذا كانت السلطة موجودة خارج المدينة ، فإنها تكتسب من المدينة بعدا إضافيا ، ومجالا للعمل ذا طبيعة خاصة . كذلك ليس هناك انفتاح على العالم، وليس هناك تبادل بعيد بدون مدن .

كان هذا هو الاتجاه الذي أتيح لي، قبل عشرة أعوام، أن أتجهه (٢) عندما عبرت عن رأيي ، الذي اتمسك به اليوم ، برغم النقد الأنيق الذي وجهه إلي فيليب ابرامس Philip Abrams(٣)، كان رأيي هو أن " المدينة هي دائما المدينة "، أيا كان مكانها، وزمانها. وليس معنى هذا أن المدن كلها تتشابه ، ولكن معناه أن المدن كلها ـ فيما وراء السمات الخاصة المنوعة كل التنوع ، والأصيلة كل الأصالة ـ تتكلم بالضرورة نفس اللغة " الأساسية " ، ومن مقومات هذه اللغة : الحوار الذى لا ينقطع مع الريف ، من حيث هو الضرورة الأولى للحياة اليومية ؛ حاجة المدينة إلى التزود بالبشر ، باعتبارها حاجة لا غنى عنها كالماء بالنسبة للطاحونة المائية؛ اتخاذ المدينة طابعا خاصا بها، وحرصها على أن تتميز عن غيرها ؛ قيام المدن بالضرورة في قلب مركز شبكات مواصلات بعيدة المدى؛ الارتباط بالضواحي وبالمدن الأخرى . فليست هناك مدينة تظهر على وجه البسيطة دون صحبة من مدن أخرى . وقد تكون المدينة في وسط هذه الصحبة سيدة المدن، وقد تكون خادمة أو حتى جارية لها، والمدن تترابط على هذا النحو، يمسك بعضها بعضا، وتكون سلما هرميا متدرج القيمة، سواء في أوروبا أو في الصين أو في غيرهما ..

من الحد الأدنى للمدينة
إلى الوزن الكلي للمنظومة الحضرية

المدينة هي تجمع مركز غير مألوف من البشر، ومن البيوت المتقاربة ، المتلاصقة في أكثر الأحيان، التي يلتصق فيها الجدار بالجدار، المدينة هي شذوذ سكاني. وليس معنى هذا أن المدينة تكون دائما مزدحمة بالناس، أو أنها بحر متلاطم من البشر، كما وصف ابن بطوطة القاهرة ، معجبا بها ، وبالسقايين الذين بلغ عددهم اثني عشر ألفا سقاء، وآلاف من الجمالة ، كانوا يعرضون مطاياهم لقاء أجر(٤) .فهناك مدن بدأت لتوها، يقل عدد سكانها عن بعض الكفور؛ وهناك بعض القرى الهائلة في روسيا ، في الماضي أو في الحاضر، تزدحم بالسكان وما هي بمدن ، ومن قبيلها تلك المدن الريفية الموجودة في الجنوب الايطالي المسمي بالميتسوجورنو Mezzogiorno أو الموجودة في الجنوب الأندلسي، أو تلك التجمعات من النجوع التي يضمها نسيج مخلخل في جاوة Java، والتي توصف بأنها " جزيرة من القرى لا تزال قائمة حتى يومنا هذا". ولكن هذه القرى المنتفخة، أو هذه القرى التي تلاصقت بعضها في البعض الآخر، ليست بالضرورة مهيأة لكي تصبح مدنا .

فليس عدد البشر هو وحده العامل المؤثر الفارق الذي يجعل من المدينة مدينة. المدينة لا تخرج إلى الوجود كمدينة إلا في مواجهة حياة تكون أقل مستوى من مستواها، وهذه قاعدة لا تعرف استثناء ، وليس لها بديل، وليس هناك من الامتيازات ما يمكن الالتجاء اليه ليخل بهذد القاعدة ، أو يقوم مقامها . فليست هناك مدينة كبيرة ، ولا مدينة صغيرة، لا تكون لها قراها ، وشريطها الريفي الملاصق ، ولا تفرض على" المنطقة الريفية المنبسطة " نظم سوقها ، وعادات دكاكينها، واستخدام موازينها، ومقاييسها، ودیانیها الذين يقرضون المال، ورجال القانون بها ، بل ووسائل لهوها . إن المدينة تحتاج، لكي تبقى، إلى أن تهيمن على امبراطورية، حتى لو كانت هذه الامبراطورية متناهية الصغر.

كانت مدينة فارزي Varzy الفرنسية ، التي تقع حاليا في محافظة نييفر Ni`evre، تعد في القرن الثامن عشر ألفى نسمة أو ما يقرب من ألفين ، ولكنها كانت مدينة تماما بطبقتها البورجوازية : كان رجال القانون فيها كثيرين، حتى أن الإنسان ليتساءل عن الأعمال التي كان يمكنهم أن يمارسوها، حتي في وسط شعب من الفلاحين الأميين كان بطبيعة الحال يلجأ إلى قلم الآخرين ؛ ولكن رجال القانون هؤلاء كانوا في نفس الوقت من أصحاب الأملاك ، وكان من بين أهل المدن ـ البورجوازيين ـ من يمتلكون ورش حدادة، وورش دباغة ، وكان منهم تجار أخشاب ، وكان تجار الأخشاب يتربحون من عمليات نقل

الخشب المقطوع من الغابات ، المنقول على صفحات الأنهار ، وربما أفادوا من عمليات تزويد باريس الهائلة بما تحتاج اليه من وقود ، وكان منهم من امتلكوا محتطبات لقطع الخشب في منطقة البارو Barrois البعيدة(٥) المتاخمة لألمانيا. هذه المدينة التى يمكن اعتبارها صورة نمطية للمدينة الصغيرة في الغرب ، تتكرر آلاف المرات .

ولابد ، لكي تكون الأمور واضحة، أن يكون لدينا حد أدنى واضح، غير قابل للجدل ، يبين الخط الأدنى الذي تبدأ منه المدينة أوالحياة الحضرية . ولكن هذه نقطة لم، وربما لن تتفق حولها الآراء ، يضاف إلى هذا أن مثل هذا الحد الأدنى يتغير بالزمن. وإذا رجعنا إلى الاحصائيات الفرنسية ، وجدناها تعتبر المدينة تجمعا قوامه على الأقل ألفا نسمة ، كان هذا هو مقياسها في الماضي (ولا يزال هذا المقياس قائما إلى اليوم) . وكان هذا هو حجم مدينة فارزي حول عام ١٧٠٠ . أما الاحصائيات الانجليزية فتضع رقم ٥٠٠٠ نسمة مقياسا للحد الأدنى للمدينة. كان سكان المدن ، في عام ١٨٠١ ، يمثلون ٢٥ ٪ من الشعب الانجليزي ، بالمعايير الانجليزية (٦) قياسا على حد الـ ٥٠٠٠ نسمة ، أما إذا أخذنا بالمعاييرالفرنسية ، والحد الأدنى المقدر بـ ٢٠٠٠ نسمة ، فإن نسبة سكان المدن إلى مجموع السكان ترتفع إلى ٤٠ ٪ .

وهذا هو ريشار جاسكون Richard Gascon يفكر في الأمر في نطاق القرن السادس عشر، ويجري حساباته حسب تصوره الخاص ، فيذهب إلى أن " مجموعة من الدور قوامها ٦٠٠ دار بكل منها نارها الخاصة بها (وهو ما يساوي على وجه التقريب ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ نسمة) تعتبر حدا أدنى مقبولا جدا "(٧). والرأي عندي أن ريشار جاسكون بالغ في الارتفاع بالحد الأدني بالنسبة للقرن السادس عشر على الأقل (ولعله تأثر في ذلك بالضخامة النسبية للمدن المحيطة بمدينة ليون). فإذا انتقلنا إلى ألمانيا في مجموعها في نهاية العصر الوسيط ، وجدنا أن نحو ٣٠٠٠ تجمع سكني حصل على حق المدينة . وكان عدد سكان المدينة في المتوسط ٤٠٠ نسمة (٨). هذا الحد الأدنى ، الذي كانوا يأخذون به في ألمانيا آنذاك ، يقع تحت مستوى مدينة فارزي بكثير ، ويقع بلا شك تحت مستوى الغرب كله (والاستثناءات تؤكد القاعدة). من هذه الاستثناءات ما نراه في منطقة شامبانيا في فرنسا، فهذه أرسيسيرؤب Arcis-sur-Aube التي كانت تضم مخازن للملح ومقر كبير الشمامسة، والتي صرح لها الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٤٦ بأن تحيط نفسها بالتحصينات كالمدن، لم يكن بها سوى ٢٢٨ دارا، لكل منها نارها الخاصة بها في مطلع القرن الثامن عشر (وهو ما يساوي ٩٠٠ نسمة)؛ ونذكر كذلك شاؤرس Chaource التي كان بها مستشفى وكلية ولم تكن تضم في عام ١٧٢٠ سوى ٢٢٧ دارا، لكل منها نارها الخاصة؛ اروا Eroy ٢٦٥ دارا؛ فانديفرسيربارس Vendeuvre-sur-Barse ٣١٦ دارا ؛ بونسيرسين Pont-sur-Seine ١٨٨ دارا (٩) ...

وينبغي على تاريخ المدن أن يمد مجال بحوثه لتصل إلى هذه الحدود الدنيا التي يبدأ عندها كيان المدن الصغيرة ، لأن المدن الصغيرة ، كما يلاحظ أوسفالد شبينجلر Oswald Spengler(١٠) ، لها علاقة معينة بالمناطق الريفية المحيطة بها ، إذ هي تنتهي، على حد قوله ، " بقهر " ربوعها الريفية القريبة ، وهي تبث فيها " وعيها الحضري " في نفس الوقت الذي تتعرض فيه هذه المدن الصغيرة لتأثير المدن الأكبر أو التجمعات السكانية الأكثر سكانا والأوفر نشاطا التي تفترسها وتخضعها فيه لسيطرتها. فالمدن تأتلف في منظومات حضرية عبارة عن مجموعة أو كوكبة من المدن تدور بصفة عامة في فلك مدينة متألقة كالشمس : البندقية أو فلورنسا أو نورنبرج أو ليون أو أمستردام أو لندن أو دلهي أو نانكين أو أوزاكا ... والمدن في كل مكان من العالم تدخل في نظام هرمي تترتب فيه درجة فوق درجة صعودا إلى القمة، ولا يمكن أن تلخص المدينة القابعة فوق القمة كل شيء يتعلق بالمدن المكونة للنظام الهرمي، مهما كانت من الأهمية . في الصين يكشف النظام الهرمي عن ملامحه الترتيبية في كلمة تضاف إلى اسم المدينة (فو fou مدينة من المرتبة الأولي ؛ تشيئو tcheou مدينة من المرتبة الثانية ؛ هيين hien مدينة من المرتبة الثالثة) ، ولا تدخل في هذا الحساب المدن الناشئة التى أقيمت على مستوى أكثرانخفاضا في الأقاليم الفقيرة " بهدف استيعاب الشعوب النصف همجية التي كانت ترزح تحت نيرالسلطة وتضيق به " (١١). ولكننا في هذه الربوع الأسيوية لا نتبين إلا بصعوبة بالغة الحد الأدني لعدد السكان الذى تبدأ به المدن الصغيرة الناشئة ، تلك التي تحوطها دوائر من القرى الباهرة ، سواء في الصين أو في غيرها من بلدان الشرق الأقصي. ونعود إلى الطبيب الألماني الذى اجتاز في عام ١٦٩٠ مدينة صغيرة على طريق ييدو Yedo(طوكيو) لنجده قد عد فيها ٥٠٠ بيت (وهو ما يعني ٢٠٠٠ نسمة على الأقل) بما في ذلك الضواحي(١٢). وهذه المعلومة الاضافية الأخيرة الخاصة بالضواحي تكفي وحدها لبيان أنها فعلا كانت مدينة . ولكن مثل هذه الملحوظات التي أوردها الطبيب الألماني نادرة.

والمهم على أية حال أن نستطيع تقييم كتلة الكلية لمجموعات أو لمنظومات المدن ما فيها من مدن مختلفة الدرجات ، وتقييم الوزن الكلي، حتى نتبين الحد الأدنى فيها ونتبين الفاصل بين المدن والربوع الريفية، وسنهتم بالأرقام الكلية أكثر من الأرقام الخصوصية : فنضع في كفة من كفتي الميزان كل المدن، ونضع في الكفة الأخرى مجموع سكان الامبراطورية أو الأمة أو المنطقة الاقتصادية ، ثم نحسب العلاقة بين الوزنين، وهذه طريقة أكيدة للتوصل إلى بنيات اقتصادية واجتماعية معينة داخل الوحدة التي نخضعها لملاحظتنا .

أو ستكون على الأقل طريقة نطمئن إليها إلى حد ما إذا ما تبين لنا أنه من السهل

التوصل الى مثل هذه النسب المئوية المرضية . والنسب التي يقدمها كتاب يوزف كوليشر Josef Kulischer (١٣) تبدو لنا عالية ومتفائلة أكثر مما ينبغي إذا ما قارناها بالتقديرات الحالية. ولسنا نتكلم عن رأي كانتيون Cantillon (ولد في عام ١٦٨٠ ـ ومات مقتولا في عام ١٧٣٣أو ١٧٣٤) الذي يؤكد واثقا مطمئنا : " إننا نفترض بصفة عامة أن نصف سكان الدولة يعيشون ويتخذون مساكنهم في المدن والنصف الآخر في الريف"(١٤) . فإذا نظرنا إلى فرنسا في وقت كانتيون في شيء من التدقيق وجدنا أن الحساب الحديث الذي أجراه مارسل راينهارت Marcel Reinhardt يصل إلى أن سكان المدن كانوا يمثلون ١٦ ٪ من مجموع السكان .ثم إن الموضوع برمته رهن بتقدير الحد الأدني لعدد السكان لأصغر مدينة ، لأن هذا الحد الأدني عندما يتغير يغير النسب كلها . فإذا أطلقنا اسم المدينة على التجمعات التي يزيد عدد سكانها على ٤٠٠ نسمة فإن انجلترة في عام ١٥٠٠ تكون حضرية بنسبة ١٠٪ و بنسبة ٢٥٪ في عام ١٧٠٠ . ولكن إذا حددنا الحد الأدنى بـ ٥٠٠٠ نسمة فستتغير النسبة إلى ١٣٪ في عام ١٧٠٠ ، وتكون ١٦ ٪ في عام ١٧٥٠ و٢٥ ٪ في عام ١٨٠١ . من الواضح أنه ينبغي علينا أن نعيْد الحسابات كلها ونوحدها انطلاقا من مقياس واحد حتى نتمكن من مقارنة سليمة لمختلف نسب أو درجات الحضرية أو نسبة المدن في المناطق المختلفة بأوروبا . وأكثر ما نستطيع التوصل إليه في اللحظة الراهنة هو تحديد بعض المستويات العالية أو المنخفضة على نحو خاص. ·

إلى أسفل ترتيب نسب سكان المدن إلى المجموع الكلي للسكان نجد أكثر الأرقام تواضعا في أوروبا ، وهي تخص روسيا (٢,٥٪ في عام ١٦٣٠ ؛ ٣٪ في عام ١٧٢٤ ؛ ٤٪ في عام ١٧٩٦ ٪ ؛ ١٣٪ في عام ١٨٩٧) (١٥). ومن هنا فإن مستوى الـ ١٠٪ في ألمانيا عام ١٥٠٠ لا يكون بدون دلالة اذا ما قورن بالأرقام الروسية . وهذا هو المستوى الذي كان قائما في أمريكا الانجليزية في عام ١٧٠٠، حيث كان عدد سكان مدينة بوسطن ٧٠٠٠ نسمة، وفيلادلفيا ٤٠٠٠ نسمة ، ونيوبورت ٢٦٠٠ نسمة ، وتشارلستاون ١١٠٠ نسمة ، ونيويورك ٣٩٠٠ نسمة . على الرغم من أن نيويورك منذ عام ١٦٤٢ ـ وكانت في ذلك الوقت تحمل اسم نيو امستردام Nieuwe Amsterdam نظرا لتبعيتها لهولندة ـ كانت قد استخدمت الطوب الهولندي " بالطريقة العصرية " بدلا من الخشب ، وكانت تلك سمة واضحة من سمات الغنى . فمن هذا الذي لا يقر بالصفة الحضرية لهذه المراكز السكانية البسيطة ، ولا يسلكها في سلك المدن ؟ لقد كانت في عام ١٦٩٠ تمثل الانتفاضة الحضرية التي سمح به تعداد سكاني كلي يزيد قليلا على ٢٠٠٠٠٠ نسمة مبعثرين في مناكب مساحة شاسعة، أي أن نسبة سكان المدن كانت ٩٪ من العدد الكلي للسكان .فإذا نظرنا إلى اليابان حول

عام ١٧٥٠ وجدنا أن سكان اليابان بكثافتهم المعتبرة كثافة عالية (٢٦ مليون نسمة) كانوا حضريين بنسبة ٢٢٪(١٦).

أما الدرجات العالية من السلم الهرمي الذي تترتب فيه نسب سكان المدن إلى العدد الكلي للسكان ، ونقصد بها الدرجات فوق حد الـ ٥٠ ٪، فنجد عند الحد الفاصل هولندة ، حيث يعتبر خط الـ ٥٠ ٪ أكثر من محتمل (١٤٠١٨٠ نسمة من الحضريين في عام ١٥١٥ من مجموع سكان قدرهم ٢٧٤٨١٠ ، أي بنسبة ٥١ ٪ ؛ في عام ١٦٢٧ كانت النسبة ٥٩ ٪ ؛ وفي عام ١٧٩٥ كانت النسبة ٦٥ ٪) ، ونأخذ من تعداد عام ١٧٩٥ نفسه أن محافظة أوفرئيسيل Overijssel التي لم تكن بكل تأكيد في طليعة التوسع الحضري وصلت الى نسبة ٤٥,٦ ٪ (١٧).

ولكي نفسر هذا السلم المتدرج من الأرقام فإننا بحاجة إلى تحديد النقطة التي يمكن عندها القول أن النمو الحضري وصل الى أول درجة من درجات الفعالية (ربما عند حد الـ ١٠ ٪ ؟) . ثم أليست هناك بعد ذلك عتبة أخرى لها دلالة تقع حول نسبة ٥٠ ٪ أو ٤٠ ٪ أو ربما أقل من هذه وتلك ؟ هل هي ، يا ترى ، عتبات من النوع الذي يتحدث عنه فاجيمان Wagemann والتي يتجه كل شيىء إلى التحول عندما يصل إليها ؟

العمل يحتاج دائما إلى المراجعة

المشكلة الجوهرية التي نلاحظها منذ نشأة المدن ، والتي نظل نلاحظها على مدى حياتها، سواء في أوروبا أو في غير أوروبا ، مشكلة واحدةتظل هي : إنها مشكلة تقسيم العمل بين المناطق الريفية وبين المراكز الحضرية، ذلك التقسيم الذي لم يكن من سبيل إلى تحديد ه تحديدا يبلغ به الكمال، والذي كان من الضروري العودة إلى ترتيبه من جديد المرة تلو المرة . فالمدينة، من ناحية المبدأ، تستأثر بالتجار، ووظائف القيادة السياسية والدينية والاقتصادية والأنشطة الحرفية. ولكن هذا التقسيم لا يقوم إلا من ناحية المبدأ فقط، فهو يتعرض للتعديل دواما، في هذا الاتجاه تارة ، وفي ذاك الاتجاه تارة أخرى .

ولا ينبغي أن نصدق أن هذا النوع من الصراع الطبقي ـ الصراع بين الريف والمدينة حول تقسيم العمل ـ يتم حله حلا عمليا لصالح المدينة على اعتبار أنها الطرف الأقوى. كذلك لا ينبغي أن نصدق أن الريف، كما يردد الناس عادة ، قد وجد قبل المدينة، وأنه سبقها بالضرورة في توالي الزمن. وليس من شك في أنه كثيرا ما يحدث أن يسبق نشوء البيئة الريفية نشوء المدينة ، وأن تكتسب البيئة الريفية أسبقية على أساس ما يتحقق فيها من تقدم الإنتاج ، وتكون هذه الأسبقية هي الأساس الذي ينبني عليه حصول المدينة " على تصريح وجودها كمدينة "(١٨) .ولكن المدينة ليست دائما النتاج الثاني

الذي يلي الريف . وتؤكد جين ياكوبس Jane Jacobs في كتابها الجذاب أن المدينة ظهرت إما في نفس الوقت الذي ظهر فيه سكان الريف ، أو قبلهم . هكذا ظهرت في الألف السادسة قبل الميلاد مدينة أريحا ، ومدينة شاتال يويوك Chatal Yuyuk الواقعة في آسيا الصغرى، وهما مدينتان صنعتا من حولهما ربوعا ريفية يمكن أن نصفها بأنها عصرية .كانت المدينة في هذه الحالات هي التي صنعت الريف . وكان هذا يحدث بلا شك عندما تكون الأرض المتاحة أرضا خالية، حرة ، طليقة يمكن أن تنشأ الحقول في أي مكان فيها تقريبا. وقد شهدنا هذه الحالة في أوروبا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر . بل إننا شهدناها على مقربة منا واضحة جلية في العالم الجديد حيث قامت أوروبا ببناء صور مكررة من مدنها ، وكأنها ألقت بها بالمظلات في الخلاء ، ثم أنشا السكان، اما وحدهم ، أو متضافرين مع أهل البلاد الأصليين ، المساحات الريفية اللازمة لإطعام هذه المدن . وحدث في حالة مدينة بوينوس أيريس ، التي أنشئت في عام ١٥٨٠ ، أن وقف أهل البلاد الأصليين منها موقف العداء ، أو لم يكونوا بنشاطهم الريفي موجودين في المنطقة آنذاك (وهو شيء له نفس الأثر الخطير) مما اضطر سكان المدينة إلى إنتاج خبزهم بأنفسهم ، بعرق جبينهم ، وكانوا يشكون من ذلك أي شكوى . وخلاصة القول أنهم اضطروا إلى خلق ريفهم الملائم لهم ، القادر على الوفاء باحتياجات مدينتهم . وهناك عملية كبيرة الشبه يصفها موريس ديركبيك Morris Dirkbeck في حديثه عن الينوى حول عام ١٨١٨ في معرض الزحف الأمريكي إلى الغرب، يقول: " في تلك المناطق التي اشترى فيها بعض المستعمرين ، بعضهم بجوار البعض الآخر، من سلطات الحكومة أراض لاستصلاحها ، كان صاحب الأرض الذي يتنبأ بحاجات البلد وتطوراته في المستقبل ، ويتصور أن مكانه يصلح ليكون موقع مدينة جديدة يقسم أرضه (الأرض التي حصل على امتيازها) إلى قطع صغيرة تفصل بينها شوارع مرسومة على نحو مريح ، ويبيعها كلما سنحت فرصة مواتية. وهذه هي المساكن تقام عليها . وهذا تاجر من تجار كل شيء ،ممن يسمونهم magasinier، يأتي ومعه بعض الصناديق المملوءة بالبضائع ويفتح دكانا لبيع تشكيلة من كل شيء. ثم ينشأ فندق به حانة إلى جواره ، يقيم فيه طبيب ورجل من رجال القانون يتولى مهمة مأمور الشهر، ووكيل الأعمال . ويختلف تاجر كل شيء إلى هذا الفندق ذي الحانة ، فيتناول فيه وجباته، ويلقى القادمين الذين ينزلون فيه. وسرعان ما يأتي حداد وحرفيون آخرون عندما تظهر حاجة إليهم . فيأتي مدرس يقوم بمهام القسيس لكل الطوائف المسيحية ،ويصبح عضوا لا يد منه في المجتمع الناشيء .[...] في هذه المنطقة التي لم تكن العين ترى فيها إلا بشرا يلبسون جلود الحيوان، يظهر أناس يذهبون إلى الكنيسة لابسين ثيابا جميلة زرقاء ؛ وتظهر النساء لابسات فساتين من القطن، وعلى رؤوسهن قبعات من

القش [...] وما تنشأ المدينة حتى تنتشرالزراعة انتشارا سريعا ومتنوعا في المناطق المحيطة . وسرعان ما تتوفر البضائع ، وتفيض عن الحاجة" (٢٠). ألم يحدث نفس الشيء في سيبريا التي كانت بمثابة عالم جديد ثان ؟ ففي عام ١٦٥٢ نشأت مدينة اركوتسك Irkoutsk قبل المناطق الريفية المحيطة التي تتولى إطعامها.

كل هذا يحدث تلقائيا . الأرياف والمدن تخضع لقاعدة " تبادلية المنطلقات " : أنا أنشئك وأنت تنتشئني ، أنا أسيطر عليك وأنت تسيطر علي، أنا أستغلك وأنت تستغلني ، وهكذا طبقا للقواعد الأبدية للتعايش. والأرياف تكون دائما على مقربة من المدن، حتى في الصين. ولنا أن نسأل في هذا المقام : ألا يؤدي هذا الجوار إلى ارتفاع قيمة هذه الأرياف ؟ في عام ١٦٤٥ ، عندما بدأت مدينة برلين تنتعش من جديد، قال وزيرها، وكانوا يسمون الوزير آنذاك بالألمانية der Geheime Rat : " السبب الجوهري الذي يرجع إليه انخفاض سعر الحبوب انخفاضا شديدا اليوم هو أن كل المدن تقريبا، إلا القليل منها ، قد حل بها الخراب ، ولم تعد بها حاجة إلى قمح الريف ، بل كانت تغطي احتياجات سكانها القليلين من إنتاج أراضيها." ولكن ، أليست أراضيها هذه الحضرية التي زرعتها ، هي ريف أنشأته المدينة نشأى أخرى إبان السنوات الأخيرة من حرب الثلاثين سنة؟ (٢١).

ومن الممكن أن تنقلب الآية ، أو تنقلب الساعة الرملية ـ كما يقولون ـ فإذا المدن تمدن الأرياف، وإذا الأرياف تريف المدن. وهذا هو ريشار جاسكون يكتب: "منذ نهاية القرن السادس عشر أصبح الريف هو الهوة التي أخذت رؤوس أموال المدينة تغرق فيها"(٢٢) على الأقل في عمليات شراء الأراضي بهدف إنشاء ضياع زراعية أو منازل ريفية لا يحصيها العد. في القرن السابع عشر هجرت البندقية أرباح البحر ووجهت ثرواتها إلى أريافها. وكل مدن العالم عرفت ذات يوم تحولات من هذا النوع، يصدق هذا على لندن، وليون ، وميلانو ، كما يصدق على لايبتسيج ، والجزائر ، واستانبول.

والحق أن المدن والأرياف لا تنفصل بعضها عن البعض الآخر انفصال الماء عن الزيت، فلحظة الانفصال تشهد في الوقت نفسه الاقتراب، ولحظة التقسيم تشهد التجمع. كذلك، في مدن العالم الإسلامي، لم تستبعد المدينة الريف على الرغم من القطع الذي باعد بينهما. فالمدينة تجمع حواليها الأنشطة الزراعية؛ وإننا لنرى من القنوات ما يمتد على طول الشوارع الحضرية ثم ينفذ من هناك إلى الحدائق القريبة التي يمكن تشبيهها بالواحات. والائتلاف نفسه معروف في الصين حيث يستمد الريف سماده من نفايات المدينة وقمامتها .

ولكن ما جدوى إقامة الشواهد على شيء بديهي؟ كانت كل مدينة إلى وقت قريب تحرص على أن تزرع طعامها على أبوابها. ولقد قدر مؤرخ اقتصادي، ممن ألفوا

المدينة تحتاج الى ريف قريب منها . مشهد من مشاهد السوق رسمه جان ميشلان Jean Michelin (١٦٢٣ ـ ١٦٩٦) : الباعة هنا فلاحون أتوا إلى السوق يحملون منتجاتهم .

العمليات الحسابية ، أنه منذ القرن الحادي عشر كان كل مركز يعيش فيه ٣٠٠٠ من السكان يحرص على أن تكون له نحو عشر مناطق قروية تبلغ مساحتها تقريبا نحو ٨,٥ كم مربع نظرا " لضعف الناتج الزراعي "(٢٣). والحقيقة أن الريف ينبغي عليه أن يحمل المدينة إذا لم يكن على المدينة أن تخشى في كل لحظة على وجودها ، فالتجارة الكبيرة لا يمكنها أن تطعمها إلا استثناء ، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا لبعض المدن المتميزة فقط : فلورنسا وبروجه والبندقية ونابلي وروما وجنوا وبكين واستانبول ودلهي ومكة ..

ثم إن المدن الكبيرة نفسها كانت حتى القرن الثامن عشر مستمسكة ببعض الأنشطة الريفية ، فكانت تأوي رعاة الماشية ، وغفر الحقول ، والمزارعين ، وزراع الكروم (حتى باريس نفسها كانت تفعل ذلك) ؛ بل كانت المدن تمتلك في داخل وفي خارج أسوارها حزاما من الحدائق وبساتين الكروم ، ومن ورائها حقولا ربما أدخلتها في نظام الدورة الزراعية الثلاثية كما كانت الحال في مدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين، ومدينة فورمس Worms، ومدينة بازل ، ومدينة ميونيخ . وفي العصر الوسيط كان صوت مدقات القمح يصل إلى أسماع الناس في مدن أولم Ulm، وأوجسبورج Augsburg، ونورنبرج بألمانيا حتى على مقربة من دار البلدية المسماة الراتهاوس Rathaus ، وكان الناس في المدن يربون الخنازير ، ويتركونها طليقة تمرح في الشوارع ، وكانت الشوارع تمتلىء بالوسخ والوحل حتى أن الناس لم تكن تستطيع اجتيازها إلا على قباقيب عالية مركبة على عكاكيز ، أو من فوق جسور خشبية يمدونها من جانب إلى الجانب الآخر . وكان الناس في فرنكفورت عشية إقامة الأسواق يسرعون بفرش الشوارع الرئيسية بالقش أو نشارة الخشب (٢٤). ولنا أن نتساءل، بناء على ما لدينا من معلومات ، هل كان الناس في البندقية ، في عام ١٧٤٦ ، لا يزالون يعتقدون أن هناك ضرورة إصدار قرار بحظر تربية الخنازير " في المدينة وفي الأديرة " (٢٥) ؟

أما المدن الصغيرة ، التي لا يحصيها العد ، فإنها لا تكاد تظهر فوق سطح الحياة الريفية حتى أن الناس كانت تسميها " المدن الريفية ". في منطقة شفابيا السفلى بألمانيا المنتجة للنبيذ كانت المد ن الصغيرة مثل فاينسبرج Weinsberg وهايلبرون Heilbronn وشتوتجارت Stuttgart وايسلينجن Esslingen تتحمل على أية حال بمهمة من المهام الريفية وهي نقل النبيذ الذي تنتجه إلى نهر الدانوب (٢٦)، هذا إلى أن النبيذ نفسه الذي تنتجه بساتين الكروم - وهي أصلا بساتين ريفية - يعتبر صناعة في حد ذاته ويتصل هكذا بنشاط المدينة . وهذه هي المدينة الأسبانية خيريث دي لا فرونتيرا Jerez de la Frontera القريبة من مدينة اشبيلية ترد على استجواب في عام ١٥٨٢ قائلة "إن المدينة ليس لديها إلا منتجاتها من النبيذ والقمح والزيت واللحوم" وهي تكفي

لقوتها ولتنشيط حركةالمعاملات وأعمال الحرفيين فيها (٢٧). وعندما انقض القراصنة الجزائريون على جبل طارق في عام ١٥٤٠ ، حققوا عنصر المباغتة لأنهم كانوا على علم بعادات المنطقة ، فاختاروا وقت جني محصول العنب ، لأنه الوقت الذي يكون فيه سكان المدينة كلهم خارج أسوار المدينة ينامون في بساتين كرومهم (٢٨) . كانت المدن في أوروبا كلها تسهر باهتمام فائق على حقولها وبساتين كرومها ، وكانت مئات ومئات من المدائن - مثل روتنبرج Rothenburg في منطقة بافاريا Bayern في ألمانيا، وبارليدوك Bar-le-Duc في فرنسا - تنفخ في الأبواق معلنة افتتاح موسم جني العنب عندما " تصطبغ أوراق الكروم بتلك الصفرة التي تنطق بالنضج ". وكانت فلورنسا نفسها تغرق في كل خريف تحت آلاف من براميل النبيذ وتتحول إلى سوق ضخمة للنبيذ الجديد.

لم يكن أهل المدن ، في ذلك الزمان ، أهل مدن إلا نصفا في أغلب الأحوال . فإذا جاء وقت الجني ترك الحرفيون وأرباب الهمة من أهل المدينة حرفهم وبيوتهم وذهبوا للعمل في الحقول . هكذا كانت الحال في فلاندريا التي كانت تعج بالنشاط وتفيض بالسكان في القرن السادس عشر . وهكذا كانت الحال في انجلترة عشية الثورة الصناعية ، وفي فلورنسا التي لم تكن حرفة أو فنون تشغيل الصوف الهامة في القرن السادس عشر تنشط فيها إلا في فصل الشـــتاء خاصة(٢٩). وهذا هو جان بوسو Jean Pussot وهو معلم نجار من أهل مدينة ريمس Reims لا يهتم بأحداث الحياة السياسية أو الحرفية فيما سجله في يومياته بل يهتم بجني العنب والحصاد وجودة النبيذ وسعر القمح والخبز. وفي الوقت الذي اشتعلت فيه نار حروبنا الدينية لم يكن أهل مدينة ريمس Reims ومدينة ايبرني Epernay يذهبون مذهبا دينيا واحدا ، ولم يكن أشياع هذا المذهب أو ذلك يخرجون إلى جني العنب إلا في حراسة جيدة . ولكن نجارنا يسجل أن " لصوص مدينة ايبرني سرقوا قطيع خنازير المدينة [مدينة ريمس]... وساقوه إلى مدينة ايبرني المذكورة يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ من شهر مارس عام ١٥٩٣"(٣٠). وليس المهم هنا أن نعرف فقط من الذي سينتصر في هذه الحروب الدينية من أعضاء الحلف الكاثوليكي أو أتباع أمير بيارن أو البيارني Béarnais وهو ذلك الأمير الذي سيصبح فيما بعد الملك هنري الرابع ، بل من المهم أيضا أن نعرف الإجابة عن السؤال: من الذي يقوم بتمليح اللحوم ومن الذي يأكلها؟ وفي عام ١٧٢٢ لم تكن الأحوال قد تغيرت في كثير أو قليل ، فهناك دراسة اقتصادية تشكو من أن العمال الحرفيين في المدن الصغيرة بألمانيا ، بل في المدن التي تقوم فيها قصور الأمراء ، يدسون أنوفهم في الزراعة ويشتغلون بها بدلا من الفلاحين . والأفضل أن " يلزم كل واحد دائرة اختصاصه"، والمدن إذا تخلصت مما يربيه فيها أهلها من ماشية ومما يكومونه من " أكوام

سماد كبيرة " ستكون أكثر نظافة وأكثر صحية . والحل المقترح هو " نفي الزراعة خارج المدن [...] ووضعها بين أيدي أولئك الذين هم أربابها"(٣١). وسيتيح هذا الحل لأصحاب الحرف من أهل المدينة فرصا للبيع للريفيين ، مساوية لتلك التي ستتاح للريفيين ليبيعوا إلى أهل المدينة مطمئنين ، وعلى نحو منتظم . وسيحقق كل جانب نفعا .

وإذا لم تكن المدينة قد تخلت كلية عن احتكار الزراعة ، وتربية الماشية، فإن الريف، من ناحيته ، لم يتخل عن كل أنشطته " الصناعية " لصالح المدن القريبة منه، بل احتفظ بنصيبه منها، على الرغم من أن هذا النصيب كان بصفة عامة ذلك الذي تتركه المدينة للريف عن طيب خاطر . وهكذا فإن القرى لم تفرغ قط من الحرفيين، فعجلات العربات كان صانع العربات يصنعها في القرية، في الموقع الذي ستستخدم فيه ، وكان إذا أصابها شيء أصلحها هناك أيضا، وكان الحداد يطوقها على الساخن بطوقها الحديدي (وكانت تقنية تطويق العجلة بطوق حديدي على الساخن تقنية انتشرت في نهاية القرن السادس عشر)، وكان لكل قرية بيطارها ، وقد ظل منظرالبيطار في القرية في فرنسا منظرا مألوفا حتى مطلع القرن العشرين . بل لقد حدث في فلاندريا ، وفي غيرها ـ حيث

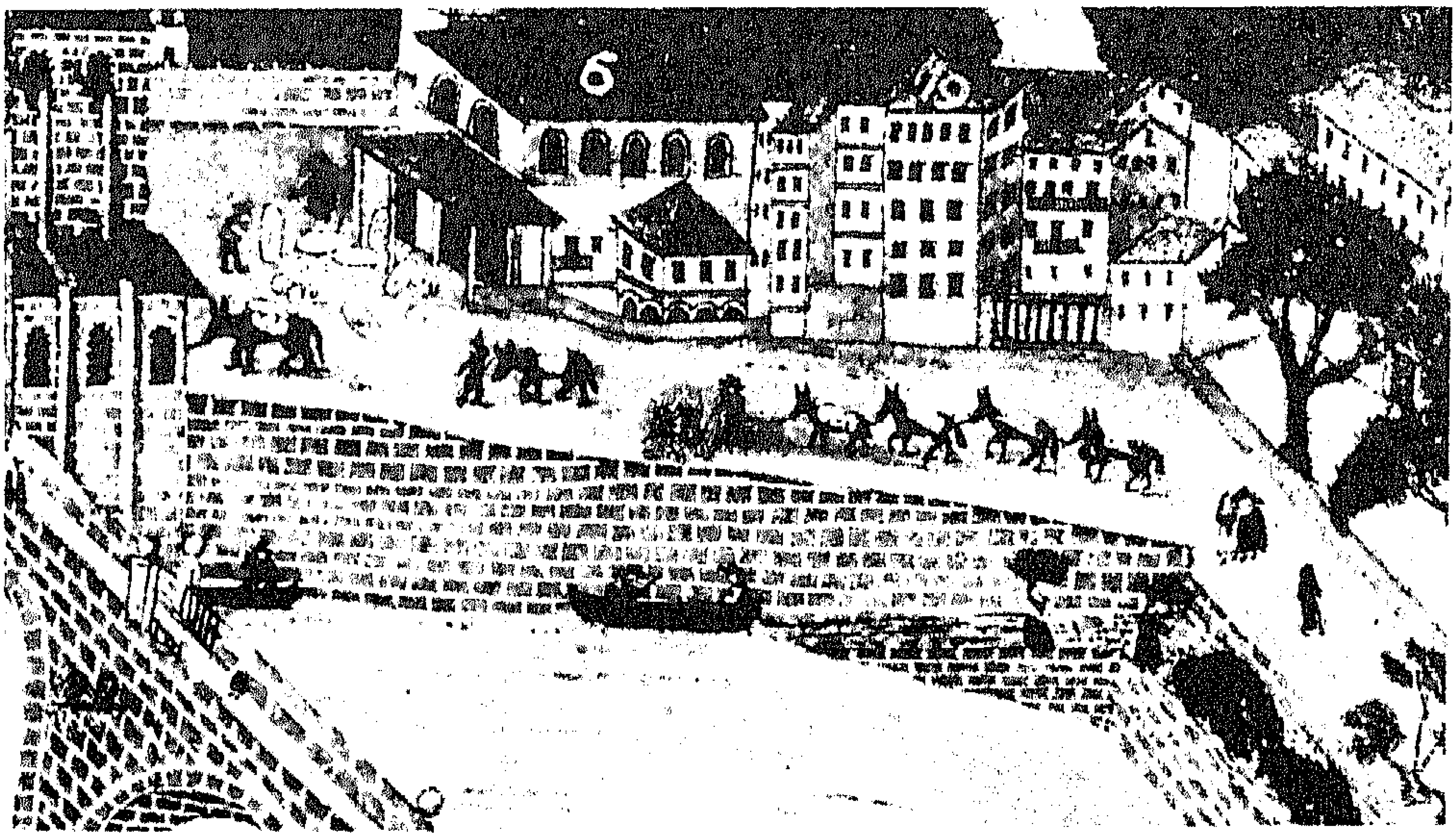

تموين مدينة بيلباو Bilbao الأسبانية تأتي به السفن وقوافل البغال . وكانت شحنات البضائع التي يفرغونها تنقل الى المخازن . جزء تفصيلي من رسم la Vista de la muy noble villa de Bilbao يرجع الى نهاية القرن الثامن عشر . رسم من حفر فرنشيسكو أنطونيو ريشتر Francisco Antonio Richter .

كانت المدن قد استأثرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بنوع من الاحتكار الصناعي - أن نزحت الصناعات الحضرية نزوحا واسع النطاق ، منذ القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، واتجهت إلى الكوردونات الريفية، سعيا وراء العمالة الأرخص، وابتعادا عن نطاق إجراءات الحماية والرقابة المتزمتة التي كانت تفرضها الاتحادات الحرفية في المدن . ولم تفقد المدن شيئا نتيجة لذلك فقد كانت المدن تسيطر، فيما وراء أسوارها على هؤلاء العمال الريفيين البؤساء ، وتوجههم على هواها. وقد حملت القرى على أكتافها في القرن السابع عشر ، وعلى نحو أكبر في القرن التالي جزءا كبيرا جدا من الأنشطة الحرفية .

ونشهد ملامح التقسيم على النحو نفسه في المناطق الأخرى من العالم: في روسيا وفي الهند والصين. كان النصيب الأكبر من المهام الصناعية في روسيا يقع على عاتق القرى المعتمدة في حياتها على نفسها. ولم تكن التجمعات الحضرية هناك تهيمن عليها، أو تزعجها كما كانت المدن في الغرب تفعل . لم يكن أهل المدن والفلاحون قد دخلوا بعد في علاقة تنافس حقيقية. والسبب في ذلك واضح، وهو: بطء النمو الحضرى هناك. كانت هناك بعض المدن الكبيرة بلا شك على الرغم من الحوادث التي حاقت بها [تعرضت موسكو للحريق في عام ١٥٧١ على يد التتار ثم على يد البولنديين في عام ١٦١١ ، ولم يكن عدد البيوت بها في عام ١٦٣٦ الا نحو ٤٠٠٠٠ بيت](٣٢)، ولكن القرى كانت مضطرة بالضرورة ، في بلد لم يتمدن إلا على نحو سيء ، إلى أن تعمل كل شيء بنفسها. يضاف إلى هذا أن أصحاب الإقطاعيات الكبيرة كانوا يقيمون مع عبيد أرضهم أنواعا من الصناعات المربحة . ولم يكن الشتاء الطويل في روسيا هو المسئول الوحيد عن هذا النشاط الكبير الذي كان هؤلاء الريفيون يقومون به(٣٣).

وحدث نفس الشيء في الهند حيث كانت القرية تكتفي بنفسها اكتفاء ذاتيا ، فقد كانت مجتمعا شديد الحيوية ، قادرا عند اللزوم على الانتقال ككتلة واحدة من مكان إلى مكان آخر، هربا من هذا الخطر أو ذاك ، أو فرارا من الظلم البين والقهر البالغ . كانت القرية ترتبط بالمدينة ارتباط من يدفع جزية شاملة ، ولكنها لم تكن تلجأ إليها إلا للحصول على القليل النادر من البضائع (الأدوات الحديدية مثلا). نشهد الشيء نفسه في الصين حيث كان العامل الحرفي الريفي يجد في تصنيع الحرير أو القطن عملا مكملا لحياته الريفية الصعبة. وكان مستوى معيشته المنخفض يجعل منه منافسا خطيرا للحرفي الحضري. وهذا هو رحالة انجليزي يعبر عن إعجابه ودهشته البالغة عندما رأي في عام ١٧٩٣ ، على مقربة من بكين ، ذلك العمل الهائل المذهل الذي تقوم به الفلاحات سواء في تربية دودة القز أو غزل القطن: " إنهن يصنعن أقمشتهن لأنهن عاملات النسيج الوحيدات في الامبراطورية كلها"(٣٤).

المدينة والقادمون الجدد

أغلبهم من البؤساء

والمدينة تتوقف عن الحياة إذا لم تضمن لنفسها عمليات التزود بالبشر الجدد . وهي تجذبهم إليها جذبا . وكثيرا ما يأتون هم إليها تشدهم أنوارها وحرياتها الحقيقية أو الصورية وأجورها الأعلى .وربما أتوا إلى المدينة لأن الأرياف - ولأن بعض المدن الأخرى - لا تريدهم أو تلفظهم لفظا . والشكل المألوف لهذه الظاهرة المستمرة التي تمثل علاقة وطيدة هو أن تكون هناك منطقة فقيرة يخرج منها النازحون ومدينة نشيطة ينزحون إليها: منطقة فريولي Friuli في مواجهة مدينة البندقية (كانت فريولي تزود البندقية بالعمال الكادحين والخدم)؛ منطقة القبائل في مواجهة مدينة الجزائر وأصحاب المغامرات البحرية فيها : حيث كان سكان المنطقة الجبلية يأتون للعمل الشاق في حدائق المدينة وريفها؛ مارسيليا وكورسيكا؛ مدن البروفانس والجافو gavots في جبال الألب؛ لندن والايرلنديون ... كانت كل مدينة ضخمة تشد إليها في آن واحد، موجات بشرية عديدة: عشر موجات أو مائة موجة بشرية .

في باريس في عام ١٧٨٨ ـ على ما يقول الشاهد ـ " كل من يسمون بالعمال الكادحين تقريبا من الأجانب [خطأ. المقصود : من غير أهل باريس]: السافوائيون أي القادمون من منطقة السافوا يعملون في مسح الأحذية ونشر وكشط الأخشاب؛ والأوفيرنيون [...] يعملون كلهم تقريبا سقائين ؛ والليموزيون يعملون بنائين؛ والليونيون يعملون عتالين وحمالي الهوادج؛ والنورمانديون يعملون في قطع الحجر والتبليط وحمل الأثقال وإصلاح الفخار وتجارة فراء الأرانب؛ والجاسكونيون يعملون في الحلاقة وتصفيف الباروكات وصبية للمزينين ؛ واللورينيون يعملون اسكافيين جائلين يصلحون الأحذية القديمة من نوع الجزمجية والصرماتية. والسافوائيون يقيمون في أطراف المدينة، موزعين على عنابر ، يدير العنبر منها رئيس أو شيخ سافوائي ، هو القيم أو ولي أمر الأولاد الصغار، إلى أن يكبروا ، ويصلوا إلى السن التي يكونون فيها قادرين على تولي أمر أنفسهم بأنفسهم ." ورب بائع جائل من أهل الاوفيرنيا يبيع فراء الأرانب في الشوارع ، يشتريها بالقطاعي ويبيعها بالجملة يسير في الطرقات " محملا فوق الطاقة حتى أن الإنسان ليبحث عن رأسه وذراعيه فلا يراها." وكل هؤلاء الفقراء يحصلون على ملابسهم بطبيعة الحال عند باعة الملابس القديمة على جسر فيراي Ferraille أو جسر ميجيسيري Mégisserie حيث تتاح الفرصة للمقايضة على كل شيء: "والرجل يدلف إلى الدكان أسود كالغراب ويخرج منه أخضر كالببغاء "(٣٥).

والمدن لا تتلقى البائسين فحسب ، فهي تجلب أيضا المتميزين من الطبقات البورجوازية

في المدن القريبة والبعيدة : إنها تجتذب التجار الأغنياء ، والمعلمين ، والحرفيين الذين ربما تشاجر الناس عليهم أملا في الاستئثار بخدماتهم ، والمرتزقة ، وقباطنة السفن، وأساتذة الجامعة ، والأطباء المرموقين ، والمهندسين المعماريين ، وغير المعماريين، والرسامين ... ويمكننا بناء على هذا أن نرسم على خريطة وسط وشمال ايطاليا النقاط التي أتى منها، في القرن السادس عشر ،الصبيان المتدرجون ، والمعلمون المتخصصون في فن شغل الصوف الذي كان الايطاليون يسمونه Arte della Lana، إلى أن بلغو فلورنسا ؛ أما في القرن السابق فقد عهدناهم يأتون من هولندة البعيدة (٣٦). ويمكننا أيضا أن نحدد على الخريطة الأماكن التي أتي منها المواطنون الجدد الذين استقروا في مدينة تعج بالنشاط ، مثل ميتس Metz (٣٧) أو حتى أمستردام [من عام ١٥٧٥ إلى عام ١٦١٤](٣٨). وفي كل مرة نقوم فيها بهذا التحديد فإننا نلقي الضوء على مساحة مترامية الأبعاد ترتبط بمدينتنا. وهي على الأرجح نفس المساحة التي يمكننا أن نحددها عندما نتتبع شعاع علاقاتها التجارية ، فنتبين القرى والمدن والأسواق التي تقبل نظام مقاييس مدينتنا هذه أو نظام نقودها أو النظامين معا أو التي تتكلم أحيانا لهجتها المميزة.

عملية تجنيد بشري إجباري ، لا ينقطع . والمدينة من الناحية البيولوجية لم تكن قبل القرن التاسع عشر تعرف زيادة في مواليدها على وفياتها، بل كانت نسبة الوفيات أكثر من نسبة المواليد(٣٩). فإذا نمت المدينة فإنها لم تكن تحقق هذا النمو بذاتها وبقدراتها وحدها ، كذلك كانت المدينة من الناحية الاجتماعية تدع الأعمال المنحطة للقادمين الجدد ، فقد كانت تحتاج - مثل اقتصادياتنا الحالية ذات الجهد الفائق - إلى العمال الأجانب، العمال القادمين من شمال أفريقيا أو من بورتوريكو إلى فرنسا للقيام بالعمل الشاق، تحتاج إلى كادحين يستهلكون أنفسهم بسرعة من أجلها ، وتقوم بتجديدهم بسرعة أيضا. وهذا هو سيباستيين ميرسييه يقول عن الخدم في باريس : " الزبد الذي يطفو فوق السطح في الأرياف يصبح هو زبد المدينة " وقد بلغ عدد الخدم في باريس، فيما قيل لنا ١٥٠٠٠٠ شخص(٤٠). إن وجود هذه الشريحة المنخفضة من الكادحين البائسين هي السمة التي تتسم بها كل مدينة كبيرة .

كان عدد الذين يموتون في باريس ، حتى بعد عام ١٧٨٠ في المتوسط سنويا ٢٠٠٠٠ ، منهم ٤٠٠٠ يقضون أيامهم الأخيرة في المستشفي ،إما في مستشفي أوتيل ديو أو في مصحة Bicêtre : هؤلاء الموتى " يلفونهم في الخيش " ، ويدفنونهم بغير تمييز ، حيثما اتفق في ضاحية كلامار Clamart في حفرة جماعية يرشونها بالجير الحي. والحقيقة أنه ليس هناك منظر أفظع من منظر عربة يد تحمل الموتى من مستشفى أوتيل ديو إلى المدافن في جنوب المدينة. والجنازة جنازة فقيرة بمعنى الكلمة " قسيس

أشعث أغبر وناقوس وصليب " وانتهى الأمر . والمستشفي هي مستشفى أوتيل ديو . حرفيا = بيت الرب . كل شيء فيه " يتسم بالخشونة والشراسة " : ١٢٠٠ سرير لـ ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ مريض ، وكانوا " يضعون المريض الجديد بجانب جثة مريض قديم لفظ أنفاسه الأخيرة أو أوشك على الوفاة ..." (٤١).

ثم إن الحياة لم تكن تبدأ لينة سخية موطأة الأكناف ، فمن بين نحو ثلاثين ألف من المواليد الجدد في العام ، حول عام ١٧٨٠، كان عدد الأطفال الذين يتركهم أهلهم ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ طفل . وكأنما كان ترك هؤلاء الأطفال في المستشفى حرفة يمارسها البعض، وسرعان ما كان يأتي حمال فيلتقطهم ويضعهم في " صندوق مبطن يتسع لثلاثة أطفال يحمله على ظهره. وكان يضعهم في الصندوق واقفين ملفوفين بالأقمطة المشدودة، يتنفسون من أعلى [...] وربما فتح الحمال صندوقه في الطريق فوجد أحدهم قد مات، فيستأنف مسيرته بالاثنين الباقيين ، يشد الخطى متلهفا على تسليم هذه الوديعة التي حملها في صندوقه . [...] فإذا سلمها عاد مسرعا من حيث أتى ليعيد الكرة ويستأنف هذا العمل الذي يعيش منه " (٤٢). وكان عدد كبير من هؤلاء اللقطاء يأتون من الريف إلى المدينة . فما أغربهم من نازحين!

خصوصية المدن

كل مدينة عالم قائم بذاته ، وكل مدينة تريد أن تكون عالما قائما بذاته . وهناك حقيقة بارزة تتمثل في أن كل المدن ، أو تقريبا كل المدن ، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت لها حصونها . وكانت المدينة وسط حصونها، في ربقة هندسة ضاغطة ومميزة ، وكانت هذه الحصون تقطع المدينة حتى عن الساحة التي تحيط بها مباشرة، والتي هي ساحتها، وتفصلها عنها .

كان الهدف من الحصون في البداية هو الأمن . وهناك بعض البلاد القليلة فقط هي التي كانت حماية المدينة فيها نافلة من النوافل، ولكن الاستثناء يؤكد القاعدة . في الجزر البريطانية مثلا لا نجد من الناحية العملية تحصينات للمدن ؛ ويقول الاقتصاديون أن البريطانيين وفروا هكذا أموالا ما كان إنفاقها يجدي نفعا . وأسوار المدينة في لندن لا تلعب إلا دورا إداريا ، وان كانت لندن قد شهدت في عام ١٦٤٣ لحظة دفع فيها خوف البرلمانيين إلى إحاطة المدينة بتحصينات عاجلة. كذلك لا توجد تحصينات في الأرخبيل الياباني حيث أن البحر يحمي الجزر اليابانية كما يحمي البحر الجزر البريطانية، وكما يحمي البندقية التي تعتبر بمثابة جزيرة في حد ذاتها . وليست هناك أسوار في البلاد الواثقة من نفسها مثل الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف التي لم تعرف المدن ذات الأسوار الحصينة إلا على الحدود المهددة، في المجر المواجهة لأوروبا ، وفي

أرمينيا المواجهة لفارس . في سنة ١٦٩٤ أحاط العثمانيون مدينة اريفان Erivan بالأسوار، ولم يكن بها إلا القليل من المدفعية، كذلك أحاطوا مدينة ارزروم Erzeroum بالأسوار، وكانت مدينة تحتضنهاالضواحي ، أحاطوا المدينتين بأسوار مزدوجة لم تكن مدعومة بالتراب . أما في غير هذه البقاع فان السلام التركي pax turcica أدى إلى خراب التحصينات القديمة ، وأصبحت مثل أسوار الضياع المهجورة ، ولم تسلم من هذا المصير تحصينات استانبول المدهشة التي ورثتها عن بيزنطة . وفي الناحية المقابلة لاستانبول، في جالاتا Galata ذكر تقرير من عام ١٦٩٤ أن " الأسوار تهدمت نصفا دون أن يبدو أن الأتراك يفكرون في ترميمها واعادتها إلى حالها" (٤٣). كذلك تحطمت أسوار فيليبوبولي Philippopoli على الطريق إلى أندرينوبل Andrinople حتى أنه لم يكن هناك منذ عام ١٥٧٤ أثر يذكر بأبواب المدينة(٤٤).

أما في غير هذه البقاع ، فلسنا نجد شيئا من هذه الثقة ، بل نرى التحصينات قاعدة تفرض نفسها في ربوع أوروبا القارية (في روسيا كانت المدن المحاطة على نحو أو آخر بالمتاريس تعتمد على قلعة مثال موسكو التي كانت تعتمد على قلعة الكرملين) وفي ربوع أمريكا المستعمرة ، وبلاد فارس والهند والصين . وهذا هو قاموس فوريتيير Fureti`ere (١٦٩٠) يعرف المدينة بأنها : " مسكن شعب كثير العدد تحوطه الأسوار عادة." ولقد كانت حلقة الأسوار، هذه الحلقة من الحجر التي ابتنيت في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر حول العديد من المدن الآوروبية ، عبارة عن " رمز خارجي يعبر عن الجهد الواعي الذي تبذله المدن سعيا إلى الاستقلال والحرية " وهو جهد طبع التوسع الحضري في العصر الوسيط بطابعه. ولكن الأسوار كانت أيضا في اوروبا وفي غير أوروبا تمثل عمل الأمير ، وتمثل الوقاية من العدو الخارجي(٤٥).

كانت المدن البسيطة أو المتدهورة في عرف الصين هي وحدها المدن التيُ لم يعد لها أسوار أو التي قامت بلا أسوار . وكان المألوف هناك أن تكون الأسوار الحصينة منيفة، عالية علوا يجعلها تحجب عن الرائي سقوف الدور، أو كما يقول التعبير الاستعاري، يجعلها " تسرق من البصر سقوف البيوت ". ويقول رحالة في عام ١٦٣٩ أن المدن " كلها بنيت على النحو نفسه، مربعة ، بأسوار جيدة من الطوب يكسونها بنفس التراب الذي بصنعون منه البورسيلين، وهو يصلب بمضي الوقت ، ويصبح صلدا يصعب كسره حتى بالمطرقة [...] والأسوار عريضة جدا، ومدعمة بأبراج مبنية على نمط أبراج الرومان القدامى، تقريبا بنفس الأسلوب التي نرى تحصينات الرومان قد أقيمت عليه. وهم يشقون شارعين عريضين كبيرين يقطعان المدينة طولا وعرضا، ويتعامدان على هيئة الصليب صانعين ميدانا في الوسط ، والشارعان مستقيمان أشد الاستقامة ، حتى أن الإنسان عندما ينظر من الميدان، يرى البوابات الأربع ، على الرغم من أن الشارعين

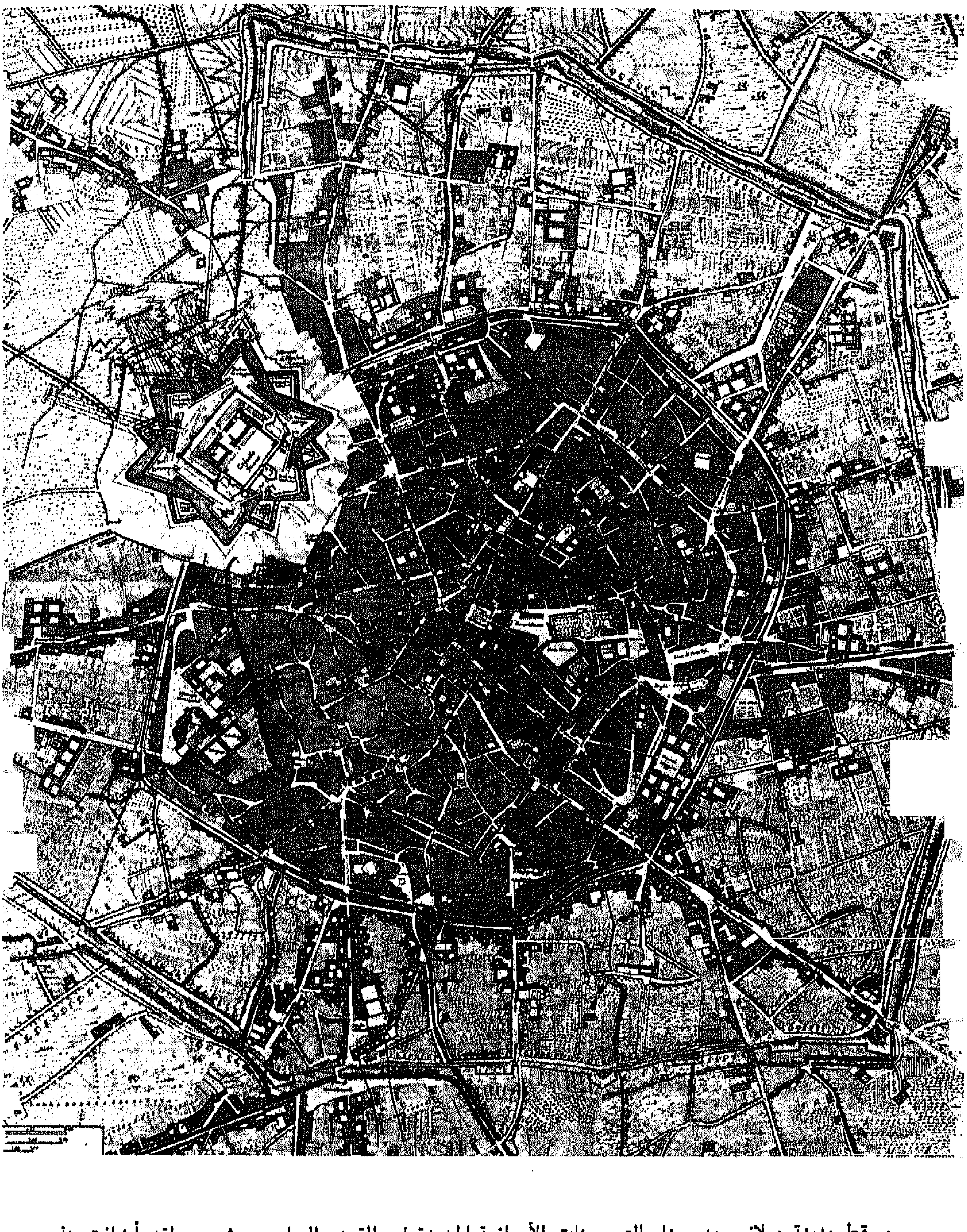

مسقط مدينة ميلانو بعد بناء التحصينات الأسبانية الجديدة في القرن السادس عشر . ولقد أضافت هذه التحصينات الى المدينة القديمة (الجزء الغامق) أراض قليلة الحظ من التمدن ، فقد شغلتها على نطاق كبير حدائق و حقول . أما القلعة Castello التي تمسك ميلانو فإنها في الحقيقة مدينة كاملة . (أرشيف الدولة ، ميلانو).

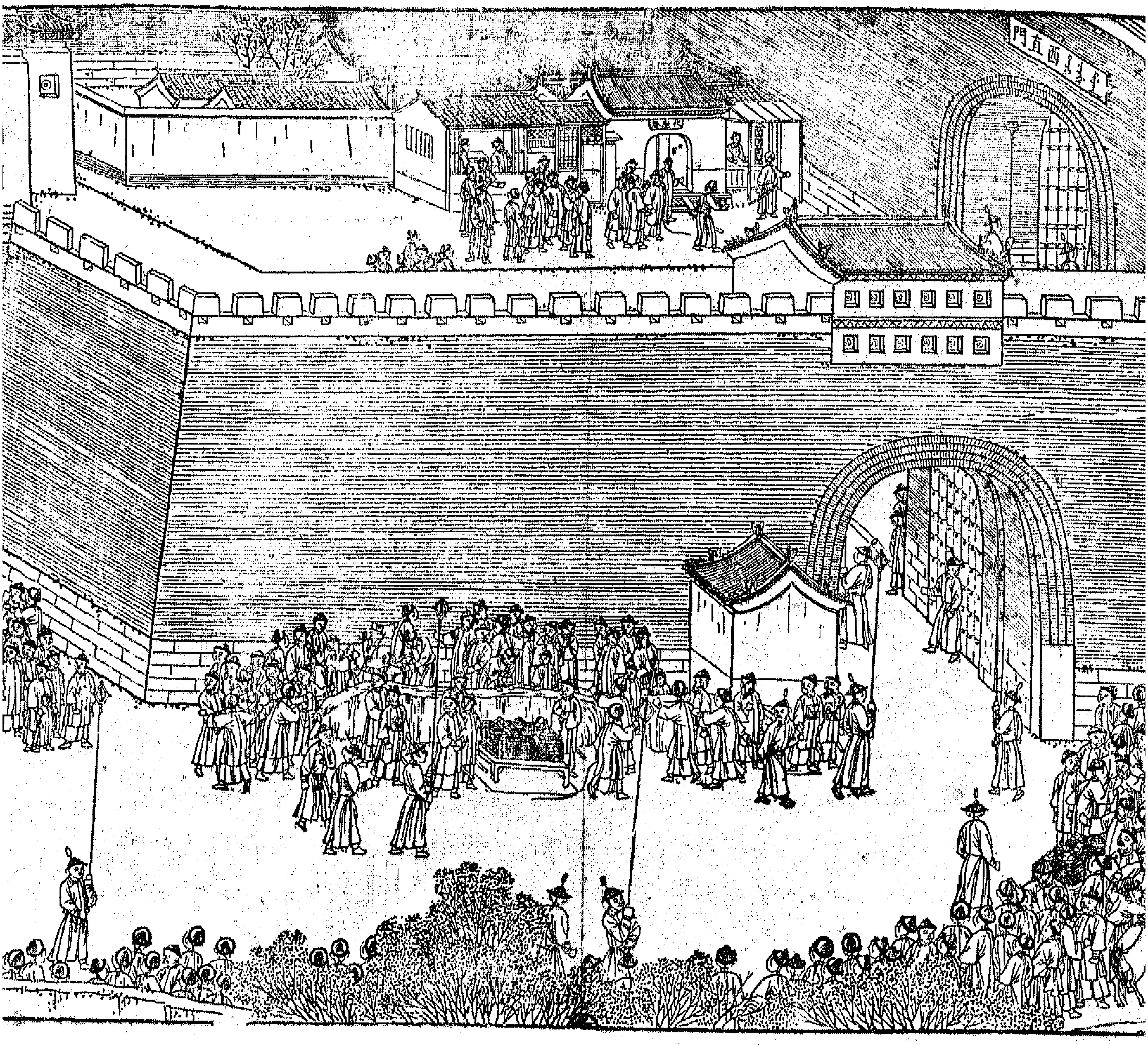

سور مدينة بكين وبوابتها ، في بداية القرن الثامن عشر . (متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس)

يمتدان بطول المدينة كلها ، مهما كانت المدينة من الكبر." ويقول الرحالة نفسه أن سور بكين أعرض من أسوار المدن في أوروبا" حتى أن اثني عشر حصانا يمكنها أن تعدو فوقه متجاورة دون أن تتصادم [لا ينبغي أن نصدقه حرفيا، فهناك رحالة آخر يقول أن" عرض السور عند أسفله يبلغ عشرين قدما، و عند أعلاه اثنتي عشرة قدما"(٤٦)]. وهم

يقومون بالحراسة ليلا كما لو كانوا في غمارالحرب ، أما بالنهار فلا يقوم على حراسة البوابات الا الخصيان الذين يقفون هناك لتحصيل رسوم الدخول أكثر مما يقومون على أمن المدينة " (٤٧) . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦٨ حدث فيضان عارم أغرق أرياف العاصمة و" جرف عددا كبيرا من القرى والدور الوارفة ... بعنف مياهه ". وفقدت المدينة الجديدة ثلث بيوتها و" غرق عدد لا حصر له من البؤساء في المياه المنهمرة أو تحت الخرائب المتداعية " ، أما المدينة القديمة فقد نجت : " فقد أغلقوا البوابات على الفور [...] وسدوا كل الفرج ، وكل الشقوق بخليط من الجير والبتومين"(٤٨). صورة جميلة ، وبرهان ساطع على صلابة الأسوار التي أقاموها حول المدن الصينية ، والتي أوشكت أن تبلغ درجة الإحكام المانع لتسرب المياه .

ومن الأشياء الطريفة أن الأسوار أصبحت تمثل ما يشبه نظام الرقابة على سكان المدينة أنفسهم خلال تلك القرون التي استتب فيها السلام الصيني pax sinica والتي لم تشهد فيها الصين خطرا يهدد المدن من الخارج ، فقد كان للأسوار درج داخلي عند المنافذ يسمح في لحظة واحدة بتعبئة الجنود والفرسان الذين كانوا يسيطرون على المدينة كلها من فوق الأسوار الحصينة ، وليس من شك في أن هذا الوضع أتاح للسلطات المسئولة إمكانية إحكام قبضتهم على المدينة. ثم إن كل شارع في الصين - وكذلك كانت الحال في اليابان - كانت له أبوابه الخاصة وكان له نظامه القانوني الداخلي. فإذا حدثت في الشارع حادثة أيا كانت، أو ارتكب إثم ، قفلت أبواب هذا الشارع، وجرى تأديب فوري للمذنب أو للمتهم ، كان في الغالب يتخذ طابعا دمويا. وكان النظام في الصين نظاما صارما خاصة لأن كل مدينة صينية كان يجاورها مربع مدينة تتارية . وكانت المدينة التتارية تراقب المدينة الصينية رقابة وثيقة .

وكثيرا ما كانت الأسوار تطوق مع المدينة جزءا من الحقول والبساتين ، وكانت أسباب ذلك واضحة لاتغيب عن الفطنة وهي ضمان التموين في حالة الحرب. وهكذا كانت الأسوار الحصينة التي بنيت بسرعة في قشتالة بأسبانيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر حول مجموعة من القرى المتفرقة التي تركت بعضها بعيدة عن البعض الآخر، مفسحة بينها مساحات تتسع للقوات المسلحة في حالة الاستنفار(٤٩). وهذه قاعدة تنطبق دائما على كل المدن التي تحسب حساب أي حصار يمكن أن يفرض عليها ، فتطوق بأسوارها الحصينة المراعي والحدائق، كما فعلت فلورنسا ، أو تطوق حقولا منزرعة وبساتين فاكهة وكروم كما فعلت بواتيية Poitiers حتى القرن السابع عشر ، تلك المدينة الفرنسية التي كانت لها أسوار منيفة تحاكي في اتساعها أسوار باريس، ولم يكن في مقدورالمدينة أن تملأ المساحة التي ضمتها الأسوار إليها والتي أصبحت كالثوب الواسع اتساعا مفرطا بالنسبة إليها . كذلك لم يكن في مقدور براغ أن تملأ الفراغ بين " البيوت

في المدينة الصغيرة " وبين الأسوار الجديدة المبتناة في منتصف القرن الرابع عشر .كذلك الحال بالنسبة لتولوز Toulouse حول عام ١٤٠٠ ؛ وكذلك الحال بالنسبة لبرشلونة التي لن تمتد بمبانيها لتبلغ أسوارها الحصينة المبتناة حولها في عام ١٣٥٩ (نري مكان هذه الأسوار الحصينة المتنزهات الحالية المعروفة باسم رامبلاس Ramblas) إلا بعد نحو قرنين من الزمان في عام ١٥٥٠ ؛ و كذلك الحال بالنسبة لميلانو في قلب أسوارها التي أقيمت على النمط الأسباني .

والمشهد نفسه يطالعنا في الصين : نقرأ عن مدينة مطلة على نهر اليانجتسيكيانج "لها سور محيطه عشرة آلاف ، يطوق تلالا وجبالا وسهولا لا سكان فيها ، ولا بيوت، إلا القليل ، وكان الأهالي هناك يفضلون السكنى في الضواحي التى كانت تمتد إلى مسافات طويلة ." وفي تلك السنة نفسها ، سنة ١٦٩٦ ، كانت مدينة نانتشانج Nantschang عاصمة كيانج سي Kiang-Si تضم في ربوعها العليا" الكثير من الحقول والحدائق والقليل من السكان ..."(٥٠) .

ظل أهل الغرب زمنا طويلا يحققون الأمن بقليل من التكاليف . كانوا يشقون حول المدينة خندقا ويبنون سورا رأسيا ، ولم تكن تلك التحصينات تعرقل توسع المدينةبعد ذلك إلا على نحو قليل ، أقل بكثير مما تجري به الأقلام عادة . كانت المدينة إذا ما احتاجت إلى مزيد من الهواء ، تزحزح الأسوار ، وتنقلها كما تنتقل ديكورات المسرح، حدث هذا في مدينة جنت ، ومدينة فلورنسا ، ومدينة شترابسبورج، وكان يتكرر كلما دعت إليه الحاجة . كان سور المدينة مثل الكورسيه الذي تفصله المرأة حسب مقاسها ، فإذا كبرت المدينة فصلت لنفسها كورسيها جديدا .

كان السورالذي يبنى ، ويعاد بناؤه ، يحيط المدينة ، ويحدد معالمها ؛ كان يمثل حماية للمدينة ، ولكنه كان يمثل أيضا تحديدا وحدودا . وكانت المدن تلقي عند أطرافها الخارجية بالقدر الأكبر من نشاطها الحرفي، وتلقي إلى هناك خاصة بصناعاتها التي تسبب الزحام ، مما كان يؤدي بالسور إلى أن يصبح خط تقسيم اقتصادي واجتماعي. كذلك كانت المدينة تضم إليها بصفة عامة في أثناء نموها بعض ضواحيها ، وتحورها ، وتزحزح إلى بعيد تلك الأنشطة الغريبة على حياتها الحضرية بمعناها المحدد .

وهذا هو السبب الذي جعل المدن في الغرب ، وهي تنمو شيئا فشيئا نموا شيطانيا ، ترسم خريطة معقدة، شوارعها ملتوية، ومنعطفاتها مباغتة، على عكس المدن التي احتفظت بالطابع الروماني منذ أن انبثقت عن النظام الروماني القديم مثل: تورين Turino. في ايطاليا . وكولونيا Koeln وكوبلنتس Koblenz وريجنسبورج Regensburg . في ألمانيا ...ويعتبر عصر النهضة الرينسانس أول عصر شهد تطورا في

تعمير المدن تمثل في سلسلة من الخطط الهندسية وضعت على هيئة رقاع الشطرنج، وعلى هيئة الدوائر ذات المركز الواحد ، وكانت هذه الخطط توصف بأنها " الخطة المثالية". وفي ظل هذه الروح شملت المدن حركة ازدهار واسعة ، تتابعت حلقاتها في الغرب، فأعيد تشكيل الميادين أو جدد بناء أحياء استقطعت من الضواحي : وكانوا يفرضون الخطط التي اتخذت صورة رقاع الشطرنج على المدن الوسيطية القديمة القائمة، ويضعون التخطيطات الجديدة جنبا إلي جنب بجوار صرة المدينة القديمة بشوارعه المتلوية .

ووجد هذا الاتجاه الملتزم بالمنطق، والأحكام ، والعقلانية في تخطيط المدن مجالا خصبا عند بناء المدن الجديدة ، حيث كان مكان البناء خاليا ، بلا قيود أو عراقيل. يشهد على هذا أن الأمثلة القليلة التي لدينا من مدينة أوروبية أنشئت قبل القرن ، رسمت على هيئة رقعة الشطرنج ، ونفذت حسب التخطيط بإرادة وتصميم ، فكانت مدنا أنشئت من العدم مثل ايجمورت Aigues-Mortes وهو ميناء صغير اشتراه الملك القديس لويس وأعاد بناءه حتى يكون لديه مخرج إلى البحر المتوسط؛ ومن هذا القبيل أيضا مدينة مونبازييه Monpazier الصغيرة (في منطقة دوردوني الفرنسية Dordogne) التي أنشئت تنفيذا لأوامر ملك انجلترة في أواخر القرن الثالث عشر: نجد في خانة من خانات رقعة الشطرنج الكنيسة، وفي خانة أخرى ساحة السوق فيها البئر، ومن حول البئر البواكي(٥١). من هذ القبيل أيضا الأراضي الجديدة terre nuove في توسكانا في القرن الرابع عشر، سكاربيريا Scarperia وسان جوفاني فالدارن San Giovanni Valdarno وتيرانووفا براشوليني Terranuova Bracciolini كاستيلفرانكو دي سوبرا Castelfranco di Sopra (٥٢) ... وأخذ سجل المدن المجددة والجديدة يطول بسرعة كبيرة منذ القرن السادس عشر ؛ ويمكننا أن نضع قائمة كبيرة تضم المدن التي بنيت طبقا لتخطيط هندسي ، نذكر مثلا مدينة ليفورنو Livorno الجديدة ابتداء من عام ١٥٧٥ ، ومدينة نانسي Nancy التي بنيت من جديد ابتداء من عام ١٥٨٨ ، ومدينة شارلفيل Charleville ابتداء من عام ١٦٠٨ ، أما المثل الخارق للمألوف ، الذي لا يدانيه مثل آخر ، فهو مثل مدينة سان بطرسبرج ، التي سنعود إلى الحديث عنها فيما بعد . وجدير بالذكر أن مدن العالم الجديد التي أنشئت متأخرة ، أنشئت كلها تقريبا طبقا لتخطيط موضوع من قبل: إنها تكون أكبر مجموعة أو أكبر أسرة بين كل المدن ، أسرة المدن المرسومة على نسق رقعة الشطرنج . ومدن أمريكا الأسبانية تتميز بسمة خاصة ، إنها تتميز بشوارعها المتعامدة ، التي ترسم بزواياها القائمة مربعات ، وبأن فيها شارعين رئيسين ، ينتهيا ن إلى الميدان الكبير Plaza Mayor حيث تقوم الكاتدرائية ، والسجن ، ودار البلدية ، أو مجلس المدينة المسمى كافيلدو Cabildo.

والتخطيط على شكل رقعة الشطرنج يطرح مشكلة مثيرة على مستوى العالم . فكل مدن الصين وكوريا واليابان وشبه الجزيرة الهندية وأمريكا المستعمرة (ولا ينبغي أن ننسى المدن الرومانية وبعض المدن الاغريقية) قائمة على نمط رقعة الشطرنج . حضارتان فقط ابتدعتا ، على نطاق واسع ، نمط المدينة المتشابكة غير المستقيمة: حضارة الإسلام (بما فيها شمال الهند) وحضارة الغرب في العصر الوسيط . ومن الممكن أن يتوه الإنسان ، وتتفرق به السبل ، إذا هو التمس تفسيرات جمالية ونفسية لهذه الاختيارات التي اختارتها الحضارات ، عندما آثرت بعضها رقعة الشطرنج ، وآثرت الأخرى النمط المتشعب المتشابك . ولكن ليس هناك شك في أن الغرب لن يعود مع القرن السادس عشر في أمريكا إلى الإحساس بالاحتياجات التي أدت إلى نشوء نمط المعسكر الروماني ، والمدينة التي اتخذت طابعه . وإنما كانت المدن التي أقامتها أوروبا في العالم الجديد تعكس الاهتمامات الحضرية في أوروبا الحديثة، وعلى رأسها شغف عنيف بالنظام الذي يجدر بنا أن نبحث عن جذوره القديمة العميقة الحية، التي تكمن وراء العديد من الظواهر.

في الغرب :

مدن ومدفعية وعربات

واجهت المدن في الغرب ابتداء من القرن الخامس عشر مشكلات كبيرة . فقد زاد عدد سكانها ، وجردت المدفعية أسوار المدن القديمة من قيمتها ، وأحالتها إلى أشياء صورية ، وكان من الضروري إبدالها ، مهما كان الثمن ، بمتاريس عريضة مدفونة إلى نصفها في الأرض ، تتسع إلى حصون ، وتبات ، وتحصينات مرتفعة يسمونها "خيالة" cavaliers . حيث تقلل التربة الرخوة من الخسائر المحتمل أن تحدثها قنابل المدفعية. ولكن هذه المتاريس الممتدة أفقيا لم يكن من الممكن زحزحتها ، وتحريكها من مكان إلى مكان آخر ، بغير نفقات باهظة . وكان من الضروري الإبقاء ، أمام الخطوط المحصنة، على الخلاء اللازم للعمليات العسكرية الدفاعية ، وحظر إنشاء البساتين وزرع الأشجار. بل ربما اقتضت الضرورة إخلاء المكان ، بقطع الأشجار ، وهدم البيوت ، وهذا ما فعلته مدينة دانتسيج في عام ١٥٢٠ إبان الحرب التي نشبت بين بولندة وبين طائفة الفرسان الألمان ، ثم في عام ١٥٧٦ في أثناء الصراع مع الملك ستيفان باتوري Stefan Batory.

وهكذا فقد سدت التدابير العسكرية سبل التوسع الأفقي أمام المدينة، وقضت عليها في كثير من الأحيان - على نحو أشد من الماضي - بالنمو الرأسي . وأصبحت البيوت تبنى في جنوا وباريس وادنبرج من ٥ و٦ و٧ و٨ طوابق بل من ١٠ طوابق أيضا.

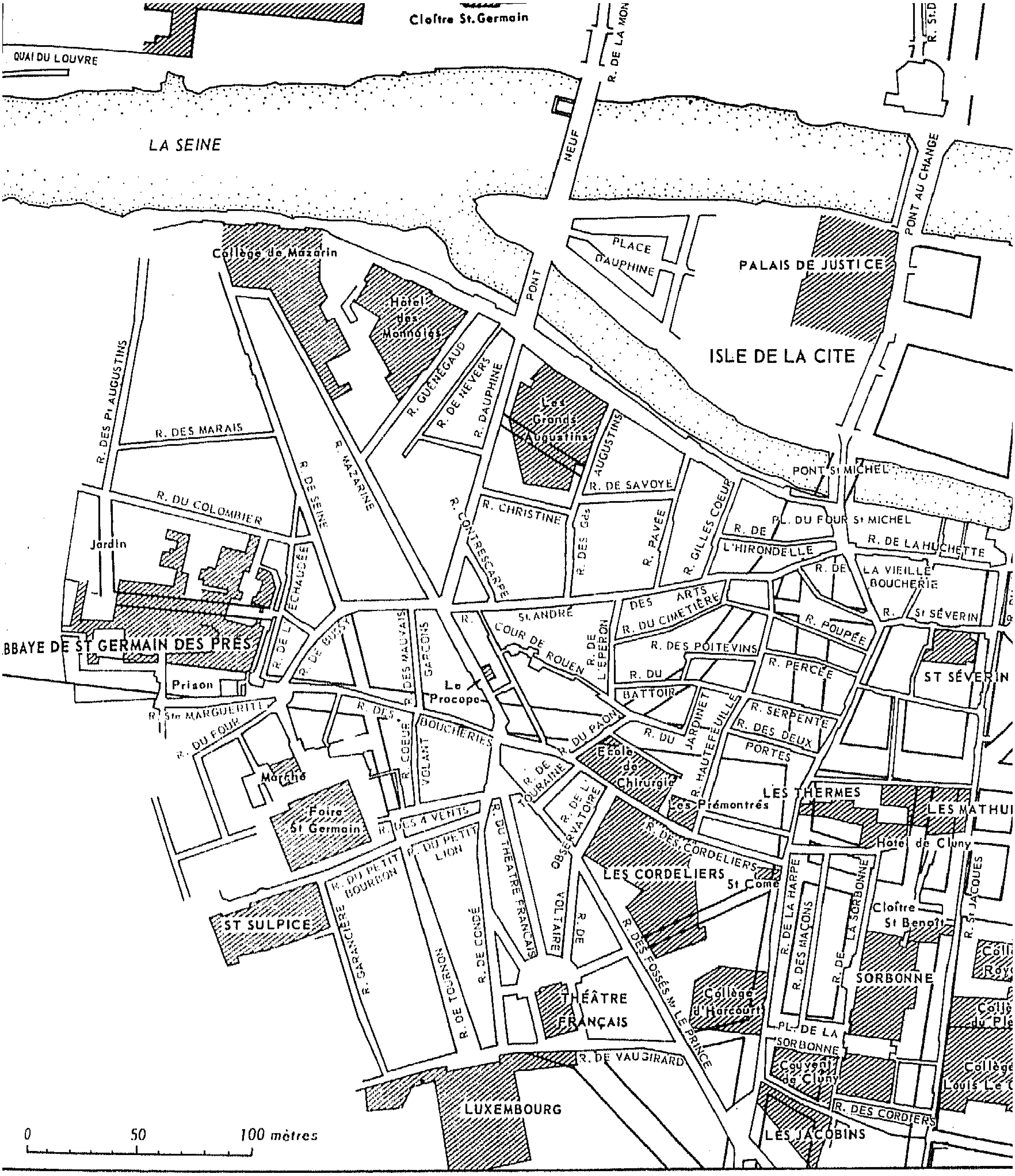

٢٧ . باريس في زمن الثورة الفرنسية .

نموذج المدينة الغربية ذات الشوارع المتشابكة . في هذه الخريطة القديمة نرى محورين من العصر الحاضر مرسومين بخطوط قوية (بولفار سان ميشيل Boulevard Saint-Michel وبولفارسان جرمان Saint-Germain) يقودان خطى القاريء خلال باريس القديمة من السوربون الى سوق سان جرمان ، والى دير سان جرمان دي بريه Saint-Germain-des Prés ، ومن اللوكسمبور Luxembourg الى كوبرى بون نيف Pont-Neuf . ويظهر مقهى بروكوب Procope الذي تأسس عام ١٦٨٤ في شارع فوسيه سان جرمان قبالة المكان الذي سيقام فيه في عام ١٦٨٩ في نفس هذا الشارع (الذي يسمى اليوم باسم شارع الأنسيين كوميدي Ancie nne comédie) مبنى مسرح الكوميدي فرانسيز .

ونظرا لأن سعر الأرض لم يتوقف عن الارتفاع ، فقد فرضت البيوت العالية نفسها في كل مكان. وإذا كان الخشب قد ظل حينا طويلا مفضلا في لندن على الطوب ، فقد كان لذلك أسباب من بينها الاتجاه إلى بناء بيوت مرتفعة ، لأن الخشب يتيح بناء جدران أقل كثافة وأكثر خفة في الوقت الذي أخذت البيوت من ٤ إلى ٦ طوابق تحل محل المباني القديمة التي كانت عادة من طابقين . وفي باريس نرى الظاهرة نفسها ، بل لقد " بات من الضروري التدخل لوقف ارتفاع البيوت بغير حساب [...] لأن بعض الناس كانوا بالفعل يبنون بيتا فوق بيت . وقيد الارتفاع [عشية الثورة الفرنسية]بـ ٧٠ قدم [نحو٢٣ مترا] ليس من بينها السقف الجمالون " (٥٣).

أما البندقية فقد نعمت بعدم وجود أسوار لها مما سمح لها بالاتساع على راحتها: كان الناس يدقون بعض الخوازيق الخشبية في الأرض ، ويأتون ببضعة سفن محملة بالحجر، وإذا بحي جديد ينشأ فوق المياه المنسابة من البحر . كذلك تمكنت البندقية منذ وقت جد مبكر من القذف بالصناعات المزعجة إلى مشارف المدينة ، فقذفت بالجزارين والدباغين إلى جزيرة جوديكا Giudecca وبالترسانة إلى أطراف حي كاستيللو Castello الجديد ، وورش الزجاج الى جزيرة مورانو Murano منذ عام ١٢٢٥ ... من الذي يستطيع أن يمنع نفسه من الاعجاب بهذه العصرية ، بهذا التوزيع الحديث على مناطق وما نسميه " zoning" ؟ ولكن البندقية كانت تقيم معالمها الرائعة ، العامة والخاصة ، مطلة على القناة الكبيرة ، وهي وادي نهري عميق عمقا فوق المألوف . وكان هناك جسر واحد، جسر ريالتو، مصنوع من الخشب وله مزلقان (إلى أن بني الجسر الحجري الحالي في عام ١٥٨٧) كان يربط شاطي "فندق الألمان" Fondaco dei Tedeschi (مبنى البوسطة الرئيسية الحالي) بميدان ريالتو Rialto، مشيرا مقدما إلى المحور الحي للمدينة الممتد من ميدان سان ماركو إلى الجسر مرورا بشارع المرشيريا Merceria الذي يعج بالحركة . وهكذا استطاعت المدينة أن تمتد أفقيا على سعتها. أما الجيتو ، المدينة المصطنعة الضيقة المطوقة بأسوار ، فالمكان فيها عزيز، والبيوت تنطلق إلى أعلى بأدوارها الخمسة أو الستة .

وعندما دخلت العربة دخولها الضخم في أوروبا في القرن السادس عشر أثارت مشكلات ملحة ، وفرضت على الناس إجراء جراحة للمدن . ويعتبر برامنته Bramante الذي هدم الحي القديم حول كنيسة القديس بطرس في روما (١٥٠٦-١٥١٤) واحدا من أوائل الرجال من نوع البارون أوسمان Haussmann الذي ارتبط اسمه باعادة تنسيق باريس في الربع الثالث من القرن التاسع عشر . كانت عمليات تنسيق المدن وتوسيعها لتناسب حركة العربات تؤدي بالمدن بالضرورة الى شيء من النظام ، وشيء من التهوية، ومرور أفضل على الأقل إلى حين . وهذا التنظيم الجديد هو نفسه الذي قام به بييترو

دي توليدو Pietro di Toledo (١٥٣٦) عندما شق بضعة شوارع عريضة خلال نابلي، وكان الملك فيرانته Ferrante (الذي تربع على عرش نابلي من ١٤٥٨ إلى ١٤٩٤) يقول :

" الشوارع الضيقة خطر على الدولة " ؛ من هذا القبيل إنجاز الشارع المستقيم القصير الفخم الجديد في مدينة جنوا في عام ١٥٤٧ ، شارع Strada Nuova ؛ ومن هذا القبيل المحاور الثلاثة التي أمر البابا سيكسته كوينت (بابا من ١٥٨٥-١٥٩٠) بشقها في مدينة روما مبتدئة من ميدان الشعب Piazza del Popolo. وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يصبح واحد من هذه المحاور وهو الكورسو Corso شارع روما التجاري الأعظم. هكذا نفذت العربات العادية إلى المدن، ومن بعدها العربات الحنطور، التي أخذت تجري في جنباتها بكل سرعة . وهذا هو جون ستو John Stow الذى شهد هذه التحولات الأولى في لندن يتنبأ في عام ١٥٢٨ بهذه النبوءة : " العالم كله سيكون له عجل ." أما في القرن التالي فقد ردد توماس ديكر Thomas Dekker المعنى نفسه: " في كل شارع من شوارع [لندن] تحدث العربات والحناطير صخبا كالرعد القاصف، حتى أن الإنسان ليظن أن العالم كله يسير على عجل"(٥٤).

جغرافية المدن

وترابطاتها

كل مدينة تنمو في مكان بعينه ، وتقترن به ، ولا تنفصل عنه إلا في حالات استثنائية نادرة. والمكان الذي تقوم فيه المدينة يتصف بأنه ملائم لها على نحو ما، كبر أو صغر ، وتظل محاسنه وعيوبه الأولى قائمة على مر الزمن . وهذا واحد من الرحالة وصل في عام ١٦٨٤ إلى مدينة باهيا Bahia (سان سالفادور Sao Salvador) التي كانت في ذلك الوقت عاصمة البرازيل ، يتحدث عن روعتها ، وعدد العبيد فيها وكانوا " يعاملون بأشد أنواع الهمجية " - كما يقول . وهو يشير إلى عيوب الموقع فيقول: " وانحدار الشوارع عنيف وعر حتى أن الخيول المكدنة إلى عربات لا تستطيع المحافظة على توازنها " ، ولهذا لم تكن هناك عربات ، وإنما كانت هناك حيوانات للنقل ، وخيول مسرجة للركوب . ويعتور المدينة عيب أشد خطورة وهو انحدار عنيف مباغت يفصل المدينة القديمة عن المدينة الحقيقية المنخفضة ، حيث التجار ، على ساحل البحر حتى أن الناس يضطرون إلى " استخدام شيء بشبه الونش للصعود بالبضائع والنزول بها "(٥٥). وهناك اليوم مصاعد كهربائية تسهل اجتياز هذا المنحدر الوعر ، ولكنه لا يزال موجودا ولا يزال من الضروري عبوره .

كذلك القسطنطينية الواقعة على القرن الذهبي ، بحر مرمرة والبسفور، مشطورة إلى

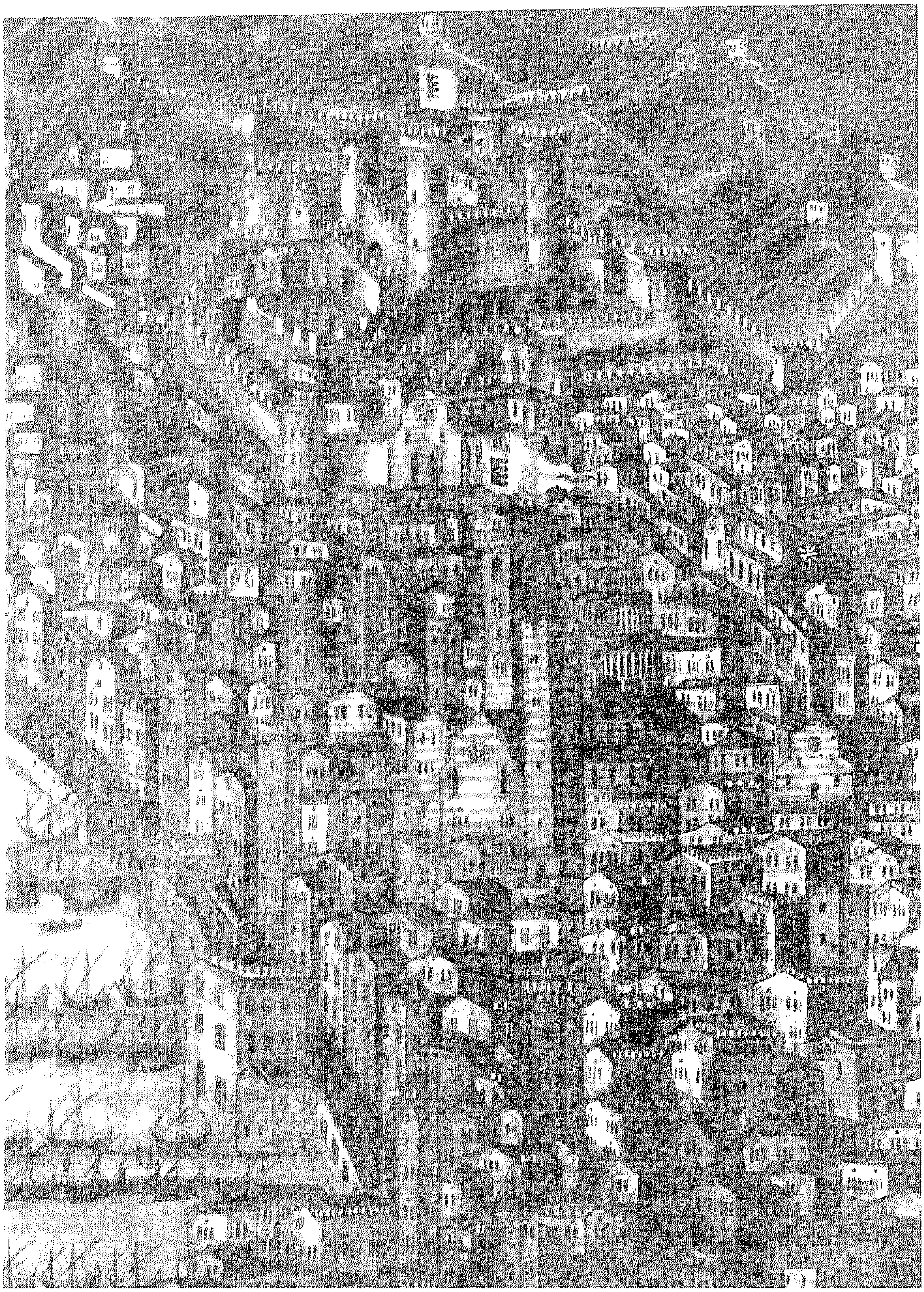

جنوة المحصورة بين الجبل والبحر ، اضطرت الى أن تنمو رأسيا ، وإذا هي ككرة الثلج التى تتضخم في أثناء انحدارها ، مدينة قوامها بيوت متلاصقة بعضها في البعض الآخر ، تميل على مدارج الجبل من المتاريس حتى الميناء . جزء تفصيلي من لوحة ترجع الى القرن الخامس عشر . (متحف (Museo Navale di Pegli

شطرين بينهما مساحات بحرية بالغة الأهمية، وعليها أن تهيء حشدا كبيرا من الملاحين والبحارة لإنجاز عمليات العبور بين الشاطئين ، وهي عمليات لا تنتهي ، ولا تخلو دائما من المخاطر .

ولكن هذه العيوب المزعجة تعوضها ميزات عظيمة وإلا ما كان الناس ليقبلوا هذه العيوب وما كانوا ليحتملوها . وهذه الميزات هي بصفة عامة ميزات الموقع البعيد . وقد اعتاد الجغرافيون الحديث عن "موقع" المدينة من حيث علاقته بالمناطق المجاورة . فالقرن الذهبي هو الميناء الوحيد على طول البحار الهوجاء العاصفة الذي يعتبر محميا بالنسبة لمسافات هائلة. وعلى النحو نفسه نرى في مواجهة سان سالفادور Sao Salvador خليج كل القديسين يمثل صورة مصغرة من البحر المتوسط ينعم بحماية جيدة وراء الجزر، وهذا الموقع على الساحل البرازيلي موقع يسهل على أية سفينة شراعية قادمة من أوروبا بلوغه. ولم تنقل العاصمة من هذا الموضع جنوبا إلى ريو دي جانيرو Rio de Janeiro إلا في عام ١٧٦٣ ، وكان الهدف من هذا النقل تطوير مناجم الذهب في ميناس جيرايس Minas Geraes وجوياث Goyaz .

ولكن كل هذه الميزات يمكن بطبيعة الحال أن تتبدد على المدى الطويل . فقد شهدت ملقا Malacca جنوب شرق آسيا ـ قرونا انعقد لها فيها لواء الاحتكار لا ينازعها فيه منازع ، و" كانت تفرض سيطرتها على كل السفن التي تمر بمضيقها " ؛ حتى ظهرت سنغافورة من العدم ذات يوم في عام ١٨١٩ . ولكن هذا مثل أفضل بكثير مما حدث في عام ١٦٨٥ عندما حلت قادس محل اشبيلية (التي كانت منذ بداية القرن السادس عشر ممسكة بزمام احتكار التجارة مع أمريكا ، أو " بلاد الهند القشتالية " كما كانوا يسمونها) نظرا لأن السفن ذات الغاطس العميق لم تعد تستطيع اجتياز منفذ سان لوكار دي باراميدا San Lucar de Barrameda عند مدخل نهر الواد ي الكبير Guadalquivir. ولقد كان هذا سببا تقنيا وربما كان مبررا لتغيير معقول ولكنه أتاح لعمليات التهريب العالمي فرصتها في خليج قادس الذي يتميز بسعته الهائلة.

أيا كان الأمر فإن الميزات التي يتميز بها موقع المدينة ، سواء كانت ميزات باقية أو ميزات ينالها التبدد ، ضرورية ضرورة لا مناص منها لانتعاش المدن وغناها ، فهذه مدينة كولونيا تقع عند ملتقى نوعين مختلفين من الملاحة على صفحة نهر الراين، ملاحة تتجه ناحية البحر ، وملاحة تتجه نحو المنبع ، وكلاهما يتلاقيان على أرصفتها. ومدينة ريجنسبورج المطلة على نهر الدانوب تقع على منعطف تصل إليه السفن ذات الغاطس العميق قادمة من أولم وأوجسبورج والنمسا والمجر بل ومن فالاخيا (رومانيا) .

وربما لم يكن هناك في العالم كله موقع أكثر تمتعا بالميزات، القريبة والبعيدة، من موقع مدينة كانتون الصينية . هذه المدينة التي " تقع على بعد ثلاثين فرسخا من سواحل البحر

تتأثر ، رغم البعد، بارتفاعات وانخفاضات المد والجزر على مستوياتها المائية المختلفة ، وتفيد منها . ولهذا تصل إليها وتتلاقى في مياهها السفن البحرية، والقوارب الجونكية، والمراكب الأوروبية ذات الصواري الثلاثة ، والسفن النهرية، والسفن السامبانية (سفن صينية بشراع واحد وبريمة خلفية وقمرة للإقامة). وكانت هذه السفن السامبانية تصل الى كل أو جل المناطق الصينية الداخلية عن طريق القنوات ." في هذا المعنى كتب برابانسون ميشيل Brabancon J.-F. Michel في عام ١٧٥٣ : " كثيرا ما تأملت المناظر الجميلة على شواطيء نهرالراين ، ونهر الموز Meuse في أوروبا، ولكن هذه المناظر كلها لا تساوي ربع المناظر التي يعجب بها الإنسان على ضفاف نهر كانتون وحده " (٥٦). ومع ذلك فكانتون لم تنل فرصتها الكبيرة إلا في القرن الثامن عشر عندما سعت الامبراطورية المنشورية إلى إبعاد التجارة الأوروبية إلى أقصى نقطة ممكنة في الجنوب . ولو أوتي التجار الأوروبيون حرية الاختيار، لفضلوا سلوك سبيل نهري نينج بو Ning Po ويانج تسي كيانج Yang-tse-kiang ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمستقبل شانجهاى Chang Hai ويتوقعون الفوائد التي ستعود عليهم ، إذا نفذوا إلى الصين من وسطها .

وهذه هي الجغرافيا ، عندما نربطها على نحو ما بسرعة أو ـ على الأحرى ـ ببطء المواصلات في ذلك الزمان ، تشرح لنا السبب في ظهور آلاف من المدن الصغيرة . فما كانت الـ ٣٠٠٠ مدينة من مختلف المقاسات في ألمانيا في القرن الخامس عشر إلا مراحل على الطرق ،أو محطات لا يفصل بين الواحدة والأخرى إلا أربع أو خمس ساعات في جنوب وغرب البلاد ؛ وسبع أو ثماني ساعات في الشمال والشرق . ولم تكن هذه المحطات قاصرة على الموانيء ، يحكمها القدوم من البر، والقدوم من البحر، كما كانوا يقولون في جنوا، وإنما كانت تحكمها أيضا وسائل النقل البرية والنهرية، العربة التي تسير على الأرض، والسفينة التي تسير على صفحة النهر ، و" حيوانات النقل التي تجتاز دروب الجبال، والعربات التي تسير في السهول ". فالحقيقة أن كل مدينة تتلقى حركة النقل، وحركة المواصلات ، وتجدد نشاطها بعد وعثاء الطريق ، وتوزع ما يرد إليها من بضائع وبشر، وما تنتهي من ذلك حتى تجمع البضائع والبشر من جديد، وهكذا دواليك.

إن الحركة في داخل الأسوار وأمامها هي العلامة المميزة للمدينة الحقيقية . عندما وصل كاريري Careri إلى بكين في عام ١٦٩٧ جرى قلمه بالشكوى: " لقد تعبنا في ذلك اليوم تعبا شديدا من زحام الأعداد الغفيرة من الجمال ، والخيول ، والأفراس التي تيمم شطر بكين، وتقفل راجعة منها ، والتي بلغت من الكثافة حدا جعلنا لا نستطيع التقدم إلا بشق الأنفس"(٥٧).

وسوق المدينة هي التي نحس فيها ، على نحو خاص ، بهذه الحركة الدائبة . استمع إلى هذا الرحالة يقول عن ازمير (في عام ١٦٩٣) : " إنها ليست إلا بازارا وسوقا"(٥٨).. المدينة ، أيا كانت ، هي أولا وقبل كل شيء آخر سوق . إذا لم تكن هناك سوق لم تكن هناك مدينة ؛ وعلى العكس من الممكن أن تقوم السوق بجانب قرية، أو حتى في الخلاء ، في ساحة كبيرة ، أو في ملتقى الطرق ، دون أن تنشأ هناك مدينة . فكل مدينة بحاجة الى أن تضرب جذورها في المكان الذي تقوم فيه ، وبحاجة إلى أن تطعمها الأرض والرجال الذين يحيطونها .

والحياة اليومية في إطارها المحدود تعيش على الأسواق التي تقام أسبوعيا ، أو التي تقام يوميا في المدينة ؛ ونحن نستخدم الكلمة بالجمع ـ الأسواق ـ حيث أننا نفكر مثلا في أسواق البندقية المختلفة التي أسهب في وصفها ماران سانودو Marin Snudo في اليوميات التي تحمل اسم Cronachetta. هناك السوق الكبيرة في ميدان ريالتو، تلك التي يتجمع بجوارها التجار، في كل صباح ، في البواكي التي بنيت لهم : إنهم ينوؤون تحت أحمال الفواكه ، والخضروات، ولحوم الصيد ؛ وإلى مسافة منها يباع السمك . وفي ميدان سان ماركو تقام سوق أخرى . ولكل حي سوقه الخاصة التي تقام في ميدانه الرئيسي. أما البضائع فيوردها إلى الأسواق الفلاحون من المناطق المجاورة، والبستانيون أرباب الحدائق في بادوا Padua والنوتيون الذين يأتون من لومبارديا على مراكبهم النهرية بكل شيء حتى الجبن الضاني .

ومن الممكن أن يؤلف كتاب كامل عن سوق باريس المعروفه باسم les Halles de Paris وعن امتدادها على جسر لافاليه La Vallée، وهو المتخصص في لحم الصيد ، وعن الزحف اليومي المنتظم الذي تتعرض له المدينة الكبيرة منذ مطلع الفجر عندما يأتي خبازو جونيس Gonesse ومن قبلهم خمسة أو ستة آلاف من الفلاحين ، يتوافدون في قلب الليل على عرباتهم ، بين النوم واليقظة ،" يحملون الخضروات والفاكهة والزهور" ـ ولا تنس الباعة الجائلين الذين يتصايحون : " سمك ماكريل صاحي، لسه جاى ، لسه واصل رنجة طازة، طازة . بطاطس مشوية في الفرن . أم الخلول . برتقال . برتقال." والخادمات في الأدوار العلوية لهن آذان مدربة ، يلتقطن بها المراد في وسط الصخب والضجيج، فلا ينزلن إلا في الوقت المناسب عندما يمر البائع المطلوب بالبضاعة المطلوبة. وهناك سوق الجامبون، واللحوم المقددة ، والمدخنة التي تقام يوم الثلاثاء من الأسبوع المقدس: " منذ الصباح الباكر يتوافد الفلاحون القادمون من الأماكن المحيطة بباريس بأعداد غفيرة، فيحتشدون في الميدان المقابل للكنيسة ، وفي شارع نوف نوتردام ، يحملون كميات من لحم الجامبون ، ومن السجق ، والمقانق يتوجونها بأكاليل الغار . يا له من إهدار لقيمة أكاليل الغار التي توج بها يوليوس قيصر وفولتير " من المؤكد أن هذا الكلام هو كلام

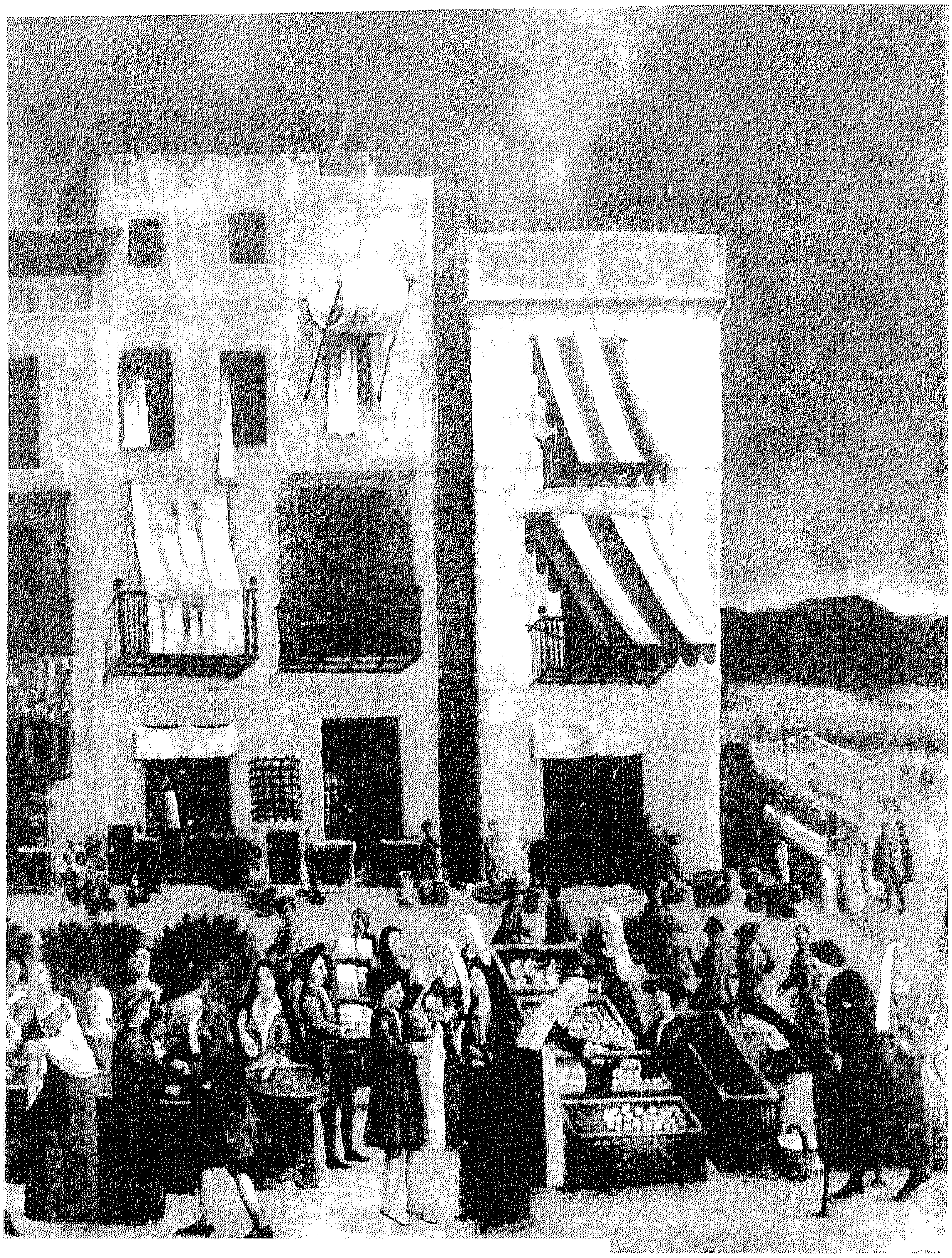

في برشلونة : سوق بورن ديت Borne-det. لوحة من القرن الثامن عشر ، مجهولة الرسام .

سيباستيان ميرسييه(٥٩). ومن الممكن تأليف كتاب أيضا عن لندن ، وأسواقها المتعددة التي جرى تنظيمها شيئا فشيئا : لقد ملأ تعداد أسواقها أكثر من أربع صفحات من الدليل الذي ألفه دانييل ديفو Daniel Defoe ، ومن استأنف العمل فيه وأخرجه من

بعده مرارا : جولة في ربوع الجزيرة البريطانية A Tour through the Island of Great Britain، والذي طبع للمرة الثامنة في عام ١٧٧٥ .

وليس خط الحقول الأول القريب من المدينة والذي يأتيها منه البطاطس اللذيذة والأسبرجس المشهور - إذا أخذنا لايبتسيج مثالا - إلا الدائرة العامرة الأولى من الدوائر العامرة المتعددة التي تحيط بها(٦٠). فليست هناك في الحقيقة مدينة لا تكتنفها تجمعات بشرية كبيرة ، ولا تقوم فيها ثروات منوعة ، تحتل كل ثروة منها مكانا خاصا بها حول المدينة ربما امتد إلى مسافات بعيدة . وحياة المدينة تقوم على التوسع ، وترتبط بأماكن متعددة تتوسع فيها ، وتستأثر بها لنفسها ، ولا تردها إلا في أحوال قليلة، والدليل على ذلك قائم . وليس من شك في أن المدن القوية بسطت نفوذها بسرعة، ومنذ القرن الخامس عشر خاصة إلى أماكن كبيرة دون ما حدود ، فالمدن هي الأدوات التي تنهض بالاتصالات البعيدة المدى التي تصل إلى دوائر الاقتصاد العالمي فتبث فيه الحياة والنشاط، وتفيد منه .

هذا التوسع بأشكاله العديدة يكون مجموعة أو أسرة من المشكلات التي ترتبط بعضها بالبعض الآخر برباط القرابة . فالمدينة تؤثر بحجمها الكبير ، وبحسب صروف الأيام وما تجري به الأحداث ، على الأماكن المتغيرة ، فإذا هي تتضخم تارة ، وتنكمش تارة أخري ، تبعا لإيقاعات وجودها . وهذه هي المدن الفيتنامية في القرن السابع عشر " يقل عدد الناس فيها في الأيام العادية " وتعج بالنشاط الشديد ، وتمتليء بالبشر مرتين في الشهر ، عندما تنعقد السوق الكبيرة . وفي هانوى - وكانت آنذاك تسمى كي شو Ke-cho: " كان التجار يتجمعون بحسب تخصصاتهم في الشوارع المختلفة : شارع لتجار الحرير ، وشارع لتجار النحاس ، وشارع لتجار القبعات ، وشارع لتجار القنب، وشارع لتجار الحديد ". كانوا يتزاحمون في تلك الشوارع ، حتى لقد كان من المحال التقدم في وسط هذه الحشود المتلاطمة من البشر .وكانت بعض الشوارع التجارية تقسم بين أبناء القرى المختلفة، فيخصص هذا الشارع لأبناء هذه القرية الذين " كانوا هم وحدهم أصحاب الامتياز في اتخاذ دكان في هذا الشارع ." كانت هذه المدن" أسواقا عامة أكثرمنها مدنا "(٦١) أو كانت أسواقا موسمية أكثر منها مدنا ، وسواء كانت مدنا أكثر منها أسواقا عامة، أو أسواقا عامة أكثر منها مدنا، أو مدنا أكثر منها أسواقا موسمية أو أسواقا موسمية أكثر منها مدنا ، فالموضوع واحد : فقد كانت هناك على أية حال حركات تجمع، ثم حركات تفرق لا يمكن أن تنشأ بدونها حياة اقتصادية تتسم بشيء من السرعة، لا فرق في هذا بين فيتنام وبين الغرب.

كل مدن العالم ، ابتداء من مدن الغرب ، لها ضواحيها . وكما أننا لا نجد شجرة

قوية بدون فسائل من حول أصلها ، كذلك لا نجد مدنا بغير ضواح ، والضواحي هي الشواهد التي تدل على قوة المدينة ، حتى إذا كانت هذه الضواحي مجرد أحياء طرفية، أو كانت " مستعمرات للمساكين ". ولأن تكون هناك للمدينة مستعمرة للمجذومين، خير من ألا تكون لها ضواح على الإطلاق .

كانت الضواحي هي سكن الفقراء ، والحرفيين ، والمراكبية ، ومكان الصناعات التي تحدث ضجيجا أو تبعث روائح كريهة، ومقر الفنادق الرخيصة ، ومحطات عربات البريد، واسطبلات خيول البريد، وملاذ النشالين ، والخطافين . وقد حدث في القرن السابع عشر أن غيرت مدينة بريمن Bremen الألمانية جلدها ، وسقفت بيوتها المبنية بالطوب بسقوف جمالونية خارجية من بلاط فخار، وعبدت شوارعها ، وشقت عددا من الشوارع العريضة. أما الضواحي من حولها فقد ظلت على حالها محتفظة بسقوفها القديمة المصنوعة من القش(٦٢).وهكذا كان الانتقال من المدينة إلى الضواحي يعني النزول درجة، كانت تلك هي الحال في بريمن. وكذلك كانت في لندن ، وفي غيرهما .

وهنا نذكر تريانا Triana تلك الضاحية أو المحلة التي امتدت إليها أشبيلية، والتي كثيرا ما تحدث عنها ثربانتس Cervantes صاحب رواية دون كيخوته أو دون كيشوت. كانت تريانا هذه ملتقى الأشرار ، واللصوص ، والغانيات ، ورجال البوليس الزائفين، إطارا يصلح لرواية بوليسية ، سوداء بطبيعة الحال . بدأت الضاحية على الشط الأيمن لنهر الوادي الكبير عند موقع جسر المراكب الذي يسد النهر ناحية المنبع ، على نحو يشبه جسر لندن الذي يسد نهر التيمس ، مع الفارق في المقاييس . أما السفن التي كانت تلم بهذه الضاحية المغرية ، فلم تكن تحدوها حسن النية عندما تأتي من البحر يدفعها المد نحو اشبيلية قادمة من سان لوكار دي باراميدا ، أو من ميناء سانتا ماريا Puerto de Santa Maria أو قادس Cadix. ومن المؤكد أن تريانا ما كانت تكتسب سمتها الخليعة الخلابة ، وما كانت تنشيء حاناتها ، وتمد تكعيبات كرومها، لو لم تكن اشبيلية بجوارها، على منال يدها، بمن فيها من أجانب، " فلمنكيين" وغير فلمنكيين ، من أغنياء جدد ، وممن كانوا يسمون بالبيروليروس peruleros، عادوا من العالم الجديد ليتمتعوا بثروتهم . وتشير إحصائية ترجع الى عام ١٥٦١ إلى أن تريانا كان بها ١٦٦٤ بيتا و٢٦٦٦ من الأسر ، تعد الواحدة منها ٤ أفراد ، وهو ما يعطي صورة عن تجمع كبير من البيوت وعدد من السكان يزيد على ١٠٠٠٠ نسمة، وهو ما كان يكفي لتكوين مدينة(٦٢). ولما كان اللهو والنشاط المنافي للأخلاق لا يكفيان لإرساء قواعد الحياة في تريانا ، فقد بدأ العمل المنتج يقوم بدوره ، فأنتج العمال الحرفيون بلاط الخزف المكسو بطبقة لامعة،الزُّليج الأزرق azulejos، والأخضر ، والأبيض برسومه الهندسية التي تنطق بأثر فنون الإسلام (وكان هذا الزليج يصدر إلى اسبانيا كلها وإلى العالم الجديد).

كذلك قامت فيها مصانع لصناعة الصابون ، الصابون الأبيض، والصابون الأسود، ومواد الغسيل. ولكن تريانا ظلت ضاحية لا أكثر ولا أقل. ولقد مر بها كاريري في عام ١٦٩٧ ، فكتب في وصفها هذه العبارة : " ليس بها ما يستحق الذكر إلا دير، وقصر، وسجون محاكم التفتيش "(٦٤).

المدن ... ودرجاتها

المدينة الصغيرة تنشأ بالضرورة على مسافة ما من المراكز الحضرية الكبيرة . وهي تنشأ هناك مرتبطة بسرعة المواصلات ، حيث تلعب سرعة المواصلات دورا هاما في تشكيل المكان ، وإقامة سلسلة متتالية من المحطات أو المدن على خط المواصلات. وقد عبر الأديب الفرنسي ستندال Stendhal (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) عن دهشته لسماحة المدن الايطالية الكبيرة حيال المدن المتوسطة والصغيرة ، حيث تركتها قائمة . ولكن الحقيقة هي أنها لم تقض عليها ، وهي المنافسة لها ، بدافع من السماحة ، وانما لأنها لم تستطع القضاء عليها، وكانت تهاجمها بعنف ، حتى أن فلورنسا احتلت بيزا Pisa في عام ١٤٠٦ وهي تحتضر أو تكاد ، وصبت جنوا على ميناء سافوني Savone جام غضبها في عام ١٥٢٥، ولكن بيزا وسافوني بقيتا ، ولم تستطع المدينتان الكبيرتان أن تقضي عليهما، لأنهما كانتا بحاجة إليهما ، فالمدينة الكبيرة لا تكون كبيرة إلا إذا أحاطت نفسها بهالة من المدن الثانوية ، واحدة لتنسج القماش وتصبغه ، وثانية لتنظم حركة النقل، وثالثة لتكون بابا على البحر مثل ليفورنو بالنسبة لفلورنسا ، وكانت فلورنسا تفضلها على بيزا التي كانت تجدها عدائية الطبع بعيدة التوغل في اليابسة .من أمثلة المدن المتوسطة التي تنشأ في فلك المدينة الكبيرة نذكر الاسكندرية أو السويس بالنسبة للقاهرة ، وطرابلس والاسكندرونة بالنسبة لحلب ، وجدة بالنسبة لمكة .

وتتخذ هذه الظاهرة في أوروبا سمات واضحة ، شديدة الوضوح ، حيث نجد المدن الصغيرة كثيرة . وكان رودولف هيبكه Rudolf Haepke (٦٥) هو أول من استخدم عبارة " أرخبيل المدن " متحدثا عن فلاندريا Flandern مصورا مدنها المرتبطة بعضها بالبعض الآخر ، والمرتبطة أكثر بمدينة بروجه Bruegge في القرن الخامس عشر، وبعد ذلك بمدينة أنتفربن Antwerpen . وأعاد هنري بيرين Henri Pirenne التعبير عن نفس المعنى قائلا " ما هولنده إلا ضاحية أنتفربن " ضاحية مليئة بالمدن النشيطة ، المدينة الكبيرة هي أنتفربن ومن حولها كوكبة من المدن في الأراضي الواطئة. ومن هذا القبيل، ولكن على مستوى صغير، الأسواق المحيطة بجينيف في القرن الخامس عشر، والتي كانت تتخذ صورة الكوكبة أو الهالة المحيطة بالمدينة الكبيرة، وفي العصر نفسه الأسواق الكبيرة الموسمية حول ميلانو؛ وفي القرن السادس عشر سلسلة الموانيء المتتابعة على

الساحل البروفنسالي المرتبطة بمارسيليا ، ابتداء من مارتيج Martigues على بركة بير Berre وحتى فريجو Fréjus ؛ أو تلك الكوكبة من المدن التي أحاطت بمدينة اشبيلية ، كما تحيط الثريا بالنجم الكبير ، فقد ارتبطت باشبيلية مدن أصغر منها هي سان لوكار دي باراميدا ، وبويرتو دي سانتا ماريا وقادس Sanlucar de Barrameda, Cadix Puerto de Santa Maria، كذلك نجد هالة من المدن تحيط بالبندقية ؛ أو نجد روابط تربط برغش Burgos في اسبانيا بمدائن مختلفة تعتبر بمثابة مرافئها المتقدمة (وبخاصة بيلبائو Bilbao) ، وقد ظلت برغش حينا طويلا تمارس رقابتها عليها حتى إبان اضمحلالها ؛ ومن هذا القبيل لندن ومرافيء التيمس وبحر المانش ؛ وأخيرا المثل الكلاسيكي المعروف وهو مجموعة مدن الهانزا Hansa في ألمانيا. وفي الدرجة الدنيا من هذه المنظومات ، حيث ترتبط بالمدينة الكبيرة مدينة صغيرة واحدة ، يمكننا أن نذكر كومبييني Compiegne الفرنسية ومدينتها التابعة الوحيدة في عام ١٥٠٠ ، وهي مدينة بييرفون Pierrefonds؛ كذلك يمكن أن نذكر مدينة سانليس الفرنسية Senlis التي لم يكن لها سوى مدينة تابعة واحدة هي كريبي Crépy(٦٦). وهذه المعلومة في حد ذاتها تحمل حكما على حجم كومبييني ، وسانليس . كذلك يمكننا أن نتبين سلسلة من كوكبات أو منظومات مختلفة تأتلف فيها الارتباطات والتبعيات ، ونتبين فيها مثلا: نمط الدوائر المألوفة التي تدور فيها المدائن الأصغر حول المركز الأكبر ، ونمط الخطوط المستقيمة أو الخطوط المتقاطعة التي تقوم المدن المختلفة عليها ، ونمط النقط العادية التي لا ترسم دوائر أو خطوطا مستقيمة أو خطوطا متقاطعة .

ولكن هذه التكوينات أو المنظومات التي تضم مجموعات من المدن لا تستمر إلا إلى حين. فحركة المواصلات ـ حتى إذا لم تشكل طرقها المفضلة وتعدلها ـ تزيدها سرعة، فإذا ببعض المحطات تتخلف عن الركب ، وتخرج من الخدمة وتتلاشى. في عام ١٧٨٢ يسجل سيباستيان ميرسييه: " مدن الدرجة الثانية والثالثة تخلو من السكان شيئا فشيئا " بينما تمتليء العاصمة بالناس(٦٧). ويتحدث الأديب فرانسوا موریاك François Mauriac(١٨٨٥ ـ ١٩٧٠) عن ضيف انجليزي استقبله في موطنه في الجنوب الغربي من فرنسا فيقول : " نزل في فندق السبع الذهبي ، وأمضى الليلة يتمشى خلال المدينة الصغيرة النائمة ، وقال لي أنه لم تعد هناك في انجلترة مدن صغيرة من هذا القبيل . والحق أن حياتنا في الأقاليم بقيت حية من الماضي ، إنها بقية بقيت من عالم في طريقه إلى التلاشي بل قد تلاشى بالفعل . هكذا اصطحبت صديقي الانجليزي إلى بازاس Bazas . يا للتعارض بين هذه المدينة الصغيرة الناعسة ، وبين كاتدرائيتها الفسيحة التي بقيت شاهدا على زمن كانت فيه المدينة مقرا زاهرا للمطرانية . إننا لم نعد نستطيع أن نتخيل ذلك العصر الذي كان فيه كل إقليم يكون عالما في حد ذاته يتكلم

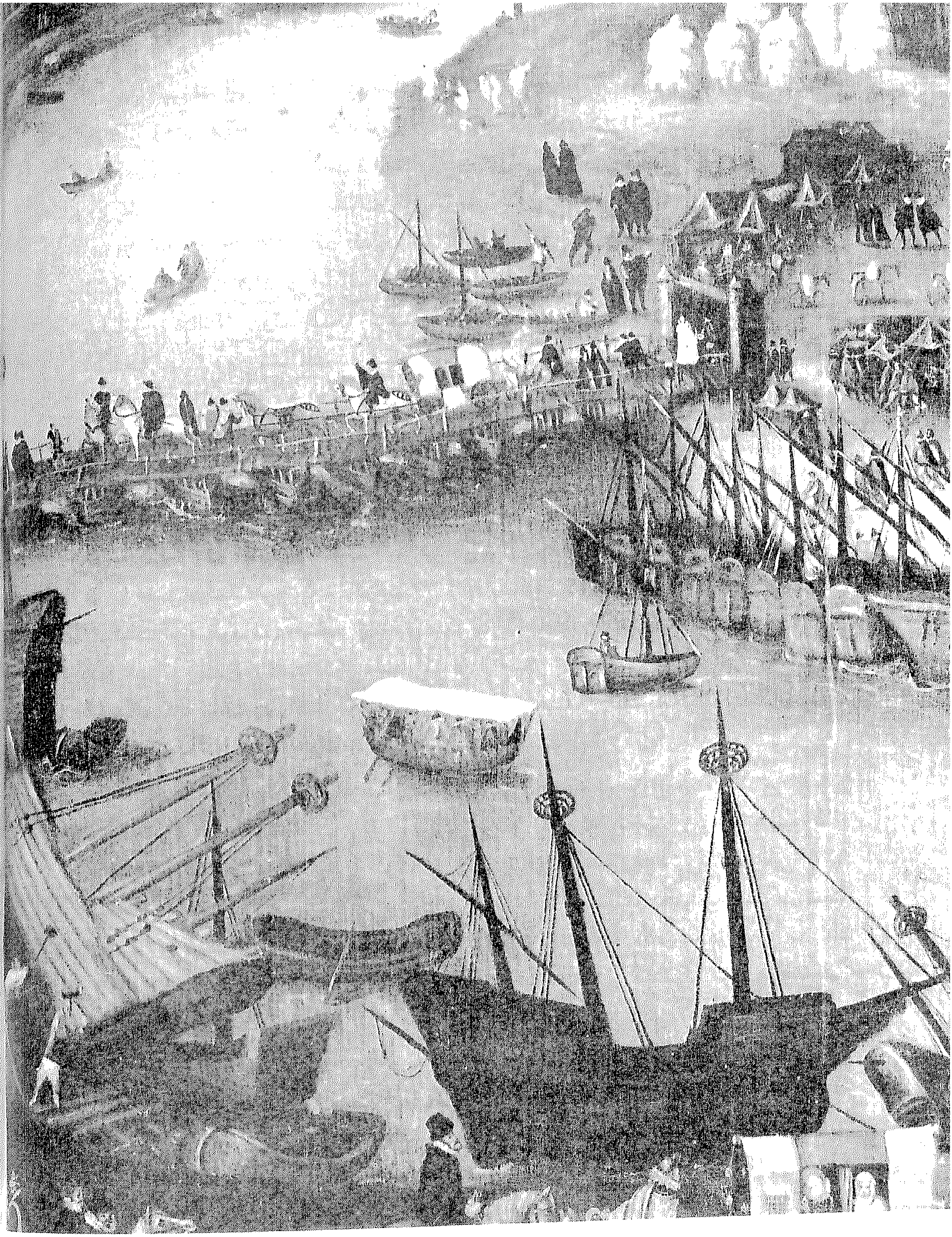

ميناء اشبيلية . لوحة تنسب الى كويللو Coello، من القرن السادس عشر .

لغته، وينشيء عمائره ، ومجتمعا رفيعا متمايز الطبقات لا يعلم شيئا عن باريس وموضاتها . باريس الرهيبة التي استطعمت هذه المادة المدهشة فأتت عليها "(٦٨).

ومن البديهي أن باريس لا تتحمل في هذا المقام من الإثم أكثر مما تتحمل لندن. الذنب ذنب الحركة العامة للحياة الاقتصادية وحدها ، فهي التي تأتي على النقاط الثانوية من شبكات المدن ، لصالح النقاط الجوهرية . ولكن هذه النقاط الجوهرية أو الكبيرة تكون ، بدورها ، شبكات فيما بينها على المستوي المتعاظم للعالم . شبكات تتلاشى، وشبكات تتكون . لعبة لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد . حتى في جزيرة توماس مور Thomas More اليوطوبية Utopia، جزيرة الكمال المأمول ، تحيط بالعاصمة أموروت Amaurote ٥٣ مدينة . أجمل بها من شبكة! وتمتد بين كل مدينة وجارتها مسافة قدرها ٢٤ فرسخ تقريبا، أي مسافة يقطعها المسافر في أقل من نهار . ولكن هذة المنظومة من المسافات، بهذا الطول ، وهذا التوزيع ، يتغير حالها توا لو زادت وسائل المواصلات من سرعتها، حتى إذا كانت الزيادة قليلة ، شديدة القلة.

المدن والحضارات :

مثال الحضارة الإسلامية

هناك سمة أخرى مميزة تشترك فيها المدن كلها، وإن كانت هي السبب في اختلاف سحناتها اختلافا عميقا، فالمدن كلها وليدة حضاراتها، ولكل مدينة نموذج أول نقلت عنه. والأب دي هالد de Halde يحب أن يكرر هذا المعنى (١٧٣٥) : " لقد قلت في موضع آخر أنه لا يكاد يكون هناك اختلاف بين غالبية مدن الصين ، وأنها متشابهة إلى حد كبير ، بحيث أنه يكفي أن يري الإنسان مدينة واحدة حتى يكون فكرة عن المدن الأخرى كلها "(٦٩) . من منا لا يحب أن ينسب إلى نفسه هذه العبارات السريعة، التي لا جرأة فيها ، عندما يتحدث عن مدن مسكوفيا ، ومدن أمريكا أبان الاستعمار، ومدن العالم الإسلامي (تركيا أو فارس)، بل ومدن أوروبا نفسها ، وإن كنا نشعر بشيء من التردد بالنسبة لمدن أوروبا ؟

ليس هناك أدنى شك في أن هناك في عالم الإسلام ، من جبل طارق إلى جزر سندا la Sonde (اندونيسيا) نمط مدينة إسلامية ، ويمكننا أن نكتفي بالحديث عن هذا النمط كمثال يشهد على صورة العلاقات الواضحة القائمة بين المدن والحضارات(٧٠).

كانت المدن الإسلامية ، في القرون التي نتناولها في الكتاب ، بصفة عامة مدنا ضخمة ، بعيدة بعضها عن البعض الآخر، وكانت البيوت فيها منخفضة ، ومتلاصقة كحبات الرمان ، فالإسلام ، كما فهم الناس ، يحرم (إلا من بعض الاستثناءات : في مكة وميناءها جدة ، أو القاهرة) بناء البيوت العالية التي تعبر عن الكبر المقيت . ولما لم

يكن للمباني أن ترتفع الى أعلى فقد كانت تمتد أفقيا ، فتغزو الطرق العامة التي لم تكن الشريعة تحرم غزوها إلا بغير حسم . وكانت الشوارع في أغلبها حارات ضيقة ، ربما سدها حماران متجاوران مسروجان .

في استانبول كانت " الشوارع ضيقة كالشوارع في مدننا القديمة" على ما يذكر رحالة فرنسي في عام ١٧٦٦ .ويضيف: " وهي بصفة عامة قليلة الحظ من النظافة ، وتصبح صعبة مزعجة مرهقة عندما يسوء الجو، لأنها لا تتخذ على الجانبين رصيفين للمشاة . وإذا تلاقى في الطريق اثنان يركبان المطايا ، فلا مفر من النزول أو الدخول إلى أعتاب البيوت . والإنسان عندما يدلف إلى عتب بيت يصبح في مأمن من المطر. وأكثر البيوت من طابق واحد ، يعلو فوق الدور الأرضي ؛ وكل البيوت أو جلها مدهونة بالزيت. وربما جعل هذا الطلاء الزخرفي الحيطان أقل قتامة وأقل كآبة ، ولكنها تظل دائما رهيبة الطابع . وكل البيوت ، لا يستثنى منها بيوت السادة وكبار أثرياء الأتراك، مبنية بالخشب والطوب ومبيضة بالجير : وهذا هو السبب في أن الحرائق تحدث فيها في وقت قليل خسائر فادحة " (٧١).

وعلى الرغم من الاختلاف الهائل في الموقع فإن المشهد يوشك أن يتكرر بحذافيره في القاهرة ، كما وصفه فولني Volney في عام ١٧٨٢ ، وفي بلاد فارس التي تأمل مدنها رحالة فرنسي آخر هو رافائيل دي مانس Raphaël du Mans قبل ذلك بقرن من الزمان - في عام ١٦٦٠ - ، يقول عن المدن الفارسية : " وشوارع المدن [...] ملتوية ، كثيرة المطبات ، تمتليء هنا وهناك بالحفر ، التي يحفرها هؤلاء الأشقياء لكي يتبولوا فيها حسب القانون حتى لا يرتد البول إليهم فينجسهم " (٧٢). ويتلقى جيميللي كاريري نفس الانطباع بعد ثلاثين سنة في أصفهان - في عام ١٦٩٤ : الشوارع في أصفهان كحالها في ربوع فارس قاطبة ليست معبدة ، فهي تمتليء بالوحل شتاء وبالغبار صيفا . ويضيف : " وتزداد هذه الوساخة نتيجة لاعتياد الناس إلقاء رمم الحيونات في الميادين العامة بالإضافة إلى دماء الحيوانات التي يذبحها الجزارون ، وقضاء الحاجة في الأماكن العامة في كل مكان يمر به الإنسان ..." . لا ، لا مجال لمقارنة اصفهان ببالرمو ، كما حلا للبعض أن يتقدم باصفهان الصفوف ، ويضعها حيث تقوم بالرمو ، لا ، إن " أقل بيت [...] يمتاز على أفضل بيوت أصفهان..." (٧٣).

وكانت كل مدينة من المدن في العالم الإسلامي عبارة عن شبكة متشابكة لا تنحل عقدها من الحارات، ولا تلقى الرعاية ، والصيانة الواجبة . ولكنهم استغلوا انحدار الحارات، في توجيه مياه المطر والجداول، بحيث تقوم وحدها بتنظيف الطرقات. ولكن الصورة الطبوغرافية المتشابكة للمدينة تنضوى على خطة منتظمة إلى حد كبير. في

وسطها الجامع الكبير ، ومن حوله حارات التجار (الأسواق souqs) والمستودعات والمخازن (الخانات khans والكرفانسرايات) ثم تتوالى الدوائر مشتركة في مركز واحد ، راسمة قطاعات دائرية متتالية ، يقيم فيها الحرفيون بحسب ترتيب تقليدي من الداخل إلى الخارج يراعي مفهوم الطهارة والنجاسة . فتجار العطور والبخور " الذين يتعاملون في أشياء يعتبرها رجال الشرع طاهرة لأنها مكرسة لكل ما هو مقدس" يكونون في الدائرة القريبة من الجامع الكبير ، ويجاورهم القزازون الذين ينسجون الحرير أو القز ، والصياغ ، وهكذا . أما الأطراف الخارجية فللمشتغلين بالدباغة ، والحدادة، والبيطرة ، والفخار ، والصباغة ، والمكاريين الذين يسيرون حفاة ، ويتصايحون، ويتشاجرون مع حيواناتهم . أما البوابات نفسها فيأتي عندها الريفيون ليبيعوا اللحم، والخشب ، والزبد الزنخ ، والخضروات ،" والأعشاب الخضراء "، هناك يبيعون كل ما تجنيه أيديهم عن عمل أو " نشل " . وهناك سمة أخرى منتظمة عامة وهي : التقسيم إلى أحياء بحسب الأجناس والأديان؛ فهناك دائما تقريبا حي للمسيحيين وحي لليهود، ويخضع حي اليهود عادة لحماية الأمير ، وربما أدى هذا إلى وضع الحي في وسط المدينة كما هي الحال في تلمسان .

وكل مدينة تمثل بطبيعة الحال تنويعة على هذا اللحن ، ويرجع سبب التنويعات إلى أمور منها على الأقل : أصل المدينة ، وأهميتها في مجال التجارة أو الحرف. من هذه التنويعات ما نراه في استانبول مثلا حيث قامت السوق أو ـ السوقان البسيستان besistans المبنيتان من الحجر ـ وهذه السوق الرئيسية المزدوجة تعتبر مدينة داخل المدينة . وفي بيرا Pera وجالاته Galata أحياء مسيحية كأنها مدينة أخرى تقوم وراء القرن الذهبي . وفي قلب مدينة أندرينوبل Andrinople يرتفع مبنى البورصة . " وعلى مقربة من هذه البورصة يجد الإنسان شارع السراجي Serachi (١٦٩٣) المليء بالمحال وبكل أنواع البضائع ، وهو شارع طويل يمتد ميلا كاملا، مسقوف بألواح بعضها فوق البعض الآخر، بينها من الجوانب فراغات ينساب منها الضوء. " وعلى مقربة من الجامع " شارع مسقوف هو شارع الصاغة" (٧٤).

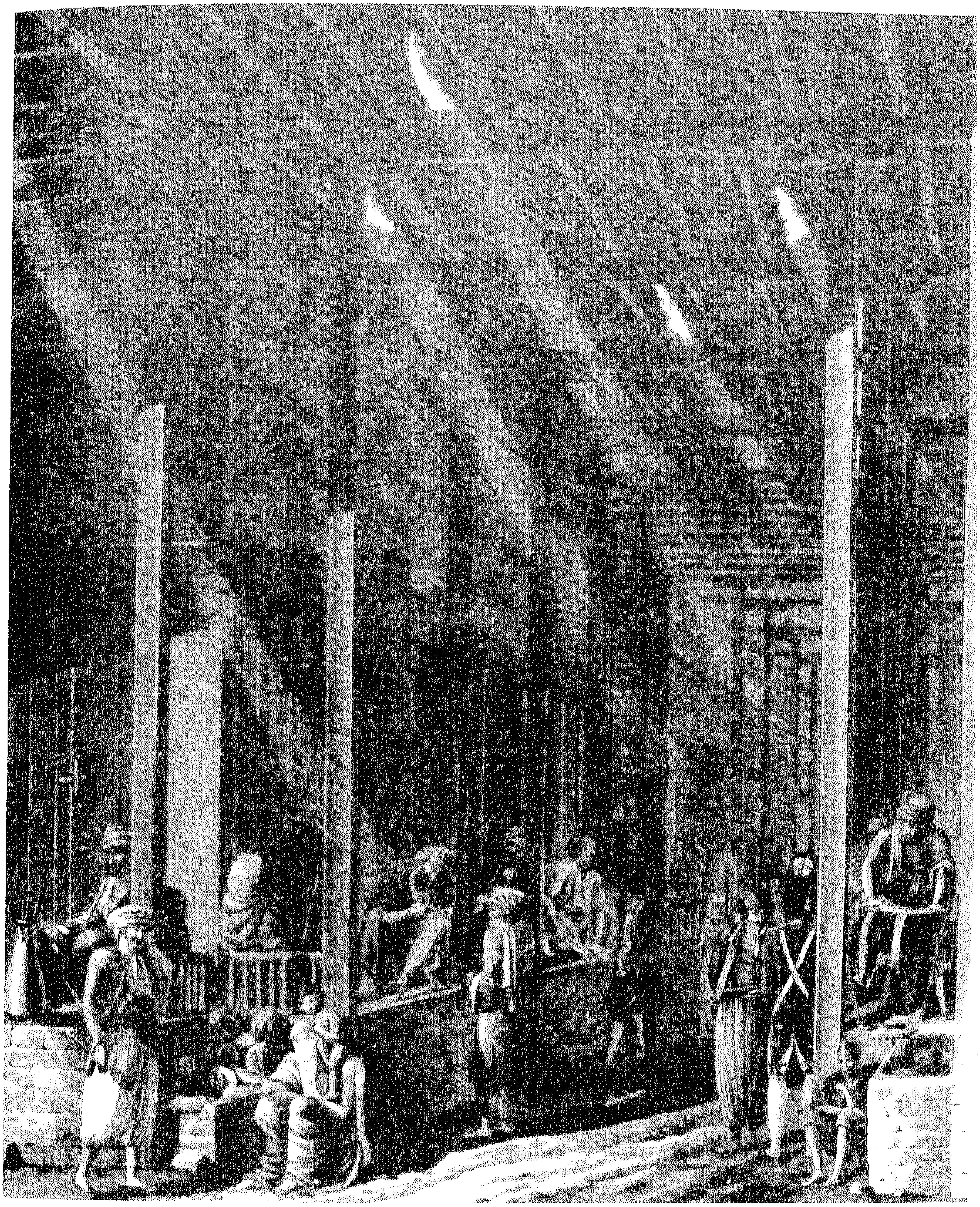

منظر السوق الكبيرة الرئيسية في الاسكندرية في آخر القرن الثامن عشر . من كتاب " وصف مصر " Description de l`Egypte، صورة مرسومة بالحفر على النحاس تاريخها ١٨١٢ .(متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس)

أصالـــة مدن الـغـــرب

أصبح الغرب في وقت مبكر نسبيا أشبه شيء بالترف بالنسبة إلى العالم . وبلغت المدن في الغرب مستوى لا نجده في غيره ، وكانت المدن هي صانعة العظمة في القارة الأوروبية الضيقة . ونحن عندما نتصدى للحديث عن هذه الموضوعات نواجه مشكلة ليست بسيطة على الرغم من أننا نعرفها معرفة جيدة . فتحديد التفوق تحديدا دقيقا يتطلب الإشارة إلى المستوى الأدنى او المتوسط الذي يتحدد التفوق بالنسبة إليه. والحديث في هذ الموضوع يؤدي ، آجلا أو عاجلا ، إلى مواجهة مع بقية العالم تحمل في طياتها الحرج، والضجر، وخيبة الأمل. ومن المحال، إذا ما تحدث الإنسان عن الثياب، والنقود، والمدن ، والرأسمالية ـ على نحو ما قال ماكس فيبر Max Weber ـ أن يتهرب من إجراء المقارنات، لأن أوروبا لا تكف عن شرح نفسها " بالقياس إلى القارات الأخرى."

ما هي أوجه الأصالة في أوروبا وما هي أوجه الاختلاف بينها وبين بقية العالم؟ نقول:

ـ إن مدنها قامت في إطار حرية لا نظير لها ؛

ـ إنها تطورت كعوالم مستقلة استقلالا ذاتيا وبحسب حركتها الذاتية ؛

ـ إن المدن في أوروبا ظهرت على الدول ، التي نشأت في بطء ، ولم تكبر إلا بعون هذه المدن ، وكان عونا تحرت فيه المدن مصلحتها ، ولم تصبح الدول سوى نسخة منتسخة مكبرة من هذه المدن وحياتها ، نسخة كثيرا ما كانت باهتة خالية من كل طعم ومذاق ؛

ـ إنها هيمنت من موضع غاية في الارتفاع على الأرياف التي اعتبرتها بمثابة مستعمرات حقيقية تحت أمرها ، قبل أن يظهر هذا المصطلح ، وكانت المدن تعامل الأرياف فعلا كمستعمرات لها (وفيما بعد عاملت الدول الأرياف كما كانت المدن تعاملها) ؛

ـ إنها عن طريق تنظيم علاقات وشبكات من المواصلات والاتصالات ، لها مراحلها ومحطاتها ، اتبعت سياسة اقتصادية خاصة بها ، كانت في أغلب الأحيان قادرة على تحطيم العقبات ، وكانت في كل الأحوال قادرة على خلق الامتيازات وتجديدها ، واتخاذ هذه الامتيازات درعا تحتمي به .

ويمكننا ، لنتصور دور المدن ، أن نرسم صورة في خيالنا ، نمحو منها دول اليوم، ونترك الغرف التجارية في المدن الكبيرة حرة تلعب على مزاجها ، وكما يحلو لها ، عند ذلك سنرى العجب العجاب

والحق أننا لسنا بحاجة إلى هذه الوسائل البلاغية الافتراضية البسيطة الساذجة ، لكي نفهم الأمور على وجهها الصحيح ، فالحقائق القديمة تمثل أمام أعيننا واضحة جلية. وهي تنتهي بنا إلى مشكلة أولى يمكن أن نطرحها في صياغتين أو ثلاث صياغات مختلفة: لماذا لم يتح القدر لمدن العالم الأخرى سلوك سبل مشابهة تنعم بقدر كبير من الحرية؟ أو: من الذي حال ـ من هؤلاء الذين حالوا ـ بين هذه المدن وبين الدخول في حلقة الرقص التي دخلت فيها المدن المحظوظة ؟ أو لننظر إلى ناحية أخرى من نواحي المشكلة : لماذا كان قدر المدن يسير في الغرب في اتجاه التغيير ـ حتى أنها تغيرت في كيانها الفيزيقي نفسه ـ بينما ظلت المدن الأخرى كالمدفونة تحت السكون والخمود الطويل؟ لماذا كانت بعض المدن مثل الآلات البخارية ، وكانت الأخرى كساعات الحائط ـ مستعيرين أسلوب ليفي ستروس Lévi-Strauss ؟ والخلاصة : أن التاريخ المقارن يلزمنا بأن نبحث عن أسباب هذه الاختلافات ، وبأن نستخلص نموذجين ، نموذجا " ديناميكيا " ينطبق على حالة التطور العارم للمدن في الغرب ، والنموذج الثاني هو نموذج حياة المدن الأخرى على وجه البسيطة ، نموذج يسير على خط مسقيم طويل لا يحيد عنه ، ولا يغيره ، ولا يعترضه على مر الزمن الكثير من الانتفاضات والهزات .

عوالم حـــــرة

الحريات الحضرية ، أو الحريات التي نعمت بها المدن في أوروبا موضوع كلاسيكي واضح إلى حد كبير ؛ فلنبدأ به .

يمكننا على سبيل التبسيط أن نقول :

أولا:

أن الغرب فقد ـ بكل ما في كلمة الفقد من معنى ـ تجهيزاته الحضرية ، فقد المقومات التي تكونت منها مدنه القديمة مع نهاية الامبراطورية الرومانية التي شهدت مدنها اضمحلالا تدريجيا قبل قدوم البرابرة . وإذا غضضنا البصر عن النشاط النسبي المحدود الذي حدث في مجال المدن في زمان الميروفينجيين (من القرن السادس إلى منتصف القرن الثامن) ، فقد حدث في هذا الوقت ، في تاريخ قد يقدمه البعض إلى الأمام وقد يؤخره البهض إلى الوراء قليلا ، توقف في مجال المدن أو التعمير الحضري، توقف يوشك أن يكون كاملا أو هو نوع من مسح كلي للقديم .

ثانيا:

إن النهضة الحضرية ، نهضة تعمير المدن ، ابتداء من القرن الحادي عشر أخذت تسير بخطى سريعة ، متكئة على العصارة الريفية الصاعدة ، وعلى التقدم المنوع المتعدد الجوانب الذي شمل الحقول وبساتين الكروم وبساتين الفاكهة . فكبرت المدن متوافقة مع

القرى، وكثيرا ما كان حق المدينة المحدد المعالم ينبثق عن امتيازات حصلت عليها مجالس مجموعات من القرى . وكثيرا ما كانت المدينة تتكون من عجينة ريفية يعاد تشكيلها من جديد . وإذا نحن نظرنا إلى طبوغرافية مدينة فرنكفورت الألمانية (التي ظلت ريفية حتى القرن السادس عشر) وجدنا طائفة من الشوارع احتفظت في أسمائها بذكرى الغابة والأشجار والمستنقعات التي نمت المدينة في وسطها (٧٥).

هذا التجميع الحضري لمناطق ريفية ـ الذي تتكون فيه مدينة من مجموعة من القرى ـ أدى منطقيا إلى دخول ممثلين عن السلطات السياسية والاجتماعية للريف والسادة أصحاب الأرض والأمراء العلمانيين والأمراء الكهنوتيين في المدينة الناشئة .

ثالثا :

ما كان يمكن تحقيق شيء من هذا الذي حققته المدن دون الاستناد إلى دعامة عامة أساسية ، هي كالصحة بالنسبة للإنسان ، هذه الدعامة هي : اقتصاد نقدي متعاظم. والنقود هي هذا المسافر القادم ربما من بعيد (الرأي عند موريس لومبار Maurice Lombard أنه قدم الينا من العالم الإسلامي). النقود مسافر يتسم على أية حال بالنشاط والهمة والحسم . كان آلان دي ليل Alain de Lille حجة اللاهوت في القرن الثاني عشر، يقول قبل توماس الأكويني بقرنين: " ليس قيصر هو كل شيء الآن. النقود هي الآن كل شيء ." ومن يقول النقود يعني : المدن .

ولقد نشأت آلاف مؤلفة من المدن ، ولكن القليل منها كان ينتظره مستقبل باهر. كانت بعض المناطق المعينة دون غيرها تتحضر تحضرا عميقا ، تتحول إلى مدن، وتتمايز فجأة عن المناطق الأخرى ، وتلعب دورا محركا واضحا ، من هذه المناطق نذكر: مناطق بين نهر اللوار ونهر الراين ، مناطق في ايطاليا العليا والوسطى ، مناطق على نقاط حاسمة على سواحل البحر المتوسط . ما كانت المدن تنشأ حتى يظهر فيها التجار، والاتحادات الحرفية ، والصناعات ، وعمليات النقل البعيد ، والبنوك ، والبورجوازية، بورجوازية معينة ، بل ورأسمالية معينة . وكان مصير هذه المدن الخاصة مرتبطا، لا بالنمو الريفي وحده ، ولكن بالتجارة الدولية . ثم إن المدن لن تلبث أن تنفصل عن المجتمعات الريفية، وعن الارتباطات السياسية القديمة . كان هذا الانفصال يتم بالعنف، أو بالحسنى ، ولكنه كان دائما علامة على القوة ، على المال الوفير وعلى النفوذ.

وما لبثت الدول أن دالت حول هذه المدن ذات الامتيازات ، حدث هذا في ايطاليا وفي ألمانيا مواكبا للاضمحلال السياسي في القرن الثالث عشر. وكسب الأرنب هناك في سباقه مع السلحفاة . أما في غير ايطاليا وألمانيا: في فرنسا وانجلترة وقشتالة وأراغون فإن الدولة الاقليمية نهضت مبكرة مما أدي إلى تثبيط حركة المدن هناك ، وكانت المدن،

علاوة على ذلك ، قد قامت في مجالات اقتصادية قليلة الحيوية والنشاط . ولهذا كانت المدن في تلك البقاع أقل سرعة في جريها من المدن في ايطاليا وألمانيا .

ولكن الشيء الجوهري ، الشيء الذي لم يكن من الممكن التنبوء به هو أن بعض المدن نسفت الإطار السياسي نسفا كاملا، وصنعت لنفسها عالما مستقلا، فكانت " مدنا دولا" في وقت واحد ، مكللة بالامتيازات ، المكتسبة أو المغتصبة، التي كانت بمثابة متاريس قانونية تحتمي وراءها. وربما ألح المؤرخ بالأمس على ما كان للمدينة من امتيازات وحقوق ، وعلى " المقومات التي تتصل بالحقوق إلحاحا مبالغا فيه ، لأنها كانت أحيانا سببا هاما من أسباب وجودها وبقائها ، فكانت حقوق المدينة تتخذ مكانا متميزا ، فوق أو بجانب المقومات الأخرى التي تتصل بالجغرافيا أو الاجتماع أو الاقتصاد ، وكانت هذه المجالات الثلاثة تتخذ أهمية كبيرة . وهل تفيد الامتيازات بغير ركيزة مادية ؟

والحقيقة أن المعجزة التي حدثت في الغرب لا تتمثل بالضبط في أن كل شيء ، أو تقريبا كل شيء ، كان قد أبيد إبان كارثة القرن الخامس الميلادي ، وأن كل شيء نهض من جديد اعتبارا من القرن الحادي عشر . فالتاريخ مليء بحركات الذهاب والإياب البطيئة تكتنف الحياة الدنيا ، ومليء كذلك بالتوسعات ، وبألوان من نشأة المدن ونهضاتها بعد كبواتها : هناك اليونان من القرن الخامس إلى القرن الثاني ق م ، وهناك إذا شئنا روما ، وعالم الإسلام منذ القرن التاسع الميلادي ، والصين ايام حكم السونج Song. ولكن كل هذه الحركات الطامحة إلى العلا كانت كمباريات للجري تسابق فيها متسابقان: الدولة والمدينة . وكانت الدولة هي التي تكسب المباريات بصفة عامة، وتصبح المدينة تابعة خاضعة لها ، تنوء تحت قبضتها الثقيلة . أما المعجزة التي حدثت في أوروبا في القرون الأولى لحركة التعمير الحضري الكبيرة فتتمثل في أن المدينة كسبت المباراة كسبا باهرا أكيدا ، على الأقل في ايطاليا ، وفلاندريا ، وألمانيا، وعاشت زمنا طويلا تجمع خبرات حياة كاملة قائمة بذاتها ، وكان ذلك حدثا هائلا لايمكن الإحاطة بنشوئه وارتقائه احاطة نطمئن إليها. ولكن النتائج الهائلة كانت واضحة جلية .

حداثة المدن

انطلاقا من هذه الحرية التي أتيحت للمدينة حيال الدولة نهضت المدن الكبيرة ، والمدن الأخرى التي اتصلت بها ، والتي قامت منها مقام المثل والنموذج، بإنشاء حضارة أصيلة، ونشر تقنيات جديدة أو مجددة أو تجدد اكتشافها بعد مرور قرون من الزمن، ولكن الفرق لا يهم بين الكشف الجديد والمجدد وأتيح لهذه المدن أن تعيش تجارب نادرة سياسية واجتماعبة واقتصادية وأن تبلغ بها منتهاها.

في المجال المالي نظمت المدن الضرائب والمالية والائتمان العام والجمارك . واخترعت

القروض العامة : ويمكننا أن نقول أن المونتي فيكيو Monte Vecchio في البندقية يرجع إلى القروض الأولى في عام ١١٦٧؛ ويرجع كازا دي سان جورجو San Casa di Giorgio إلى عام ١٤٠٧ وهو يعتبر بمثابة النمط الأول للمصرف . وجددت المدن الواحدة بعد الأخرى اختراع النقود الذهبية متبعة نموذج جنوا التي سكت عملة الجينوفينو genovino ربما في نهاية القرن الثاني عشر(٧٦). ونظمت المدن الصناعة والحرف واخترعت أو جددت اختراع التجارة البعيدة والكمبيالة والأشكال الأولى للشركات التجارية والمحاسبة ؛ كذلك بدأت في المدينة الصراعات الطبقية ، بل بدأت مبكرة. ذلك أن المدن إذا كانت " جماعات " communautés كما قيل ، فقد كانت أيضا " مجتمعات " sociétés بالمعنى الحديث للكلمة ، بتوتراتها وحروبها التي كانت تشتعل بين الأخوة: النبلاء ضد البورجوازيين ، الفقراء ضد الأغنياء (الشعب النحيف popolo magro ضد الشعب السمين popolo grasso) . كذلك كانت الصراعات التي حدثت في فلورنسا أكثر من مجرد مصادمات من النوع الروماني (أقصد بطبيعة الحال بروماني النسبة إلى روما القديمة) لقد كانت صراعات عميقة من نوع الصراعات التي عرفناها في القرن التاسع عشر عندما بدأ عصر الصناعة . ويكفي أن نذكر مأساة عمال الصوف المعروفين باسم تشومبي Ciompi- في عام ١٣٧٨ - وكيف أخمدت ثورتهم ، للبرهنة على نوعية الصراعات يها .

وكان هذا المجتمع المنقسم في الداخل يواجه الأعداء الذين تربصوا به في الخارج، وكان هؤلاء الأعداء يمثلون دوائر أو عوالم في حد ذاتها ، عوالم النبلاء والأمراء والفلاحين وكل أولئك الذين ليسوا من أهل المدينة . كانت هذه المدن التي نشأت هي " الأوطان " الأولى في الغرب ، وكانت الوطنية المنتمية إلى المدينة بكل تأكيد أكثر ترابطا وأكثر وعيا من الوطنية الإقليمية التي ستنشأ ببطء في الدول الأولى . ويمكننا أن نطلق العنان للخيال أمام لوحة عجيبة تمثل معركة خاضها بوجوازيو مدينة نورنبرج الألمانية في ١٩ يونية ١٥٠٢ ضد الماركجراف كازيمير فون براندنبورج أنسباخ Kasimir von Brandenburg - Ansbach عندما هاجم المدينة . إنها لوحة تشهد على وطنية المدينة. ولا فائدة من أن نسأل هل رسمت اللوحة من أجل تكريم بورجوازيي المدينة ، فهم يظهرون على هيئة لا تعظيم فيها ، فأغلبهم يظهرون فيها مترجلين ، يلبسون ثيابهم العادية، ولا يتسربلون بعدة عسكرية .إلا كبيرهم ، فهو الوحيد الذي يركب الحصان ، ويلبس ثيابا سوداء ، ويتهامس مع المفكر الهوماني فيليبالد بيركهايمر Wilibald Pirckheimer الذي يلبس قبعة من قبعات العصر الضخمة .المزدانة بريش النعام، وكان قد أتي بفرقة لنصرة حق المدينة التي تعرضت للهجوم ، والجزء التفصيلي من اللوحة له دلالته هو أيضا. فنحن نرى المهاجمين البراندنبورجيين، فرسانا مجهزين

ومسلحين بتجهيزات وأسلحة ثقيلة ، وقد توارت عيونهم وراء رفارف خوذاتهم . ويمكننا أن نعتبر تلك المجموعة من البورجوازيين المكونة من ثلاثة رجال بمثابة رمز حرية المدينة ضد سلطة الأمراء والنبلاء: وتضم المجموعة اثنين من البورجوازيين حاسري الوجه، يكتنفان بزهو وفخار فارسا يلبس سرباله، ويسوقانه أسيرا كسيرا يخجل من وقوعه في الأسر.

البورجوازيون ـ أي أهل المدن ـ ، أوطان البورجوازيين الصغيرة ـ أي المدن ـ : كلمات يمكن أن تطلق كالشعارات ، ويمكن أن يقال عنها إنها تنافي المنطق ، ولا تدل على مضمونها، وأن الناس يستخدمونها لأنها كلمات مريحة . ولكن موضوع البورجوازية، والبورجوازيين ـ أهل المدن ـ موضوع له أبعاده الحقيقية التي تتضح عندما نذكر أن فرنر زومبارت Werner Sombart ألح الحاحا شديدا على تأكيد أن الذي ولد عندما نشأت المدينة كان مجتمعا جديدا ، بل كان أكثر من ذلك : كان عقلية جديدة . ويقول: "كانت مدينة فلورنسا في أواخر القرن الرابع عشر ـ إذا لم أخطيء ـ هي المكان الذى التقينا فيه لأول مرة بالبورجوازي الكامل "(٧٧). ليكن . والحق أن استيلاء الفنون الكبيرة Arti Maggiori على السلطة في عام ١٢٩٣ ـ وهي فنون شغل الصوف وفن الكاليمالا أو التجهيز والصباغة Arte di Calimala كان يعني انتصار الأغنياء القدامي والأغنياء الجدد وانتصار روح المشروعات . وزومبارت يميل هنا إيضا، على عادته، إلى وضع المشكلات على مستوى العقليات، مستوى تطورالفكر العقلاني، أكثر مما يضعها على مستوى المجتمع أو حتى على مستوى الاقتصاد الذى كان يخشى أن يبدو فيه كأنه يتبع مسارات كارل ماركس .

هذه عقلية جديدة تتخذ مكانها على الساحة مرتبطة بالمدن ، هي في خطوطها العريضة عقلية رأسمالية الغرب الأولى ، وكانت آنذاك ما تزال مترددة ، وكانت عبارة عن مجموعة قواعد ، وإمكانات ، وحسابات ، وفن الثراء ، وفن الحياة أيضا وكانت كذلك العمل والمخاطرة. والكلمات الدالة على هذه العقلية في لغة التجار هي: ثروة، حظ، عقل، احتياط ، أمان fortuna, ventura, ragione, prudenza, sicurita تحدد المخاطر التي كان على الإنسان أن يتهيأ لها. فلم يعد أسلوب الحياة على وجه اليقين هو الحياة يوما بيوم ، على طريقة النبلاء الذين كان منتهى ما يصبون إليه يتمثل في أن يصل دخلهم بصورة أو بأخرى إلى حيث يغطي مصروفاتهم، أي أن مصروفاتهم كانت هي المنطلق، أو كانت هي القائد الذي يحرك الراقصين في حلبة الرقص كما يقولون. فإذا غطى الوارد المنصرف ، وقام حفل الرقص وانفض ، فليحدث ما يحدث . أما التاجر فقد أصبح المدبر لشئون ماله ، الذي يحسب نفقاته بناء على دخله ، واستثماراته بناء على ما تحققه من عائد. لقد أعيدت الأمور إلى نصابها ، أو وضعت الساعة الرملية في

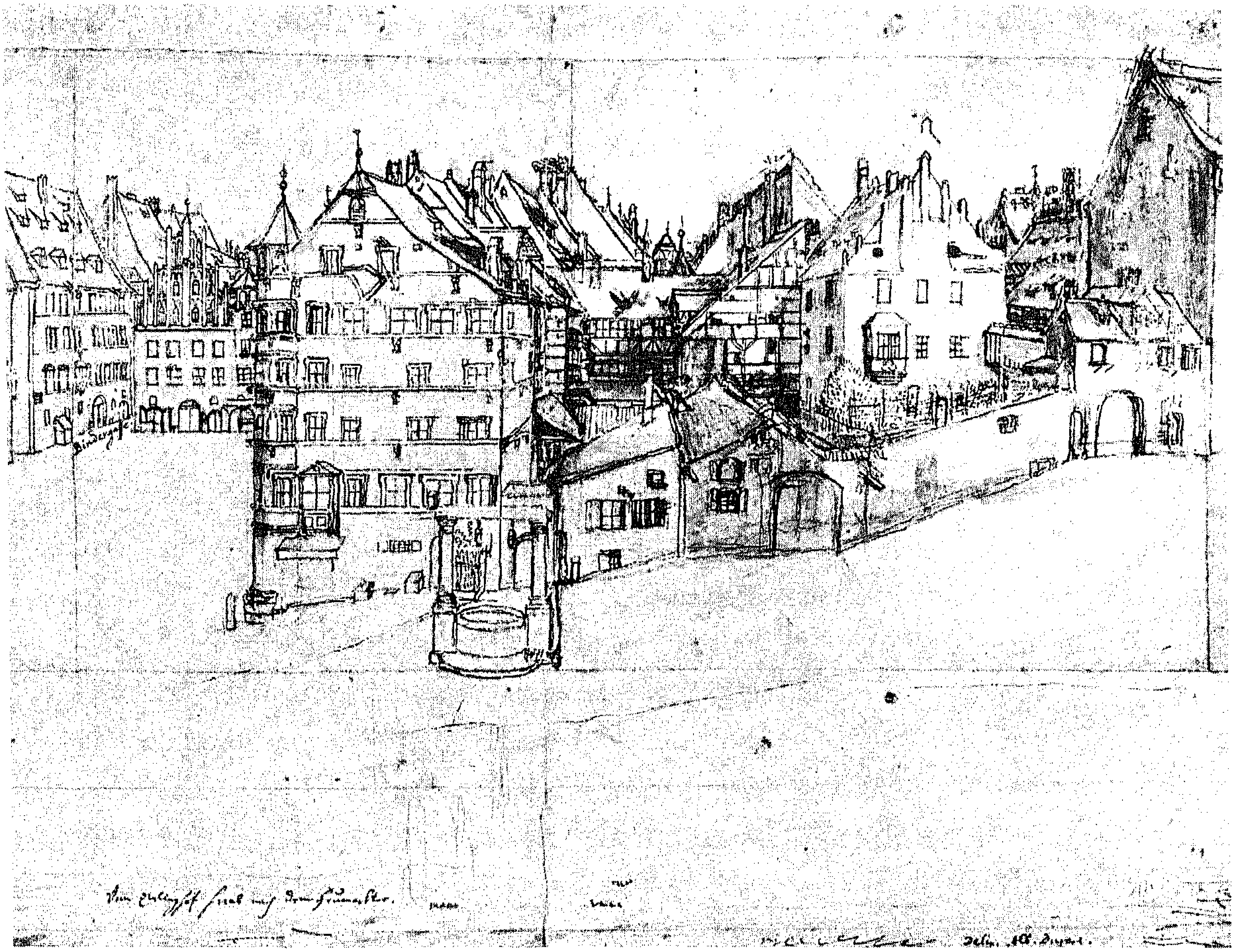

ميدان ايجيدين تيريزينبلاتس Egidien-Theresienplatz في مدينة نورنبرج ، رسم بريشة ألبريشت دورر Albrecht Duerer.

وضعها السليم كما يقولون. وكان التاجر يحرص على الاقتصاد في وقته أيضا ، وهذا تاجر قال: إنما يضيع الوقت إنسان عنده وقت وينتظر أن يتاح له وقت : chi tempo ha e tempo aspetta, tempo perde(٧٨). ولنترجمها ترجمة رديئة ولكن منطقية: الوقت مال Time is money.

في الغرب كانت المدن والرأسمالية في واقع الأمر شيئا واحدا. ويرجح لويس مامفورد Lewis Mumford أن " الرأسمالية الوليدة " عندما وضعت في مكان سلطات"

الإقطاعيين وبورجوازيي الاتحادات الحرفية " سلطة ارستقراطية جديدة قوامها التجار، حطمت الإطار الضيق للمدن الوسيطية، تحطيما لا مراء فيه، ولكنها وقد نهجت هذا النهج، ارتبطت في النهاية بالدولة من حيث هي قاهرة المدن، فورثت مؤسساتها وعقليتها ثم ظلت عاجزة كل العجز عن التخلص منها (٧٩). والمهم هو أن المدينة، حتى عندما. هوت من حيث هي مدينة قائمة بذاتها ، ظلت محتفظة بمركزها الرفيع، مسيطرة على كل شيء، عندما انتقلت إلى العمل في خدمة الأمير، إما بالفعل أو على نحو صوري . وإذا بقدر الدولة يصبح قدر المدينة: فأصبحت البرتغال هي لشبونة، وأصبحت هولندة هي أمستردام، وكانت العظمة الانجليزية هي عظمة لندن (وكانت العاصمة الانجليزية لندن هي التي التي صنعت انجلترةعلى هواها بعد ثورة عام ١٦٨٨ الهادئة) . وكانت الغلطة التي لا تغتفر والتي ارتكبها الاقتصاد الامبراطوري في أسبانيا هي الاعتماد على مدينة اشبيلية ، وكانت مدينة خاضعة لرقابة " موظفين " فاسدين ، أفسدوها أيما افساد ، ووقعت تحت سيطرة الرأسماليين الأجانب منذ وقت طويل ، ولم تكن مدينة قوية حرة قادرة على أن تصنع بحسب إرادتها وحدها سياسة اقتصادية حقيقة، وتتولى مسئولياتها . كذلك إذا لم يكن لويس الرابع عشر قد نجح في تأسيس "مصرف ملكي"، على الرغم من المشروعات المتعددة في هذا الصدد (١٧٠٣ ، ١٧٠٦ ، ١٧٠٩) ، فقد كان السبب في ذلك أن باريس كانت ، وهي تواجه السلطة الملكية، لا تحقق الحماية المطلوبة التي تحققها مدينة تكون حرة في تحركاتها وفي مسئولياتها .

الأنماط الأساسية

للمدن الغربية

لنتصور على سبيل الافتراض تاريخا لمدن أوروبا يحيط كل الإحاطة بالمجموعة الكاملة لأنماطها، من المدينة الاغريقية إلى المدينة في القرن الثامن عشر، أو بعبارة أخرى يحيط بكل ما استطاعت أوروبا أن تبنيه على أرضها، وعلى الأرض التي امتدت إليها في الشرق المسكوفي، والأرض التي امتدت إليها فيما وراء المحيط الأطلنطي. لو أتيحت لنا هذه المادة الوفيرة من البيانات ، لوجدنا أن هناك ألف طريقة وطريقة لتصنيفها بحسب السمات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. سنتبين اعتمادا على السمات السياسية: العواصم والثغور الحصينة والمدن الإدارية بكل ما في كلمة إدارية administrative من معنى . وسنتبين اعتمادا على السمات الاقتصادية أن هناك : الموانيء، والمدن التي تقوم على حركة القوافل ، والمدن التي تقوم على التجارة ، والمدن الصناعية، ومراكز المال . وسنضع اعتمادا على السمات الاجتماعية : قوائم مدن، أهلها يعيشون على إيراداتهم أو معاشاتهم، ومدن تقوم على كنيسة، ومدن تقوم على بلاط، ومدن تقوم على عمل الحرفيين . هكذا نتبع مقاييس واضحة المعالم ، تقبل التقسيم إلى

أقسام كبيرة ، ثم إلى أقسام أصغر منها ، وتكون قادرة على الإحاطة بكل المدن على اختلاف أشكالها المحلية . والتصنيف على هذا النحو له فوائده التي لا تقتصر على دراسة مشكلة المدينة في مجموعها ، ولكن تتعداها إلى دراسة هذا النوع أو ذاك من أنواع الاقتصاد محددا زمانيا ومكانيا .

ولكن هناك أيضا سبلا أخرى للتمييز ، أكثر عمومية ، إذا وضعناها في إطار حركة التطورات القديمة نفسها ، قدمت إلينا تصنيفا أكثر نفعا وأكثر وفاء بمتطلبات موضوعنا. ويمكننا على سبيل التبسيط أن نقول أن الغرب عرف على مدارج خبراته ثلاثة أنماط أساسية من المدن :

- المدن المفتوحة، أي المدن التي لا تفترق عن ريفها بل تختلط به، وهو النمط (أ)؛

- والمدن المنغلقة على نفسها ، المقفولة بالمعنى الدقيق للكلمة ، مدن لها أسوار تحدد هويتها أكثر مما تحدد زمامها ،وهو النمط (ب) ؛

- وأخيراالمدن الخاضعة للوصاية ، ونعني بالوصاية كل درجات التبعية المعروفة تجاه أمير أو دولة ، وهو النمط (ج).

ويمكننا أن نقول بصفة عامة ان النمط (أ) سبق النمط (ب) ، وأن النمط (ب) سبق النمط (ج) . ولكن هذا التتابع ليس قاعدة صارمة : بل هو تخطيط هيكلي يتضمن خطوطا عريضة ، ومقاييس تلعب في داخلها مصائر المدن الغربية لعبتها ، وهي مدن لم تتطور كلها في وقت واحد ، ولم تسلك في تطورها مسلكا واحدا.وسنري بعد ذلك إذا كان هذا التخطيط الهيكلي يصلح ليكون تصنيفا لمدن العالم قاطبة .

النمط الأول (أ) : هذه هي المدينة على الطراز القديم ، الطراز الاغريقي الروماني، المدينة التي تنفتح على ريفها ، وتتساوى معه (٨٠). ولقد قبلت أثينا في داخل أسوارها بصفة مواطنين شرعيين الأوباتريديين Eupatrides- أناسا بلا وطن ، كما نستشف من اللفظة - وكانوا من مربي الخيول ، ومن صغار الفلاحين ، وزراع الكروم ، وكانوا شخصيات أثيرة على أرسطوفان في مسرحياته (٤٥٠ - ٣٨٦ ق م): ما يتصاعد الدخان فوق مرتفعات بنوكس Pnyx حتى يتجه الفلاح الأويتريدي إلى المدينة، وقد رأى إشارة بدء اليوم الجديد ، فيشارك في اجتماع الشعب ، ويتخذ مكانه هناك إلى جانب كبرائه. وعندما قامت حرب البيلوبونيز خلت منطقة أتيكا الريفية كلها تلقائيا من أهلها الذين اتجهوا إلى المدينة واستقروا فيها بينما أخذ الاسبرطيون يهلكون الحقول ومزارع الزيتون ويخربون البيوت. فلما قفل الاسبرطيون راجعين ، مع بدء الشتاء، عاد صغار الريفيين إلى بيوتهم القديمة. والحقيقة أن المدينة الاغريقية كانت تجمع تحت سقفها المدينة وريفها الفسيح معا. وإذا كان الأمر على هذا النحو فإنما مرجع ذلك إلى أن المدن كانت حديثة

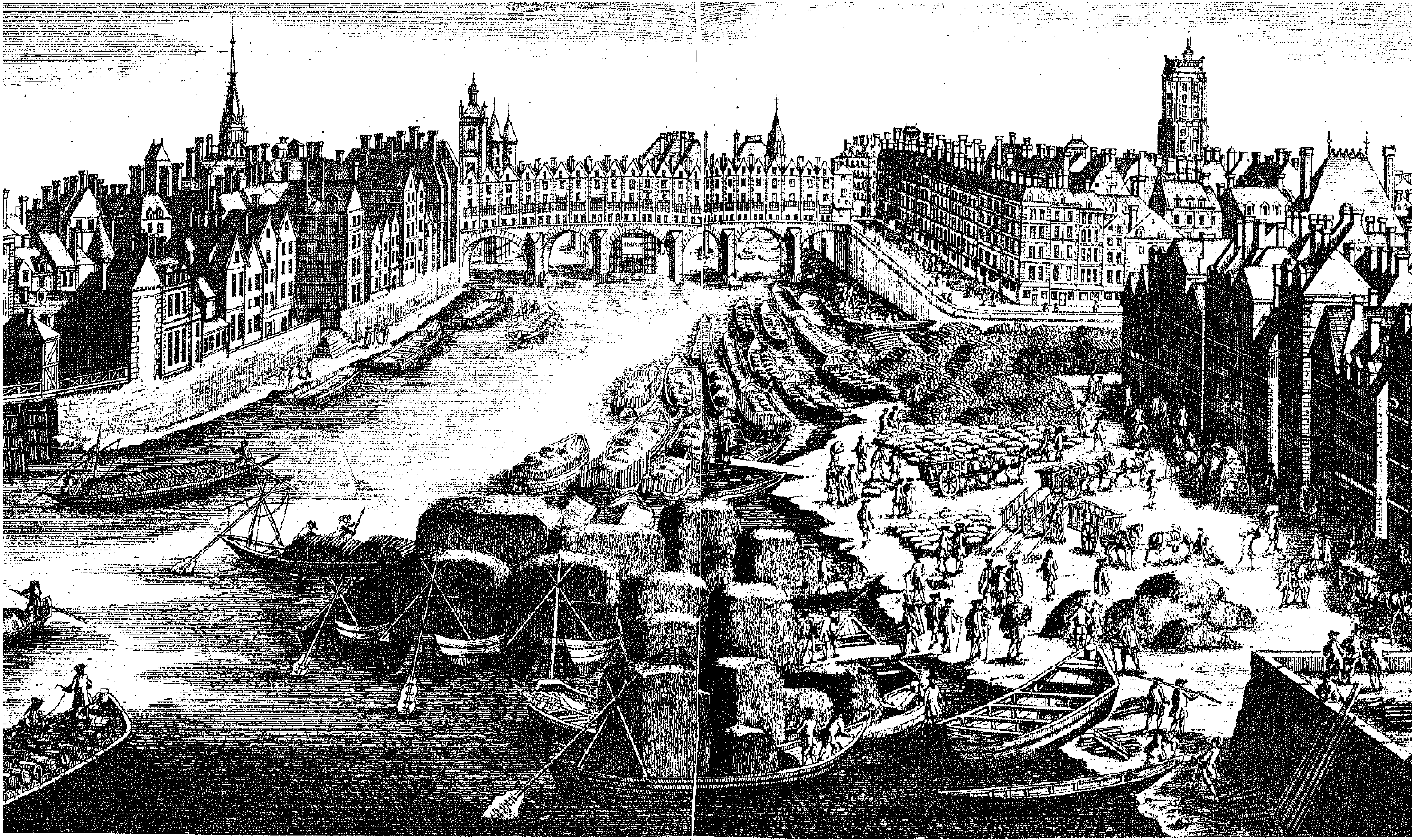

في باريس . منظر جسر نوتردام ببيوته العالية التي لن تهدم إلا في عام ١٧٨٧ . على الشاطىء الأيمن حتى ميدان جريف Place de Grève حركة تجارية هائلة مختلطة : قمح ، وخشب ، وتبن . صورة بالحفر على النحاس من القرن الثامن عشر . (متحف كارنافاليه Carnavalet)

المولد (وليس القرن أو القرنان في حياة المدن إلا شيئا قليلا) وحديثة العهد بالخروج من السديم الريفي؛ ثم إن الحديث عن تقسيم الأنشطة الصناعية لم يكن قد بدأ بعد، ذلك الحديث الذي أصبح فيما بعد تفاحة الشقاق . وكان لأثينا ضاحيتها كيراميكوس Keramikos ـ وتنطق بالفرنسية سيراميك Ceramique ـ حيث أقام عمال الفخار الذين لم يكونوا يحتكمون إلا على محلات صغيرة ضيقة . وكان لأثينا ميناؤها بيريوس Piraeus ـ بيريه ـ الذي كان يعج بأجانب بغير هوية (الميتيك) ، وعبيد تحرروا من العبودية ، وعبيد مستعبدين ، وهناك قام نشاط حرفي ، لا نسميه صناعة ولا تمهيدا للصناعة . وكان هذا النشاط الحرفي يواجه أحكاما مسبقة من لدن مجتمع يعتمد على الأطيان، يحتقره، ولهذا ظل هذا النشاط الحرفي عمل الأجانب، والعبيد، على أن ازدهار أثينا لم يدم وقتا طويلا يكفي لظهور الصراعات الاجتماعية والسياسية، وبروزها إلى صدر ساحة الصراعات الحادة، على نحو ما سنرى في فلورنسا بعد قرون عديدة، وما يمكن أن نسميه الصراعات على الطريقة " الفلورنسية " . إننا لا نكاد نسجل في أثينا إلا القليل من الأعراض التي تشير إلى صراعات . ثم إن القرى كانت فيها ورش حدادتها ، وكان الناس في برد الشتاء يسعون من المدينة إليها لينعموا بالدفء . وخلاصة القول أن الصناعة كانت بدائية ، وأجنبية ، ومتخفية . ونلاحظ الشيء نفسه عندما نجوس خلال آثار المدن الرومانية القديمة ، فما ندلف من البوابات حتى نجد أنفسنا في الريف : لم تكن هناك ضواح ، ولم تكن هناك صناعة ولا عمل حرفي نشيط منظم في إطار مجال خاص به.

النمط الثاني (ب) : المدينة المنغلقة التي تعتبر وحدة في حد ذاتها ووطنا قزميا، مكتفيا بذاته، هذه هي مدينة العصر الوسيط ، المدينة الوسيطية : إذا عبر الإنسان متاريسها، عبر حدودا بمعنى الكلمة ، كالحدود الفاصلة بين الدول في زماننا الحاضر. إذا تجاوز الإنسان الحدود المرسومة حول المدينة فهو حر في أن يسيء إلى الجار الذي يعيش في الريف المتاخم والذي لن يستطيع أن يرد الإساءة. والفلاح الذي ينزع نفسه من أرضه، ويلم بالمدينة يصبح على التو رجلا آخر: يصبح إنسانا حرا ، بمعني أنه يتخلص من التزاماته الاستعبادية المعروفة المقيتة ، لكي يقبل التزامات استعبادية أخرى في المدينة، لا يتصور مداها سلفا في كل الأحوال ولكنه لا يهتم . وإذا طالب به سيده صاحب الأرض ففي مقدوره أن يسخر منه، إذا كانت المدينة قد تبنته . كان من الممكن في القرن الثامن عشر في منطقة سيليزيا وفي منطقة مسكوفيا أن يسمع الإنسان كثيرا عن مثل هذه المطالبات، عن السادة يطالبون بعبيد أرضهم، وكانت هذه المطالبات قد أصبحت من الأمور التي تقادم عهدها في غير هاتين المنطقتين .

والحق أن المدن، إذا فتحت أبوابها بسهولة، فلا يكفي أن يدخل الإنسان ليصبح على

التو ويحق من أهلها . ذلك لأن أبناء المدينة الذين أوتوا الحق الكامل من قبل يمثلون أقلية غيورة ، إنهم يكونون مدينة ضيقة في قلب المدينة . ففي البندقية في عام ١٢٩٧ كان أبناء المدينة أصحاب الحق الكامل أشبه شيء بقلعة من الأثرياء ، اتخذت إجراء عرف باسم الاغلاق serrata أى إغلاق المجلس الكبير على طبقة بعينها، وأصبح نبلاء nobili البندقية طبقة مغلقة ، وظل الحال على هذا المنوال قرونا عددا . ولم يستطع اقتحام أبواب هذه الطبقة إلا قلة نادرة أشد الندرة . أما الطبقة التي تلى طبقة النبلاء ، وهي طبقة المواطنين العاديين cittadini، فكانت بلاشك أكثر كرما في تلقي القادمين الجدد . ولكن مجلس السينيوريا ما لبث أن ابتدع نوعين من المواطنة: المواطنة الداخلية، والمواطنة الداخلية الخارجية ، أما المواطنة الداخلية فمواطنة جزئية ، وأما المواطنة الداخلية الخارجية فهي المواطنة الكاملة . ولا بد لمن يتقدم بطلب الحصول على المواطنة الجزئية أن يكون قد أقام ١٥ سنة في المدينة ، ولمن يطلب الثانية إن يكون قد أقام ٢٥ سنة . ولم يكن هناك استثناء من هذه القاعدة إلا في أحوال قليلة ، ثم إن هذه القاعدة لم تكن شكلية فحسب، بل كانت تعبر عن حذر وخوف ، فقد صدر مرسوم من مجلس الشيوخ في عام ١٣٨٦ يحظر على المواطنين الجدد (حتى الذين حصلوا على المواطنة الكاملة) بأن يتعاملوا مباشرة في البندقية مع التجار الألمان سواء في داخل فندق الألمان Fondego dei Todeschi أو خارجه . كذلك لم يكن رجل الشارع في المدينة أقل عداء وحذرا حيال القادمين الجدد . ففي يونية من عام ١٥٢٠ ، عل نحو ما يذكر ماران سنودو Marin Sanudo تشاجر الناس في الشوارع مع الفلاحين الذين قدموا لتوهم من الريف ، وكانوا قد جلبوهم ليعملوا جنودا ومجدفين في السفن الجالبرية ذات المجاديف. وصرخ الناس في وجوههم : ! Poltroni, ande arar ارجعوا إلى الزراعة يا جبناء(٨١).

ومن المؤكد أن البندقية كانت بهذه الإجراءات مثالا متطرفا . ولكن البندقية تدين لنظام الحكم الارستقراطي ، الرجعي إلى حد الشيطانية ، بالحفاظ على دستورها الخاص حتى عام ١٧٩٧ ، وتدين في هذا بالدرجة نفسها تقريبا لغزو أرض القارة في بداية القرن الخامس عشر ، تلك الأرض الصلبة التي وسعت نفوذها إلى جبال الألب وبريشيا Brescia. وبقيت البندقية آخر مدينة غربية من نمط البولليس polis. كذلك كانت مارسيليا في القرن السادس عشر شديدة التقتير في منح المواطنة ، وكانت تشترط لذلك أن يكون الطالب " قد أقام فيها عشر سنوات ، وأن يكون مالكا لممتلكات ثابتة، وأن يكون متزوجا من واحدة من بنات المنطقة ." وإلا بقي واحدا من جماعة " المانان manans" أي القرويين ، اللامواطنين في المدينة . وهكذا نرى أن هذا المفهوم الضيق للمواطنة كان القاعدة المتبعة في كل مكان .

ونحن عندما نرسل البصر إلى المدى البعيد ، ونتتبع مدارج هذا التطور الطويل، بخبراته الواسعة التي لا تكاد تنتهي إلى نهاية ، نتبين تفاحة الشقاق متمثلة في سؤال حاسم هو: لمن الصناعة والحرف وامتيازاتها وأرباحها ؟ والإجابة أنها: كانت في الواقع من نصيب المدينة ، وسلطاتها ، ورجال الأعمال فيها من تجار ومقاولين . كانوا هم الذين يقررون إذا كان من الضروري أن يمنع عن المنطقة الريفية من المدينة حق الغزل أوالنسج أو الصباغة ، أو إذا كانت هناك مصلحة في منحها هذا الحق. وكان كل شيء ممكنا في إطار هذه الحركة الذاهبة الراجعة بالمنح والمنع ، كما يبين تاريخ كل مدينة على حدة .

كل شيء يتعلق بالعمل (نقول العمل ، ولا نجرؤ على تجاوز الحدود تجاوزا كبيرا والحديث عن الصناعة) كان منظما داخل أسوار المدينة بقواعد ، أو المفروض أن يكون كذلك ، وكان هذا التنظيم يهدف إلى إرضاء الاتحادات الحرفية الاحتكارية المتزمتة، التي كانت متآلفة فيما بينها ، وكانت تدافع عن حقوقها بعنف وشراسة ، نظرا لأن الحدود كانت مائعة وكانت تسمح بنشوب صراعات تافهة مضحكة ، ولم تكن سلطات المدينة تستطيع السيطرة على المواقف دائما. بل كانت ـ في وقت أتي مبكرا في بعض المناطق ومتأخرا قليلا في المناطق الأخرى ـ تسمح للاتحادات الحرفية، التي كانت تستعين بالمال على تحقيق مآربها ، وكان المال يساعد هذه الاتحادات الحرفية ، فتتيح لنفسها مواقع متفوقة ومناصب شرفية مقررة يدعمها المال أو السلطة : في باريس ابتداء من عام ١٦٢٥ كانت " الاتحادات الستة" وهي اتحادات: القماشين ، والعطارين، وتجار الخردوات ، وصناع الفراء ، وصناع القبعات ، والصياغ ، تمثل أرستقراطية المدينة ؛ في مدينة فلورنسا الايطالية كان المشتغلون بالصوف وفنه والصباغة (صباغة أقمشة الشمال التي كانت تستورد غير مصبوغة) يمثلون الأرستقراطية هناك . ولسنا نعرف شواهد تصور هذه الأوضاع القديمة أفضل من المتاحف الحضرية أو متاحف المدن في ألمانيا : في مدينة أولم Ulm مثلا نجد أن الاتحادات المهنية كان لكل واحد منها ما يشبه اللوحه التي تدل على أنها كانت ذات مكان مرموق في المدينة ، وكانت هذه اللوحة مقسمة إلى ثلاثة أقسام: رسمت على القسمين الجانبين مشاهد حرفية مميزة ، أما القسم الأوسط فيضم شيئا يذكرنا بألبوم عائلي قيم: مجموعة من صور لا تحصى تمثل أجيالا من المعلمين الحرفيين تتابعوا في الاتحاد على مدى قرون .

ولقد ظل هذا النموذج يتزايد ، ويتسع بمرور الزمن ، فحتى في القرن الثامن عشر كانت مدينة لندن ، وتخومها (التي تحف بأسوارها) تعتبر بمثابة عزبة ملك يمين الاتحادات المتزمتة التليدة القوية. ويذكر اقتصادي مرموق ـ ١٧٥٤ ـ أنه إذا كانت ويستمنستر والضواحي قد أخذت تنمو نموا متزايدا، فالسبب في ذلك واضح جلي وهو

أن : " هذه الضواحي حرة ، تفسح مجالا لكل مواطن حرفي منتج ، بينما تطعم لندن ذاتها ٩٢ من شركاتها الاحتكارية المختلفة الأنواع [الاتحادات] التي نرى أعضاءها العديدين يشاركون كل عام بأبهة مضطربة في مسيرة انتصار اللورد العمدة "Mayor Lord" (٨٢) . ولنقف طويلا أمام هذه الصورة الجميلة.ولنترك جانبا ما يحدث على الناحية الأخرى من تنظيم العمل في المناطق حول لندن وفي غيرها من المناطق ، حيث الحرف الحرة، التي لا تنضوي تحت جناح منظمات الاتحادات الحرفية وإطاراتها التي كانت تعتبر عائقا وحماية في وقت واحد.

النمط الأخير(ج) : المدن الخاضعة وهي مدن الفترة الأولى من فترات العصرية. والواقع أن الدولة ، منذ أن مكنت لنفسها ، أخذت تنظم المدن بالعنف ، أو بغير العنف، وبهمة فطرية ، هكذا فعلت في كل مكان تراه عيوننا في ربوع أوروبا قاطبة . هكذا فعل آل هابسبورج والملوك الكنسيون ، أى البابوات ، والأمراء الألمان ، وآل مديتشي، وملوك فرنسا . إلا في هولندة وانجلترة ، حيث فرضت الطاعة فرضا .

ولننظر إلى فلورنسا: لقد قام آل مديتشي باستعبادها ببطء ، سالكين أولا سبيلا يوشك أن يكون سبيل الأناقة، في عصر لورانتسو Laurenzo ، ثم تدافعت الأمور تدافعا سريعا عنيفا بعد عام ١٥٣٢ ، عند عودة آل ميديتشي إلى السلطة . وما جاء القرن السابع عشر حتى أصبحت فلورنسا كلها بلاط الغرندوق الذي قبض على زمام كل شيء: المال والقيادة وتوزيع المناصب الشرفية والرتب . وكان لديه في قصر بيتي Pitti الواقع على الشاطيء الأيسر من نهر أرنو Arno رواق ، هو طريق سري يسمح له بأن يعبر النهر ويذهب إلى مكاتب الديوان Uffizi، كان هذا الرواق السري الأنيق، الذى لا يزال موجودا إلى اليوم ، يقوم على الجسر العتيق Ponte Vecchio، هو خيط العنكبوت الذى ينتهي إلى شبكة العنكبوت التي تراقب على المدينة المسجونة.

في أسبانيا كان الكوريجيدور corregidor عمدة المدينة يخضع مجالس المدن لرغبات التاج الملكي . وليس من شك في أن الملك كان يترك للنبلاء المحليين الصغار ما يتيحه الحكم المحلي من الأرباح والعوائد التي لا يستهان بها ومن ألوان الزهو والغرور؛ وكان الملك هو الذي يدعو أعضاء مجالس المدينة الريجيدوريس regidores (الذين كانوا يحصلون على مناصبهم بالمال) في كل مرة تجتمع فيها مجالس البلاط أو الكورتيس Cortes، وكانت مجالس تتكلف الأهمية، وتحب التقدم إلى الملك بالطلبات والشكاوى ، ولكنها كانت تقرر بالاجماع ما يطلبه الملك من ضرائب . في فرنسا كانت" المدن الجيدة "les bonnes villes - كما يقولون - تحصل على هذا التميز متمثلا في حقوق خاصة تتيح لها حرية الإدارة ، وتحصيل الضرائب المتعددة : ولكن هذا كله لم يكن يغير شيئا من خضوعها للأوامر ، فلما رفعت الحكومة الملكية الضرائب لصالح

المدن إلى الضعف بإعلانها الصادر في ٢١ ديسمبر ١٦٤٧ ، خصت نفسها منها بالنصف أو بما يربو على النصف . كذلك كانت مدينة باريس تخضع للأوامر الملكية ، وكانت في كثير من الأحيان تضطر إلى مساعدة الخزينة الملكية ، فقد كان عليها أن تساعد الخزينة الملكية لتغطية عملية سندات الدين الكبيرة التى عرفت باسم سندات دار البلدية l' Hôtel de Ville. حتى لويس الرابع عشر نفسه لم يترك باريس ، حتى عندما أقام في فرساي القريبة منها . فما كانت فرساى في الحقيقة متمايزة عن باريس المدينة الضخمة القريبة ، وكانت الأسرة الملكية الفرنسية منذ الماضي البعيد قد ألفت الدوران حول المدينة القوية ـ باريس ـ التي كانت تخشاها ، فكانت تقيم في مكان قريب من باريس؛ فأقامت في فونتينبلو Fontainebleau وسان جرمان Saint-Germain وسان كلو Saint-Cloud؛ حتى عندما أقامت في اللوفر Louvre كانت على هامش المدينة ، وعندما أقامت في التويليري Tuileries كانت تقريبا خارج باريس . أليس الأنسب أن يتم حكم هذه المدن التي تمتلىء امتلاء مفرطا بالسكان من بعيد على الأقل من حين لآخر؟ كذلك كان الملك فيليب الثاني في أسبانيا يقيم دائما في اسكوريال ، وكانت مدريد آنذاك في مدارج النشأة . وفي وقت لاحق كان دوقات بافاريا بألمانيا يقيمون في نيمفنبورج Nymphenburg على مقربة من ميونيخ . وكانت الملك فريدريش الثاني Friedrich II يقيم في بوتسدام Potsdam على مسافة من برلين، كما كان الأباطرة يقيمون في شونبرون Schoenbrunn قريبا من فيينا . ولنعد إلى لويس الرابع عشر الذي لم يكن ينسى أن يؤكد بالقدر نفسه سلطته في باريس ويثبت فيها مكانته ، ففي عصره أنشيء الميدانان الملكيان الكبيران : ميدان الانتصارات Victoires وميدان فاندوم Vendome.كذلك بدأ في عصره بناء دار مشوهي الحرب الأنفاليد Invalides. ويرجع إليه الفضل في انفتاح باريس على ريفها القريب على طريقة مدن عصرالباروك le baroque متخذة شوارع واسعة تجري فيها العربات وتنظم فيها العروض العسكرية. والشيء الأكثر أهمية من وجة نظرنا هو ما جرى في عام ١٦٦٧ من إنشاء منصب رئيس الشرطة [كانوا آنذاك يسمونه: ملازم الشرطة] الذي خول سلطات بلا حدود . وكان ثاني رجل شغل هذا المنصب الهام هو الماركيز دارجنسون d'Argenson في عام ١٦٩٧ أي بعد إنشاء المنصب بثلاثين سنة، وعنه قال سباستيان ميرسييه " إنه أنشأ الآلة ـ ألة البوليس ـ لا كما هي موجودة الآن ، ولكنه كان أول من تخيل زمبلكاتها ومجموعات تروسها الرئيسية . ويقولون أن هذه الآلة تدور اليوم من تلقاء ذاتها " (٨٣).

ولكن من البديهي أن التطور الحضري لا يتم من تلقاء نفسه، وأنه ليس ظاهرة تنمو باطنيا endogéne، أو تنمو في إناء مقفول . إنه دائما تعبير عن مجتمع يدفعه غصبا من الداخل ومن الخارج أيضا، ومن هنا فان تصنيفنا للمدن بسيط، بالغ البساطة . وما دام الأمر كذلك، فما هي الصورة التي اتخذها هذا التصنيف في ربوع العالم المختلفة ، خارج أوروبا الغربية ؟

أ) مدن أمريكا أيام الاستعمار :

الأحرى بنا أن نقول أمريكا الايبرية ـ نسبة إلى الاستعمار الاسباني والبرتغالي القادم من شبه جزيرة ايبريا ـ لأن حالة المدن الانجليزية في أمريكا حالة قائمة بذاتها : إنها مدن تحتم عليها أن تعيش بقدراتها الذاتية ، وأن تخرج من تبربرها wilderness لتتعلق بأهداب العالم الواسع ؛ إنها مدن تنتمي إلى نمط العصر الوسيط إذا جاز لنا هذا التعبير . ولكن مدن أمريكا الايبرية تختلف عن مدن العصر الوسيط في أن مسار تطورها كان أكثر بساطة ، وأفضل تحديدا . لقد بنيت على هيئة المعسكر الروماني داخل أربعة أسوار من الطين ، تضم فرقا عسكرية ضائعة في قلب مساحات شاسعة، تربط بين أجزائها وسائل مواصلات بطيئة ، لأنها كانت تمتد خلال ربوع خالية هائلة . في العصر الذي كانت فيه مدينة العصر الوسيط ، مدينة أصحاب الامتيازات ، قد فرضت نفسها على أوروبا قاطبة ، كان النمط الروماني القديم هو النمط الغالب في كل ربوع أمريكا الأسبانية البرتغالية ، باستثناء المدن الكبيرة التي كان يقيم فيها الولاة الممثلون للملك : مكسيكو Mexico وليما Lima وسانتياجو دي شيلي Santiago de Chile وسان سالفادور San Salvador (باهيا Bahia) ، وكانت منشآت رسمية ، أي منشآت طفيلية منذ البداية .

لم يكن هناك في هذه الأمريكا مدن تجارية بمعنى الكلمة ، اللهم إلا إذا كانت قليلة الشأن ؛ مثل رسيف Recife– مدينة التجار ـ التي قامت بجانب المدينة الأرستقراطية أوليندا Olinda مدينة كبار ملاك المزارع وسادة العبيد.. إنها مثل بيريوس Pirae-us أو فاليريون Phaleron قبالة أثينا أيام بركليس . كذلك كانت بوينوس أيريس ، بعد تأسيسها الثاني (١٥٨٠) مدينة تجارية أيضا شبيهة بميجارا Megara وأيجينا Aegina عند الاغريق . وكان من سوء حظها أنها كانت محاطة بالهنود الحمر الشرسين bravos وكانوا على حالة الوحشية والبربرية ، وكان أهلها يشكون من أنهم ، وهم في هذه الأمريكا التي يعيش فيها البيض من ريع أموالهم ، يضطرون إلى كسب " قوت يومهم من عرق جبينهم " . كانت قوافل البغال والعربات الخشبية الكبيرة تأتي من

الأنديز، من ليما، وكانت تلك طريقة للوصول إلى فضة بوتوزي Potosi؛ ومن البرازيل كانت تأتي السفن الشراعية محملة بالسكر ثم بالذهب بعد ذلك ؛ وكانت عمليات التهريب التي قامت بها السفن الشراعية المحملة بالعبيد السود وسيلة للاتصال بالبرتغال وأفريقيا. أما بوينوس أيريس فظلت استثناء في قلب المنطقة البربرية بالأرجنتين الناشئة.

والمدينة الأمريكية عادة مدينة صغيرة جدا، إذا استبعدنا تلك الأعداد الإضافية من البشرالواردة من بعيد. وهي مدينة تحكم نفسها بنفسها: فليس هناك من يهتم بمصيرها سوى أهلها. كان أصحاب الأرض هم سادتها: لهم فيها بيوتهم المزودة على طول الواجهة بحلقات مثبتة في الحيطان لربط خيولهم. إنهم الأثرياء في المجالس البلدية بالبرازيل، أو الهاثندادوس أصحاب الأملاك hacendados في المجالس البلدية الأسبانية المسماة كابيلدوس cabildos . كانت هذه المدن عبارة عن مكررات عديدة مصغرة من اسبرطة Spartes وثيبة Thebes في زمن القائد ايبامينونداس Epaminondas (٤١٨ ـ ٣٦٢ ق م) ومن الممكن أن نقول في غير إجحاف أن تاريخ المدن الغربية بدأ في أمريكا من الصفر ، ولم يكن هناك بطبيعة الحال حد فارق بين المدن والريف ، ولم تكن هناك صناعات تقبل التقسيم . والمناطق التي ظهرت فيها الصناعة ، مثل المكسيك، كانت على كاهل العبيد أو أشباه العبيد . وليس في مقدورنا أن نتصور مدينة العصر الوسيط بحرفيين من العبيد .

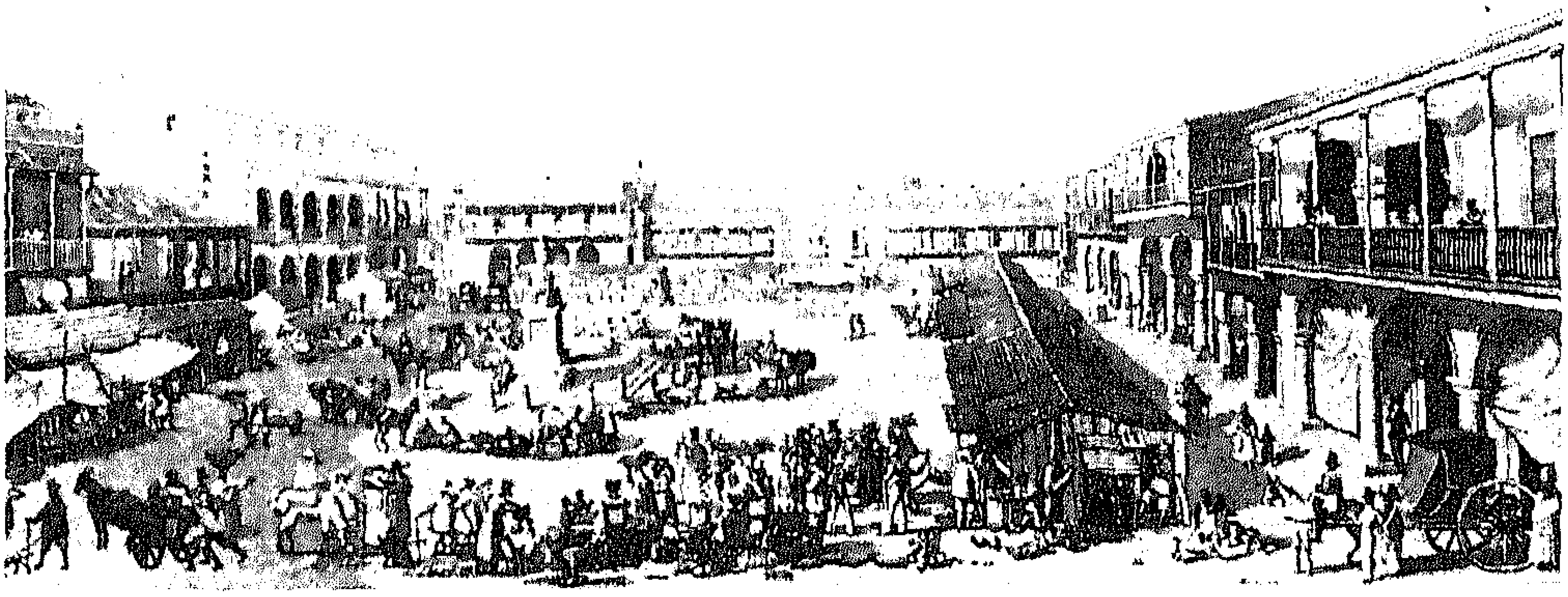

منظر الميدان القديم وهو ميدان السوق الرئيسية في هافانا . (ألبوم أمريكاالطبوغرافي ، القرن الثامن عشر) .متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس.

ب) كيف نصنف المدن الروسية ؟

عندما نلقي نظرة أولى على المنطقة المسكوفية، لا يساورنا أدنى شك في أن المدن التي بقيت أوالتي عادت إلى الظهور في مسكوفيا، بعد الكوارث الرهيبة للغزو المنغولي. لم تكن تساير المستوي الغربي . كانت هذه المدن مدنا كبيرة مثل موسكو ونوفجورود Novogorod ولكنهم كانوا يمسكون بزمامها على نحو عنيف قد يصل إلى القسوة والشراسة . وكان هناك مثل سائر في القرن السادس عشر يقول : " من الذي يستطيع الوقوف في وجه الرب أو نوفجورود الكبيرة ؟ " ، ولكن المثل أخطأ. فقد أخضعت المدينة للنظام بقسوة مرتين ، في عام ١٤٢٧، ثم في عام ١٤٧٧ (واضطرت إلى دفع جزية مقدارها ٣٠٠ عربة محملة بالذهب) . وتوالت عمليات الاعدام ، والنفي، والمصادرة . وكانت هذه المدن بصفة خاصة داخلة في دوائر مواصلات بطيئة ، تتحرك في مساحات شاسعة ذات سمات أسيوية وكانت لا تزال بعيدة عن التحضر. في عام ١٦٥ . كانت الظروف القائمة هناك ظروفا عتيقة تنتمي إلى الماضي: ملاحة نهرية، عمليات نقل بالزحافات ، طوابير عربات ، عمليات نقل يضيع فيها وقت هائل. وكان مجرد الاقتراب من القرى ينضوي في كثير من الأحيان على الخطر، وكان المسافرون يضطرون لذلك إلى التوقف كل ليلة في العراء، على النحو المألوف في طرق البلقان، ويصفون العربات على هيئة دائرة ، ويتخذ كل واحد منهم وضع الاستعداد تحسبا لأي خطر داهم .

لكل هذه الأسباب لم تفرض المدن نفسها هناك على أريافها الهائلة ، كانت الأرياف على الأحرى هي التي تؤثر على المدن ، أكثر مما كانت المدن تملي إراداتها على ذلك العالم الريفي الذي كان يتميز بقوة بيولوجية فائقة للمألوف ، وإن كان يعاني من التعاسة والقلق والحيرة الدائمة. وكانت الحقيقة الكبيرة هناك تتمثل في أن " عائد الهكتار في بلاد الشرق الأوروبي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ظل على متوسط ثابت " كان دون المستوى (٨٤). لم يكن إنتاج الريف يحقق فائضا يذكر، ولهذا لم تكن المدن تنعم حقيقة بحياة رغدة . كذلك لم تكن مدن روسيا تجد في خدمتها مدن الدرجة الثانية التي تعتبر علامة من العلامات المميزة للغرب وما اتصل فيه من حركة تجارية نشيطة .

كان الفلاحون عبيد الأرض كثرة لا يحصيهم العد ، لا أراضي لهم من الناحية الفعلية ، ولا قدرة لهم على تقديم شيء من مال لا إلى سادتهم أصحاب الأرض ولا إلى الدولة. فلا فرق بين أن يتركوا ليلموا بالمدن أو ليخدموا في بيوت الفلاحين الأغنياء. فإذا نزلوا المدن اشتغلوا شحاذين أو شيالين أو حرفيين في دكاكين، وربما أصبحوا تجارا

أو رجال صناعة فحققوا شيئا من ثراء . أما إذا بقوا في أمكانهم ، فربما احترفوا حرفة في قراهم نفسها ، أو سعوا إلى تحقيق ما يقيمون به أودهم فعملوا باعة جائلين أو عملوا في النقل (وكان النقل صناعة ريفية). كل هذا السعي الذي سعاه أهل الريف، لم يكن إلى التصدي له من سبيل ، ولم يجد أحد وسيلة لإيقافه وسد الطريق أمامه، خاصة وأنه كان يتم في كثير من الأحيان بمباركة السيد الذي كان يجد فيه صالحه ، فقد كان هؤلاء الحرفيون والتجار يظلون على أية حال عبيد أرضه ، ملزمين بدفع مكوس إليه، مهما كان نجاحهم الاجتماعي (٨٥).

هذه المشاهد وغيرها تأتلف في صورة تشبه على أية حال الصورة التي عرفها الغرب في بداية تكون المدن ، كانت تلك المرحلة في الربوع الروسية مرحلة يمكن مقارنتها على نحو أكثر وضوحا بالمرحلة الحاسمة التي مرت بها أوروبا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر ، هذه الفترة الانتقالية التي هجر فيها الناس الأرياف، ونزفت الأرياف ، وخلت تماما من العصارة الريفية . ولعلنا نقول أنه موقف وسط بين النمط (أ) والنمط (ج) ، لأن المرحلة الوسطى (ب) بين النمطين لم تظهر هنا . وكأننا بحكايات خرافية، ما يظهر فيها الغول حتى يظهر له الأمير .

ج) المدن الامبراطورية في الشرق والشرق الأقصى .

عندما نبرح أوروبا ونتجه إلى الشرق فإننا نجد نفس المشكلات ونفس أشكال الغموض، ولكننا نجدها هناك أكثر عمقا .

في ربوع العالم الإسلامي لم تظهر المدن المشابهة لمدن أوروبا في العصر الوسيط إلا بعد اضمحلال الامبراطوريات ، فقد استقلت المدن وأصبحت سيدة مصيرها إلى حين . وأهلت على الحضارة الإسلامية ساعات جميلة زاهرة . ولكن هذه الفترات التي ازدهرت فيها المدن الكبيرة لم تدم إلا لوقت معلوم ، وتبدلت الأمور لصالح المدن الهامشية، هكذا ازدهرت قرطبة مثلا ، وهكذا ازدهرت مدن هامشية أخرى في القرن الخامس عشر فأصبحت المدينة بمثابة مدينة جمهورية حقيقية مثل مدينة سبتة قبل الاحتلال البرتغالي في عام ١٤١٥ ، أو مدينة وهران قبل الاحتلال الأسباني في عام ١٥٠٩ . كانت القاعدة السائدة بالنسبة للمدن الكبيرة أن تكون المدينة مدينة الأمير ، وفي كثير من الأحيان مدينة الخليفة ، مدينة هائلة : يستوي في ذلك أن تكون بغداد أو القاهرة .

كذلك كانت المدن مدنا امبراطورية ، وأحيانا ملكية حسب الظروف ، في ربوع آسيا النائية، مدنا هائلة، طفيلية ، كالمادة الترفية اللينة، كان هذا هو شأن دلهي، وكذلك فيجنايانا جار Vijnayanagar وكان شأن بكين ومن قبل بكين نانكين، (على الرغم من أن الناس قد يتصورون نانكين على نحو مختلف). كان الأمراء يلعبون دورا هائلا في

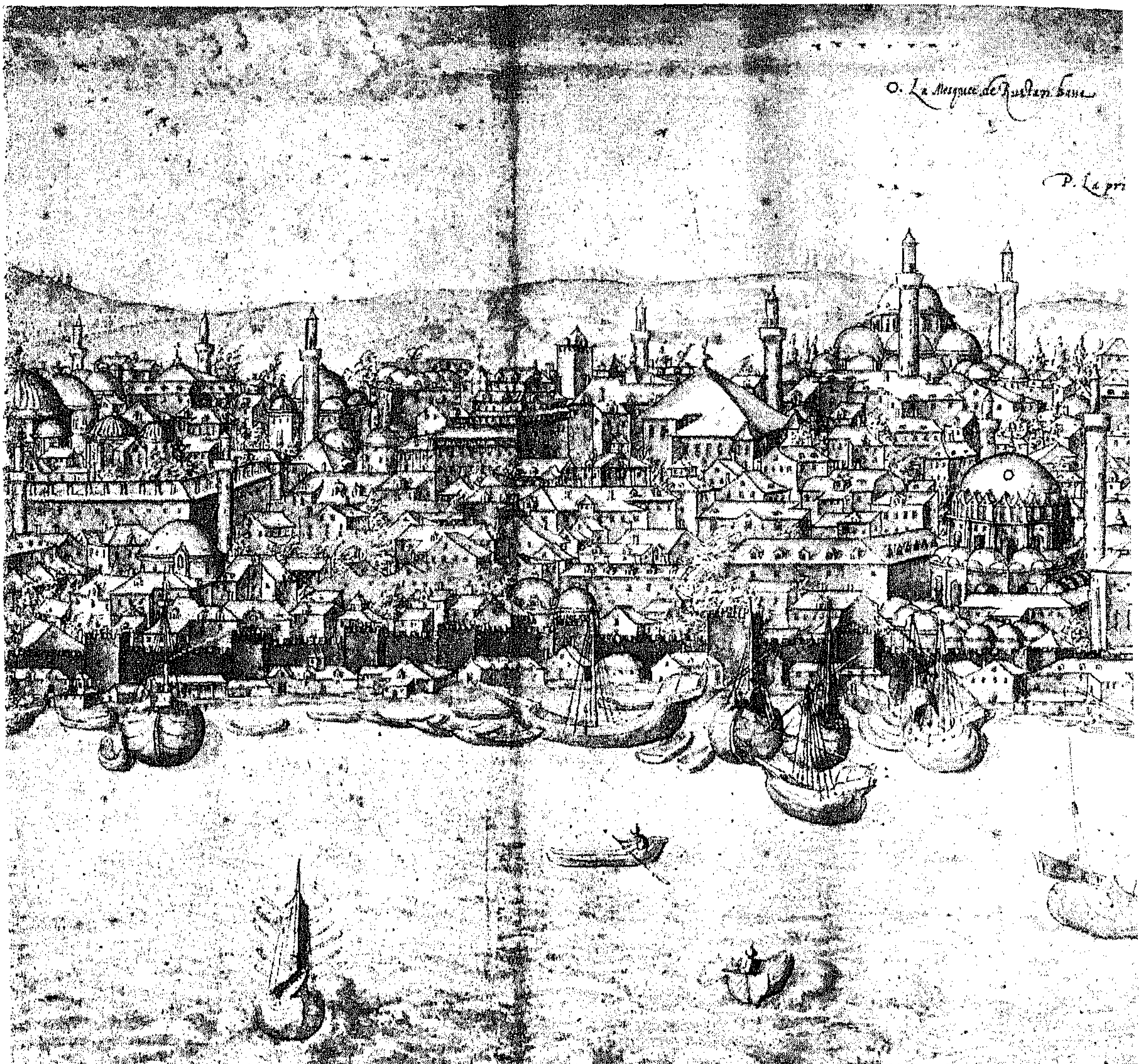

استانبول في القرن السادس عشر . واجهة على القرن الذهبي . (قطعة من رسم) . (متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس)..

حياة المدينة. وكانت المدينة أو على الأحرى القصر إذا التهمت واحدا من هؤلاء الأمراء، ظهر أمير آخر، وعاد القهر من جديد. وتلاحظ أن هذه المدن كانت غير قادرة على أن تستوعب كل ما كان لدى الأرياف من حرف : كانت هذه المدن مدنا مفتوحة وخاضعة في وقت واحد . يضاف إلى هذا أن البنيات الاجتماعية في الهند وفي الصين كانت تعرقل مسيرة المدينة إلى الحرية . فإذا كانت المدينة قد عجزت هناك عن تحقيق استقلالها، فلم يكن السبب في ذلك فقط ما كان الماندرين الحاكم يمارسه من ضرب الرعية بالنبابيت، أو ما كان الأمير ينزله بالتجار أو بالمواطنين العاديين من القساوة ؛ وكأنما كان المجتمع مجتمعا شكلته من قبل عملية تبلور تمت وانتهت .

أما الهند فنجد فيها نظام الفئات الطبقية castes يقسم ، بل يفتت كل تجمع حضري منذ البداية . وأما الصين فكان تقديس الأصول العرقية gentes يتعارض مع الامتزاج السكاني على النحو الذي ابتدعته المدينة في الغرب ؛ كانت المدينة في الغرب بحق آلة لتحطيم الروابط القديمة ، ولوضع الأفراد جميعا على مستوى واحد ، فقد أدى استقبال المدينة الدائم للمهاجرين إلى انشاء مناخ" أمريكي"، إذا جاز لنا هذا التعبير، يتمثل في أن السكان الموجودين في المكان من قبل هم الذين يحددون النبرة، ويضعون المقياس ، ويعلمون أسلوب الحياة way of life . ثم إننا لا نجد في الصين مدينة واحدة أستطاعت أن تشكل في مجموعها سلطة مستقلة في مواجهة الدولة ، أو في مواجهة قوة الأرياف الطاغية .إنما كانت الأرياف هي القطب الجذاب في الصين، فيها الحيوية، والعمل النشيط ، والفكر . أما المدينة فكانت مقام الموظفين والسادة ، وما كانت تشد إليها اهتمام أهل الحرف والتجار . فلم تترعرع في المدينة أية بورجوازية على راحتها. لأن البورجوازية كانت ، إذا صلب عودها في المدينة ، تبدأ في التفكير في الخيانة والتآمر، تفتنها أبهة حياة الأمير أو الماندارين . والمدن لا تعيش حياتها الخاصة ، ولا ترسم صورتها ، إلا إذا وجد الفرد ، ووجدت الرأسمالية فيها المجال حرا طليقا . أما الدولة صاحبة الوصاية الصادعة بالسلطة ، فإنها لا تقدم على شيء من هذا . ولكن الدولة، شاءت أو لم تشأ ، تمر بلحظات من الغفلة: منها تلك التي شهدتها نهاية القرن السادس عشر، فظهرت في الصين بوجوازية ، وتأججت حمى الأعمال، التي لعبت دورها في ورش الحدادة الكبيرة قرب بكين ، وفي ورش للخزف تطورت في كنج تي تشين King-te-tchen. ونتلمس آثار هذه الحمى على نحو أكثر وضوحا في نهضة الحرير في سو تشيئو Sou-tcheou عاصمة كيانج تسو Kiangtsou(٨٦). ولكن هذا التطور الذي حدث كان تطورا عابرا ، مثل النار التي تصيب القش ، فتستعر باللهب ، ثم

سرعان ما تنطفيء . فلما وقع الغزو المانشوري ، تطورت الأمور في الصين على نحو لا يرضى بحرية المدينة ، وهذا هو خلاصة ما حدث في القرن السابع عشر .

كان الغرب وحده هو ، بصريح العبارة ، الذي اندفع بكل قوته نحو المدن . فيه تقدمت المدن . ونكرر مرة أخرى ما سبق أن قلناه ، وهو أن ذلك كان حدثا هائلا، لم نجد إلى الآن السبيل إلى شرحه الشرح المناسب الوافي الذي يصل إلى أسبابه العميقة . ومن الممكن أن نسأل إلام كانت تصير المدن الصينية لو كانت السفن الجونكية الصينية اكتشفت رأس الرجاء الصالح في مطلع القرن الخامس عشر واستغلت كل الاستغلال تلك الفرصة ، فغزت العالم ؟

المـــدن
الـــكبيـــرة

لم يعرف العالم في الزمان القديم مدنا كبيرة إلا في الشرق ، والشرق الأقصى. يشهد على ذلك انبهارالرحالة ماركو بولو Marco Polo الذي ولد في عام ١٢٥٤ وتوفي في عام ١٣٢٤ : كان الشرق في تلك الحقبة هو ذلك الجزء من العالم الذي تقوم فيه الامبراطوريات والمدن . فلما أهل نجم القرن السادس عشر ، ودار الزمن إلى القرنين التاليين ، ظهرت مدن كبيرة في الغرب، نهضت بالأدوار الأولى، واستمرت منذ ذلك الحين متمسكة بها ، تؤديها على نحو باهر خلاب . واستعوضت أوروبا التأخر، وتغلبت على العجز (لو كان هناك عجز). وهذه هي أوروبا على أية حال تذوق ألوان الترف، والمتع الجديدة ، وألوان المرارة أيضا فيما أتتها به المدن الكبيرة ، أو التي كانت تعتبر مفرطة الكبر في ذلك الوقت .

المسئولية

مسئولية الدول

هذا التطور المتأخر ما كان يمكن أن يحدث ، لولـم تتقدم الدول تقدما حثيثا ، فإذا هي تعدو عدوا لكي تلحق بالمدن ، وقد أصبحت المدن ، من حيث هي عواصم الدول تتمتع بامتيازات، سواء استحقتها أو لم تستحقها . ومن هنا أخذت المدن تتنافس فيما بينها على العصرية : من الذي يسبق ، فيجعل لشوارع المدينة طوارات أو أرصفة للمشاة؟ من الذي يسبق إلى تركيب فوانيس في الشوارع تضاء بالغاز؟ من الذي يسبق إلى استخدام الطلمبات البخارية ؟ من الذي يسبق إلى إدخال نظم المجاري المترابطة وتوزيع ماء الشرب؟ من الذي يسبق إلى ترقيم البيوت؟ كل هذه الأشياء المتطورة التي عرفتها لندن وباريس عشية الثورة الفرنسية .

ومن البديهي أن كل مدينة لم تنتهز الفرصة لتسلك طريق التطور، ظلت على حافة الطريق، خارج اللعبة. وإذا شبهنا المدينة بالقوقعة ، فإن بقاء الصيوان الخارجي القديم سليما لا يمسه شيء، يزيد من احتمالات فراغه من الداخل. كانت المدن التى سارت إلى التقدم قد سعت إلى تحطيم القيود التي أحاطت بها. ونحن نلاحظ أن الزيادة السكانية في القرن السادس عشر قد حبت كل المدن بغير تفريق ، وبغض النظر عن أحجامها: المدن الضخمة مثل المدن الضئيلة . فلما أهل هلال القرن السابع عشر تركز الحظ السياسي على بعض المدن دون الأخرى؛ وعلى الرغم من أن الحركة الاقتصادية كانت ضعيفة، فإن هذه المدن المحظوظة سياسيا كبرت، ونمت ، ولم تتوقف عن النمو، وعن اجتذاب البشر والحصول على الامتيازات .

وتزعمت لندن وباريس حركة ازدهار المدن الكبيرة . ونذكر كذلك نابلي، التي حالفها الحظ منذ وقت طويل ، فقد بلغ عدد سكانها منذ نهاية القرن السادس عشر ثلاثمائة ألف نسمة . أما باريس التي كانت الصراعات الفرنسية قد هبطت بعدد سكانها إلى مائة وثمانين ألف نسمة في عام ١٥٩١ فقد تضاعف عدد سكانها على الأرجح في عصر ريشيليو. وتلي هذه المدن الكبيرة طائفة من المدن الأخرى تسير على نفس الإيقاع: مدريد ، وأمستردام ، ومن بعدهما بقليل فيينا ، وميونيخ ، وكوبنهاجن، ثم تجيء سان بطرسبرج . كانت أمريكا هي التي تأخرت وحدها عن الركب ، ولكن سكان أمريكا ، في مجموعهم ، كانوا في ذلك الوقت قليلين جدا .أما الزيادة السكانية المفاجئة التي شهدتها مدينة بوتوزي Potosi البوليفية ، حيث بلغ عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ نسمة في عام ١٦٠٠ ، فقد كانت في الحقيقة نجاحا عابرا ، حققه معسكر قام لاستغلال المناجم . ومهما كان التألق الذي بلغته مدينة مكسيكو، ومدينة ليما، ومدينة ريو دي جانيرو ، فإنها تأخرت في اجتذاب أعداد كبيرة من السكان، فقد كان عدد سكان ريو حول عام ١٨٠٠ يقدر على الأكثر بمائة ألف نسمة . أما مدن الولايات المتحدة النشيطة المستقلة فلم تتجاوز مرحلة المدن الناجحة من النمط الذي يسيطر عليه الأمراء.

كان هذا النمو في التجمعات البشرية الكبيرة المواكب للدول الحديثة الأولى يفسر على نحو ما ظاهرة قديمة ، هي ظاهرة المدن الكبيرة التي قامت في الشرق وفي الشرق الأقصى . لم يكن المقياس الذي تقاس به هو الكثافة السكانية ـ التي ربما كانت أكبر من الكثافة السكانية في أوروبا (ونحن نعرف أن العكس هو الصحيح). بل كان المقياس الذي تقاس به هو مقياس التجمعات السياسية القوية التي تعبر عنها: فمن المؤكد أن استانبول كان تضم سبعمائة الف نسمة منذ القرن السادس عشر، ولكن الامبراطورية العثمانية كانت خلف هذه المدينة الضخمة. وكان من وراء مدينة بكين، التي كان عدد سكانها في عام ١٧٩٣ ثلاثة ملايين نسمة صين واحدة . وكان من وراء مدينة دلهي ما يمكن أن نعتبره على وجه التقريب هندا واحدة .

ولنا أن نأخذ الهند نموذجا يوضح كيف كانت المدن الرسمية مرتبطة بالأمير ارتباطا يصل إلى اللامعقول . فكثيرا ما أدت المشكلات السياسية ، وربما نزوات الأمير، إلى اقتلاع العواصم من مكانها ووضعها في أماكن أخرى. وهكذا كانت هذه المدن تتنقل من مكان إلى مكان وكأنها كانت تعيش عيشة البدو الرحل ، وظلت على هذه الحال ردحا من الزمن يقاس بالقرون الطوال ، اللهم بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة ـ بينارس Benar`es والله أباد Allahabad ودلهي Delhi ومادورا Madura وتريشينوبولي Trichinopoly ومولتار Multar وهاندنار Handnar . حتى دلهي قد تنقلت مرتين أو ثلاث مرات في موقعها نفسه ، تبعد في كل مرة عن مكانها الأول

مسافة بسيطة، ولكنها كانت على أية حال تتنقل ، وكأنما كانت ترقص في مكانها . وكانت عاصمة البنغال في عام ١٥٩٢ هي راجينهال Rajinahal وفي عام ١٦٠٨ تغيرت إلى دكا ، وفي عام ١٧٠٤ أصبحت مرشيهاد Murshihad هي العاصمة . وكانت العاصمة عندما يبرحها الأمير تتخرب ، وتضطرب أحوالها ، وتموت أحيانا . فإذا صادفها الحظ فجأة مرة أخرى ازدهرت من جديد . كانت مدينة لاهور في عام ١٦٦٤ عامرة ببيوت " أعلى من بيوت دلهي وأجرا Agra، ولكن نظرا لأن البلاط لم يقم برحلة إلى هناك منذ عشرين عاما فقد تخربت غالبية البيوت ، ولم تعد هناك سوى خمسة أو ستة شوارع لها قيمة منها شارعان أو ثلاثة يبلغ طول الواحد منها فرسخا يري الناظر فيها بيوتا مهدمة كثيرة " (٨٧).

وليس هناك مجال للخطأ في الحكم على هذه المدن الكبيرة بمقياس القوة السياسية : فدلهي تعتبر مدينة خان المغول الأعظم أكثر مما تعتبر باريس مدينة لويس الرابع عشر. ومهما كان رجال المال وتجار شارع شاندني تشوك Chandni Tchoke الكبير من الثراء فإنهم لا يساوون شيئا بالقياس إلى العاهل وبلاطه وجيشه . عندما قام أورينج زيب Aureng Zeb في عام ١٦٦٣ برحلته التي بلغ بها كشمير تبعته إلى هناك المدينة كلها ، لأنها ما كان يمكن أن تعيش بغير نعمته وكرمه؛ وكان زحف السكان فوضى لا مثيل لها شهدها طبيب فرنسي قدر عدد المشاركين في هذا الزحف بثلاثمائة أو أربعمائة ألف نسمة(٨٨). ولنتصور باريس تخرج وراء لويس الرابع عشر في عام ١٦٧٢ عندما قام برحلته إلى هولندة ، أو لويس الخامس عشر في عام ١٧٤٤ عندما سافر إلى ميتز Metz ؟

أما ما يشبه على نحو أكبر حركة نمو المدن في أوروبا فحركة الازدهار المعاصرة التي شهدتها مدن اليابان . في عام ١٦٠٩ عندما جال رودريجو بيبيرو Rodrigo Vivero جولته خلال مجموعة الجزر اليابانية ، وبهر بما شاهد ، لم تكن العاصمة القديمة كيوتو Kyoto هي كبرى المدن التي غرق فيها وجود الميكادو في سبات عميق (٨٩). كان سكانها البالغ عددهم أربعمائة ألف نسمة تقريبا يضعونها في المرتبة الثانية بعد ادو Edo (خمسمائة ألف نسمة ، علاوة على حامية ضخمة تؤدي - بما في ذلك عائلات أفرادها - إلى مضاعفة العدد الكلي للسكان إلى ما يربو على المليون) . وكانت تحتل المرتبة الثالثة مدينة أوزاكا Osaka بثلاثمائة ألف نسمة . وأيا كان الأمر فقد كانت أوزاكا ملتقى تجار اليابان ، وكانت في عشية نمائها الكبير: في عام ١٧٤٩ كان عدد سكانها أربعمائة ألف نسمة ، وفي عام ١٧٨٣ بلغ عددهم نصف المليون(٩٠). ولقد أصبح القرن السابع عشر في اليابان هو عصر أوزاكا، عصر " بورجوازي " له سمات فلورنسية، إذا صح التعبير، مع تبسيط للحياة الارستقراطية، وازدهار أدب واقعي له

من بعض جوانبه سمات شعبية منها أنه كتب باللغة القومية ، لا باللغة الصينية (لغة المثقفين) كما كانت الحال من قبل ، أدب حلا له أن يغترف ما يغذي به قريحته من تاريخ وفضائح حي الزهور (٩١).

ولكن مدينة ييدو Yedo لن تلبث أن تبرز على المدن الأخرى، ييدو عاصمة القائد أو الشوج ، المدينة المتسلطة، بإداراتها ، وتجمع ملاك الأرض الأغنياء ـ الداميو daimyos ـ فيها، الذين كان يفرض عليهم أن يقيموا في المدينة نصف العام ، حتى يكونوا تحت أعين الرقباء ، وكانوا يروحون ويؤوبون في مواكب طويلة خلابة . فلما جرى التنظيم الشوجوني الجديد في بداية القرن السابع عشر، بنوا بيوتهم في حي قائم بذاته ، منفصل عن بقية الشعب ، ومخصص للنبلاء " الوحيدين الذين كان من حقهم أن يحتفظوا بأسلحتهم ملونة ، ومذهبة معلقة فوق أبوابهم ." وكانت بعض هذه الأبواب المزدانة بالأسلحة يزيد ثمنها على عشرين ألف دوكات على ما يذكر مصدرنا الأسباني في عام ١٦٠٩(٩٢). ولن تكف طوكيو (ييدو) منذ ذلك الحين عن النمو . كان عدد سكانها في القرن الثامن عشر ضعف باريس على الأرجح ، ولكن اليابان كان عدد سكانها آنذاك أكثر من عدد سكان فرنسا ، وكانت حكومتها بلا شك أكثر تسلطية ومركزية من حكومة فرساي .

ما فائدة المدن ؟

يمكننا أن نستنتج ، بناء على قوانين حساب سياسي بسيط وملزم ، أن الدولة كلما كانت فسيحة ، ومركزية ، أتيح لعاصمتها فرص أكبر لزيادة السكان . هذه قاعدة تنطبق على الصين الامبراطورية كما تنطبق على انجلترة في العصر الذي حكمها فيه ملك من هانوفر Hannover، أي في القرن الثامن عشر ، وعلى باريس في عصر الملك لويس السادس عشر والكاتب سيباستيان مرسييه ، أي في القرن الثامن عشر أيضا . بل ينطبق على أمستردام التي كانت عاصمة حقيقية لما سمي أنذاك بالمديريات المتحدة Provinces-Unies.

وليس من الصعب أن نتبين أن هذه المدن الكبيرة كانت باهظة النفقات، وأن اقتصادها لم يكن يتوازن إلا بموارد من خارجها : كان على آخرين أن يدفعوا ثمن ترفها . فما فائدة هذه المدن الكبيرة إذن ، في هذا الغرب الذي ظهرت فيه، وفرضت فيه نفسها بمثل هذه القوة ؟ فائدتها هي أنها صنعت الدول الحديثة ، وكان ذلك عملا عظيما وإنجازا كبيرا. إن قيام المدن بصناعة الدول الحديثة يمثل منعطفا في تاريخ العالم . ثم إن المدن الكبيرة هي التي أنشأت الأسواق القومية ، التي لولاها لأصبحت الدولة الحديثة مجرد خرافة. فالحقيقة أن السوق البريطانية لم تنشأ فقط نتيجة للوحدة السياسية التي ضمت

انجلترة واسكتلندة (١٧٠٧) ولا نتيجة اتفاق الوحدة مع ايرلندة (١٨٠١)، ولا نتيجة لإجراء، مفيد في حد ذاته، هو منع المكوس الكثيرة، ولا نتيجة تنشيط النقل، ولا نتيجة " جنون حفرالقنوات "، ولا بسبب البحرالذي كان بطبيعته عامل تبادل حر يحيط بالجزر، لم تنشأ السوق البريطانية نتيجة لهذه الأسباب وحدها، وإنما أيضا نتيجة لتلك التيارات من البضائع التي كانت تدخل لندن، وتخرج منها كالمد والجزر، لندن ذلك القلب الهائل المتعطش للمزيد، الذي كان قادرا على أن يضبط إيقاع كل شيء، ويحدث الاضطراب في كل شيء ويرد الطمأنينة إلى كل شيء. أضف إلى ذلك الدور الثقافي والفكري بل والثوري للمدن الكبيرة، لتلك الصوبات الدافئة التي ينمو فيها النبات، ويترعرع : إنه لدور هائل. وهو دوريغطي تكلفته، وهو يطلب أجره عاليا جدا.

عوالم
غير متوازنة

لابد من دفع أجر كل شيء، من داخل المدينة، أو من خارجها، أو من الداخل والخارج معا، وهو الحل الأفضل. ومن هذا المنطلق فإن امستردام تعتبر مدينة مدهشة: فقد نمت بسرعة، كان عدد سكانها في عام ١٥٣٠ ثلاثين ألف نسمة فأصبح ١١٥٠٠٠ في عام ١٦٣٠، و ٢٠٠٠٠٠ في نهاية القرن الثامن عشر. كانت المدينة تسعى الى أكثر من الترف، كانت تسعى إلى الرفاهية، فقامت بذكاء بتوسيع أحيائها. وتوسيع قنواتها الأربع شبه الدائرية، مجسمة بذلك من عام ١٤٨٢ إلى عام ١٦٥٨ خطة النمو الواسع للمدينة، وكانت هذه الخطة ترسم ما يشبه الدوائر في قطاع عرضي بجذع شجرة. حافظت المدينة على طابعها الأصلي، وازدادت تهوية، وازدادت نورا، وتحلت بصفوف من الأشجار، وأرصفة المشاة، والمسطحات المائية، ولكنها ارتكبت خطأ واحدا، ولكنه خطأ له دلالته ونتائجه، ففي الجزء الجنوبي الغربي، حيث أحياء جوردان Jordaan، كلفت بالأعمال شركات مقاولات معيبة، فأساءت تنفيذ الأساسات وجعلت القنوات ضيقة، بل نفذت الحي كله على مستوى تحت المستوي الكلي للمدينة. ومن البديهي أن الذين سكنوا هذا الحي كانوا أخلاطا من البروليتاريا، تمتزج بهم أخلاط من المهاجرين اليهود، وحثالة البرتغال وأسبانيا، ولاجئين بروتستانتيين ممن يسمون بالهوجنوت hugenots فروا بحياتهم من فرنسا، وبؤساء من كل صوب وحدب (٩٣).

أما لندن، كبرى المدن الأوروبية (٨٦٠٠٠٠ نسمة في نهاية القرن الثامن عشر) فالسائح الذي كان يراها في القرن الثامن عشر ويقارنها بالماضي، كان يحس بخيبة الرجاء. فالمدينة لم تفد كل الإفادة - إذا جاز هذا التعبير - من حريق عام ١٦٦٦، لكي

تبني نفسها من جديد ، على نحو أكثر عقلانية ، على الرغم من الخطط التي اقترحت وبخاصة الخطة الجميلة جدا التي قدمها رين Wren، بل انطلقت المدينة عندما همت بالتعمير من جديد انطلاقا عشوائيا ، ولم تتجمل إلا في نهاية القرن السابع عشر عندما تم إنشاء ميادينها الكبيرة في الغرب : جولدن سكوير Golden Square وجروسفينور سكوير Grosvenor Square وبيركلي سكوير Square Berkeley ورد ليون سكوير Red Lion Square وكينسنجتون سكوير Square Kensington(٩٤).

ومن الواضح أن التجارة عامل من العوامل المحركة للتجمع السكاني الهائل الذي تمثله المدينة الكبيرة . ولقد بين فرنر زومبارت أن مائة ألف فرد على الأكثر كانوا في عام ١٧٠٠ يستطيعون الحياة على ما يربحونه من التجارة . وهؤلاء جميعا ما كانوا ليحققوا من الأرباح ما يساوي مبلغ المخصصات الملكية التي كان يحصل عليها الملك الهولندى فيلهلم الثالث وهو سبعمائة ألف جنيه . والحقيقة أن لندن كانت تعيش على التاج الملكي، وعلى الموظفين الكبار والمتوسطين والصغار الذين ينفق البلاط الملكي عليهم، وكان كبار الموظفين يحصلون على رواتب أميرية تبلغ ألف جنيه أو ألفا وخمسمائة أو ألفين من الجنيهات : وكانت لندن تعيش أيضا على النبلاء والأعيان gentry الذين كانوا يقيمون في المدينة ، وعلى نواب مجلس العموم الذين اعتادوا منذ عصر الملكة آن (١٧٠٢ ـ ١٧١٤) أن يقيموا في لندن ومعهم زوجاتهم وأولادهم ، وتعيش على أرباب المعاشات الحكومية ، وكانوا يزيدون عددا من عام لعام . كان هناك قطاع ثالث طفيلي عاطل تزيد أعداده، قوامه أناس يعيشون من معاشاتهم ، ومرتباتهم، ومن الفوائض التي يحققها القطاع في مجموعه، والمكاسب التي تنجم عن اختلال توازنها ، كانوا يعيشون هكذا من أجل صالح لندن ، ويحدثون ارتباكا في الحياة الاقتصادية المتينة في انجلترة، إذ يخلقون حاجات زائفة ، ولكنهم كانوا يؤكدون بذلك وحدة البلاد (٩٥).

وشهدت باريس المشهد نفسه. نهضت المدينة ، فكسرت أسوارها ، وجعلت شوارعها موائمة لحركة العربات، وهيأت ميادينها ، وجمعت حشدا هائلا من المستهلكين المبذرين؛ وهاهي ذي مواقع البناء تملأ جنبات المدينة منذ عام ١٧٦٠ ، يرى الناس من بعيد عجلات الروافع العالية " التي ترفع في الهواء كتلا هائلة من الحجر " قرب سانت جينيفيف وفي "ابروشية المادلين" (٩٦). وكا ن عالم الاقتصاد ميرابو القديم l'Ancien Mirabeau، صاحب كتاب " صديق البشر l`Ami des Hommes" قد طالب في كتابه هذا الذي نشره قي عام ١٧٥٥ بطرد ٢٠٠٠٠٠ شخص من المدينة ، مبتدئا بموظفي الخاصة الملكية وكبار الملاك، ومنتهيا بالمتنازعين أمام المحاكم ، هواة الترافع والإلحاح في المطالبة، وليس هناك من شيء يطالبون به أفضل لهم من العودة إلى حيث أتوا(٩٧).

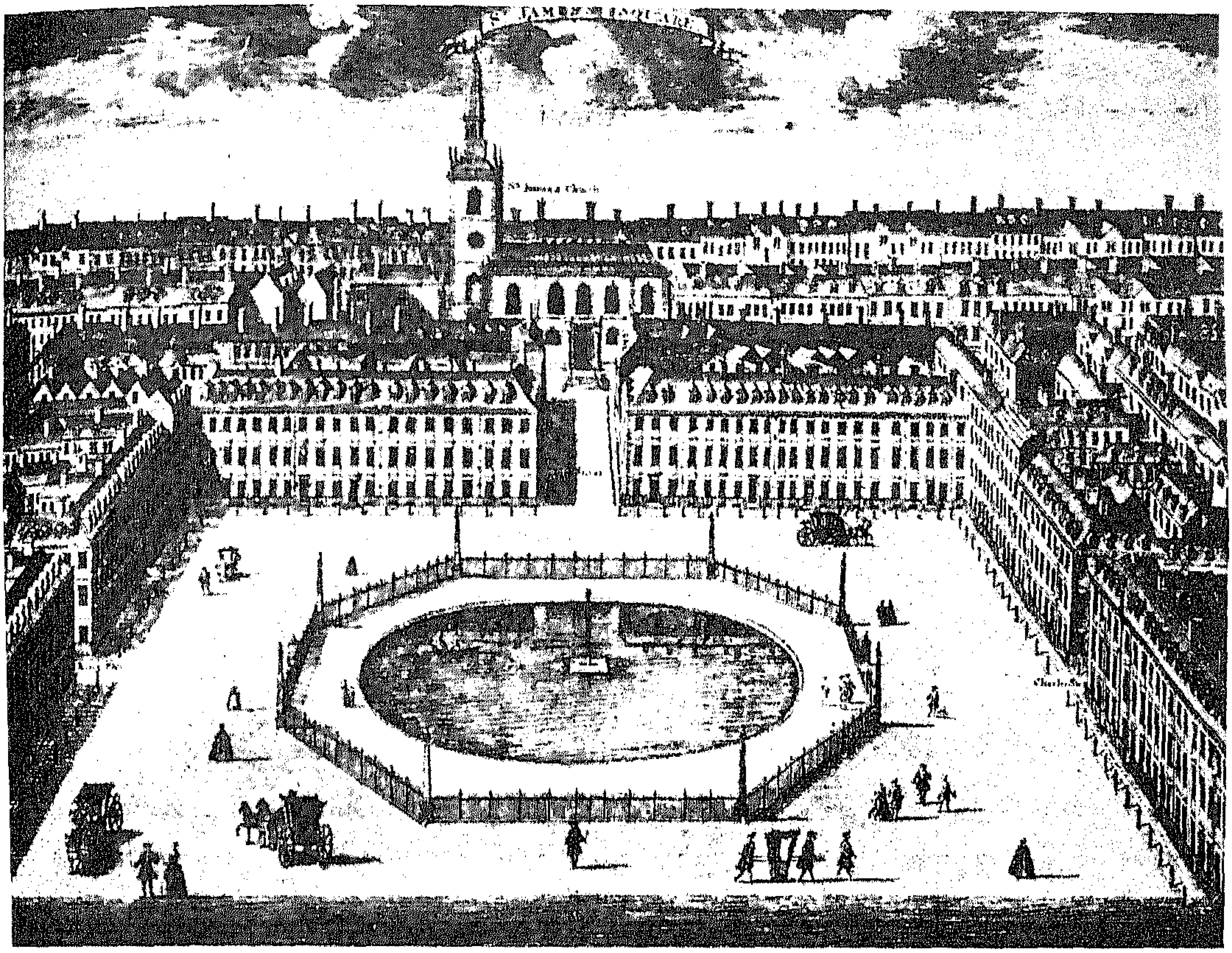

سانت جيمس . ميدان في القرن الثامن عشر .

والحقيقة أن هؤلاء الأغنياء ، أو هؤلاء المبذرين الذين كان عليهم أن يبذروا ، كانوا يُعيّشون " عددا كبيرا من التجار والحرفيين والخدم والعمال " ، وعددا كبيرا من رجال الدين ، ومن " رجال الاكليروس المرسومين الذين حلقوا رؤوسهم حلقة الإكليل " ويذكر سيباستيان ميرسييه : " نجد في غير قليل من البيوت قسيسا يطلقون عليه اسم صديق، وما هو إلا خادم أمين [...]، ثم هناك المدرسون الخصوصيون وهم أيضا من القساوسة(٩٨) . ولا يدخل في الحساب المطارنة الذين لا مقار لهم . وقد وضع لافوازييه Lavoisier ميزانية العاصمة متضمنة البنود التالية : بند المصروفات فيه ٢٥٠ مليون جنيه للرجال، ١٠ مليون للخيول . بند الموارد: ٢٠ مليون أرباح تجارية، ١٤٠ مليون سندات على الدولة ، ١٠٠ مليون عوائد عقارية أو مشروعات خارج باريس(٩٩).

ليس من بين هذه الحقائق الواقعة ما يخفى على الملاحظين وأصحاب النظريات الاقتصادية ، فهذا هو كانتيون Cantillon يقول في هذا المعنى : " ثروات المدن تجذب المتع "؛ وكينيه Quesnay هو الذي قال: " العظماء والأثرياء لاذوا بالعاصمة"(١٠٠). وسيباستيان ميرسييه يرسم لوحة طويلة ، لا نهائية تضم فئات " غير المنتجين " في المدينة الهائلة. ويقول نص ايطالي يرجع إلى عام ١٧٩٧ : " لا ، باريس ليست مركزا تجاريا حقيقيا ، إنها مشغولة أكثر مما ينبغي بتدبير تموينها ، وأهميتها لا تعتمد إلا على كتبها، ومنتجاتها الفنية ، أو منتجات الموضة ، وعلى كمية المال التي تدور فيها، وعلى لعبة المضاربات التي تمارسها، والتي لا تجاريها فيها مدينة أخرى ، باستثناء أمستردام. كل الصناعة فيها منصبة على الترف : شغل الجوبلان Gobelins، سجاد السافونري la Savonnerie، والفراش الفاخر الذي يعرضه شارع سان فيكتور ، والقبعات التي يصدرونها حتى أسبانيا ، والقطنيات المسماة بالهنديات ذات الطابع الشرقي، وذات الطابع الغربي ، والأقمشة الحريرية، والتافتاه ، والشرائط ، وملابس رجال الكهنوت، والمرايا (التي تأتي ألواحها العريضة من سان جوبان Saint-Gobain) ، وأعمال الصاغة والمطابع ..(١٠١)."

والمشهد نفسه يتكرر في مدريد وبرلين ونابلي . كان عدد سكان برلين في عام ١٧٨٣ يبلغ ١١٤١٢٨٣ نسمة منهم (جنود وعائلاتهم) حامية تعد ٣٣٠٨٨ فردا و(موظفين وعائلاتهم) ١٣٠٠٠ من الموظفين ، وعلاوة عليهم ١٠٠٧٤ من الخدم ويضاف إليهم بلاط فريدريش الثاني ٥٦٠٠٠ من مستخدمي الدولة(١٠٢). هذه باختصار حالة مرضية. أما نابلي فتستحق أن نقف عندها .

في نابلي :

من القصر الملكي الى السوق أو " المركاتو "

كانت نابلي عشية الثورة الفرنسية مدينة جميلة وقذرة في نفس الوقت، مليئة بالبؤس كل البؤس والغنى أشد الغنى، وكانت بين هذا وذاك تعج بالحيوية ، والمرح، وكان عدد سكانها ٤٠٠٠٠٠ ، وربما بلغ ٥٠٠٠٠٠ . كانت نابلي، بعد لندن وباريس واستانبول ، المدينة الرابعة في أوروبا ، على مستوى واحد مع مدريد. ولقد شهدت ابتداء من عام ١٦٩٥ انتفاضة عمرانية واسعة النطاق ، وامتدت نحو بورجو دي كياجا Borgo di Chiaja، هذا الحي المواجه لخليج نابلي الثاني (الخليج الأول هو خليج مارينيللا Marinella) والذي لم ينشأ إلا لصالح الأغنياء، وكان التصريح الذي أعطي في عام ١٧١٧ لتشييد هذا الحي في المنطقة خارج الأسوار يؤثر الأغنياء دون سواهم إيثارا صريحا .

أما الفقراء فكان قطاعهم يبدأ عند ميدان اللارجو ديل كاستيللو Largo del Castello الفسيح حيث كانت المشاجرات المثيرة تنشب فيه عند توزيع الأطعمة مجانا ، وتصل إلى السوق أو المركاتو Mercato وهو مقاطعتهم الخاصة المواجهة لسهل بالودي Paludi الذي يبدأ من خلف المتاريس . وكان الفقراء مكدسين في غرفهم تكديسا شديدا ، يضطرهم إلى الخروج بحياتهم إلى الشارع ، وكانوا ينشفون الغسيل - كما يفعلون اليوم أيضا - على حبل يمدونه من شباك الى شباك. وكان " غالبية الشحاذين بلا مأوى، يلوذون ليلا بالكهوف والحظائر والخرائب أو يلمون بملاجيء ليست أفضل حالا على الإطلاق ، لم يضع فيها أصحابها إلا مصباحا وقليلا من القش ، وكانوا يطلبون جرانو [قطعة عملة صغيرة كانت متداولة في نابلي] أو أكثر قليلا مقابل المبيت ليلة واحدة." ويستأنف الأمير سترونجولي Strongoli (١٧٨٣) تقريره قائلا : " وترى الفقراء ممدين على الأرض كالحيوانات الدنيئة ، لا فرق بين صغير وكبير ، ذكر وأنثى ؛ ويمكننا أن نتخيل كل ألوان الموبقات التي تنجم عن هذا الوضع ، والمواليد الذين يولدون في هذه البيئة "(١٠٣). بلغ عدد هؤلاء الفقراء ، هؤلاء المعدمين ، بأسمالهم البالية عندما أوشك القرن على الانتهاء ١٠٠٠٠٠ ، " تكاثروا بغير عائلات، ولم تكن لهم علاقة بالدولة ، إلا عندما تنصب لهم المشانق ، وكان الهرج و المرج بالغا لا يعرف الإنسان في وسطه أحدا " (١٠٤) . فلما حدث القحط الذي طال من عام ١٧٦٣ إلى ١٧٦٤ كان الناس يموتون في الشوارع .

كانت مشكلتهم تتمثل في عددهم المفرط . لقد اجتذبتهم نابلي إليها ولكنها لم تستطع إلى إطعامهم من سبيل . كانوا يعيشون عيشة البؤس . وإلى جانبهم ، كان أصحاب الحرف الجوعي يعيشون أيضا حياة الضنك ، ويكونون بورجوازية صغيرة رقيقة الحال . وهذا هو المفكر العظيم جوفاني باتيستا فيكو Giovanni Battista Vico (١٦٦٨ - ١٧٤١) وهو من أواخر دعاة الفكر العالمي في الغرب ، كان يتقاضى راتبا قدره مائة دوكات في السنة من جامعة نابلي ، ولم يكن يستطيع أن يدبر أمور معيشته بإعطاء المزيد من الدروس الخصوصية ، إلى هذا الحد بلغ به الفقر ، فقد فرض عليه ضيق ذات اليد أن " يطلع وينزل سلالم الأخرين "(١٠٥).

ومن فوق هذا السواد من المعدمين لنا أن نتصور مجتمعا رفيعا من أهل البلاط وكبار ملاك الأطيان وكبار رجال الكهنوت والموظفين الفاسدين والقضاة والمحامين وهواة التقاضي والمطالبة بالحقوق ... وكانت هناك في حي القانونيين منطقة من المناطق القذرة في المدينة هي منطقة الكاستل كابوارو Castel Capuaro حيث ينعقد مجلس الفيكاريا Vicaria وهو بمثابة محكمة نابلي ، فيه تشترى العدالة وتباع " وفيه اللصوص يتربصون بالجيوب ومحافظ النقود ." وهذا فرنسي يتعلق بأهداب العقل

تعلقا مبالغا فيه فيتساءل كيف يمكن أن يظل البناء الاجتماعي قائما وهو " مثقل بأعداد هائلة من السكان، وحشد كبير من الشحاذين ، وجمع عجيب من الخدم، وزمر ضخمة من رجال الدين النظاميين، وغير النظاميين وقوات عسكرية تزيد على عشرين ألف جندي، وأمة من النبلاء ، وجيش من رجال العدالة قوامه ثلاثون ألف رجل"(١٠٦) ؟

ولقد ظل النظام قائما هناك ، كما كان دائما ، وكما يقوم في أماكن أخرى وبالقليل من التكلفة .ثم إن أصحاب الامتيازات لم يكونوا جميعا ممن يحصلون على المخصصات الأرستقراطية السخية. فما يتاح للإنسان العادي شيء من المال حتى يشتري اللقب وينتقل إلى جانب النبلاء. " لم يعد الجزار الذي كنا نستخدمه في ذبح الحيوان يقوم بالعمل بنفسه بل عن طريق صبيانه منذ أن أصبح دوقا."(١٠٧) اشترى الجزار بماله لقب الدوق . ولكننا لسنا مطالبين بأن نصدق حرفيا هذا الكلام الذي قاله شارل دي بروس Charles de Brosses (١٧٠٩ - ١٧٧٧) الذي كتب عن الأحوال في ايطاليا، وكان رئيسا للبرلمان في مدينة ديجون الفرنسية . كانت مدينة نابلي تجتذب عن طريق الدولة والكنيسة وطبقة النبلاء والبضائع كل الفائض السكاني في مملكة نابلي، التي كان فيها كثرة من الفلاحين، والرعاة ، والملاحين ، وعمال المناجم ، والحرفيين ، والعمال المعاونين الذين يقومون بالعمل الشاق . لقد كانت المدينة تعيش على العمل الشاق، الذي كان خارجيا بالنسبة إليها ، منذ أن وجدت ، منذ حكم فريدريش الثاني وحكم اسرة أنجو les Angevins المالكة وحكم الأسبان . كانت الكنيسة التي كتب ضدها المؤرخ جانوني Giannone في عام ١٧٢٣ كتيبه النقدي "التاريخ المدني لحكم نابلي" Istoria civile del regno di Napoli تمتلك ثلثي الأملاك العقارية بالمملكة وكان النبلاء يمتلكون التسعين (بضم التاء) أي أقل من الثلث المتبقي. هكذا كانت صورة التوازن في نابلي. لم يكن يتبقى سوى التسع " لمن هم دونهم من أهل الريف"(١٠٨).

عندما ذهب فرناندو ملك نابلي في عام ١٧٨٥ ومعه زوجته ماري كارولين لزيارة الغرندوق ليوبولد في دوقية توسكانا التي كانت تعرف باسم توسكانا " النور " ، كان ملك نابلي المسكين لصا أكثر منه أميرا مستنيرا ، فاغتاظ من الدروس التي أغدقوها عليه، ومن الإصلاحات التي أفاضوا في امتداحها له وإغرائه بها . وذات يوم قال لعديله الغرندوق ليوبولد: "حقا، انني لا أفهم ما تلتمسه من نفع في العلم الذي تعكف عليه؛ فأنت تقرأ وتقرأ ولا تكف عن القراءة ، وشعبك يتبع سيرتك، ولكن مدنك وعاصمتك وبلاطك كلها غارقة في الحزن والكآبة. أما أنا فلا أعرف شيئا من العلم ، ولكن شعبي أكثر الشعوب مرحا"(١٠٩). ثم إن نابلي لم تكن هي العاصمة القديمة فقط، لم تكن مجرد مدينة ، بل كانت مملكة نابلي الشاسعة . أما توسكانا فقد كانت بالمقارنة بها

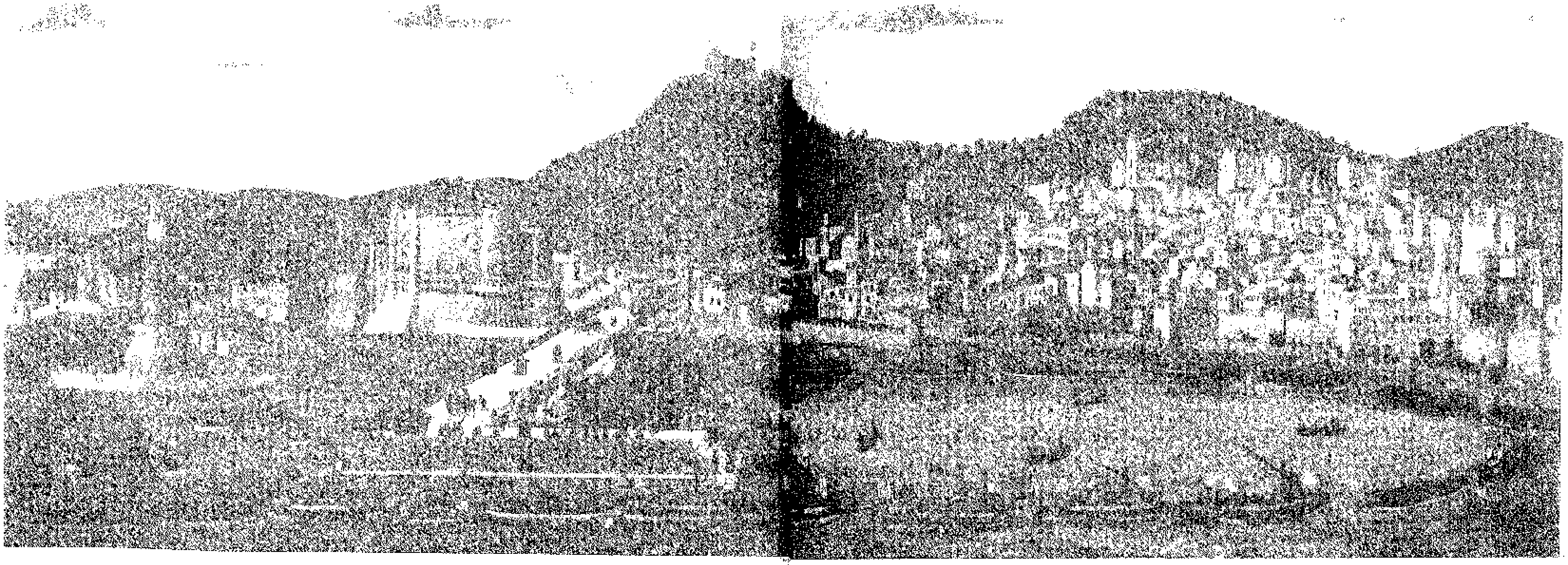

نابلي في القرن الخامس عشر : كانت في ذلك الحين تعتبر مدينة هامة . الى اليسار قلعة كاستيل ديل أوفو Castel del Ovo، وعلى جزيرة صغيرة تقوم القلعة الأنجوية (نسبة الى أسرة أنجو المالكة) الضخمة كاستيل نوفو Castel Nuovo ويظهرالجسر الذي يفصل الميناء المزدوج حيث تدخل قافلة من السفن ذوات المجاديف بعد تحرير ايسكيا Ischia .ونرى على تل فوميرو Vomero دير سان مارتينو San Martino.

ضئيلة لا يكاد الإنسان يضمها في قبضته .

سان بطرسبرج

في عام ١٧٩٠

تقوم مدينة سان بطرسبرج ، هذه المدينة الجديدة التي نشأت تحقيقا لإرادة القيصر، شاهدا على معجزة الشذوذ ، والاختلال البنيوي الذي يوشك أن يصل إلى درجة البشاعة، هذه المعجزة التي لا تقتصر على مدينة واحدة بل تضم بين جناحيها كل المدن الكبيرة في العالم الحديث في بدايته. ونحن محظوظون إذ أتيح لنا دليل للمدينة وما حولها، يرجع إلى عام ١٧٩٠، أهداه صاحبه الألماني يوهان جوتليب جيورجي Johann Gottlieb

Georgi إلى القيصرة كاترين الثانية(١١٠). ويكفي أن نقلب بين صفحاته لنخرج بالكثير من المعلومات .

ليس من شك في أن موقع سان بطرسبرج من أشد المواقع نكرا ، وأكثرها جحودا، اختاره بطرس الأكبر في ١٦ مايو من عام ١٧٠٣ ليضع فيه حجر الأساس لما سيصبح فيما بعد حصن " بطرس وبولس " الشهير . كان من الضروري أن تصمد أمام الصعاب إرادة لا تلين ، لكي تنشأ المدينة في هذا الإطار من الجزر ومن الأراضي المنخفضة الضحلة التي توشك أن تكون على مستوى سطح الماء ، والمحيطة بنهر النيفا Neva وفروعه الأربعة (النيفا الكبير ، والنيفا الصغير ، والنيفسكا Newska الكبير،

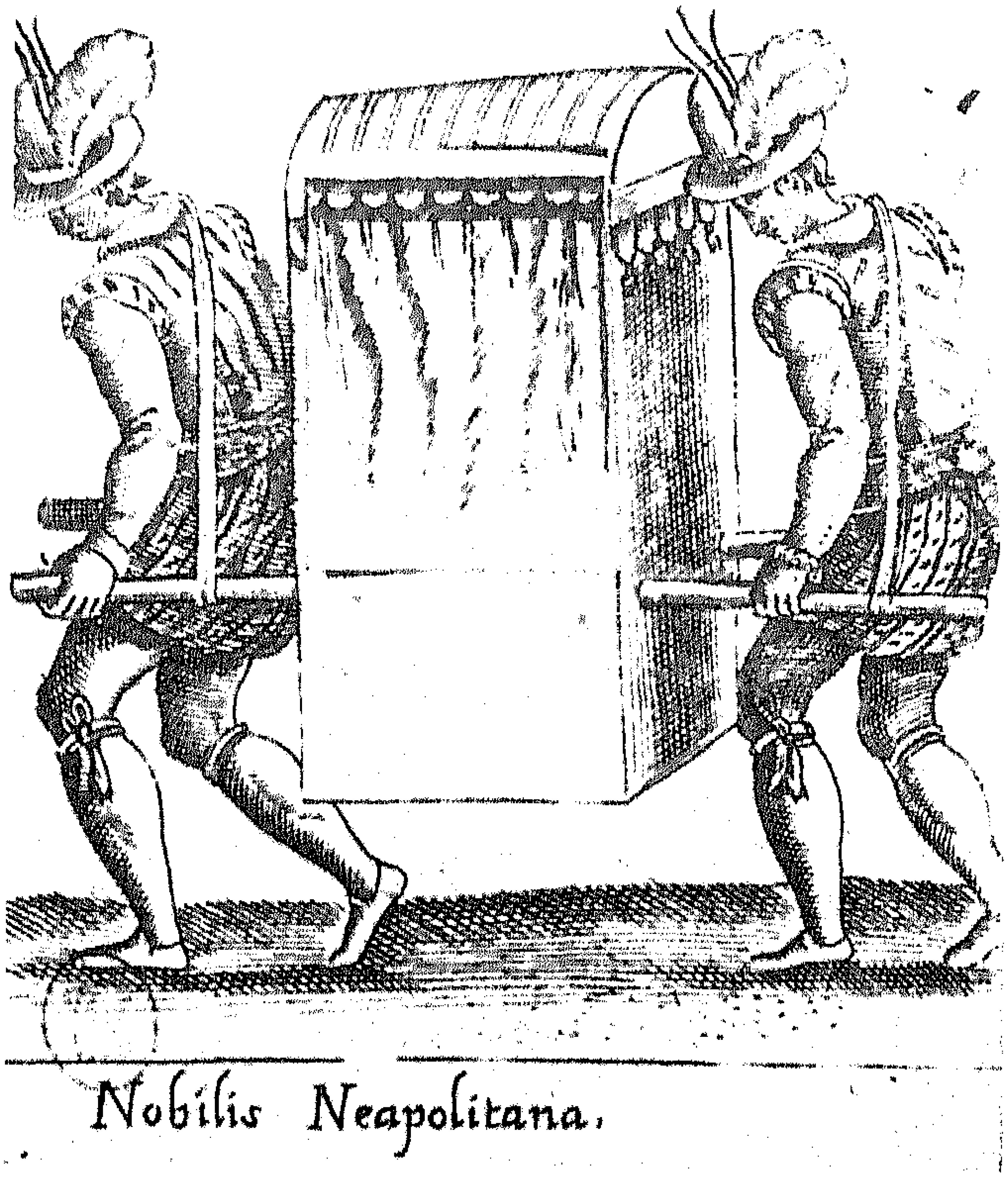

"Nobilis Neapolitana" : السيدة النبيلة بوليتانية التي لا تراها العيون وراء ستار كرسي الهودج المحمول (١٥٩٤)

والنيفسكا الصغير) حيث لا ترتفع الأرض قليلا إلا نحو الشرق في اتجاه الترسانة، ودير الكسندر نيفسكي، أما في اتجاه الغرب فالأرض منخفضة لايمكن درء خطر الفيضانات عنها. ونتبين مواضع الإنذار على النهر ، تقوم على هيئة سلسلة من علامات التحذير المألوفة : طلقات مدافع ، رايات بيضاء ترفع نهارا ، مصابيح تضاء ليلا بصفة مستمرة في برج الأدميرالية ، وأجراس تدق بغير توقف. كل هذه الإشارات تعني أنهم كانوا يتحسبون أخطار الفيضانات، ولكنها لا تعني أنهم كانوا يسيطرون عليها. ففي عام ١٧١٥ أغرقت الفيضانات المدينة كلها، وفي عام ١٧٧٥ تكررت الكارثة نفسها، وظلت الفيضانات تهدد المدينة عاما بعد عام . وكأنما كانت المدينة بحاجة إلى أن ترتفع فوق مستوى هذا الخطر الفتاك، الذي يهددها على مستوى سطح التربة . ومن الطبيعي أن الناس كانوا لا يكادون يحفرون في الأرض، حتى يظهر الماء الجوفي على عمق

قدمين أو على أكثر تقدير على عمق سبع أقدام، مما جعل من المستحيل أن تتخذ البيوت بدرومات تحت الأرض . وفرضت الأساسات الحجرية نفسها بالضرورة في كل حال، على الرغم من أسعارها المرتفعة ، حتى إذا كان البناء من الخشب ، نظرا لأن كتل الخشب إذا دقت كأساسات تتعفن بسرعة في التربة الرطبة . كذلك كان من الضروري شق قنوات خلال المدينة كلها ، وتقوية جوانبها بأغصان متينة ، أو تكسية شطآنها بكتل من الجرانيت كما هي الحال في قناة مويكا Moika وقناة فونتانكا Fontanka ، اللتين استخدمتهما السفن التي تمون المدينة بالخشب والطعام .

كذلك شوارع المدينة وميادينها كان من الضروري رفع مستواها ما بين قدمين وخمس أقدام بحسب المنطقة ، وتطلب هذا عملا هائلا من الحفر والبناء بالقرميد أو الحجر، وبناء أقبية تحمل بطن الشارع المبلط ، وتسمح بانصراف ماء الشارع إلى نهر النيفا. وقد جرى تنفيذ هذا العمل التعميري الخارق على نحو منتظم بعد عام ١٧٧٠، ابتداء من " الأحياء الجميلة " عند الأدميرالية ، تلك التي تحف بنهر النيفا الكبير، وقام بذلك العمل الجنرال فون باور von Bauer بأمر من كاترين الثانية، وعلى حساب الخزينة الامبراطورية .

كان تعمير المدينة بطيئا ومكلفا . تطلب إعادة تخطيط الشوارع والميادين ، ووضع حد لتكاثر البيوت حيث لا ينبغي لها أن تتكاثر، وفرض استخدام الحجر في إعادة بناء المباني الحكومية، والكنائس ودير الكسندر نيفسكي Alexander-Newsky البعيد، وبيوت كثيرة، على الرغم من أن الخشب ظل زمنا طويلا هو مادة البناء الأكثر شيوعا. فالخشب كانت له مميزات قيمة : فهو يتيح الدفء نسبيا عند استخدامه في الداخل، وهو أقل تأثرا بالرطوبة ، وأقل سعرا وهو سريع في البناء . ولم تكن الحيطان تقام هناك من كتل خشبية مربعة المقطع كما هي الحال في استوكهولم ، بل كانت تقام من جذوع الشجر على حالها. إلا الواجهة فكانت أحيانا تكسى بالألواح ، وكانوا عندئذ يستطيعون تزيينها بأفاريز، ودهانها بالألوان . وكانت هذه البيوت الخشبية تمتاز بميزة أخرى، فقد كان من السهل تعديلها ، بل كان من الممكن نقلها كلها قطعة واحدة من منطقة إلى منطقة أخرى في المدينة . أما البيوت الحجرية التي كان بناؤها يتكلف أكثر، فكان الدور الأرضي، الذي كثيرا ما كانت حيطانه تكسي ببلاطات من الجرانيت، يستخدم بديلا لبدروم التخزين، وعند الاقتضاء كمسكن رديء . كان الناس يفضلون سكنى الحجرات المرتفعة ، ومن هنا كانت البيوت ترتفع على الأقل دورا فوق الأرضي، وربما دورين ونادرا ما كانت تصل إلى ثلاثة أدوار .

كانت مدينة سان بطرسبرج ساحة عمل دائب ، كانت السفن تحمل إليها عن طريق

نهر النيفا الجير والحجر والرخام (كان الرخام يأتي من لادوجا Ladogaأو من ساحل فيبورج Wiborg) وكتل الجرانيت ؛ أما جذوع شجر الشربين فكانت تصل طافية وكانت تفقد نتيجة لهذا بطبيعة الحال شيئا من خواصها .

وكان أكثر المشاهد غرابة هو مشهد العمال في ساحات العمل ، وكانوا جميعا من الفلاحين القادمين من الأقاليم الشمالية للعمل بنائين ونجارين . وكان النجارون - ويطلق عليهم اسم بلوتنيدكي plotnidki- وهو اسم يعني حرفيا فلاحي الأطواف ، مما جعل المؤلف الألماني يستخدم لفظة ألمانية مركبة هي Flossbauer. كان هؤلاء العمال يستخدمون البلطة و لاشيء غيرها .أيا كان الأمر فقد كانت هذه الطوائف من العمال المساعدين والنجارين والبنائين تأتي من أريافها في موسم الجو المعتدل طلبا للعمل . وما تمر بضعة أسابيع حتى تظهر في المكان الذي تولوا العمل فيه والذي كان حتى تلك اللحظة خاليا" أساسات من الحجر من فوقها جدران البيت ، التي كانت تبدو كأنها تعلو وتعلو أمام العين ، وهي تتغطى بالعمال؛ وكانت أكواخ من الطين تنتشر في الوقت نفسه على هيئة قرية صغيرة يقيم فيها هؤلاء العمال ."

كان موقع سان بطرسبرج موقعا له عيوبه ، ولكنه كانت له بطبيعة الحال كذلك ميزاته ، وعلى رأسها النهر ، ومنافعه ، ومناظره الجميلة التي لا تعادلها غيرها ، والنهر عند سان بطرسبرج أعرض من نهر السين عند باريس ، ومياهه أكثر حركة من مياه نهر التيمز عند لندن، وهو يرسم بين بطرس وبولس ، وجزيرة فاسيلي Wassiliostrow وأحياء الأدميرالية منظرا من أجمل المناظر النهرية ومناظر المدن في العالم. وكانت السفن والقوارب تجري على صفحة نهر نيفا ، تربط البحر بمدينة كرونشتات Kronstadt، وكان نهر النيفا يتحول ، من ناحية جزيرة فاسيلي حيث حي التجار والبورصة والجمرك ، إلى ميناء بحري نشيط جدا. كانت مدينة سان بطرسبرج هي تلك النافذة المفتوحة على الغرب الذي كان بطرس الأكبر يريد أن يدمجه في حياة شعبه التي كانت تتسم بالعنف والخشونة . يضاف إلى هذا أن نهر النيفا هو الذي يمد المدينة بماء الشرب، وكان ماء وصفوه بأنه لا عيب فيه .

فإذا أقبل الشتاء ، أحاطت الثلوج بالمدينة ، فإذا هي تصبح مرتعا للزحافات وساحة للمتع الشعبية. كانوا في الكرنفال ، في أسبوع يسمونه أسبوع الزبد ، يقيمون تلالا صناعية من الثلوج مقواة بالألواح والكتل الخشبية تنصب فوق النهر ، وكانوا يطلقون من فوق هذه التلال الثلجية زحافات على مضمار طويل خال ينزلق بها قائدها بسرعة جنونية " تنحبس لها الأنفاس " ؛ وكانت هناك مضمارات مشابهة تهيأ حسبما اتفق في الحدائق العامة أو أفنية البيوت، ولكن مضمار النيفا ، الذي كان البوليس يشرف عليه،

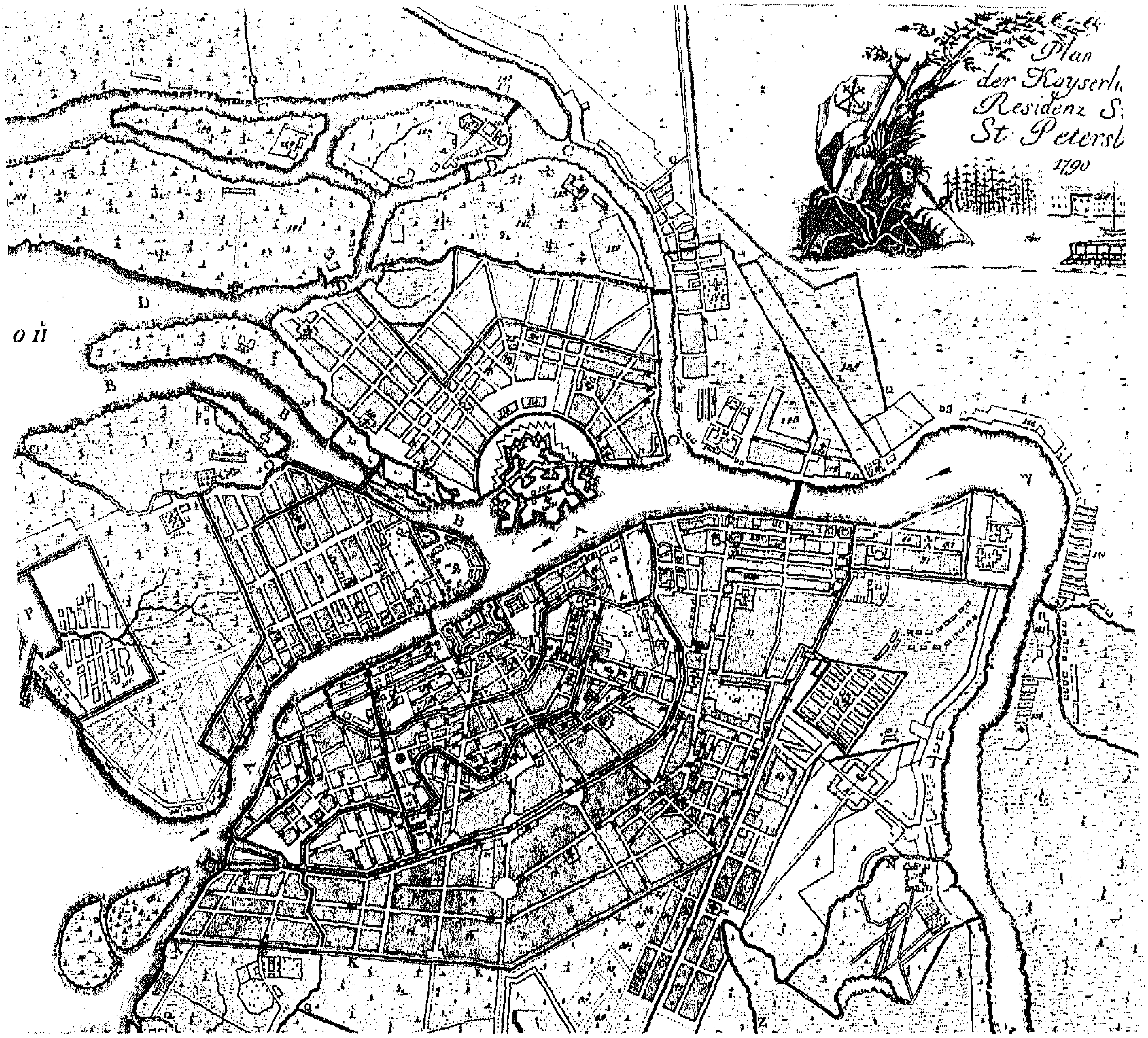

٢٨ ـ خريطة مدينة سان بطرسبرج في عام ١٧٩٠ .

A و B فرعا نهر نيفا ؛ C و D فرعا نهر النيفسكا . في الوسط على الشاطيء الشمالي للنيفا حصن " بطرس وبولس ". إلى الغرب جزيرة فاسيلي الكبيرة ترتبط بالأدميرالية بجسر من السفن . من الأدميرالية على الشاطيء الجنوبي للنيفا تتفرق المحاور الثلاثة الكبيرة (في أقصى الشرق : اتجاه نيفسكي) على هيئة المروحة. أما امتداد المدينة تجاه الجنوب فتبينه القنوات الثلاث النصف الدائرية.

كان يشد الجماهيرالتي كانت تتحمس له حماسا خارقا للمألوف : فقد كانت المدينة تخرج عن بكرة أبيها لتشاهد المهرجان.

لم تكن هناك من جسور مقامة على النهر وأفرعه المختلفة إلا الجسور المكونة من السفن، وكان جسران من هذا النوع يقومان على نهر النيفا، كان أشهرهما قرب الميدان الذي لا يزال فيه حتى اليوم بجانب الأدميرالية التمثال الضخم المعبر لبطرس الأكبر (الذي نحته المثال فالكونيه Falconet أو الذي اقتبس عنه) وكان هذا الجسر يربط جزيرة فاسيلي التي تعج بالتجارة . وكان جسرا يتكون من ٢١ سفينة تثبت من الطرفين بسفينتين مشحونتين مربوطتين بأهلاب متينة . وكانت هناك بين هذه السفن جسور قلابة تسمح بمرور المراكب العابرة. وكان المألوف أن تضم هذه الجسورالقلابة عندما يهل الخريف، ولكنهم بحلول عام ١٧٧٩ تركوا الجسورة القلابة في أماكنها على حالها تحصرها الثلوج في الشتاء فإذا جاء موعد ذوبان الثلوج ، وانهمرت المياه والثلوج، كان الجسر يتفكك من تلقاء نفسه ، وكانوا ينتظرون لإصلاحه حتى تصبح المياه كلها طليقة.

وكان مؤسس المدينة يتصور أنها ستنمو ناحية جنوب وشمال النهر معا انطلاقا من حصن بطرس وبولس . ولكن النمو الذي حدث لم يسر على نحو منسجم ، فقد كان بطيئا على الشاطيء الأيمن ، سريعا إلى حد كبير على الشاطيء الأيسر لنهر نيفا . على هذا الشاطيء المتميز كانت أحياء الأدميرالية وميدان بطرس الأكبر تكون قلب المدينة الذي كان يمتد حتى قناة مويكا وكانت آخر قناة في الجنوب مزودة بأرصفة من الحجارة. وكان هذا القطاع هو أضيق قطاعات المدينة ، ولكنه كان أوفرها ثراء ، وأكثرها جمالا، وهو الحي الوحيد الذي تعتبرالمباني الحجرية فيه هي القاعدة (باستثناء البناء الامبراطوري) و من هذه المباني ٣٠ مبنى حكومي و٢٢١ بيت خاص أغلبها قصور. في هذا القطاع امتدت الشوارع الشهيرة ، شارع البيتي مليون Petit -Million. وشارع الجران ميليون Grand-Million وهو الشارع الرائع الذي يكتنف النيفا ، وعنده يبدأ منظر النيفسكي والأدميرالية ، وفيه قصر الشتاء وميدانه الضخم ، ومتحف الارميتاج Ermitage ومجلس الشيوخ والكنيسة الرخامية التي أنشئت ببطء وهي كنيسة سان إيزاك المطلة على الميدان الذي يحمل الإسم نفسه (١٨١٩-١٨٥٨) (١١١).

وحدث توزيع للمناطق على أساس واع مقصود ، فصل الأغنياء عن الفقراء ، وألقى إلى الأطراف بالصناعات والأنشطة المسببة للزحام ، مثل صناعة العربات، وقد اتخذ صناع العربات لأنفسهم فيما وراء قناة ليجوفيتش Ligowich مدينة قائمة بذاتها، بائسة، تتخللها مساحات خالية ، وفيها سوق للبهائم . والى اليمين من الأدميرالية أقيم مسبك المدافع (وهو مبنى خشبي أنشيء في عام ١٧١٣ ، وأعيد بناؤه بالحجر في عام ١٧٣٣) مجاورا للترسانة التي أقامها الأمير أورلوف Orloff بين عام ١٧٧٠ وعام ١٧٧٨. وللمدينة كذلك دار سك عملة ، ولها طواحين على طول نهر النيفا ، في اتجاه المنبع واتجاه المصب، وكان عمالها الحرفيون ينالون من الطعام أفضل مما كان نظراؤهم في

السويد وألمانيا ينالون ، فقد كان لهم الحق في القهوة كل يوم ، والفودكا قبل تناول الوجبات. وكانت المدينة تنتج أقمشة ممتازة من النمط الهولندي، وهناك في كازينكا Casinka على مقربة منها صناعة منسوجات من نوع الجوبلان تنتج منسوجات جميلة جدا. وقد اتخذت هنا مبادرة يمكن المجادلة فيها غاية المجادلة ، تمثلت في تجميع محلات البيع بالقطاعي في أسواق فسيحة على شاكلة أسواق موسكو . فكان هناك منذ عام ١٧١٣ سوق من هذه الأسواق في " جزيرة بطرسبرج " (قرب بطرس وبولس) وسوق أخرى على مقربة من الأدميرالية. وفي أعقاب الحريق الذي أتي عليها في عام ١٧٣٦، نقلت السوق من موقع إلى آخر بعيدا عن " المنظر الكبير " للمدينة في عام ١٧٨٤. وقد أدت عمليات التجميع هذه بأهل سان بطرسبرج إلى التنقل الكثير والسير إلى مسافات بعيدة، ولكن الهدف تحقق ألا وهو : الحفاظ على ما للأحياء الجميلة من طابع رسمي وسكني متميز .

ولكن هذا الحكم بأن مدينة سان بطرسبرج حافظت على طابع الأحياء الجميلة، لا يستبعد حدوث بعض الاستثناءات والاضطرابات: فربما قام كوخ قذر بجانب قصر منيف. وربما قامت حدائق الخضروات (التي يتهافت عليها الفلاحون القادمون من روستو Rostow) بجانب الحدائق العامة التي تعزف فيها الموسيقى العسكرية . ولكن هل من الممكن أن تسيرالأمور في مدينة نشأت بسرعة ، وتميزت بالأسعار العالية التي يدفعها الناس ، وبسعة إمكانات استخدام العمالة ، وإمكانات الحكومة وإرادتها، على نحو يختلف عما عهدناه في المدن التي تتطور مرحلة بعد مرحلة ؟ كان عدد سكان سان بطرسبرج في عام ١٧٥٠ هو ٧٤٢٧٣، وأصبح ١٩٢٤٨٦ في عام ١٧٨٤و٢١٧٩٤٨ في عام ١٧٨٩ . وكانت المدينة تضم ما بين بحارة وجنود وطلاب معاهد عسكرية (علاوة على أسرهم) ٥٥٦٢١ في عام ١٧٨٩ ، وهو ما يساوي ربع سكانها. هذا الجانب المفتعل من التجمع السكاني - العسكرية بفروعها وما يتصل بها - يبدو واضحا في الفرق بين الذكور والاناث (الذكور : ١٤٨٥٢٠ والاناث : ٦٩٤٢٨). والحق أن مدينة سان بطرسبرج كانت مدينة تغلب عليها الحامية العسكرية والخدم والشباب. وإذا نحن صدقنا أرقام المواليد والوفيات التي بين أيدينا ، فقد كانت المدينة تنعم من حين لآخر بزيادة المواليد على الوفيات، ولكن الأرقام المتاحة أرقام ناقصة ويخشى من أن تؤدي إلى نتائج مضللة . يمكننا ، على أية حال، أن نتبين من زيادة الوفيات بين الأعمار من ٢٠ إلى ٢٥ سنة أن المدينة كانت تستورد عددا كبيرا من الشباب، كثيرا ما كانوا يدفعون الثمن غاليا ، لما يتعرضون له من مناخ قاس وحميات وسل.

وكان هذا السيل من المهاجرين إلى المدينة منوعا : نرى فيه موظفين كبارا أو نبلاء

يبحثون عن فرص أفضل، صغار أبناء الأسر، ضباطا ، بحارة، جنودا ، فنيين ، أساتذة، فنانين ، خلعاء، طباخين، مدرسين خصوصيين أجانب ، مربيات، وأكثر من هؤلاء وأولئك الفلاحون الذين كانوا يهرعون زرافات من الريف الفقير المحيط بالمدينة. يأتون للعمل شيالين وباعة مواد غذائية (ومن العجيب أنهم كانوا يتهمون بأنهم مسئولون عن الغلاء في الأسواق) ؛ كانوا في الشتاء يعملون في تكسير ثلوج نهر النيفا : وكانت كتل الثلج التي يقطعونها (كان هذا عمل الفنلنديين) تستخدم في تزويد الثلاجات التي كانت البيوت الكبيرة تمتلكها في أدوارها الأرضية؛ أو للعمل في كسح الثلوج لقاء نصف روبل في اليوم ؛ وكانوا لا يفرغون من العمل في كسح الثلوج من مداخل البيوت الغنية. أو كانوا يعملون في قيادة الزحافات ، حيث كانوا في مقابل كوبيك أو كوبيكين - هذه العملة الضئيلة - يأخذون الراكب إلى حيث يريد خلال المدينة الضخمة، وكانوا يركنون في الميادين في مكان سائقي العربات العالية التي كانت تستخدم في الصيف الماضي . أما النساء الفنلنديات فكن يعملن خادمات أو طاهيات، وكن يتكيفن مع المهام التي يقمن بها ، وكثيرا ما يتزوجن زيجات مناسبة .

" هؤلاء السكان [...] الذين يتكونون من أمم مختلفة [...] كانوا يحتفظون بأساليب حياتهم الخاصة " وبمعتقداتهم ؛ وهكذا كانت الكنائس اليونانية تجاور كنائس البروتستانت وكنائس الراسكولنيكي raskolnikis ". ويستأنف مصدرنا (١٧٦٥) تقريره قائلا: " لا يمكننا أن نجد مدينة أخرى في العالم يتكلم فيها كل واحد من السكان مثل هذا العدد الكبير من اللغات ، إذا جاز هذا التعبير. كل الناس حتى الخدم الصغار كانوا يتكلمون الروسية والألمانية والفنلندية ، وربما وجدنا بين من تلقوا شيئا من التعليم من يتكلمون ثماني أو تسع لغات [...] وقد يخلطون بين اللغات المختلفة على نحو فيه شيء من الطرافة "(١١٢).

وكانت أصالة سان بطرسبرج تكمن بالضبط في هذا الخلط . في عام ١٧٩٠ تساءل جيورجي عن السمة المميزة للبطرسبرجي ، وأجاب بأنها : الشغف بالجديد ، وبالتغيير، وبالألقاب ، وبالرفاهية ، والترف ، والإنفاق .ولنترجم : شغف أهل العاصمة بالترف الذى تشكل عن قرب أو بعد على نموذج البلاط . فالبلاط هو الذي كان يحدد النبرة بتطلعاته واحتفالاته التي كانت حفلات فرحة عامة بأنوارها الرائعة التي كانت تتلألأ في مبني الأدميرالية ، والقصور الرسمية ، كما كانت تتلألأ في بيوت الأغنياء .

كانت المدينة الضخمة تقع في قلب منطقة فقيرة ، ولهذا واجهت مشكلات تموينية بلا نهاية . لم يكن السمك بكل تأكيد مشكلة من هذه المشكلات، فلم يكن هناك أسهل من ملء القوارب بالماء وإحضارالسمك حيا من بحيرة لادوجا Ladoga أو من بحيرة أونيجا

عربة بورجوازي من سان بطرسبرج صورة بالحفر من القرن الثامن عشر. (مجموعة فيوللى « Viollet)

Onega؛ ولكن المشكلة كانت في الأبقار والأغنام التي كان لابد من إحضارها إلى مذابح المدينة من بعيد ، من منطقة أوكرانيا ومنطقة أستراخان وحوض نهر الدون وحوض نهرالفولجا، أي من على بعد ألفين من الفيرستات، والفيرستا مقاس روسي يربو على الكيلومتر، وربما جلبوها من تركيا ، وكان تدبيرالمواد التموينية الأخرى يسير على هذا المنوال الصعب . وقد أدى هذا الوضع إلى عجز مزمن في الخزينة الامبراطورية وفي خزائن السادة. كانت كل أموال الامبراطورية تصب في القصورالاميرية والبيوتات الثرية التي كانت تمتليء بالكثير من المفروشات والرياش القيمة والأثاث النفيس والخشب المشغول والمنحوت والمذهب والسقوف المزدانة بالرسوم " الكلاسيكية " ؛ وكانت الأجنحة في هذه القصور تنقسم إلى حجرات خصوصية عديدة على نسق باريس ولندن، وكانت تحفل بأعداد كبيرة متزايدة من الخدم والحشم .

وكان أكثر المشاهد تعبيرا عن الطابع المميز للمدينة وما حولها هو مشهد شوارع المدينة عندما تعج بالمرور الصاخب وتمتليء بأخلاط الخدم والحشم والعربات التي كانت ضرورة لا مفر منها في مدينة مترامية الأطراف، شوارعها موحلة ونهار الشتاء المنير فيها قصير.وقد صدر مرسوم امبراطوري نظم في هذا المجال الحقوق الدقيقة المدققة لكل واحد: كان الجنرالات الكبار فقط ، ومن في مركزهم، هم الذين لهم الحق في كدن ستة من الخيول إلى عرباتهم ، وكان لهم ، علاوة على ذلك ، أن يتخذوا فارسين لقيادة الركب وأن يستخدموا حوذيا . وكان عدد الخيول يقل من درجة إلى درجة حتى نصل إلى الملازم والبورجوازي اللذين كان من حقهما كدن حصانين إلى العربة، أما الحرفي أو التاجر فكان عليهما الاكتفاء بحصان واحد . وكانت هناك سلسلة من اللوائح والتعليمات تحدد كذلك زي الخدم ـ الليفريه ـ بحسب رتب أسيادهم .

الرحلة قبل الأخيرة :

بكين

يمكننا أن نزيد الرحلات ونلم بمدن أخرى غير التي ألممنا بها من قبل، دون أن يغير هذا شيئا في النتيجة التي انتهينا إليها : وهي أن ترف العواصم كان يقع دائما وبالضرورة على كواهل الآخرين . لم تكن بينها مدينة واحدة تستطيع أن تعيش من عمل يدها . كان البابا سيكستي كوينت (١٥٨٥ ـ ١٥٩٠) فلاحا عنيدا ، فلم يفهم روما في زمانه، كان يريد أن يجعلها " تعمل " ، وأن ينشر في ربوعها الصناعات ، فإذا بمشروعه هذا يصطدم بالواقع دون أن تكون بالناس حاجة إلى أن يعينوا على هذا الاصطدام بشيء من جهدهم . وكان سيباستيان ميرسييه يحلم مع بعض الآخرين في تحويل باريس إلى ميناء بحري ، لكي يجتذبوا إليها أنشطة لم تعرفها من قبل . وكان من الممكن أن يتحقق هذا الحلم فتصبح باريس على شاكلة لندن التي كانت أكبر ميناء في العالم ، ولكن باريس كانت ستظل مدينة طفيلية تعيش على جهد الآخرين.

وهذا هو شأن العواصم كلها، وشأن المدن كلها، حيث تتلألأ أنوار الحضارة، والذوق والفراغ ، وتطرفاتها، مدريد أو لشبونة، روما أو البندقية التي فطرت على البقاء حية بعد عظمتها الماضية، وفيينا التي تربعت إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر على قمة الأناقة الأوروبية . كذلك الحال بالنسبة لميكسيكو وليما وريو دي جانيرو ـ العاصمة الجديدة للبرازيل منذ عام ١٧٦٣ والتي لم يكن الرحالة يتعرفون عليها من عام إلى عام لسرعة نموها، وكانت من الناحية البشرية تزداد بهاء في إطارها الطبيعي الرائع . وكذلك الحال أيضا بالنسبة لدلهي التي بقيت فيها روعة الخان الأعظم ، وباتافيا التي منحها الاستعمار أجمل زهوره ، ولكنها كانت زهورا سامة .

ولننظر الآن إلى أجمل مثال قام على أبواب الشمال ، حيث يستمر البرد السيبيري الفظيع ستة أشهر في العام - برياح شيطانية وثلوج هشة متساقطة ، وثلوج صلبة متراكمة مختلطة بعضها في البعض الآخر - هنا تقوم بكين عاصمة الأباطرة المنشوريين . عدد هائل من السكان ، من المؤكد إنهم كانوا مليونين وربما كانوا ثلاثة ملايين، كانوا يدبرون أمور حياتهم على نحو أو آخر في هذا الجو القاسي الذي ما كان الإنسان يستطيع أن يقاومه لو لم تكن هناك " وفرة في الفحم الحجري الذي يصمد ويحفظ الحرارة قدر الفحم النباتي خمس أو سبع أضعاف "(١١٤)، وفي أنواع الفراء التي لا غنى عنها في أيام الشتاء. في القاعة الملكية بالقصر رأى الأب دي ماجايان - الذي سيظهر كتابه في عام ١٦٨٨ - نحو ٤٠٠٠ من السادة الماندارين مجتمعين هناك معا، كلهم يلبسون " من أم الرأس إلى أخمص القدم فراء السمور الغالي غلوا فائقا " . كان الأغنياء يغطون أبدانهم تماما بالفراء ، ويتخذون من الفراء بطانة لأحذيتهم الطويلة ولسروجهم ولكراسيهم ولخيامهم ، أما الأقل ثراء فيرضون بفراء الحملان ، وأما الفقراء فيقنعون بفراء الكباش(١١٥). كل النساء " يلبسن الطواقي والعصبات في الشتاء، سواء ركبن كرسي الهودج أو الحصان " ، ويقرر جيميللي كاريري ، أنهن على حق في ذلك " لأنني على الرغم من ثوبي المبطن بالفراء كنت أجد أن البرد لا يحتمل ." ويضيف " كان البرد عنيفا بالغ العنف بالنسبة إلي ، ولهذا قررت أن أبرح هذه المدينة [١٩ نوفمبر ١٦٩٧]"(١١٦). ويذكر واحد من الآباء اليسوعيين بعد ذلك بقرن (١٧٧٧) :" برد الشتاء قارس فظيع لدرجة أن الإنسان لا يستطيع أن يفتح شباكا ناحية الشمال، والثلج يظل متراكما أكثر من ثلاثة أشهر بكثافة تبلغ قدما ونصف"(١١٧). والقناة الامبراطورية التي يأتي التموين من خلالها يوصدها الثلج من شهر نوفمبر إلى شهر مارس .

في عام ١٧٥٢ قررالامبراطور كينج لونج الاحتفال بعيد الميلاد الستيني لأمه بدخول بكين في موكب الظافرين ؛ واتخذت كل الاستعدادات لكي يدخل الركب في سفن رائعة عن طريق الأنهار والقنوات ، ولكن البرد القارس حل مبكرا ، وتجمد الماء ، وفسدت تدابير المهرجان؛ وانهال آلاف من العمال على الماء يضربونه ليمنعوه من التجمد، فلم يحققوا مأربهم، كذلك لم تفلح جهودهم في سحب كتل الثلج التي تكونت، واضطر الامبراطور ومعيته إلى " ركوب الزحافات بدلا من السفن "(١١٨).

وبكين عبارة عن مدينتين نظاميتين ، المدينة القديمة والمدينة الجديدة وضواحيها (ضاحية أمام كل باب من أبواب المدينة ، وأكثر الضواحي نموا وتطورا هي الضاحية الغربية حيث تصل غالبية الطرق الأمبراطورية)، وتمتد بكين بهاتين المدينتين والضواحي في قلب سهل فسيح منخفض ، يتعرض لرياح عارمة ، ويتعرض لما هو

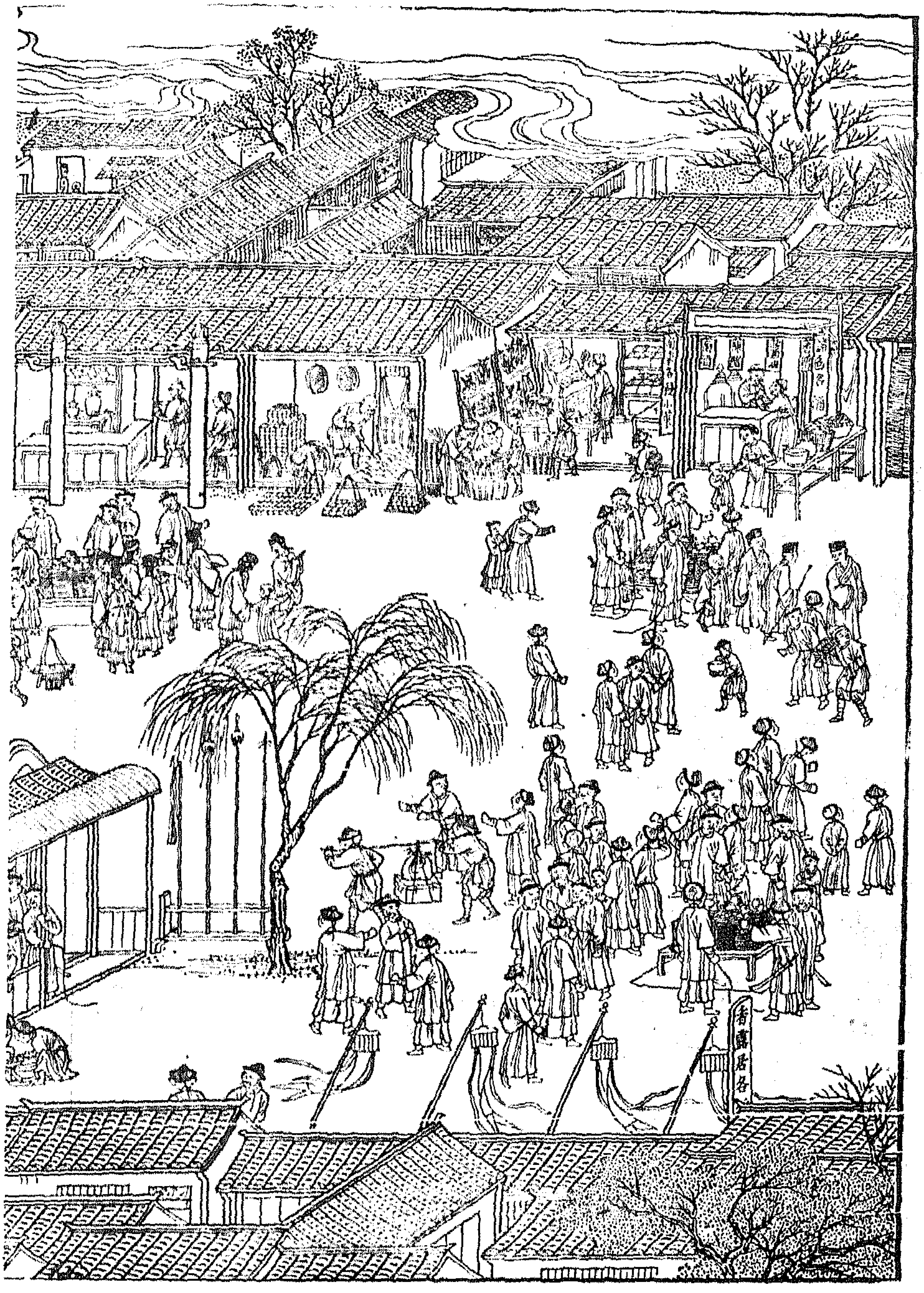

شارع في بكين في أثناء الاحتفال بالعيد ، في انتظار مرور الامبراطور.من الربع الأول للقرن الثامن عشر .(متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس).

أسوأ، ألا وهي تلك الفياضانات المباغتة التي تلم بأنهار المنطقة - وهي نهر بئي هو Pei Ho وفروعه - وإنها لفيضانات إذا علت أطاحت بالسدود ، وحولت مجرى النهر، وفروعه عن مساراتها، وأحدثت فيها التغيير والتبديل على مسافات طوال .

والمدينة الجديدة ، إلى الجنوب ، تتخذ شكل مستطيل فيه بعض الانحراف ، وتلتحم بالمدينة القديمة عن طريق الضلع الأعلى الطويل للمستطيل . أما المدينة القديمة فعلى شكل مربع منتظم ، ضلعه الأسفل يساوي في الطول الضلع العلوي للمستطيل الملاصق له. وما هذا المربع الا المدينة القديمة لآل مينج وفي وسطها القصر الأمبراطوري. وعندما حدث الغزو في عام ١٦٤٤ أصيب القصر في أجزاء عديدة بالتخريب والهدم ، ظلت حينا طويلا ظاهرة للعيان ، ثم تناولها الغازي بالترميم فأصلحها على نحو سريع نسبيا.وكان استبدال بعض الكتل الخشبية الطويلة الضخمة يتطلب الالتجاء إلى أسواق الجنوب البعيدة ، وواكب ذلك من الانتظار ما نستطيع تخمينه .

وكان قد تبين منذ حكم آل مينج أن المدينة القديمة قاصرة عن استيعاب سكان العاصمة المتزايدين ، مما دعا إلى البدء بانشاء المدينة المستطيلة إلى الجنوب قبل غزوة عام ١٦٤٤ بحين : " وكانت لها أسوار من الطين منذ عام ١٥٢٤ ، ثم اتخذت أسوارا وأبوابا من القرميد ." ولكن الغازي احتفظ بعد الغزو بالمدينة القديمة لنفسه ، وأصبحت منذ ذلك الحين المدينة التتارية ، وألقي الغازي بالصينيين إلى المدينة الجنوبية .

ونلاحظ أن المدينة القديمة والمدينة الجديدة صممتا على هيئة رقعة الشطرنج، وان الشوارع عريضة عرضا يفوق المألوف مما يدل على أن المدينتين حديثتا العهد ، وتنطبق هذه الملحوظة خاصة على الشوارع المتجهة من الجنوب إلى الشمال ؛ أما الشوارع المتجهة من الشرق إلى الغرب فهي بصفة عامة أضيق . ولكل شارع اسمه " مثل شارع أقارب الملك، وشارع البرج الأبيض ، وشارع السباع الحديدية ، وشارع السمك الجاف ، وشارع الخمر وما إلى ذلك. ويبيعون كتابا كاملا لا يضم إلا أسماء الشوارع ومواقعها، يستخدمه الخدم عندما يرافقون السادة الماندرين في زياراتهم أو أعمالهم في جلسات المحاكم، وكذلك عندما يحملون هدايا الماندارين ورسائلهم وأوامرهم إلى الأماكن المختلفة في المدينة ...وأجمل شارع من هذه الشوارع كلها [على الرغم من أنه يمتد من الشرق إلى الغرب] هو شارع شام جان كياي أى شارع الراحةالدائمة [...] تحف به من الشمال أسوار قصرالملك ، ومن الجنوب محاكم مختلفة وسرايات كبار السادة . وهذا الشارع عريض جدا ، يربو عرضه على ثلاثين طواز (والطواز ٦٠ سم تقريبا)، وهو شارع مشهور جدا حتى أن العلماء في كتاباتهم يستخدمونه للإشارة إلى المدينة كلها، متخذين الجزء دلالة على الكل ، فمن قال فلان في شارع الراحة الدائمة كمن قال إنه في بكين Pe-kim ..."(١١٩).

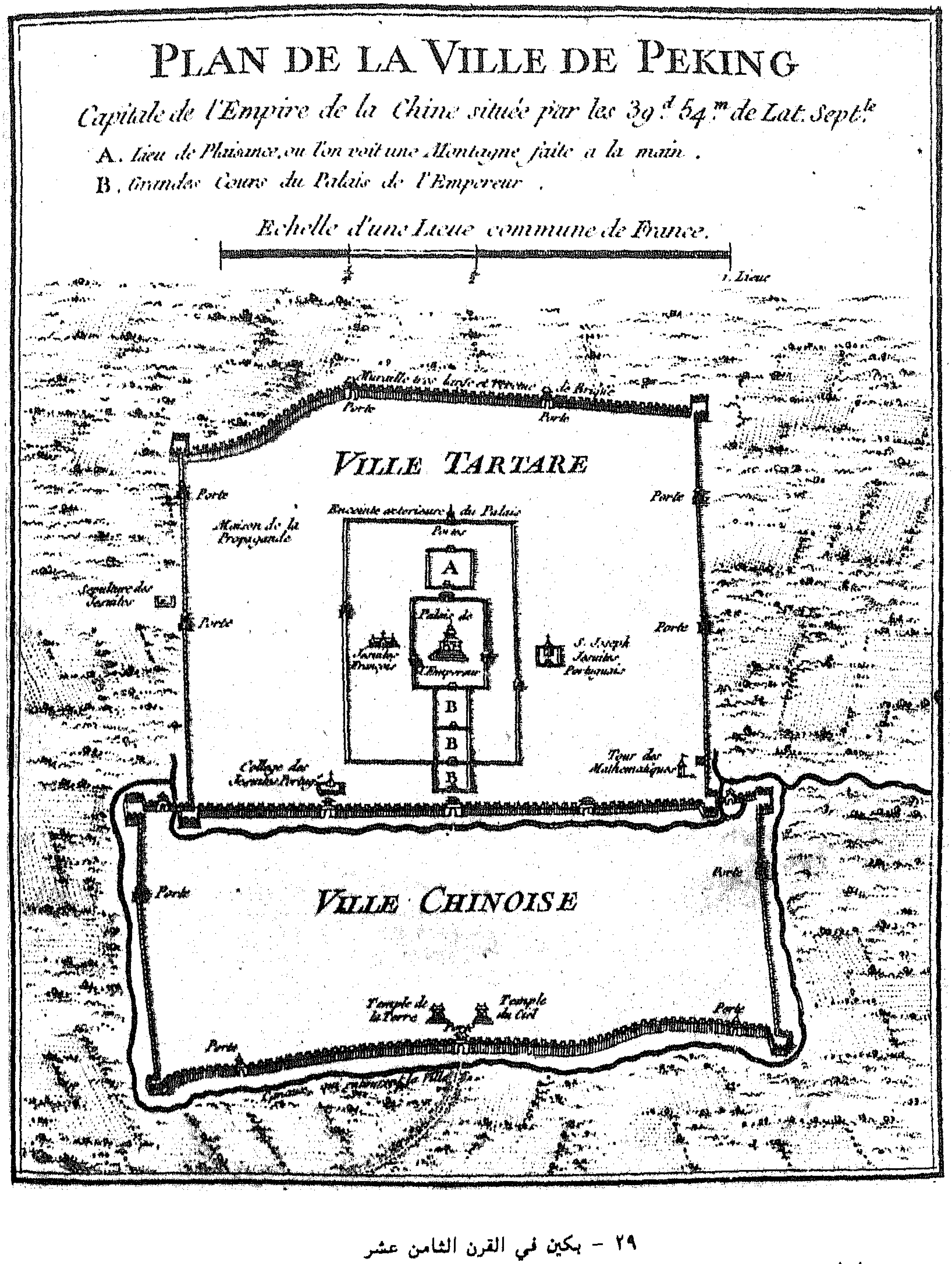

٢٩ – بكين في القرن الثامن عشر
رسم تخطيطي يبين وضع المدن الثلاث (القديمة والجديدة والامبراطورية).
في A الجبل الصناعي للقصر، في B ساحات الاحتفالات. (مأخوذ من كتاب التاريخ العام للرحلات، المجلد الخامس، الصادر في باريس عام ١٧٤٨ Histoire génerele des voyages

كانت هذه الشوارع الواسعة ، الفسيحة ، تعج بالبشر ، " الذين كانوا يتزاحمون تزاحما شديدا " ، كما يكتب الأب دي ماجايان ، " حتى أنني لا أجرؤ على الحديث عنه خوفا من أن يعتقد الناس أنني أبالغ ، ولا أعرف كيف أعبر عنه تعبيرا يفهمه القاريء . كل شوارع المدينة القديمة والمدينة الجديدة مليئة بالناس ، يستوي في ذلك الشوارع الكبيرة والصغيرة ، الشوارع التي في قلب المدينة ، والشوارع التي في أطرافها ؛ والزحام شديد في كل مكان لا يمكن مقارنته إلا بالأسواق الموسمية والمهرجانات عندنا في أوروبا (١٢٠).

وفي عام ١٧٣٥ كتب الأب دي هالد P.du Halde في هذا الموضوع يقول : " إن هذا الحشد الذي لا يحصى عدده من الأمم التي تملأ الشوارع ، والارتباك الذي تسببه الأعداد غير المألوفة من الخيول ، والبغال والحمير ، والجمال ، والعربات ، والهوادج ، دون أن نحسب الجماعات المتجمهرة المختلفة التي تتكون الواحدة منها من مائة أو مائتي رجل تتحلق بين الفينة والفينة حول حاو من الحواة أو راو من الرواة يقص مغامرات لطيفة، أو تسمع المنشدين والقصاصين الذين يتلون قصصا تثير الضحك وتدخل البهجة إلى النفوس ، أو تنصت إلى أخلاط من الدجالين الذين يروجون أدوية يتهجدون بنتائجها العجيبة . وهم يستوقفون الأغراب في كل حين وآن إذا لم يتقدمهم فارس يفرق الجموع ويحض على إفساح الطريق " (١٢١). وهذا رجل من أسبانيا لم يجد في عام ١٥٧٧ من وسيلة لوصف زحام الأهالي في الشوارع الصينية أفضل من هذه العبارة الاستعارية : " لو ألقى الانسان حبة من القمح لما عرفت كيف تصل الى الأرض"(١٢١). ويذكر رحالة انجليزي بعد هذا بقرنين من الزمان : " إن الإنسان ليرى في كل ناحية العمال يحملون معداتهم ، ويبحثون عن عمل ، وباعة جائلين يعرضون بضائعهم للبيع " (١٢٣). هذا الزحام يرجع بطبيعة الحال إلى العدد الكبير الذي بلغه السكان في عام ١٧٩٣. لم تكن مساحة بكين في ذلك التاريخ قريبة من مساحة لندن، بل كانت أقل منها بكثير ، ولكن كثافة السكان كانت ضعفي أو ثلاثة أضعاف سكان لندن .

يضاف إلى هذا أن البيوت هناك كانت منخفضة ، حتى بيوت الأغنياء نفسها . فإذا أرادوا بناء خمس أو ست شقق ، لم يقيموها الواحدة فوق الأخرى كما هي العادة في أوروبا ، ولكنها كانت " تصف الواحدة بجانب الأخرى ، يفصلها بعضها عن البعض الآخر أفنية واسعة " (١٢٤). ولاينبغي أن يتصور الإنسان أن شارع شام جان كاي الرائع يتكون من سلسلة متتابعة من الواجهات المنيفة تقابل القصر الامبراطوري . أولا لأنه من مجافاة اللياقة أن يبسط الناس زخرفا عريضا أمام بيت الامبراطور ، وثانيا لأن العرف جرى على ألا تتخذ القصور الخاصة ناحية الشارع شيئا آخر سوى باب كبير

دكاكين بكين : مصطفة في صفوف لا تكاد تنقطع ، وهي تواري بيوت السكنى التي كانت دائما منخفضة وبغير واجهة تطل على الشارع ، وكانت تقام حول أفنية وحدائق داخلية . (متحف الرسومات بالمكتبة القومية في باريس)

يكتنفه من الجانبين محلان صغيران يخصصان للخدم أو التجار أو العمال . وهكذا فإن الشوارع تحف بها من الجانبين دكاكين وحوانيت ترفع على صوار عالية لافتاتها التي كثيرا ما تزدان بشراريب أو أشرطة من القماش. هذه المحلات التي يملكها السادة والتي

تكتنف أبواب القصور هي التي تطل على الشارع ، والشارع مخصص للتجارة ولممارسة النشاط الحرفي ، ولا شيء غيرهما . ويقول الأب دي ماجيان : " إن هذا العرف مفيد لراحة الأهالي عموما ؛ لأن مدننا [الأوروبية] تقوم على جانبي الكثير من شوارعها بيوت علية القوم ؛ ويكون على الناس ، عندما يريدون شراء حاجياتهم الضرورية أن يقطعوا مسافات بعيدة إلى المحلات في الميادين أو على مشارف المدينة، أما في بكين، وفي كل مدن الصين الأخرى فالإنسان يستطيع أن يشتري عند بابه كل ما يشتهيه للقوت وأمورالحياة بل والمتعة ، لأن هذه المحلات الصغيرة تعتبر بمثابة دكاكين أو حانات أو حوانيت" (١٢٥).

ويتكرر المنظر هو هو في كل المدن الصينية ، عندما ننظر إلى هذه الصورة التي ترجع إلى القرن الثامن عشر ، والتي يظهر فيها صف من الحوانيت المنخفضة على طول شارع في نانكين أو هذه البيوت في مدينة تيين تسين Tien Tsin التي تطل واجهاتها على الفناء الداخلي ، أو عندما ننظر إلى لفافة مصورة قيمة مرسومة في القرن الثاني عشر، نجد نفس المشاهد ، نفس الحانات ، بنفس المقاعد ، ونفس الحوانيت ، ونفس الحمالين، ونفس العربات.....الثيران المكدنة . نري في كل الصور مشاهد حياة سريعة مزدحمة، لا يترك الرجل فيها مكانه - إذا تركه - إلا لرجل آخر ، وكل واحد يتقن التعامل بكوعيه ليفسح لنفسه مكانا ، ويقيم حياته بقوة العمل ، والمهارة ، والتقشف .إنهم يعيشون من لا شيء ، ولهم " اختراعات عجيبة لتدبير معاشهم ." " وربما بدا لنا الشيء حقيرا بغير نفع ، ولكنهم هم يعرفون له استخداما وينتفعون به . في مدينة بكين وحدها، على سبيل المثال ، هناك أكثر من ألف أسرة [حول عام ١٦٥٦] ليس لأفرادها من حرفة أخرى يعيشون منها إلا بيع أعواد الثقاب وفتيل إشعال النار . وهناك ما يقرب من هذا العدد على الأقل من أولئك الذين لا يحترفون شيئا آخر سوى جمع خرق الحرير، والقطن، والتيل ، وقطع الورق ، وما إلى هذا وذاك في الشوارع، وفي الكناسة، حيث يقومون بغسلها ، وتنظيفها، ثم بيعها إلى آخرين، يستخدمونها استخدامات مختلفة، ويفيدون منها"(١٢٦). ورأى الأب دي لاس كورتيس في الصين الكانتونية الشيالين يضيفون إلى عملهم الأصلي عملا آخر هو زراعة حديقة صغيرة . ويعتبر باعة حساء الأعشاب من الأشخاص التقليديين في كل شارع صيني . والمثل السائر في الصين يقول : " ليس هناك في مملكة الصين شيء يلقى ." كل هذه الصور توحي بفقر كامن، منتشر في كل مكان . ومن فوق هذ الفقر الكامن يتلألأ بذخ الامبراطور والكبراء والماندارين : وكأن هذا البذخ ليس من هذا العالم .

والرحالة يصفون بتفصيلات كثيرة مدينة كاملة في قلب المدينة القديمة، مدينة قائمة بذاتها، هي القصر الامبراطوري الذي أعيد بناؤه على نفس مكان قصر يان Yuan

(المغول) وكأنه ورث بذخ آل مينج على الرغم من إن إعادة البناء تطلبت رفع أطلال عام ١٦٤٤. كان للقصر سوران ، أحدهما داخل الآخر، وكلاهما على شكل" مربع فيه شيء من الاستطالة " ، يفصلان القصر عن المدينة القديمة ، والسوران عظيمان وشاهقان. والسور الخارجي" مطلي من الداخل ومن والخارج بمادة كالأسمنت أو الجير الأحمر، ومغطى بسقف جمالوني من القرميد اللامع ، ملونة بلون أصفر مذهب ." أما السور الداخلي فهو مقام من " قرميدات كبيرة متساوية ، ومحلى بشرافات منسقة " ، وتمتد قناة طويلة وعميقة مليئة بالماء ، " وعامرة بالأسماك الممتازة " أمام السور . وهناك بين السورين قصور مخصصة لأغراض مختلفة ، ونهر عليه كباري ، وهناك ناحية الغرب بحيرة صناعية واسعة إلى حد كبير ....(١٢٧).

أما قلب القصر فكان خلف السور الثاني ، كانت هناك المدينة الحرام ، المدينة الصفراء التي يعيش فيها الامبراطور في حماية حراسه تحجبه الأبواب والمراسم والمتاريس والخنادق والبافيونات الركنية الفسيحة بسقوفها الجمالونية المثقلة بالزخارف التي كانوا يسمونها كياؤ ليئو Kiao leou. وكان لكل مبنى في المدينة الحرام ولكل باب ولكل كوبري فيها اسمه ، وله استخداماته المقررة إذا صح هذا التعبير . والمدينة الحرام كان طولها الف متر وعرضها سبعمائة وثمانين مترا . ووصف القاعات الخالية المتهدمة على النحو الذي استرسل إليه الفضول الأوروبي تفصيلا بعد عام ١٩٠٠، أسهل بكثير من وصف ما كان يتصل فيه من نشاط نتصوره هائلا : كانت المدينة في مجموعها تنتهي عند هذا النبع الذي تنبع منه القوة والإحسان .

ويمكننا أن نكون صورة طيبة اعتمادا على الحسابات اللانهائية لما كان الامبراطور يجمعه من دخل، سواء منه الأموال والعينيات (لاحظ السجل المزدوج: الأموال + العينيات). ونحن لا نستطيع أن نتصور ما يمثله مبلغ" ثمانية عشر مليون وستمائة ألف جنيه فضة من فئة الايكو ecu " وهو قيمة الجزء الرئيسي . في عام ١٦٦٨. من دخل الامبراطور النقدي ، ولا تدخل في هذا الرقم مبالغ نقدية أخري تأتي من المصادرات والضرائب غيرالمباشرة ، والخاصة الامبراطورية، والدائرة السنية للامبراطورة. أما الجزء الملموس والمثير من دخل الامبراطور فهو الضرائب العينية التي كانت خزائن القصر الفسيحة الهائلة تضيق بها وهي : ٤٣٣٢٨١٣٤ " جوال أرز وقمح " ، وأكثر من مليون قالب ملح، وكذلك كميات ضخمة من السلقون، ومن الورنيش، والفاكهة المجففة، ومقاطع الحرير ، والأقمشة الحريرية الخفيفة ، والحرير الطبيعي، والقطيفة، والساتان، والدماس ، والمنسوجات القطنية ، والتيل ، وأجولة الفول (لخيول الامبراطور) ، وأحمال لاتحصى من التبن، وأعداد من الحيوانات الحية الداجنة ، وحيوانات الصيد، وزيت، وزبد، وتوابل ، وأنبذة معتقة ، وكافة أنواع الفاكهة ... (١٢٨).

وقد أحس الأب دي ماجيان بالذهول حيال هذا الكم الهائل من النعم والخيرات، وحيال ما كان يقدم في أثناء الولائم الامبراطورية من صحون ذهبية وفضية تضيق بما كدس عليها مما لذ وطاب من الأطعمة . رأى هذا في ٩ ديسمبر ١٦٦٩ بعد الاحتفال بدفن الأب جان آدم Jean Adam (١٢٩) . هذا الأب اليسوعي الذي اشترك في عام ١٦٦١ مع الأب فيربيست Verbiest في عمل " أدهش البلاط أيما دهشة " فقد تمكن من رفع جرس أكبر من جرس ارفورت الذي كان (خطأ) يعتبر أكبر وأثقل جرس في أوروبا بل في العالم ، ووضعه فوق قمة برج من أبراج القصر . وتطلبت هذه العملية صناعة آلة خاصة، وجهود آلاف من العمال . وكان الحراس يقرعون هذا الجرس بالليل ، على فترات منتظمة ، لبيان تتابع الساعات ، ومن فوق برج آخر كان حارس آخر يرد بقرع طنبور نحاسي هائل . لم يكم للجرس مقرعة داخلية ، بل كانوا يدقونه بمطرقة من الخارج" فيبث نغمة لطيفة منسجمة يظن الإنسان أنها صدرت عن آلة موسيقية لا عن جرس"(١٣٠). وكانوا في ذلك الوقت يقيسون الوقت في الصين بحرق بعض العصي ، أو حرق حزمة من الفتيل المشبع بشمع الخشب الذي يشتعل اشتعالا منتظما. وما كان يمكن أن يعجب الإنسان الغربي الفخور بساعاته بهذه الطريقة لقياس الوقت إلا إعجابا محدودا، إلا الأب دي ماجايان الذي تحدث " عن هذا الاختراع الجدير بالصناعة العجيبة لهذه الأمة" الصينية (١٣١).

والمصيبة أننا نعرف هذه المشاهد العظيمة التي كانت تجري في القصر الامبراطوري أكثر مما نعرف سوق السمك ، التي كانوا يحملون إليها الأسماك حية في طشوت مليئة بالماء، أو أسواق الصيد التي رأى فيها هذا الرحالة في لحظة عابرة كمية ضخمة من التيوس البرية والديكة البرية والحجلان ... الشيء الذي لم تصلنا عنه بيانات، وضاع في خضم الحديث عن الأمور الخارقة للمألوف، هو الحياة اليومية .

لندن..

من عصر اليزابث إلى عصر جورج الثالث

ولكن لنعد من هذه الرحلة البعيدة إلى انجلترة ، حيث نرى أن لندن تمثل حالة تسمح لنا باختتام هذا الفصل، ومعه هذا المجلد(١٣٢). هنا نجد أن كل شيء يتصل بنمو المدينة نموا خارقا ، نموا معروفا أو من الممكنة معرفته.

كان أولو البصيرة الذين يلاحظون أحوال لندن منذ عصر اليزابث يتمثلون لندن عالما استثنائيا. كان توماس ديكر Thomas Dekker يقول عنها أنها "زهرة المدائن قاطبة"، يضفي عليها نهرها المنساب جمالا يفوق جمال البندقية نفسها من منظرها الرائع المطل على القنال الكبير، ويذهب إلى أن منظر البندقية يبدو هزيلا ضئيلا بالقياس إلى منظر

لندن (١٣٣). أما صامويل جونسون Samuel Johnson (٢٠ سبتمبر ١٧٧٧) فيعبر تعبيرا أكثر شاعرية : " إن من يتعب من لندن كمن يتعب من الحياة ذاتها ؛ لأن لندن تحوي كل ما يمكن أن تقدمه الحياة " (١٣٤).

وكانت الحكومة الملكية تشارك في هذه الأوهام ، ولكن العاصمة ظلت على الرغم من هذا تثير خوف الحكومة : فقد كانت العاصمة في نظرها غولا لابد من الحد من نموه غير الصحي بكل ثمن . والحقيقة أن غزو الفقراء للمدينة كان هو الأمر الذي لم يكف عن إزعاج الحكومات والملاك ، فكلما تزايد الفقراء تزايدت الأكواخ ، وانتشرت تلك الحشرات التي كانت تهدد مجموع السكان بمن فيهم الأغنياء ، أو على حد قول ستو Stow: " هذا الخطر الذي يهدد حياة الملكة نفسها ، وينشر خطر الموت في ربوع البلاد كلها"(١٣٥). هكذا كان يخاف على صحة الملكة اليزابث وعلى صحة الشعب كله. في عام ١٥٨٠ صدر أول قرار يحظر إقامة مبان جديدة (ولكنه تضمن استثناءات لصالح الأغنياء) وتبع هذا القرار قرارات أخرى شبيهة في عام ١٥٩٣ ، وفي عام ١٦٠٧ وفي عام ١٦٢٥ . وكانت النتيجة هي أن عدد المباني زاد ، وأحس الناس بالاستفزاز فراحوا يقسمون البيوت الموجودة ، ويبنون بيوتا بغير تصريح يستخدمون فيها الطوب الرديء، ويقيمونها في أحواش البيوت القديمة ، أو في أركان بعيدة من الحارات المتطرفة أو من بعض الشوارع الثانوية ، أي حدث تزايد مستتر في البيوت الشبيهة بالأكواخ، والمساكن البائسة على أراض مملوكة لملاك مشبوهين . وربما وقع مبنى من هذه المباني تحت طائلة القانون، فهدمته الحكومة، ولكن الخسارة لم تكن تمنع أحدا . ولهذا جرب كل واحد حظه، فنشأت شبكات عنكبوتية من الحارات الضيقة الملتوية، ومتاهات من الأزقة والعطوف، وبيوت لها مدخلان ، أو ثلاثة ، أو أربعة مداخل ومخارج . كان في لندن - في عام ١٧٣٢ - ٥٠٩٩ من الشوارع (streets) والحارات (lanes) والميادين ، بها ٩٥٩٦٨ بيتا . تدل هذه الأرقام على أن اتجاه زيادة سكان لندن لم يمكن وقفه أو الحد منه . كانت أعداد السكان التقريبية : ٩٣٠٠٠ في عام ١٥٦٣ ، و ١٢٣٠٠٠ في عام ١٥٨٠ ، و ١٥٢٠٠٠ في عام ١٥٩٣ - ١٥٩٥ ، و ٣١٧٠٠٠ في عام ١٦٣٢ ، و ٧٠٠٠٠٠ في عام ١٧٠٠ ، و ٨٦٠٠٠٠ في نهاية القرن الثامن عشر، كانت آنذاك أكبر مدن أوروبا ؛ ولم تكن هناك مدينة تقارن بها من حيث السكان إلا باريس.

كانت لندن تعتمد على نهرها ، وإليه يرجع شكلها الهلالي . وجسر لندن الذي يربط المدينة بضاحية ساوثورك Southwark ، (كان هو الجسر الوحيد الذي يعبر نهر التيمز وكان على بعد ٣٠٠ متر من جسر لندن الحالي: اللندن بريدج) هو السمة المميزة للموقع. وكان تأثير عوامل المد المفيدة يصل حتى مكان الجسر، مما جعل من الممكن إنشاء الحوض pool من وراء الجسر ، أي إنشاء ميناء لندن بأرصفته ومراسيه وسفنه

الشراعية التي ارتفعت صواريها مكونة ما يشبه الغابة : كان عدد السفن ١٣٤٤٤ سفينة في عام ١٧٩٨. وكانت هذه السفن الشراعية تتجه بحسب حمولاتها ومقاصدها فتصل إلى رصيف سانت كاترين الذي تلتمسه سفن الفحم القادمة من نيوكاسل ، وإلى رصيف بيللينجسجيت إذا كانت محملة بالسمك الطازج ، أو تقوم بالخدمة المنتظمة بين بيللينجسجيت وجريفساند ذهابا وعودة. وكانت هناك قوارب من أنواع مختلفة منها قوارب مدببة المقدمة ، وقوارب مسطحة القاع، وقوارب مغطاة بغطاء واق، تقوم برحلات متتالية بين شاطئي النهر بين السفن في أعلى البحر والأرصفة المناسبة، وبخاصة إذا كانت الأرصفة في الناحية الصاعدة للميناء : وهذه هي الحال بالنسبة لمرسي فنتري وارف Vintry Warf الذي كان يتلقى الخمور في البراميل الخشبية القادمة من نهر الراين ، ومن فرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وجزر الكاناريا . وغير بعيد عن هذا المرسى قام حي ستيليارد Steelyard (أو Stillyard) وكان بمثابة مركز القيادة العامة لمجموعة المدن الهانزية حتى عام ١٥٩٧ ، " وتخصص منذ طرد التجار الأجانب منه في تذوق أنبذة الراين "، حتى ارتبط نبيذ الراين بستيليارد ارتباطا وثيقا. وهذا شخص من أشخاص مسرح توماس ديكر يقول بكل بساطة : " قابلني عصراليوم في حانة نبيذ الراين في ستيليارد " (١٣٦) ....

واتجه استخدام النهر إلى الامتداد على نحو متزايد في اتجاه المصب ، أي في اتجاه البحر، ولم تكن الأحواض الداخلية عند المنحنيات قد حفرت بعد ، باستثناء حوض برونسويك Brunswick الذي كانت تستخدمه شركة الهند (١٦٥٦). وأنشيء حوض ثان من عام ١٦٩٦ إلى عام ١٧٠٠ هو حوض جرينلاند الذي كانت تستخدمه سفن صيد الحوت . أما الأحواض الكبيرة العائمة فلم تنشأ إلا في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكان من الممكن أن يكون الإنسان صورة أولى عن الميناء التجاري عندما ينظر إلى بيللينجيت أو مرسى برج لندن ، أو - وهو الأفضل - إلى المنفذ الأساسي الذي كانوا يشبهونه بمزلاج المدينة وهو مبني الجمارك Custom House الذي حرق في عام ١٦٦٦ ، ثم أعاد الملك تشارلز الثاني بناءه في عام ١٦٦٨. وكان مشه...
بلاكوول
التجاري حتى راتكليف Ratcliff" ملتقى سيىء السمعة من بنات الـ...
رائحة
ثم يصل إلى اللايمهاوس Limehouse منطقة أفران الجير... عليه "تحمل
قطاع الملاحة والحرف،
Blackwall حيث يتمتع الانسان بالنظر إلى السفن الل لندن ،
عن روائحه
القطران المنفرة النفاذة "... هذا هو القطاع...ـمر الفؤاد ، وما كان الحديث
وقطاع السرقة ، والنشل ، ما كان ...
يا
الكريهة إلا حديث صدق . قريبة منهم .
البائسون يرون ثروات السفن تمر من أمامهم
وهؤلاء هم الأ...

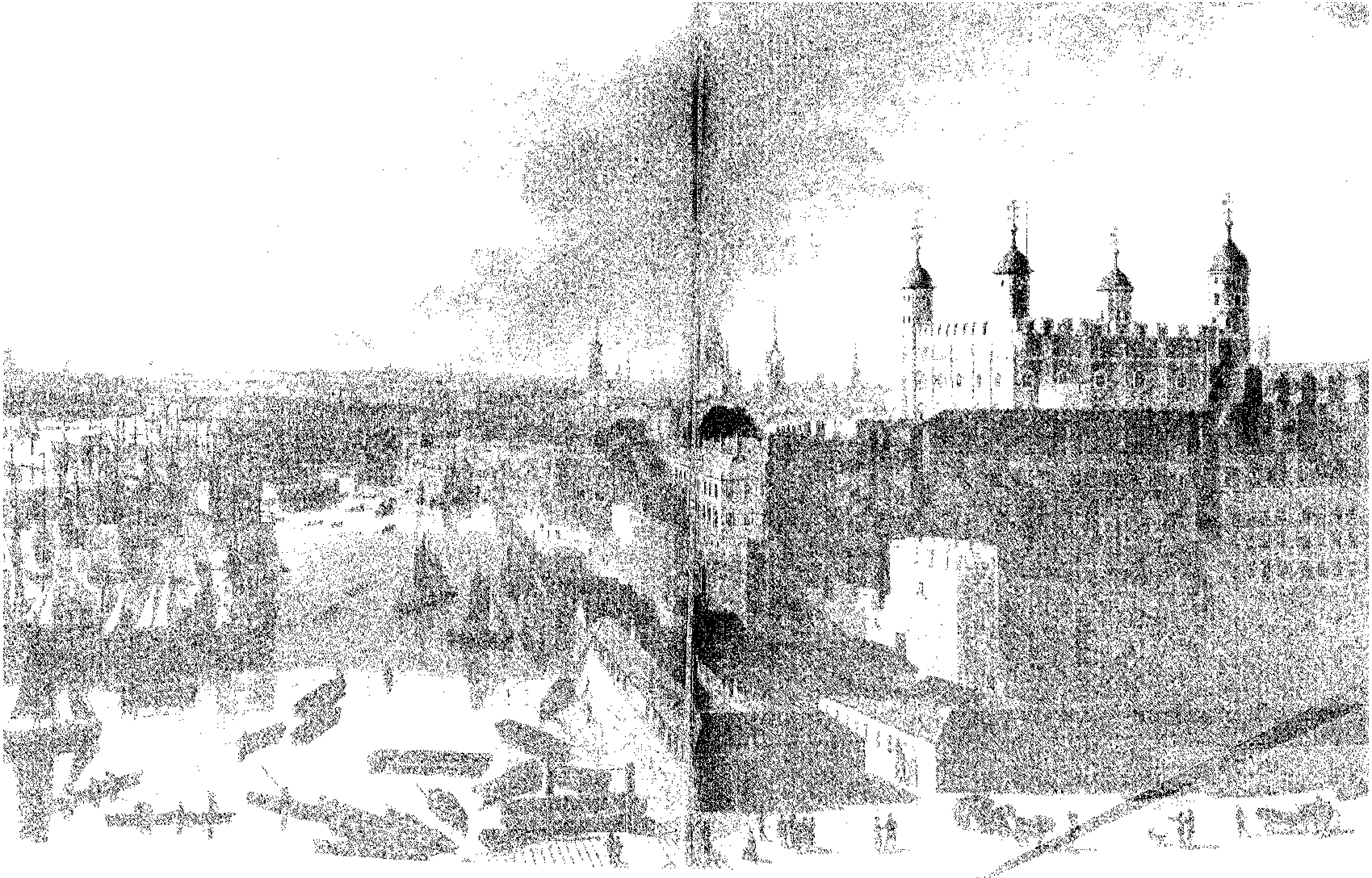

ميناء لندن ، والبرج ، ويظهر بعد كاتدرائية سانت بول ، في أوائل القرن التاسع عشر

له من إغراء! في عام ١٧٩٨ " كانت عمليات السطو التي أصبح التيمز مسرحا لها [...] والتي كانت تتعرض لكل صنوف الممتلكات التجارية وبخاصة بضائع الهند الغربية، تعتبر [...] وباء هو أشد الأوبئة فظاعة." ولم يكن أخطر النشالين تلك الجماعات من " قراصنة النهر " المنظمين في عصابات ، الذين يسرقون كل ما ترمي به المصادفة في أيديهم ، هلبا كان أو حبلا ، لا ، لم يكن وقتهم قد حان بعد ، كان أخطر النشالين هم خفراء الليل والشيالين ، والملاحين العاملين على قوارب وعوامات النقل الذين كانوا يسمونهم " عصافير الوحل " والذين كانوا ينقبون في جنبات النهر مدعين أنهم يبحثون عن حبال قديمة وحديد خردة وبقايا الفحم ، وتنتهي السلسلة بأولئك الذين كانوا يخفون المسروقات ويتسترون على اللصوص . وكانت أحاديث الشكوى التي تتحرى الوعظ، والأخلاقيات ، والتي نستخلصها من " كتاب البوليس Traité "de police (١٨٠١) تجتهد اجتهادا خارقا في تصوير عالم الميناء الواسع المشبوه بما فيه من مياه مترامية وخشب وأشرعة وقطران وبؤس كأنه على هامش حياة العاصمة يرتبط بها عبر طرق لا يرى أهل لندن منها عادة سوي نهاياتها .

لم يكن هناك كما ذكرنا من قبل سوى جسر واحد فوق التيمز إلى أن أنشيء جسر ويستمينستر (الذي انتهى العمل فيه نحو عام ١٧٥٠) . وكان هذا الجسر جسرا تحف به الدكاكين كالشارع التجاري ، وكان اجتيازه أمرا صعبا . والحقيقة أنه لم يكن ينتهي ناحية الجنوب إلا إلى ضاحية هزيلة هي ضاحية ساوثوورك ، كان فيها بضعة حانات، وخمسة سجون ذات شهرة رهيبة ، وبضعة مسارح (نشأت عليها مسرحيات شيكسبير، ولكنها لم تبق بعد الثورة) وسركان أو ثلاثة (سرك بير جاردن Bear Garden وسرك باريس جاردن Paris Garden) . وكان الناظر إلى الشمال على الضفة اليسرى للنهر، في موضع أعلى قليلا من الضفة المقابلة، يرى المعلمين المنيفين : كاتدرائية سانت بول، وبرج لندن ، وكانت المدينة الحقيقية تمتد" كرأس جسر ناحية الشمال ". كان هذا الاتجاه يموج بحركة نشيطة تملأ مجموعة من الشوارع ، والحارات، والأزقة تربط لندن بالدوقيات وبما سمي بالأرض الانجليزية القوية . كانت المحاور الكبيرة تتجه إلى مانشيستر Manchester وأكسفورد Oxford ودونستابل Dunstable وكمبردج Cambridge، وكلها طرق قديمة ترجع إلى أيام الرومان . وكانت الحركة على صفحاتها تشبه موكب انتصار العربات ، عربات البشر وعربات البضائع ثم عربات البريد، ومن خلفها خيول البريد ؛ وازدهرت الحياة على أرض لندن عبر هذه الطرق الصلبة التي كانت ترسم ما يشبه المروحة.

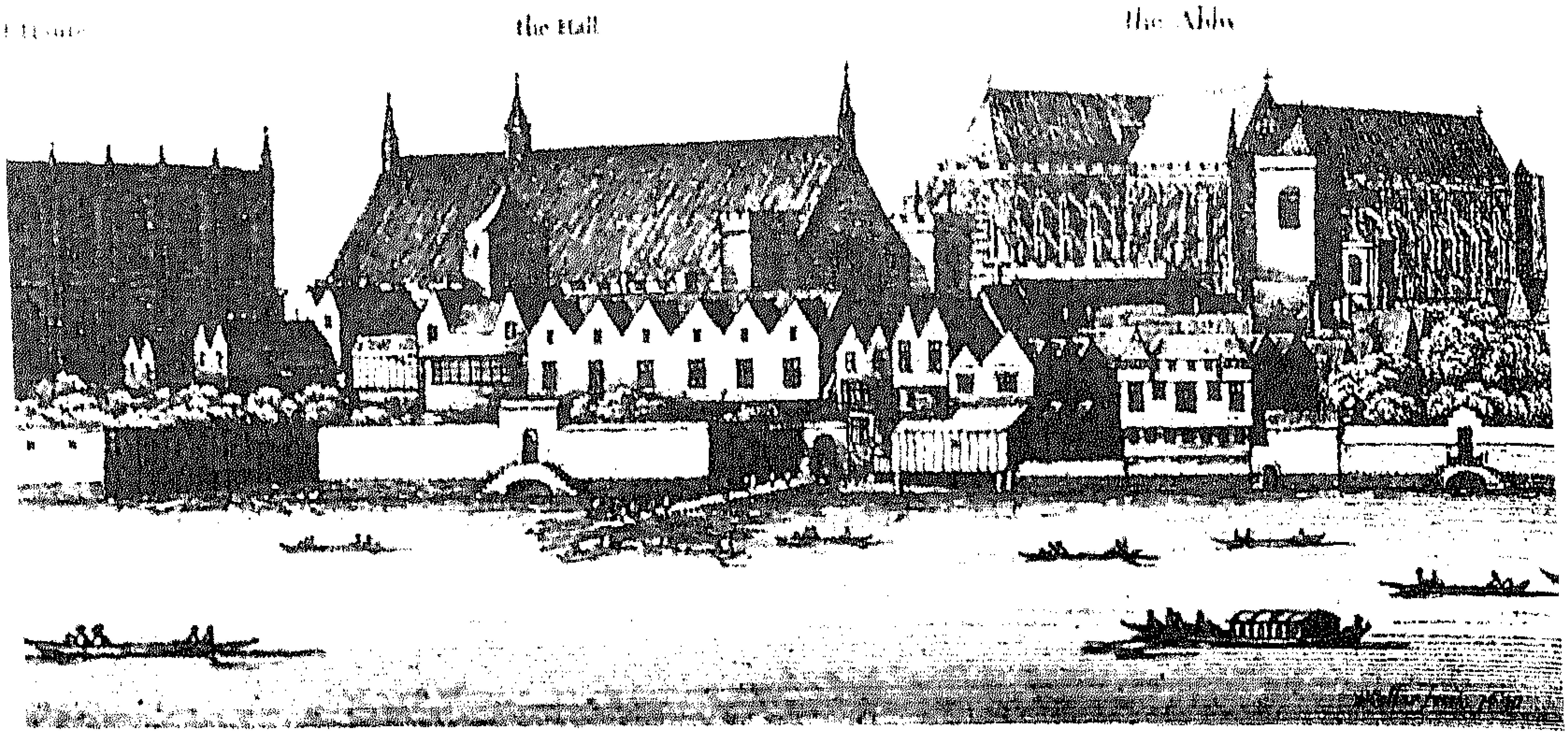

لندن : ويستمينستر في عصر آل ستيوارات . رسم بالحفر من عام ١٦٤٣.
(مجموعة فيولله Viollet)

كان قلب المدينة يفترش شاطيء النهر ، ولكنه كان يوليه ظهره، قلب لندن المزدحم بالبيوت والشوارع والميادين ، الذي كانت (مساحته ١٦٠ هكتارا) تحده أسوار لندن القديمة . كانت هذه الأسوار قد بنيت فوق السور الروماني القديم ، ثم تلاشت مع القرن الثاني عشر في المنطقة المطلة على النهر ، هناك خرقت الأرصفة والمراسي والقواعد في وقت جد مبكر سياج الحماية الحجري الذي لم يجد نفعا. ولكن الأسوار بقيت على الخط المتكسر على هيئة قوس يبدأ من بلاك فرايرز ستيبس Black Friars Steps أو حوض بيردويل Birdwell Dock ويمتد حتى برج لندن . وكانت هناك سبعة أبواب تقطع خط السور: لادجيت Ludgate ونيوجيت Newgate وأولدرزجيت Aldersgate وكريبلجيت Cripplegate ومورجيت Moorgate وبيشوبجيت Bishopgate وأولدجيت Aldgate. وكان هناك أمام كل باب من الأبواب حاجز متقدم يتوغل بعيدا إلى داخل الضاحية المقابلة، حاجز يبين الحدود التي تصل إليها السلطة اللندنية . كانت هذه الضواحي التي تم ضمها إلى المدينة على هذا النحو تمثل ما سمي بالحريات liberties أي الأحياء خارج الأسوار، ومنها أحياء كانت واسعة فسيحة: كان الحاجز الذي نصب قبالة باب بيشوبجيت يقوم على تخوم سميثفيلد Smithfield غربي هولبورن Holborn ؛ كذلك كان الخارج من باب لادجيت يضطر إلى اجتياز شارع فليتستريت Fleet Street كله

للوصول إلى التيمبل بار Temple Bar على مستوى معبد طائفة فرسان المعبد القديمة عند نهاية الستراند Strand . ولقد ظل التيمبل بار حينا طويلا من الزمن مجرد باب من الخشب. وعلى هذا النحو امتدت لندن ، أو على الأصح المدينة الأصلية، فوق حدودها، حدود ما قبل عصرالملكة اليزابث ، ووسعت نطاقهاالضيق ، ولامست مراكز ريفها القريب ، والتحمت بها عبر عدد من الطرق والشوارع التي تكتنفها المنازل .

وفي عصر اليزابث وشيكسبير كان قلب المدينة ينبض داخل الأسوار . وكان مركز المدينة هو المحور الذي يكمل جسر لندن في اتجاه الشمال عبر شوارع لها أسماء مختلفة ويصل إلى بيشوبجيت ، أما محور الغرب فكانت تمثله سلسلة من الشوارع تبدأ من نيوجيت في الغرب ، وتصل إلى أولدجيت في الشرق ، أما نقطة " التقاطع " فكانت في عصر الملكة اليزابث تتمركزعلى مقربة من سوق ستوكس ماركت Stocks Market عند نهاية شارع لومبارد Lombard Street.

وعلى بعد خطوتين من هذه النقطة يرتفع فوق تل كورنهيل Cornhill مبنى الرويال اكستشينج Royal Exchange الذي أسسه توماس جريشام في عام ١٥٦٦ وكان الاسم الأول الذي أطلقوه عليه متأثرين بصورة بورصة أنتفربن هو : البورصة الملكية. هذه معلومات نستشفها من عبارة كتبت تحت رسم بالحفر يرجع إلى القرن السابع عشر . أما الاسم الأخير الذي حملته البورصة فقد صدرت به إرادة ملكية من الملكة اليزابث في عام ١٥٧٠ . وكانت البورصة أشبه شيء ببرج بابل ، على حد قول الشهود، وكان الزحام يبلغ أشده خاصة عند الظهر، عندما يتوافد التجار لانجاز معاملاتهم ؛ وكانت المحلات التجارية المتأنقة التي نشأت في هذه الناحية تجذب اليها جمهورا لا ينقطع من الزبائن الأغنياء. وكان هناك غير بعيد عن البورصة مبنى الجيلدهيل Guildhill وهو ما يمكن أن نعتبره دار بلدية لندن ، وكان هناك أيضا أول بنك لانجلترة اتخذ له في البداية من سوق البقالين Grocers Hall مقرا قبل أن يحتل في عام ١٧٣٤ مبناه الفاخر .

وكانت كثافة الحياة اللندنية تتضح كذلك في أسواقها ، التي نذكر منها : ساحة السوق الفسيحة غربي سميثفيلد قرب المتاريس ، تلك الساحة التي كانت تباع فيها الخيول والبهائم أيام الاثنين والجمعة ، ومنها بيللينجسجيت حيث سوق السمك الطازج المطلة على التيمز ، ومنها ناحية قلب المدينة القديمة سوق الليدر Leader Hall بسقفها المكسو بالرصاص، وكانت تضم صومعة قديمة للقمح ، وتتعامل بالجملة في اللحوم والجلود. وليس من الممكن أن نقول كل ما ينبغي أن يقال عن كل ما كان هناك من المراكز ذات الأهمية الجوهرية، والحانات ، والمطاعم ، والمسارح المقامة في الأماكن البعيدة أي المسارح الشعبية، والمقاهي Coffee houses التي كثر التردد عليها حتى أن الحكومة

فكرت في القرن السابع عشر في أن تحظرها. أما الأماكن التي وصفت بانها مشبوهة فإن التقولات، والتوهمات ، والحكايات ، والتغييرات الشكلية كانت تحرك ألسنة الملسنين لتنال من سمعة كل الشوارع، لا من سمعة تلك الأديرة الخربة فقط، التي كان الشحاذون يضعون يدهم عليها ، ويلعبون لعبة أصحاب الأملاك . لقد كانت لندن تجد متعة كبيرة في النميمة، والتقول على نفسها .

لم تكن المدينة القديمة على ضفاف التيمز وحيدة وهي تدخل مباراة النمو . كانت لندن تختلف في هذا عن باريس التي قدر لها أن تسير وحيدة ليس لها ما يوازي ويستمينستر. كانت لندن تحظى برفقة ويستمينستر التي قامت في موقع قريب في اتجاه منبع النهر ، وكانت ويستمينستر شيئا يختلف كل الاختلاف عن فرساى (فما كانت فرساي إلا خلقا بدأ من العدم) فقد كانت أصلا مدينة قديمة تفيض بالحياة . كان فيها الدير، وبجواره قصر ويستمينستر الذي هجره الملك هنري الثامن وأصبح مقرالبرلمان والمحاكم الرئيسية : فكان رجال القانون والمحامون يلتقون هناك . أما الأسرة المالكة فقد انتقلت إلى مقر أبعد قليلا في وايتهول Whitehall، القصر الأبيض المطل على شاطيء التيمز .

كانت ويستمينستر ، إذا قسناها بالمقاييس الفرنسية ، تعادل في وقت واحد فرساي، وسان ديني Saint-Denis، وبرلمان باريس أيضا. نقول هذا لنبين أسباب الجذب الهائل الذي أحدثته ويستمينستر ، هذا القطب الثاني بالنسبة إلى نمو لندن . وهكذا فإن شارع فليت ستريت، الذي هو من شوارع المدينة القديمة ، كان حي أرباب التشريع ، والقانون، والمحامين ، والمحققين ، وطلاب الحقوق ، وكان يتطلع في عناد ناحية الغرب إلى ويستمينستر حيث كانت المحاكم . كذلك يعتبر حي ستراند Strand مثلا آخر، أكثر وضوحا ، فقد كان خارج المدينة القديمة ، على مسافة من التيمز ، ولكنه كان كان يصل إلى ويستمينستر ، وإذا هو قد أصبح حي النبلاء الذين أقاموا فيه بيوتهم ، وسرعان ما افتتحت فيه بورصة ثانية في عام ١٦٠٩ ، ونشأت فيه مجموعة من المحلات المترفة ؛ واشتهرت مبتكرات الموضة ، والشعور المستعارة أو البوستيشات هناك ، وتحدث الناس عنها بأنها كانت منذ عصر جاك الأول تخلب الألباب .

وشهد القرنان السابع عشر والثامن عشر حركة واسعة النطاق، دفعت مدينة لندن إلى كل الاتجاهات في وقت واحد . وتكونت على هوامش المدينة أحياء بشعة ، كثيرا ما كانت مدنا من الصفيح، بأكواخ رثة مقيتة، وصناعات تنشرالقبح فيما حولها (وبخاصة قماين طوب كثيرة) ، وحظائر لتربية الخنازيرالتي كانت تتغذى على قمامة المدينة ، وأكوام الزبالة ، وشوارع نتنة ، هكذا كانت الحال في منطقة وايتشابل Whitechapel

حيث كانت أعداد من صناع الأحذية المساكين تعيش عيشة بائسة نكراء. وكانت هناك أماكن بائسة أخرى يعيش فيها عمال النسيج الذين ينسجون الحرير أو الصوف .

كان الريف الأخضر قد انحسر عن مشارف لندن القريبة، إلا من بعض أحياء الغرب، حيث كانت خضرة الريف تطل من خلال متنزه هايد بارك أو متنزه سانت جيمس بارك Saint James Park، وربما أطلت من خلال حدائق البيوتات الثرية أيضا . كانت المدينة في عصر شيكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) وتوماس ديكر (١٥٧٢ ـ ١٦٣٢) لا تزال تعتمد على ساحات طليقة ، وخضراء ، وحقول ، وأشجار ، قرى حقيقية كان من الممكن أن يذهب الناس اليها لصيد البط او للاختلاف إلى حانات ذات طابع ريفي مميز لتناول البيرة أوالفطيرة المحوجة بالتوابل (في هوجسدون Hogsdon) أو سلطانية ايسلينجتون البيضاء Islington white pot، وهي نوع من الكريمة المضروبة التي اشتهرت بها قرية ايسلينجتون. في ذلك الوقت " كان الهواء يهب خلال الأحياء الخارجية للعاصمة " على نحو ما كتبت المؤرخة الأخيرة لتوماس ديكر ، وتضيف قولها : " لم يكن هذا الهواء دائما ثقيلا ولا فاسدا ، وكان مرح انجلترة البهيجة كله وخيالها الرقيق النابض بالحيوية يتألقان من خلال المسارح القائمة في جنوب المدينة وشمالها وشمالها الغربي ويخترقان الضواحي وينطلقان ... إلى ما وراء المدينة كلها ." وانجلترة البهيجة هي انجلترا إبان القرون التي كانت فيها ريفية خالصة ، في العصر الوسيط ، وهكذا كانت تصورها رؤيا رومانتيكية لا خطأ فيها .إلا أن هذا الربط السعيد بين البهجة والريف لم يكن ليدوم طويلا (١٣٨).

وبدأت الكتلة اللندنية ، التي لم تكن تكف عن الامتداد في الانشطار ، أو على الأصح : أتمت حركة الانشطار إلى جزئين . كانت هذه الحركة قد بدأت منذ وقت طويل ، ولكنها زادت سرعة بعد الحريق الكبير في عام ١٦٦٦ الذي أتى فعليا على قلب المدينة القديمة ، بل على المدينة القديمة كلها تقريبا .وكان وليم بيتي William Petty، قبل أن تحدث كارثة الحريق ، يرى ـ في عام ١٦٦٢ ـ أن لندن كانت تمتد في نموها ناحية الغرب لكي تهرب " من الدخاخين ، والأبخرة ، والعفونات الكثيرة المنبعثة من شرق المدينة ، لأن الريح السائدة تهب من ناحية الغرب [...] مما أدى إلى انتقال قصور أصحاب النفوذ وبيوت معاونيهم وخلصائهم إلى ويستمينستر ، وتحولت البيوت الكبيرة القديمة في المدينة القديمة إلى أسواق ومقار للشركات التجارية أو حولت إلى مساكن..."(١٣٩) وهكذا نزحت الثروة اللندنية نحو الغرب . كان قلب المدينة حتى القرن السابع عشر يجاور كورنهيل، أما اليوم ، في عام ١٩٧٩ ، فهو لا يبعد عن تشيرنج كروس Charing Cross، عند الطرف الغربي لستراند . هكذا تزحزح.

وكان شرق لندن ، وبعض أحيائها الطرفية ، قد اصطبغ بصبغة بروليتارية متزايدة. كان الفقر يشق طريقه الى كل مكان يجد له فيه مستقرا في العالم اللندني، وكانت الجوانب الأكثر عتامة في اللوحة هي التي تظهر فيها طائفتان من المحرومين: الايرلنديون ويهود أوروبا الوسطى .

بدأت حركة هجرة الايرلنديين تتخذ صورة منظمة ومكثفة منذ وقت مبكر، وكانوا يهاجرون من أماكن في الجزيرة بلغ فيها الفقر أسوأ درجاته . كان المهاجرون الايرلنديون فلاحين قضي عليهم في وطنهم أن يعيشوا حياة ضيقة نكراء يفرضها عليهم نظام الأراضي، ويضطرهم إليها النمو السكاني الذي ما زال يتزايد حتى دفع بالجزيرة إلى كوارث عام ١٨٤٨. كان هؤلاء معتادين على الحياة مع البهائم تقاسمهم دورهم البائسة، يقنعون لسد رمقهم بقليل من اللبن والبطاطس ؛ وكانوا أولي صلابة في العمل، لا يتأففون من أي شغلة ، وكانوا يشتغلون بصورة منتظمة في زراعة حقول أرياف لندن ، وحصد الأعلاف من مراعيها . وانتقل بعضهم من هناك إلى لندن نفسها، وتشبثوا بها أي تشبث . كانوا يتكدسون في غرف حقيرة بغير نوافذ في خورنية سانجيلز St.Giles التي أصبحت معقلهم شمالي المدينة القديمة ، تضم كل غرفة من هذه الغرف المقيتة من ١٠ إلى ١٢ فردا ، يقبلون أجورا أقل بكثير من الأجورالسائدة ، ويعملون شيالين وعتالين ، وينقلون أقساط اللبن ، ويشتغلون في القمائن ، وربما عمل بعضهم سماسرة . وكانوا يتشاجرون فيما بينهم مشاجرات عنيفة صاخبة ، وبخاصة أيام الآحاد عندما يحتسون الخمور ، فيدب الشقاق بينهم ، ويتفرقون متخاصمين ، كذلك كانوا يتورطون في مشاجرات لا تنتهي مع العمال الكادحين الانجليز ، الذين كانوا يجدون متعة في ضرب هؤلاء الايرلنديين ، الذين كانوا يعانون من منافستهم لهم ولا يقدرورن على التخلص منهم .

وتتكرر المأساة نفسها مع يهود أوروبا الوسطى الذين طردوا من بوهيميا في عام ١٧٤٤ ، ومن بولندة في عام ١٧٧٢ ، وفروا من حركات الاضطهاد . وكان عدد اليهود في انجلترة ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ في عام ١٧٣٤، أما في عام ١٨٠٠ فبلغ عددهم في لندن وحدها ٢٠٠٠٠. وكانوا يتعرضون لألوان من السخط الشعبي المقيت، وقامت المعابد اليهودية بمحاولات لوقف هجرة اليهودالخطيرة إلى انجلترة ، وكانت تتم عن طريق هولندة، ولكن محاولاتها لم تجد نفعا. وهل كان في مقدور هؤلاء المساكين أن يفعلوا شيئا آخر؟ كان اليهود الموجودون في انجلترة من قبل يقدمون إلي المهاجرين الجدد العون. ولكنهم لم يكونوا يستطيعون لا ردهم عن الجزيرة البريطانية ولا إعاشتهم. ولم تكن قطاعات الحرف اللندنية تقبلهم ، بل كانت تردهم ردا ، وهكذا اضطروا إلى العمل في شراء وبيع الثياب القديمة ، وتجارة الخردة ، والصياح في الشوارع إعلانا عن بضاعتهم،

وربما ركبوا عربة صغيرة قديمة ، وربما اصبحوا من اللصوص والخطافين ، فسرقوا الحقول والحدائق ، ومارسوا التستر على المجرمين وتزييف النقود والموالسة. ثم نجحوا في وقت متأخر كملاكمين محترفين ، بل كمخترعين لملاكمة على أساس علمي ، ولكن هذا النجاح في الملاكمة لم يصلح سمعتهم على الرغم من أن دانيل ميندوثا Daniel Mendoza كان بطلا شهيرا وكانت له مدرسته (١٤٠).

والحق أن مأساة لندن ، وما استشرى في جنباتها من جرائم ، وما تجمع في حناياها من حثالة ، وما اتصفت به الحياة فيها على المستوى البيولوجي من تعقيد ، كل هذا لا يمكن فهمه إلا انطلاقا مما يمكن أن نسميه الدور الأرضي حيث الفقراء . ولكن علينا أن ندرك، على الرغم من هذه السمات البائسة : أن عمليات تعبيد الشوارع ، وصرف المياه، وتنظيم المباني، وتطوير إنارة المدينة أدت إلى تحسين الوضع المادي للمدينة على نحو يشبه ما حدث لباريس بصفة عامة .

وما هي الخلاصة التي ننتهي إليها ؟ الخلاصة : أن لندن تعتبر بجانب باريس مثلا جيدا لما كان يمكن أن تكون عليه العاصمة في ذلك العهد الذي يعرف بالعهد القديم، أى قبل الثورة الفرنسية . كانت العاصمة ترفا ، على الآخرين دفع ثمنه ، كانت تجمعا يتكون من بعض الصفوة ، والعديد من الخدم والبؤساء ، يربطهم جميعا على الرغم من ذلك نوع من المصير المشترك للتجمع السكاني الكبير .

مصير مشترك ؟ ربما ، على سبيل المثال : قذارة الشوارع إلى درجة بشعة، وروائحها النتنة المألوفة التي ضاق بها السادة والسواد على السواء. وليس من شك في أن السواد هم الذين كانوا ينتجون هذه الروائح النتنة ، ولكنها كانت تتصاعد نفاذة فتصيب الجميع. وربما كانت أماكن ريفية كثيرة حتى القرن الثامن عشر أقل قذارة نسبيا من المدن الكبيرة حتى أنه يحق لنا أن نتخيل البندر من بنادر العصر الوسيط ألطف في السكنى وأنظف من المدن ، وهو الرأي الذي يدعونا إليه لويس مامفورد Lewis Mumford(١٤١) : لم يكن البندر يرزح تحت عبء الزحام والمجد والبؤس في وقت واحد، بل كان مفتوحا على ريفه على سعته ، وكان يمتح ماء ه في مكانه من داخل المتاريس، ولم يكن عليه أن يلتمسه من بعيد . والحق أن المدينة الضخمة لم تكن تستطيع أن تواجه مهامها المتعاظمة ، وأولها تحقيق نظافتها الخاصة الأولية ؛ وكانت تعطي الأسبقية للأمن ومكافحة الحرائق والفيضانات، والتموين والشرطة . وكانت إذا سعت إلى تحقيق هذه المهام لا تجد المال اللازم . كانت أسوأ ألوان الذل المادي هي الشيء المألوف في المدينة.

والسبب هو العدد، عدد سكان المدينة الهائل، ولكن المدينة هي التي كانت تجتذبهم،

وكان كل واحد يلتقط من حياتها الطفيلية بطريقته بعض الفتات ، مشاركا في هذه الحياة الطفيلية . كان هناك دائما شيء يمكن التقاطة ، سنابل يمكن قشقشتها ، في تلك المدن المحظوظة التي تنعم بالامتيازات : ولصوص المدن أنصع دليل على ذلك . فاللصوص يتجمعون في كل المدن ، حتى في أشدها اعتزازا بالكرامة والشرف . في عام ١٧٩٨ يعبر كولكهون Colquhoun عن حزنه : " لقد تغير الموقف كلية [...] منذ سقوط الحكومة القديمة في فرنساعلى أثر الثورة. كل اللصوص والمجرمون الذين كانوا حتى ذلك الحين ينهمرون على باريس من كل جنبات أوروبا ، أصبحوا الآن يعتبرون لندن بمثابة مركز الالتقاء العام ، والمسرح الذي يستطيعون أن يمارسوا عليه مهاراتهم ولصوصياتهم، محققين أعظم النتائج ..." لقد خربت باريس ، وبرح الفئران السفينة . " أما اللغة الانجليزية التي كانت تمثل عائقا يرد عن بلادنا من لا يعرفها ، والتي كانت بالنسبة إلينا حماية وضمانا [...] فلم تعد عائقا : ولم يحدث أن انتشرت لغتنا انتشارا عاما كما حدث ، كذلك لم يحدث أن كان استخدام اللغة الفرنسية شائعا بهذه الدرجة في بلادنا ، وبخاصة بين الشباب ..." (١٤٢).

تعمير المدن

إعلان عن إنسان جديد

ليس هناك من يخطر بباله السير وراء كولكهون ، ذلك المفكر المحافظ الحزين. فالمدن الضخمة لها عيوبها ولكنها لها ميزاتها. فهي التي أنشأت الدولة الحديثة ، كما ذكرنا من قبل، بنفس القدر الذي كانت فيه الدول الحديثة هي منشئة المدن الكبيرة؛ والمدن الكبيرة هي التي حفزت على نمو الأسواق القومية ، بل على نمو الأمم نفسها؛ والمدن الكبيرة تقوم في قلب الرأسمالية وفي قلب الحضارة الحديثة التي أخذت تمزج ألوانها المختلفة في أوروبا ، وتلح في هذا المزج يوما بعد يوم . وهي بالنسبة للمؤرخ أولا وقبل كل شيء آخر اختبار رائع يكشف عن تطور أوروبا ، والقارات الأخرى . وما يكون التفسير الصحيح للمدن إلا بالسعي إلى استخلاص نظرة شاملة تحيط بتاريخ الحياة المادية في مجموعه ، نظرة شاملة تتجاوز الحدود المألوفة لهذا التاريخ .

والمشكلة في عمومها هي هنا ذلك النمو الذي جرى في نطاق اقتصاد العهد القديم. فهذه هي المدن تقوم شاهدا على الاختلال العميق الذي اعتور التوازن ، وعلى النمو الذي جافي التجانس، وعلى الاستثمارات غير الرشيدة وغير المنتجة على مستوى الأمة كلها. فهل المسئول عن ذلك هو الترف، هل هو نهم هذه الطفيليات الهائلة التي هي المدن الكبيرة ؟ هذا هو الرأي الذي يراه جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau ويعبر عنه تعبيرا واضحا في كتابه " اميل " Emile : " المدن الكبيرة هي التي تستنزف

الدولة وتنهك قوتها: فليست الثروات التي تنتجها المدن الكبيرة سوى ثروات شكلية خداعة؛ مال كثير ومردود قليل .إنهم يقولون إن مدينة باريس تكلف ملك فرنسا ما يتكلفه إقليم كامل؛ وأنا أعتقد أنها تكلفه مثلما يكلفه العديد من الأقاليم؛ الأقاليم هي التي تطعم باريس من أكثر من ناحية، وغالبية موارد الأقاليم تصب في هذه المدينة، وتبقى فيها دون أن تعود أبدا، لا إلى الشعب ، ولا إلى الملك . والشيء الذي لا يدركه العقل أننا في قرننا هذا ، الذي هو قرن الحساب والحسابين ، لا نجد رجلا يدرك ـ بالحساب ـ أن فرنسا ستزداد قوة ومنعة لو أبيدت باريس "(١٤٣).

وهذه ملحوظة فيها تجن ، ولكنه تجن جزئي فقط . وهي على أية حال قد وضعت المشكلة على مائدة البحث . لا غرابة في أن نرى رجلا من رجال القرن الثامن عشر الغارب، نظر في اهتمام ووعي إلى ما يجري في زمانه ، فتساءل بحق، إذا كانت هذه المدن الكبيرة ، هذه الغيلان الحضرية الهائلة في الغرب ، علامة دالة على وقفات، شبيهة بتلك التي اعترت الأمبراطورية الرومانية ، فتجمدت على هيئة مدينة روما، التي أصبحت وزنا ميتا ، وشبيهة بتلك التي اعترت الصين عندما كانت تدعم بكين ، التي كانت كتلة ميتة، في مواجهة الشمال النائي ؟ وقفات، أو نهايات ، وقف عندها التطور. ونحن نعرف أن هذا الاستنتاج جانبه الصواب . إن الخطأ الذي وقع فيه واحد مثل سيباستيان ميرسييه عندما استنتج هذا الاستنتاج هو أنه تخيل عام ٢٤٤٠(١٤٤) على أساس أن عالم المستقبل لن تتغير مقاييسه . لقد كان يرى المستقبل في إطار الحاضر الماثل أمام عينيه ، أي في إطار فرنسا أيام الملك لويس السادس عشر . ولم يكن يتوقع شيئا من الإمكانات الهائلة التي ستتفتح أمام التجمعات السكانية الهائلة الشبيهة بالغيلان في عصره .

والحق أن المدن الكثيرة السكان ، والتي تعتبر في جزء منها بمثابة طفيليات، لا تتكون من تلقاء ذاتها، إنها ما يسمح المجتمع والاقتصاد والسياسة له بأن يكون، أو ما يفرض عليه أن يكون . والمدينة مقياس ، ومستوى . وإذا كان الترف ينتشر فيها بإلحاح، فما ذلك إلا لأن المجتمع والاقتصاد والنظام الثقافي والسياسي قد تشكلت على النحو الذي يؤدي إلى انتشار الترف ، وأن رؤوس الأموال والفوائض تختزن في المدينة، وربما كان السبب في ذلك ، إلى حد ما ، هو عدم وجود استخدام أفضل للأموال والفوائض . ولا ينبغي أن نحكم على المدينة الكبيرة وحدها منفصلة ، فهي داخلة في الكتلة الكاملة للمنظومات الحضرية أو لمنظومات المدن ، وهي تبث في هذه المنظومات النشاط والحياة ، ولكن هذه المنظومات هي أيضا التي تحدد مصيرها . وبينما كان القرن الثامن عشر يقترب من نهايته ، بدأت حركة عمران في المدن ، تقدمت بخطى سريعة، متزايدة السرعة في القرن التالي . وإذا تجاوزنا النواحي الشكلية الظاهرية في لندن

وباريس فإننا نتبين أن ما حدث كان انتقالا من فن إلى فن جديد ، ومن طريقة للحياة إلى طريقة أخرى للحياة . فإذا عالم العهد القديم ، الذى كان إلى ثلاثة أرباعه تقريبا ريفيا، ينمحي شيئا فشيئا ، ويتغير على نحو بطيء ولكنه أكيد . ثم إن هذه المدن الكبيرة لم تكن لتحقق وحدها الأنظمة الجديدة التي كان الخروج بها إلى الواقع شيئا صعبا عسيرا . بل إن العواصم لم تشارك في الثورة الصناعية التي بزغ نجمها، واكتفت بدور المتفرج . فلم تكن لندن هي التي حملت عبء الثورة الصناعية وغيرها من مقومات العصور الجديدة، ولكن مانشيستر وبيرمنجهام وليدز وجلاسجو وأعداد لا تحصى من المدن البروليتارية الصغيرة . لم تكن رؤوس الأموال التي كدسها أغنياء المدن في القرن الثامن عشر هي التي مولت المغامرة الجديدة . فلم تمسك لندن بزمام الحركة لصالحها وتربطها برباط المال إلا حول عام ١٨٣٠ . ونجد أن الثورة الصناعية تمس باريس مسا خفيفا عابرا في البداية ، ثم تنصرف عنها بعد ذلك ، حيث تتم المنجزات الحقيقية لاستغلال فحم الشمال ومساقط المياه في الالزاس ، أو استغلال الحديد في اللورين . حدث هذا كله متأخرا نسبيا . كان الرحالة الفرنسيون الذين يزورون انجلترة في القرن التاسع عشر ، وكانوا في أغلب الأحيان يتحرون النقد ويلحون فيه ، يحسون بالرجفة عندما يرون تجمعات التصنيع ومناظره القبيحة ، " الدائرة الجهنمية الأخيرة " ، على حد قول ايبوليت تين Hippolyte Taine. ولكن هل كانوا يدرون أن انجلترة التي وقعت في قبضة العمران الحضري ، فأصبح البشر فيها يتكدسون في مدن رديئة البناء، لم تشيد على نحو يهيء لهم سبل الراحة ، تقدم إليهم صورة المستقبل الذي ستسير إليه فرنسا نفسها ، وستسير إليه بلدان أخرى كانت في طريقها إلى التصنيع ؟ وأولئك الذين ينظرون اليوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، هل يدركون دائما أن هذا الذي تقع عليه عيونهم هو المستقبل الذي ستشهده بلادهم في يوم قريب أو وشيك؟

وختامـــا

أى كتاب، حتى إذا كان كتاب تاريخ ، يفلت من قبضة مؤلفه . وكتابي هذا جرى أمامي جريا. ولكن ماذا نقول عن عصيانه وتمنعه وشطحه وشروده ، بل ماذا نقول عن منطقه الخاص من كلام ينضوي تحت جناحي الجد والقيمة الثابتة ؟ أرأيت إلى كتبنا كيف تتصرف كأبنائنا على هواها، ونحن ، على الرغم من ذلك، مسئولون عما يفعلون.

كنت أود أن أضم إلى الكتاب هنا وهناك مزيدا من الشروح، والتبريرات، والأمثلة. ولكن الكتاب لا يجوز له أن يمتد حسبما تريد له أن يمتد، أضف إلى ذلك أن الإحاطة بموضوعات الحياة المادية المتعددة كانت تتطلب المزيد من البحوث المنظمة والمكثفة، ناهيك عما تتطلبه من التجهيز والإعداد. كل هذا لم يكن متاحا ، وما زال غير متاح إلى الآن. إن ما عبرت عنه الكلمات، والصور في هذا الكتاب يتطلب مناقشات وإضافات وتوسعات . ونحن لم نتكلم فيه لا عن كل المدن، ولا عن كل التقنيات ، ولا عن كل المقومات الأساسية للملبس والسكن والمائدة.

وتلك القرية في ربوع اللورين التي مشيت في جنباتها طفلا، وشببت فيها عن الطوق، كانت آنذاك في زمن ، يدق بساعاته ناقوس من الماضي القديم ، وكانت بها بركتها تحرك بمياهها عجلة طاحونة ، وكان هناك درب عتيق معبد بالحجارة، نشأ منذ أن نشأت الدنيا، يهبط منحدرا وعرا أمام واجهة بيتي كما يهبط الغدير المائج . وكان بيتي نفسه قد أعيد بناؤه في عام ١٨٠٦، في السنة التي شهدت موقعة يينا Jena (تلك الموقعة التي انتصر فيها نابليون على البروسيين) ، ترى من أمامه المرج تمتد إلى بعيد، وترى كيف كانوا ينقعون الكتان في النهير ليستخلصوا منه التيل. يكفي أن أفكر في ذلك حتى ينفتح الكتاب أمامي من جديد مطالبا بالمزيد . ويستطيع كل قارىء أن يملأ الكتاب

بصـور خاصـة مـن عنـده تطـوف بخاطـره مـع ذكـريات حفظـها في أثناء رحلة أو مطالعة .أما أنا فأذكـر ذلك الرجـل من شخصـيات رواية " زيجفـريد والليمـوزيني " Siegfried et le Limousin (لجان جيرودو) الذي ركب الحصان فجر يوم من أيام السنوات العشرينية من القرن العشرين وجاس في جنبات ألمانيا فخالجه احساس بأنه في زمن حرب الثلاثين سنة التي جرت في القرن السابع عشر. وكل إنسان يستطيع أن يرجع بذاكرته إلى الوراء، على هذا النحو ، عندما يبلغ منعطف طريق أو شارع . حتى في أكثر النظم الاقتصادية الحديثة حداثة ، نلاحظ أن الماضي المادي القديم يختلط فيها برواسبه ، وهي رواسب تتلاشي أما م أعيننا ، ولكنها لا تتلاشى إلا في ببطء ، ولا تسلك إذ تتلاشى، سبيلا واحدا بل سبلا متعددة.

هذا المجلد الأول ، من كتاب يتكون من ثلاثة مجلدات، لا يدعي يقينا أنه عالج الحياة المادية كلها في جنبات العالم قاطبة، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، إنما هو يمثل فيما يعرضه محاولة لبلوغ نظرة جامعة تشمل كل هذه المشاهد الكثيرة المتباينة ، من الأطعمة إلى الأثاث ، ومن التقنيات إلى المدن ، محاولة لتحديد الحياة المادية كيف تكون وكيف كانت . وهذا التحديد لم يكن في الواقع شيئا هينا: فقد حدث لي أنني تجاوزت الحدود عن عمد ، لا لشيء إلا لكي أتبينها على نحو أوضح، هذا هو ما حدث مثلا عند معالجتي لموضوعات بالغة الأهمية في مجالي النقود والمدن، آثرت أن أوسع الدائرة ما استطعت إلى ذلك من سبيل . وفي هذا توضيح معنى مبدئي قصدت اليه في عملي هذا، وهو : إذا لم نتمكن من رؤية كل شيء ، فلا أقل من أن نحدد موقع كل شيء تحديدا صحيحا على مستوي العالم كله .

وكانت المرحلة الثانية من مشروعي تتمثل في : تناول سلسلة من المشاهد التي لا يعرضها المؤرخون عادة إلا فيما عز وندر ، والتي تتصف بالتبعثر، والتناثر، والتفكك، ومحاولة تنظيمها وترتيبها وضم أشتاتها حول خطوط عريضة ، وحول تفسير مبسط للتاريخ. هذا المسعى يلقي الضوء على هذا المجلد ، ويبين أبعاده ومداه، حتى إذا كنت قد تركت بعض جوانب البرنامج الذي استهدفته ، في صورة تخطيطية ولم أستوفها تمام الاستيفاء . وربما رجع هذا الأسلوب إلى حد ما إلى أن الكتاب المخصص للجمهور العريض يشبه البيت الذي ينبغي تخليصه من سقالاته. وهو يرجع يقينا إلى أن المجال الذي تناولته في الكتاب، كما ذكرت من قبل، مجال لم تسبر أغواره على نحو كاف، وكان على أن أعود إلى الكشف من جديد عن المصادر ، والتأكد بنفسي منها واحدا واحدا .

ولـيس هناك شـك في أن الحياة المادية تظهر أول ما تظهر في شكل أشتات متفرقات عبارة عن آلاف مؤلفة من الوقائع المختلفة . هل نسـمي هذه الوقائع : أحداثا ؟ لا، فإن هذا يعني تضخيم أهميتها ، وعدم فهم طبيعتها . فإذا كان ماكسيميليان ، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانيـة (في الفترة بين نهاية القرن الخامس عشر وصدر القرن السادس عشر) ، يمد يده مباشرة إلى الصحون في أثناء وليمة ليقبض بأصابعه على بعض ما فيها من طعام (على نحو ما نرى في رسم بين أيدينا) فهذه واقعة من النوع العادي ، وليست حدثا. وإذا كان السفاح كارتوش Cartouche. الذي روع باريس وما حولها في مطلع القرن الثامن عشر . عندما أوشكوا على تنفيذ الحكم بإعدامه قد فضل قدحا من النبيذ على القهوة التي قدموها اليه ... فتلك ذرات من تراب التاريخ ، أو هي : تاريخ صغير micro-histoire. هكذا نسميه بنفس المعنى الذي كان يقصده جورج جورفيتش Georges Gurvitch عندما تكلم عما أسماه علم الاجتماع الصغير أو ميكروسوسيولوجي micro-sociologie : تلك الوقائع الصغيرة التي تتكرر إلى مالانهاية في الواقع، فتمكن لنفسها من حيث هي حقائق واقعة متواترة. كل واحدة من هذه الوقائع تقوم شاهدا على آلاف أخرى تجتاز طبقات الزمن الكثيفة الصامتة ، و" تستمر" .

هذه الوقائع المتواترة ، هذه التتابعات ، هذه " التسلسلات " ، هذه " الحقب الطوال" شدت اهتمامي إليها : ورأيت أنها ترسم الخطوط البعيدة ، وترسم الأفق بالنسبة لكل هذه المشاهد التي غابت عنا وأصبحنا نسعى إليها . هذه التسلسلات تتميز بأنها تسلك المشاهد المتفرقة في نظام، وتفترض توازنات ، وتكشف عن استمراريات أو إحداثيات، وتستخرج من الكم المضطرب المختلط في ظاهره ما يقبل التفسير إلى حد ما. وجورج ليفيفر Georges Lefebvre هو القائل : " القانون " هو " الثابت ". ونحن هنا بصدد ثوابت، ومن البديهي أن الثوابت في مجالنا هذا ثوابت من نوع معين ، إنها ثوابت ترتهن بأجل، قد يكون طويلا، وقد يكون متوسطا، وكانت الثوابت الطويلة الأجل هي التي شدت اهتمامي أكثر من الثوابت المتوسطة الأجل في مجالات النباتات الغذائية، والملابس، والبيوت، والفصل القديم القاطع بين المدن والأرياف ... والحياة المادية تخضع لهذه التطورات البطيئة ، أكثر مما تخضع لها القطاعات الأخرى من تاريخ البشر .

ولعل القارىء يكون قد لاحظ أننا اخترنا من بين الوقائع التي ينتظمها تسلسل متسق تلك التي تتصل بالحضارات والثقافات ووضعناها في مركز الصدارة. فكتابنا هذا لا يحمل عنوان " الحضارة المادية " دون ما سبب، هذا العنوان يعني أننا نختار لغة. والحضارة تنشيء روابط ، أي أنها تنشيء نظاما يضم ويربط آلاف النعم الثقافية التي نراها في الواقع متباينة مبعثرة ، بل تلوح لنا لأول وهلة كأنها غريبة بعضها عن

البعض الآخر، ابتداء من تلك التي تتصل بالأمور وبالروح والعقل، وانتهاء بالأشياء والأدوات الخاصة بالحياة اليومية .

ولنستمع إلى رأى هذا الانجليزي الذي قام برحلة إلى الصين في القرن الثامن عشر - في عام ١٧٩٣ - حيث يقول : " حتى الأدوات العادية جدا تتسم [هناك] في تصميمها بشيء خاص مميز ، وربما كان هذا الشيء الخاص المميز شيئا طفيفا ، ولكنه يبين بوضوح أن هذه الأدوات التي تحقق نفس الهدف الذي تحققه أشباهها في البلاد الأخرى لم تتخذ بعضها بعضا نموذجا تنقل عنه : فالسندال الذي نجده في كل بلاد الدنيا مسطحا مائلا قليلا يتخذ في الصين شكلا محدبا." ويدون الملحوظة نفسها عن منفاخ الكور في الصين، فيقول: " المنفاخ مصنوع هناك على شكل صندوق ، له باب متحرك موفق عليه، بحيث يمكن شده إلى الخلف ، فينجم عن ذاك فراغ في الصندوق يؤدي إلى اندفاع الهواء بعنف من فتحة ما يشبه الصمام ، وفي الوقت نفسه يخرج الهواء من فتحة أخرى مقابلة"(١) . هذا المنفاخ يختلف اختلافا كبيرا عن المنافيخ الجلدية الكبيرة في ورش الحدادة الأوروبية.

والحقيقة الواقعة أن كل عالم كثيف السكان أعد لنفسه مجموعة من الحلول الأساسية، تشبث بها ، مستعينا بقوة الخمول التي تعتبر من أهم القوى التي تصنع التاريخ . وهنا يطرح السؤال نفسه : ما هي الحضارة إن لم تكن هي تحقيق كيان مجموعة بشرية قديمة معينة في مكان معين؟ فالحضارة مقولة تاريخية ، وتصنيف ضروري لا محيص عنه. والإنسانية لم تسع لكي تكون إنسانية " واحدة " إلا في القرن الخامس عشر (ولم تصل إلى تحقيق هذا الهدف إلى الآن) . كانت الإنسانية قبل القرن الخامس عشر مقسمة بين ما يمكن أن نسميه الكواكب المختلفة ، يحتضن كل كوكب حضارة أو ثقافة خاصة متميزة ، بأصالاتها واختياراتها الطويلة الأجل. وحتى إذا كانت الثقافات قريبة بعضها من البعض الآخر ، فإن الحلول التي كانت تأخذ بها ظلت متمايزة لا تعرف سبيلا إلى الاختلاط . هذه الصورة تزداد تحديدا ووضوحا، كلما رجعنا مع الزمن إلى الوراء ، إلى ما قبل القرن الخامس عشر .

اعتمد تصنيفنا للوقائع المختلفة على ركيزتين : الاستمرارية والحضارة ، وهما نظامان تفضيليان ضما إليهما ركيزة أخرى اجتماعية الطابع ، هي نظام المجتمع، وهو نظام كامن في المجتمعات المختلفة التي نجدها هي الأخرى حاضرة مؤثرة في كل مجال. فكل شيء كبر أو صغر هو نظام اجتماعي ، تلك بديهية من البديهيات في نظر المؤرخ أو عالم الاجتماع ، وهي أيضا بديهية جديرة ببساطتها أن يهتم بها الناس من أمثال السيد جوردان Monsieur Jourdain (الذي تدور حوله مسرحية موليير الكوميدية

المسماة " البورجوازي النبيل ") . ولكن الحقائق البسيطة البديهية العادية حقائق لها وزنها وتستحق أن نهتم بها. ولقد كتبت صفحات طوال عن الفقراء والأغنياء، وعن الترف والبؤس، وهما ضفتا نهر الحياة. والحقائق التي عرضت لي حقائق متواترة تكررت على وتيرة واحدة ، شهدتها اليابان مثلما شهدتها انجلترة أيام نيوتن ، ومثلما شهدتها أمريكا قبل عصر الاستعمار الأسباني : كانت هناك في أمريكا آنذاك أوامر صارمة تنظم الملابس، وتحظر على الشعب لبس ما يلبسه السادة حتى تظهر الملابس الفرق بين الشعب وسادته. فلما حولت سيطرة المستعمرين الجميع إلى " أهل البلد " المقهورين، تلاشت كل أو جل ألوان الحظر وتنظيم الملابس . ولم تعد المادة التي تتخذ منها الثياب - الصوف الخشن أو القطن أو ليف نبات الأجاف وهو أشبه شيء بالخيش - تميز الناس بعضهم عن البعض الآخر إلا فيما ندر .

والأفضل أن نتكلم عن النظم الاقتصادية الاجتماعية socio- économies بدلا من الحديث عن المجتمعات sociétés (فما زالت كلمة المجتمعات، رغم كل شيء، غامضة إلى حد كبير). ولقد كان ماركس على حق عندما تساءل : من الذي يملك أدوات الإنتاج ، والأرض ، والمراكب ، والأنوال ، والمواد الخام ، والمنتجات النهائية، وكذلك مراكزالسيطرة التي لا تقل أهمية ؟ ولقد بات واضحا أن هذين الإحداثيين : المجتمع والاقتصاد لايكفيان وحدهما ؛ هناك الدولة بأشكالها المتعددة ، هي السبب وهي والنتيجة في وقت واحد ، تفرض وجودها ، وتعكر العلاقات ، وتعدلها ، سواء أرادت ذلك أو لم ترده ، وتلعب دورها الذي كثيرا ما يكون مهيمنا ، في إطار نظام من النظم الاقتصادية الاجتماعية التي يمكننا أن نحيط بها من خلال نوع من تنميط النظم الاقتصادية الاجتماعية في العالم ، فهناك نظام اقتصادي اجتماعي يعتمد على العبيد، ونظام آخر يعتمد على رقيق الأرض والسادة ، ونظام يعتمد على رجال الأعمال والرأسماليين . وكأننا نعود إلى لغة ماركس، ونبقى بجواره، على الرغم من أننا نرفض مصطلحاته المحددة أو نظامه الصارم الذي يجعل كل مجتمع ينزلق بالضرورة من هذة البنية إلى البنية الأخرى . وتظل المشكلة هي مشكلة التصنيف - مشكلة سلم هرمي للمجتمعات قائم على الفكر والتفكير. هذه مشكلة لن يفلت منها المؤرخ الذي يجري دراساته على مستوى الحياة المادية .

× × × ×

ما أكثر هذه المشكلات - المدى الطويل، الحضارة ، المجتمع، الاقتصاد، الدولة، سلالم القيم " الاجتماعية " - التي تفرض نفسها على مستوى وقائع الحياة المادية المتواضعة . إن هذه الحقيقة تثبت وحدها أن التاريخ يظهر على هذا المستوى بألغازه ومشكلاته، نفس المشكلات التي تواجهها العلوم الإنسانية كلها عندما تتصدى لمعالجة

موضوعاتها. لا سبيل إلى تبسيط مقبول يتيح لنا أن نفهم الإنسان فهما صحيحا. ذلك حلم زائف يحلم به أولئك وهؤلاء . فما يكاد الباحث يحيط بالإنسان من أكثر نواحيه بساطة ، يَمثُل الإنسان أمامه بتعقيده المألوف .

ثم إنني لم أعكف السنوات الطوال على العمل في هذا المجال من مجالات التاريخ لأنني اعتبرته مجالا أكثر بساطة أو أكثر وضوحا ، ولا لأنني وجدته من حيث وفرة الوقائع حقيقا بالأفضلية ، ولا لأنني وجدت هذا التاريخ الصغير يتعرض عادة لإهمال التاريخ الكبير ، ولا لأنني تعلقت بسبب ـ له عندي بالفعل وزنه ـ هو أنه يدفعني دفعا إلى الربط المنسجم في عصر (عصرنا الحالي) تجرد فيه التاريخ منطقيا من الإنسانية بفعل الفلسفة والعلم الاجتماعي والمعالجة على أساس قواعد العلوم الرياضية. لقد استهوتني هذه الأرض الخصبة ، أقول استهوتني ، ولا أقول أنها هي التي دفعتني إلى اتخاذ القرار . وهل كان من الممكن أن نفهم الحياة الاقتصادية في مجموعها فهما صائبا شاملا ، دون أن نحيط في البداية بأسس البيت ، وقواعده؟ هذه الأسس والقواعد هي ما يعرضه هذاالكتاب ، وعلى هذه الأسس والقواعد سينبني المجلدان التاليان اللذان يكملان المشروع .

ونحن عندما نتناول الحياة الاقتصادية بالدرس نخرج من نطاق الروتين، من نطاق الأشياء اليومية التي لا يحيط بها الوعي والشعور ، وتطالعنا الحياة الاقتصادية قائمة على ألوان من الترتيبات، منها تقسيم العمل ؛ وعملية تقسيم العمل عملية بدأت من قديم الزمن، واستمرت، واتسعت ، وأدت إلى أشكال ضرورية من الفصل والتلاقي، تغذت عليها الحياة اليومية النشيطة الواعية بأرباحها الصغيرة ، ورأسماليتها الصغيرة التي لا يبدو أنها كانت مكروهة ، والتي لم تكن قد انفصلت عن العمل العادي إلا في نواح جد قليلة . وإذا صعدنا فوق الدورالأرضي للحياة اليومية ، إلى الدور العلوي الأخير، وجدنا المكان الذي نضع فيه الرأسمالية بتوجهاتها وأهدافها الواسعة، وبعيونها التي تلوح شيطانية لعامة البشر منذ ذلك الوقت المبكر . ورب سائل : وما شأن هذا التعقيد ـ في الدور العلوي ـ بألوان الحياة اليومية المتواضعة ـ في الدور الأرضي ـ أسفل السلم أو أسفل الترتيب الهرمي ؟ والإجابة هي : أن هذا التعقيد يشمل على الأرجح كل شيء، وهو يضم هذه الحياة المتواضعة بمختلف ضروبها إلى لعبته . ولقد حاولت أن أقول ذلك منذ المجلد الأول ، مشددا على اختلافات المستويات في عالم البشر الذي يحفل بالتفاوتات. هذه التفاوتات ، وهذه المظالم ، وهذه التناقضات ـ كبيرة كانت او ضئيلة ـ هي التي تحرك العالم ، وهي التي تغير بلا انقطاع بنياته العالية ، التي هي البنيات الوحيدة المتحركة حقا . لأن الرأسمالية وحدها هي التي كانت تنعم بالمرونة ، وبحرية حركة نسبية . فقد استطاعت الرأسمالية ، بحسب ظروف الساعة ، أن تتحرك بنجاح إلى

اليمين أو إلى اليسار، واستطاعت، على التبادل ، أو في وقت واحد، أن تسعى إلى الأرباح التجارية أو الأرباح الصناعية - أو إلى السندات العقارية أو دين الدولة أوالربا. وأتيح للرأسمالية ، في مواجهة بنيات الحياة المادية القليلة المرونة ، وبنيات الحياة الاقتصادية العادية القليلة المرونة أيضا ، أن تختار المجالات التي تود، أو التي تستطيع أن تتدخل فيها ، والمجالات التي تتركها لمصيرها، وأتيح لها أن تقوم، بلا انقطاع، باستخدام هذه العناصر، في تجديد بنياتها الخاصة ، محولة ، في أثناء مسارها، بنيات الكيانات الأخرى شيئا فشيئا .

هذا هو ما جعل الرأسمالية المبكرة précapitalisme تصبح التصور الاقتصادي للعالم ، ومنبع ، أو آية كل ألوان التقدم المادي ، وكل ألوان الاستغلال البالغ الثقل التي استغل بها الانسان أخاه الإنسان . ولم تبلغ الرأسمالية هذا المبلغ نتيجة امتلاكها ناصية القيمة المتزايدة plus-value، وعمل الإنسان ، فحسب ، ولكنها بلغته أيضا نتيجة لما تتسم به القوى والظروف من تفاوت يؤدي ، على مستوى الأمة الواحدة، وعلى مستوى العالم كله أيضا، إلى أن الإنسان يجد دائما، وحسب الظروف ، مكانا يمكنه أن يحصل عليه، وقطاعا يمكنه أن يستغله على نحو يحقق به من الربح أكثر مما يحقق غيره. أن تختار، أن يكون في مقدورك أن تختار ، حتى إذا كان الاختيار في الواقع محدودا إلى حد كبير، يالها من ميزة هائلة.

مراجع وملاحظات

NOTES

Note de l'avant-propos

1. La première édition de ce volume faisait partie d'une collection présentée sans références. Mon éditeur ayant accepté que les deuxième et troisième volumes soient assortis de notes, la réédition corrigée et augmentée de ce premier tome devait évidemment se faire selon le même modèle. Il y a dix ans, la chose eût été facile. Mais aujourd'hui, mes notes de lecture ayant quitté trop souvent leurs fichiers primitifs, il m'a fallu courir après des centaines, des milliers de références. Non sans quelques échecs. Je m'excuse auprès de mes lecteurs historiens des quelques cas où la mention « référence égarée » remplace malheureusement la note restée introuvable.

Notes du chapitre 1

1. Selon Ernst Wagemann, *Economia mundial*, 1952, notamment I, pp. 59 *sq.*
2. Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans de Languedoc*, 1966, I, pp. 139 *sq.*
3. Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 1966, I, pp. 368 *sq.* Indiqué ensuite en abrégé : *Médit.*
4. E. Wagemann, *op. cit.*, I, p. 51.
5. Ángel Rosenblat, *La Población indígena y el Mestizaje en América*, I, 1954, pp. 102-103.
6. Les travaux les plus caractéristiques : S. F. Cook et L. B. Simpson, « The Population of Central Mexico in the 16th Century », *in : Ibero-Americana*, 1948; W. Borah, « The Aborigenal Population of Central Mexico on the Eve of the Spanish Conquest. » *in : Ibero-Americana*, 1963. Les chiffres de l'École de Berkeley sont actuellement contestés, en particulier par Charles Verlinden, Semaine de Prato, 1979.
7. Pierre Chaunu, *L'Amérique et les Amériques*, 1964, p. 105; Abbé Prévost, *Histoire générale des voyages*, XV, 1759, p. 9.
8. D. A. Brading, *Mineros y comerciantes en el México borbónico, 1763-1810*, 1975, p. 18; Nicolás Sánchez-Albornoz, *La Población de América latina desde los tiempos precolombinos*, 1973, p. 81; B.-N. Chagny, *Variole et chute de l'Empire aztèque*, thèse dactylographiée, Dijon, 1975.
9. Père A. Dávila, *Historia de la fundación y discurso de la provincia de Santiago de México, 1596-1625*, pp. 100, 118, 516-517.
10. N. Sánchez-Albornoz, *op. cit.*, p. 188.
11. *Ibid.*, pp. 121-122.
12. A. Grenfeld Price, *The Western Invasions of the Pacific and its Continents*, 1963, p. 167.
13. W. S. et E. S. Woytinski, *World Population and Production, Trends and Outlook*, 1953, et E. R. Embree, *Indians of the Americas*, 1939, cités par P. A. Ladame, *Le Rôle des migrations dans le monde libre*, 1958, p. 14.
14. P. A. Ladame, *op. cit.*, p. 16.
15. *Morphologie sociale*, 1938, p. 70.
16. Karl Lamprecht, *Deutsche Wirtschaftsgeschichte*, 1891, I^{2}, p. 163; Karl Julius Beloch, « Die Bevölkerung Europas im Mittelalter », *in : Zeitschrift für Sozialwissenschaft*, 1900, pp. 405-407.
17. P. Mombert, « Die Entwicklung der Bevolkerung Europas seit der Mitte des 17. Jahr. », *in : Zeitschrift für Nationalökonomie*, 1936; J. C. Russel, *Late ancient and medieval Population*, 1958; M. Reinhardt, A. Armengaud, J. Dupaquier, *Histoire générale de la population mondiale*, 1968.
18. « The History of Population and Settlement in Eurasia », *in : The Geographical Review*, 1930, pp. 122-127.
19. Louis Dermigny, *La Chine et l'Occident. Le commerce à Canton au XVIIIe siècle*, II, 1964, pp. 472-475.
20. *Ibid.*
21. Voir le tableau p. 26.
22. Leo Frobenius, *Histoire de la civilisation africaine*, 1936, pp. 14 *sq.*
23. Père Jean-Baptiste Labat, *Nouvelle Relation de l'Afrique occidentale*, 1728, V, pp. 331 *sq.*
24. Or il s'agit d'une période de très forte émigration, *cf.* Michel Devèze, *L'Europe et le monde à la fin du XVIIIe siècle*, 1970, p. 331 et note 586.
25. Selon les chiffres officiels de « *pasajeros a Indias* », 100 000 au cours du XVIe siècle; G. Cespedes de Castillo (*in : Historia social y económica de España y América*, dirigée par J. Vicens Vives, III, pp. 393-394) estime que ce chiffre serait à multiplier par deux ou trois.
26. *Op. cit.*, p. 148.
27. *World Population, Past Growth and Present Trends*, 1937, pp. 38-41.
28. Art. cit., p. 123.
29. L. Dermigny, *op. cit.*, II, pp. 477, 478-479, 481-482.
30. *Ibid.*, tableau p. 475 et discussion pp. 472-475.
31. G. Macartney, *Voyage dans l'intérieur de la Chine et en Tartarie fait dans les années 1792 1793 et 1794...*, 1798, IV, p. 209.
32. W. H. Moreland, *India at the Death of Akbar*, 1920, pp. 16-22.
33. En particulier en 1540, 1596 et en 1630 : *ibid.*, pp. 11, 22, note 1, 266.
34. Voir *infra*, III, p. 432 et note.
35. A.E., Indes Or., 18, f° 257.
36. *The Population of India and Pakistan*, 1951, pp. 24-26.
37. Art. cit., pp. 533-545.
38. Pierre Chaunu, *La Civilisation de l'Europe des Lumières*, 1971, p. 42.

39. Très nombreux renseignements dans la *Gazette de France*. En 1762, par exemple, les décès excèdent fortement les naissances à Londres, Paris, Varsovie, Copenhague. Dans cette dernière ville, 4 512 morts contre 2 289 naissances, alors que pour l'ensemble du pays, il y a équilibre.
40. G. MACARTNEY, *op. cit.*, IV, p. 113.
41. P.R.O. Londres, 30.25.65, fol. 9, 1655. En Moscovie, « il n'y a personne qui connaisse le métier de chirurgien, en dehors de quelques étrangers venus de Hollande ou d'Allemagne ».
42. N. SÁNCHEZ-ALBORNOZ, *op. cit.*, p. 188.
43. Paul VIDAL DE LA BLACHE, *Principes de géographie humaine*, 1922, p. 45.
44. René GROUSSET, *Histoire de la Chine*, 1957, p. 23.
45. W. RÖPKE, *Explication économique du monde moderne*, 1940, p. 102.
46. Cf. le livre de prochaine publication de Pierre GOUROU, *Terre de Bonne Espérance*.
47. Selon notamment les fouilles de P. NORLUND et les travaux de T. LONGSTAFF, *cf.* Emmanuel Le ROY LADURIE, *Histoire du climat depuis l'an mil*, 1967, pp. 244-248.
48. « Discussion : post-glacial climatic Change », *in : The Quaterly Journal of the Royal Meteorological Society*, avril 1949, p. 175.
49. EINO JUTIKKALA, « The Great Finnish Famine in 1696-1697 », *in : The Scandinavian Economic History Review*, III, 1955, I, pp. 51-52.
50. B. H. SLICHER VAN BATH, « Le climat et les récoltes au haut Moyen Age », *in : Settimana... de Spoleto*, XIII, 1965, p. 402.
51. *Ibid.*, pp. 403-404.
52. Rhys CARPENTER, *Discontinuity in Greek Civilization*, 1966, pp. 67-68.
53. Oronce FINE, *Les Canons et documents très amples touchant l'usage et pratique des communs Almanachs que l'on nomme Éphémérides*, 1551, p. 35.
54. Si l'on retient le chiffre de 350 millions pour 1300 et un milliard en 1800. Ces chiffres seront retenus dans les calculs qui suivront.
55. Heinrich BECHTEL, *Wirtschaftsgeschichte Deutschlands vom 16. bis 18. Jahrhundert*, II, 1952, pp. 25-26; Hermann KELLENBENZ, « Der Aufstieg Kölns zur mittelalterlichen Handelsmetropole », *in : Jahrbuch des kölnichen Geschichtsvereins*, 1967, pp. 1-30.
56. Ces chiffres discutés par Robert MANTRAN, *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, 1962, pp. 44 *sq.*
57. Reinhard THOM, *Die Schlacht bei Pavia (24 Februar 1525)*, 1907.
58. Peter LASLETT, *Un Monde que nous avons perdu*, 1969, p. 16.
59. *Médit.*, II, pp. 394-396. Le calcul exact est impossible (voir HARTLAUB et QUARTI), mais la flotte turque comptait 230 galères, la chrétienne 208, plus 6 galéasses vénitiennes. Les Turcs perdirent, entre tués, blessés, prisonniers, 48 000 hommes.
60. J.-F. MICHAUD, *Biographie universelle ancienne et moderne*, 1843, t. 44, article « Wallenstein ».
61. Ernest LAVISSE, *Histoire de France*, 1911, VIII (1), p. 131.
62. Louis DUPRÉ D'AULNAY, *Traité général des subsistances militaires*, 1744, p. 62.
63. Benedit de VASSALLIEU dit Nicolay Lyonnois, *Recueil du règlement général de l'ordre et conduite de l'artillerie...*, 1613. B.N., Ms. fr., 592.
64. Henri LAPEYRE, *Géographie de l'Espagne morisque*, 1960.
65. Selon Robert MANDROU, *La France aux XVIIe et XVIIIe siècles*, 1970, pp. 183-184, le chiffre de 300 000 est accepté d'ordinaire. H. LUTHY, *La Banque protestante*, p. 26, préfère le chiffre de 200 000. W. G. SCOVILLE croit lui aussi que les pertes pour l'économie française ont été surestimées : *The Persecution of Huguenots and French Economic Development*, 1960.
66. Voir *infra*, III, p. 378.
67. Andrea NAVAGERO, *Il Viaggio fatto in Spagna*, 1563.
68. Karl Julius BELOCH, art. cit., pp. 783-784.
69. *Ibid.*, p. 786.
70. BRANTÔME, *Œuvres*, 1779, IX, p. 249.
71. H. LÜTHY, *op. cit.*, I, p. 26.
72. G. NADAL et E. GIRALT, *La Population catalane de 1553 à 1717*, 1960.
73. Barthelémy JOLY, *Voyage en Espagne, 1603-1604*, p.p. L. BARREAU-DIHIGO, 1909, p. 13 : tous les artisans de Figueras, en Catalogne, « sont François de la Haulte Auvergne ».
74. Cardinal de RETZ, *Mémoires*, éd. 1949, III, p. 226.
75. Antoine de BRUNEL, *Viaje de España*, 1665, *in : Viajes estranjeros por España y Portugal*, II, 1959, p. 427.
76. Jean HERAULT, sire de Gourville, *Mémoires...*, 1724, II, p. 79.
77. Louis-Sébastien MERCIER, *L'An deux mille quatre cent quarante, rêve s'il en fut jamais*, 1771, p. 335.
78. Emmanuel Le ROY LADURIE, « Démographie et funestes secrets : le Languedoc », *in : Annales historiques de la Révolution française*, oct. 1965, pp. 397-399.
79. Antoine de SAINT-EXUPÉRY, *Terre des hommes*.
80. P. VIDAL DE LA BLACHE, *op. cit.*, pp. 10-11.
81. G. W. HEWES, « A Conspectus of the World's Cultures in 1500 A.D. », *in : University of Colorado Studies*, n° 4, 1954, pp. 1-22.
82. Suivant que l'on attribue à la population mondiale 400 ou 500 millions d'habitants.
83. K. J. BELOCH, art. cit., p. 36, note 11.
84. A. P. USHER, art. cit., p. 131.
85. H. BECHTEL, *op. cit.*, pp. 25-26.
86. Jean FOURASTIÉ, *Machinisme et bien-être*, 1962, pp. 40-41.
87. Daniel DEFOE, *A Review of the State of the British Nation*, 1709, p. 142, cité par Sydney POLLARD et David W. CROSSLEY, *The Wealth of Britain 1085-1966*, 1968, p. 160.
88. Johann Gottlieb GEORGI, *Versuch einer Beschreibung der... Residenzstadt St. Petersburg*, 1790, pp. 555, 561.
89. Johan BECKMANN, *Beiträge zur Œkonomie...*, 1781, IV, p. 8. Rapporte, à propos des bonifications de marais dans le duché de Brême : « Les petits villages [de 25 à 30 feux] sont plus faciles à réduire à l'obéissance que les grands, à ce que dit l'expérience. »
90. Denis DIDEROT, *Supplément au voyage de Bougainville*, 1958, p. 322.
91. *Ibid.*
92. Adam MAURIZIO, *Histoire de l'alimentation végétale*, 1932, pp. 15-16.
93. Affonso de ESCRAGNOLLE TAUNAY, *Historia geral das bandeiras paulistas*, 1924, 5 vol.
94. Georges CONDOMINAS, *Nous avons mangé la forêt de la Pierre-Génie Gôo...*, 1957.
95. Ishwari PRASAD, *L'Inde du VIIe au*

*XVI*ᵉ *siècle*, 1930, *in : Histoire du monde*, p.p. E. CAVAIGNAC, VIII[1], pp. 459-460.
96. Maximilien SORRE, *Les Fondements de la géographie humaine*, III, 1952, p. 439.
97. P. VIDAL DE LA BLACHE, *op. cit.*, p. 35.
98. G. CONDOMINAS, *op. cit.*, p. 19.
99. P. de LAS CORTES, *Relación del viaje, naufragio y captiverio...*, 1621-1626, British Museum, Sloane, 1005.
100. Rijkmuseum, Amsterdam, Département asiatique.
101. *Beschreibung des japonischen Reiches*, 1749, p. 42.
102. J. A. MANDELSLO, *Voyage aux Indes orientales*, 1659, II, p. 388. Rapport W. BOLTS, A.N., A.E., BIII, 459, 19 messidor an V.
103. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 12.
104. G. F. GEMELLI CARERI, *Voyage du tour du monde*, 1727, I, p. 548.
105. Père J.-B. LABAT, *op. cit.*, V, pp. 276-278.
106. J. A. MANDELSLO, *op. cit.*, II, p. 530. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, V, 1748, p. 190 (Kolben).
107. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, III (1747), pp. 180-181 et 645; V, pp. 79-80.
108. *Journal d'un bourgeois de Paris, sous Charles VI et Charles VII*, 1929, pp. 150, 304, 309.
109. Gaston ROUPNEL, *La Ville et la campagne au XVII*ᵉ *siècle*, 1955, p. 38, note 117.
110. Albert BABEAU, *Le Village sous l'Ancien Régime*, 1915, p. 345, note 4 et 346, note 3; Maurice BALMELLE, « La Bête du Gévaudan et le capitaine de dragons Duhamel », Congrès de Mende, 1955.
111. A.N., Maurepas, A.P., 9.
112. A.N., F 12, 721.
113. Jules BLACHE, *Les Massifs de la Grande Chartreuse et du Vercors*, 1931, II, p. 29.
114. *Viaje por España y Portugal (1494-1495)*, 1951, p. 42.
115. Référence égarée, mais plusieurs indications concordantes *in :* Günther FRANZ, *Der deutsche Bauernkrieg*, 1972, pp. 79 *sq.*
116. J.-B. TAVERNIER, *Voyages en Perse*, éd. Cercle du bibliophile, s.d., pp. 41-43.
117. H. JOSSON et L. WILLAERT, *Correspondance de Ferdinand Verbiest, de la Compagnie de Jésus (1623-1688)*, 1938, pp. 390-391.
118. J. A. MANDELSLO, *op. cit.*, II, p. 523.
119. François COREAL, *Relation des voyages de François Coreal aux Indes occidentales... depuis 1666 jusqu'en 1697*, 1736, I, p. 40.
120. Reginaldo de LIZARRAGA, « Descripción del Perú, Tucumán, Río de la Plata y Chile », *in : Historiadores de Indias*, 1909, II, p. 644.
121. *Voyage du capitaine Narboroug (1669)*, *in :* PRÉVOST, *op. cit.*, XI, 1753, pp. 32-34.
122. R. de LIZARRAGA, *op. cit.*, II, p. 642.
123. Walther KIRCHNER, *Eine Reise durch Sibirien* [relation de Fries], 1955, p. 75.
124. Reconnu par les Russes à partir de 1696, Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, XVIII, p. 71.
125. A.E., M. et D., Russie, 7, 1774, f°s 235-236; Joh. Gottl. GEORGI, *Bemerkungen einer Reise im Russischen Reich*, I, 1775, pp. 22-24.
126. G. MACARTNEY, *op. cit.*, I, pp. 270-275.
127. Pierre GOUBERT, travaux non publiés de l'École des Hautes Études, VIᵉ Section.
128. William PETTY, *op. cit.*, p. 185.
129. Erich KEYSER, *Bevölkerungsgeschichte Deutschlands*, 1941, p. 302. Wilhelm SCHÖNFELDER, *Die wirtschaftliche Entwicklung Kölns von 1370 bis 1513*, 1970, pp. 128-129, dit : 30 000 morts.
130. Günther FRANZ, *Der Dreissigsjährige Krieg und das deutsche Volk*, 1961, p. 7.
131. L. MOSCARDO, *Historia di Verona*, 1668, p. 492.
132. G. FRANZ, *op. cit.*, pp. 52-53.
133. Bernard GUENÉE, *Tribunaux et gens de justice dans le bailliage de Senlis à la fin du Moyen Age (vers 1380-vers 1550)*, 1963, p. 57.
134. Wilhelm ABEL, *Die Wüstungen des ausgehenden Mittelalters*, 1955, pp. 74-75.
135. MOHEAU, *Recherches et considérations sur la population de la France*, 1778, p. 264.
136. François DORNIC, *L'Industrie textile dans le Maine (1650-1815)*, 1955, p. 173.
137. Yves-Marie BERCÉ, *Histoire des croquants : étude des soulèvements populaires au XVII*ᵉ *siècle dans le Sud-Ouest de la France*, 1974, I, p. 16.
138. Fritz BLAICH, « Die Wirtschaftspolitische Tätigkeit der Kommission zur Bekämpfung der Hungersnot in Böhmen und Mähren (1771-1772) », *in : Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte*, 56, 3, oct. 1969, pp. 299-331.
139. *Almanacco di economia di Toscana del anno 1791*, Florence, 1791, cité *in : Médit...*, I, p. 301.
140. A Venise : A.d.S. Venise, Brera, 51, f° 312 v°, 1540. A Amiens : Pierre DEYON, *Amiens, capitale provinciale. Étude sur la société urbaine au XVII*ᵉ *siècle*, 1967, p. 14 et note.
141. *Mémoires de Claude Haton*, *in : Documents inédits de l'histoire de France*, II, 1857, pp. 727-728.
142. G. ROUPNEL, *op. cit.*, p. 98.
143. A. APPADORAI, *Economic Conditions in Southern India (1000-1500 A.D.)*, 1936, p. 308.
144. W. H. MORELAND, *op. cit.*, pp. 127-128.
145. Description de Van Twist, cité par W. H. MORELAND, *From Akbar to Aurangzeb*, 1923, pp. 211-212.
146. François BERNIER, *Voyages... contenant la description des États du Grand Mogol...*, 1699, I, p. 202.
147. Eino JUTIKKALA, art. cit., p. 48.
148. Pierre CLÉMENT, *Histoire de la vie et de l'administration de Colbert*, 1846, p. 118.
149. G. ROUPNEL, *op. cit.*, p. 35, note 104.
150. Journal de GAUDELET, Ms. 748, Bibl. Dijon, p. 94, cité par G. ROUPNEL, *op. cit.*, p. 35, note 105.
151. *Journal de Clément Macheret... curé d'Horthes (1628-1658)*, p.p. E. BOUGARD, 1880, II, p. 142.
152. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 196.
153. Encore en 1867, une ou deux fois par mois, dans la campagne milanaise, Paolo MANTEGAZZA, *Igiene della cucina*, 1867, p. 37.
154. Remarque banale, mais vérifiée utilement par Enrique FLORESCANO, *Precios del maiz y crisis agricolas en México, 1708-1810*, 1969, qui compare (tableau p. 161) les dates des famines et de diverses épidémies dans le Mexique du XVIIIᵉ siècle.
155. Samuel TISSOT, *Avis au peuple sur sa santé*, 1775, pp. 221-222.
156. Mirko D. GRMEK, « Préliminaires d'une étude historique des maladies », *in : Annales, E.S.C.*, 1969, n° 6, pp. 1473-1483.

157. G. ROUPNEL, *op. cit.*, pp. 28-29.
158. L. S. MERCIER, *op. cit.*, III, pp. 186-187.
159. Étienne PASQUIER, *Les Recherches de la France*, 1643, p. 111.
160. Pierre de LESTOILE, *Mémoires et Journal...*, *in : Mémoires pour servir à l'histoire de France*, 2e série, t. I, 1837, p. 261.
161. H. HAESER, *Lehrbuch der Geschichte der Medicin*, III, 1882, pp. 325 *sq.*
162. A.d.S. Genova, Spagna, 11, Cesare Giustiniano au Doge, Madrid, 21 août 1597.
163. Henri STEIN, « Comment on luttait autrefois contre les épidémies », *in : Annuaire bulletin de la société de l'Histoire de France*, 1918, p. 130.
164. M. T. JONES-DAVIES, *Un Peintre de la vie londonienne, Thomas Dekker*, 1958, pp. 334-335.
165. Société des Nations, *Rapport épidémiologique de la section d'hygiène*, n° 48, Genève, 24 avril 1923, p. 3.
166. A.d.S. Florence, fonds Medici, 2 sept. 1603.
167. A. G. PRICE, *op. cit.*, p. 162.
168. *Ibid.*, p. 172., et M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, p. 335, note 229.
169. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, p. 162.
170. Malherbe, cité par John GRAND-CARTERET, *L'Histoire, la vie, les mœurs et la curiosité par l'image... 1450-1900*, 1927, II, p. 322.
171. *Antonio Pérez*, 1948, 2e édition, p. 50.
172. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, p. 335.
173. Erich WOEHLKENS, *Pest und Ruhr im 16. und 17. Jahr.*, 1954.
174. A.E., M. et D., Russie, 7, f° 298.
175. Pierre CHAUNU, *Séville et l'Atlantique*, VIII[1], 1959, p. 290 note 1; J. et R. NICOLAS, *La Vie quotidienne en Savoie...*, 1979, p. 119.
176. Samuel PEPYS, *The Diary*, éd. Wheatley, 1897, V, pp. 55-56.
177. Michel de MONTAIGNE, *Les Essais*, éd. Pléiade, 1962, pp. 1018-1019.
178. Nicolas VERSORIS, *Livre de raison*, p.p. G. FAGNIEZ, 1885, pp. 23-24.
179. Étienne FERRIERES, cité par Gilles CASTER, *Le Commerce du pastel et de l'épicerie à Toulouse, 1450-1561*, 1962, p. 247.
180. Jean-Paul SARTRE, *Les Temps modernes*, octobre 1957, p. 696, note 15; J. et R. NICOLAS, *op. cit.*, p. 123.
181. Henri STEIN, art. cit., p. 133.
182. Comte de FORBIN, « Un gentilhomme avignonais au XVIe siècle. François-Dragonet de Fogasses, seigneur de la Bastie (1536-1599) », *in : Mémoires de l'Académie de Vaucluse*, 2e série, IX, 1909, p. 173.
183. Daniel DEFOE, *Journal de l'année de la peste, 1722*, éd. Joseph Aynard, 1943, pp. 24, 31, 32, 48, 66.
184. *Ibid.*, préface, p. 13, citation de Thomas GRUMBLE, *La vie du général Monk*, 1672, p. 264.
185. Voir à ce sujet le bel article de René BAEHREL, « Épidémie et terreur : histoire et sociologie », *in : Annales historiques de la Révolution française*, 1951, n° 122, pp. 113-146.
186. Venise, Marciana, Ms. ital., III, 4.
187. Père Maurice de TOLON, *Préservatifs et remèdes contre la peste, ou le Capucin charitable*, 1668.
188. Préface d'AYNARD dans D. DEFOE, *op. cit.*, p. 13.
189. M. FOSSEYEUX, « Les épidémies de peste à Paris », *in : Bulletin de la Société d'histoire de la médecine*, XII, 1913, p. 119, cité par J. AYNARD, *Préface* de D. DEFOE, *op. cit.*, p. 14.
190. C. CARRIÈRE, M. COURDURIÉ, F. REBUFFAT, *Marseille, ville morte. La peste de 1720*, 1968, p. 302.
191. Lettre de Monseigneur de Belsunce, évêque de Marseille, 3 sept. 1720, cité par AYNARD, *in :* D. DEFOE, *op. cit.*, p. 14.
192. Jean-Noël BIRABEN, *Les Hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, 1976, II, p. 185.
193. *Le Temps de la peste. Essai sur les épidémies en histoire*, 1978.
194. Ping-Ti HO, « The Introduction of American Foods plants into China », *in : American Anthropologist*, avril 1955, pp. 194-197.
195. E. J. F. BARBIER, *Journal historique et anecdotique du règne de Louis XV*, 1847, p. 176.
196. *Médit...*, I, p. 306.
197. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 267.
198. Pierre GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730. Contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle*, 1960, p. 41.
199. Michel MOLLAT, *in :* Édouard PERROY, *Le Moyen Age*, 1955, pp. 308-309.
200. Germain BRICE, *Nouvelle Description de la ville de Paris et de tout ce qu'elle contient de plus remarquable*, III, 1725, pp. 120-123.
201. John NICKOLLS, *Remarques sur les désavantages et les avantages de la France et de la Grande-Bretagne*, 1754, p. 23.
202. François COREAL, *Relation des voyages aux Indes occidentales*, 1736, I, p. 95; Carsten NIEBUHR, *Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient*, 1780, II, p. 401; CHARDIN, *Voyage en Perse et aux Indes orientales*, 1686, IV, p. 46 : « les grandes débauches de viande et de breuvage mortelles aux Indes » pour les Anglais...
203. John H. GROSE, *A voyage to the East Indies with observations of various parts there*, 1757, I, p. 33.
204. T. OVINGTON, *A Voyage to Surat*, 1689, p. 87, cité par Percival SPEAR, *The Nabobs*, 1963, p. 5.
205. G. MACARTNEY, *op. cit.*, I, p. 321. Cook et Bougainville, durant leur relâche à Batavia, « la terre qui tue », eurent chacun plus de morts et de malades parmi leurs équipages que pendant tout le reste de leur voyage; Abbé PRÉVOST, *Supplément des voyages*, XX, pp. 314 et 581.
206. Bernard FAŸ, *George Washington gentilhomme*, 1932, p. 40.
207. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, IX, p. 250 (citant la relation de la Loubere).
208. Jean-Claude FLACHAT, *Observations sur le commerce et les arts d'une partie de l'Europe, de l'Asie de l'Afrique...*, 1766, I, p. 451.
209. Osman AGA, journal publié par R. KREUTEL et Otto SPIES, sous le titre : *Der Gefangene der Giauren...*, 1962, pp. 210-211.
210. E. KEYSER, *Bevölkerungsgeschichte Deutchslands*, 1941, p. 381; d'une façon générale, la montée démographique des villes ne se fait pas de façon endogène : W. SOMBART, *Der moderne Kapitalismus*, II, p. 1124.
211. Joham Peter SÜSSMILCH, *Die Göttliche Ordnung in den Veränderungen des menschlichen Geschlechts...*, 1765, I, p. 521.
212. Pierre de SAINT-JACOB, *Les Paysans de la*

Bourgogne du Nord au dernier siècle de l'Ancien Régime, 1960, p. 545.
213. D'après les publications de Carmelo VIÑAS et Ramón PAZ, *Relaciones de los pueblos de España*, 1949-1963.
214. *L'Invasion germanique et la fin de l'Empire*, 1891, II, pp. 322 *sq*.
215. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte*, 1900, I, pp. 472 *sq*.
216. Rechid SAFFET ATABINEN, *Contribution à une histoire sincère d'Attila*, 1934.
217. Henri PIRENNE, *Les Villes et les institutions urbaines*, 1939, I, pp. 306-307.
218. *Gazette de France*, 1650, *passim*.
219. *Geschichte des europäischen Staatensystems von 1492-1559*, 1919, p. 1 *sq*.
220. Pour ces détails et ce qui suit, cf. Alexander et Eugen KULISCHER, *Kriegs — und Wanderzüge. Weltgeschichte als Völkerbewegung*, 1932.
221. Otto von KOTZEBUE, *Reise um die Welt in den Jahren 1823, 24, 25 und 26*, 1830, I, p. 47.
222. F. J. TURNER, *The Frontier in American History*, 1921.
223. Voyage du médecin Jakob FRIES, publié par KIRCHNER, *op. cit.*, 1955.
224. John BELL, *Travels from St. Petersburg to diverse parts of Asia*, 1763, I, p. 216.
225. Marquant les débuts de ces fouilles, voir W. HENSEL et A. GIEYSZTOR, *Les Recherches archéologiques en Pologne*, 1958, pp. 48 et 66.
226. Boris NOLDE, *La Formation de l'Empire russe*, 2 vol., 1952.
227. *Médit*... I, p. 175.
228. *Médit*... I, pp. 100-101 et note.
229. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, III, p. 166.

Notes du chapitre 2

1. MONTESQUIEU, *De l'Esprit des lois*, livre XXII, chap. 14, *in : Œuvres complètes*, 1964, p. 690.
2. Cette expression proverbiale serait une invention de L. A. FEUERBACH.
3. *Hackluyt's Voyages*, éd. 1927, I, pp. 441, 448-449.
4. P. GOUBERT, *op. cit.*, pp. 108 et 111.
5. K. C. CHANG, *Food in Chinese Culture*, 1977, p. 7.
6. Claude MANCERON, *Les Vingt Ans du Roi*, 1972, p. 614.
7. Wilhem ABEL, « Wandlungen des Fleischverbrauchs und der Fleischversorgung in Deutschland seit dem ausgehenden Mittelalter », *in : Berichte über Landwirtschaft*, XXII, 3, 1937, pp. 411-452.
8. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, IX, p. 342 (voyage de Beaulieu).
9. A. MAURIZIO, *op. cit.*, p. 168.
10. Dr Jean CLAUDIAN, Rapport préliminaire de la Conférence internationale F.I.P.A.L., Paris, 1964, dactylogramme, pp. 7-8, 19.
11. Marcel GRANET, *Danses et légendes de la Chine ancienne*, 1926, pp. 8 et 19, note.
12. J. CLAUDIAN, art. cit., p. 27.
13. J. J. RUTLIGE, *Essai sur le caractère et les mœurs des François comparées à celles des Anglois*, 1776, p. 32.
14. M. SORRE, *op. cit.*, I, pp. 162-163.
15. Pierre GOUROU, « La civilisation du végétal », *in : Indonésie*, n° 5, pp. 385-396 et c. r. de L. FEBVRE, *in : Annales E.S.C.*, 1949, pp. 73 *sq*.
16. P. de LAS CORTES, *doc. cit.*, f° 75.
17. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, V, p. 486.
18. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 79.
19. *Ibid.*, II, p. 59.
20. Mémoire sur le port d'Oczaskof et sur le commerce auquel il pourroit servir d'entrepôt. A.E., M. et D. Russie, 7, f° 229.
21. A.E., M. et D. Russie, 17, f°s 78 et 194-196.
22. V. DANDOLO, *Sulle Cause dell'avvilimento delle nostre granaglie e sulle industrie agrarie*..., 1820, XL, pp. 1 *sq*.
23. *Histoire du commerce de Marseille*, dir. par G. RAMBERT, 1954, IV, pp. 625 *sq*.
24. Étienne JUILLARD, *La Vie rurale dans la plaine de Basse-Alsace*, 1953, p. 29; J. RUWET, E. HÉLIN, F. LADRIER, L. van BUYTEN, *Marché des céréales à Ruremonde, Luxembourg, Namur et Diest, XVIIe et XVIIIe siècles*, 1966, pp. 44, 57 *sq.*, 283-284, 299 *sq.*; Daniel FAUCHER, *Plaines et bassins du Rhône moyen*, 1926, p. 317.
25. M. SORRE, *op. cit.*, I, carte p. 241; aire étendue à toute la Méditerranée et à l'Europe centrale et méridionale.
26. *Médit*..., I, pp. 539 et 540.
27. B.N., Estampes, Oe 74.
28. *Médit*..., I, p. 223.
29. Hans HAUSSHERR, *Wirtschaftsgeschichte der Neuzeit, vom des 14. bis zur Höhe des 19. J.*, 3e éd. 1954, p. 1.
30. *Médit*..., I, p. 544 et note 1.
31. Louis LEMERY, *Traité des aliments, où l'on trouve la différence et le choix qu'on doit faire de chacun d'eux en particulier*..., 1702, p. 113.
32. *Cf.* tableau de J.-C. TOUTAIN, « Le produit de l'agriculture française de 1700 à 1958 », *in : Histoire quantitative de l'économie française*, dirigée par Jean MARCZEWSKI, 1961, p. 57.
33. Jacob van KLAVEREN, *Europäische Wirtschaftsgeschichte Spaniens im 16. und 17. Jahrhundert*, 1960, p. 29, note 31.
34. *Médit*..., II, p. 116.
35. Vers 1740, au moins 50 000 barriques de 400 livres chacune, Jacques SAVARY, *Dictionnaire universel de commerce, d'histoire naturelle et des arts et métiers*, 5 vol., 1759-1765, IV, col. 563.
36. *Ibid.*, IV, col. 565; A.N., G^7^, 1685, f° 275; A.N., G^7^, 1695, f° 29.
37. Marciana, Chronique de Girolamo Savina, f° 365 *sq*.
38. P. J. B. LE GRAND D'AUSSY, *Histoire de la vie privée des Français*, 1782, I, p. 109.
39. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, V, p. 486 (voyage de Gemelli Careri); VI, p. 142 (voyage de Navarrette).
40. Voir *infra*, II, p. 14.
41. N. F. DUPRÉ DE SAINT-MAUR, *Essai sur les monnoies ou Réflexions sur le rapport entre l'argent et les denrées*..., 1746, p. 182 et note a.
42. La question reste ouverte, car à travers les mercuriales publiées (notamment Michèle BAULANT et Jean MEUVRET, *Prix des céréales extraits de la mercuriale de Paris, 1520-1698*, 1960), les variations respectives du blé et de l'avoine s'accompagnent de façon très irrégulière. Voir graphique p. 88.
43. *Médit*..., I, p. 38 et note 4.
44. Pierre DEFFONTAINES, *Les Hommes et leurs travaux dans les pays de la Moyenne Garonne*, 1932, p. 231.

45. L. P. GACHARD, *Retraite et mort de Charles Quint au monastère de Yuste*, I, 1854, p. 49.
46. Témoignage de Lesdiguière, gouverneur du Dauphiné, cité par H. SÉE, *Esquisse d'une histoire économique et sociale de la France*, 1929, p. 250; L. LÉMERY, *op. cit.*, p. 110.
47. Archivo General de Simancas, Estado Castilla 139.
48. *Médit...*, I, p. 518.
49. Jean GEORGELIN, *Venise au siècle des Lumières*, 1978, p. 288.
50. J. RUWET et *al.*, *Marché des céréales...*, *op. cit.*, pp. 57 *sq.*
51. P. de LAS CORTES, *document cité* f° 75.
52. Étienne JUILLARD, *Problèmes alsaciens vus par un géographe*, 1968, pp. 54 *sq.*
53. M. DERRUAU, *La Grande Limagne auvergnate et bourbonnaise*, 1949.
54. Jethro TULL, *The Horse Hoeing Husbandry...*, 1733, pp. 21 *sq.*
55. J.-M. RICHARD, « Thierry d'Hireçon, agriculteur artésien (13..-1328) », *in : Bibliothèque de l'École des Chartes*, 1892, p. 9.
56. François VERMALE, *Les Classes rurales en Savoie au XVIIIe siècle*, 1911, p. 286.
57. Johann Gottlieb GEORGI, *op. cit.*, p. 579.
58. René BAEHREL *Une Croissance : la Basse-Provence rurale (fin du XVIe siècle-1789)*, 1961, pp. 136-137.
59. B. H. SLICHER VAN BATH, *Storia agraria...*, *op. cit.*, pp. 353-356; Jean-François de BOURGOING, *Nouveau Voyage en Espagne...*, 1789, III, p. 50.
60. P. G. POINSOT, *L'Ami des cultivateurs*, 1806, II, p. 40.
61. *In :* Marc BLOCH, *Mélanges historiques*, II, 1963, p. 664.
62. Mémoires de 1796, cité par I. IMBERCIADORI, *La Campagna toscana nel'700*, 1953, p. 173.
63. B. H. SLICHER VAN BATH, *Storia agraria dell'Europa occidentale*, 1972, pp. 245-252, 338 *sq.*; Wilhelm ABEL, *Crises agraires en Europe, XIIIe-XXe s.*, 1973, p. 146.
64. A. R. LE PAIGE, *Dictionnaire topographique du Maine*, 1777, II, p. 28.
65. Jacques MULLIEZ, « Du blé, 'mal nécessaire'. Réflexions sur les progrès de l'agriculture, 1750-1850 », *in : Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 1979, pp. 30-31.
66. *Ibidem, passim.*
67. *Ibid.*, pp. 32-34.
68. *Ibid.*, pp. 36-38.
69. *Ibid.*, pp. 30 et 47 notamment.
70. Olivier de SERRES, *Le Théâtre d'agriculture et mesnage des champs...*, 1605, p. 89.
71. *François Quesnay et la physiocratie*, éd. de l'I.N.E.D., 1958, II, p. 470.
72. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 152.
73. J.-C. TOUTAIN, art. cit., p. 87.
74. Pour tous ces chiffres, Hans Helmut WÄCHTER, *Ostpreussische Domänenvorwerke im 16. und 17. Jahrhundert*, 1958, p. 118.
75. J.-M. RICHARD, art. cit., pp. 17-18.
76. *François Quesnay...*, *op. cit.*, p. 461 (article « grains » de l'Encyclopédie).
77. « Production et productivité de l'économie agricole en Pologne », *in : Troisième Conférence internationale d'histoire économique*, 1965, p. 160.
78. Léonid ZYTKOWICZ, « Grain yields in Poland, Bohemia, Hungary and Slovakia », *in : Acta Poloniae historica*, 1971, p. 24.
79. E. LE ROY LADURIE, *Les Paysans de Languedoc...*, *op. cit.*, II, p. 849-852; I, p. 533.
80. *Essai politique sur le royaume de la Nouvelle Espagne*, 1811, II, p. 386.
81. E. LE ROY LADURIE, *op. cit.*, II, p. 851.
82. *Yield ratios, 810-1820*, 1963, p. 16.
83. H. H. WÄCHTER, *op. cit.*, p. 143.
84. Jean GLENISSON, « Une administration médiévale aux prises avec la disette. La question des blés dans les provinces italiennes de l'État pontifical en 1374-1375 », *in : Le Moyen Age*, t. 47, 1951, pp. 303-326.
85. Ruggiero ROMANO, « A propos du commerce du blé dans la Méditerranée des XIVe et XVe siècles », *in : Hommage à Lucien Febvre*, 1954, II, pp. 149-156.
86. Jean MEUVRET, *Études d'histoire économique*, 1971, p. 200.
87. *Médit...*, I, p. 302.
88. Ruggiero ROMANO, *Commerce et prix du blé à Marseille au XVIIIe siècle*, 1956, pp. 76-77.
89. A.N., A.E., B1, 529, 4 février 1710.
90. Andrea METRA, *Il Mentore perfetto de'negozianti*, 1797, V, p. 15.
91. Claude NORDMANN, *Grandeur et liberté de la Suède, 1660-1792*, 1971, p. 45 et note.
92. Werner SOMBART, *Der moderne Kapitalismus*, 1921-1928, II, p. 1035. Quantités exportées d'Angleterre après 1697 et d'Amérique en 1770.
93. *Bilanci generali*, 2e série, I, 1, 1912, pp. 35-37.
94. Jean NICOT, *Correspondance inédite*, p.p. E. FALGAIROLLE, 1897, p. 5.
95. J. NICKOLLS, *op. cit.*, p. 357.
96. Moscou, A.E.A., 8813-261, f° 21, Livourne, 30 mars 1795.
97. Werner SOMBART, *Krieg und Kapitalismus*, 1913, pp. 137-138.
98. J. SAVARY, *Dictionnaire...*, V, col. 579-580.
99. W. SOMBART, *Der moderne Kapitalismus*, *op. cit.*, II, pp. 1032-1033.
100. Fritz WAGNER, *in : Handbuch der europäischen Geschichte*, éd. par Th. Schieder, 1968, IV, p. 107.
101. Yves RENOUARD, « Une expédition de céréales des Pouilles... », *in : Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'École française de Rome*, 1936.
102. W. SOMBART, *Der moderne Kapitalismus*, *op. cit.*, II, p. 1032.
103. *Médit...*, I, pp. 543-545.
104. Référence exacte perdue.
105. Sur l'organisation des *caricatori*, cf. *Médit...*, I, pp. 525-528.
106. *Médit...*, I, p. 527.
107. *Médit...*, I, p. 577.
108. *Histoire du commerce de Marseille*, *op. cit.*, IV, pp. 365 *sq.*
109. A. P. USHER, *The History of the grain trade in France, 1400-1710*, 1913, p. 125.
110. V. S. LUBLINSKY, « Voltaire et la guerre des farines », *in : Annales historiques de la Révolution française*, n° 2, 1959, pp. 127-145.
111. Abbé MABLY, « Du commerce des grains » *in : Œuvres complètes*, XIII, 1795, pp. 144-146.
112. Earl J. HAMILTON, « Wages and Subsistence on Spanish Treasure Ships, 1503-1660 », *in : Journal of Political Economy*, 1929.
113. Tous les chiffres qui suivent calculés par F. C. SPOONER, « Régimes alimentaires d'autrefois : proportions et calculs en calories », *in : Annales E.S.C.*, 1961, pp. 568-574.
114. Robert PHILIPPE, « Une opération pilote :

l'étude du ravitaillement de Paris au temps de Lavoisier », *in : Annales E.S.C.*, XVI, 1961, tableaux non paginés entre les pages 572 et 573. A noter une erreur dans le dernier tableau : il faut lire 58 % et non 50.

115. Armand HUSSON, *Les Consommations de Paris*, 1856, pp. 79-106.
116. Le calcul est fait d'après les documents du Museo Correr, Donà delle Rose, 218, f°s 142 *sq.* D'un calcul fait sur les années agricoles 1603-1604, 1604-1605, 1608-1609, en tenant compte des bilans de stocks de céréales, la moyenne de la consommation de Venise s'établit aux environs de 450 000 stara. La population de la ville est de 150 000, la consommation par personne de 3 stara, c'est-à-dire, à 60 k par stara, 180 kg. Ce sont d'ailleurs les chiffres retenus par une enquête officielle de 1760 (3 stara de froment ou 4,5 de maïs). P. GEORGELIN, *op. cit.*, p. 209.
117. Witold KULA, *Théorie économique du système féodal..., XVIe-XVIIIe s.*, 1970.
118. Robert PHILIPPE, « Une opération pilote : l'étude du ravitaillement de Paris au temps de Lavoisier », *in : Pour une histoire de l'alimentation*, p.p. Jean-Jacques HEMARDINQUER, 1970, p. 65, tableau 5; A. HUSSON, *op. cit.*, p. 106.
119. Louis-Sébastien MERCIER, *Tableau de Paris*, 1782, IV, p. 132.
120. E. H. PHELPS BROWN et Sheila V. HOPKINS, « Seven Centuries of Building Wages », *in : Economica*, août 1955, pp. 195-206.
121. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 539.
122. Giuseppe PRATO, *La Vita economica in Piemonte in mezzo a secolo XVIII*, 1908.
123. Paul RAVEAU, *Essai sur la situation économique et l'état social en Poitou au XVIe siècle*, 1931, pp. 63-65.
124. Jacques ANDRÉ, *Alimentation et cuisine à Rome*, 1961, pp. 62-63.
125. J.-M. RICHARD, art. cit., p. 21.
126. Jean MEYER, *La Noblesse bretonne au XVIIIe siècle*, 1966, p. 449, note 3.
127. Référence non retrouvée.
128. O. AGA, *op. cit.*, pp. 64-65.
129. N. F. DUPRÉ DE SAINT-MAUR, *op. cit.*, p. 23.
130. Alfred FRANKLIN, *La Vie privée d'autrefois*. III. *La cuisine*, 1888, p. 91.
131. Londres, P.R.O. 30, 25, 157, Giornale autografo di Francesco Contarini da Venezia a Madrid.
132. J. SAVARY, *Dictionnaire..., op. cit.*, IV, col. 10.
133. L.-S. MERCIER, *op. cit.*, XII, p. 242.
134. A.N., AD XI, 38, 225.
135. Denis DIDEROT, article « bouillie », *Supplément à l'Encyclopédie*, II, 1776, p. 34.
136. L.-S. MERCIER, *op. cit.*, VIII, pp. 154 *sq.*
137. L.-S. MERCIER, *ibid.*, XII, p. 240.
138. D'après des documents que j'ai consultés aux archives de Cracovie.
139. N. DELAMARE, *Traité de police*, II, 1710, p. 895.
140. *Ibid.*, édition 1772, II, pp. 246-247; A. HUSSON, *op. cit.*, pp. 80-81.
141. A.d.S. Venise, Papadopoli, 12, f° 19 v°.
142. Museo Correr, Donà delle Rose, 218, f° 140 v°.
143. Correspondance de M. de Compans, consul français à Gênes, A.N., A.E., B¹, 511.
144. Antoine PARMENTIER, *Le Parfait Boulanger*, 1778, pp. 591-592.
145. Jean MEYER, *La Noblesse bretonne au XVIIIe siècle*, *op. cit.*, p. 447 et note.
146. NECKER, *Législation et commerce des grains*, chapitre XXIV.
147. *Diari della città di Palermo dal secolo XVI al XIX*, p.p. Gioacchino di MARZO, vol. XIV, 1875, pp. 247-248.
148. N. DELAMARE, *op. cit.*, II, p. 1039.
149. *Gazette de France*, Rome, 11 août 1649, p. 749.
150. R. GROUSSET, *Histoire de la Chine*, *op. cit.*
151. Annuaire F.A.O., 1977.
152. G. MACARTNEY, *op. cit.*, II, p. 232.
153. M. de GUIGNES, *Voyages à Pékin, Manille et l'Ile de France... 1784-1801*, 1808, I, p. 354.
154. Vera HSU et Francis HSU, *in : Food in Chinese Culture*, p.p. K. C. CHANG, *op. cit.*, pp. 300 *sq.*
155. Pierre GOUROU, *L'Asie*, nouvelle édition, 1971, pp. 83-86.
156. Jules SION, *Asie des moussons*, 1ere partie, 1928, p. 34.
157. F. W. MOTE, *in : Food in Chinese Culture*, *op. cit.*, p. 199.
158. P. GOUROU, *op. cit.*, p. 86.
159. Voir les figures des pages 128-129.
160. J.-B. du HALDE, *Description géographique, historique, chronologique, politique et physique de l'Empire de la Chine et de la Tartarie chinoise*, 1735, II, p. 65.
161. P. de LAS CORTES, doc. cité., f° 123 v°.
162. Pierre GOUROU, *L'Asie*, 1953, p. 32.
163. *Ibid.*, pp. 30-32.
164. Au Siam, E. KÄMPFER, *Histoire naturelle... de l'Empire du Japon*, 1732, I, p. 69. Au Cambodge, Éveline PORÉE-MASPÉRO, *Études sur les rites agraires des Cambodgiens*, 1942, I, p. 28; P. GOUROU, *L'Asie*, *op. cit.*, p. 74.
165. P. de LAS CORTES, doc. cité, f° 43 v°.
166. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 287; *Dictionnaire archéologique des techniques*, 1964, I, pp. 214-215; II, p. 520.
167. Michel CARTIER, Pierre E. WILL, « Démographie et institutions en Chine : contributions à l'analyse des recensements de l'époque impériale », *in : Annales de démographie historique*, 1971, pp. 212-218 et 230-231.
168. Pierre GOUROU, *Les Paysans du delta tonkinois*, 1936, pp. 382-387.
169. Les détails qui suivent empruntés à Éveline PORÉE-MASPÉRO, *op. cit.*, I, 1942, pp. 32 *sq.*
170. Jean CHARDIN, *Voyages en Perse*, 1811, IV, pp. 102-105.
171. J. FOURASTIÉ, *Machinisme et bien-être*, *op. cit.*, p. 40.
172. Pierre GOUROU, *L'Asie*, 1953, p. 55.
173. Pierre GOUROU, *Les Pays tropicaux*, 4e éd., 1966, p. 95.
174. J. SPENCE, *in : Food in Chinese Culture*, p.p. K. C. CHANG, 1977, p. 270.
175. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VIII, pp. 536 et 537.
176. J.-B. du HALDE, *op. cit.*, II, p. 72.
177. P. de LAS CORTES, doc. cité f°s 54 et 60.
178. *Voyages à Pékin, Manille et l'Ile de France... 1784-1801*, *op. cit.*, I, p. 320.
179. P. GOUROU, *L'Asie*, *op. cit.*, pp. 74, 262.
180. J. A. MANDELSLO, *op. cit.*, II, p. 268.
181. J. SAVARY, *op. cit.*, IV, col. 561.
182. P. de LAS CORTES, doc. cité f° 55.
183. Matsuyo TAKIZAWA, *The Penetration of Money Economy in Japan...*, 1927, pp. 40-41.
184. P. de LAS CORTES, doc. cité f° 75.
185. Jacques GERNET, *Le Monde chinois*, 1972, pp. 281 et 282, et 648; Wolfram EBERHARD, *A History of China*, 4e éd., 1977, p. 255.

186. F. W. MOTE, *in : Food in Chinese Culture, op. cit.*, pp. 198-200.
187. J. SPENCE, *ibid*, pp. 261 et 271.
188. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, pp. 452-453 (du Halde).
189. J. GERNET, *Le Monde chinois, op. cit.*, pp. 65-66; *Dictionnaire archéologique des techniques*, 1964, II, p. 520.
190. Victor BÉRARD, *Les Navigations d'Ulysse*, II. *Pénélope et les Barons des îles*, 1928, pp. 318, 319.
191. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 102.
192. G. B. SAMSON, *The Western World and Japan*, 1950, p. 241.
193. Michel VIÉ, *Histoire du Japon*, 1969, p. 99; Thomas C. SMITH, *The Agrarian Origins of Modern Japan*, 1959, p. 102.
194. Th. SMITH, *ibid.*, pp. 82, 92 *sq.*
195. *Ibid.*, pp. 68 *sq.*, 156, 208, 211; Matsuyo TAKIZAWA, *The Penetration of money economy in Japan*, 1927, pp. 34-35; 75-76, 90-92; *Recent trends in japanese historiography : bibliographical essays*, XIIIe congrès des sciences historiques de Moscou, 1970, I, pp. 43-44.
196. Voir *infra*, III, pp. 433 et 441-442.
197. G. B. SAMSON, *op. cit.*, p. 237.
198. Il est décrit dans la *Vie de Colomb par son fils*, à la date du 5 novembre 1492, comme « une sorte de blé appelé maize qui était très savoureux, cuit au four ou bien séché et réduit en farine », A. MAURIZIO, *op. cit.*, pp. 339.
199. R. S. MAC NEISH, *First annual report of the Tehuacan archaeological-botanical project*, 1961, et *Second annual report*, 1962.
200. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, VI, p. 30.
201. F. COREAL, *op. cit.*, I, p. 23.
202. P. VIDAL DE LA BLACHE, *op. cit.*, p. 137.
203. Jean-Pierre BERTHE, « Production et productivité agricoles au Mexique, XVIe-XVIIIe siècles », *in : Troisième Conférence internationale d'histoire économique*, Munich, 1965.
204. F. MÁRQUEZ MIRANDA, « Civilisations précolombiennes, civilisation du maïs », *in : A travers les Amériques latines*, publ. sous la direction de Lucien FEBVRE, *Cahiers des Annales*, n° 4, pp. 99-100.
205. Marie HELMER, « Les Indiens des plateaux andins », *in : Cahiers d'outremer*, n° 8, 1949, p. 3.
206. Marie HELMER, « Note brève sur les Indiens Yuras », *in : Journal de la société des américanistes*, 1966, pp. 244-246.
207. Alexandre de HUMBOLDT, *Voyage aux régions équinoxiales du Nouveau Continent fait en 1799 et 1800*, éd. de 1961, p. 6.
208. A. de SAINT-HILAIRE, *Voyages dans l'intérieur du Brésil*, 1re partie, I, 1830, pp. 64-68.
209. Rodrigo de VIVERO, *Du Japon et du bon gouvernement de l'Espagne et des Indes*, p.p. Juliette MONBEIG, 1972, pp. 212-213.
210. Earl J. HAMILTON, *American Treasure and Price Revolution in Spain*, 1934, p. 213, note 1, trouve la tomate dès 1608 dans les achats alimentaires d'un hôpital d'Andalousie.
211. Georges et Geneviève FRÊCHE, *Le Prix des grains, des vins et des légumes à Toulouse, (1486-1868)*, 1967, pp. 20-22.
212. Carl O. SAUER, « Maize into Europe », *in : Akten des 34. Internationales Amerikanischen Kongresses*, 1960, p. 781.
213. O. de SERRES, *Le Théâtre de l'agriculture..., op. cit.*, II, p. 4.
214. A. BOURDE, *Agronomie et agronomes en France au XVIIIe siècle*, 1967, I, p. 185, note 5.
215. Traian STOIANOVICH, « Le maïs dans les Balkans », *in : Annales, E.S.C.*, 1966, p. 1027 et note 3, p. 1029 et note 1.
216. J. GEORGELIN, *op. cit.*, p. 205.
217. G. ANTHONY, *L'Industrie de la toile à Pau et en Béarn*, 1961, p. 17.
218. G. et G. FRÊCHE, *op. cit.*, pp. 20-22, 34-37.
219. Mémoire sur le Béarn et la Basse Navarre, 1700, B.N. Ms. fr. 4287, f° 6.
220. Moscou, A.E.A., 72/5, 254, f° 29.
221. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 398.
222. Jérôme et Jean THARAUD, *La Bataille de Scutari*, 24e éd., 1927, p. 101.
223. J. GEORGELIN, *op. cit.*, pp. 205 et 225.
224. G. et G. FRÊCHE, *op. cit.*, p. 36.
225. Filippo PIGAFETTA et Duarte LOPEZ, *Description du royaume de Congo*, 1591, trad. de W. Bal, 1973, p. 76.
226. P. VERGER, *Dieux d'Afrique*, 1954, pp. 168, 176, 180.
227. Ping-Ti HO, « The Introduction of American food plants into China », art. cité.
228. Berthold LAUFER, *The American Plant Migration, the Potato*, 1938.
229. Cité par R. M. HARTWELL, *The Industrial Revolution and economic Growth*, 1971, p. 127.
230. Archives de Cracovie, fonds Czartoryski, 807, f° 19.
231. Johann Gottlieb GEORGI, *op. cit.*, p. 585.
232. B. LAUFER, *op. cit.*, pp. 102-105.
233. E. JULLIARD, *op. cit.*, p. 213.
234. D. MATHIEU, *L'Ancien Régime dans la province de Lorraine et Barrois*, 1879, p. 323.
235. K. H. CONNELL, « The Potato in Ireland », *in : Past and Present*, n° 23, nov. 1962, pp. 57-71.
236. Vers Dunkerque (1712) : A.N., G[7], 1698, f° 64; vers le Portugal (1765) : A.N., F[12], f°s 143 *sq.*
237. Adam SMITH, *The Wealth of Nations*, 1937, p. 161.
238. E. ROZE, *Histoire de la pomme de terre*, 1898, p. 162.
239. J. BECKMANN, *Beiträge zur Oekonomie, op. cit.*, V, p. 280.
240. Ch. VANDERBROEKE, « Cultivation and consumption of the potato in the 17th and 18th Centuries », *in : Acta historiae neerlandica*, V, 1971, p. 35.
241. *Ibid.*, p. 21.
242. *Ibid.*, p. 35.
243. *Ibid.*, p. 28.
244. A. SMITH, *The Wealth of Nations*, éd. 1863, p. 35, cité par POLLARD and CROSSLEY, *op. cit.*, p. 157.
245. Louis SIMOND, *Voyage d'un Français en Angleterre pendant les années 1810 et 1811*, I, p. 160; je cite à tout hasard un petit détail (Gabriel SAGARD, *Le Grand Voyage du pays des Hurons*, 1976) : en 1623, le vaisseau qui l'emporte vers le Canada, saisit un petit navire anglais où il trouve un baril de patates « en forme de gros naveaux mais d'un goût beaucoup plus excellent » (p. 16).
246. G. F. GEMELLI CARELI, *op. cit.*, IV, p. 80.
247. LABAT, *Nouveau Voyage aux isles de l'Amérique*, 1722, I, p. 353.

248. G. F. GEMELLI CARRERI, *op. cit.*, VI, p. 25.
249. *Ibid.*, VI, p. 89.
250. Ester BOSERUP, *Évolution agraire et pression démographique*, 1970, pp. 23 *sq.*
251. P. Jean-François de ROME, *La Fondation de la mission des Capucins au Royaume de Congo*, trad. Bontinck, 1964, p. 89.
252. Otto von KOTZEBUE, *Reise um die Welt...*, *op. cit.*, I, pp. 70-71.
253. Pierre GOUROU, *L'Amérique tropicale et australe*, 1976, pp. 29-32.
254. *Ibid.*, p. 32.
255. J.-F. de ROME, *op. cit.*, p. 90.
256. Georges BALANDIER, *La Vie quotidienne au royaume de Kongo du XVIe au XVIIIe siècle*, 1965, pp. 77-78.
257. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, XII, p. 274.
258. Louis-Antoine de BOUGAINVILLE, *Voyage autour du monde*, éd. de 1958, p. 120.
259. James COOK, *Giornali di bordo*, I, 1971, pp. 123-124.
260. *Ibid.*, p. 164.
261. *Ibid.*, I, p. 109.
262. Abbé PRÉVOST, *Supplément des voyages*, XX, p. 126.
263. *Op. cit.*, XV, pp. 1 *sq.*
264. *Ibid.*, p. 87.

Notes du chapitre 3

1. John NEF, *La Guerre et le progrès humain*, 1954, pp. 24-25.
2. ÉRASME, *La Civilité morale des enfans*, 1613, p. 11.
3. Dr Jean CLAUDIAN, Rencontre internationale F.I.P.A.L., nov. 1964, *Rapport préliminaire*, p. 34.
4. L. A. CARACCIOLI, *Dictionnaire critique, pittoresque et sententieux, propre à faire connoître les usages du siècle, ainsi que ses bizarreries*, 1768, I, p. 24.
5. Gerónimo de UZTÁRIZ, *Theorîa y práctica de comercio y de marina*, 1724, pp. 348-349.
6. B. de LAFFEMAS, *Reiglement général pour dresser les manufactures en ce royaume...*, 1597, p. 17.
7. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 142 (voyage de du Halde).
8. L.-S. MERCIER, *L'An deux mille quatre cent quarante*, *op. cit.*, p. 368, note a.
9. Werner SOMBART, *Luxus und Kapitalismus*, 1922, p. 2.
10. Th. DOBZHANSKY, *L'Homme en évolution*, 1966, p. 369.
11. *Food in Chinese Culture*, p.p. K. C. CHANG, *op. cit.*
12. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, 1782, XI, pp. 345-346.
13. *Food in Chinese Culture*, *op. cit.*, pp. 15, 271, 280.
14. Ortensio LANDI, *Commentario delle più notabili e mostruose cose d'Italia*, s.d., pp. 5-6.
15. « Voyage de Jérôme Lippomano », *in : Relations des ambassadeurs vénitiens sur les affaires de France au XVIe siècle*, II, 1838, p. 605 (Collection des documents inédits sur l'Histoire de France).
16. A. FRANKLIN, *op. cit.*, III, p. 205.
17. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, V, p. 79.
18. A. CAILLOT, *Mémoires pour servir à l'histoire des mœurs et usages des Français*, 1827, II, p. 148.
19. L. A. CARACCIOLI, *Dictionnaire... sententieux...*, *op. cit.*, I, p. 349; III, p. 370; I, p. 47.
20. Marquis de PAULMY, *Précis d'une histoire générale de la vie privée des Français*, 1779, p. 23.
21. A. FRANKLIN, *op. cit.*, III, pp. 47-48.
22. *Le Ménagier de Paris, traité de morale et d'économie domestique composé vers 1393*, 1846, II, p. 93.
23. Michel de MONTAIGNE, *Journal de voyage en Italie*, éd. de la Pléiade, 1967, p. 1131.
24. RABELAIS, *Pantagruel*, liv. IV, ch. LIX et LX.
25. Philippe MANTELLIER, « Mémoire sur la valeur des principales denrées... qui se vendaient... en la ville d'Orléans », *in : Mémoires de la société archéologique de l'Orléanais*, 1862, p. 121.
26. *Gazette de France*, 1763, p. 385.
27. Hermann VAN DER WEE, « Typologie des crises et changements de structures aux Pays-Bas (XVe-XVIe siècles) », *in : Annales E.S.C.*, 1963, n° 1, p. 216.
28. W. ABEL, « Wandlungen des Fleischverbrauchs und der Fleischversorgung in Deutschland... », *in : Berichte über Landwirtschaft*, cit., p. 415.
29. *Voyage de Jerôme Lippomano*, *op. cit.*, p. 575.
30. THOINOT ARBEAU, *Orchésographie* (1588), éd. 1888, p. 24.
31. W. ABEL, *Crises agraires en Europe, XIIIe-XXe siècle*, *op. cit.*, p. 150.
32. Ugo TUCCI, « L'Ungheria e gli approvvigionamenti veneziani di bovini nel Cinquecento », *in : Studia Humanitatis*, 2; *Rapporti veneto-ungheresi all'epoca del Rinascimento*, 1975, pp. 153-171; A.d.S. Venise, Cinque Savii, 9, f° 162; *Histoire du commerce de Marseille*, III. *1481-1599*, par R. COLLIER et J. BILLIOUDE, 1951, pp. 144-145.
33. L. DELISLE, *Études sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie au Moyen Age*, 1851, p. 26.
34. E. LE ROY LADURIE, *Les Paysans de Languedoc*, 2e éd., 1966, I, pp. 177-179.
35. W. ABEL, art. cité, p. 430.
36. Noël du FAIL, *Propos rustiques et facétieux*, éd. 1856, p. 32.
37. G. de GOUBERVILLE, *Journal...*, 1892, p. 464.
38. C. HATON, *Mémoires...*, *op. cit.*, p. 279.
39. W. ABEL, *Crises agraires en Europe...*, *op. cit.*, pp. 198-200.
40. André PLAISSE, *La Baronnie du Neubourg*, 1961; Pierre CHAUNU, « Le Neubourg. Quatre siècles d'histoire normande, XIVe-XVIIIe », *in : Annales E.S.C.*, 1961, pp. 1152-1168.
41. R. GRANDAMY, « La grande régression. Hypothèse sur l'évolution des prix réels de 1375 à 1875 », *in : Prix de vente et prix de revient* (13e série), 1952, p. 52.
42. A. HUSSON, *Les Consommations de Paris*, *op. cit.*, p. 157; Jean-Claude TOUTAIN, *in : Histoire quantitative de l'économie française*, I, *Cahiers de l'I.S.E.A.*, 1961, pp. 164-165; LAVOISIER, « De la richesse de la France » et « Essai sur la population de la ville de Paris », *in : Mélanges d'économie politique*, I, 1966, pp. 597-598 et 602.
43. W. ABEL, *Crises agraires en Europe...*, *op. cit.*, pp. 353-354.

44. J. MILLERET, *De la réduction du droit sur le sel*, 1829, pp. 6 et 7.
45. Émile MIREAUX, *Une Province française au temps du Grand Roi, la Brie*, 1958, p. 131.
46. Michel MORINEAU, « Rations de marine (Angleterre, Hollande, Suède et Russie) », *in : Annales E.S.C.*, 1965.
47. Paul ZUMTHOR, *La Vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt*, 1959, pp. 88 *sq.*
48. L. LÉMERY, *op. cit.*, pp. 235-236.
49. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 540.
50. P. J. GROSLEY, *Londres*, 1770, I, p. 290.
51. *Mémoires de Mademoiselle de Montpensier*, éd. Cheruel, 1858-1859, III, p. 339.
52. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, X, pp. 128-129 (voyage de Tavernier).
53. R. de VIVERO, *op. cit.*, p. 269.
54. F. BERNIER, *Voyages...*, *op. cit.*, 1699, II, p. 252.
55. P. de LAS CORTES, doc. cité., p. 54.
56. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 474.
57. *Mémoires concernant l'histoire, les sciences, les arts, les mœurs des Chinois* par les missionnaires de Pékin, IV, 1779, pp. 321-322.
58. Ho SHIN-CHUN, *Le Roman des lettrés*, 1933, pp. 74, 162, 178.
59. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 107; P. de MAGAILLANS, *Nouvelle Relation de la Chine*, 1688 (écrite en 1668), pp. 177-178.
60. R. MANTRAN, *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, *op. cit.*, p. 196.
61. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, I, pp. 63-64.
62. *Ibid.*, V, p. 305.
63. R. BAEHREL, *Une Croissance : la Basse-Provence rurale...*, *op. cit.*, p. 173.
64. L. SIMOND, *Voyage d'un Français en Angleterre...*, *op. cit.*, II, p. 332.
65. L.-S. MERCIER, *op. cit.*, 1783, V, p. 77.
66. *Ibid.*, p. 79.
67. A. FRANKLIN, *op. cit.*, III, p. 139.
68. *Médit...*, I, p. 139.
69. L.-S. MERCIER, V, p. 252.
70. *Ibid.*, p. 85.
71. *Voyage de Jérôme Lippomano*, *op. cit.*, II, p. 609.
72. M. de MONTAIGNE, *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, p. 1118.
73. *Ibid.*, p. 1131.
74. Alfred FRANKLIN, *La Vie privée d'autrefois*. IX : *Variétés gastronomiques*, 1891, p. 60.
75. M. de MONTAIGNE, *Journal de voyage...*, p. 1136.
76. M. de MONTAIGNE, *Essais*, éd. de la Pléiade, 1962, pp. 1054 et 1077.
77. *Les Voyages du Seigneur de Villamont*, 1609, p. 473; *Coryate's Crudities*, (1611), éd. 1776, I, p. 107
78. Alfred FRANKLIN, *op. cit.*, I, *La civilité, l'étiquette et le bon ton*, 1908, pp. 289-291.
79. Alfred GOTTSCHALK, *Histoire de l'alimentation et de la gastronomie...*, 1948, II, pp. 168 et 184.
80. M. de MONTAIGNE, *Essais*, *op. cit.*, p. 1054.
81. C. DUCLOS, *Mémoires sur sa vie*, *in : Œuvres*, 1820, I, p. LXI.
82. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, II, p. 61.
83. J.-B. LABAT, *Nouvelle Relation de l'Afrique occidentale*, *op. cit.*, I, p. 282.
84. Baron de TOTT, *Mémoires*, I, 1784, p. 111.
85. Ch. GÉRARD, *L'Ancienne Alsace à table*, 1877, p. 299.
86. D'après les archives de Stockhalpen et Alain DUBOIS, *Die Salzversorgung des Wallis 1500-1610. Wirtschaft und Politik*, 1965, pp. 41-46.
87. Dr CLAUDIAN, Première conférence internationale F.I.P.A.L, 1964, rapport préliminaire, p. 39.
88. A. FRANKLIN, *La Vie privée d'autrefois, La cuisine*, *op. cit.*, pp. 32, 33, 90.
89. *Médit...*, I, p. 138 et note 1.
90. Archives des Bouches-du-Rhône, Amirauté de Marseille, B IX, 14.
91. J. SAVARY, *op. cit.*, II, col. 778.
92. L. LÉMERY, *op. cit.*, p. 301.
93. A.N., 315, AP 2, 47, Londres, 14 mars 1718.
94. G. F. GEMELLI CARERI, II, p. 77.
95. *Voyage... de M. de Guignes*, *op. cit.*, I, p. 378.
96. Patrick COLQUHOUN, *Traité sur la police de Londres*, 1807, I, 128.
97. Bartolomé PINHEIRO DA VEIGA, « La Corte de Felipe III », *in : Viajes de extranjeros por España y Portugal*, II, 1959, pp. 136-137.
98. L. LÉMERY, *op. cit.*, p. 295.
99. Antonio de BEATIS, *Voyage du cardinal d'Aragon... (1517-1518)*, p.p. Madeleine HAVARD DE LA MONTAGNE, 1913, p. 119.
100. J. SAVARY, *op. cit.*, V, col. 182; I, col. 465.
101. CARACCIOLI, *Dictionnaire... sentencieux*, *op. cit.*, I, p. 24.
102. Giuseppe PARENTI, *Prime Ricerche sulla rivoluzione dei prezzi in Firenze*, 1939, p. 120.
103. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, VI, p. 21.
104. *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, p. 1152.
105. MONTESQUIEU, *Voyages en Europe*, p. 282.
106. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, II, p. 475.
107. A. FRANKLIN, *op. cit.*, IX, *Variétés gastronomique*, 1891, p. 135.
108. Jacques ACCARIAS DE SÉRIONNE, *La Richesse de la Hollande*, 1778, I, pp. 14 et 192.
109. P. BOISSONNADE, « Le Mouvement commercial entre la France et les îles Britanniques au XVIe siècle », *in : Revue historique*, 1920, p. 8; H. BECHTEL, *op. cit.*, II, p. 53. Abandon des pêcheries de Schonen en 1473.
110. Bartolomé PINHEIRO DA VEIGA, *op. cit.*, pp. 137-138.
111. J. SAVARY, *op. cit.*, III, col. 1002 *sq.*; Ch. de LA MORANDIÈRE, *Histoire de la pêche française de la morue dans l'Amérique septentrionale*, 1962, 3 vol., I, pp. 145 *sq.*, sur la morue verte; pp. 161 *sq.*, sur la morue sèche
112. A.N., série K (restituée à l'Espagne), référence incomplète.
113. E. TROCMÉ et M. DELAFOSSE, *Le Commerce rochelais de la fin du XVe siècle au début du XVIIe*, 1952, pp. 17-18 et 120-123; J. SAVARY, *op. cit.*, III, col. 1000.
114. J. SAVARY, *op. cit.*, III, col. 997.
115. B.N., n.a., 9389, chevalier de Razilly à Richelieu, 26 nov. 1626.
116. A.N., A.E., B III, 442.
117. Paul DECHARME, *Le Comptoir d'un marchand au XVIIe siècle d'après une correspondance inédite*, 1910, pp. 99-110; N. DELAMARE, *Traité de police*, *op. cit.*, I, p. 607; Ch. de LA MORANDIÈRE, *op. cit.*, I, p. 1 : Les pêcheurs « disent couramment : j'ai pris de la morue à 25 pour mille, ce qui veut dire que mille de ces morues pèsent après salaison 25 quintaux (un quintal = 50 kg). La très belle donne 60 qx au mille, la moyenne 25 et la petite 10 qx ».
118. N. DELAMARE, *op. cit.*, III, 1722, p. 65.
119. Moscou, A.E.A., 7215-295, f° 28, Lisbonne, 15 mars 1791.
120. G. de UZTÁRIZ, *op. cit.*, II, p. 44.
121. N. DELAMARE, *op. cit.*, I, 1705, p. 574 (1603).

122. *Variétés*, *op. cit.*, I, 316.
123. A. Franklin, *La Vie privée d'autrefois*, III, *La Cuisine*, *op. cit.*, p. 19 et note. Ambroise Paré, *Œuvres*, 1607, p. 1065.
124. N. Delamare, *op. cit.*, III, 1719, p. 65.
125. J. Accarias de Sérionne, *La Richesse de la Hollande*, *op. cit.*, I, pp. 14 et 192.
126. Wanda Œsau, *Hamburgs Grönlandsfahrt auf Walfischfang und Robbenschlag vom 17-19 Jahrhundert*, 1955.
127. P. J.-B. Le Grand d'Aussy, *Histoire de la vie privée des Français*, *op. cit.*, II, p. 168.
128. Kamala Markaniaga, *Le Riz et la mousson*, 1956.
129. J. André, *Alimentation et cuisine à Rome*, *op. cit.*, pp. 207-211.
130. J. Savary, *op. cit.*, 1761, III, col. 704, On dit aussi maniguette et même maniquette. A.N., F^{12}, 70, f° 150.
131. Sempere y Galindo, *Historia del luxo y de las leyes suntuarias*, 1788, II, p. 2, note 1.
132. *Le Ménagier de Paris*, *op. cit.*, II, p. 125.
133. Gomez de Brito, *Historia tragico-maritima*, 1598, II, p. 416; Abbé Prévost, *op. cit.*, XIV, p. 314.
134. Dr Claudian, *Rapport préliminaire*, article cité, p. 37.
135. A.N., Marine B^7 463, f°s 65 *sq.*
136. Mably, *De la situation politique de la Pologne*, 1776, pp. 68-69.
137. Boileau, *Satires*, éd. Garnier-Flammarion, 1969, *Satire* III, pp. 62 *sq.*
138. K. Glamann, *Dutch-asiatic Trade, 1620-1740*, 1958, tableau n° 2, p. 14.
139. Ernst Ludwig Carl, *Traité de la richesse des princes et de leurs États et des moyens simples et naturels pour y parvenir*, 1722-1723, p. 236; John Nickolls, *Remarques sur les avantages et désavantages de la France et de la Grande-Bretagne*, *op. cit.*, p. 253.
140. K. Glamann, *op. cit.*, pp. 153-159. Le sucre de Chine disparaît du marché européen après 1661.
141. G. Macartney, *op. cit.*, II, p. 186.
142. A. Ortelius, *Théâtre de l'univers*, 1572, p. 2.
143. Alice Piffer Canabrava, *A industria do açucar nas ilhas inglesas e francesas do mar das Antilhas (1697-1755)*, 1946 (dactylogramme), ff. 12 *sq.*
144. Je me fie à mes lectures sur Chypre. Une énorme vente en 1464 porte sur 800 quintaux : L. de Mas-Latrie, *Histoire de l'Ile de Chypre*, III, 1854, pp. 88-90; le 12 mars 1463, la galère de trafego de Venise ne trouve aucun sucre à charger, preuve d'une production modique, A.d.S. Venise, Senato mar, 7, f° 107 v°.
145. Lord Sheffield, *Observations on the commerce of the American States*, 1783, p. 89.
146. Ces chiffres parisiens d'après Lavoisier *in :* R. Philippe, art. cit., tableau I, p. 569, et Armand Husson, *Les Consommations de Paris*, *op. cit.*, p. 330.
147. Pierre Belon, *Les Observations de plusieurs singularitez et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Égypte, Arabie et autres pays étranges*, 1553, pp. 106 et 191.
148. Abbé Raynal, *Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans les deux Indes*, 1775, III, p. 86.
149. W. Sombart, *Der Moderne Kapitalismus*, *op. cit.*, II^2, p. 1031.
150. J.-F. de Rome, *op. cit.*, p. 62.
151. M. Pringle, *Observations sur les maladies des armées, dans les camps et dans les prisons*, trad. fr., 1755, I, p. 6.
152. J. A. França, *Une Ville des Lumières : la Lisbonne de Pombal*, 1965, p. 48; Suzanne Chantal, *La Vie quotidienne au Portugal après le tremblement de terre de Lisbonne de 1755*, 1962, p. 232.
153. Jean Delumeau, *Vie économique et sociale de Rome dans la seconde moitié du XVIe siècle*, 1957, pp. 331-339; pour Gênes, cf. J. de Lalande, *Voyage en Italie*, VIII, pp. 494-495.
154. *Variétés*, II, p. 223, note 1.
155. J. Grosley, *Londres*, *op. cit.*, I, p. 138.
156. L.-S. Mercier, *L'An deux mille quatre cent quarante*, *op. cit.*, p. 41, note a.
157. L.-S. Mercier, *op. cit.*, VIII, 1783, p. 340.
158. B. Pinheiro da Veiga, *op. cit.*, p. 138.
159. *Food in Chinese Culture*, *op. cit.*, pp. 229-230.
160. *Ibid.*, p. 291.
161. B. Pinheiro, *op. cit.*, p. 138.
162. A.N., A.E., B 1, 890, 22 juin 1754.
163. Jean Bodin, *La Réponse... au Paradoxe de M. de Malestroit sur le faict des monnoyes*, 1568, f° 1 r°.
164. Comte de Rochechouart, *Souvenirs sur la Révolution, l'Empire et la Restauration*, 1889, p. 110.
165. Francis Drake, *Le Voyage curieux faict autour du monde...*, 1641, p. 32.
166. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, II, p. 103.
167. R. Hakluyt, *The Principal Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation*, 1599-1600, II, p. 98.
168. Jean d'Auton, *Histoire de Louys XII roy de France*, 1620, p. 12.
169. *Félix et Thomas Platter à Montpellier, 1552-1559 et 1595-1599, notes de voyage de deux étudiants bâlois*, 1892, pp. 48, 126.
170. *Médit...*, I, pp. 180 et 190.
171. Le Loyal Serviteur, *La Très Joyeuse et très Plaisante Histoire composée par le Loyal serviteur des faits, gestes, triomphes du bon chevalier Bayard*, p.p. J.-C. Buchon, 1872, p. 106.
172. J. Beckmann, *op. cit.*, V, p. 2. Selon un document de 1723, « depuis un certain tems que l'usage est venu de mettre les vins en flacons de gros verre, il s'est mis toutes sortes de gens à faire et vendre des bouchons de liège ». A.N., G7, 1706, f° 177.
173. *Histoire de Bordeaux*, p.p. Ch Higounet, III, 1966, pp. 102-103.
174. Archivo General de Simancas, Guerra antigua, XVI, Mondéjar à Charles Quint, 2 décembre 1539.
175. J. Savary, *op. cit.*, V, col. 1215-1216; *Encyclopédie*, 1765, XVII, p. 290, article « Vin ».
176. Gui Patin, *Lettres*, *op. cit.*, I, p. 211 (2 déc. 1650).
177. L.-S. Mercier, *op. cit.*, VIII, 1783, p. 225.
178. J. Savary, *op. cit.*, IV, col. 1222-1223.
179. L. A. Caraccioli, *op. cit.*, III, p. 112.
180. Bartolomé Bennassar, « L'alimentation d'une capitale espagnole au XVIe siècle : Valladolid », *in : Pour une histoire de l'alimentation*, p.p. J.-J. Hemardinquer, *op. cit.*, p. 57.
181. Roger Dion, *Histoire de la vigne et du vin en France*, 1959, pp. 505-511.
182. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, I, pp. 271-272.

183. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, VI, p. 387.
184. A. HUSSON, *op. cit.*, p. 214.
185. K. C. CHANG, *in : Food in Chinese Culture*, *op. cit.*, p. 30.
186. P. J.-B. LE GRAND D'AUSSY, *op. cit.*, II, p. 304.
187. *Ibid.*
188. *Storia della tecnologia*, p.p. Ch. SINGER *et altri*, 1962, II, p. 144.
189. *Ibid.*, pp. 144-145, et J. BECKMANN, *Beiträge zur Oekonomie*, 1781, V, p. 280.
190. G. Macaulay TREVELYAN, *History of England*, 1943, p. 287, note 1.
191. René PASSET, *L'Industrie dans la généralité de Bordeaux...*, 1954, pp. 24 *sq.*
192. *Histoire de Bordeaux*, p.p. Ch. HIGOUNET, *op. cit.*, IV, pp. 500 et 520.
193. P. J.-B. LE GRAND D'AUSSY, *op. cit.*, II, pp. 307-308.
194. *Ibid.*, II, p. 315.
195. A. HUSSON, *op. cit.*, pp. 212 et 218.
196. A.N., A.E., B[1], 757, 17 juillet 1687. Lettre de Bonrepaus à Seignelay.
197. A.N., Marine, B[7], 463, f° 75.
198. *Cf.* par exemple N. DELAMARE, *op. cit.*, II, pp. 975 et 976, ou l'Arrêt de la Cour du Parlement, de septembre 1740, pour l'interdiction en temps de disette.
199. *Vom Bierbrauen*, Erffurth, 1575.
200. Référence égarée.
201. ESTEBANILLO-GONZÁLEZ, « Vida y hechos », *in : La Novela picaresca española*, 1966, pp. 1779 et 1796.
202. M. GACHARD, *Retraite et mort de Charles Quint...*, *op. cit.*, II, p. 114 (1er février 1557).
203. André PLAISSE, *La Baronnie du Neubourg. Essai d'histoire agraire, économique et sociale*, 1961, p. 202; Jules SION, *Les Paysans de la Normandie orientale : étude géographique sur les populations rurales du Caux et du Bray, du Vexin normand et de la vallée de la seine*, 1909, p. 154.
204. J. SION, *ibid.*
205. René MUSSET, *Le Bas-Maine, étude géographique*, 1917, pp. 304-305.
206. A. HUSSON, *op. cit.*, pp. 214, 219, 221.
207. *Storia della tecnologia*, *op. cit.*, p. 145.
208. *Chroniques de Froissart*, éd. 1868, XII, pp. 43-44.
209. M. MALOUIN, *Traité de chimie*, 1735, p. 260.
210. *Storia della tecnologia*, *op. cit.*, II, p. 147, et Hans FOLG, *Wem der geprant Wein nutz sey oder schad...*, 1493, cité *ibid*, p. 147 et note 73.
211. Lucien SITTLER, *La Viticulture et le vin de Colmar à travers les siècles*, 1956.
212. R. PASSET, *op. cit.*, pp. 20-21.
213. *Bilanci generali*, 1912, I[1], p. LXXVIII.
214. J. SAVARY, *op. cit.*, V, col. 147-148.
215. Mémoire concernant l'Intendance des Trois Évêchés de Metz, Toul et Verdun, 1698, B.N., Ms. fr. 4285, f° 41 v° 42.
216. Guillaume GÉRAUD-PARRACHA, *Le Commerce des vins et des eaux de vie en Languedoc sous l'Ancien Régime*, 1958, pp. 298 et 306-307.
217. *Ibid.*, p. 72.
218. *Storia della tecnologia*, *op. cit.*, III, p. 12.
219. Jean GIRARDIN, *Notice biographique sur Édouard Adam*, 1856.
220. L. LÉMERY, *op. cit.*, p. 509.
221. J. PRINGLE, *Observations sur les maladies des armées...*, *op. cit.*, II, p. 131; I, pp. 14, 134-135, 327-328.
222. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, II, pp. 19 *sq.*
223. L. LÉMERY, *op. cit.*, p. 512.
224. Gui PATIN, *Lettres*, *op. cit.*, I, p. 305.
225. AUDIGER, *La Maison réglée*, 1692.
226. J. SAVARY, *op. cit.*, II, col. 216-217.
227. En 1710, les syndics du commerce de Normandie protestent contre un arrêt interdisant toute eau-de-vie qui ne serait pas de vin. A.N., G[7], 1695, f° 192.
228. D'après N. DELAMARE, *op. cit.*, 1710, p. 975, et LE POTTIER DE LA HESTROY, A.N., G[7], 1687, f° 18 (1704), cette « invention » daterait du XVIe siècle.
229. J. SAVARY, *op. cit.*, II, col. 208 (article « eau-de-vie »).
230. J. de LÉRY, *Histoire d'un voyage faict en la terre du Brésil*, 1580, p. 124.
231. P. Diego de HAEDO, *Topographia e historia general de Argel*, 1612, f° 38.
232. J. A. de MANDELSLO, *op. cit.*, II, p. 122.
233. E. KÄMPFER, *op. cit.*, III, pp. 7-8 et I, p. 72.
234. *Mémoires concernant l'histoire, les sciences, les mœurs, les usages, etc. des Chinois*, par les Missionnaires de Pékin, V, 1780, pp. 467-474, 478.
235. G. MACARTNEY, *op. cit.*, II, p. 185.
236. Abbé PRÉVOST, *Histoire générale des voyages*, XVIII, 1768, pp. 334-335.
237. D'après les indications de mon collègue et ami Ali MAZAHERI.
238. *Food in Chinese Culture*, p.p. K. C. CHANG, *op. cit.*, pp. 122, 156, 202.
239. Note manuscrite d'Alvaro Jara.
240. Référence égarée.
241. Mémoires de Mademoiselle de Montpensier, cité par A. FRANKLIN, *La Vie privée d'autrefois, le café, le thé, le chocolat*, 1893, pp. 166-167.
242. Bonaventure d'ARGONNNE, *Mélanges d'histoire et de littérature*, 1725, I, p. 4.
243. Lettres des 11 février, 15 avril, 13 mai, 25 octobre 1671, 15 janvier 1672.
244. A. FRANKLIN, *op. cit.*, p. 171.
245. Archives d'Amsterdam, Koopmansarchief, Aron Colace l'Aîné.
246. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, I, p. 140.
247. L. DERMIGNY, *op. cit.*, I, p. 379.
248. Gui PATIN, *Lettres*, I, p. 383, et II, p. 360.
249. Samuel PEPYS, *Journal*, éd. 1937, I, p. 50.
250. L. DERMIGNY, *op. cit.*, I, p. 381.
251. A. FRANKLIN, *op. cit.*, pp. 122-124.
252. L. DERMIGNY, *La Chine et l'Occident. Le commerce à Canton...*, *op. cit.*, album annexe, tableaux 4 et 5.
253. G. MACARTNEY, *op. cit.*, I, pp. 30-31 et IV, p. 227.
254. S. POLLARD et D. CROSSLEY, *The Wealth of Britain*, *op. cit.*, p. 166.
255. G. MACARTNEY, *op. cit.*, IV, p. 218; L. DERMIGNY, *op. cit.*, II, pp. 596 *sq.*
256. Archives de Leningrad, référence exacte égarée.
257. *Food in Chinese Culture*, *op. cit.*, pp. 70 et 122.
258. Pierre GOUROU, *L'Asie*, *op. cit.*, p. 133.
259. Cité par J. SAVARY, *op. cit.*, IV, col. 992.
260. G. MACARTNEY, *op. cit.*, II, p. 56.
261. J. SAVARY, *op. cit.*, IV, col. 993.
262. Référence exacte égarée. Remarque analogue chez J. BARROW, III, 1805, p. 57.
263. P. de LAS CORTES, document cité.
264. J. SAVARY, *op. cit.*, IV, col. 993.
265. G. de UZTÁRIZ, *op. cit.*, trad. fr., 1753, II, p. 90.

266. Les détails qui suivent d'après Antoine GALLAND, *De l'origine et du progrez du café. Sur un manuscrit [arabe] de la Bibliothèque du Roy*, 1699; Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, X, pp. 304 *sq.*
267. J.-B. TAVERNIER, *op. cit.*, II, p. 249.
268. *De plantis Aegypti liber*, 1592, chap. XVI.
269. Pietro della VALLE, *Les Fameux Voyages...*, 1670, I, p. 78.
270. Selon le témoignage de son fils, Jean de LA ROQUE, *Le Voyage de l'Arabie heureuse*, 1716, p. 364.
271. A. FRANKLIN, *La Vie privée d'autrefois, le café, le thé, le chocolat*, *op. cit.* p. 33.
272. *Ibid.*, p. 22.
273. *Ibid.*, p. 36.
274. *De l'usage du caphé, du thé et du chocolate*, anonyme, 1671, p. 23.
275. A. FRANKLIN, *op. cit.*, pp. 45 et 248.
276. Pour tout le paragraphe qui suit, cf. Jean LECLANT, « Le café et les cafés à Paris (1644-1693) », *in : Annales E.S.C.*, 1951, pp. 1-14.
277. A. FRANKLIN, *op. cit.*, p. 255.
278. Suzanne CHANTAL, *La Vie quotidienne au Portugal...*, *op. cit.*, p. 256.
279. P. J.-B. LE GRAND D'AUSSY, *op. cit.*, III, pp. 125-126.
280. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, IV, p. 154.
281. Gaston MARTIN, *Nantes au XVIIIe siècle. L'ère des négriers, 1714-1774*, 1931, p. 138.
282. Pierre-François-Xavier de CHARLEVOIX, *Histoire de l'Isle Espagnole ou de S. Domingue*, 1731, II, p. 490.
283. *Dictionnaire du commerce et des marchandises*, p.p. M. GUILLAUMIN, 1841, I, p. 409;
284. Sur des diverses qualités de café, voir correspondance d'Aron Colace, Gemeemte Archief Amsterdam, *passim*, années 1751-1752.
285. M. MORINEAU, « Trois contributions au colloque de Göttingen », *in De l'Ancien Régime à la Révolution française*, p.p. A. CREMER, 1978, pp. 408-409.
286. R. PARIS, *in : Histoire du commerce de Marseille*, dir. par G. RAMBERT, V, 1957, pp. 559-561.
287. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, I, pp. 228-229.
288. *Journal de Barbier*, p.p. A. de LA VIGEVILLE, 29 novembre 1721.
289. Cité par Isaac de PINTO, *Traité de la circulation et du crédit*, 1771, p. 5.
290. L.-S. MERCIER, *L'An deux mille quatre cent quarante*, *op. cit.*, p. 359.
291. A.d.S. Venise, Cinque Savii, 9, 257 (1693).
292. Jules MICHELET, *Histoire de France*, 1877, XVII, pp. 171-174.
293. L. LEMERY, *op. cit.*, pp. 476, 479.
294. André THEVET, *Les Singularitez de la France antarctique*, 1558, p.p. P. GAFFAREL, 1878, pp. 157-159.
295. *Storia della tecnologia*, *op. cit.*, III, p. 9.
296. L. DERMIGNY, *op. cit.*, III, 1964, p. 1252.
297. D'après Joan THIRSK, communication inédite, Semaine de Prato, 1979.
298. Le mot dans A. THEVET, *op. cit.*, p. 158.
299. J. SAVARY, *op. cit.*, V, col. 1363.
300. *Mémoire* de M. de MONSÉGUR (1708), B.N., Ms. fr. 24 228, f° 206; Luigi BULFERETTI et Claudio COSTANTINI, *Industria e commercio in Liguria nell'età del Risorgimento (1700-1861)*, 1966, pp. 418-419 : Jérôme de LA LANDE, *Voyage en Italie...*, 1786, IX, p. 367.
301. George SAND, *Lettres d'un voyageur*, éd. Garnier-Flammarion, p. 76; *Petite Anthologie de la cigarette*, 1949, pp. 20-21.
302. L. DERMIGNY, *op. cit.*, III, p. 1253.
303. Cité par L. DERMIGNY, *ibid.*, III, p. 1253.
304. *Ibid.*, note 6.
305. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 536 (voyage de Hamel, 1668).
306. Suzanne CHANTAL, *La Vie quotidienne au Portugal...*, *op. cit.*, p. 256.
307. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 547.
308. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, XIV, p. 482.
309. Cf. *infra*, III, p. 379.

Notes du chapitre 4

1. P. GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730...*, *op. cit.*, p. 230.
2. Bartolomé BENNASSAR, *Valladolid au Siècle d'or. Une ville de Castille et sa campagne au XVIe siècle*, 1967, pp. 147-151.
3. Jean-Baptiste TAVERNIER, *Les Six Voyages...*, 1682, I, p. 350.
4. Souvenir et photographie personnels.
5. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, II, p. 15.
6. S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, I, p. 21, et II, p. 281.
7. *Ibid.*, IV, p. 149.
8. E. J. F. BARBIER, *Journal historique et anecdotique du règne de Louis XV*, *op. cit.*, I, p. 4.
9. Gaston ROUPNEL, *La Ville et la campagne au XVIIe siècle*, 1955, p. 115.
10. X. de PLANHOL, « Excursion de géographie agraire. IIIe partie : la Lorraine méridionale », *in : Géographie et histoire agraires, actes du colloque international de l'Université de Nancy, Mémoire n° 21*, 1959, pp. 35-36.
11. F. VERMALE, *op. cit.*, pp. 287-288 et notes.
12. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 159.
13. René TRESSE, « La fabrication des faux en France », *in : Annales E.S.C.*, 1955, p. 356.
14. A. de MAYERBERG, *Relation d'un voyage en Moscovie*, 1688, p. 105.
15. M. de GUIGNES, *op. cit.*, II, pp. 174-175.
16. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 24.
17. *Ibid.*, p. 26.
18. *Ibid.*, pp. 69-70.
19. A. de MAYERBERG, *op. cit.*, pp. 105-106.
20. *La Pologne au XVIIIe siècle par un précepteur français, Hubert Vautrin*, p.p. Maria CHOLEWO-FLANDIN, 1966, pp. 80-81.
21. J. A. de MANDELSLO, 1659, *op. cit.*, II, p. 270.
22. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 260; M. de GUIGNES, *Voyage à Péking...*, 1808, II, pp. 11, 180 et *passim*.
23. L. S. YANG, *Les Aspects économiques des travaux publics dans la Chine impériale*, 1964, p. 38.
24. Pierre CLÉMENT, Sophie CHARPENTIER, *L'Habitation Lao, dans les régions de Vientiane et de Louang-Prabang*, 1975.
25. *Voyage du Chevalier Chardin en Perse*, 1811, IV, pp. 111 *sq.*

26. Noël du Fail, *op. cit.*, pp. 116-118.
27. Johann Gottlieb Georgi, *Versuch einer Beschreibung der Russisch Kayserlichen Residenzstadt St Petersburg...*, 1790, pp. 555-556.
28. Hermann Kolesch, *Deutsches Bauerntum im Elsass. Erbe und Verpflichtung*, 1941, p. 18. « Lorsqu'un tenancier voudra construire sa maison, il recensera 5 *Hölzer* (troncs) dont un linteau, une sablière, une panne faîtière et deux poinçons. »
29. F. Vermale, *op. cit.*, p. 253.
30. Romain Baron, « La bourgeoisie de Varzy au xviie siècle », *in : Annales de Bourgogne*, juil.-sept. 1964, p. 191.
31. *Archéologie du village déserté*, 2 vol., Cahiers des Annales no 27, 1970.
32. X. de Planhol et J. Schneider, « Excursion en Lorraine septentrionale, villages et terroirs lorrains », *in : Géographie et histoire agraires, actes du colloque international de l'Université de Nancy, Mémoire no 21*, 1959, p. 39.
33. Docteur Louis Merle, *La Métairie et l'évolution agraire de la Gâtine poitevine*, 1958, chap. III, pp. 75 *sq.*
34. *Ricerche sulle dimore rurali in Italia*, p.p. Centro di Studi per la geographia etnologica, Université de Florence, à partir de 1938.
35. Henri Raulin — *La Savoie* (1977), premier volume de la collection de *L'Architecture rurale française. Corpus des genres, des types et des variantes*, collection qui reprendra les données d'une enquête inédite affectuée entre 1942 et 1945, sous la direction de P. L. Duchartre et G. H. Rivière.
36. O. Baldacci, *La Casa rurale in Sardegna*, 1952, no 9 des *Ricerche sulle dimore rurali*, collection citée.
37. C. Saibene, *La Casa rurale nella pianura e nella collina lombarda*, 1955; P. Vilar, *La Catalogne et l'Espagne...*, *op. cit.*, II.
38. Jacques Hilairet, *Dictionnaire historique des rues de Paris*, 6e éd., 1963, I, pp. 453-454, 553-554, 131.
39. Madeleine Jurgens et Pierre Couperie, « Le logement à Paris aux xvie et xviie siècles », *in : Annales E.S.C.*, 1962.
40. Pour tout ce qui précède, S. Mercier, *op. cit.*, I, pp. 11 et 270.
41. P. Goubert, *op. cit.*, p. 230, note 34.
42. G. Roupnel, *op. cit.*, pp. 114-115.
43. P. Zumthor, *La Vie quotidienne en Hollande...*, *op. cit.*, pp. 55-56.
44. Lewis Mumford, *La Cité à travers l'histoire*, 1964, pp. 485-486.
45. Peter Laslett, *Un monde que nous avons perdu*, *op. cit.*, pp. 7-8.
46. Louis Dermigny, *Les Mémoires de Charles de Constant sur le commerce à la Chine*, 1964, p. 145, et M. de Guignes, *op. cit.*, III, p. 51.
47. S. Pollard and D. Crossley, *The Wealth of Britain*, pp. 97 *sq;* M. W. Barley, *in : The Agrarian History of England and Wales*, p.p. Joan Thirsk, IV, 1967, pp. 745 *sq.*
48. Marc Venard, *Bourgeois et paysans au XVIIe siècle. Recherches sur le rôle des bourgeois parisiens dans la vie agricole au sud de Paris*, 1957.
49. William Watts, *The Seats of the Nobility and Gentry in a collection of the most interesting and picturesque views...*, 1779.
50. Fynes Moryson, *An Itinerary*, 1617, I, p. 265.
51. Bernardo Gomes de Brito, *Historia tragicomaritima*, VIII, 1905, p. 74.
52. Bernardino de Escalante, *Primeira Historia de China* (1577), 1958, p. 37.
53. Abbé Prévost, *op. cit.*, V, pp. 507-508 (voyage de Isbrand Ides, 1693).
54. *Mémoires...*, par les missionnaires de Pékin, *op. cit.*, II, 1777, pp. 648-649.
55. M. Gonon, *La Vie quotidienne en Lyonnais d'après les testaments, XIVe-XVIe siècles*, 1968, p. 68.
56. P. de Saint-Jacob, *op. cit.*, pp. 553, 159.
57. *Le Guide du pèlerin de Saint-Jacques de Compostelle*, p.p. Jeanne Vielliard, 1963, p. 29.
58. *Ordonnance de Louis XIV ... sur le fait des eaux et forests, 13 août 1669*, 1703, p. 146.
59. Daniel Defoe, *Journal de l'année de la peste*, p.p. J. Aynard, 1943, pp. 115 *sq.*
60. *Médit...*, I, p. 415.
61. *Ibid.*, I, p. 234.
62. Cité par Louis Cardaillac, *Morisques et chrétiens. Un affrontement polémique*, 1977, p. 388.
63. Au témoignage de Branislava Tenenti, chef de travaux à l'École des Hautes-Études.
64. Pierre Daniel Huet, *Mémoire touchant le négoce et la navigation des Hollandais... en 1699*, p.p. P. J. Block, 1903, p. 243.
65. Osman Aga, *Journal*, publié par R. Kreutel et Otto Spies, sous le titre : *Der Gefangene der Giaueren*, 1962, p. 150.
66. Rodrigo de Vivero, *Du Japon et du bon gouvernement de l'Espagne et des Indes*, p.p. Juliette Monbeig, *op. cit.*, p. 180.
67. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, II, p. 17.
68. *Le Japon du XVIIIe siècle vu par un botaniste suédois*, p.p. Claude Gaudon, 1966, pp. 241-242.
69. M. de Guignes, *op. cit.*, II, p. 178.
70. Chardin, *op. cit.*, IV, p. 120.
71. *Ibid.*, IV, pp. 19-20.
72. Arménag Sakisian, « Abdal Khan, seigneur kurde de Bitlis au xviie siècle et ses trésors », *in : Journal asiatique*, avril-juin 1937, pp. 255-267.
73. Le mot « biologie », qui a paru exagéré à certains de mes critiques, n'est évidemment pas à prendre au sens propre. Mais tout *adulte* européen est incapable, sans un vrai réapprentissage, de rester des heures assis en tailleur (Chardin, qui vécut dix ans en Perse, finit par s'y accoutumer et s'en trouver bien). La réciproque est vraie : des Indiens ou des Japonais me confiaient que, subrepticement, dans un cinéma de Paris, ils ramenaient leurs jambes sur leur fauteuil, dans la position qui leur est seule confortable.
74. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, I, p. 257.
75. John Barrow, *Voyage en Chine*, 1805, I, p. 150.
76. M. de Guignes, *op. cit.*, 1795, I, p. 377.
77. Marie-Loup Sougez, *Styles d'Europe : Espagne*, 1961, pp. 5-7.
78. J'emploie ce mot généralement pour désigner un niveau inférieur à celui des « civilisations ».
79. J.-B. Labat, *op. cit.*, II, pp. 327-328.
80. Gilberto Freyre, *Casa Grande e Senzala*, 1933; *Sobrados e Mucambos*, 1936.
81. J.-B. Labat, *op. cit.*, IV, p. 380.
82. C. Oulmont, *La Maison*, 1929, p. 10.
83. Henri Havard, *Dictionnaire de l'ameublement et de la décoration...*, 1890, IV, p. 345; J. Wilhelm, *La Vie quotidienne au Marais, au XVIIe siècle*, 1966, pp. 65-66.
84. A. Franklin, *op. cit.*, IX : *Variétés gastronomiques*, p. 16.
85. *Ibid.*, p. 19.

86. N.-A. de La Framboisière, *Œuvres...*, 1613, I, p. 115.
87. J. Savary, *op. cit.*, IV (1762), col. 903.
88. *Ibid.*, II (1760), col. 114.
89. William Harrison, « An historical Description of the Iland of Britaine », *in :* R. Holinshed, *Chronicles of England, Scotland and Ireland*, 1901, I, p. 357.
90. M. de Montaigne, *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, p. 1154.
91. S. Pollard et D. Crossley, *Wealth of Britain...*, *op. cit.*, pp. 98 et 112.
92. M. Gachard, *Retraite et mort de Charles Quint*, *op. cit.*, II, p. 11.
93. M. de Montaigne, *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, p. 1129.
94. Élie Brackenhoffer, *Voyage en France 1643-1644*, 1927, p. 143.
95. British Museum, Ms. Sloane, 42.
96. É. Brackenhoffer, *op. cit.*, p. 10.
97. Marquis de Paulmy, *op. cit.*, p. 132.
98. *Encyclopédie populaire serbo - croato - slovène*, 1925-1929, III, p. 447. Je dois ces renseignements, entre autres, à la collaboration de Madame Branislava Tenenti.
99. M. de Montaigne, *Journal de voyage en Italie*, *op cit.*, p. 1130.
100. Edmond Maffei, *Le Mobilier civil en Belgique au Moyen Age*, s.d., pp. 45-46.
101. Pour le paragraphe qui précède, *ibid.*, pp. 48 et 49.
102. Charles Morazé, *in : Éventail de l'histoire vivante*, 1953, Mélanges Lucien Febvre I, p. 90.
103. La Palatine, cité par le Docteur Cabanès, *Mœurs intimes du passé*, 1re série, 1958, pp. 44 et 46.
104. Ch. Morazé, art. cit., pp. 90-92.
105. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, XII, p. 336.
106. Référence égarée.
107. Cité par Cabanès, *op. cit.*, p. 32.
108. Montaigne, *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, pp. 1130-1132.
109. É. Brackenhoffer, *op. cit.*, p. 53.
110. Cité par Cabanès, *op. cit.*, p. 32.
111. *Ibid.*, p. 35.
112. B.N., Ms. fr. n.a. 6277, f° 222 (1585).
113. Cabanès, *op. cit.*, p. 37 et note.
114. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, XII, p. 335.
115. *Ibid.*, X, p. 303.
116. Comtesse d'Aulnoy, *La Cour et la ville de Madrid; relation du voyage d'Espagne*, éd. Plon, 1874-1876, p. 487.
117. A. Wolf, *A History of Science, Technology and Philosophy in the 18th Century*, 1952, pp. 547-549.
118. *Storia della tecnologia*, p.p. C. Singer et al., *op. cit.*, II, p. 653.
119. E. Maffei, *op. cit.*, p. 5; J. Savary, *op. cit.*, III, col. 840 et II, col. 224.
120. E. Maffei, *ibid.*, p. 4.
121. André G. Haudricourt, « Contribution à l'étude du moteur humain », *in : Annales d'histoire sociale*, avril 1940, p. 131.
122. E. Maffei, *op. cit.*, pp. 14 *sq.*
123. *Ibid.*, pp. 27-28.
124. Cité par A. Franklin, *op. cit.*, IX : *Variétés gastronomiques*, pp. 8 et 9.
125. E. Maffei, *op. cit.*, p. 36.
126. Ch. Oulmont, *La Maison*, *op. cit.*, p. 68.
127. C'est le sens du beau livre de Mario Praz (*La Filosofia dell'arredemento*, 1964). Je m'y suis référé largement pour les deux pages qui suivent.
128. Princesse Palatine, *Lettres*, éd. 1964, p. 353, lettre du 14 avril 1719.
129. Un hôtel place Vendôme coûte en 1751, 104 000 livres; en 1788, un hôtel de la rue du Temple, 432 000 livres. Ceci pour le gros œuvre seulement. Ch. Oulmont, *La Maison*, *op. cit.*, p. 5.
130. *Ibid.*, p. 30.
131. *Ibid.*, p. 31.
132. L. Mumford, *La Cité à travers l'histoire*, *op. cit.*, p. 487.
133. Gudin, *Aux mânes de Louis XV*, cité par Ch. Oulmont, *op. cit.*, p. 8.
134. *Ibid.*, p. 9.
135. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, II, p. 185.
136. Anonyme, *Dialogues sur la peinture*, cité par Ch. Oulmont, *op. cit.*, p. 9.
137. M. Praz, *La Filosofia dell'arredamento*, *op. cit.*, pp. 62-63, et 148.
138. Cité par M. Praz, *ibid.*, p. 146.
139. L. Mumford, *op. cit.*, p. 488.
140. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, V, p. 22 et VII, p. 225.
141. Eugène Viollet-le-Duc, *Dictionnaire raisonné d'archéologie française du XIe au XVIe siècle*, 1854-1868, VI, p. 163.
142. G. Caster, *Le Commerce du pastel et de l'épicerie à Toulouse, 1450-1561*, *op. cit.*, p. 309.
143. *Journal d'un curé de campagne au XVIIe siècle*, p.p. H. Platelle, 1965, p. 114.
144. Marquise de Sévigné, *Lettres*, éd. 1818, VII, p. 386.
145. G. Macartney, *op. cit.*, III, p. 353.
146. J. Sion, *Asie des moussons*, *op. cit.*, p. 215.
147. K. M. Panikkar, *Histoire de l'Inde*, 1958, p. 257.
148. Mouradj d'Ohsson, *Tableau général de l'Empire ottoman*, cité par Georges Marçais, *Le Costume musulman d'Alger*, 1930, p. 91.
149. G. Marçais, *ibid.*, p. 91.
150. P. de Magaillans, *Nouvelle Relation de la Chine*, *op. cit.*, p. 175.
151. R. de Vivero, *op. cit.*, p. 235.
152. Volney, *Voyage en Syrie et en Égypte pendant les années 1783, 1784 et 1785*, 1787, I, p. 3.
153. J.-B. Labat, *op. cit.*, I, p. 268.
154. Jean-Baptiste Say, *Cours complet d'économie politique pratique*, V, 1829, p. 108.
155. Abbé Marc Berthet, « Études historiques, économiques, sociales des Rousses », *in : A travers les villages du Jura*, 1963, p. 263.
156. Moheau, *op. cit.*, p. 262.
157. *Ibid.*, pp. 261-262.
158. P. de Saint-Jacob, *op. cit.*, p. 542.
159. Luigi dal Pane, *Storia del lavoro in Italia*, 1958, p. 490.
160. *Voyage de Jérôme Lippomano*, *op. cit.*, II, p. 557.
161. Orderic Vital, *Historiae ecclesiasticae libri tredecim*, 1845, III, p. 324.
162. Ary Renan, *Le Costume en France*, s.d., pp. 107-108.
163. François Boucher, *Histoire du costume en Occident*, 1965, p. 192.
164. Jacob van Klaveren, *Europäische Wirtschaftsgeschichte Spaniens im 16 und 17 Jahrhundert*, 1960, cf. « mode » à l'index et p. 160 note 142; *Viajes de extranjeros por España*, *op. cit.*, II, p. 427.

165. Amédée FRÉZIER, *Relation du voyage de la mer du Sud*, 1716, p. 237.
166. ESTEBANILLO-GONZÁLEZ, *Vida y hechos...*, *in : La Novela picaresca española, op. cit.*, p. 1812.
167. Les *zocoli* sont des chaussures à très hautes semelles de bois, assez décolletées, qui isolaient du sol humide les promeneuses vénitiennes.
168. Londres P.R.O. 30-25-157, Giornale autografo di Francesco Contarini da Venezia a Madrid.
169. S. LOCATELLI, *Voyage de France, mœurs et coutumes françaises, 1664-1665...*, 1905, p. 45.
170. M. T. JONES-DAVIES, *Un Peintre de la vie londonienne, Thomas Dekker*, 1958, I, p. 280.
171. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris, op. cit.*, I, pp. 166-167.
172. R. de VIVERO, *op. cit.*, p. 226.
173. *Voyage du chevalier Chardin..., op. cit.*, IV, p. 1.
174. *Ibid.*, IV, p. 89.
175. Jean-Paul MARANA, *Lettre d'un Sicilien à un de ses amis*, p.p. V. DUFOUR, 1883, p. 27.
176. Marquis de PAULMY, *op. cit.*, p. 211.
177. Ernst SCHULIN, *op. cit.*, p. 220.
178. CARLO PONI, « Compétition monopoliste, mode et capital : le marché international des tissus de soie au XVIIIe siècle », dactyl., communication au Colloque de Bellagio.
179. J.-P. MARANA, *op. cit.*, p. 25.
180. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris, op. cit.*, VII, p. 160.
181. J. SAVARY, *op. cit.*, V, col. 1262; Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 225.
182. P. de MAGALLIANS, *op. cit.*, p. 175.
183. *Ibid.*
184. L.-S. MERCIER, cité par A. GOTTSCHALK, *Histoire de l'alimentation..., op. cit.*, II, p. 266.
185. J.-J. RUTLIGE, *Essai sur le caractère et les mœurs des François comparées à celles des Anglois*, 1776, p. 35.
186. Docteur CABANÈS, *Mœurs intimes du passé, 2e série, La vie aux bains*, 1954, p. 159.
187. *Ibid.*, pp. 238-239.
188. *Ibid.*, pp. 284 *sq.*
189. *Ibid.*, pp. 332 *sq.*
190. Jacques PINSET et Yvonne DESLANDRES, *Histoire des soins de beauté*, 1960, p. 64.
191. Docteur CABANÈS, *op. cit.*, p. 368, note.
192. L. MUMFORD, *op. cit.*, p. 586.
193. L. A. CARACCIOLI, *op. cit.*, III, p. 126.
194. A. FRANKLIN, *Les Magasins de nouveautés*, II, pp. 82-90.
195. J. J. RUTLIGE, *op. cit.*, p. 165.
196. L. A. CARACCIOLI, *op. cit.*, III, pp. 217-218.
197. Pour les deux paragraphes qui suivent, cf. A. FANGÉ, *Mémoires pour servir à l'histoire de la barbe de l'homme*, 1774, pp. 99, 269, 103.
198. Marquis de PAULMY, *op. cit.*, p. 193.
199. M. PRAZ, *La Filosofia dell'arredamento, op. cit.*

Notes du chapitre 5

1. M. MAUSS, *Sociologie et anthropologie*, 1973, p. 371.
2. Marc BLOCH, « Problèmes d'histoire des techniques ». Compte rendu de : Commandant Richard LEFEBVRE DES NOËTTES, « L'Attelage, le cheval de selle à travers les âges. Contribution à l'histoire de l'esclavage », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1932, pp. 483-484.
3. G. LA ROËRIE, « Les transformations du gouvernail », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1935, pp. 564-583.
4. Lynn WHITE, « Cultural climates and technological advances in the Middle Ages », *in : Viator*, vol. II, 1971, p. 174.
5. De 1730 à 1787, une série d'arrêts du Parlement de Paris interdisent la substitution de la faux à la faucille : Robert BESNIER, *Cours de droit*, 1963-1964, p. 55. Voir aussi René TRESSE, *in : Annales, E.S.C.*, 1955, pp. 341-358.
6. Référence non retrouvée, peut-être s'agit-il d'une conférence de Pirenne.
7. Voir *infra*, III, pp. 491 *sq.*
8. Abbot P. USHER, *Historia de las invenciones mecànicas*, 1941, p. 280.
9. Cité par M. SORRE. *op. cit.*, II, p. 220.
10. Référence égarée.
11. E. LE ROY LADURIE, *Les Paysans de Languedoc, op. cit.*, I, p. 468.
12. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris, op. cit.*, IV, p. 30.
13. P. G. POINSOT, *L'Ami des cultivateurs, op. cit.*, II, pp. 39-41.
14. Mémoire de Paris Duverney, A.N., F^12^, 647-648 (proposition, en 1750, d'exempter de la taille « les terres cultivées à bras »).
15. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 368; Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, 126.
16. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, pp. 141, 148.
17. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 487.
18. *Ibid.*, p. 460.
19. Jacob BAXA, Guntwin BRUHNS, *Zucker im Leben der Völker*, 1967, p. 35. SONNERAT a donné des dessins assez précis de ces machines élémentaires : *Voyage aux Indes orientales et à la Chine*, 1782, I, p. 108 — Gravure 25, le moulin à huile.
20. *Mémoires...*, par les missionnaires de Pékin, *op. cit.*, 1977, II, p. 431.
21. Voyage de François BERNIER, *op. cit.*, 1699, II, p. 267.
22. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris, op. cit.*, VIII, p. 4.
23. A. de HUMBOLDT, *Essai politique sur le royaume de la Nouvelle Espagne, op. cit.*, II, p. 683.
24. A. de SAINT-HILAIRE, *op. cit.*, I, pp. 64 *sq.*
25. Nicolás SÁNCHEZ ALBORNOZ, *La Saca de mulas de Salta al Peru, 1778-1808*, publication de l'Universidad Nacional del Litoral, Santa Fe, Argentine, 1965, pp. 261-312.
26. CONCOLORCORVO, *Itinéraire de Buenos Aires à Lima*, 1962, introd. de Marcel Bataillon, p. 11.
27. *La Economía española según el censo de frutos y manufacturas de 1799*, 1960, pp. VIII et XVII.
28. N. Sánchez ALBORNOZ, *op. cit.*, p. 296.
29. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 251.
30. Émilienne DEMOUGEOT, « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *in : Annales E.S.C.*, 1960, n° 2, p. 244.
31. Xavier de PLANHOL, « Nomades et Pasteurs. I. Genèse et diffusion du nomadisme pastoral

dans l'Ancien Monde », *in : Revue géographique de l'Est*, n° 3, 1961, p. 295.
32. M. de GUIGNES, *op. cit.*, I, 1808, p. 355.
33. Henri PÉRÈS « Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara », *in : Mélanges... offerts à E.F. Gautier*, 1937, pp. 409-414.
34. Référence exacte non retrouvée. Sans doute A.N, A.E., B III. En tout cas remarques confirmées par J.-B. TAVERNIER, *op. cit.*, I, p. 108.
35. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, XI, p. 686.
36. *Libro de agricultura*, éd. de 1598, pp. 368 *sq.*
37. C. ESTIENNE et J. LIÉBAUT, *L'Agriculture et maison rustique*, 1564, f° 21.
38. *François Quesnay et la physiocratie*, *op. cit.*, II, pp. 431 *sq.*
39. B.N. Estampes, 1576 — cartes et plans, Ge D 16926 et 16937.
40. P. de LAS CORTES, document cité, British Museum, Londres.
41. J. de GUIGNES, *op. cit.*, III, p. 14.
42. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, pp. 212-213; J.-B. DU HALDE, *op. cit.*, II, p. 57.
43. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, pp. 53-54.
44. Abbé PRÉVOST, *Voyages...*, *op. cit.*, VII, p. 525 (Gerbillon).
45. Voir *infra*, II, p. 109.
46. *Médit...*, I, p. 427.
47. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VIII, pp. 263-264 (voyage de Pyrard, 1608).
48. *Les Six Voyages de Jean-Baptiste Tavernier*, *op. cit.*, II, p. 59.
49. Giovanni BOTERO, *Relationi universali*, Brescia, 1599, II, p. 31.
50. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, II, p. 72.
51. *Relazione di Gian Francesco Morosini, bailo a Costantinopoli*, 1585, *in : Le Relazioni degli ambasciatori veneti al Senato*, p.p. E. ALBÉRI, série III, vol. III, 1855, p. 305.
52. *Médit...*, I, p. 318.
53. Théophile GAUTIER, *Constantinople*, 1853, p. 166.
54. J. LECLERCQ, *De Mogador à Biskra, Maroc et Algérie*, 1881, p. 123.
55. A. BABEAU, *Le Village...*, *op. cit.*, pp. 308, 343-344.
56. Voir, sur ces achats en Angleterre, Irlande, Espagne, Algérie, Tunisie, Maroc, Arabie, Naples, Sardaigne, Danemark, Norvège, A.N., O1, cartons 896 à 900.
57. A.d.S. Mantoue, A° Gonzaga, Genova 757.
58. D'après mes souvenirs de lecture du fonds Mediceo, A.d.S. Florence.
59. J.-B.-H. LE COUTEULX DE CANTELEU, *Étude sur l'histoire du cheval arabe*, 1885, notamment pp. 33-34.
60. *Médit...*, I, p. 260.
61. Jules MICHELET, *Histoire de France*, éd. Rencontre, V, 1966, p. 114.
62. VASSELIEU, dit Nicolay, *Règlement général de l'artillerie...* 1613.
63. LAVOISIER, « De la richesse territoriale du royaume de France », *in : Collection des principaux économistes*, XIV, réimpression 1966, p. 595.
64. P. QUIQUERAN DE BEAUJEU, *La Provence louée*, 1614. La différence de prix s'exagère par la suite, avec la mise en culture des collines. En 1718, un mulet vaut le double d'un cheval. R. BAEHREL, *Une Croissance : la Basse-Provence rurale*, *op. cit.*, p. 173.
65. R. BAEHREL, *ibid.*, pp. 65-67.
66. LAVOISIER, *op. cit.*, p. 595; *Réflexions d'un citoyen-propriétaire*, 1792, B.N., Rp 8577.
67. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, I, p. 151; IV, p. 148.
68. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, III, pp. 300-301, 307-308.
69. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris op. cit.*, IX, pp. 1-2.
70. *Ibid.*, X, p. 72.
71. E. J. F. BARBIER, *op. cit.*, I, pp. 1-2.
72. L. MAKKAI, « Productivité et exploitation des sources d'énergie, XIIe-XVIIe », rapport inédit, *Semaine de Prato*, 1971.
73. Greffin AFFAGART, *Relation de Terre Sainte (1533-1534)*, p.p. J. CHAVANON, 1902, p. 20.
74. F. BRAUDEL, « Genève en 1603 », *in : Mélanges d'histoire... en hommage au professeur Anthony Babel*, 1963, p. 322.
75. Robert PHILIPPE, *Histoire et technologie*, dactylogramme, 1978, p. 189.
76. E. KÄMPFER, *op. cit.*, I, p. 10.
77. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, II, p. 621. Pour la Pologne, statistique non retrouvée. Chiffres incomplets dans T. RUTOWSKI, *L'Industrie des moulins en Galicie* (en polonais), 1886.
78. C'est d'ailleurs l'estimation de Vauban, *Projet d'une dime royale*, 1707, pp. 76-77.
79. L. MAKKAI, article cité.
80. *Storia della tecnologia*, II, *op. cit.*, pp. 625-627, et Jacques PAYEN, *Histoire des sources d'énergie*, 1966, p. 14.
81. Lynn WHITE, *Technologie médiévale*, 1969, p. 108.
82. CERVANTES, *Don Quichotte*, cité par L. WHITE, *ibid.*, p. 109; *Divine Comédie, Inferno*, XXXIV, *ibid.*, p. 109; *Divine Comédie, Inferno*, XXXIV, 6.
83. *Storia della tecnologia*, *op. cit.*, p. 630.
84. Pour les deux paragraphes qui suivent, *ibid.*, III, pp. 94 *sq.*
85. Modèle exposé au Deutsches Brotmuseum, à Ulm.
86. Ruggierro ROMANO, « Per una valutazione della flotta mercantile europea alla fine del secolo XVIII », *in : Studi in onore di Amintore Fanfani*, 1962, V, pp. 573-591.
87. Tous les calculs qui précèdent ont été faits avec les informations que m'a communiquées J.-J. HEMARDINQUER.
88. Maurice LOMBARD, *L'Islam dans sa première grandeur*, 1971, pp. 172 *sq.*
89. Bartolomeo CRESCENTIO, *Nautica mediterranea*, 1607, p. 7.
90. *Annuaire statistique de la Meuse pour l'An XII.*
91. Paul W. BAMFORD, *Forests and French Sea Power, 1660-1789*, 1956, pp. 69, 207-208 et *passim* pour données des deux paragraphes précédents.
92. François LEMAIRE, *Histoire et antiquités de la ville et duché d'Orléans*, 1645, p. 44; Michel DEVÈZE, *La Vie de la forêt française au XVIe siècle*, 2 vol., 1961.
93. J. SION, *Les Paysans de la Normandie orientale...*, *op. cit.*, éd. 1909, p. 191.
94. R. PHILIPPE, dactylogramme déjà cité, p. 17.
95. F. LÜTGE, *Deutsche Sozial-und Wirtschaftsgeschichte*, 1966, p. 335.
96. Bertrand GILLE, *Les Origines de la grande métallurgie en France*, 1947, pp. 69 et 74.
97. A. KECK, *in : Précis d'histoire des mines sur les territoires polonais* (en polonais), 1960, p. 105; Antonina KECKOWA, *Les Salines de la région de Cracovie, XVIe-XVIIIe siècles*, en polonais, résumé en allemand, 1969.

98. Pour le paragraphe qui précède, voir informations fournies par Micheline BAULANT, d'après les délibérations du Bureau de la Ville de Paris.
99. Michel DEVÈZE, rapport inédit, Semaine de Prato, 1972.
100. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, p. 163.
101. *Médit...*, I, pp. 112, 354, 158.
102. Thomas PLATTER, *op. cit.*, p. 204.
103. Antonio de GUEVARA, *Épistres dorées, morales et familières*, *in : Biblioteca de autores españoles*, 1850, XIII, p. 93.
104. B. L. C. JOHNSON, « L'influence des bassins houillers sur l'emplacement des usines à feu en Angleterre avant circa 1717 », *in : Annales de l'Est*, 1956, p. 220.
105. Référence non retrouvée.
106. Cité par S. MERCIER, *op. cit.*, VII, p. 147.
107. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 488.
108. *Dictionnaire du commerce et des marchandises*, p.p. M. GUILLAUMIN, 1841, I, p. 295.
109. J.-C. TOUTAIN, « Le produit de l'agriculture française de 1700 à 1958 : I, Estimation du produit au XVIIIe s. », *in: Cahiers de l'IS.E.A.*, juil. 1961, p. 134; LAVOISIER *op. cit.*, p. 603.
110. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, pp. 12-13.
111. *Médit...*, I, p. 200.
112. Guy THUILLIER, *Georges Dufaud et les débuts du grand capitalisme dans la métallurgie, en Nivernais au XIXe siècle*, 1959, p. 122 et références en note. D'autres exemples dans Louis TRENARD, *in : Charbon et Sciences humaines*, 1966, pp. 53 *sq.*
113. Max PRINET, « L'industrie du sel en Franche-Comté avant la conquête française », *in : Mémoires de la société d'émulation du Doubs*, 1897, pp. 199-200.
114. M. ROUFF, *Les Mines de charbon en France au XVIIIe siècle*, 1922, pp. 368-386 et 418.
115. Jean LEJEUNE,, *La Formation du capitalisme moderne dans la principauté de Liège au XVIe siècle*, 1939, pp. 172-176.
116. *Médit.*, I, 561.
117. J. NICKOLLS, *Remarques sur les avantages et les désavantages de la France et de la Grande-Bretagne*, *op. cit.*, p. 137.
118. *Ibid.*, p. 136.
119. Voir *infra*, III, pp. 490 *sq.*
120. John U. NEF, « Technology and civilization », *in : Studi in onore di Amintore Fanfani*, 1962, V, notamment pp. 487-491.
121. Ces calculs risqués et donc discutables. Tout le problème serait à reprendre d'après les suggestions de Jacques LACOSTE, « Rétrospective énergétique mondiale sur longue période (mythes et réalités) », *in : Informations et réflexions*, avril 1978, nº 1, qui s'appuie sur le livre de PUTNAM, *Energy in the future*. Il ne remet pas en cause le classement énergétique que je présente, mais 1) pense que l'énergie à la disposition des hommes de la période pré-industrielle a été plus considérable qu'on ne le dit, mais qu'elle est gaspillée par eux; 2) que la crise du bois amorcée dès le XVIe siècle est comparable, dans ses effets, à la crise du pétrole que nous traversons.
122. *Histoire générale des techniques*, p.p. M. DAUMAS, 1965, II, p. 251.
123. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 223.
124. Cf. *infra*, III, pp. 434 *sq.*
125. Lewis MORGAN, *Ancient Society*, 1877, p. 43.
126. Stefan KUROWSKI, *Historyczny proces wyrostu gospodarczego*, 1963.
127. E. WAGEMANN, *Economia mundial*, *op. cit.*, I, p. 127.
128. P. DEYON, *Amiens, capitale provinciale...*, *op. cit.*, p. 137.
129. Ferdinand TREMEL, *Das Handelsbuch des Judenburger Kaufmannes Clemens Körber, 1526-1548*, 1960.
130. A.-G. HAUDRICOURT, « La fonte en Chine : Comment la connaissance de la fonte de fer a pu venir de la Chine antique à l'Europe médiévale », *in : Métaux et civilisations*, II, 1946, pp. 37-41.
131. *Voyage du chevalier Chardin*, *op. cit.*, IV, p. 137.
132. N. T. BELAIEW, « Sur le " damas " oriental et les lames damassées », *in : Métaux et civilisations*, I, 1945, pp. 10-16.
133. A. MAZAHERI, « Le sabre contre l'épée ou l'origine chinoise de " l'acier au creuset ", » *in : Annales E.S.C.*, 1958.
134. J. W. GILLES, « Les fouilles aux emplacements des anciennes forges dans la région de la Sieg, de la Lahn et de la Dill », *in : Le Fer à travers les âges*, 1956 ; Augusta Hure, « Le fer et ses antiques exploitations dans le Senonais et le Jovinien », *in : Bulletin de la société des sciences historiques .... de l'Yonne*, 1933, p. 3; « Origine et formation du fer dans le Sénonais », *ibid.*, 1919, pp. 33 *sq.*; A. GOUDARD, « Note sur l'exploitation des gisements de scories de fer dans le département de l'Yonne », *in : Bul. de la Société d'archéologie de Sens*, 1936, pp. 151-188.
135. J. W. GILLES, art. cit.
136. J.-B. LABAT, *op. cit.*, II, p. 305.
137. *Histoire générale des techniques*, *op. cit.*, p.p. M. DAUMAS, II, pp. 56-57.
138. Ferdinand TREMEL, *Der Frühkapitalismus in Innerösterreich*, 1954, pp. 52 *sq.*
139. *Ibid.*, p. 53 et fig. 87.
140. Auguste BOUCHAYER, *Les Chartreux, maîtres de forges*, 1927.
141. B. GUENÉE, *Tribunaux et gens de justice dans le bailliage de Senlis à la fin du Moyen Age (vers 1380-vers 1550)*, *op. cit.*, p. 33, note 22.
142. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, III, p. 34; M. FRANÇOIS, « Note sur l'industrie sidérurgique... », *in : Mémoires de la société nationale des antiquaires de France*, 1945, p. 18.
143. Je n'ai pas retrouvé le document consulté à Venise (A.d. S. ou Museo Correr) qui indique l'effectif des ouvriers du fer. Bonnes descriptions de cette activité en 1527, 1562 et 1572, *in : Relazioni di rettori veneti in Terraferma*, XI, 1978, pp. 16-17, 78-80, 117.
144. Richard GASCON, *Grand commerce et vie urbaine au XVIe siècle ; Lyon et ses marchands*, 1971, pp. 133-134.
145. Eli HECKSCHER, « Un grand chapitre de l'histoire du fer : le monopole suédois », *in : Annales d'histoire économique et sociale*, 1932, pp. 131-133.
146. *Op. cit.*, tableau statistique hors texte.
147. Arturo UCCELLI, *Storia della tecnica*, 1945, p. 87.

Notes du chapitre 6

1. Aldo MIELI, *Panorama general de historia de la ciencia*, II, 1946, p. 238, note 16.
2. Carlo M. CIPOLLA, *Guns and sails in the early Phase of European Expansion 1400-1700*, 1965, p. 104.
3. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, II, p. 739.
4. Friedrich LÜTGE, *Deutsche Sozial-und Wirtschaftsgeschichte*, 1966, p. 209.
5. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, p. 739.
6. Lynn WHITE, *Medieval Technology and Social Change*, 1962, p. 101.
7. Jorge de EHINGEN, *Viage..., in : Viajes estranjeros por España y Portugal*, p.p. J. GARCÍA MENDOZA, 1952, p. 245.
8. C. M. CIPOLLA, *Guns and sails in the early phase of european expansion..., op. cit.*, pp. 106-107.
9. C. de RENNEVILLE, *Voyages..., op. cit.*, V, p. 43.
10. SANUDO, *op. cit.*, III, 170 *sq.*
11. Michel MOLLAT, *in : Histoire du Moyen Age*, éd. p. E. PERROY, *op. cit.*, p. 463.
12 et 13. Karl BRANDI, *Kaiser Karl V.*, 1937, p. 132.
14. W. SOMBART, *Krieg und Kapitalismus*, *op. cit.*, pp. 84-85.
15. *Chroniques de Froissart*, éd. 1888, VIII, pp. 37 *sq.*
16. SANUDO, *Diarii*, I, 1879, col. 1071-1072.
17. Ralph DAVIS, « Influences de l'Angleterre sur le déclin de Venise au XVIIe siècle », *in : Decadenza economica Veneziana nel secolo XVII*, 1957, pp. 214-215.
18. Mémoire du chevalier de Razilly au Cardinal de Richelieu, 26 novembre 1626, B.N., Ms. n.a., 9389, f° 66 v°.
19. Le Loyal Serviteur, *La Très Joyeuse et Très Plaisante Histoire... de Bayard*, *op. cit.*, éd. 1872, p. 280.
20. Blaise de MONLUC, *Commentaires*, éd. Pléiade, 1965, pp. 34, 46.
21. Pour les deux paragraphes qui précèdent, cf. W. SOMBART, *Krieg und Kapitalismus*, *op. cit.*, pp. 78 *sq.*
22. Miguel de CASTRO, *Vida del soldado español Miguel de Castro*, 1949, p. 511.
23. M. de MONTAIGNE, *Journal de voyage en Italie*, *op. cit.*, p. 1155.
24. *Médit...*, II, p. 167.
25. Rapport de Savorgnan de Brazza, pour les dernières années du XVIe siècle, soit à l'Archivio di Stato, soit au Museo Correr de Venise.
26. W. SOMBART, *op. cit.*, p. 88.
27. *Ibid.*, p. 93.
28. F. BREEDVELT van VEEN, *Louis de Geer 1587-1655* (en néerlandais), 1935, pp. 40 et 84.
29. Vers 1555 ? Ancienne série K des archives AN de Paris, transférées à Simancas.
30. *Médit...*, II, p. 168.
31. *Médit...*, II, p. 134.
32. P. de LAS CORTES, doc. cité.
33. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 374.
34. A. BLUM, *Les Origines du papier, de l'imprimerie et de la gravure*, 1935.
35. Lucien FEBVRE, H. J. MARTIN, *L'Apparition du livre*, 1971, pp. 41-42.
36. *Ibid.*, pp. 42 et 47.
37. *Ibid.*, p. 47.
38. *Ibid.*, p. 20.
39. *Ibid.*, p. 36.
40. T. F. CARTER, *The Invention of printing in China and its spread westward*, 1925, *passim*, et notamment pp. 211-218.
41. Loys LE ROY, *De la Vicissitude ou Variété des choses en l'Univers*, 1576, p. 100, cité par René ÉTIEMBLE, *Connaissons-nous la Chine ?*, 1964, p. 40.
42. L. FEBVRE, H. J. MARTIN, *op. cit.*, pp. 60 *sq.*, 72-93.
43. *Ibid.*, p. 134.
44. *Ibid.*, p. 15.
45. *Ibid.*, pp. 262 *sq.*
46. *Ibid.*, p. 368.
47. *Ibid.*, p. 301.
48. *Ibid.*, pp. 176-188.
49. Jean POUJADE, *La Route des Indes et ses navires*, 1946.
50. *Médit...*, I, p. 499.
51. La question reste discutable, ne serait-ce qu'aux yeux d'un spécialiste comme Paul Adam. Cependant, sur la fresque égyptienne qui représente l'expédition de la reine Hatchepsout au pays de Pount (en mer Rouge), j'ai été frappé de voir représentée, à côté des bateaux égyptiens aux voiles carrées, une petite barque *locale, avec une voile triangulaire.* Détail sur lequel j'ai cherché en vain un commentaire chez les égyptologues.
52. Voir *infra*, III, p. 93.
53. Richard HENNIG, *Terrae incognitae*, III, 1953, p. 122.
54. Littérature considérable sur le sujet depuis l'article de P. PELLIOT, « Les grands voyages maritimes chinois au début du XVe siècle », *in : T'oung Pao*, XXX, 1933, pp. 237-452.
55. Alexandre de HUMBOLDT, *Examen critique de l'histoire de la géographie du nouveau continent et des progrès de l'astronomie nautique aux quinzième et seizième siècles*, 1836, I, p. 337.
56. Jean BODIN, *La République*, 1576, p. 630.
57. Thomé CANO, *Arte para fabricar... naos de guerra y merchante*, 1611, p. 5 v°.
58. Laurent VITAL, *Premier Voyage de Charles Quint en Espagne*, 1881, pp. 279-283.
59. Musée Czartoryski, Cracovie, 35, f°s 35 et 55.
60. G. de MENDOZA, *Histoire du grand royaume de la Chine...*, 1606, p. 238.
61. R. de VIVERO, *op. cit.*, p. 194.
62. J.-B. du HALDE, *op. cit.*, II, p. 160.
63. J. BARROW, *Voyage en Chine*, *op. cit.*, I, p. 62.
64. G. MACARTNEY, *op. cit.*, II, pp. 74-75.
65. Jacques HEERS, *in :* « Les grandes voies maritimes dans le monde, XVe-XIXe siècles », *XIIe Congrès... d'histoire maritime*, 1965, p. 22.
66. R. de VIVERO, *op. cit.*, p. 22.
67. J. HEERS, *in :* « Les grandes voies maritimes... », art. cit., p. 22.
68. P. VIDAL DE LA BLACHE, *Principes de géographie humaine*, *op. cit.*, p. 266.
69. Joseph NEEDHAM, conférence en Sorbonne.
70. M. de GUIGNES, *Voyage à Peking...*, *op. cit.*, I, pp. 353-354.
71. Abbé PRÉVOST, *op. cit.*, VI, p. 170.
72. *Voyage du médecin J. Fries*, éd. par W. KIRCHNER, *op. cit.*, pp. 73-74.
73. CONCOLORCORVO, *op. cit.*, pp. 56-57.
74. *Ibid.*, p. 56.
75. *Voyage faict par moy Pierre Lescalopier* publié,

partiellement par E. CLÉRAY, *in : Revue d'histoire diplomatique*, 1921, pp. 27-28.
76. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, I, p. 256.
77. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, pp. 47 *sq.*
78. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, III, pp. 22-23.
79. Georg FRIEDERICI, *El Carácter del descubrimiento y de la conquista de América*, éd. espagnole, 1973, p. 12.
80. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, VI, p. 335.
81. J. HEERS, « Les grandes voies maritimes... », art. cit., pp. 16-17; W. L. SCHURZ, *The Manila Galleon*, 1959.
82. Jean-François BERGIER, *Les Foires de Genève et l'économie internationale de la Renaissance*, 1963, pp. 218 *sq.*
83. M. POSTAN, *in : The Cambridge Economic History of Europe*, II, pp. 140 et 147.
84. Otto STOLZ, « Zur Entwicklungsgeschichte des Zollwesens innerhalb des alten Deutschen Reichs », *in : Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte*, 1954, p. 18 et note.
85. Gerónimo de UZTÁRIZ, *Théorie et pratique du commerce et de la marine*, 1753. p. 255.
86. M. POSTAN, *in : The Cambridge Economic History of Europe*, II, pp. 149-150.
87. P. du HALDE, *op. cit.*, II, pp 158-159.
88. P. de MAGAILLANS, *op. cit.*, pp. 158-159, 162, 164.
89. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 319.
90. G. MACARTNEY, *op. cit.*, IV, p. 17; III, p. 368.
91. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, III, p. 29.
92. Jacques HEERS, *Gênes au XVe siècle*, 1961, pp. 274 *sq.*; *Médit.*, I, p. 527.
93. *Ibid.*, p. 277.
94. Rapport de la prise par Sir John BURROUGH, R. HAKLUYT, *The Principal Navigations...*, éd. 1927, V, pp. 66 *sq.*; Alfred de STERNBECK, *Histoire des flibustiers*, 1931, pp. 158 *sq.*
95. *Médit...*, I, pp. 254, 260.
96. H. CAVAILLES, *La Route française, son histoire, sa fonction*, 1946, pp. 86-94.
97. Henri SÉE, *Histoire économique de la France*, I, 1939, p. 294.
98. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, V, p. 331.
99. MACAULAY, cité par J. M. KULISCHER, *Storia economica...*, *op. cit.*, II, p. 552; Sir Walter BESANT, *London in the time of the Stuarts*, 1903, pp. 338-344.
100. Arthur YOUNG, *Voyage en France*, 1793, I, p. 82.
101. A. SMITH, *op. cit.*, II, p. 382.
102. L. DERMIGNY, *La Chine et l'Occident. Le commerce à Canton au XVIIIe siècle, 1719-1833*, *op. cit.*, III, pp. 1131 *sq.*
103. Voir *infra*, II, pp. 306 *sq.*
104. H. BECHTEL, *Wirtschaftsgeschichte Deutschlands*, *op. cit.*, I, p. 328.
105. Armando SAPORI, *Una Compagnia di Calimala ai primi del Trecento*, 1932, p. 99.
106. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 164.
107. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, II, p. 534.
108. J.-B. SAY, *Cours complet d'économie politique pratique*, éd. 1966, II, p. 497, note 2.
109. *Der moderne Kapitalismus*, *op. cit.*, II, pp. 231-420.
110. Voir *infra*, II, pp. 306 *sq.*
111. Voir *infra*, *ibid.*
112. Marcel ROUFF, *Les Mines de charbon en France au XVIIIe siècle (1744-1791)*, 1922, pp. 368 *sq.*
113. *Voyage du Chevalier Chardin...*, *op. cit.*, IV, pp. 24 et 167-169.
114. Thierry GAUDIN, *L'Écoute des silences*, 1978.
115. *Storia della tecnologia*, p.p. C. SINGER, *op. cit.*, III, p. 121.
116. A.d.S. Venise, Senato terra.
117. Marc BLOCH, *Mélanges historiques*, 1963, II, p. 836.
118. Arch. Simancas, E° Flandes, 559.
119. A. WOLF, *A History of Science, technology and philosophy in the 16th and 17th centuries*, pp. 332 *sq.*
120. D. SCHWENTER, *Deliciae physico-mathematical oder mathematische und philosophische Ezquick stunden*, 1636.
121. A.N., A.E., B^{III}, 423, La Haye, 7 sept. 1754.
122. Gerhard MENSCH, *Das technologische Patt*, 1977.

Notes du chapitre 7

1. N. du FAIL, *Propos rustiques et facétieux*, *op. cit.*, pp. 32, 33, 34.
2. Marquise de SÉVIGNÉ, *op. cit.*, VII, p. 386.
3. A.N., H 2933, f° 3.
4. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, I, pp. 6, 10 *sq.* et *passim*.
5. Date de la découverte de la circulation sanguine, par Harvey : 1628.
6. William PETTY, «Verbum Sapienti» (1691), *in: Les Œuvres économiques*, I, 1905, p. 132.
7. L. F. de TOLLENARE, *Essai sur les entraves que le commerce éprouve en Europe*, 1820, pp. 193 et 210.
8. Je songe à *Some Considerations on the Consequences of the Lowering of Interest and Raising the Value of Money*, 1691, Cf. Eli HECKSCHER, *La Época mercantilista*, 1943, pp. 648 *sq.*
9. Jacob van KLAVEREN, « Rue de Quincampoix und Exchange Alley, die Spekulationsjahre 1719 und 1720 in Frankreich und England », *in : Vierteljahrschrift für Sozial-und Wirtschaftsgeschichte*, oct. 1963, pp. 329-359.
10. Princesse PALATINE, *Lettres... de 1672 à 1722*, 1964, p. 419, lettre du 11 juin 1720.
11. Voir *infra*, II, pp. 355 *sq.*
12. Scipion de GRAMMONT, *Le Denier royal*, 1620, p. 20. Plusieurs auteurs parlent de cette monnaie de sel, en forme de petites briques, disent-ils généralement, de dimensions différentes selon les lieux.
13. J.-B. LABAT, *op. cit.*, III, p. 235.
14. *Ibid.*, p. 307.
15. *Monumenta missionaria africana, Africa ocidental*, VI, *1611-1621*, p.p. Antonio BRASIO, 1955, p. 405.
16. LI CHIA-JUI, article en chinois signalé (n° 54) par la *Revue bibliographique de sinologie*, 1955.
17. Article de la presse italienne.
18. Paul EINZIG *Primitive money in its ethnological, historical and economical aspects*, 1948, pp. 271-272.
19. *Ibid.*, pp. 47 *sq.*; E. INGERSOLL, « Wampum and its history », *in : American Naturalist*, 1883.

20. W. G. L. RANDLES, *L'Ancien Royaume du Congo des Origines à la fin du XIXe siècle*, 1968, pp. 71-72.
21. G. BALANDIER, *La Vie quotidienne au royaume de Kongo..., op. cit.*, p. 124.
22. Vitorino MAGALHÃES-GODINHO, *L'Économie de l'Empire portugais au XVe et XVIe siècles*, 1969, pp. 390 *sq.*
23. G. BALANDIER, *op. cit.*, pp. 122-124.
24. Adam SMITH, *Recherches sur la nature et les causes de la richesse des nations*, éd. 1966, I, p. 29.
25. Pierre VILAR, *Or et monnaie dans l'histoire*, 1974, p. 321.
26. ISAAC CHIVA, rapport dactylographié sur la Corse; et Germaine TILLION, « Dans l'Aurès : le drame des civilisations archaïques », *in : Annales E.S.C.*, 1957, pp. 393-402.
27. François LA BOULLAYE, *Les Voyages et observations du Sieur de la Boullaye...*, 1653, pp. 73-74.
28. C. L. LESUR, *Des progrès de la puissance russe*, 1812, p. 96, note 4.
29. W. LEXIS, « Beiträge zur Statistik der Edelmetalle », *in : Jahrbücher für Nationalökonomie und Statistik*, 1879, p. 365.
30. Ruggiero ROMANO, « Une économie coloniale : le Chili au XVIIIe siècle », *in : Annales E.S.C.*, 1960, pp. 259-285.
31. Manuel ROMERO DE TERRERO, *Los Tlacos coloniales. Ensayo numismático*, 1935, pp. 4 et 5.
32. *Ibid.*, pp. 13-17. Il n'y aura pas de monnaie de cuivre au Mexique avant 1814.
33. Référence égarée.
34. E. CLAVIÈRE et J.-P. BRISSOT, *De la France et des États-Unis*, 1787, p. 24 et note 1.
35. Alfons DOPSCH, *Naturalwirtschaft und Geldwirtschaft in der Weltgeschichte*, 1930.
36. Ainsi en Corse : *Médit...*, I, p. 351, note 2.
37. Museo Correr, Dona delle Rose, 181, f° 62.
38. M. TAKIZAWA, *The Penetration of Money economy in Japan..., op. cit.*, pp. 33 *sq.*
39. *Ibid.*, pp. 38-39.
40. Andrea METRA, *Il Mentore perfetto de'negozianti, op. cit.*, III, p. 125.
41. Venise MARCIANA, *Scritture... oro et argento*, VII-MCCXVIII, 1671; Ugo TUCCI, « Les émissions monétaires de Venise et les mouvements internationaux de l'or », *in : Revue historique*, 1978.
42. A.N., A.E., B III, 265 (1686), Mémoires généraux.
43. V. MAGALHÃES-GODINHO, *L'Économie de l'Empire portugais au XVe et XVIe siècles, op. cit.*, pp. 512-531.
44. *Ibid.*, pp. 353-358.
45. *Ibid.*, pp. 358 *sq.*
46. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, III, p. 278.
47. *Ibid.*, III, p. 2.
48. *Ibid.*, III, p. 226.
49. V. MAGALHÃES-GODINHO, *op. cit.*, pp. 357, 444 *sq.*
50. *Ibid.*, pp. 323, 407 *sq.*
51. *Ibid.*, pp. 356-358.
52. F. BALDUCCI PEGOLOTTI, *Pratica della mercatura*, 1766, pp. 3-4.
53. Pour les paragraphes qui précèdent, voir V. MAGALHÃES-GODINHO, *op. cit.*, pp. 399-400.
54. P. de MAGAILLANS, *Nouvelle Relation de la Chine, op. cit.*, p. 169.
55. V. MAGALHÃES-GODINHO, *op. cit.*, p. 518.
56. Maestre MANRIQUE, *Itinerario de las Misiones que hizo el Padre F. Sebastián Manrique*, 1649, p. 285.
57. B.N., Ms. fr. n. a. 7503, f° 46.
58. P. de LAS CORTES, doc. cit., f° 85 et 85 v°.
59. Document cité, note 57.
60. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, IV, p. 43.
61. « Mémoire sur l'intérêt de l'argent en Chine », *in : Mémoires concernant l'histoire, les sciences, etc.* », par les Missionnaires de Pékin, IV, 1779, pp. 309-311.
62. L. DERMIGNY, *La Chine et l'Occident. Le commerce à Canton..., op. cit.*, I, pp. 431-433.
63. Abbé F. GALIANI, *Della Moneta*, 1750, p. 214.
64. G. de UZTÁRIZ, *op. cit.*, p. 171.
65. G. F. GEMELLI CARERI, *op. cit.*, VI, pp. 353-354 (éd. 1719).
66. Voir *infra*, III, chap. IV, p. 309.
67. Sur le *Kipper-und Wipperzeit*, F. LÜTGE, *Deutsche Sozial- und Wirtschaftsgeschichte, op. cit.*, pp. 289 *sq.*
68. Earl J. HAMILTON, « American Treasure and Andalusian Prices, 1503-1660 », *in : Journal of Economic and Business History*, I, 1928, pp. 17 et 35.
69. Raphaël du MANS, *Estat de la Perse en 1660*, p.p. Ch. SCHEFER, *op. cit.*, p. 193.
70. Karl MARX, *Le Capital*, Éd. sociales, 1950, I, p. 106, note 2.
71. Frank SPOONER, *L'Économie mondiale et les frappes monétaires en France, 1493-1680*, 1956, p. 254.
72. *Ibid.*, p. 21.
73. Josef KULISCHER, *Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelalters und der Neuzeit*, 1965, II, p. 330.
74. P. de SAINT-JACOB, *op. cit.*, p. 306.
75. Antonio della ROVERE, *La Crisi monetaria siciliana (1531-1802)*, p.p. Carmelo TRASSELLI, 1964, pp. 30 *sq.*
76. E. J. F. BARBIER, *op. cit.*, I, p. 185.
77. Voir *infra*, II, chap. II, pp. 188 *sq.*
78. Pour les détails de ce paragraphe, voir *infra*, III, p. 398.
79. « Maximes générales », *in : François Quesnay et la physiocratie*, éd. I.N.E.D., *op. cit.*, II, p. 954 et note 7.
80. Werner SOMBART, *Le Bourgeois*, 1926, pp. 38-39.
81. F. GALIANI, *Della Moneta, op. cit.*, p. 56.
82. L.-S. MERCIER, *Tableau de Paris, op. cit.*, I, p. 46.
83. W. LEXIS, « Beiträge zur Statistik der Edelmetalle », art. cité.
84. *Ibid.*
85. Geminiano MONTANARI, *La Zecca*, 1683, *in : Economisti del Cinque e Seicento*, p.p. A. GRAZIANI, 1913, p. 264.
86. I. de PINTO, *Traité de la circulation et du crédit, op. cit.*, p. 14.
87. B.N., Ms. fr., 5581, f° 83; cf. aussi *Il Mentore perfetto de'negozianti, op. cit.*, V, article « Surate », p. 309.
88. F. SPOONER, *op. cit.*, pp. 170 *sq.*
89. Josef KULISCHER, *Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelalters und der Neuzeit*, 1965, II, pp. 344-345.
90. *Ibid.*
91. Luigi EINAUDI, préface à l'édition des *Paradoxes inédits du seigneur de Malestroit*, 1937, p. 23.
92. E. PASQUIER, *Les Recherches de la France, op. cit.*, p. 719.
93. F. BRAUDEL et F. SPOONER « Prices in Europe

from 1450 to 1750 », *in : Cambridge economic history of Europe*, IV, pp. 445; les chiffres de l'or et de l'argent américains sont évidemment ceux de Earl J. Hamilton.
94. I. de Pinto, *Traité de la circulation...*, *op. cit.*, p. 33.
95. J. A. Schumpeter, *Storia dell'analisi economica*, 1959, I, p. 386.
96. F. Galiani, *Della Moneta*, *op. cit.*, p. 278.
97. I. de Pinto, *Traité de la circulation...*, *op. cit.*, p. 34.
98. *Ibid.*, p. 34, note.
99. A.N., F^{12}, 2175, III. Documents de 1810 et 1811 sur le non-remboursement des dettes contractées lors du siège.
100. F. W. von Schrötter, *Fürstliche Schatz und Rent-Cammer*, 1686, cité par Eli Heckscher, *op. cit.*, pp. 652-653.
101. P. de Saint-Jacob, *op. cit.*, p. 212.
102. Voir *infra*, II, chap. II, pp. 119 *sq.*
103. M. de Malestroit, « Mémoires sur le faict des monnoyes... », *in : Paradoxes inédits du seigneur de Malestroit*, p.p. Luigi Einaudi, 1937, p. 105.
104. D. Hume, « Essai sur la balance du commerce », *in : Mélanges d'économie politique*, *op. cit.*, p. 93.
105. L. S. Mercier, *op. cit.*, IX, pp. 319-320.
106. S. D. Gotein, « The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim civilization », *in : Studia islamica*, III, pp. 75-91.
107. H. Laurent, *La Loi de Gresham au Moyen Age*, 1932, pp. 104-105.
108. John Law, « Premier mémoire sur les banques », *in : Œuvres... contenant les principes sur le Numéraire, le Commerce, le Crédit et les Banques*, 1790, p. 197.
109. B. Schnapper, *Les Rentes au XVIe siècle. Histoire d'un instrument de crédit*, 1957, p. 163.
110. Voir *infra*, II, chap. V, p. 466 *sq.*
111. *Médit...*, I, p. 527.
112. *Ibid.*, p. 528.
113. Référence non retrouvée.
114. J. A. Schumpeter, éd. italienne, *op. cit.*, I, p. 392.
115. *Ibid.*, p. 392.
116. *Recherches sur le commerce*, 1778, p. VI.
117. S. de Gramont, *Le Denier royal*, 1620, p. 9.

Notes du chapitre 8

1. « L'idéologie allemande » (1846), *in :* Karl Marx, *Pre-capitalist Economic Formations*, p.p. Eric Hobsbawm, 1964, p. 127.
2. Dans la première édition de cet ouvrage, p. 370.
3. *In : Towns and societies*, p.p. Philip Abrams and E. A. Wrigley, 1978, pp. 9, 17, 24-25.
4. *Voyages d'Ibn Battûta*, p.p. Vincent Monteil, 1969, I, pp. 67-69.
5. R. Baron, « La bourgeoisie de Varzy au XVIIe siècle », *in : Annales de Bourgogne*, art. cit.,pp. 161-208, notamment pp. 163-181, 208.
6. P. Deane, W. A. Cole, *British Economic Growth*, 1964, pp. 7-8.
7. R. Gascon, *in : Histoire économique et sociale de la France*, p.p. Braudel et Labrousse, I^1, p. 403.
8. H. Bechtel, *Wirtschaftsstil des deutsches Spätmittelalters. 1350-1500*, 1930, pp. 34 *sq.*
9. *Cahiers de doléances des paroisses du bailliage de Troyes pour les états généraux de 1614*, p.p. Yves Durand, 1966, p. 7.
10. O. Spengler, *Le Déclin de l'Occident*, 1948, II, pp. 90 *sq.*
11. J. B. du Halde, *Description géographique, historique, chronologique, politique et physique de l'Empire de la Chine et de la Tartarie chinoise*, 1785, I, p. 3.
12. E. Kämpfer, *op. cit.*, III, p. 72.
13. J. Kulischer, *op. cit.*, éd. italienne, II, pp. 15-16.
14. R. Cantillon, *op. cit.*, p. 26; M. Reinhardt, « La population des villes... », *in : Population*, avril 1954, 9, p. 287.
15. J. Kulischer, *op. cit.;* Pour la Russie, B. T. Urlanis, (en russe, Moscou, 1966) donne le chiffre de 3,6 % (population urbaine de 500 000 h.) — cité par V. I. Pavlov, *Historical premises for India's transition to capitalism*, 1978, p. 68.
16. C. Bridenbaugh, *Cities in the Wilderness*, 1955, pp. 6 et 11; Pour le Japon, Prof. Furushima, cité par T. C. Smith, *The Agrarian origins of modern Japan*, 1959, p. 68.
17. Jan de Vries, *The Dutch rural economy in the golden age, 1500-1700*, 1974, tableau p. 86.
18. M. Clouscard, *L'Être et le code*, 1972, p. 165.
19. Jane Jacobs, *The Economy of cities*, 1970.
20. Cité par J.-B. Say, *Cours d'économie politique*, *op. cit.*, IV, pp. 416-418.
21. F. Lütge, *op. cit.*, p. 349.
22. R. Gascon, *in : Histoire économique et sociale de la France*, p.p. Braudel et Labrousse, ^{1}I, p. 360.
23. D'après W. Abel, référence et discussion *infra*, III, p. 240.
24. Georg Steinhausen, *Geschichte der deutschen Kultur*, 1904, p. 187.
25. *La Civiltà veneziana del Settecento*, p.p. la Fondation Giorgio Cini, 1960, p. 257.
26. Référence non retrouvée.
27. Archivo General de Simancas, *Expedientes de hacienda*, 157.
28. « Saco de Gibraltar » *in : Tres Relaciones históricas*, « Colección de libros raros o curiosos », 1889.
29. *Médit...*, I, p. 245.
30. Jean Pussot, *Journalier ou mémoires*, 1857, p. 16.
31. Ernst Ludwig Carl, *Traité de la richesse des princes et de leurs états*, 1723, II, pp. 193 et 195.
32. A. de Mayerberg, *op. cit.*, pp. 220-221.
33. Voir *infra*, III, pp. 386 *sq.*
34. G. Macartney, *op. cit.*, II, p. 316.
35. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, IX, pp. 167-168; VI, pp. 82-83; V, p. 282.
36. *Médit...*, I, p. 313.
37. C.-E. Perrin, « Le droit de bourgeoisie et l'immigration rurale à Metz au XIIIe siècle », *in : Annuaire de la Société d'histoire et d'archéologie de la Lorraine*, XXX, 1921, p. 569.
38. H. J. Brugmans, *Geschiedenis van Amsterdam*, 8 vol., 1930-1933.
39. Voir *supra*, chap. I, note 39.
40. Cité par Hugues de Montbas, *La Police parisienne sous Louis XVI*, 1949, p. 183.
41. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, III, pp. 226-227, 232, 239.

42. *Ibid.*, p. 239.
43. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, I, p. 370.
44. *Voyage... de Pierre Lescalopier*, *op. cit.*, p. 32.
45. Hans Mauersberg, *Wirtschafts-und Sozialgeschichte Zentraleuropaïscher Städte in neueren Zeit*, 1960, p. 82.
46. *Voyage de M. de Guignes*, *op. cit.*, I, p. 360.
47. J. A. de Mandelslo, *op. cit.*, II, p. 470.
48. P. de Magaillans, *op. cit.*, pp. 17-18.
49. Léopold Torres Balbas, *Algunos Aspectos del mudejarismo urbano medieval*, 1954, p. 17.
50. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, IV, p. 105.
51. P. Lavedan et J. Hugueney, *L'Urbanisme au Moyen Age*, 1974, pp. 84-85. et fig. 279.
52. Charles Higounet, « Les " terre nuove " florentines du xive siècle », *in : Studi in onore di Amintore Fanfani*, III, 1962, pp. 2-17.
53. L.-S. Mercier, *op. cit.*, XI, p. 4.
54. M. T. Jones-Davies, *op. cit.*, I, p. 190.
55. F. Coreal, *Relation des voyages aux Indes occidentales*, *op. cit.*, I, pp. 152 et 155.
56. H. Cordier, « La Compagnie prussienne d'Embden au xviiie siècle », *in : T'oung Pao*, XIX, 1920, p. 241.
57. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, IV, p. 120.
58. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, I, p. 230.
59. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, VI, p. 221; V, p. 67; IX, p. 275.
60. J. Savary, *Dictionnaire...*, *op. cit.*, V, col. 381.
61. Vu Quoc Thuc, *in : Les Villes...*, p.p. Société Jean Bodin, 1954-1957, II, p. 206.
62. Référence non retrouvée.
63. D'après le *Padrón* de 1561, Archivo General de Simancas, *Expedientes de hacienda*, 170.
64. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, VI, pp. 366-367.
65. Rudolf Häpke, *Brügges Entwicklung zum mittelalterlichen Weltmarkt...*, 1908.
66. B. Guenée, *Tribunaux et gens de justice dans le bailliage de Senlis...*, *op. cit.*, p. 48.
67. L. S. Mercier, *op. cit.*, III, 1782, p. 124.
68. Article de presse, référence exacte égarée.
69. P. du Halde, *op. cit.*, I, p. 109.
70. Pour les explications qui suivent, j'ai utilisé le colloque inédit de l'École des Hautes Études, VIe section, *Les Villes*, 1958.
71. R. Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, *op. cit.*, p. 27.
72. Raphaël du Mans, *Estat de la Perse en 1660...*, p.p. Ch. Schefer, 1890, p. 33.
73. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, II, p. 98.
74. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, I, p. 262.
75. W. Abel, *Geschichte der deutschen Landwirtschaft*, 1962, pp. 48 et 49
76. Giovanni Pecle et Giuseppe Felloni, *Le Monete genovesi*, 1975, pp. 27-30.
77. W. Sombart, *Le Bourgeois*, *op. cit.*, p. 129.
78. C. Bec, *Les Marchands écrivains à Florence, 1375-1434*, 1967, p. 319.
79. L. Mumford, *op. cit.*, pp. 328-329.
80. Les deux paragraphes qui suivent s'inspirent de Max Weber.
81. M. Sanudo, *Diarii*, XXVIII, 1890, col. 625.
82. J. Nickolls, *Remarque sur les avantages de la France...*, *op. cit.*, p. 215.
83. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, VIII, p. 163.
84. B. H. Slicher van Bath, *Yield Ratios, 810-1820*, *op. cit.*, p. 16.
85. Voir *infra*, III, pp. 386 *sq.*
86. J. Gernet, *Le Monde chinois*, *op. cit.*, p. 371.
87. Abbé Prévost, *Voyages...*, *op. cit.*, X, p. 104, d'après Bernier.
88. *Ibid.*, p. 103.
89. Rodrigo de Vivero, *Du Japon et du bon gouvernement de l'Espagne et des Indes*, p.p. Juliette Monbeig, 1972, pp. 66-67.
90. Yasaki, *Social Change and the City in Japan*, 1968, pp. 133, 134, 137, 138, 139.
91. R. Sieffert, *La Littérature japonaise*, 1961, pp. 110 *sq.*
92. R. de Vivero, *op. cit.*, pp. 58 et 181.
93. L. Mumford, *La Cité à travers l'histoire*, *op. cit.*, pp. 554-557.
94. P. Lavedan et J. Hugueney, *Histoire de l'Urbanisme*, *op. cit.*, p. 383.
95. W. Sombart, *Luxus und Kapitalismus*, *op. cit.*, pp. 37 *sq.*
96. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, VIII, p. 192.
97. Mirabeau père, *L'Ami des Hommes ou Traité de la population*,, 1756, 2e partie, p. 154.
98. L.-S. Mercier, *Tableau de Paris*, *op. cit.*, I, p. 286.
99. Lavoisier, *De la richesse territoriale du royaume de France*, éd. 1966, pp. 605-606.
100. F. Quesnay, « Questions intéressantes sur la population, l'agricultureet le commerce... », *in : F. Quesnay et la physiocratie*, *op. cit.*, II, p. 664.
101. A. Metra, *Il Mentore perfetto...*, *op. cit.*, V, pp. 1 et 2.
102. W. Sombart, *Luxus und Kapitalismus*, *op. cit.*, p. 30.
103. Prince de Strongoli, *Ragionamenti economici, politici e militari*, 1783, I, p. 51, cité par L. dal Pane, *in : Storia del lavoro in Italia*, *op. cit.*, pp. 192-193.
104. *Ibid.*
105. René Bouvier et André Laffargue, *La Vie napolitaine au XVIIIe siècle*, 1956, pp. 84-85.
106. *Ibid.*, p. 273.
107. C. de Brosses, *Lettres historiques et critiques sur l'Italie*, an VII, II, p. 145.
108. R. Bouvier et A. Laffargue, *op. cit.*, p. 273.
109. *Ibid.*, p. 237.
110. Johann Gottlieb Georgi, *Versuch einer Beschreibung der... Residenzstadt St. Petersburg*, *op. cit.*, a été utilisé pour l'ensemble des paragraphes qui suivent.
111. *Guide Baedeker Russie*, 1902, p. 88.
112. J. Savary, *Dictionnaire...*, *op. cit.*, V, col. 639.
113. J. Delumeau, *op. cit.*, pp. 501 *sq.*
114. P. de Magaillans, *op. cit.*, p. 12.
115. *Ibid.*, pp. 176-177.
116. G. F. Gemelli Careri, *op. cit.*, IV, pp. 142 et 459.
117. Missionnaires de Pékin, *Mémoires concernant l'histoire, les sciences, les mœurs...*, *op. cit.*, III, 1778, p. 424.
118. Lettre du P. Amiot, Pékin, 20 octobre 1752, *in : Lettres édifiantes et curieuses écrites des missions étrangères*, XXIII, 1811, pp. 133-134.
119. P. de Magaillans, *op. cit.*, pp. 176-177.
120. *Ibid.*, p. 278.
121. J.-B. du Halde, *op. cit.*, I, p. 114.
122. G. de Mendoza, *Histoire du grand royaume de la Chine...*, *op. cit.*, p. 195.
123. Macartney, *op. cit.*, III, p. 145.
124. P. Sonnerat, *op. cit.*, II, p. 13
125. P. de Magaillans, *op. cit.*, pp. 277-278.
126. Abbé Prévost, *op. cit.*, VI, p. 126.
127. P. de Magaillans, *op. cit.*, pp. 278 *sq.*
128. P. de Magaillans, *op. cit.*, pp. 268-271.
129. *Ibid.*, pp. 272-273.

130. *Ibid.*, pp. 150-151.
131. *Ibid.*, pp. 153-154.
132. Pour les pages qui suivent, j'ai utilisé les ouvrages suivants : William BESANT, *London in the Eighteenth Century*, 1902; André PARREAUX, *La Vie quotidienne en Angleterre au temps de George III;* Léonce PEILLARD, *La Vie quotidienne à Londres au temps de Nelson et de Wellington, 1774-1852*, 1968; LEMONNIER, *La Vie quotidienne en Angleterre sous Elizabeth;* T. F. REDDAWAY, *The Rebuilding of London after the Great Fire*, 1940; *The Ambulator or the strargew's Companion in a tour of London*, 1782; Georges RUDE, *Hanoverian London*, 1971; M. DOROTHY GEORGE, *London Life in the Eighteenth Century*, 1964.
133. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, I, p. 193.
134. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, I, p. 149.
135. John STOW, *A Survey of London* (1603 1720, II, p. 34.
136. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, I, p. 177.
137. P. COLQUHOUN, *op. cit.*, I, pp. 293-327.
138. M. T. JONES-DAVIES, *op. cit.*, I, p. 166.
139. W. PETTY, *Traité des taxes et contribution: in : Les Œuvres économiques de Sir Williar Petty*, 1905, I, pp. 39-40.
140. P. COLQUHOUN, *op. cit.*, I, pp. 166-168 250-251.
141. L. MUMFORD, *La Cité à travers l'histoire, op cit.*, pp. 375 *sq.*
142. P. COLQUHOUN, *op. cit.*, II, pp. 301-302.
143. Jean-Jacques ROUSSEAU, « Émile », *in Œuvres complètes*, IV, éd. Pléiade, 1969 p. 851.
144. S. MERCIER, *L'An deux mille quatre cen quarante, op. cit.*

Note de la conclusion

1. G. MACARTNEY, *op. cit.*, III, p. 159.

محتويات الكتاب

صفحة

- مقدمة المترجم ٥
- تمهيد ٩
- استهلال ....
- الباب الأول : ١٥

أهمية العدد ٢١

سكان العالم : أرقام من الخيال ٢٣

المد والانحسار - قليل من الأرقام - كيف نحسب - الصين تساوي أوروبا - العدد الإجمالي لسكان العالم - أرقام تثير الجدل - القرون بعضها بالقياس الى البعض - قصور التفسيرات القديمة إيقاعات المناخ.

على سبيل المقارنة ٥٠

مدن .. جيوش .. أساطيل - في فرنسا تضخم سكاني مبكر قبل الأوان الكثافة السكانية ومستويات الحضارة - وخريطة جوردون هوز توحي بأمور أخرى - كتاب البشر والحيوانات الوحشية

عهد بيولوجي قديم ينتهي إبان القرن الثامن عشر ٧٧

التوازن يمكن دائما لنفسه - المجاعات الأوبئة الطاعون - تاريخ دوري للأمراض - من عام ١٤٠٠ الى عام ١٨٠٠ : عهد بيولوجي قديم طويل الأمد.

الكثرة ضد الضعاف ١٠٧

ضد البرابرة - تلاشي كبار البدو الرحل قبل القرن السابع عشر - غزو الأماكن عندما تقاوم الثقافات - حضارات ضد حضارات.

- **الباب الثاني :** ....

لقمة العيش. ١٢١

القمح ١٢٦

القمح والحبوب الثانوية - والدورات الزراعية - ضعف المحاصيل وإمكانات التعويض والكوارث - زيادة العائد وزيادة أراضي القمح - التجارة المحلية والتجارة الدولية للقمح - القمح والسعرات الحرارية - ثمن القمح ومستوى المعيشة خبز

الأغنياء .. خبز وعصائد الفقراء - هل يشتري الإنسان خبزه أم يصنعه؟. لأن القمح هو الملك.

الأرز ١٨٠

أرز الحقول الجافة وأرز المزارع - معجزة مزارع الأرز - مسئوليات الأرز.

الذرة ١٩٩

مصادر واضحة - الذرة والحضارات الأمريكية.

الثورات الغذائية في القرن الثامن عشر ٢٠٧

الذرة خارج أمريكا - البطاطس أكثر أهمية - صعوبة إساغة خبز الآخرين.

وماذا عن بقية العالم ؟ ٢١٩

الفلاحة بالمعزقة - والبدائيون؟

- الباب الثالث : ....

الأشياء الكمالية والأشياء العادية .. الطعام والشراب ٢٣٣

المائدة : طعام الترف وقوت السواد ٢٣٩

ترف تأخر - أوروبا وأهلها آكلة اللحوم - تناقص نصيب الفرد من اللحم ابتداء من عام ١٥٥٠ - وتبقى أوروبا محظوظة - الإسراف في الطعام أو جنون المائدة - المائدة ونظامها - أداب السلوك تسير بخطى بطيئة - إلى مائدة السيد المسيح - الأطعمة اليومية : الملح - الأطعمة اليومية: منتجات الألبان والدهنيات والبيض - الأطعمة اليومية : فواكه البحر - صيد البكلاه - الفلفل الأسود تنحسر موجة انتشاره بعد عام ١٦٥٠ - السكر يغزو العالم .

المشروبات والمنبهات ٣٠٠

الماء - النبيذ - البيرة - خمر التفاح - المشروبات الروحية المقطرة تحقق نجاحا متأخرا في أوروبا - الكحولية خارج أوروبا - الكاكاو والشاي والقهوة - المنبهات : أمجاد التبغ

- الباب الرابع : ٣٥٧

الأشياء الكمالية والأشياء العادية..المسكن والملبس والموضة.

البيوت في العالم كله ٣٥٨

مواد البناء الغنية : الحجر والطوب - مواد البناء الأخرى : الخشب ، الطين ، القماش - البيت الريفي في أوروبا - البيوت والمساكن الحضرية - الريف يصطبغ بصبغة الحضر.

البيوت من الداخل ٣٨٢
الفقراء بلا أثاث ـ الحضارات التقليدية لاتغير الشكل الداخلي لبيوتها ـ نمطان من الأثاث في الصين ـ في أفريقيا السوداء ـ الغرب وموبيلياته المتعددة ـ الباركيه .. الحائط ..السقف .. الباب .. الشباك ـ المدفأة ـ أفران ودفايات ـ من تفانين صناع الموبيليا إلى غرائب مطالب الزبائن ـ الانطباع العام للأثاث في مجموعه هو الأساس ـ الترف والراحة.
الأزياء والموضة. ٤٢٢
لو لم يتحرك المجتمع ... ـ إذا لم يكن في الدنيا سوى فقراء ... ـ أوروبا وجنون الموضة الموضة ، هل هي طيش وعبث.

ـ الباب الخامس : ....
انتشار التقنيات .. مصادر الطاقة والتعدين ٤٥٥
المشكلة الأساسية : مصادر الطاقة. ٤٥٨
المحرك البشري ـ قوة الحيوان ـ محركات مائية ، محركات هوائية ـ الشراع في الأساطيل الأوروبية الخشب مصدر يومي للطاقة ـ الفحم الحجري وختاما .
الحديد : ابن فقير من أبناء العائلة ٥٠٩
في البداية : صناعات تعدين مبتذلة في العالم كله ، الا في الصين ـ التقدم بين القرن الحادي عشر والخامس عشر ، في منطقة الشتايرمارك ومنطقة الدوفينيه ـ عمليات التمركز الأولية ـ بعض الأرقام ـ المعادن الأخرى ـ

ـ الباب السادس : ....
التقنيات بين تخلف وثورة. ٥٢٥
ثلاثة ابتكارات تقنية كبيرة. ٥٢٦
البارود ومن أين أتى ـ المدفعية تصبح متحركة ـ المدفع على متن السفن - إنتاج الأسلحة والميزانية ـ المدفعية على مستوى العالم ـ من الورق إلى المطبعة ـ اكتشاف الحروف المتحركة ـ الطباعة وتاريخ العالم ـ من مآثر الغرب : الملاحة في أعالي البحار ـ الملاحة في العالم القديم ـ طرق الملاحة العالمية ـ المحيط الأطلسي ومشكلته اليسيرة.
بطء المواصلات ٥٦٨
حديد المسارات ـ الطرق ، ما لها ، وما عليها ـ الملاحة النهرية ـ وسائل المواصلات ، جامدة ، متخلفة ، عتيقة ـ وسائل المواصلات في أوروبا ـ سرعة بطيئة ، وتجارة بطيئة ـ النقل وأرباب النقل ـ النقل يعرقل الاقتصاد .

التقنيات وتاريخها المتثاقل. ٥٩١
التقنية والزراعة ـ التقنية الخالصة.
ـ الباب السابع : ....
النقود ٦٠١
نظم اقتصادية ونقود بعيدة عن الكمال. ٦٠٩
النقود البدائية ـ المقايضة في قلب النظم الاقتصادية النقدية
خارج نطاق أوروب. ٦١٨
نظم اقتصادية ونقود في دور الطفولة ـ اليابان والدولة العثمانية ـ الهند ـ الصين.
بعض قواعد الألعاب النقدية. ٦٣١
تناحر المعادن النفيسة ـ هروب وتوفير واكتناز ـ العملات الحسابية ـ الأرصدة المعدنية وسرعة دوران النقد ـ خارج نطاق اقتصاد السوق.
نقود ورقية ، ووسائل ائتمانية. ٦٥١
وما هي الا حيل قديمة ـ نقود وائتمان ـ السير على درب شومبيتر : كل شيء نقود ، كل شي ائتمان ـ النقود والائتمان لغة ـ
ـ الباب الثامن : ....
المدن ٦٦٣
ـ المدينة في حد ذاتها ـ من الحد الأدنى للمدينة ، الى الوزن الكلي للمنظومة الحضرية ـ تقسيم العمل يحتاج دائما إلى المراجعة ـ المدينة والقادمون الجدد ، أغلبهم من البؤساء ـ خصوصية المدن ـ في الغرب : مدن ، ومدفعية ، وعربات ـ جغرافية المدن ، وترابطاتها ـ المدن ودرجاتها ـ المدن والحضارات: مثال الحضارة الإسلامية.
أصالة مدن الغرب ٧٠٥
عوالم حرة ـ حداثة المدن ـ الأنماط الأساسية للمدن الغربية.
المدن الكبيرة ٧٢٨
المسئولية مسئولية الدول – ما فائدة المدن ؟ ـ عوالم غير متوازنة ـ في نابلي ، من القصر الملكي الى السوق أو المركاتو ـ سان بطرسبرج في عام ١٧٩٠ ـ الرحلة قبل الأخيرة : بكين ـ لندن من عصر اليزابث الى عصر جورج الثالث ـ تعمير المدن إعلان عن إنسان جديد ـ
وختاما ٧٧٣
مراجع وملاحظات ٧٨١
محتويات الكتاب ٨٠٥

لوحة الغلاف : حصاد الأرز فى جزيرة بالى
للفنان الأندونيسى م. رونيا

رقم الإيداع : ٩٢/٧٤٧٣

ترقيم دولى : I.S.B.N: 977-5091-14-4

إعداد فنى – سعد الدين عطية

International Press
انترناشونال برس
• شارع جمال الشاعر – مدينة الصحفيين ت ٣٤٧١٢٥٩

الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية

فى هذا الكتاب، الجزء الأول من ثلاثة أجزاء، والذى يعد فى حد ذاته مدرسة فذة فى التاريخ، يطالعنا فرنان بروديل، المؤلف، بمنهج فريد ومتميز:

فالتاريخ هنا ليس تاريخ الملوك والقادة والسادة، وليس هو فقط تاريخ الكادحين والفقراء، ولكنه فى المحل الأول نظرة تكاملية تحيط بفئات المجتمع المختلفة، وحياتهم اليومية، ومشاغلهم، الكبير منها والصغير. وبهذا المعنى فإن التاريخ لدي بروديل هو تاريخ بشر قبل أن يكون تاريخ دول.

ولإنجاز مثل هذا التاريخ، استعان بروديل بالجغرافيا والاقتصاد، والأنتروبولوچى والإتنولوچى، وتاريخ الفنون والتقنية والطب وغيرها. وهكذا قدم لنا بروديل لوحات نابضة بالحياة من كل ركن من أركان العالم.

" الناشر "

Bibliotheca Alexandrina
0222550

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع